

مؤقتة
تفسير سورة يوسف
على السلاسل

وفيه
بيان طبائع اليهوديين
وأنهم ساءوا مودته في الأرض، وكشف حال اليهود وجمرة أحوالهم في فلسطين
يا أيها الفلسطينيون ! وبأيتها المذمومة والمثيرة ! اقرروا طغيانكم المظلمة
على سورة يوسف ، ثم فها ما أنطوى عليه السجوديون بآلاءه من أسرار

بسم
عبد الله العباسي
(الفكر في الديمقراطية)
أستاذة دكتور عبد القادر والسجوديين المذمومين في آلاءه من أسرار

دار الفكر

مؤتمر

تفسير سورة يوسف

عليه السلام

وفيه

بيان طبائع الصهيونيين

وأن طبائع الآباء موروثه في الأبناء، وكشف حال اليهود وعبرة أهالي فلسطين

يأهالي فلسطين ! وبأيها العرب والمسلمون ! اقرأوا هذه المحاضرات
على سورة يوسف، تعرفوا ما أنطوى عليه الصهيونيون وما ورثوه من أصولهم

بقلم كاتب المؤتمر

الأستاذ العلامة

الشيخ عبد الله العلمي الغزني الدمشقي

أستاذ دروس التفسير في الجامع الأموي بدمشق سابقاً

تفهد الله برحمته ورضوانه

١٢٧٩ هـ (١٨٦٢ م) - ١٣٥٥ هـ (١٩٣٦ م)

قدم له فضيلة الأستاذ العلامة

محمد حجة البطار الدمشقي

عضو مجمع اللغة العربية بدمشق

حقوق الطبع والنقل والترجمة

محفوظ بها لورثة المؤلف

الطبعة الأولى : مطابع دار الفكر بدمشق

١٣٨١هـ - ١٩٦١م

مؤتمر
مسيره لا يوسف
عليه السلام

الجزء الأول

مطابع دار الفايكر بدمشق

اهراء الكتاب

إلى ملوك الاسلام ورؤسائه وأمرائه وعلمائه
الأحياء منهم والذين عند ربهم يرزقون

« المؤلف »

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة سماحة المفتي العام للاقليم السوري

الدكتور محمد أبو اليسر عابدين

الحمد لله الذي نور قلوب المؤمنين بنور اليقين والإيمان ، وشرفهم بكتابه العزيز فيه هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان . والصلاة والسلام على من أرسله الله رحمة للعالمين أشرف إنسان . وعلى آله وصحبه ما تعاقب الموان .

أما بعد فلما كان أفضل ما يشتغل به المؤمن من العلوم علم الدين والقرآن ، وكان ممن غني بتفسير سورة يوسف على شكل عجيب من البيان . الأستاذ العلامة التحرير الشيخ عبد الله العلمي الشهير . وقد التمس مني أن أدقق بهذا التفسير ، فوجدته حوى من الفوائد ما فتح كل عسير . وهو حري بالنشر ليفوح منه طيب العبير . فأسأل الله تعالى أن يجزيه الثواب العظيم يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم . ولنا وله ولكل المسلمين آمين .

دمشق في ٩/١/١٣٨١ و ٢٢/٦/١٩٦١

المفتي العام للاقليم السوري

الدكتور محمد أبو اليسر عابدين

هذا التفسير

بقلم ابن المؤلف الدكتور عبد الحليم العلي

لقد شغل والدي - نعمة الله برحمته - بكتاب ربه منذ نشأته العلمية والدينية وخاصة بعد تخرجه في الأزهر الشريف في عام ١٣٠٢ هـ ، فصرف كل وقته وجهده في الدرس والتحصيل عن مكنونات القرآن الكريم ، والبحث والتنقيب عن دقائقه ، ولما اختمرت آراؤه ونضجت أفكاره ، شرع في عام ١٣٤٤ هـ (١٩٢٥ م) في تدوين تفسير آيات القرآن التي له فيها رأي وفهم خاصين ، فجاء فيما يقارب ال ٤٠٠٠ صفحة مخطوطة من القطع المتوسط . ولما أتى على سورة يوسف عليه السلام ، رأى أن يضع لها تفسيراً جامعاً كاملاً من ألفها إلى يائها ، لما جاء في قصة يوسف من تصوير لشتى العواطف والنوازع الإنسانية ، فأحلام الشباب ، ونظام الأسرة ، وعلاقة الأخ بإخوته ، وطبيعة المرأة ، وأخلاق الملوك والأمراء والحكام ، وسمو الأنبياء ، كل ذلك مصور فيها تصويراً فذاً رائعاً محكماً ، كما أن فيها دروساً نفسية تعالج كثيراً مما نعاينه اليوم في حياتنا الخلقية والاجتماعية من المشاكل ومن السيئات ، كما أن بطلي القصة ، الملك ويوسف يمثلان نوعين من الحضارة والثقافة أحدهما يمثل الثقافة والحضارة الفرعونية وثانيها يمثل الثقافة والحضارة العبرية .

والأقاصيص الأخرى ، كقصص موسى وفرعون ، وموسى وهرون ، وهود وعاد ، وصالح وثمود ، وإبراهيم والكلدانين والفلسطينيين و ... الخ ، لم تجمع من الميزات والعجائب ، مثلما جمعتها قصة يوسف (ع) ، ولم تتضمن قصة من

القصص ، من المبكى والمنكى ، والمدهشات والمنعشات ، والتطورات والانقلابات ، ونصب الأحاييل ، والحب والعفة ، والاسترقاق والملك ، والذل والعز ، والتلاقي والفرق ، والرحلات والانتصارات ، واللذة والمرة ، والمقدمات والنتائج ، والصبر والفرج ، والحكم والعبر ، والفوائد النافعة في الدين والدنيا ، كسير الملوك والممالك ، وحسن السياسة وتبدير الملك وإقامة العدل ، ونظام الدولة ، ومكر النساء وتمثيل طبائهن ، والاصطبار على الأذى ، والعفو عن المجرمين ، لم تتضمن هذه الأمور قصة كمثل ما تضمنته قصة يوسف (ع) .

(وعدا ذلك فالقصة تعطينا صورة طبق الأصل لدرس حياة الشعب الاسرائيلي وما فيه من قسوة عند اللزوم ، ورقة حين الاقتضاء ، وحب واساءة واحسان ، وتعلمنا أن النتيجة أو الغاية عند اليهود تبرر الوسطة مهما كانت منحطة ، وهو شأنهم من القديم ، وحال سلاثلهم الصهيونيين اليوم في فلسطين ، وقد قص الله علينا مفاوضة الاخوة في قتل أخيهم يوسف : (اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَبْحَلُ لَكُمْ وَجْهُ أُيُكُم) « يوسف ٩ » ، ليوقفنا على بعض طبائع الاسرائيليين التي منها اجماعهم على شر الشرور لكي نعتبر ونكون دائماً على حذر من سلاثلهم - أبناء المم !! - الصهيونيين الذين كأنما قانون الوراثة قد ظهر فيهم بأجلى أمثلته ، وليعلمنا أن الدم الذي كان يتمشى في عروق هؤلاء الأجداد ، هو الدم الذي يتمشى اليوم في عروق السلاثل اليهودية الصهيونية الذين يريدون قتل أبناء عمومتهم العرب ، الواقفين أمامهم في جبهة فلسطين ، يريدون قتلهم معنوياً بسلب موطنهم وأرضهم ، وتدمير اقتصادياتهم ومرافق حياتهم ، وكل أسباب عيشهم ، كما أنهم يريدون طرح أبناء عمومتهم العرب أرضاً لكي يكونوا أكثرية في فلسطين فيشكلوا دولتهم

الصهيونية الخيالية !! ويكونوا من بعد هذا كله (قوماً صالحين) تصلح لهم أمور دولتهم، ويفرضون على بقايا العرب الذين سيحتلون في بقائهم في فلسطين أن يكونوا محتطي حطب ومستقي ماء لكل جماعة). (١)

وأما السورة فقد جعلها الله تعالى سبباً من الأسباب التي يظهر فيها حكمه ، ووسيلة من الوسائل التي يرشد الناس بها للعبرة والعظة ، والرجل العاقل لا يقرأ هذه السورة لما فيها من التاريخ فحسب ، بل لما حوته من العظات ، وما اشتملت عليه من الحكم ، وما تضمنته من الأمثال وعجيب التدبير الإلهي ، والمسائل الاجتماعية والعبر الربانية ...

وقد أطلق المؤلف - رحمه الله - على هذا التفسير اسم « مؤتمر تفسير سورة يوسف » لأنه ألفه على لسان مؤتمر (٢) مفترض عقده في المسجد الأقصى من بيت المقدس ودُعي إليه عدد كبير من علماء المسلمين والمسلمات الاعلام، من شتى البلاد والأمصار ، ومن مختلف الأجناس والألوان والهيئات والاختصاصات ، للاشتراك في تفسير هذه السورة الكريمة . وافترض لأعضاء المؤتمر أسماء رمزية منسوبة إلى بلادهم أو اختصاصاتهم أو غير ذلك ، وجعل المؤلف نفسه مكرتيراً أو رئيساً للمؤتمر بحيث أنه يقرأ هو الآية على الأعضاء ، فيقوم أحدهم ويذكر لها تفسيراً ، وهذا التفسير إما أن يكون مذكوراً في كتب التفسير أو في غيرها فيُعزى عندئذ لصاحبه ، وإما أن يكون غير مذكور أو يكون من مفهوم ورأي الرئيس المؤلف - فيرمز إليه بقوله :

« خذ ما آتيتك » أو « وإليك البيان وهو من مواهب الرحمن » أو « ونحن

(١) من اقوال المؤلف قبل ست وعشرين سنة

(٢) كما كان يقول المؤلف ذلك .

نقول ، أو « فافهم ، فافهموا » ، وإذا اختلف أعضاء المؤتمر في تفسير آية ما ، فصل الرئيس في الموضوع ، إما بمشاطرة قائله ، أو بالتعليق عليه ، أو برده بالحجة والبرهان . هذا ولم يغمط المؤلف حق المرأة في هذا المؤتمر ، بل أشركها فيه لبيان رأيها في الآيات التي تخص بنات جنسها خاصة ، وكلتي الجنسين عامة ، مراعيًا بذلك مكانة المرأة المسلمة العاملة ، ومعيّدًا به ما كان يجري في عهد الرسول ﷺ ، وعهود خلفائه الراشدين رضي الله عنهم .

ولم يقتصر هذا المؤلف على التفسير البحت لسورة يوسف (ع) بل تضمن مباحث تاريخية وأدبية ولفوية وأخلاقية واجتماعية ، وتضمن تحقيقات علمية ودينية وتفسيرية شتى ، وتضمن ردوداً على مفتريات دعاة النصرانية على الدين الاسلامي والقرآن الكريم .

فانظر إلى مقدمة التفسير ، تجده قد ذكر لك نبذة تاريخية عن حياة كل من إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام .

وذكر فيها بعدها تحقيقات شتى عن الناسخ والمنسوخ والمتشابهات في القرآن ، ثم جمع القرآن ، لزوم تعلم المسلمين اللغة العربية ، ترجمة القرآن ، اللغة العربية لغة العلاقات بين الدول الإسلامية ، مقابلة بين آيات قصة يوسف في القرآن وفي التوراة ، قصص التوراة ، الوحي ، ضرر تعدد الزوجات ، حال التاريخ قبل الإسلام وبعده غلط اليهود في تاريخهم ووقوع الزيادة والنقصان في التوراة ، الاسترقاق ، رد على زعم دعاة النصرانية بشأن تحرير الرقيق في الإسلام ، المرأة وفضليات النساء في التاريخ ، عقيدة الإيمان الكاملة بالله ، أركان الإيمان الستة ونصوص عقيدة التوحيد في الانجيل ، التثليث عند شتى الأمم ، فرق النصراني الشهيرة ، وجود المسيح (ع) من غير أب آية على وجود القيامة ، الرد على النصراني في اعتقادهم بالوهية المسيح ، الدين والعلم أخوان ، التوسل ، الدين الاسلامي والسعي في الدنيا ، التصوف في

الإسلام ، التزهيد والبراءة من الدنيا في الشريعة المسيحية ، عقيدة الصلب والفداء ، قدر الله ، من تاب غفر الله له والمغفرة في التلمود والانجيل ، أنواع الادعية في القرآن ، الإسلام دين جميع الرسل ، الأصل في دعوى المسيح وموسى التوحيد المطلق ، الدين الإسلامي قام بالحجة لا بالسيف والقوة ، محمد (ص) مؤسس أمة وإمبراطورية وديانة ، القرآن مصدق لما قبله من أمور التوحيد وأصول الدين وكتب التوحيد والكتب السماوية الأصلية ، شواهد من التوراة الحالية على أن فيها زيادة وأنها كتبت بعد السبي .

وعلى ذلك فالكتاب والحالة هذه ، يعد أهم مرجع للعلماء والمهتدة والخطباء والوعاظ والمدرسين والأدباء والمرشدين ، ويعد خير معلم لطلاب العلم والدين المشتغلين في البحث والدرس لا سيما دروس الدين وأصول التفسير والجدل الديني .

وقد انتهى المؤلف - رحمه الله - من تأليفه هذا قبيل وفاته (عام ١٣٥٥ هـ و ١٩٣٦ م) بقليل ، أي قبل أربع وعشرين سنة ونيّف ، ولم يكن من التيسر لنا نشره آنذاك لأسباب عدة ، ولعل من توفيق الله أن تهباً الفرصة الآن لنشره في هذه الفترة من الزمن ، التي تطورت فيها الروح العربية ، واتجه فيها تفكير المثقفين إلى المباحث الدينية على أسلوب علمي ، كان المؤلف رحمه الله ، يلتزمه في كل مباحثه ودراساته .

وأخيراً ها هو الكتاب الآن بين يديك ، ومنه تتعرف على المؤلف ، إذ ليس من حقي أن أطري هذا الأثر الديني العلمي أكثر من ذلك ، لأنه من آثار أبي ، بل إنني أقدمه للقراء وقد جاء فيه طابع مؤلفه ، وجاءت فيه قوة روحه وإيمانه ، وجاء فيه مبلغ كفاحه في إعلاء شأن كلمات ربه وكفى .

تقديم الكتاب

لفضيلة علامة الشام الأستاذ محمد بهجة البيطار الدمشقي
عضو الجمع العلمي العربي بدمشق

عرفت فقيد الإسلام الكبير العلامة الجليل الأستاذ الشيخ عبد الله العلمي الغزي ثم الدمشقي (رحمه الله تعالى) منذ حل ربوع دمشق في عام ١٣٣٥ هـ (١٩١٨ م) ، فعرفت من علومه ومعارفه ، ومن مزاياه وخصائصه ، ما كان به نسيج وحده . كان رحمه الله شيخ العلم والكرم ، فلم يتفق لي أن زرته مرة خلال هذه المدة الطويلة ، إلا ورأيت علمه وكرمه يتجاريان ، وإن أدري أيها كان يسبق الآخر ، ولكنها كانا فرسي رهان .

لفقيدنا العظيم مؤلفات مخطوطة ومطبوعة ، ولكن أجل ما شرفني بالاطلاع عليه من مخطوطاته هو تفسيره الكبير لسورة يوسف عليه السلام ، فقد قرأت له نحواً من خمسين كراساً في تفسير هذه السورة ، كل واحد منها يبلغ نحو أربعين صفحة بالقطع المتوسط ، وهو لعمرى آية من آيات إبداعه وشغفه بكتاب ربه ، وصرفه كل ما يملك من وقت وعلم في هذه السبيل ، وقد رتبته رحمه الله ترتيباً غريباً خالف فيه أسلوب المفسرين ؛ ذلك بأنه عقد ليوسف وأبيه وأخوته عليهم السلام مؤتمراً في بيت المقدس من أرض فلسطين موطنهم وموطن المؤلف الأول ، ودعا إليه مئات العلماء من أقطار العرب والإسلام .

وطريقته في التفسير أنه يورد الآية ثم يعرضها على أعضاء المؤتمر في الجلسة المنعقدة لتفسيرها ، وبعض ما يورده معروف في كتب التفسير ، ومعزوت إليها أو مشهور

فيها ، وبعضه مما استفاده المفسر من مطالعته في غيرها ، ومنها ما هو من تحقیقاته وآرائه الخاصة ، فإذا اختلف مفسرو الأقطار الحاضرون في المؤتمر في تفسير آية كان للاستاذ رئيس المؤتمر القول الفصل في الموضوع ، فهو تارة ينصر بعض هذه الأقوال على بعض ، وتارة ينفرد عنهم بقول آخر ، وهو يوجه القول ويعززه بالدليل والبرهان .

ولما تكلم عن امرأة العزيز ونسوة المدينة، أخذ يردد أقوال مندوبات الأقطار، وهن يذكرن من أطوار النساء وأخلاقهن ما فيه العظة والعبرة .

ومن مباحثهن في تفسير الآيات المتعلقة بهن ما يعيد لك عهد المفسرات المحدثات في عصور الإسلام الذهبية، ولنورد مثلاً من هذا الحوار في معاني الآيات الكريمة، وهو يمثل لك هذا التفسير المجيب أصدق تمثيل ، وينفي عن الإطالة في وصفه :

(طلب ملك مصر ليوسف عليه السلام)

سورة يوسف الآية ٥٠ :

« وقال الملك ائتوني به ، فلما جاءه الرسول ، قال : ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ، إن ربي بكيدهن عليم ، افتتحت الجلسة ، وتليت الآية الخمسون ، فقامت السيدة إنصاف الدمشقية وقالت :

(القصر يطلب يوسف)

كان رئيس السقاة قد رجع من عند يوسف ، حاملاً عبارة الرؤيا ، وهو يطوي الطريق طياً ، حتى حضر بين يدي الملك ، فاقتصر الملك منه القصة ، وكان ينتظره وهو على أحر من الجمر ، فحكاه له كما سمع ، فأعجب الملك بذلك ، وأحب يوسف والأذن تعشق قبل العين أحياناً » (وقال الملك) الریان بلهفة : مرحى !! اذهبوا

حالاً ، و (ائتوني به) أي يوسف ، فإن له رأياً سديداً وحزماً ، وإن لي منه خير مشير ، لا سيما في الشؤون الاقتصادية .

فأض رئيس السقاة ليوسف (فلما جاءه الرسول) مندوب الملك الذي اسمه « نبو » ، أخبره بما كان من الملك ، وطلب منه أن يخرج من السجن ، فتأني يوسف وتثبت في إجابة الملك ، و (قال) للمندوب : إني سوف لا أخرج إلا بعد النظر في التحقيق عما نسب إليّ ، لذا أرجوك (ارجع) ثانية (إلى ربك) جلالة الملك الريان (فاسأله) يا للعجب !! (ما بال النسوة) المصريات الخمس ، عقيلات بعض أمراء البلاط (اللاتي) كن (قطعن أيديهن) يوم ما دعين في بيت سيدي العزيز ؟ (إن ربي الله سبحانه وتعالى (بكيدهن عليم) كيدهن الذي سبق لي منهن منذ بضع من السنين ، والذي أرجو بفضل البحث والتحقيق أن يرتد في محورهن . »

« وقد قدم سؤال النسوة ليظهر براءة ساحته عما قرف به وسجن به ، لئلا يتسلق به الحاسدون إلى تقبيح أمره عند الملك ، أو يجعلوه سلباً إلى حط منزلته لديه ، ولئلا يقولوا : ما مكث في السجن بضع سنين إلا لأمر عظيم ، وجرم كبير ، حتى به أن يسجن ويعذب ويستكشف أمره ، ولأنه لو خرج قبل أن يعلم الملك والعزيز بشأنه ، لما زالت في نفسها بقولان فيها : هذا الذي كان راود سيدته ، فأشفق من أن يرى مشكوكاً في أمره ، فأحب أن يزول عنه كل ريب فطلب التحقيق ، وفيه دليل على أن الاجتهاد في نفي التهم واجب وجوب اتقاء الوقوف في مواقفها ، ففي الحديث : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفن مواقف التهم » ا هـ .

أكتفي بهذا القدر اليسير من تفسير هذه الآية الكريمة الذي استغرق صفحات وفيه من الفوائد الدينية والأخلاقية والأدبية والعلمية والتاريخية الشيء الكثير .

بهذا الأسلوب الشائق قد فسر رحمه الله سورة يوسف كلها ، وهو الأسلوب القصصي الذي جرى عليه ثلث من أرقى كتاب العصر ، وسبق إليه الكتاب العزيز

كما تراه في ما قص الله علينا من محاورات الرسل عليهم السلام مع أقوامهم ؛ وكتاب الله يمتاز بإيراده أحسن القصص وأصدق وأعفه ، نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ، إنه لقول فصل وما هو بالهزل ، وباجتنابه القصص الخيالي والغرامي المفسدين للآداب والأخلاق الطيبة .

أنفق فقيد الإسلام الأستاذ العلمي رحمه الله في هذا التفسير شطراً كبيراً من وقته وعمره ، وأودعه خلاصة علمه وتحقيقه ، وكانت أوقاته معمورة بالتدريس والتأليف ، وقد استفادت المدارس من أفكاره الدينية وأخلاقه الحميدة ، ولا سيما مدارس الاناث ، كما استفاد الطلاب والطالبات بل المعلمون والملمات ، من دروسه الخاصة التي كان يلقيها في داره على الصنفين - كل على انفراد - إيماناً واحتساباً .

كان رحمه الله يأخذ على دمشق الشام اشتغالها بالحديث أكثر من التفسير ، ويقول : « إن كتاب الله هو الأصل الأصيل ، وإن أنظار الأمم وأفكارها متجهة إليه وحائمة حوله أكثر ، فلم لا نتوفر على دراسته والدعوة إليه ودفع المطاعن عنه ، ونجمل السنة - كما جعلها الله تعالى - مبينة له ، لا مستقلة عنه ، فندرسها دراسة تطبيق على كتاب الله تعالى . »

إن أفضل عمل تقوم به خدمة للكتاب العزيز ؛ ووفاء للمراحل الكريم ، رحمه الله ، هو أمران : (الأول) أن يقوم رجال من ذوي الغيرة بطبع مؤلفاته المخطوطة ، (الثاني) أن نخصص عشرة من أبنائنا وعشرراً من بناتنا (كل مستقل عن الآخر) لدراسة علم القرآن والحديث ، وما يحتاجان إليه من سائر العلوم العربية والشرعية وغيرها ، فيجددون لنا علم الدين ، وعهد أئمتهم السابقين ، ويحققون رجاء فقيد الأمة الشيخ العلمي في تفسيره ، فيصبح أقطاب مؤتمره التفسيري اليومي أعلاماً لمفسرين ومفسرات ، هم في عالم الحس والحقيقة ، بمد أن كانوا في عالم الغيب والخيال .

AL MANAR

REVUE

14. Incha St. — Coiro

Tel. 4334.9

كتاب المنبر

مجلة ومكتب ومطبعة

شارع الانشا رقم ١٤ - مصر

رقم التليفون ٤٣٣٤٩

742

القاهرة في ١٥ صفر سنة ١٣٥١ الموافق

[illegible]

« هذه الرسالة من الأستاذ الإمام السيد رشيد رضا صاحب مجلة المنار أرسلها

إلى صديقه الأستاذ الشيخ عبد الله العلمي في ١٥ صفر سنة ١٣٥١ هـ يطلب

فيها منه أن يطلعه على كل أو بعض كتاب مؤتمر تفسير سورة يوسف.

یوسف

التعريف بمؤلف الكتاب

الفضيلة الاستاذ الشيخ محمد علي عمار الدمشقي

الشيخ عبد الله العلمي الفزي الدمشقي : هو الأستاذ الإمام ، المفسر الكبير لكتاب الله تعالى ، والمجتهد الخطير ، وصاحب الآراء الحرة السديدة ، والتأليف النافعة المفيدة ، الاختصاصي الفريد في علم الجدل والمناظرة ، والمجدد لأفكار سلف الأمة الصالح ، ورابع المصلحين الذين ظهرت كواكبهم في سماء الإصلاح الديني ، وانبثت منهم روح النهضة الإسلامية في مصر والشام ، وفي مقدمتهم الأستاذ العلامة الحكيم الشيخ جمال الدين الأفغاني ، ثم الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ثم فضيلة عالم الشام الإمام الشيخ جمال الدين القاسمي ثم فضيلة أستاذنا المعروف به رحمه الله تعالى ؛ فهؤلاء بلا شك ، هم عظماء الأمة الإسلامية في القرن العشرين .

ولادته ونسبه : ولد رحمه الله في سنة ١٢٧٩ هـ (١٨٦٢م) في بلدة غزة هاشم من أعمال فلسطين ، في بيت من بيوتات المجد والشرف ، ومن أسرة مشهورة بالعلم والصلاح .

وأبوه محمد بن صلاح الدين بن مصطفى بن صلاح الدين بن مصطفى بن سعد الدين بن نور الدين من آل (العلمي) الكرام وهو نسب يرجع في الأصل إلى قبيلة عربية من قبائل المغرب منسوبة إلى الإمام الحسن بن علي رضي الله عنهما ، ولذا يلقب (بالعلمي الحسني) .

نشأته ودراسته : بعد أن تعلم القراءة والكتابة ومبادئ اللغة والعلوم في مدارس غزة الابتدائية ، رغب في طلب العلم فشرع يقرأ على علمائها الأعلام .

كالشيخ سليم العلمي والشيخ عبد اللطيف الحازندار والشيخ عبد الوهاب العلمي وأخيه الشيخ حسن العلمي وشيخ مشايخ غزة الشيخ راشد المظلوم .

ولما بلغ السادسة عشرة من العمر سافر إلى مصر في سنة ١٢٩٥ هـ (١٨٧٨ م) والتحق بالأزهر الشريف ، ومكث فيه يتلقى العلم مدة سبع سنوات فاق فيها أقرانه حتى لقبوه (بالشيخ) ، قبل أن ينهي دراسته ، وجعلوه عالماً عليه ، وهو تلميذ بعد . وقد روي عن أحد زملائه المعاصرين له خلال الدراسة في الأزهر ، وهو العالم الصوفي ، الأستاذ الشيخ عبد الخالق الشبراوي المصري المتوفي سنة ١٣٥٣ هـ أنه قال : (كنا في كل عام قبل حلول موعد العطلة الصيفية الأزهر نتسابق إلى دعوة الشيخ العلمي ، حينما كان تلميذاً فيه ، إلى بلادنا خارج القاهرة للارتفاع من علمه) .

هذا وقد قرأ الأستاذ الفقيه في الأزهر على الشيخ شمس الدين الاشموني ، والشيخ شمس الدين الأنباري (شيخ الجامع الأزهر إذ ذاك) ، والشيخ محمد البجيرمي ، والشيخ شمس الدين البجيرمي ، والشيخ شهاب الدين أحمد الرفاعي ، والشيخ إبراهيم الظواهري ، والشيخ شمس الدين الجيزاوي (شيخ الجامع الأزهر آنئذ) .

وفي عام ١٣٠٢ هـ (١٨٨٤ م) رجع إلى بلده غزة فنال حظوة عظيمة من أهلها وعد من كبار العلماء فيها ، وبدأ يقوم بهضة علمية فيها واسعة النطاق ، فأنهال عليه طلاب العلم من كل حذب وصوب ، فكون أزهرأ صغيراً في الجامع العمري الكبير في غزة ، وقرأ عليه كثيرون . وكانت دروسه أشبه بالمجالس النياية إذ كان يطلب من كل تلميذ أن يبدي رأيه في الموضوع بحسب الشرع والعقل ، ثم يبين ويشرح للمصيب إصابته والمخطئ خطأه بالدليل والبرهان ، فعود بذلك تلاميذه على التفكير والاستنباط في كل مسألة ، وبذا نبغ على يده علماء فطاحل ، كان

ولا يزال الحى منهم نبراس الهداية الإسلامية وركناً من أركان الهيئة الاجتماعية وأساساً للنهضة الفكرية التحررية ، وكل ذلك دون مقابل مادي ، بل إيماناً واحتساباً لوجه الله تعالى مع فقره واحتياجه ، إذ كان ينفق عليه إذ ذاك والده السيد صلاح الدين رحمه الله ، إلى أن توفاه الله فالتجأ عندها الشيخ إلى العمل الحر والاشتغال بالتجارة حيث افتتح له « دكان عطارة » فامتن بذلك سنة طيبة لعلماء غزة ، وهي سنة العمل والاشتغال والكسب الحلال بعرق الجبين للترفع عن الصدقات والتبرعات والمساعدات .. واستغلال العلم للمادة .

تقلده المناصب : لقد اسندت الحكومة إليه في غزة عدة وظائف كان له فيها أثر ظاهر من التحسين والاصلاح والاخلاص ، ثم سافر إلى بيروت حيث عين فيها استاذاً للغة العربية في إحدى مدارسها ثم مدرساً لتفسير القرآن الكريم في جامع المجيدية فيها ، وكان يحرر باب التفسير في مجلة « الروضة » البيروتية لصاحبها السيد محمد علي القباني ؛ ثم عاد إلى بلده غزة حيث عين فيها في وظائف حكومية أخرى ؛ وفي أواخر الحرب العالمية الأولى سنة ١٣٣٦ هـ (١٩١٨ م) هاجر بأسرته إلى دمشق قبيل احتلال الانكليز إلى بلده غزة ، فعينت الحكومة مدرساً لتفسير في جامع بني أمية ومدرساً للعلوم العربية والدينية في مدارس الاناث التابعة لوزارة المعارف إلى أن دخل في سن التقاعد ، واستمر هكذا يدرس التفسير الشريف في داره أو في مجالس العلم الأخرى إلى أن توفاه الله إلى رحمته تعالى .

أخلاقه ومزايه العلمية : كان رحمه الله على جانب عظيم من الأخلاق العالية والصفات السامية ، يحترم أي شخص يحجي إليه ويكرمه غاية الاكرام ، وكان وفياً جداً لا يخلف وعداً ولا يؤخر موعداً ولا ينقض عهداً ولا موثقاً ، وكان

محبا للناس عموماً لا يفرق بين عظيم وحقيق ولا بين صغير وكبير ، وكان متواضعاً حتى بين تلاميذه كأنه واحد منهم لا فرق بينه وبينهم ، وكان بشوشاً جداً لا تفارقه الابتسامة عند لقاء أي إنسان ، وكان رحمه الله حسن المعشر وحلو الحديث يسر بمجلسه العظماء ويستأنس به الفقراء ويستفيد من مذاكراته العلماء وتتنبه بمعاشرته عقول الجهلاء .

كان رحمه الله يبحث تلاميذه على البحث والاستقلال الفكري ليكون لديهم المراس الكافي للاستنباط والتفكير الصحيح ، كما كان رحمه الله متمسكاً بالاسلام الصحيح بعيداً عن البدع والأوهام ، مناهضاً للأجمود بلسانه وقلمه وشعره ونثره وقد لقي من جراء ذلك العنت الكثير ممن لا خلاق لهم من مدعي العلم المتطفلين عليه . فكانوا يشاغبون عليه حينما كان يلقي دروس التفسير في الجامع الأموي ، بل كانوا يشتمونه ويلقبونه بشق الألقاب والنعوت التي منها كلمة « وهابي » مثلاً .

كان بحثاً في كل شيء دؤوباً على المطالعة والدرس والتمحيص لا يكمل ولا يعمل قوي الذاكرة ، وكان إذا استفأه أحد يجب سائله بما يناسب استعداد واستطاعته لا يتقيد بمذهب واحد تيسيراً على المسلمين إذ كان يقول : « نفتيهم بالأسهل من أقوال الأئمة لئلا يقعوا في الترك ، لأن النبي ﷺ هكذا كان يفعل » . وله رحمه الله آراء خاصة في التفسير خالف فيها جمهور المفسرين وله فيها دلائل وبراهين ضما في طيات تفسيره الكبير الذي اشتغل فيه ما يربو على العشر سنين .

وقد تخصص رحمه الله في تفسير القرآن الكريم وفي مجادلة من يسمون « بالمبشرين » من الديانات الأخرى ، وقد درس لأجل ذلك التوراة والأنجيل وتفسيرهما وشروحيهما على علماء اليهود والنصارى ، كما درس على المتخصصين من العلماء علوم الجغرافية والتاريخ والرياضة والفلك وعلوم المواليذ الثلاثة والفلسفة

الطبيعية ليفهم القرآن حق الفهم ليفهمه للناس بلغة سهلة مسيرة للعقل والعلم والتاريخ وليبرزه أمام العالم أنه هو الكتاب الحق الواجب اتباعه .

كان رحمه الله مرجعاً للعالم والخاص عند حل المشكلات ودفع الشبهات عن كتاب الله تعالى وعن سنة نبيه ﷺ ، وكان طيلة حياته يشر العلم الصحيح ويحارب البدع ويستنبط من كتاب الله الكنوز الثمينة المدفونة من حين وفاة الرسول ﷺ ، كما كان الحصن الحصين لكتاب الله وسنة رسوله من شبه « المبشرين » والملاحدين ، وقد اعطاه الله صدرأً واسماً وحكمة بليغة ، ولساناً نطوقاً ، وافكاراً نيرة ، أعطاه الله هذه المواهب هبة خاصة له لم نرها في غيره من العلماء المعمرين ، وقد ترك من آثاره العلمية ردوداً مفعمة على « المبشرين » من رجال الاديان الاخرى ، وعلى الملاحدين من غيرهم ، كما ترك تحقيقات وفوائد على كثير من الآيات القرآنية مما خلد ذكره ، ويوجب على الامة الاسلامية ان تدعوا اليه بالرحمة والمغفرة وان يجعل روحه مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، هذا عدا عما ترك لنا من العلماء الحقيقيين في غزة وفلسطين ثم في سورية ، وحق علينا أن نعزي به المسلمين والاسلام أولاً وانفسنا ثانياً .

شعره : للاستاذ العلمي رحمه الله تعالى ، شعر رقيق ونظم رشيق يعد في الطبقة الثانية ، وقد قال اكثره في العلوم والحكم والقضايا الاجتماعية والاخلاقية ، فمن شعره قصيدته الاجتماعية المشهورة التي كان القاها في احدى محاضراته في المجمع العلمي العربي بدمشق والتي عنوانها « الطلاق ومساوئه » ، ومنه ايضاً قصيدته الاخلاقية التي عنوانها « تأوهات ابن العلمي »

مؤلفاته المطبوعة :

١ - رسالة (البصيرة على بيتي الجبيرة في مذهب الامام الشافعي) وهي

رسالة جامعة لجميع صور الجبيرة مع ما يتعلق بها من الاحكام ، طبعت في مصر سنة ١٣١٣ هـ .

٢ - رسالة (الاملا عى بيتى الرضاع فى مذهب الامام الشافعى رضى) ، وهى رسالة تشرح بيتى الرضاع للامام جلال الدين القونوى ، وقد تكفلت بذكر جميع الاشخاص التى يتعلق بها حرمة الرضاع من الاصول والفروع والحواشى . والقواعد المتعلقة بذلك . طبعت فى مصر سنة ١٣١٧ هـ .

٣ - رسالة (البرق الوامض فى شرح متن الفرائض المشهور بالزجبية) طبعت فى مصر سنة ١٣١٨ هـ .

٤ - رسالة (الحديقة فى مولد خير الخليفة) وهى قصة مشورة للمولد النبوى . طبعت فى القاهرة سنة ١٣٢٣ هـ .

٥ - رسالة (صبح الدجى فى شواهد صور المحاسن الشبيهة بخروف الهجاء) وهى مقطوعات شعرية غزلية طبعت فى القاهرة سنة ١٣٢٣ هـ .

٦ - رسالة تشتمل على أربع منظومات : الاولى تسمى (زورق البحور فى علم العروض المشهور) والثانية باقة الرياض الغزلية فى مدح خير البرية ومدح الخلفاء الأربع والامام الحسين الأرفع) والثالثة (الكوثرية فى مدح خير البرية) والرابعة (مدح المعجوز بالقدح الرموز) وهى عبارة عن قصيدة منظومة فى الدنيا على طريقة السادة الصوفية اشارة الى ان الدنيا تظهر صورها القبيحة فى صور جميلة حتى خدعت ذوبها وغرت بحبيها . طبعت فى مصر سنة ١٣١٧ هـ .

٧ - رسالة (النور دجة فى قصة المولد الأربعة) وهى قصة المولد النبوى معمولة على كيفية نظم المزدوجة بحيث جعل الناظم المصراع الثالث من كل تخميسة آية قرآنية بدون تغيير للفظها بحيث تناسب المقام ، وقد التزم ذلك من اول المولد .

لآخره مع غاية المناسبة والانسجام بحيث يخلد للقاريء كأن الآية القرآنية سبقت ونزلت لأفادة المعنى الذي حاوله الناظم بعد الاقتباس ، وهذا هو السحر الحلال ، ومثاله :

الحمد لله بليغ الحكمة جاد بمولد النبي نعمة
لكل شيء وهدي ورحمة يرحم عرب خلقه وعجمة
بيمن نور المصطفى من فهر

وقد طبعت في القاهرة في سنة ١٣٣٥ هـ ثم أعيد طبعها في دمشق في سنة ١٣٥٠ هـ بعد ان أجرى المؤلف تنقيحاً بسيطاً فيها ثم غير اسمه باسم (المورد الندي في قصة المولد المحمدي) .

٨ - رسالة (الابهاج في قصتي الاسراء والمعراج) وهي نظم مخمس كل ثالث مصراع منه آية قرآنية ، كرسالة المولد السالفة الذكر ، ومثاله :

بسم الذي أسرى بطنه مكرما ثم عليه بالعروج أنعم
(والله واسع عليم إغنا) دعاه عنده الى اعلا سماء
لأنه أدعى لمعنى الفخر

وقد طبعت في بيروت سنة ١٣٢٤ هـ

٩ - كتاب (الحرية والمبعوثان من تعاليم القرآن) وهو كتاب يثبت مشروعية مجالس المبعوثين (مجالس النواب) في القرآن الكريم ، كما يبين ان المساواة والحرية من تعاليم الكتاب الحكيم ، وان الاسلام وجد وبجانبه سلطة مقيدة بالآيات القرآنية ، وذلك بمناسبة اعلان السلطان العثماني عبد الحميد ، دستور البلاد العثمانية إذ ذاك ، وتساؤل البعض عن شرعية مجلس المبعوثين الشوروي ، وعن الحرية وهل هي موافقة للشرع ، ثم رداً على ما كان يقوله البعض الآخر بأن الحرية تنافي روح

القرآن وان الاسلام وجد وبجانبه سلطة مطلقة .. والخ طبع في بيروت في سنة ١٣٢٦ هـ .

مؤلفاته المخطوطة :

١ - رسالة (الوعظ والارشاد) وتتضمن الدروس الدينية والاخلاقية التي كان يلقيها المؤلف رحمه الله على المستمعين لدروسه في جامع بني امية بدمشق حينما كان أستاذ دروس التفسير فيه .

٢ - رسالة (مختارات العلمي من صحيح البخاري وصحيح مسلم « رض ») وتتضمن بضع مئات من الاحاديث النبوية التي اختارها المؤلف من صحيحي البخاري ومسلم .

٣ - قصيدة (أذان المؤذن أو تأوهات ابن العلمي) وهي قصيدة تشخص الامراض الاجتماعية والاخلاقية والاقتصادية والدينية والسياسية للمسلمين وتدعو حكامهم الى تطبيقها .

٤ - كتاب (الشيخ والقسيس) وهو كتاب جدل ديني يتضمن نقاشاً دينياً بين شيخ وقسيس يستند الشيخ في اقواله وردوده على ما جاء في التوراة والانجيل .

٥ - رسالة (تحقيقات في حوادث تاريخية ودينية) تتضمن ذكر الوقائع التاريخية والدينية للاديان الثلاثة مع ذكر سنة وقوعها منذ آدم (ع) حتى القرن التاسع عشر .

٦ - كتاب (سوانح تفسيرية) لبعض آيات القرآن الكريم ويبحث في فهم المؤلف الشخصي ورأيه الخاصين في بعض آيات القرآن الكريم .

وفاته : توفي رحمه الله تعالى في يوم الأحد في التاسع من شهر جمادى الاولى

سنة ١٣٥٥ هـ (٢٦ تموز سنة ١٩٣٦ م) اثر سكتة قلبية عن عمر يناهز السبعين والخمسة أعوام ودفن في مقبرة الأسرة بجي المهاجرين بدمشق .
 هذا وقد اقامت له جمعية التمدن الاسلامي الدمشقية حفلة تأبين في قاعة محاضرات المجمع العلمي العربي بدمشق بمناسبة مرور اربعين يوماً على وفاته ، وقد القى في هذه الحفلة عدد غير قليل من العلماء والاساتذة كلمات عددوا فيها مآثره وفضله وعلمه ومزاياه ، رحم الله الفقيد رحمة واسعة واسكنه فسيح جناته ورضوانه .

دمشق في ٢٧ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٥

الموافق ٩ ايلول سنة ١٩٣٦

محمد علي عمار اللمشقي

ايضاح الرموز الواردة في التفسير

الرمز	ايضاحه
ق . هـ	قبل الهجرة
ق . ن	قبل نبينا محمد ﷺ سنة شمسية
ق . م	المسيح عليه السلام
ب . م	بعد
آ	آية قرآنية
ع	عدد آية قرآنية
١١ : ٤	هذان الرقمان أو أمثالهما عند استعمالهما لكلمات من القرآن يرمز الرقم الأول منها الى عدد السورة منه ويرمز الرقم الثاني الى عدد الآية من تلك السورة .
	وعند استعمالهما لكلمات من الإنجيل أو التوراة يرمز الرقم الأول منها الى عدد الاصحاح ويرمز الرقم الثاني الى عدد الآية من ذلك الاصحاح .
تك	سفر التكوين من التوراة
تث	التثنية
٢ صم	صموئيل الثاني من التوراة
مز	المزامير من التوراة
أش	أشعيا
مي	مicha
٢ مل	الملوك الثاني من التوراة

الرمز	ايضاحه
١ مل	سفر الملوك الأول من التوراة
خر	= الخروج من التوراة
لا	= اللاويين =
يش	= يشوع =
إر	= ارميا =
يون	= يونا =
عد	= العدد =
حز	= حزقيال =
١ أي	= الايام الاول من التوراة
٢ أي	= الثاني =
جا	= الجامعة من التوراة
قض	= القضاة =
صف	= صفنيا =
مت	= متى من الانجيل
لو	= لوقا =
أع	= أعمال الرسل من الإنجيل
يو	= يوحنا من الانجيل
مر	= مرقس =
رو	= رومية =
غل	= غلاطية =

الرمز	ايضاحه
١ بط	سفر بطرس الأول من الإنجيل
٢ بط	الثاني = =
أف	= أفسس من الانجيل
كو	= كولوسي =
تي	= تيطس =
رؤ	= رؤيا يوحنا من الإنجيل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الباب الأول

وفيه مقدمة تحتوي على سبعة فصول

الفصل الأول

في رفع شبهة العبارة على سورة يوسف عليه السلام

افتتحت الجلسة الأولى من جلسات مؤتمر التفسير فقام أول متكلم وهو
الشيخ أمين البئر سبعي^(١) وقال :

اسمحوا لي أيها السادة الأكارم أن أذكر كلمة عن شبهة وردت على هذه
السورة الكريمة ، سورة يوسف ، قبل أن ندخل في تفسير آياتها :

كان قوم يسمون « العَجَّارِدَة » ينسبون إلى « عبد الكريم بن عَجَرَد »
كانوا في أواخر المئة الأولى من الهجرة ، أنكروا أن سورة يوسف من القرآن
الكريم !!! قالوا « لأنها قصة حب وغرام ، ولأنها من السور الطويلة التي الشأن
فيها نزولاً نجومياً !! »

(١) بئر سبع بلدة في فلسطين

هذا هو التعبير الذي عبر به بعض المفسرين، وهو تعبير يوهن أن بعض المجاردة
فرقة من الفرق الإسلامية ، وإن إنكار بعض سور القرآن كان مذهباً من مذاهب
الإسلام ، مع أن كلمة «عجاردة» عبارة عن «حماد بن عجرد» ، واثنين آخرين
معه ، وكانوا معروفين بالإلحاد والزندقة والمروق من الإسلام (انظر ابن خلكان
والشهرستاني وغيرهما تردد علماً). وجوابنا عن هذه الشبهة الواهية : ان الشق
الأول من هذا الانتقاد منظور فيه لبداية حادثة الحب والغرام ، دون العاقبة
والنتيجة ، ودون ما تخللها من الحكم والعبر والمعات ، وأما من نظر لمجموع ما وقع
لامرأة الغريز والنسوة المصريات ، وما وقع على رؤوسهن ، أي من أحاط خبراً
بمقدمات ذلك الحب وتنتأجه علم أن الحب والغرام شؤم على صاحبه ، وأن الأفضل
التباعد عن أسبابه ؛ وأما الجواب عن الشق الثاني فإن سورة «الأنعام» هي من السور
الطويلة ، وانها (١٦٥) آية ، وهي مكية ، ونزلت على النبي ﷺ جملة واحدة على
الصحيح ؛ وكذا سورة (الكهف) هي نظير سورة يوسف في أنها مكية و(١١١)
آية ، ونازلة مرة واحدة ؛ وثالثاً سورة (التوبة) هي (١٣٠) آية نزلت كاملة مرة
واحدة بالمدينة ؛ وهؤلاء «المجاردة» الجهلاء لم يقولوا في هذه السور الثلاث :
«انها ليست من القرآن» ، وأيضاً فالذي سنقرره سبباً لنزولها يقتضي أن تنزل على
النبي ﷺ مرة واحدة ، وإليك البيان ، وهو من مواهب الرحمن :

علم الله تعالى أن قريشاً ستكيد للنبي ﷺ وتناوئه ، وتعمل معه أعمال
رؤساء الأسباط مع أخيه «يوسف» ؛ فأنزل عليه «وهو بمكة» هذه السورة
كاملة مرة واحدة ليحيط علمه بما سيقع له من قريش ، فكأن الله تعالى يقول
لنبيه : «أيها النبي الكريم ، ها أنا ذا أنزلت عليك هذه السورة ، لتعلم ماذا صنع
رؤساء الأسباط مع أخيه يوسف ، فتقيس أحوال قريش على أحوال هؤلاء
وتقيس شخصك على شخص أخيه ، فيوسف الصديق هو كان يوسف إخوته

الأسباط ، وأنت اليوم يوسف قريش ، فكن يا يوسف اليوم على حذر ، واعتبر ،
فالتاريخ عبرة لمن اعتبر .

أقول : والمناسبة بين نبينا محمد ﷺ مع قريش وبين يوسف الصديق مع إخوته
من وجوه ، وإليك البيان :

يوسف « محمد » قبائل قريش	يوسف يهود فلسطين
(١) - خيار من خيار من خيار ، كما في الحديث الصحيح .	(١) - كريم ابن كريم ابن كريم كما في الحديث الصحيح .
(٢) - اسم أبيه « عبد الله » مركب تركيباً إضافياً ، وآخره « الله » مرادف « ايل » .	(٢) - اسم أبيه « اسرائيل » مركب تركيباً إضافياً ، وآخره « ايل » ومعناه الله .
(٣) - أمه « آمنة » كانت غريبة وكان أبوها « وهب » وثنياً ، وماتت وهي مسافرة بين مكة والمدينة ، وهي من صميم قريش لأنها زهرية .	(٣) - أمه « راحيل » كانت غريبة وكان أبوها « لابان » وثنياً وماتت وهي مسافرة في طريق « بيت لحم » وهي من صميم العشيرة التي منها إبراهيم ، لأنها ناحورية .
(٤) - ماتت أمه وهو صغير ، فحضنته جاريتها « بركة الحبشية » أم أيمن .	(٤) - ماتت أمه وهو صغير ، فحضنته جاريتها « بله »
(٥) - رعى الغنم على قراريط لأهل مكة من أهليه وذويه فقط	(٥) - رعى الغنم « تك ٣٧ : ٢ » أي غنم أهليه وذويه فقط

يوسف يهود فلسطين	يوسف « محمد » قبائل قريش
(٦) - أول ما بدىء به من الوحي الرؤيا الصالحة التي جاءت كفلق الصبح وكما ثبت من القرآن الكريم .	(٦) - أول ما بدىء به من الوحي الرؤيا الصالحة ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح ، كما في البخاري ومسلم وغيرها من الصحاح .
(٧) - حسده اخوته وتآلبوا عليه .	(٧) - حسده أقرباؤه من قريش وتآلبوا عليه
(٨) - 'بشر بمستقبل باهر بلسان أبيه	(٨) - بشر بمستقبل باهر بلسان « ورقة بن نوفل » .
(٩) - تأمرت إخوته على قتله أو طرحه أرضاً أو إخراجه من فلسطين وكنعان	(٩) - تأمر أقرباؤه قريش وألصق الناس به من ذوي قرياه فمن مشير بقتله ومن قائل بأثباته ومن قائل بإخراجه .
(١٠) - اضطرته إخوته للمهاجرة من وطنه ، فهاجر مضطراً بسبب إخوته وتوفي غربياً في مهجره .	(١٠) - اضطره أقرباؤه قريش للمهاجرة من وطنه ، فهاجر مضطراً بسبب إخوته قريش وتوفي غربياً في مهجره .
(١١) - اتهم زوراً بعشق امرأة عبدي « العزيز » ثم برأه الله تعالى .	(١١) - اتهم زوراً بعشق امرأة عبدي « زيد » ، ثم برأه الله تعالى .
(١٢) - لما سُجن دخل معه في	(١٢) - لما سَجَنَ نفسه في غار

يوسف « محمد » قبائل قريش	يوسف يهود فلسطين
<p>« ثور » إلهاء وقهراً دخل معه في غارهِ اثنان ، تقي موحد ، وهو أبو بكر ، وشقي مشرك ، وهو دليلهما الذي كانا استأجراه بالدرهم واسمه عبد الله بن أريقط .</p>	<p>سجنه فتيان ، تقي وشقي ، وهما الساقى والخباز .</p>
<p>(١٣) - أشاع أعداؤه أنه قتل في غزوة أحد ، ثم تبين كذب تلك الاشاعة .</p>	<p>(١٣) - أشاع أعداؤه أنه قتل باقتراس الذئب إياه ، ثم تبين كذب ذلك .</p>
<p>(١٤) - وقع في الحفرة في غزوة أحد التي حفرها له اقرباؤه من قريش</p>	<p>(١٤) - 'البقي في الحبس' اخوته من الأسباط .</p>
<p>(١٥) - كان يوجد جماعة يستهزئون به كثيراً حتى سموا بالمستهزئين ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ (١٥ : ٩٥)</p>	<p>(١٥) - كانت إخوته تستهزئ به ، وتقول : « هذا صاحب الأحلام » سخريه منه .</p>
<p>(١٦) - المستهزئون بالنبي كانوا ثمانية اشخاص ، وهم : أبو جهل ، أبو لهب عقبة بن أبي معيط ، العاصي بن وائل السهمي ، الأسود بن المطلب الأسدي ، الوليد بن المغيرة ، النضر بن الحارث العبدي .</p>	<p>(١٦) - المستهزئون يوسف كانوا ثمانية أنفار ، وهم : شمعون ، لاوي ، دان ، نفتالي ، جاد ، أشير ، يساكر ، زبولون ، على عدد مواد الكيد المذكورة في هذه السورة .</p>
<p>(١٧) - « أم جميل » امرأة عمه</p>	<p>وأما راويين ويهودا وبنيامين فلم يكونوا كذلك . (١٧) - « ليثة » امرأة أبيه</p>

يوسف يهود فلسطين	يوسف « محمد » قبائل قريش
وهي من ذوي رحمه ، لأنها خالته - كانت تكرهه وتحرض عليه .	أبي لهب ، « والعم أب » وهي من ذوي رحمه ، لأنها من قريش - كانت تكرهه وتحرض عليه .
(١٨) - لا تعرفه العرب نبياً تقليداً ليهود يثرب .	(١٨) - لم تعترف العرب بنبوته
(١٩) - أوّني النبوة والرسالة ورأسة بيت المال ، والاجتباء والحكم والعلم .	(١٩) - كذلك حرفاً بحرف .
(٢٠) - كانت عاقبة أمره الانتصار الباهر ، والعز بعد الذل والقوة عقيب الضعف .	(٢٠) - حاز في عقباه إكليل النصر ، وخلق الله له من ضعفه قوة ، وواتد له من ذله عزّاً .
(٢١) - أم أيه يعقوب غريبة	(٢١) - أم أبيه عبد الله غريبة .
(٢٢) - اعترف اخوته له بالخطأ ففغفر لهم .	(٢٢) - اعترف اقرباؤه قريش امامه بالخطأ فغفا عنهم .
(٢٣) - اضطهد وشرّد عن وطنه فلسطين لمصر ، ثم رجع اليها معزراً مكرماً ، ثم قفل راجعاً لمصر وبها توفي .	(٢٣) - اضطهد وشرّد عن وطنه مكة للمدينة ، ثم قفل اليها متوجاً بتاج العز وإكليل النصر ، ثم عاد الى المدينة وبها توفي .
(٢٤) - أبوه يعقوب مات غريباً .	(٢٤) - أبوه عبد الله مات غريباً

[ايقاف النبي ﷺ على طبائع يهود المدينة]

إذا تقرر هذا فلننتقل بالقارىء العزيز من قريش مكة إلى يهود المدينة فنقول:
 علم الله تعالى أن النبي ﷺ سيدارح مكة للمدينة المنورة ويتخذها مهجراً له طيلة
 بقية عمره ، وبالتالي علم سبحانه أن النبي سيجاور اليهود الذين فيها ، ويكون بينه
 وبينهم تماس وتحاكك ، فأراد أن يوقفه على طبائع أسلافهم الأقدمين ، ليعرف
 طبائع المتأخرين لأنهم سلائلهم ، فهم طبعاً يمثلونهم ، كيف لا ودم هؤلاء من
 دم أولئك ، وغرائزهم موروثة من غرائزهم وأخلاقهم تمثل أخلاقهم ، فلذلك أراد
 الله تعالى أن يعلم نبيه أن الأكثرين في اليهود ظلمة ، مكرة ، يسوا بأصحاب وفاء
 في اليهود ، وليس عندهم شرف في الوعود ، بل هم أهل غدر وأصحاب خيانة ،
 لا يَرْقُبُونَ في مؤمن إلا ولا ذمة ، ولا يصلح لهم من معاملة النبي إياهم إلا كمثل
 ما عمل معهم أخوهم يوسف ، لا يتقيد معهم بذيء إلا حسب ما تقتضيه المصلحة ،
 ويستدعيه الرأي ، وبالجملة فهذه السورة هي ظل حياة اليهود ، وصورة صادقة من
 أخلاقهم ، فمن أراد أن يقف على الكثير من ميولهم وشيمهم ! فليمعن في التدبر في
 مراعي هذه السورة اليوسفية وبعبارة أخرى : أراد سبحانه وتعالى أن يُعلم نبيه
 أن نسبة الصالح منهم لغير الصالح في أولاد الأنبياء الصلبيين إنما هي كنسبة اثنين
 لاثني عشر !! فما بالك فيما إذا لم يكونوا من أصلاب الأنبياء ؟! لعمرى
 لا يسعك إلا أن تقول : إن الأكرثية الساحقة فيهم 'طغاة' قساة ، بؤورة كذب ،
 ومنايع ختل واحتيال ، وأمثلة غدر بالوعود والعهود ، ويمثلوا الدعارة والخيانة ،
 و .. و .. الخ اللهم إلا قليلاً ، ويمكنك أن تفسر هذا القليل بأنه واحد في الألف !!!
 قلنا : أراد الله أن يطلع نبيه ﷺ على غوامض طبائعهم النجسة : ... وخوافي

شماثلهم الدينية!... ليكون على بصيرة من الأمر ، وليعرفه أنه وإن تكن اليهود أبناء عم للعرب ، لكن يوجد بين الشعبين فرق كبير ، وكبير جداً ، أستغفر الله ، بل يوجد بينهما فروق ، كما بين الثرى والثرى ، أو كما بين الظلمة والنور ، فذلك قص عليه هذه القصة التي تمثل غرائز أسلافهم تمثيلاً ، وكأن الظروف الآتية هي من أمثلة فن الحفر على المعدن (زنكو غراف) ستخرج إلى الملاء صورة طبق الأصل عن تلك الخلائق « الحميدة » ... والشيم « الشريفة » ... التي من رآها علم صحة القول المأثور « خبث المؤمن في نسله » ، وصدق كلام القائل : « نعم الجدود ، ولكن بئسما نسلوا » .

فكان الله تعالى يقول : أنظر أيها النبي العظيم ، أنظر ماذا عمل رؤساء الأسباط من الكيد والختل والغدر مع يوسف ، فإن سلائهم يهود يثرب سوف يعملون معك ما يقاربه ، ها أن يوسف الصديق هو يوسف الأسباط قديماً ، وأنت ستكون يوسف سلائهم الجديد ، فيهود المدينة كما سبق أن أجدادهم عملوا تلك الفظائع مع يوسف العتيق ، فسوف يعملون نظيرها معك أنت يا يوسفهم الجديد ، وعليه وبالنتيجة ينبغي لك أن تعاملهم بدأً وغاية ، معاملة سلفك لأسلافهم بدأً وغاية .

أقول والمناسبة بين نبينا ﷺ مع اليهود ، وبين يوسف الصديق مع إخوته ظاهرة من شتى الوجوه ، وإليك البيان :

يوسف يهود فلسطين	يوسف « محمد » يهود يثرب
(١) - حسده إخوته ﴿ إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة ﴾ (٨٤)	(١) - حسده يهود يثرب كما قال تعالى ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ (٤: ٥٣)

يوسف « محمد » يهود بئرب	يوسف يهود فلسطين
<p>قيل : الناس سيدنا محمد، وقيل : العرب، بسبب كون بعثته نبياً منهم .</p>	<p>(٢) - أنكر اليهود نبوته</p> <p>(٣) - باغترابه في أرض مصر تمكن فيها كما قال تعالى :</p> <p>﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ، يَتَّبِعُوا مُنَاحِيثُ يُشَاءُ ﴾ (ع ٥٦)</p>
<p>(٤) - إن طوائف اليهود الذين هاجر النبي لجهتهم وتعرف إليهم وعادوهم عداءً شديداً هم ثمانية أيضاً ، وهم :</p> <p>يهود تيمنا ، يهود فدك ، يهود وادي القرى ، يهود خيبر ، وبنو بهدل ، هذه خمس ، وفي المدينة ثلاث قبائل وهم : بنو النضير ، بنو قينقاع ، بنو قريظة .</p>	<p>(٤) - الذين عادوا يوسف عداء ، شديداً كانوا ثمانية فقط ، وهم : شتمون ، لاوي ، دان ، نفتالي ، جاد ، أشير ، يساكر ، زبولون ، وأما رأوبين ويهوذا فكان عداؤهما ليوسف ضعيفاً جداً ، أما بنيامين فأمره ظاهر .</p>
<p>(٥) - بنو النضير هموا بقتله بعد المفاوضة بينهم .</p>	<p>(٥) - إخوته تفاوضوا في شأن قتله .</p>
<p>(٦) - بنو قينقاع عقدوا عهداً مع النبي مقتضاه ترك محاربته وأذاه وأن لا يعينوا عليه أحداً ، ثم عند الظفر</p>	<p>(٦) - قال إخوته : ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾ ، ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ ، ﴿ لَمَّا أَكَلَتْ الذُّبَابُ إِنْثَا إِذَا ﴾</p>

يوسف « محمد » يهود بثرب	يوسف يهود فلسطين
<p>يبدرو ، نبدوا معااهدوا عليه المسلمين ، وأظهروا مكنون ضمائرهم فبدت البغضاء من أفواههم ، فكانوا أول من غدر ..</p>	<p>لخاسرون ﴿ ، ثم ما عتموا أن أخلفوا الوعد وتقضوا العهد .</p>
<p>وكذا بنو النضير - كانوا عاهدوا النبي بمثل معاهدة بني قينقاع ثم نكثوا العهد باجتماع سيدهم « سلام بن مشكم » واتحاده مع أبي سفيان ، ثم إن عظيمهم كعب بن الأشرف ، أخلف العهد أيضاً بكونه صار يحرض قريشاً على محاربة النبي ويهجوهم بالشعر ، ويشير الشقاق بين المسلمين ، وهكذا أبو عفك كان في الشر وينذ العهد ، وكذا فعل بنو قريظة وغطفان من اليهود نقضوا العهد واشتركوا مع الأحزاب في غزوة الحنديق ..</p>	<p>(٧) - يهود فلسطين قالوا : ﴿ ونحن عصابة ﴾ فكانوا أقوياء أشداء وكانوا يفتخرون بذلك ثم</p>
<p>(٧) - يهود بني قينقاع ، كانوا أشد اليهود بأساً ، ولذلك كانوا أول من غدر ، وتصدوا الحرب النبي جهرأ ،</p>	

يوسف « محمد » يهود يثرب	يوسف يهود فلسطين
ثم عفا هو عنهم بتوسط « عبد الله بن أبي » .	تصدوا لحرب يوسف جبراً بإيذائه وإلقائه في الجب وتشريده ، ثم عفا هو عنهم .
(٨) - كذلك حرفاً حرفاً .	(٨) - كانت عقباؤه أنه ظفر بالانتصار عليهم والنفوذ والسطوة .

إذا علمت هذا الذي قررناه عرفت وجه الحكمة الحكيمة في إزال هذه السورة على النبي ﷺ جملة واحدة ، وفي مكة أيضاً قبل الهجرة إلى المدينة ، ولعل هذا أحسن من كل ما قاله جميع المفسرين ، فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين ، ومع ذلك فتأمل ، فلعلك أثقب فيها ، وأوسع علماً واطلاعاً ، فإن الخير مفرق بين العباد ، هدايا الله وإياك لسبيل الرشاد .

أصوات من الجميع
(مرحي مرحي)

الفصل الثاني

قام العلامة سليم الخانيونسي (١) وقال :

في هل اخوة يوسف أنبياء

الذي عليه الأكثر سلفاً وخلفاً أن إخوة يوسف لم يكونوا أنبياء ، أما السلف فلم ينقل عن أحد من الصحابة أنه قال بنبوتهم ، ولا يحفظ ذلك عن أحد من

(١) خان يونس بلدة في فلسطين

التابعين أيضاً ، وكذا أتباع التابعين إلا « ابن زيد » ، وتابعه شِرْذمة قليلة ، وأما الخلف فالملفرون فرَّقوا ، فمنهم من قال بقول « ابن زيد » ، كالبغوي ، ومنهم من بالغ في رده كالقرطبي وابن كثير ، ومنهم من حكى القولين بلا ترجيح كابن الجوزي ، ومنهم من لم يتعرض للمسألة ، ولكن ذكر ما يشعر بعدم كونهم أنبياء ، كأبي الليث السمرقندي والواحدي ، وقد تمسك القائلون بنبوتهم بأدلة رأوها تشهد لهم ، وأهم تلك الأدلة أربع ، وإليك بيانها كما يلي :

(١) - استدلوا على نبوتهم برؤية يوسف لهم « كواكب » والكواكب 'يهتدى بأنوارها ؛ وردّ بأن رؤيتهم كواكب يهتدى بأنوارها بمزل عن أن يكون دليلاً على نبوتهم ، وإنما يكون دليلاً على أن يكون مصيرهم إلى كونهم هادين للناس ، وهو مما لا يلزمه النبوة ، ولو دلّت رؤيتهم كواكب على أن مصيرهم للنبوة لكانت رؤية أمّه قرأ أدل على ذلك ، ولا قائل به ، على أنه ليس كل الكواكب مضيئة ، كما أثبتته علماء الهيئة ، وعلى أن نور الكواكب مستفاد من نور الشمس ، فأنوارهم ليست منهم حقيقة ولكنها من أبيهم الذي هو الشمس ، وعلى أن دلالة « الوحي » على النبوة أقوى من دلالة كلمة كواكب ، وقد قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ ﴾ (٥ : ١١٤) ، وقال تعالى ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى ﴾ (٢٠ : ٣٨) ، وقال تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا : شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ، يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ﴾ (٦ : ١١٢) وقال تعالى ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾ (١٦ : ٦٨) ، وقال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا رَّبُّكَ أَوْحَى لَهَا ﴾ (٩٩ : ٥) ، ولا قائل بأن الحواريين ، أو يوحاند - أم موسى - ، أو شياطين الإنس والجن ، أو النحل ، أو الأرض ، أنبياء ، فإذا لم تدل كلمة (الوحي) من الله على أن الموحى إليه نبي فبالأحرى كلمة « كوكب » لا تدل على النبوة ، فهذا الاستنتاج في غاية الضعف .

(٢) - استدلوا على نبوتهم بكلمة « الأسباط » في قوله تعالى : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ وَالْأَسْبَاطَ ۚ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ ۚ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ۚ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (٢ : ١٣٦) ، قالوا : « فالأسباط » أولاد يعقوب ، والانزال اليهم يدل على نبوتهم ، ونحن نقول في مقابلة ذلك : الحمد لله رب العالمين حقاً إن هذه بشرى عظيمة لنا ، لأن الإنزال الى الأسباط إذا كان يقتضي نبوتهم فنحن أمة محمد جميعاً أنبياء ، بحكم قوله تعالى ﴿ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾ فلنا الفخر ولنا الفرح العظيم ، وظاهر أن هذا واضح البطلان ، فإذا لم تدل عبارة « وما أنزل إلينا » على نبوتنا فلا تدل عبارة الإنزال الى الأسباط على نبوتهم ، وإنما معنى ﴿ أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾ أنزل فينا ، لأن القرآن أنزل فينا بسبب نبينا سيد الوجود (ﷺ) على أن لفظ « الأسباط » ليس معناه أولاد يعقوب لصلبه ، بل ذريته ، كما يقال لهم بنو إسرائيل ، وكما يقال لسائر الناس بنو آدم ، وقوله تعالى ﴿ وَقَطَعْنَا مِنْهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ﴾ (٩ : ١٥٩) ، صريح في أن الأسباط هم الأمم من بني إسرائيل ، وكل سبط أمة ، وقد صرحوا بأن الأسباط من بني إسرائيل كالقبائل من بني إسماعيل ، فحمل الأسباط في الآية على بنيه لصلبه غلط لا يدل عليه اللفظ ولا المعنى ، ومن ادعاه فقد أخطأ خطأ يائساً ، ويكون قد أخطأ لغةً أيضاً ، لأن السبط في اللغة ليس هو الابن الصلي ، بل هو ابن الابن أو ابن البنت ، وأما ما قاله بعضهم من أنهم سموا أسباطاً بالنسبة لإسحاق ، أي أنهم أسباط لإسحاق وأبناء يعقوب ، فهذا مما لا ينبغي أن يلتفت إليه ، إذ لم نسمع أحداً قط سماهم أسباط لإسحاق ، وإنما الناس دائماً يقولون : أسباط إسرائيل أو أسباط بني إسرائيل .

ونظير آية البقرة السابقة آية آل عمران وهي قوله تعالى ﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَالْأَسْبَاطِ ۖ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ ۚ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ۖ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (٣ : ٨٤) ، ونظيرهما آية النساء وهي قوله تعالى ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَالْأَسْبَاطِ ۖ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۖ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ (٤ : ١٦٢) ، ونقول : إن الله تعالى يريد بهذه الآيات الثلاث أن يحاجّ بني إسرائيل أعني يهود المدينة وسواهم ، وإنما يحاجهم بما هو معروف عندهم ، والمعروف عندهم أن كلمة « أسباط » هي إسم للقبائل الإثني عشر المتناسلين من أبنائه الإثني عشر الصليبيين ، هذا هو المعروف عند كافة اليهود ، خاصتهم وعامتهم ، المفسرين منهم والمؤرخين ، وعلماء الشريعة والفقه ، وسواهم ، وهذا أيضاً هو المعروف عند جميع علماء ومفكري النصارى بدون أدنى خلاف ؛ إذا تقرر ذلك فمعنى الوحي أو الإنزال للأسباط أو على الأسباط ، أن الله تعالى أوجد من بين هؤلاء الأسباط أنبياء أوحى إليهم كتباً ، وأنزل عليهم أسفاراً ، مثلاً - كان من سبط « اللاويين » موسى وهرون وفينحاس على قول وهو حفيد هرون و (عالي) على قول وإرميا وزكريا ويحيى عليهم السلام ، وكان من سبط « اليهوديين » إسماعيل وصفتيا وعوبديا ودانيال وحزقيال وعيسى المسيح وداود وسليمان وحجتي عليهم السلام ، وكان من سبط « الجاديين » الياس المدعو في بعض الأسفار « إيليا » (١ مل ١٧ : ١) عليهم السلام ، وكانت من سبط « الزبوليين » يونس المدعو في بعض الأسفار « يونان » (٢ مل ١٤ : ٢٥) ، وكان من سبط « أفرايم » بن يوسف (م) يشوع بن نون عليه السلام ، وكذا

(اللقانة) على قول وهو أبو صموئيل ، وابنه صموئيل المعني بقوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالُوا لِلنَّبِيِّ لَهُمْ ابْنَعْتَ لَنَا مَلِكًا ﴾ (٢ : ٢٤٦) ، ولا بد لي من التنبيه على أنبياء آخرين هم من سلائل « الأسباط » ولكني لا أعلم طريق نسبة كل واحد إلى سبطه ، وذلك مثل « أخيا الشيلوني » و« ملاخي » و« ميخا بن يملة » و« ميخا » المورشي و« ناثان » و« ناحوم » و« عاموس » و« هوشع » و« ياهو » و« يوثيل » و« عدو » و« يعمدو » و« عزرياهو » و« عوديد » و« شمعي » و« حناني » و« حبقوق » و« أوزيا » وغيرهم وغيرهم ، فهؤلاء الأنبياء جميعهم من علم منهم سبطه ومن لم يعلم ، كلهم داخلون في كلمة « أسباط » ولا يخفى أنه لو أريد ذكر أسمائهم جميعاً ، كل واحد بمفرده لطال الحال وكثر الكلام جداً ، فلذلك اقتصر كتاب الله تعالى على التصريح بأسماء المشهورين منهم ، واكتفى بالإشارة لغير المشهورين منهم ، بكلمة « أسباط » .

ولنا أن نجيب بجواب ثان عن معنى الإزال أو الوحي للأسباط أو عليهم ، بأن نقول : إن معنى ذلك أن الوحي أنزل لأجلهم ، أي لأجل منفعتهم ، قال تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْمًا ۚ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ﴾ (١١٤ : ٦) ، وهذا على إرادة القول ، أي قل أيها النبي : أغير الله أطلب حاكماً يحكم بيني وبينكم أيها المشركون ، ويفصل الحق من البطل ، ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ ﴾ ، أي أنزل لأجلكم القرآن (مفصلاً) أي مبيناً ، وفيه الفصل بين الحق والباطل ، والشهادة لي بالصدق وعليكم بالافتراء ، وقال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ (٤٤ : ١٦) ، وقال تعالى : ﴿ إِنِ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ، وَلَا تَتَّبِعُوا مِمَّنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ، قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٢ : ٧) ، وقال تعالى : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ

(رجعنا لا کنا فیہ) :

ونظير كلمة أسباط ههنا كلمة « بني إسرائيل » ، في نحو قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ (٢ : ٤٧) وقوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ (٢ : ٨٣) وقوله : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ (٥ : ٧٥) فكما أن كلمة « بني إسرائيل » يراد منها قبائل إسرائيل فكذلك كلمة « أسباط » يراد منها القبائل التي تناسلت من أبناء يعقوب ، ولم يقع في القرآن الكريم كلمة تعني أولاده الصليبيين إلا قوله : ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ جَسَسَ يَعْقُوبُ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبْنِيهِ : مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي ؟ ﴾ (٢ : ١٣٣) فهذا التعبير وأمثاله يراد منه في الدرجة الأولى الأبناء الصليبيون وقد يشمل مع ذلك أبناءهم أيضاً ، وأما لفظ « أسباط » فلا يشمل

الأبناء الصليبيين قطعياً ، لا لغة ولا شرعاً ، ولا عرفاً ، ولا في تعبير من عبارات اليهود ولا النصارى ولا الإسلام .

هذا ما اطلعت عليه نقلته إليك ، فتنبه له وإلا فالسلام عليك .

(٣) - استدلووا على نبوة إخوة يوسف بقوله تعالى : ﴿ وَيَتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ ، كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ﴾ (ع ٦) قالوا : النعمة هي النبوة التي كانت في إبراهيم وإسحاق ، وآل يعقوب ههنا هم أولاده الإثني عشر ، وحينئذ فيجب أن يكونوا أنبياء .

ونحن نقول : لا دليل على أن إتمام النعمة هو بالنبوة خاصة ولادليل على أن المراد « آل يعقوب » أبناء الصليبيين ، والتشبيه في قوله : كما أتمها .. لـخ لا يقتضي أن يكون المعنى الجامع بين طرفي التشبيه هو خصوص النبوة ، فهذا الدليل لا يثبت المدعى .

(٤) - استدل بعض الطلبة على نبوتهم بقوله تعالى في سورة المؤمن ﴿ وَأَوْزَرْنَا بني إسرائيل الكتابَ (٤٠ : ٥٣) ، وهو استدلال في غاية الضعف ، إذ لم يقل أحد من المفسرين أن المقصود من كلمة (بني إسرائيل) هنا أبناء يعقوب الصليبيون الإثني عشر ، بل المراد أن الكتاب كان في سلالة يعقوب ، وقد أجمع المفسرون والمحدثون والمؤرخون وغيرهم من المسلمين والنصارى واليهود أن الله تعالى لم ينزل كتاباً على أبناء يعقوب الصليبيين ، حتى ولا على يوسف الذي هو نبي عندنا نحن المسلمين ، فهذه الآية لا تدل لمدعي هذا الطالب ، كيف وقد قال تعالى في سورة فاطر : ﴿ ثُمَّ أَوْزَرْنَا الكتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ، فَمَنْ ظَلَمَ لِنَفْسِهِ ، وَمِنْهُمْ مَقْتَصِدٌ ، وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ (٣٥ : ٣٢) ، فهؤلاء الذين أورثوا الكتاب هم أمة محمد ﷺ ورثوه بمدالمتين

قبلهم ، اليهود والنصارى ، فهذه الآية ، في فاطر ، إذا لم تقتضي نبوة كل فرد من أفراد الأمة المحمدية ، فكذلك آية سورة المؤمن لا تقتضي ذلك البتة .

وأما الجمهور ، وبعبارة أصح الأكثرية الساحقة من المسلمين فإنهم لا يعترفون بنبوة واحد من آباء الأسباط هؤلاء الأحد عشر ، ولهم على ذلك عشرة أدلة ، إليك بيانها :

١ — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ (٥٤) يفيد أن القوم كانوا بحيث يمكن أن يكون للشيطان عليهم سبيل ، وأنه يفعل فيهم ويؤثر عليهم ، وهذا ينتج أنهم لم يكونوا أنبياء ، لأن الأنبياء وإن لم يكونوا معصومين من الوسوسة فهم معصومون من العمل بها ، ولكن اخوة يوسف عملوا بها ، فكادوا له كيداً ؟

٢ — القول بنبوتهم لم يحكه القرآن ولا ثبت في حديث ، ولا نقل عن أحد من الصحابة ، ولا روي من أحد من التابعين وكذا لم يقله أحد من تابعي التابعين إلا « ابن زيد » وتبعه البغوي وشرذمة قليلة ؛ وأما نحن فنقول : لا عبرة بألف عالم مثل ، ابن زيد والبغوي ، أثبتوا لشخص نبوة بدون برهان نقلي صريح من كتاب أو سنة أو على الأقل من تاريخ معتبر ، وإن إثبات نبوة أحد بدون دليل شرعي محظور شرعاً ، بحيث لا يقل في الافتيات على الله عن إنكار نبوة أحد ممن ثبتت نبوته ، فهذا محظور وهذا محظور على حد سواء .

٣ — كلمة « أسباط » التي اتخذوها دليلاً لهم على القول بنبوة هؤلاء هي بذاتها دليل لنا على عدم نبوتهم لأن لفظ سبط هو ابن الابن أو ابن البنت ، وليس هو الابن الصليبي ، فلو أراد تعالى النص على نبوة أبناء يعقوب لصلبه لقال : « آباء الأسباط » وقد سبق لنا بسط القول في هذه الكلمة ، وما بالمهد من قدم .

٤ — إن الله سبحانه لما أراد أن يذكر الأنبياء من سلالة إبراهيم قال : ﴿ وتلك حججنا آتينها إبراهيم على قومه ، نرفع درجات من نشاء ، إن ربك حكيم عليم ، ووهبنا له إسحق ويعقوب ، كلا هدينا ، ونوحاً هدينا من قبل ، ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهرون وكذلك نجزي المحسنين ، وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس ، كل من الصالحين ، وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلاً فضلنا على العالمين ﴾ (٦ : ٨٣-٨٦) فذكر يوسف ومن معه ، ولم يذكر واحداً من إخوته ولو كان إخوة يوسف قد نبئوا كما نبئ ، ولذكروا كما ذكر ، خصوصاً وإن المناسبة قوية جداً ، فلما لم يذكر واعم قوة المناسبة دل على أنهم ليسوا بأنبياء ، فتخصيص يوسف بالذكر دون إخوته يدل على عدم نبوتهم .

٥ — إن الله تعالى ذكر للأنبياء عليهم السلام من المحامد والثناء ما يناسب النبوة وإن كان قبلها ، وأما هم فلم يذكر لهم شيئاً من هذا القبيل ، وجاء في الحديث : « أكرم الناس يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم ، نبي من نبي » ، فلو كانت إخوته أنبياء لكانوا قد شاركوه في هذا الكرم ، ولذكروا في القرآن ولو بمحمدة واحدة ، وتقول الحكماء : « البدايات دليل النهايات » ، ويقول الشاعر :

وإذا رأيت من الهلال غموه أيقنت أن سيكون بدرأ كاملاً

وتقول العامة : « الديك الفصيح من البيضة يصيح » ، وقد قالت خديجة (ض) لما فجأ الوحي النبي ﷺ وخاف من ذلك : « كلا والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق » ، وأرجوكم أن لا تنسوا « هرقل » واستدل به بما استدله في حديث أبي سفيان المشهور ، لما سأل عن صفات النبي ﷺ .

٦- ذكر أهل السير أن إخوة يوسف كلهم ماتوا بمصر ، وهو أيضاً مات بها ، لكن أوصى بنقله إلى الشام ، فنقله موسى عليه السلام ، ولم يذكر في القرآن الكريم أن أهل مصر قد جاءهم نبي قبل موسى وهرون غير يوسف ، ولو كان منهم لذكر ، قال تعالى : ﴿ ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات ، فما زلتم في شك مما جاءكم به ، حتى إذا هلك قلتم لننبيغث الله من بعده رسولا ﴾ (٣٤:٤٠) ، نحن نعلم أنه كان لإخوة يوسف حياتان ، الحياة الأولى حياة جرائم وكذب وختل وعقوق ، وهذه في فلسطين ، وإذن لم يكونوا أنبياء في فلسطين ، والحياة الثانية حياة استقامة وطاعة وتوبة وأوبة ، وهذه كانت في مصر وهم في مصر لم يكونوا أنبياء ، كما نتعلمه من القرآن الكريم ، ولم يثبت أنهم رجعوا من مهجرهم مصر إلى فلسطين حتى يتنبأوا فيها ، بل ثبت تاريخياً أنهم ماتوا بمصر ، وإذن لم يكونوا أنبياء أصلاً ، لافي فلسطين ولا في مصر ، وأما ماهو مشهور عند جبهة المسلمين من أن « رأوين ، مدفون حوالى « يافا » على شاطئ البحر ، وإن « شمعون » مدفون في محلة « الشاغور » من دمشق الشام وفي صيدا أيضاً ، فكل ذلك نتيجة الجهل بالتاريخ ، وكذا ما ذكره العلامة ابن طولون في كتابه « اللغات البرقية » من أن « لاوي » مدفون في قرية يقال لها « قرية لاوي » و « بظهر الحمار » قرية بها قبر « بنيامين » « وباربد » أربعة من أولاد يعقوب عليه السلام وهم : دان ، يساكر ، زبولون ، جاد ، وفي « رومة » قبر يهوذا بن يعقوب ، وفي « مدين » قبر إثنين من أولاده وهما أشير ونفتالي ، فكل هذا وهم لا أصل له .

٧- كثرة مانسب إليهم من حسدهم ليوسف وتضليل أبيهم (٨ع) ، ومن إرادتهم قتله أو طرحه أرضاً (٩ع) ، ومن إجماعهم على إبقائه في غيابة الحب (١٠ع) ،

ومن ختلهم لأبيهم وحلفهم إنهم ناصحون وحافظون ، ثم خلف هذا الوعد قصداً من أول الأمر (١١٤-١٥) ، ومن بكائهم كذباً ، وإخبارهم كذباً ، ومن سلبهم أخاهم قميصه واستعمالهم التشليح ، ومن تلطيخهم القميص بالدم كذباً (١٦٤-١٨) . ومن أنهم شر مكاناً (٧٧٤) ومن الجهل الذي هو خلاف العلم أو خلاف الحلم ، ومن الوقوع في المعصية عمداً الذي هو معنى قولهم ﴿ تَاللّٰهِ إِن كُنَّا لَسَاطِئِينَ ﴾ (٩١٤) ، الأمور المدهشة الحاوية للعقوق والجور والأقوال السافلة الى أخط دركات الخسة ، الأحوال التي يتزده عنها مقام النبوة ﴿ الله أعلم حيث يجعل رِسَالَتَهُ ﴾ (١٢٤:٦) ، وقولهم ﴿ لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنَا ﴾ (٩١٤) لأن الشرير لا يكون نبياً ، إنما الذي أوثر على غيره هو النبي دون الغير . هذا رأيي ، فما ترون ؟ صوت من الجميع « موافق موافق » .

الفصل الثالث

وهنا قلم الشيخ محمود الخليلي^(١) وقال :

في شيء من حياة إبراهيم واسحق ويعقوب عليهم السلام

قال تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِيَ الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ، إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ، وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمَنْ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴾ (٣٨ : ٤٥-٤٧) ، وعليه وبمناسبة ذكر هؤلاء

(١) الخليل : بلد في فلسطين

الأنبياء الكرام في هذه السورة ، ومناسبة كونهم آباء لبطل هذه القصة ، وموضوع هذه السورة ، وهو يوسف عليه السلام - يجدر بنا أن نأتي على شيء من تاريخ حياة هؤلاء الشيوخ الكبار الثلاثة عليهم الصلاة والسلام فنقول :

(في شيء مهم من حياة إبراهيم عليه السلام)

ولد إبراهيم سنة (٢٦٢٠) ق.هـ. وأبوه هو « آزر » المدعو في سفر التكوين بلفظ « تارح » ، الذي معناه في اللغة العبرانية « متكاسل » قلت ولعله لأجل ذلك عدل القرآن الكريم عن هذا الاسم المشعر بالكسل إلى الاسم الأول ، وإبراهيم هو العاشر من نسل « سام » ولد في أور الكلدانيين ^(١) ، وقد كان نبياً ورسولاً من الله تعالى للكلدان ، كما يعتقد كذلك سائر المسلمين ، وقد دعاه سفر التكوين نبياً (تك ٢٠ - ٧) لكن أهل الكتاب رغمًا عن هذا التصريح لا يعتقدون نبوته ، ولذلك فسروا « النبي » هنا بالناسك ؛ وقد امتحن بأن أُلقي في النار ، فكانت عليه برداً وسلاماً كما في القرآن الكريم ، ولكن أسفار العهد العتيق الذي يبد اليهود والنصارى اليوم لا تذكر شيئاً من هذه الحادثة العظيمة ولا تشير إليها ، وإنما بعض أهل التفسير عندهم مثل صاحب « مِيزَانِ رَبَّاء » تعرض لها وذكرها بصراحة ، وكذلك ذكرت في التلمود ، وعلى كل الأحوال فالقرآن الكريم الذي نزل مهيئاً على الكتب السابقة أخبرنا عن الله تعالى بهذه الحادثة ، وهو أصدق الكتب السماوية الذي لم يطرأ عليه أدنى تحريف ولا زيادة ولا نقصان ، وأما أهل الكتاب فقد ﴿ نَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ (٥: ١٤ و ١٥) ، ولذلك فيجب علينا في مثل هذه المسائل الرجوع لكلام الله المتين

وبعد حادثة إلقائه في النار ونجاته منها، إقتضت الظروف والحكمة الإلهية أن يهاجر من بلاد الكلدان ، فأمره الله بالهجرة ، فامثل أمر ربه قائلاً ﴿ إني مهاجرٌ إلى ربي ﴾ (٢٩: ٢٦) ، فرحل من أور الكلدانيين إلى « حاران » وهي بلدة فيما بين النهرين ^(١) ، ثم منها إلى فلسطين ، فقد هاجر هجرتين ، أو هجرة موزعة لموضعين ، وربما لهذا يقال له « العبراني » الذي يمكن تأويله « بالسائح » أو « المهاجر » ولكن المشهور أن سبب تسميته بذلك عبوره نهر الفرات ، ولقد روى لنا التاريخ أن إبراهيم عليه السلام اجتاز سورية وفينيقية وبلاد العرب ، وأنه أتى لدمشق وأقام فيها مدة نحو سبع سنوات ، وأنه ذهب الى الحجاز ومصر ، وقد وصفه القرآن الكريم بأنه كان صديقاً نبياً ، وأنه كان كريماً مطبوعاً على أكرام الضيوف يقدم لهم الحنيد ، أي اللحم المشوي بالرّضف ^(٢) في الأخدود ، ويختاره لهم من سمان الحيوان ، وقد دعي في الحديث بأنه خليل الرحمن ، وورد في القرآن ﴿ واتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾ (٤: ١٢٤) ، وقد هاجر مع إبراهيم زوجته « ساراي » بنت آزر أو تارح ، فهي أخت إبراهيم انما من اخيه فقط فليست اذن بشقيقة له ولذلك جاز له ان يقترب بها عندهم ، وكان معه ايضاً ابن اخيه « لوط » عليه السلام ، ثم سكن لوط شرقي الأردن ، الى ذلك السهل المنصب حيث كانت سدوم وعمورة ، وبقي عمه ابراهيم غربي نهر الأردن ، يتردد بين « شكيم » التي يقال لها اليوم « نابلس » و « بيت ايل » التي يقال لها اليوم « بَتَّيَر » ، و « قرية اربع » التي صارت يقال لها « حبرون » ، ثم في العهد الإسلامي صارت يقال لها « خليل الرحمن » ، « بئر شبع » التي يقال لها اليوم « بئر السبع » ، و « جرّار » التي

(١) دجلة والفرات

(٢) الرضف الحجارة المحماة

يقال لها اليوم «خربة أم جرار»، و«شور» و«قادش» على تخم مصر، ومكة المكرمة والحجاز وما بين ذلك كله من البلاد المأهولة في ذلك العصر، ونزلت عليه عشر صحف كما قال تعالى: ﴿صُحُفَ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾، وكان محيط إبراهيم غارقاً في عبادة الأوثان، سواء أكان في العراق أو شرقي الاردن أو «آرام» أي دمشق أو فلسطين أو مصر أو الحجاز، ولكن الله تعالى آتاه رشده، وعلم منه أحوالاً بديعة وصفات مرضية منذ الصغر، كما قال سبحانه ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ﴾، وكنّا به عالمين ﴿(٢١: ٥١)﴾، وأما ماورد في سورة الأنعام في قوله ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا﴾، قال هذا ربي، فلما أفل، قال لا أحبّ الآفلين، فلما رأى القمر بازغاً، قال هذا ربي، فلما أفل، قال لئن لم يهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ، فلما رأى الشمس بازغة، قال هذا ربي، هذا أكبر، فلما أفلتت، قال يا قوم إني بريء مما تُشْرِكُونَ ﴿(٦: ٧٦-٧٨)﴾ فإنما هو قول من ينصف خصمه مع علمه بأنه مبطل، فيحكي قوله كرجل غير متعصب لمذهبه، وليس هو من قبيل النظر والاستدلال لنفسه، فقد قال عليه السلام، أثناء ذلك الحوار: ﴿لئن لم يهْدِنِي رَبِّي، لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ ﴿(٦: ٧٧)﴾، وقال: ﴿يَا قَوْمِ إني بريء مما تُشْرِكُونَ﴾ ﴿(٦: ٧٧)﴾ فاعترف وصرح بأن له رباً ليس هو الكواكب، ثم أعلن البراءة من شرك قومه، لا من شرك نفسه حاشاه، فدل على أنه لم يكن فيه شرك، كيف وأن الأنبياء معصومون من مثل ذلك قبل النبوة كما بعدها، وكان اسم إبراهيم منذ الصغر «أبرام» كما سماه به أبوه، ومعناه «أب مرتفع» أو «أبو العلاء»، ولكن الله فيما بعد سماه «إبراهيم»، ومعناه «أبو جمهور عظيم» وكذلك كان اسم زوجته «ساراي» أي أميرتي فغيّره الله تعالى إلى «سارة» أي «أميرة»، وكانت

سارة عاقراً ، وكان لها أمة مصرية اسمها « هاجر » فوهبتها لإبراهيم فدخل بها
فرزق منها « بإسماعيل » عليه السلام ، ثم لما صار عمره مئة سنة وعمر زوجته سارة
تسعين سنة ولد منها « إسحق » ، وكان إسماعيل حين ولد لإسحق ابن (١٤) سنة ،
ثم إن الله تعالى أمر إبراهيم أن يأخذ هاجر وإسماعيل إلى مكة ليسكننا هناك ،
وماتت سارة ولها من العمر مئة وسبع وعشرون سنة ، وكان عمر إبراهيم إذ ذاك
(١٣٧) سنة فابتاع إبراهيم « مغارة المكفيلة » وهي ما يقال لها « الغار الشريف »
من بني حث لتكون مدفناً لزوجته ومن يموت بعدها ، ثم بعد موت سارة تزوج
إبراهيم زوجة اسمها « قطورة » وهذه أيضاً كانت جارية له ، فولدت له ستة أولاد ،
وهم زمران ، يقشآن ، مدان ، مديان ، يشباق ، شوحا ، وانتقل إبراهيم إلى
رحمة الله وله من العمر (١٧٥) سنة ودفنه إسماعيل وإسحق في حبرون ^(١) ، في
ذات المغارة التي دفنت فيها زوجته ساره ، وكانت أملاكه متسعة جداً
وعديدة ، وكان زيادة على نبوته ورسالته أميراً في الأرض شجاعاً متفناً في أساليب
الحرب وحليها ، وكان عنده عدد عديد من الحشم والعبيد ، وبينهم (٣١٨) عبداً
من الذين يحملون السلاح ، وقبل الختام نقول : إن إبراهيم حصل في غربته
على اعتبار عظيم حيثما توجه ، واشتهر بدمائه أخلاقه حتى ورد في شأنه قول الله
﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ الْحَلِيمَ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴾ (١١ : ٥٥) وما زال ولا يزال
اسمه مقروناً بالاحترام عند أهل الملل سيما اليهود والنصارى والمسلمون ، فجميعهم
يحبهونه ويحترمونه ويدكرون اسمه مقروناً بالإكرام والإجلال ولذلك ورد عندنا
« اللهم صل على محمد كما صليت على إبراهيم » ، وأمرنا بتكرار هذه الصيغة الدعائية
في صلواتنا دائماً ، حيث معنى هذه الجملة الدعائية : اللهم عظم محمداً في نفوس جميعهم

الطوائف وكل أصحاب الملل كما عظمت كذلك إبراهيم ، واجمل محمداً مبارك كافي
نظر كافة العالم كما أن إبراهيم هو مبارك في نظر العموم ، فكأننا ندعو لنبينا بأن
يكون معظماً محبوباً مقبولاً عند كل أهل الملل كما كان إبراهيم كذلك ، وبالتالي
كأننا نطلب من الله في صلواتنا أن يؤمن بنبينا جميع الناس وبصير الكل من أتباعه
وعلى دينه ، وهذا الذي نرجوه من الله تعالى في مستقبل الأيام ﴿ لِيُظَاهِرَهُ عَلَى
الدينِ كُلِّهِ ﴾ (٩ : ٣٤) ، ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى
يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ، أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ؟ ﴾
(٤١ : ٥٣) وقد ذكر إبراهيم في هذه السورة مرتين ، مرة في مقام أن الله
تعالى أتم نعمته عليه (ع ٦) ، ومرة في مقام بيان أن ملة إبراهيم هي التوحيد .
(ع ٣٨) والواقع أن إبراهيم هو رئيس مدرسة التوحيد ، وأن التوحيد الموجود
في اليهودية والنصرانية والإسلام أصل منبعه إبراهيم عليه الصلاة والسلام ..

وتابع الشيخ محمود الخليلي قوله :

في سمي ، عن حياة إسحق عليه السلام

إن معنى كلمة « إسحق » الحرفي « يَضْحَك » كما فهموه من الأصل العبراني ،
وعليه فهو فعل مضارع ، أو معناها « إِضْحَاكَ » أي « ضحك » كما سمعناه من
أحد الحاخامين ، وعليه فهو مصدر ، والسبب في تسميته بذلك هو أن الملك لما
جاء بالبشارة به ، ضحكت « سارة » لأنها عجوز ، إذ كانت وقت البشارة به بنت .
(٩٠) سنة ، وكان زوجها ابن مئة ، وكانوا في ذلك الوقت يسمون بأسماء الحوادث .
تذكراً لها فلذلك سمي « إسحاق » .

ولد إسحاق في مدينة من مدن فلسطين كان اسمها « جرار » واقعة الى الجنوب الشرقي من غزة ، وربما هي المكان المعروف اليوم بـ « خربة أم جرار » ، وما زال إسحق يرعى غنم أبيه في مراعي كنعان الياضنة الخضراء الى أن بلغ الأربعين ، وكان أبوه مهتماً بزواجه بواحدة من بنات عشيرته بين النهرين ، لأنه كان يفضلهن على بنات الكنعانيين ، ولذلك أرسل عبده « عازار » الدمشقي إلى ما بين النهرين ليختار له زوجة من هناك ، (وذلك بعد أن توفيت سارة) ، فسار العبد والعناية الإلهية تصحبه حتى جاء إلى « حاران » « في فدان آرام » فوقح اختياره على « رفقة » بنت « بتوئيل » بن « ناحور » أخي إبراهيم ، فتكون بنت ابن شقيق إبراهيم ، فعاد بها إلى ابن سيده فاقترن بها ، ولما كان إسحاق ابن ستين سنة رزقه الله عيسو ويعقوب في بطن واحد ، وكانت سكنى إسحاق بعد وفاه أبيه في « أَحْيَ رُئِي » ويقال لها اليوم « عين مويلح » ، وتارة في « جرار » مولده . وحيناً في « مَمْرَا » وهي غابة بقرب حبرون ، ثم توفي وله من العمر (١٨٠) سنة ، وكانت وفاته بعد عياب حفيده يوسف بمصر باثنتي عشرة سنة ، ودفنه إبناه عيسو ويعقوب في القار الشريف حيث دفن إبراهيم وزوجه سارة ، وحيث دفنت رفقة امرأة إسحق .

وكان إسحق حليماً محباً للسلام ، امتاز بالبرقة والأنس ، وأما وصف « الفيور » الذي يصفه به أهل فلسطين ، فلا يقتضي خلاف ما ذكرنا ، فقد وُصف الله تعالى في الحديث بالفيور وكذا نبينا ﷺ ، وقد كان النبي أحلم العلماء وأرق من النسيم . وكان إسحق نبياً ومرسلاً موحى إليه ، قال تعالى : ﴿ قُولُوا : آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾ (٢ : ١٣٦) وقال تعالى : ﴿ وَبَشَرْنَا بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (٣٧ : ١١٢) ، وبارك الله على إسحق

في جوار « لَحَاحِي رُئِي » وأكثر ماله ونمت فيه المعارف الآلهية ، قال تعالى : ﴿ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَقَ ﴾ (١١٣ : ٣٧) ، وقد ذكر إسحق في هذه السورة اليوسفية مرتين ، مرة في مقام إتمام النعمة (ع ٦) ومرة في مقام التوحيد (ع ٣٨) .

هذه عقيدتنا في إسحق عليه السلام ، وأما أهل الكتاب فليس هو عندهم بنبي ، مع أنه يوجد في أسفارهم ما يصرح بأن الرب ظهر له وكلمه وأمره ونهائه وأوصاه بوصايا وبشره ببشائر حسنة ، وأعطاه مواعيد جميلة (تك ٢٦ : ٢ - ٦ و ٢٨ : ٣ و ٤) وكل هذا كان بدون واسطة فهو ونحوه يستدعي أنه نبي ، كما هو عندنا .

واستمر الشيخ التحليلي يقول :

في سبي عن مباحة يعقوب عليه السلام

اشتق إسم « يعقوب » من الحادثة التي وقعت عند ولادته ، لأنه خرج من بطن أمه ويده قابضة بعقب أخيه « عيسو » لأنه توأمه الذي خرج بعده ، وقد كان يغلب أن يكون بين ولادة أحد التوأمين والآخر ساعة أو أكثر ، لكن يعقوب ولد على أثر عيسو بلا تأخر ، وهذا معنى أنه ولد ويده قابضة على عقب أخيه ، أي ولد كأنه ماسك بعقبه ، حتى لم يكن بين المولدين زمان يذكر ، فالعبارة من قبيل الكناية أو التمثيل ، وعلى كل سواء أكان هذا الكلام حقيقة أو تمثيلاً فمضى الكلمة « يعقوب » يمسك العقب أو يعمقب أو يتعمقب أو عاقب أو متعقب كما أفاد ذلك كله صاحب « السنن القويم » .

ويعقوب هو أحد الآباء الثلاثة الكبار للعبرانيين ، وهو ابن إسحاق من زوجته « رفقة » ، وكان أبوه حين ولادته ساكناً عند بئر « لَحْيَ رُئِي » التي يقال لها اليوم « عين مؤيلح » ، ولأسباب جرت من يعقوب على رأس أخيه عيسو خاف يعقوب من أخيه عيسو أن يقتله فرحل إلى « حاران » في « فدان آرام » عند خاله « لابان » أخي « رفقة » ، وهو ابن « ناحور » ، وقد أراه الله عند « بيت إيل » في نومه رؤيا مجيدة ، ووعده بأن يعطيه الأرض التي هي أرض الميعاد فتكون له ولنسله ما داموا مستقيمين ، وبيت إيل هذه هي التي تدعى اليوم « بيتين » بين القدس ونابلس ، وبعدما وصل إلى خاله « لابان » زوجه بنته الكبرى « لَيْثَة » ثم أعطاه أختها الصغرى « راحيل » فاجتمعا عنده معاً ، لأن هذا الجمع كان جائزاً في شريعتهم ، وخدم يعقوب خاله لابان عشرين سنة ، ثم رحل قافلاً إلى فلسطين ، فسكن في « شكيم » حيث اشترى أرضاً هناك ، ثم أتى بإلهام السهي إلى « بيت إيل » ، وهناك ظهر الملك وغير اسمه من يعقوب إلى « إسرائيل » الذي معناه كما مر « أمير الله » أو « قوي الله » أو « مجاهد الله » ، ثم أتى « إفراة » التي دعيت « بيت لحم » فولدت راحيل بنيامين ، وماتت هناك ، ثم ارتحل إلى حبرون حيث أبوه إسحاق فيها ، ثم إلى سيلون وفيها سكن إلى زمن حادثة ولده يوسف ، ثم رحل لمصر وبها توفي بعد (١٧) سنة ، ومن أغرب الصدف أن ابنه يوسف أقام عنده في فلسطين في صغره (١٧) سنة ، ثم بالمقابلة أقام أبوه يعقوب عنده بمصر (١٧) سنة ، ثم توفي عن (١٤٧) سنة ، وحنط أطباء مصر جثته وجاء بها يوسف وإخوته إلى حبرون ودفنوها في القار الشريف ورجعوا لمصر حيث عيالهم ومعيشتهم .

وكما نعلم أن اسم « عدنان » أو « قريش » مثلاً يطلق على كامل القبيلة العدنانية

أو القرشية ، فكذا إسم يعقوب وإسرائيل كان يطلق على كامل أمته (تث ٣٣ : ١٠ ، ومز ١٤ : ٧ و ٢٢ : ٢٣ و ١٠٥ : ٦ و ١٣٥ : ٤ واش ١٤ : ١ و ٤٤ : ٢ ومي ٧ : ٢٠) وهلم جرأ . ومن هذا القبيل ما في قوله تعالى ﴿ كُنْطُ الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة ﴾ (٣ : ٩٣) ، فقوله « إلا ما حرم إسرائيل » يريد منه الشعب ، أي كانوا سبباً في التحريم كما قال تعالى ﴿ فَبِظُلْمٍ من الذين هادوا حَرَّمْنَا عليهم طيباتٍ أُحِلَّتْ لهم ﴾ (٤ : ١٥٩) .

وقد كان المحيط والعصر الذي فيه يعقوب بل وأبوه إسحق وجده إبراهيم - محيطاً ملوئاً بالتوثن وعصراً من عصور الشرك في فلسطين وسورية ومصر والكلدان وأشور وغيرها رغم شدة اجتهاد هؤلاء الأنبياء الكرام في تخفيف وطأة التوثن وهداية الخلق للتوحيد ، ولهذا الذي قلنا يظهر لك سر قوله تعالى ﴿ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت ، إذ قال لبنيه : ما تعبدون من بعدي ؟ - قالوا : نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق إلهاً واحداً ، ونحن له مسلمون ﴾ (٢ : ١٣٣) وههنا أتذكر ، والشئ بالشئ يذكر ، أن مُشَرِّجَنَا كما سمي يعقوب ثم إسرائيل ، فقد سمي أيضاً « هَبَّة » و « نَافِلَة » قال تعالى : ﴿ ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة ﴾ (٧٢ : ٢١) ، وإنما سمي هو وأبوه « هَبَّة » لأنها جاءا بعد شيخوخة وهرم إبراهيم وسارة وعقرها ، إذ كانت عمر إبراهيم (١٠٠) سنة وعمر سارة (٩٠) سنة ، وكل ما جاء على غير السنن المعتادة يقال له هبة ، كأنه بلا تعب أو بلا سبب ، وإنما سمي يعقوب نافلة ، لأنه عطية تطوع من الله بلا سابقة مدأل أو لأنه تابع في الهبة لأبيه الموهوب ، كالنافلة التي تكون

بعد الفريضة ، وقد عاش الموهوب الأول وهو إسحق مع أبيه إبراهيم (٧٥) سنة ، كما أن الموهوب الثاني وهو يعقوب عاش مع جده إبراهيم (١٥) سنة ، وبذلك ظهر جلياً وجه المنّة على إبراهيم بهذه النافلة المباركة ، على أن وجه المنّة لا تتوقف على شيء من ذلك ، فقد امتن الله على آدم بخلق نبينا ﷺ من سلالة ، ثم بهذا الذي قررناه هنا يظهر الجواب عن سؤال قرره مبشروا البروتستانت خلاصته : إن القرآن يقول : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾ (٤٩ : ١٩) ، ويقول : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ (٢٧ : ٢٩) ، ويقول : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾ (٧٢ : ٢١) ، فقد تعرض القرآن للابن الصلي وابن الإبن وامتن بهما على إبراهيم ولم يذكر في هذا المقام ، مقام المنّة لإسماعيل مع انه ابن صلي ، فما ذاك إلا لكونه أخطأ في المنزلة جداً من أخيه وابن أخيه ، أو لكونه ليس أهلاً في الفضل بحيث يمتن به على أبيه ، هذه هي خلاصة جهالة مبشري البروتستانت ، وأما جوابنا على ذلك فإن هذا السؤال ناشئ عن عدم الوقوف على سائر آيات القرآن الكريم ، وإلا فقد قال تعالى في سورة الأنعام : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ - إِنْ أَنْ قَالَ - وَإِسْمَاعِيلَ ﴾ ، وقال إبراهيم في مقام الثناء على الله تعالى بهذه الهبة : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ، إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ (١٤ : ٣٩) ، فاستدلال البروتستانت على أن إسحق بل ويعقوب في نظر القرآن أهم من إسماعيل إنما هو نتيجة جهل بآيات القرآن الكريم .

ويعقوب عندنا نبي ورسول بحكم الآيات الكريمة والأحاديث الصحيحة ، وليس هو كذلك عند أهل الكتاب ، مع أن أسفارهم تصرح بأن الرب ظهر له وكله وبشره ووعدّه بمواعيد جميلة (تك ٢٨ : ١٢ - ١٥) وكان هذا كله بدون

واسطة ، وهذا المقدار يدل على نبوته ، وقد ولد يعقوب سنة (٢٤٠٧ ق.ن) (١) وتوفي سنة (٢٢٦٠ ق.ن) فيكون عمره (١٤٧) سنة ، وهاجر لمصر هو وعائلته سنة (٢٢٧٦ ق.ن) .

الفصل الرابع

وقام تقي الدين المقدسي (٢) وقال :

في زوجات يعقوب عليه السلام

إن يعقوب رحل من « حبرون » الى « حاران » بين نهري المراق ليعيش عند خاله « لابان » وتزوج من هناك ، فوصل حاران وكان في طريقه على طرفها بئر وهناك ثلاثة قُطْعَمَان غنم رابضة عند البئر ، لأنهم كانوا يسقون القطعان من تلك البئر التي في الحقل ، وكان على فم البئر حجر كبير فكانت جميع القطعان تجتمع هناك فيدحرجون الحجر عن فم البئر ويسقون غنمهم ، ثم يردون الحجر الى مكانه ، فقال يعقوب للرعاة : « يا إخوتي من أين أنتم ؟ » - قالوا : « نحن من حاران » ، - فقال لهم « هل تعرفون « لابان » بن « بتوئيل » بن « ناحور » ؟ » فقالوا : نعم ، - فقال لهم : « هل هو سالم بخير ؟ » - فقالوا : « هو سالم ، وهاهي « راحيل » ابنته آتية مع الغنم » - فقال : « لماذا لاتسقون غنمكم ؟ » - قالوا :

(١) ق . ن أي قبل النبي محمد صلى الله عليه وسلم سنة شمسية

(٢) نسبة الى بيت المقدس

« لا تقدر حتى تجتمع جميع رعاة القطعان ويدحرجوا الحجر عن فم البئر ، فمتى اجتمعوا رفعوا الحجر وسقى كل منهم قطيعه في نوبته » - وبينما هم يتحاورون أنت « راحيل » مع غنم أبيها « لابان » ، لأنها كانت ترعاها ، ولم تزل عادة العرب ونحوم من أهل البر الى اليوم ، وكان لما أبصر يعقوب بنت خاله لابان ، وغنم خاله لابان ، أن تقدم ودحرج الحجر عن فم البئر وسقى غنم خاله لابان ، وأعلن يعقوب لراحيل أنه ابن عمتها « رفقہ » وسلم عليها ، وسر سروراً عظيماً لما لقي من التوفيق بعد طول سفره وتعبه ، وأما راحيل فركضت وأخبرت أباه ، فما كان من لابان حينما سمع بخبر مجيء ابن أخته إلا أن ركض للقاءه وعانقه وقبله وأتى به الى بيته ، فإنه كان تقضى عليه (٧٠) سنة لم ير في يوم منها أخته رفقہ ، وحدث يعقوب خاله لابان بجميع أحوال الأسرة الإبراهيمية في كنعان ، وبكل ماجرى له وعليه ، فقال له خاله لابان : « لاتخف ، لقد نجوت ، إنما أنت عظمي ولحي » ، فأقام عنده شهراً من الزمان ، ثم قال لابان لابن أخته يعقوب : « : أأنتك قربي تخدمني مجاناً؟! أخبرني ما أجرتك ؟ » ، تكلم لابان بذلك لأن يعقوب في مدة ذلك الشهر كان يخدم خاله لابان خدمة نافعة ، فلم يرد أن يذهب تبعه باطلاً ، فاستعد أن يعطيه الأجرة التي يريد ، وكان للابان ابنتان ، اسم الكبرى « ليئة » واسم الصغرى « راحيل » ، وكانت عينا ليئة ضعيفتين ، وأما راحيل فكانت حسنة الصورة وحسنة المنظر ، وكان ضعف العينين في الشرق يُعد عيباً عظيماً ، وجمال العيون وصحتها من أحسن أنواع الكمال الخَلْقِي ، وأحب يعقوب راحيل ، فقال : « أخدمك سبع سنين براحيل ابنتك الصغرى » ، فقال لابان : « لأن أعطيك إياها أحسن من أن أعطيها لرجل آخر ، فأقم عندي على هذا الوجه » ، - فخدمه يعقوب براحيل سبع سنين ، ثم قال يعقوب للابان : « أعطني امرأتى لأدخل بها ،

لأن أيامي المفروضة عليّ قد كملت ، - فجمع لابان جميع أهل المكان وصنع وليمة حسب السنة المألوفة من قديم ، وكان في المساء أنه أخذ ليثة ابنته وأتى بها إليه ، وأعطاهها جارية من عنده لتخدمها اسمها « زلفة » ، وعندما عرف يعقوب أن هذه الزوجة هي ليثة وليست براحيل ، قال للابان : « ما هذا الذي صنعت بي ؟ ! أليس براحيل خدمت عندك ، فلماذا خدعتني ؟ ! » - فقال لابان : « لا يفعل هكذا في مكاننا ، أن تعطى الصغيرة قبل البكر ، بل العادة أن تزوج الكبرى قبل الصغرى ، وإلا كان ذلك عاراً على الكبرى ، أكمل أسبوع هذه فنعطيك تلك أيضاً بالخدمة التي تخدمني بها أيضاً وهي سبع سنين آخر » - سمع يعقوب هذا الجواب من خاله فعذره ومالت نفسه لموافقته ، لأنه كان أحب راحيل ، لأنها أصغر وأجمل من أختها ، ولأنه كان رآها منذ أتى حاران ، قبل أن يرى أختها فحلت منه في المحل الأول .

ف فعل يعقوب ما أشار عليه خاله ، فأكمل أسبوع ليثة ، فأعطاه راحيل ابنته زوجة له ؟ وأعطاهها جاريته « بلهة » جارية لها لتخدمها ، فدخل على راحيل أيضاً وأحبها أكثر من ليثة ، وعاد فخدم عنده سبع سنين آخر ، وبذلك يكون يعقوب قد عدد الزوجات ، جرياً على طريقة جده إبراهيم الذي كان تزوج هاجر فسارة فقاطورة ، أو على سنة عمه عيسو الذي كان تزوج باثنتين حثيتين ، ثم بثالثة هي بنت عمه إسماعيل واسمها « محلة » أو « بسمه » .

الفصل الخامس

وتابع المقدسي خطابه قائلاً :

في أبناء يعقوب

مما لا ريب فيه أن يعقوب لم يكن يحب «ليثة» بل كان يكرهها من حين تزوجه
براحيل ولم يكن يحبها ، لكن الله تعالى أقام سبباً عادياً لمحبة زوجها لها بأن جعلها
ولوداً ، وأما راحيل فكانت في مقابلة ذلك عاقراً ، فجلت ليثة وولدت ابناً
ودعت اسمه « رأوين » ومعناه « هوذا ابن » أو « ابناً » أي انظر ابناً ، تريد بذلك
وترجو أن زوجها ينظر لابنها فيحبها ؛

ثانياً — جلّت أيضاً وولدت ابناً دعت « شمعون » ومعناه « المستمع » أو
« سَمْعاً » أو « سمان » قائلة إن الله سمع دعائها .

ثالثاً — جلّت وولدت ابناً دعت اسمه « لاوى » ومعناه « مُقْتَرِن » أو
« اقتران » راجية أن زوجها سيقترن بها بسبب هذا الولد .

رابعاً — جلّت وولدت ابناً دعت اسمه « يهوذا » ومعناه « حَمْد » أو أحمد
الرب » ، وسمعت من بعض اليهود أن حقيقته العبرية الأصلية « يهودا » بالبدال المهملة ،
ومعناه « الرب مشكور » لأن « يهو » معناه رب و « دا » معناه مشكور ، قال
ومنه اشتق الكلدانيون كلمة « يهود » على من كان في الأسر البابلي ، ثم توقفت ليثة عن
عن الولادة وقتياً .

وأما راحيل فلما رأت نفسها عاقراً غارت من أختها فقالت ليعقوب : « هب لي بنين ، وإلا فمن لا ابن له ميت ، ومن خلف ما مات » — فحمني غضب يعقوب على راحيل وقال : « أله لمي مكان الله الذي منع عنك ثمرة البطن ؟ ! ! » وهاج جداً ، لأنه كان يحبها ، ويجب إرضاءها ، ولكنه ماذا يصنع وقد سأله ما لا يستطيعه غير الله ؟ ، فقالت : « هذه جاريتي » بلهه « أدخل عليها ، فتضع ابناً أضمه على ركبتي ، ويكون كأنه ابن لي » ، فأعطته بلهه جاريتها زوجة له ، فدخل عليها ، فحبلت وولدت له ابناً ، فقالت راحيل : « قد قضى لي الله وسمع صوتي وندائي وأعطاني ابناً من جاريتي » ، لذلك دعت اسمه « داناً » أي « قضاء » أو « قاض » ، ثم حبلت بلهه أيضاً وولدت ابناً ثانياً ليعقوب ، فدعت اسمه « نفتالي » ومعناه « مُصارَعَتِي » ، قائلة : إني صارعت أختي وغالبتها ..

ونعود بالكلام الى ليئة ، لما رأت ليئة نفسها أنها توقفت عن الولادة ورأت أختها راحيل ماذا صنعت ، أخذت جاريتها « زلفة » وأعطتها زوجة ليعقوب ، فولدت ابناً سمته ليئة « جاداً » ومعناه « طالع حسن » أو « جد » أو « توفيق » أو « إقبال » ، ثم ولدت زلفة ابناً ثانياً ليعقوب ، فدعته ليئة باسم « أشير » ومعناه « سعادة » أو « سعيد ».

— استطراد —

أقول : ومن هذا نعلم انه وجد في أبناء يعقوب من جاريتيه أربعة بنين ، وهم دان ونفتالي من الجارية بلهه ، وجاد وأشير من الجارية زلفة ، وهؤلاء الأربعة هم من آباء الأسباط الإثني عشر ، وكثيراً ما نقرأ في كتب الجدل من أقلام المبشرين البروتستانت ، وكثيراً ما نسمع من أفواههم حين حوارهم معنا أنهم يقولون لنا : « أنتم معشر العرب الإسماعيليين من أبناء هاجر الجارية ، وأما معشر الإسرائيليين

فأبناء ساراي الحرة.؛ ولذكر أنني مرة سمعت مبشراً كان يجادلني ويقول لي هذا القول: «إن أبناء الجارية أنزل وأحط من أبناء الحرة، وبالتالي فسلالة يعقوب أعلى وأشرف من سلالة إسماعيل» فقلت له: «وهل الأسباط الأربعة أعني الدانين والنفتالين والجاديين والأشيريين إلا أولاد يعقوب من جاريته؟ فكيف تكون هذه الأسباط الأربعة، وهم أولاد الجواري، أعلى وأشرف من القبائل التي تفرعت عن إسماعيل؟»، على أن الله تعالى يقول: ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتِّقَاكُمْ﴾ (٤٩ : ١٣)، فلما سمع جوابي انقطع وبُهِتَ كأنما ألْقَمَ حجراً.

— رجع وانعطاف —

قلنا : إن ليئه إغما انقطعت عن الولادة مؤقتاً ، ولم تكن قد بلغت زمن الإياس فكانت عليها غير العقم ، ولذلك ولدت ولداً خامساً دعت «يساكر» وتفسيره «أجرة» أو «يأتي بأجرة» أو «توجد أجرة» ثم ولدت ولداً سادساً دعت «زبولون» وتفسيره «منزل» وقال بعضهم : معناه «خلاص الليل أو صداق حسن» وقال آخر : معناه «صداق ليلة أو مهر ليلة» وقال ثالث : معناه «مسكن» وبهذا ظهر أن أولاد يعقوب من ليئة ستة ، ثم أن راحيل دعت ربها أن يرزقها بالذرية ، فسمع الله لها واستجاب دعائها ، فولدت ابناً ، فدعت اسمه «يوسف» ومعناه «زيادة» أو «سيزيد» ولد سنة (٢٣١٦ ق . ن) وتوفي سنة (٢٣٠٦ ق . ن) فيكون عمره (١١٠) سنين ، وكان منذ نعومة أظفاره محبوباً لأبيه ، وفي الحديث « قيل : يا رسول الله من أكرم الناس؟ — قال أتقاهم — فقالوا : ليس عن هذا نسألك — قال فيوسف نبي الله بن نبي الله بن نبي الله بن خليل الله — قالوا : ليس عن هذا نسألك — قال : فمن معادن العرب تسألون؟ — قالوا : نعم — قال : فخيارهم في الجاهلية ، خيارهم في الإسلام إذا فقهوا. » ، رواه البخاري في صحيحه ، وروي أيضاً : (الكريم

ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم .
ويوسف هو محور هذه الحكاية اللطيفة ومرجع القصة العجيبة ، وبطل هذه
الرواية اللذيذة ، وموضوع الحديث .

التشاور والتفاؤل من اسم يوسف

'قريء' «يُؤَسَف» بالهمز وفتح السين المهملة ، وعليه فقد قيل : إنه منقول من
الفعل المضارع المبني للمجهول بعد تخفيفه بحذف الهمزة منه ، أي 'يُؤَسَفُ' لأجله ،
وقريء «يُؤَسِف» بالهمزة وكسر السين ، وعليه فقد قيل : إنه منقول من الفعل
المضارع بعد حذف همزته تخفيفاً ، والعجب أن حالة يوسف كانت في بداءتها مؤسفة
جداً ، فهذا غريب الاتفاق ، وهو انطباق الحادثة في الخارج على ما يشعر به
الإسم ، كما في قول الشيخ عمر بن الوردى :

قد قلت لما مر بي مفرط يحكى القمر
« هذا أبو لؤلؤة منه خذوا ثار عمر »

وقوله في صديق له صدّ عنه بعد توليته منصب الحكم :

« يامن تولى قاضياً هذا قضاء أم قدر »
« عذرك في هجراننا أن القضاء يعمي البصر »

وبعد ؛ فالصحيح أن يوسف اسم أعجمي عبراني معناه « سيزيد » وليس بعربي
حتى يصح القول بما سبق ، ولكننا على كل حال نقول : كثيراً ما يتشائم الناس أو
يتفألون بالأسماء ، فقد روي أن الحسين (ض) لما انتهى الى طرف الكوفة قال
لبعض أصحابه : « ما تسمى هذه القرية ؟ » وأشار إلى المقبر فقالوا له : « اسمها

«العقر» — فقال الحسين : «نعوز بالله من العقر» ثم قال : «فما اسم هذه الأرض التي نحن فيها؟» — قالوا : «كربلاء» — فقال : «أرض كرب وبلاء»، وأراد الخروج منها فنع ، كما هو مذكور في قصة مقتله رضي الله عنه حتى كان ما كان . وقال الراوي في غزوة خيبر : إن الدليل انتهى برسول الله ﷺ إلى موضع له طريق إلى خيبر ، فقال «يارسول الله إن لها طرقاً تؤتي منها كلها» — فقال ﷺ : «سمها لي» ، وكان يحب الفأل والأسم الحسن ، ويكره الأسم القبيح ، — فقال الدليل : «لها طريق يقال له (حزن)» — قال لا نسلكها» — «قال لها طريق يقال له (شاس)^(١)» — قال لا نسلكها» — «قال لها طريق يقال له (حاطب)^(٢)» — قال لا نسلكها» — قال بعض رفقاءهم : مارأيت كالليلة أسماء أقبح من أسماء سميت لرسول الله ﷺ فقال لها طريق واحدة ولم يبق غيرها يقال لها (مرحب) — فقال ﷺ نعم نسلكها» — فقال عمر (ض) ألا سميت هذه الطريق أول مرة؟»

ثم قام نعمة الله الجنيني^(٣) وقال :

التشاؤم والتفاؤل من الأسماء

بمناسبة ما ذكره أخونا تقي الدين المقدسي ، نريد ههنا أن نذكر فلسفة في اسم (يوسف) وأبيه (يعقوب) وأمه (راحيل) وشقيقه (بنيامين) وبلده (حبرون)

(١) أي قتل

(٢) أصل الحطب القطع ، والأحطب الشديد الهزال أو المشؤم

(٣) نسبة إلى جنين من أعمال فلسطين

فستخرج من مجموعها فالأحسناً ورجاءً مستملحاً لمستقبل يوسف، ولكن لا بد أن تقدم قبل ذلك نادرة عثرنا عليها في بطون التواريخ، عليها نبني كلامنا هنا فنقول : ذكر صاحب (الطرق الحكمية) قال مالك عن يحيى بن سعيد إن عمر بن الخطاب قال لرجل : « ما اسمك ؟ - قال جمرة - قال ابن من ؟ - قال ابن شهاب - قال تثنى ؟ - قال من الحُرْقَة - قال ابن مسكنك ؟ - قال بَحْرَة النار ! - قال أيها ؟ - قال بذات لظى ؟ !!! - فقال عمر : أدرك أهلك فقد احترقوا ، فكان كما قال ، وقد قال الشاعر الحكيم :

وقلما أبصرت عيناك من رجلٍ

إلا ومعناه في اسم منه أو لقبه

وقيل : لكل اسم من مسماه نصيب ، وقال الشاعر (١) :

ألا قد هاجني فازددت وجداً

بُكاءُ حِمامتين تَجَاوَبان

تجاوبتا بلحن أعجمي

على غصنين من غَرْب وبان (٢)

إلى أن قال :

فكان (البان) أن بانت سليمي

وفي (الغُرب) اغتراب غير داني

إذا تمهد هذا (فيوسف) اسم بطل هذه القصة لفظ عبراني معناه (سيزيد)

أو (زيادة) ، و (يعقوب) اسم أبيه معناه (يمسك العقب أو) (يَمَقُب) أو

(١) هو جعدر بن مالك

(٢) الغرب والبان نوعان من الشجر

(يتعقب) أو (عاقب) أو (متعقب) خلاف بين المترجمين ، و (راحيل) اسم أمه
معناه (شاة) ، و (بنيامين) اسم شقيقه معناه (ابن القوة) ، و (حبرون) اسم
بلده و بلد أسلافه لفظ عبراني معناه (معاهدة) أو (محالفة) ، وعلى هذا فلو فرض
وقدر أن يوسف سئل عما ذكر وأراد أن يجيب بالفاظ عربية لكانت الأسئلة
والأجوبة هكذا :

س - ما اسمك ؟

ج - سيزيد .

س - ما اسم أبيك ؟

ج - عاقب .

س - ما اسم أمك ؟

ج - شاة (والغنم غنيمة) ؟

س - ما اسم شقيقك ؟

ج - ابن القوة .

س - ما اسم بلدك و بلد أسلافك ؟

ج - معاهدة أو محالفة

وعليه فيكون تعليقنا على هذه الأجوبة أن نقول له : « حقاً إن لك مستقبلاً
باهراً ، فستزيد وتكون عاقباً كأبيك ، ونفعاً كأُمك ، وذا قوة كأخيك ،
وحليفاً لأولياء الأمور » والعجيب أن كل هذا قد صار ، بتقدير اللطيف الخبير .

ثم إن يعقوب بعد ما كان ساكناً عند خاله لابان فيما بين النهرين في حاران
اشتاق إلى فلسطين وأهله فيها فقام من حاران بزوجاته وأولاده الأحد عشر ، وجاء .

فلسطين بعد عشرين سنة أقامها فيما بين التهرين ، وكان رجوعه لفلسطين بأمر من الله تعالى ، ثم ولد له (بنيامين) من زوجته رانجيل ، وكانت ولادته قرب « بيت لحم » ، ومعنى بنيامين (ابن اليمين) أو (ابن القوة) أو (ابن يميني) وكان لطيفاً مطيعاً ومحبوباً من أبيه ومُعَزَّزاً له في شيخوخته ولا سيما مدة غيبة أخيه يوسف وكل من قرأ قصة يوسف يرى محبته الغريبة لأخيه الصغير فإنه ألح على إخوته وهم لم يعرفوه بعد أن يحضره معهم إلى مصر فلما أحضره ونظره بكى وقبلته باشتياق لا مزيد عليه ، وأما سبط بنيامين فكان من جملة نصيبه من أرض الميعاد وأورشليم التي هي بيت المقدس .

وبعد فلم يحدثنا التاريخ بنات ليعقوب سوى واحدة من زوجته ليثة سميت « دينة » ، الأمر الذي نعلم منه أن يعقوب عليه السلام كان « مذكاراً » ولم يكن « مثنائاً » .

الفصل السادس

وقال العلامة سليم الخانيونسي^(١) وقال :

في تقليد المفسرين بعضهم لبعض

إن هذه السورة على الأكثر هي نبذة تاريخية ، ولذلك فأكثر ما كتب عليها هو من هذا القبيل ، وبناء عليه فكل من قرأ هذه السورة مع ما علق عليها من التفاسير يكون قد حشر في دماغه لسورة يوسف وإخوته صورة مركبة ومستتبطة

(١) نسبة إلى بلدة خان يونس من أعمال فلسطين

من مصدرين ، الأول كتاب الله تعالى ، والثاني كلام المفسرين ، فأما الأول فلا شيء عليه ، لأنه وحى أوحى من لدن الحق جل جلاله . وأما الثاني فلنا عليه ملاحظة ، ذلك أننا نرى كل مفسر جديد يتبع في النقل المفسر الذي سبقه ، ويقتدي به في فهمه وثقافته وفيما ينقل عن غيره مما هبّ ودرج ، من غير أن يفكر هو فيه بشيء !! ذلك لشدة ثقنتنا العمياء ، وتقاليدنا للآباء والمشايخ ، بلا تمحيص للحقائق ، مع أن هؤلاء المفسرين قد يكونون قد كتبوا ما كتبوا تحت تأثير العاطفة ، أو التقليد البحت ، وهذا هو منبع السم النافع لموت الحقائق ، ومصدر الجرائم القاتلة لروح التاريخ ، وعليه فانك ترائنا نقدم الآن كلمة صغيرة في أول واجب على من يدرس تفسير هذه السورة الكريمة ، فنقول : كثير ممن اشتغلوا بسيرة يوسف وإخوته كانت عواطفهم تتحكم في حوادثها تحكماً تضع به الفائدة من دراسة هذه السيرة اليوسفية ، فإن عاطفة التقليد تجعل من ليس بنبيّ نبياً ، فتجهد في تأويل كسائر حوادث هؤلاء بحمله على وجه ليس فيه غضاضة في شأنهم ، حتى ولو أدّى ذلك إلى مقاومة نصوص الكتاب الكريم ! - عاطفة التقليد تجعل الحسن سيئاً ، والسيء حسناً ، فأهل هذه العاطفة لاهم عقليون ، حتى يقولوا بالتحسين والتقييح العقليين ، ولا هم نقليون حتى يقولوا بالتحسين والتقييح النقليين ولكنهم يزيدون مذهباً ثالثاً ، هو التحسين والتقييح التقليديين ، عاطفة التقليد تجعل الكبيرة صغيرة ، وتهون أمرها جداً متى كان من صدرت منه في وهم الناس عظيماً ، وتجعل الصغيرة كبيرة ، متى كان من صدرت منه في تقليد الناس حقيراً ، وربما لا تجد من جمهور المفسرين وجميع القصاص الذين فسروا لنا سورة يوسف ، وقصوا علينا أخباره مع إخوته - من محصوا الحقائق وعللوا الحوادث ، سوى نفر قليل جداً وجرأ قليل ، بل ربما لا يكون هذا النفر موجوداً إلا في عالم الخيال ، فلا بد أن نجعل أمام أعيننا أننا سندرس قصة يوسف وإخوته وأبيه ، وعزيز مصر وزوجه

وشاهد يوسف ، ونسوة المدينة ، ومليك مصر ، والفتيين ، وما إلى ذلك بكل دقة وتمحيص ، مع تحليل حوادثهم وفلسفة ما صدر عنهم من الأقوال ، وما تصفوا به من الأحوال ، بحيث يكون رائدنا العقل السليم ، وعضدنا النقل من أوثق المصادر ، غير حافلين بالعقائد التقليدية ، والمزاعم التي ليس عليها أثارة من علم ، والله من وراء القصد ، وهو يهدي السبيل .

(مرحى مرحى)

الفصل السابع

وقال الفهامة الريحاني^(١) :

في ابطال قصة يوسف

وان القصة صورة طبق الاصل لحياة الشعب الاسرائيلي

« هذه القصة التي في السورة تمثل لنا حياة يوسف ويعقوب وأولاده وميولهم وعواطفهم ، تمثل لنا (المرأة المصرية العتيقة) وأحوال الحكام المصريين ، تمثل حياة عقلية قوية ليوسف ، تمثل ما لإخوته من قسوة بربرية ومعاملة وحشية ، تمثل حياة أليمة محزنة بالنسبة ليعقوب ، تمثل خضوع المرأة المصرية العتيقة لسلطان شهوتها ، تمثل حياة رفق وأناة وعقل « لغو طيفار » عزيز مصر ، تمثل إنصاف

(١) نسبة الى بلدة أريحا في فلسطين

«الريان» ملك مصر في إسناده العمل لذي الجدارة ولو غريباً ، ثم على الإجمال إن هذه القصة تعطينا صورة لدرس حياة الشعب الإسرائيلي ، وما فيه من قسوة عند اللزوم ، ورقة حين الاقتضاء وخب وإساءة وإحسان ، ومع أن السورة تكفلت ببيان جميع ما أشرنا إليه ، (فيوسف) فقط هو موضوع هذه القصة التاريخية ، أو هو موضوع هذه السورة الشريفة ، ولذلك سميت باسمه ، وأما عزيز مصر « فوطيفار » وامراته « زليخا » ، والفتيان الخبّاز « مليح » والساقى « نبو » ، والسيدات المصريات ، وحضرات أبيه المعظم ، وإخوته الأحد عشر ، ومليك الديار المصرية «الريان» ، وغير هؤلاء - فإنما ذكروا على حسابه ، فهو البطل الوحيد لهذه السيرة الجميلة اللذيذة . ولذلك فقد صرح باسمه في هذه السورة خمس وعشرين مرة ، ولم يصرح فيها بشيء من أسماء إخوته ولا مرة ، نعم ذكر فيها أسماء أصوله الذكور يعقوب وإسحاق وإبراهيم ، ولكن لا أولاً وبالذات ، بل ثانياً وبالعرض ، فافهموا أسرار القرآن وإلا فالسلام عليكم .

الباب الثاني

الفصل الأول

في متعلق البسملة

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

افتتحت الجلسة وتليت البسملة فقام المحدث مأمون الكرمي^(١) وقال :

إن المعنى الضمني في البسملة هو أن الله عز وجل يقول لنبيه ﷺ : اقرأ يا نبيّ هذه السورة على عبادي باسمي ، أي أقرأها على إنها مني ، لا منك ، فأني برحمتي بهم أنزلها عليك ، لتعلم أنت مضمونها ، وتهدي قومك بها إلى ما فيه خيرهم ، في الدنيا والآخرة .

والني عليه الصلاة والسلام ، كان بقصد من متعلق البسملة : « أني أقرأ السورة عليكم أيها الناس باسم الله لا باسمي ، وعلى أنها منه لا مني ، فإنما أنا مبلغ عنه عز وجل » ، قال تعالى : « وَأَمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ » (٢٧ : ٩٢و٩١) ، وهكذا الواحد منا اليوم إذا قرأ السورة بقصد أنه لا يقرأها باسمه ، أي باسم نفسه ، بل باسم ربه سبحانه وتعالى ، ومثل هذا التعبير

(١) نسبة الى طول كرم من بلاد فلسطين

بنحو هذا المعنى مألوف عند جميع الأمم ، ومنهم العرب ، إذا أراد الواحد أن يفعل أمراً ما لأجل أمير أو عظيم يعلن أنه متجرد عن نسبة هذا العمل إليه ، ومنسلخ عنه فيقول : « أعمله باسم فلان » ويذكر اسم ذلك الأمير أو الحاكم ، أو الملك أو الرئيس ، ويقرب هذا استعمال ما نراه في الحاكم النظامية اليوم حيث يتدوون الأحكام قولاً وكتابة باسم القانون الفلاني أو باسم الدستور الفلاني أو باسم الشعب الفلاني ، ثم ما نراه عندما يريدون أن يضعوا حجر الأساس في بناء مسجد أو قلعة أو مدرسة أو مستشفى ، يقول الذي يضع حجر الأساس : « باسم الملك أو الرئيس أو الأمير فلان أو باسم الشعب الفلاني » .

على أن كل شيء إما يقرأ أو يقال أو يعمل ، بالاستناد إلى اسمه تعالى وحده ، أي بالارتكاز على إقداره تعالى وقوته « لأن العبد من دون الله ضعيف ، وعاجز جداً ، وههنا يجب أن نتذكر إنكار المسيح عليه السلام على القائلين له غلطاً منهم : « باسمك عملنا كذا » ، « باسمك قلنا كذا » ، كما ورد عنه أنه قال : « كثيرون سيقولون لي : يا رب أليس باسمك تنبأنا ، وباسمك أخرجنا شياطين ، وباسمك صنعنا قوات كثيرة ؟؟ حينئذ أصرح لهم أنني لم أعرفكم قط ، إذهبوا عني يا فاعلي الإثم » (مت ٧ : ٢٢ و ٢٣) فالمسيح يحارب فكرة إسناد الشيء لاسم غير اسم الله ، لأن من يزعم هذا الإسناد ، هو غير فاعل إرادة الله ، أي غير ممثل لأمر الله ، بل الأخرى به أن يكون آثماً ، بمخالفة أمره تعالى .

مقدمة الشيء المقصود الذي انعقدت له سورة يوسف
كلمات القرآن مؤلفة من حروف الهجاء المعروفة لدى العرب

آ (١) ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾

تليت الآية الأولى فقام الامام القلبي^(١) وقال :

إن من يدقق في آيات سورة يوسف عليه السلام ، التي تعدمئة وإحدى عشرة آية ، يجد أن الآيات الثلاثة الأولى هي بمثابة مقدمة للشيء المقصود الذي انعقدت له السورة ، إذ أنها تذكر أن هذا الكتاب ، وهو القرآن ، « مبين » وأنه « بلسان عربي » رجاء أن يكون مفهوماً متعقلاً ، وأنه « أحسن القصص » .
ويجد أن الآية الرابعة من قوله : ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَيِّهِ..﴾ إلى آخر الآية المتممة مئة وواحد هي الشيء المقصود ، الذي انعقدت له السورة اليوسفية ، وكذلك الآيات العشر الأخيرة من قوله : ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ..﴾ إلى آخر السورة ، فقد ذكرت ذيلًا أو خاتمة أو نتيجة ، وهي في الحقيقة ، أهم ما في السورة لعلاقتها بأصول الدين.

(الر)

- ١ -

وبعد أن ألقى الامام القلبي كلمته العابرة السابقة تابع قائلاً عن الر:

كلمات القرآن مؤلفة من حروف الهجاء المعروفة لدى العرب

أما رأيي في (الر) فيقال فيها ما قيل في تأويل سائر حروف الهجاء التي

افتتح بها بعض سور القرآن ، وأحسن الأقوال فيها أنه تعالى ذكرها لتنبية العرب إلى أن القرآن إنما ألفت كلماته من جنس ما تؤلف منه كلماتهم ، أي من حروف الهجاء العربية المعروفة لديهم والتي تتلقفها الصبية منذ نعومة أظفارهم وصغرهم ، فلم ينزل القرآن بكلمات خارقة للعادة في حروفها ، مباينة للمألوف في مواد تركيبها ، فكيف مع هذا عجزوا عن الإتيان بمثله ، وتقهقروا عن تركيب جمل كجمله .

هذا بعض ما قالوه ننقله بكل تحفظ ، والمهدة على القائل لا على الناقل .

(الر)

- ٢ -

وقال الفاضل البيهقي (١) :

نظائر لفظة الر في التوراة والانجيل

كنت سئلت عن هذا وأمثاله ، فقلت للسائل : لا أقدر أن أجيبك عن هذا إلا بنصف العلم ، وهو « لا أعلم » ، لأن الصحاح والمصباح والقاموس والأساس والفائق والمختص ولسان العرب وما إلى ذلك من سائر أسفار اللغة العربية كلها تقف هنا مكتوفة الأيدي ، خارسة الألسن ، ولم يرد في نحو ذلك نقل عن المعصوم ، فإذاً ليس لنا إلا أن نقول : هذا من قبيل المخبرات السرية المسماة بالجفر أو الشفرة التي يراد منها أن لا يفهما أحد سوى من أرسلت إليه ، ونظيره لفظة «هَلَلُويا» التي وردت كثيراً في صدر أو ختام الزامير ، كما وردت أيضاً أربع

(١) نسبة إلى بلدة بيسان من فلسطين

مرات في (سفر الرؤيا)، فإن المعتمد عند مفسري اليهود والنصارى بعد احتمالات كثيرة أنها من قبيل الألفاظ والأحاجي ، وقريب من هذا (سفر الرؤيا) عند النصارى ، خصوصاً منتصفة فإنه كما قال الدكتور جورج بوست « مظلم كدجى الليل ، وقال : إن هذا السفر مشحون بمسائل محيرة » وهكذا يوجد من قبيل الألفاظ شيء كثير في سفرى دانيال وحزقيال ، كما اعترف أهل الكتاب بذلك فمن اعترض علينا من متأخري المسيحيين بأن لا فائدة من فواتح السور هذه لأن معناها غير مفهوم ، أجبناه بما ذكرنا من قبيل ألفاظ وقعت عندهم ، بل بجمل غير مفهومة إلا لخواص عباده ، كالأنبياء الذين نزلت عليهم هذه الكلمات .

هذا ما أمكنني أن أذكره ههنا كمخبرة في « تلفون »

(أصوات من عدة جهات : بخـ بخـ)

(الـ)

- ٣ -

وقال المدقق الادي (١) :

الأساليب المبكرة في القرآن

حكمة افتتاح هذه السورة وأمثالها بأسماء حروف ليس لها معنى مفهوم غير مسمى تلك الحروف التي يتركب منها الكلام - هي تنبيه السامع إلى ما سيلقى إليه بعد هذا الصوت من الكلام حتى لا يفوته منه شيء ، فهي كأداة الإفتتاح « ألا » كأداة التنبيه « ها » ، وكلفظة « آلو » التي يستعملها أهل اليوم عند بدء

(١) نسبة إلى بلدة اللد من فلسطين

التكلم بالتلفون للانتباه والإصغاء ، إذ من حسن البيان وبلاغة التعبير التي غايتها إفهام المراد مع الإقناع والتأثير أن ينبه المتكلم السامع إلى مهمات كلامه والمقاصد العليا منه ، ويحرص على أن يحيط علم المخاطب بما يريد به هو منها ، ويجتهد في إزالتها من نفسه في أفضل منازلها ، ومن ذلك التنبيه لها قبل البدء بها ، لكيلا يفوته شيء منها .

قال بعض المتقدمين : إن الكفار لما قالوا : ﴿ لَا تَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ (٤١ : ٢٦) ، وتواصوا بالإعراض عنه جاء القرآن بهذه الحروف ، فكانوا إذا سمعوها قالوا كالمتعجبين : « اسمعوا إلى ما يجيء به محمد » ، فإذا أصغوا هجم عليهم القرآن ، فكان ذلك سبباً لاستماعهم ، وطريقاً إلى انتفاعهم ، وإنما لم تستعمل الكلمات المشهورة في التنبيه مثل (لا) و (أما) و (ها) ، لأنها من الألفاظ التي تعارفها الناس في كلامهم ، والقرآن كلام لا يشبه الكلام ، فناسب أن يؤتى فيه بألفاظ تنبيه لم تعهد ، ليكون أبلغ في قرع سمعه ، وإثنا لا نلتزم أن يكون كل استعمال في القرآن أو في كلام البلغاء معهوداً في كلام الناس من قبل لاستلزام ذلك نفي الابتكار ، وإن كل استعمال يجب أن يكون قديماً معروفاً في الجاهلية ، وذلك باطل بالبداهة ، فكم في القرآن والحديث من أبتكار الأساليب الحسان ، وما من بليغ إلا وله مخترعات في البيان ، لم يسلك فجاجها من قبله إنسان ، وإليك بعض الأمثلة على ذلك :

(١) - قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ (٤ : ٣٣) فالمراد بقوله (والذين عقدت أيمانكم) الأزواج ، فإن كل واحد من الزوجين له حق الإرث بالعقد ،

فهذا استعمال للقرآن مبتكر ، إذ لم يعهد في كلامهم إضافة عقد النكاح لليمين ، وماخذه أن المتعارف عند الناس في العقد أن يكون بالمصافحة باليمين .

(٢) - قوله ﷺ : (يا خَيْلَ الله اركبي) .

(٣) - قوله تعالى : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ فإن هذه البسملة من ابتكار القرآن ، فإن العرب إنما كانوا يقولون : « باسمك اللهم » ، وقد ورد في القرآن الكريم في قصة سيدنا سليمان أن البسملة استعملها سيدنا سليمان في كتابه إلى بلقيس . بقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، أَلَّا تَعْلَمُوْا عَلَيَّ وَاثْنُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ (٣١ : ٢٧) .

(٤) - ما لا يستحيل بالانعكاس ، وهو نوع من أنواع البديع التي ابتكرها القرآن ، ومثله ﴿ رَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ (٣ : ٧٤) ، ﴿ كَلِّ فِي فَلَئِكَ ﴾ (٣٣ : ٢١) .

(٥) - قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ (٢ : ١٧٩) فإن أحداً من العرب لم يستعمل هذا التركيب .

(٦) - ما في قوله تعالى : ﴿ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ ﴾ (٣٣ : ٤) . فالغيب هنا هو ما يستحي من إظهاره ، أي حافظات لكل ما هو خاص بالزوجية حتى ما يدور بينهن وبين أزواجهن في الخلوة ، ولا سيما حديث الرفث ، فما بالاك . بحفظ العرض ؟! فهذه العبارة هي من دقائق كنايات الإنزاهة ، وهي من استعمالات القرآن المبتكرة .

وإن كثيراً من الألفاظ العربية خُلِقَ في العصر الإسلامي ، قال ابن جني في الخصائص : « إن العربي إذا قويت فصاحته ، وسمت طبيعته ، تصرف وارتجبل ما لم يُسبق إليه ، فقد حُكي عن رؤوبة وأبيه أنها كانا يرتجلان ألفاظاً لم يسمعاها . ولا سبقا إليها ، هذا ما رأيته نقلته ، وهل أنا إلا من غزيرة . »

« آيات »

- ١ -

قال الأستاذ الدمشقي البائسريجي (١) :

معنى آيات القرآن

ترد كلمة « آيات » في القرآن لسنة معان :

الأول - بمعنى الجمل المنزلة على النبي ﷺ المقروءة باللسان ، ويقال لها في غير القرآن فواصل وسجعات وفقر ، وفيه قولهم مثلاً : « سورة يوسف مئة وإحدى عشرة آية » ، والفاصلة مثلاً « سبع آيات » وهكذا .

الثاني - بمعنى العلامات ، قال النابغة الذبياني :

توهمت آيات لها فعرفتُها

لست أعوامٍ وذا العام سابع

ومنه العلامات التي أقامها الله في الأنفس والآفاق الدلالة على وحدانيته .
وكماله وتنزيهه .

الثالث - المعجزات الخارقة للعادة ، التي أجراها الله على أيدي رسله ، ولعله قيل لها آية ، لأنها علامة .

الرابع - بمعنى العبر والذكر والحكم والمعظات ، التي تؤخذ مما ينزله الله على نبيه ﷺ . وسيأتي في هذا المعنى قوله : ﴿ لقد كان في يوسف وإخوته آيات ﴾

(١) نسبة إلى حمي باب سريجة في دمشق

للسائلين ﴿ (ع ٧) فَلَآئِي فِيهِ بِمَعْنَى الْعِبْرَةِ ، كَمَا سَيَأْتِي لَهُ يَقُولُ : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (ع ١١١) .

الخامس - بمعنى جماعة الحروف ، قال أبو عمرو : « خرج القوم بآيتهم أي بجماعتهم » ولعل هذا يرجع للأول .

السادس - بمعنى العجيبة ، لأنها عجب من العجائب ، ولعل هذا يرجع للثالث .
وأما الكلمة (آيات) فيما نحن بصدد المحاضرة عليه فيمكن أنه من النوع الأول ، ويمكن أن يكون من النوع الثالث ، والله تعالى أعلم .

(الكتاب)

- ١ -

وقال المحقق الشهاب الرملي ^(١) :

اسماء القرآن

ما هو المراد من كلمة « كتاب » ؟

غير خاف على أحد أن الأمة العربية قبل الإسلام ، كانت أمة أمية ، يقل فيها وجود من يعرف القراءة والكتابة ، معرفة جيدة ، وكان جل اعتمادهم في جميع ما يروونه من أنسابهم وأشعارهم وغيرها ، على حفظهم لها في صدورهم ، ولم يعرف أنه كان عندهم كتاب ما من الكتب ، في أي موضوع كان ، وغاية ما كانوا يفهمونه

(١) نسبة الى الرملة من بلاد فلسطين

من لفظ « كتاب » أنه صحيفة مكتوب عليها، من نحو الجلود أو العظام أو الحجارة أو الجريد ، والصالح للكتابة من كل من هذه الأشياء - كان لديهم قليلاً ، ولذلك لم يستغنوا بنوع واحد منها عن باقيها، ولم يكن عندهم « الورق » الذي نعرفه الآن، بل هذه الكلمة « ورق » ما كانت تطلق عندهم إلا على ورق الشجر ، وعلى رقايع من الجلود رقيقة ، والإطلاق الأخير مستعار من الأول .

هذا .. وإن ما ورد في كلامهم من لفظ « كتاب » كانوا يريدون به ما يطلق عليه في عرفنا اليوم لفظ « خطاب » أو جواب أورقيم أو تحرير أو مكتوب، ومنه قول سليمان عليه السلام : ﴿ إِذْ هَبْ بَكُتَابِي هَذَا ، فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ﴾ (٢٧ : ٢٨) ، ومنه كُتِبَ النبي ﷺ إلى الملوك ، يدعوهم إلى الإسلام . ومثل الكتاب - السفر والزبور والدفتري والسجل ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ ﴾ للكتب (٢١ : ١٠٤) أي كطي الدفتري للمكتوبات فيه ، فمعاني هذه الألفاظ كلها متقاربة ، ولكن ما كانوا يفهمونها ، كما نفهمها الآن ، ولذلك لما جمع القرآن بعد النبي ﷺ ، اختلفت الصحابة في ماذا يسمونه به وتوقفوا ، لأنهم لم يعمدوا مثله من قبل ، ثم استقر رأيهم أخيراً على تسميته « بالمصحف » تبعاً لأهل الحبشة ، في تسمية مجموعاتهم بذلك ، والمصحف الكتاب ، بالمعنى الذي نفهمه نحن الآن عند الإطلاق ، لأنه مأخوذ من أَصْحَفَ : أي جمع ، وكل صحيفة كتاب عند العرب كما ذكرنا ، كما في قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى ؟ ﴾ (١٦ : ٩١) ، وقوله . ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ ، لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ (٢ : ٢) وقوله : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ ﴾ ، فالمراد « بالكتاب » في جميع هذه الآيات : الوحي المكتوب بقطع النظر عن كيفية كتابته ووضعه ، والقرآن حين نزول هذه الآيات لم يكن تاماً ولا مجموعاً ، وإنما المراد ما كان يوحى في ذلك الوقت ، فيكتب ،

ولذلك ، فسور القرآن كل منها ، ككتاب قائم بذاته ، كما قال تعالى : ﴿ رسولٌ مِنْ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ، فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ﴾ (٩٨ : ٢) أي ان تلك الصفائف تحتوي على خطابات أو تحارير ، أو مكاتب قيمة ، فلفظ « الكتاب » هنا يراد به السورة ، أو القطعة التي أنزلت على النبي ﷺ ، كما قد يطلق ويراد به جميع ما أنزل عليه .

فلفظ الكتاب كلفظ القرآن ، قد يطلق ويراد به بعضه ، كما في قوله : ﴿ شهرٌ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ (١٨٥ : ٢) أي بعضه أو جزء منه ، كما قد يطلق ويراد به جميع ما في المصحف الشريف .

وكذلك « أهل الكتاب » من العرب ، لم يكن عندهم سوى أجزاء قليلة من التوراة والانجيل ، مكتوبة على قطع متفرقة من الجلود ، أو نحوها ، ولذا وصفهم القرآن الشريف بقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ ﴾ (٣ : ٢٣) وخطبهم بقوله : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ (٥ : ١٥) وقال فيهم : ﴿ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ (٥ : ١٣) ، وقال لهم : ﴿ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ ، تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ؟ ﴾ أي صحفاً متفرقة (٦ : ٩١) ولكن لم تكن من الورق المعروف ، لأنه لم يكن حادثاً ، بل كانت من الجلود أو نحوها ، وقال أيضاً ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ، ثُمَّ يَقُولُونَ : هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، لِيَشْتَرُوا بِهِ غَنًا قَلِيلاً ، فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ (٢ : ٧٩) ، فهذا كله ، يدل على أن كتبهم المقدسة ، ما كانت تامة ولا محصورة بين دفتين ، بحيث لا تقبل الزيادة ولا النقصان ، وإنما كانت مبعثرة في رقاع منتورة ، وإن بعض صفحهم كان حقاً

والبعض الآخر كان باطلاً ، أما ما ورد في القرآن من نحو قوله تعالى ﴿ وكيف يُحْكُمُونَكَ ، وعندم التوراة فيها حُكْمُ اللَّهِ ؟ ﴾ (٥ : ٣٢) فمعناه : أن عندم أجزاء من التوراة ، كسفر اللاويين أو التثنية ، فيها حكم الله ، في المسألة التي تحاكموا فيها إلى النبي ﷺ ، فهذا كما يطلق لفظ القرآن ويراد به أجزاء منه ، أو جزء واحد ، كما تقدم (كذا حققه الدكتور توفيق صدقي) .

ومن أسماء القرآن المذكورة فيه « القرآن » كما في : ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم - وإنه لَقَسَمٌ لَّو تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ - إنه لقرآن كريم ﴾ (٥٦ : ٧٥ - ٧٧) وهذا أشهرها .

ومنها « الفرقان » كما في ﴿ تبارك الذي نَزَلَ الفرقانَ على عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (٢٥ : ١)

ومنها « رُوح » كما في : ﴿ وكذلك أوحينا إليك رُوحاً مِن أَمْرِنَا ﴾ (٤٢ : ٥٢)

ومنها « الذِّكْر » كما في : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (١٥ : ٣)

ومنها « النور » كما في : ﴿ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (٦٤ : ٨)

ومنها « أحسن القصص » كما في ، ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ (١٢ : ٢)

ومنها « الحكمة » كما في قوله تعالى ﴿ وَأَوْذَكَ بِمِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ﴾ (١٧ : ٣٩)

(المبين)

- ١ -

قال المؤرخ البيهقي :

بيان القرآن وسهولته

امتاز كتاب الله تعالى على سائر الكتب السماوية والوضعية بالبيان والظهور وسهولة فهمه وشدة إباته لمعانيه ومراميه ، فكانت العرب لا تتوقف في فهم مفرداته ، وجمله ، وأما أهل اليوم فإنهم لبعدهم عن العربية وإيجالهم لها تراهم يسر عليهم بعض مفردات تعد على الأصابع ليس بينهم وبين الوقوف على معانيها سوى مراجعة قاموس لغة أو سؤال عالم من العلماء . وأما الكتب عند أهل الكتاب فليست كلها مبينة ولنضرب مثلاً لذلك « كتاب دانيال » الموجود بين أيديهم اليوم فإنه ليس « مبيناً » بل هو كالألغاز والرموز لا يفهم إلا بعناء ، وهكذا « سفر حزقيال » و « سفر الرؤيا » خصوصاً منتصفه ، وفي ذلك كله غوامض ومشكلات وقع الاشتباه فيها وأوقعت مفسريها في حيرة شديدة ، والذي زاه في شأن ما يسمونه « بالمهد الجديد » أن حوارى المسيح أنفسهم ما كانوا يفهمون كل ما يخاطبهم به من المواعظ والأمثال ، ولكن لم ينقل إلينا أن صحابة رسول الله ﷺ علمي عليهم شيء من آيات القرآن الكريم فلم يفهموها ، فالقرآن ، يمتاز على سائر الكتب بأنه هو « الكتاب المبين » ، ولكن المسلمين المتأخرين لم يرضوا بأن يمتاز القرآن بالبيان الذي ليس بعده بيان ، فحاولوا تغميضه والتسليم بأنه غامض قالوا إلا أفراداً من الناس أوتوا علماً جماً ، وفاقوا سائر البشر بمقولهم وأفهامهم ،

كما فاقوم ، بطومهم ومعارفهم ، ثم زعموا أن هؤلاء الأفراد كانوا في بعض القرون الأولى ، كمثل من يسمونهم « بالمجتهدين » مثلاً ، وأنهم قد انقرضوا ، ولم يأت بعدهم سولن يأتي من يسهل عليه أن يفهم آيات هذا الكتاب « المبين » !!! وتجد هذا القول المناقض للقرآن الكريم والناقض له مسليماً بين جماهير المسلمين ، حتى الذين يدعون بآرائهم « علماء الدين » !!!

أصوات من الجميع (مرعى مرعى)

« المبين »

- ٢ -

وقال الاستاذ البصري :

النسخ والمنسوخ في القرآن

يقول الله تعالى : ﴿ الكتاب المبين ﴾ ، وسيأتي في آخر السورة أن يقول : ﴿ وتفصيل كل شيء ﴾ ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ، وهذا النص وأمثاله الكثيرة جداً في القرآن ، يعلمنا أن القول بوجود النسخ في القرآن ، ضعيف جداً ، وأن يكن هو مذهب الجمهور ، والقول القوي إنه لا نسخ فيه ، كما هو مذهب أبي بنى (ض) ، الذي ورد في حقه : أنه أقرأ الصحابة ، ومذهب أبي مسلم الخراساني ؛ ولم يري إن القول بأنه يوجد في القرآن ناسخ ومنسوخ ، وإن الناسخ قد يكون مكتوباً قبل المنسوخ ، كآية العدة في سورة البقرة (آ . ٢٤) : قالوا هي منسوخة بما في (آ ١٣٤) مع أن ذلك يناقض حسن ترتيب الآيات في سورها ، وإن القول بأن

هذه منسوخة وهذه ناسخة ، مع عدم تمييز هذه من هذه ، وإن القول بأن الله يترك عباده يتخبطون في أمور دينهم ، حتى سهل على هذا المفسر أن يقول : « إن الآية الفلانية منسوخة » ذلك لما تراهي أنها معارضة بآية أخرى ، ثم يأتي مفسر آخر ، فيقول ليست منسوخة ، بل نفس المفسر الأول ، متى ظهر له عدم معارضتها لآية أخرى تراه فوراً ، يرجع عن قوله بالنسخ - كل هذا ينافي ما ورد من أن القرآن « كتاب مبين » ، « وأنه تفصيل لكل شيء وهدى ورحمة للمؤمنين » ، لأنه إذا كان مذهب النسخ صحيحاً ، أفليس من الإبهام وعدم البيان ، أن يكون القرآن خالياً من التنبيه على ما نسخ ، وعلى ما لم ينسخ ؟ أوليس من أعجب العجب أن لا يوجد عند القائلين به ، حديث واحد ، متفق عليه ، عن رسول الله ﷺ ، يعتبر نصاً قاطعاً صريحاً على أن الآية أو الآيات الفلانية ، نسخت بالآيات الفلانية ؟ وما بالهم لم يتفقوا على عدد مخصص للآيات المنسوخة ؟ ولم يتركوا دعواهم النسخ في آية ، متى تحققوا أن لا تعارض بينها وبين غيرها ؟ وكل ما روي في النسخ ، هو من قبيل روايات الآحاد ، وكما أن القرآن لا يثبت بروايات الآحاد ، فكذلك النسخ لا يثبت بروايات الآحاد .

(هذا ما حققه الدكتور توفيق صدقي رحمه الله)

« المبين »

- ٣ -

وقال المحقق المنفلوطي

المتشابهات في القرآن

لقد ذكروا سؤالاً في صدد كلمة « مبين » صورته : قد وجد

في القرآن متشابهات ، أى وجد فيه آيات تشابهت وجوه دلالتها على معانيها القريبة والبعيدة ، حتى أنه ليتسنى لأصحاب الزينغ تأويلها بالباطل وصرفها إلى غير الصواب فكيف مع هذا يكون القرآن مبيناً ؟ والجواب : هذا المقدار أمر لامندوحه عنه ، لأنه ضروري في حد ذاته ، وذلك أن أم ما يجيء به الوحي هو العلم بالله تعالى ، وبما لم الغيب ، ومن المعلوم أن الناس ، وضعوا ألفاظ اللغات ، لما يعرفون من المعاني في هذا العالم ، فيتعين على من يريد إخبارهم بشيء . مما لا يعرفون ، أن يستعير بعض ألفاظهم الموضوعات لما يعرفون ، وينصب القرائن لمنع الاشتباه ، ولا شك أن أفهام الناس ، تختلف في فهم القرائن ، وأن الذي يريد الفتنة ، يسهل عليه أن يتبع ما تشابه من القول ، لأن له معنى يدل على وضع له في الأصل ، ومعنى آخر تناوله بالكناية أو بالاستعارة وغيرها من ضروب التجوز ، وهو المراد ، فيحمله على غير المراد ، ويضل به الناس .

مثلاً : فرضاً وتقديراً إذا أطلق نبي من الأنبياء على الله تعالى لفظ « الأب » في مقام بيان الرحمة ، وعنايته بخلقه ، حمّله أهل الزينغ على الأبوة الحقيقية ، وقالوا إنه أبوه الذي ولده ، ويصرفون من يفتنونهم عن القرائن العقلية التي تحيل الأبوة الحقيقية على الله تعالى ، كما يصرفونهم عن القرائن القولية التي تطلق لفظ « الأب » على كبار أهل الدين ، كما يقولون عن البطريك مثلاً « أبونا » . تنقل النصراني أن المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام قال « إني ذاهب إلى أبي وأبيكم » فسوّى بينه وبين حواريه ، في أبوة الله له ولهم ، فذاك قرينة على أن هذه الأبوة مجازية ، وعلى أنها ليست خاصة بالمسيح ، وكذلك يقال في لفظ « الأب » ، إذا أطلقه نبي على نفسه ، فإن أهل الزينغ يحملونه على البنوة الحقيقية مع قيام القرائن الفعلية واللفظية على إحالة

ذلك ، ومن ذلك إطلاق لفظ « الأبن » على صانع السلام ، فيما يقولونه عن المسيح عليه السلام : « طوبى لصانعي السلام ، لأنهم أبناء الله يُدْعَوْنَ » (مت ٥ : ٩)
 واختلاصة إنه لعدم اقتدار اللغة عن تعيين المراد من نحو صفات الله وعلم الغيب فلا مندوحة عن أن نستعمل فيها الألفاظ التي لها معنى مراد ، ومعنى غير مراد، ومن هنا كانت تلك الألفاظ متشابهة غامضة ، ولكنها لما كانت محفوفة بالقرينة التي تبين المعنى المراد ، كانت مبينة لذلك المعنى ، موضحة له ، وبذلك خرجت عن كونها غامضة ، وأن كل كتاب سماوي ، لا يخلو عن أمثال لذلك ، فمن أمثلة من نظر في متشابه الإنجيل ، وغفل عن القرائن الدالة على المعنى الصواب - فَرَّقُ المثلثة ، ومن أمثلة من نظر في متشابهه - ولكن حكم القرائن العقلية واللفظية ، فاهتدى إلى صوابه - فرقة الأريوسيين الموحدة، وكذا من أمثلة من نظر في متشابه القرآن ، وعرف القرينة الصارفة عن الباطل الباطل ، المُعْنِيَة للمعنى الصحيح - فرق أهل السنة والجماعة والسلف الصالح ، ومن أمثلة من نظروا في متشابهه ، وغفلوا عن القرينة الهادية للمعنى الصواب - الباطنية والمجسمة والحلولية ، وما الى ذلك .

(مرحى)

نزول القرآن

آ(٢) ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

(أنزلناه)

- ١ -

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثانية فقام الفهامة الريحاني (١) وقال :
 (أنزلناه) أي باللفظ والمعنى على قلبك يا محمد - لأن الضمير يعود على القرآن،

(١) نسبة الى أريحا من بلاد فلسطين

وهو اسم للفظ والمعنى ، كما أن «القول» هو كذلك في آية ﴿إِنَّمَا نَقُولُ رَسُولُ

كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ، مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ (٨١: ١٥-١٨)

ودليلنا أن القرآن بنصه ومعناه نازل على قلب الرسول ﷺ قوله تعالى : ﴿قُلْ

مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ ، فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ، مُصَدِّقًا لِّمَا

بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢ : ٩٧) ، وقوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُ

لَنُنَزِّلُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ

الْمُنذِرِينَ ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ (٢٦ : ١٩٢ - ١٩٥) ، فيؤخذ من هاتين

الآيتين أن الوحي بالقرآن الكريم هو أن يُلقِيَّ روحُ الله الأمينُ في روح الرسول

ﷺ ما شاء من الآيات والسور ، فالعبارات القرآنية بنصها وفصها المألوف اليوم

كانت تلقى في قلبه دون كسب ولا اختيار ، ولكن وحيًا يوحى ، ودون أن

يكون النبي ﷺ هو الناسج لبردتها ، والمبدع لسبكها ، بل هو إلهام رباني يودع

في عقله دون أن يكون لمقدرة النبي وفصاحته دخل في صياغتها ، وتعمّل في ترتيبها ،

وإنما هو يخبرنا بنفس اللفظ والمعنى الذي تنزل على قلبه ، دون تفسير ولا تبديل

ولا زيادة ولا نقصان ، ولا استعمال قريحة ، ولا استخدام لباقة ، قال تعالى ﴿وَمَا

يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ، عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾

(٥٣ : ٣ - ٥) هذا ما رأيته في كلام بعض المصريين العصريين ، فتأمله فلعلك

أحسن منه خبراً .

(أنزلناه)

- ٢ -

قال الإمام القلقيلي^(١) :

مامعنى انزال القرآن الكريم

« أنزلناه ، أوحينا إليك به ، وإنما عبر عن الوحي بذلك للاشعار بعلو مرتبة الموحى على الموحى إليه ، أو للاشعار بعلو مرتبة ذلك الشيء الموحى ، ويصح التعبير بالإنزال عن كل عطاء منه تعالى ، كما قال ﴿ وَأُنزِلَ لَكُمْ مِنَ الْاَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ اَزْوَاجٍ ﴾ (٣٩ : ٦) ومارؤي البعير والبقر والشاء نازلاً من السماء بالانتقال ، بل هي مخلوقة في الأرحام ، فلازالتها معنى يليق بها ، هو إعطاؤها فضلاً ومنة منه تعالى ، وقال جل شأنه : ﴿ وَأُنزِلْنَا الْحَدِيدَ ﴾ (٥٧ : ٢٥) ، ومعلوم أن الحديد لم ينزل من السماء ، بل صعد من بطن الأرض ، ولكنه لما كان عطاءً من الله تعالى عبر عنه بالإنزال .

ولما سمع الأستاذ الطبير البرقاوي^(٢) هذا الخطاب ، استأذن من الرئيس وصعد على منبر الخطابة وقال :

أيها السادة ، سمعتم ما قاله الأخ الإمام القلقيلي حفظه الله ، وإني أضخم صوتي إلى صوته ، لكنني أريد أن أزيد على كلامه كلمة صالحة تزيده فهماً ووضوحاً :

كلمة (نزل) وما اشتق منها لم تستعمل في كلام العرب إلا فيما يأتي من الفوق

(١) نسبة الى قلقيلية من اعمال فلسطين

(٢) نسبة الى برقة من اعمال ليبيا

إلى التحت ، قال تعالى : ﴿ يَـعْلَمُ مَا يَلِـجُ فِي الْاَرْضِ وَمَا يَخْرُـجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنْ السَّمَاءِ وَمَا يَصْعَـجُ فِيهَا ﴾ (٣٤ : ٢) ، فالذي ينزل من السماء الأمطار والثلوج والبرَد والصواعق والأرزاق والملائكة وأنواع البركات والمقادير ، وقال تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا ﴾ (٧ : ٢٥) لأن اللباس من الأصواف والأوبار والأشعار والجلود - كل ذلك ينزل من ظهور الأنعام ، وكسوة الأنعام منزلة من الأصلاب والبطن ، وكذا القطن والكتان هما منزلان من غل ، وهكذا « الريش » والرياش وهو لباس الزينة استعير من ريش الطائر لأنه لباسه وزينته ، كالحرير ونحوه فهذا كله نازل من فوق ، لأن الحرير أصله من الدود ، وغذاء الدود من الشجر كانتوت ونحوه ، وقال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ ﴾ (٣٣ : ٢٦) ، فالصياصي الحصون وهي مرتفعة ، وقال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ (٣٩ : ٦) ، والأنعام تنزل من أصلاب آبائها إلى بطون أمهاتها ثم تنزل من بطون أمهاتها إلى الأرض ، وقال تعالى عن موسى : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ : رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ فَجَاءَتْهُ أَحَدَاهَا ﴾ (٢٨ : ٢٤ و ٢٥) ، فذلك الخير الذي أنزله الله إليه هو بنتا نبي الله شعيب ، لأنها نزلتا من والديهما ، وكان موسى عزباً ولم يلبث أن استجاب الله له فوراً ولذلك قال : فجاءته إحداها .. الخ ، وقال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى ﴾ (٢ : ٥٧) ، والمن ينزل عن الشجر والسلوى تنزل من الهواء ، وقال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ ﴾ (٥٧ : ٢٥) وهو يكون في الجبال . والضيافة سميت « نزلاً » لأن العادة أن الضيف يكون راكباً فينزل في مكان يؤتى إليه فيه بضيافة فسميت نزلاً لأجل نزوله ، ويقال : نزل بيني فلان ضيف ، ولهذا قال نوح عليه السلام : ﴿ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾ (٢٣ : ٢٩) لأنه سينزل في السفينة

أو سينزل منها ، وسميت المواضع التي ينزل بها المسافرون « منازل » لأنهم يكونون ركباً فينزلون ، ومنه قولهم « نزلأ » للمحل الذي ينزل فيه الغرباء المسافرون وحين ينزلون عن دوابهم أو سفنهم أو سياراتهم أو طياراتهم ، وعليه قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نَزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ (١٩٨ : ٣) ، وأما قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نَزُلًا ﴾ (١٨ : ١٠٣) فهو تهكم ، ونحوه ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٣ : ٢١) ، وقول الضبّي :

وكنا إذا الجبارُ بالجيش ضافنا

جعلنا القمنا والمرهفات له نزلأ

فقد تبين أن ليس في القرآن الكريم لفظ « نزول » إلا وفيه معنى النزول المعروف ، هذا هو اللائق بالقرآن الذي نزل بلغة العرب ، فكلام الله تعالى لما كان نازلاً من السماء على قلب النبي ﷺ قيل فيه ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ ﴾ والله اعلم .

(أنزلناه)

- ٣ -

قال السيد السمرقندي ^(١) :

زمن بدء نزول القرآن

كان ابتداء نزول القرآن الكريم في (١٧) خلت من رمضان من السنة الأولى

(١) نسبة الى سمرقند من بلاد التركستان

من النبوة ، كما أشار الله تعالى إليه في قوله : ﴿ إِن كُنتُمْ آمَنْتُمْ بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِنَّا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ ، يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ ﴾ (٨ : ٤١) فالمراد بيوم التقاء الجمعين ، يوم بدر ، وكان في صبيحة يوم الثلاثاء ، في (١٧) رمضان من السنة المذكورة ، وقد جعل الله « يوم الفرقان » علماً لأول يوم نزل فيه القرآن ، وليلة نزول القرآن هي التي قال الله عنها : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ، إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ، فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ، أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ، رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٤٤ : ٣ - ٦) وهذا هو السبب في تخصيص الإسلام شهر رمضان بالصوم ، لأنه هو الشهر الذي كان يتعبد فيه الرسول ﷺ بنهار حراء (جبل النور) ، ونزل عليه كلام الله فيه لأول مرة ، كما قال تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ، هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾ (٢ : ١٨٥) وجعلت نهايته عيداً ، تذكراً لذلك اليوم العظيم ، ووجبت فيه صدقة يدفعها المسلمون لفقرائهم ، وهي المسماة بصدقة الفطر ، فلذى أنزل الله على عبده هو القرآن - أي ابتداء نزوله - ويوم الفرقان ، هو يوم (١٧) من رمضان من أول سني النبوة ، وسمي « يوم الفرقان » لأن الله فرق به بين الحق والباطل ، باختياره عبده « محمداً » ، لأن يبلغ عنه إلى الناس رسالته ، وهذا اليوم هو يوم التقى الجمعان في واقعة « بدر » ولكن ليس هو بالشخص ، وإنما هو بالنوع ، فهذا اليوم وهو يوم (١٧) خلت من رمضان ، كان محلاً لنزول الفرقان أول مره ، ومحلاً لالتقاء الجمعين ببدر وان يكن يوم الفرقان كان يوم ١٧ خلت من رمضان للسنة الأولى من النبوة ويوم التقى الجمعان هو يوم (١٧) رمضان من السنة الثانية للهجرة ، فلذلك قلنا إن « يوم الفرقان » هو « يوم التقى الجمعان » بالنوع ، كما أنه مثلاً هو يوم وفاة علي كرم الله وجهه ، ولكن بالنوع لا بالشخص ، لأن وفاته كانت في (١٧) رمضان

من سنة (٤٠) هجرية ، وقد جرت العادة في التعبير أن يجعل اليوم المعين عدده محلاً لكثير من الوقائع ، مع انه ليس من سنة واحدة . كما يقولون « يوم عاشوراء » فيه هبط آدم ، وفيه نجت سفينة نوح ، وفيه نجا موسى من الفرق ، وليس هذا كله من سنة واحدة بالضرورة ، وكذلك ههنا ليس « يوم الفرقان » و « يوم التقى الجمعان » و « يوم توفي علي ابن أبي طالب » (ر ض) من سنة واحدة ، هذا ما استفدناه من كلام مصري عصري ، فتأمله فلعلك أدق نظراً وأكثر تحقيقاً .

(أنزلناه)

- ٤ -

قال أبو الفضل الحانوني (١)

(جمع القرآن)

نزل القرآن منجّماً على رسول الله ﷺ في نحو ثلاث وعشرين سنة، وكان ينزل حسب الحوادث ومقتضى الحال، بالآية والآيات والسورة الكاملة كما في سورتنا هذه التي نفسرها الآن ، ولم يجمع القرآن في عهد النبي في مصحف ، بل كان في صحف مفرقة كتبها كتاب الوحي ، وفي صدور الحفاظ من الصحابة ، ثم في عهد أبي بكر أمر بجمع القرآن ، ولكن لا في مصحف واحد بل جمعت الصحف .

(١) نسبة الى بيت حانون من فلسطين

المختلفة التي فيها آيات القرآن وسوره ، وكتب معها ما كان في صدور الرجال ، وأودعت الصحف الكثيرة التي فيها القرآن عند أبي بكر ، وقد تولى جمعه هذا « زيد بن ثابت » ، ثم انتقلت من أبي بكر إلى عمر ، ثم إلى حفصة بنت عمر ، حتى إذا تولى عثمان أخذ الصحف من حفصة ، وعهد إلى جمع من الصحابة منهم « زيد بن ثابت » ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، بجمعها في مصحف واحد ، وكتب منه نسخاً كثيرة ، وزعت على الأمصار .

(قرآنًا عربياً)

- ١ -

قال الفهامة الخرطومي^(١)

لغات كلام القرآن

إن من كلام القرآن ما هو عربي أصالة ، بدون أن يكون ترجمة عن لغة أخرى ، وذلك كالكلام المسند في هذه السورة لله تعالى ابتكاراً ، وليس محكياً عن الأعاجم ، ومنه ما هو تعريب الألفاظ العبرانية ، وذلك كالمحاورات المنقولة عن لسان يعقوب وأولاده ، ومنه ما هو تحوير من اللغة العربية العمليقية الهكسوسية إلى اللغة العربية القرشية ، وذلك كالكلام المحكي عن مليك مصر ، « الريان بن الوليد » لأن اللغة الهكسوسية قريبة جداً من اللغة العربية أو هي العربية محرفة .

(١) نسبة الى بلدة الخرطوم في السودان

ومنه ماهو ترجمة عن اللغة القبطية المصرية ، وذلك كالـكلام المعزوة إلى النسوة في المدينة المصرية ، والكلام المعزوة إلى « عزيز مصر » وامراته ، وإلى « الشاهد » من أهلها ، على أن اللغة المصرية موافقة للعربية في الألوف من مفرداتها ، كما اكتشف ذلك من العاديات المصرية ، فكأن أهل اللغتين واحد ، ومنه ما هو تحويل من اللغة المديانية إلى اللغة العربية القرشية ، وذلك كالـكلام المنقول عن « وارد السيارة » التي جاءت فارسلته للجب ؛ ويظهر مما تقدم ذكره أن الأقوال المحكية في هذه السورة إنما هي معبرة عن المعاني ، وشارحة للحقائق ، وليست نقلاً لنفس الألفاظ التي صدرت من أصحابها ، فإن بعض أولئك المحكي عنهم أعاجم ، ومنهم قرييون للعرب أو عرب ، ولم تكن لغة العربي منهم كلغة القرآن في فصاحتها وبلاعتها ، كما أن الحال كذلك في أكثر ما نقل في القرآن عن الأنبياء السابقين ، والملوك والحكام المتقدمين .

(قرآنًا عربيًا)

- ٢ -

وقال السيد أبو الحسن النجفي^(١):

لزوم تعلم المسلمين اللغة العربية

بفضل كون القرآن عربيًا ، أصبحت اللغة العربية بعد الإسلام ، لغة الدين والدولة والعلم ، وما يتفرع عن هذه الأصول الثلاثة ، من فروع حجة ، كالآداب والتجارة والفن .

وقد رجح الإمام الشافعي في « الأُم » وجوبَ تعميم اللغة العربية ، ووجوب

(١) نسبة الى بلدة النجف الاشرف في العراق

تعلّمها على كل مسلم ، ليفهم القرآن الكريم ، الذي هو أصل الدين ، ولقد كان الصحابة الكرام ، ومن اهتدى بهديهم من الفاتحين ، يلقنون الناس الدين ؛ على وجه يبعثهم على تعلم العربية من أنفسهم ، ولذلك لم يمتد على انتشار الإسلام ، في بلاد الروم والفرس وبلاد أفريقيا وغربي أوربا ، زمن يسير ، حتى علت اللغة العربية ، على لغات هذه الأمم ، بل نسختها كما تنسخ آية النهار آية الليل ، من غير مدارس ولا معلمين ، ينصرفون إلى تعليم اللغة ، وما كان انتشار اللغة بهذه السرعة ، إلا بوازع نفسي يفعل ما لا تفعل السياسة والمدارس ، وما أوقف هذا السير ، إلا ضعف الدول العربية ، ووثوب الأعاجم على عروشها ، وإفتاء علماء الأعاجم بجواز العبادة وقراءة القرآن وأذكار الصلاة - باللغات الأعجمية ..

ومن المسائل المفيدة في هذا المقام ، إن ما يكون به الإنسان مسلماً في الجملة ، شيء سهل بسيط ، يمكن إيصاله إلى كل عربي وعجمي في وقت قصير ، ولكن غو الإسلام في القلب ، وفيهم ما جاء به من الحكم والمعارف ، التي ترقى النوع البشري ، يتوقف على معرفة العربية حق المعرفة .

ولقد جاء الإسلام ، لإصلاح اجتماعي ، وهو السعي في وحدة أمم الأرض باتفاقهم في اللغة والدين ، وهذا هو الذي توجهت إليه أخيراً أنظار فلاسفة أوربا ودولها القوية . ولذلك ترى كل واحدة منها ، تبذل كل مرتخص وغال ، لأجل تعميم لغتها بواسطة الفتح والاستعمار والانتداب ، ولأجل انتشار دينها من طرف خفي ، بواسطة المدارس والمستشفيات والمبشرين .

أنزل الله القرآن بلسان العرب ، وخاطبهم فيه بما يعرفون وبما يفهمون ، فهو وحي الله إليهم مباشرة ، وإلى العالمين بواسطتهم ، وجميع ما فيه مفهوم لهم ، بدون احتياج إلى تفسير مفسر أو تأويل مؤول ، أما الأمم الأخرى التي تأخذ القرآن

عن العرب ، فلا بد لهم من معرفة اللغة العربية تدريجياً ، وكذا معرفة أحوال العرب وعاداتهم وتاريخهم واصطلاحاتهم ، حتى يتيسر لهم فهم القرآن على حقيقته ، وبعد ذلك فهم غير محتاجين لنيء آخر .

أنزل القرآن بأشرف اللغات ، على أشرف الرسل ، بسفارة أشرف الملائكة ، في أشرف بقاع الأرض ، مكة والمدينة ، وابتدىء إزاله في أشرف شهور السنة - وهو رمضان - فأكمل من كل الوجوه ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : « أحبوا العرب ثلاث : لأني عربي ، والقرآن عربي ، وكلام أهل الجنة عربي » ، رواه الطبراني والحاكم والبيهقي وكذا العقيلي ، ووضع السيوطي بجانبه في الجامع الصغير علامة الصحة .

(قوآناً عربياً)

- ٣ -

بعث محمد ﷺ العربي للأمم كافة

وتابع السيد أبو الحسن النجفي كلامه قائلاً :

إن جملة ﴿ قرآناً عربياً لعالمكم تعقلون ﴾ لا تشير إلى أن النبي لم يبعث لغير العرب .. لا .. حاشا وكلا .. ولكن المراد أن العرب هم الأصل ، وهم متى عقلوا القرآن وفهموه أمكنهم أن يفهموه لغيرهم من الأمم ، ﴿ هو الذي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ ، يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ، وَيُزَكِّيهِمْ ، وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (٦٢ : ٢) ، ﴿ كما أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ ، يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا ، وَيُزَكِّيكُمْ ، وَيُعَلِّمُكُمُ

الكتاب ، والحكمة ، ويعلمتكم ما لم تكونوا تعلمون ﴿٢ : ١٥١﴾ ،
فالنبي يعلم قومه العرب ويزكيهم بالقرآن ، ويعلمهم الكتاب والحكمة وهم ينشرون
دعوته ، ويثبون حكمته في الأمم ، فيفتح الله لهم المشرق والمغرب ، وينقل الله بهم
الأمم والشعوب ، من حال إلى حال ، أعلى وأرقى ، ينقلونهم من الوثنية والعبودية
والذلّة والظلم ، وفساد الأخلاق والآداب والجهل ، إلى التوحيد والحرية والعزة
والعدل والآداب والفضائل والعلم وثمراته .

إذاً ، فالصحابّة - وأكثرهم عرب - هم رسل محمد ﷺ إلى الأمم
والشعوب ، التي لم تجتمع بالنبي ﷺ وأكثرهم عجم ، وهذا يذكرنا بما كان من
رسل المسيح عيسى عليه السلام ، كما قال تعالى : ﴿ واضرب لهم مثلاً أصحاب
القرية إذ جاءها المرسلون ، إذ أرسلنا إليهم اثنين ، فكذبوهما ، فعززنا
بثالث ، فقالوا : إنّنا إليكم مرسلون .. ﴾ (٣٦ : ١٣ و ١٤) ويرى بعض
علماء اللغات أن كلمة « الحواريين » في القرآن ، هي معربة عن الحبشية ، ومعناها
فيها « الرسل أو المرسلون » ، سماهم القرآن بذلك ، إما بحسب العرف الجاري في
ذلك الزمن بين نصارى العرب ، كما نسمي الآن دعاة النصرانية « بالمبشرين » ، وإما
لأن المسيح أرسلهم في حياته لدعوة اليهود إلى المسيحية ، كما في الأناجيل . (راجع
مت ١٠ : ١ - ١٥ ، لو ٩ : ١ - ٦ ، لو ١٠ : ١ - ١٢ والحكمة في اختيار
القرآن هذه الكلمة الحبشية دون مرادفها في العربية ، هي منع الالتباس ، لتكون
علماً خاصاً بهؤلاء التلاميذ الممتازين من أصحاب عيسى عليه السلام .

(الله أكبر)

(قوآناً عربياً)

- ٤ -

وقال الفضيل النجدي (١) :

ترجمه القرآن

إن مقاصد الإسلام العلمية ، جمع البشر على دين واحد ، ولغة واحدة ، لتكلم وحدتهم ، وتحقيق إخوتهم ، ولذلك منعت ترجمة القرآن الكريم ، على تقدير حسابان الترجمة قرآناً ، فيحتم بقاؤه عربياً ، ويجب شروع كل مؤمن في تعلم اللغة العربية ، كما كان الحال كذلك ، أيام صاحب الرسالة ، والخلفاء الراشدين ، بل وفي أيام دولة الأمويين والعباسيين ، ولولا الصدمات السياسية التي صدمت الإسلام ، لظل أهل فارس ومن يجاورهم إلى هذا الزمن ، ينطقون بالعربية « كما كانوا في القرون الأولى للإسلام ، بل كانت بلاد الهند والأفغان والترك وجزء عظيم من بلاد الصين ، يحسنون التفاهم باللغة العربية ، كبلاد سوريا ومصر لهذا العهد ، ولما كان في ذلك للإسلام ، سياج من الوحدة لا يخرق .

وهنا مسألتان ، إحداها ترجمة القرآن إلى لغة أعجمية ، أي التعبير عن معانيه بألفاظ أعجمية ، يفهمها الأعجمي دون العربي ، والثانية كتابة القرآن العربي ، بحروف غير عربية ، وكلا المسألتين غير جائز ، نعم إن المنع فيما إذا ترجم القرآن ، وحسبت الترجمة قرآناً ، وأما إذا ترجم بقصد جعله وسيلة للدعوة إلى الإسلام ، أو بقصد إفهام من لم يمكنه تعلم اللغة العربية ، فلا بأس بذلك .

(١) نسبة الى مقاطعة نجد من بلاد المملكة العربية السعودية

قال ابن تيمية في كتابه « العقل والنقل » : (وأما مخاطبة أهل الاصطلاح باصطلاحهم ولغتهم ، فليس بمكروه إذا احتيج إلى ذلك ، وكانت المعاني صحيحة كمخاطبة المعجم من الروم والفرس والترك بلغتهم وعرفهم : فإن هذا جائز حسن للحاجة ، وإغنا كرهه الأئمة إذا لم يحتج إليه ، ولهذا قال النبي ﷺ لأُمّ خالد بنت خالد بن سعيد بن العاص ، وكانت صغيرة ولدت بأرض الحبشة ، لأن أباه كان من المهاجرين إليها ، فقال لها : « يا أمّ خالد هذا سنا » والسنا بلسان الحبشة الحسن ، لأنها كانت من أهل هذه اللغة ، ولذلك يترجم القرآن والحديث لمن يحتاج إلى تفهمه إياه بالترجمة ، وكذلك يقرأ المسلم ما يحتاج إليه من كتب الأمم وكلامهم بلغتهم ، ويترجم بالعربية ، كما أمر النبي ﷺ زيد بن ثابت أن يتعلم كتاب اليهود ليقراء له ويكتب له ذلك ، حيث لم يأمن اليهود عليه) انتهى .

قرواً نأ عربياً

- ٥ -

وقال مولاي أحمد القندي :

اللغة العربية لغة العلاقات بين الدول الإسلامية

يحسن أن تكون اللغة العربية هي اللغة الوحيدة التي تستعمل في العلاقات التي بين الدول المسلمة ، أسوة بالقاعدة المتبعة بين دول أوروبا في استعمال اللغة الفرنسية في المسائل السياسية ، لأن هذا يكون من أعظم دعائم الإصلاح الإسلامي الديني والاجتماعي والاقتصادي والعلمي والسياسي ، إن جميع شعوب المسلمين من مراکش غرباً إلى بكين شرقاً ، لا تخلو من علاقات مشتركة بينها ، إما دينية محضة ، أو دينية واقتصادية ، وإما علاقات سياسية فيما إذا كانت هذه الدول الإسلامية مستقلة ، وإن

هذا يكون بالمفاوضة فيما بينها ، لأن لغة شطر القارة الافريقية الشمالي من الغرب إلى الشرق ، و شطر آسيا الشرقي من البحر الاحمر إلى خليج العرب — هي اللغة العربية ، وفي هذه البلاد مهد الاسلام ومبسط وحيه ، ومهوى أفئدة أهله ، وقبلة صلاتهم ، ومشاعر نسكهم ، ومثابتهم التي يؤمها مئات الألوف من جميع شعوبهم على اختلاف أقطارهم في كل عام ، وهذه اللغة هي التي يتعبد بها جميع المسلمين ويتلقون دينهم في جميع الاقطار ، هذا هو برهان العقل .

وأما برهان الدين ، فهو أن العربية هي لغة الدين الإسلامي ، إذ لا يمكن أن نعلمه علماً صحيحاً ، ولا أن نعمل به عملاً صحيحاً ، بإقامة أعظم عباداته ، إلا بهذه اللغة ، فيتمين أن تكون هي اللغة الوحيدة للتعاون بين الشعوب الإسلامية ، وتفاعهم في أمورهم المعاشية .

قرآناً عربياً

- ٦ -

وقال ابو الفضل الفاشودي^(١):

فلسفة لغة القرآن

« قرآناً عربياً ، نزل بلغة العرب ، وعلى أساليب العرب في كلامهم ، فألفاظه عربية ، إلا ألفاظاً قليلة عُرِّبَتْ أخذت من اللغات الأخرى ، ولكن هضمتها

(١) نسبة الى فاشودة من بلاد السودان

العرب ، وأجرت عليها قوانينها ، وأساليبه هي أساليب العرب في كلامها ، وفيه الحقيقة اللغوية ، والحقيقة العرفية والاصطلاحية ، وفيه المجاز بالاستعارة والمجاز المرسل ، وفيه المجاز اللغوي والمجاز العقلي ، وفيه الكتابة وفيه التمثيل ، الى غير ذلك ، فهو على نمط العرب في كل استعمالاتهم .
(تأييد من أكتربة الاصوات) -

لعلكم تعقلون

- ١ -

قال الأديب الفالوجي ١ :

تعقل القرآن وفهمه

الالفاظ وحدها إنما هي هيكل عظمي ، وأما المعنى فهو اللحم والدم ، وأما فهمه فهو أكله المقصود بالذات ، فالحكمة من إنزاله لا تتم إلا بتعقل معناه ، ولا أحسبك إلا مسلماً لي في هذا الاعتقاد على طول الخط ، ﴿ فَإِنَّمَا يَسْتَرْفَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (٥٨ : ٤٤) ، ﴿ وَلَقَدْ يَسْرُنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ، فَبَلَّ مِنْ مَدٍّ كَبِيرٍ ؟ ﴾ (٥٤ : ١٧ و ٣٢ و ٤٠) ، ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (٤٣ : ٣) ، ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ (١٤ : ٤) ، ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ ، لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ (٢٠ : ١١٣) ، ﴿ وَكَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ ، لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (٢٤ : ٦١) ، ﴿ كَذَلِكَ ﴾

يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦:٢﴾ ﴿سورة﴾ أنزلناها وفسرناها
وأنزلنا فيها آياتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤: ١﴾ ، ﴿انظر كيف
نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥: ٦﴾ فنرى في هذه الآيات أن
خطاب الشريعة موجه إلى العقلاء ، فهذا يجب على كل مسلم مؤمن أن يكون عاقلًا
عالمًا بأسرار أحكام الله لكي يستفيد منها حق الاستفادة ، وفي الحديث « أفضل
الناس أعقل الناس » وفيه : « إنَّ الأحقَّ العابدَ يُصِيبُ بِجَهْلِهِ أَعْظَمَ مِنْ خُورِ
الْفَاجِرِ ، وإِنَّمَا يَقْرَبُ النَّاسُ مِنْ رَبِّهِمْ بِالْعِلْمِ » على قدر عقولهم ، إلى غير ذلك من
النصوص التي تفيد أن الثمرة المقصودة من الكتاب هي فهمه ، وقد ذم الله تعالى
من لا يفهم أولاً يريد أن يفهم كتابه فقال : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ ، — بل
لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ ! قَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨: ٢﴾ ، ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي
أَكِنَّةٍ نَمَا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ، وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ ، وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ ، فاعمل
إِنَّا عَامِلُونَ ﴿٥١: ٥﴾ ، ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ ، أَمَا عَلَى قُلُوبٍ
أَقْفَالُهَا ؟! ﴾ ﴿٤٧: ٢٤﴾ ، ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ : يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا
هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ ﴿٣٥: ٣٠﴾ ، والمهجر هجران : هجر التركيب وهجر
المعنى ، ومن لم يتدبر معناه فقد هجره هجراً معنوياً ، وقد أخبر الله عن أهل النار
أنهم قالوا ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ ﴿٦٧: ١٠﴾
ومدح ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ ﴿٢٥: ٧٣﴾ ،
فتح الله قلوبنا وأثار بصائرنا لفهم كتابه العزيز .

لعلكم تعقلون

- ٢ -

وقال الفهامة الريحاني^(١) :

تعقل القرآن وفهمه من صفات المؤمنين

إني أضمر صوتي إلى صوت رفيقي الأديب الفالوجي قائلاً : لا يزال كتاب الله تعالى يحث مخاطبيه على التعقل ، ويدفعهم إلى التفكير ، لأجل تمحيص الحقائق ، وهكذا إن شاء الله لا سير لنا في هذه التبعة التاريخية على غير العقل والحقيقة ، خلافاً لمن تعودوا أن يقبلوا ما سطره مَن قبلهم دون أن يمعنوا النظر فيه ، فترام ينقل ويقتبس بعضهم من بعض دون أن يحكموا العقل فيما ينقلون ويقتبسون ؛، وغني عن البيان أنه إنما أنزل الكتاب الكريم ليعمل بما تضمنه من الحكيم والاحكام ، وإن سعادة الدنيا والآخرة موقوفة على هذا العمل ، ومعلوم أنه لا يمكن هذا العمل إلا إذا فهم الكتاب حق الفهم ، وتعقل التعقل الصحيح ، من هذا تعرف أن سعادة الدنيا والآخرة موقوفة على فهم القرآن وتعقله ، فليجعل المكلف كل همه في فهم ما يشير ربه إليه ، ثم يعمل به ، فإنه لا حياة إلا بالعلم والعمل ، وبطن الأرض خير من ظهرها لمن فقد أحدهما !!!

تفهم معاني الكتاب وتعقله صفة من صفات المؤمنين ، كما أن عدم ذلك من سيئ سواهم ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتوراً ، وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ ، وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾

(١) نسبة إلى أريحا من أعمال فلسطين

(١٧ : ٤٥ و ٤٦) ، الحجاب هو معاصيهم وكفرهم وكبرياؤهم ، وكلما كان المرء أكثر عصياناً وكفراً كان أبعد عن فهم كلامه تعالى ، وهذا الجعل المذكور تكويني ، هذا مارأيناه في هذا المقام ، فهل من مرید أن يضم صوته لصوتنا إن كنا على صواب ؟ إننا لذلك منتظرون (تأييد من جميع الأصوات)

لعلكم تعقلون

- ٣ -

وتلاه على هذه النعمة الطيفة أبو الفضل الحانوني (١) فقال :

مزية الانسان بالعقل والادراك

إن الإنسان إنما امتاز عن سائر المبروءات بالعقل ، لأنه في تركيبه الفسيولوجي (الفريزي أو النفسي) مشارك للحيوان ، وفي تركيبه الكيماوي مشارك للنبات والجماد ، فمزيته قائمة بالإدراك ، منحصرة في العقل ، فمن كان من الناس أقوى من غيره في هذا الفارق الأعظم وأظهر من سواه في ذلك المائز الأكبر ، كان الأجدر بأن يعد فيهم عظيماً ، لأنه أبعد أبناء نوعه عن الحيوانات ، ومن ثمة فهو أشرفهم وأعلام ، ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ؟ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ، بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ (٢٥ : ٤٤) .

لولا العقول لكان أدنى ضيغم

أدنى إلى شرف من الإنسان

(مرحى)

(١) نسبة الى بلدة بيت حانون من فلسطين

لعلكم تعقلون

- ٤ -

وقال ناصر السنة التل أبيبي (١) :

استعمال أكثر المسلمين القرآن الكريم في غير ما هو له

مهما قلبت بصرك لا تجد القرآن « في الغالب » مستعملاً فيما وضع له ، فهو عند الخاصة موضوع مناقشات لفظية ، وصناعة وفصاحة كلامية ، ومجال براعة في اختراع وجوه ، وتأويل مناجي ، وبعد عن مقاصد ، وأما عند العامة فهو دفتر لتعاويد ورقى ، وكتاب ترتيل ، وعلى رأيهم هو كلام يقال لكي لا يفهم ، حتى قال بعض الأدباء : فات هؤلاء المسلمين أن يفهموه للأحياء فاستدركوا بأن صاروا يسمعون له للموتى في القبور !!!

إن في القرآن العظيم (٦٢٣٦) آية وآيات الفقه فيه (١٥٠) آية ، والآيات الكونية (٧٥٠) آية ، والباقي تاريخ وجدل وإلهيات وبراهين توحيد وأدلة قيامة وحجج نبوة وآيات أخلاق وأدب وغير ذلك ، فهل لأجل مئة وخمسين آية ، لا يجوز أن ننظر في باقي الآيات القرآنية ؟ اللهم إن هذا حكم جائر لا يقبله ذو دين .

إن البشر ليسوا حيوانات تساق إلى حيث يريد من يسوقهم ، الناس ليسوا بقرراً تساق إلى المذبح ، الناس ليسوا تماثيل لا حس فيها ولا عقل ولا إدراك ، تنقاد لهذا أو ذاك بدون فهم مقصده وغايته ، الناس كلهم من نوع الإنسان ، والإنسان حيوان ناطق ، ونطقه هو فكره وعقله ، فإذا لم يستعمل عقله ، كان كإنه بلا عقل ، فكان كإنه ليس إنساناً .

(١) نسبة الى بلدة تل أبيب من فلسطين

إن المجتهد لا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا ، وذلك علم الماديات ، فإنهم برعوا في ذلك كما هو مشاهد ، وهم عن الآخرة هم غافلون ، ولذلك فهم في الروحيات ضعفاء جد الضعف ، فنحن أهل الإيمان ، إذا أهملنا الروحيات التي أهمها تفهم القرآن ، — وبالطبع نحن ضعفاء في الماديات — كنا لا ديناً ولا دين ! فاللهم سلم سلم .

لعلكم تعقلون

- ٥ -

وتلاه أبو الاقبال البربراي^(١) فقال :

القرآن يمدح المتعقلين بآياته ويذم الغافلين عنها

يوجد في القرآن الكريم آيات كثيرة تمدح المتعقلين ، وآيات كثيرة تذم الساهين الغافلين ، منها :

أولاً - ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ (١٤٥ : ٧) .

ثانياً - ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ، أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ ، بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (١٧٨ : ٧) .

(١) نسبة الى بلدة بربرة من فلسطين

ثالثاً - ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا « سَمِعْنَا » وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ، إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٢٢ و ٢١ : ٢٢)
 رابعاً - ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ ، نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ : « هَلْ يَرَاهُ مِنْ أَحَدٍ ؟ » . ثُمَّ انصَرَفُوا ، صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ، بَأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ (١٢٨ : ٩) .

خامساً - ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنِّي ذِكْرِي ، فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً ، وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ (٢٤ : ٢٠)

سادساً - ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ : يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً ﴾ (٣٠ : ٢٥)

سابعاً - ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمُوتًا وَعُمِيَانًا ﴾ (٧٣ : ٢٥) .

ثامناً - ﴿ وَقَالُوا : لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (١٠ : ٦٧)

تاسعاً - ﴿ كِتَابٌ أُنزِلْنَا بِهِ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ ، لِيَذَّبُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (٢٩ : ٣٨)

عاشراً - ﴿ فَطَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ، فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ (٣ : ٦٣)

حادي عشر - ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ ، وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (٢٢ : ٤٦) .

ثاني عشر - ﴿ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي ، وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾ (١٠٢ : ١٨)

ثالث عشر - ﴿وقالوا: قلوبنا في أكنةٍ مما تدعونا إليه ، وفي آذاننا وقرءٌ
وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ (٤١ : ٥) .
وبناء على ما تقدم فالأصل في مشروعية تلاوة القرآن الاهتداء والاعتبار ،
ولا يكون ذلك إلا بالتدبر والتفهم ، نعم قد يثاب التالي للقرآن بغير فهم ، إذا كان
يتلوه لغرض شرعي آخر ، كتجويد التلاوة والحفظ ، فإنّ توجه الذهن إلى ضبط
الألفاظ ، وإتقان مخارج الحروف مثلاً ، يشغل عن تدبر المعاني ، ولكن مثل هذا
يكون غرضاً عارضاً ، لا دائماً .

أهلـكم تعقلون

- ٦ -

وقال الشيخ محمد العدني (١) :

تعقل القرآن هو التفقه فيه بالوقوف على مراميه

معنى « تعقلون » تفهمون وتفقهون ، كما في الحديث : « من يُرد الله به خيراً يفقهه في
الدين » فالفقه في هذا الحديث ، إنما هو بمعنى فهم مرامي الكتاب العزيز ، والسنة
النبوية ، ولا يصح حمل كلمة « يفقهه » في هذا الحديث ونحوه ، على المعنى الاصطلاحي
للفقه ، وهو علم ظواهر الأحكام العملية ، لأن هذا لم يُسم « فقهاً » إلا بعد الصدر
الأول من الإسلام ، ولم تُسم حملته « فقهاء » إلا بعد العصر الأول ، والفقه بالمعنى
الاصطلاحي الجديد ، هو أقل ما في الدين ، ولذلك لم يحتفل به القرآن ، ولم يرد

(١) نسبة الى عدن من بلاد مقاطعة عدن في جنوب المملكة اليمنية

منه في السنة الصحيحة أيضاً ، إلا القليل ، ولكنهم اعتنوا بجمعه فكثر ، وإنما عماد الدين وقوامه ، هو الاعتقاد الصحيح ، ومعرفة مكارم الأخلاق ، والتحلي بحسن الآداب ، وتطهير العقول من لوث الخرافات والأوهام ، وكل هذا يكون بالوقوف على مرامي كتاب الله ، فهذا هو الفقه ، بالمعنى المعروف في عصر النبوة والخلافة .

لعلكم تعقلون

- ٧ -

وقال الشيخ الطنطاوي

الحكمة من انزال القرآن

ليست الحكمة في إنزال القرآن الحكيم ، التعبد بتلاوته من غير فهم معناه أو لنجمله « حائوتاً » ينبع منه « عدية يأس » ولا لنجمله « صيدلية » نكتب آياته في آنية ونغوها بالماء ، ونعاطها لنشفي من داء كذا ، ولا .. ولا .. الخ ، بل الحكمة من انزال القرآن مبينة في نفس القرآن ، وهاكم بيان بعضها :

أولاً - الهداية ، كما قال : ﴿ التَّم ، ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ، هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (٢ : ١) .

ثانياً - التعقل ، كما قال : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (١٢ : ٢) .

ثالثاً - الخروج من الظلمة إلى النور ، كما قال : ﴿ الرَّ ، كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ

لَتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ، إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .
الحديد ﴿١٤ : ١﴾ .

رابعاً - البشارة والندارة ، كما قال : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ
الْكِتَابَ ، وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ، قَيِّمًا ، لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ
وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ ، أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ، مَا كَثُرَ
فِيهِ أَبدَأُ ﴾ (١٨ : ١ - ٣) .

خامساً - التذكير ، كما قال : ﴿ طه ما أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ، إِلَّا
تَذَكُّرًا لِّمَنْ يَخْشَى ﴾ (٢٠ : ١ - ٣)

سادساً - التدبر كما قال : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ ، أَمْ عَلَى قُلُوبٍ
أَقْفَالُهَا ؟ ﴾ (٤٧ : ٢٤)

سابعاً وثامناً وتاسعاً - التثبيت والعظة والذكرى ، كما قال : ﴿ وَكَأَلَّا
نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ ، مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ، وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ
وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١١ : ١٢٠) .

عاشراً - الاعتبار ، كما قال : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي
الْأَلْبَابِ ﴾ (١٢ : ١١١)

الحادي عشر - قانون عدلية أو مجلة أحكام ، كما قال : ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ
حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾ (١٣ : ٣٩)

الثاني عشر - التفكير كما قال : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِنَضُرِّبُهَا لِلنَّاسِ ، لَعَلَّهُمْ
يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٥٩ : ٢١)

الثالث عشر - شفاء ما في صدور الناس ، من أمراض الجهل بالله ، وبما له على عباده من الحقوق ، وما لبعضهم من ذلك على بعض ، وأمراض الأخلاق السيئة ، والعادات الضارة ، كما قال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٠ : ٥٧)

إلى غير ذلك مما يزيد على ضعفه

الفصل الثاني

القرآن وعلم التاريخ

آ (٣) ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ، بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ! وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثالثة فقام الشيخ أمين البترسبي^(١) وقال :

(نحن نقص عليك) يا محمد (أحسن القصص) أي الاقتصاص أو المقصوص (بما أوحينا إليك هذا القرآن) بحيث يطير به كل ما عشش من الأباطيل في الكتب المحرفة (وإن) هي المخففة من الثقيلة (كنت من قبله) من قبل ما أوحينا (لمن الغافلين) الجاهلين به ، ما كان لك فيه علم قط ، ولا طرق سمعت منه طرف ؛

(١) نسبة الى بئر السبع من بلاد فلسطين

نتعلم من هذه الآية الكريمة وأخواتها الكثيرة في القرآن أن علم التاريخ هو علم يهتم كل إنسان الإطلاع عليه ودرسه وتعلمه، خصوصاً التاريخ الديني وإليك بعض الآيات التي تتعلم منها ذلك: ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا﴾ (٧ : ١٠٠)، ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَشِئْتُ بِهِ فَوَادِّكَ﴾ (١١ : ١٢٠)، ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ (٢٠ : ٩٩)، ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (١٢ : ١١١)، ﴿وَإِذْ كُنَّا فِي الْكِتَابِ مِرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ الخ (١٩ : ١٥ - ٣٤)، ﴿وَإِذْ كُنَّا فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ كَانَ صَدِّيقًا نَبِيًّا﴾ الخ (١٩ : ٤١ - ٥٠)، ﴿اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَإِذْ كُنَّا عَبْدًا لِدَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ الخ (٣٨ : ١٧ - ٤٠)، أعني مجموع قصتي داود وابنه سليمان. ﴿وَإِذْ كُنَّا أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرْنَا قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ الخ (٤٦ : ٢١ - ٢٦)، ﴿كَهَنَسَ، ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ الخ (١٩ : ١ - ١٤)، ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرُّقْمِ﴾ الخ (١٨ : ٩ - ٢٦)، ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَتَاهُ﴾ الخ (١٨ : ٦١ - ٨٣)، ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾ الخ (١٨ : ٨٤ - ١٠٠)، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكَّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ الخ (١٤ : ٥)، ﴿وَأَنْذَرْنَا أَدَمَ بِالنَّارِ﴾ الخ (٥ : ٣٠ - ٣٤)، ﴿وَإِذْ نَادَى مِنْ قَبْلِهِ هَذَا أَوْ اثَّارَةٌ مِنْ عَلِيمٍ﴾ الخ (٤٦ : ٤) وهذه الأثرية هي بقية من بقايا علم الأولين وما ذلك الا علم التاريخ

سور القرآن التي سميت بأسماء حوادث تاريخية

وأتم أيها السادة تعلمون أنه يوجد في القرآن الكريم سور كثيرة سميت بأسماء حوادث تاريخية اشتملت تلك السور عليها ، بل وعلى غيرها من الأنباء الهامة ، أنباء الأنبياء وأقوامهم والملوك ورعاياهم ، والصلحاء والأشقياء ، والأئم الدائرة ، والممالك الغابرة ، والرجال والنساء وما إلى هذا القبيل ، وإليك بعض الأمثلة :

سورة البقرة، آل عمران ، المائدة ، يونس ، هود ، يوسف ، إبراهيم ، الحجر ، الكهف ، مريم ، الأنبياء ، النمل ، القصص ، الروم ، لقمان ، الأحزاب ، سبأ ، المؤمن ، الأحقاف ، الفتح ، الحجرات ، المجادلة ، الحشر ، المنافقون ، نوح ، الجن ، الأعمى ، الفيل ، قريش ، أبي لؤب - فهذه ثلاثون سورة سميت بأسماء حوادث تاريخية ذكرت فيها ، عناية بتلك الحوادث ، وإعلاءً من شأنها ، وتشويقاً للقارئ في تفهمها، وأنت إذا أعمنت النظر ، ودققت في تتبع القرآن الكريم ، وجدت في كل سورة من سور المئة والأربعة عشر نموذجاً من التاريخ الانساني أو الحيواني أو النباتي أو الجمادى - الطبيعي أو السياسي أو الاجتماعي - الخاص أو العام - أو الديني أو الدنيوي ، وهكذا تجده محتوياً على تاريخ اليهود والمصريين والعراقيين وأهالي جزيرة العرب واليمن والنصارى ، وما إلى ذلك مما يعثر عليه المنقبون ، ويقف عليه العارفون ، والحق والحق أقول ، أنه لو حذف التاريخ من القرآن لما بقي منه نحو عشره وبحسب التاريخ فخراً إن معظم كتاب الله من نوعه ، والله المثل الأعلى: ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ؟ ﴾ (٤٧ : ٣٤) .

صراخ من الجميع أصبت . أصبت

(نقص)

- ٢ -

وقال الحاج احمد الغزي ^(١) :

الحكمة من سرد الوقائع التاريخية في القرآن

لو قال قائل : « إن التاريخ من العلوم التي يسهل على البشر تدوينها والاستغناء عنها عن الوحي ، فلماذا كثر سرد الاخبار التاريخية في القرآن ، وكانت في التوراة أكثر ؟ » فالجواب ليس في القرآن شيء من التاريخ من حيث هو تاريخ وأخبار وقصص ، وإنما هي الآيات والعبر تجلت في سياق الوقائع ولذلك لم تذكر قصة بترتيبها وتفصيلها في القرآن ، سوى قصة يوسف ، فإنها نزلت مرة واحدة مرتبة مفصلة ، لما ذكرناه في تفسير (ع ١) ، وكل ما ترى في هذه التوراة التي عند القوم من القصص المسببة والتاريخ المتصل من ذكر آدم وما بعدها ، فهي مما أُلْحِق بالتوراة ، بعد موسى بقرون ، بل إن أكثر تواريخ العهد القديم ، إنما كتب بعد السبي ورجوع بني إسرائيل من بابل ..

صراخ من الجميع حسن حسن !

(١) نسبة الى غزوة من اعمال فلسطين.

نحن نقص

- ٢ -

وقال السيد محمود الجاوي (١) :

جبريل (ع) هو واسطة نقل كلام الله الى النبي

أي يقصه عليك جبريل نقلاً عنا ، قال تعالى : ﴿ وما كان لبشر أن
يُكلّمه الله إلاّ وحياً ، أو من وراء حجابٍ ، أو يُرسِلَ رسولاً ،
فيوحى إليه ما يشاء ﴾ (٥١:٤٢) ، فالله تعالى إذا أرسل رسولاً من الملائكة أو
من البشر برسالة ، كان مكلماً لعباده بواسطة رسوله ، بما أرسل به رسوله ، وكان
مبيناً لهم ذلك ، كما قال النبي للمنافقين : ﴿ قد نبأنا الله من أخباركم ﴾
(٩ : ٩٥) أي بواسطة جبريل ، وقال تعالى : ﴿ فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ﴾
(٧٥ : ١٨) وقال : ﴿ تَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ ﴾
(٢٨ : ٣) وقد كانت القراءة والتلاوة بواسطة جبريل ، فكذا القصص هنا فانه
سبحانه يكلم عباده بواسطة رسول يرسله ، فيوحى بإذنه ما يشاء ، ولهذا جاء
بلفظ الجمع ، فإن ما فعله المطاع بجنده ، يقال فيه : نحن نفعل كذا ، والملائكة رسل
الله فيما يفعله ويأمر به ، فما فعله وأمر به بواسطة رسوله من الملائكة ، قال فيه : نحن
فعلناه ، ومن هذا القبيل ما في الحديث « فإذا قال الإمام : سمع الله لمن حمده ، فقولوا :
ربنا ولك الحمد » فإن الله قال على لسان نبيه : « سمع الله لمن حمده » ، معناه : إن الله

(١) نسبة الى جزيره جاوة الواقعة في جنوب الهند

بلغكم هذا الكلام على لسان رسوله ، وأخبركم أنه سمع دعاء من حمده ، فأحمدوه أنتم وقولوا له ربنا ولك الحمد ، حتى يسمع دعاءكم ، فإن الحمد قبل الدعاء سبب لاستجابة الدعاء ، كذا قاله في « منهاج السنة » والله أعلم .

جيد

أحسن القصص

- ١ -

وقال المهدي للاسلام السيد اسماعيل الملقب سابقاً بصموئيل :

لماذا عبر بأن قصص القرآن هو أحسن القصص

إنما قال (أحسن القصص) إشارة إلى أنه يوجد في قصص يوسف وإخوته في سفر التكوين (من التوراة) ما هو ليس بالحسن ، والمراد بأحسنه ، أثبتته وأحقه كما قال بعد ما ذكر شيئاً من تاريخ المسيح عليه السلام : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ﴾ (٣ : ٦٢) إشارة إلى ما وقع في تاريخه من الباطل ، وكما قالت « زليخا » امرأة العزيز : ﴿ آ لَآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ﴾ (آ : ٥١) إشارة إلى أن ما قالته فيه سابقاً باطل ، وقال تعالى : ﴿ وَاتَّبَلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ ﴾ (٥ : ٣٠) إشارة إلى ما كان يزيد به بعض الناس في قصتها من الباطل ، وقال : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ﴾ (١٨ : ٣١) إشارة إلى أن ما كتبه النصاري في تاريخ أهل الكهف ليس من الحق .

وبعد فماكم مقابلة بين الآيات الواردة في سورة يوسف في القرآن الكريم

والواردة في الإصحاح السابع والثلاثين من سفر التكوين من التوراة ، وهي خير شاهد لكم على أن ما ورد في القرآن هو أحسن القصص وأثبت وأحقه :

التوراة	القرآن الكريم
١ - (وأتى يوسف بنميمهم الرديئة إلى أبيهم) (تك ٣٧ : ٢)	١ - لا يوجد شيء في مقابلة ذلك.
٢ - (فلما رأى إخوته أن أباهم أحبه أكثر من جميع إخوته أبغضوه) (تك ٣٧ : ٤) فلم يذكر بنيامين وغيرتهم منه .	٢ - ﴿ ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ﴾ (١٢ : ٨) أعني إنهم ذكروا بنيامين في مقام الغيرة من أكثرية الحب .
٣ - لا يوجد شيء في مقابلة ذلك.	٣ - ﴿ إن أبانا لفي ضلال مبين ﴾ (١٢ : ٨)
٤ - (وحلم يوسف حلماً وأخبر إخوته فازدادوا أيضاً بغضاً له ، فقال لهم اسمعوا هذا الحلم الذي حلمت ، فها نحن حازمون حزماً في الحقل ، وإذا حزمتي قامت وانتصبت ، فاحتاطت حزمكم ومسجدت لحزمتي ، فقال له إخوته : أملك تملك علينا ملكاً ؟ أم تتسلط علينا تسلطاً ؟ وازدادوا أيضاً بغضاً له ، من أجل أحلامه	٤ - لا يوجد شيء في مقابلة ذلك

في القرآن الكريم	في التوراة
٥ - في القرآن أن حلمه الثاني لم يقصه على إخوته بل على أبيه فقط ، وأبوه حذره أن يذكره لإخوته : ﴿ قال : يا بني ، لا تقصص رؤياك .. إلخ ﴾ (١٢ : ٥)	أحلامه ومن أجل كلامه (تك ٣٧ : ٨ و ٧)
٦ - في القرآن أن أباه بعد ما سمع منه حلمه الثاني قبله منه بكل فرح وعطف عليه أن بشره ببشارة تتلاءم مع هذا المنام (١٢ : ٦)	٥ - في التوراة إن يوسف قص حلمه الثاني على كل من أبيه وإخوته في آن واحد إذ قالت : (فقصه على أبيه وإخوته) (تك ٣٧ : ١٠)
٧ - لقد كان في يوسف وإخوته .. الخ ﴾ (١٢ : ٧)	٦ - في التوراة ان أباه بعد ما سمع حلمه الثاني اتهمه وقال له ما هذا الحلم الذي حلمت ، هل نأتي أنا وأهلك وإخوتك لنسجد لك إلى الأرض ؟ (تك ٣٧ : ١٠)
٨ - إخوته تأمروا على قتله أو طرحه أرضاً أو إلقائه في الجب وقر قرارهم أخيراً على هذا الرأي الأخير وهذا كان قبل ذهابهم لأبيهم ليطلبوه منه ، ثم ذهبوا لأبيهم واحتالوا عليه بأخذه ، وبعد أخذ وردٍ سمح لهم فيه (١٢ : ٨ - ١٤)	٧ - لا يوجد له مقابل
	٨ - لم يذكر في التوراة أنهم تفاوضوا في شيء عنه قبلاً ولكن صادف أن يوسف مضى إليهم في مرعاهم حيث أرسله أبوه إليهم ، لينظر سلامتهم وسلامة الغنم ثم يرد لأبيهم الخبر ، فذهب إليهم ، وعندما رأوه تفاوضوا في شأنه (تك ٣٧ : ١٢ - ٢٠) فهم

في التوراة	في القرآن الكريم
لم يذهبوا لأبيهم ليطلبوه منه ويعملوا عليه تلك الحيلة .	٩ - مؤامرة إخوته في شأنه كانت ثلاثية بين قتله أو طرحه أرضاً أو إلقائه في غيابة الجب (١٢: ١٠ و ٩)
٩ - إنما ذكروا أولاً قتله ثم طرحه بعد القتل في إحدى الآبار ، فسمع راويين وقال لا نقتله ، بل اطرحوه في البئر التي في البرية (تك ٣٧ : ٢٠ - ٢٢)	١٠ - الذي أشار بإلقائه في الجب هو الذي قال يلتقطه بعض السيارة (١٢ : ١٠)
١٠ - أشار راويين بطرحه في البئر لا لكي يلتقطه بعض السيارة بل لينقذه من أيديهم ويرده فيما بعد لأبيه (تك ٣٧ : ٢٣)	١١ - ﴿ قالوا : يا أبانا ، مالك لا تأمنا على يوسف - إلى قوله - نخاسرون ﴾ (١٢ : ١١ - ١٤)
١١ - لا يوجد في مقابلته شيء لأن التوراة إنما تذكر أن يوسف ذهب لإخوته في المرعى بأمر أبيه بدون أن يكون لإخوته شعور بذلك (تك ٣٧ : ١٢ - ٢٠)	١٢ - لا يوجد شيء في مقابلته
١٢ - خلعوا عنه قميصه الملون الذي عليه وأما البئر فكانت فارغة ليس فيها ماء وبعد ما طرحوه فيها	

في التوراة	في القرآن الكريم
<p>جلسوا لياكلوا طعاماً (تك ٣٧ :</p> <p>(٢٥ - ٢٣)</p> <p>١٣ - هم لم يجيئوا لأبيهم بل أرسلوا القميص الملون الغموس بالدم وأحضروه لأبيهم بواسطة الرسول الذي أرسلوه (تك ٣٧ : ٣١ و ٣٢)</p> <p>١٤ - فمزق يعقوب ثيابه ووضع مسحاً على حقويه وناح على ابنه أياماً كثيرة فقام جميع بنيهِ ، وجميع بناته ليعزوه فأبى أن يتعزى ، وقال إني أنزل إلى ابني نائماً إلى الهاوية وبكى عليه أبوه (تك ٣٧ : ٣٤ و ٣٥)</p> <p>١٥ - جاءت قافلة فسحبه إخوته من البئر وباعوه للقافلة (تك ٣٧ : ٢٦ - ٢٨)</p> <p>١٦ - فيها أن راوبين لم يكن</p>	<p>١٣ - إخوة يوسف أنفسهم جاءوا إلى أبيهم عشاء يبكون (١٢ : ١٦)</p> <p>١٤ - لم يكن من يعقوب بعد ما أخبر بافتراس الذئب لابنه ورأى على قميصه الدم - لم يكن منه إلا أنه قال: بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل (١٢ : ١٧ و ١٨)</p> <p>١٥ - ﴿ وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه ، قال : يا بشرى هذا غلام وأسروه بضاعة .. الخ ﴾ (١٢ : ١٩) هذا هو نص القرآن فليس فيه ان الذين أخرجوه من البئر هم إخوته وليس فيه ان إخوته باعوه للسيارة ، بل السيارة أخرجته وأخذته مجاناً</p> <p>١٦ - لا شيء في مقابلته .</p>

في التوراة	في القرآن الكريم
<p>معهم حينما باعوه فرجع إلى البئر ولم يجد أخاه فيها فمزق ثيابه ثم رجع إلى إخوته وقال : الولد ليس موجوداً وأنا إلى أين أذهب ، (تك ٣٧ : ٢٩ و ٢٨)</p> <p>١٧ - تذكر التوراة هنا في وسط سيرة يوسف ذكراً اقتضائياً لا يتطلبه ما قبله ولا ما بعده ما ملخصه .</p>	<p>١٧ - لا يوجد شيء في مقابلته ، وكأنه والله أعلم لهذا قال الله تعالى : ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾ يشير إلى أنه لم يذكر هذه الحكاية المدرجة في التوراة أثناء قصة يوسف لأنها من أقبح القصص فلذلك تنزه عنها القرآن الكريم أن يذكرها .</p>
<p>أن يهوذا أحد الأسباط زنى بثامار كتنه التي مات عنها زوجها ، ابنه غير ثم ابنه أوثان ، فقعدت مترملة في بيت أبيها ، ثم كانت جلست في الطريق التي يمر منها يهوذا ، وكانت قد غطت وجهها ، فلم يعرفها أنها كتنه فزنى بها بأجرة هي جدي من غنمه ، يرسله إليها ، فقالت هل تعطيني رهناً حتى ترسله ، فأعطاه خاتمه وعكازته وعمامته ، ولما كان نحو ثلاثة أشهر ، أخبر يهوذا وقيل له : قد زنت ثامار كنتك ، وها هي حبل أيضاً من الزنى ، فقال يهوذا : أخرجوها فتحرق ، أما</p>	

في القرآن الكريم	في التوراة
١٨ - ﴿وقال الذي اشتراه من مصر لامراته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً.. إلى قوله ولنعم له من تأويل الأحاديث.. الخ (١٢ : ٢١)﴾	هي فلما أخرجت أرسلت إلى حميها يهوذا قائلة : أنا حبلى من الرجل الذي هذه الأشياء له وهي هذه العصابة والعصا والخاتم ، فقال يهوذا : هي أبرمتني (تك ٣٨ : ١ - ٢٦)
١٩ - ﴿ولما بلغ أشده.. الخ الآية﴾ (١٢ : ٢٢)	١٨ - لا يوجد في مقابلته شيء
٢٠ - ﴿وراودته التي هو في ميثا.. الخ الآية (١٢ : ٢٣)﴾	١٩ - لا يوجد في مقابلته شيء
	٢٠ - في التوراة أن امرأة العزيز قبلما دخل يوسف بيتها الخاص بها كانت رفعت عينيها إليه وقالت : اضطجع معي (تك ٣٩ : ٧ و ٨) فهذه مراودة أولى سابقة على المراودة التي وقعت منها وقما دخل قصرها ليقوم بما كان عليه من الاعمال باعتبار أنه وكيل البيت .

في التوراة	في القرآن الكريم
١١ - لا يوجد شيء في مقابلته	٢١ - ﴿وغلقت الأبواب﴾ (١٢: ٢٣)
٢٢ - لا يوجد لذلك ذكر ما إلا أنه ذكر بدل ﴿واستبقا الباب﴾ أن يوسف هرب وحده وهي لم تلحقه وذكر بدل: ﴿وقدت قميصه .. الخ﴾ أنها أمسكته بثوبه ، فترك ثوبه في يدها وهرب ، ولكن هي لم تلحقه ، وإنما قعدت ووضعت ثوبه بجانبها ، حتى جاء سيده إلى بيته ، فكلّمته في هذا الموضوع (تك ٣٩ : ١١ - ٢٠)	٢٢ - ﴿ولقد همت به وهم بها ، لولا أن رأى برهان ربه - إلى قوله - إنك كنت من الخاطئين﴾ (١٢: ٢٤-٢٨)
٢٣ - فكان لما سمع سيده كلام امراته الذي كلمته به قائلة بحسب هذا الكلام صنع بي عبدك أن غضبه حي (تك ٣٩ : ١٥)	٢٣ - ﴿قال إنه من كيد كن إن كيد كن عظيم ، يوسف ، أعرض عن هذا ، واستغفري لذنوبك إنك كنت من الخاطئين﴾ (١٢: ٢٨ و ٢٩)
٢٤ - لا يوجد لذلك ذكر ما	٢٤ - ﴿وقال نسوة في المدينة - إلى قوله - السميع العليم﴾ (١٢ : ٣٠ - ٣٤) .
٢٥ - فأخذ يوسف سيده * ووضعه في بيت السجن .. وحدث بعد	٢٥ - ﴿ودخل معه السجن فتيان﴾ (١٢ : ٣٦) .

في القرآن الكريم

في التوراة

٢٦ - ﴿ قَالَ أَحدهما إِنِّي أَرَانِي
أَعَصِرُ خَمْراً - إِلَى قَوْلِهِ - مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾
(١٢ : ٣٦) يفيد أنه هما اللذان بدأ
بالسؤال وأنها كانا أحسن منه المقدر
على التعبير .

هذه الأمور أن ساقى ملك مصر والخباز
أذنباً إلى سيدهما ملك مصر ، فسخط
فرعون على خصييه ، رئيس السقا
ورئيس الخبازين ، فوضعهما في حبس
بيت رئيس الشرط ، في بيت السجن ،
المكان الذي كان يوسف محبوساً فيه
(تك ٣٩ و ٤٠) فهذا يفيد أن الفتيين
لم يدخلوا السجن مع دخول يوسف
ولكن بعد حين ، فيكون يوسف
سبقها إليه وهما لحقاه .

٢٦ - (وحلما كلاهما حلماً ...
فدخل يوسف إليهما في الصباح ونظرهما :
وإذا هما مقفان ، فسأل .. لماذا وجها كما
مكدان اليوم ؟ فقالا له حلماً حلماً ، ..
وليس من يعبره ، فقال لهما يوسف ، ..
أليست لله التعابير ؟ قصاً علي) (تك
٤٠ : ٥ - ٨) يفيد أن يوسف هو
الذي بدأهما بالكلام وطلب إليهما أن
يقصا عليه ، وأنها لم يحسا سابقاً بقدرته
على التعبير .

في التوراة	في القرآن الكريم
٢٧ - لا يقابله شيء	٢٧ - ﴿ قَالَ : لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ - إِلَى قَوْلِهِ - وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١٢ : ٣٧ - ٤٠)
٢٨ - (في ثلاثة أيام أيضاً يرفع فرعون رأسك ، ويردك إلى مقامك فتعطي كأس فرعون في يده كالعادة الأولى حين كنت ساقيه) (تك ٤٠ : ١٣)	٢٨ - ﴿ أَمَا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ﴾ (١٢ : ٤١) .
٢٩ - (يرفع فرعون رأسك عنك ، ويعلقك على خشبة ، وتأكل الطيور لحماً عنك) (تك ٤٠ : ١٩)	٢٩ - ﴿ وَأَمَّا الْآخِرُ ، فَيُصَلَبُ . فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ ﴾ (١٢ : ٤١)
٣٠ - (وإنما إذا ذكرتني عندك حيناً يصير لك خير تصنع إلي إحساناً وتذكرني لفرعون) (تك ٤٠ : ١٤)	٣٠ - ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهَا : اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ، فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾ (١٢ : ٤٢)
٣١ - (وحدث من بعد سنتين من الزمان أن فرعون رأى حلمًا .. الخ) (تك ٤١ : ١)	٣١ - ﴿ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بضع سنين ، وقال الملك : إِنِّي أَرَى .. الخ (١٢ : ٤٢ و ٤٣)
٣٢ - كبير مصر الذي كان	٣٢ - ﴿ وقال الملك : إِنِّي أَرَى ﴾ (٤٢ : ٤٢)

في التوراة	في القرآن الكريم
<p>من الرعاة الهكسوس دعي في التوراة (فرعون) كما قال :</p> <p>(فسخط فرعون على خصيه رئيس السقاة ورئيس الخبازين) (تك ٤٠ : ٢) وقال : (فسأل خصيي فرعون اللذين معه في حبس بيت سيده) (تك ٤٠ : ٤) وقال : (في ثلاثة أيام يرفع فرعون رأسك) (تك ٤٠ : ٣) وقال : (وتذكرني لفرعون) (تك ٤٠ : ٥) وقال : (وفي السل الأعلى من جميع طعام فرعون) (تك ٤٠ : ١٧) إلى غير ذلك من المواضع .</p>	<p>﴿ وقال الملك إئتوني به ﴾ (٥٤ و ٥٠ آ) ﴿ نفقد صواع الملك ﴾ (٧٢ : آ) ﴿ في دين الملك ﴾ (٧٦ : آ) فلاحظ أنه يذكر دائماً كلمة « ملك » ولا يذكر كلمة « فرعون » لأن كلمة فرعون لقب لمن ملك مصر من الحكام الأقباط الوطنيين الأصليين إذ ذاك ، وأما الرعاة الهكسوس فليسوا من الوطنيين ، فلم يلقبوا بلقب فرعون .</p>
<p>٣٣ - دعي يوسف في التوراة (صفات فنيح) (تك ٤١ : ٤٤) أي « طعام الحياة » أو « قوت الأحياء » أو « مخلص العالم » .</p>	<p>٣٣ - دعي يوسف في القرآن « بالصديق » (آ : ٤٦) وبالعزیز (آ : ٨٨) .</p>
<p>٣٤ - في التوراة أن فرعون أرسل فأخرج يوسف من السجن ، فلما صار بين يديه ، قص عليه حلمه ، فعبّره له (تك ٤١ : ١٤ - ٣١)</p>	<p>٣٤ - في القرآن أن الملك أرسل رئيس السقاة إلى يوسف ليقص عليه الحلم فذهب إليه رئيس السقاة ، وقص عليه الحلم ، وهو في السجن ، فعبّره له</p>

في التوراة	في القرآن الكريم
<p>٢٥ - (فقال فرعون لعبيده ، هل نجد مثل هذا رجلاً فيه روح الله ، ثم قال فرعون ايوسف بعدما أعلمك الله كل هذا ، ليس بصير وحكيم مثلك ، أنت تكون على بيتي ، وعلى فمك يقبل جميع شعبي ، إلا أن الكرسي أكون فيه أعظم منك ، ثم قال فرعون ليوسف : انظر قد جعلتك على كل أرض مصر) (تك ٤١ : ٣٨ - ٤١) ففيه أن فرعون هو الذي جعل يوسف على كل الأرض بدون أن يكون من يوسف طلب لذلك .</p> <p>٣٦ - (وأعطاه أسنات بنت</p>	<p>ثم رجع فأخبر الملك ، فطلب الملك الإتيان به إليه فامتنع يوسف من خروجه من السجن إلا بعد التحقيق عن الشيء ، فأجري التحقيق عن ذلك وظهرت براءته جلياً ، فلما تأكد الملك ذلك زاد فيه حباً فطلبه ثانياً فحضر بين يديه (آ : ٤٥ - ٥٤)</p> <p>٣٥ - ﴿ قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم ﴾ (آ : ٥٥) ففيه أن يوسف هو الذي طلب من الملك جعله على خزائن الأرض .</p> <p>٣٦ - لا يوجد في مقابلته شيء .</p>

في التوراة	في القرآن الكريم
<p>فوطى فارع كاهن أون زوجة له ... وولد ليوسف ابنان قبل أن تأتي سنة الجوع ، ولدتهما له أسنات بنت فوطي فارع كاهن أون ، ودعى يوسف اسم البكر منسى ، قائلاً لأن الله أنساني كل تعبي وكل بيت أبي ، ودعا اسم الثاني أفرايم قائلاً لأن الله جعلني مشعراً في أرض مذلي (تك ٤١ : ٤٥ - ٥١)</p> <p>٣٧ - نعلم من التوراة أن يوسف صار ثاني الملك بمصر ، أي كرئيس وزراء أو كصدر أعظم أو كوكيل عن الملك ، وأن الملك سامه خاتمه (تك ٤١ : ٤٠ - ٤٤)</p> <p>٣٨ - يذكر في التوراة أن إخوة يوسف لما أتوا إليه في السفرة الأولى يمتارون سجدوا له بوجوههم إلى الأرض ، (تك ٤٢ : ٦)</p> <p>٣٩ - وأما في التوراة فإن يوسف سلك مع إخوته في سبيل إتيانهم بأخيهم مسلك إزعاج وإعنات حيث</p>	<p>٣٧ - نعلم من القرآن أن يوسف كان على خزائن الأرض وكان عزيزاً بمصر (آ : ٥٥ و ٨٨)</p> <p>٣٨ - ﴿ وجاء إخوة يوسف ، فدخلوا عليه ، فعرفهم ، وهم له منكرون ﴾ (آ : ٥٨) .</p> <p>٣٩ - ﴿ ولما جهزهم بجهازهم ، قال اثوني بأخ لكم من أبيكم ، ألا ترون أنني أوفي الكيل ، وأنا خير المنزلين ،</p>

في التوراة	في القرآن الكريم
<p>(تكلم معهم بجفاء وقال لهم جواسيس أتم ، لتروا عورة الأرض جئتم بهذا تمتحنون ، وحياة فرعون لا تخرجون من هنا إلا بمجيء أخيك الصغير إلى هنا ، أرسلوا منكم واحداً ليجيء بأخيك ، وأنتم تجبسون فيمتحن كلامكم ، هل عندكم صدق ، وإلا فوحياة فرعون إنكم لجواسيس ، فجمعهم إلى حبس ثلاثة أيام ، ثم قال لهم يوسف في اليوم الثالث ، لافعلوا هذا واحيوا ، أنا خائف الله إن كنتم أمناء فليحبس أخ واحد منكم في بيت حبسكم ، وانطلقوا أنتم وخذوا قمحاً لمجاعة بيوتكم ، وأحضروا أخاك الصغير إليّ ، فيتحقق كلامكم ولا تموتوا ، ففعلوا هكذا .. وأخذ منهم شمعون وقيده أمام عيونهم) (تك ٤٢ ٧-٢٤)</p>	<p>فإن لم تأتوني به ، فلا كيل لكم عندي ولا تقربون ﴿ (آ : ٥٩ و ٦٠) ﴾ ويفهم منه أن يوسف سلك مع إخوته في سبيل إتيانهم بأخيه مسلك ترغيب وتشويق ، لا مسلك إزعاج وإرهاب .</p>
<p>٤٠ - (وإذا كانوا يفرغون عدالهم إذا صرة فضة كل واحد في عدله فلما رأوا صرر فضتهم هم وأبوم</p>	<p>٤٠ - ﴿ ولما فتحوا متاعهم ، وجدوا بضاعتهم ردت إليهم ، قالوا يا أبانا ما نبغي ؟ هذه بضاعتنا ردت</p>

في القرآن الكريم	في التوراة
إلينا ﴿١٢:٦٥﴾ فيه أنهم لم يتخوفوا من رؤيتهم الفضة مردودة في عداهم، بل استبشروا بذلك وجرؤوا أن يكلموا أباهم ثانياً في إرسال أخيه معهم.	خافوا (تك ٤٢ : ٣٥) لظنهم أن ذلك وسيلة إلى تخطيطهم وسجنهم هناك. متى رجعوا إلى مصر بأخيهم بنيامين (السنن القويم)
٤١ - ﴿ قال لن أرسله معكم حتى تؤتون ... إلى قوله - ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ (١٢:٦٦-٦٨)	٤١ - لا يوجد في مقابلته شيء ما
٤٢ - لا يوجد في مقابلته شيء	٤٢ - (فقال لهم إسرائيل أبوم، إن كان هكذا فافعلوا هذا : خذوا من أفخر جني الأرض في أوعيتكم ، وأنزلوا للرجل هدية، قليلاً من البيلسان، وقليلاً من العسل وكثيراًء ولاذناً، وفستقاً ولوزاً) (تك ٤٣ : ١١)
٤٣ - لا يوجد شيء ما حيث القرآن لم يذكر الرؤيا الأولى فلم يذكر تأويلها .	٤٣ - في التوراة أن إخوة يوسف - الأحد عشر عندما جاءوا له في سفرتهم الثانية، خروا وسجدوا (تك ٤٣: ٢٨)، وهذا كان تمام الحلم الأول وهو أن حزمهم الاحدى عشرة سجدت لحزمته. (السنن القويم)
٤٤ - ﴿ واما دخلوا على يوسف	٤٤ - (فرفع عينيه ونظر بنيامين،

في التوراة	في القرآن الكريم
أخاه ابن أمه ، وقال : أهذا أخوك الصغير الذي قلم لي عنه ؟ ثم قال : الله ينعم عليك يا ابني) (تك ٤٣ : ٢٩) وعلى هذا يكون بنيامين لم يعرف يوسف وطبعاً يكون قد وضع الطاس في عدله بدون تواطؤ بينها وهذا ما يستبعده العقل .	آوى إليه أخاه ، قال إني أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون ﴿ (١٣ : ٦٩) وعلى هذا يكون يوسف تعارف مع بنيامين ، ويكون طبعاً تواطؤاً معه على وضع الطاس في عدله، وهذا أقبل للعقل .
٤٥ - لا شيء في مقابلته .	٤٥ - ﴿ فلما جهزهم بجهازهم ، جعل السقاية - إلى قوله - والله أعلم بما تصفون ﴾ (١٢ : ٧٠ - ٧٧)
٤٦ - تذكر التوراة هذا عن لسان يهوذا حيث يقول ليوسف (فالآن ليمكث عبدك عوضاً عن الغلام عبداً لسيدي ، ويصعد الغلام مع إخوته ، لأنني كيف أصعد إلى أبي والغلام ليس معي ، لئلا أنظر الشر الذي يصيب أبي) (تك ٤٤ : ٣٣ و ٣٤)	٤٦ - ﴿ قالوا : يا أيها العزيز ، إن له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحداً مكانه إنا نراك من المحسنين ، قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ، إنا إذا لظالمون ﴾ (١٢ : ٧٨ و ٧٩)
٤٧ - لا يوجد في مقابلته شيء	٤٧ - ﴿ فلما استياسوا منه خلصوا نجياً - إلى قوله - سأستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم ﴾ (١٣ : ٨٠ - ٩٨)
٤٨ - المذكور في التوراة ان إخوة يوسف إنما سافروا إليه سفرتين	٤٨ - يوجد في القرآن الكريم لأن إخوة يوسف سافروا إليه ثلاث

في التوراة	في القرآن الكريم
<p>فقط وأنه أظهر نفسه لهم بعد سفرتهم الثانية على أثر تسريق أخيه بنيامين ، وعليه فهم لم يرجعوا إلى أبيهم للشام إلا وهم مخبروه بظهور يوسف وانكشافه لهم ، وقبل الختام نقول على حسب التوراة تكون سفراتهم لمصر ثلاث فقط .</p>	<p>سفرات وأنه إنما أظهر نفسه لهم بعد سفرتهم الثالثة وبعد أن كانوا رجعوا إلى الشام لأبيهم وأخبروه بسرقة بنيامين ، وقبل الختام نقول على حسب القرآن الكريم تكون سفراتهم لمصر أربع مرات.</p>
<p>٤٩ - لا يوجد في مقابلته شيء</p>	<p>٤٩ - ﴿ فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه - إلى أن قال - ورفع أبويه على العرش ﴾ (١٢: ٩٩ و ١٠٠)</p>
<p>٥٠ - قال بعد قصة موت يعقوب ودفنه : (وأتى إخوته أيضاً ووقعوا أمامه) (تك ٥٠ : ١٨) ففيه أن هذا السجود من إخوته له كان بعد موت أبيهم ودفنه ، وفيه أن الساجدين هم الاخوة فقط ، دون الأبوين طبعاً.</p>	<p>٥٠ - ﴿ وخروا له سجداً ﴾ (١٢ : ١٠٠) ففيه أن خروهم له سجداً كان على أثر دخولهم مصر ، وطبعاً كان قبل موت أبيهم ، وفيه أن الخارين له سجداً ، ليس الاخوة فقط ، بل هم وأبواه ، إن أرجع ضمير الفاعل للاخوة والأبوين ، وأما إن أرجع للاخوة فقط دون الأبوين كما هو ظاهر الآية الكريمة لم يكن هناك تخالف من هذه الجهة الثانية .</p>

في التوراة	في القرآن الكريم
٥١ - لا يقابله شيء	٥١ - ﴿وقال : يا أبت ، هذا تأويل رؤياي من قبل - إلى قوله - إنه هو العليم الحكيم﴾ (١٢ : ١٠٠)
٥٢ - (وقال يوسف لإخوته : أنا أموت ولكن الله سيفتدكم ويصعدكم من هذه الأرض إلى الأرض التي حلف لإبراهيم وإسحق ويعقوب ؛ واستحلف يوسف ببني إسرائيل قائلاً : الله سيفتدكم فتصعدون عظامي من هنا ، ثم مات يوسف وهو ابن مئة وعشر سنين ، فحنطوه ووضع في تابوت في مصر) (تك ٥٠ : ٢٥ و ٢٦) (هتاف وتصفيق حاد من الجميع)	٥٢ - ﴿وتوفي مسلماً وألحقني بالصالحين﴾ (١٢ : ١٠١)

أحسن القصص

- ٢ -

قال الشيخ محمود الخليلي (١) :

قصص التوراة

أحسنه أكثره فوائد وعبرة وذكري وعظة ، وأصدق وأشد موافقة للعقل والشرف والدين ، بخلاف الكتب التي بين أيدي اليهود مثلاً فإن فيها ما لا يوافق

(١) نسبة إلى بلدة خليل الرحمن من فلسطين

العقل ولا النقل ، وليس فيها شيء من الفائدة التي تعود على القارىء بتطهير الروح وامتلاء القلب من مخافة الله ، وإثني مع حرعي - والله - على عدم مساس إحساس إخواننا أهل الكتاب بجرح عواطفهم - ذا كراً قليلاً من الشيء الكثير الذي عثرت عليه فيما يسمونه (بالتوراة) ، فأليك البيان :

(غلط التوراة في قولها : « يوم جعل ليل ونهار قبل ما طبت الشمس »)

(١) قال في سفر التكوين : « وقال الله ليكن نور ، فكان نور ، ورأى الله النور أنه حسن ، وفصل الله بين النور والظلمة ، ودعا الله النور نهاراً ، والظلمة ليلاً ، وكان مساء وكان صباح يوماً واحداً » (تك ١ : ٣ - ٥) ثم قال : « وقال الله لتكن أنوار في جلد السماء لتفصل بين النهار والليل ، وتكون آيات وأوقات وأيام وسنين ، وتكون أنواراً في جلد السماء لتسير على الأرض ، وكان كذلك فعمل الله النورين العظيمين ، النور الأكبر لحكم النهار ، والنور الأصغر لحكم الليل ، والنجوم وجعلها الله في جلد السماء لتسير على الأرض ، ولتحكم على النهار والليل وتنفصل بين النور والظلمة ، ورأى الله ذلك أنه حسن ، وكان مساء وكان صباح يوماً رابعاً » (تك ١ : ١٤ - ١٩) فهذا النص يفهم منه ان الشمس خلقت في اليوم الرابع ، ولكنه ذكر قبل خلقها انه كان نهار وليل وأيام ، ومن المعلوم لكل إنسان أن لا نهار بلا شمس ، لأن النهار هو الوقت الذي بين طلوع الشمس وبين غروبها ، بدليل قوله في أول ذلك الإصحاح : (ودعا الله النور نهاراً والظلمة ليلاً) فذكره وجود النهار والليل قبل خلق الشمس غلط ، فسبحان من قص علينا أحسن القصص بما أوحى إلينا هذا القرآن .

مخالفة التوراة لعلم النشوء والتلقيح

(٢) - قال في سفر التكوين : « فأوقع الرب الإله سُبَاتاً على آدم ، فأخذَ واحدة من أضلاعه وملاً مكانها لحماً ، وبني الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأةً وأحضرها الى آدم ، فقال آدم : هذه الآن عظم من عظامي ولحم من لحمي ، هذه تدعى امرأة ، لأنها من امرئٍ خلقت » (تك ٢ : ٢١ - ٢٣) وفيه تصريح ونص بأن حواء خلقت من جسد آدم ، وهو مخالف للعلم الحديث ، (علم النشوء والتلقيح) ، ونحن المسلمون لا نكلف تصديق تاريخ اليهود وإن عزوه الى موسى عليه السلام ، فإنه لا ثقة عندنا بأنه من التوراة وأنه بقي كما جاء به موسى ، ولا نحتاج على ما وراء مدركات الحس والعقل إلا بالوحي الذي جاء به نبينا ، وإننا نقف عند هذا الوحي ، لا نزيد ولا ننقص ، كما أنا لا نتأكد ولا ننجزم بصحة (علم النشوء والتلقيح) ولكن إذا ثبت هذا العلم كان غير معارض لكتابنا كما يعارض كتاب اليهود ، نحن لا نقول إن القرآن ينفي الاعتقاد المنصوص في التوراة وإنما نقول إنه لا يثبت إثباتاً قطعياً لا يحتمل التأويل ، وعليه فإذا صح ما تقوله التوراة وبطل ما يقوله علم النشوء والتلقيح وبطل ما تقوله التوراة أمكن أيضاً حمل القرآن عليه ، قال تعالى : ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ (٤ : ١) فمعناه كما قاله أبو مسلم خلقه من جنسها فكان مثلها ، فهو كقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ (١٦ : ٧١) ، وقوله تعالى : ﴿ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً ﴾ (٤٢ : ١١) ، وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ (٩ : ١٢٨) ، وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ (٣ : ١٦٤) ، فسبحان من قص علينا أحسن القصص بما أرحى إلينا هذا القرآن .

قول التوراة بأن الله ينهى عن العلم وأسبابه

(٣) قال في سفر التكوين « وأوصى الرب الإله آدم قائلاً : من جميع شجر الجنة تأكلُ أكلاً، وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها ، لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت » (تك ٢ : ١٦ و ١٧) - الى أن يقول - (فقالت الحية للمرأة - لن تموتاً ، بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر ، فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل وأنها بهجة للعيون ، وأن الشجرة شبيهة للنظر ، فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت زوجها أيضاً معها فأكل ، فانفتحت أعينها وعلم أنها عريانان » (تك ٣ : ٤ - ٧) الى ان يقول - « من أعلمك إنك عريان ؟ ، هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك أن لا تأكل منها ؟ فقال آدم : المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني من الشجرة فأكلت ، - فقال الرب الإله للمرأة : ما هذا الذي فعلت ؟ - فقالت المرأة : الحية غرتني فأكلت ، فقال الرب الإله للحية : لأنك فعلت هذا ملعونة أنت من جميع البهائم ، ومن جميع وحوش البرية ، على بطنك تسعين ، وتراباً تأكلين كل أيام حياتك ، وأضع عداوة بينك وبين المرأة وبين نسلِك ونسلِها ، هو يسحق رأسك ، وأنت تسحقين عقبه ، وقال للمرأة : تكثيراً أكثر أتعاب حبلك ، بالوجع تلدين أولاداً ، وإلى رجلِك يكون اشتياقك ، وهو يسود عليك ، وقال لآدم : لأنك سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة التي أوصيتك قائلاً : لا تأكل منها ، ملعونة الأرض بسببك ، بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك ، وشوكاً وحسكاً تنبت لك ، وتأكل عشب الحقل بمرق وجهك تأكل خبزاً حتى تعود إلى الأرض التي أخذت منها لأنك تراب ، وإلى تراب تعود) (تك ٣ : ١١ - ١٩) ، فهذا النص يصرح بأن الله تعالى ينهى

عن العلم وعن أسبابه ، ولا يريد الانسان أن يعرف الخير من الشر ، ولا أن يفرق بينها ، بل يجب أن يبقى جاهلاً ، ونعلم من هذا الكلام أيضاً أن الحية كانت على العكس من هذا الذي أراد الله للانسان ، فهي أرادت للانسان ، أن يعرف الخير والشر ، وأن يأخذ في أسباب الفرق بينها ، وأن يكون له بصيرة نيرة ، وهكذا المرأة تبعت الحية في هذه الفكرة وهذا العمل ، ومع الأسف نرى الله - حاشاه - عاقب كلاً من آدم وحواء والحية على مساعيهم للعلم وأسبابه ، وخروج الإنسان من دائرة الجهل والغباء ، نرى كل هذا في سفر التكوين ، ولكن القرآن الكريم لم يقل أن هذه الشجرة هي شجرة معرفة الخير والشر ، كيف وأنه في مواضع كثيرة بحث على العلم وأسبابه ، ويحض على معرفة الخير والشر ، وعلى كل الأسباب التي توصل لذلك ، ولكن الشجرة التي نهي عنها في القرآن لا شك إنها شجرة خبيثة من شأنها ضياع العلم والإدراك وتهتك الإنسان وتكشفه « وربما كانت هي شجرة الخشخاش أو الحشيش ونحو ذلك كما ارتآه بعض إخواننا المصريين المصريين ، فسبحان من قص علينا أحسن القصص بما أوحى إلينا هذا القرآن الكريم .

غلط التوراة بقولها إن الحية تفتذي بالتراب

(٤) - قال في سفر التكوين خطاباً للحية (وتراباً تأكلين كل أيام حياتك) (تك ٣ : ١٤) ، وقد ثبت عند علماء الحيوان أن الحية لا تأكل التراب ، ولكنها فيما تأكل كباقي الحيوانات من حشرات الأرض أو من الطيور وغيرها ، والقرآن الكريم لم يتعرض لهذه القصة التي تنافي الفن ، والواقع ، فسبحان من قصص علينا أحسن القصص بما أوحى إلينا هذا القرآن العظيم .

نسبة التوراة السكر لنوح وانه لعن من لم يسيء

(٥) - قال في سفر التكوين (وابتدأ نوح يكون فلاحاً ، وغرس كرمًا ، وشرب من الخمر فسكر ، وتعرّى داخل خبائه ، فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه ، وأخبر أخويه خارجاً - إلى أن يقول فلما استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير ، فقال : ملعون كنعان ، عبد العبيد يكون لإخوته) (تك : ١٠ - ٢٥) فيه نسبة شرب الخمر والسكر لنوح عليه السلام ، وفيه لعن من لم يسيء وهو كنعان ، والسكوت عن المسيء وهو حام ، ولكن القرآن الكريم يذكر نوحاً بالنبوة والرسالة والهدى ، ويقول ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ (٦ : ١٦٤) ، فسبحان من قص علينا أحسن القصص بما أوحى إلينا هذا القرآن .

نسبة التوراة الربانية لابراهيم (حاشاه) والرد على ذلك

(٦) - قال في سفر التكوين (وحدث جوع في الأرض ، فأنحدر أبرام إلى مصر ، ليتغرب هناك ، لأن الجوع في الأرض كان شديداً ، وحدث لما قرب أن يدخل مصر أنه قال لساراي امرأته : إني قد علمت إنك امرأة حسنة المنظر فيكون إذ رآك المصريون أنهم يقولون : هذه امرأته ، فيقتلونني ويستبقونك ، قللي : إنك أختي ، ليكون لي خير بسببك ، وتحيا نفسي من أجلك ، فحدث لما دخل أبرام إلى مصر أن المصريين رأوا المرأة أنها حسنة جداً ، ورآها رؤساء فرعون ، ومدحوها لدى فرعون ، فأخذت المرأة إلى بيت فرعون ، فصنع إلى أبرام خيراً بسببها ، وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأتت وجمال ، فضرب

الرب فرعون وبيته ضرباتٍ عظيمةً ، بسبب ساراي امرأة أبرام ، فدعى فرعون أبرام ، وقال : ما هذا الذي صنعت بي ؟ لماذا لم تخبرني أنها امرأتك ؟ لماذا قلت هي أختي ؟ حتى أخذتها لي لتكون زوجتي ، والآن هو ذا امرأتك ، خذها واذهب . فأوصى فرعون رجالاً فشيعوه وامراته وكل ما كان له ، فصعد أبرام من مصر هو وامراته وكل ما كان له ، (تك ١٢ : ١٠ - ٢٠) ولنا أدلة على ضعف . وركاكة هذه القصة :

الدليل الاول : - انه قد ذكر شارح التوراة في شرحه المسمى (السنن القويم) أن السيدة سارة كانت حينئذ ابنة أكثر من ستين سنة ، فطبعاً كانت في سن الشيخوخة ، فليس فيها ما يجذب فؤاد المصريين وفرعون مصر .

الدليل الثاني : - هذا القصص يفيد أن سيدنا إبراهيم - حاشاه - جعل زوجته حُبالة يصيد بها أموال الناس بالباطل ، ويخدع بها قلوبهم ، كما يعلمنا أن سيدنا إبراهيم سمح أن ينام هو في إحدى الخانات مثلاً وزوجه في قصر فرعون . مختلياً بها ، وكل هذا منتهى الانحطاط ، ومن أعظم أمثلة السقوط ، وكل ذلك لا يجوز في شأن الأنبياء الذين منهم سيدنا إبراهيم عليه السلام بالإجماع من طوائف المسلمين ، وأيضاً قوله « انها أختي » . - ولو مع إرادة أنها أخته في الدين أو أخته من أبيه لا من أمه - لا يخرج الكلام عن دائرة الكذب ، لأنه بمنزلة نص صريح على أنها ليست بزوجة له مطلقاً ، فالقول بأنه تعريض لهو في غاية الضعف .

الدليل الثالث : - تروي لنا التوراة أنه كان لإبراهيم عليه السلام أتباع وعشيرة وعبيد ، حتى إنه كان عنده من الغلمان المتمرنين ولدان بيته ثلاثمائة وثمانية عشر (تك ١٤ : ١٤) ، فاذا كان كذلك يبعد كل البعد أن يذهب سيدنا

إبراهيم بنفسه جلب الطعام من مصر ، إذا كان يمكنه أن يرسل من أتباعه وعلمائه من يريد .

الدليل الرابع : إذا أمكننا نفهم أن إبراهيم عليه السلام رحل بنفسه إلى مصر أيام الجوع لأجل جلب الطعام - فلا يمكننا أن نفهم حكمة سفر زوجته معه ، إذ كان يمكنه أن يبقيا في قبتها محاطة بعبيد وعشيرته وابن أخيه لوط عليه السلام ، فقصه أخذه في سفرته هذه زوجته ساراي ركيكة وضعيفة جداً .

الدليل الخامس : - هذه القصة تعلمنا تفضيل فرعون الوثني على سيدنا إبراهيم - والعياذ بالله - في كراهة الكذب والخداع والغش والتغريب والحيلة - في الخوف - من الله تعالى ومراقبته - في المروءة والحمية والنخوة ، وتبرهن لنا هذه القصة أن فرعون مصيب وبار أكثر من سيدنا إبراهيم عليه السلام - حاشاه - وأنه يخاف الله أكثر ، وكل هذا باطل ، فالقصة إذاً باطلة من أصلها ، على أنه ماذا كان إثم فرعون . وقد أخذ ساراي برضى سيدنا إبراهيم - على زعمهم - حسب ما ظهر له وأنه أحسن مهرها ، ولقد كان يعتقد أنها أخت إبراهيم لا امرأته ، فلماذا يضرب الرب فرعون . وبيته ضربات عظيمة بسبب أخذه ساراي ؟

(٧) - قال في سفر التكوين (وانتقل إبراهيم من هناك إلى أرض الجنوب ، وسكن بين قادش وشور ، وتغرب في جرار ، وقال إبراهيم عن سارة امرأته : هي أختي ، فأرسل أبيالك ملك جرار وأخذ سارة ، فجاء الله إلى أبيالك في حلم الليل ، وقال له : ها أنت ميت من أجل المرأة التي أخذتها ، فإنها متزوجة ببعيل ، ولكن لم يكن أبيالك قد اقترب إليها ، فقال : يا سيد ، أمة بارة تقتل ؟ ألم يقل هو لي : إنما أختي ، وهي أيضاً نفسها . قالت : هو أخي ؟ ، بسلامة قلبي ونقاوة يدي فعلت هذا - فقال له الله في الحلم : أنا أيضاً علمت أنك بسلامة قلبك فعلت .

هذا ، وأنا أيضاً أمسكتك عن أن تخطيء إليّ ، لذلك لم أدعك تمسها ، فالآن رد امرأة الرجل فإنه نبيّ ، فيصلي لأجلك فتحيا ، وإن كنت لست تردها فاعلم أنك موتاً تموت ، أنت وكل من لك ، فبكر أبيالك في الغد ، ودع جميع عبيده ، وتكلم بكل هذا الكلام في مسامعهم ، يخاف الرجال جداً ، ثم دعا إبراهيم وقال له : ماذا فعلت بنا ؟ وبماذا أخطأت اليك ؟ حتى جلبت عليّ وعلى مملكتي خطية عظيمة ، أعمالاً لا تعمل عملت ، وقال أبيالك لإبراهيم : ماذا رأيت حتى عملت الشيء ؟ فقال إبراهيم : إني قلت : ليس في هذا الموضع خوف الله فيقتلونني لأجل امرأتي ، وبالحقيقة أيضاً هي أختي ابنة أبي ، غير أنها ليست ابنة أمي ، فصارت لي زوجة ، وحدث لما أتاهني الله من بيت أبي أني قلت لها : هذا معروفك الذي تصنعين إليّ ، في كل مكان تأتي اليه قولي عني : هو أخي ، فأخذ أبيالك غنماً وبقراً وعبيداً وإماءً وأعطاها لإبراهيم ، وردت اليه سارة امرأته ، (تك ٢٠ : ١ - ٤) فالتوراة التي بين أيدي اليهود تصور إبراهيم عليه السلام بصورة رجل عديم مروءة اتخذ زوجته حبة يتصيد بها أموال الناس بالباطل ، الأمر الذي لا يرضاه لنفسه أخس الناس وأحقّر بل أسفل العالم ، وكل عاقل لا يرتاب أن ليس لهذه الحادثة مع أبيالك ، ولا لتلك الحادثة مع فرعون مصر نصيب من الصحة ، إلا اذا كان مصاباً في عقله وشرفه .

نسبة التوراة السكر لإبراهيم حاشاه

(٨) - نعلم من سفر التكوين أن إبراهيم بينما كان راجعاً من شرقي الأردن إلى فلسطين مرّ ببلدانه على أورشليم ، فخرج له ملكها « ملكي صادق » وأخرج له خبزاً وخمراً ، لإنعاشه وإنعاش جنوده الذين معه (انظر تك ١٤ : ١٨) ، ولكن القرآن الكريم يقول عن الخمر في سورة البقرة : ﴿ يسألونك عن الخمر ﴾

والْمَيْسِرِ ، قل : فيها إثمٌ كبيرٌ ، ومنافعٌ للناس ، وإثمُها أكبرُ من نفعيها ﴿ (٢ : ٢١٩) ﴾ ، ويقول في سورة المائدة : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمرُ والميسرُ والأنصابُ والأزلامُ رجسٌ من عملِ الشيطانِ ، فاجتنبوه لعلَّكم تفلحون ، وإنَّها يُريدُ الشيطانُ أنْ يُوقِعَ بينكم العداوةَ والبغضاءَ في الخمرِ والميسرِ ويصدَّكم عن ذِكْرِ اللَّهِ وعن الصلاةِ ، فهل أنتم مُنتهون ؟ ﴾ (٥ : ٩٣ و ٩٤) ، فقصص التوراة التي بين أيدي اليهود هو من أقبح القصص بالنسبة للخمر ، ولكن قصص القرآن الكريم فيها كغيرها ، هو أحسن القصص .

غلط التوراة بقولها أن الملائكة يأكلون

(٩) — قال في سفر التكوين عن إبراهيم لما جاءته الملائكة بالبشرى : (ثم أخذ زبدًا ولبنًا والعجل الذي عمله ، ووضعها قدامهم ، وإذا كان هو واقفًا لديهم تحت الشجرة أكلوا) (تك ١٨ : ٨) ، وقال أيضاً (فجاء الملاكان إلى سدوم مساءً ، وكان لوط جالساً في بلب سدوم ، فلما رآهما لوط قام لاستقبالهما وسجد بوجهه إلى الأرض ، وقال : يا سيدي ميلا إلى بيت عبدكما وبيتنا واغسلا أرجلكما ، ثم تبكران وتذهبان في طريقكما ، — فقالا له : بل في الساحة نبيت ، — فألح عليهما جداً ، فمالا إليه ودخلا بيته ، فصنع لهما ضيافة ، وخبزاً فطيراً ، فأكلا) (تك ١٩ : ١ - ٣) ، نعلم من هذين النصين أن الملائكة أكلت عند إبراهيم ولوط عليهما السلام وهو خلاف ما أجمعت عليه أصحاب الملل والنحل من أن الملائكة لا يأكلون ولا يشربون ، وهو الذي نتعلمه من القرآن الكريم الذي يقص أحسن القصص ، وهو أيضاً الذي نتعلمه من سفر القضاة ، حيث قال : (فقال منوح لملاك الرب : دعنا نموتك ، ونعمل لك جدني معزى ، فقال الرب منوح : ولو عوقتي لا آكل من خبزك ، وإن عملت محرقةً للرب أصعدها ، لأن منوح لم يعلم أنه ملاك الرب) (قضا ١٣ : ١٥ و ١٦) .

نسبة التوراة السكر والزني الى لوط هاشاه

(١٠) - قال في سفر التكوين: (وصعد لوط من صوغر وسكن في الجبل وابنتاه معه ، لأنه خاف أن يسكن في صوغر ، فسكن في المغارة هو وابنتاه ، وقالت البكر للصغيرة : أبونا قد شاخ وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض ، هلم نسقي أبانا خمرأً ونضطجع معه ، فنحبي من أيننا نسلأً ، فسقتا أباهما خمرأً في تلك الليلة ، ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها ، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها ، وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة : إني قد اضطجعت البارحة مع أبي ، نسقيه خمرأً الليلة ، فادخلي اضطجعي معه ، فنحبي من أيننا نسلأً ، فسقتا أباهما خمرأً في تلك الليلة أيضاً ، وقامت الصغيرة واضطجعت معه ، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها ، فحبلت ابنتا لوط من أبيها ، فولدت البكر ابناً ودعت اسمه (موآب) وهو أبو الموءابين إلى اليوم ، والصغيرة أيضاً ولدت ابناً ودعت اسمه (بن عمتي) وهو أبو بني عموث إلى اليوم) (تك ١٩ : ٣٠ - ٣٨) ولستأ نريد أن نقول إن هذه القصة باطلة لأنها تنافي عصمة لوط النبي ، فإننا نعلم أن أهل الكتاب لا يقولون بنبوة لوط ، ولكننا نتقد على هذه القصة بأنها تعلم قراءها من رجال ونساء الرذيلة وأعمال الفحش ، وتثبت فيهم روح الدعارة وانحطاط الأخلاق ، الأمر المضاد لما هو المقصود من الوحي السماوي ، وليس من فائدة لقراء هذه القصة سوى فساد الأخلاق ، فتبارك الله الكريم الذي يقول ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾ .

دعوى التوراة أن إسحاق ديوث كأييه حاشاها

(١١) - قال في سفر التكوين. (وكان في الأرض جوع غير الجوع الأول الذي كان في أيام إبراهيم ، فذهب إسحاق إلى أبيالك ملك الفلسطينيين إلى جرار إلى ان يقول فأقام إسحق في جرار ، وسأله أهل المكان عن امرأته ، فقال : هي أختي ، لأنه خاف أن يقول امرأتي ، لعل أهل المكان يقتلونني من أجل رفقة ، لأنها كانت حسنة المنظر ، وحدث إذ طالت له الأيام هناك أن أبيالك ملك الفلسطينيين أشرف من الكوة ونظر وإذا إسحق يلعب رفقة امرأته ، فدعا أبيالك إسحق ، وقال : إنما هي امرأتك ، فكيف قلت : هي أختي ؟! - فقال له إسحق : لأنني قلت : لعلني أموت بسببها ، - فقال أبيالك : ما هذا الذي صنعت بنا ؟ لولا قليل لاضطجع أحدُ الشعب مع امرأتك ، فجلبت علينا ذنباً ، فأوصى أبيالك جميع الشعب قائلاً : الذي يمس هذا الرجل أو امرأته موتاً يموت) (تك ٢٦ : ١ - ١١)

قال في شرح التوراة المسمى بالسنن القويم : (جرى إسحق في هذا على سنن أييه (ص ٢٢٠) ، وكانت علتة علة أييه عينها ، ولكن ملك جرار لم يأخذ هنا رفقة ، كما أخذ الذي قبله سارة ، ولم يُعطِ هذا إسحق ، كما أعطى ذاك إبراهيم وعرف هذا بعد ذلك . أن رفقة امرأة إسحق ، وأخيراً طرده من أرضه فبعد عنه - ثم قال - في هذه الآيات دليل قاطع على حسن أخلاق أبيالك وعظيم مروءته ، ويان أن علة كذب إسحاق كانت كملة كذب إبراهيم أييه (هذا كلام الشارح بالحرف ، وأما نحن فنقول : لعل هذا التعليم الفاسد هو الذي أفسد أخلاق اليهود وجعلهم يفادون بنسائهم وبناتهم في سبيل الحصول على سلامة الحياة والمنفعة المادية ، ولا يبالون بهذا الأمر البتة ، كما هو معروف في يهود بلاد الشام والعراق وفلسطين ونحوهم .

تعليم التوراة الكذب والمكر ومحبة الحمرة وحب الذات والحسد

(١٢) - قال في سفر التكوين : « وحدث لما شاخ إسحق وكلت عيناه عن النظر أنه دعا عيسو ابنه الأكبر ، وقال له : يا ابني - فقال له : ها أنا ذا - فقال : إنني قد شخت ولست أعرف يوم وفاتي ، فالآن خذ عذتك ، جميتك وقوسك ، واخرج إلى البرية ، ونصيد بها جيداً ، واصنع لي أطعمة كما أحب ، وإثني بها لآكل حتى تباركك نفسي ، قبل أن أموت ؛ وكانت رفقة سامعة إذ تكلم إسحق مع عيسو ابنه ، فذهب عيسو إلى البرية كي يصطاد صيداً ، ليأتي به ، وأما رفقة فكلمت يعقوب ابنها قائلة : إني قد سمعت أباك يكلم عيسو أخاك قائلاً : اثنتي بصيد واصنع لي أطعمة لآكل وأباركك أمام الرب قبل وفاتي ، فالآن يا ابني اسمع لقولي فيما أنا أمرك به ، اذهب إلى الغنم وخذ لي من هناك جديين من المعزى فاصنعها أطعمة لأبيك كما يحب ، فتحضرها إلى أبيك ليأكل ، حتى يباركك قبل وفاته ، - فقال يعقوب لرفقة أمه : هو ذا عيسو أخي رجل أشعر ، وأنا رجل أملس ، ربما يجسني أبي فأكون في عينيه كتهاون ، وأجلب على نفسي لعنة لا بركة - فقالت له أمه : لعنتك علي يا ابني ، اسمع لقولي فقط ، واذهب وخذ لي ، فذهب وأخذ وأحضر لأمه ، فصنعت أمه أطعمة كما كان أبوه يحب ، وأخذت رفقة ثياب عيسو ابنها الأكبر الفاخرة التي كانت عندها في البيت ، وألبست يعقوب ابنها الأصغر ، وألبست يديه وملاسه عنقه جلود جديي المعزى ، وأعطت الأطعمة والخبز التي صنعت في يد يعقوب ابنها ، فدخل إلى أبيه وقال : يا أبي - فقال : ها أنا ذا ، من أنت يا ابني ؟ - فقال يعقوب لأبيه : أنا عيسو بركك قد فعلت كما كلمتني ، قم اجلس وكل من صيدي ، لكي تباركني نفسك - فقال إسحق لابنه : ما هذا الذي أسرعت لي مجداً يا ابني ؟ - فقال : إن الرب الهك قد يسّر لي - فقال إسحق

يعقوب : تقدم لأجسك يا ابني ، أنت هو ابني عيسو أم لا ، فتقدم يعقوب إلى إسحق أبيه ، فجسّه وقال : الصوت صوت يعقوب ولكن اليدين يدا عيسو أخيه فباركه وقال : هل أنت هو ابني عيسو ؟ - فقال أنا هو - فقال قدّم لي لآكل من صيد ابني ، حتى تباركك نفسي ، فقدم له فأكل ، وأحضر له خمرأ فشرب ، فقال له إسحق أبوه : تقدم وقبّلني يا ابني ، فتقدم وقبله ، فشم رائحة ثيابه وباركه وقال : انظر رائحة ابني كرائحة حقل ، قد باركه الرب ، فليعطك الله من ندى السماء ومن دسم الأرض ، وكثرة حنطة وخمر ، ليُسْتَعْبَدَ لك شعوب ، وتسجد لك قبائل ، كن سيداً لإخوتك ، وليسجد لك بنو أمك ، ليكون لاعدوك ملعونين ومباركوك مباركين ، وحدث عندما فرغ إسحق من بركة يعقوب ، ويعقوب قد خرج من لدن إسحق أبيه أن عيسو أخاه أتى من صيده ، فصنع هو أيضاً أطعمة ودخل بها إلى أبيه ، وقال لأبيه : « ليقم أبي ويأكل من صيد ابنه حتى تباركني نفسك » - فقال له إسحق أبوه : من أنت ؟ - قال « أنا ابنك بكر عيسو » ، فارتعد إسحق ارتعاداً عظيماً جداً ، وقال : فمن هو الذي اصطاد صيداً وأتى به إليّ ؟ فأكلت من الكلّ قبل أن تحييء وباركته ، نعم ويكون مباركاً . فعندما سمع عيسو كلام أبيه صرخ صرخة عظيمة ومرة جداً ، وقال لأبيه باركني أنا أيضاً يا أبي . - فقال : قد جاء أخوك بمكر وأخذ بركتك » - فقال : « ألا إن اسمه دعي يعقوب ، فقد تعقبتني الآن مرتين ، أخذ بكوريتي ، وهو ذا الآن قد أخذ بركتي » ، ثم قال : « أما أبقيت لي بركة ؟ » - فأجاب إسحق وقال لعيسو : « إني قد جعلته سيداً لك ، ودفعت إليه جميع إخوته عبيداً ، وعضدته بحنطة وخمر فماذا أصنع إليك يا ابني ؟ » - فقال عيسو لأبيه : ألك بركة واحدة فقط يا أبي ؟ ، باركني أنا أيضاً يا أبي ، ورفع عيسو صوته وبكى ، فأجاب إسحق أبوه وقال له : هو ذا بلا دسم الأرض يكون مسكنك ، وبلا ندى السماء من فوق ، وبسيفك

تعيش، ولأخيك تستعبد، ولكن يكون حيناً تجتمع أنثك تكسر نيره عن عنقك!!
(تث ٢٧ : ١٠ - ٤٠) .

فهذا القصص يعلم الكذب والمكر ومحبة الخمرة وحب الذات والحسد ، كما يعلم أن الله قد تخفى عليه سرائر القلوب لأنه لا ينظر إلا إلى الألفاظ ، دون النوايا ، كما يعلم أن الأب يحب ابنه المادي دون ابنه الروحي ، وهذا كله بخلاف ما في كتاب الله العزيز ، فأما الكذب فقد حرّمه في مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ (١٦ : ١٠٥) وقوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ (٢ : ١٠) .

وأما المكر فقد ذمه الله تعالى في قوله : ﴿ وَلَا يَحْقِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ (٣٥ : ٤٣) وقوله : ﴿ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴾ (٦ : ١٢٤) .

وأما الخمرة فقد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٥ : ٩٣) .
وأما حب الذات فقد ذمه الله تعالى ومدح نقيضه في قوله : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ (٩ : ٥٩) .

وأما الحسد فقد ذمه الله تعالى في قوله : ﴿ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ (١١٣ : ٥) وأنكره في قوله : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ (٤ : ٥٣) .

وأما أن الله لا يخفى عليه شيء من طوايا القلوب ، فقد قال تعالى : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ (٤٠ : ١٩) وقال تعالى : ﴿ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ (٢٠ : ٧) فسبحان من قال : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ .

وما أن انتهى الشيخ الخليلي من كلامه حتى قام الفاضل المجدي^(١) ثم صعد على المنبر وقال :

إني مسرور جداً بما استشهد به أخونا الشيخ الخليلي من الاثني عشر موضعاً التي نقلها من توراة اليهود الموجودة اليوم بين أيديهم ، وبما أن هناك في الكتاب المذكور شواهد كثيرة أخرى ، فإني أريد أن آتي باثني عشر شاهداً أيضاً ، يستدل منها القارىء أن قصص القرآن الكريم هو أحسن القصص ، فأقول عطفاً على ما سبق للأخ المحترم .

تعليم التوراة الخداع وخلف الوعد والزنا

(١) - قال في سفر التكوين : « وأحب يعقوب راحيل ، فقال : أخذ مكّ سبع سنين براحيل ابنتك الصغرى - فقال لابان : أن أعطيك إياها أحسن من أن أعطيها لرجل آخر ، أقم عندي - فخدم يعقوب براحيل سبع سنين ، وكانت في عينيه كأيام قليلة بسبب محبته لها ثم قال يعقوب لابان : أعطني امرأتي ، لأن أيامي قد كملت ، فأدخل عليها ، فجمع لابان جميع أهل المكان ، وصنع وليمة ، وكان في المساء أنه أخذ « ليثة » ابنته ، وأتى بها إليه ، وأعطى لابان « زلفة » جاريته لليثة ابنته جارية ، وفي الصباح إذا هي ليثة ، فقال لابان : ما هذا الذي صنعت بي؟ أليس براحيل خدمتُ عندك ، فلماذا خدعتني ؟ - فقال لابان : لا يفعل هكذا في مكاننا أن تُعطى الصغيرة قبل البكر ، (تك ٢٩ : ١٨ - ٢٦) ، فهذا القصص يعلم الخداع حتى فيما يتعلق بالعرض ، وبعلم نكث العهد وخلف الوعد ، كما يفيدنا أن سيدنا يعقوب اضطجع أول ليلة مع ليثة بالزنا - حاشاه - لأنها ليست هي المخطوبة له ، وليثة هذه هي جدّة المسيح كما في شرح التوراة المسمى بالسنن القويم ، ولكن

(١) نسبة الى المجلد من بلدان فلسطين .

القرآن الكريم يقول في المحمّاديين : ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا ، وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (٩:٢) ويقول في العهد : ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ (١٦ : ١٩) ويجعل خلف الوعد من شأن الشيطان فيقول عن لسانه : ﴿وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ (١٤ : ٢٢) ويقول : ﴿فَمَنْ نَكَتْ فَإِنَّمَا يَنُكْتُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ (٤٧ : ١٠) ويقول في الزنا : ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَمًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ (٢٥ : ٦٨ و ٦٩) ، ويقول : ﴿وَلَا يَسْرِقَنَّ وَلَا يَزْنِيَنَّ﴾ (٦٠ : ١٢) ويقول : « ولا تقربوا الزّنى إنّه كان فاحشة » (٢٢ : ١٧) فسبحان من قص على نبينا أحسن القصص بما أوحى إليه هذا القرآن .

تعليم التوراة أن الإنسان قد يكون أقوى منه الملك

(٢) - قال في سفر التكوين « بقي يعقوب وحده وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر ، ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حَقُّ فحذه ، فأنخلع حَقُّ فخذ يعقوب في مصارعته معه ، وقال : أطلقني لأنه قد طلع الفجر - فقال : لا أطلقك إن لم تباركني - فقال له : ما اسمك ؟ - فقال : يعقوب - فقال : لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل إسرائيل . لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت وسأل يعقوب وقال : أخبرني باسمك - فقال : لماذا تسأل عن اسمي ؟ وباركه هناك ، فدعى يعقوب اسم المكان « فَنِيثِيل » ، قائلاً : لأنني نظرت الله وجهاً لوجه ، ونجيت نفسي » (تك ٣٢ : ٢٤ - ٣٠) وإسرائيل : معناه الأمير مع الله ، أو المجاهد مع الله ، أو أمير الله ، أو قوي مع الله ، وفنيثيل : معناه وجهه الله ، فهذه القصة تعلم

القاريء أن الآدمي أقوى من المَلَك ، إن قلنا إن هذا الذي صارع يعقوب هو ملك ، ولكن لا ريب أن الملائكة أقوى من الآدميين بكثير ، فإن قلنا إن هذا الذي صارع يعقوب هو الله كما هو مرمى الكلام . كان الأمر أدهى وأمر ، لاسيما وأن الله يقول « لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ، وَهُوَ الْغَافِقُ الْخَبِيرُ » (٦ : ١٣) ، فسبحان من قال نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن .

غلطة تاريخية في التوراة

(٣) - قال في سفر التكوين : (وهؤلاء هم الملوك الذين ملكوا في أرض أدوم ، قبلما مَلِكُ مَلِكِ لبني إسرائيل ، لا يصلح أن يكون من قلم موسى الذي يقولون إنه هو كاتب سفر التكوين ، لأن ملوك بني إسرائيل إنما كانوا بعد مدة القضاة الذين وجدوا بعد موسى . وكانت مدة القضاة (٤٥٠) سنة على ما في قاموس بوست ، فهذه الجملة مزيدة على التوراة من قلم بعض علماء اليهود ، فبجل الله تعالى الذي ليس في قصص كتابه الكريم زيادة من أحد علماء الاسلام ، ولهذا قال : « نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن » كان أحسن القصص لتزاهته عن زيادات الزائدين .

تعليق التوراة الزنا والمحاباة

(٤) - قال في سفر التكوين في أثناء قصة يوسف ، ولا ندري ما هي المناسبة؟ : (وَحَدَّثَ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ أَنَّ يَهُوذَا نَزَلَ مِنْ عِنْدَ إِخْوَتِهِ ، وَمَالَ إِلَى رَجُلٍ عَدُوٍّ لِمَنْ اسْمُهُ « حَايِر » ، وَنَظَرَ يَهُوذَا هُنَاكَ ابْنَةَ رَجُلٍ كُنِيَ اسْمُهُ « شُوع » ، فَأَخَذَهَا

ودخل عليها ، فحبلت وولدت ابناً ، ودعا اسمه « عيراً » ، ثم حبلت أيضاً وولدت ابناً ودعت اسمه « أوفان » ، ثم عادت فولدت أيضاً ابناً ودعت اسمه « شيلة » ، وكان في كزيب حين ولده ، وأخذ يهوذا زوجة « ليعير » بكره ، اسمها « ثامار » ، وكان عير بكر يهوذا شريراً في عيني الرب ، فأماته الرب ، فقال يهوذا لأوفان : ادخل على امرأة أخيك وتزوج بها ، وأقم نسلاً لأخيك - فلم أوفان أن النسل لا يكون له ، فكان إذ دخل على امرأة أخيه إنه أفسد على الأرض ، لكيلا يعطي نسلاً لأخيه ، فقبح في عيني الرب ما فعله ، فأماته أيضاً ، فقال يهوذا لثامار كنته : اقعدي أرملة في بيت أبيك حتى يكبر شيلة ابني ، لأنه قال : لعله يموت هو أيضاً كأخويه ، فمضت ثامار وقعدت في بيت أبيها ، ولما طال الزمان ماتت ابنة شوع امرأة يهوذا ، ثم تعزى يهوذا ، فصعد إلى جزّار غنمه إلى « تمنة » ، هو وحيرة المدلّامي ، فاخبرت ثامار وقيل لها : هو ذا سحوك صاعد إلى تمنة ليجزّ غنمه - فخلعت عنها ثياب ترمّلها ، وتغطت ببرقع وتلففت وجلست في مدخل « عينايم » التي على طريق تمنة ، لأنها رأت أن شيلة قد كبر وهي لم تعط له زوجة ، فنظرها وحسبها زانية ، لأنها كانت قد غطت وجهها ، فقال إليها على الطريق وقال : هاتي أدخل عليك - لأنه لم يعلم أنها كنته ، - فقالت : ماذا تعطيني لكي تدخل علي؟ - فقال : إني أرسل جدي معزى من الغنم ، - فقالت هل تعطيني رهناً حتى ترسله؟ - فقال : ما الرهن الذي أعطيك؟ - فقالت : خاتمك وعصابتك وعصاك التي في يدك ، فأعطاها ودخل عليها ، فحبلت منه ثم قامت ومضت وخلعت عنها برقعها ، ولبست ثياب ترمّلها ، فأرسل يهوذا جدي المعزى بيد صاحبه المدلّامي ، ليأخذ الرهن من يد المرأة ، فلم يجدها ، فسأل أهل مكانها قائلاً : أين الزانية التي كانت في عينايم على الطريق؟ - فقالوا : لم تكن هنا زانية ، - فقال يهوذا : لتأخذ لنفسها لئلا تصير إهانة ، إني قد أرسلت هذا الجدي وأنت لم تجدها ، ولما كان نحو ثلاثة

أشهر أخبر يهوذا وقيل له : قد زنت ثمار كنتك ، وها هي حبلى أيضاً من الزنا - فقال يهوذا : أخرجوها فتحرق ، أما هي فلما أخرجت أرسلت إلى حميها قائلة : من الرجل الذي هذه له أنا حبلى ، وقالت : حقق لمن الخاتم والمصاصة والمصاصة هذه ، فتحققها يهوذا ، وقال : هي أبرّ مني ، لأنني لم أعطيها لشيلة ابني ، فلم يعد يعرفها أيضاً ، وفي وقت ولادتها إذا في بطنها توأمان ، وكان في ولادتها أن أحدهما أخرج يداً ، فأخذت القابلة وربطت على يده قرمراً قائلة : هذا خرج أولاً ، ولكن حين رد يده إذا أخوه قد خرج ، فقالت : لماذا اقتحمت ؟ عليك اقتحام ، فدعى اسمه « فارص » ، وبعد ذلك خرج أخوه الذي على يده القرمز ، فدعى اسمه « زارح » (تك ٣٨ : ١ - ٣٠) فهذه السيرة تعلم الجرأة على الزنا وعلى المحابة وتقيد أن فارص ابن زنا ، وهو جدّ للمسيح من جهة أمه مريم ، كما هو جدّ له من جهة يوسف النجار رجل مريم إن جاز أن يعد يوسف أباً للمسيح كما تخيله بعض النصارى ، فهذا القصص من أقبح القصص ، ولكن كتاب الله إنما يقص علينا حرمة الزنا ودناءته وهذا سر قواه تعالى ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾ .

تعليم التوراة اغتصاب الأموال

(٥) - قال في سفر الخروج (فيكون حينما تمضون لا تمضون فارغين ، بل تطلب كل امرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياباً ، وتضعونها على بنيكم وبناتكم ، فتسلبون المصريين) (خر ٣ : ٢١ و ٢٢) ، ثم قال في خطاب الله لموسى : (تكلمتم في مسامع الشعب أن يطلب كل رجل من صاحبه ، وكل امرأة من صاحبها أمتعة فضة وأمتعة ذهب) (خر ١١ : ٢) ، ثم قال : (وأعطى الرب نعمة للشعب في عيون المصريين حتى أعاروهم فسلبوا المصريين) (خر ١٢ : ٣٦) ، فهذا

التعليم هو جرثومة اغتصاب أموال الناس ، ومنبع نهبا وسلبها ، ومصدر سرقتها ، إلى آخر ما في القواميس من الألفاظ التي ترمي لمعنى التعدي على الأموال بالباطل وهو مصداق قوله تعالى : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ، وَبِصَدَاقِهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ، وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ﴾ (٤ : ١٦٠) ، وقوله تعالى : ﴿ وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السَّخِطَ ، لَسَيَبْئَسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٥ : ٦٥) وأما قول شارح التوراة : (إن هذا قضاء الله ، فإن له كل ما كان للمصريين ، فأخذ بعض ما له منهم وأعطاه لشعبه) فهو قول باطل ، لأن الله تعالى لا يأمر بالفحشاء ، وأكل أموال الناس بغير حق من أخش الفواحش ، وليس هذا مما تختلف فيه الشرائع ، لأنه من الكليات الخمس التي اتفقت عليها الأديان جميعها ، وليس يعتمدها نسخ ولا تبديل ، والله يقول ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ ﴾ (٣ : ٢٨) وأما قوله : ﴿ وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا ﴾ (٢٠ : ٨٧) فله تأويل حسن نقله الرازي عن الراغب فانظره ؛ وبهذا تعلم سر قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ .

تعليم التوراة تقديم القربان للشيطان وتسيب السوائب

(٦) قال في سفر اللاويين (ومن جماعة بني إسرائيل يأخذ تيسين من المعز لذبيحة خطية .. ويأخذ التيسين ويوقفها أمام الرب ، لدى باب خيمة الاجتماع ، ويلقي هرون على التيسين قرعتين ، قرعة للرب ، وقرعة لعزازيل ، ويقرب هرون التيس الذي خرجت عليه القرعة للرب ، ويعمل ذبيحة خطية ، وأما التيس الذي خرجت عليه القرعة لعزازيل فيوقف حياً أمام الرب ، ليكفّر

عنه ليرسله إلى عزازيل إلى البرية ... ثم يذبح تيس الخطيئة الذي للشعب ... فيكفر عن نفسه وعن بيته وعن كل جماعة إسرائيل ... ومتى فرغ من التكفير يُقدِّم التيس الحيّ ، ويضع هرون يديه على رأس التيس الحيّ ويقرّ عليه بكل ذنوب بني إسرائيل وكل سيئاتهم مع كل خطاياهم ، ويجعلها على رأس التيس ويرسله بيد من يلاقيه إلى البرية ، ليحمل التيس عليه كل ذنوبهم إلى أرض مقفرة ، فيطلق التيس إلى البرية) (لا ١٦ : ٥ - ١٠) .

وهذا الذي يُعمل فيه هذا العمل هو يوم صوم واتضاع ، وكان يقع في العاشر من شهر تِسري . وهو يوم «عاشورا» عندنا ونعلم من مجموع كلام التوراة وقاموس جورج بوست للكتاب المقدس وتلخيص صاحب شرح التوراة المسمى بالسنة القويم أنه يوجد عند اليهود شريعة تقديم قربان الخطية للشيطان الذي هو عزازيل ، غير أنهم لا يذبحونه ، بل يجعلونه سائبة حسبما تعلمه من قول التوراة (ويرسله بيد من يلاقيه إلى البرية) كما تعلمه من كلام الشارح ، وهو حرام في شريعة كتاب الله الذي ما جعل من سائبة ، وهذا سرّ من أسرار قوله جلّ من قائل (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن) .

تعليم التوراة استئصال الشيوخ والأطفال والنساء في الحرب

(٧) - قال في التوراة (وحرّموا كل ما في المدينة من رجل وامرأة ، من طفل وشيخ) (يش ٦ : ٢١) والمحرم والمحروم عندهم هو المسلم للهلاك الممنوع فداؤه ، وعليه في هذا القصص تشريع استئصال الشيوخ والأطفال والنساء قتلاً وحرقاً !!! وفي التوراة أيضاً (فكان جميع الذين سقطوا في ذلك اليوم من رجال ونساء اثني عشر ألفاً جميع أهل عاي) (يش ٨ : ٢٥) . هذا قليل جداً

من كثير مما تقصه علينا التوراة ، ولكن الشريعة الإسلامية تقص علينا أحسن من هذا القصص ، فتنتهي عن قتل جميع من ذكر ، كما يعلم من مراجعة سيرة الفزوات الإسلامية أيام النبي (ص) والخلفاء الراشدين عملاً بروح القرآن الكريم .

تعليم التوراة قتل غير المسيء

(٨) - قالت التوراة في شأن « عَخَّان » الذي ثبت عليه بإقراره أنه عمل خيانة بأخذه بعض أمتة من الفنيمة :

(فأخذ يشوعُ عَخَّانَ بن زارح والفضةَ والرِّدَاءَ ولسانَ الذهب وبنيه وبناته وبقرة وحميره وغنمه وخيمته وكلَّ ماله ، وجميع إسرائيل معه ، وصعدوا بهم إلى وادي « عخور » فقال يشوع : « كيف كدرتنا بكدرك الرب في هذا اليوم » فرجمه جميع إسرائيل بالحجارة ، وأحرقوه بالنار ورموه بالحجارة ، وأقاموا فوقه رجمة حجارة عظيمة إلى هذا اليوم) (يش ٧ : ٢٤ - ٢٦) فالتوراة تقص علينا أقبح القصص ، وهو إن المذنب هو عخان وحده ، ولكن يشوع أحرق عخان وبنيه وبناته وبقرة وحميره وغنمه !!

والقرآن يقول : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ (١٧ : ١٥)
فبارك الله الذي قال : (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن) .

تعليم التوراة اللاه واللعب

(٩) قال في التوراة (وكان داود يرقص بكل قوته أمام الرب) (٢ صم ٦ : ١٤) فيه تعليم الناس الرقص ، وهو من اللاه واللعب المنهي عنها شرعاً كما يقول الكتاب : ﴿ قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الْآلِهَةِ ﴾ (٦٢ : ١١) ويقول ﴿ وَذَرُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَٰعِبًا وَهَلْهَوًى ﴾ (٦ : ٧٠) فهذا الفرق العظيم هو سر من أسرار قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ .. الخ ﴾ .

التوراة تنسب الزنا لداود هاشاه

(١٠) قال في التوراة (وكان عندقام السنة في وقت خروج الملوك أن داود أرسل يوبآب وعبيده معه وجميع إسرائيل فأخربوا بني عَمُّون ، وحاصروا دَرَبَةَ ، ، وأما داود فأقام في أورشليم ، وكان في وقت المساء أن داود قام عن سريره وتمشى على سطح بيت الملك ، فرأى من على السطح امرأة تستحم ، وكانت المرأة جميلة المنظر جداً ، فأرسل داود وسأل عن المرأة ، فقال واحد : أليست هذه «بَثْشَبَع» بنت أليعام امرأة أَوْرِيَا الحِثِّي ؟ فأرسل داود رسلاً وأخذها فدخلت إليه فاضطجع معها ، وهي مُطَهَّرة من طمئها ، ثم رجعت إلى بيتها وحبلت . المرأة فأرسلت وأخبرت داود وقالت : إني حبلت ، فأرسل داود إلى يوبآب يقول :- أرسل إليَّ أَوْرِيَا الحِثِّي ، فأرسل يوبآب أَوْرِيَا إلى داود ، فأتى أَوْرِيَا إليه ، فسأل داود عن سلامة يوبآب وسلامة الشعب ونجاح الحرب ، وقال داود لأَوْرِيَا :- انزل إلى بيتك واغسل رجلك ، فخرج أَوْرِيَا من بيت الملك ، وخرجت وراءه .

حِصَّةٌ من عند الملك ، ونام أورِيّا على باب بيت الملك مع جميع عبيد سيده ، ولم ينزل إلى بيته ، فأخبروا داود قائلين : لم ينزل أورِيّا إلى بيته فقال داود لأورِيّا : أما جئت من السفر ، فلماذا لم تنزل إلى بيتك ؟ - فقال أورِيّا لداود : إن الثابت وإسرائيل ويهوذا ساكنون في الخيام ، وسيدي يوبّ وعبيد سيدي نازلون على وجه الصحراء ، وأنا آتِي إلى بيتي لأأكل وأشرب وأضطجع مع إمراةي ؛ وحياتك وحياة نفسك لا أفعل هذا الأمر - فقال داود لأورِيّا : أقم عندنا اليوم أيضاً . وغداً أطلقك - فأقام أورِيّا في أورشليم ذلك اليوم وغده ، ودعاه داود ، فأكل أمامه وشرب وأسكره ، وخرج عند المساء ليضطجع في مضجعه مع عبيد سيده ، وإلى بيته لم ينزل ، وفي الصباح كتب داود مكتوباً إلى يوبّ وأرسله بيد أورِيّا ، وكتب في المكتوب يقول اجملوا أورِيّا في وجه الحرب الشديدة ، وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت - وكلّ في محاصرة يوبّ المدينة أن جعل أورِيّا في الموضع الذي علم أن رجال البأس فيه ، فخرج رجال المدينة ، وحاربوا يوبّ ، فسقط بعض الشعب من عبيد داود ، ومات أورِيّا الحثي أيضاً ، فأرسل يوبّ وأخبر داود بجميع أمور الحرب ، وأوصى الرسول قائلاً : عندما تفرغ من الكلام مع الملك عن جميع أمور الحرب ، فإن اشتعل غضب الملك وقال لك لماذا دنوتم من المدينة للقتال ، أما علمتم أنهم يرمون من على السور ، مَنْ قَتَلَ أيّالك بن يَرُّبُوشة ، ألم ترمِه امرأَةٌ بقطعة رحي من على السور ، فمات في «تاباص» ، لماذا دنوتم من السور ؟ - فقل له : قد مات عبدك أورِيّا الحثي أيضاً .

فذهب الرسول فدخل وأخبر داود بكل ما أرسله فيه يوبّ ، وقال الرسول لداود : قد تَجَيَّر علينا القوم وخرجوا إلينا إلى الحقل ، فكنا عليهم إلى مدخل الباب ، فرمى الرماة عبيدك من على السور ، فمات البعض من عبيد الملك ، ومات عبدك أورِيّا الحثي أيضاً ، - فقال داود للرسول : هكذا تقول ليوبّ : لا يَسْؤُ

في عينيك هذا الأمر ، لأن السيف يأكل هذا وذاك ، شدد قتالك على المدينة ، واخر بها وشددته ، فلما سمعت امرأة أورثا أنه قد مات أورثا رجلها نذبت بعلها ، ولما مضت المناحة ، أرسل داود وضمها إلى بيته ، وصارت له امرأة ، وولدت له ابناً ، وما الأمر الذي فعله داود فقبّح في عيني الرب) (٢ صم ١١ : ١ - ٢٧) .

وقال أيضاً في التوراة (فأرسل الرب ناثان إلى داود ، فجاء إليه وقال له : كان رجلان في مدينة واحدة ، واحد منها غني ، والآخر فقير ، وكان للغني غنم وبقر كثيرة جداً ، وأما الفقير فلم يكن له شيء إلا نعجة واحدة صغيرة قد اقتناها وربّاه ، وكبرت معه ومع بنيهِ جميعاً ، تأكل من لقمته ، وتشرب من كأسه ، وتنام في حضنه ، وكانت له كابنة ، فجاء ضيف إلى الرجل الغني فمعا أن يأخذ من غنمه ومن بقره ليهي للضيف الذي جاء إليه ، فأخذ نعجة الرجل الفقير ، وهيئاً للرجل الذي جاء إليه - فحُمي غضب داود على الرجل جداً ، وقال لنathan : حيّ هو الرب إنه يقتل الرجل ' الفاعل ' ذلك ، ويردّ النعجة أربعة أضعاف ، لأنه فعل هذا الأمر ، ولأنه لم يشفق - فقال Nathan لداود : أنت هو الرجل ، هكذا قال الرب إله إسرائيل ، أنا مسحك ملكاً على إسرائيل وأنقذتك من يد شاول ، وأعطيتك بيت سيدك ، ونساء سيدك في حضنك ، وأعطيتك بيت إسرائيل ويهوذا وإن كان ذلك قليلاً كنت أزيد لك كذا وكذا ، - لماذا احتقرت كلام الرب لتعمل الشر في عينيه ؟ قد قتلت أورثا الحثي بالسيف ، وأخذت امرأته لك امرأة وإياه قتل بسيف بني عمّون ، والآن لا يفارق السيف بيتك إلى الأبد ، لأنك احتقرتني وأخذت امرأة أورثا الحثي لتكون لك امرأة ، هكذا قال الرب : ها أنا ذا أقم عليك الشر من بيتك ، وآخذ نساءك أمام عينيك وأعطيهم لقريبك فيضطجع مع نسائك في عين هذه الشمس ، فقال داود لنathan : قد أخطأت إلى الرب فقال Nathan لداود : الرب أيضاً قد نقل عنك خطيتك ، لا تموت ، غير أنه من

أجل أنك قد جعلت بهذا الأمر أعداء الرب يشمتون فالابن المولود لك يموت ،
وذهب ناثان إلى بيته :

وضرب الرب الولد الذي ولدته امرأة أوريتا لداود فتقبل ، فسأل داود الله
من أجل الصبي ، وصام داود صوماً ، ودخل وبات مضطجعاً على الأرض ، فقام
شيوخ بيته عليه ليقيموه عن الأرض فلم يشأ ، ولم يأكل معهم خبزاً ، وكان في
اليوم السابع أن الولد مات ، تخاف عبيد داود أن يخبروه بأن الولد قد مات ، لأنهم
قالوا : هو ذا لما كان الولد حياً كلناه فلم يسمع لصوتنا ، فكيف نقول له : قد
مات الولد ؟ بعمل أشراً ، - ورأى داود عبيده يتناجون ففطن داود أن الولد
قد مات ، فقال داود لعبيده : هل مات الولد ؟ - فقالوا : مات ، فقام داود عن
الأرض واغتسل وادّهن وبدل ثيابه ودخل بيت الرب وسجد ، ثم جاء إلى بيته
وطلب ، فوضعوا له خبزاً فأكل ، فقال له عبيده : ما هذا الأمر الذي فعلت ؟
لما كان الولد حياً صحت وبكيت ، ولما مات الولد قت وأكلت خبزاً - فقال : لما
كان الولد حياً صحت وبكيت لأنني قلت : من يعلم ؟ ربما يرحمني الرب ويحيي
الولد ، والآن قد مات فلماذا أصوم ، هل أقدر أن أردّه بعد ؟ أنا ذاهب إليه ،
وأما هو فلا يرجع إليّ .

وعزى داود بثبوع امرأته ودخل إليها واضطجع معها ، فولدت ابناً فدعا
اسمه « سليمان » ، والرب أحبه ، وأرسل بيد ناثان النبي ودعا اسمه « يديديا » من
أجل الرب (٢ صم ١٢ : ١ - ٢٥) .

ففي هذا شغف داود بالمرأة الأجنبية شغفاً حمله على مضاجعتها
أولاً بالزنى حتى حبلى منه ، ثم فيه الاحتيال على زوجها أوريتا
الذي هو أحد الضباط في الجيش ، فوضعه موضع الخطر في الحرب وهكذا أماته ، ثم استمر
على محبتها فتزوجها وهو يعلم أنها زانية ، وفيه موت الولد بجناية أبيه ، وفيه ولادة
سليمان من تلك الزانية . وفيه أن الله سمى سليمان ابن تلك المرأة « يديديا » الذي

معناه « محبوب يَهْوَهُ » وفيه أن داود أراد ستر جنائته بتخييل أن الحمل كان من أوريتا ، ولكنه لم يتوفق ، وفيه أن داود تَشْرَبَ الخمر على مائدته ويسكر الناس وفيه أن الله توعّد داود على زناه وعاقبه بزنا نسائه جميعهن ، وفيه أن عقاب خطية داود نزل على ولده من الزنا ، وفيه أن داود إنما كان يصوم لغير الآخرة ، وفيه مما لا يخفى ويطول شرحه من قبيح القصص الذي لا ثمره فيه ، وبعد فلا يخفى أن سليمان ابن هذه الزانية كان هو وريث ملك أبيه بجهود ومساع كثيرة من أبيه ، هذا قصص التوراة ، وإننا نبرأ منه إلى الله ، كيف والقرآن الكريم يقص علينا الشئ العظيم على داود عليه السلام فيقول : ﴿ وَإِذْ كُنَّا عَبْدًا لِّدَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ، إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحُنَّ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ، وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ، كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ، وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابَ ﴾ (٣٨ : ١٧ - ٢٠) ويقول : ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ (٣٨ : ٢٥) ، ويقول : ﴿ وَقَتْلَ دَاوُدَ جَالُوتَ ، وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مَا يَشَاءُ ﴾ (٢ : ٢٥١) ويقول ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٦ : ٨٤) فتري كتاب الله يصف داود بأنه ذو قوة في الدين ، وأنه أَوَّابٌ ، وأن الله سخر الجبال والطير حين يسبح معه ، وأنه أوتي الحكمة ، وأن له عند ربه زلفى وحسن مآب ، وأنه علمه مما يشاء وأنه من المحسنين ، وهذا كله بخلاف التوراة التي تنفته بضد هذه النعوت ، وتعلّم من نص التوراة المتقدم أن الولد مات بجناية أبيه ، ولكن القرآن يقول : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ (٦ : ١٦٤) والنصوص الإسلامية تمنع أن يتزوج نبيّ من الأنبياء إلا بالمرأة العفيفة الحصان ، وتمنع أن يكون نبيّ متولداً من غير عفيفة حصان ، فلهذه الأمور وأشباهاها يقول الله تعالى ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾

التوراة تنسب القساوة والبربرية الى داود

(١١) - قال في التوراة يحكى عن أعمال داود الحربية مع اهالي « ربّة » بني عمّون : (وأخرج الشعب الذي فيها ووضعهم تحت مناشير ونوارج حديد ، وفؤوس حديد ، وأمرهم في أتون الآجر ، وهكذا صنع بجميع مدن بني عمّون ، ثم رجع داود وجميع الشعب إلى اورشليم) (٢ صم ١٢ : ٣١ و ١١ ي ٢٠ : ٣) هذا قصص التوراة عن الأعمال الحربية التي عملها داود ، ولكن القرآن يقول عن داود عليه السلام ، إنه كان من المحسنين وإن له عند ربه زلفى وحسن مآب وإنه أواب وإنه أوتي الحكمة ، وكل هذه النصوص القرآنية تمنع أن نعتقد أن داود يعمل تلك الأعمال التي تحكيها عنه التوراة ، لأنها تنافي الإحسان وتغايّر الحكمة ، ولا تصدر عن أقسى برابرة العالم ، ولهذا وأمثاله يقول الله ﷻ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ﷻ

التوراة مجازي على الزنا بالزنا

(١٢) - قال في التوراة خطاباً لداود : (لماذا احتقرت كلام الرب ، لتعمل الشر في عينيه ؟ قد قتلت أوريتا الحيثي بالسيف ، وأخذت امرأته لك امرأة وإياه قتلت بسيف بني عمّون ، والآن لا يفارق السيف بيتك إلى الأبد ، لأنك احتقرتني وأخذت امرأة أوريتا الحيثي لتكون لك امرأة ، هكذا قال الرب : ها أنا ذا أقم عليك الشر من بيتك ، وآخذ نساءك أمام عينك ، وأعطيهن لقريبك ، فيضطجع مع نسائك ، في عين هذه الشمس ، لأنك أنت فعلت بالسر ، وأنا أفعل هذا الأمر قدام جميع إسرائيل ، وقدام الشمس) (٢ صم ١٢ : ١٩ - ١٢) ، وهذا الذي توعدّه

الله به قد وقع فعلاً (على ذمة التوراة) ، فقد حكي في التوراة أن أبشالوم بن داود بعدما حارب أباه وكسره ودخل عاصمة ملكه أورشليم . اضطجع مع سراري أبيه برأى من الشعب ، حيث قالت التوراة هكذا : (وقال أبشالوم لأخيتوفل : اعطوا مشورة ماذا نفعل ؟ - فقال أخيتوفل لأبشالوم : أدخل الي سراري أبيك اللواتي تركن لحفظ البيت ، فيسمع كل إسرائيل أنك قد صرت مكروهاً من أبيك فتشدد أيدي جميع الذين معك - فنصبوا لأبشالوم الخيمة على السطح ، ودخل أبشالوم الى سراري أبيه أمام جميع إسرائيل) (٢ صم ١٦ : ٢٠ - ٢١) قال علماء اهل الكتاب : « والإثم في هذا مضاعف لكون السراري أقرباءه ، ولكونهن نساء لرجل آخر ، ولم يكن ذلك زيجة محرمة ، بل كان زنا ، لحياة أبيه والسراري غير مطلقات ، ، فتعلم من هذه النصوص التوراتية أن الله تعالى يعلن زنا الزاني في واحدة سرّاً ، بأن يزني قريبه بجمع من نسائه جهراً ، وأنه يجازى على الزنا بزنا ، وهذا من أقبح القصص ، والقرآن الكريم لا يجعل جزاء الزاني بامرأة الغير أن يزني ولده بنسائه ، بل يجعل جزاءه الجلد كما قال تعالى : ﴿ الزانية والزاني فاجلدوا كل واحدٍ منهما مئةً جلدةً ، ولا تأخذكم بها رافة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ﴾ (٢٤ : ٢) وقد أمر بحضور جمع من المسلمين حين جلد الزاني ، وكل هذا معقول ، وأما التوراة فتقول : ان الله توعده داود بأن يزني قريبه بنسائه حال حضور بني إسرائيل ومشاهدتهم لهذا الفعل الشنيع ! ، وهو أمر غير معقول ، فلذلك قال الله تعالى : ﴿ نحن نقص عليك احسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾ .

ولما أتم الفاضل المجدي خطابه عاد الى مكانه فقام على الأثر الهام اليافي وسار نحو منبر الخطابة وشرع يقول :

أيها السادة إني على ما بي من قصر الاطلاع على كتب القوم أريد أن أذكر لكم

اثني عشر موضعاً من التوراة هي من أقبح القصص أيضاً ، نظير ما فعل أخواي الخليلي والمجدلي عاطفاً ما سأذكره على ما ذكرناه فأقول :

التوراة تقص أقاصيص الزنا

(١) - قال في التوراة (وجرى بعد ذلك انه كان لأبشالوم بن داود أخت جميلة ، اسمها « ثامار » فأحبها « أمنون » بن داود ، وأحصر أمنون للسقم من أجل ثامار أخته ، لأنها كانت عذراء ، وعسر في عيني أمنون أن يفعل لها شيئاً ، وكان لأمنون صاحب اسمه « يوناداب » ابن شمعى أخي داود ، وكان يوناداب رجلاً حكيماً جداً ، فقال له : لماذا يا ابن الملك أنت ضعيف هكذا من صباح الى صباح ، أما تخبرني ؟ فقال له أمنون : إني أحب ثامار أخت أبشالوم أخي - فقال يوناداب : اضطجع على سريرك وتمارض ، وإذا جاء أبوك ليراك فقل له : دع ثامار أختي فتأتي وتطعمني وتعمل أمامي الطعام لأرى فأكل من يدها ، - فاضطجع أمنون وتمارض فجاء الملك ليراه ، فقال أمنون للملك ، دع ثامار أختي فتأتي وتصنع أمامي كعكتين فأكل من يدها ، - فأرسل داود الى ثامار الى البيت قائلاً : اذهبي الى بيت أمنون أخيك واعلمي له طعاماً ، فذهبت ثامار الى بيت أمنون أخيهما وهو مضطجع ، وأخذت العجين وعجنّت وعملت كعكاً أمامه وخبزت الكعك ، وأخذت المقلاة وسكبت أمامه ، فأبى أن يأكل وقال أمنون : أخرجوا كل إنسان عني ، فخرج كل إنسان عنه ، ثم قال أمنون لثامار : إيتي بالطعام الى الخدع فأكل من يدك ، فأخذت ثامار الكعك الذي عملته وأتت به أمنون أخوها الى الخدع ، وقدمت له ليأكل ، فأمسكها وقال لها : تعالي اضطجعي معي يا أختي ، - فقالت له : لا يا أخي لا تدلني ، لأنه لا يفعل هكذا في إسرائيل ، لا تعمل هذه القباحة ، أما أنا فأين أذهب بعاري ، وأما أنت فتكون كواحد من السفهاء في إسرائيل ، والآن

كلم الملك لأنه لا ينبغي منك ، - فلم يشأ أن يسمع لصوتها ، بل تمكن منها وقهرها واضطجع معها (٣ صم ١٣ : ١ - ١٤) ، في هذا النص حكاية زنا أمنون بأخته ثامار ، ولا ندري ماهي العبرة أو الذكري في هذا القصص القبيح ، سيما وانه يشير الى شيء غير حقيقي ، وهو تزوج الأخ بأخته من أبيه ، فانه حرام على كل حال ، كما قال في التوراة : (عورة أختك بنت أبيك أو بنت أمك المولودة في البيت أو المولودة خارجاً لا تكشف عورتها) (لا ١٨ : ٦) وقال : (وإذا أخذ رجل أخته بنت أبيه أو بنت أمه ، ورآى عورتها ورآت هي عورته فذلك عار ، يقطعان أمام أعين بني شعبها ، قد كشف عورة أخته يحمل ذنبه) (لا ٢٠ : ١٧) ، والقرآن الكريم يقول : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخْوَانُكُمْ ﴾ (٤ : ٢٢) .

التوراة تنسب الشرك لسليمان وانه تزوج بالوثنيات حاشاه

(٢) - قال في التوراة : (وأحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون موآبيات وعمونيات وأدوميات وصيدونيات وحثيات ، من الأمم الذين قال عنهم الرب لبني إسرائيل : لا تدخلون اليهم ولا يدخلون اليكم ، لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتكم ، - فالتصق سليمان بهؤلاء بالحبة ، وكانت له سبعمائه من النساء السيدات وثلاثمائة من السرايري ، فأمالت نساؤه قلبه ، وكان في زمان شيخوخة سليمان ان نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى ، ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب آلهه كقلب داود أبيه ، فذهب سليمان وراء « عشتورث » إلهة الصيدونيين ، و « ملكوم » رجس العمونيين وعمل سليمان الشر في عين الرب ، ولم يتبع الرب تماماً كداود أبيه ، حينئذ بنى سليمان مرتفعة « لكموش » رجس الموءنين على الجبل الذي تجاه أورشليم ، و « لمولك » رجس بني عمّون ، وهكذا فعل لجميع نساءه

الغريبات اللواتي كن يوقدن ويذبحن لآلهتهن ، فغضب الرب على سليمان ، لأن قلبه مال عن الرب إله إسرائيل الذي تراءى له مرتين ، وأوصاه في هذا الأمر أن لا يتبع آلهة أخرى فلم يحفظ ما أوصى به الرب ، فقال الرب لسليمان : من أجل أن ذلك عندك ولم تحفظ عهدي وفرائضي التي أوصيتك بها فإني أمزق المملكة عنك غزيقاً وأعطيها لعدوك ، إلا إني لا أفعل ذلك في أيامك من أجل داود أبيك . بل من يد ابنك أمزقها ، على اني لا أمزق منك المملكة كلها ، بل أعطي سبطاً واحداً لابنك ، لأجل داود عبدي ولأجل أورشليم التي اخترتها (٢ مل ١١ :

١ - ١٣) وفي هذا القول ما فيه من تزوج سليمان بالوثنيات ، مع إن ذلك محرم عليه في شريعته كما هو محرم في شريعتنا ، وفيه إمسالتهن قلبه للشرك ، وإنه زاغ عن عبادة الله وحده الى عبادة الأوثان التي هي الآلهة الأربعة المذكورة ، وهي من آلهة الوثنيين ، وفيه محازاة الله له على ذلك بتمزيق الملك عنه ، لكن ليس في زمنه ، بل في زمن ابنه « يريعام » ، فالجرم صدر من شخص ، والعقاب انصب على رأس شخص آخر ، وكل هذا من أقبح القصص ، ولكن كتاب الله تعالى يقص علينا أحسن القصص في شأن سليمان ، قال تعالى : ﴿ وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا ﴾ (٢ : ١٠٢) ، وقال تعالى : ﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علماً ، وقالوا الحمد لله الذي فضّلنا على كثير من عباده المؤمنين ، وورث سليمان داود وقال : يا أيها الناس ، عليّ منا منطيق الطير وأوتينا من كل شيء ، إن هذا لهو الفضل المبين ﴾ (٢٧ : ١٥ و ١٦) وذكر في القرآن الكريم في قصة سليمان مع ملكة سبأ أنها كانت وثنية من عبّاد الشمس وإن سليمان لذلك أرسل إليها يدعوها للتوحيد ، وإنها تزلفت إليه بالهدايا المادية وهو لم يقنع بذلك ، لأنه لا يريد الماديات ، بل هو داع روحاني لا يرضى منها بسوى الإسلام ، وإنها أخيراً أسلمت ، (انظر سورة النمل ٢٧ : ٢٣ - ٤٥)

وذكر في سورة الأنعام (ع ٨٤) إنه كان من المحسنين ، وقال تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ (٣٨ : ٣٠) ثم قال ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ (٣٨ : ٤٠) ، فهذا من بعض وجوه ونكات قول الله جلّ جلاله : (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إلى هذا القرآن) .

التوراة تنسب لبعض الأنبياء الكذب في البلاغ

(٣) - ذكر في التوراة ان نبياً من أنبياء يهوذا امره الرب ان يسافر الى برعام ملك إسرائيل لإنذاره وتخويفه بسبب شره ، وأمر الرب أمر ذلك النبي أن يرجع بعد إبلاغ رسالته ، وأن لا يأكل خبزاً ولا يشرب ماء داخل حدود مملكة إسرائيل ، وأنه جاءه نبي آخر فقال له : سر معي الى البيت ، وكل خبزاً - فقال لا أقدر ان ارجع معك ولا أدخل معك ولا آكل خبزاً ، ولا أشرب معك ماء في هذا الموضع ، لأنه قيل لي بكلام الرب : لا تأكل خبزاً ولا تشرب هناك ماء - فقال له : أنا أيضاً نبي مثلك ، وقد كلمني ملاك بكلام الرب قائلاً : ارجع به الى بيتك فإكل خبزاً ويشرب ماءً ، - كذب عليه فرجع معه وأكل خبزاً في بيته وشرب ماء (امل ١٣ : ١ - ١٩) ، وذكر في التوراة (أن ملك إسرائيل جمع نحو أربعمئة نبي قد أخبروه بالكذب بسبب أن الرب قال : مَنْ يغوي آخاب ؟ فخرج الروح ووقف أمام الرب وقال : أنا أغويه ! - فقال له الرب : بماذا ؟ - قال أخرج وأكون روح كذب في أفواه جميع أنبيائه ! - فقال : إنك تغويه وتقدر ، فأخرج وافعل هكذا ، والآن هو ذا قد جعل الرب روح كذب في أفواه جميع أنبيائك هؤلاء !) (امل ٢٢ : ٦ - ٢٣) ، وردد في التوراة أيضاً هكذا : (صار في الارض دهش وقشعريرة ، الأنبياء يتنبأون بالكذب ، والكهنة

تحكم على أيديهم ، وشعبي هكذا أحب ، وماذا تعملون في آخرتها ؟) (أره :
 ٣٠ و ٣١) وفي سفر إرميا أيضاً قال : (فقال إرميا النبي لحنانيا النبي - اسمع
 يا حننيا إن الرب لم يرسلك - أي في خصوص هذه المسألة وإلا فهو عندهم نبي
 ورسول - وأنت قد جعلت هذا الشعب يتكل على الكذب ، لذلك هكذا قال
 الرب : ها أنذا طاردتك عن وجه الأرض ، هذه السنة تموت ، لأنك تكلمت
 بعصيان على الرب ، فمات حنانيا النبي في تلك السنة) (أر ٢٨ : ١٥ - ١٧)
 وقرأ الاصحاح المذكور جميعه تتضح لك الحقيقة تمام الوضوح وتعلم منها أن
 حننيا النبي كذب في البلاغ عن الله فالتوراة التي بين أيدي اليهود تجوز الكذب
 من الأنبياء جوازاً وقوعياً حتى في البلاغ ، ولكن القرآن الكريم يقول عن
 الوحي : ﴿ قوله الحق ﴾ (٦ : ٧٣) ، ويقول : ﴿ ما ننزل الملائكة إلا
 بالحق ﴾ (١٥ : ٨) ويقول : ﴿ قل إن ربي يقذف بالحق ﴾ (٣٤ : ٤٨)
 ويقول ﴿ هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ﴾ (٣٦ : ٥٢) ويقول :
 ﴿ إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون ﴾ (١٦ : ١٠٥) ويقول : ﴿ ما كان
 حديثاً يفترى ﴾ (١٢ : ١١١) ويقول ﴿ إن الذين يفترون على الله الكذب
 لا يفلحون ، متاع قليل ، ولهم عذاب اليم ﴾ (١٦ : ١١٦ و ١١٧) فسبحان
 من قال ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾ .

التوراة تثبت ان الوحي ينزل بسبب آلات الطرب

(٤) - قال في التوراه (وأفرز داود وروساء الجيش للخدمة بني آساف
 وهيمان ويدوثون المتنبئين بالميدان والرباب والصنوج) (أي ٢٥ : ١) ففيه ان
 الأنبياء كانوا يتنبئون بضرهم على آلات الطرب ، وفي التوراة ايضاً « والآن
 فأتوني بمواد » ، ولما ضرب العواد بالعود كانت عليه يد الرب ، فقال : هكذا قال

الرب اجعلوا هذا الوادي جباً جباً الخ ما في (٢ مل ٣ : ١٥ و ١٦ ، صرّح في التوراه إن هذا الكلام قاله النبي اليسع عليه السلام حينما رغب اليه « يهورام » ملك اسرائيل واستشاره في محاربة ملك موآب ، وطلب منه أن يخبره بحسب الوحي ، وهذا من أقبح القصص ، لأنه يُعلم القُرّاء استعمال الآلات المطربة ، والألحان الموسيقية وقت العبادات ويصرّح بأن الضرب على العود يسبب نزول وحي الله من السماء على أنبيائه ، والحال إن الأنبياء عند نزول الوحي عليهم يتجردون عن الدنيا وأسبابها ، وعن كل المـاديات الأرضية ، وتنحصر قواهم وحواسهم في السماء ، وينفيون عن كل شيء عدا العالم السماوي ، كما ورد في كيفية نزول الوحي الشريف على نبينا (ص) ، فالحمد لله إذ لم نكن من « الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعبةً » (٧ : ٥٠) والحمد لله الذي قال ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾ .

التوراة تثبت لله التعب

(٥) - قال في سفر التكوين عن الله (فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل) (تك ٢ : ٢) وقال في سفر الخروج (وفي اليوم السابع استراح وتنفس) (خر ٣١ : ١٧) ، فالاستراحة لا تكون إلا بعد تعب ، والله تعالى منزّه عن ذلك ، ولذلك يقول القرآن الكريم : ﴿ ولقد خلّقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، وما مسنا من لغوب ﴾ (٥٠ : ٣٨) واللغوب الإعياء والتعب ، فسبحان من قال ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾ .

التوراة تثبت حياة أخنوخ

(٦) - قال في سفر التكوين (وسار أخنوخ مع الله ولم يوجد لأن الله أخذه
(تك ٥ : ٢٤) قالوا نقله حياً الى السماء لكيلا يرى الموت ، ولكن القرآن يقول :
﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ (٥٥ :
٢٥ و ٢٦) وبناء على هذا التفسير يتوجه الاعتراض على التوراة .

التوراة تعلل القصص بالموت

(٧) - قال في سفر التكوين (سَأْفِكَ دَمَ الْإِنْسَانِ يُسْفِكَ دَمَهُ ، لأن الله
على صورته عمل الإنسان) (تك ٩ : ٦) ولكنه في القرآن علل القصص بحفظ
الحياة قال تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ (٢ : ١٧٩) وغير خاف أن
العلة المذكورة في القرآن أحسن من العلة المذكورة في التوراة فسبحان من قص
علينا أحسن القصص بما أوحى إلينا هذا القرآن .

التوراة تثبت أنه الأصل في الإنسان الشر

(٨) - قال في سفر التكوين (لأن تصور قلب الإنسان شرير منذ حداثة)
(تك ٨ : ٢١) فالتوراة تعلمنا إن الأصل في الإنسان الشر ، وليس الأمر هكذا
عند علماء الطبيعة ، بل قالوا : الأصل في الإنسان الخير بدليل أحوال الأولاد
الأطفال ، وعليه قوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ، فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي
فَطَرَّ النَّاسَ عَلَيْهَا ، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، ولكن أكثر

الناس لا يعلمون (٣٠ : ٣٠) فقلب الإنسان خير منذ حدثته ، ولكن أهل الشر يعلمونه الشر تدريجاً ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه .

غلط التوراة في التاريخ

(٩) - قال في سفر التكوين (فقال لإبرام أعلم يقيناً أن نسلك سيكون غريباً في أرض ليست لهم ويُسْتَعْبَدُونَ لهم ، فيذلونهم أربعمئة سنة ثم الأمة التي يُسْتَعْبَدُونَ لها أنا أدينها، وبعد ذلك يخرجون بأملأك جزيلة) (تك ١٥ : ١٣ و ١٤) وقال في سفر الخروج (وأما إقامة بني إسرائيل التي أقاموها في مصر فكانت أربعمئة وثلاثين سنة) (خر ١٢ : ٤٠) وظاهر أن العبادتين متناقضتان ، على أن كلا منها ليس بصحيح ، والذي صححه علماء التاريخ حتى النصارى أن مدة غربتهم بمصر إنما كانت (٢١٥) سنة فقط (أنظر قطف الزهور ليوحنا أبكاربوس)

تكرر ذكر حوادث الزنا في التوراة

(١٠) - قال في سفر التكوين (وخرجت دينة ابنة لئىة التي ولدتها ليعقوب لتتظر بنات الأرض ، فرآها شكيم ابن حموّور الحوتي رئيس الأرض وأخذها واضطجع معها وأذلها) (تك ٣٤ : ٢ و ١) قال في السنن القويم : جاء في التقاليد اليهودية إن « دينة » المذكورة حبلت من شكيم المذكور فولدت ابناً اسمه « شاول » وقال أيضاً (وحدث إذ كان إسرائيل ساكناً في تلك الأرض أن رأوين ذهب واضطجع مع بليهة سرية أبيه وسمع إسرائيل) (تك ٣٥ : ٢٢) فما هي الفائدة ياترى من ذكر التوراة لزنا شكيم بنت يعقوب ؟ وما الفائدة من ذكر أن رأوين زنا بامرأة أبيه وأم أخويه دان ونفتالي ، فهل من ثمرة لذلك سوى فضيحة دينة

وبلهة ، لأن الإكراه الحقيقي على الفعل الشنيع لا يتصور أبداً ، إذ يمكن كلا منها أن تدافع عن نفسها ، فذكر الزنا بهما يرمي إلى أن لهما إرادة فيه ، ويا لها من فضيحة !!! خصوصاً إذا تصورنا إن « دينة » بنت نبي ، وبهية زوجة نبي ، فلا حول ولا قوة إلا بالله .

التوراة تقول بجزء خارج عن المعقول

(١١) قال في سفر اللاويين (وأخذ ابنا هرون « ناداب » و « أبيهو » كل منهما بجمرته ، وجعلها فيها ناراً ، ووضعها عليها بخوراً وقرّباً أمام الرب ناراً غريبة لم يأمرها بهما ، فخرجت نار من عند الرب وأكلتها ، فماتاً أمام الرب ، فقال موسى لهرون ، هذا ما تكلم به الرب قائلاً : في القريين مني أتقدس ، وأمام جميع الشعب أتمجد ، فصمت هرون) (لا ١٠ : ١ - ٣) فيه إن الله قتل بالنار ولدي هرون الأكبرين ، وكل ذنبها أنهما وضعوا البخور على نار غريبة غير نار المذبح ، فعند ذلك سقطت السماء على الأرض ، وأحاط بها أشد عقاب الله ، وذلك لكي يظهر الله مجده بعقاب أوليائه ، ولعمري إن هذا الحكم لا يصدر عن أظلم الحكام الظالمين ، الذين فقدوا الحكمة والعدالة ، حتى لا يمكن صدوره عن الجزار ولا عن هيرودس ولا عن نيرون وأمثالهم من الملوك الظلمة .

التوراة تقول بتضييع المال بلا فائدة

(١٢) - قال في سفر اللاويين (وكلم الرب موسى قائلاً : أوصي بني إسرائيل أن يقدموا إليك زيت زيتون مرضوض نقياً ، للضوء لإيقاد السرج دائماً ، خارج

حجاب الشهادة في خيمة الاجتماع يرتبها هرون من المساء إلى الصباح أمام الرب دائماً، فريضة دهرية في أجيالكم) (لا ٢٤ : ١ - ٣) ، فيه إن الله يأمر بإيقاد السرج كل ليلة من أول الليل لآخره بين القدس وقدس الأقداس من غير أن ينتفع به أحد من الناس ، ولا ريب أن هذا من أقبح القصص ، لأنه تضييع مال بلا فائدة ، وهو أصل البدعة الشائعة اليوم في مثل سورية ومصر من شعل الشموع أو الزيت في أضرحه الصالحين فهذه البدعة القبيحة سرت لجهلة المسلمين من مثل هكذا عبارات زائفة ؛

وأخيراً هذا ما وعدت بتبينه وكل ما ذكرته أنا وغيري هو في الحقيقة نغبة (١) من دأماء ومن أراد أن يطلع على الفضائح الغريبة فليرجع إلى أسفار العهد العتيق والسلام عليكم ورحمة الله .

(أحسن القصص)

- ٣ -

قال تقي الدين المقدسي :

مميزات قصة يوسف عن القصص الأخرى

لم تجمع قصة موسى وفرعون ، ولا قصة موسى وهرون ، ولا قصة هود وعاد ، وصالح وثمود ، وإبراهيم مع الكلدانيين والفلسطينيين ، ولوط . — مع أهالي سدوم وعمورة ، وشعيب مع مدين ، وداود مع شاول حميه ثم مع أولاده ، وسليمان مع

(١) نغبة : حسوة طائر ، دأماء : بحر .

معاصريه من الملوك ، ويونس وأهالي نينوى ، ويحيى والمسيح مع اليهود ؛ ولا قصة أصحاب الكهف ، ولا قصة ذي القرنين - كورش ملك ليديا وفارس - وسطوته - لم تجمع هذه الأقايص من العظات والعجائب ما جمعت قصة يوسف ، ولم تتضمن قصة من القصص من المبكى والمنكى ، والمدهشات والمنعشات والتطورات والانتقالات ونصب الأحابيل والحب والعفة ، والاسترقاق والملك ، والذل والعز ، والتلاقي والفراق ، والرحلات والانتصارات ، واللذة والعبرة ، والمقدمات والنتائج ، والصبر والفرج ، والحكم والعبر ، والفوائد النافعة في الدين والدنيا ، كسير الملوك والماليك وحسن السياسة ، وتدبير الملك وإقامة العدل ونظام الدولة ، ومسكر النساء وتمثيل طبائهن ، والاصطبار على الأذى ، والعفو عن المجرمين .

نعم لم تتضمن هذه الأمور قصة كمثل ما تضمنته قصة يوسف ، وأكبر شاهد على ما نقول أنك ترى القراء يقرؤونها والسامعين يستمعونها باندفاع وشوق ولذة ، في المساجد والتكايا والأسواق ، والنوادي والطرقات ، حتى أن بعض الناس نظموها شعراً وصاروا ينشدونه في الطرقات ، وكثير رتبوها « رواية » وصاروا يمثلونها في مسارح التمثيل .

(أوحينا)

- ١ -

قال الإمام الفلقلي^(١) :

الوحي الاصطلاحي

إن إعلام الله أنبياءه المختارين ، وهو الوحي الاصطلاحي المختص بهم في عرفه

(١) نسبة إلى بلدة قلقيلية من فلسطين

الشرع ، فهو معنى تضيق العبارة العامة عن تحديد كنهه ، وغاية ما يمكن الإنسان ، هو أن يحوم حوله مستعيناً بما قاله الأنبياء أنفسهم فيما نزل على ألسنتهم ، ليقطف منها ما يقرب ذلك إلى العقل الإنساني .

(أوحينا)

- ٢ -

وقال الشيخ "بيدساني" (١) :-

الفرق بين الوحي والالهام

وحي الله إلى أنبيائه هو ما يلقيه إليهم من العلم الضروري الذي يخفيه عن غيرهم بعد أن يكون أعد أرواحهم لتلقيه بواسطة كائناتك ، أو بغير واسطة ، ويفرق بينه وبين الإلهام ، بأن الإلهام وجدان تستيقنه النفس وتنساق إلى ما يطلب على غير شعور منها من أين أتى ، وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور .

(أوحينا)

- ٣ -

وقال المدقق اللدي (٢) :

الوحي نوع من التعبير عن الكلام الرباني

الوحي نوع من أنواع الكلام الذي لا يعلم معناه على التفصيل إلا هو سبحانه

(١) نسبة إلى بلدة بيسان من فلسطين

(٢) نسبة إلى بلدة اللد في فلسطين

وتعالى ، فقد كان البشر منذ البدء لا يعلمون من طرق التعبير عن الكلام النفسي سوى النطق باللسان ، ثم لما قُدِّرَ أن خرس بعض الناس صاروا يعبرون عن كلامهم النفسي بالإشارات اليدوية مع استعانتها بالحاجب والعين والشفة ، ثم تعلم الناس طريقاً ثالثاً للتعبير عما في النفس وهو الكتابة بالقلم ، ثم بالبرق (التلغراف) ثم بالحاكي (الفونوغراف) ثم بالهاتف (التلفون) ثم بالراديو فهذه سبعة طرق بها يقدر الإنسان أن يعبر عما يختلج في ضميره من المعاني وكلها طرق معروفة ، ولكن طريقة كلام الوحي هي من باب الغيب الذي لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى .

(هذا القرآن)

- ١ -

وتابع المدقق الذي كلامه قائلاً :

سبب إجماع القرآن

لقد أوحى الله الى نبيه (ص) هذا القرآن لما فيه من الحث على مكارم الأخلاق ، من إقامة العدل ، والحث على التعاون ، والأمر بالاتحاد ، والدعوة الى أمهات الفضائل ، كالصدق وعلو الهمة ، وترك الكذب والغش والتدليس ، والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي والأمر بالإحسان الى الفقير والمساكين واليتيم وابن السبيل ، والأمر ببر الوالدين ، وإيتاء ذي القربى حقه ، وإكرام الجار والضيف ، الى غير ذلك مما لا تتم الإنسانية بدونه ، كذلك ما فيه من الدعوة الى تكوين أمة قوية معبأة للسيادة على الأرض تعبئة عامة اقتصادية وحرية وعقلية ، كذلك ما فيه من التشريع الحكيم الذي روعيت فيه مصالح الشعب وكان موجهاً الى إقامة العدل وتقرير المساواة وتطهير المجتمع من الرذائل .

(لمن الغافلين)

- ١ -

وقال الوحيد البؤري (١) :

محمد ﷺ في طفولته وشبابه

كان النبي (ص) أمياً لم يتعلم شيئاً من الكتب قط ، ولم يكن في طفولته ولا في شبابه ، بشيء مما كان يسمى علماً عند الأميين ، كالشعر والنسب وأيام العرب ، ولم يتربّ على يد عالم ولا حكيم ولا سياسي ، وكان وهو في سن التعليم وتكون الأخلاق والملكات - يرعى الغنم نهراً ، وينام من أول الليل ، فلا يحضر سمار قومه ، وهي مواضع السمر في الليل ، ولا يجتمع بهم في معاهد لهم ، واتجر قليلاً في شبابه ، مع قومه من أبناء الجاهلية وأترابه ، فهو لم يصادف من التربة المنزلية والتأديب الاجتماعي في أول نشأته ما يؤهله للمنصب الذي تصدى له في كهولته ، وهو تربية الأمم تربية دينية اجتماعية سياسية ولكنه مع ذلك قام بهذه التربية أكمل قيام .

وأتى من علم الحقوق والجزاء والتاريخ ما يعجز عن مثله أكبر رجل دارس في الجامعات العالية ، فكان هذا حجة كبرى على صحة نبوته ، وبرهاناً عظيماً على عناية الله به ، وتأييده إياه بوحيه ، ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ، مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا ﴾ (١١ : ٤٩) ، ومن الغريب أنه يوجد في هذا العصر ، عصر النور والأفكار الحرة المطلقة ، من لا يفكر في إتيان الأُمّتي الناشئة بين الأميين بخلاصة أخبار أشهر الرسل مع أهلهم وأقوامهم .

(١) نسبة الى بلدة برير من أعمال فلسطين .

رجل أمّي يتيم فقير في بيئة منحلة ، وفي وسط جاهل ، لم يقرأ ولم يطلع على شيء من كتب الدين ولا كتب التاريخ ، بل كان من « الغافلين » في غير عقيدته ، ومع كل ذلك أتى من العلوم ما لم يأت به قبله نبي ولا حكيم .

كفاك بالعلم في الأمّي معجزة في الجاهلية والتأديب في اليم

(لمن الغافلين)

- ٢ -

قال الشهاب الرملي (١) :

القرآن معلم النبي ﷺ

لأن الإنسان أي إنسان كان لا يعلم ما لم يعلم ، قال تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك رُوحاً من أمرنا ، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نوراً تهدي به من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهدي الى صراط مستقيم ﴾ (٤٢ : ٥٢) وقال تعالى : ﴿ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة ، وعلّمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيماً ﴾ (١١٢ : ٤) وقال تعالى : ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ (٩٣ : ٧) ، هذه نصوص القرآن الكريم ، وهي ظاهرة المعنى ، فلا نعلق عليها شيء ، سوى أن نقول كلمة واحدة : تبارك الله ، والله لو كان هذا القرآن من عند (محمد) لما وردت فيه هذه الآيات الكريمة (انظر تفسير آية ١٠٩) .

(لمن الغافلين)

- ٣ -

وقال الأديب الفالوجي (١) :

غفلة النبي (ﷺ) ليست عيباً يذم به

الغفلة قسها ، غفلة يذم بها الانسان ، وهي فيما إذا كان قد بُلِّغَ شيئاً وعُلِّمَهُ ثم غفل عنه ، وغفلة يعذر بها الانسان ، وليست مذمومة قط ، وهي فيما إذا غفل عن شيء لم يُبَلِّغْهُ ولم يُعَلِّمَهُ ، فقلوله هنا ﴿ وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾ ، لا يقصد منه الذم والعتاب ، ولكن يقصد منه بيان الواقع ، لأن الغفلة هنا قريبة من معنى الجهل الذي هو ضد العلم ، قال تعالى في الفقراء المتعفين : ﴿ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ ﴾ (٢ : ٢٧٣) فوصف الجهل هنا ليس فيه ذم ، لأنه توصيف لبيان الواقع ، هذا وإن عدم علمه ﷺ بالكتابة كان من أركان آياته ، وعدم علمه بالشعر من أدلة الوحي وبياناته ، وكل ما يتوقف علمه على الوحي الالهي لا تكون غفلة الرسول عنه قبل نزوله عليه عيباً يذم به إذ لا يذم الانسان إلا بما يقصر في تحصيله وكسبه ، وقد أمر الله تعالى رسوله بأن يسأله زيادة العلم ، وكان يزيده كل يوم علماً وكلاماً ، بتنزيل القرآن وبفهمه ، وبغير ذلك من العلم والحكمة ، وهذا لا يقتضي الذم قبل هذه الزيادة ، هذا مظهر لي هنا ، والسلام عليكم ورحمة الله .

(١) نسبة الى الفالوجة من بلاد فلسطين

الفصل الثالث

بدء الأمر المقصود الذي انعقدت له السورة

آ (٤) ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَيِّهِ : « يَا أَبَتِ ، إِنِّي
رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ » -
رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ !!! » ﴾ *

افتتحت الجلسة وتليت الآية الرابعة ، فقام أبو الفضل الحانوني^(١) وقال :

من هذه الآية يبدأ الأمر المقصود الذي انعقدت له سورة يوسف ، كما بين ذلك
أخونا الامام الاغوي القلقيلي حينما تكلم عن الآية الأولى ، وبانتهاء الآية المتممة مئة
وواحد ينتهي هذا المقصود .

وأما بيان بجمل تفسير الآية التي نحن بصدددها فهو :

(إذ قال يوسف) الابن الحادي عشر من أبناء يعقوب ، الذي رزقه من
زوجه « راحيل » في العراق ، (لأبيه) يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، بلسان
الإخبار أو بلسان الاستفهام عن المال ، (يا أبت ، إني رأيت) في منامي (أحد
عشر كوكباً) نجماً وهي إخوته (والشمس) أبوه (والقمر) مربيته بلهية ، لأن
أمه راحيل كانت قد ماتت (رأيتهم لي ساجدين) خاضعين ، ويحتمل أن أباه لم
يأول له هذه الرؤيا ، لأن يوسف بعلمه من قبل ، وإغماً قصها عليه ليخبره ويسره .

(١) نسبة الى بيت حانون من فلسطين .

بذلك ؛ والأقرب أنه أولها له ، ولكن القرآن الكريم حذف ذلك اختصاراً .
منذ شرع الناس يؤلفون الأحلام ، عرفوا أن في الحلم رموزاً ، ومنذ شرع
الإنسان يؤلف اللغات اعتمد على الرموز في تأليف اللفظ ، فعرف المجاز والاستعارة ،
وهما من الرموز ، وهما قوام اللغات كلها ، فلذلك فإنه يمكننا أن نفسر الرموز التي
نجدتها في الأحلام برموز اللغات ، أي بمجازاتها واستعاراتها ، ولذلك فسرنا الشمس
بـيعقوب ، والقمر بـبلهة ، والكواكب بإخوته الأحد عشر .

(يا أَبَتِ)

- ١ -

قال العلامة الصفدي (١) :

استعطاف الأبوة والفرق بين خطاب يوسف (ع) لأبيه وخطاب إبراهيم لأبيه

كأن هذه الكلمة ﴿ يا أَبَتِ ﴾ من الابن الى الأب استعطاف واسترحام ،
وتذكير بالأبوة وواجباتها ، نحو الشفقة والعناية بالأبناء . وما بين الابن والأب
من الحقوق التي تجب مراعاتها ، والقيام على الوفاء بها من الطرفين ، ونظيره قول
جد يوسف الأعلى وهو سيدنا إبراهيم لأبيه : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ : يَا أَبَتِ ، إِنِّي
قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ ، فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً ، يَا أَبَتِ
لَا تَتَّبِعِ الشَّيْطَانَ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً ، يَا أَبَتِ ، إِنِّي أَخَافُ
أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ ، فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً ﴾ (١٩ : ٢٣-٤٥) ،

ولكن يوجد فروق كثيرة بين الخطابين ، فالخطاب الأول ، وهو خطاب يوسف لأبيه ، خطاب متعلم لمعلم ، بخلاف الخطاب الثاني ، وهو خطاب إبراهيم لأبيه ، فهو بالعكس خطاب معلم لمتعلم .

ثانياً — الخطاب الأول خطاب مؤمنٍ لمؤمنٍ ، بخلاف الخطاب الثاني فمن مؤمن لكافر .

ثالثاً — الخطاب الأول كان بين المتخاطبين وهما في فلسطين ، بخلاف الخطاب الثاني ، فإنه كان بين المتخاطبين وهما في الكلدان (العراق) .

رابعاً — الخطاب الأول كان من قبيل أخذ الرأي ، بخلاف الخطاب الثاني فكان من قبيل إعطاء الرأي .

خامساً — مضمون الخطاب الأول كان مما يرفع الرأس ويوجب الفخار بخلاف مضمون الخطاب الثاني ، فكان مما ينكس الرأس ويوجب الخجل بالنسبة للمخاطب .

سادساً — الخطاب الأول كان من باب التحلية ، بخلاف الخطاب الثاني كان من نوع التخلية .

(يا أبت)

- ٢ -

وقال السيد جميل الناصري (١) :

إعراب يا أبت

لي هنا كلمة موجزة في إعراب (يا أبت) فأقول : (أب) منادى مضاف

(١) نسبة الى الناصرة من اعمال فلسطين .

منصوب بالفتحة الظاهرة على الباء الموحدة ، وأَبَ مضاف والتاء (التي هي تاء التانيث ، والتي هي عوض عن ياء المتكلم) مضاف إليه ، مبني على الكسر في محل جر بالإضافة ، والكون المنادى هنا مضافاً لياء المتكلم أي للتاء التي هي نائية عنها ، أُعربَ بالحركات ، ولم يُعربَ بالحروف ، إذ شرط إعراب الأسماء الخمسة بالحروف أن تكون مفردة مكبرة مضافة لغير ياء المتكلم .

(يا أبت)

- ٣ -

قال الامام الدمشقي القيوي (١) :

أدب الخطاب

هذه صورة خطاب يوسف لوالده ، وسيأتي لإخوته أن يقولوا ﴿ يا أبانا ما لك لا تأمناً على يوسف ﴾ ، وسيأتي قول يوسف لرئيس السقاة والخبازين : ﴿ يا صاحبَي السجن ﴾ وقول الملك الريان : ﴿ يا أيها الملاء ، أفتؤوني في رؤياي ﴾ وقول رئيس السقاة : ﴿ يوسف أيها الصديق ﴾ ، وقول إخوة يوسف : ﴿ يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً ﴾ ، ﴿ يا أيها العزيز مسناً وأهلناً الزُّرُ ﴾ وقول يعقوب لأولاده التسعة : ﴿ يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ﴾ ولا يخفى ما في كل هذه النداءات من التشريف والتكريم للمنادى ، وتعليم الأدب للقارئ ، ولذلك لم يرد في القرآن المجيد نداء النبي ﷺ باسمه فحسب ، ولكن بصيغة ﴿ يا أيها الرسول ﴾ ، ﴿ يا أيها النبي ﴾ ، وشريعة

(١) نسبة الى حي القيمرية في دمشق (سورية)

الأدب هذه عند الخطاب تتعلمها من هذه السورة كسائر القرآن المجيد ، علماً أن الله إياها بالفعل وبالأمثلة ، كما علمنا إياها بالقول في آية ﴿ لا تجمعوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً ﴾ (٢٤ : ٦٣) على قول ، ولذلك حرموا نداء النبي ﷺ باسمه إلا إذا اقترن بكلمة تعظيم كـ (يا محمد النبي) أو (يا محمد المختار) ومثله ﴿ يوسف أيها الصديق ﴾ فيجوز حينئذ .

(رأيت)

- ١ -

وقال الفهامة الدمشقي الميداني (١) :

يوسف في رؤياه

نامت الطبيعة في خدر الليل الحريري ، لا حركة ولا نبْْثَة ، وأرسل الله نعمة السبات على عباده ، وأراحهم من مشقات النهار ونصبه ، وكان يوسف مضطجعاً بين طيات الظلام وثنايا العتمة ، فحكم عليه سلطان الكرى ، وبدأ يستولي على رأسه ، فنام بمليء جفونه ، وأطلق لجسمه العنان في الرقاد ، غير أن قلبه كان في يقظة ، رغم نوم جميع جوارحه وحواسه ، وما هي إلا نومة هادئة ، وإذا بكواكب أحد عشر تنزلت من علوها ، ومعها النيران العظيمة ، الشمس والقمر ، وانتصبت أمامه بانتظام ، سمع صوتاً عظيماً يقصف كالرعد قائلاً : (لتسجد هذه الكواكب السماوية ليوسف ، وتخضع لوجوهها أمامه بخشوع واحترام) فحُتَّتْ

(١) نسبة الى حي الميدان في دمشق (سورية)

وخرت ساجدة أمامه ، فأدهشه هذا المنظر الرهيب ، وبغته وهاله ، وهاله جداً ،
ثم فتح عينيه فإذا هو مضطجع في مرقد ، وقد بدأت خيوط الليل تنقشع عن
عن وجه الصباح ، ففرك جبينه وقال : (إنه لحلم عجيب) .

(رأيت)

- ٢ -

وقال الأستاذ العكثاري (١) :

يوسف يقص رؤياه على أبيه

شاءت العناية الإلهية أن تتبدى يوسف بالمبشرات التي تبين مجمل حاله ،
وتكشف عن مستقبله ، فرأى وهو وليد ، لم يسلم السابعة عشر من عمره - رأى
ذات ليلة من الليالي رؤيا غريبة التوى عليه تأويلها ، فقام وانتجع أباه ، فدخل
عليه في خيمته صباحاً ، وقد كان له عليه دالة ، ووقف قبالة أبيه بكل أدب وتعظيم
فقال له أبوه : (مَهْنِمَ ؟) - فقال : (ألا أعرضُ على مسمعك ما رأيته الليلة في
نومي ؟) - قال : (هات) - قال : (يا أبتاه ، حقاً وصدقاً لقد رأيت الليلة فيما يرى النائم ،
رؤيا هالتي جداً : وهي من الغرابة بمكان ، رأيت أحد عشر نجماً سماوياً والشمس
والقمر ، خرت من عليائها واصطففت وسجدت أمامي ، معفرة وجوها بين يدي ،
فما رأيك وما هو قولك ؟) - فدهش يعقوب لهذا المنام ، وكان مما أدهشه بنوع

(١) نسبة الى عكار من بلاد الشام (لبنان)

خاص ، سجود الشمس والقمر لولده ، وعلم أن هذا المنام ذو بال ، فقال له أبوه :
(كل المني دون هذا يا ولدي) وصار وكأن لسان حاله يردد في نفسه هذين البيتين :

وكم للنجم قد سجدت أناس

لا قد شمتته حسناً مزيّناً

ولكن فلذة الكبد المفدى

تخرله الكواكب ساجدين^(١)

دهش يعقوب جداً لهذه الرؤيا وصار يقول في نفسه : (فهمنا ؛ أن الأحد
عشر كوكباً هي إخوة يوسف الأحد عشر ، ولكن هل تأتي إخوته لتسجد له إلى
الأرض ؟ ولئن سلمنا ذلك فهل يأتي أبوه وأمه أيضاً ليسجد له . أو على
الأقل ليحضرا هذا المشهد ، مشهد السجود ؟ لا مانع ، إن الله على كل
شيء قدير) .

وهنا صفق أعضاء المؤتمر كثيراً وقالوا بأعلى صوتهم : « اتعش أيها الأستاذ » .

(وأيت)

- ٣ -

وقال الحاج سعيدي العكي :

الرؤيا والشرع

من الواضح الذي نستحي أن نعزوه إلى كتاب ، أو نقيم عليه شاهداً ، أن

الرؤى المتنامية معتبرة شرعاً ومسطورة في كثير من الكتب السماوية ، بل معتبرة فناً أيضاً ، فإن علماء الطبيعة ، وعلماء النفس ، أثبتوها ، قال تعالى : ﴿ وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس ﴾ (١٧ : ٦٠) وقال تعالى : ﴿ فلما بلغ معه السعي قال : يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك ، فانظر ماذا ترى ؟ - قال : يا أبت افعل ما تؤمر - ستجدني إن شاء الله من الصابرين ، - فلما أسلما وتلكا للسجيين - إلى أن يقول - وناديناه : أن يا إبراهيم ، قد صدقت الرؤيا ، إنا كذلك نجزي المحسنين ، إن هذا لهو البلاء المبين ، وفديناه بذبح عظيم ﴾ (٣٧ : ١٠٢ - ١١٧) وقال تعالى : ﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين ، محلفين رؤوسكم ومقصرين ، لا تخافون ، فعليم ما لم تعلموا ، فعمل من دون ذلك فتحاً قريباً ﴾ (٤٨ : ٢٦) ، وروى البخاري ومسلم عن أبي قتادة قال : كنت أرى الرؤيا تمر ضني حتى سمعت رسول الله ﷺ يقول : (الرؤيا الصالحة من الله ، والرؤيا السوء من الشيطان ، فإذا رأى أحدكم ما يحب ، فلا يحدث بها إلا من يحب ، وإذا رأى أحدكم ما يكره ، فليتفل عن يساره ثلاثاً ؛ وليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم وشرها ، فإنها لن تضره) ؛ وعن أبي رزين العقيلي قال : قال رسول الله ﷺ : (رؤيا المؤمن جزء من أربعين ، وفي رواية جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة ، ... قال : وأحسبه قال : ولا يحدث بها إلا لبيباً أو حبيباً) ، أخرجه الترمذي ، لأبي داود ونحوه . ووجه كونها جزءاً من ستة وأربعين جزءاً من النبوة - أنه (صلى الله عليه وسلم) بقي حسبما أشارت عائشة (رضي الله عنها) ستة أشهر يرى الوحي مناماً ، ثم جاءه الملك يقظة ، وستة أشهر بالنسبة إلى ثلاث وعشرين سنة جزء من ست وأربعين جزءاً ، ولا تنس أن كون الرؤيا الصادقة جزءاً مما ذكر إنما هو باعتبار صدقها لا غير ، وإلا لساغ لصاحبها ،

أن يسمى 'نبياً' ، وليس كذلك ، هكذا أفادنا الحافظ العسقلاني رحمه الله ؛ وعليه فلا تكون الرؤيا مبدءاً للنبوة ، ولكن تعد من مقدماتها ، فالظاهر لنا أن رؤى الأنبياء المنامية قبل نبوتهم هي من قبيل الإرهاصات التي تكون قبل النبوة ، أي قبل الزمن الذي يتأهل فيه النبي لقبول الوحي في اليقظة ، وأما رؤياهم في المنام بعد النبوة بالفعل فهي وحي صريح كما تعلمه من حادثة رؤيا إبراهيم المنامية في شأن ولده الذبيح ؛ والخلاصة أن رؤيا الأنبياء حال نبوتهم نوع من أنواع الوحي ، ورؤياهم قبل نبوتهم هي كسائر رؤى أهل الصلاح والخير ، تعد من نوع المبشرات لا من قبيل الوحي ، قال تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ، الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ، لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ؛ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ؛ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (١٠ : ٦٢ - ٦٤) وقد ورد في الحديث أن البشري في الحياة الدنيا هي الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو تراه له .

(وأيت)

- ٤ -

وقال بدر الدين الحيفاوي^(١) : لي هاهنا ثلاث كلمات :

رؤيا الأنبياء ورؤيا الناس

الكلمة الأولى : - إن الرؤيا المنامية معتبرة ، خصوصاً إذا كانت للأنبياء ، لأنها لهم وحي إذا كانت بعد النبوة ، أو إرهاب إذا كانت قبلها ، وههنا ربما

(١) نسبة الى حيفا من اعمال فلسطين

ينتقدنا بعضهم بأن قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشَلْتُمْ﴾ (٨ : ٤٤) يفيد أن الرؤيا المنامية للأنبياء قد تكون غير موافقة للواقع لبعض الأسباب اللازمة ، كما ترى من هذه الآية ، فإن المشركين في بدر كانوا كثيرين ، وقد أراهم الله لنبيه (ﷺ) في منامه قليلين ، فأخبر بذلك أصحابه ، فاعتقدوهم كذلك ، ولكن بعد اللقاء في الهيجاء رآهم النبي وأصحابه كثيرين ، أي ألقأ ، وكان المسلمون (٣١٣) نفرأ ، فكيف مع هذا يقال : إن الرؤيا حق ، وإن رؤيا الأنبياء وحي صادق موافق للواقع ؟

وجوابنا عن هذا السؤال ، ان الله تعالى قد يوحى الى أنبيائه ورسله في المنام ما هو في حلال المجازات والاستعارات والتمثيلات ، ونظائره كثيرة ، وشواهد متوفرة ، منها ما جاء في حديث أنس قال ، قال رسول الله (ﷺ) : « رأيت ذات ليلة فيما يراه النائم كأننا في دار عُنُقْبَةَ بْنِ رَافِعٍ ؛ فَأُتِينَا بِرُطَبٍ مِنْ رُطَبِ ابْنِ طَابٍ ؛ فَأَوَّلْتُ أَنْ الرِّفْعَةَ لَنَا فِي الدُّنْيَا ، وَالْعَاقِبَةَ فِي الْآخِرَةِ ، وَأَنْ دِينَنَا قَدْ طَابَ » ، وعليه فالعلة هنا مجاز عن ضعف المعنويات ، أي قلة الكم مجاز عن قلة الكيف ، كما يرى الإنسان في منامه حية وهي كناية عن العدو ، ويرى أن فلاناً مات ، وهو كناية عن قلة دينه ، وهلم جرا ، ولو تتبعنا كتب تفسير الأحلام لوجدنا جميع المنامات التي يراها الناس هي من هذا القبيل ، نعم وربما وقعت الرؤيا للأنبياء صريحة وربما وقعت لهم من باب التمثيل ، والخلاصة أن مدار انتقاد المنتقد السابق على تحتم أن تكون رؤيا الأنبياء صريحة دائماً ، ومدار جوابنا على جواز أن تكون رؤياهم في بعض الأحيان من قبيل التمثيل ، وعلى كل حال ، ففرق عظيم بين رؤيا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ورؤيا غيرهم من الناس ، ومن لم يفرق بين الرؤييين ، فهو كمن لم يفرق بين الثوم والثوم (١) .

(١) (التوم جمع تومة وهي اللؤلؤة والثوم معروف) قاموس .

الرؤيا عند النصارى

الكلمة الثانية : - أحوج الناس الى اعتبار المرائي المنامية وتصديقها هم النصارى ، وذلك لأنهم يقولون : إن يوسف النجار خطيب السيدة مريم اتهمها لما رآها حبلى وأراد تخليتها سراً ، ولكنه عدل عن ذلك بما رآه في النوم من الرؤيا المنامية التي نفّت عنها الفاحشة والتهمة الكاذبة ، فهذه الرؤيا التي رآها في نومه هي التكاأة الكبرى والدعامة الوحيدة التي استند إليها يوسف النجار في براءة السيدة مريم مما اتهمها به ، مع أن يوسف عندهم ليس بنبي يوحى اليه ، وغايته أنه رجل صالح من صالحى بني إسرائيل ، وهذه الحكاية عندهم مسطورة في سفر متى هكذا : (لما كانت مريم أمةً مخطوبة ليوسف قبل أن يجتمعا وُجدت حبلى من الروح القدس ، فيوسف رجلها إذ كان باراً ولم يشأ أن يشهرها ، أراد تخليتها سراً ، ولكن فيما هو مفكر في هذه الأمور ، إذا ملاك الرب قد ظهر له في حلم قائلاً : يا يوسف بن داود لا تخف أن تأخذ مريم امرأتك ، لأن الذي حبّل به فيها هو من الروح القدس) (مت ١ : ١٨ - ٢٠) فهذا المنام الذي دفع التهمة عن السيدة مريم معتبر عند النصارى ، وبناء عليه جميع المرائي المنامية يجب أن تكون عندهم في محل الاعتبار ، وأما قول شراح الإنجيل وغيرهم من المسيحيين : لم يبق بعد المسيح لزوم لإعلان الله إرادته للناس في النوم وليس من احتياج لذلك ، فهو دعوى مجردة عن البرهان ولا يؤيدها العقل ، بل إن صدق ألوف الألوف من المرائي المنامية التي رآها ويراها الناس بعد المسيح يناقض هذه الدعوى .

الرؤيا المنامية لا تحرم ماله ولا عمل مراماً

الكلمة الثالثة - الرؤيا المنامية ولو كانت صحيحة وحقاً ، فهي لا تحرم حلالاً ولا تحل حراماً ولا يترتب عليها حكم شرعي ، وقد حكى أن رجلاً صالحاً فقيراً رأى رؤيا أن النبي ﷺ جاءه في نومه وقال له : (إن في موضع كذا ركازاً ، احضر وخذه ، ولا تؤد خمسة) فقام من نومه صباحاً ، وأخذ ما يقتضي لحفر الأرض ، فاطلع على الركاز ، فذهب إلى الشيخ عز الدين بن عبد السلام يستفتيه في عدم إعطاء خمسة لبيت المال ، حسب ما قال له النبي مناماً ، فقال له الشيخ عز الدين : يجب عليك أن تؤدي خمسة لبيت المال ، كما أفئانا النبي ﷺ بقطة ، وفتواه في البقطة ، مقدمة على فتواه في المنام ، نعم إن رؤيا النبي حق ، ولكن يحتمل عدم ضبط الألفاظ تماماً ، فلهذا قال لك : (وأد خمسة لبيت المال) وأنت سمعته يقول (ولا تؤد خمسة) وهكذا قال الفقهاء : لو اختلف المسلمون في آخر يوم من شعبان ، هل غداً من رمضان أم لا ، ثم رأى رجل النبي في نومه ، وسمعه يقول له (إن غداً أول يوم من رمضان ، فصمه وأمر الناس بصيامه) ، لا يجب عليه صيامه ، ذلك لأن الرؤيا التي في المنام ، لا يترتب عليها شيء من الأحكام الشرعية ، ولو كانت حقاً وصحيحة ، هذا إذا كانت لغير الأنبياء أنفسهم ، وأما رؤى الأنبياء أنفسهم ، فهي وحي ، كما في البقطة ، تترتب عليها الأحكام الشرعية بلا خلاف .

سمعتني مرة القسيس الدكتور ستارلنغ المبشر البروتستانت في بلدة غزة أقول نحو هذا الكلام فقال لي : (ومن هذا القبيل ما روينا في سفر أعمال الرسل أن القديس بطرس رأى رؤيا وهو يصلي على السطح ، رأى أنه جاع كثيراً واشتهى

أن يأكل ، وبينما هم يهيمون له ، وقعت عليه غيبة ، فرأى السماء مفتوحة ، ورأى ملحقة نازلة عليه ، عظمة مربوطة بأربعة أطراف ، ومدلاة على الأرض مرسله بجبال منوطة بأطرافها ، وكان فيها كل دواب الأرض والوحوش ، والزحافات وطيور السماء ، وصار إليه صوت : (قم يا بطرس اذبح وكل) - فقال بطرس : (كلا يارب ، لأنني لم آكل قط شيئاً دنساً أو نجساً) فصار إليه أيضاً صوت ثانية : (ما طهره الله لا تدنسه أنت) ، قال القسيس المبشر : وبهذا ألغى التمييز بين الطاهر والنجس من المأكولات الحيوانية ، المذكورة في التوراة ، وكانت هذه الرؤيا في مدينة يافا ، (راجع أ ع ١٠ و ١١) تجد صحة ما قلت لك .

فقلت للمبشر : (إن الرؤيا التي يترتب عليها حكم التحليل والتحرير ، إنما هي رؤيا الأنبياء المعصومين ، لأنها وحي ، وأما القديس بطرس فلا هو نبى ولا هو معصوم عندنا) - فأجابني : (لكن هو عندنا رسول من رسل المسيح ، ومعصوم لأنه لا يتكلم إلا بإلهام الروح القدس) - فقلت له : (لو كان معصوماً ولا يتكلم إلا بإلهام الروح القدس ، لما خصمه في ذلك ونحوه قسم من النصارى ، ولكن المخاصمة وقعت كما ذكره في (أ ع ١١ - ٢) ، وتجد مخاصمات كثيرة بين التلاميذ في أحكام كثيرة ، تسر الإحاطة بها ، ولكن أنت تعلمها من ملحقات الإنجيل) .

(رأيت)

- ٥ -

قال العلامة المصري :

لماذا لم ير يوسف (ع) رؤيا تدل على ماسيحيته من شر .

كانت قد دُرت أشياء على يوسف لا بد منها ، وذلك مثل امتحانه بمراودة

امرأة العزيز إياه ، ثم نسبة المراودة إليه زوراً ، ثم اختباره ثانياً بالنسوة المصريات ثم سجنه ظلماً ، ولم ينذر بشيء من هذه الأشياء ، ولم يرَ عنها في منامه ، ولكنه قدرت له أشياء أخرى ، وذلك مثل سجد إخوته له ، واجتباء ربه إياه ، وتعليمه من تأويل الأحاديث ، وإتمام نعمته عليه ، وهذا النوع قد بشر ببعضه مناماً ، وبشر ببعضه الآخر بلسان أبيه يقظة ، ولماذا هذه التفرقة يا ترى ؟ أعني أنه لم ينذر بما سيصب عليه ، ولكنه بشر بما سيصير له ، وجوابنا على ذلك أن الأفضل فيما كان من قبيل الخبر أن يتشر به الإنسان ويوعده به قبل حصوله له بالفعل ، وذلك لكي يتلذذ بالأمل بحصوله قبل أن يحصل له بالفعل ، وأما ما كان من قبيل الشر فالأوفق أن لا يشعر به أولاً لئلا يتنقص به قبل وقوعه ، وقد قيل : (الوقوع في الشر ولا انتظاره) .

(رأيت)

- ٦ -

قال عبد الملك الكرودي^(١)

رؤيا يوسف الحزم لأحد عشر

كان يوسف قبل ذلك رأى حلماً وهو ابن سبع سنين ، رأى نفسه وإخوته في حقل وقد حزموا حُزْماً ، وإذا حزمته قامت وانتصبت فاحاطتهم حُزْمُهُمْ ، فكانت حُزْمُهُمْ حوالي حُزْمَتِهِ كأعضاء مجلس حوالي رئيسهم ، أو كالدارة

(١) نسبة الى قوم الاكراد

حول الشمس أو الهالة حول القمر ، وحينئذ سجدت حزمته لحزمته ، وقد كان يوسف قص هذه الرؤيا على إخوته ، فلما سمعوها منه أحسوا كأنه صب ماء غالياً على ظهورهم وقالوا له : (أَلَمَلِكُ تَمَلِكُ عَلَيْنَا مَلِكًا ، أَمْ تَتَسَلَطُ عَلَيْنَا تَسَلُطًا ؟) (تك ٣٧ : ٨) وازدادوا بغضاً له من أجل حلمه ومن أجل كلامه .

(أحد عشر ~~سكوكياً~~)

- ١ -

قال الحاج أحمد اللاذقاني ٢ :

علو الرؤيا بعلو النفس

إن للنفوس الانسانية خصائص تتجلى في أعمال الإنسان وأقواله وقلبه ودرسه وأحلامه ، وحركاته وسكناته ، فلكل إنسان رؤيا تناسبه ، وأحلام توافقه ، وطالما دلت الرؤيا ذوي الفراسة على أخلاق الرائيين ، فلذلك ولكون يوسف مرء النفس كبير المقام عالي التصور ، رأى النجوم وجمالها وسجودها له وخضوعها ؛ ثم لذلك ولكون (الريان بن الوليد ملك مصر) كان مهتماً بالشعب والرعية محباً لخير الأمة المصرية ، رأى في نومه البقر التي يكون عليها الحرث ويكون منها الدر ، ورأى سنابل الزرع التي يتوقف عليها نظام الحياة ، إذأ فالنفس ليست تتصور في المنام إلا ما تهتم به في اليقظة . ومن هنا قيل العلة الأصلية للأحلام هي همهم قديم أو حديث ، ومعظم الأحلام تتعلق بالهموم الحاضرة التي يفكر فيها صاحبها بالنهار .

(٢) نسبة الى اللاذقية من بلاد الشام .

أو التي يمتنع عن التفكير فيها ، لأنه يكره عواقب الفكرة بها ، وقبل الختام فإن كلمة (أحد عشر) لم تنزل في كتاب الله إلا مرة واحدة ، وهي التي ذكرت في مقام السجود ليوسف ، إكراماً له ، عليه الصلاة والسلام .

(أحد عشر)

- ٢ -

قال العلامة البيروني (١) :

قداسة عدد ١٢

ويوسف تكون أولاد يعقوب اثني عشر ولداً ، وهذا العدد من الأعداد المقدسة ، التي تكررت في الأمور المهمة مراراً ، واليك بعض الشواهد :

١ - كون رسل المسيح عليه السلام الذين عينهم كانوا اثني عشر رسولاً وهم : بطرس ، أندراوس أخوه ، يعقوب الكبير بن زبدي ، أخوه يوحنا الانجيلي ، ابن زبدي ، فيلبس ، برثولماوس ، توما ، متى المصّار ، يعقوب الصغير بن حلفي ، أخوه لبّاس ، سمعان الفيور ، يهوذا الأسخريوطي الذي كفر بسيدته . فارتدّ ومات مرتداً ، كما في (مت ١٠ : ٢ - ٤) وخلفه متىامس .

٢ - كون أولاد اسماعيل اثني عشر وهم : نَبَايُوت ، قَيْدَار ، أَدَبْمِيل ، مَبْسَام ، مِشْنَع ، دُومَة ، مَسَا ، حِدَاد ، نَيْمًا ، يَطْثُور ، نَافِيش ، وَقْدَمَة . (تك ٢٥ : ١٣ - ١٥) وكما صارت أولاد يعقوب اثني عشر سبطاً فكذا صار هؤلاء اثني عشر قبيلة .

(١) نسبة الى بيروت من بلاد الشام (لبنان)

٣ - كون كتبة الموحى القرآني ، اثني عشر وهم : عثمان بن عفان ، علي بن أبي طالب ، خالد بن سعيد ، ثابان بن سعيد ، الملا بن الحضرمي ، أُبَيّ بن كعب ، زيد بن ثابت ، مُعَاذ بن جبل ، معاوية بن أبي سفيان ، حنظلة الأُسَيْدي ، عبد الله ابن الأرقم وعبد الله بن سعد بن أبي سَرْح ، وهذا الثاني عشر ارتد كما ارتد حوارى عيسى الثاني عشر ، ولكن ابن أبي سرح عاد للإسلام وأما الحوارى فبقي على ردة حتى مات .

٤ - كون عدد النقباء الذين ارسلهم موسى من قادش ليتجسسوا أرض كنعان ، وهي فلسطين - اثني عشر كما قال تعالى ﴿ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ﴾ (٥ : ١٣) ، وهم : شَمُوع ، شافاط ، كالب بن يَفْنَه : يَجْأَل ، هُوشَع بن نون ، فَلَظْطِي ، جَدَّيْئِيل ، جَدِّي ، عَمِيئِيل ، ستور ، نَحْبِيي وَجَأَوَيْل (عد ١٣ : ٤ - ١٥) .

٥ - كون أئمة آل البيت على رأي الشيعة الامامية اثني عشر ، وهم : محمد المهدي الحجة ، بن الحسن العسكري ، بن علي الهادي ، بن محمد الجواد ، بن علي الرضا ، بن موسى الكاظم ، بن جعفر الصادق ، بن محمد الباقر ، بن زين العابدين ابن السبط الحسين ، ثم أخوه السبط الحسن ، ثم أبوها علي بن أبي طالب زوج الزهراء رضى الله عنهم .

٦ - كون البروج اثني عشر وهي : الحَمَل ، الثور ، الجوزاء ، السرطان ، الأسد ، السنبله ، الميزان ، العقرب ، القوس ، الجدي ، الدلو والحوت .

٧ - كون أشهر السنة اثني عشر كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ (٩ : ٣٧) وهي : المحرم ، صفر ، ربيع الاول ، ربيع الثاني ، جمادى الأولى ، جمادى الثانية ، رجب ، شعبان ، رمضان ، شوال ، ذو القعدة وذو الحجة .

٨ - كون العيون التي تفجرت لموسى والأسباط اثنتي عشرة عيناً ، ليكون لكل سبط عين يشرب منها : وذلك بضرب موسى الحجر حينما كانوا في قادش (عدد ص ٢٠) .

٩ - كون عدد الاحجار التي حملها الاثنا عشر رجلاً من الاسباط الإسرائيلية - اثني عشر حجراً ، حملوها على أكتافهم من وسط نهر الأردن علامة على أن هذا النهر قد انفلق لهم ، وهم تحت قيادة يشوع بن نون ، كما انفلق لهم البحر بمصر وهم تحت قيادة موسى عليه السلام (راجع يش ٤ : ١ - ٩) .

١٠ - كون أقل عدد تصح به الجمعة عند مالك بن أنس (ض) هو اثني عشر رجلاً .

١١ - كون ولادة النبي (ﷺ) كانت ليلة اثني عشر من ربيع الأول ، حسبما هو مشهور .

١٢ - كون عدد الرجال الذين اجتمع معهم النبي (ﷺ) في العقبة لأول مرة فأسلموا ، وأرسلهم ليلفوا أهل المدينة - كانوا اثني عشر رجلاً ، وذلك في ابتداء سنة اثنتي عشرة من النبوة ، ثم كون عدد النقباء في الاجتماع عند العقبة لثاني مرة - اثني عشر نقيباً أيضاً ، وكان هذا آخر سنة اثنتي عشرة من النبوة !!!

١٣ - كون الإسراء والمراج كان بعد النبوة باثنتي عشرة سنة ، لأنه (ﷺ) نبي وعمره أربعون سنة وستة أشهر وثمانية أيام - على ما حققه عصرينا الاستاذ الخصري في محاضراته - وكان الإسراء والمراج حين بلغ من العمر اثنتين وخمسين سنة ونصفاً .

١٤ - كونه (ﷺ) خرج في هجرته من قباء الى المدينة المنورة يوم ١٢ خلت من ربيع الأول سنة ٦٣٢ ب . م

١٥ - كون نقباء الدعوة العباسية أيام محمد بن علي بن عبد الله بن العباس - اثني عشر نقيباً ، وهم : سليمان بن كثير الخزازي ، مالك بن الهيثم الخزازي ، طلحة بن زريق الخزازي ، عمر بن أعين الخزازي ، عيسى بن أعين الخزازي ، قحطبة بن شبيب الطائي ، لاهز بن قريظ التميمي ، موسى بن كعب التميمي ، القاسم بن مجاشع التميمي ، أبو داود خالد الشيباني ، أبو علي الهروي الحنفي ، وعمران بن إسماعيل الميعطي ، كما في محاضرات عصرينا الخصري .

١٦ - كذلك الذين بقوا ثابتين مع النبي (ﷺ) في غزوة أحد ، كانوا (١٢) رجلاً، وقد فر من عداهم من المسلمين.

١٧ - كذلك لم يبق مع النبي (ﷺ) حال خطبة يوم الجمعة حين جاء العير من الشام سوى (١٢) رجلاً .

١٨ - كانت مدة مرض المرأة التي استغاثت بالمسيح بنزف الدم - اثني عشرة سنة ، (وذلك أن المسيح عليه السلام بينما كان ماراً في الطريق إذا امرأة نازفة دم منذ اثني عشرة سنة ، قد جاءت من ورائه ومست هُذب ثوبه ، لأنها قالت في نفسها : إن مسست ثوبه فقط شُفيتُ ، فالتفت المسيح وأبصرها فقال : ثِقِي يا ابنة ، إيمانك قد شفاكِ ، فشفيت المرأة من تلك الساعة) (مت ٩ : ٢٠ - ٢٢) وكانت قد أنفقت كل مالها على الأطباء فلم تستفد شيئاً ، بل زادت مرضاً .

١٩ - كون ساعات النهار اثني عشرة ساعة ، هكذا أخذ اليهود قسمة النهار إلى اثني عشر جزءاً عن البابليين أيام سبيهم إياهم إلى بابل ، وظلوا على ذلك إلى يومنا هذا .

٢٠ - لما جاء الإسلام المدينة المنورة كان الذين يكتبون من الأوس والخزرج اثني عشر رجلاً فقط كما ذكره في فتوح البلدان .

٢١ - أتى القرآن الكريم على ذكر النخيل اثنتي عشرة مرة كما يعلم ذلك بالمراجعة .

٢٢ - سورة يوسف نفسها هي السور الثانية عشرة في ترتيب المصحف الشريف وهي السورة المذكورة فيها قصة الإخوة الاثني عشر .

٢٣ - كون الخلفاء في الإسلام اثني عشر خليفة ، في الصحيحين عن جابر بن سمرة أن النبي ﷺ قال : (لا يزال هذا الأمر عزيزاً ، إلى اثني عشر خليفة ، كلهم من قريش) ولفظ البخاري اثني عشر أميراً ، وفي لفظ (لا يزال أمر الناس ماضياً ، ولهم اثنا عشر رجلاً) ، وفي لفظ (لا يزال الإسلام عزيزاً ، إلى اثني عشر خليفة ، كلهم من قريش) ، وهكذا كان ، فكان الخلفاء هم : أبو بكر وعمر وعثمان وعلي والحسن ، ثم تولى من اجتمع الناس عليه ، وصار عز ومنعة ، وهو معاوية ، ثم عبدالملك وأولاده الأربعة ، وبينهم عمر بن عبدالعزيز ، فهولاء هم الإثنا عشر خليفة ، على ما فهمه جمع من العلماء ، وبعض العلماء لم يعد السبط الحسن (ص) لأن مدته كانت قليلة جداً ، لا تزيد عن ستة أشهر ، وكانت في اضطراب شديد ، ولم تكن له ولاية عامة ، وعد بدله (المهدي) من العباسيين ، الذي كان تتبع أهل البدع والزنادقة بقتلهم ، حتى اندفع بذلك شر كبير ، وكان فيه من تعظيم العلم والجهاد ، ما كانت به دولته أحسن دولة العباسيين من جهة الدين ، حتى إن بعض العلماء حمل حديث المهدي - لو صح - عليه ، والله أعلم .

قال بعضهم وهؤلاء الاثنا عشرة خليفة هم المذكورون في التوراة حيث قال في بشارته بإسماعيل : (وسيلد اثني عشر عظيماً) . أصوات المستمعين

(مرchy) لله درك من واسع الاطلاع يا علامة بيروت !

(كوكباً)

- ١ -

قال ترجمان الحق الحموي (١) لي ها هنا كلمتان :

لماذا عبر عن اخوة يوسف بالكواكب

الكلمة الأولى - تقدم للأخ العلامة سليم الخانيونسي في الفصل الثاني من المقدمة أن إخوة يوسف ليسوا بأنبياء ، وأنه أخذ موافقة جميع الأصوات على ذلك ، وعليه فإنما عبر هنا عنهم (بالكواكب) ١ - لأنهم صاروا رؤساء الأسباط ، حيث صار كل - ببط - ينتسب إلى جده ، فيقال : سبط رأوين ، سبط شمعون ، وهكذا إلخ ، ويقولون : الرأويون ، الشمعونيون ، اللاويون ، إلخ فبذلك حصل لهم شهرة صاروا بها كالكواكب .

٢ - لأنهم في آخره أمرهم اعترفوا بذنوبهم وتابوا إلى أخيه وأبيهم وإلى الله فقبِلت توبتهم وصاروا من الصالحين حتى استأهلوا أن يكنى عنهم بالكواكب .

٣ - ليس كل كوكب مضيئاً كما بينه علماء الهيئة وأشار إليه أبو العلاء المعري بقوله :

وعلى الرجال معالم ومجاهل
ومن النجوم غوامض ودراري
٤ - لو قلنا إنهم شبهوا بالكواكب المضيئة لجاز لنا أن نقول إن ضوءهم إنما هو مكتسب من

(١) نسبة الى حماد من بلاد الشام

نسبتهم لأبيهم الشمس ومن أخيههم يوسف المسجود له من الشمس ، كما إن نور النجوم مستفاد من نور الشمس ، هذا ما يجب أن يقال في هذا المقام ، لا أقل ولا أكثر .

ولو كان التعبير بالكواكب يقتضي النبوة لكانت راحيل أم يوسف نبية حيث عُبر عنها بالقمر ، فالاستدلال على نبوتهم بمثل هذه اللفظة هو من قبيل التشيع للمذاهب والآراء ، فالإنسان إذا خامره التشيع لرأي أو نحلة ، استدل عليه بما لا يفيد إلا العناء ، وتعلق بحبال الهوى أو الهواء .

الكلمة الثانية - إنه يغلب على ظننا أن هذه الكواكب كانت (سيارة) ، وهكذا كان حال إخوة يوسف الأحد عشر ، فإنهم سيارون ، كانوا ساروا مع أبيهم من العراق إلى سورية ، ثم إلى فلسطين ، ثم للديار المصرية ، رحلوا إليها أربع رحلات ، هذا ما ظهر لي الآن والسلام عليكم .

(والشمس والقمر)

- ١ -

قال شيخنا العلامة الحلي (١) :

التعبير عن الرجل بالشمس وعن المرأة بالقمر

الشمس أبوه ، والقمر أمه ، كذا أولوه ، وعندني إنه وجيه من وجوه :
١ - إن القمر مقتطع ومقتبس من الشمس ، بواسطة اقتطاعه من الأرض

(١) نسبة الى الحلة من بلاد العراق

المقطعة من الشمس ، كما قال تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ (٢١ : ٣٠) وقال تعالى : ﴿ وَانْشَقَّ
القَمَرُ ﴾ (٥٤ : ١) أي من الأرض ، فالآية ترمز لهذا المعنى ، زيادة عن المعنى
الأصلي ، وهو انشقاقه معجزة لخاتم الأنبياء ﷺ ، فهذا الوجه يناسب ما شاع
من أن المرأة الأولى مخلوقة من الإنسان الأول .

٢ - ثبت فناً أن نور القمر مستفاد من نور الشمس ، كما أن عيشة المرأة وقوام
حياتها عائدة عليهما من سعي الرجل وإنفاقه .

٣ - إن كلمة (قمر) تشعر بالمقامرة ، وهي الملاعبة والتحيل والمراوغة ،
وهذه هي أخص صفات المرأة . وأما كلمة شمس فهي تشعر بالشموس وهو المنع
والقوة ، يقال شمس الفرس يشمس ، فهو شمس ، ورجل شمس أي صعب الخلق
وهذه المعاني تناسب الرجل .

٤ - سلطان القمر بالليل ، وسلطان الشمس بالنهار ، وذلك في مقابلة أن سلطان
المرأة يكون ليلاً ... وسلطان الرجل يكون نهاراً بالأتعاب والعمل
وتحصيل الفوائد .

٥ - من أسباب تأويل الشمس يعقوب أنه رئيس العائلة التي تحف به وتعتمد
عليه ، كما أن الشمس هي مركز النظام الشمسي ، وأن السيارات السابحة في سمواتها
ومداراتها تحتف بالشمس وتدور حولها من كل جانب ، ومن جملة تلك السيارات
القمر نفسه ، فهو معتمد على الشمس ، كما من أسباب تأويل القمر بالمرأة أن المرأة
تعتمد في قوام حياتها وأسباب معيشتها وراحتها على رجلها بما فضله الله به ، وبما ينفعه
عليها من أتعابه وعرق جبينه .

٦ - إن القمر أضعف نوراً من الشمس ، كما إن المرأة أضعف من الرجل ، وإشارة إلى هذا الضعف فيها وتلك القوة في الرجل يقول الله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً ، وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً ﴾ (٧١ : ١٦) ، عبر عن الشمس بالسراج ، ولفظ السراج يحضر في النفس شعاعه المتقد ، فكأنه نور منبعث من نار ، وأيضاً فإن القمر نور محض يكاد أن يكون بارداً ، بخلاف الشمس فإنها تجمع إلى النور الحرارة ، فلهذا عبر عن الرجل بالشمس ، وعن المرأة بالقمر .

٧ - إن بعض الأمم العتيقة كانت تعتقد أن الشمس ذكر والقمر أنثى والنجوم تولدت من زواجهما .
بخ ، بخ

(والشمس والقمر)

- ٢ -

قال الامام الزقازيقي (١) :

من هو المقصود بالقمر في رؤيا يوسف

قيل إن هذا القمر هي أمه الحقيقية راحيل ، وإنها كانت حية بدليل ﴿ آوَى إِلَيْهِ أَبُوهُ ﴾ (٩٩ع) ﴿ وَرَفَعَ أَبُوهُ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ ، (ع ١٠٠) واللفظ متى أطلق انصرف لعناء الحقيقي ، واستدرك عليه بأن التاريخ يثبت صريحاً أن أمه راحيل كانت ماتت وعمره عشر سنين أو إحدى عشرة سنة ، وقد أجمع أهل التاريخ على أن والدته راحيل لم تسافر لمصر ولم تسجد له ، بل

(١) سيرة إلى الزقازيقي من بلاد القطر المصري

اتفقوا على انها لم تكن موجودة حينما رأى يوسف هذه الرؤيا ، فلذلك يجب تأويل « القمر » بخالته « ليثة » شقيقة أمه ، واستدرك عليه بأن خالته ليثة ماتت ودفنت في مغارة المكفيلة (تك ٤٩ : ٣١) أى الغار الشريف في حبرون قبلما رحلوا لمصر وهذا أيضاً يجمع عليه بين المؤرخين ، فلذلك قيل : إن القمر أمه المجازية التي هي « بلهة » جارية والدته وهي أيضاً كافلته ومربيته بعد موت أمه ، حيث انتقل تخليمتها وصار هو وأخوه بنيامين ينامان فيها تحت نظر تلك الجارية ، وكانت تعطف عليه وعلى أخيه بنيامين عطف الأم الرؤوم على ولدها ، وهذا القول الثالث هو المنصور ، وقد سمى النبي (ﷺ) حاضنته « بركة الحبشية » أما ، إذ قال يوماً للصحابه : « هذه أمي بعد أمي » ؛ وأما القول الأول فهو في غاية الضعف ، والدليل على ذلك زيادة عما قاله المؤرخون أنها لم تذكر في تضاعيف القصة ، ولعمري لو كانت حية لذكرت في بعض المواضع ، لا سيما عند استئذانهم أباهم في أخذه معهم ليرتع ويلعب ، أو عند نعيمهم يوسف لأبيهم ، أو عند طلبهم لإرسال بنيامين لمصر ، أو عند رجوعهم من مصر وقولهم لأبيهم : ﴿ إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ ﴾ (ع ٨١) - ولعمري لو كانت حية لكان يوسف اجتهد على مجيئها لمصر أكثر جداً من اجتهداه على مجيء بنيامين ، ولكان يوسف يقول : هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأمّه ؟ ، لأنها تتأثر أكثر مما يتأثر ابنها بنيامين ، وأخيراً لعمري لو كانت حية بقيد الحياة لنقل عنها أنها قالت : « يا ألف أسفاً على يوسف » ، ولكانت أرسلت بدل الدمع دماً ، وفقاً لآن عدم ذكر أمه في هذه المواضع وأشباهاها لهودليل ناصع على موتها قبل هذه الحوادث .

(والشمس والقمر)

- ٣ -

قال الحاج سميع المكي :

هل سجد أبوا يوسف له

يجوز أن تكون الواو عاطفة في « والشمس والقمر » ، وعليه فالشمس والقمر من جملة الساجدين ، وهذا هو المشهور المتبادر ، ويجوز أن تكون بمعنى « مع » وهي واو المعية ، فهو منصوب على إنه مفعول معه ، وعليه فالشمس والقمر لم يكونا ساجدين ، بل كانا مصاحبين للمسجود له أو للساجدين ، حين السجود ، أي كانا حاضرين وقت سجود الأحد عشر كوكباً ، والمعنى : « كنت مصاحباً للشمس والقمر وقت رؤيائي الأحد عشر كوكباً ساجدة لي » ، أو كانت الكواكب الأحد عشر مصاحبة للشمس والقمر حين سجودها لي .

ونظيره قولك : أبصرت ثلاثة فرسانٍ والجبلَ مسرعين في العدو ، فليس الجبل مشاركاً للفرسان في العدو ، وإنما هو مصاحب لها حين عدوها . وقد ينتصر هذا الاحتمال الثاني بأن مقام الأبوة كالأمومة أرفع من أن يشارك به السجود للابن ، لأن الشرائع جميعها ترفع شأن الأب للدرجة سامية جداً ، بحيث تكاد أن تساويه بالله تعالى ، الذي يحل عن المساوي والمُداني ، انظروا قوله تعالى : ﴿ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ ﴾ (٣١ : ١٤) وقوله تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ (١٧ : ١٦) ،

﴿واعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ (٤ : ٣٥) ،
﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذِّلِّ﴾ (١٧ : ٢٤) .

وفي سفر اللاويين (من جَدَّفَ على اسم الرب فإنه يُقتل) (لا ٢٤ : ١٦)
و (كل إنسان سب أباه أو أمه فإنه يقتل) (لا ٢٠ : ٩) .

ثم إنه في آخر القصة يفيد أن أبويه لم يسجدا له ، قال تعالى : ﴿ورفع أبويه
على العرشِ وَخَرَّوْا لَهُ سُجَّدًا﴾ (ع ١٠٠) فهكذا يكاد يكون صريحاً في أن
الساجدين هم الإخوة فقط ، وأما أبواه فعوضاً عن أن يسجدا له رُفِعَا على العرش .

ثم إن يوسف في رؤياه الأولى وهي سجود الخزم الأحد عشر التي نقلها
المفسرون والمؤرخون عن وهب بن منبته ، وهي مذكورة بالصراحة في سفر
التكوين (تك ٣٧ : ٥ - ٨) ، - هذه الحادثة لم يذكر فيها سجود أبويه ، ولكن
إخوته فقط ، والأصل اتحاد مضمون الرؤيتين ، كما اتحاد مضمون رؤيبي ملك مصر
وهي البقرات والسنابل ، فإن مآلهما واحد ، لا تزيد رؤيا عن رؤيا شيئاً ، ولذلك
لما ورد في سفر التكوين أن الإخوة الأحد عشر سجدوا ليوسف مرتين (تك
٤٣ : ٢٦ و ٤٤ : ١٤) لم يذكر سجود أبويه معهم ، لا في المرة الأولى ولا
في المرة الثانية .

والحاصل أن رؤيا يوسف الأولى تأولت حين لم يكن أبوه وأمه حاضرين
معه ، فلذلك لم يذكر ، وأما رؤيا يوسف الثانية فتأولت وقد كان أبواه حاضرين
مع الإخوة فلذلك ذكر ، هذا هو تحقيق المقام .

• (تصفيق حاد متواصل)

(وَأَيُّهُمْ لِي سَاجِدِينَ)

- ١ -

قال الاستاذ المدني (١) :

التطرية في القرآن

قوله « رأيت » في أول الآية و « رأيتهم » في آخرها أعيد على سبيل التطرية ،
للطول بالمفاعيل ، وهذه الطريقة معهودة ومألوفة في كلام العرب ، وفي كتاب الله
تعالى ، فمن ذلك :

(١) - ما في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ ،
مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ ، وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا ، فَهُمْ مِنْ آَمِنَ ،
وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ - وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا ، وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ
مَا يُرِيدُ ﴾ (١٥٣ : ٢) .

(٢) - ما في قوله تعالى : ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا ،
وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا - فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ
الْعَذَابِ ﴾ (١٨٨ : ٣) .

(٣) - ما في قوله تعالى : ﴿ اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي
ذِكْرِي - اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ (٢٠ : ٤٢ و ٤٣) .

(٤) - ما في قوله تعالى : ﴿ أَيْعِدُكُمْ أَنْ تَكُونَ إِذَا مِتُمْ وَكُنْتُمْ تَرَابًا
وَعِظَامًا - أَنْكُمْ مُخْرَجُونَ ؟ ﴾ (٣٥ : ٢٣) .

(٥) - ما في قوله تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ، وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ، فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ - قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا، فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ نَدَارٌ، فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ .. الْح * (٢ : ٣٦ - ٦٨) .

(٦) - ما في قوله تعالى: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ؟ لَوْ كَانَ فِيهَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا، فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ، لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ، - أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً؟ قُلْ: هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ، هَذَا ذِكْرٌ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ، فَهُمْ مُعْرِضُونَ * (٢١ : ٢١ - ٢٤) .

(٧) - ما في قوله: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ، وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ، وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ، وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ، أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ، أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ، أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ، أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ، أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ، أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ، أَوْ مَمْلَكَتِكُمْ مَفْصَلِحَهُ، أَوْ صَدِيقِكُمْ - لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا * (٢٤ : ٦١) .

الى غير ذلك من الشواهد القرآنية التي تربو على خمسة عشر موضعاً فيما يراه العبد الحقير، وقد نبه على بعضها صاحبها الكشف والانتصاف .

وبعد فأختم هذا المقال بالإعراب عن أسمى احتراماتي للاخوان الحاضرين* وتقديمي لهم تحياتي والسلام .

(رأيتهم لي ساجدين)

- ٢ -

وقال الشيخ محمد بن صالح من علماء الطائف :

اعتراض ثم تسليم

سمع أبوه ذلك منه ، فأعظم هذه الرؤيا مبدئياً ، وأكبر هذا المنام ، فانتهره وقال له : (ما هذا الحلم الذي حُلِمْتَ ، هل تأتي أنا وأمك وإخوتك نسجد لك إلى الأرض ؟) (تك ٣٧ : ١٠) ، ما أنت وذاك يا غلام ! ثم سكت هنيهة يفكر ، فثاب إلى صوابه ورآى أن لا مانع من ذلك : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ ، تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ ، وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ، يَبْدَأُ الْخَيْرُ ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢٦ : ٣) ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٥٧ : ٥) فاعتقد صدق كلام ولده وإمكانه ، وتنسّم فيه الخير وسلم له ، وتهلل وجهه سروراً ، لا يتهلل به إلا وجه أب لابنه حينما يسمع منه ما يعود على ولده بالخير فحفظ الأمر حفظاً تسليماً وإذعاناً ، وصار له من المنتظرين .

(رأيتهم لي ساجدين)

- ٣ -

وقال الشيخ ابن نصيف من علماء جدة :

معنى السجود

السجود التطامن ، وكل شيء ذل فقد سجد ، وسجد البعير : خفض رأسه

عند ركوعه ، وسجد الرجل وضع جبهته بالأرض ، وسجد انتصب في لغة طيبي ، لأن انتصاب رجل أمام آخر خضوع له منه ، وكل هذه المعاني لغوية يجوز حمل الكلمة الشريفة ههنا على أي منها ، وأما السجود في الشرع فهو عبارة عن هيئة مخصوصة ، هذا ما نتعلمه من معاجم اللغة .

لاتقص الرؤيا على العدو

آ (٥) ﴿ قَالَ : يَا بُنَيَّ ، لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ، إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الخامسة فقام عبدالمعظيم التركي وقال :

عرف يعقوب عليه السلام دلالة الرؤيا على أن يوسف يبلغه الله مبلغاً عالياً ، وكان يعلم كراهة إخوته العشرة له ؛ تخاف عليه حسدهم وبغيهم ، فلذلك نصحه و (قال) له بلسان النصيحة ممزوجاً بالفرح والسرور ﴿ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ ﴾ هذه ﴿ عَلَى ﴾ أحد من ﴿ إِخْوَتِكَ ﴾ العشرة ﴿ فَيَكِيدُوا ﴾ - منصوب بإضمار ﴿ إِنَّ ﴾ والمعنى إن قصصتها عليهم نصبوا - ﴿ لَكَ كَيْدًا ﴾ أي مكرراً ، بسبب تسويل الشيطان لهم ، وإن واحداً من إخوتك أعرفه جيداً فهو شديد العداوة لك فلا يحتاج في كيدك إلى أكثر من دعاية شيطان صغير من تلاميذ إبليس المبتدئين في صنعة الفساد ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ ﴾ من قديم الزمان ﴿ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ ظاهر العداوة ، لما فعل بآدم وحواء ، ولقوله : ﴿ لَا قُعْدَنُ ﴾ لهم صراطك المستقيم ﴿ (٧ : ١٥) ﴾ فهو يحمل على الكيد والمكر وكل شر ، ليورط

من يحمله - ولا يؤمن أن يحملهم - على مثله ، ومن هذه الوصية نعلم أن يوسف لم يكن ابناً فقط ليعقوب بل وتلميذاً أيضاً .

(قال : يا بُني ...) الخ

- ١ -

وقال سيدي أبو العباس من طرابلس القرب :

نصح يعقوب لابنه يوسف بأن لا يقص رؤياه على اخوته

كان يوسف رأى قبلاً في منامه الحيزم العشرة فقصها على إخوته ، فسدوه ، واغتاظوا منه ، وهو لو يعلم أنهم يعتاضون منه ما حكاها لهم ، ولكنه لصغر سنه ، إذ كان ابن (١٢) سنة قصها عليهم ، والسذاجة الفطرية ظاهرة في وجهه ، وسلامة النية وطهارة القلب باديتان على لسانه ، وقد أصاب المصورون إذ شبهوا الأطفال بالملائكة ، فإنهم مثال الطهارة ، وعنوان صدق الالهجة ، ومראה سلامة الضمير ، فهم لا يخفون عواطفهم ، ولا يكتُمون ما في نفوسهم ، ولذلك كانت الشعائر الطبيعية ظاهرة فيهم ، حتى لقد اعتبر بعض الفقهاء شهادة الصبيان كقرينة على صدق الدعوى ، وإمارة على صحتها .

لذلك لما سمع يعقوب هذه الرؤيا ما عثم أن نصحه قائلاً : (يا بابوس ، ليست رؤياك هذه مما لا يؤبه له ، بل هي ذات شأن ذي بال ، وأن الأمر جلل ، وأنا شيخ عركني الدهر وعركته ، وعلمتني التجارب) ، ثم ظهرت على وجهه علامات الاهتمام بما زجها التكم فقال بصوت منخفض : (أذكر يا بابوس إنك كنت رأيت الرؤيا الأولى ، فقصصتها على إخوتك ببساطة وسلامة قلب ، فخذوا عليك .

وحسدوك من حيث لا تشعر، وكأني بك لفضاضة فتوتك، وحادثة سنك، لم تعلم من حسد إخوتك ما علمته هذه الشبهة، ولم تعرف من حقدهم عليك ما عرفه أبوك الشيخ، فالأولى انقضت، وقد سبق السيف العذل، فأما في هذه المرة وقد بلغت سن (١٧) سنة، وحيث أن المؤمن لا ينبغي أن يجعل مجالاً لأن يلدغ من جحر مرتين، فأرغب إليك أن لا تكشف إخوتك بهذه الرؤيا، بل ولا لغيرهم، فإن السر متى تجاوز الاثنين شاع، فلا تجعل هذا السر يتجاوز شفقتك هاتين بل اجمله تحت طي الكتمان):

تحرز من صديقك كل يوم وبالأسرار لا تركزن اليه
سأمت من العدو فما دهاني سوى من كان معتمدي عليه

(يا بابوس، رؤياك هذه خير من حُمر النعم، فاستعن على تحقيقها بكتماها، لاسيما عن إخوتك، لأنني لست آمن عليك من سورتهم، ومبادرتهم إليك بسوء. إذ أيدت الحوادث السابقة، وعلمت التجارب السالفة، أنهم لا يريدون لك الخير، فهم ولا ريب يعملون الحيلة، ويدبرون المكيدة، ويستنبطون الخدعة، ويقدمون على الايقاع بك، ويسرعون في بوارك، هذه وصيتي إليك فلا تسفليها، أقول ذلك والأسف ملء فوادي، لأنه كان يجب أن لا يكون بين الإخوة أدنى عدا، ولكن هكذا اقتضت الظروف، لأمر يعلمه الله تعالى، وإنه والله ليعز عليّ تحذيرك من إخوتك، لولا أن الخوف منهم أمر واقع، ولولا إن حسدهم لك أمر محسوس، يكاد يلمس باليد، ولولا أنه يجب على الماقل الاحتراس والأخذ في أسباب الحيلة والتوقي من المكروه، ما كنت لفظت أمامك من هذا القليل بيئت شفة).

هذا مرمى كلام يعقوب لولده ، وههنا تذكر قول أبي العلاء المرمي :
 خَفَّ من تودَّ كما تخاف معاديا وتَمَارَ فيمن ليس فيه تماري
 فالرَّزءُ يبعثه القريبُ ومادري مُضَرٌّ بما تجني يدا أغار^(١)
 « مرعى »

(يا بُنَيَّ)

- ٢ -

قال العلامة الحلبي^(٢) :

التصغير في اللغة وأنواعه

من سنن العرب تصغير الشيء على وجوه : فمنها تصغير تحقير كقولهم : رُجِيلٌ
 ودَوِيرُهُ ، ومنها تصغير تكبير كقول الأنصاري : أنا جُدَيْلُهَا الْمُحَكِّمُ ،
 وعُدَيْقُهَا الْمُرَجَّبُ ، ومنها تصغير تنقيص كقولهم : لم يبق من بني فلان إلا
 بُيُوتٌ ، ومنها تصغير تقريب كقولك : جاءني فلان قُبَيْلَ الظَّهِيرِ ، ومنها تصغير
 استعذاب كما قال :

ما قلتُ حُبَيْتِي من التحقير بل يعذب اسم الشيء بالتصغير
 ومنها تصغير إكرام ورحمة كقولهم : يا أَخِيَّ ويا أَخِيَّةَ ، ويا بُنَيَّ ويا بُنَيَّةَ ،
 ومافي الآية من هذا القبيل ، ربما يقال صغره هنا ليبين له أنه صغير فمن جهة
 يستحق أن يشفق عليه ويرحم ومن جهة أخرى ينبغي له أن يسمع ما سيلقى عليه
 من الوصية الأبوية الصادرة من فم شيخ مجرب مُحَنِّك .

(١) أغار فقا عين أخيه مضر وهرب

(٢) نسبة الى بلدة حلب من بلاد الشام (سوريا)

(يابني)

- ٣ -

قال الفاضل المقدسي ^(١) :

الحكم المقتبسة من الآية

تتعلم من هذه الآية الأمور الآتية :

- ١ - انه ينبغي الأب أن يدلي بالنصح لابنه ، ويحذره ممن يظن أنهم ربما يؤذونه ولو كانوا أقاربه .
- ٢ - انه يجب لذوي الفضل ان لا يتظاهروا بمفاخرهم وفضائلهم إذا خافوا من أهل الحسد شراً .
- ٣ - ان الاخوة ربما اتفقوا كلهم على إيذاء أخ واحد من بينهم فيجب للانسان أن يكون على حذر من كل الناس .
- ٤ - ان للشيطان سلطة على كل الناس حتى أولاد الأنبياء ، حاشا للأنبياء أنفسهم .
- ٥ - إن تعدد الزوجات ربما أثار عداً ينتشر من الضرائر الى أولادهن .
- ٦ - ان أهل الفضل والنبيل مُحَسَّدُونَ من قديم الزمان .
- ٧ - ان الحسد قد يقع ممن هم في سن الشيوخ لمن هو في سن الفتيان الصغار ، لأن سن رأوين مثلاً كان عند هذه الحادثة على أقل تقدير (٣٦) سنة ، وهكذا يقال في شعمون ولاوي ويهوذا وسواهم بما هو المناسب ، ولكن يوسف كان عمره على أكثر الروايات (١٧) سنة .

(١) نسبة الى بيت المقدس في فلسطين

(يابني)

- ٤ -

قال المحقق البليسي (١) :

خطاب الاستعطاف بين الأقرباء

خاطب يعقوب يوسف بذلك تحريكاً لسلسلة النسب وتذكيراً برابطة البنوة وإرشاداً لما على الابن من وجوب سماع نصيحة الأب ، ونظيره ما في قول لقمان لابنه : ﴿ يابني لا تشرك بالله ، إن الشirkَ لظالمٌ عظيمٌ - إلى أن يقول - يابني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله ، إن الله لطيفٌ خبيرٌ ، يابني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر ، واصبر على ما أصابك ، إن ذلك من عزم الأمور ﴾ (٣١ : ١٣ - ١٧)

ثم ما في قول إبراهيم لولده الذبيح اسماعيل : ﴿ يابني إني أرى في المنام أني أذبحك ، فانظر ماذا ترى ؟ قال يا أبتِ افعل ما تؤمر ، ستجدني إن شاء الله من الصابرين ﴾ (٣٧ : ١٠٢)

ثم ما في قول يعقوب لأولاده وهو في شرقية مصر إذ حضرته الوفاة : ﴿ يابني إن الله اصطفى لكم الدين ، فلا تموتنَّ إلا وأنتم مسلمون ﴾ (٢ : ١٣٢)

ثم ما في قول إبراهيم لوالده آزر : ﴿ يا أبتِ ، لِمَ تعبدُ ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً الخ ﴾ (١٩ : ٤٥) وبالعكس ما صدر من

(١) نسبة الى بليس من بلاد مصر

آزَرَ لابنَه إِذْ ﴿ قَالَ : أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ؟! لَسْتُ لَمْ تَنْتَهَ لِأَرْجَمُ نَكَ .. وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾ (١٩ : ٤٦) .

ثم ما في قول هرون وهو يخاطب أخاه ويستعطفه إِذْ ﴿ قَالَ : ابْنَ أُمِّ ، إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي ، فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ ، وَلَا تَجْعَلْنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (٧ : ١٤٩) وبمكسه خطاب أخيه موسى له إِذْ ﴿ قَالَ يَا هَرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَنْ لَا تَتَّبِعَنِ ، أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ؟ ﴾ (٢٠ : ٩٢ و ٩٣) ، فموسى خاطب أخاه باسمه الشخصي ، ولم يرد أن يخاطبه باسم « الأخ » مع إن هرون أكبر منه بأربع سنين ، لأنه متكدر منه أيمًا كدر ، وأما هرون فخاطب موسى بابن أمه ، ليدكره برابطة الأخوة ، ويحرك منه سلسلة انتسابه إليه ، كي يتحنن ويعطف عليه .

(لا تفحص)

- ١ -

قال الشمس التبريزي : (١)

بعض العداوات التاريخية التي تشبه عداة اخوة يوسف له

كأنني بسيدنا يعقوب كان في تلك الساعة يحيط الشريفة بأصابعه ، ويفتكر في مصداق هذه الرؤيا ونظامها وقد صار بين عاملين ، الأول ترك تحذير يوسف لئلا يكون ذلك حاملاً له على كرههم ، في الوقت الذي هو فيه خالي الذهن

(١) نسبة الى تبريز من بلاد فارس (ايران)

من كل كراهة ، والعامل الثاني الرمز اليه بعداء إخوته له ليحذرهم ، ويتحفظ من غوائلهم ، والنصيحة من الإيمان ، وبعد التفكير العميق فضّل الجري مع العامل الثاني ، لا سيما وقد يكون يوسف عرف شيئاً من حسد إخوته له من قبل ، فإن أباه كان أحبه أكثر من سائر بنيه ، لأنه ابن شيخوخته ، فصنع له قميصاً ملوناً ، فلما رأى إخوته أن أباه أحبه أكثر من جميع إخوته أبغضوه ، ولم يستطيعوا أن يكلموه بسلام ، لا سيما وقد حلّم حلماً وأخبر به إخوته ، فازدادوا بغضاً له ، وصاروا ينظرون اليه نظرات الحقد الموحدة ، ويسمونونه مرة « الولد المفلور » ويدعونونه مرة « صاحب الأحلام » يذكرون ذلك استهانة به على سبيل التهكم ، وكانوا يرقبونه ليقوموا به ، وكم كان حكي معهم أبوم ووعظهم بأنه فتى صغير لا ينبغي لإخوة مثلهم كبار أن يجمعوا كيدهم ، ويتفقوا على إغاظته ، ولكن - مع الأسف - لم ينجع فيهم كلامه ووعظه ، ولم يقع في نفوسهم :

إنما تنجح المقالة في المرء إذا صادفت هوى في الفؤاد
وإذا الحلم لم يكن في طباع لم يُحلّم تقسّم الميلاذ
(ابو العلاء الماري)

وهذا ما جدا بأبيه أن ينصح له بجمل هذا المنام الثاني تحت طي الكتمان

ثم نحن نعلم من التاريخ :

١ - حادثة قايين^(١) وهاييل ولدي آدم من حواء ، فهما رغباً عن كونهما أخوين شقيقين ، ابني أول نبي على وجه الأرض ، (فيما هو المشهور وعلى رأي الجمهور) ، فقد قتل أولهما ثانيهما .

٢ - نعلم العدااء والخلاف الذي ظهر من ابن نوح ومن امرأة نوح له عليه السلام ، فابنه كان عملاً غير صالح ، ولم يحفظ لأبيه حق الأبوة ، وامراته كانت

مناقة خائنة ، كما أن زوجة لوط كتلك نفاقاً وخيـانة (٦٦ : ١٠) ولم يحفظا لزوجيهما حق الزوجية .

٣ - نعلم إن آزر كان العدو الألد لولده إبراهيم عليه السلام .

٤ - نعلم من التاريخ ما حَدَّث من غيرة ساراي من هاجر وولدها إسماعيل حتى الجأت إبراهيم عليه السلام لنقلها الى جزيرة الحجاز .

٥ - نعلم من التاريخ ماذا صار من عيسو مع أخيه يعقوب من العداء الشديد ، حتى هرب يعقوب من وجهه للعراق ، فهذه الحوادث وأشباهاها تجعل عداء اخوة يوسف له ليس بالأمر الغريب .

والخلاصة ، إننا نعلم يقيناً ان يعقوب ويوسف عليهما السلام كتما أمر هذه الرؤيا بتاتاً ، وبعد ذلك فهل بلغ خبرها مسامع إخوته أم لا ؟ لنا أن نقول يحتمل أنه لم يبلغهم خبرها بالمرة ، وإنما كرهوه واجتووه وألقوه في غيابة الجب ، لداعي الحسد والغيرة من جراء محبة أبيه له أكثر منهم ، ويجوز أن يكون بلغهم خبر هذه الرؤيا من بعض الخدم الذين سمعوا المحاورة التي جرت بين أبيه حينما قص عليه رؤياه ، سمعوا ذلك ، ولم يكن يعقوب ولا يوسف يشعران بوجود أحد من الخدم ، فحمل هذا الخادم خبر رؤيا يوسف لإخوته ، فزادوا له بغضاً على بغض .

(لا تفحص .. الخ)

- ٢ -

قال استاذنا سعيد الدمشقي العماري (١) :

وجوب اطاعة الابن للأب - الوصايا العشر في التوراة والقرآن

لجأ يوسف لأبيه ورجع اليه ليستطلع فكره ، ويعمل بما يشير اليه ، فأوصاه

(١) نسبة الى حي العمار في دمشق (سورية)

أن لا يطلع إخوته على رؤياه ، فصدع بأمر أبيه وعمل على إطاعته ، لأن إطاعة الابن للأب من أوكد الفرائض المقرونة بفرائض الله تعالى ، وقد جعلت من الوصايا العشر التي جاءت في التوراة وهي : (لا يكن لك آلهة أخرى أمامي ، لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ، صورة ما ، مما في السماء من فوق ، وما في الأرض من أسفل ، وما في الماء من تحت الأرض ، لا تسجد لهم ، ولا تعبدهم ، لأنني أنا الرب آلهك اله غيور ، أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع من الذين ينفضونني وأضع إحساناً إلى ألوف من محبي موحافظي وصاياي ، لا تنطق باسم الرب آلهك باطلاً ، لأن الرب لا يرى من نطق باسمه باطلاً ، احفظ يوم السبت لتقدسه .. أكرم أباك وأمك ، كما أوصاك الرب الهك لكي تطول أيامك ، ولكي يكون لك خير على الأرض التي يعطيك الرب الهك ، لا تقتل ، ولا تزني ، ولا تسرق ، ولا تشهد على قريبك شهادة زور ، ولا تشته امرأة قريبك ، ولا تشته بيت قريبك ولا حقله ولا عبده ولا أمتة ولا ثوره ولا حماره ولا كل ما لقريبك) (ث ٥: ٧-٢١) وقريب منه ما في (خر ٢٠: ٣-١٧) ونظيره عندنا الوصايا العشر المدرجة في قوله تعالى : ﴿ واعبدوا الله ولا تشرکوا به شيئاً ، وبالوالدين إحساناً ، وبذي القربى واليتامى والمساكين ، والجار ذي القربى ، والجار الجنب ^(١) والصاحب بالجنب ، وابن السبيل ، وما ملكت أيمانكم ، إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً ﴾ (٤ : ٣٥) والوصايا العشر المنتظمة في قوله تعالى : ﴿ وإذ قال لقمان لابنه (وهو يعظه) : يا بني ، لا تشرک بالله ، إن الشرک لظلمٌ عظیم ، ووصینا الإنسان بوالديه ، حملاً لمتة أمه وهنأً على وهنٍ ، وفصاله في عامين : أن اشکرن لي ولوالديک ، الي المصير ، وإن جاهدک علی أن تشرک بي ، ما ليس لك به علم ، فلا تطعهما ،

(١) وهو الجار الذي جاورك من قوم آخرين ، ليس من اهل الدار ولا من اهل

وصاحبهم في الدنيا معروفاً ، واتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ، ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ، يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ ، فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ ، أَوْ فِي السَّمَوَاتِ ، أَوْ فِي الْأَرْضِ ، يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ، يَا بُنَيَّ : أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ ، وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ ، إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ، وَلَا تُصْعَقْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ، وَلَا تَمَشْ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ، وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ، وَاعْظُضْ مِنْ صَوْتِكَ ، إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿ (٣١ : ١٣ - ١٩ .

(اخوتك)

- ١ -

قال الشهاب احمد من علماء سنغافورة (١) :

المناوئون ليوسف من اخوته - التنافس بينهم

لو قال قائل : أراد من كلمة « اخوتك » الاخوة المناوئين له المتألبين عليه الذين كان يرأسهم شمعون ، فليس منهم بينامين قطعاً كما هو واضح ، بل ولا راويين ولا يهوذا على الراجع ، ولكن يظهر انه أراد عموم الإخوة العشرة إجمالاً ، سداً لباب الفساد بالمرة ، وطرداً للكلام على وتيرة واحدة ، لأن الوقت ليس وقت تفصيل ولا تشريح .

هذا واننا نعلم من التاريخ ، ومن قرائن الأحوال انه كان يوجد شيء من

(١) سنغافورة إحدى مدن شبه جزيرة ملاقا في الهند الصينية .

التنافس والتناظر بين إخوة يوسف العشرة الكبار ، وانه لم يكن بعضهم مخلصاً لبعض ، كيف وليسوا كلهم من أم واحدة ، بل كانت رأوين وشمعون ولاوي ويهوذا ويساكر وزبولون من أمّ وهي « ليئة » وكان دان ونفتالي من أمّ أخرى هي « بلهة » وكان جاد واشير من أمّ ثالثة هي « زلفة » كما كان يوسف وبنيامين من أمّ هي « راحيل » ، فالعشرة الأولى الكبار لم يكونوا من أم واحدة ، ولم تكن ميولهم وعواطفهم واحدة ، وبالتالي لم يكونوا متفقي الكلمة ، ولم يكونوا يداً واحدة ، ولا على قلب واحد ، ولكن جرت العادة أن الأعداء يتصاحفون إذا أصيبوا جميعاً بمصيبة نزلت على رؤوسهم ، وهؤلاء الإخوة العشرة اجتمعوا في مصيبة واحدة ، هي أن أباهم قد جعلهم في حبه إياهم في الدرجة الثانية ، وأحب يوسف وبنيامين في الدرجة الأولى ، فهذا ما جمع كبتهم ، وألف نوعاً بينهم ، وجعلهم يشعرون بالزوم مصافاة بعضهم لبعض ، وذلك طبعي في جسم العمران ، فالتناس لا يزالون في خصام ونفار ، أو في تنافس وتناظر ، حتى يصيبهم سوء على السواء ، ويقعوا جميعاً تحت ردم واحد ، فتراهم قد تألفت قلوبهم ، وأغضوا عن السوابق .

(فيكيدوا لك كيداً)

- ١ -

قال الشيخ مضيوف الحانوني (١) :

تعريف الكيد

أي يتكلمون معك بكلام حسن ، وهم في طيه يضمرون لك سوء ، ويفعلون

(١) نسبة الى بيت حانون من أعمال فلسطين .

ظاهر الفعل الجميل ، وهم يرصدون لك الانتقام ، وهم أحرىء بذلك كله وأكثر:

فلو خبرتهم الجوزاء خبري لما طلعت مخافة أن تُكادا

« والكيد » بهذا المعنى من صفات العاجز الذي يحتال على عدو له قوي لا يقدر على مصارحته بالبطش ، ولا مصارحته بالانتقام ، فيظهر له رفقا ولين جانب ، وهو في خلال ذلك ينصب له حبال الشتر حتى يرتطم فيها ، وربما استعمل « الكيد » في الضرر والإيذاء ولو علنا ظاهراً .

وبالحقيقة إن عمل اخوته معه كان بحسب مبدئه سرياً تحت طي الكتمان ، ولكنه بحسب غايته صار جهرياً ، فوق رؤوس الأشهاد .

و « الكيد » في اللغة يكون مذموماً وممدوحاً ، وإن كان يستعمل في المذموم أكثر ، قال تعالى : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ (ع ٥٢) ، فخص الخائنين تنبيهاً على أنه قد يهدي كيد من لم يقصد بكيده خيانة ، وقال تعالى : ﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ، فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ الْمَكِيدُونَ ﴾ (٥٢ : ٤٢) . وسميت الحرب كيداً ، لما فيها من الاحتيال والاجتهاد ، ومنه حديث ابن عمر : « إن رسول الله (ﷺ) غزا غزوة كذا ، فرجع ولم يلق كيداً » أي حرباً ، سميت بذلك لما فيها من الختل والخديعة ، قال أبو العلاء المديني :

إذا رام كيداً بالصلاة مقيمها فزار كها عمداً إلى الله أقرب

(ان الشیطان .. الخ)

- ١ -

قال الدواکة الدمشقي (١) :

الشیطان عالم غیبي ضار بالإنسان

عداوة الشیطان للإنسان قديمة العهد ، فقد كانت منذ الإنسان الأول ، كما قال تعالى : ﴿ فَفُتِلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ ﴾ (٢٠ : ١١٧) فلا يألوا الشیطان جهداً في مناصبته للإنسان . وحمله على ما لا خیر له فيه ، بل على ما فيه ضرر الإنسان ، يأتيه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله .

وقد ثبت في وحي الله تعالى الى رسوله أن في عالم الغیب خلقاً اسمه «الشیطان» أرغم الله أنفقه ، لا تدركه حواسنا ، له أثر في أنفسنا ، فهو يتصل بها ويقوي داعية الشر فيها بها سماه الوحي « وسواساً و تزغاً ومسئاً وتجربة » ، ونحن نجد أثر ذلك في أنفسنا وإن لم ندرك مصدره ، وما أشبه هذه الشياطين الخفية في الارواح بتأثير النسم الخفية المادية — المسماة بالجراثيم (الميكروبات) — في الأجساد ، فقد مرت القرون التي لا يحصيها إلا رب العالمين ، والناس يجهلون هذه النسم الخفية ، ويجهلون فعلها ، لعجز الأبصار عن إدراكها بنفسها ، وعن رؤية فعلها ، لدقتها وتناهيها في اللطف والصغر ، الى أن اخترعت في هذا العصر المجاهر والنظارات المكبرة التي تريك الجسم أضعاف أضعاف جرمه ، فيها رؤيت ، وعلم ما

(١) نسبة الى دمشق من بلاد الشام (سورية) .

يحدث بسببها - في المواد السائلة والرخوة وكل ذات رطوبة - من التحول والتغير ، كالاختار والفساد وغيرهما ، ومن الأمراض المعدية في الانسان والحيوان .

وحكمة إخبار الله تعالى إيانا على السنة رسله عليهم السلام بهذا المعالم الغيبي المعادي لنا الضار بأرواحنا كضرر نسيم الأمراض بأجسادنا - أن نراقب أفكارنا وخواطرنا ولا نفعل عنها ، كما نراقب ما يحدث في أجسادنا من تغير في المزاج ، وخروج الصحة عن الاعتدال ، فنبادر الى علاجه ، فمتى فطنتا بميل من أنفسنا الى الشر أو الباطل عالجناه بالالتجاء الى الله سبحانه وتعالى .

(ان الشيطان .. الخ)

- ٢ -

قال السيد البصري (١) :

المعنى لفظ الشيطان على العدو وبعض الأشخاص والجن والانس

المتبادر ان « الشيطان » ههنا بالمعنى المشهور المعروف ، وهو إبليس وأعوانه ، وقد يكون لفظ « الشيطان » ههنا عبارة عن أحد الأعداء ، وإطلاق الشيطان على العدو معهود وكثير في كتب الدين وإليك بعض الشواهد :

(١) - قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِينِ ﴾ (٦ : ١١٢) .

(٢) قال تعالى : ﴿ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ ، وقال : لا غالب لكم

(١) نسبة الى بلدة البصرة من القطر العراقي

اليوم من الناس ، وإني تجاركم ، فلما تراءت الفشتان نكص على عقبيه ، وقال : إني بريء منكم ، إني أرى ما لا ترون ، إني أخاف الله ، والله شديد العقاب ﴿ ٨ : ٤٩ ﴾ فالشيطان ههنا قال فريق إنه « سرّاقته » بن مالك الكناني الذي كان من أشرفهم .

(٣) - قال تعالى : ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنا ، وإذا خلوا الى شياطينهم قالوا : إنا معكم ، إنما نحن مستهزئون ﴾ (٢ : ١٤) فشياطينهم هم الذين ماثلوا الشياطين في تمردهم من رؤساء العرب وكبرائهم .

(٤) قال تعالى : ﴿ ويريد الشيطان أن يضلّهم ضلالاً بعيداً ﴾ (٤ : ٥٩) قيل هو « كعب » بن الأشرف ، كما اطلق عليه طاغوت في قوله تعالى : ﴿ ألم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك ، وما أنزل من قبلك ، يريدون أن يتحاكوا الى الطاغوت ، وقد أمروا أن يكفروا به !! ﴾ (٤ : ٥٩) ، قيل إن هذا الطاغوت هو كعب بن الأشرف .

(٥) قال تعالى : ﴿ الذي يؤسوس في صدور الناس ، من الجنة والناس ﴾ (١١٤ : ٥ و ٦) فقوله من ﴿ الجنة والناس ﴾ بيان الذي يؤسوس ، أو بيان للوسواس الخناس ، فالوسوس قسمان : قسم الجن وقسم الناس ، ولا ريب إنه يطلق على كل منها إذا وسوس « شيطان » .

(٦) قوله ﷺ : « المسافر شيطان » والمسافران شيطانان ، والثلاثة ركب » .

(٧) قال (ﷺ) : « إن الأبل مخلوقة من الشياطين » (١) هذا ما تيسر

(١) رواه سعيد بن منصور في سننه بلفظ : « خلقت » وزيادة : « وان وراء كل بعير شيطاناً » وهو ضعيف كما رمز له السيوطي لانه من رواية خالد بن معدان مرفوعاً فهو منقطع مرسل لان خالداً هذا تابعي .

للعبد الحقير أن يعلية على أسماعكم - ايها السادة - فتأملوه فإنني مستعد لإصلاح ما عسى أن يكون فيه . وسلفاً أشكركم .

(ان الشيطان . الخ)

- ٣ -

وقال العلامة الخليلي ^(١) :

الشيطان قوة غضبية أو قوة ذميمة في الانسان

لقد ذهب « الغزالي » الى أن الشيطان القوة الغضبية التي في الإنسان ، وقال الراغب : « كل قوة ذميمة للانسان شيطان » ، ومنه قولهم : « ركب شيطانه » إذا غضب ، « وتزغ شيطانه » أي كبره ، أو الشيطان كما قاله الجمهور : « هو من العوامل الخفية ، التي لا تحس » فعلى ما قاله الغزالي والراغب ، هو من قبيل الداعية الداخلية ، وعلى ما قاله الجمهور ، يكون الشيطان داعية خارجية ، وهو الظاهر .

وقد ورد النهي عن خروج الصبيان في الليل ، لأنه وقت انتشار الشياطين ، فالشياطين هنا الأشرار من الناس ، الخبيثون من أهل الوسواس ، وذلك كشياطين الأربكية بمصر ، وشياطين شارع بغداد في دمشق وشياطين شارع الرشيد في بغداد .. الخ ، هؤلاء ينتشرون من بعد الغروب وقبيل الغروب ، يفسد بعضهم بعضاً ، فنحث من يهمهم تربية أولادهم ، على منعهم من الخروج ، لئلا يفسدهم هؤلاء الشياطين .

(١) نسبة الى خليل الرحمن من بلاد فلسطين .

وأما عداء الشيطان المبين للانسان ، فلا يتعدى الإغراء والوسوسة ، وليس للشيطان من سلطان ، على الانسان بغير ذلك ، وتوضيح المقام يحتاج الى بسط في الكلام ، فمن كان له أذنان للسمع فليسمع :

أتى الاسلام ، والناس جميعاً ، واهمون في مسألة تأثير الشياطين ، ورسخ في عقول الامم كافة ، أن الأرواح الخبيثة ، مسلطة على الانسان بالاذى ، فإذا رأى مفلوجاً أو مشلولاً أو مجنوناً أو أبلماً أو أصم ، أو مصاباً بأي مرض آخر — نسبوا ذلك للشياطين ، فلذلك امتلأت قلوبهم رعباً منها ، وخافوا من الاماكن القديمة ، أو الخالية ، أو المظلمة ، أو من كب شيء على الأرض ، أو من دخول محال التغوط ، الى غير ذلك من الأوهام ، التي لا يزال أثرها في النساء ، خصوصاً نساء أهل مصر الى اليوم ، ويا ليت الأمر كان قاصراً على ما ذكر ، بل ظهرت نتيجة ذلك في أعمالهم ، وكانت سبباً في ضررهم ، ضرراً بليغاً ، فإذا أصيب أحدهم بمرض ما ، تداووا بالطلاسم ، وإيقاد البخور ، أو زيارة بعض القبور ، أو تعليق أوراق ، أو الاستنجاد براق ، حتى يتمكن الداء وتستفحل العلة ، فلا يقوى الطبيب على استئصالها ، أو إيقاف سيرها ، ويموت الشخص ضحية الجهل والوهم ، هذا كان شأن الأمم ، في هذه المسألة ، وهذه كانت أفكارهم ، وكانت الأديان تأتهم ، ولا تزيل عنهم هذه الخزعبلات ، الممينة للنفوس والأجسام بل ينسب الى رجال بعض الأديان ، أنهم اعترفوا بها ، وأيدوها تأييداً ، وأنهم نصوا على صحتها صريحاً ، فتجد أن كل صحيفة من كتبهم ، التي كتبوها كما يشاؤون وحسبها هوشائع في تلك العصور ، تدل على ان الشياطين ، هي علة هذه الأمراض ، كالصرع وأنواع الشلل ، والبكم والصمم ، وأنواع الجنون والعتاهة ، وغير ذلك ، مما عرفت أسباب أكثره العلوم الطبية الحديثة ، وما لم تعرفه قاسته على غيره ،

لوجود التشابه العظيم بينها ، وشفاء بعضه باستعمال العلاجات المادية المحضة ، كالمواد الكيماوية ونحوها ،

أتى الإسلام والناس على تلك الحالة التوهمية ، فلم يشأ أن يتركهم وشأنهم ، يخبطون خبط العشواء ، في اليلة الدهناء ، بل أصلح هذه المسألة ، كما أصلح غيرها ، مما يمت النفس والجسم معاً ، صغيراً كان أو كبيراً ، وذلك بالإفصاح أن ليس للشيطان ، سبيل على الانسان ، إلا بالإغراء والوسوسة فقط ، قال تعالى حكاية عن الشيطان ﴿ وما كان لي عليكم من سلطان ، إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي ، فلا تلوموني ، ولوموا أنفسكم ﴾ (١٤ : ٢٢) وقال تعالى في خطابه للشيطان : ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ، إلا من اتبعتك من الغاوين ﴾ (١٥ : ٤٢) الى غير ذلك من الآيات القرآنية ، التي تحصر سلطته في الوسوسة ، وتنفى عنه كل ما عداها ، وأما ماورد من قوله تعالى في حق الرايين : ﴿ لا يقومون الا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ﴾ (٢ : ٢٧٥) فهو على سبيل التمثيل والتشنيع ، الذي ورد مثله في كل لغة ، مهما كان اعتقاد قائله ، فهو على حد قوله تعالى في مقام آخر : ﴿ طلعها كأنه رؤوس الشياطين ﴾ (٣٧ : ٣٥) ، وتلك عبارة واحدة ، لم يرد غيرها ، فليطالع القاري « العهد العتيق » بل ليطالع « العهد الجديد » ، ليعلم الفرق بين دينك الكتابين ، وبين القرآن المجيد .

بمثل هذه الحقائق التي قررها القرآن ، صار المسلم الحق ، لا يعبأ بالشيطان ، ولا ينجس منه أذى أو ضرراً ، إلا ما كان دعوة لشهوة أو نحوها ، مما يجب عليه فيه الاحتراس ، فلذلك إذا أصابه مرض ما ، لا يستشفى بقديس أو قسيس ، كما يفعل غيره ، بل يطلب الطب والدواء ، ويأتي البيوت من أبوابها ، فأعظم بدين

الاسلام من دين ، لم يذكر مما يُعْتَقَدُ الا "أرجحه ، وأكبر بالقرآن من كتاب ،
لم يهمل شيئاً فاسداً إلا أصلحه :

الله أكبر إن دين محمد
وكتابه أقوى وأقوم قبلاً

لا تذكروا الكتب السوائف عنده

طلع الصباح فأطفأ القنديلا

وهنا أتذكر ، والشيء بالشيء يذكر ، أن المبشر موسى القبطي ، قال لي : إنه
ورد عن نبيكم في بعض الأحاديث الصحيحة مامعناه : « أن ليس للشيطان على المسيح
من سبيل ، حتى ولا بالنخس » - فقلت له : هذا صحيح ، ولكنه ورد لاجل الرد
على من يقول منكم : إن الشيطان كان له سلطة على المسيح أن يُصْعِدَهُ الى البرية
ليُجَرَّبَ ، ثم يأخذه الى المدينة المقدسة ، ويوقفه على جناح الهيكل ، ثم يأخذه
الى جبل عال (مت ٤ : ١ - ١٢) . فلاجل المحاماة عن شرف السيد المسيح ،
عليه السلام ، ورد في حقه ذلك القول ، على انه لا خصوصية للسيد المسيح في ذلك ،
فقد ورد مثله في حق بعض صحابة نبينا ﷺ ، وذلك ما رواه الطبراني في الكبير
وهو قوله عليه الصلاة والسلام : « ان الشيطان لم يلق عمر منذ اسلم الا خروجه »
« وعن سعد بن ابي وقاص (رض) قال رسول الله ﷺ لعمر : والذي نفسي بيده
ما لقيك الشيطان قط سالكا فجاً إلا سلك فجاً غير فجك » '١' .

(ان الشيطان ... الخ)

- ٤ -

قال الشيخ الموصلي :

معاهدة سيلان

نعلم من هذا ان للشيطان سلطاناً على هؤلاء الإخوة ، وبالتالي والنتيجة نعم منه انهم ليسوا بأنبياء ، وقد قص الله تعالى علينا صورة « معاهدة سيلان » عاصمة آدم التي أجريت فيها تلك المعاهدة العتيقة بين المندوب السامي عن الله تعالى وهو بعض ملائكته من جهة ، وبين إبليس أرغم الله أنفه ، من جهة أخرى ، وهي كما يلي :

المادة الاولى - إعطاء إبليس سلطة واسعة وكبيرة جداً ، وهي سلطانه العظيم على جمهور الناس ، والدليل على هذه المادة قوله تعالى : ﴿ قَالَ : أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَنَا عَلَيَّ ؟ لَإِنْ أَحْرَزْنَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ، لَأُحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ، قَالَ : اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُ مَنْ جَزَاءُ مَوْفُورًا ، وَاسْتَغْفِرْ مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ، وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجُلِكَ ، وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِيدَهُمْ ، وَمَا بَعْدَهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ (١٧ : ٦٢ - ٦٤)

المادة الثانية - عدم سلطة إبليس على عباد الله الصالحين ، أي عدم نفاذها لقلوبهم وعدم تأثيرها فيهم ، والدليل على هذه المادة قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ (١٢ : ٢٤) وقوله : ﴿ إِلَّا

عبادك منهم المخلصين ، قال هذا صراط عليّ مستقيم ، إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ، إلا من اتبعك من الفاوين ﴿ (١٥ : ٤٠ - ٤٢) ﴾ وقوله : ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ ، وكفى ببربك وكيلًا ﴿ (١٧ : ٦٥) ﴾

المادة الثالثة - إجابة طلب إبليس الإِنظار الى يوم القيامة ، والدليل على هذه المادة قوله تعالى : ﴿ قال : ربّ فأنظرني الى يوم يُبعثون ﴾ ، قال فإنك من المنتظرين الى يوم الوقت المعلوم ﴿ (١٥ : ٣٦ - ٣٨) ﴾ و ﴿ (٧٩ : ٨١) ﴾ المادة الرابعة - أن يبقى إبليس ملعوناً الى يوم القيمة ، والدليل على هذه المادة قوله تعالى : ﴿ وإن عليك الأمانة الى يوم الدين ﴾ ﴿ (١٥ : ٣٥) ﴾ وفي آية أخرى : ﴿ وإن عليك لعنتي الى يوم الدين ﴾ ﴿ (٣٨ : ٧٨) ﴾

المادة الخامسة - هذه المعاهدة معمول بها وموضوعة موضع الإجراء الى آخر الدوران .

المادة السادسة - تسمية هذه المعاهدة « معاهدة سيلان » لأن في « سيلان » عاصمة آدم ، جرى هذا الاتفاق .

توقيع الفريق الثاني

« إبليس »

توقيع الفريق الأول

« الملك »

(رجع وانعطاف)

سلطان الشيطان على اخوة يوسف

فلهذا ولكون إخوة يوسف ليسوا بأنبياء كما حقه ، أخونا العلامة ساييم الخانيونسي في الفصل الثاني من المقدمة - كان للشيطان عليهم سلطان وتأثير ،

فصدر منهم الحسد والحيلة والخدعة وخلف الوعد والكذب والهضم بقتل أخيه أو طرحه أرضاً ، ثم إعطاء القرار النهائي بإلقائه في غياهب الجب كي يلتقطه بعض التجار المسافرين ، فيسكون بعيداً عن وجه أبيه ، وأضف الى ذلك قطع الرحم وعقوق الوالد وظلم الأخ البريء بلا موجب من جانبه ، وكل هذه المنكرات منهي عنها نهياً جازماً ، محظورة مخالفة للشريعة .

نعم لا ننسى أن الله تعالى قال: ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ﴾ (٥ : ٥١) . وليس كل ممنوع في الشريعة المحمدية يجب أن يكون ممنوعاً في الشرائع السالفة ، لكن هذه المحظورات هي ممنوعة ومحرمة في كل شريعة وملة ، عند سائر أهل الأديان ، من لدن آدم الى خاتم الأنبياء ، فهي من الشرائع العامة التي أجمعت عليها الكتب والرسول ، هي من الشرائع الكلية التي لا يعتريها نسخ ولا تبديل ولا تحوير ، ولا هتوأة ، لأن النسخ إنما يكون في الأعمال الفرعية ، أما الأخلاق الفاضلة والآداب الحميدة فلا يعتريها نسخ ما ، كالعقائد الأصولية ، والأقاصيص التاريخية فلا يدخل شيئاً من ذلك نسخ ولا تحوير ، فالأخلاق المذمومة محرمة في كل دين ، كما أن الأخلاق الفاضلة والأديان واجبة في كل ملة .

سعادة الدين تكون بإقامته

وبالنتيجة : فلتلك الأعمال السيئة على اختلاف أنواعها التي عملتها إخوة يوسف الصديق - لم يستأهلوا أن يكونوا أنبياء ﴿ الله أعلم ﴾ حيث يجعل رسالته ﴿ (٦ : ١٢٤) ﴾ بل ولا تقدر أن نقول : إنهم كانوا قبل توبتهم أتقياء ، مع أن البيت بيت نبوة فأخوهم نبي ، وأبوم نبي وجدهم الأقرب نبي وأخوه نبي وجدهم الأعلى نبي ، وابن أخيه نبي ، ولكن هم لم يكونوا أنبياء ، لأنهم بأعمالهم ومسلكتهم وأخلاقهم لم يكونوا أهلاً لهذه المنحة الجليلة

العظمى ، بل الأمر أعظم من ذلك ، وهو أن سعادة الدين لا تحصل إلا باقامته ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ : لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ، وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ، ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ ، وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ ، وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ ، لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ ، وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ، ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ، ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ ، وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ ، تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ - وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تَفَادَوْهُمْ - وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ، أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ، فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ، أُولَٰئِكَ الَّذِينَ شَتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ، فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ ، وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ (٢ : ٨٣ - ٨٦) ، فاخوة يوسف لم يعملوا مع أبيهم إحسانًا ، ولا مع ذي قرباهم وهو أخوهم ، ولا مع اليتيم من الأم ، ولم يقولوا لأخيه حسنًا ، ثم تفاوضوا في قتله وأخيرًا أخرجوه من دياره ، وتظاهروا عليه بالإثم والعدوان ، وهو محرم عليهم إخراجهم .. فانتا .. وانتا .. ولا .. ولا .

سعادة الدين يا هذا إنما تحصل باقامته ، فإذا لم يقمه الإنسان لم يكن سعيداً به ، فكيف يجوز الذي لم يقمه أن يكون نبياً ؟!! ولعمري لولا أن إخوة يوسف قد لطف الله بهم بأن وفقوا للتوبة لكانت عاقبتهم من أردأ العواقب ، ولكن الله سلم ، هذا ما تيسر لنا ههنا والسلام عليكم .

أصوات من الجميع : لا فض فوك ، لا فض فوك .

غير أن استاذاً واحداً من أعضاء المؤتمر ؛ وهو الشيخ البغدادي^(١) ، قام وصعد على المنبر وقال :

انتقاد عقد معاهدة سيلان والرد عليه

إخواني : إني انتقد على الأخ الشيخ الموصلي ، حفظه الله أموراً :

أولها - تصويره انعقاد معاهدة بين إبليس وبين الملك المندوب عن الله ، لأن محصل هذا وخلاصته أن معاهدة عقدت بين إبليس وبين الله ، ولا يخفى ما في هذا من توقيف لإبليس وعدم احترام لجانب الله تعالى .

ثانيها - تعبيره « بالمندوب » الذي لم يرد استعماله في لسان الشرع ، دون التعبير الوارد في اللسان الشرعي ؟ وهو كلمة « رسول » بدلاً من مندوب .

ثالثها - قول الأخ الموصلي إن الله أعطى إبليس سلطة واسعة وسلطاناً عظيماً على جمهور الناس ، وأما أنا فلا أظن شيئاً من ذلك سوى أن الله ترك إبليس وشأنه يعمل ما يشاء مع غير عباد الله المخلصين ، فحكمه حكم باقي المخلوقات ، الذين أعطاهم الله جزءاً اختيارياً ، وحرية في العمل ضمن نفوذ مشيئة الله تعالى ، هذا ما عرض لي أن ألاحظ به على الأخ .

قال ذلك ونزل عن المنبر ، فعاد إليه الشيخ الموصلي يدافع عن نفسه قائلاً :

سادتي : أرى أخي وصديقي الشيخ البغدادي ، لاحظ عليّ ثلاثة أمور ، وإني أريد أن أجيب عنها واحداً بعد واحد :

فأما الجواب عن الانتقاد الأول : فهو أن الله تعالى عمل معاهدة مع اليهود

(١) نسبة الى بغداد عاصمة العراق .

كما جاء في القرآن الكريم على لسانهم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا : أَنْ لَا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ الْخ ﴾ (٣ : ١٨٢) والنبي (ﷺ) عاهد اليهود وعاهدوه ، كما قال الله في كتابه العزيز : ﴿ أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ ؟ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢ : ١٠٠) ، ووقعت المعاهدة بين النبي (ﷺ) والمشركين كما نتعلمه من قوله : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٩ : ٥) ، ولا ريب أن مآل المعاهدة بين النبي واليهود وبين اليهود والمشركين أن تكون هذه المعاهدة بين من ذكروا وبين الله تعالى ، ذلك لأن النبي سفير عن الله ، كما أن الملك الذي سميانه «مندوباً» هو سفير عن الله فكما جاز هذا التعبير فليجز تعبيرنا .

وأما الجواب عن الانتقاد الثاني : فلسان الشرع لا يمنع تسمية الملك المرسل من قبل الله ، « مندوباً سامياً » لأن العلماء لم ينصوا على أن أسماء الملائكة توقيفية وإنما التوقيفية هي أسماء الله تعالى وصفاته ، والذي حدا بي الى هذا التعبير بهذا الاسم ، هو سرعة فهم المراد منه عند القراء من أهل العصر الحاضر .

وأما الجواب عن الانتقاد الثالث : فهو أن الله تعالى ذكر تلك المحاورة في عدة مواضع من كتابه الكريم ، فمنها آية : ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ، - قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ، إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ، - قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ، وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ، - قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ : إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ، إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ، وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (١٥ : ٣٧ - ٤٣) .

فأثبت هنا أن إبليس سلطاناً على الغاوين ، كما قال في آية أخرى : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ، إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ ،

والذين هم بهم مشركون ﴿ ١٦١ : ٩٩ و ١٠٠ ﴾ ، ومنها آية ﴿ قال رب أنظرني الى يوم يبعثون ، — قال فإنك من المنتظرين ، الى يوم الوقت المعلوم — قال فبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ، — إلاَّ عبادك منهم المخلصين ، — قال فالحقُّ والحقُّ أقولُ لأُمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَتَّبِعُكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٧٩ : ٣٨ — ٨٥) وغير خافٍ أن هذه الآيات الكريمة تفيد أن الله تعالى سلط إبليس على الناس ، قال في القاموس : والتسليط التغليب وإطلاق القهر والقدرة . وهذا المقدار ، جازٍ على الله ومن الله كما قال تعالى : ﴿ ولو شاء الله ، لَسَلَطْتَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ ﴾ (٤٩ : ٤) أي لو أراد الله تعالى لسلط هؤلاء القوم المشركين على المؤمنين ، فإذا كان يجوز على الله ومن الله ، أن يسلط بعض المشركين على المؤمنين ليقاتلوه ، جاز عليه ان يسلط إبليس على الناس ، والله تعالى اعلم .

آمال يعقوب في يوسف

آ (٦) « وكذلك يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ، وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ
الْأَحَادِيثِ ، وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ ، كما أَتَمَّهَا عَلَى
أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ، إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » .

افتتحت الجلسة ونليت الآية السادسة فقام السيد النجفي ^(١) وقال :

(وكذلك) أي ومثل ذلك الاجتباء (يجتبيك ربك) يعني كما اجتباك المثل

(١) نسبة الى النجف الاشرف من بلاد العراق .

هذه الرؤيا العظيمة الدالة على شرف وعز وعلو شأن ، كذلك يجتبيك ربك لأمر عظام ، والاجتناء الاصطفاء ، من جبيت الشيء إذا حصلته نفسك ، وجبيت الماء في الحوض ، جمعته ، (ويعلمك من تأويل الأحاديث) وهي الروى ، لأن الرؤيا إما حديث نفس أو مدرك أو شيطان ، وتأويلها عبارتها وتفسيرها ، وكان يوسف أعبر الناس للرؤيا وأصحهم عبارة لها ، ويجوز أن يراد بتأويل الأحاديث معاني كتب الله وسنن الأنبياء وما غمض واشتبه على الناس من أغراضها ومقاصدها ، يفسرها لهم ويشرحها ، ويدلهم على مودعات حكمها ، وسميت أحاديث ، لأنه يحدث بها على الله ورسوله ، فيقال قال الله وقال الرسول كذا وكذا ، ألا ترى الى قوله تعالى : ﴿ فبأي حديث بعده يؤمنون ﴾ (٧ : ١٨٤) وقوله : ﴿ الله نزل أحسن الحديث ﴾ (٣٩ : ٢٣) فلفظ أحاديث ، مرن ، يسمعك أن تضيقه وأن توسعه ، وهو اسم جمع للحديث ، (ويتم نعمته عليك) بالترقي في الدرجات الدنيوية ، كمصيره وزير مالية وعزيزاً بمصر ووكيلاً عن مليكها الريان وإحرازه لقب صديق ، وفي أمور الآخرة كمصيره نبياً ورسولاً (وعلى آل) ذرية (يعقوب) وسلالته بأن جعل منهم أنبياء وملوكاً (كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحق) فكان إبراهيم نبياً ورسولاً وخليلاً وأميراً ، وكان ولده إسحق نبياً ورسولاً ، (إن ربك عليم) يعلم من يحق له الاجتناء (حكيم) لا يتم نعمته إلا على من يستحقها .

هذا ما أظهره لك ودع ما أضمره والله على كل شيء قدير .

وكذلك . . الخ

- ١ -

قال السيد الكر بلائي :

بشارة يعقوب ليوسف بثلاث الاجتهاء والتعليم وإتمام النعمة

أخذ يعقوب يعد ولده ويدشره بالسعادة الكبرى المستقبلية فقال مامناه الروحي :
إن الأمر لأعظم مما تفيدته رؤياك يا ولدي ، فإنني على مثل اليقين أنك لا تلبث
إلا قليلا ، حتى ترى في مستقبلك ثلاثة أمور عظمى : الاجتهاء والتعليم وإتمام النعمة ،
فانتظر ما سيحيي به الغد ، ورؤياك التي ذكرتها لي هي عربون من الله على صحة
وتحقيق ما قلته لك ، وبشرت لك به الآن ، وإني أرى مستقبلك أمامي رأي العين ،
فلا بد أن يقع ذلك ، إن عاجلاً وإن آجلاً ، وليست المسألة مسألة تعيين لك مني ،
أو من غيري من المخلوقين ، ولكنها مسألة انتخاب لك من رب العالمين ، استخبك الله
لهذه الأمور الثلاث ، من بين إخوتك وسائر أنسبائك .

★ ★ ★

إن تصورات يعقوب في أحوال يوسف المستقبلية هي من نوع أوقرية من رؤيا
يوسف نفسه ، نعم إن مرمى بشارة يوسف المنامية مختلف بالشخص مع مرمى
بشارة يعقوب اليقضية ، ولكن النوع واحد ، وهو الحصول على رقي تام وامتيازات
تامه ، وبالنتيجة فبشارتاها ترميان لشيء واحد هو علو مكانة يوسف فيما يأتي من
الزمان ، فكان يعقوب سكب قلبه في قلب يوسف ، حتى استحالا الى قلب واحد ،

يشعر بشمور واحد، ويمس باحساس واحد، ويفكر ففكر أو واحد أفكأنهار وحن حلا في بدن، أو بدنان بروح واحدة، هذا ما يشف عنه اللفظ شفوف الكأس الصافية عن الشراب، وقد يؤلنا وإيم الحق ما كتبه المفسرون ههنا مما يخالف هذا الذي قررناه والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

صراخ من الجميع

« لله أنت »

« وكذك »

- ٢ -

قال الشيخ أمين البئر سبعي (١) :

فرح يوسف بيشارة أبيه له ووقوعها حرفاً بحرف

بما أن يوسف نفّض لأبيه جملة ما أوحى إليه مناماً ، رأى أبوه من المناسب أن ينفض لابنه جملة ما أوحى إليه بشأنه بقطة ، فأبدى له تلك البشرى المثلثة، وما كان أعظم فرح يوسف عندما سمع هذه البشرى من أبيه ؟ وانك لو سبرت غور قلبه وقتئذ لرأيت يكاد يطير من شدة السرور والغبطة ، كأن الله تعالى بشر يوسف في المنام بواسطة ملك من ملائكته - وهو جبريل - بسجود الكواكب له مع الشمس والقمر ، والآن يبشره في اليقظة بواسطة نبي من أنبيائه - وهو يعقوب - باجتماع الله له ، وتعليمه من تأويل الأحاديث ، وإتمام نعمته عليه ، ويمكن أن نقول إن البشرى الثانية أتت ليعقوب من الثفرس في مستقبل ابنه ، لأنه كان إذا رآه ،

(١) سبة الى بئر السبع وهي بلدة في فلسطين

يتوهم مناقبه مصورة في محياه . وفي حديث ابن عمر (ض) « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله عز وجل » ، رواه البخاري في تاريخه ، وعلى كل فني عن البيان أن البشارة الثانية أعلى جداً ، وجداً أعلى من البشارة الأولى ، ولذلك فلا نرتاب في أن يوسف كما كان طرب واندھش من مرمى رؤياه المنامية ، فقد طرب ودهش أكثر وأكثر من بشارة أبيه اليقظية ، وقد وقع كل ما أخبر به يعقوب ولده ، حرفاً بحرف ، كأن الغيب كتاب مفتوح بين يديه ، يقرأ منه ما يشاء وعلى الأقل كأنه كان يقرأ ذلك في وجه ولده السعيد ، فلذلك وعده أبوه ومنساه ، كأنما هو عن وحي وإلهام .

(يجتبيك . .)

- ١ -

قال العلامة الدمشقي السوقساروجي (١) :

اجتناء في اللغة واجتناء الله ليوسف والانبياء والمرسلين

يقال : جباه الله واجتناء ، جمعه اليه وأدناه منه واختاره دون سواه ، فهو مجتبي ، منحول ، مختار ، مصطفى : مقاربة ، والجاية تجمع الماء وجمعها جواي ، قال تعالى : ﴿ وَجِئْنَاكَ بِالْجَوَابِ ﴾ (٣٤ : ١٣) وقال سبحانه : ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (٢٨ : ٥٧) ، أي يجمع ، وجبى الخراج يجبي جباية ، جمعه : وكلمة (جبي) تشارك (جاب) الثلاثية في حرفين ، فهما متقاربان في المعنى ، جاب بمعنى قطع ، وفيه قوله تعالى : ﴿ جَابُوا »

(١) نسبة الى حي سوق ساروجة في بلدة دمشق

الصخر بالواد ﴿٨٩ : ٩﴾ أي قطعوه ، وجاب البلاد ، قطعها بالاسفار ، واجتبيتها : قطعها ، ووجه المقاربة بينها في المعنى أن من استحسن شيئاً فاصطفاه فقد قطعه لنفسه ، ومن قطع شيئاً لنفسه اصطفاه لها .

فمعنى (يجتبيك) في الآية ، يختارك ويصطفيك ويدنيك منه ، ويجمعك اليه ، ويقتطعك من دون العالم الى حضرته ، تبارك المعلي الوهاب ، فالله اجتبي يوسف ، وملك مصر استخلصه لنفسه ، وما الثانية الا مظهرأ من مظاهر الأولى ، فذرة من ذرات الاجتباء السماوي تجعل العبد مجتبي لجميع من يعقل من أهل الأرض .

الله اجتبي يوسف وانتخله على اخوته ، واختاره على عموم من سواهم من الأسرة ، واصطفاه على سائر أهل عصره ، ونوّه باسمه في فلسطين ومصر وغيرها ، لأنه أصفاهم جوهرأ ، وأروضهم نفسأ ، وأطيبهم قلبأ ، وقد جاءت لفظة الاجتباء بصيغة المضارع (يجتبيك) باعتبار ماسيكون ليوسف آنذاك ، في القريب العاجل ، وكل آت قريب ، وما أبعد المسافات ؟ وما أقرب ماهو آت ؟ فيوسف اجتبي كآدم الذي بعد توبته ﴿ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾ (٢٠ : ١٢٢) وكجده إبراهيم الذي : ﴿ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (١٦ : ١٢) ، وكموم الخمسة وعشرين نبياً الذين : ﴿ اجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٦ : ٨٧) نعم ، قال الله تعالى في كل العالم الاسلامي : ﴿ هُوَ اجْتَبَاكُمْ ﴾ (٢٢ : ٧٨) ولكن يوجد فرق كبير بين الاجتباين ، فاجتباء الله لأهل الاسلام هو بمعنى أعم وأحط من اجتباؤه تعالى ليوسف وسائر إخوانه الأنبياء ، فهو أخص وأعلى من الأول .

(لتعش يا أستاذ)

(يحييتيك . . الخ)

- ٢ -

قال الاستاذ الباب مريحي (١)

نبوة يوسف والأنبياء قبله وبعده

اجتبي الله يوسف وأتم نعمته عليه بالنبوة والرسالة للمصريين ، كما قال مؤمن آل فرعون خطاباً للمصريين : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ ، فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ قَلْتُمْ لَنَ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا ﴾ (٤٠ : ٣٤) وقبله أرسل أبوه يعقوب - لأهل فلسطين ، وإسماعيل للعرب ، وأخوه إسحاق - للفلسطينيين ، وإبراهيم - للكلدان ، ولوط - لشرقي الأردن والمؤتفكات ، وهي (قريات الملح) الخمس ، وصالح لثمود الذين في الحجر بين الشام والحجاز الى وادي القرى ، أو بين معان والعقبة ، وذلك هو (بترا) ، وهود - لعاد ، مابين عثان وحضرموت .

وأما بعد يوسف فقد أرسل الله شعيباً - الى مَدْيَنَ ، وهي تمتد من العقبة الى طور سيناء ، أو من شبه جزيرة سينا الى الفرات كما أرسله الله أيضاً الى أصحاب الأيكة ، كانوا أصحاب غيضة بين ساحل البحر الأحمر الى مَدْيَنَ ، وأيوب - الى أهالي نجد على القول بأنه نجدي ، أو الى حوران على القول بأنه حوراني ، وموسى وأخوه هارون - الى القبط وبني اسرائيل بمصر ، وداود وابنه سليمان - الى بني اسرائيل بفلسطين ، وهكذا زكريا وابنه يحيى ، وأما يونس فالى

(١) نسبة الى حي باب سريجة في دمشق .

فبنوى عاصمة الآشوريين - قرب الموصل -

وما أن نزل الأستاذ الدمشقي الباب سريحي عن منبر الخطابة حتى نهض

على أثره الأستاذ البرامكي^(١) وقال :

سمعت أيها السادة ما تفضل به صديقنا المحترم ، والآن تذيلاً لما ذكره أذكركم
بالنبي (صموئيل بن ألقانه) المرموز إليه في القرآن بقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَرْ
أَلِ الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لَنَبِيِّ لِهْم - وَهُوَ صَمُوئِيلُ -
ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؟ - قَالَ : هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ
الْقِتَالُ أَنْ لَا تَقَاتِلُوا ؟ - قَالُوا : وَمَا لَنَا أَنْ نَقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجَنَا مِنْ
دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا ؟ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ قَالُوا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ
بِالظَّالِمِينَ - وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ : إِنْ اللَّهُ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ، - قَالُوا : أَنَّى
يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ ، وَلَمْ يَأْتِ سَعَةً مِنَ الْمَالِ ؟ - قَالَ
إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ ، وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ، وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ
مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ - وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ : إِنْ آيَةٌ مِنْهُ ، أَنْ يَأْتِيَكُمُ
التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ ،
تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ، - إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿ ٢ : ٢٤٦ - ٢٤٨ ﴾
فهذا النبي هو (صموئيل) الذي يسميه مؤرخو العرب على سبيل التعريب : (صمويل
أو شمویل) وهذا النبي الكريم هو آخر قضاة بني إسرائيل الخمسة عشر ، مكث
قاضياً عليهم مدة « ١٢ » سنة ، وكانت مدة حكم هؤلاء القضاة نحو « ٤٥٠ » سنة
من موت يشوع بن نون ، فتي موسى ، إلى أيام النبي صموئيل المذكور ، وبهذه
المناسبة تذكركم النبي (يشوع) المرموز له في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ :

(١) نسبة إلى حي البرامكة في دمشق (سورية).

لا أْبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿١٨ : ٦١﴾ فهذا
الفتى هو يشوع بن نون تلميذ موسى الذى صار نبياً بعده وخليفة عنه على بني اسرائيل
والقائد الأعظم في حربهم مع الفلسطينيين ، وهو أحد الاثني عشر رجلاً الذين
أرسلهم موسى ليتجسسوا أرض كنعان ، كما هو أحد الرجلين الاثنيين في قوله
تعالى : ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ ، أُنْعِمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا : ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ
الْبَابَ ، فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ﴾ (٥ : ٢٥) والرجل الثالث هو دكالب
ابن يَصْنَةُ ، والخلاصة إن من الأنبياء هذين الكريمين وهما : صموئيل ويشوع ،
ويهمنا معرفتها بصورة خاصة ، لأنها مذكوران في القرآن الكريم ، ولذلك
اقتصرنا في خطابي على ذكرهما فقط .

(جيد)

(وَيُعَلِّمُكَ ...)

- ١ -

قال الفاضل اسماعيل من علماء غزة :

تعليم يوسف

(وَيُعَلِّمُكَ) كما علم قبلك الملائكة حتى قالوا : ﴿ سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا
عَلَّمْتَنَا ﴾ (٢ : ٣٢) وكما ﴿ عَلَّمْتَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ (٢ : ٣١) وقال
في أيك يعقوب : ﴿ وَإِنَّهُ لَنَدُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ ﴾ (آ : ٦٨) وقال عن
الخضر : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴾ (٨٨ : ٦٦) كانت هذه البشارة
ليوسف من أبيه كما كانت رؤياه النامية وهو في (ميلون) من أعمال فلسطين ،
وقد تحقق مضمونها وهو في (صوعين) عاصمة مصر ، أي عاصمة المملكة الهكسوسية

في ذلك العصر - وكما تسمى صوعن فتسمى (تانيس) و (طانس) و (صان) ،
وتسمى اليوم (صان الحجر) - ، وقد كان الزمن بين البشري الزامية وبين تحقيق
مضمونها نحو « ٢٢ » سنة ، فعلى العاقل إذا وعد بشيء أن ينتظر ولا يستبطن ما
وعد به ، فقد دعا موسى وهرون على فرعون وملائه ، فالباري تعالى قال : ﴿ قد
أجيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيَا وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾
(١٠ : ٨٩) قيل مكث موسى بعد الدعاء قريباً من أربعين سنة .

(تأويل الاحاديث)

- ٣ -

قال الشيخ مضيوف اليافي (١) :

مقومات الحديث وتأويله

لكل حديث معنى افرادي ، ومعنى تركيبي ، وغاية ينتهي اليها ، وإن شئت
قلت : مصداق يقع فيكون هو خُبْرَ الْخَبَرِ .

فأما القسم الأول ، وهو المعنى الإفرادي ، فهو ما يذكر في كتب الصرف
واللغة كالبناء والمقصود والأمثلة والقاموس والأساس والمصباح والصحاح واللسان
والفائق ومفردات الراغب وغيرها من كل المعاجم التي تبين الألفاظ المفردة .

وأما القسم الثاني وهو المعنى التركيبي ، فهو ما يذكر في كتب النحو والمعاني

(١) نسبة الى يافا من بلاد فلسطين

والبيان ، من معنى الجملة الحقيقي أو المجازي أو الكنائي ، والفهم في هذين الضربين : قاصر محدود لا يتسع عقل صاحبه للتدبر كثيراً ، وإنه لَيَسْتَوِي فيه كل إنسان عاقل لبيب ، سواء أكان صالحاً أو طالحاً ، مؤمناً أو كافراً ، وهو أمر كسي يتحصل عليه الإنسان بكسبه وجدته ، ولا يتفاوت إلا بتفاوت العقل والإدراك ،

وأما القسم الثالث وهو الغاية التي ينتهي إليها الحديث وإن شئت قلت : مصداق الحديث الذي يقع فيكون هو خُبْرٌ الخَبَر - فهذا لا يكون بكسب وجد ولا يستوي فيه سائر الناس ، ولا يمكن أن يتحصل عليه الإنسان بذكائه وحدة فهمه ولا يمكن أن يستقل به المرء ، ولكنه موهبة من الله تعالى ، وإلهام يلهمه عباده الصالحين ، من أنبيائه وأوليائه وعلمائه ، وهذه الغاية التي تنتهي إليها الأحاديث - وبعبارة أخرى - هذا المصداق الذي هو ذات ما أخبر به هي التي يعبر عنها نارة بالمصائر وحيناً بالعواقب والمراجع وطوراً بالمصاديق وأخيراً وبتمبير مختصر : إذا قلنا : « تأويل الأحاديث » نغني المحكي عنه في تلك الحكاية التي هي الحديث ، فالحديث حكاية ، وتأويله هو المحكي عنه ، فالتأويل تفصيل من آله إذا رجع ، وهو ما يؤول إليه الشيء ، وبالمثال يتضح المعنى وتظهر صحة المقال :

١ - قال تعالى : ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ، إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ (٤ : ٥٨) أي عاقبةً ، كما في الكشف ، فهو تأويل فعلي .

٢ - قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ، وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ، إِنْ الْعَهْدُ كَانَ مَسْئُولًا ، وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ ، وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ : ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ (١٧ : ٣٤ و ٣٥) أي أحسن عاقبةً ، كما في الكشف ، فهو تأويل فعلي .

٣ - قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ۖ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۖ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ۚ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ ۚ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ: قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ۖ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا ۖ أَوْ تُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ ۖ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ۖ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ۖ﴾ (٥٢ : ٧) فتأويله هنا عاقبة أمره وما يؤول إليه من تبين صدقه وظهور صحة ما نطق به من الوعد والوعيد (كشاف) فهو تأويل فعلي .

فليس المراد هنا من تأويل الكتاب تفسيره وبيانه ، لأنه جاءهم مفصلاً على علم وهدى ورحمة ، فلا يحتاج إلى التفسير والبيان ، ولكن أولئك الخاسرين ينتظرون تحقق ما جاء به من شؤون الآخرة كالجنة والنار وعذاب القبر والحساب وهلم جرا ، وذلك واضح لا غبار عليه ، وهل يفهم غير هذا من قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ ۚ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ: قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ۖ﴾ الخ . فالتأويل هنا مصائر وعواقب أخبار الكتاب الغيبية ، ولا جرم أنه لا يعلم حقائق شؤون الآخرة مثلاً ، ولا كيف تقع ، ولا متى تكون سوى السميع العليم ، فالؤمنون يؤمنون بما ورد من ذلك في الكتاب وإن لم يعلموه وقتاً وقدرأً ونوعاً وحقيقة ، فإن ذلك من موسوعات علم الله وحده ، دون سواه إلا من ارتضى من رسول ، وأما الذين كفروا ، فيكذبون بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله .

٤ - قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ۖ﴾ (٣٩ : ١٠) أي مصيره ومصداقه وذات ما أخبر به بما سينزل بهم من عقاب الدنيا والآخرة ، وسائر نذره وبشارته ، فهو تأويل فعلي . وذلك كإخبار القرآن بالجنة والنار والملائكة والجن ونعيم الجنة وعذاب النار والنشر والحشر والحساب والميزان والصراط وعذاب القبر ونعيمه والسؤال فيه ، والكلام عن الله

وذاته وصفاته والساعة وأشراتها وشؤون الآخرة والوعد والوعيد ، وكيف يقع ومتى يقع ، فكل هذه الأشياء ومآليها لا يعلمها إلا الله ولكنه ربما علم شيئاً منها لبعض عباده ممن ارتضى من رسول ، ومن كان على قدمه من الصالحين ، وكل هذه الأشياء ونحوها كذبوا بها لأنهم لم يحيطوا بعلمها ولا يروا ويشاهدوا تأويلها أي مصائرها وذاتها ، فالتأويل هو كل ما يعد به الكتاب السماوي من المثوبة والعقوبة أي ما يؤول إليه الأمر في الوعد والوعيد والخبار .

٥ - في حديث عائشة (ض) كان النبي (ﷺ) يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده : (سبحانك اللهم وبحمدك) يتأول القرآن ، تعني إنه مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ فسبح بحمد ربك واستغفره ﴾ (١١٠ : ٣) أي تعني أن النبي يرجع بذلك إلى القرآن ويصير إلى هذه الآية ، فهو تأويل فعلي .

٦ - روي عن رسول الله (ﷺ) أنه تلا آية ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض ﴾ (٦ : ٦٥) فقال : (إنها كائنة ، ولما يأت تأويلها بعد) فالتأويل هنا أيضاً فعلي بمعنى تحقق وجود الخبر .

ولا بد لنا قبل الختام من كلمة لها علاقتها الكبيرة بهذا المقام وهي أن لكلمة (تأويل) ثلاث معان :

١ - التأويل بمعنى مصير الشيء وعاقبته ، وهذا تأويل ليس بالقول ولكنه تأويل بالفعل ، ومنه الشواهد السبعة التي تلونها على أسماعكم ، بل منه أيضاً ما في قول يوسف الصديق (يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل) أي هذا الفعل مصداقها ومصيرها ، فهو تأويل فعلي .

٢ - التأويل بمعنى تفسير المتشابه ، وهذا تأويل قولي علمي ، وله أمثلة في القرآن والحديث كثيرة ، ليس هذا موضع بيانها .

٣ - التأويل بمعنى بيان السبب والعلّة ، كما في قصة موسى مع ذلك العبد الصالح الذي آتاه الله علماً إذ يقول لموسى ﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ، أما السفينة . . الخ ﴾ (١٨ : ٨٠)

(الاحاديث)

- ١ -

قال استاذنا الحضر موتي^(١) :

الحديث لغة واصطلاحاً

الاحاديث اسم جمع لحديث ، على ما ظن الزمخشري في كشافه ، أوجع تكسير له على غير قياس ، على ما ظن الزمخشري أيضاً ، في (المفصل) ، كما قالوا باطل وأباطيل وإذا كانوا يقولون في عبايد إنه جمع تكسير ولم يلفظوا له بمفرد ، فكيف لا يكون احاديث وأباطيل جمع تكسير وقد لفظوا بمفرده ؟ هذا ويطلق لفظ (الحديث) على أربعة أمور :

١ - على القرآن الكريم كما قال تعالى : ﴿ فبأيّ حديثٍ بعده يؤمنون ﴾ (٧ : ١٨٤ و ٧٧ : ١٥) وقال تعالى : ﴿ فليأتوا بحديثٍ مثله إن كانوا صادقين ﴾ (٥٢ : ٣٤) .

(١) نسبة الى حضرموت احدى البلاد العربية في جنوبي جزيرة العرب

٢ - على كلام النبي (ﷺ) كقولهم (حديث النبي وأحاديث النبي) أي ما كان النبي (ﷺ) يتحدث به ومنه أحاديث البخاري ، أحاديث مسلم ، أحاديث الموطأ وهكذا .

٣ - على الأقاصيص التاريخية ومنه ﴿ هل أتاك حديث موسى ﴾ (١٥: ٧٩) ، ﴿ وجعلناهم أحاديث ، فبعداً لقوم لا يؤمنون ﴾ (٢٣ : ٤٤) ، ﴿ فجعلناهم أحاديث ، ومزقناهم كل ممزق ﴾ (٣٣ : ١٩) غير أنه وقع الاصطلاح على أن الأحاديث التي يتحدث بها الناس على وجه الذكرى والاستفادة هي اسم جمع لحديث ، وذلك كما في المثال الأول ، وأما الأحاديث التي يتحدث بها الناس تلياً وتعجباً ، فهو عندهم جمع أحداثثة مثل أضحوكة وألموبة وأعجوبة ، وذلك كما في المثالين الآخرين .

٤ - على أحاديث النفس بقظة أو مناماً ، ثم أحاديث النفس في اليقظة هي درجة بين الخواطر والهموم ، وأما أحاديث المنام ، فإن كانت من الله قيل لها (رؤيا) ، وإن كانت من الشيطان قيل لها (حلم) .

وكل هذه المعاني الأربعة وما ألحق بها داخل تحت عموم كلمة (أحاديث) فالمعنى أن يعقوب يبشر ولده النجيب بأن الله تعالى سيوجد فيه أهلية وقدرة على تفهم مرامي ومصائر الكتب السماوية وأحاديث النفس وإلهام الملك في المنام وغير ذلك من كتب العلم والتاريخ وكلام الناس وأسفار الحكمة والآداب ، وعلى العموم بتعلم مقاصد الكتب السماوية ، والشرائع الوضعية ، والقوانين والنظمات الحكومية ، والأسفار الاجتماعية ، ومرامي أحاديث الناس ، وما يقرأ وما يسمع ، وما يقول وما إلى ذلك ، فيكون صاحب رأي في عاقبة كل هذه المذكورات ، وذا بصيرة في مرجع كل ما يقوله ويقال له .

هذا ما ألهمني الملك العلام ، في هذا المقام ، نفضته اليكم والسلام عليكم .
(لا يفضض الله فاك)

(ويتم نعمته . . الخ)

- ١ -

قال العلامة الهندي :

اتمام النعمة على يوسف

يعني يتم نعمته عليك بإسباغ نوافل خيراته ، ونوامي بركاته ، وقد فعل ،
و (يتم) في مستقبل الأيام (نعمته عليك) بصورة خاصة لا تعدوك (وعلى آل
يعقوب) بصورة عامة شاملة تسع الجميع منهم (كما) كان فيما مضى من الزمان قد
(أتمها على أبويك) يتم نعمته عليك كما تحب ، وعلى آل يعقوب كما يحبون .
يتم نعمته عليك سلبياً وإيجابياً ، بالتخلية وبالتحلية ، بالسلامة من الشر وحصول
الخير ، بالإنباء من المهلك ، والترقي والعز والسؤدد .

فقد أتم الله نعمته على يوسف بنجاته من الموت بسيد إخوته ، ثم بنجاته
من الحب سائماً ، ثم بظهور سلامة عرضه ، ثم بخروجه من السجن بصورة تكفل
شرفه وثاموسه ، ثم بجلوسه على عرش مصر عزيزاً ، كما أتمها بأفضل من ذلك كله
وهو النبوة والرسالة وإيتاء الحكم والعلم .
ومن إتمام نعمته تعالى على يوسف أيضاً انتصاره على الأضداد :

١ - انتصر على الشيطان والهوى والميول النفسانية (ع ٢٣ و ٢٤)

٢ - انتصر على زليخا امرأة العزيز بظهور براءته والتهمته به (ع ٢٦ - ٣٢)

و (ع ٥١ - ٥٣) :

- ٣ - انتصر على عزيز مصر فوطيفار ، الذي سجنه سجناً إدارياً ظلماً ، فخرج من سجنه وجلس محله على العرش ، وصار (عزيزاً لمصر) بدلاً منه (ع ٥٤-٥٦)
- ٤ - انتصر على إخوته العشرة برجعهم اليه ثالث سفرة ، وخضوعهم بين يديه واعترافهم بخطئهم ، وسكناهم وأهلهم بمعيتة وتحت نظره (ع ٨٨ - ٩١)

(آل يعقوب)

- ١ -

قال صدر الدين الدمشقي الباب سريجي (١) :

من هم آل يعقوب

(آل يعقوب) : أسباطه ، والسبط ولد الولد ، والفريق من اليهود ، ويقال للعرب قبائل ولليهود أسباط كما في المصباح .

وكلمة (آل) لفظ من خمسة ألفاظ وردت في كتاب الله تعالى بمعنى واحد ، والثاني بنو إسرائيل كما في : ﴿ وَجَاوَزْنَا بَيْنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ ﴾ (١٠ : ٩٠)

والثالث ذرية إسرائيل كما في : ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ ... ﴾ (١٩ : ٥٨) والرابع والخامس الأسباط والأمم كما في : ﴿ وَقَطَعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ﴾ (٩ : ١٥٩)

ويطلق آل الرجل على أهل بيته وأقاربه الذين يضافون إلى اسمه ، ويطلق على جميع أتباع الرجل ، فمن الأول قوله تعالى : ﴿ فَالْتَقَطْنَاهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ (٢٨ : ٨) إذا قلنا إن الملتقط هو شخص من أفراد الاسرة المالكة ، فإن قلنا أن الملتقط هو إحدى الجوارى أو الخادمت كان من

(١) نسبة إلى حي باب السريجة في دمشق (سورية)

قبيل إطلاقه على الأتباع كما في : ﴿ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ﴾ (٢ : ٥٠) ، ومن أمثلة إطلاقه على الذرية ما في قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ، ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٣ : ٣٣ و ٣٤) ، فالمراد من آل إبراهيم هنا ذريته وسلالته من اسماعيل بن (هاجر) وإسحاق بن (ساري) وأبنائه الستة من زوجته (قطورة) ، وهم زمران ويَقْشَان ومَدَّان ومِدْيَان وَيَشْبَاق وشُوحا (تك ٢٥ : ١ و ٢) ، فأولاد إبراهيم لصلبه ثمانية من ثلاث زوجات ، ثنتان عربيتان وواحدة عبرانية ، وكان من المديانيين (شعيب) عليه السلام ، كما كان من اسحاق جميع أنبياء بني اسرائيل ، وكما كان من اسماعيل خاتم الأنبياء (ﷺ) و (عمران) ههنا تعريب (عمرام) ، ومعنى عمرام (شعب عالي) وهو المدعو في الانجيل (هالي) أي عالي ، لأنهم يبادلون بين العين والهاء ، متصرف فيه بحذف صدره والاكتفاء بمجزه ، وهو أبو مريم أم المسيح . (قال عمران) إذن عبارة عن المسيح فقط ، وبهذا التحقيق الذي ذكرناه بالمناسبة . يندفع اعتراض البروتستانت على القرآن المجيد بأن أبا مريم لا يدعى (عمران) ، كما يقول القرآن ، ولكن يدعى (هالي) كما يقول الانجيل ، فخذ ما أتيتك وكن من الشاكرين .

(شكراً وحمداً يا استاذ)

(آل يعقوب)

- ٢ -

قال غلام الدين الدمشقي العامري (١) :

النعم التي أنعمها الله على آل يعقوب

لم يكتب المفسرون على هذه الكلمة ما يجب أن يكتبوه ، وأنا الحقير مع عجزتي وقلة بضاعتي لا أضف أن ألقى على هذه الكلمة ما يشاء الله أن ألقيه ، فاستمعوا لما يلقى ::

أيها السادة :

أتم الله نعمته على آل يعقوب ، وسلالته ولو بعُدوا ، وهم بنو إسرائيل ، أعني القبائل الاسرائيلية ، بنجاتهم من عبودية مصر وسخرتهم فيها ، وتذبيح أبنائهم واستحياء نسائهم ، تم بنجاتهم من الوثنية التي اعتنقوها بمصر أيام الفراعنة لمدة نحو مئتي سنة تقريباً ، والإيذاء الذي كانوا يلاقونه من الفراعنة من قبل أن يأتهم موسى ، وعلى أثر مجيئه ، فخلصوا من كل ذلك ، وخرجوا من مصر منصورين تحت قيادة موسى وظلموا بالغمام وانزل عليهم المن والسلوى وخلق لهم البحر ، وأغرق فيه عدوهم ، وانفجرت لهم اثنتا عشرة عيناً ، ثم ملكوا الأرض المقدسة التي كتب الله لهم ، وأقاموا فيها قضاة وحكاماً لهم ، ثم شكلوا فيها مملكة ، ولا تنس أن الله جعل فيهم النبوة والكتاب وآتاهم ما لم يؤت أحداً من العالمين .

فإن قلت ، إن هذه النعم التي عدتها لآل يعقوب أي سلالته إنما صارت بعد

(١) نسبة الى جبي العمارة في دمشق (سورية)

عهد طويل أى بعد ٤٣٠ سنة ، تقربوا فيها بمصر ، على كلام التوراة ، أو بعد ٢١٥ سنة أقاموها بمصر على ما حققه العلماء من مؤرخي النصارى والمسلمين ، وإنه ليمعد أن يكون يعقوب أراد من بشارته تلك النعم ، التي ما حصلت لآله المعاصرين له ، ولكنها إنما حصلت لآله البعيدين عنه ، الى ما بعد تلك المدة الطويلة ، سيما وقد سبق هذه النعم ما ذكرته من اضطهادهم بالسخرة والعبودية بمصر ، وإذلالهم وتذبيح أبنائهم واستحياء نساءهم ، وإيذائهم بأنواع الأذى ، لمدة ٤٣٠ سنة وأولمدة ٢١٥ سنة ، فيبعد أن يكون يعقوب أراد البشارة بتلك النعم التي لم تقع إلا بعد أكثر من جيلين .

قلتُ : أما ما ذكرت من سبق تلك النعم باضطهادهم بالسخرة والعبودية بمصر وتذبيح الذكور واستحياء النساء ، فلا يضر في جوهر البشارة ، فهذا يوسف لم يحصل له ما حصل مما بثّر به من إتمام النعمة عليه إلا بعد أن أهين من جانب إخوته ، والتي في الجب ثم استرق وشرد عن وطنه ، وبيع عبداً لعزير مصر ، وخدم في بيته إحدى عشرة سنة ، وقذف بالفحشاء وسجن مع المجرمين ولبث في السجن بضع سنين ، فكما أن هذه الأمور لم تمنع أباه أن يبشره بإتمام النعمة عليه بما سيجد له في مصر من صيرورته بها « عزيزاً » وناظر ماله ونبياً ورسولاً ، فكذلك تلك المصائب التي كانت نزلت فوق رؤوس بني إسرائيل بمصر ، لا تمنع يعقوب أن يبشرهم بإتمام النعمة عليهم فيما بعد ، لأن العبرة بالخواتيم .

وأما ما ذكرت من طول المدة ، وأن بني إسرائيل لم يحصلوا على تلك النعم إلا بعد جيلين ، فقريب من حالهم حال يوسف ، فانه لم يحصل على إتمام النعمة عليه إلا بعد أن صار عمره قريباً من أربعين سنة أي بعد ٢٣ سنة من بشارة أبيه له .

وأخيراً نقول : إن الرجل ليس كالنملة التي لا تنظر إلا ما بين عينيه ، بل الرجل ينظر إلى الأمد البعيد جداً ، سيما إذا كان من الأنبياء المهتمين ، كسيدنا

يعقوب عليه السلام ، وإنا نسمع عن الساسة الانكليز وغيرهم أنهم ينظرون الى ما سيجد بعد أجيال ، ويخبرون عنه ويقع حسبا أخبروا ، فكيف بالأنبياء الذين يتكلمون عن الله تعالى ، وكما ان الله يقول : ﴿ وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ (٢٢ : ٤٧) ، وأنهم يَرَوْنَهُ بَعِيداً وزاهٍ قريباً ﴿ (٧٠ : ٦ و ٧) ، فكَذَلِكَ الْأَنْبِيَاءُ الَّذِينَ يَتَكَلَّمُونَ عَنْ رَبِّهِمْ ، يخبرون بالاشياء التي سوف تحدث بعد حين منها طال زمنه .

هذا كلامنا عن اتمام النعمة على آل يعقوب بجملاً ، وأما تفصيلاً فكان من سبط (لاوي) موسى وهرون وزكريا ويحيى ومريم أخت موسى ، وكان هذا السبط هو المتعين للخدمة في الهيكل ، وأما سبط (شمعون) فقد ألحق — باللاويين في مهنة التعليم (كما في قاموس بوست)

وأما سبط (يهوذا) فكان بيده صولجان الملك وكان من سلالة الأنبياء الكرام مثل : اشعيا وصَفَنِيَّا ودانيال وحزقيال وعيسى وداود وسليمان وحجتي ويوحنا بن اختيار ومريم أم المسيح والمسيح عليهم السلام ، كما أن من سلالته ملوك يهوذا التسعة عشر ، والقاضي « عثنيل » والقاضي « عالي » وجميع الكهنة ، وكل من كانوا يمارسون الأعمال الدينية في هيكل بيت المقدس .

وأما سبط (دان) فكان آمنه جنود أصحاب شأن ، وخرج منه القاضي « شمشون » الشهير .

وأما سبط (نفتالي) فكان منه القاضي (باراق) الشهير .

وأما سبط (جاد) فكان منه ذلك النبي الشهاب (إيليا) ، وهو الياس عليه السلام .

وأما سبط (أشير) فكان وجد منه امرأة اسمها (حنه) وهي من المتعبدات الصالحات الصلوات المصليات حتى اعتبرت في نظر المسيحيين الأقدمين كنبية .

وأما سبط (يساكر) فقد كان منه القاضي (تولع) الذي حكم بني اسرائيل ثم كان منه اثنان من ملوك اسرائيل وهما (يعشاشا) و (أبلته) .

وأما سبط (زبولون) فكان منه قاضيان حكما بني اسرائيل وهما (أبسان) و (أيلون) وكان منه (يونس بن متى) عليه السلام .

وأما سبط (يوسف) فكان قد انقسم إلى قسمين ، القسم الأول (منسى) الولد البكر ليوسف ، وكان منه ثلاثة قضاة حكموا بني اسرائيل ، وهم (جدعون) و (يائير) و (يفتاح) ، والقسم الثاني (أفرايم) ثاني ولدي يوسف ، وكان منه (يشوع) بن فون عليه السلام ، والقاضي (عبدون) الذي حكم بني اسرائيل ، ثم كان منهم النبي (صموئيل) ، كأكثر ملوك اسرائيل في المملكة الشمالية التي عاصمتها (نابلس) . ومن إتمام النعمة على فخذ (أفرايم) أن التابوت كان في إحدى مدنه وهي (سيلون) ، فقد بقيت فيها الخيمة (٣٠٠) سنة .

وأما سبط (بنيامين) فكان منهم القاضي (أهود) الذي حكم بني اسرائيل ، ثم كان منهم طالوت (شاول) أول ملك لبني اسرائيل .

وكل ما ذكرته لكم حكم مقتبس من (العهد القديم) و (السنن القويم) وقاموس (بوست) و (معجم البلدان) .

وقبل أن أختم مقالي هذا أرجوكم أن تسمحوا لي بكلمتين خطرنا على فكري الآن فوق هذا المنبر :

أما الكلمة الأولى فهي أنه يتبين مما قدمنا أن نعمة الله تمت على شخص يوسف

وعلى سلالة المنسيين والأفرايميين وأما إخوته الأحد عشر فالنعمة إنعمت على سلالهم ، لا على أشخاصهم ، وهذه هي الحكمة فيما يظهر لنا في أن يعقوب قال ليوسف : ﴿ وَبِمَنْ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ ﴾ . فالنعمة تمت على شخص يوسف ثم تمت على سلال يعقوب ومنهم سلالتا يوسف .

والكلمة الثانية — هي أنه لم يقل : (وعلى يعقوب) بل أقحم لفظ (آل) ، مع أن الله تعالى كما أتم نعمته على شخص إبراهيم وإسحاق فقد أتمها كذلك على شخص يعقوب ، نعم أتمها عليه بالنبوة والرسالة والبركة والسيرة الحسنة — لكنه لم يقل ذلك تنزلاً وتواضعاً وهضماً لشخصه ، وتقصياً عن تركية النفس بالقول ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ ، هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اتَّقَى ﴾ (٥٣ : ٣٣) ، وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونُ أَنْفُسَهُمْ ؟ ... بَلْ اللَّهُ يَبْزُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٤٨ : ٤) هذا ما أردت أن أختتم به خطابي ، والله أعلم .

(مرحي)

(كما أتمها ... النعم)

- ١ -

قال الفاضل النابلسي :

النعم التي أتمها الله على إبراهيم وإسحاق

تعلمون أن الله أتم نعمته على إبراهيم ، بنجاته من نار الكلدانيين ، وخروجه من دائرة الذل والاضطهاد أرض العراق ، إلى بلاد الشام بلاد المزمز والحرية والاحترام . — إلى آخر ما لاقاه في سوريا وفلسطين من الراحة والاطمئنان هذا كله بعد أن

كان نبياً ورسولاً وخليلاً للرحمن ، وبذلك صار مقدساً بلسان البوذيين والزرادشتيين ووثني العرب وطبعاً عند اليهود فالنصارى فالاسلام ، لا يذكر عند كل هؤلاء الا ويشكر ، وأكثر الأنبياء من سلالاته ، وبذلك صار مباركاً عليه في العالمين : حتى صرنا نقول — نحن الاسلام — ولا نزال نقول « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين ، إنك حميد مجيد » . نكرر هذه الصلاة الابراهيمية في صلواتنا في اليوم والليلة ربما أكثر من أربعين مرة ، يكررها كذلك نحو أربعائه مليون مسلم بكل ضراعة وحرارة ..

وتعلمون أن الله أتم نعمته على (إسحاق) بكونه ابن ساراي السيدة المحبوبة ، ثم بالنبوة والرسالة ، وكفى .

فيعقوب كان يتوقع لابنه يوسف مستقبلاً ذا شأن ، وكان على بينة من أنه سيرتقى رقياً محسوساً باهراً ، وأن التاريخ سيسجل ليوسف الصديق ولآل يعقوب . ذكرأ حسناً ، كما سجل ذلك لإبراهيم واسحاق ، وإن اسمه سيكون جليلاً ، وسيحفظ له التاريخ ذكريات فخمة عليه وعلى آبائه الصلاة والسلام .

(ان ربك عليم حكيم)

- ١ -

وقال العلامة الدوماني (١) :

علم الله وحكمته

إن الله سبحانه وتعالى « عليم » بذات الصدور ، وعن هو أهل لإتمام النعمة .

(١) نسبة الى بلدة دوما قسبة قرب دمشق (سورية) .

عليه ، كما هو عليم بكل شيء وكل دقيق وجليل ، حتى لو وقفت بموضوعة على طرف سفينة عظيمة فإنها تثقلها وتميلها حقيقة ، والله يعلم ذلك تماماً ، وإن لم تدرك ذلك مشاعرنا ، فسبحان من يعلم ويسمع ديب النملة السوداء ، في الليلة الظلماء ، على الصخرة الصماء ، ويرحم الله الإمام الزنجشيري حيث يقول :

يا من يرى من البعوض جناحها

في ظلمة الليل البهيم الأليل

ويرى مناط عروقها في نحرها

والمخ في تلك العظام الشجل (١)

امن عليّ بتوبة تمحو بها

ما كان مني في الزمان الأول

وإنه تعالى « حكيم » يضع كل شيء في موضعه ، وإن دائرة فضله مرتبة تسع

بكل من أهمل نفسه للفضيلة .

الفصل الرابع

الحكم والعبر في قصة يوسف

آ (٧) * لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين *

افتتحت الجلسة وتليت الآية السابعة فقام مولانا الناصر التونسي وقال :

يقول الله : بذاتي حلفت (لقد كان في يوسف) عليه السلام وهو الحزب

(١) البهيم الأليل : الشديد السواد ، المناط : المربط ، النحر : الرقبة ، النعل : الضعيفة .

الراقي ، (وإخوته) أصلحهم الله ، وهم الحزب المعارض ، أي لقد كان لمن تتبع حوادثهم معه ، وحوادثه معهم ، مع التأمل في أسبابها ونتائجها ، (آيات) أي حكم وعظمت وعجائب وعبر ، كما سيقول : لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ، (ع : ١١١) وذلك من حين أن رأى أحلامه فحسدوه ، إلى أن سكنوا في شرقية مصر تحت رعايته ، وما تخلل ما بين هذين الطرفين من الماجريات النادرة المثال ، والمراد من لفظ (إخوته) عموم الاخوة المناوئين له المتألمين عليه ، والمحبين له الذابين عنه .

وفي الحقيقة إن الآيات كانت في يوسف وإخوته وأبيه والسيارة وعزيز مصر وامرأة العزيز ، وفي الشاهد من أهلها ، والسيدات المصريات ، والفتيين الساقى والنجاز ، ومليك مصر الريان ، والملا الذين استفتاهم فلم يفتوه ، وفي أحفاد يعقوب ، وفي خدمة يوسف لأرباب الحكومة في تلك العصور ، و ... و ... الخ ، ولكن الله سبحانه اقتصر على « يوسف وإخوته » لأنهم موضوع القصة ، ومحور السيرة ، وما سواهم فهو مذكور بالمناسبة والعرض ، فقصة يوسف كتاب مفتوح ، ذو أبواب وفصول وذبول وحواش ، ولكن أهم ما في هذا الكتاب « يوسف وإخوته » .

جعل الله سبحانه هذه السورة الشريفة علة من الملل ، التي يُظهر فيها حكمه ووسيلة من الوسائل ، التي يرشد الناس بها للعبارة والمِيزة فعلى الرجل الرشيد العاقل أن يقرأ هذه السورة ليس لما فيها من التاريخ فحسب بل لما حوته من العظمت والعبر ، وما اشتملت عليه من الحكمة والأدب .

إن أول ما ينبغي لمن قرأ هذه السورة أو استمع لها ، أن يعرف وجوه العبر التي نزلت لأجلها ، ويتعلم رموز الحكم التي رُمِزت فيها ، والغاية التي أراد الله تعالى

من سرد مواضعها ، ولعمري إن القاريء لهذه السورة إذا لم يفعل ذلك لم يدر ما أريد بتلك المعاني ، ولا أي ثمرة يجتنى منها ، ولا أي نتيجة روحية تحصل له من تعاليم هذه السورة ، وإنه إن كانت غايته من هذه السورة التلذذ بقراءتها والبلوغ إلى آخرها ، دون تفهم ما يقرأ منها ، وبلا تفكير في عبرها وحكمها ، فلا ريب أنه لا يعود عليه شيء يرجع إليه نفعه في تأديبه وتكيله ، ووقوفه على عجائب التدابير والألطف الإلهية ، وباهر الحكم الربانية ويكون مثله كمثّل رجل قدّم له لوز صحيح فلا بد أن يكسره ويستخرج ما فيه ، لكي ينتفع منه النفع العظيم ، وإلا لم ينتفع إلا بالتمتع برؤية قشره الذي هو ظرف للبّه .

ينبغي لقاريء هذه السورة الكريمة أن لا تكون غايته معرفة معاني المفردات فقط ، ولا الوقوف على السيرة كقصة تاريخية فحسب ، ولا استفادة النكت التي تذكر في علم البلاغة فقّد ، فإن هذه الأمور وإن كانت مهمة في ذاتها ، لكن هناك ما هو أهم منها جداً ، وذلك كما قلنا هو الإشراف على ما تضمنته هذه السورة من الأمثال وعجيب التدبير الإلهي ، والمسائل الإجماعية ، والعبر الربانية ، فيقف القاريء عند كل مثل وجملة وكلمة وحرف من حروف المعاني ، ومقدمة ونتيجة ، وتأصيل وتفريع ، وقاعدة كونية ، وتطور مدهش ، وانقلاب سريع .

يجب على قاريء هذه السورة الكريمة أو سامعها أن يلتمس جواهر معانيها ، ويلتمس درر مراميها ومغازيها ، ولا يظن أن نتيجتها هي الإخبار عن حيلة إخوة يوسف حتى أخذوه ، أو مغازلة السيدات المصريات ليوسف وجماله ، أو محاورة الجنود المصريين لإخوته حين اتهموا بأخذ الصواع ، أو بغير ذلك ، فينصرف بهذا عن الغرض المقصود ويكون مثله مثّل الغواص في البحر الذي كان يلتقط الجواهر ذات القيمة ، فرأى في عقيق الماء سمكة ، فترك الصدف الذي فيه الدر الثمين ،

وقذف نفسه في اللجة التي فيها السمكة ، فاشتغل بصيدها عن التقاط الجواهر ، كأنه نسيها أو تناساها أو جهل أنها تساوي أموالاً كثيرة ، وكذلك الأغرار الذين يجمدون عند الفاظ هذه السورة وظواهرها ويغفلون أمر التفكير فيما شملته من الحكم والعبر وما تضمنته من الاجتماعيات وتطور الحوادث ، وأسرار ذلك وأسبابه .

(حسن)

(لقد كان ... الخ)

- ٢ -

قال اخونا النقي البخاري (١) :

التفكير والاعتبار حال قراءة القرآن

وهكذا سائر قصص الأنبياء التي اقتصها علينا القرآن الكريم كسائر ما فيه من حوادث الصالحين والطالحين ، والمصلحين والمفسدين ، والجبابرة والمستكبرين ، وما الى ذلك مما أملاه الله علينا في كتابه المجيد ، فكم في ذلك من عبر وذكريات ، وكم فيها من فوائد وعوائد ، ولقد كنا فيما مضى نأسف جد الأسف للجمهور من أهل الاسلام الذين كانوا لا يعنون بالتفكير والاعتبار ، حال قراءة القرآن ، ولا يتأملون في مراميه ومواعظه ، حتى يقيسوا حاضره على ماضي غيرهم ، ولكننا اليوم نرى - والحمد لله - أنه قد نفخت روح جديدة في جمهور المصريين ، فطفقوا يقرأون كتاب الله بتدبر وإمعان ، جديرين بالثناء والشكران ، مما ييشروننا بحسن مستقبل الاسلام ، وسيسرهم الى الأمام .

(١) نسبة الى بخارى من بلاد التركستان

وإذا كان في المسلمين اليوم قوم لا يعبأون بالتفكير والتدبر حال قراءة القرآن الكريم ، وقوم يعنون بذلك ويهتمون له كثيراً — فليس ذلك إلا لأن فينا رجالاً قد اهتموا الى سواء الصراط ، وآخرين لم يظفروا من ذلك الا بحظ قليل. وانتشار العلم الصحيح في أهل الاسلام في هذا العصر ، وازدياد انتشاره من يوم لآخر ، واتجاه الجهود الفردية والجماعية الى التنوير والتفكير — كل ذلك سيقضي غداً أو بعد غدٍ بأن يكون المستقبل للقرآن وأهل القرآن ، وما ذلك على الله بعزيز .
(اطال الله بقاءك)

(واخوته ...)

- ١ -

قال الفاضل الاستانبولي (١) :

القرآن يكتفي بذكر المهم من الحوادث التاريخية

لي هنا كلمة وهي ربما يقول قائل : إنا نرى كتب اليهود التي يسمون بمجموعتها « العهد القديم » تذكر أسماء الرجال والنساء والزوجات والصبيان والبنات ، وتأتي على أسماء المواضع التي حدثت فيها الحوادث ، وربما تعرضت لذكر زمانها ، فما بالناس نرى القرآن الكريم لا يأتي على مثل هذه التفصيلات أو على ما يقرب منها ؟ هذا سؤال طالما شغف بذكره دعاة النصرانية في الانتقاد على كتابنا الحكيم .

وأما نحن فنجيب عنه بجوابين :

الجواب الأول — إن حوادث الأسباط الأقدمين ، وما جريات الآباء الأولين

(١) نية الى استانبول من بلاد الترك

— إنما تم بالدرجة الأولى سلاطهم اليهود ، فلذلك عني في توراتهم بذكر كل جزئية من جزئيات أخبارهم ، فذلك يهمهم كثيراً ، ويلذ لهم جداً ، ويشتاقون إليه أيما اشتياق ، بخلاف العرب وما إليهم من العناصر ممن لم يكونوا يهوداً ، فلا يهمهم من هذه الحوادث إلا ما كان جوهرياً منها ، هو الروح ، وهو محل الاستشهاد وأما ما عدا ذلك فلا لزوم للتطويل بذكره ، سيما وقد طال عليه الأمد ، وانهم من عنصر غير عنصر العرب ، فالتوراة تضع تواريخ الآباء ليقرأها أبناؤهم اليهود ، وهؤلاء الأبناء متشوقون متشوقون إلى سيرة أسلافهم ، حتى لمعرفة أسمائهم وأسماء أولادهم ، فهذا النوع من البيان ربما كان فيه شيء من الأهمية بالنسبة لليهود ، ولكنه بالنسبة للعرب وباقي العناصر فليس مهماً ، إنما المهم الوقوف على ما فيه من الجوهر والروح ، وهذا هو أسلوب القرآن الكريم .

الجواب الثاني — إن السفر الذي بيد اليهود اليوم المدعوه «توراة» أو «عهداً عتيقاً» هو تاريخ كباقي تواريخ العالم يجمع الغث ، والسمين ، ويذكر المهم وغير المهم ، ويأتي على ما فيه فائدة روحية وعلى ما ليس فيه ذلك ، بل يذكر ما يعود بالضرر على القاريء — على شرفه ودينه ومروءته وعرضه — حتى أنه ليذكر حوادث زنا الأنبياء (حاشاهم) وزنا أبناء الأنبياء وبناتهم — على قوله — وحتى أنه ليذكر مسكرهم وكذبهم وختلهم ، وحتى أنه ليذكر ، أنهم قوادون على نسائهم إلى آخر ما تقشع منه الجلود ، وتبرأ منه الإنسانية!!! كأنها تفعل هذا كباقي المؤرخين الذين يذكرون في أسفارهم كل ما هب ودرج ، ومن كل ما بين السماء والماء ، وأما القرآن المجيد فليس تاريخاً ينبغي أن يذكر فيه جميع أسماء الأزمنة والأمكنة والأشخاص الذين لهم تعلق بالسيرة التاريخية ، أعني أن القرآن إذا ذكر نبذة من التاريخ فلا يذكرها على أنها تاريخ حتى يجب عليه أن يلتزم ذكر هذه الأشياء

تفصيلاً ، وإنما يذكر ذلك لأجل العبرة والقياس كما سيأتي قوله : « لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب » (ع : ١١١) ، أو بيان سنن الاجتماع كما قال : ﴿ قد خلّكت من قبلكم سنن ﴾ ، فسيرُوا في الأرض ، فانظروا كيف كان عاقبة المكذّبين ﴾ (٣ : ١٣٧) ، أو للهداية والعظة كما قال : ﴿ هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ﴾ (٣ : ١٣٨) ، أو للتذكّر كما قال : ﴿ إن هو إلاّ ذِكْرٌ لِّلَّذِينَ كَرِهُوا ﴾ (٦ : ٩٠) ، الى غير ذلك من المقاصد الدينية ، فالقرآن لا يذكر شيئاً من التاريخ إلا لذلك ونحوه ، فلا يذكر قصة لبيس بن حدوثها ولا لأجل التفكه بها ، أو الإحاطة بتفاصيلها وجزئياتها ، وربما اكتفى القرآن بموضع العبرة ومحل الذكرى ، ولا يأتي بها مفصلة بجزئياتها التي لا تزيد في العبرة ، بل ربما تشغل عنها .

وقد اهتدى بعض المؤرخين الراقين في هذه الأزمنة الى الاقتداء بهذه الطريقة فصار أهل المنزلة العالية منهم يذكرون من وقائع التاريخ ما يستنبطون من الاحكام الاجتماعية ، وهي الأمور الكلية ولا يحفلون بالجزئيات ، لما يقع فيها منه الخلاف الذي يذهب بالثقة ، ولما في قراءتها من الاسراف في الزمن ، والاضاعة للعمر بغير فائدة توازيه ، وبهذه الطريقة يمكن إيداع ما عرف من تاريخ العالم في مجلد واحد يوثق به ويستفاد منه ، فلا يكون عرضة للتكذيب والطمع ، كما هو الشأن في المصنفات التي تستقصي الوقائع الجزئية مفصلة تفصيلاً .

إن محاولة جمل قصص القرآن ككتب التاريخ بإدخال ما يروون فيها على انه بيان لها — هي مخالفة لسنته ، وصرف للقلوب عن موعظاته وإضاعة لمقصده وحكمته ، فالواجب أن نفهم ما فيه ، ونعمل أفسكارنا في استخراج العبر منه ونزع نفوسنا عما ذمه وقبحه ، ونحملها على التحطّي بما استحسنته ومدحه .

وجملة القول ان طريقة القرآن في قصص الذين خلوا هي منتهى الحكمة التي اهتدى اليها المؤرخون الراقون ، وما كان لمحمد الأُمي الناشيء في تلك الجاهلية الأُمية أن يرتقي اليها بفكره ، وقد جهلها الحكماء في عصره وقبل عصره ، ولكن ذلك وحي يوحى ، وتعليم من الله يُقتفى .
(مرحى)

(واخوته ...)

- ٢ -

قال السيد البصري :

سلامة قلب الاناث وبعدهن عن حسد أقاربهم

نعلم من التاريخ أنه كان ليعقوب بنت اسمها « دينة » من زوجته « ليثة » ولدت بعد إختوتها الأشقاء الستة ، فهي أخت يوسف لأبيه ، ولكن ليس لهذه الأخت مشاركة في حسد يوسف والكيد له ، ولم يذكر عنها أقل انتقاد على أيها من هذا القبيل .

ونعلم أيضاً من التاريخ أن ليعقوب من الحفدة الإناث « سارح » وهي بنت ابن « أشير » ولكن هذه أيضاً لم يخبرنا التاريخ أن لها دخلاً في الانتقاد على جدها مع أحفاده المذكور حينما قالوا له : « تالله إنك لفي ضلالك القديم » — الأمر الذي نستنتج منه سلامة قلب الإناث مطلقاً من أخوات وبنات أخ ، وشدة بعدهن عن حسد وعداء أقاربهن على كل حال ، شأن النساء عموماً في ميلهن للطف والحب ورقة العاطفة ، هذه كلمتي المختصرة والسلام عليكم .

(آيات)

- ١ -

قال مولانا النجفي (١) :

العبر المتضمنة قصة يوسف

في قصة يوسف وإخوته عِيسَى وعِظَاتٌ تقطع أعناق الإبل للوقوف عليها ،
وإليكم بعضها :

١ - إنه قد يقع بين الإخوة من العداء مثل ما يقع بين الأجانب بل أشد وأشد .
٢ - تعدد الزوجات قد يفضي للنزاع والتحاسد بين الضرّات فتسري عدوى ذلك لأبنائهم .

٣ - إنه قد تجتمع الجماعة الجماء الغفيرة ولو أقارب على إلحاق الضرر والكيد
لذي قرباهم ولو أخاً صغيراً !!

٤ - إن الحسد قد يكون على مجرد الحب ، وهو غريب (حتى على الحب
لا أخلو من الحسد) فكيف لو كان مشفوعاً بمساعدات مادية وتخصيصات مالية !!

٥ - إن الأب مهما احتاط في حفظ ولده من الحسدة فمن الممكن مع الاحتياط
أن يقتاله الحاسدون وبضره الضارون .

٦ - إنه كما تقع المداوات والأضرار بين أولاد غير الأنبياء فكذا تقع بين
أولاد الأنبياء وسلائل الأولياء وذراري ذوي البيوتات المأجدة .

(١) نسبة إلى النجف الأشرف من بلاد العراق .

٧ - إن المحسود وإن لحقه في البدء ضرر وأذى فربما ستكون العاقبة في مصلحته وإنه سوف ينتصر على أعدائه ومقاوميه .

٨ - إنه ينبغي للمحسود أن يعفو عند المقدرة ، وليس هذا فقط بل يحسن منه أن يقابل السيئة بالحسنة ، والحرمان بالعطاء .

٩ - إنه لا بأس للمكيد إذا قوي أن يشذب شوكة كائديه خوفاً من إعادة الكرة ثاني مرة .

١٠ - إن من اتقى ارتقى ، ولو خاصمه كل أهل الشقاء ، كما قيل: (كن مع الله ولا تبالي) .

١١ - إنه متى تقاربت طباع جماعة أنس بعضهم ببعض وتحابوا ، وكانوا حزباً وحرباً على من ليس من مسلكتهم ، فهؤلاء الأخوة العشرة لنا اتفقوا في الصفات . اتفقوا على كراهة يوسف الذي هو (أمة وحده) فضلاً ولطفاً وأدباً وكالاً .

١٢ - إن الفاضل الخبير قد ينخدع بحيلة أهل الدهاء كما جرى على يعقوب . من أولاده !

١٣ - إن الإخوة قد تختلف أحوالهم مع اتحاد الأصل الذي ينتسبون إليه . واتحاد الخؤولة والبيئة البيتية والوطنية .

أبوك أبي والأصل لا شك واحد

ولكننا صنوان ورد وخروج

فيوسف وإخوته كانوا كما قال أبو الطيب :

تفرقهم وإياه السجايا ويجمعهم وإياه النجار^(١)

(١) النجار الأصل .

- ١٤ - الانسان الكامل منها اعتورته الفتن وأحاطت به المشتهيات فلا بد أن يتغلب عليها بكاله وعفاهه كما وقع ليوسف الصديق مع امرأة العزيز ثم النسوة المصريات.
- ١٥ - إنه متى كان الله مع الإنسان ، ارتفع من عقر البئر إلى رأس المأذنة وصعد من مقر الأسماك إلى منازل الأفلاك طفرة وخرقاً للعادة .
- ١٦ - إن أعمال يوسف تصدق القول بأن يوسف نبي ، وأعمال إخوته تصدق القول بعدم نبوتهم ، خلافاً للعوام .
- ١٧ - إنه لا يلزم أن يكون ابن النبي نبياً ، بل ولا يقتضي أن يكون ابن النبي تقياً ، ولكنه قد يتفق اتفاقاً .
- ١٨ - إن العبرة بالأواخر ، ولذلك سمي إخوة يوسف «كواكب» - مع العلم بما سيقع منهم - نظراً لعاقبة أمرهم وتوبتهم أخيراً وصلاحهم آخر أيامهم .
- ١٩ - عاقبة التقوى والصبر الفرج : ﴿ إِنَّهُ مِنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١٢ : ٩٠) ..
- ٢٠ - كان مآل إخوة يوسف فترة بعد شرة ، وأناة بعد طيش ، وحلماً بعد نزق ، وفناء جماعة في فرد هو « يوسف » ..

(آيات)

- ٣ -

قال الشيخ الموصلي (١) :

العبرة بعاقبة يوسف وإخوته

لا أحد يجهل ما فعله إخوة يوسف من كيد ، وما دبروا من ختل وحيلة ،

(١) نسبة الى الموصلي من بلاد العراق ..

وكيف نصبوا له الجبائل ، وجاءوا على قميصه بدم كذب ، وسولت لهم أنفسهم
أمراً ، وألقوه في غيابة الجب ، فما كان عاقبته ألا أنه تربى في مصر ، وترعرع
وبلغ أشده ، ثم كان لإخوته من المحسنين .

هذه كانت قصة يوسف ، وذلك نبأ إخوته ، كان منهم الإساءة ومنه الاحسان
ومنهم الشر ومنه الخير ، وكان أول أمره عناء وآخره هناء ، ومبدأه ذل ،
ونهايته عز ، وعلى العكس كان حال إخوته ، كان مبدأهم الاستقلال وأخيراً
صاروا تحت سيطرته ، ذلك عبرة للمعتبرين ، وفيه آيات للسائلين .

تنبئك قصة يوسف مع إخوته بما يلاقيه ذوو الفضل من تعدى الجاهلين ، فما
في الأرض من فاضل إلا كان في أول أمره مطارداً منبوذاً من الأعداء ، تسطوا
عليه الأقرباء ، وتحط من قدره الأصدقاء ، وتهينه الأولياء ، استغراباً لقوله ،
واستهجاناً لعمله ، وخطأ من شأنه ، وحسداً على ما آتاه الله من فضله ، وإجباطاً
لأمله ، وتشنيعاً عليه ، واستهزاءً به لديه ، فان صبر فاز ، وإن جزع باد ، تعجب
كيف كانت حال يوسف الصديق ، بيع للمصريين ، وترعرع في بيت العزيز ، ثم
حافت به الفتنة ، وصبر على الظلم والسجن ، ولم يدر ظالموه أن السعد سيخدمه ،
وأن راية العز ستخفق فوق رأسه ، وأنه سيقبض على ناصية البلاد ، وتدين له
العباد ، ويساعده الزمان ، وينسج على ما قاساه عناكب النسيان .

ذلك مثل الصادقين القائمين بالأعمال الشريفة ، فليُبشر أولئك الذين صدقت
نياتهم ، وحسنت أعمالهم ، وأخلصوا لأمتهم ، فسوف يُبدل شقاؤهم راحة ،
وذلمهم عزاً وسعادة ، هذا هو ناموس الوجود ، لم يشذ منه نبي مرسل ، ولا عالم
فاضل ، وكانت العاقبة للمتقين ، ولقد كان لنا في رسول الله (ﷺ) أسوة حسنة
فلقد أُوذي كما أُوذي يوسف الصديق ، وما آذاه إلا أقرباءه الأدنى ، وما تألب
عليه سوى قريش ، ثم نصره الله كما نصر يوسف ، وآوى إليه من كان يؤذيه

كأبي سفيان وزوجه هند ، وغيرهما من عِلِّيَّةِ القوم وسراهم وعظماهم ، فأصبحوا له خاضعين ، كما خسر إخوة يوسف له ساجدين ، آمنا بناموس الله وكتابه الكريم .

(للسائلين)

- ١ -

قال الاستاذ الحلبي :

تخصيص الفائدة بمن يبحث عنها

للسائلين — أي لمن يسأل ويهمه الوقوف على الحوادث التاريخية وعواقبها، ويغنى بغرائب الأعمال ونتائجها .

للسائلين — الذين يستحثون الأخبار ، ويستطلعون الوقائع ، ويتطلبون الوقوف على الحوادث .

للسائلين — الذين يسألون الرواة ، وأهل الذِكر ، ويسألون التاريخ الذي سجل سيرتهم ، وحفظ لنا ترجمة حياتهم وأعمالهم .

للسائلين -- الذين يهمهم الوقوف على العِبَر والعظات ، وتهتمهم الاستفادة من القصص والأمثلة .

للسائلين — الذين يتأملون في أسباب حوادثهم ونتائجها ، والوقوف على القواعد الاجتماعية ، والفوائد التاريخية .

للسائلين — الذين يحرصون على العلم والتعلم ويبحثون عما يجهلونه حباً منهم في العلم والمعرفة ، فهم الذين يتبرون بعواقب الأمور التي تدل عليها أوائها ومقدماتها

(إذ قالوا . . الخ)

- ١ -

وقال الاستاذ الصيداوي :

مفاوضة الاخوة في شأن يوسف

لقد تم الكلام أيها السادة على يوسف وحلمه ، ويعقوب وبشارته لابنه ،
والآن نشرع في المفاوضة التي تبودلت بين إخوة يوسف في شأنه :

اجتمع إخوة يوسف العشرة ، وقد ظهرت على وجوههم علامات الاهتمام
بما زجها الانتقاد المر على أبيهم الكريم ، تذاكروا في حال والدم مع عموم أولاده
واضطراب جو معاملته لهم ، وعدم مساواته بينهم في التوجه والمِقة ، فاستشاطوا
غيطاً ، وأضغَنَ بعضهم بعضاً على أبيهم ، عقدوا مجلساً تأمروا فيه وتشاوروا
متذمرين من أبيهم ، محرقين أَسَنانهم ، قائلين لتحدث هنا بهدوء وسكينة عن هذا
العطف الأبوي لأخويننا الصغيرين خاصة ، إن يوسف وبنيامين أقرب الى قلب أَيْنا
منا ، وأفضل عنده من جميعنا ، فلا نرى فيه شيئاً من روح المساواة بين الأولاد ،
نقول ذلك ، والأسف ملء أفئدتنا ، لأنه يجب على كل أب أن يساوي بين أولاده
في المحبة ، في الأعمال ، في التوجه ، في الالتفات ، في التملك ، في التعليم ، في
الراحة ، وفي كل موجبات السرور ، فأبونا - مع احترامنا للشخص - هو غلطان ،
ولذلك لم يبق لنا صبر على السكوت عن هذا الأمر الإِدِّ ، كيف وهو يحمل بين
جنبه قلباً خلواً من الانصاف والعدالة التي تنبغي للأولاد من والديهم . قالوا ذلك

على طريق المسارّة بصوت منخفض ، لئلا يسمعهم أحد من الرعاة الذين كانوا معهم ، وههنا تذكر قول أبي الأسود الدؤلي ::

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه	فالكل أعداء له وخصوم
وترى اللبيب مُحَسَّداً لم يجترم	شتم الرجال وعرضه مشتموم
وكذلك من عظمت عليه نعمة	حُسَّاده سيف عليه صروم

(إذ قالوا . . النع)

- ٢ -

وقال الفاضل الطرابلسي :

سبب عداة اخوة يوسف له ولأخيه بنيامين

كان يوسف تعزية ليعقوب في أواخر أيامه ، سيما بعد موت راحيل ، سيما وأبوه يعلم أنه سيصير له مستقبل ذو شأن ، وكان بنيامين صغيراً لطيفاً ابن عشر سنين ، فبالطبع كان محبوباً جداً لأبيه ، ولهذا كان يوسف أيضاً يحبه حباً جماً ، فكان يعقوب يحب يوسف حباً زائداً لهذا الوجه أيضاً كما قيل (حبيب الى قلبي حبيب حبيبي) ، فكنت لو فتشت قلب يعقوب لم تجد فيه بعد خالقه سوى يوسف ، فكان أثر عنده من إخوته ، وكان يظهر من أبيه أنه هو موضع الآمال ووجهة الأمان ، وأنه أنيس وحشته ، وصير وحدته ، وعماد حياته ، وأنه هو كل أمله ورجائه في هذا العالم ، وأنه الزهرة البانعة في روض أولاده ، والابتسامة اللامعة في ثغر أماله ، والفجر المشرق في سماء عيشته ، وكانت أعمال يعقوب وأقواله مظهر لذلك كله ، هذا هو حب يعقوب ليوسف ، وليس هو مجرد أنه كان يضمه .

ويشبهه ، كما اقتصر بعض المفسرين ، فما أضعف الحب اذا كان كله عبارة عن مجرد الضم والشم ، كما أنه ليس هو مجرد أن يعقوب عمل لابنه قيداً ملوناً ، كما اقتصر عليه آخرون ، ولكن حب يعقوب لابنه حباً كثيراً لا مزيد عليه ظهر في مظاهر عديدة مما أتينا عليه ونحوه ، وأما حب يعقوب لبنيامين فلأنه أصغر أبنائه جميعاً ولأنه ابن زوجه راحيل المحبوبة ، فلذلك كان يوسف وبنيامين تحت جناح أبيهما وكانا كريمين عليه ، ولذا هاج أخوتهما عليها وماجوا ، وقالوا : ما هو البرر لهذا الانعطاف الخصوصي نحو هذين الولدين ؟ فهل هذا انصاف وعدالة بين الأولاد ؟ وهل هو جار مجرى المساواة المطلوبة ؟ . . اللهم كلا . . فاذاً ~~إن~~ أبانا لفي ضلال مبين ~~لأنه~~ لأنه فضل المفضل علينا نحن الفاضلين على الأقوياء ، وخص بمطفه الاثنين دون الجماعة . هذا مرمى مقالهم ، وهكذا نحتوا أثلة أيهم ، ولمررى لقد أصبحوا بهذا الحكم الجائر في ضلال أبين من مبين ، وأظهر من الشمس في رابعة النهار . ولقد كنا نتوقع من هؤلاء الاخوة أن ينسجوا على منوال أيهم في شدة المحبة منهم لأخويهم ، اقتداءً بذلك الوالد الكريم ، الذي ما عمل إلا ما يرضي الله والضمير ، ولكننا رأينا منهم عكس ذلك ، وكنا نتوقع أن يكون بين هؤلاء الاخوة وفاق ، يكون من ورائه راحة عيشه لأبيهم ، ولكن رأينا عكس ذلك ، وكنا نتوقع من هؤلاء الاخوة العشرة أن يربأوا بأنفسهم عن حسد يوسف وأخيه لأنها صغيران ، وهم كبار السن ، ربما كان للواحد منهم في ذلك الوقت ، ولد أكبر من يوسف أو بنيامين فكان ينبغي أن يكون حالهم أرفع من هذا الحال ، ولكن رأينا عكس ذلك ، وكنا نتوقع من هؤلاء العصبة ، أن يكونوا متواضعين وديمين ، وإذا افتخروا ولا بد افتخروا بأدابهم وكما لهم ، لا بالقوة والشدة . ورحم الله أبانواس حيث يقول :

عجبت للانسان في كبره وهو غداً في قبره يقبر

ما بال من أوله نطفة وجيفة آخره يفخر
أصبح لا يملك تقديم ما يرجو ولا تأخير ما يحذر

ولله في ذلك حكمة ، وله في خلقه شؤون : ﴿ وكذلك فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ،
ليقولوا : أهولاءِ مَنْ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا ؟ ، أليسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ؟ ﴾
(٦ : ٥٣) .

(إذ قالوا .. الح)

— ٣ —

وقال الشيخ محمود الخليلي (١) :

اسباب عداة الاخوة المهمة ليوسف

كانت إخوة يوسف على جانب عظيم من بغضه والنفرة منه وعدائه ، ويرجع
ذلك لأسباب شتى نجملها فيما يلي :

- ١ - زيادة محبة أبيه له وتفضيله إياه .
- ٢ - كونه ابن راحيل الجميلة المحبوبة الحظية عند زوجها .
- ٣ - اختلاف الطباع بينهم وبين أخيه ، فيوسف كان روحياً ميالاً للمعنويات ،
وهم كانوا جسديين ميالين للماديات ، فلم تأتلف طبيعة الطرفين بل كانت مختلفة
أيما اختلاف .

(١) نسبة إلى الخليل من فلسطين .

٤ - إنه كان لا يكلف عملاً ما ، بخلافهم فقد كانوا يعانون رعى الأغنام .

٥ - العداء الذي كان بين ليثة وضرتها أختها راحيل ، فكانت الأولى مغلوبة مكسورة الجناح لمرض في عينيها ، بخلاف الثانية فكانت منتصرة عليها لجمالها ولأنها الصغرى ولأنها هي التي أول ما لحظها سيدنا يعقوب عليه السلام عند البئر .

أتى حبها من قبل أن أعرف الهوى

فصادف قلباً خالياً فتمكنا

ولأنها هي التي كان يعقوب خطبها أولاً من أبيها ، ولكنه أدخله على ليثة بدلاً منها — على ذمة التوراة — فالتحاصة إنه لأسباب نسائية انعقدت العداوة بين الأختين الضرتين ، فانتقلت بطريق السراية والمدوى إلى الأولاد .

٦ - كانوا يتخيلون إن يوسف يترفع عليهم ، فكانوا يظنون إنه استمد هذه القوة من محبة أبيه إياه .

٧ - أحلام يوسف التي كانت تزعمهم وتذيب لغائف قلوبهم ، إذ كان يوسف رأى رؤياه الأولى فذكرها لإخوته ، فقال له إخوته : « أَلَمْ تَكْ تَصِيرْ عَلَيْنَا مُلْكاً ، أَوْ عَلَى الْأَقْلَ يَكُونُ لَكَ عَلَيْنَا سُلْطَةٌ » واذدادو بغضاً له من أجل حلمه هذا ومن أجل كلامه ، ثم رأى رؤياه الثانية التي هي أبلغ من أختها . فذكرها لأبيه فقط ، ولكن الرؤيا فيما بعد بلغت أسماعهم ، ثم لا بد أيضاً أن يكون قد نَحِيَ إليهم ما قاله أبوهم لأخيه من البشائر المستقبلية ، فلهذا مع ما كان يبدو من إمارات ظاهرة ودلائل ناطقة ، على كثرة حبه له ، تفاقم الأمر لديهم ، واستشرى عداؤهم ليوسف ، وبلغ السيل الزبى واعتقدوا أن أباهم التهم حقوقهم النبوية ، فقالوا عن يوسف وسَوَّغِهِ : إن هذين الولدين لا يزالان عثرة في طريقنا إلى اكتساب

توجه أئبنا الينا ، وبنوع خاص يوسف ، فانه هو العلة الوحيدة لرغبة أئبنا عنا ، فحقا إن يوسف هو الجدير بالمجازاة ، لأنه السبب الوحيد في ذلك ، وهو أيضاً الذي لا يزال يكاثرنا باحلامه ، ويباهينا بأوهامه .

وتابع الشيخ الخليلي كلامه قائلا :

تفنيد عداة اخوة يوسف له

هذه هي أهم الأسباب التي حدث بهم الى كره أخيههم ، ثم انتقاد أبيهم ، ولعمري إنهم يخطئون في ذلك ، لأن أخاهم كان في سن لا ينبغي معها توجيه الكراهة اليه ، ولأن أباهم في الحقيقة لم يحب شخص يوسف فقط لأنه يوسف ولأنه مركب من لحم وعظم ، ولكنه أحب من مستجد له الكواكب الأحد عشر والشمس والقمر ، أحب من سجدت الحزُم الأحد عشر لحزُمته في الحقل ، أحب الذي سيجتبيه ربه ، ويعلمه من تأويل الأحاديث ، أحب من سيتم الله نعمته عليه ، كما أتمها على ابراهيم وإسحق ، ، فيمقوب أحب هذه المعاني السامية والمواعيد الجيدة ، التي سيكون يوسف مظهرًا لها ، فبه إنما هو ليوسف في تلك المواعيد ، أو لتلك المواعيد في يوسف . نعم . نعم يوجد في فطرة البشر من التحاسد بين الأقرباء أكثر مما يوجد بين الغرباء ، ويشد بين اثنين على نعمة كلما تقارب اقتدارهما من نيلها ، أو تشابهت أسبابها إليها ، ولذلك كان التحاسد على أشده بين أصحاب المهنة الواحدة ، فإخوة يوسف ههنا وقع التحاسد والتراحم بينهم على نعمة هي اكتساب توجيه أبيهم ، وكل منهم يعتقد أنه قادر على نيل هذه النعمة ، لأن السبب الذي حصل عليه يوسف (فيما يعتقدون) حاصل عندهم أيضاً وما هذا السبب في اعتقادهم سوى النبوة ، بل هم يظنون أنهم حاصلون على شيء آخر يقوي هذا السبب ويدعمه ،

وهو أنهم رجال أ كفاء أهل عمل ودفاع ، ولذلك تخيلوا أن أباهم غلط في أنه كان أشد احتفاظاً بيوسف ، حتى كان أ كرم ولده عليه ، كأنه واحد أييسه ، ليس له ولد غيره ، وإن هذا الأمر يقضي بالعجب العجائب . هذه شبهتهم التي اتكأوا عليها ، وما دروا ان ما تنصوره ليس هو السبب التام بل السبب التام هو المزايا والخصائص التي كانت في شخص يوسف ، فهم غالطون أو مغالطون في قياس أنفسهم على أخيهام فهو قياس مع الفارق أو مع الفوارق ، هذا ما يحضرنى الآن ، فتأملوه برحمة الله ، والسلام عليكم .

(اذ قالوا ليوسف واخوه .. الخ)

- ٤ -

قال تقي الدين المقدسي :

ضرر تعدد الزوجات

من أعظم أسباب عداة إخوة يوسف العشرة ليوسف وبنيامين اختلاف الأمهات (كما سبق أن أشار اليه بعض المحاضرين الأفاضل) مع ضميمة ان سيدنا يعقوب كان يحب راحيل أكثر من كل من سواها ، مع ضميمة أنه قد كان يوجد بين راحيل وبين ضرائرها الثلاثة لا سيما ليثة الحرّة من الحسد والغيرة ما هو مبهود اليوم بين سائر الضرات ، والتاريخ يعيد نفسه وليس تحت الشمس من جديد وما أشبه الليلة بالبارحة ، فلذلك انتقل العداة الذي بين راحيل وسواها ، وسرى للأبناء طبماً ، وهذا المرض هو بعض ما يقاسيه الرجل الذي يتزوج أكثر من واحدة ، وهذا من بعض اسرار قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَنْ لَا تَعْدِلُوا

فَوَاحِدَةٌ ﴿٤ : ٣﴾ ، ثم قال : ﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ
النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ (٤ : ١٢٨) فالبيت الذي فيه زوجتان مثلاً لزوج
واحد لا تستقيم له حال ، ولا يقوم فيه نظام ، وقد ينتقل الضرر من كل ضرة
الى ولدها — الى والده — الى سائر أقاربه ، فهي تفري بينهم العداوة والبغضاء
الى هالاه نهاية له ولعبد العزيز الديريري :

زوجت اثنتين لفرط جهلي	وقد حاز البلى زوج اثنتين
فقلت أعيشُ بينها خروفاً	أنعمُ بينَ أكرمِ نعتين
نجاء الأمر عكس الحال دوماً	عذاباً دائماً يلبتين
رضا هذي بحركِ سخط هذي	فما أخلو من إحدى السخطتين
لهذي ليلةً ولتلك أخرى	نقار دائم في الليلتين
إذا ما شئتَ أن تحيا سعيداً	من الخيرات مملوء اليدين
فعيش عزبا فإن لم تستطعه	فواحدة تكا في عسكرين

وبعد فلا بد — كما أشار اليه أخونا الشيخ محمود الخليلي فيما مر — أن يكون
لتعدد الزوجات دخل في هذا الحسد ، فقد كان يوجد كره بين « راحيل » أم
يوسف الصديق ، وبين شقيقها « ليثة » حيث الاولى كانت جميلة وصغيرة ومحبوبة
أكثر ، فكانت الثانية حاسدة لها حاقدة عليها — الامر الذي أوقد نار الحقد
والمداء في صدر الأختين ، فاستطارت منها شرارة الى صدر أبنائها ، وبعبارة
أصح استطارت شرارة من صدر « ليثة » الى صدور أبنائها الستة ، ثم بالتبعية من
صدر جاريتها « زلفة » لصدر ولديها .

سبحان الله ! أزواج يتخاصمون على التفاهة ، ويكبرون من شأن الشيء الحقير ،

وأبناء تزرع فيهم أمهاتهم بغض الإخوة ، وربما شيئاً من كراهة الآباء ، وكل هذا من نتائج تعدد الزوجات لغير حاجة .

نعم ، وإن ديننا ينص على جواز تعدد الزوجات ولكنه نص محوط بالقيود والأغلال ، نعم ، أباحت لنا شريعتنا التعدد المحدود ، لكن الله تعالى قال لنا في أثر ذلك : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَنْ لَا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ (٤ : ٣) ، غير أننا نحن ما تقيدنا بهذا القيد المتين ، بل أهملناه فانفسح لنا مجال الإجرام ، فاللوم ليس على شريعتنا ، بل علينا نحن ليس إلا .

لم يسند الله الحسد لجماعة معينين إلا لليهود

قلت لكم : إن ما قاله إخوة يوسف ناشيء عن الحسد الذي ملأ صدورهم ، وإن تعجبوا ، فعجب أن الله تعالى لم يسند الحسد لجماعة معينين إلا لليهود وذلك في موضعين الأول قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ (٤ : ٥٣) والثاني قوله تعالى : ﴿ وَكَثِيرٌ مِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا ، حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ ﴾ (٢ : ١٠٩) فليعلم ذلك أهالي فلسطين خاصة والمرب عامة وليأخذوا حذرهم من الصهيونيين ...

الحكمة من ذكر الأعمال السيئة لأقرباء الأنبياء في القرآن

وهنا أمور مدهشه تستلفت الأنظار ، كلا ، بل هي من الغرابة بمكان :

١ - نقرأ في كتاب الله تعالى فنجدده يصف أبناء يعقوب العشرة بأنهم حسدوا

أخاهم ، وضللوا أباهم ، وتفاوضوا في قتل يوسف أو طرحه أرضاً ، ثم رجعوا للعمل على إلقائه في غيابة الجب ليلتقطه بعض التجار ، ثم توصلاً لذلك احتالوا على أبيهم بأنهم ناصحون لأخيههم ، والحال أنهم غاشون ، ثم وعدوه إن أرسله معهم أن يحفظوه ، ثم أخلفوا وعدهم ، بل كانوا منذ إعطاء الوعد مصممين على عدم الوفاء به ، ثم كانت النتيجة أن ذهبوا به وأهانوه وألقوه في غيابة الجب ، فقطعوا بذلك الرحم وعقتوا أباهم وآذوه ثم رجعوا لأبيهم داعين بالويل والثبور وعظائم الأمور ، عجب عجب وأمر غريب !!!

٢ - نقرأ في كتاب الله تعالى فنجدده يحكي عن « قايين ^(١) » أنه حسد أخاه « هابيل » فقتله ، فأصبح من الخاسرين (٥ : ٣٠ - ٣٣) فالعبرة في هذا القصص أن حادثة ابن آدم هي أقدم قصة يدلنا على أن الحسد كان مثار أول جناية في البشر ، ولا يزال هو الذي يفسد على الناس أمر اجتماعهم ، من اجتماع العشيرة في الدار - إلى اجتماع القبيلة - إلى اجتماع الأمة والدولة - فترى الحاسد تثقل عليه نعمة الله على أخيه في النسب أو الجنس أو الدين ، وهو لم يتعرض لمثلها لينالها ، فينبغي على أخيه ولو بما فيه شقاء الأبد .

٣ - نقرأ في كتاب الله فنجدده يحكي أن ابن نوح عليه السلام أبي أن يدخل في سفينته فكان من المفرقين ، وأنه كان عملاً غير صالح ، حتى أنه لعدم صلاحه خرج من عمود النسب (١١ : ٤٢ - ٤٧) .

٤ - نقرأ في كتاب الله تعالى فنجدده يقول : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحَ وَامْرَأَةَ لُوطٍ ، كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادٍ نَاصِحَيْنِ فَخَفَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ، وَقِيلَ : ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاهِلِينَ ﴾ (٦٦ : ١٠) .

٤ - نقرأ في كتاب الله تعالى فنجدده يصف آزر أبا سيدنا إبراهيم بأنه كان

من عبدة الأوثان ، ولياً للشيطان ، (١٩ : ٤٢ - ٤٦) وأنه كان عدواً لله (١١٤ : ٩) .

٦ - نقرأ في كتاب الله تعالى فنجد أنه يذكر أن قارون (قورح) بنى على موسى ، خسف الله به وبداره الأرض ، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله ، وما كان من المنتصرين (٢٨ : ٧٦ و ٨١) مع أن قارون كان ابن عم موسى ، لأنه « قارون بن يَصْهَارَ بْنِ قَهَاتَ » ، وأما موسى فهو « موسى بن عمران (عمرام) بن قَهَاتَ » ، فلم تنفعه القرابة القربى .

٧ - نقرأ في كتاب الله تعالى فنجد أنه يقول ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ ، وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ﴾ الخ (٢٨ : ٣٤ - ٤٠) وذلك حينما كان سليمان ولياً عهد أبيه ، فتعدى عليه أخوه « أدونيا » واغتصب منه الملك : وكان هذا في حال شيخوخة أبيها داود ، ولما سمع داود أمراً بمسح ابنه سليمان ملكاً بالفعل ، فهبت ريح سليمان بذلك عظيم ، إلى آخر ما هو مذكور في القرآن والتاريخ ، وهذه الحركة كانت من ابن نبيّ على ابن نبيّ في حالة حياة أبيها .

٨ - نقرأ في كتاب الله تعالى فنجد أنه يذكر أن « أبا لهب » وامرأته « أم جميل » من التائتين ، ومن صالبي النار ، مع أن أبا لهب جار النبيّ الصديق ، وعمه القريب ، وكان قد اعتنق « ثوبته » حينما بشرته بولادته ، وكان أبو لهب وزوجه من سنام قریش وواسطة العقد ودرة تاج العرب في ذلك العصر .

نعم . نعم . إننا نقرأ كل هذه الحوادث في القرآن ، ونروي حوادث أخرى من هذا القبيل في الأحاديث ، ونرى أمثلة كثيرة من هذه الحوادث في الأسفار التاريخية العتيقة ، فما هي الحِكْمَةُ والفائدة من ذكر هذه الأخبار والأقاصيص في القرآن المجيد ونحوه يا ثرى ؟

هذا سؤال كان وجهه علينا بعض طلبة العلم ، وقد أجبناه عنه في ذلك الحين .
بما خلاصته :

إن الحكمة والفائدة من ذكر هذه الحوادث وأشباهاها هي تقرير أصل التوحيد
المهادم لقاعدة الوثنية بالفصل بين ما هو لله ، وما هو لرسله ، تصويراً لحالة الرسل
الحقيقية ، وهي أنهم لم يرسلوا إلا مبشرين ومنذرين ، ما عليهم إلا تبليغ دين الله
 وإقامته ، وليس لهم من الأمر شيء ، ولا يملكون لأحد ضرراً ولا نفعاً ، وليس
عليهم هدى أحد ولا رشده بالفعل ، وإنما عليهم هداية التعليم والحجة ، فلا
يهدون من أحبوا ، ولا يغنون عنه من الله شيئاً ، وإن كان أقرب الناس وأحبهم
إليهم في النسب ، والمعاملة الدنيوية .

وأما قاعدة وثنية العرب ، ونحوهم فهي اتخاذ أولياء من العباد يزعمون أنهم
وسطاء بين الله وبين عباده ، في شؤون الأشقاء والإسعاد ، والسلب والإمداد
فجعلوا مدار السعادة والنجاة على شفاعاة أنبيائهم وأوليائهم فناء القرآن بذكر هذه
الحوادث ، حوادث أقارب الأنبياء هادماً لتلك القاعدة الوثنية ، معلماً الناس أن
مدار النجاة على الإيمان والأعمال ، ولا تأثير للأقربين والبنين . (مرعى) .

(إذ قالوا .. الخ)

— ٥ —

قال المدقق الذي :

الرفاع عن حب يعقوب لولديه يوسف وبنيامين

لي ههنا كلمة أقولها تمهيداً للدفاع عن سيدنا يعقوب عليه السلام في حبه لولديه
يوسف وبنيامين وإليكوها :

لحبة الولد طوران : « طور الصغر » ، وهو حب ذاتي لهم ، لا علة له ولا

فكرة فيه ولا تدبير ، بل هو أمر طبيعي فطري داخل في عموم الرحمة الربانية العامة لجميع الحيوانات ، لا فرق فيها بين الإنسان والهرة ، و « الطور الثاني » حب معلول ، معه فكر ، وهو حب الأمل والرجاء بالولد ، ودرجات هذا النوع من الحب على قدر درجات الأمل ..

إذا تقرر هذا فحب يعقوب الزائد لولده (بنيامين) كان من قبيل النوع الأول لأنه كان إذ ذاك ابن سبع سنين ، وأما حبه الزائد لولده يوسف فكان تقريباً من قبيل النوعين ، لأنه كان صغيراً ابن سبع عشرة سنة أو أقل ، وكان لأبيه فيه الأمل والرجاء العظيم ، لما كان يتفرس فيه من إمارات النجابة ، ولما سمعه من رؤيته المناميتين ولما أوحى إليه فيه من الاجتهاد والتعليم وإتمام النعمة ، وأنتم تعلمون أن وجوه المحبة إذا تعددت غذى بعضها بعضاً ، وعلى هذا فيعقوب معذور طبعاً وشرعاً على هذين النوعين مع الزيادة والتفضيل ، فانتقاد أبنائه العشرة عليه في ذلك في غير محله ، والسلام عليكم ورحمة الله .

(إذ قالوا .. الخ)

— ٦ —

قال الوحيد الاسكندري :

استناد القول الى الاخوة العشرة جميعاً

أضاف القول إلى الإخوة العشرة جميعاً في قوله : « إذ قالوا » مع أنه لا بد أن يكون القائل هو البعض فقط ، والباقي ساكت مستمع ، وإنما صح ذلك لأن الجماعة متكافلة في الأمور العامة ، ولذلك وجب على الأمة

الإنکار علی قائل أو فاعل المنکر من أفرادها ، لئلا یفشوا فیها . فیصیر خلقاً من أخلاقها وعادة من عاداتها ، فتستحق عقوبته فی الدنیا کالذل وسوء السمعة کما تستحق عقوبته فی الآخرة بما دنس نفوسها ، ولذلك لعن الله تعالى الذین کفروا من بنی اسرائیل بما عصوا وکانوا یعتدون ، وبین سبب ذلك بقوله : ﴿ کَانُوا لَا یَتَذَنَّبُونَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾ (۶ : ۸۲) ، ذلك بأن من أقر قائل أو فاعل المنکر ، فلم ینه ولم یسخط علیه ، تكون نفسه مشاکلة لنفسه ، تأنس بها تأنس به ، ثم لا یلبث أن یقول أو یفعل المنکر ولو بعد حین ، إذا لم یعجز عن ذلك بسبب من الأسباب الحسیة .

الساکت عن المنکر یکون شریکاً فی الاثم لفاعله

وثم وجه آخر یجعل إسناد المنکر إلى قائله والراضي به إسناداً قریباً من الحقیقة ، وهو ان عدم النهی عن المنکر هو السبب فی انتشاره وشیوعه ، لأن المایلین إلى المنکر لو علموا أن باقی الجماعة یعتقدونهم ویؤخذونهم علیه لما فعلوه ، إلا ما یکون من الخلس الخفیة ، ولذلك کان الساکت علی المنکر شریکاً فی الاثم للفاعل .

ومثل هؤلاء مثل راكب مع جماعة فی سفینة ، ذهب ینقر فیها ، فإن أخذوا علی یده نجوا ونجا معهم ، وإلا هلك وهلكوا جمیعاً ، ففشو المنکرات مهلكة للأمة : ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾ (۸ : ۲۵) فلا بد للمرء فی حفظ نفسه ومن معه من الأمر بالمعروف والنهی عن المنکر لا سيما أمهات المنکرات المفسدة للاجتماع کالكذب والخيانة والحسد والفش ، فهذا لیس من فروض الکفاية التي يتواكل فیها الناس کصلاة الجنابة . إذ لا یجب علی کل من علم

أن هنا ميتاً أن ينتظر غسله ليصلي عليه ، بل يكفي أن يعلم أنه يوجد من يصلي عليه ولكنه إذا رأى منكراً وجب عليه أن ينهى عنه ولا ينتظر غيره .

(أحسنت أحسنت)

(ونحن عصبة ..)

— ١ —

قال الاستاذ الجزائري (١) :

وجه انتقاد الاخوة العشرة لأبيهم على حبه ليوسف وأخيه والرد عليه

يقول إخوة يوسف العشرة إن أبانا يفضل علينا في المحبة يوسف وسوغه (٢)، وهما اثنان صغيران لا كفاية فيهما ولا منفعة، بل لا في العير ولا في النفير، وأمانحن فرجال عشرة كفاة، ملتفون حول أيينا نقوم بمرافقه من رعي الغنم وغيرها، أولوا قوة وأولوا بأس شديد، لا نستذل ولا نستقل، فما لأينا يعبث بنا ويستصغر أمرنا؟ هما ولدان صغيران، لا يرجيان لدفع أو نفع، ولا يؤمل منها عائدة، فما هي هذه المحبة الزائدة؟ وماذا يُعول أبونا على غصنين غصّين، ويترك الجدوع القوية؟ وهل يلتقط الخردل دون الجندل؟ وأين الحسام من المنجل؟

هذه خلاصة شبهتهم التي تمسكوا بها للانتقاد على أبيهم، ذكرها الله تعالى ولم يذكر الجواب عنها، لأنها شبهة ضعيفة واهية، والجواب عنها ظاهر لا تحجج،

(١) نسبة إلى الجزائر من بلاد المغرب العربي في شمال افريقية .

(٢) هذا سوغ هذا وسوغته كلامهما في الذكر والاتي ولد بعده ولم يولد بينهما (القاموس).

وخلاصته إن صغر بنيامين ويتمه من أمه ، هو الذي أوجب تفضيل أبيه له في المحبة كما هو معروف في كل عصر ومصر ، وأما يوسف فإن صغر سنه ، وعدم المنفعة الجسمانية منه ، لا يصح أن يكون أقل منهم فضلاً ، بل هو أفضل منهم ، لأنه أحيا قلباً ، وأذكى فؤاداً ، وفضل الإنسان في حياة قلبه ، وذكاء لبه ، وحسن مستقبله ، ونفع يوسف — بحسب ما علم أبوه فيه — أعلى وأجل وأبقى ، وأما القوة البدنية ، والخدمة الجسمانية ، فمادية تغدو وترتحل ، وتقر عيناً ثم تنتقل :

تقول أنا الكبير فعظموني ألا هبلتكم أمك من كبير
إذا كان الصغير أعم نفعاً فما فضل الكبير على الصغير

يوسف إنسان بنفسه ، حي بطبعه ، دائم الحياة بعقله وفضله ، وهؤلاء معدومون بذواتهم إذا كانوا منفردين ، موجودون إذا كانوا مجتمعين ، مفتخرون بطولهم (وبُطُولَتِهِمْ) وعرضهم (وعرضَتِهِمْ) : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ، لا يَسْتَخَرُ قَوْمٌ من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ﴾ (٤٩ : ١١) فلا ينبغي للإنسان أن يعجب بالكثرة فإنها لا تقني من المعنويات شيئاً ، وليست الفضيلة بقوة الأجساد ولكن بالعقل والفؤاد .

العصبة في اللغة

واسمحوا لي قبل أن أغادر هذا المنبر أيها السادة بقص النادرة التالية : (قيل لأبي عبد الملك عَنَّا ق : بأي شيء تزعمون أن « أبا علي الأسواري » أفضل من « سلام أبي المنذر » ؟ — قال : لأنه لما مات « سلام أبو المنذر » مشى « أبو علي » في جنازته ، فلما مات « أبو علي » لم يمش « سلام » في جنازته !) وما أشبه حال إخوة

يوسف بهذه الحكاية ؟ فإنهم ادعوا أنهم أحق بالأحبية من يوسف وأخيه ، ولماذا ياترى ؟ .. لأنهم عصبية - والعصبة العشرة فصاعداً كما في (الكشاف) أو الجماعة المعتصبة المتعاضدة ، كما في (مفردات الراغب) أو من العشرة إلى الأربعين ، كما في (النهاية لابن الأثير) ، وأما الإثنان فلا يستحقان (اسم العصبة) ، لكونهما اثنين فقط - فكأنهم قالوا : نحن أحق بالأحبية لأننا عشرة بخلاف أخويننا الإثنين ، لأنها ليسا بعشرة ، فهذه القضية شبيهة بتلك ، كمشابهة الليلة بالبارحة .

(إن أبانا لفي ضلال مبين)

— ١ —

قال أبو الفضل المديني (١) :

تضليل اخوة يوسف لأبيهم جهلاً منهم وسفاهة

ضللوا أباهم ، لأنهم لم يكونوا يعلمون علمه ، ولكن أبوهم سيأتي يقول لهم : « وأعلم من الله ما لا تعلمون » ، كيف لا ؟ وقد تأكد صحة منامي ولله ، وعلم فيه من الله ما علم ، من اجتباؤه وتعليمه وإتمام نعمته عليه ، وشيء من هذا لم يصل مضمونه عند إخوته إلى درجة العلم :

لو كنت تعلم ما أقول عذرتني	أو كنت أجهل ما تقول عذلتك
لكن جهلت مقالي فعذلتني	وعلمت أنك جاهل فعذرتك

(١) نسبة إلى المدينة المنورة في الحجاز .

قيل : « العالم يعرف الجاهل ، لأنه كان قبل علمه جاهلاً ، والجاهل لا يعرف العالم ، إذ لم يكن قبل جهله عالماً » ، ولرئيس المؤتمر :

واحتذر الناس أن يروك : محبباً أو حبيباً واذكر بني يعقوباً
ضلتوا من أحب وهو أبوهم !! ثم ظلموا قد شردوا المحبوبات !!

(إن أبانا لفي ضلال ... الخ)

— ٢ —

قال الاستاذ العكاري :

شرح كلمة الضلال

لقد اختصر المفسرون في شرح كلمة « الضلال » اختصاراً ، ولكني أنا الحقير لن أقف عند هذا الاختصار ، لأنني لم أقف عنده فيما بيني وبين نفسي ، بل جاوزته ، وأريد أن أجوزه مع القراء الكرام ، إلى ما يقتضيه المقام ، من بسط في الكلام ، فأقول :

الضلال في الشيء فقدان الهدى فيه ، سواء أ كان كثيراً أم يسيراً ، وسواء أ كان عمداً ، أم سهواً ، أم تأويلاً ، وسواء أ كان في الأمور الدنيوية ، أم في الأمور الدينية ، وسواء أ كان في الفروع أم في الأصول ، ولذلك وصف به الكفار تارة ووصف به كبراء أهل الإيمان تارة أخرى ، فمن الضلال الذي هو فقدان الفروع الشرعية التفصيلية ، أو فقدان أفضل طريق لإرشاد البشر — قوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴾ (٩٣ : ٧) ، أي رآك ضالاً عن فروع

الشريعة التفصيلية فهذا إلهي بالوحي ، أو رآك ضالاً عن الطريقة المثلى التي تنبغي لإرشاد الناس ، فهذا إلهي بالرسالة ..

ومن الضلال الناشئ عن السهو والخطأ دون العمد ما في قول موسى : ﴿ فَعَلَّمْتُهَا إِذْنًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ (٢٦ : ٢٠) ومن إطلاقه على النسيان : ﴿ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى ﴾ (٢ : ٢٨٢) ، ومن الضلال بمعنى الوقوع في الغلط عن تأويل دون تعمد الغلط : ﴿ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ (١ : ٧) قيل هم النصاري لأنهم لم يتعمدوا الكفر ، بل وقعوا فيه بسبب الجهل والتأويل ، بخلاف المفضوب عليهم اليهود فإن رؤساءهم وقعوا في الكفر عن عمد ، ومن الضلال في الأمور الدنيوية ما هو في آيتنا التي نحن بصدد التعليق عليها ، لأن الضلال الذي نسبوه لأبيهم إنما هو في معاملة أولاده ، ومثله ما في قول أحفاده : ﴿ تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴾ (آ : ٩٥) وقول النسوة المدينيات : ﴿ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (آ : ٣٠) .

وبعد فهذه الأنواع من الضلال هي أخف من الضلال الذي يكون في أصول الدين عمداً ، لا عن تأويل ، وذلك كما في قوله تعالى : ﴿ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ، الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ ، وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، وَيَمْنَعُونَهَا عَوَجاً ، أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ (١٤ : ٣) وقوله تعالى : ﴿ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ، إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴾ (٦٧ : ٩) ، وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، إِذْ بَعَثَ فِيهَا رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ ، وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (٣ : ١٦٤) ، فهذا النوع من الضلال هو ضلال الكفر العمدي ، والذي ليس شيء أكبر منه ، وعلامته أن يوصف

يوصف بعيد أو كبير أو مبین ، وما يشبه ذلك مما يشير إلى عظمه في باب الكفر .
وإنما وصف أبناء يعقوب ضلال أيهم بأنه (مبین) تشدداً في البذاءة ، وغلوّاً
في السفاهة على جناب والدهم عليه السلام .

انتقاد اخوة يوسف على تضليلهم ايهم

أمر عجيب والله ، جماعة ليسوا بأولاد صغار ، ولكنهم رجال كبار ، وجماعة
ليسوا عبارة عن ثلاثة أو أربعة ، ولكنهم عشرة ، كلهم يتفقون على حسد ولدين
صغيرين لطيمين ، يتفقون على حسدهما ليس على شيء جوهري مهم ، ولكن على القبلة
والبسمة والجلسة على الركبة ، يتفقون على انتقاد أيهم وهم يعلمون أنه نبي معصوم ،
لا يجب إلا ما يجب الله ولا يكرم إلا من أكرمه الله ولا يخالف في حبه وكرمه
شريعة الله ، كلهم يتفقون على الحكم عليه بأنه في ضلال ، ويأليتهم اقتصروا على كلمة
« ضلال » التي يوصف بها (بمجرد) كل من وقع في غلط مطلقاً ، بل وصفوا هذا
الضلال بأنه « مبین » ، والضلال المبین أو الكبير أو البعيد ، لا يوصف به إلا
الكافر المتعمد الكفر كما قدمنا ، ثم بعد هذا كله يأتي بعض المفسرين ويوجه عليهم
لقب « النبوة » ، كأنه هو الذي يملك هذه الرتب ، وكأن بيده تصريح هذه
الألقاب ، فيفضل بإعطاء النبوة لأناس ، لم يقل الله أنهم أنبياء . ولا قال ذلك
رسوله ، ولا روي ذلك عن الخلفاء الراشدين ، ولا عن الأئمة المجتهدين ، وبالله ماذا
يعمل من يقول بذلك في الآية (٨) ؟ هل يسقط هذا المدد من السورة ؟ فبعد ما
كانت أعدادها (١١١) تصير أعدادها (١١٠) ؟ وهل يقدر أن يجتمع بحيرائيل
أمين الوحي يرجع إليه هذه الآية الثامنة ، بل الآيات الكثيرة من الثامنة إلى الثامنة
عشر ، وأضف إلى ذلك الآية (٧٧) فهل يمكننا أن نطمسها من المصحف ، حتى

يمكننا أن نقول إن هؤلاء القوم أنبياء؟ أو هل النبوة رتبة رسمية توجه لمن هو أهل لها ومن ليس لها بأهل؟

الدخول الجدي في المؤامرة

آ(٩) ﴿اقتُلُوا يُوسُفَ ، أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا ، يَخِلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ۖ ۝ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ۝﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية التاسعة فقام الحاج سعدي المكي (١) وقال :

﴿اقتلوا يوسف﴾ ، كأنهم أطبقوا على ذلك ، إلا من قال : «لا تقتلوا يوسف» وقيل الأمر بالقتل شمعون ، والباقون كانوا راضين فجعلوا آمين ﴿أو اطرحوه أرضاً﴾ منكورة مجهولة بعيدة من العمران ﴿يخل لكم وجه أبيكم﴾ يقبل عليكم إقبالة واحدة لا يلتفت عنكم الى غيركم ، والمراد سلامة محبته لهم ممن يشاركهم فيها وينازعهم إياها فكان ذكر الوجه لتصوير معنى إقباله عليهم ، لأن الرجل إذا أقبل على الشيء أقبل بوجهه ، ويجوز أن يراد من الوجه الذات كما قال تعالى : ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾ (٥٥ : ٢٧) وقيل يخل لكم : يفرغ لكم من الشغل بيوسف ، ﴿وتكونوا من بعده﴾ من بعد يوسف ، أي من بعد كفايته بالقتل أو التغريب - أو يرجع الضمير الى مصدر «اقتلوا أو اطرحوه» - ، ﴿قوماً صالحين﴾ تائبين الى الله مما جنبتهم عليه ، أو يصلح ما بينكم وبين أبيكم بعذر تهدونه ، أو تصلح دنياكم

(١) نسبة الى عكا من أعمال فلسطين .

وتتنظم أموركم بعده ، بجلو وجه أبيكم ، وبعد فما ذنب أخيه حتى يقتل أو يطرح أرضاً ، والمجرم — على رأيهم — هو أبوهم ؟ ولكن صدق من قال :

لكل داء دواء يستطب به إلا الحماقة أعيت من يداويها
وإنا لنعجب من هؤلاء الأذكياء المنصفين !! ، يريدون أن يخلقوا الفضيلة ، فضيلة
توجه أبيهم عليهم ، من جريمة هي من أكبر الجرائم بعد الشرك بالله تعالى ...!!!

(اقتلوا يوسف ... الخ)

- ١ -

ثم تابع الحاج سمدي المكي كلامه قائلاً : -

الاقتراح بقتل يوسف أو إبعاده

كان الاخوة قد نعموا على أبيهم ، في تفضيله يوسف عليهم في الحب ، وضلوه
بسبب ذلك ، ولم ينعموا على يوسف شيئاً ما . فما بالهم الآن يأثمرون على قتله وسفك
دمه المحرم بلا جريمة ولا جريرة ؟ .. إن هذا إلا أمر عجاب .

أصبح يوسف شغلهم الشاغل ، وصاروا يتقلبون منه على جمر الغضا ، فاجتمعوا
واقترحوا إهلاكه ! فيا للجريمة ! يا للفظاعة ! من يسمع هذا الحديث ولا يسخط
على هذه الطريقة الشنعاء التي يريدون أن يستخدمونها بقتله أو إبعاده أو إسقاطه
في غياهب الجباب ؟ .. ثم ما الحيلة وما العمل ؟ والنافذ القوي لم يكن غير هؤلاء
الإخوة الذين استبد بهم الحسد استبداداً . وأما يعقوب فكان شيخاً وحيداً ،
ليس له بأولاده قوة ، بل هم قوة عليه ولم يكن له ركن شديد من عشيرته سوى
أولئك المقاومين :

لو بغير الماء حلقي شرقاً كنت كالفصّان بالماء اعتصاري
 هم اتفقوا على حسد يوسف ، لسبب تفضيل أبيه له عليهم في المحبة ، ذلك التفضيل
 الذي حجب أباهم عنهم ، وشغله بيوسف ، فلماذا اتفقوا على إزالته من الوسط ، ولم
 يختلفوا في ذلك ابداً - اللهم إلا رأويين ويهوذا - نعم اختلفوا في شكل إزالته
 من وسطهم ، هل يقتلونه أو يبعدونه ؟ كما هو رأي الأكرية الساحقة مبدئياً ،
 أو يلقونه في غيابة الجب ، الذي تمر عليه التجار السائرون ، فيأخذوه معهم ، كما
 هو رأي يهوذا ، وقد تابعته الأكرية الساحقة أخيراً ، فصار إجماعاً من الجميع ،
 وكأنهم تصوروا أن لهم حليقاً لا يعيشون إلا به ، وهذا الحليق هو محبة يعقوب
 إياهم ، وتوجه أنظاره عليهم ، وتفرغه لهم ، وكأن يوسف حسكة في ذلك الحليق
 فغزموا على إزالته والإيقاع به ، ويجب أن لا ننسى ما نقله المفسرون عن « وهبة
 ابن منبه » ، ونقله صاحب (السنن القويم) عن مفسري التوراة أن الساعي في قتل
 يوسف هو « شمعون » ، فهو زعيم الثورة الذي يحمل على رأسه تاج العدا ليوסף.

مؤامرة قريش على قتل أو ابعاد أو حبس النبي (ﷺ)

سبحان الله ما أشبه الليلة بالبارحة !! وما أشبه هذه المفاوضة بالمفاوضة التي
 صارت في دار الندوة من قريش ، في شأن النبي (ﷺ) ، فقريش أقرباء النبي
 كانوا بمنزلة إخوة يوسف ، ولكن ليس في كل شيء ، لأن إخوة يوسف مؤمنون
 وأما قريش فكافرون ، وإنما هو مثلهم في التآلب على الاختيار ، وعقد جلسة
 المؤامرة على الناس الطيبين ، إذ كان النبي (ﷺ) هو موضوع مؤامرة قريش ،
 ويوسف موضوع مؤامرة إخوته ، وكذلك إخوة يوسف تمنوا أن يخلو لهم وجه
 أبيهم ، وبذلك تصلح شؤونهم ، وقريش تمنوا أن يخلو لهم الجو في مكة فتصلح
 بذلك أمورهم ، وكان الحال في مؤامرة قريش على النبي (ﷺ) دائرة بين

حبسه في بيت وإبعاده من بين أظهرهم ، وقتله ، وأخيراً قرّ رأيهم على قتله ، قال تعالى : ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ ، أَوْ يَقْتُلُوكَ ، أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ (٨ : ٣٠) وهكذا كانت مؤامرة إخوة يوسف عليه ، وأخيراً قرّ رأيهم على حبسه في الجب ، هذا ما حضرني الآن فتأملوه رحمكم الله .

(اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً)

- ٢ -

وقال الحاج أسعد اللاذقاني :

الطرح أرضاً كالقتل

أوعز لهم شمعون بقتل يوسف أو إبعاده ، فتابعه جمهورهم على ذلك ، فهم أرادوا (بطرحه أرضاً) التغريب ، فإن الغربة كربة ، يقال : طرحت الشيء أبعدته ، ومنه قول الشاعر :

ومن بك مثلي ذا عيال ومقتراً

من المال يطرح نفسه كل مطرح

وقد قرّن الابعاد عن الديار بقتل النفس في قوله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ، أَوْ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ ﴾ (٤ : ٦٥) ، وقوله تعالى : ﴿قَالُوا : وَمَا لَنَا أَنْ لَا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؟ وَقَدْ أَخْرَجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ﴾ (٢ : ٢٤٦) ، وقوله تعالى : ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ ، وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ﴾ (٦٠ : ٨) وقوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ

دِماءكم ، ولا تَخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ﴿٢ : ٨٤﴾ ، وهذه شريعة عامة في كل ملة ، ورغمما عن ذلك فنجد هؤلاء الأشباه العشرة الكرام !! قد تفاوضوا في إبعاد أخيه عن فلسطين ، عن أبيه وسوغه وجده إسحق وباقي أسرته !!.

الفوائد المستنبطة من الآية

نعلم من هذه المفاوضة أن الانسان قد يضعف عن احتمال سلطان الحسد وسيطرته عليه ، فيقدم على المخاطر المهلكة ، وهو لا يجهل مكان الخطر منها ، ولكنه يعجز عن مغالبة نفسه ومثاوراتها ، حتى يتردى في مهواتها .

ونعلم أن الأفراد التي تشكل جماعة قد يتواطؤون على عظام الأمور القبيحة . ونعلم انه ينبغي للانسان أن يحترس ويتحفظ من الناس حتى من أقاربه وانه لا يبعد أن يجتمعوا على ضرره . ونعلم ، وهو المدهش ، انه ربما يوجد أخوة كهول وشيوخ ، يفارون من أخ لهم صغير في سن الخلد ثم ربما يكون لهم أولاد أكبر منه ، لا يترفعون عن حسدهم له وغيرتهم منه !!...

تعليق الاخوة الإيقاع بيوسف

عللوا الإيقاع بيوسف بخلوه وجه أبيهم لهم ، يريدون أن وجود يوسف في الوسط ، مانع من تفرغ أبيهم اليهم ، وتوجهه عليهم ، وأنهم حريصون على ذلك ، ويهمهم كثيراً ، فتوصلاً لهذا الغرض الهام ، لا ندحاة لهم من أن يزيلوا هذه العقبة ، التي تحول بينهم وبين أبيهم ، هكذا ما تظاهروا به ، وهذا ما تمركزوا عليه ، توصلاً للإيقاع بأخيه ، وهو علة مخالفة للعقل والمنطق والواقع ، وإنما

السلة الحقيقية الحسد والبغضاء والعداء الناجم من مجموعة أشياء ، هي : مزايا يوسف وفضائله ، أخلاقه العالية ، كونه ابن (راحيل) الحظية عند والدهم ، التي كانت مترفعة جداً عن ضررتها (ليثة) ، وبالطبع عن (بلهة) و (زلفة) الجاريتين ، فهؤلاء كنّ حزباً ، وهي كانت وحدها حزباً آخر ، فلا بد أن يكون عداء هذا الفريق الأول قد سرى من النساء لأولادهن ، ولا تنس حرائيه المنامية وبشائر أبيه اليه ، التي باغتهم فاستأوا منها .

لماذا لم يدخلوا بنيامين مع يوسف في مؤامرتهم

وبعد فإننا لم نرهم حين المفاوضة أدخلوا في دائرة القتل أو الإبعاد (بنيامين) مع أنهم كانوا أظهروا التذمر من الأخوين معاً . فلماذا هذا ياترى ؟ والجواب إن تذرهم أولاً وبالذات إنما هو من يوسف ، وأما من بنيامين فتانياً وبالعرض ، ولهذا سمناهم يقولون « ليوسف وأخوه » فلم يذكره باسمه ، إشعاراً بأن محبة يعقوب له إنما هي لأجل عيون يوسف ، وأيضاً إنما كان بنيامين وقت هذه المفاوضة ابن سبع سنين ، فالدواعي للتعرض له بالضرر غير متوفرة ، بخلاف يوسف فإنه كان ابن سبع عشرة سنة ، وكان هو الشغل الشاغل لقلب أبيه فلذلك اقتصرنا في مفاوضاتهم على الإيقاع بيوسف فحسب .

(اقتلوا يوسف..الخ)

- ٣ -

وقال السيد جميل الناصري (١) :

أيها السادة : لي هاهنا أربع كلمات :

من هو صاحب الاقتراح بقتل يوسف أو إبعاده

الكلمة الاولى — ربما كان الباديء باقتراح قتل يوسف أو طرحه أرضاً واحداً منهم هو (شمعون) على ما قاله مفسرو اليهود ، أو اثنين هما (شمعون ولاوي) على ما أظن أنا العبد الحقير ، لاني أقرأ في التاريخ فأرى طبيعة الاثنين واحدة ، وأنها متشابهان في الحركات القاسية (تك ٣٤ : ٢٥ و ٤٩ : ٥ - ٧) والباقي ردد هذا الصوت ترديداً ، أو قل هذه الحركة تقليداً ، أو سككت عليها سكوت إقرار ورضى ، أو ضم صوته الى صوت المقترح مؤيداً له ، ولذلك نسب هذا الاقتراح الى مجموع الاخوة ، لأنهم متكافلون متضامنون ، فهمما وقع من بعضهم وسككت عليه الباقي فهو منسوب لجميعهم ، ألا ترى الى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ (٢ : ٥١) وقوله جل ثناؤه : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ : يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ، فَأَخَذْنَاكُمْ الصَّاعِقَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ، ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٢ : ٥٥ و ٥٦) وقوله جل ذكره : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ ﴾ (٢ : ٦١) وقوله سبحانه : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ •

(١) نبة الى الناصرة من بلاد فلسطين .

فيها ، والله 'مخرج' ما كنتم تكتمون ﴿ (٢ : ٧٢) وقال تعالى : ﴿ فكَذَّبُوهُ
فَفَقَرُوا وَهَا ، فَدَمْدَمَ عَلَيْهِم رَبُّهُمْ بِذَنبِهِمْ ﴾ (٩١ : ١٤ و ٥) وما إلى
ذلك مما لا يحصى في الكتاب الكريم ، والأحاديث النبوية والأشعار العربية .

الحسد هو الدافع الحقيقي لاختوة يوسف على إرادة قتله

الكلمة الثانية — ترتيب القتل على مجرد كون يوسف أحب إلى أيهم منهم مما
لا يقبله العقل ، ولا يدخل في دائرة من دوائر الفهم ، وعليه فلا نُدْحَة لنا من
أن نلاحظ أن الدافع الحقيقي لهم على إرادة قتله إنما هو الحسد الشخصي — والحسد
غضبنا على من لا ذنب له — مع العداء العائلي الموروث عن الأمهات الضرائر ،
والذي سهل عليهم هذه الفكرة القاعدة الاجتماعية ، وهي أن الجماعة أقل مبالاة
من الفرد ، لانحلال المسؤولية بكثرة التكافل ، ونحن إذا لم نحمل كلامهم على ذلك
كان منال النجم أقرب من تطبيق حالهم على قاعدة من قواعد العقل .

أنواع المذبذبة الجبرية وتطبيقها على اختوة يوسف

الكلمة الثالثة — صدق من قال : (الأقارب أعداء الحياة ، أحباب ساعة قبل
الوفاة) ، فهؤلاء الاختوة حسدوا يوسف ، فصارت نفوسهم تنازعهم إلى الإيقاع
به ، وجعلوا يتفاوضون ويتساندون في كيفية إهلاكه ، ويظهر أنهم كانوا من
أصحاب المزاج العصبي ، فإنهم لا يصبرون على ضم ، ولا يستطيعون الكظم ،
فاذا غضبوا غلبت عليهم الحدة ، حتى يخرجوا عن الصواب ، وربما بدرت من
أحدهم كلمة يقولها عن غير روية وتثبت ، بخلاف أصحاب المزاج الدموي الذين
لا تستحوذ عليهم الحدة ، ونظن أن كلاً من رأوين ويهوذا من أهل هذا المزاج .

وبعبارة أخرى — يوجد أفس يخرجهم الغضب عن طور التعقل فاذا غضبوا ظهرت أمارات الغضب في عيونهم وجباههم وألسنتهم ، ولذلك ندرت فيهم رباطة الجأش والصبر على المكاره ، وهؤلاء هم أهل الأمزجة العصبية ، ولعل إخوة يوسف الذين أشاروا بقتله هم من هذا القبيل ، ويوجد نوع هم من أقدر الناس على الكظم وكتمان ما تكفه ضمائرهم . فهم لذلك يصبرون على الضيم ، فلا يخرجهم الغضب عن طور التعقل ، وذلك يساعدهم على كتمان عواطفهم ، فهؤلاء هم الذين غلب عليهم المزاج الدموي ، وربما كان كل من رثوين ويهوذا من هذا النوع .

غربة مشايعة دان ونفتالي لآخوتهم في المؤامرة

الكلمة الرابعة — إنا لا نعجب من هؤلاء الاخوة عَجَبْنَا مِنْ أَخُوهِ وَلَدِي (بلهة) جارية أمه ، وهما (دان) و (نفتالي) ، فيوسف بعدما ماتت أمه راحيل ، وقد كان عمره تسع سنين ، انتقل هو وشقيقه بنيامين إلى خيمة جارية أمها هذه وهي (بلهة) وحضنته وأخاه المذكور ، فترى عندها مع ولديها المزبورين ، فكان مقتضى العادة والواجب أن لا يتفق أخواه هذان مع باقي إخوته على قتله أو طرحه أرضاً ، مع ان ظاهر الكتاب الكريم انها ممن شايع ويبيع مع الجميع على يوسف ، وهو أمر من الغرابة بمكان !

(اقتلوا يوسف أو اطرحوه . . الخ)

— ٤ —

وقال العلامة البيروني :

نظائر أعمال أبناء يعقوب العشرة في التاريخ

رب سائل يسأل : كيف جاز لهؤلاء الاخوة أن يفتكروا في حسد يوسف وطريده في العمر ، ويغضوه ويتفاوضوا في قتله أو ابعاده في يدياء كجهل ، ثم أخيراً تتفق كلمتهم على القائه في غيب الغيابة ، لكي تكون النتيجة بعده عن محبته ومُعاده لوطن آخر يعيش فيه غريباً مشرداً ؟ — كيف جاز أن يقع هذا مع انهم أبناء نبي مرسل ، بل من بيت نبوات ، فكان يجب أن تكون الأخلاق عالية ، والضمائر حساسة ، والقلوب رقيقة غير متحجرة ، لأن الانسان ابن التربية أو ابن أبيه ، والعرق دساس ، فإن نظرنا لنسبهم ، فالأب فحل كريم ، والبيت عريق في المجد وكرم الغرائز ، وإن نظرنا لتربيتهم فكان يجب أن تكون قد أثرت عليهم التربية البيئية أو الأبوية فنراهم رُحَمَاء ودُعَاء متسامحين حساسين ، ذوي عطف وحنان ووجدان طاهر .

فكيف نقدر أن نجمع في أدمغتنا ما حكاه القرآن الكريم من نبوة يعقوب ورسالته وهدايته للبشر وإرشاده للناس قريهم وبعيدهم من الاعتقاد بهذا الذي حكاه القرآن عنهم من هذه الأقوال والأعمال التي لا تصدر إلا عن عديمي الأخلاق فاسدي المطباع ، ناقصي التربية ، خبيثي النوايا ؟

وإذا كان يعقوب (ع) قد ثقّف عقول أمته وهذبها ، وأصلح طباع قومه وقومها ، وجب بالأولى أن يكون لأولاده من ذلك الحظ الأوفر ؟

وإذا لاحظنا أن جدهم إسحاق (ع) كان إذ ذاك موجوداً بين أظهرهم — لأنه عاش نحو عشر سنين بعد غياب يوسف — وكانوا قريبي العهد بسيرة الجد الأعلى إبراهيم (ع) زاد الإشكال وزادت الحيرة والاعتلال .

هذه صورة ما عسى أن يوجه إلينا من السؤال والاستشكال ، وأما الجواب عنه فنقول : إن كلا من الأصالة والتربية قد لا يفيد شيئاً إذا كان العبد لم يمدّ بالألطف الإلهية ، والتوفيقات الربانية ، والدين لا ينظر إلى هذه الأشياء التي تنظر إليها الناس ، ولكنه يقول في الكتاب الكريم : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (٤٩ : ١٣) ويقول في الحديث الشريف « اليوم أرفع نَسَبِي وَأَضَعُ أَنْسَابَكُمْ ، أَيُّنَ الْمُتَّقُونَ ؟ » ، ويقول الشاعر :

لعمرك ما الإنسان إلاّ بدينه

فلا تترك التقوى انكالا على النسب

لقد رفع الإسلام (سلمان) فارس

كما وضع الكفر الشريف (أبأهب)

فما نرى من أبناء يعقوب ليس يبدع في التاريخ بل له نظائر وشواهد تدانيه وتقاربه وإننا نجتزئ بالبعض منها فنقول :

١ — انظر لآدم (ع) مع كونه نبياً ورسولاً لم يؤثر على ولده (قايين) ، فكان شريداً فاسداً ، حتى قتل شقيقه (هابيل) ؛ ولماذا يا ترى ؟ لا لشيء سوى أن (هابيل) رجل صالح تقي قد تقبل الله منه تقدمته ، وإن (قايين) رجل عاص طاغ ، فلم يتقبل الله منه التقدمة ، قال تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِ آدَمَ

بالحق ، إذ قرّبا قرّباناً ، فتقبّل من أحدهما ، ولم يتقبّل من الآخر ، قال : لأقتلنك ، — قال إنما يتقبّل الله من المتّقين ، لئن بسطت يدك إليّ لأقتلنني ، ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك ، إنني أخاف الله ربّ العالمين ، إنني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك ، فتكون من أصحاب النار ، وذلك جزاء الظالمين ، — فطوّعت له نفسه قتل أخيه فقتله ، فأصبح من الخاسرين ﴿ (٥ : ٣٠ - ٣٣) 》 .

٢ — انظر إلى نوح (ع) فهو مع كونه نبياً مرسلًا ، لم يؤثر على ابنه كنعان ، ولا على امرأته أم أولاده ، فكانا كافرين به ، مخالفين له ، كامرأة لوط (ع) قال تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا — امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ ، كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ ، فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يَغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ، وَقِيلَ : ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدّٰخِلِينَ ﴾ (٦٦ : ١٠) .

٣ — انظر إلى إبراهيم (ع) نبي الله ورسوله وخطيله ، لم يؤثر على أبيه آزر (تارح) فكان عدوًّا لله ﴿ (٥ : ١١٥) 》 .

٤ — انظر لاسحق (ع) نبي الله ورسوله ، لم يؤثر على ولده (عيسو) الذي كان حقد على أخيه يعقوب (ع) وسخط وغضب عليه ، ونوى متى توفي أبوه إسحاق أن يقتله ، كما يعلم هذا كله من التاريخ ، ونعلم منه أيضاً أن المقاومة والمناوأة كانت على أشدها بينه وبين شقيقه يعقوب ، فكان عدوًّا له ، مخالفاً له في المسلك والأخلاق ومنحطاً جداً أمام ارتقاء أخيه ، ولذلك لم تقع به البشارة في قوله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْ نَاهَا بِاسْحٰقَ ، وَمِنْ وَرَآءِ إِسْحٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ (١١ : ٧١) ، ولم يمتن الله بهيمة لأبيه في قوله : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾ ، وكلاً جعلنا صالحين ﴿ (٢١ : ٧٢) 》 .

٥ - انظر إلى يعقوب (ع) لم يؤثر على خاله (لابان) إذ بقي في وثنيته رغمًا عن كونه خاله وحماه ، ورغمًا عن انه قد صحبه نحو (٢٠) سنة .

٦ - انظر إلى داود نبي الله ورسوله والخليفة في الأرض بعد حميه الملك (طالوت) فهو لم يؤثر على ولده (أمنون) الذي ذكر التاريخ انه اغتصب أخته (ثمار) - والمهدة في ذلك على مؤرخي التوراة - وكذا لم يؤثر على ولده (أبشالوم) الذي قيل أنه أمر غلمان به بقتل أخيه (أمنون) في وليمة دعاه إليها ، انتقاماً منه لشقيقته (ثمار) فقتلوه ، وكذا لم يؤثر على ولده (أبشالوم) أيضاً في حادثة أخرى ، وهي أنه كان أفسد الشعب على أبيه ، ليكون بدله في الملك ، حسداً لأخيه (سليمان) إذ كان أبوه يميل إليه ، وكان حق الملك بحسب السن إلى (أبشالوم) ، لأنه كبير إخوته حينئذ ، فقام على أبيه وتملك في حياته ، وحارب أباه حتى دخل عاصمة ملكه (اورشليم) ، وأجأ أباه للهرب منها ، وفيما بعد قتل (أبشالوم) في ميدان الحرب ، كما ذكر ذلك المؤرخون .

٧ - انظر إلى سليمان (ع) وهو نبي مرسل ، وملك قوي ، وكان ابنه (رحبعام) تربي بين يديه ، وتحت نظره ، ثم تولى الملك بعده ، فأثار روح الغضب في الشعب بسوء إدارته ، فسبب انقسام المملكة لاثنتين ، إذ خرج عليه عشرة أسباط وشكلوا المملكة الشمالية ، ولم يبق معه سوى سبطين ، هما يهوذا وبنيامين ، الأمر الذي سبب الضعف والانحلال والحروب الداخلية والخارجية ، حتى فئيت المملكتان ، ولم نر أن تربية سليمان لولده رحبعام أثر في حسن حاله واستقامة إدارته شيئاً .

٨ - قد تخاصم أخوان من بني إسرائيل وتحاكما إلى نبي الله داود (ع) وليس على أمر ذي بال ، ولكن على نعمة من النعم كما قال تعالى : ﴿ وهل أتاك نبأ ﴾

الْخَصْمَ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمَحْرَابَ ، إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ ، فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا :
لَا تَخَفْ ، خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ ، فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ ،
وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ، إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْمَةً ، وَلِي
نَعْمَةٌ وَاحِدَةٌ ، فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ، — قَالَ : لَقَدْ
ظَلَمْتُكَ بِسْوَالِ نَعْمَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ ، وَإِنْ كَثِيرًا مِنْ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي
بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ﴿
(٣٨ : ٢١ - ٢٤) فَهَذَانِ الْأَخَوَانِ هُمَا مِنَ الشَّعْبِ الْإِسْرَائِيلِيِّ مِنْ رَعَايَا دَاوُدَ
بِصِفَتِهِ مُلْكًا ، وَمِنْ مَرِيدِهِ بِصِفَتِهِ خَلِيفَةً ، وَمِنْ أُمَّتِهِ بِصِفَتِهِ نَبِيًّا وَرَسُولًا ، وَمَعَ
ذَلِكَ فَلَمْ تَوْثُرْ تَرْبِيتُهُ لَهَا عَلَى الْمُتَعَدِّي مِنْهَا أَنْ لَا يَكُونَ قَدْ تَعَدَّى عَلَى أَخِيهِ
الْفَقِيرِ الْمُسْكِينِ .

٩ - قَدْ تَعَدَّى (أَدُونِيَا) بْنُ دَاوُدَ (ع) مِنْ زَوْجَتِهِ (حَبْثِيث) ، عَلَى أَخِيهِ -
(سَلْيَانَ) بْنِ دَاوُدَ مِنْ زَوْجَتِهِ (بَثْشَبَع) فَجَلَسَ (أَدُونِيَا) الْمُغْتَصَبُ عَلَى عَرْشِ
مَمْلَكَةِ أُورُشَلِيمَ الْمَعُودِ بِهِ مِنْ دَاوُدَ لِسَلْيَانَ ، وَالْمُبَايَعِ عَلَيْهِ مِنَ الشَّعْبِ ، ثُمَّ رَجَعَتْ
الْمِيَاهُ لِمَجَارِيهَا ، وَرُدَّ الْمُلْكُ الْمُغْتَصَبُ لِسَالِحِهِ الشَّرْعِيِّ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ
فَتَنَّا سَلْيَانَ ، وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ، ثُمَّ أَنَابَ ، قَالَ : رَبِّ اغْفِرْ لِي ، وَهَبْ
لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ، إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ (٣٨ : ٣٤ و ٣٥) .

١٠ - وَهَذَا أَبُو الْعَبَّاسِ السَّفَاحُ قَتَلَ نَحْوَ (٩٠) رَجُلًا مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ ، كَانُوا
جُلُوسًا عَلَى مَائِدَتِهِ يَأْكُلُونَ ، فَأَمَرَ بِهِمْ ، فَضَرَبُوا بِالْعُمْدِ حَتَّى قَتَلُوا ، وَبَسَطَ
عَلَيْهِمُ الْأَنْطَاعَ فَأَكَلَ الطَّعَامَ عَلَيْهَا ، وَهُوَ يَسْمَعُ أَنْيْنَ بَعْضِهِمْ حَتَّى مَاتُوا جَمِيعًا ، كَمَا
فِي ابْنِ الْأَثِيرِ .

وَتَبَعَ بَنُو الْعَبَّاسِ مِنْ كَانَ بِالشَّامِ مِنْ أَوْلَادِ الْأُمَوِيِّينَ الْخُلَفَاءَ وَغَيْرِهِمْ فَأَخَذُوهُمْ .

وقتلهم ، ولم يفلت منهم أحد ، سوى رضيع أو من هرب منهم إلى الأندلس ، ولم يكتفوا بذلك بل عمدوا إلى قبور بني أمية فنبشوها ، توصلاً لحو أثارهم ، وأخرجوا جثة هشام فضربوها بالسياط وصلبوها ، وحرقوها وذرّوها في الهواء .

١١ - وهذا أبو جعفر المنصور أمر بقتل بضعة عشر رجلاً من آل الحسن رضي الله عنه فقتلوا جميعاً بعد نقلهم من المدينة إلى العراق .

١٢ - وهؤلاء هم سلاطين آل عثمان فمنهم من قتل أولاده ومنهم من قتل اخوته ومنهم من حارب أباه ومنهم من قتل نساء أبيه .

١٣ - وأخيراً هذا أبو لهب عم النبي ﷺ وهذه زوجته (أم جميل) القرشية كانا على أشد العداء والمقاومة للنبي ﷺ ، رجل يفسد عليه الرجال ، وامرأة تفسد عليه النساء .

وعلى الجملة فإيذاء الأقارب بعضهم لبعض ممدود في التاريخ ، تمشياً مع قاعدة (الأقارب كالمقارب) و (الأقارب لا تقارب) ، و (امرأة الأب نعمة من الرب ، لا تحب ولا تحب) و (العم عمي ، والخال خال من المنفعة) و (صلبوا قراياتكم ولا تجاوروهم ، فإن الجوار يورث بينكم الضغائن) ، و (رب أخ لك لم تلده أمك) .

إن كل ما ذكرناه من الأمثلة التاريخية لا يشابه ولا يداني حادثه هؤلاء آباء الأسباط الكرام !! لأن تلك الحوادث جرائم فردية لا أهمية لها باعتبار أنها صدرت من فرد سقط في هوة الغلط ، وأما أن إخوة عشرة كبار ، كهول وشيوخ أزمعوا على قتل أخ لهم هو أصغرهم فهي جريمة صدرت من جمع ، وهي من الأهمية والغرابة بمكان !! لا سيما إذا تصورنا أنهم أبناء نبي ورسول ، ثم لا سيما إذا تصورنا أن حاله تشبه حالة من قال : « غيري جني وأنا المعذب فيكم » ، ثم لا سيما إذا تصورنا

أنهم أخذوه من أيه تحت اليهود والأيمن أن يحفظوه ويكلاؤه ، ثم وأخيراً إذا تصورنا أنهم بذلك العمل يكونون: قد أغضبوا أباهم عليهم وأحزنوه ومرّروا عيشته !!! فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، ولا نقول في شأن هؤلاء الناس آباء الصيونييين إلا ما يرضى الشريعة ، فاللهم أدم ضرب الزلة والمسكنة عليهم إلى يوم الدين .

أصوات من المستعين:

(آ... مين)

(اقتلوا يوسف . الخ)

— ٥ —

وقال الامام الدمشقي القيرواني (١) :

لي هنا على هذه الآية الكريمة الكلمات التالية:

التستر وراء الدين للتوصل للمآرب الشخصية:

الكلمة الأولى — في تلك الجلسة المشؤمة، جلسة المؤامرة القاسية على يوسف أبدوا هذا الرأي الوخيم ، إصغاء لنداء الحسد والفيرة والأثرة ، ومع الأسف لم يصغوا لنداء ضمائرهم ، وإلا لما افتكروا هذا الفكر الرديء .

ورغم أن قلوبهم كانت تناجيهم بأن هذا الفكر سيء ، فقد تعاهدوا عليه وتواتقوا ، وصمموا على إبرازه من حيز القول لحيز العمل ! ، — لولا أن قال قائل منهم بغير مقالاتهم ، ورأي رأيا غير رأيهم — وقد احتجوا على الإقدام على هذا العمل الخطير بدفع تشويش معيشتهم مع أبيهم ، وتفرغه لهم .

(١) نسبة الى حي القيصرية بدمشق (سورية)

وما أشبه هذه المؤامرة بالمؤامرة التي صارت بين « البركة » بن عبد الله التميمي و « عمرو » بن بكر التميمي ، و « عبد الرحمن بن ملجم » المرادي ، لأجل قتل الأول « لماوية » بن أبي سفيان ، وقتل الثاني « لعمر بن العاص » وقتل الثالث « لعلبي » بن أبي طالب رضي الله عنه ، تذاكروا واتفقوا على قتلهم ، دفعاً للفتنة وإراحة المسلمين منهم — في زعمهم — ، هذه شبهتهم التي هي أوهى من بيت العنكبوت ، كما أن شبهة إخوة يوسف أضعف من لعاب الشمس ، ومع ذلك فيوجد فرق كبير ، أو فروق كبيرة ، بين هذه الحادثة وتلك الحادثة الأخرى .

واعجباه لعمرى إن هذا شيء لم يسمع بمثله في تاريخ الجرائم ، هاجت فيهم عوامل الفيرة ، ولا ذنب ليوسف سوى أنه وجد في طريقهم لأبيهم عُرْضاً وهو لا يعلم ولا يقصد ، وما أقدر المنشيء لهذه الفكرة ؟ فقد تلطف وتعلل بهذه العلة الدينية ، علة أن أباهم لم يزدحم حباً عن يوسف لأنهم انفع منه ، بل لم يساو بينه وبينهم في الحب كما هو الواجب ، عللوا بذلك — وهم يعلمون فساده — توصلاً للقضاء على أخيه ! كنوا وراء أكمة الدين ، ليُصْمَمُوا إنساناً هو من أهل الدين باسم الدين ، يتسترون بذلك تغفلاً للجاهلين ، وفي الحقيقة إن الدافع لهم لهذا العمل إنما هو العداوة والتزق ، وثورة القوة ونشوتها .

عجباً لهؤلاء الإخوة الأكارم أجداد الصهيونيين الرحماء !! أشاروا بهاتمة المشورة السؤي ، وألبسوها لباساً دينياً ، ليستثمروها ويستخدموها لغرضهم الشخصي النفساني فوا أسفاه !

نحمد الله تعالى على أنهم لم يكونوا قضاة إذ لو كانوا كذلك لحكموا بالموت على كل إنسان أجمل منهم أو أعلم أو أثري أو أكمل ، ولماذا ! لأنه يشغل الناس عنهم ، ولما كانوا حكموا على كل من كان أفضل منهم بالموت ، فتأملوا واعجبوا .

الحسد والغيرة والعدا هي أصل كل شر

الكلمة الثانية — نرى من قولهم : ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَيْكُمْ ﴾ انهم لم يأتوا على ذكر القتل أو الإبعاد ، إلا مشفوعاً بذكر خلوت أبيهم إليهم ، فالنتيجة التي توخوها من الإيقاع بأخيههم سالحة وحسنة جداً ، ولكن مقدمتها ثقيلة جداً ، وغير جائزة ، فهم كمن يريد أن يسرق المال ، ليتصدق منه أو الماء ليتوضأ به ، على مذهب من يقول : (النتيجة تبرر الوسيلة) وهو غلط فاحش ولذلك نراهم أخيراً عدلوا عن هذه المقدمة الى مقدمة اخرى ، هي وان تكن ايضاً غير جائزة ، لكنها أخف من سابقتها ، « وبمض الشر أهون من بعض » فالإيقاع بأخيههم ايسر عندهم مقصوداً لذاته ، بل هو يراد كواسطة للوصول الى أمر مطلوب لذاته ، هو توجه أبيهم اليهم ، وحنانه وعطفه عليهم ، وكذريعة لحصولهم على خلوة يجدونها في قلب أبيهم يسكنون فيها ، ولكن هذا كله بحسب ظاهر كلامهم ، والحقيقة أن العامل الوحيد الذي دفعهم لذلك هو الحسد ، لا غير .

إن كانت محبة الأب لأولاده ، وتوجه نظره إليهم ، لا تكون الا بقتل ابنه المحبوب الوديع ، فرحمة الله على الفضيلة ، وإييك البا كون عليها ، وعلى مصيرها الحزن الأليم ، عجباً لهؤلاء الأبناء الأذكاء !! الذين يريدون أن يحبهم أبوهم ، ويخلص لهم ، على حساب ظلم ابنه المحبوب وقتله !

ومع ذلك ، ففني عن البيان أن عملهم هذا الذي افكروا فيه مبدئياً ، يزيد الطين بلة ، وانقلب علة ، ويوجب زيادة عدم عناية أبيهم بهم ، فيؤدي إلى عكس النتيجة المطلوبة لهم ، ولكن عوامل الغيرة ، وبواعث الحسد والعدا هو نت عليهم هذا الأمر العسير ، وصورت لهم الحال ممكناً وجعلتهم يتخيلون

المانع سبباً موجباً ، حتى أقاموا على أخيهام حرباً أهلية ، وتأمرؤا على ضره بحجة
ما أنزل الله بها من سلطان

النتيجة عند اليهود تبرر الوسطة مرهما كانت منحطة

الكلمة الثالثة — قالوا : ﴿ يخل لكم وجه أيكم .. الخ ﴾ فتمنؤا أن تكون
حالمهم بحيث يصدق عليها قول القائل :

يالكِ مِنْ قَنْبُرَةٍ بِمَعْمَرٍ .. خلا لكِ الجوَّ فيضي واصفري
ونقري ما شئت أن تنقري^(١)

مننؤا أنفسهم بهذه الأمنية التي هي بعيدة عنهم بعد السماء عن الأرض ، ووعدوا
أطماعهم بما هو ضرب من المحال ، لأنهم بالأقدام على هذا الحوب الكبير يثرون
حفيظة أبيهم عليهم بعكس ماتخيلوا .

وأما قولهم ﴿ وتكونوا مِنْ بعده قوماً صالحين ﴾ فشبكة أرسلوها ليصيدوا بها
ثلاثة أشياء : « ١ - صالحين أي تائبين الى ربكم مما جنيتم على أخيكم ، ٢ - صالحين
أي يصلح ما بينكم وبين أيكم بعذر تهودونه له ، ٣ - صالحين : أي تصلح دنياكم
وتنظم أموركم بعده بخلو وجه أيكم لكم ، وتصيروا مسرورين فرحين ، فهذه ثلاثة
معان ، صيرت برمية واحدة ، وهذا هو شأن اليهود من القديم ، وهذا هو حال
سلالتهم الصهيونيين اليوم في فلسطين ، النتيجة تبرر الوسطة ، فهما كانت منحطة
وسافلة !!! .

(١) المعمر : المنزل الكثير الماء والكلاء او هو اسم لموضع بعينه

نقري (بتشديد وفتح القاف) : في الموضع تنقيراً سهله ليبيض فيه . ونقري (بتشديد
القاف) صوت (بتشديد الواو)

ان اكرمكم عند الله اتقاكم

الكلمة الرابعة — يتبين من إرادتهم قتل أخيهام ظلماً أنه ليس يكفي الانسان حتى يكف عن الأذى الوخيم أن يكون ابن نبي الله، أو من سلالة بيت كريم بل يجب قبل كل شيء أن يكون ابن تربية كاملة ، صاحب أخلاق فاضلة ، ونفس كريمة ، تمنعه من ارتكاب ما لا يجوز في ملة من الملل ، ولعمري إنه كان يكفيهم أن يتفاهموا مع أبيهم في تفضيله يوسف في الحب عليهم ، قبل أن يفتكروا في قتله ، والكي لا يكون إلا آخر الدواء.

بعض طبائع الاسرائيليين

الكلمة الخامسة — قص الله تعالى مفاوضة هؤلاء الاخوة في قتل أخيهام ليوقفنا على بعض طبائع الإسرائيليين التي منها أنهم قد يجتمعون على شر الشرور، ولا ينجل بعضهم من بعض ولا يبالي بضميئه ، وإذا وجد فيهم واحد هو أحسن منهم، أشار عليهم بأخف الشرين ، ذلك لكي نعتبر ، ونكون دائماً على حذر ، من سلائهم اليهود (أبناء الم) المحترمين !! خاصة الصهيونيين ، الذين كأنها « قانون الوراثة » قد ظهر فيهم بأجلى أمثلته .

ما هي افكار الصهيونيين اليوم مع أبناء اسما عيل

الكلمة السادسة — يظهر من مذكراتهم في موضوع القتل ، أنه كان قسم منهم من ذوي العزم والشرس ، وكان في قسم آخر نزق الشباب ، ففعلت في قلوبهم مراحل العدا والتهبت في صدورهم نار البغضاء فلفظوا بهذا القول ، وقد أخذ

الحماس منهم مأخذ أعظيماً، هذه أفكارهم مع أبناء جلدتهم فما عسى تكون أفكارهم مع أبناء
اسماعيل؟ وما هو الفكر اليوم عند سلاثلهم الصهيونيين! هل يقولون إلا كما قالت أجدادهم
في الجزيرة : « لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ! » (٧٥:٣)

الطرح أرضاً في اللغة

الكلمة السابقة — قولهم ﴿ أو اطرحوه أرضاً ﴾ : يقال بلد طروح ومكان
سحيق ، ومحلة نازحة ، والمعنى أبعدوه لغير أرض ، أبعدوه لأرض منكورة
مجهولة بعيدة عن العمران ، اجتهدوا في ذلك ، فإن لهذا العمل ما بعده ، أتبهوه في
يئداء مجتهد ، وعلى الدنيا السلام .

كلمة اطرحوه في القرآن

الكلمة الثامنة — راجعنا القرآن من أوله إلى آخره فلم نجد لفظة - اطرحوه -
قد بدرت من فم جبار من الجبارة ، أو ظالم من الظلمة ، ولكن إنما رأيناها تلوح
كالزهرة الياقوتية على فم هؤلاء الأشبال الكرام !! في أخيهام المغدور ، فلا ..
ولا .. وإننا .. وإننا ..

الصلاح وأقسامه

الكلمة التاسعة — قالوا (وتكونوا من بعده قوماً صالحين) يطلق الصلاح على
الصلاح الدنيوي ، وعلى الصلاح الديني ، والآية التي ههنا تحتل الوجهين ، كما
احتملها ما في قوله تعالى : ﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ
وَأِمَائِكُمْ ﴾ (٢٤ : ٣٢) أي من كان تقياً غير مفسد ، أو أريد بالصلاح القيام بحقوق

النساء ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ (٣١ : ١٠٥) أي المتقون ، أو الذين فيهم أهلية لخدمتها وعمرانها وحراستها والمحافظة عليها وإقامة العدل فيها ، ومن إطلاقه على الصلاح الديني خاصة ما في قوله تعالى : ﴿ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ﴾ (٢١ : ٩٠) أي جعلناها صالحة للولادة بعد عقرها ، وقوله تعالى : ﴿ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾ (٤٧ : ٥) أي يحسن أحوالهم الدنيوية ، وأما شواهد إطلاقه على الصلاح الديني خاصة ، فهي في كتاب الله أكثر من أن تحصر .

الحسد والغبطة والمنافسة

الكلمة العاشرة — تعلمون أن الحسد هو تمني زوال النعمة عن الغير ، بأن يتمنى الإنسان أن يفرق مال فلان أو يُحرق ، أو أن تزول عنه الأرباح في تجارته أو تتبدل محبة الناس له بكراهتهم إياه ، وعلى الأقل تزول تلك المحبة ، أو أن تتحول عافيته إلى مرض ، أو يموت أولاده ، أو يعزل في منصبه ، وهكذا لا فرق في ذلك بين الحسد على الأمور المادية ، والأحوال المعنوية ، كما لا فرق بين أن يتمنى تحول هذه النعمة إليه أو إلى غيره ، ولا فرق في هذا التمني بين أن يكون تمنياً قلبياً فقط بحيث لا يتعدى الفكر ، أو تمنياً يترتب عليه السعي بالمكر ، بأن يسعى لإزالة الربح أو الحب عن المحسود ، وأن يبذل جهده في إحباط عمل المحسود ، وعدم معاملة الناس له أو عدم إسناد المنصب لعهده ، إلى غير ذلك ، وهذا النوع حرام ممقوت يمتنعه الله وملائكته ، وأهل المرؤة من الناس ، وهو معدود من الكبائر ، وهو يشف عن سوء النية ، وخبث الطوية .

وأما تمني مثل نعمة الغير من غير أن تزول عنه تلك النعمة فهو حسد محمود ،

ويسمى بالحقيقة « غبطة » ولا يسمى حسداً إلا مجازاً ، وصورة ذلك أن يجاري الرجل غيره ويسابقه مسابقة ، ويجتهد اجتهاده ويحصل الأسباب التي اقتضت ثروة غيره مثلاً ، ويسلك المسلك الذي سلكه غيره من الناس المحبوبين حتى يصير محبوباً مثله .

وهذا النوع من الحسد ، وبعبارة أصح من الغبطة ، إنما وجد في الإنسان اطلب المجد والرفعة وعلو الشأن ، وليسابق الإنسان غيره في المفاخر والفضائل والمجد والثروة ، فتربو المساعي ، وتكثر الأعمال ، ويزداد العمران ، ويرقى نوع الإنسان ، وهذا النوع من الحسد ، كما يسمى (غبطة) فهو حقيق أيضاً بأن يسمى (منافسة) .

واعلم أن الحسد لا يكون إلا بين المتشاركين في حال ، كالجار والصهر والقريب ، وكالمشارك لك في صناعة أو تجارة أو زراعة ، أو امارة أو علم أو سن ، أو المقيم معك في مدرسة أو منزل أو شارع أو بلد ، وأكثر ما يكون الحسدين الجيران والأقارب ، مع المعاصرة في الزمن ، والمقاربة في السن ، والمشاركة في المسلك ، وكلما ارتفع صيت الإنسان حسده من يشاركه في ذلك الصيت ، ويزاد الحسد كلما ازداد الصيت وحسن الذكر ، وكلما زادت ثروة المحسود ، وكثرت أعماله وأعماله .

عمل اخوة يوسف مع يوسف من الحسد الممقوت المشؤوم

إذا تقرر هذا فعمل إخوة يوسف مع يوسف ، هو ليس من قبيل الحسد المحمود ، الذي هو حسد الغبطة أو المنافسة ، لأنهم لو أرادوا هذا المعنى لبحثوا عن الأسباب التي اقتضت زيادة محبة أبيه إليه ، وأنصفوا بها وسلكوا المسلك الذي

يسلكه يوسف ، لكي يتحصلوا على مثل تلك الدرجة من الحب ، فكان يجب عليهم ، بدلاً من أن يفكروا في الإيقاع بيوسف أن يجتمعوا ويتفاوضوا فيما يعود عليهم بمحبة أبيهم إليهم ، وعطفه عليهم بمثل درجة محبته وميوله ليوسف ، ثم ليس هو من قبيل الحسد الممقوت فقط ، لأنهم لم يتمتعوا زوال نعممة الحب فحسب ، بل تنفوا وافكروا في إزالة شخص أخيه من الوجود ، أو على الأقل من فلسطين وهذا النوع من الحسد نادر المثل ، وهو أزل وأفحش أنواع الحسد المشؤومة .

سبب اقتصار الاخوة الحكم على يوسف وحده

الكلمة الحادية عشرة — تعلمون أنهم كانوا أولاً ذكروا يوسف وأخاه بنيامين ولكننا زاهم الآن لم يتفاوضوا إلا على يوسف فقط ، فلماذا يا ترى ؟ والجواب لائق وهو أن يوسف في نظرهم هو علة اللعل ، هو العلة الوحيدة ، هو أساس كل علة . هو المدو الأزرق ، هو العقبة الكؤود التي إذا زالت زالت كل أتعابهم ، وأما بنيامين فليس مهماً كثيراً في نظرهم ، لأنهم لم يسمعوا منه يوماً أن الكواكب خرت من السماء وسجدت بين رجليه ، فلم يكن قد أخذ من قلب أبيه عشر معشار ما أخذه يوسف .

ما أسبه البلاء بالبارحة أو حال الصربونيين اليوم مع عرب فلسطين

الكلمة الثانية عشرة — أنتم تسمعون الآن أن هؤلاء الأشبال يقولون : **﴿** اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين **﴾** وأما نحن فنعلق عليه بأن الدم الذي كان يتمشى في عروق هؤلاء

الأجداد هو الدم الذي يتمشى اليوم في عروق السلائل اليهودية الصهيونية وما أشبه الليلة بالبارحة ، فالصهيونيين اليوم - حيث طال عليهم الأمد فقتل قلوبهم - يريدون قتل أبناء عمومتهم العرب !!! الواقفين أمامهم في جبهة فلسطين ، يريدون قتلهم معنوياً بسلب أراضيهم ، والهجوم على اقتصادياتهم ، ومرافق حياتهم ، وكل أسباب عيشهم من مناصب حكومة ، إلى فلاحة إلى تجارة ، إلى كل منابع العز والثروة كما أنهم بالتالي والنتيجة يريدون طرح إخوانهم العرب أرضاً ، بإلجائهم للبعد عن فلسطين ، والتغرب لتناول القوات في شتى البلاد ، وقسرم لذلك قسراً وذلك حرصاً منهم على أن يكونوا أكثرية في فلسطين ، بل أن لا يكون غيرهم فيها ، فيشكّلوا تلك الدولة الصهيونية الخيالية بهمة زعمائهم !! ويكونوا من بعد هذا كله قوماً صالحين * (ع ٩) تصلح لهم أمور دولتهم ، ويفرضون على بقايا العرب الذين سيحتالون في بقائهم في فلسطين أن يكونوا « محتطبي حطب ومستقي ماء لكل جماعة » . (يش ٩ : ٢١) فيا أيها العرب والمسلمون : إن موعد اليقظة والحذر قد اقترب ، فاحتاطوا لأنفسكم ، قبل أن يحاط بكم ، وإياكم أن تستبعدوا ما أقول ، لأنه إذا كان أجدادهم آباء الأسباط افتكروا هذه الفكرة في حق بعضهم ، فهل من البعيد أن يفتكروا نفس هذه الفكرة أو أسوأ منها في بني عمهم العرب ؟ هذا وليس صهيونييو اليوم بأفضل من آبائهم ، كما أن عرب اليوم ليسوا بأحسن من يوسف (١) .

شواهد من التوراة على صلابة اليهود وفسادتهم ووحشيتهم

حقاً إن اليهود حجر عثرة ، وعظمة يابسة في خلق كل العالم الذي على وجه المسكونة .

وعيناً إنهم سبب كل اضطراب ، وعلة كل تشويش وجد ويوجد فوق الكرة الأرضية ، فقد بدأ أتبعوا يعقوب وأحزنوه ، كما تراه في هذه السورة ، وأتبعوا موسى وآذوه ، حتى قيل في شأنهم : « وقال الرب لموسى : رأيت هذا الشعب ، وإذا هو شعب صلب الرقبة ، فالآن اتركني ليحمني غضبي عليهم وأفنيهم » (خر ٣٢ و ٩ و ١٠) وعن النبي حزقيال : « وقال لي : يا ابن آدم ، أنا مرسلك إلى بني إسرائيل ، إلى أمة متمردة ، قد تمرت عليّ ، هم وآبائهم عصوا عليّ إلى ذات هذا اليوم ، والبنون القساة الوجوه والصلّاب القلوب أنا مرسلك إليهم فتقول لهم : هكذا قال السيد الرب ، وهم إن سمعوا وإن امتنعوا لأنهم بيت متمرّد ، فإنهم يعلمون أن نبياً كان منهم ، أما أنت يا ابن آدم . فلا تخف منهم ومن كلامهم لا تخف ، لأنهم قُريس وسلاّء لديك ، وأنت ساكن بين العقارب ، من كلامهم لا تخف ، ومن وجوههم لا ترتعب ، لأنهم بيت متمرّد ، وتسلّم معهم بكلامي ، إن سمعوا وإن امتنعوا ، لأنهم متمرّدون » (حز ٢ : ٣ - ٧) ، وقال الرب : « لكن بيت إسرائيل لا يشاء أن يسمع لك ، لأنهم لا يشاؤون أن يسمعوا لي ، لأن كل بيت إسرائيل صلاب الوجوه وقساة القلوب » (حز ٣ : ٧) ، وقال الرب : « فلم يسمعوا بل صلبوا أقفيتهم ، كأففة آبائهم » (٢ مل ١٧ : ١٤) وقال : « صلبوا وجوههم أكثر من الصخر » (إر ٥ : ٣) وقال : « فلم يسمعوا لي ولم يميلوا أذنينهم ، بل صلبوا رقابهم ، أساءوا أكثر من آبائهم » (إر ٧ : ٢٦) وهكذا هم لم يزالوا على هذا الحال إلى أيام مملكتي الكلدان والآشوريين ثم أيام مملكتي اليونان والرومان ، فأزعجوا الكل وأتبعوا الجميع ثم في الأيام الأخيرة أخرجهم الروس والألمان من بلادهم ، واليوم بعد الحرب العالمية انصب أذاهم فوق رؤوس العرب في بلاد فلسطين ، نسأل الله السلامة من كيدهم آمين .

يهود اليوم متخرجون على مدرسة اليهود القدماء

الكلمة الثالثة عشر - إن كان من الممكن فهم نظرية إخوة يوسف السابقة وهي قولهم إن أباهم لم يساو بين الإخوة في المحبة ، فليس من الممكن مطلقاً فهم النظرية الحاضرة ، وهي معاقبة من لم يذنب معهم شيئاً ، وبألت هذه المعاقبة لطيفة ، لا .. ولكنها تدور بين إزهاق الروح والنفي من الوطن ، وعلى كل فإن هذه الأفكار السامية !! لا تصدر إلا من المتخرجين على (المدارس القديمة) ، بل لا تصدر إلا من قوم لم يتذوقوا طعم الانتساب لأي مدرسة ، ولو ابتدائية ، مع أنهم تحت نظر معلم يصلح أن يكون استاذاً من الدرجة الأولى . في أكبر مدرسة أخلاقية دينية ، بل هم لم يكونوا تحت نظر استاذ واحد فقط ، ولكنهم كانوا تلاميذ لمعلمين اثنين كبيرين ، هما يعقوب وإسحاق ، إنما تأثير الإنسان ، أي إنسان كان ، مع تلك الظروف والبيئات ، وفي ذلك المحيط المنحط - على كل حال ضعيف :

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ (٥٦: ٢٨) و ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ (١٢٨: ٣) آمنت بالرب الأعلى الذي خلق فسوى ، والذي قدر فهدى ، كما آمنت انه لا إله إلا هو ..

غيري جنى وأنا المذنب فيكم

الكلمة الرابعة عشر والأخيرة - قلنا إن المذنب - في نظر الإخوة - أبوم يعقوب - حاشاه عليه الصلاة والسلام - وأما أخوهم ، فما ذنبه يا ترى ؟! حتى يستحق هذا العقاب !! ، إنه والحق يقال ينطبق عليهم قول القائل : « غيري جنى » وأنا المذنب فيكم !! ، « ، وغني عن البيان أن فعلهم هذا إنما يوجب اغترار أبيهم

وانكاشه عنهم ، دون توجهه إليهم ، فما وجه هذا الاستنتاج الذي استنتجوه ؟..
 الجواب هو أن ضغط الحسد والغيرة أثر على أعصابهم ، فصاروا في حالة غير اعتيادية
 فقالوا ما قالوا ، ثم فعلوا ما فعلوا ، مما كان نقطة سوداء في تاريخ حياتهم .
 (صدقت ، صدقت ، ولا فض فوق)

تعديل الحكم

آ (١٠) ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ : لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ ،
 وَأَلْقُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ ، يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ ،
 إِنَّكُمْ فَاعِلِينَ ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية العاشرة ، فقام العلامة المصري وقال :

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ ﴾ وهو يهوذا وكان أحسنهم فيه رأياً ﴿ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ ﴾
 فالقتل عظيم ، ﴿ وَأَلْقُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ ﴾ - وهي ما غاب منه عن عين الناظر وكان
 في ناحية منه - ﴿ يَلْتَقِطُهُ ﴾ يأخذه على وجه الصيانة عن الضياع والتلف ، فإن
 الالتقاط أخذ شيء مشرف على الضياع ﴿ بَعْضُ السَّيَّارَةِ ﴾ أي بعض الأقوام الذين
 يسرون في الطريق ﴿ إِنَّكُمْ فَاعِلِينَ ﴾ أي ان كنتم عازمين على أن تفعلوا ما يحصل
 به غرضكم فهذا هو الرأي .

(قال قائل منهم .. الخ)

— ١ —

ثم تابع العلامة المصري كلامه قائلاً :

طلب تعديل الحكم على يوسف

نعم أيها السادة كأنني بهذا القائل وهو يهوذا قد أفاق من غفلته ورجع إلى نفسه ثم وقف على مرتفع وأخذ يخطب في إخوته قائلاً : يا إخوتي ، إن أخاكم إنما يرفع أمام أعينكم عصا والده ، وإنما يحاربكم بسيف أبيه ، وهو لا يترفع عليكم إلا باستناده لولي نعمته ، هذا إذا سلمت لكم أنه يوجد منه ما يمسك عليه ، والواقع أنه لم يصدر منه شيء ما ، وإنما المستول عن هذه الحالة ومغبتها هو أبوكم ، فيوسف لا لوم عليه ، ولكن اللوم كل اللوم على أبيكم ، أنتم تنقمون عليه حب أبيه له بكثرة ، وهذا ليس من فعله ، بل من فعل والده ، فهو لم يعمل عملاً قط يستحق عليه القتل ، حتى ولا أقل من ذلك .

يا إخوتي ، إن ما ذكرتم من كون يوسف أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة يعني جداً كما بهمكم ، ويسوءني تماماً كما يسوؤكم ، إنما يمكن مداواة هذا المرض بدواء اللطف مما ذكرتم .

يا إخوتي ، لا تفعلوا ، لا تذهبوا شرفكم ضحية عواطفكم ، لا تستحوذ عليكم ميولكم ، أنا أرى أن لا تفعلوا مع أخيك شيئاً ما ، لأنه هو لم يعمل معكم شيئاً قط ، ولم يرتكب جرماً ، افكروا ملياً في هذا الموضوع ، فقد قال العلماء : « أصاب متأمل أو كاد ، وأخطأ مستعجل أو كاد » .

يا إخوتي ، لا تطلقوا لمواطفكم العنان ، لئلا تزيدوا الحرق اتساعاً ، بحيث نكون في شر فنقع في شر أعظم منه ؛

يا إخوتي ، يجب أن نحسب لقتله ألف حساب ، وألهاوا كبرها حساب والإثوه ،^(١) وثانيها حساب الوجدان الطاهر ، والضمير الحي ، وثالثها حساب الكدر الشديد من والدنا علينا ، ورابعها حساب سوء سمعتنا وانحطاط منزلتنا عند من يعرف ذلك من الناس ؛

يا إخوتي ، إن قلبي لم يطاوعني على قتله ، وإن عقلي لم يساعدني على إزهاق روحه ، فإني أستكبر قتل نفس بريئة بدون سبب ما .

يا إخوتي ، أنتم تريدون أن تفعلوا به أكثر مما يستحق ، فإن كنتم فاعلين شيئاً ولا بد ، فيكفيكم أن تلقوه في الجب ليأخذه بعض المارة من المسافرين إلى حيث لا لقاء ، إنه لا يستحق أكثر من هذا ، بل إنه في نظر العدالة لا يستحق أيضاً شيئاً من ذلك ، وإن أيتّم إلاّ عمل شيء معه ، فليكم بأخف الأمرين ، وأهون الضررين ، وهو القاءه في الجب ، كما قلت لكم ؛

يا إخوتي ، إني لأكبر ما أسمع منكم ، وأخشى إن قتلتموه أن لا نحمدوا غيب رأيكم ، وشر الأعمال أسوأها منقبّة ، على أني لا أرى علاقة بين ما تقولون من أن والدكم يحب أخاكم أكثر منكم ، وأنه في ضلال من هذا القبيل ، وبين ما تطلبونه وتريدون أن تفعلوه بأخيك ، بينوا لي ما هي العلاقة بين اتقادكم على شخص وإراقتكم دم شخص آخر ، فإن قلتم أنه يستحق القتل لأنه استأثر بحجة والده ، فإني أقول لكم : إنه هو لم يستأثر ، لأن الفعل ليس منه ، ولكن الذي اختصه بأكثرية المحبة هو والدكم ، فإن قلتم إن أخانا هو العقبة الوحيدة ، الحائلة بيننا وبين قلب أبينا فنحن نريد إزالة تلك العقبة ؛ فقد أقول إن الوصول إلى قلب

أيكم لا يتوقف على خصوص إهلاك أخيك ، بل يمكن التوصل لذلك بعمل طريقة لإبعاده من فلسطين ، كما قلت لكم ، هذا هو الرأي القصد الذي أراه لكم الآن ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .
بخ ، بخ .

(قال قائل منهم .. الخ)

— ٢ —

وقال الشيخ المنصوري :

لي هنا ثمان كلمات ، كل كلمة مستقلة بنفسها منفردة عن إختوتها :

من هو « القائل » بتعديل الحكم على يوسف

الكلمة الأولى — آنفاً كان الإخوة قالوا ما قالوا ، وفي صوتهم غنة استفهام كأنهم يستفهم بعضهم بعضاً ، أفعل ذلك ؟ أقدم عليه ؟ ماذا ترون ؟ أشيروا علينا ، ليبين كل منكم رأيه .

وعليه فانتدب « يهوذا » نفسه لنصيحة إخوته بالعدول عن قتل يوسف ، وشرح لهم مضار هذا العمل وسيئاته ، وهكذا صار ، أن خلاف شخص حور المؤامرة وعدلها ، وأثر في المسألة أثراً جديداً ، وما أحسن هذا الخلاف ؟ ولعمري إذا كان الاختلاف « رحمة » كما يقولون ، فهذا الاختلاف من مظاهر هذه الرحمة ، لأن الإلقاء في غيابة الجب ، وإن كان في نفسه نقمة ، لكنه رحمة بالنسبة إلى إزهاق الروح والقضاء على الحياة ، « حنانيك بعض الشر أهون من بعض » .

فلذلك وعلى كل حال نحن لا يسعنا إلا شكر هذا « القائل » ، ولعمري إنه حقيق بأن يمنع « نوط » الشرف الإسرائيلي من الدرجة الثانية ، لأنه قدر أن يؤثر على هؤلاء المتأمرين ، ويخفف شيئاً من ويل أخيه ؛

وهنا سؤال يذكركه بعض المفسرين ، وهو لمَ لم يُذكر هذا « القائل » باسمه يا ترى ؟ وجوابنا عن ذلك أنه لأجل أن يكون كل واحد منهم محتملاً أن يكون هو قائل هذا القول ، كما أنه في صدد المأمرة بالقتل أو الطرح أرضاً لم يصرح باسم المأمور الأول رئيس الحركة سترأ عليه ، ولا يقال إنه على هذا التوجيه ، لا ينبغي أن يعين أحدٌ منهم باسمه ، تأسيساً بالكتاب ، لأن ذلك مقام تفسير أو مقام تاريخ وهو فيه أمر مطلوب ، ولهذا وكون سفر التكوين تاريخاً محضاً ، تراه يذكّر الأسماء بكل دقة ، وأما القرآن الكريم فإنه إنما يقصد منه العبرة والذكرى والمظة ، وشيء من ذلك لا يتوقف على تعيين القائل ، سواء أكان مشيراً بخير أو بشر .

وعلى ذلك وحيث نحن الآن نلقي هذه المحاضرات كمفسرين أو كمؤرخين ينبغي لنا أن نبحث عن هذا « القائل » من هو يا ترى ؟ .

إن سفر التكوين حكى أن هذا « القائل » هو « رأوين » (تك ٣٧ : ٢١) ونقله مفسرونا عن « قتادة » ويقول السفر المذكور : إن « يهوذا » تبعه أخيراً على هذا الرأي ، (تك ٣٧ : ٢٦) ، وكلا القولين قريب من الصواب ، لأن النزعة الحزبية ضد يوسف كانت في هذين الأخوين ضعيفة جداً ، فهما لم يكونا حاقدين عليه تمام الحقد كغيرهما ، سيما وأن كلاهما كان في ذلك الوقت متزوجاً وذا أولاد ، فقياساً على نفسيهما يسهل عليهما تصور عواطف والدهما يعقوب على يوسف ، وكيف تكون الشفقة على الصغير ، لأن الحنو لا ينضج ولا يبلغ أشده

إلا في قلب الوالد ، والوالد لا يقتصر حنوه على أولاده ، بل هو يتعود ذلك حتى يحن الى كل ولد ، وزد على ذلك ان « رأوين » كان أكبرهم لأنه البكر ، فلا بد أن يكون إذ ذاك قد اكتهل وتجاوز سن الشباب والنزق ، ولاتنس أن « يهوذا » كان كبيراً أيضاً ، لأنه رابع أولاد أبيه ، وكان عاقلاً محسناً وخطيباً مفوهاً ، هذه هي الاحوال التي تقرب صوابية القول بأن هذا « القائل » هو رأوين أو يهوذا ، بحيث كان كفرسي رهان في الحرص على تلطيف المصيبة التي يراد ائزهاها على رأس أخيها يوسف .

وأما لبيان الأرجح من هذين النقلين ، فقد قلت لكم أيها السادة : إن سفر التكوين يقول : إن هذا « القائل » ابتداءً هو « رأوين » ، وأما « يهوذا » فإنه هو في الآخر انعطف وضم صوته لأخيه رأوين ، وعندى أن تفسر هذا « القائل » يهوذا هو الأرجح ، بدليل أنه المتكلم الوحيد بين إخوته ، والخطيب البليغ ، وصاحب القول الثاقب ، كما ذكر ذلك المؤرخون ، فلذلك وحيث عبّر عنه بعنوان « القائل » كان هو يهوذا ، لأنه هو القوال الخطيب المفوء ، وأما « رأوين » فإنما يُعبّر عنه بالكبير ، كما سيأتي في قول الكتاب الكريم : ﴿ قال كبيرهم ﴾ (ع : ٨٠) والواقع أنه كان أكبرهم سناً ، فاختلاف العنوان دليل على اختلاف المعنوي عنه ، فان القرآن بمكان من الدقة التي لا يليق بالبلغ أن يغفل عنها عند كل كلمة .

القتل والطرح أرضاً سواء في النتيجة

الكلمة الثانية — هم كانوا قالوا : ﴿ اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً ﴾ ، ولكن هذا « القائل » الآن إنما زاه بنهام عن الحملة الأولى ، إذ يقول ﴿ لا تقتلوا يوسف ﴾

ولم يصرح بنهيه عن الخصلة الثانية ، وهي طرحه أرضاً ، ولماذا هذا يا ترى ؟ وجوابنا عن ذلك بأن مآل الخصلة الأخرى هو الموت أيضاً ، لأنه من ألقى في أرض بعيدة عن العمران مجهولة للناس كان مآله الموت ، إما جوعاً أو عطشاً أو من البرد أو بافتراس أحد السباع ، أو نحو ذلك مما يعرض للانسان الوحيد ، في البر البعيد ؟ ونظير قولهم هنا « اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً » قول مواطنهم أهل العراق في جده سيدنا إبراهيم ﴿ اقتلوه أو حرقوه ﴾ في قوله تعالى : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا : اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ ، فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ﴾ (٣٩ : ٢٤) ، فكما أن مآل قتل إبراهيم وتحريقه واحداً ، وإن اختلف شكل الإزهاق ، فكذا هنا مآل قتل يوسف أو طرحه أرضاً واحداً ، وإن اختلف شكل الإزهاق ، وكما أن إبراهيم عقب ذلك هاجر ، فلقى في مهجره راحة وعزاً ، فكذلك يوسف عقب ذلك هاجر ، فلقى في مهجره راحة وعزاً ، وقريب منه أيضاً ما في قوله تعالى ﴿ قُلْ : لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ ﴾ (٣٣ : ١٦) فطرحه أرضاً هو الموت حتف الأنف المذكور هنا .

ابتعاد يهوذا عن انتساب ليوسف دفاعاً عن مصلحة اخوته

الكلمة الثالثة - إن سأل سائل : لماذا قال يهوذا : ﴿ لا تقتلوا يوسف ﴾ ؟ فعبر عنه بعبارة ترمي الى أن يوسف كأنه أجنبي عن أخيه يهوذا ، ولم يقل : لا تقتلوا أخانا ، فالجواب عن ذلك أن يهوذا بهذا التعبير يفهم إخوته أنه لا يريد الالتصاق بيوسف ولا الانتساب اليه ، لأنه مغبون منه ، ولا يدافع عن شخصه لأنه أخوهم ولكنه بما قال يدافع عن مصلحة إخوته ، متناسياً من جهة يوسف كل نسب وأخوة .

غيابة البئر

الكلمة الرابعة - قال الطبرسي في تفسيره مجمع البيان : غيابة البئر شبه الحف أو طاق فوق ماء البئر ؛ وقال الهروي : الغيابة في الجب شبه كهف أو طاق في البئر فوق الماء يغيب ما فيه عن العيون (آلوسي) ، وقال ابن جرير في تفسيره : غيابة الجب بعض نواحيها ، وفي صحيح البخاري في تفسيره : كل شيء غيب عنك شيئاً فهو غيابة .

الجب وهل هو جب معروف

الكلمة الخامسة - الجب : البئر التي لم تطو ، لأن الأرض تجب جباً لا غير ، وكما تسمى جباً تسمى « قليلاً » ، كانوا ولا يزالون في فلسطين يأتون للأرض الصخرية ويجيئونها بالفؤوس والمعاول ، وكلما زلوا في الأرض توسعوا ، فيصير الجب أرضه وحوائطه الأربع وسقفه قطعة واحدة من الصخر ، ومما يقرب في الهيئة من الجباب الدحال ، جمع دحل ، وهو ثقب فيه ضيق وأسفله واسع ، وأقرب شيء يمثل الجب للقارئ هو الخيمة التي تكون من أسفل واسعة جداً ، مع كون أعلاها ضيقاً جداً ؛ كانوا يجيئون هذه الجباب في البراري ، كالبرية المحيطة بوادي دوثان ، وكانت تجف في بعض أيام الصيف ، ولا يبقى فيها ماء ، إلا في وهدة في وسط الجب على أسفله ، تحاذي بابه من أعلاه ، تبقى فيها بقايا الماء ، فتكون دوائر أرض الجب عديمة الماء في بعض أيام الصيف ، إلا في الجورة التي في وسطه ، وهذه الجباب هي لجمع ماء المطر وادخاره إلى حين الحاجة ، ينزل فيها ماء المطر بواسطة قنوات على سطح الأرض مسلطة على تلك الجباب . وإنما ذكرت الغيابة • مع الجب دلالة على أن هذا « القائل » أشار عليهم بإلقائه في موضع بناحية الجب

في إحدى أطرافه السفلى ، بعيداً عن وسطه الذي فيه الهوّة ، التي تكون عادة لكي يجتمع الماء فيها عند أواخره ، فهذه المشورة خطة ثالثة ، هي غير القتل وغير الطرح أرضاً ، فلا بد أن تكون هذه الخطة الثالثة تحتوي سلامة يوسف ، وتضمن حياته ، وتكفل بقاءه ، وذلك لا يكون إلا بما قلنا وصورتنا ، فالمراد أن يلقوه في ناحية من نواحيه ، لا في وسطه ، ذلك لكي يكون يوسف بعيداً (نوعاً) عن البقية الباقية من الماء في قعره ووسطه ، إن كان قد بقي فيه وشكل من آثار الماء ، بل قال المؤرخون إن هذه البئر كانت نزحاً ليس فيها ماء ، ذلك لأنهم اتفقوا أخيراً على عدم إهلاكه ، وهذا لا يتحقق إلا بهذه الصورة ، وأما لو كانوا يريدون القاءه في جب مملوء ماء لكانوا يريدون إهلاكه ، وهو خلاف ما وقع عليه اتفاقهم أخيراً ، وأما القول بأن الجب كان ملاً ماء فهو قول هراء يناقض روح الكلام الذي اتفقوا عليه أخيراً ، هذا تحقيق القول هنا ، وإن لم تصدقوني فتأملوا جيداً في الآية الكريمة وما ترمي إليه ثم سلموا معي - على طول الخط - بنظريتي وبعد فيظهر أنه أراد من قوله « غيابة الجب » جباً معيناً معهوداً معروفاً لهم في دوّثان ، وإنما عيّن ذلك الجب للعامة التي ذكرها ، وهي قوله ~~بـ~~ يلتقطه بعض السيارة ~~بـ~~ ، لأن ذاك الجب كان معروفاً في دوّثان ، وكانوا يردون عليه كثيراً ، وكان ذلك « القائل » يعلم أنه إذا طرح فيه أخوه ، يكون إلى السلامة أقرب ، أي يكون سالماً في المئة تسعة وتسعين ، لأن السيارة تجوز دائماً وترد على هذا الجب ، ومتى وردت إليه التقت بذلك الغلام ، فتخرجه وتذهب به إلى حيث تريد من البلاد القاصية كمصر مثلاً ، حسبها هو مألوف ومعروف في تلك المصور من التقاط بعض الأولاد واغتصاب بعض البنات واسترقاقهم ظلماً ، كما هو معمول به في تلك المصور المظلمة ، وبالتالي وبالنتيجة يكون القاؤه في غيابة الجب أبعد عن الهلاك .

التحقيق في تفسير الغيابة

هذا وأما تفسير « الغيابة » بما غاب عن النظر في قعر البئر وأسفله ، فهو بعيد والأقرب ما نقلناه من أن الغيابة هي شبه كهف أو طاق في البئر ، ودليلنا على ذلك قراءة « غيابات » بالجمع ، لأن الأسفل واحد ، وأما الكهوف والطاقات التي في الجباب فيمكن أن تتمدد ، والمراد « ألقوه في إحدى غيابات الجب » ، ويدل على ذلك أيضاً قول الشاعر :

فإن أنا يوماً غيبتني غيأتي

فسيروا بسيري في العشيرة والأهل

أراد بغيابته لحدّه ، ومعلوم أن اللحد كهف في جانب القبر عند أسفله .

هذا ما أراه في هذا المقام . وهذا ما يظهر ، ولا أعلم هل أرضي الجامدين فيما قلت لكم أيها السادة أو أغضبهم وإنما أعلم أنني قد أرضيت ضميري وخطري ، وأرضيتكم أيضاً أيها الإخوان ، وحسي ذلك وكفى .

اخوة يوسف لم يبيعوا يوسف

الكلمة السادسة — قوله : ﴿ يلتقطه بمض السيارة ﴾ يدل على أن إخوته لم يبيعوه للسيارة ، بل إن السيارة التقطته فهو دليل على أن ضمير الجمع في (شروه) فيما ميأتي يعود على السيارة ، لأن السيارة بمعنى القوم والرهط ، وأن (شروه) بمعنى باعوه ، كما هو المعنى اللغوي الكثير ، ولذلك قال على أثره : ﴿ وقال الذي اشتراه ﴾ أي ابتاعه ، أقول قولي هذا مخالفاً لجمهور المفسرين الذين قالوا بأن إخوته باعوه للسيارة ، وسبب هذا القول منهم — مع أن فهمه من الآية الآتية بعيد

جداً — أنه هو المذكور في التوراة ، فجمهور المفسرين وفي مقدمتهم ابن عباس (فيما يدعون) قلّسوا التوراة وقالوا بذلك ، وأما نحن فلا يهمننا سوى متابعة ما يتبادر من كلام الله تعالى في كتابه القرآن الكريم (ونمائه في المحاضرة على الآية العشرين) .

لماذا لم يبت «القائل» برأيه

الكلمة السابعة وهي الأخيرة — قوله : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ أي عازمين ومصرين على أن تفعلوا به ما يفرّق بينه وبين أبيه ، فهو لم يبت القول لهم ، بل عرض عليهم ذلك عرضاً ، تأليفاً لقلوبهم ، وتوجيهاً لهم إلى رأيه ، وحذراً من سوء ظنهم به ، ثم وبعد ذلك كنه لا بد أن يكون هذا الرأي الذي رآه (يهوذا) قد سرّ (رأوين) كثيراً ، وأساء (شمعون) كثيراً ، وكان الباقي من الإخوة على شيء من الرضى بهذا الرأي الأخير المذكور ، لأنهم لم يكونوا في الحب ليوسف كيهوذا ورأوين ، كما لم يكونوا في عدائه كشمعون ، فكانت حالتهم معه وسطى أو كانوا للغيرة والكره أميل ، والله تعالى وحده بالحقائق أعلم ، وإنا لنعجب لهذه الاختلافات في العواطف ، مع إن الدم واحد ، رأوين وشمعون ويهوذا هم أولاد يعقوب من ليئة ، ويوسف هو ابن يعقوب من راحيل ، والأُمّتان أختان ، أبوها (لابان) خال يعقوب ، فالجرثومة واحدة ، ولكن الفروع مختلفون في العواطف ، والله تعالى في خلقه شؤون :

قالوا بقانون الوراثة وهو في نظري مقال ما عليه دليل
ما أنجب النجباء قطّ فإن تجدد ولداً نجيباً منهم فقليل

ضائع ، القائل « مع يوسف »

الكلمة الثامنة — لا بد أنه كان لهذا القائل « مع يوسف ضلع » (نوعاً) وحسبنا دليلاً على ذلك أنه أقامهم برجوعهم لأخف الضررين ، وأنه قال : ﴿ إن كنتم فاعلين ﴾ إذ فيه إشارة إلى أن الأولى أن لا تفعلوا شيئاً من ذلك ، فإن كان ولا بد فاقصروا على هذا القدر ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وإن عاقبتهم فمافيوا بمثل ما عوقبتهم به ﴾ (١٦ : ١٢٦) يعني الأفضل أن لا تماقبوا .

وبعد فكل ما فتح به الرحمن في هذا المكان ، قد سقته إليك ، فإن لم تقنع به فالباقي عليك .
(مرحى)

تدبير الحيلة لتنفيذ المؤامرة

آ (١١) ﴿ قالوا : يا أبانا ، مالك لا تأمننا على يوسف ؟

وإننا له لناصحون ! ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الحادية عشرة فقام سيدي حسام آغا الفيومي ^(١) وقال :

دخل إخوة يوسف العشرة على أبيهم في خيمته و قالوا له ﴿ يا أبانا ﴾ المحترم ﴿ مالك لا تأمننا على ﴾ أخينا ﴿ يوسف ﴾ المحبوب ! ، أي لم تخافنا عليه ﴿ وإننا له لناصحون ﴾ ؟ أي ونحن نريد له الخير ، ونجبه ونشفق عليه ، وما وجدنا في بابه

(١) نسبة الى بلد الفيوم في القطر المصري .

ما يدل على خلاف النصيحة والمقة—وهذه السياسة تدعى سياسة «جس النبض». إذ أرادوا بذلك ، لما عرفوا على كيد يوسف ، استنزاله عن رأيه وعادته في حفظه منهم ، وفيه دليل على انه أحسن منهم بما أوجب أن لا يأمنهم عليه .

(قالوا يا أبانا ... الخ)

— ١ —

وتابع السيد الفيومي كلامه قائلاً —

التمهيد لتنفيذ المؤامرة على يوسف

كان الاخوة قضوا ساعة ر بعض الساعة في تدير المؤامرة المشؤومة السابقة ، ثم اتفقت كلمتهم على رأي أخيه (يهوذا) واستحسنوه ، فأرادوا انتهاج طريقة تسني لهم الجري على مقتضاه ، فشرعوا يمدون الأسباب الموصلة لذلك ، وابتدأوا يذللون العقبات التي تحول بينهم وبين أخيه ، لم يدخروا وسماً في استنباط العلل لأخذه ، فلم يجدوا لذلك سبيلاً إلا التزلف لأبيه وتعليل أخذه له بما يحبه أبوه . له ، رتبوا برنامج الحيلة والدميسة ، بأن يطلبوه من والده ، بعة التنزه والرياضة ، وترويح النفس ، فيأخذوه الأرض التي هم فيها ، يرعون حوالهم أغنامهم في «دوتان» ونظراً لما يعلمونه من حال أبيهم بالنسبة لأخيه — من قرب محبة ومحبة قرب — لم يكونوا يرجون أخذه بسهولة ، ورأوا أن الأمر يحتاج الى سعي وروية لأنه صعب ومشكل ، كما أنهم لم يكونوا قانطين من أخذه حيث لا يعدمون وسيلة لحل هذه الصعوبة ، فرتبوا فيما بينهم ما رتبوا من أخذ ورد ، وسلب وجلب ، وانبعثوا من

مكانهم فولوا وجوههم شطر فسطاط أبيهم في «سيلون» وذهبوا حثيثاً ، وما عتَموا أن دخلوا عليه ، وهم مقنموا رؤوسهم ، وخافضوا أصواتهم ، احتراماً لمقام الأبوة !! ، وجلال السن والرئاسة الدينية ، ليمجموا عوده ، وينمزوا قناته ، يواربونه ويماذقونه ، وعيونهم تميل بلفتاتها الى الجانبين ؛ رآهم أبوم فمجب لهم ، إذ كانوا مجتمعين حين دخولهم عليه ، فقال لهم : «مَهْمٌ» ما حالكم وما شأنكم ؟ اذكروا حاجتكم ، — فقالوا : يا أبانا المحترم ، إنا نتقدم اليك بسؤال نرجوا أن لا يثقل عليك ، سؤال بسيط تعرضه على وجه الاستفهام ، — قال : هاتوا — قالوا : إنا نعجب ولا نفهم الأسباب ، مالك لا تأمننا على أخينا المحبوب يوسف ؟ وماذا تنقم منا في معاملتنا معه ؟ يا أبانا ، نحن لا نستطيع أن ننكر عليك شدة محبتك له ، وفضل رأفتك به ، وحنوك عليه ، لأنك تحمل بين جنبيك قلب الأب العطوف على ولده الصغير ، ذلك القلب الذي يخفق بالرحمة والحنان ، ولكن الذي نعجب منه ونعجب فيه أشد العجب هو خوفك منا عليه ، وعدم ثقتك بنا في كلامه ، ونقسم بالرب (إِنل شدّاي) إنا لخلصون له قولاً وفعلاً ، وإنّا لنعجب من هذه المعاملة ، كما إنا لنقول هذا القول ، والأسف ملء أفئدتنا ، لأنه لا يليق بالوالد أن يكون في حال تحفظ من أولاده الكبار ، بالنسبة لأخ لهم صغير ، يفارون عليه من ظله ، ويخشون عليه من مس الريحان —

هذا وقد خاطبوه بعنوان «الأب» تحريكا لسلسلة النسب ، وتذكيراً برابطة الاخوة التي سببتها الابوة ، كي ينزلوه عن رأيه في حفظه منهم — أى أى شيء تشبه منه لا تجعلنا بسببه أمناء على يوسف ؟ مع إنك أبونا وهو أخونا ، بل وإن خالتنا ولماذا تشفق وتهيب ؟ ولماذا لاتسكن إلينا ؟

وقد حضرني الآن عدة فوائد ، أريد أن أعرضها على اسماع الاخوان

الحاضرين ، ليروا فيها رأيهم . —

الاخوة بين عاملي الخوف والرجاء عند طلب يوسف من ابيهم

الفائدة الاولى — قالوا هذا القول لأبيهم وهم بين عاملين ، عامل الخوف من أن يحجبهم بالسلب ، فتجبط تدابيرهم ، وعامل الرجاء أن يلي طلبهم ، فيفوزوا بعصيدهم ، وقد تصوروا عند ذلك أن حياة وموت يوسف بين شفتي يعقوب وهو لا يشعر .

طريقة طلب الاخوة ليوسف من ابيهم تدل على سوء نيتهن

الفائدة الثانية — كان يعقوب يخاف على يوسف من إخوته ومن كيدهم له ، وكانت تظهر منه أمارات على ذلك في أعماله وأقواله ، فلذلك خاطبوه بهذا الخطاب .

دفع ونفع

الفائدة الثالثة — إنما قالوا له : ﴿ وإنا له لناصحون ﴾ لأنهم كانوا متهمين عند والدهم بكره أخيه ، ولأنهم كانوا يعلمون أن أباهم يرغب كل الرغبة في النصح لولده يوسف ، ويحرص جد الحرص على صحة جسمه ونموه ورياضته ، وبني أعظم العناية بحفظه وكلاءته ، فدخلوا عليه من هذا الباب ، ولا يقدر أن يدخلوا عليه من باب آخر سواء ، فكانت هذه الجملة منهم « لدفع ونفع » .

وثيقة الاعتماد

الفائدة الرابعة — هم قالوا الآن : ﴿ وإنا له لناصحون ﴾ وسيأتي على الأثر قولهم أيضاً : ﴿ وإن له لحافظون ﴾ ، فوالدهم يعقوب اعتبر هذين الكلامين كوثيقة اعتمد عليها ، فسمح بذهاب ابنه يوسف معهم .

النصيحة لغة ومعنى

الفائدة الخامسة - قولهم: ﴿وإنا له لناصرون﴾ هو من: نصحت له الود: أخلصته، وناصح العسل: خالسه، ونظيره في القرآن الكريم: ﴿إِذَا نَصَحُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ (٩٢:٩) ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ (٧٨:٧) ﴿وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ (٢٨:١٢) ومنه حديث البخاري: (الدين النصيحة لله ورسوله) وفيه عن جرير: (بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامَ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ، وَالْأُصْحَابِ، وَالنَّصِيحَ لِكُلِّ مُسْلِمٍ) ومنه ما في قول أبي العلاء المعري:

إذا قومنا لم يعبدوا الله وحده بنصح فإننا منهم بُرء آء

فكل هذه بمعنى الإخلاص وخلوص الفعل والقول من شائبة الفساد، ففرق في المعنى بين نصحته ونصحت له، لأن معنى نصحته: تحريرت أن أقول له ما فيه صلاحه، ومعنى نصحت له: أخلصت له العمل أو القول، ونصحه ضد غشه، وأما نصح له فهو ضد خلط.

لسان اخوة يوسف هو ترجمان اهوائهم

الفائدة السادسة - عهدنا باللسان انه ترجمان الجنان، ولكننا نراه الآن ترجمان الأهواء، لأن هؤلاء الإخوة يتكلمون بما لا ينطوون عليه، وغني عن البيان أن الوفاء بالوعد من مهات الدين، ومن الأخلاق الاجتماعية الفاضلة، ومع هذا فانتنا نرى هؤلاء المتكلمين مع أبيهم لم يوفوا بالوعد، ولم يقفوا عند حدود هذا المهد.

المتكلم يطلب يوسف من أبيه واحد من الاخوة

الفائدة السابعة — سأل سائل : هل تكلم جميعهم جميعاً مع أبيهم ، أو كان المتكلم واحداً منهم عنهم ؟ والجواب عن ذلك أنهم كانوا عقدوا اجتماعاً سرّياً تناولوا فيه عماذا يصنعون في أخيههم ، ثم قر رأيه على أخذه من والدهم ، فلقائه في غيابة القلب ، وأحالوا بتنفيذ هذا القرار على واحد منهم يتكلم مع والده باسم جميعهم بحضورهم بحيث يترجم عن أفكارهم ، ويحكي مقاصدهم . واحتمل آخر وهو أنهم تواكلوا الكلام ، ثم تكلم أحدهم بلسان الجميع .

السم في الدسم

آ (١٢) ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ ،
وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ .

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثانية عشرة فقام عبد الملك الكردي وقال :

﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا﴾ من « سيلون » الى « دوثنان » ، ﴿يَرْتَعْ﴾ يتسع في أكل الفواكه وغيرها ، (ويلعب) يستبق ويتفضل ، كانوا يفعلون ذلك ليُضْرُوا أنفسهم بما يحتاج اليه لقتال العدو ، لا للهو ، بدليل قولهم ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ ، وإنما سموه لعباً لأنه في صورته ، هم وعدوه بذلك ، ولكن وعدهم راح أدراج الرياح ، فإن « الرتع » كان بعيداً عن فمه ، و« اللعب » كان نائياً عن رجليه ، وأما « الحفظ » فلم يكن إلا لقميصه ، فلم يرجعوا إلا به ، كما لم يرجع حنين إلا بحفيه ، ... وببارة أخرى :

هم يقولون : « لناصحون » ، « يرتع » ، « يلعب » ، « لحافظون » ونحن نقول هذه
وعود ساحرة ، خلافة ، مختلفة ، منقوضة من حين التكلم !!!

(يرتع ويلعب ..)

— ١ —

وقال الملاّ صديق الاربيلي (١) :

إخوة يوسف يضربون على الوتر الذي يحبه أبوهم لأخيه يوسف

لقد رأى إخوة يوسف الأكارم !! بشاقب رأيهم وواسع تفكيرهم !! أن
يضربوا على الوتر الحساس الذي يحبه أبوهم لابنه المحبوب يوسف في هذه السن ،
سن الصبا وشرخ الشباب فيطلبوه منه ليذهب معهم ليسرح ويمرح ويأكل ويلعب
فيدخل السرور إلى قلبه والانشراح والنشاط إلى صدره وبدنه ، فتوجهوا إليه
قائلين له : (يا أبانا غير أنشودة الخوف بأنشودة الأمن ، وبدل نعمة هذا التحفظ
بنعمة الثقة ، ولا تكن كحافظ عتيق !! ، أنفذه معنا غداً باسم التنزه والترريض
وتبديل المناخ ، واستنشاق الهواء النقي ، يتأمل في مناظر الطبيعة البسيطة ، الخالية
عن تصنع المتصنعين ، الدالة على وحدانية رب العالمين ، وإذا أعوزه شيء من أمور
هذا العالم المادية (رتّع) وتبسط في الأكل والشرب ، وإذا أعوزه اللهو تشاغل
و (لعب) بالقفز والجري والركوب والسباق ، وما إلى ذلك ، (يرتع) بمعنى
يكثّر في الأكل ويتنعم ويتوسع ، و (يلعب) بمعنى يشتغل بالرمي والثيقاف (الخصام
والجلاد) والصراع والكر والفر ويتأثر طرائد الصيد في مسارحها ومسارحها ،

(يلعب) في ذلك المرج الخصب كثير الكلاً بين تلك الآجام فيشرح صدره ، ويستقبل أشعة الشمس ، ويتمتع بمناظر الطبيعة ويسط نفسه ، ويرى حظه ، ويكر صبيحة كل يوم تبكير الطير ل يتمتع بمناظر الطبيعة ، ويتمتع نظره فيما أوجد الله فيها من بهاء وجمال ، ويعمل رياضة جسمية ، ويتنسم رائحة الهواء البليل العليل ، هواء البر الصافي الطلق ، فيميناً لو يعلم أخونا ما في البادية من طهارة الهواء ، وطيب المناخ ، لخرج إليها ولو حبواً .

معنى الرقع واللعب

هذا مغزى كلامهم الروحي ، ولعلكم وقفتم من هذا التقدير على معنى الرقع واللعب ، ومع ذلك فإني أشرح كل لفظ منها على حدة بشيء من التوضيح فأقول : (الرقع) في الأصل الاتساع في الخصب ، ثم أريد منه الاتساع في الأكل ، ومنه حديث أم زرع : (في شبع وري ورقع) أي تنعم ، وحديث عمر : (إني والله أرتع فأشبع) يريد حسن رعايته الرعية ، وأنه يدعهم حتى يشبعوا في المرتع ، وفي حديث الغضبان الشيباني : (قال له الحجاج : سمعتك قال : أسمتي القيد والرقة) أي الاتساع في الأكل ، قال الزمخشري : (وأصل الرقة : الخصب والسعة ، ولكن المقصود التوسع في أكل الفواكه وغيرها) ، وقال في القاموس (رقع : أكل وشرب ما شاء في خصب وسعة ، أو هو الأكل والشرب رغداً في الريف أو بشره) .

هذا وقد أخوا لفظ اللعب عن الرقع في قولهم لأبيهم ، لأن أحسن وقت للرياضة البدنية هو وقت الصباح ، بعد تناول لقيات يسيرة ، وفي المساء وقت البرد بعد أن يكون قد تناول طعام الغداء ، وفي كلام الناس :

« تَمَشْ وَتَمَشْ وَلَوْ خَطَوَتَيْنِ »

(يوتع ويلعب...)

— ٢ —

قال نادر الزمان الافغاني :

فوائد اللعب

١ — يفهم من مضمون الآية الكريمة ان يوسف كان على الأغلب ملازماً للجلوسه بجانب أبيه ، وربما لا يبرح سحابة نهاره ، فهو لا حركة ولا عمل ، ولذلك فاللعب الرياضي يناسبه كثيراً ، فأخوته إنما تكلموا مع أبيهم بتعقل وإظهار نصح ، ولكن النية منهم لم تكن صالحة ..

٢ — من المقرر أن الأوفق في الأعمال الرياضية أن تكون في الساحات الفسيحة الطلقة ، حيث الهواء نقي طهور ، والماء رقيق ، ولذلك رغبوا أن يخرج معهم الى البر .

٣ — قال علماء الصحة : إن الرياضة البدنية وعمل العضلات يدعوان الى دوران الدم وسيره في سائر الأعضاء ، فتتخلص الرئة والأجهزة الباطنة ومركز مجموع الأعصاب من كثرة الدم ، وإن عدم الانتظام في سير الدم يقع الجسم في الأمراض ، ويضعف أعضاء التحليل ، وبذلك يجد الانسان من نفسه ميلاً الى الضعف والكسل وعدم إرادة الحركة .

٤ — إن الرياضة البدنية تهيب الأجهزة المختلفة لإفراز الفضلات ، عرقاً أو بولاً أو مع زفير الرئتين ، وتقوي العضلات والمفاصل ، وتحفظ الدورة الدموية في حالة صحية ، فاللعب الجسماني مكانة كبرى وأهمية عظيمة ، فلذلك وحيث أن أباهم يعقوب يرتاح لكل ما يعود على ولده المحبوب بالفائدة انتحلوا لسفره معهم هذا السبب .

اللعب عند العرب

٥ — كان العرب كثيري الرياضة والألعاب ، دعاهم إلى ذلك شهامة النفوس وحب الفخار والمزود عن الشرف والميل إلى الحرب والمبارزة والركض وركوب الخيل وسرعة إجابة المستغيث ، وما إلى ذلك ، وإننا لنرى في كلام أولاد يعقوب (ع) ما يشير إلى أن فيهم شيئاً من ذلك .

أنواع اللعب عند العرب

٦ — من يعود إلى قانون الشيخ الرئيس (ابن سينا) ، يرى بحثاً مسهباً في الرياضة البدنية ، والألعاب الجسدية يدل على أن العرب كانوا يعرفون من أنواعها ما لا يقل عن معرفة أبناء اليوم لها ، فقد عرفوا منها المنازعة ، والجري والقفز ورمي الحديد ، والصيد ، وتسليم الجبال ، وحمل الاثقال والرمي إلى الهدف ، ولعب الكرة ، والسباحة ، وأعمال الفلاحة والصناعة ، وحركات الجباز ، والملاكمة ، وسرعة المشي ، والرمي عن القوس ، والقفز إلى شيء ليعلق به ، والحجل على إحدى الرجلين ، والمثاقفة بالسيف والرمح . وركوب الخيل والسباق عليها ، والخفق باليدين ، وركوب الجمال ، والظفر ، واللعب بالصولجان ، واللعب بالطباطب ، والمصارعة ، وإشالة الحجر .

لعب النبي ﷺ والصحاب

٧ — هذا النوع من اللعب ، أعني الرياضة البدنية بأقسامها ليس بمعيب ولا مستهجن ولا مكروه ، فقد كان ﷺ يتسابق مع عائشة (ض) فمرة غلبته ، وذلك لما كانت خفيفة اللحم ، ومرة ثانية غلبها ، وهذا حينما صارت بدنية ، وقد

ورد أن النبي ﷺ تصارع مع غيره، فكان النبي غالباً وأسلم المغلوب وكان مشركاً وورد أن النبي ﷺ كان يسابق على ناقته العُضْبَاءَ، وكانت إذا سوبق بهسالم تُسَبِّقُ، فعظمت في صدور المتسابقين، ولكن مرة سُبِّقَتْ، فقال ﷺ: « ما رفع العبادُ من شيء إلا وضع الله منه »، وكان عليّ كرم الله وجهه « تِلْعَابَةً » أي كثير اللعب، كقولهم (تِلْقَامَةٌ) لكثير اللقمة، كذا في فائق الزخشي، وكان الصحابة رضي الله عنهم يصطادون ويتسابقون على الخيل والإبل، ولا تنسوا ما قاله ﷺ لجابر بن عبد الله الأنصاري لما تزوج ثيباً: « هلاّ بكراً تلاعبها وتلاعبك »، وقالوا: « لا بأس بلعبة الرجل لفرسه وترسه وعرسه »، وروى ابن عدي في الكامل عن ابن عمر « أحبُّ الله إلى الله تعالى إجراء الخيل والرمي » وهما السباق والرمي عن القوس، وقال ابن أبي مليّكة: قد ندب الشرع إلى تعليم الصبيان الرمي والثِّقَاف (الخصام والجلاد) والصراع وسائر ما يدرّبهم على حمل السلاح والضرب والكرّ والضرّ وتصلية أعضائهم وتعليمهم البطش والحميّة والأنفة من العار والفرار (قاله في الطرق الحُكُمِيّة) .

جواز اللعب للكبار كما للصغار

وكان هرون الرشيد هو ووزيره جعفر البرمكي وسائر وزرائه - يلعبون بالكرة والصولجان، فالصولجان عبارة عن عصا طويلة طرفها أعقف، وأما (الكرة) فهي كتلة مستديرة من الجلد ونحوه، فإذا ضربت الكرة لا يلبث الفارس أن يلتقطها من الأرض بطرف صولجانه الأعقف حتى تطير في الهواء، فيستحث الآخرون أفراسهم في إثرها يبنفون ملاقاتها بصواجتهم ^(١)؛ وكم سمننا

(١) وهي لعبة تشبه اللعبة المسماة اليوم بلعبة « البولو » .

ونسلم ونسلم إن الكثير من الرجال الكبار يتبارون في العدو والقفز ، وهكذا الجنود في الثكنات العسكرية ، والأهالي في الحقول ، والتلاميذ في المدارس ، بلا نكير ودون استهجان ؛

إذا تقرر ذلك فلا مانع عندنا أن يراد (باللاعب) المذكور في هذه الآية أي قسم من أقسام الرياضة المذكورة ، وليس يصعب على ذي الطبع السليم إسناد اللاعب بالمعنى المذكور ليوسف ، لا سيما إذا لاحظنا أنه لم يكن في ذلك الوقت داخلًا في عداد الرجال ، بل في عداد الفلمان الذين لا بأس لهم بذلك ؛

« إذا ذكر المحاضرون فجهلاً بالأخ نادر الزمان الأفغاني »

(حافظون)

— ١ —

قال عبد العظيم التركي :

خديعة اخوة يوسف لأبيهم

يقول إخوة يوسف لأبيهم : والله لأن نسرّه ، أحب إلينا من أن نضرّه ، إنه سيكون تحت جناحنا ، ذاهباً ومقيماً وآيباً ، كل واحد منا هو (شرطي) عليه ، نحفظه من كل ما يسوءه ، وندفع عنه عاديّات الدهر ، بما أوتينا من قوة وعقل ، نموت بموته - لا سمح الله - ونحيا بحياته ، إن شاء الله ، فلا يلبث أن يعود إليك بالصحة والعافية ، وزجو أن تذكرنا بالرضا والدعاء في خلوتك وجلوتك ، كما نحن سنذكرك في (دوّنان) وصحرائها ، بالشكر والارتياح ، لحسن صنيعك معنا .

نعم ، نعم ، يميناً بالرب « أَلُوْهِم » إنه سيكون في خفارتنا وحمايتنا نذّب

عنه وذئود ، ومنع عنه بأنفسنا وأرواحنا ، فلا تمسه يد صالحة أو أئيمة ، ولو رقصت الرماح ، ورخصت الأرواح ، بل تقوم بحفظه من أن يُسْتَطَار أو يُغْتال ، أو يُفْتَرَس أو يَتِيه ، أو أن لا يرجع ، إلى نحو ذلك ، فهو العظيم واللحم ، ونحن الجنة والرداء .

قالوا ذلك ، وجعلوا يرفرفون بأجفانهم ، ويرددون أبصارهم ، وينظرون إلى وجه أبيهم خلصة ، ليتبينوا عواطفه ، شأن كل من كان يتكلم بما ليس في قلبه ، ﴿ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ على هذا كله ، وهم قد دخلوا على أبيهم بالخديمة ، وهم قد خرجوا بها ؛ هم يقولون : (يرتع ويلعب وإنما له لحاظون) الفساذ ثلاثة صدرت منهم ثم ذهبت قبض الريح ولم تلبث أن أقامت إلا بمقدار ما خرجت من شفاههم ثم تلقفها الهواء فاندجت في طياته ، وإلا فقل لي : أين الرتع ؟ وأين اللعب ؟ وأين الحفظ ؟

الجواب عند علام الغيوب !... فهذه وعود خرجت من لسان لم يتصل بقلب ، وأما لم تنبعث من أقصى النفس وإنما من الحنجرة فقط ...

ولنا هنا ملحوظة وهي أن هذه المعاهدة والمواعدة تذكرنا اليوم بمعاهدات دول الاستعمار مع أهالي الأقطار التي تضع نصب أعينها ، الاستيلاء عليها ، فإن تلك المعاهدات في الغالب محاطة استراحة بين الحملة والحملة ، ومنازل استجمام بين مراحل الحرب لا غير ، بحيث لدى توفر القوة لا تَعُدُّم عذراً في نقض تلك المعاهدات التي لم تبرمها منذ البداية إلا على نية النقض ؛

فإخوة يوسف هنا عندما دخلوا على أبيهم تبدلوا بجلود النمر أصواف النعاج ، ثم لما أخذوا يوسف قلبوا الحن ونكثوا ما قالوا ، فهم استعملوا الأيمان والعهود وسيلة لا مستنزال أبيهم ورضاه بما طلبوا ، ثم غدروا به ! الأمر الذي لا يليق بذوي البيوتات المحترمة ؛

وهذا يذكّرنا بما كان « المنصور العباسي » يفعله ، يحلف كاذباً ، ويعاهد ويخالف ، ويوافق ويغدر ، كما فعل مع « ابن هبيرة » بعد أن أعطاه الأمان ، فإخوة يوسف ههنا وعدوا وتلففوا ولكن حادثة القائه في غيب القليب شهدت عليهم أنهم لم يبروا بوعدهم المرقوبي :

إحذر الأقرباء ما استطعت وانظر
وعدوه بالنصح والحفظ لكن
فعل إخوان يوسف المحسود
لم يريئوا أن أخلفوا بالوعود (١)
ورحم الله من قال :

غاض الوفاء وفاض العذر وانفرجت
إن كان ينجع شيء في ثباتهم
مسافة الخلف بين القول والعمل
على العهود فسبق السيف للعدل
وقد اعتد الناس على « عبد الملك بن مروان » فعلمته التي فعلها مع « سعيد بن العاص » حيث قتله بعد أن عاهده على تأمين حياته ، وقالوا إنها أول غدره في الإسلام ، وقد اتفق أن سأل عبد الملك أحد كبار رعيته من شيوخ العرب عن رأيه فيما فعل مع سعيد ، فقال : ﴿ حَسَنٌ لَوْ قَتَلْتَهُ وَحَيَّيْتُ ﴾ — فقال عبد الملك : « أولستُ بحَيٍّ ؟ » — فقال الشيخ العربي : « حياة من لا يوثق له بعهد ولا عقد ، ! .

« رجماً وانعطافاً » :

خلف الوعد والوفاء به

وخلف الوعد طبيعة الشيطان كما ورد : ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ :
إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ ... وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾ (١٤) :

(٢٢) وهو قنطرة النفاق كما قال تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ ، وَلَنَكُونُنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ، فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ، فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ، بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ ، وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ (٩: ٧٦ - ٧٨) .

قال

خذا الوعد لكن من يميني فأعفني فلست 'أرعى' يوماً كذوباً فأخلفا
ولا تتخيل أني لسك 'مخلف' فلست 'بأهل' للنفاق فأخلفا (١)
والوفاء بالعهد من سيئات المؤمنين إيماناً كاملاً وهو لهم عنوان شرفهم ، وملاك مروءتهم ، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ (٢٣ : ٨) .

وقال تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ، إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴾ (١٧ : ٢٤)
فلا يوجد شيء أشرف من تقييد الإنسان بقوله ، «والوعد أملك ، عليك أم لك» .

تخوف يعقوب من طلب اولاده

آ (١٣) قال إني ليحزني أن تذهبوا به ، وأخاف أن يأكله الذئب ، وأنتم عنه غافلون .

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثالثة عشرة فقام السيد البعلبكي (٢) وقال :

(قال) لهم أبوهم معتذراً إليهم بشيئين ، الأول ما في قوله ﴿ إني ليحزني أن

(١) النظم لرئيس المؤتمر .

(٢) نسبة الى بعلبك من بلاد الشام (لبنان) .

تذهبوا به ﴿ ومفارقتي إياه ، لأنني ما تعودت الصبر عنه ، (و) الثاني إني ﴿ أخاف أن يأكله الذئب ﴾ أخاف عليه من عدوة الذئب الموجود بكثرة في « دوثان » ﴿ وأنتم عنه غافلون ﴾ برعيكم ولعبكم ، أو إذا قلّ به اهتمامكم ولم تصدق بحفظه عنايتكم .

نعم أيها السادة ، لقد سمع يعقوب مقالة أولاده ، فتبسم تبسماً يمازجه القلق ، وأخذ يعجب لهذا الاحتفاء غير الإعتيادي ، قائلاً في نفسه : إن المركب خشن ، وأشد الحزن ما يحزن الرجال .

سكت هنية وهو يمشط لحيته الشريفة بأصابعه ، كأنه يفكر بماذا يجب أولاده على اقتراحهم ، لأنه قد خامرهم منهم ريبة فقال : أواه ... لعمري إن هم الفراق ، ولوعة النوى ، ولو قليلاً ليملآن قلبي .

افكر يعقوب في حال أولاده مع يوسف ، وأنهم يحسدونه ، وأنهم له بالمرصاد ، فقال في ضميره : إن سباحة الغزال في الماء مع التماسيح تغرير ، ومن سمح أن تظفر به الأسود عند غاباتها لم يأمن من وثباتها .

رأبه أسلوب كلامهم ، وهالته طريقةتهم في خطابهم ، فتخوفهم قائلاً بينه وبين نفسه : لعمري إن هذه الكلمة الصادرة منكم التي تطن الآن على أذني لهي أدلّ على ما يتخوف منه من اسم المحلّ على بضاعته ، سمع أبوهم كلمتهم وفيها غنة المكر ، فوقع في نفسه من الذعر ما لا يعلمه إلا الله وهو ، وأوجس خيفة من هذا الطلب ، وغلب عليه الانقباض ، وحدثته نفسه بخاطر قريب ، وحصر صدره مما قالوا ، وأحس بمكر منهم بحاسة الإشعاع السماوي المودعة في قلبه .

طلبوا هذا الطلب من أبيهم ، ولبثوا منتظرين جوابه بكل حرارة ، كأنهم على

مقالي الجمر ، فقال أبوهم : لا أخفي عليكم إنكم طلبتم أمراً صعب المرام ، بمسد المتناول أنا لا أريد أن أركب الضرر ، ولا يهون عليّ مفارقة هذا القعر ، إني أحب أن يكون يوسف مني دائماً برأى ومسمع ، وإنه لي شجيني أن تبعدوا به عني ويؤلم قلبي أن تفرقوا بينه وبينني ، ويقض مضجعي أن تحرموني رؤيته ، لأن ذلك يجعلني خائراً النفس ، ضائق الصدر ، بكل ما تحت هذه الكلمة من المعاني .

استغرب أبوهم ما تجدد فيهم من محبة أخيه ، وعهده بهم - وما بالعهد من قدم - أنهم لا يحرصون على مسرته ، لما عندهم له من الحسد والضعيفة فقال : إني أنا الآن بين خطرين عظيمين الحزن على فراقه ، والخوف على حياته ، ولئن سلمت من أحدهما لا أسلم من الآخر .

سمع أبوهم كلامهم فراه منه ما يريب (راعي الشاة) من ابتسامة الذئب ، فاعتراه امتعاض وابتئاس ، فقال : (إني لي حزني أن) وسكت ، - فقالوا : (أن ماذا) ؟ - قال : (أن تذهبوا به) ، فإني أتخيل أن قلبي يذوب يوم بعد ولدي عني . وأتصور أن لي بطير شعاعاً عند فراقه لي .

هذه مراحي جواب أبيهم لهم ، وأنتم ترون أن هذا الكلام لتين والعبارة لطيفة ، ولكن المعنى جارح ، ولذلك نرى أولاده - رغماً عن أنهم في مقام الرجاء أجابوه بجواب ملؤه الشدة والصراحه كما سيأتي .

وبعد ، ومع كل ذلك فنحن نضم صوتنا لصوت يعقوب (ع) ، ونشاطره في هذا الحزن وذاك الخوف ، كما صدقه الواقع وليس في الواقع من حيلة .

(ليحزني أن تذهبوا به)

— ١ —

قال عبدالعظيم الشراكسي :

عزو حزن يعقوب لثلاث احتمالات

يحمل أن المعنى : يحزني ذهاب يوسف عني ومفارقته إياي ، أي يحزني ذهابه عني ، ومفارقته إياي مطلقاً ، إما وحده وإما مع غيره كائناً من كان ، ويحمل أن المعنى يحزني ذهابكم أنتم أيها الحسدة البغضة ، لا سواكم من ذوي الحب والرفق والإخلاص ، فعلة الحزن هي كون أولاده هم مناط الذهاب بيوسف أي إنه يحزن لكونهم هم الذاهبين به ، لا غيرهم من ذوي الود والمقة ، فمجرد الذهاب بيوسف لا يحزن أباه ، وإنما الذي يحزنه هو كون الذاهبين به إخوته الذين يكرهونه ، ويناوئونه دائماً ، هذا ما ظهر لي فتأملوه ، فربما أكون واهماً مخدوعاً ، وإذا صح هذا المعنى يكون أبوهم رمى حجراً فأصاب اثنين فجعل ذهابه عنه مطلقاً من أسباب حزنه ، كما جعل ذهابهم هم به خصيصاً كذلك ، بل عندنا أن الكلام يحمل معنى ثالثاً ، وهو هكذا : يحزني أن تفوزوا - أيها البغضة - بأخذه ، وتستبدوا - أيها الحسدة - باستصحابه معكم - لأنه وإن يكن أصل معنى هذا التركيب - تستصحبونه وتمضون به معكم ، فقد يكون لهذا التركيب في بعض المواضع معنى زائداً على المعنى الأصلي ، وهو الفوز بالشيء ، وذلك كما في قوله تعالى : ﴿ إِذَا لَدَّاهَبٍ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ ﴾ (٢٣ : ٩٢) ،

أي لغاز به واستبد بأخذه ، دون الآلهة الأخرى ، وقوله تعالى : ﴿ لَتَذْهَبُوا
بِسَعَةِ مَا آتَيْنَاهُمْ هُنَّ ﴾ (٤ : ١٨) ، أي لتفوزوا بشيء من المهر (الراغب)
وعليه فأصل المعنى ههنا ، مع رعاية المعنى الأصلي ، يحزني أن تفوزوا وتظفروا به
من بين يدي ، سيما وأني أعرف عداؤكم له ومناوأتكم إياه . « مرحي ،

(وأخاف أن يأكله الذئب الخ ..)

— ١ —

قال مولاي برهان الدين من علماء كراتشي في الهند :

خوف يعقوب على يوسف وعلى آماله فيه من الذئب

يقول يعقوب لأولاده المشرقة : « إن الصحراء التي أنتم فيها « مسبعة » أو
« مذآبة » فلا أريد أن يكون ابني الصغير عرضة لافتراس « أبي جمدة » (١)
الموجود العدد الكثير منه ، في تلك المفازة التي ترعون فيها أغنامكم ، فإني خبير
بوعث تلك الاصقاع وخوفها ، سيما وأن الذئب فيها عادية ضارية ، فلا تكونوا سبياً
في الوقوع فيما أفرق ويطير قلبي شماعاً منه ، لا تكونوا سبياً في حرمان ولدي ،
والتفريق بيني وبينه ، فانكم إن فعلتم أتعتموني وبرحمتي ، وما لأم حياتي هما وكداً ،
قال لهم أبوههم ذلك علناً بسماع كل منهم ، ثم قال في نفسه سرّاً : « وإنني
لست أخاف من الموت على شخصه فقط ، بل أخاف على تلك الآمال التي آملها فيه
أن تموت بموته ، أخاف على مَرَجُوَاتِي فيه المستقبل أن تدفن معه ، فإن لي في
هذا الصبي آمالاً كباراً ، فلي فيه رجاء أن سيكون له مستقبل باهر ، وأترقب أن

سيصير له شأن ذو بال ، فتخو في ليس على ضياع شخصه فقط ، بل على ضياع تلك الآمال المحيطة .

هذا هو المعنى الروحي لكلام يعقوب (ع) فكان قلبه دلتة على ما قال ، ولا غرو قلب المؤمن دليله ، وقد روي : « استفت قلبك ولو أفنأك المفتون » ، وهذا النوع من كل ما يحكى فيقع تسميه العرب « الألمعية » قال أوس :

والألمعي الذي يظن بك الظن — كأن قد رأى وقد سمعا

ويقال له إذا صدر من الرجل الصالح « فِراسة » كما قيل : « اتقوا فِراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » ، ومن الرجل الأصلح « تحدثاً » كما ورد عنه (ﷺ) « إن يكن في أمتي مُحدثون فمنهم عمر » أي تُحدثُهم الملائكة بما تلهيهم إياه .

أو يقال إن يعقوب (ع) كان يتخيل أن « ذئباً » سيفتال ابنه ، فكان لهذا الخيال محتاط في صونه ، ثم إن الحادث الذي وقع ففسر هذا الذئب بأنه ذئب خيالي اخترعته أفكار أولاده ، ولما ترى حادثاً فظيماً لم تتقدمه الهواجس والخيالات التي تجوم حوله ، وتشير الى وقوعه ، وهذا سر من أسرار الكون التي لم يوقف لها حتى اليوم على سبب ، نعم ، إننا نرى بعض المحبين لا يكاد يطمئن بالله على من يحب ، حتى إذا جاء أحد يطلبه ، فلا يتبادر الى ذهنه إلا الاحتمال السيء ، ولذلك قال بعضهم :

من سر أسرار الغرام شعورٌ من يهوى الملاح بكل شرٍ قادم
وهنا دقيقة تلميحية لا بأس من الإشارة إليها ، وهي أن كلمة « ذئب » لم تذكر قط في القرآن الكريم إلا في هذه السورة ثلاث مرات ، كأنه لما كان « موضوع » هذه القصة هو « يوسف الغزال » ناسب أن يذكر في مقابله « الذئب » .

(وأخاف أن يأكله الذئب)

— ٢ —

وقال فخر الدين الخوارزمي (١):

التوفيق بين خوف يعقوب على يوسف وبين رؤيا يوسف

سأل سائل : كيف يقع هذا التخوف من يعقوب ، مع أنه كان سمع رؤيا ولده ، واعتقد صحتها وعرف مرماها ، وأوصى إليه أن لا يقصها على إخوته ، ثم بشره : ﴿ وكذلك يجتبيك ربك .. الخ ﴾ ولا ريب أن هذا لم يكن منه على وجه التكهّن والتفرس أو الألمعية أو حسن الرجاء ، بل كان على وجه أنه أوحى إليه به لأنه نبي : ﴿ وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحيٌ بُوحى ﴾ (٣: ٥٣) (و ع) ، ولذلك رأيناه بعد حادثة الذئب (المزعومة) لا يزال معتقداً بوجود ولده يوسف وبحياته ، كيف لا وقد قال : ﴿ بل سئولت لىكم أنفسكم أمراً ﴾ (ع ٨٣) ثم قال : ﴿ عسى الله أن يأتي نبيهم جميعاً ﴾ (ع ٨٣) ، ثم قال : ﴿ واعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ ثم قال : ﴿ اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ، ولا تيأسوا من روح الله ، إنه لا يئأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ (ع ٨٧) ، ثم قال : ﴿ إني لأجد ربيع يوسف ﴾ (ع ٩٤) فمجموع هذه الأقوال الخمسة يرشدنا إلى أنه كان على اليقين من أن ولده موجود بقيد الحياة ، وما ذلك إلا استناداً على الوحي الذي أوحى به ليوسف في رؤياه الجميدة ، وعلى الوحي الذي أوحى به إليه نفسه

حتى أخبر ولده بمستقبل له باهر ، كمن ينظر الى الغيب ويخبر عنه بأخبار راهنة أكيدة .

فإذا تقرر هذا فكيف سوغ لنفسه التخوف على ولده من « الذئب » ؟

ونحن نجيب عن هذا السؤال بما يلي :

خوف يعقوب على يوسف أمر طبيعي قسري

١ — إن الخوف من شيء ما هو أمر طبيعي ، يطرأ على الانسان قسراً ، مع اعتقاده بعدم وقوع مضمونه ، وعدم حصول ما يخافه ، انظر الى « يوكابد » أم موسى (ع) ، فقد خافت على ولدها موسى بعد أن ألقته في اليم ، حسبما نفهمه من قوله تعالى : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً ، إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ ، لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا ، لَتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢٨ : ١٠) كان هذا منها بعد أن طمأنها الله تعالى وقال لها : ﴿ فَالْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ، إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعَلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٢٨ : ٧) وقال تعالى : ﴿ فَرَجَعْنَاهُ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴾ (٢٠ : ٤٠) ، فترى من أن أم موسى بعدما نهاها الله عن الخوف والحزن ، وطمأنها بكلامه ، خافت وحزنت ، وذلك لأن كلاماً من الخوف والحزن أمر طبيعي يطرأ على الانسان قسراً ، من حيث لا يشعر ، ولا يكون له فيه اختيار — وقال تعالى : ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ﴾ (١٣ : ١٤) فالملائكة عباد مكرمون : ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ ، وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (٦٦ : ٦) وهم معصومون . ومن العذاب قطعاً آمنون ، لدخولهم دخولاً أولياً في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ ﴾ (٨٢ : ٦)

ومع كل هذا فهم ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ (١٦ : ٥٠) — وقال تعالى :
 ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ ، فَلَمَّا رَآهَا تُهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ ، وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ
 يَا مُوسَى : لَا تَخَفْ ، إِنِّي لَا بِخَافٍ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ (٢٧ : ١٠) ،
 فموسى بعد أن رأى عصاه قد قلبت حية خاف ، وهو بحضرة الله ، وإنما القاهسا
 بأمر الله ، فهرب محتثاً ذعراً ، فهذا الخوف أمر طبيعي يعتري المخلوق مع اعتقاده
 بعدم تأثير ما يخافه ، فلا اعتقاد شيء ، وطبع المخلوق شيء آخر ، وقال لموسى :
 ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْمِلُ لَكَ سُلْطَانًا ، فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكَ
 بِآيَاتِنَا ، أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمْ الْغَالِبُونَ﴾ (٢٨ : ٣٥) ، ثم قال عن
 السحرة لما قالوا : ﴿إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى — إِلَى
 قَوْلِهِ — فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ، قُلْنَا : لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ
 الْأَعْلَى﴾ (٢٠ : ٦٥) فهذا موسى رسول الله وكليمه ، كان قد أخبره الله
 عز وجل بأن فرعون وماله لا يصلون اليها ، وأنه هو الغالب ، وبعد ذلك فهو
 قد أوجس في نفسه خيفة ؛ وقال تعالى خطاباً للنبي (ﷺ) : ﴿وَلَا تَحْزَنْ
 عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ (١٦ : ١٢٧) وقال : ﴿فَلَا
 يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ﴾ (٣٦ : ٧٦) وقال : ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ﴾
 (٣٥ : ٨) ، ثم سمعناه تعالى يقول : ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي
 يَقُولُونَ﴾ (٦ : ٣٣) ونهاه عن ذلك ، فما هذا إلا لكون الحزن أمراً طبيعياً
 وكذلك الخوف في قوله : ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ (ع ١٣) .

جواز عدم وجود اعتقاد جازم عند يعقوب في ولده بنافي خوفه عليه

٢ — يجوز أن لا يكون عند يعقوب اعتقاد جازم في ولده بنافي خوفه عليه

آ (١٣) جواز عدم قطع يعقوب بأن رؤيا يوسف هي ليوسف نفسه بل لغيره من ذوي قرباه ٣٥٩

من افتراس « الخَوْلَع »^(١) إياه ، وأما رؤيا يوسف فيجوز ليعقوب أن يحملها على رؤية الهمة فلا يكون لها تعبير ، وكذلك قوله له : « وكذلك يحبتك ربك الخ » .
يجوز أن يكون قاله لا عن وحي ، بل عن تفرس ورجاء وعليه فلا يكون خوفه .
على حياة ولده مستغرباً .

جواز عدم قطع يعقوب بأنه رؤيا يوسف هي ليوسف بل لغيره من ذوي قرباه .

٣ — لعل يعقوب (ع) لا يقطع بأن هذه الرؤيا التي رآها ولده يوسف ، هي لشخص يوسف نفسه ، بل لغيره من ذوي قرباه ، لأن الرؤيا التي يراها الانسان في منامه ، قد تكون لبعض أقاربه أو أصدقائه ، كما هو مذكور في كتب تعبير الرؤيا (راجع ابن سيرين وابن شاهين ، و تعطير الأنام في تفسير المنام للنابلسي ، .
تجد الأمر كما نقول) ، وفي حديث : « بينا أنا نائم ، أتيت بمفاتيح خزائن الأرض ، فوضعت في يدي » ، قال أبو هريرة ، « فذهب رسول الله (ﷺ) ، وأنتم تنقلونها » ، فلا شك أن المراد من يد النبي يد أتباعه ، من الخلفاء الراشدين ، والأمويين والعباسيين وما إليهم .

جواز قصر يعقوب بالذئب وأكله إضرار شمعونه بيوسف

٤ — لعله لم يعن بالذئب وأكله سوى إضرار (شمعون) له ، وهذا الجواب .
الرابع وجهه وقوي جداً ، ولكن ليس هذا موضع توضيحه ، بل موضعه المحاضرة .
الآية على آية (١٧) فانتظر .

(١) الخولع احد اسماء الذئب .

٣٦٠. يعقوب يكشف ما يجول في ذهن أولاده بالنسبة ليوسف ليعلم بماذا يجيئون آ (١٣)

هذا ما ظهر لي الآن ، في الجواب عن سؤال السائل فتأمله فإني لست بالقائل :

ولا تقف صوتاً غير صوتي فإني

أنا الصائح المحكي* والآخر الصدي

ولكني أقول : ربما أكون واحماً مخدوعاً ، فإن أصاب جوابي الحز فذاك ،

ولاً فدعه ، ولا تتبعه ، فكلنا يصيب ويخطئ* ، ويسرع ويبطئ* .

(هتاف من الجميع : نت مصيب يا أستاذ)

(وأنتم عنه غافلون)

— ١ —

قال الحاج اسماعيل السيامي (١) :

يعقوب يكشف ما يجول في ذهن أولاده بالنسبة ليوسف ليعلم بماذا يجيئون

يريد يعقوب أن يقول : إن ولدي نحيل ضعيف العضل ، لم يجرب الكفاح ،

ولم يحمل بعد السلاح ، فأخشى عليه عادية « العمَلَّاس » (٢) حال انشغالكم عنه

ببعض الأشغال وربما تهاوتم في حفظه ، وفرطتم في الدفاع عنه وإنما يُضَنُّ بالضعفين ،

ولا أكنم عنكم انني قد تشاءمت من قولكم : (مالك لا تأمنا) ، والمكتوب

يعرف من عنوانه ، وإن صوت قلبي هو أصدق من تلك التأمينات التي تُمنوني

بها . ويا الله !! ما أحوج يعقوب ليوسف ؟ لا يعلمه فيه ، وما أحوج يوسف ليعقوب

لأنه غلام صغير .

(١) نسبة الى سيام احدى مدن الهند الصينية .

(٢) العملس احد اسماء الذئب .

هذا مرمى جواب يعقوب لأولاده ، وقد كانوا قبلما دخلوا على أبيهم تصوروا أن الأمر بالنسبة إليه جَلَلٌ ، وأنه يشق عليه فراق ولده المحبوب ، لاسيما إذا كان قد ذهب معهم ، وإن ذلك الأمر يحزنه كثيراً ، وكانوا أضمرُوا أنهم بعد أن يأخذوه ويسقطوه في الحب ، يرجعون له بدونه ، متعللين بأن « الخَوَاتِع » أكله ، حال غفلتهم عنه ، — فكانت هذه المعاني حاضرة في ذهنهم ، وكانت هذه الصور مرسومة في مخيلتهم ، فحينما دخلوا على والدهم انكشف له ما في قلوبهم من تلك الصور ، وقرأ أفكارهم ، وما أصدق ما قيل : (من القلب الى القلب دليل) فطلق ما يختلج في قلوب أولاده ، فكأنه تاب عنهم أو تكلم بلسانهم ، أو عبر عما في ضمائرهم واحساساتهم ، ليسمع ماذا يقولون في جوابهم ؟

يعقوب يصف غفلة ابنائه عن حفظ يوسف بأنها امر ثابت لهم في نفسه

لقد قال يعقوب : (وأنتم عنه غافلون) ولم يقل : (وأنتم غافلين عنه) إذ يوجد فرق كبير في المعنى بين الجملتين ، فالجملة الأولى (وأنتم عنه غافلون) حال جملة ، ومعناها إن غفلتهم عن حفظ يوسف وصف ثابت لهم في نفس أبيهم يعقوب ، إذ ربما أكله الذئب في حال تلبسهم بتلك الغفلة ، ثم هم غافلون عن حفظه أيضاً قبل هذا الحال وبعده .

وأما إذا قال (وأنتم غافلين عنه) فتكون حال مفردة ، ويكون معناها ، إن الغفلة إنما تكون وصفاً لهم حال أكل الذئب إياه ، فالغفلة تامة لأكل الذئب ، مقدرة بقدره ، وهكذا يقال في أمثاله مما سيأتي .

جواب المختلة والمكر

آ (١٤) ﴿ قَالُوا : لَئِنْ أَكَلَهُ الذُّبُّ ، وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ،

إِنَّا إِذَا خَاسِرُونَ ... ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الرابعة عشرة فقام الشيخ مضيوف
السنغافوري ^(١) وقال :

(قالوا) بلسان الرد والانكار ، (لئن أكله) أي عدا عليه (الذب) السبع (و)
الحال أننا (نحن عصبه) جماعة متعصبة متعاضدة ، (إننا إذا) قوم (خاسرون)
أي لمستحقون أن نخسر ونهلك ، أو معناه : إن لم تقدر على حفظ بعضنا فقد هلك
مواشينا إذا وخسرها .

حلفوا لأبيهم لئن كان ما خافه من خطفة الذب أخاهم من بينهم ، وحالهم
أنهم عشرة رجال أنهم خاسرون ، ولما رأوا أن أباهم قد تشاءم ، طلبوا منه سحب
تشاؤمه ، مبينين له سبب التفاؤل ، وهم كونهم عصبه ، فإن قلت قد اعتذر لهم
بمذرين ، فأجابوا عن أحدهما دون الآخر ؟ قلت إن العذر الذي حذفوه وتغافلوا
عنه هو الذي كان يغيظهم ويذيقهم الأمرين ، فأعاروه آذاناً صماء ، ولم يعبأوا به
وأيضاً كان أشغل المذرين لقلبه هو التمسائي وهو خوف الذب عليه ، لأنه مظنة
هلاكه ، وأما حزنه لفارقه ريثما يرتع ويلعب ويعود سالماً إليه عما قليل فأمر سهل
فكانهم لم يشغلوا إلا بتأمينه وتطمينه من أشد الأمرين عليه .

(١) سنغافورة بلد في الهند الصينية .

(قالوا لئن أكله الذئب .. الخ)

- ١ -

وقال السيد عي الدين الحضرمي ^(١) :

اصرار الابناء على اخذ يوسف من ابيه

لم يلب والدهم طلبهم ، ولما كان : (أحب شيء الى الانسان ما منعنا) ولما
 رددوا في ذاكرتهم ما كانوا قد آنسوه من كثرة مِقَّتِهِ به ، ولما راجعوا صورة
 المنام الذي كان قد رآه ، لما اجتمعت عندهم كل هذه الأشياء - ازدادوا شعوراً
 بلزوم أخذهم أخاهم معها كلفهم الأمر ، فراجعوا والدهم ثانياً ، وقالوا له - وهم
 يتظاهرون بالدهشة والاستغراب - أيّ الذئاب تعني ... تبناً علينا ، هل يقدر أن
 يفترسه « العَمَلَس » ؟ إنه لأضعف من أن يقدم على هذا الأمر ونحن حوالى
 أخينا ، وإن كبّد السماء أقرب الى « العملَس » من أن يصل الى أخينا ، هب ان
 صحراء دوقان مسبعة كما تقول ، وان كثيراً ما افترس فيها ولدان صغار كما تسمع
 ولكن كيف يمكن « لأبي جَمْدَة » أن يفترس أخانا الحبوب ، ونحن حوالى
 نموطه ، ونقوم بالمحافظة عليه ؟ بل كيف يمكن ذلك وهو ابن سبع عشرة سنة ؟
 ما هذه الظنون أيها الوالد العظيم ؟ تالله لئن أكله « الخولع » - لا سمح الله - ونحن
 جمع شديد ، بمثلنا تمصّب الأمور وتلقى الخطوب ، إنا إذاً لهالكون ، ضعفاً
 وخوراً وعجزاً ، - أو على الأقل - لمستحقون أن نهلك ، لأننا نكون لا غناء
 عندنا ولا جدوى في حياتنا ، نكون لسنا بشيء ، لسنا رجالاً ، لا نستحق الحياة ،
 ليس لنا قِطٌّ من البطولة ، حتى لسنا بأهل لأن نكون رعاة أغنام !! حقاً إنه
 ليسوؤنا أن لا يكون لنا نصيب من الثقة بنا ، حتى ولا في نفس والدنا ! فنشدناك

(١) نسبة الى حضرموت من بلاد الساحل الجنوبي لجزيرة العرب .

الله يا والدنا أن لا تكسر معنوياتنا بمثل هذا الجواب ، ولا تتخوف عليه ، فإننا مع احترامنا لشخصك الكريم ، لا نرى محلاً لهذا الخوف والحذر ، وإننا نستغرب ما تقول من (الحزن) جد الاستغراب ، ونعجب له جد العجب .

يا أبنانا تأكد تماماً أن هذا الذي تقول لا يكون دون أن يَبْيضَ القار ، ويجمع الليل والنهار ! يا أبنانا لا تنس أننا عصابة أولوا صهيل وصليل ، يشد بعضنا أزر بعض ، لا نستذل ولا نستقل ، وإن صح ما تظن ، خسرنا حسن سمعتنا بين الرجال بالفتوة والمنعة ، ومشاع انه ليس لنا حمية ولا قوة دفاع ، يا أبنانا ، أفضل أعمالنا في غنمنا ، وعمدة شرفنا ذود السباع عنها ، فإذا كنا نرود السباع عن غنمنا أفلا ندودها عن أخينا الصفي !

هذا هو المعنى الروحي الذي يؤول اليه كلامهم في جوابهم لأبيهم ، وسببه أنهم لما سمعوا جواب أبيهم السليبي ، ثارت فيهم الحمية ، وأوغلوا في إشارات الاستغراب ، وقد تلونت وجوههم بلون التعجب ، وتذمروا من جواب أبيهم واستهجنوه ، واستنكروه واستكبروه واستعظموه ، فاستنصروا جلدتهم وقوتهم ، ذاهبين الى أن : (السكوت عند رد الجواب بدعة) مقيمين على فكرتهم ، مصرين على مخالفة أبيهم ، متغلبين على ذهنه ، متسلطين على إرادته ، وهكذا ما زالوا يمتالون عليه بكلام يثقب الخردل ، ويحط الجندل ، وما برحوا يجادلونه جدال هجوم ، وأبوهم يجادلهم جدال مدافعة ، حتى وقع قولهم في نفسه ، وغلب أخيراً على أمره ، تغلبوا عليه ، وهو واحد ، وقد قيل : « ضعيفان يغلبان قوياً » ، فكيف إذا كانوا جماعة أقوياء ؟ فلذلك ولكونهم آمنوه ووعدوه — كانت النتيجة أن سمح لهم بأخذه ، ورضي بذهابه معهم ، وسلم لهم تسليماً ، وإن كاد يكون تسليماً اغتصابياً .

وبعد هذا كله ، فلنا ثلاث كلمات :

تهربهم من الاجابة على حزن أبيهم ومغالطتهم الجدلية له

١ — لنا على جوابهم لأبيهم ملاحظتين : فالملاحظة الأولى أن قولهم ﴿ أكله الذئب .. الخ ﴾ إنما هو جواب عن الشق الثاني من المذرة التي اعتذر بها أبوهم لهم ، وهو قوله ﴿ وأخاف أن يأكله الذئب ﴾ ، وأما الشق الأول من المذرة وهو قوله ﴿ إني ليحزني أن تذهبوا به ﴾ فقد ثقل على طبعهم سماعه ، فضايقوا به ذرعاً ، ومروا عنه مرور الكرام ، وجعلوه دَبرَ آذانهم ، ولماذا ؟.. لأنه سبب حسدهم له ، وهو الذي كان يغيظهم ، فأعاروه آذاناً صماء ولم يعبأوا به ، بل سكتوا عنه كأنهم لم يسمعوه وهذا السكوت يسمى بلسان رجال الحكومات اليوم « التهرب السياسي » .

والملاحظة الثانية — أبوم إنما قل ﴿ وأنتم عنه غافلون ﴾ ، وفي هذه الحال يمكن « للذئب » أن يأكله ولو كانوا مئة عصابة وعصابة ، إذ ربا الجيش الفقير يتامه في حال الغفلة لا يدفع عادية الهاجين ، كما أنه بالمكس في حال اليقظة والحيطه ربا إنسان واحد بقدر أن يدفع ذلك ، هكذا أراد أبوهم ، وهكذا يقتضي المنطق والعقل ، ولكن أولاده أدخلوا عليه « المغالطة الجدلية » في جوابهم .

القوة الجسمانية لا تكفي وهدا لحفظ يوسف

٢ — لا زال نرى هؤلاء الإخوة العشرة يقولون : « نحن عصابة » سمعناها منهم أولاً وثانياً ، فهم يفتخرون بقواهم الجسمانية ، ويتكلمون على جمعيتهم ، كأنهم نسوا أن لكثير من الحيوانات العجم في هذه القدر حظاً أكمل من حظ الإنسان والقوة وحدها لا تكفي لحفظ يوسف ، ولكن القوة مع المحبة والاخلاص .

اختلف القرآن والتوراة في هذه الآية

٣ — مما يجب التنبيه عليه انه يوجد في هـذـه السورة اليوسفية ما لا يتفق مع ما هو مذكور في هذه القصة المندرجة في سفر التكوين المتداول بين أيدي اليهود ، فالسورة ههنا تحكي ان إخوة يوسف دخلوا على والدهم ورغبوا اليه أن يرسل أخاهم معهم ، وان حواراً دار بينهم وبين والدهم ، انتهى بانتصارهم عليه حتى سلمهم إيتاه ، ولكن سفر التكوين لا يحكي شيئاً من هذا القبيل ، إنما يذكر ان إخوته مضوا ليرعوا غنم أبيهم قريباً من نابلس ، وفي غيتهم قال له أبوه : (إن إخوتك يرعون غنمهم عند نابلس فاذهب اليهم لتنظر سلامتهم وسلامة الغنم ، وترجع اليّ بالتطمين) فسمع لأبيه فأرسله من شمالي (حبرون) أو من (سيلون) الى نابلس ، فوجدهم قد ارتحلوا منها الى (دوثنان) ، وهي مدينة شمالي نابلس على غاية اثني عشر ميلاً ، فذهب ورائهم فوجدهم في (دوثنان) ؛ هذا هو الذي يؤخذ من سفر التكوين وشروحه ، ولكن نحن علينا أن نجزم بأن ما أوحاه الله الى نبيه خاتم الأنبياء (ﷺ) ونقل إلينا بالتواتر الصحيح هو الحق ، وخبره هو الصادق وما خالفه هو الباطل ، وناقضه مخطيء أو كاذب ، فلا نعدّه شبهة على القرآن ، ولا نكلف أنفسنا الجواب عنه .

حال التاريخ قبل الاسلام وبعده

إن حالة التاريخ قبل الاسلام كانت مشبهة الأعلام ، حالكة الظلام ، فلا رواية يوثق بها للمعرفة التامة بسيرة رجال سندها ، ولا تواتر يعتدّ به بالأولى ، وإنما انتقل العالم من حال الى حال بعد زول القرآن وجميـء نبي الإسلام ، فكان بداية تاريخ جديد للبشر ، كان يجب عليهم — لو أنصفوا — أن يؤرخوا به أجمعين ،

فما كان من شؤون الأمم وسير العالم بعد الإسلام لم ينطمس ولم تذهب الثقة به ولم ينقطع سند روايته ، كما كان الحال هكذا في الأمم السالفة .

عناية المسلمين في اول الاسلام بالرواية والرواة

وبيان ذلك بالإجمال — أن القرآن قد جاء البشر بهداية جديدة كاملة ، كانوا قد استعدوا للاهتمام بها بالتدريج ، الذي هو سنة الله تعالى فيهم ، فكان من عمل المسلمين في حفظ العلم والتاريخ العناية 'التامة' بالرواية ، ما يقبل منها وما لا يقبل ، ولذلك ألفوا الكتب في تاريخ الرواة ، لتعرف سيرتهم ، ويتبين الصادق والكاذب منهم ، وتعرف الرواية المتصلة والمنقطعة ، وبحوثا في الكتب المؤلفسة ، متى يوثق بنسبتها الى مؤلفها ، ويبينوا حقيقة التواتر الذي يفيد اليقين ، والفرق بينه وبين ما يشتهر من روايات الآحاد ، فهذه العناية لم ينقطع سند لنوع من أنواع العلم ، التي وجدت في المسلمين ، على أن العناية بعلوم الدين أصولها وفروعها كانت أتم ، ثم كان شأن من قفنى على آثارهم في العلوم والمعارف بعد ضعف حضارتهم على نحو شأنهم في التصنيف ، وإن كان دونهم في ضبط الرواية ونقدها ، والأمانة فيها ، فلم يضع شيء من العلوم والفنون ، ولا من الحوادث والوقائع التي جرت في العالم بعد الإسلام ، وما اختلف الرواة والمصنفون في جزئياته من تاريخ الإسلام وغيره ، يسهل تصفيته وأخذ الصفي منه ، لأجل الاعتبار به ، وعرفان سنن الاجتماع منه ، جرياً على هدي القرآن فيه .

خاط اليهود في تاريخهم ووقوع الزيادة والنقصان في التوراة

وقد علم وتحقق أن اليهود خلطوا في تاريخهم ، وأن أكثره لا يعرف كاتبه ،

ومن ذلك (التوراة) التي منها (سفر التكوين) المسطور فيه قصة يوسف ، فقد قيل : إن كاتبها موسى ، وقيل وهو الأصح عندهم عزرا الكاهن ، المسمى عند العرب (بالعزير) ولذلك يسمى أيضاً عندهم (عزرا الكاتب) ، وقيل غير ذلك مما هو مذكور في تفاسيرهم ، وتواريخهم الدينية ، ويكفينا شاهداً على أن الأسفار الخمسة (التوراة) كتبت بيد غير يد موسى ، أولاً ذكر وفاة موسى فيها (تك ٣٤ : ١ - ١٢) ، ثانياً قول سفر التكوين « قَبْلَ مَا مَدَّكَ مَلِكُ بَنِي إِسْرَائِيلَ » (تك ٣٧ : ٣١) ، فهذه العبارة لا يمكن أن تكون من قلم موسى الذي يقولون إنه هو الكاتب لسفر التكوين ، لأن ملوك بني إسرائيل إنما كانوا بعد موسى بنحو (٤٥٠) سنة ، على ما في قاموس بوست وشروح التوراة وتواريخ اليهود والنصارى جميعاً ، إلى غير ذلك من الدلائل التي ترشدنا إلى الجزم بأن (سفر التكوين) كباقي الأسفار الخمسة قد وقع فيه من الزيادة والنقصان ومخالفة الواقع ما لا يحصى ، وليس الوقت وقت بيان هذه الأدلة .

وكافات بني إسرائيل تحرير الوقائع بالحوادث فقد فاتهم ما فيها من العبر والحكم فأين ما يذكره (سفر التكوين) في قصة يوسف مما تجده في عبارة القرآن من صنوف العبرة والموعظة ، ثم بالنتيجة والمطاف على ما سبق فالحق ما قاله الله تعالى من مجيء إخوة يوسف لأبيهم ، وطلبهم منه أن يرسل معهم أخاهم ، ولا يعتبر ما خالفه من أقوال سائر الكتب معارضاً له ، فيحتاج إلى التوفيق أو الجواب ، والله وليّ المتقين .

الفصل الخامس

تنفيذ المؤامرة

آ (١٥) ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ ، وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ
 فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ ... ، وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ : لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِ هِمِّ
 هَذَا ، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ... ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الخامسة عشرة فقام أستاذنا سعيد
 الحوراني (١) وقال :

أذن يعقوب لابنائه أن يأخذوا أخام يوسف (فلما ذهبوا به) أي بأخيه
 من « سيلون » الى « دوثان » ، وأبوهم واضع يده على قلبه (وأجمعوا) أزمعوا
 (أن يجعلوه في غيابة الجب) بدوثان ، فعلوا معه ما تقصر عنه العبارة ، أو تسمن
 منه المسامع ، وتهتز منه الركب ، أي ألقوه في غيابة الجب ، قائلين له : « خذها
 يا صاحب الأحلام ، انزل فيما تضيع فيه آمالك ، وتطيش أحلامك ، فنحن إنما
 فعلنا بك هذا ، لتعلم أن أحلامك دخان من غير نار » ، (و) عند ذلك (أوحينا
 إليه) أي ألهمناه أو قلنا له بواسطة الملك ، (لتنبئهم بأمرهم هذا) أي لتخبرن
 إخوتك بما فعلوا بك وأنت بمصر وهم ماثلون أمامك ، (وهم لا يشعرون) أنك

يوسف لعلو شأنك ، ولطول العهد المبدل للهيئات والأشكال ، وذلك قول يوسف لهم في السفرة الثالثة : ﴿ هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ؟ ﴾ ، فلا تحزن منهم ولا تك في ضيق مما يمكرون ، فلما أوحى الله إليه ذلك اطمأن قلبه وسكن روعه وهدأ باله .

ولكنه لا ندحة من أنه كان يعجب من عمل إخوته جد العجب ، فيردد في ضميره معنى قول القائل :

ألا إن اخواني الذين عهدتهم

أفاعي رمال لا تقصر عن لسعي

ظننت بهم خيراً فلما بلوتهم

زلت بواد منهم غير ذي زرع

ولا ندحة انه دهمه من الحزن مادهمه ، وانه كان يحيط به جو من الاستسلام والصبر .

(فلما ذهبوا به . . الخ)

— ١ —

وقال السيد أبو يعلى العدني (١) :

الانبياء غير معصومين من تصديق الكاذب

لم يزالوا يراجعون أباهم ، ولم يألوا جهداً في استنزاله على إرادتهم ، حتى أخرجوه فانصاع اليهم ، وانساق لمشيتهم ، ونزل على حكمهم ، ظناً منه ان ظواهرهم مرآة لبواطنهم ، فاسترسل اليهم امترسلاً ، وأرسل يوسف معهم إرسالاً .

(١) نسبة الى عدن من بلاد الساحل الجنوبي لجزيرة العرب .

جرت حيلتهم هذه عليه مع فضله وعلمه ، كما جرت حيلة « عمرو بن العاص » على « أبي موسى الأشعري » في التحكيم ، مع أن أبا موسى عليم بدهاء عمرو ، ولكن إذا وقع القدر عمي البصر .

مشت حيلتهم على أبيهم ، وجاز عليه كذبهم ، لأن الأنبياء ليسوا معصومين من تصديق الكاذبين ، فتصديق الكاذب لا يعد ذنباً وقد ثبت أن النبي (ﷺ) كان يصدق بعض ما يفتره المنافقون ، حتى يخبره الله بما كان من المصلحة إخباره به منه ، كما وقع في غزوة تبوك وغيرها ، وصدق بعض أزواجه في القصة المشار إليها في سورة التحريم حتى أخبره الله تعالى به وبأن من أسر إليها الحديث أفشته ، وتردد في حديث أهل الإفك ، وضاق صدره به زمناً ، حتى زلت عليه آيات البراءة المكذبة لهم في سورة النور . وفي صحيح البخاري : « إنكم تختصمون إليّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، وإنما أقضي بنحو مما أسمع ، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً ، فلا يأخذه ، فإنما أقطع له من النار » .

نعم الأنبياء معصومون من التقرير على باطل ، وذلك يتوقف على تحقق البطلان ولا يكفي فيه عدم تحقق الصحة ، على أن هذا القول الذي صدر من أبناء يعقوب ليس هو من قبيل الإخبار المحض ، حتى يوصف بالكذب ، وإنما هو من قبيل الوعد لأبيهم بالنصح لأخيه وحفظه ، وعداً مبنياً على الرجاء والأمل ، وإذا فلا يوصف بالكذب ، ولكن بخلف الوعد فقط ، هذا ما حضرني الآن قلته مقدمة للدخول على آية (١٥) فتأمله .

(فلما ذهبوا به ... الخ)

— ٢ —

وقال مولانا مظفر احمد خان الهندي :

يوسف مع اخوته في طريقهم الى دوتان

ما بقي الإخوة بلحفون على أبيهم ، ويقتلون في الذروة والغارب ، حتى آانس منهم الإخلاص ، وارتاح الى مواعيدهم ، وبعد اللثيما والتي أطلببهم طلبتهم ، وقال لهم : « حسناً فليكن كما تريدون » فقاموا فرحين بقناعة أبيهم بعد أن كان رضاء ضرباً من المحال ، فأعدوا معدات السفر ، ورحلوا توأ ، وهم لا يلوون على شيء ، ساروا مدة صامتين ، لا يفوه أحد الطرفين للآخر بكلمة ، وكان كل من الطرفين مملوء بالغبطة والسرور ، فيوسف مملوء سروراً ، لأنه خارج للنزهة ، وإخوته مملوون غبطة ، لأنهم فازوا بمصيدهم ، ثم يوسف يفكر في أمر نشاطه في هذه السياحة وزهرته وفرحه في هذه السفرة ، وأما إخوته فيفكرون في إلقائه في الجب . ساروا وأوغلوا في البرية ، وهم على ما ذكرنا من الأفكار المتناقضة ، كأفا هم في واد وأخوهم في واد :

سارت مشرقة وسرت مغرباً شتان بين مشرق ومغرب

ذهبوا به وهو خالي الذهب ساذج ، لا يظن في إخوته إلا خيراً ، لصغر سنه من جهة ، وحسن ظنه بهم من جهة أخرى ، وأما هم فقد كانوا مملوئين من الخيب والخلل . ذهب يوسف معهم بوجه مشرق ، قد تجلت فيه الطهارة وسلامة القلب ، لا يعرف من الدنيا غير أسباب المسرات ، ولا يفكر حال هذه الرحلة بغير أسباب الفرح ، رغماً عما كان سمعه من إخوته يوم ما قص عليهم رؤياه الأولى ،

ورغمًا عما كان سمعه من أبيه من الإشارة الى أنهم له بالمرصاد لكيدته ، فنتي هذا كله وأغفل له ، وذهب معهم قري العين مشروح الصدر ، يتوخى من وراء ذلك أسباب البسط والهناء ولم يكن يفكر قطعاً ان إخوته يريدون به غائلة من الفوائل، وعظيمة من العظام ، يريدون أن يفعلوها معه وقد فعلوها ، وفي طهارة الصبيان والأطفال رونق الناظر ، وهيبة للتأمل وعظمة للعقل ، ... فيستدل علماء الأخلاق من ذلك على ما فطر عليه الإنسان من الميل الى الخير ، وانه إنما يساق الى الشر بما يعرض له من أسباب المطامع ، أو يمارسه من اختلاف المشارب ، وإذا أتى شراً فإنما يأتيه في الدفاع عن نفسه أو ماله ، وقد يظهر في بعض الأحوال انه مهاجم متعدد ، ولو خضت ضميره واستطلعت خبايا قلبه لرأيت أساس ذلك التهجم الدفاع عن نفسه ، فالاطفال والصبيان مثال الفطرة البشرية الساذجة ، لا يعرفون الكذب أو التملق أو الخداع ، يقولون ما يعتقدون ، لا يخافون ولا يحاذرون ، ولا سيما إذا رُبُّوا كما ربِّي يوسف على يدي يعقوب ، وقد تعلم من أبيه ما يسمح به سنه أن يتعلمه ، سيما طهارة القلب وسلامة النية والاتكال على الله تعالى .

هذا هو الجواب عن يوسف وتسليمه بذهابه مع إخوته مع ما سبق أنه رأى وسمع منهم .

كيف سلم يعقوب ابنه يوسف لاخوته رغم تخوفه عليه منهم

وهنا قدم إلى بعضهم سؤالاً مبنياً على سماح يعقوب بذهاب ولده المحبوب معهم ، فقال : إذا كان يعقوب يظن الظنون بأولاده ويتخوف منهم على يوسف ، وإذا كان يعلم أن يوسف لما قص على إخوته رؤياه الأولى ، وهي (رؤيا الحزم) ازدادوا بغضاً له قائلين : « أَلَمْ نَكْ تَمْلِكْ عَلَيْنَا مَلَكاً ، أَمْ تَتَسَلَّطْ عَلَيْنَا تَسْلَطاً » (تك ٣٧ : ٨) ، وإذا كان قد نهى عن قص رؤياه الثانية عليهم ، لئلا يكيدوا له كيداً

وإذا كان يعرف أن أولاده قد احتملوا على أبيهم ضيقاً بمحبته ليوسف أكثر منهم ، وإذا كان قد استروح من قولهم : (مالك لا تأمنا على يوسف) أنهم قد احتملوا مكرراً وضيقاً على أخيه ، وإذا كان أعلن حزنه بسبب ذهاب إخوته به إذ قال : (إني ليحزنني أن تذهبوا به) ، — إذا كان قد وقع كل هذا فليس يعقوب بخلق أن يعجل في الاسترسال إلى أولاده والثقة بهم ، والائتمان لهم ، ويسمح بأخذهم إياه ، دون شرط ولا قيد . هذا سؤاله سمعته فأجبتة بقولي :

المؤمن إذا قال صدق ، وإذا قيل له صدق ، وقد تكلم أولاده معه وأمنوه عليه ، ووعدوه خيراً ، إذ قالوا : (وإننا له لناصرون ، وإننا له لحافظون) ، وقد قيل . « ومن خدعنا في الله انخدعنا له » ، فلذلك استرسل معهم أبوم وسلمه إليهم ؛ ولا تنس أن المواعيد التي وعدها يوسف في رؤييه ، ثم ما أوحى لأبيه فيه ، كل ذلك سهل على أبيه استسلامه لأولاده ، إذ هو بحكم ما سمع من المواعيد الإلهية في شخص ولده يوسف ، كأنما قد أخذ من ربه تأميناً على حياة هذا الابن الحبيب ؛ وأنت إذا لم تقبل مني هذا الجواب الدقيق ، خشيت عليك أن تهوي بك ربح الضلال في مكان سحيق .

(فلما ذهبوا به ... الخ)

- ٣ -

وقال السيد الحضرمي :

إن عندي على هذه الآية البحوث التالية :

• حذف جواب الشرط في القرآن الكريم وشواهد عليه

البحث الأول - إن جواب «لما» في قوله: (ولما ذهبوا به) محذوف، ومعناه فعلوا به

ما فعلوا ، مما لا تحيط به العبارة ، ولا تكفي فيه الإشارة ، فعلوا به ما فعلوا مما لو لفظ به ، لثقل على السامعين واضطربت له قلوبهم ، فعلوا ما فعلوا مما لا يليق ذكره بنسب هؤلاء المحترمين !! آباء الأسباط !! ، فعلوا ما فعلوا مما يذرف العيون ويدمي القلوب . ويسىء نبأ السامع والقارىء ، ولذلك حسن منا أن لا نصرح له به ، بل وكلناه لفهمه ، وذوقه الخ الخ ...

ولقد رأينا بعض المفسرين هنا كتب ما لا يليق بتركيب الآية الكريمة قائلاً: إنَّ جواب « لما » هو قوله « وأوحينا » بتقدير زيادة: الواو ، وهذا ما لا يقوله عاقل يحترم كتاب الله ويقدره قدره ، ولا يحيزه عالم بأسرار كتاب ربه الكريم ، ولا أخفي عنكم أيها السادة انني لما نظرت هذا القول أصابتي نوبة ذهول شديدة صدعتني أكثر من ساعة ، ولذلك كان حقاً علينا أن نذكر بعض المواضع التي حذف فيها جواب الشرط للعلة السابقة فنقول :

١ — قال تعالى : ﴿ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا — إِذْ يَرْوْنَ الْعَذَابَ — أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً ، وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ... ﴾ (٢ : ١٦٥) .

٢ — قال تعالى : ﴿ قَالَ : يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُمْ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِّن رَّبِّي ، وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ... ﴾ (١١ : ٨٨)

٣ — قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ، وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ... ﴾ (٢٤ : ١٠)

٤ — قال تعالى : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ، فَرَآهُ حَسَنًا ... ﴾ (٣٥ : ٨) .

٥ — قال تعالى : ﴿ قَالُوا : طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ ، أَلْئِنْ ذُكِّرْتُمْ ... ﴾ (٣٦ : ١٩) .

٦ — قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم: اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ...﴾ (٣٦: ٤٥)

٧ — قال تعالى: ﴿وَالنَّارِزَّاتِ غَرَقًا، وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا، وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا، فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا، فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا...﴾ (٧٩: ١ - ٥).

٨ — قال تعالى: ﴿فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِي نَفَقًا فِي الْأَرْضِ، أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بَأْيَهُ...﴾ (٦: ٢٥).

٩ — قال تعالى: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ، أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ (١١: ١٠) يعني لو أن لي بكم قوة لفعلت بكم وصنعت.

١٠ — قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأَىٰ بَرهَانَ رَبِّهِ...﴾ (١٢: ٢٤) «جواب» لولا، محذوف تقديره لولا أن رأى برهانه. ربه لقتلها، لأن قوله «وهم بها» يدل عليه، كقولك: همت به (أي بقتله)، وقولك لولا أني خفت الله أو خفت الحكومة، معناه لولا أن خفت ما ذكر لقتلته.

١١ — قال تعالى: ﴿وَسَيُنْزِلُ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا، حَقٌّ إِذَا جَاءُوهَا، وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا، وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا: سَلَامٌ عَلَيْكُمْ، طِبْئُكُمْ، فَأَدْخَلُوهَا خَالِدِينَ...﴾ (٣٩: ٧٣)

١٢ — قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا: يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ، وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا، وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ...﴾ (٦: ٢٧).

١٣ — قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ، قَالَ: أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ؟ - قَالُوا: بَلَىٰ وَرَبِّنَا - قَالَ: فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ...﴾ (٦: ٣٠).

١٤ — قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ

بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ : أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ ، الْيَوْمَ نَجْزِيكَ أَجْرَكَ عَذَابَ الْهُنُونِ
بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ، وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ... ﴿٩٣ : ٦﴾

ولنا عدا ذلك من شواهد الحذف في القرآن الكريم ما لو تتبع نراد على
المثمة ، ولعل فيما استشهدنا به كفاية للتأملين .

يوسف في الحب

البحث الثاني - لما وصل إخوة يوسف إلى «دوثان» نزلوا عن عانة حميرهم وأرادوا أن
يخفروا تلك اللذمة فقالوا ليوسف - بنعمة الظافر - أنت صاحب الأحلام السياسية ؟
أنت صاحب المنامات الملوكية ؟ هبلتك أمك - وما عتموا أن خلعوا عنه
قميصه الملون الذي عليه ، ثم أخذوه وألقوه في غياهب «الجفر»^(١) ، !!
وأما هو فبهت وبغت واصفر لونه وانتقم ، لاهفته وتأثره ، وجلس
في الغيابة وحيداً ، تتقاذفه الهواجس والبلابل ، وقد أخذ منه القلق
مأخذاً عظيماً ، وهو مقطب الوجه ، غارق في بحار التأمل ، وقد هاله
ما به من الوحشة والوحدة ، مع الغربة والنأي عن الأهل والوطن ، وليس عنده
ما يأكله ، ولا ما يتدفأ به ، ولا ما يقيه من البرودة والرطوبة ، فترقرقت عيناه
بالدموع الحارة ، ثم افترى في صنيع إخوته معه ، وجمل يردد قولهم لأبيهم : ﴿ يَا
أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ ؟ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ، أَرْسَلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَع وَيَلْعَب ،

(١) الجفر بضم الجيم وفتحها بئر واسعة محفورة لم تطو .

وإناله لحافظون ﴿ رده مراراً ، وتغنى به تكراراً ، وهو عند كل كلمة يهز رأسه مستغرباً متعجباً ، ويقول : (يرتع ويلعب :!) أين الرتع ؟ وليس لي الآن ما أسد به الجوع ، وليس حواليّ إلا الطحلب ، وأين اللعب ؟ وأنا الآن في جفر صخري ذي أربع حوائط ، هي وسقفه وأرضه قطعة واحدة ، وأين الحفظ ؟ وليس عندي ما يقيني من البرد والرطوبة ، ولا ما يؤنس وحدتي ، فلو أن هؤلاء الإخوة (الكرام) قالوا : (فأرسله معنا غداً يجمع ويتقيد : وإناله لحاسبون) لكانوا أقرب إلى الصدق .

هذا ما نظن أن يوسف أخطره في قلبه حينما صار في جبه

كيف اتفق اخوة يوسف على إلقاءه في الحب مع اختلاف مشاربهم وميولهم

البحث الثالث - سألي سائل: كيف أمكن هؤلاء الإخوة العشرة أن يتفقوا ويتحدوا على الإضرار بيوسف وإلقاءه في « الجفر » مع أنهم عدد غير قليل ، ومع كونهم من أمهات ثلاث ضرائر ، هن : ليئة ، وبئسمة ، وزلفة ، فهؤلاء الإخوة العشرة لا بد أن يكونوا مختلفي المشرب والميول ، لا سيما رأوين ويهوذا ، فقد كانا غير حاقدين على يوسف كثيراً ، بعكس شمعون العظيم الحقد عليه ، وبخلاف كل من دان ونفتالي الذين كانا إلى محبة يوسف أقرب من كرهه ، حيث هما ولدا جارية أمه وقد تربى هو وشقيقه بنيامين في خيمتها بصحبة ولديها المذكورين ، وبخلاف الخمسة الباقين ، فقد كانوا متوسطين في كرههم ليوسف ، فكيف مع هذا الاختلاف العظيم ، ومع كثرة عددهم اتفقوا وأجمعوا على الإضرار العظيم بيوسف ، وقد توفقوا أن فعلوا ما أجمعوا عليه ؟!!..

فأجبتة بجواب مختصر ولعل فيه الكفاية ، وهو أنني كنت افكرت نفس هذا

السؤال ولم أتمكن حتى الآن أن أعرف سبب اتحاد هؤلاء المشرة واتفاقهم غير القاعدة القائلة : « المصائب تجمع » ...

فبيّة آمال اخوة يوسف

البحث الرابع - نرى ان الأمور التي أجراها إخوة يوسف بيوسف ، هي من الأمور التي لم تلاحظ فيها العواقب البعيدة وإغما لوحظت فيها الفوائد العاجلة التي لا تشعر إلا شوكاً وحظلاً ، ولذلك فأخيراً خابت آمالهم ، ودخلوا في كنف أخيه صاغرين ، وإيضاح ذلك :

أولاً - لقد أخرجوه وأخرجوه ، وفي غيابة الجفر أسقطوه ، ظناً منهم أنه سيسقط من عين أبيه وأنهم سيحلوا من قلب أبيهم منزلة أعلى من منزلتهم الأولى ، والحقيقة عكس ذلك فيوسف لم يسقط من عين أبيه ولا هم حلوا من قلبه منزلة أعلى من منزلتهم الأولى بل لم يستفيدوا من كل ما دبّروا وعملوا شيئاً ما ، سوى أنهم ظلّوا أظلام وباءوا بإثمهم ، وعقوا أباهم ، وأدخلوا عليه القلق والاضطراب .

ثانياً - لقد رجوا إن فعلوا بيوسف فمعدّتهم أن يخلوا لهم وجه أبيهم ، فهل خلا يا ترى ؟ نقرأ في القرآن الكريم فنرى يعقوب بعد حادثة يوسف ، قد حصر كل محبته وعنايته في بنيامين ، الابن الأصغر شقيق يوسف ، فقد سمعناه يقول : ﴿ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ ﴾ ثم سمعناه يقول : ﴿ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ ، ثم سمعناه يقول : ﴿ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ ،

وادخلوا من أبواب متفرقة ﴿١٥﴾ ، وقد طلب منهم هذا التحفظ عند سفرتهم الثانية ، حين كان بنيامين معهم ، ولكن عند سفرتهم الأولى حين لم يكن معهم لم يوصهم بشيء ، ثم عطفاً على ما سبق - سمعناه يقول : ﴿١٦﴾ يا بني اذهبوا فتجسسوا من يوسف وأخيه ﴿١٧﴾ يريد بأخيه « بنيامين » طبعاً ، مع أن رأوين كان متخلفاً بمصر ، ولكنه لم يشر إليه بشيء ، ثم رأيناهم سلكوا مسلك أبيهم في المحافظة على بنيامين ، حيث صاروا يترضون أباهم بسهرم عليه وحراستهم له . إذ قالوا ، ﴿١٨﴾ وإننا له لحافظون ﴿١٩﴾ ، و ﴿٢٠﴾ نحفظ أخانا ﴿٢١﴾ ، ثم سمعناهم يقولون : ﴿٢٢﴾ يا أيها العزيز إن له أبا شيخاً كبيراً ، فخذ أحدنا مكانه ﴿٢٣﴾ وسمعنا كبيرهم يقول : ﴿٢٤﴾ ألم تعلموا أن أباهم قد أخذ عليكم ميثاقاً من الله ﴿٢٥﴾ يريد موثقاً في شأن (بنيامين) خاصة .

فتعلم من مجموع هذه الآيات الكريمة وما إليها ، أن وجه أبيهم بعد غياب أخيه لم يخل لهم ، ولكنه خلا (لبنيامين) شقيقه ، فترى من ذلك أن آمالهم خابت وانهم لم يستفيدوا شيئاً بعد أن فعلوا ما فعلوا ، بل خدموا بذلك (بنيامين) إذ نقلوا له حصّة الحب والعناية التي كانت ليوسف ، فانحصرت فيه محبة وعناية أبيه خلاف ما كانوا يرجون وعكس ما كانوا يأملون .

سيلون ودوثان والجب

البحث الخامس - علمنا أن اخوة يوسف ذهبوا بأخيه يوسف من « سيلون » محط رحال في والدهم ذلك الحين ، وهي بجوار نابلس قرب « سنجل » ، وما زالوا سائرين حتى أتوا « دوثان » ، وهي اليوم « خربة » معروفة بهذا الاسم تبعد ستة أميال إلى الجنوب الغربي من « جنين » بجوار « عرابة » وبعبارة أخرى هي بين سنجل ونابلس ،

تبعد عن « خليل الرحمن » - قرية أربع - إحدى وثلاثين ساعة لجهة الشمال ، هذا بيان المحل الذي ذهبوا منه والمحل الذي ذهبوا إليه ؛ وأما غيابة الجب ، فمعناه ما غاب من أسفل الجب من جوانبه المرتفعة عادة عن وسطه ، هذا نصف الحقيقة ، أما نصفها الآخر فهو ان الجب كان فيه بقية قليلة من الماء رأكدة في وسط الجورة المتوسطة في قعره ، والفرق بين كلمة جب وبئر ، ان الجب هو البئر التي لم تطو ، أي لم تبني بالحجارة ونحوها بل جبت جباً ، أي قطعت قطعاً بالماول والفؤوس ، أو الديناميت والبارود ، ويقال للجب أيضاً « جُفَر » وأما ما كان مطوياً بالحجارة فيقال له « طوي » وجمعه أطواء ، وبئر وجمعه آبار ، قال الشاعر :

فإن الماء ماء أبي وجدي

وبئري ذو حفرت وذو طويت

والحقيقة ان آبار صحراء دوئان وصحاري ما حوالها من سنجل ونابلس ونحوها ، هي جباب صخرية ، ومنه تعلم عدم صحة تعبير التوراة عن جب يوسف « بالبئر » وان الصواب التعبير بالجب كما في القرآن الكريم .

(وأوحينا إليه .. الخ)

— ١ —

قال الميرزا حسين الكاشاني (١) :

الايحاء ليوسف وهو في الجب

ألقوه في الجب ، ورجعوا لشأنهم ، وتركوه وحيداً يحرّق أسنانه ، ويساور

(١) نسبة إلى كاشان إحدى مدن إيران

نفسه هم وقلق شديدان ، ويكي ويقول : « واشقا آه ، يا شاهداً غير غائب ، ويا قريباً غير بعيد ، ويا غالباً غير مغلوب ، اجعل لي من أمري فرجاً ومخرجاً » . وما هي إلا ساعة أو قريب منها ، إذ رأى أنه قد تجدد فيه شيء من الأمن واطمئنان القلب ، وانه كذلك ، إذا بالملك قد نزل عليه يطمئنه ، ويقول له : يوسف . يوسف . لا تخف : ﴿ قل : يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ، ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾ (٣٤ : ٢٦) فباح له وكاشفه بالسر المصون ، والغيب المكنون ، وصارحه بما سيكون ، وقال له : ستخرج من هذا الحب بصحتك وعافيتك ، وتعلو لمنصب ذي شأن ، وسيأتونك محتاجين لفضلك ، واقفين بين يديك وعند ذلك تقول لهم : ﴿ هل عَلِمْتُمْ ما فعلتم بيوسفَ وأخيه إذ أنتم جاهلون ؟ ﴾ ولكن الأمر يحتاج إلى صبر ، لأنك الآن في أول الطريق ، وهذا الاجتماع والعتاب إنما سيكون بعد ٢٣ سنة : ﴿ واصبرْ على ما أصابَكَ ، إِنَّ ذلكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (٣١ : ١٧) فهذا حديث نحدثك به اليوم ، وسترى مصداقه بعد اليوم .

سمع يوسف ذلك ، فانبثق له - وهو في ظلمة الحب - نور تلك المواعيد خفف شيئاً من الويلات التي كانت حاقت به ، فكأنما نشط من عقال ، فاستراح قلبه ، لأن الله كان معه وقد طمأنه : ﴿ يَثْبُتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ (١٤ : ٢٧) وقال في نفسه : (لتكن إخوتي كما يشاؤون ، وليعيشوا كما يريدون ، وليعملوا ما يحبون فستقضي أيام نزع شبابهم ، وستبلى منهم تلك الحدة ، وسيعطيني الله ما وعدني في رؤياي ، وعلى لسان أبي ، وهنالك ينزلون من سمائمهم إلى أرضي ، ويكون ما سيكون ، فتتعارف بعد التناكر ، وتتواصل بعد التقاطع وملتقي كما كنا ، ونعيش جميعاً تحت نظر الأب الكريم ، وإن الذي غرس في قلبي هذه الآمال الحسان ، لا يعجز عن أن يتعهدنا بلطفه وعنايته ، حتى تخرج

ثمّارها ، وتتلألاً أزهارها ، إنه جواد كريم ، على أني لم أكن بادئاً بالطلب ، ولا مقترحاً ولا مستبداً ، إذ كل ما أرجوه قد سبق فيه الوعد ، ممن لا يخلف الميعاد ، فلست أريد أن أموت باليأس ، بل أريد أن أحيأ بالأمل .

سبحان المنعم : كن مع الله ولا تبالي ، فكم وكمن الناس يدخلون القصور وهم أعزاء ، ولكن يغادرونها في حالة الذل ، وأما يوسف فنزل في الجب ، وهو بحالة الذل ، ولم يغادره إلا وهو موحى إليه ، كما سيأتي أنه دخل السجن عبداً فغادره وهو ناظر مالية !!! .

وإذا العناية لاحظتك عيونها

نم فالخفاف كلهن أمان

هذا حال يوسف في جبه ، وأما إخوته فهل يظن ظان أنهم بعد ما فعلوا فعلتهم أنهم كانوا مستريحين في قلوبهم ؟ ... كلا.. بل لارتاب في أن ضمائرهم كانت تخزهم ، ونفوسهم كانت تلومهم على هذا الصنيع الرديء .

الوحي لغة واصطلاحاً

وبعد فقبل الختام اسمحوا لي أن أتكلم كلمة في شرح « الوحي » بمناسبة قوله تعالى هنا : ﴿ وأوحينا إليه لتنبئهم بأمرهم هذا ﴾ :

قال أحد العصريين - « الوحي في لغة العرب إعلام مع خفاء وسرعة ، ومعنى السرعة أن هذه المعلومات المتلقاة لا تكون نتيجة لمقدمات تبني عليها تلك النتيجة ، بل هي أشبه شيء بالعلم الضروري الذي لا يتوقف على نظر واستدلال » ،

وقال عصري آخر - : « الوحي في اللغة يطلق على الأمور الآتية :

١ - على الإشارة والایماء والكتابة ومنه قوله تعالى : ﴿ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ

سَبَّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١٩ : ١٠﴾ فإن الذي وقع من ذكرها لقومه إنما هو الإشارة وقيل الكتابة على الأرض .

٢ - على الإلهام الذي يقع في النفس ، أو يلقي في الروح ، وهو أخفى من الأيحاء ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ، فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ، وَلَا تَخَافِ ، وَلَا تَحْزَنِي ، إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ ، وَجَاعِلُوهُ مِنْ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٢٨ : ٧) ، وهذا من قبيل ما يقع في نفوس الصالحين ، من المعاني والأفكار الصحيحة ، فيعد من الإلهام ، الذي قد يعبر عنه بالوحي .

٣ - يطلق على ما يكون غريزة دائمة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ، أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ، وَمِنَ الشَّجَرِ ، وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ، ثُمَّ كُلِّي مِنْ كُلِّ الشَّجَرِ ، فَامْسِكِي صَبْلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ﴾ (١٦ : ٦٨) .

٤ - ويطلق على الإعلام في الخفاء ، وهو أن تعلم إنساناً بأمر تخفيه عن غيره ومنه قوله تعالى : ﴿ شَیَاطِينُ الْإِنسِ وَالْجِنِّ ، يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾ (١١٣ : ٦) .

وقال عصري ثالث : ثبت أن الروح الانسانية إذا تجردت عن الاشتغال بالماديات أمكنها أن تستقي معلوماتها بدون وساطة المشاعر ، فيوسف الصديق لما رأى نفسه وحيداً في الغيابة تملص عن كل شيء من عالم المادة ، وتقلص عما عدا الروحيات ، فأنكشف له أنه سوف ينبيء إخوته بما عملوه معه ، غير شاعرين أنه أخوهم .

وأما الرسل فينكشف لهم عالم الأرواح العليا باستعداد فطرتهم ، وبتخصيص الله تعالى إياهم لذلك ، فلا جرم إذا كانوا يعرفون من عالم التقديس ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

وقال عصري رابع - : معنى الوحي او الالهام في اللغة : الإلقاء في الروح ، أي الإخطار على البال ، ويكون على ثلاثة انواع ، يختلف تعريفه اصطلاحاً بحسبها .
النوع الأول : عام ، وهو ما تكون به هداية كل نوع لما يصلح له قوامه ، وذلك كالذي نراه في فطرة الحيوانات آكلة العشب ، من اجتناب التي لا تلتهمها من غير معلم ، ومن غير تجربة سابقة كالخيل والبقر والأنعام ، وكالذي نراه من اتخاذ كل نوع من الأنواع المتعادية ، اسباب الدفاع والهجوم من صياحي وخدائع ، اعتبر ذلك من صفات الحشرات ، الى كبار السباع ، وكالذي نشاهده من استشفاء البعض منها ، ببعض الأعشاب ، كالسنائير والكلاب ، وكالذي نراه من نظام الحيوانات ، المتقادة لرئيس منها ، كالنحل والنمل ، وكالذي يعلمه كل منّا من اندفاع الرضيع لالتقام حلمة ثدي أمه ، فمصه إياه حتى يكتفي ، وشاهد هذا النوع من القرآن : ﴿ وأوحى ربك الى النحل ﴾ (١٦ : ٦٨) .

النوع الثاني : خاص ، وهو ما تكون به هداية هذا النوع الانساني في حياته النوعية ، وشؤونه الخصوصية ، متى وصل لسن التمييز : والشاهد لهذا : ﴿ وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه ، فإذا خفت عليه ، فالتقيه في اليم ، ولا تخافي ولا تحزني ، إننا رادوه اليك ، وجاعلوه من المرسلين ﴾ (٢٨ : ٧) .

النوع الثالث : أخص ، وهو ما تكون به هداية بعض الأفراد لمعرفة شيء من عالم الغيب ، وهذا ما يقع للأنبياء ، وشاهده : ﴿ إننا أوحينا اليك ، كما أوحينا الى نوح : والنبيين من بعده ﴾ (٤ : ١٦٢) .

وبقابل النوعين الأخيرين ، إضلالات ، تأتي من جانب الناس والشياطين ،

وشاهده : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبيّ عدوّاً ﴾ ، شياطين الجنّ والأنس ،
يُوحِي بعضُهم الى بعضٍ ، زخرفَ القولِ غُروراً ﴿ (١١٢ : ٦) ﴾ .
وربما كان الوحي ليوسف من قبيل الإلهام ، فهو من المعنى الثاني من المعاني
الآنفة الذكر ، والله تعالى أعلم ، وأما نحن فلا نعلم إلا أننا لا نعلم .
وأما وحي الله لأنبيائه فقد شرحه إخواننا الامام القليلي والشيخ البيهقي
والمحقق اللدي في جلسة الاثمار على الآية الثالثة ، فمن أراد فليرجع اليه .

دموع التماسيح

آ (١٦) ﴿ وجاءوا أباهم عشاءً يبكون !! ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية السادسة عشرة فقام أبو الفضل البحراي^(١)

وقال :

(وجاءوا) أي جاء فريق من اخوة يوسف العشرة وبقي فريق آخر منهم
في حراسة يوسف وهو في جبه ، حيث السيارة لم تجيء بعد كما هو مقتضى نظم
الآيات الكريمة (أباهم) يعقوب (عشاء) في أمسية أحد الأيام (يبكون) وقد
عبر بهذه الكلمة مع أن الذي صدر منهم هو التباكى ، لأن الانسان إذا تباكى
انتهى تباكيه المصطنع ببكاء حقيقي ، ويبان ذلك : أن الأفكار والخواطر التي تمر
بأذهاننا يتأثر بها جسمنا ، كما بالعكس ، أن عقلنا يتأثر من جسمنا ، فكل عواطفنا
تؤثر في أجسامنا ، وقد يمكننا استحداث العاطفة بتحريك العضو الخاص بها ، فاذله

(١) نسبة الى البحرين احدى مقاطعات الجزيرة العربية الواقعة على الخليج العربي .

تضاحكنا مثلاً وليس هناك ما يضحكننا ، فإن هذا التضاحك يحدث سروراً عندنا ويتهيأ بنا الى الضحك الحقيقي ، وإذا تباكينا انتهى التباكي المصنوع بيبكاء حقيقي نشعر فيه بالحزن ، ومعنى هذا ان الجسم يؤثر أيضاً في العقل ، هذا هو تحقيق الكلام في هذا المقام الذي غفل عنه المفسرون .

(وجاءوا أباهم . الخ)

— ١ —

وقال الشيخ دخیل الكويتي ^(١) :

قال : يعقوب بعد ذهاب يوسف مع اخوته وحال اخوته بعد لقائه في الحب

لترك يوسف في جبهه ، ونأتي على ما جرى ودار بين يعقوب وأولاده حينما رجعوا اليه بدون يوسف :

بعدما فعلوا فعلتهم ، اجتمعوا ونذاكروا في أمر يتخلصون به من أبيهم ، بحيث يتفقون جميعاً عليه ، لئلا تظهر له دخيلتهم ، فاتفقوا على ما سيأتي ذكره .
هذا ما كان من جهتهم ، وأما ما كان من جهة والدهم ، فانه كان في آخر يوم من غياب ولده الحبيب تذكره وتذكر بعده عنه ، فالتابته الهواجس ، ورآى نفسه في وحشة عليه ، وكأنني به قد شرع يقول بينه وبين نفسه : « كم يوماً أنت غائب عني يا يوسف ؟ وكم يوماً بقي لك حتى ترجع ، وأرى نور وجهك ؟ آه ، أنت يا ولدي في سرائك وأنا في ضرائي ، أنت مشغول القلب بالمتزهات الجميلة الرائعة والمناظر الطبيعية ، وأنا مشغول الفؤاد بغيبتك عني ! » .

(١) نسبة الى بلدة الكويت في امانة الكويت العربية على ساحل الخليج العربي .

ملّ يعقوب الانتظار ، وقد كان يتوقع أن يرى يوسف حاضراً بالسلامة ،
ممتلئاً سِميناً ، متفِقْناً شحماً ، مترعرع البدن بسبب وجوده في الصحراء ، يرنح
ويلعب فيها ويستنشق هواءها النقي ، وكان بعد مدة غياب ابنه يوسف بالأيام ،
بل بالساعات .

بينما يعقوب ، وهو في ظلمة البعاد يتطلع لرؤية وجه ولده الساطع ، كما يتطلع
الملاح في ظلمة البحر الى نجمة القطب ،

بينما يعقوب ، قد هاجت بلابله ، وتحرّكت أشجانه ، وقد جعل يتلفت كأنما
يبحث عن ضائع ، ويُصيح بسمعه ، كأنما يتسمع لأنين طفل يبكي ،

بينما يعقوب ، يتقلب على مثل الجمر من الانتظار ، يقضي بانتظاره كل ليل بطيء
الكواكب ، وكل نهار أطول من فقر أهل الكسل ،

نعم بينما هو كذلك ، إذ في ذات ليلة ، في الهزيع الأول من الليل ، بعد أن
سحبت الغزاة ذنبها الأحمر ، وتكاثفت العتمة ، وخيم الغسق ؛ وسدل الليل ثيابه
وانغمست جذوة النهار في خُمة الليل ، جلس يعقوب وهو يفكر في أمر وحشته
من يوسف ، وانه كذلك ، إذ حضر أبناءؤه (لسيلون) وقربوا من باب فسطاط
أبيهم وقد علتهم الأحزان ، واحمرت عيونهم ، وكلل العرق أصدانهم وجباههم ،
وتجول في محاجرهم دموع التماسيح ، يسكون بكاء مرأبكل عين قوية ، وقد شرّقوا بدموعهم
وهم يحبسون في بكائهم وقد خنقتهن العبرات ، ولكن دموع بكائهم لم تكن مسخنة ، بل باردة :

إذا اشتبكت دموع في حدود تبين من بكى ممن تباكى

فبنت أبوهم ، وصاح : مَهَيِّم ؟ ما وراءكم ... ما خبركم ... ؟ ما خطبكم ... ؟
تكلّموا .. قولوا ..

فأجابوه بما سيأتي في الآية (١٧) .

(وجاءوا اباهم ..)

— ٢ —

وقال ابو غانم الاربدي :^(١)

اختلف القرآن والتوراة في كيف ومتى رجع اخوة يوسف بعد اللقاء في الحب

إذا قرأنا من هنألى قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ ﴾ ، فأرسلوا واردهم .. الخ ﴿ وتأملنا فيه قليلاً نعلم من نظام ترتيب الآيات أن إخوة يوسف رموه في الحب وفي الحال قبلما تأتي السيارة المذكورة قاموا ورجعوا الى أبيهم ، ونعوا له يوسف وهو أجابهم بما أجابهم ، وبعد ذلك ، وفي حال غيابهم ، جاءت السيارة المذكورة فالتقطت يوسف ونشلته من جبهه ، هذا ما نتعلمه من الآيات المذكورة فإنه وإن تكن «الواو» لاتفيد ترتيباً لكن المتبادر من نظام الآيات هو ما فهمناه، وانما نقرأ في «سفر التكوين» فنفهم ان «السيارة» جاءت وأخذت يوسف وذهبت به لمصر بحضور إخوته ، بل هم الذين باعوه لها ، ثم بعد أن أتموا ذلك كله، وصاروا آمنين أرسلوا بعضهم بالقميص ينبي يوسف لأبيه . ورأينا في هذا الاختلاف هو انه يمكن الجمع بأن فريقاً منهم ذهبوا بالقميص والنبي لأبيهم ، وفريقاً آخر بقي في دوثان لأجل حفظ يوسف في الحب ، ومراقبة ما سيطرأ عليه ، خوفاً من تقلته بإحدى الوسائط ، فهروبه منه ، فرجوعه لأبيه ، فتبين كذبهم صريحاً ، وعليه فالضمير في قوله تعالى : « وجاءوا » ليس هو ضمير الجميع ، بل ضمير المجموع ، أي للبعض منهم ، فيصدق بواحد أو اثنين أو ثلاثة مثلاً وإنما نسب المحيى بضميرهم

(١) نسبة الى اربد من بلاد الشام (شرق الاردن) .

كلهم ، لأن مجيء البعض كان بمعرفة ورأي الكل ، فلذلك جازت نسبته للكل ، عملاً بقاعدة التضامن والتكافل التي هي معتبرة شرعاً وعليها جرى القرآن الكريم على طول الخط ، كما في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ (٢ : ٥١) وقوله : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ، فَاتَّخَذَتْكُمْ الصَّاعِقَةُ ، وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ، ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٢ : ٥٥ و ٥٦) وقوله : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ ﴾ (٢ : ٦١) ، وقوله : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ، وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (٢ : ٧٢) وقال تعالى ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوها ، فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ ﴾ (٩١ : ١٤ و ١٥) ومما الى ذلك مما لا يُحصى في الكتاب الكريم والاحاديث النبوية والأشعار العربية .

وأما القول بأن مجيء « السيارة » وأخذهم إياه لمصر كان قبل مجيء إخوته لأبيهم عشاء ييكون ، وأن الواو في قوله « وجاءوا » لا تفيد ترتيباً — فهو قول أدخل في باب الهراء منه في باب الكلام المقول ، وما يسع رجلاً يحترم نفسه وما وهبه الله من المدارك والمشاعر أن يقول هذا القول .

عذر أقبح من ذنب

آ (١٧) ﴿ قَالُوا : يَا أَبَانَا ، إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ ، وَتَرَكْنَا
يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا ، فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ، وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا ،
وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ .

افتتحت الجلسة وتليت الآية السابعة عشرة فقام الفاضل الغزي وقال :-
روي أن يعقوب لما سمع صوت أولاده وهم قادمون عليه ، فزع وقال : مالكم
يا بني هل أصابكم في غنمكم شيء ؟ قالوا : لا - قال : فما لكم وأين يوسف ! - قالوا :
بلسان الغم والكآبة : (يا أبانا ، إنا ذهبنا نستبق) أي نتسابق في العدو أو في
الرمي - ومعنى نستبق نتفضل - (وتركنا) أخانا (يوسف) المحبوب في الخيمة -
(عند متاعنا) حوائجنا (فأكله) فاخطفه (الذئب) الخبيث (وما أنت بمؤمن)
بمصدق (لنا) في هذا النبأ (ولو كنا صادقين) أي ولو كنا عندك من أهل
الصدق والثقة لشدة محبةك ليوسف ، فكيف وأنت سيء الظن بنا غير واثق بقولنا ؟
أو ولو كنا صادقين في الواقع ونفس الأمر -

(قَالُوا : يَا أَبَانَا ، إِنَّا ذَهَبْنَا .. الخ)

- ١ -

وقال الاستاذ اليافي :

افوة يوسف بلفقون لأبيهم كيف افترسى الذئب يوسف
يم أبناء يعقوب - ساعهم الله - فسطاط أبيهم ، وقالوا بصوت مرتجف -

مضطرب أجش متقطع ، وهم يتلثمون في كلامهم ، وعيونهم تترقق بدموعهم :
يا أبانا المحترم لا نكذب بك ، - قال : خيراً لنا شراً لأعدائنا ، تكلموا ، فإني
أراكم بحالة على غير ما أعهد ، أعرف منها وأنكر ، - قالوا : إنا ذهبنا .. نستبق ..
وتركنا ... يوسف ... أخانا المحبوب ... عند متاعنا ... فأكله ... الذئب ... وما
أنت بمؤمن لنا ... ولو كنا صادقين .. فيما قلناه ، - فقال أبوم : ما هذا الذي
تقولون ؟ - فوقف ابن آخر وقال : ذهبنا يسابق بعضنا بعضاً في الرمي ، وتناضل ،
ونشتد ونمدو ، وأوغلنا في الكر والفر ، وتركنا أخانا المحبوب يوسف . - ولما
وصل في حديثه إلى هذا الحد - امتنع لون أبيه الشيخ ، وشخص يبصره لسماع
تمة الحديث قائلاً : ثم ماذا ؟ - قال : يا ليتنا متنا قبل أن ننقل إليك هذا الخبر
السيء ، - قال أبوم : ثم ماذا ؟ أسرع في الكلام - قال : فما عتونا أن بعدنا عنه ،
وشسعت بيننا وبينه المسافة ، فإلث أن جاء الذئب وبثك ودجيه ، وهكذا
أسلمه حظه إلى أنيابه ، أكله (واأسفاه) ذلك الحيوان الأشرس الضاري ،
واستل حياته من يسدي أجله ، ولعله تعرض له في الصباح في أول ما خرجنا
للاستباق ، عند فترة كلابنا ونومها ، لأن الذئب أكثر ما تتعرض لافتراس النعم
في أول ذلك الوقت ، كما هو معروف - ولعل أخانا خافه فهرب منه ، فطمع فيه
فأدركه وقتله .

وربما كان أخونا نائماً ، فجاءه فخدشه بأنياه في عنقه ، أو أثقله وأثخنه بالجراح
حتى سالت نفسه فقضى نحيبه ، وأما نحن فبعد ما أسفنا وبكىنا عليه بكاءً مرأً فقد
جهرزناه ، وواريما جثمانه التراب . ولم نشأ أن نأتي به أو ببقية جسده ، لئلا يتضاعف
حزنك عليه ، وإنا لا نكذب الله فيما نقول ، ولكن ما العمل والإنسان هدف
للتوائب ، وإنه ليعرض لنا أنك غير مصدق لنا بقلبك على صحة هذه الحقيقة ،
وإن كانت كفلق الصبح ، ولو كنا عندك من أهل الصدق والثقة ، ولماذا ياترى ؟ •
لشدة محبتك ليوسف ، فكيف وأنت سيء الظن بنا ، غير واثق بقولنا !!!

(قالوا يا أبانا، إنا ذهبنا.. الخ)

— ٢ —

قال الشيخ السلفي العنيزي (١) :

ليسمح لي السادة المستمعون أن أبين في هذا الصدد ثنائي نقاط هي من الأهمية بمكان :

المذرة المصطنعة

أولها : — لقد تركز إخوة يوسف على معذرتهم التي قدموها لأبيهم ، لأنها تكفيهم للذود عن أنفسهم في موقف الجدل والمناظرة ، وإن كانت كالثوب الشفاف ينم عما وراءه ، وكل أحد يدرك لأول نظرة أنها حيلة مصطنعة ، فهي في ظهور فسادها ، كحيلة الفقهاء في « الربا » التي يسمونها « العينة » وقد قيل : « إياك والعينة فإنها لعينة » . نعم لقد انتحلوا هذا العذر ، وصمموا على حكايته لأبيهم ، سواء أصادفوا منه إصفاء وقبولاً أم لا ، مع أن الشيء الذي اتخذوه عذراً ، ضعيف في العقل جداً ، ولكن ماذا يعملون ؟ .. وهم لا يجدون شيئاً يلجأون إليه سواء ، « ولا بد للكذاب من بارد العذر » .

الاستباق

ثانيها : — يريدون بقولهم « نستبق » يسابق بعضنا بعضاً في الرمي ، بأن يرمي اثنان مثلاً ، ليتبين أيهما يكون أسبق سهماً وأبعد غلوة ؟ ، فعنى « نستبق » نتفضل ونترامي ، فننظر أي السهام أسبق إلى الغرض (قاله الزجاج) ، وقد روى

(١) نسبة إل العنيزة من البلاد النجدية في المملكة العربية السعودية

مسلم في صحيحه عن عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول : « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ . أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيْ ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيْ » وهو سنة ، ولكن يحرم اتحاد الحيوان الحي غرضاً ، فقد روي مسلم في صحيحه أن ابن عمر مرّ بفتيان من قريش قد نصبوا طيراً وم يرمونه ... فلما رأوا ابن عمر تفرقوا ، فقال ابن عمر : من فعل هذا ؟ ، لعن الله من فعل هذا ، « إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لعن من اتخذ شيئاً فيه الروح غرضاً » .

وقيل معنى « نستبق » نسرع ونعدو على أرجلنا ، ليتبين أين أسرع عدواً ، وقد روي أن النبي ﷺ كما يسابق عائشة (ض) وذلك على نوع من أنواع فن الرياضة البدنية المستحب طياً وشرعاً .

وقيل معنى « نستبق » نتسابق على دوابنا ، ففي البخاري « أن النبي ﷺ سابق بالخليل التي أضمرت ، وسابق بين الخيول التي لم تضمر ، وزاد مسلم : « وكان ابن عمر فيمن سابق بها » .

المتاع

ثالثها : - قولهم « متاعنا » جمعه أمتعة ، ويراد نفسه « الثَّقَلُ » كما في ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ ﴾ (١٦ . ٧) أي أمتعتكم الثقيلة ، وكلمة « متاعنا » مفرد مضاف فيعم جميع الأمتعة المعتادة لأمثالهم في البر ، المؤلف من خيام وعدول وأصواف وسمن وزبد وألبان ولحوم مقددة ، وجرار ماء ووسائل للجلوس وأغطية نوم ، واقط وجبن وجلود ونعال ، وما إلى ذلك .

وهنا لنا عليهم ملاحظة ، كما لا بد أن يكون قد لاحظها عليهم أبوهم (ع) . وهي أنهم كانوا قالوا : ﴿ مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ ؟ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾

أرسلته معنا غداً يرتع ويلعب ، وإنا له لحافظون * ، فإننا نراهم الآن لم يفوا بهذا الوعد ولم يقوموا بما قالوا ، فإنهم بدّلوا يوسف عن « الرتع واللعب » بالحراسة ، فقد جعلوه كحارس لأمتعتهم ، وتركوه وحده ، ولم يكونوا له من الحافظين ، ! وبهذا يكونوا قد تناقضوا ، ولم يتجاوب أول كلامهم وآخره .

ادعاء الاخوة الوجه الذي خاف أبومهم هلاك يوسف بسببه

رابعها : — قالوا : (فأكله الذئب) فسمع أبوم ذلك النمي السيء ، فأثر فيه تأثيراً كلياً ، فاختلج قلبه أيما اختلاج ، بل شعر كأن صوت هذا النمي اخترق صدره ، حتى وقعت سهامه في قلبه ، ولكنه رجع إلى أمه في ولده ، وصبر صبر الكرام .

وروي انه لما سمع صوتهم فزع ، وقال : « مالكم يا بني ، هل أصابكم في غنمكم شيء ! — قالوا : لا — قال : فما لكم ؟ وأن يوسف ؟ — قالوا : أكله الذئب » — فاتهمهم ، وقواه على اتهامهم أنهم ادعوا الوجه الخاص الذي خاف يعقوب (ع) هلاك ولده بسببه ، وهو أكل الذئب إياه ، فاتهمهم أن يكونوا تلفقوا العذر من قوله لهم : (وأخاف أن يأكله الذئب) أعني أن يكونوا التقطوا منه تلك الكلمة ، فتمركزوا عليها هنا ، ولا غرو ، فإن الجملة الاعتذارية التي نطق بها أبومهم لهي كالاختبار بامتحان يعطى فيه نص الجواب مع السؤال ، وكثيراً ما تتلفف الأعداء الباطلة من كلام المخاطب المعتذر إليه ، فهم غنموا هذه التسكأة ، ودبروا هذه الحيلة من يوم أن غزوا أباهم لاستلاب يوسف .

الطريق اكل الذئب على الخدش والنهش تجوزاً

خامسها : - للعرب إقدام على التجوز في الكلام ثقة منهم بفهم المخاطب من أصحابهم عنهم كما جوزوا قولهم : « أَكَلَهُ الْأُسُودُ » ، وإنما يذهبون إلى النهش واللدغ والعض ، كما نقله صاحب فقه اللغة عن الجاحظ ، وهكذا الحال هنا فمعنى « أَكَلَهُ الذَّئْبُ » خدشه وأثخنه بالجراح ، حتى أسلم روحه لربه .

تعمد البلاء وباللوم وبعلى

سادسها : - قولهم (وما أنت بمؤمنٍ لنا) معناه وما أنت بقابلٍ لكلامنا ، مصدق لنا ، بل أنت من المرتابين في أخبارنا ، ونظيره ﴿ قُلْ أَذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ ، يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ، وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٩ : ٦٢) أي يصدق بالله ويقبل كلام المؤمنين الخلتص ، وقوله ﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ ﴾ (٢٩ : ٢٦) أي أن لوطاً صدق كلام عمه إبراهيم وقبله ، وقوله تعالى ﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ ﴾ (١٠ : ٨٣) ، أي صدقوا كلامه ، وقبلوا إخباره ، والخلصة ، أن الإيمان تارة يتعمد بالبلاء مثل آمنت بالله ، فيكون بمعنى التصديق بالذات ، وتارة يتعمد باللوم ، مثل آمنت لك ، بمعنى قبلت كلامك ، وتارة يتعمد بعلى ، مثل (هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ) فيكون بمعنى الائتمان .

الصارف من صدق قلباً ولساناً وممارسة

سابعها : - يقولون : (ولو كنا صادقين) ! يرحم الله هؤلاء آباء الأسباط ، فإنهم ما كانوا صادقين ، في بكاثهم ، ولا في قولهم إنهم ذهبوا يستبقون وقد تركوا يوسف عند متاعهم ، ولا في قولهم إن الذئب أكله ، فكل ذلك كذب ،

كما أن الدم الذي جاءوا به على قميصه كان كذباً ، فروايتهم هذه التي مثلوها كاذبة من الرأس للعقب ومن الجذر للفرع .

الصادق عند الإطلاق ، والصادق على الحقيقة من صدق قلباً ولساناً وجارحة فلا ينطوي قلبه على كذب ، ولا ينطق لسانه بكذب ، ولا تتحرك جارحة من جوارحه في شيء كذب ، ولا يعمل أعمال كذب ، بل يكون في كل أفعاله وأقواله ظاهراً وباطناً على حق ، ولكن الجماعة لم يكونوا في شيء من هذا ، فالقلب واللسان ليسا بصادقين ، وعمل جارحة اليد وهو تلويث القميص بالدم ، ليس بصادق ، وعمل جارحة العين وهو البكاء ، ليس بصادق .

هم يقولون لأبيهم : (وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين) ، وهم إنما يعبرون بذلك عن إحساس أبيهم عجبت لهم ، يعلمون أن ما قالوه كذب سخاق ، وافتراء حنبريت ، ويدعون الصدق !! كما قال الشاعر :

ومن البلية أن يسمى صادقاً من وصفه الأولى كذوباً فاري
غفران ربك قلما فعَل الفقي ما ليس محوجه إلى استغفار

الخبر مؤجل والشر معجل

ثامنها : - وعد يوسف بالخبر مناماً في رؤييه ، ثم يقظة بلسان أبيه ، وهذه الوعود تأخر تحقق مضمونها ، ولم يصل إلا بعد مدة طويلة ، ولكن المصائب التي نصبت فوق رأس الصديق (رض) لم يحصل له فيها وعيد ، وإنما استلها فوراً ، يدأ بيد :

عرفت سجايا الدهر . أما شروره

فتقد ، وأما خيره فوعد !!!

الا إنما الدنيا نحوس لأهلها
فما في زمان نحن فيه سعود
(مرحى مرحى)

(فأكله الذئب)

— ١ —

قال النجم الروسي القازاني (١) :

التوفيق بين خوف يعقوب على يوسف من الذئب وبين رؤي يوسف وبشائره
سادتي :

تقدم في محاورات المؤتمر على الآية (١٣) شرحاً لقول يعقوب (ع) :
﴿ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّئْبُ ﴾ - سؤال ، صورته : كيف يقع هذا التخوف
من يعقوب (ع) مع انه كان سمع رؤيا ولده ، واعتقد صحتها وعرف مرماها ،
وأوصى إليه أن لا يقصها على إخوته ، ثم بشره بقوله : (وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ
رَبُّكَ .. الخ) ولا ريب ان هذا لم يكن منه على وجه التكهّن أو التفرس أو الألمية
أو حسن الرجاء ، بل كان كما هو الظاهر على وجه انه أوحى إليه به ، لأنه نبي :
﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ (٥٣ : ٣) ،
ولذلك ألفتناه غب حادثة الذئب التي زعموها - لا يزال معتقداً بوجود ولده يوسف
وبحياته ، كيف لا وقد قال ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً ﴾ وقال :
﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً ﴾ وقال : ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

(١) نسبة إلى قازان إحدى مدن بلاد الروس .

وقال : ﴿ اذهبوا فَتَحْسَبُوا من يوسفَ وأخيه ، ولا تياسُوا من رَوْحِ اللهِ إِنَّهُ لا يَأْسُ من رَوْحِ اللهِ إِلَّا القومُ الكافرون ﴾ وقال : ﴿ إني لأَجِدُ ريحَ يوسفَ ﴾ فمجموع هذه الأقوال الخمسة عطفًا على ما سبق من الرؤيين والبشاريرشدنا إلى أن يعقوب (ع) كان على يقين أن ولده موجود بقيد الحياة ، وإلا فكيف كان يخبر عن ولده بمستقبل له كمن ينظر إلى الغيب ، أو إلى اللوح المحفوظ ، ويخبر عنه بأخبار راهنة أكيدة ، ثم يتخوف عليه من افتراس الوحش إياه ؟ هذا ما لا يكون ولا يتفق ولا يعقل قطعاً ، وأما قوله : (وأخاف أن يأكله الذئب) فيحتمل أنه إنما قاله دفعاً لطلب أولاده ورجة يحتج بها عليهم ليصرفهم عن أخذه ، هذه هي صورة السؤال الذي تقدم طبق الأصل ؛ وقد كنت أجبت عنه بثلاثة أجوبة ذكرتُها هناك في محاوره آية (١٣) ، كما تعلمون ذلك ، وتعلمون اني انمطفت فأجبت بجواب رابع عرضته على أسماعكم بصورة مختصرة جداً ، بل رمزاً أو إشارة فقط ، وقلت لكم أيها السادة الكرام : إن هذا الجواب الرابع وجيه وقوي جداً القوة ، ولكن ليس هذا الموضع محل توضيحه وبسطه .

استعمال الذئب والأكل مجازاً

والآن أيها الأحباء المحترمين أريد أن أبين لكم من هو هذا « الذئب » ، ومنه نفعل الجواب الثاني عن السؤال الآنف الذكر ، وعليه فأرجوكم أن تصيخوا لما أقول : هم يقولون (فأكله الذئب) ونحن نقول : يجوز أن كلمة « الذئب » مجاز عن « شمعون » الذي ناصب يوسف العداً أكثر من سائر إخوته ، وكلمة « الأكل » مجاز عن الإضرار اللاحق بيوسف .

يستعار « الذئب » كثيراً للانسان المفترس ، وهو مجاز شائع مشهور في اللغتين العربية والعبرانية ، فأما شواهد في اللغة العربية فأكثر من أن تحصر ، وهي

معروفة لكل أديب ، وأما شواهدة بالنسبة للعبرانيين ففي سفر اشعيا : « فيسكن الذئب مع الخروف » (أش ١١ : ٦) ، كناية عن اجتماع الأعمى مع الأسرانيلى ، على ما قالوه ، أو كناية عن شدة الأمن والراحة والسلام ، أو اجتماع الطالح مع الصالح واتحاد القوي مع الضعيف ، ومن هذا القبيل : « الذئب والحمل يرعيان معاً » (أش ٦٥ : ٢٥) ، وفي سفر صَفَيْنَا يصف نينوي : « قضاتها ذئاب » (صف ٣ : ٣) ، وفي سفر إرميا نبوءة عن أهل أورشليم : « ذئب المساء يهلكهم » (إر ٥ : ٦) ، يريد من الذئب نبوخذ نصر ، أو أسكندر المقدوني ، وفي سفر حزقيال نبوءة عن أورشليم : « رؤساؤها في وسطها كذئاب خاطئة » (حز ٢٢ : ٢٧) .

الذئب مجاز عن شمعون

فأنتم ترون أنه بحسب اصطلاح إسرائيل وبني إسرائيل كثيراً ما يطلق «الذئب» ويراد به الإنسان المفترس ، المهاجم المعتدي ، فلا غرابة إذا قلنا إن « الذئب » في كلام يعقوب ههنا يجوز أن يراد به أحد أولاده المتألمين على يوسف ، وهو «شمعون» على ما ذكره مفسرو التوراة أنه كان هو المتصدي لعماء أخيه ، وعهدنا في شمعون انه صاحب نزقٍ وثورة فوق اللزوم بزيادة عن المعتاد (انظر تك ٣٤ : ٢٥ - ٣٠) وقد قالوا إن طبع الذئب الشراسة وإنه عديم الأمن ، وقد كان شمعون كذلك ، كما يستفاد من سيرته في كتب تاريخ قومه ، (انظر تك ٣٤ : ٢٥ و ٢٦ و ٤٩ : ٥ - ٧) ، ولا بدع في نحو قولنا : إن الذئب مجاز ، فكتاب الله تعالى هو أجمع الكتب لصنوف التشبيهات البديعة ، والاستعارات الدقيقة ، والأمثال الرشيدة ، والمجازات الرائعة ، والكنائيات المستطرفة ، وما إلى ذلك من أبلغ الكلام وأفصحه وأعلقه بالنفوس ، وآخذه بالألباب ، وأملكه للعواطف والمشاعر ، وأمثال تيك بما لا ينطق به الناطق في أكثر مناحيه ومنازعه ، إلا عند ذهابه مذهب الخيال

الشعري ، وهذا ما دعى العرب إلى أن يسموا النبي ﷺ الذي بعثه الله إليهم « شاعراً » ، وما أتى به من الله تعالى « شعراً » شُبّه لهم ، غُم عليهم ، فزعموا ما زعموا ، وما هو بشاعر ، بل هو نبي يوحى إليه ، وما كتابه بشعر ، وإنما هو وحي يوحى .

الأكل مجاز عن النهش والعض والأضرار

ويستعار « الأكل » للنهش والعض واللدغ تجوزاً من العرب في كلامهم ثقة منهم بفهم المخاطب كما نقله صاحب فقه اللغة عن الجاحظ ، ولذلك يقال للسكين « آكلنة اللحم » وهي إنما تجرح أو تقطع فقط ، ومنه في القرآن : ﴿ وما أكل السبع ﴾ (٥ : ٤) أي جرح ، بدليل قوله : ﴿ إلا ما ذكيتهم ﴾ (٥ : ٤) ، ويطلق الأكل في كلام العرب على أوسع من ذلك ، فيقولون : « ما أكل حمير خير من آكلها » ، أي رعيها خير من وإليها ، وقال المزمق للنعمان :
فإن كنتُ مأْكولاً فكن خيرَ آكلٍ وإلا فأدر كني ولما أُمزقِ
فقال النعمان : « لا آكلُك ولا أُوْكَلُك غيري » ، وقال الخليل : « الواو في مَرِيّ أكلتها الياء لأن أصله مَرُوي » ، وعقدتُ لفلان عهداً فسَلِمَ ولم يؤكل ، ومن هذا القبيل ما نقل عن عليّ كرم الله وجهه أنه قال : « إنما أكلتُ يوم أُكِلَ الثور الأبيض » ، ومنه : « تأكل الرعية » ، واستأكلتهم ، إذا ظلمهم وصادهم ، وقال الشاعر :

لعمري لنعم الحي يدعو صريحهم
إذا الجار والمأْكول أرقه الأكل

تفسير كلمة « يأكله » بكلمة « يتولى أمره » ويتصرف فيه ،

فكل هذا ونحوه يصحح لنا أن نفسر كلمة « يأكله الذئب » وهو « شمعون » ،
يتولى أمره ويتصرف فيه ، ويفعل فيه ما يشاء وما يريد ، على نحو ما تقدم من
الأمثلة السبعة .

وقبل الختام لا بد لي أن أنبه حضراتكم بأن ما قلته لا يعبر إلا عن
رأي الخاص الذي يتحمل كاتبه وناشره مسئوليته والله أعلم .
وما أن انتهى النجم الروسي القازاني من خطابه ونزل عن منبر الخطابة
حتى عتبه الشيخ الزبيدي الصنعاني وقال :

« تسبيك القول بأن « الأكل » هو الاستيلاء والإضرار وبأن « الذئب »

هو شمعون في المجاز .

بينما أخى النجم الروسي القازاني يخطب فينا مبيناً ماهو « الأكل » ، ومن هو « الذئب »
في هذه الآية ، سمعت رنة صوت من خلني من بعض الاخوان الحاضرين يقول :
إن هذا البيان عما هو الأكل ومن هو الذئب ، بيان « مسلوق » يحتاج « للتسبيك »
ولذلك ترون اني قمت بين أيديكم لتسبيكه قائلاً : إن « الأكل » كثيراً ما يطلق
في الكلام على معنى مجازي ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى
أَمْوَالِكُمْ ﴾ (٤ : ٢) ، و ﴿ لَيْسَ أَمْوَالُ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ﴾ (٩ : ٣٤) ،
وقول بعض العرب : « أكلوني البراغيث » فهذا وأشباهه لم يقصد به حقيقة
« الأكل » ، وإنما قصد منه الاستيلاء والإضرار والأذى .

ثم « للذئب » مجاز عن « شمعون » ، وشمعون معناه « سماعان » ، حتى أن العرب

آ(١٧) رد القول بأن الأرض التي كان يرعى فيها ابناء يعقوب مذأبة ٤٠٣

ينطقون به كذلك ، وسمعان صفة مبالغة ومعناه كثير السمع ، ولا يوجد في الانسان من يسمع مثل الذئب ، فقد قالوا : « إن الحيوان أرقى منا حاسيات حيوانية ، فالإنسان لا يشم مثل الكلب ، ولا يسمع كالذئب ، ولا ينظر كالنسر والهدهد .
فإذن يجوز أن يكون معنى « يأكله الذئب » يسطو عليه « الجبار المبرقع »
ويضربه الحيوان اللابس لباس الإنسان ، وقد يوجد اليوم في بعض أفراد الإنسان ما يشبه بعض أفراد إنسان الغابات والأحراش بالأمس ، وقد قيل : « من شأن الذئب أكله أخاه » ، وقال أبو العلاء المعري :

يغدو على خله الإنسان يظلمه كالذئب يأكل عند الغيرة الذيبا
فشمعون أنجمع مع إخوته أمره على إلقاء أخيه في غيابة الحب ، ثم كان هو
القائم بهذا الأمر ، وبظني ان أبا العلاء المعري يشير لذلك في قوله :

ولكن من أعطاهم الخبر افتري وألفي مثل السيد أجمع وافترأ
فالسيد : الذئب ، وأجمع اتفق مع إخوته على الإلقاء وافترأ أبدى أسنانه .

رد القول بأن الأرض التي كانوا يرعون فيها مذأبة

قالوا : « إن الأرض التي يرعى فيها إخوة يوسف كانت مذأبة » ، وهو بعيد
مخالف للعادة ، لأن العادة أن الرعاة يبعدون عن الأرض التي تكون مذأبة لغيرها
« وأرض الله واسعة فلاها » .

ومما قرره علماء التاريخ المحققون كابن الأثير وسواه ، ان سن يوسف كانت
إذ ذاك (١٧) سنة ، وصدر به الطبرسي في جمع البيان نقلاً عن الحسين ، وظاهر
أن من كان كذلك لا يخاف عليه من الذئب الحقيقي ، ولكن من الذئب المجازي ،
وهو الرجل القوي الشرس ، فتكون معرفة المخاطبين بعمر يوسف قرينة على

هذا التجوز ، كيف لا والذئب ضعيف في نفسه على حسب ما تعلمه من قول الشاعر ،
يصف ضعف نفسه ، وما آل إليه كبر سنه وهرمه :

أصبحت لا أحمل السلاح ولا أملك رأس البعير إن نفرا
والذئب أخشاه إن مررت به وحدي ، وأخشى الرياح والمطرا

قالوا : خص الذئب بالذكر ، لأنه ضعيف .

رد قول الطبرسي بأن الأرض التي كانوا يرعون فيها مذابة

ولكن « الطبرسي » في (مجمع البيان) أجاب عن هاتين الملاحظتين بقوله :
« قيل كانت أرضهم مذابة ، وكانت الذئاب ضارية ، في ذلك الوقت ، وقد علمت
أننا بما حققنا في غنية عن هذه التخرصات ، « وإذا جاء نهر الله بطل نهر مقل » .
هذا وكثيراً ما يطلقون لفظ الذئب على الرجل الذي يختطف أو يسلب الشيء ،
قال سيف الدولة بن حمدان في « الحندوثاني » وهو أحد وجوه المعرة وأعيانها ،
وكان سلاباً نهاباً :

ذئب تراه مصلياً فاذا تمثل لي ركم
يدعو وجلّ دعائه ما للفريسة لا تقع

على ان معنى قول العلماء : « الأصل في الكلام الحقيقة ، ولا يصار إلى المجاز
أو الكناية إلا بدليل وقربة » ، هذا القول لا يريدون به ان كل ما أمكن أن
يراد به الحقيقة ، يحمل عليها مطلقاً ، فان من الكلام ما يجزم سامعه عند سماعه ،
انه مجاز أو كناية ، مع إمكان إرادة المعنى الحقيقي .

هذا هو رأي عطفاً على رأي أخي النجم الروسي القازاني حفظه الله ، فان

أصاب الحزب فيها ونعمت ، وإلا فما أنا أول سار غره قمر ، فكم من مثلي يخطيء ،
ويرحم الله أبي آدم .

من أنكر على مفسر رأياً فطأته أنكر على جميع المفسرين تفاسيرهم

على أنني أنا « لم اخترع البارود » - وهو مثل يقال لمن يأتي أمراً مسبقاً إليه -
بل إني كنت رأيت قريباً مما ذكرت في تفاسير السيد « الألو سي » والسيد « حسن
صديق » و « الطبرسي » في (مجمع البيان) ، وعلى كل حال فإني لا أريد أن أحكمكم
أيها السادة على رأيي ، كما أنني أرجوكم أن لا تحملوني جبراً على رأيي غيري من
المفسرين ، فإن أنكر عليّ مُنكر ، لأنني خالفت المفسرين ، فليعلم انه يجب عليه
أن ينكر أيضاً على جميع المفسرين تفاسيرهم ، لأنه ما من مفسر متأخر ، إلا قد
خالف في مواضع كثيرة رأي جميع المفسرين قبله ، فالتخالف أمر مشترك بيني وبين
كل مفسر قبلي دون استثناء ، فالتسليم لهم لمجرد أنهم أموات ، دون التسليم لي
لمجرد كوني حياً أرزق ، ليس من الإنصاف في شيء ، على أنكم أيها السادة
سمعت أن الأخ النجم الروسي القازاني ، قد سبقني إلى هذه الفكرة ، وأنا لست
إلا مؤيداً له فيها ، والله تعالى يقول الحق ، وهو يهدي السبيل ، والسلام عليكم .
ثم زل الشيخ النصفاني عن المنبر ، فقام إليه النجم الروسي وصافحه ، وشكره
على مناصرته لرأيه .

وتكلم بعد ذلك العلامة التدمري ^(١) فقال :

جواز كون الذئب ذئباً معهوداً غائباً أو حاضراً

كنا سمعنا يعقوب (ع) يقول : (وأخاف أن يأكله الذئب) ، فيجوز أن

يكون أراد من « الذئب » ذئباً معهوداً عهداً ذهنياً بينه وبين مخاطبيه ، فالألف واللام فيه نظيرها في : (إذْ هُمَا فِي الْغَارِ) (٩ . ٤١) ، أو معهوداً عهداً حضورياً فالألف واللام فيه نظيرها في قوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ (٥ : ٤) ويجوز أن المعهود على كل هو « شمعون » المتجوز إليه بلفظ الذئب ، فإن كان شمعون غائباً وقت مكالمته إخوته لأبيه ، فالمعهد ذهني ، وإن كان حاضراً في الجلسة ، فالمعهد حضوري ، يقول : ﴿ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّئْبُ ﴾ ، ولكنه ليس من ذئاب العالم الناطق ، ولا من الذئاب الساكنة في الآجام ، وإنما هو من سكان الخيام . وكأني بلسان حال يعقوب (ع) يقول : (وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّئْبُ) الذي تقمص صورة الإنسان ، وتمثل في جسم طويل القامة يمشي على رجلين فقط ، وأي غرابة في أن أتحمّل ذلك التقمص ما دام ذلك الابن والذئب سواء في حب الشر والميل إلى الأذى ؟ ... وما دامت الصورة الجثمانية لا قيمة لها في جانب الأعراض الذاتية ، والصفات المقومة للماهية ؟ ... إن العشرات من الذئاب ، لا تريق في عشرات من السنين من دم الإنسان مقدار ما أراق هذا الابن من دم أهالي مدينة شكيم على نمة التوراة (تك ٢٤ : ١ - ٣١) ، قد يكون الذئب الحقيقي في قتله الإنسان والشاة ، أجل مقصداً من الإنسان الذي له روح الذئب ، لأن الأول يطلب عيشه ، وهذا طريقه الطبيعي الذي لا يعرف سواه ، ولا يستطيع أن يدبر لنفسه غيره ، وأما الثاني فإنه يريق دماء الناس للتشفي والحسد وكبرياء النفس !

هذا هو المعنى المجازي لكلمة « وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّئْبُ » ، ولقد كان كامناً في نفسي منذ القديم ، إلى أن ذاكرت فيه بعض الناس ، فصادفت منهم جموده أعقبوه جحوداً فاصطدمتُ بمعارضات شديدة من جراء جمودهم وجحودهم ،

فسكت ، وبقيت هذه الفكرة مستترة في ضميري الى هذا اليوم الذي اتحفني فيه
الدهر بالتشرف بكم ايها السادة ، وتذكرت قول القائل ::

وقد وجدتُ مجالَ القولِ ذا سعةٍ فإن وجدتَ لساناً قائلاً فقل

فأبرزت ذلك الضمير المستتر لحيز الوجود ، لا سيما وأني أرى روح التفاهم
سائداً بيننا ، وقد رأيت بعض الاخوان المحققين سبق ونطق بما ثلثت به عليهما ،
وضممت به صوتي لصوتها .

كيف فات المفسرين الذهب للمعنى المجازي في الأكل والذئب وشواهد على ذلك .

وأتذكر هنا أن سألتني سائل قائلاً :: إن جميع المفسرين أو أكثريتهم الساحقة
لم يفهموا من كلمتي « الذئب » و « أكله » سوى المعنى الحقيقي ، وأما المعنى المجازي
فلم يحضر لهم على بال ، فلو كان المعنى المجازي مراداً لاقتزن بقربنة معينة ، وعلى
الأقل مانعة ، فكان المفسرون اهتموا اليه ، فكيف يقال بجواز الذهب للمعنى
المجازي ؟ فاجبته بأن هذا ليس بدعاً في نوعه ؛

فأولاً — حكى المؤرخون أن ليلى الأخيلية دخلت على الحجاج ، فمدحته ،
بأبيات بليغة ، وقمت لديه موقع الاستحسان ، وسُرمها أيمًا سرور ، حتى قال ::
« قاتلها الله ! ما أصاب صفتي شاعر منذ دخلت المراق غيرها » ثم قال « يا غلام ،
اذهب الى فلان — يريد وكيل خرجه — فقل له اقطع لسانها » ، قال فأمر باحضار
الحجام ، فالتفتت إليه وقالت : « شككتك أمك ! أما سمعت ما قال ؟ ! إنما أمرك أن
تقطع لساني بالصلة » — فبعث اليه يستثبته ، فاستشاط الحجاج غضباً ، إذ هم بقطع
لسانه ، وقال : « ارددها » ، فلما دخلت عليه قالت : « كاد — وأمانة الله — يقطع
مقولي » ، فأعطاه الحجاج مئة ناقة . (كذا في مصارع المشاق الجزء التاسع) .

ثانياً — ورد في الحديث : « أسرُ عكُنَّ لحاقاً بي أطولُ لكنْ يداً » ، فصار الأزواج الشريفات يقسن أذرعهن ، ليعلمن من ستموت بعد النبي ﷺ ، فحيث جاز على نساء النبي ﷺ أن لا يفهمن المعنى المجازي ، وهو طول اليد بالصدقة إلا بعد موت صفية (ص) ، وحيث وكيل الحجاج العربي الصميم لم يفهم المعنى المجازي من كلام الحجاج يجوز للمفسرين أن لا يتنبهوا للمعنى المجازي الذي قلنا تجوز إرادته من لفظ (يأكله الذئب) ، لاسبابا والقربنة ليست لفظية ، بل حالية ، وهي من الخفاء بمكان .

ثالثاً — هذا « عدي » بن حاتم الطائي من صميم العرب في عصر تنزل القرآن لم يفهم المراد من « الخيط الأبيض والخيط الأسود » فحملها على المعنى الحقيقي لا المعنى المجازي ، وهو الليل والنهار ، ففي البخاري في صحيحه انه أخذ عقلاً أبيض ، وعقلاً أسود ، حتى كان بعض الليل نظر فلم يستبينها ، فلما أصبح قال : « يا رسول الله ، جعلت تحت وسادتي عقالين » — قال : إن وسادك إذاً لمريض ، أن كان الخيط الأبيض والخيط الأسود تحت وسادك .. » ..

رابعاً — لم يفهم بعض الصحابة كيفية التيمم من آيته ، فمسح جميع بدنه بالتراب ، كما حكاه البخاري أيضاً ، فاذا كانت الصحابة — وهم من العرب الأولى — لم يفهموا بعض ما في الكتاب الكريم ، فهل يستغرب على المفسرين أن لا يفهموا المعنى المجازي من الذئب وأكله ؟

وسياتي في المحاورات على الآية (٣٣) ما يزيد هذا الموضع وضوحاً وتأيداً ، هذا ما أفهمه هنا موافقة الأخوين الفاضلين النجم الروسي القازاني والشيخ الصنعاني ، وما هو جدير بالسرور ان كـثـيـراً من شبّان بلدنا « تدمر » الكرام استحسن هذا التفسير استحساناً عظيماً ، وعدّه من المواهب الربانية ، التي « تحدث » بها علماء هذه

الأمة الحمديّة ، فالحمد لله على ذلك ، على انكم أيها السادة ، قد سمعتم هذا المعنى اللطيف من أخويّ الكريمين ، فانا لست بأبي عذرتي :

ولكن بكت قبلي فهبج لي البكا بكاها فقلت : الفضل للمتقدم وههنا نزل العلامة التدحيري عن المنبر في وسط عاصفة من التصفيق الشديد ، وكلمات الاستحسان والاعجاب .

ثم علق رئيس المؤتمر على خطاب العلماء الثلاثة قائلاً : « أنا لا أريد أن أثبت هذا القول أو أنفيه ، وللقراري أن يميز بين الفث والسمين ، وله وحده الرأي الأخير » .

فقيص العلامة:

آ (١٨) ﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ ﴾ — قَالَ :
بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً ۚ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ،
وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ۚ .

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثامنة عشرة فقام العلامة البيروني وقال :

(وجاءوا على قميصه) أي فوق قميصه (بدم كذب) أي ذي كذب ، ووصف بالمصدر مبالغة ، كأنه نفس الكذب وعينه ، كما يقال للكذاب : هو الكذب بعينه والزور بذاته ، ونحوه : « فمن من جود وأنتم من بُخلٍ » ، (قال) أبوهم بلسان الرد والإنكار : إن الذئب لم يأكله ، (بل سولت) من السول ، وهو الاسترخاء أي سهلت (لكم أنفسكم أمراً) عظيماً ارتكبتموه من يوسف وهونتموه في أعينكم ولقد أعتقد أن تحت الرماد شيئاً هذا دخانه ، فأنتم قد عملتم معي ومع

ولدي عملاً سرياً يأيد خفية تلعب من وراء الستار ، وترمي الى غاية بعيدة ، ولأمر ما جدد قصير أنفه :

لي حيلة فيمن ينم وليس في الكذاب حيلة
من كان يخلق ما يقول خيلتي فيه قليلة

(فصر جميل) وهو الذي لا شكوى فيه الى الخلق ، وقيل أراد : لا أعيشكم على كآبة الوجه ، بل أكون لكم كما كنت ؛ (والله المستعان على) احتمال (ما تصفون) من هلاك يوسف والصبر على الرزء فيه ، أو : والله المستعان على كشف حقيقة ما تصفون واتضح جلية الحال في المستقبل ، ولا يخفى ما في هذا الخطاب من روح هزينة كثيفة ، وحتى ليستطيع القارىء أن يلمس إحساس يعقوب . هذا وقد استدلل على فعلهم به بما كان يعرف من حسدهم له ، وما قواه على اتهامهم أنهم ادعوا الوجه الخاص الذي خاف يعقوب عليه السلام هلاكه بسببه ، وهو أكل الذئب إياه ، فاتهمهم أن يكونوا تلفقوا العذر من قوله لهم : (وأخاف أن يأكله الذئب) ، فكأنه لقنهم العلة ، والبلاء موكل بالمنطق ، ولا بد أن يعقوب عليه السلام قد تذكر ههنا وعدم له بحفظ يوسف فردد في ضميره معنى قول القائل :

أما الوفاء فشيء قد سمعت به وما وجدت له عينا ولا أثرا
فمن تعصم في الدنيا أخطا ثقة فإنه بشر لا يعرف البشر

(وجاءوا على قميصه .. الخ)

— ١ —

وقال العلامة الطرابلسي :

القميص والدم

كان اخوة يوسف نزعوا عنه قميصه الملوّن الذي عليه ، وأخذوه وطرحوه في

البئر وذبحوا تيساً من المعزى ، وغمسوا القميص في الدم ، وقد صنعوا كل هذا في « دوثان » ثم قاموا منها الى « سيلون » حيث أبوم ، وقالوا له ما تقدم من معذرتهم الملفقة ، وختموها بقولهم : مع إننا نتكلم معك يا أبانا بحقيقة وثيقتنا معها ، وتلك الوثيقة هي هذا الذي تراه — قالوا ذلك ، وأبرزوا قميص يوسف ملوثاً بالدم ، وقلوبهم تخفق لما يتوقعونه من عدم تصديق أبيهم لهم ، وهم يفكرون ماذا عسى يكون وراء هذا العمل الرهيب — وأما أبوم فلما رأى ذلك حزن حزناً لا يحزنه إلا أب على ابن له يتفرس في مستقبله كل رقي ونجاسة ، وصار كأنما صب فوق رأسه ماء غالياً .

وهنا لا بد لي أن أسمعكم بعض الحواشي المتعلقة بهذا البحث :

القميص

الحاشية الاولى — إن هذا القميص الذي كان على يوسف هو قميص ملون قد صنعه له أبوه خصيصاً لأنه أحبه أكثر من سائر بنيهِ ، إذ كان ابن شيخوخته ، وقد قصد يعقوب أيضاً بذلك « الثوب » ان يوسف سيكون رئيس آلِهِ ، وانه سيكون كاهنهم بدلاً من البكر « رأوبين » فضلاً عن معنى الإكرام ، لأن الثياب الملونة كانت من ملبوسات المكرمين من الفلسطينيين ، كما ظهر ذلك من الرسوم على قبور بني حسان .

دم القميص

الحاشية الثانية — هذا الدم الذي كان على قميص يوسف كذب ، فليس هو كالدم الذي جاء به « معاوية » لأهل الشام على قميص « عثمان » (ض) بل كان ذلك الدم ، دم عثمان حقيقة ، وقد قتل بيد أئيمة حقيقة ، ولكن في حادث يوسف

ادّعي زوراً أن يوسف افترس ، افترسه سبع ، وأراق دمه على قميصه ، وأن هذا الدم الذي على القميص دمه ، وكل ذلك لم يكن !!

لسان حال يعقوب عندما رأى قميص يوسف ملطخاً بالدم

الحاشية الثالثة — كأني بكلام ابنساء يعقوب قد وقع على أذن أبيهم كوقع النار على سويداء القلب ، وكأني به قد أخذ القميص وجعل يقلبه وينظر إليه ، ولسان حاله يردد معنى قول الشاعر :

ليت السباع لنا كانت مجاورة وليتنا لا نرى ممن نرى أحدا
إن السباع لتهدا عن فرائسها والناس ليس بهاد شرهم أبدا

وكان هذا القميص هو الذي عناء بعضهم يهجو بخيلاً بقوله :

كان كل سؤال في مسامعه قميص يوسف في أجفان يعقوب

حجة القميص التي لهم صارت عليهم

الحاشية الرابعة : — قيل إن يعقوب (ع) أغرب في التأمل ، فرأى القميص غير ممزق ، فقال : « يا للعجب ! هل يمكن للذئب أن يأكل ولدي بدون أن يمزق شيئاً ما في القميص ؟ » فهم اعتبروا أن هذا القميص الملوث بالدم ، هو كوثيقة بيدهم ، يعتمدون عليها في صحة دعواهم ، ويتمركزون عليها في دفع الشبهة عنهم ، ولكنهم حفظوا شيئاً وغابت عنهم أشياء ، إذ لم يمزقوا القميص ، فبعدما حسبوه حجة لهم ، صار حجة عليهم ؛

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يقضي عليه اجتهاده

البرهان الباطل

الحاشية الخامسة : — جاءوا على قميصه بدم كذب « كشاهد » يفتنون به زعمهم ، ولكنه شاهد زور ، و « كرهان » يصححون به دعواهم ، ولكنه برهان باطل ، و « كوثيقة » يعتمدون عليها ولكنها وثيقة مزيفة .

حقاً إن هذا العمل مما يضحك الانسان في ساعة يجب فيها البكاء ، لأنهم بابقائهم على القميص وعدم تمزيقهم له ، لم يحسنوا سبك هذه الأكذوبة ، فكان فعلهم هذا أوجب للحجة عليهم من الحجة لهم .

مناجاة يعقوب للذئب الحقيقي والمجازي

الحاشية السادسة : — كأن من يحملون « الذئب وأكله » على معناه الحقيقي سمعوا بأذان قلوبهم يعقوب (ع) يصرخ بهذه المناجاة :

مسكين أنت أيها « الذئب » ، يلصق بك بنو الانسان ما أنت منه بريء ، يتهمونك وهم المتهمون ، نعم إنك حيوان أعجم ، ولكن تلك العجمة خير من النطق الكاذب ، ما أصدق عجمتك ! وما أكذب نطق الناس ! نعم ان الله تكفل بأنه ما من دابة في الأرض إلا عليه تعالى رزقها ، لكن هل كتب الله التضحية بولدي في سبيل رزقك ؟ ... كلا ... وحوادث الزمان المستقبل ستكشف لنا عن جليلة الأمر ، فان الزمان كشاف ، ثم لكانه خاطب نفسه بقوله :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود

ثم لكان من يحملون « الذئب وأكله » على المعنى المجازي سمعوا بأذان قلوبهم يعقوب (ع) يصرخ بهذه المناجاة :

أيها الذئب المستأنس ، قطعت الرحم ، أسأت إلى نفسك وسيرتك ، وضعت في تاريخك نقطة سوداء ، أسأت للأب والأخ ، وللخالة في قبرها ، فهي لذلك تتوجع عند « إفراطة » ، وتصرخ وتولول عند « بيت لحم » ، أيها الذئب الضاري ، الذي تستره الصورة البشرية ، لماذا تفترس هذا الحمل الوديع ؟ لماذا أيها الذئب « الأصفر » تنقض على هذا الحمام « الأبيض » ؟ - لأيّ هذه الشراسة والإخلال بأمن المستأنس ؟ أما بكيفيك افتراسك كل ذكر من أهل شكيم (تك ٣٤ : ٢٥) آه ، صدق من قال : من الناس من إذا كشف لك عن أنيابه رأيت الدم الأحمر يترقرق فيها ، أو عن أظافره رأيت تحتها مخالب حادة لا يسترها إلا الصورة البشرية ، أو عن قلبه ، رأيت حجراً صلباً من أحجار الصوان ، لا يبضّ بقطرة من الرحمة ، فهو لاء الناس سباع مفترسة ، وذئاب ضارية ، يأكلون من دنا منهم ، أو وقف في طريقهم غير حافلين به ، ولا آسفين عليه ، أصلح الله حالهم ، وحمائنا من أن يتم علينا محالهم ، آه ... إلى الماء يمضي من يغص بلقمة ، إلى أين يمضي من يغص بماء ؟

الدم نفس أو جسد

الحاشية السابعة : — يقال للدم « نَفْسٌ » ويقال لليابس منه « جَسَدٌ » ، ومنه قول الفقهاء : « وَيُعْفَى عَمَّا لَا نَفْسَ لَهُ سَائِلَةٌ أَي دَمٌ ، وَقَوْلُ بَعْضِهِمْ وَهُوَ مِنْ هَذَا الصَّدَدِ الَّذِي نَحْنُ فِيهِ :

سبيل إبطاله أصبحتُ مسبوباً

براءة الذئب من نفس ابن يعقوباً^(١)

يا ويلهم ! قد رموني بالذي أنا في

برئت منهم ومحا قد رميت به

السجع والترسل في القرآن

الحاشية الثامنة : — جملة « وجاءوا على قميصه بدم كذب » (تذييل مرسل) للآية السابقة المسجوعة ، وهذا أسلوب لطيف كثير الوقوع في كتاب الله ، كأنه تعالى يُخَيِّرُ القارىء بين أن يراعي طريقة السجع ، فيقف على رأس الفقرة المسجوعة وبين أن يراعي طريقة الترسل ، فيقف حيث يتم الكلام ، ولو لم يكن سجع .

وفي القرآن الكريم شواهد كثيرة على ذلك ، إذ علم سبحانه وتعالى أن قوماً يحبون طريقة السجع ، وآخرين يميلون لطريقة الترسل ، فأزل كتابه بصورة تحتل الطرفين ، وتكفل كلا المذهبين ليختار القارىء لنفسه ما يحلو في ذوقه ، ومن هذه الشواهد ما يلي :

١ - ما في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ، كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ، لعلكم تَتَّقُونَ ، أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ ﴾ (٢ : ١٨٣ و ١٨٤) .

٢ - ما في قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ، فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ (٢ : ٢١٩ و ٢٢٠) .

٣ - ما في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ : كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ، فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ؟ وَقَالُوا : رَبَّنَا لِمَ كُتِبَتْ عَلَيْنَا الْقِتَالُ ؟ لَوْ لَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ؟ - قُلْ : مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ ، وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى ، وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ، أَيْنَا تَكُونُوا يَذْرُكُكُمْ الْمَوْتُ ، وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بَرُوجٍ مُّشِيدَةٍ ، وَإِنْ تُصِيبَهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا : هَذِهِ

مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَإِنْ تُصِيبْتُمْ سَيِّئَةً يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ ، - قُلْ : كُلُّ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ ، فَمَا لَهُمْ لَهْؤُلاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ؟ ﴿ ٤ : ٧٦ و ٧٧ ﴾ فقلوه : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ ، وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بَرَجٍ مَشِيدَةٍ ﴾ هو من ذيول ما قبله ، فهو مرتبط به ، فمن شاء مراعاة المعنى والجري على مذهب الترسل وقف عنده ، ومن شاء مراعاة السجع وقف عند رأس الآية « فتيلًا » .

٤ - ما في قوله تعالى : ﴿ وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، وَرَسُولُهُ ، فَإِنْ تُبْتُمْ فهو خيرٌ لكم الخ ﴾ (٩ : ٣ و ٤) فقلوه ﴿ وَرَسُولُهُ ﴾ هو ذيل للآية الثالثة المسجوعة ، ولكنه مكتوب مع الآية الرابعة ، فإذا نظرنا المعنى ، ألقناه بما بعده وكنا ساجمين .

٥ - هكذا كلمة : « من دونه » في قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ ، وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ، مِنْ دُونِهِ ، فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ، ثُمَّ لَا تُنظِرُون ﴾ (١١ : ٥٣ و ٥٥) .

٦ - ومثله كلمة : ﴿ كَأَنْ لَمْ يَغْنُوا فِيهَا ﴾ من قوله تعالى : ﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ ، فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جاثمين ، كَأَنْ لَمْ يَغْنُوا فِيهَا ، أَلَا إِنَّ تَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ ، أَلَا بُعْدًا لَتَمُودِ ﴾ (١١ : ٦٧ و ٦٨) .

٧ - ومثله كلمة : ﴿ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ ﴾ من قوله تعالى : ﴿ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ ، إِنِّي عَامِلٌ . سَوْفَ تَعْلَمُونَ ، مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ ، وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ (١١ : ٩٣ و ٩٤) .

٨ - كلمة « زُخْرُفًا » في قوله تعالى : ﴿ وَلَبِئْسَ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ، وزُخْرُفًا ، وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا ، والآخرة عند ربك للمتقين ﴿ (٤٣ : ٣٤ و ٣٥) .

٩ - كلمة « وبالليل » في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ، وبالليل ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ ﴾ (٣٧ : ١٣٧ و ١٣٨)

إلى غير ذلك مما هو كثير في كتاب الله الكريم ، فارجع إليه إن شئت المزيد .

القصد من ذكر القرآن لقصة يوسف

الحاشية التاسعة : — قص الله علينا ما أجراه بنو إسرائيل من الخيل على أيهم ، وبعضهم على بعض ، لنكون على بصيرة من أعمالهم معنا ، وعلى حذر من حيلهم علينا ، لأنهم إذا كانوا يفعلون هذه الأفعال مع أصولهم وحواشيهم الأقربين فماذا عسى أن تكون أعمالهم مع من لم يكن من عنصرهم ؟! وأقرب الشواهد على حيلهم ، ودهائهم ما أجروه من الكيد للنبي ﷺ في الحجاز ، بل كانوا يكيدون في جميع بقاع الأرض غير الإسلامية ، حتى كان ما كان بكيدهم وختلهم من هدم صروح الباباوات والملوك المستعبدين لهم في أوربا ، وإدالة الحكومات المدنية من حكم الكنيسة ، وقد كادوا ولا يزالون يكيدون لهدم نفوذ الديانة النصرانية من دول أوربا ، باسم الحرية والمدنية ، كما أن بكيدهم جعلوا الدولة الفرنسية ككرة اللعب في أيديهم ، إذ أخذوا يسمعون في إزالة سلطة الكنيسة عنها ، وحملها على عقوقها ، بعد ما كانت فرنسة تدعى « بنت الكنيسة البكر » ثم

حملوها على الظلم الجائر القبيح في الجزائر! مع أنها الدولة التي تفاخر الأمم بالعدل والمساواة والمدنية وقد كانت لهم يد في الانقلاب العثماني، وتدخلوا كثيرًا مع الاتحاديين، من العثمانيين، ثم أيام «الحرب العالمية» تدخلوا مع الحكومة الانكليزية وساعدوها بالمال، ليكون لهم «وطن قومي» في «بيت المقدس» ويقيموا فيه «ملك إسرائيل» ويجعلوا «المسجد الأقصى» معبداً خاصاً لهم، والخلاصة إن شأن هؤلاء الناس الدهاء والختل والنحال دائماً وأينما وجدوا، وعلى كل من عدام!!!

لذا علينا أن نأخذ من هذه الأعمال موعظة تنفعنا اليوم في معاملتنا مع أبناء العم!! الصهيونيين في فلسطين!! وهي أنه إذا لم يوجد من هؤلاء الاخوة العشرة رحمة وعطف لأبيهم وأخيه، بل إذا لم يسلم أبوم وأخوم من شرورهم، فكيف نرجو أن نسلم نحن (العرب) اليوم من كيدهم!!

يمينا — ولا حاجة لليمين — إن من فسدت فطرته، حتى صار لا خير فيه لأبيه وأخيه، لا يرجى منه خير للبعء والأبعدين، ويمينا إن من لا خير فيه لأصله وحاشيته الأقربين، فلا خير فيه لأبناء عمه الأبعدين.

انتقاد دعاة النصرانية اعتقادنا بنبوة يعقوب والرد عليهم

وإني بهذه المناسبة — والشيء بالشيء يذكر — ذاكر للقراء الكرام انتقاداً كان ورد عليّ من بعض «دعاة النصرانية» وهو قوله: (إننا نحن المسيحيين كاليهود جميعاً لا نقول بنبوة يعقوب، ولعمرنا لو كان نبياً ورسولاً كما تقولون أنها المسلمين الأعزاء لكان على الأقل أثر الهداية والطاعة والتقوى في أولاده، العشرة الصليبيين).

هذه ملاحظة ذلك البروتستانتى ، وأما الفقير فإتي أجبتة بأن الرسل (ع) لم يرسلوا إلا مبشرين ومنذرين ، ما عليهم إلا تبليغ دين الله وإقامته ، وليس لهم من الأمر شيء ، ولا يملكون لأحد ضرراً ولا نفعاً ، وليس عليهم هدى أحد ولا رشده بالفعل ، وإنما عليهم هداية التعليم والحجة ، فلا يهدون فعلاً من أحبوا ، ولا من كان من أقاربهم ، ولا يفتنون عنه من الله شيئاً ، وإن كان أقرب الناس إليهم في النسب ، وأحبهم إليهم في المعاملة ، الدنيوية ، فالأنبياء هداة لا جبارون ، وأدلة خير لا قاهرون . هذه قاعدة التوحيد الهادمة لقاعدة الوثنية ، بالفصل بين ما هو لله وما هو لرسله ، وأما قاعدة المسيحيين - بعد ابتداعهم في الدين اعتباراً من تاريخ مقررات بزنطية - فهي كقاعدة وثنية العرب من اتخاذ أولياء من العباد كالسيح وأمه وسائر كبار رجال الدين ، يزعمون أنهم وسطاء بين الله وبين عباده في شؤون الخلق والإيجاد ، والإشقاء والإسعاد ، والسلب والإمداد ، لا في مجرد التبليغ والإرشاد ، قياساً على ما يعبدون من الأقربين والمقربين عند الملوك المستبدين .

مخاطبة يعقوب لأولاده عند سماعه الخبر السوء منهم

الحاشية العاشرة - كآني يعقوب (ع) بعد ما سمع الخبر السوء عن ولده المحبوب شعر برعشة ملأته من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ، ثم سكن على أثر ذلك سكوناً لا تطرف له فيه عين ، ولا ينبض له عرق ، ولا يخفق له فيه قلب . ولا يتحرك له فيه خاطر ، ثم لكآني به قد التفت لأولاده وقال: آه . لقد آلمتموني في أعز شيء لدي : إني لأعجب لكم ، تأخذون ابني في جرة النهار ، وتأثون تمنونه إلي في بخمة الليل ؟ ، وأعجب من هذا أنكم تبكون ، كأن عبرات العيون

ملك إرادتكم ! وأعجب من هذا وهذا أنكم أخذتموه بحجة أنه « يرتع وبلعب » ، وما أرى ذلك إلا قد صار وقفاً عليكم ، وأما هو فقد استخدمتموه عندكم كحارس ، يكون قعيد خيبتكم ، وجلس فسطاطكم لا يفارقه ، شأن كل من تسندله هذه الوظيفة الفائقة !! وأعجب من هذا كله جيئتم بثوبه ملطخاً بالدم ، تدعمون بذلك صحة دعواكم ؛ كأن الله القدير لم يخلق دماً سوى دم يوسف ، وكأنكم تظنون أن البلدة قد بلغ من تخاطبونه مبلغه من الناس ، حتى أردتم تناجرون بعقول العقلاء ! غريب والله أمركم ، تحملون على عاتقكم حفظه قائلين . « إننا له لحافظون » ، ثم توجهون عليه وظيفه « محافظ » لكم ، لا محافظاً عليه من جانبكم .

غريب والله ، تسجلون على أنفسكم الخسران إن أكله الذئب وأنتم عصبة ثم اليوم تقولون « أكله الذئب » ، فكيف رضيتم لأنفسكم هذا التسجيل !! ..

لفظ القميص في القرآن

الحاشية الحادية عشرة — لم يذكر لفظ القميص في كتاب الله تعالى إلا في هذه السورة ، والغريب أنه ذكر فيها في ستة مواضع ، من مواضع القصة المهمة ، الأمر الذي يخيّل إلينا أن « القميص » ركن من أركان هذه السيرة .

هل مفعول يعقوب صيغة افتراسي الذئب ليوسف

الحاشية الثانية عشرة — إذا قيل لماذا لم يطلب يعقوب من أولاده ما بقي من جسد يوسف عند قولهم له : « فأكله الذئب » ؟ فالجواب : يحتمل أنه لم يرد أن يشدد عليهم بهذا الطلب خوفاً أن يذهبوا ويقتلوه فعلاً .

هذه هي محاضرة العلامة الطرابلسي ، وكان الحاضرون يصرخون عند كل حاشية من هذه الحواش بكلمة : موافق ، موافق ، وكانت علامات القبول والاستحسان بادية على وجوههم .

(قال : بل سوت لكم ... الخ)

- ١ -

قال نور الهدى الصيداوي :

هنا يعقوب النفسية بعد سماعه نعي ولده يوسف

كانوا حملوا لأبيهم نعي ولده ، وتأبطوا شراً بذلك الخبر السيء ، فما أتوا على تمام حديثهم (الموضوع) حتى انقبضت نفسه وانتقد حزنه ، وتمقر وجهه ، وتولاه الكدر ، وأخذ الدهول منه مأخذه ، فلبث صامتاً هنيئاً ، كأنه أصيب بصدمة ، وأطرق إلى الأرض وسكن في إطراره سكواً عميقاً ، لا تتخلله حركة ولا نائمة ، ثم صار يصعد نظره فيهم ويصوبه ، وأخيراً نظر إليهم نظرة كشف بها أسرار قلوبهم ، كما يكشف الإشعاعي ^(١) بأشعة « رونتكن » ما وراء الجوامد ، نظر إليهم نظرة وقد أدرك أن في الأمر سرّاً ، جعله يقف تجاه أخبارهم موقف المرتاب ، نظر إليهم نظرة وهو يتنفس الصعداء وينظر إلى وجوههم ويراعي حركاتهم ، نظر إليهم نظرة وقال : سواء على أجتّم بهذا الثوب الملطخ بالدم ، أم لم تغيثوا به فلا أصدقكم ، إذ ليس لكلامكم نصيب من الصحة ، بل هو خارج من مصنع التزوير ، وقصتكم كلها في وجوهكم ، وليس أدل على كذبكم من هذا القميص

(١) الإشعاعي العالم الاختصاصي بفن الأشعة .

غير الممزق ، ألم اقل لكم : إني « ليحزنني أن تذهبوا به . . » ، فها أنذا وقت
فيما تخوفت منه ، تتركون الناقة بحملها ، وترجعون إليّ بخفي حنين ، « بش العوض
من جمال قنيدته »

(قال : بل سولت لكم ... الخ)

— ٢ —

وقال الشيخ الرشيدى (١) :

عدم انطلاء الكذبة على يعقوب

لم يصدقهم أبوه لأنه يعرف رؤيا ابنه وتأويلها . ويعلم أن الله سيختبئه ويعلمه
من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليه ، كما أتمها على أبويه من قبل إبراهيم وإسمحق
وشيء من هذا لم يحصل بعد ولكنه يحتاج إلى وقت مديد وعمر طويل ، ولذلك
فخيلتهم لم تنطل عليه ، بل قال لهم : إنه يلوح إلى أن أنفسكم سهلت لكم أمراً ،
أنزلتموه ييوسف ضحية حي له ، ولولاي ولولا حي إياه ما رأى هذا البلاء الذي
أحاق به .

صبر يعقوب الجميل

لقد صبر يعقوب (ع) صبراً جميلاً على تلك المصيبة ، فلم يصيح ، ولم يمزق
ثوبه ، ولم يشك أمره لمخلوق ، ولم يجزع ، ولم يملأ الدنيا بكاء وعويل ، كما ظنه
حشويوا المفسرين ، لأن ذلك كله ينافي ما أخذه على عاتقه من « الصبر الجميل »
ويناقض ما حكاه الله عنه في قوله تعالى « فهو كظيم » .

(١) نسبة الى بلدة رشيد من البلاد المصرية .

لقي يعقوب من الهم والحزن ما لا يستطيع أن يحتمله غيره ، ولكنه استطاع أن يني بوعده الذي أخذه على عاتقه من «الصبر الجميل» ، لأنه نبيّ حليم ، ومن كان مثل يعقوب نبياً وصفيّاً ، فهو أهل لهذا الصبر الجميل ، والله تعالى أرحم من أن يبعد عنه ابنه المحبوب ، ويبعد عنه العزاء .

يعقوب يغمز منه قناة اولاده فيما ذكروه عن يوسف

يقول يعقوب عليه السلام : ﴿ والله المستعان على ما تصفون ﴾ يريد بذلك غمز قناتهم ، ثم يحتمل ان معناه : على كشف حقيقة ما تصفون ، أهو صدق أم كذب . فإني في ريب من صحة ما تزعمون ، ولست أتبين الحقيقة إلا من حوادث الدهر التي يحدثها الله تعالى ، والمستقبل كشاف ، ولذلك سأنتظر ما يجيء به الغد : ﴿ وهو الله في السموات وفي الأرض ، يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ ، وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ (٦ : ٣) ، ﴿ اِكْلُ نَبَاً مُّسْتَقَرّاً ، وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ (٦ : ٦٧) ، وقد استجاب الله دعاءه هذا ، فإنه تعالى كشف حقيقة الحال وبين الواقع ، بحيث يظهر أن كلامهم الآن كذب ، وليس من الصدق في شيء ، ولكن هذا كان بعد نحو (٢٣) سنة .

ويحتمل أن المعنى : والله المستعان على تحمل أو احتمال ما تصفون ، وقد استجاب الله له هذا النوع من الدعاء أيضاً ، حيث ثبت على صبره الجميل ثبوت الكرام ، ولم تبد منه كلمة ولا فعلة تنافي ذلك .

ويحتمل أن المعنى أيضاً : والله المستعان على كفاية شر أو تعديل ما تصفون

فهذا كل ما أملك اليوم ، ولا تنسوا أنكم كنتم قلم لي « وإنا له لحافظون » ، فإنا الآن لا أنسى أن أقول لكم : ﴿ وإنَّ عليكم لحافظين ، كراماً كاتبين ، يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ .

وقد اقتصر يعقوب (ع) على هذه الكلمة وهي قوله (والله المستعان على ما تصفون) اختصاراً وإيجازاً لأن حال الحزن يتطلب ذلك ، أو إشارة إلى أنه غير عاجيء بالخبر المصنوع الذي آتاه به أولاده .

مواعيد الله في يوسف خففت من وطأة مصيبة يعقوب فيه

رأى يعقوب (ع) نفسه وقع في شبه مصيبة ، فالتمس لنفسه تعليلاً يريح باله على ولده ، والمرء ميال إلى التماس مثل ذلك التعليل ، والناس يتفاوتون في مقدرتهم على ذلك ، فبعضهم إذا وقع في مصيبة ، هان عليه تطبيق عواطفه على تلك المصيبة ، فيجمل لنفسه مخرجاً من سوء عواقبها ، ومنهم من يزيده الافتكار قلقاً ولكنه لا يلبث وإن طال قلقه أن يصل إلى حل يتوكل عليه ، ريثما يرى ما يأتي به القدر ، ومن هذا القبيل يعقوب (ع) ، سيما ومعرفة بمواعيد الله له في ولده ومرمى رؤياه ، قد خفف عليه وطأة تلك النازلة .

انتقاد يعقوب على تهريب يوسف والرد عليه

كأنني بسيدنا يعقوب عليه السلام ، بعد ما قال لأولاده ما قال ، اعتزلهم ، وخلا في خيمته وحده ، فتخيل له أن هاتفاً يقول : « يداك أوكتا وفوك نفخ ، ذلك لأنك أنت السبب الأول فيما جرى ، أنت الذي زلت مختاراً على إرادة أولادك أنت الذي انساق لمشيئتهم وانصاع لميولهم ، رغماً عن كونك تعرف درجة العداء الذي يضمرونه لأخيه ، كيف لا ... وقد كنت قلت له : (لا تقصص رؤياك

رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً ؟ وقد كنت تعرف أن البرية التي فيها أولادك مذابة ، وكيف لا ... وقد قلت أيضاً : (وأخاف أن يأكله الذئب) ثم كنت لا تأمن من إخوته عليه ، بل تخافهم ، كما يرمي لذلك قولهم : (ما لك لا تأمنا على يوسف ؟) وكنت متهماً لأولادك في أمره كما يشعر به قولهم : (وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين) هذا ما كان يعقوب (ع) سمعه بأذني قلبه من فم الهاقن ، وكأني به قد أجابه بقوله !

أيها الروح الطاهر ، اسمع معذرتي التي أتلو عليك : إنني استرسلت لأولادي لأنهم حلفوا لي مرتين ، إذ قالوا : (وإنا له لناصحون - وإنا له لحافظون) والمؤمن السليم القلب إذا سمع صدق ، فلذلك هان علي الاسترسال معهم ، وأيضاً لما خفف عني وطأة الخوف عليه ما أعلمه فيه من المواعيد المستقبلية ، فلماذا جرى ما جرى ، ليقض الله أمراً كان مفعولاً ، والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

حال اخوة يوسف عندما عرض أبوهم بهم بأنهم كاذبون

حينما سمع أولاد يعقوب قول أبيهم لهم : (والله المستعان على ما تصفون) فهموا ما وراءه من الإشارة لتكذيبهم ، ففرقوا عنه ، وهم سكوت صامتون لا يبدون حراكاً ، ولا يندثون بينت شفة ، سمعوا كلام أبيهم فسكتوا عليه ، ولم يتبرأوا عما أشار إليه ، فتحقق أنهم غير صادقين في نبأهم ، وردد في نفسه عندئذ معنى قول القائل :

ليس الفبي بسيد في قومه

لكن سيد قومه المتفابي

الغمز من قناة شمعون

لو كنت محل يعقوب (ع) لكنت أعطيت ذلك القميص للمقدام «شمعون»!!
القائد الكبير في تلك المعركة عملاً بشريعة : « من قتل قتيلاً فله سلبه » ، لأن
الأحوال تجعلني أظن أن ذلك « الذئب » هو هذا البطل !!

انتقاد يعقوب (ع) على عدم محبة عن ولده يوسف والرد عليه

وكأنني بيعقوب (ع) قد شبه له أنه سمع صوتاً يقول : يا يعقوب ، ما هو هذا
« الصبر الجميل » ؟... أتصبر على ظلم الظالمين ، وتسكت عن مكر الماكرين
وتسمى ذلك صبراً جميلاً ؟... مع إن إزالته واجبة عليك ، لا سيما في الضرر
العائد إلى الغير ! ولم تصبر على ذلك ؟... وكيف يجوز لك أن تصبر ؟... وأنت
تعتقد كذب أولادك ولم لا توغل في التفتيش ، وتبالغ في البحث ، سعيًا منك في
تخليص يوسف من البلية والشدة ، إن كان في الأحياء على ما تعتقد ، أو في إقامة
القصاص إن صح أنهم قتلوه ، ولم لم تطلب منهم جثثه ، أو بقيته - على الأقل -
حتى تصل إلى جلية الواقع وتقف على شخصية ما عملوا ؟... هاهي المسافة بين
« سيلون » وبين « دوثن » قريبة ، لا تزيد عن بضعة أميال ، وأنت رجل رحالة ،
متعود على الأسفار ، فلم لا تعمل لأجل تمحيص هذا الحادث الجلل ما هو اللازم ؟..
وعلى كل لعمرنا إن الصبر في هذا المقام مذموم ، بل هو صبر قبيح ، هو صبر مبني
على عدم العناية ، ومؤسس على القسوة . فكيف تسميه « صبراً جميلاً » ، وكيف
تسمى نفسك محباً لأولئك المظلوم الذي ضاع حقه بين ظلم الأعداء وكسل
الحجين ؟... !

أنت لم تنس رؤي ولداك ، ولم تنس أن الله أوحى إليك فيه ، أن الله سيحببته

ويعلمه ويتم نعمته عليه ، وليس مطلق إتمام ، بل كما أتمها على الإمامين الكبيرين إبراهيم ، وإسحاق ، فبحكم هذه البشائر السماوية ، أنت ترى أنه حي يرزق ، فلذلك وبالنتيجة كان يجب عليك أن تسعى في طلبه ، لا سيما أن مكانتك الشخصية ، ومكانة آبائك وبيتك ، مما يساعدك على ذلك الفحص ، فأهل العالم يعرفونك ويكبرونك ويمظمونك ، فلو تبالغ في الطلب والفحص ليظهر لك أمره ، وينجل فيه اللغز والأشكال ، ويزول وجه التلبس ، فكيف تسكت عن كل هذا ؛ وأنه غير جائز ، والغريب أنك تسميه « صبراً جميلاً » ؟!... يا يعقوب ، أنت تعلم أنه كثرة البحث عن الأمور تحقق الحق وتبطل الباطل ، ولذلك فالحقيقة بنت البحث وأن النار أخفيت في الحجارة ، فلا تستخرج منها إلا بالمعالجة والقيدح ، وأن طلبك لولدك من الواجبات ، فالصبر عنه ذم ، عقلاً وشرعاً وعادة وشهامة ، فكيف تدعو سكوتك هذا « صبراً جميلاً » ؟!...

أين ذكائك الذي كنت تعامل به أباك إسحاق وأخاك عيسو ، ثم خالك لابان ؟! هلا استعملت جانباً منه في هذه الحادثة ، حتي يتبين لك الخيط الأبيض من الخيط الأسود ، وحتى تكون قد قمت ببعض الواجب في البحث عن ابنك ؟!..

هذا ما كآني يعقوب (ع) كان يسمعه بأذني قلبه ، وكان يُحَدِّث به من حين لآخر .

وكآني به بعدما سمع هذا السؤال ، سكنت هنيهة ، ثم قال بينه وبين نفسه ، أو على قدر ما يسمع الهاتف :

أولاً « إن أولادي أقوياء ، فلا يمكنوني من الطلب والتفحص ، وأني لو أبحث وأفتش لربما يقدمون على إيذاء يوسف وقتله ، تحقيقاً لدعواهم ، فنقع فيما هو أشد وأشد .

ثانياً — إني أعلم وأناكد أن الله يصون ولدي عن الهلاك ، وأن أمره أخيراً سيعظم ، وسيكون له شأنٌ ذو بال .

ثالثاً — إني لا أريد هتك أسرار أولادي ، ولا أَرْضى بالقائهم في السنة الناس تلو كهم الأفواه كأنهم مضغة .

رابعاً — قريباً — وكل آت قريب — تتغير الوضعية ، ويظهر من الغيب لطف .

خامساً — ماذا أصنع ؟ والجرح في الكف ، ومصيبة الجزاء كمصيبة الجرم كلاهما فوق رأسي ، آه وأواه ! أنا اليوم في حيرة ، لأن أولادي تعدوا على أخيم وأنا ولي الجميع ، و« لابان ، خالٌ للجميع ، وبذلك وقعت في حيص بيص ، فإن لم أُنْتَقِم احترق قلبي على ولدي المظلوم ، وإن انتقمته احترق قلبي على هؤلاء الأولاد فماذا أصنع وجرحي في كفي ؟... والضربة على كل حال في رأسي ، وصدق قول الشاعر :

قومي هموا قتلوا أميتهم أخي فإذا رميت يصيني سهي

ولإن عفوت لأعفون جلاً ولإن سطوت لموهن عظمي

وأخيراً لما وقع هذا الحادث تفكرت ملياً ، فرأيت أن الأصوب الصبر والسكوت ، لا أقل ولا أكثر ، لأنني لا أقدر على أكثر من الصبر ، الذي هو ملجأ الضعيف ، ولهذا يحق لي أن أدعو صبري « صبراً جميلاً » .

المشاركون ليعقوب في حزنه على فقد يوسف

لم يكن يعقوب (م) هو الذي حزن على فقد يوسف فقط ، بل شاركه في ذلك « إسحاق » لأن يوسف كان حفيده المنظور ، وموضع رجائه في مستقبل الأيام والحازم من صبر على مضض الحياة .

وحزنت عليه أيضاً « بلهة » جارية أمه ، وكافلته بمدها ، وحاضته في خيمتها .

وبكاه بحق أخوه الأكبر « رأوين » الذي كان يريد أن يرده لأبيه ، وكان غائباً حينما أخرجته « السيارة » من الحب وسافروا به لمصر ، ورجع إلى الحب ، وإذا يوسف ليس فيه ، فمزق ثيابه ثم رجع إلى إخوته وقال : « الولد ليس موجوداً وأنا إلى أين أذهب ؟ » (تك ٣٧ : ٣٠)

وبكاه أخوه الأصغر « بنيامين » لأنه شقيقه ، وتمزيته الوحيدة بعد موت أمه ، وأنيسه الوحيد في خيمة الجارية بلهة .

وبكاه كل من عرف أدبه من أهالي فلسطين ، ولا سيما من كانوا اعتنقوا « دين التوحيد » بدعوة أبيه وجده عليها السلام . وعلى ذلك فقد وجد مشاطرون لأبيه في حزنه وهمه ، ولكن كان يعقوب قد أخذ من ذلك بالسهم الوافر .

(قال : بل سولت .: الخ)

— ٣ —

وقال اللوذعي الدمياطي :

السول والأمر والصبر

أيها السادة الأحبة : لي على هذه الآية بضع كلمات : راجياً سماعها :

معنى السول

الكلمة الأولى — إن لفظة « سولت » لطيفة لينة ، ولكن المعنى الذي فيها

جارج فهو كما يقول بعض المعاصرين في نظيره : « الكلام أثنى والمعنى ذكرك » ،
يقال سوّات له نفسه كذا : زينت وسهلت ، وسوّل له الشيطان : أغواه ، من
« السوّل » محرّكة ، وهو الاسترخاء ، وقد سوّل كفّرج ، والأسول من في
أسفله استرخاء . وسوّل له : سهّل له ركوب العظام ، ومن غرائب الاتفاق أن
هذه المادة لم تسند في كتاب الله إلا لثلاثة :

١ - للسامري الوثني ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وكذلك سوّلت لي
نفسِي ﴾ (٢٠ : ٩٦) .

٢ - لأخوة يوسف العشرة ، وذلك في قول يعقوب لهم : ﴿ بل سوّلت
لكم أنفسكم أمراً ﴾ (١٨ و ٨٣) .

٣ - للشيطان « في قوله تعالى : ﴿ الشيطان سوّل لهم وأملّى لهم ﴾ ،
(٤٧ : ٢٥) .

احساس يعقوب بمكيدة أولاده اجمالاً

الكلمة الثانية - نرى أباهم قال لهم : (بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً) فكأنه
كان يرى أنهم عملوا معه مكيدة ولا بد ، ولكن كان لا يراها إلا إجمالاً ، لأنها لم تعين
عنده صورتها ، إذ اشتبه في نظره شكلها واختلط ، وغمّ عليه أمرها واستعجم .

التشكيك في لفظة « أمراً »

الكلمة الثالثة - التشكيك في « أمراً » إما للتنظيم والتفخيم ، كأنه يقول :
أمراً عظيماً ارتكبتموه من يوسف ، وهوته عليكم نفوسكم ، أمراً ذا بال ، أمراً
من نوع الدهاء والخب ، أمراً فيه دسيسة ومكر .

أو للابهام ، فكأنه يقول : أمراً من الأمور المستورة ، أمراً تحت طي الكتمان
أمراً لا يعلمه إلا أنتم ويوسف .

معنى الصبر والصبر الجميل

الكلمة الرابعة — معنى « الصبر » تلقي المكروه بالاحتمال ، وكظم النفس عليه
مع الروية في دفعه ، ومقاومة ما يحدثه من الجزع ، فهو مركب من أمرين ، دفع
الجزع ومحاولة طرده ، ثم مقاومة أثره حتى لا يغلب على النفس ، وإنما يكون
ذلك مع الإحساس بألم المكروه ، فمن لا يحس به لا يسمى صابراً ، وإنما هو فاقد
للإحساس فيسمى بليداً ، وفرق بين الصبر والبلادة ، فالصبر وسط بين الجزع
والبلادة ، وهو من أهم الفضائل ، إذ يجعل الانسان ثابتاً لا يتملل ، فيسليه عن
الهم ويخفف ألم مصيبتيه ويدني منه بعيد الأمل ، قال تعالى : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ
بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ، وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ﴾
(٢ : ١٧٦) وقد ذكر الصبر في القرآن الكريم خمساً وتسعين مرة ، ولم تذكر
في القرآن فضيلة أخرى بهذا المقدار من العدد ، الأمر الذي يدلنا على عظمة
الصبر ، ومعنى كون الصبر « جميلاً » أنه لبق ، أديب ، محتشم ، لائق ، أو هو
الذي لا جزع فيه ولا فرج ، وليس فيه شكاية لمخلوق .

الباب الثالث

الفصل الأول

مُروج يوسف من الحب

آ (١٩) * وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ ، فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ ،
فَادْلَى دَلْوَهُ .. قَالَ : « يَا بُشْرَى ! هَذَا غُلَامٌ » ، وَأَسْرَوْهُ
بِضَاعَةً ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ *

افتتحت الجلسة وتليت الآية التاسعة عشرة ، فقام الشيخ
الكرمل^(١) وقال :

(وجاءت) من قبل المشرق (سيارة) ، رفقة تسير لمصر في سبيل التجارة
نزلوا قريباً من « دوثان » (فأرسلوا واردهم) وهو رجل يقال له « مالك بن ذعر
الخزاعي » ليطلب لهم الماء - والوارد هو الذي يرد الماء ليستقي القوم - جاء للجب
(فادلى) أرسل بواسطة الرشاء (دلوه) فتعلق يوسف ، فلما خرج (قال) الوارد
بلسان الفرح والسرور (يا بشري) ، فادى البشري كأنه يقول: تعالي فهذا أوانك ،
رآه جميلاً كأحسن ما يكون فقال يا بشراي (هذا غلام) - والغلام الطائر أي

(١) نسبة الى الكرمل قرب مدينة حيفا (فلسطين)

النايت الشارب ، والكهل ضد ، أو من حين يولد إلى أن يشب ، وغليم كفرح غلماً وغلمة بالضم واغتم غلب شهوة ، والغلمة شهوة الضراب ، واغتم هاج من ذلك « القاموس » - ثم ذهب به لأصحابه (و) تقمصهم شيطان الظلم والقساوة حيث (أسروه) أي الوارد وأصحابه ، أخفوه عن الرفقة ، حال كونه (بضاعة) أي متاعاً للتجارة (والله عليم بما يعملون) لم تخف عليه أسرارهم - وهو وعيد لهم حيث استبضعوا ما ليس لهم على حسب عوائد الهمج في استرقاق الأحرار - وسافر معهم يوسف عليه السلام إلى مصر ولسان حاله يردد قول القائل :

وما بعض الاقامة في ديار يهان بها الفتى الابلأ
وكل شديدة نزلت بمرء سيأتي بعد شدتها رخاء
ولم أر كامريء يدنو لخسف له في الأرض سير والتواء

(وجاءت سيارة .. الخ)

— ١ —

ثم قام الشيخ القليلي وقال :

القافلـة تخرج يوسف من الحب وتقوده معها الى مصر

لا يظنن القاريء أنا نسينا أحزان يوسف وهمومه ، ولم نبالك بما يقاسيه وهو في جبه من الوحشة والخوف ، فإننا لم نتركه إلا موقتاً ، ولذلك انترك الآن يعقوب ومن عنده من أولاده في « سيلون » ، ولتعد إلى « دوثلان » إلى الحب الذي فيها ، لنرى ماذا تم ليوسف بعد إلقائه في الحب ، وسفر فريق من إخوته عنه ، ورجوعهم لأبيهم :

كانت القوافل التي تأتي من الشام لمصر قديماً تجتاز « الأردن » جنوب بحيرة

طبرية ، فألى « بيسان » الى « جنين » الى « دوثان » الى « السامرة » وهي ببسطة الى « جلجولية » الى « يافا » الى « غزة » وقسد لا تأتي إلى يافا ، بل تذهب من جلجولية إلى « اللد » إلى غزة إلى « العريش » إلى صحراء « التيه » إلى أن تصل « مصر » .

وبعد بيان ما تقدم تقول إن إخوة يوسف بعد أن طرحوه في الجب ، ذهب فريق منهم إلى « سيلون » يحملون نبأ أكل الذئب إياه وقيصه الملوث بالدم إلى أبيهم وبقي فريق في « دوثان » يراقبون حركاته ، وماذا عسى أن يطرأ عليه ، وهؤلاء جلسوا ليأكلوا طعاماً ، فلم يمض غير قليل من الساعات ، حتى رفعوا عيونهم ، فبصروا بقافلة من العرب أو المديانيين أو الكنعانيين ، وقد أقبلت تلك القافلة تقطع الصحراء من وجه المشرق من « جلعاد »^(١) ، وجمالهم حاملة صمغاً وبيلساناً ولادناً ، ذاهبين لينزلوا بها إلى مصر ، فنزلت تلك السيارة قريباً من ذلك الجب ، ليستريحوا وتستريح دوابهم ، ولم يمض إلا دقائق بعدد الأنامل حتى أرادت العناية الإلهية أن ترفه عن يوسف ، فسخرت له من ليس من عرقه ، فأرسلوا من انتدبوه للسقيا ليرد على الجب ويأتي لهم بالماء لشربهم وشرب دوابهم ، فأدلى الوارد دلوه فغلق به يوسف ، فسجبه وأصعده من الجب ، ولما نظره رأى فتى كعمود الصبح فقال (يا بشرى هذا غلام) لعمرى قد صدت بحبلى ظيباً ، جاءني عفواً ، فرجع أدراجه ، وأتى رفقاءه ، وهو مشرق الوجه ، إشارة إلى فوزه بالثور عليه (وأمره بضاعة) إذ لم يكونوا - طبعاً - يعرفونه ، ولم يسألوه من أنت ؟ وهو - طبعاً - لم يكن رآهم من قبل ، ولم يخبرهم من هو ، فشأنه معهم شأن كل شخص غريب يثر عليه أو يخطف أو يقتصب ويدعى أنه عبد ويبيع كما هو الشائع الكثير في تلك العصور المظلمة ، ثم رحلوا به وساروا

يطوون البيداء ، ويتيممون العراء ، ووجهتهم مصر ، وقد حصل كل ذلك بين سمع وبصر إخوته الذين بقوا في « دوثان » قريباً من الجب ، كما كان ذلك كله بين سمع الله وبصره ، فقد كانت سبحانه مراقباً لسلسلة أعمالهم من مصادرتة - إلى جعله كسلة - إلى استرقاقه - إلى بيعه كأبي عبد زنجي غامض النسب ، فكان كل ذلك بمعرفته وعلمه وسماحه ، لحكمة قدرها وأرادها .

وأما يوسف فارتضى أن يسير معهم ، بدون أدنى مقاومة أو حيلة ، تخلصاً من إخوته الذين هم أشد خطراً وأعمق جرحاً من مصيبة بعده عن وطنه ، فالغربة مرة المذاق ، ولكن شر إخوته وكيدهم له أدهى وأمر ، والمثل يقول : « سئل واحد : ما الذي أحوجك إلى المار ؟ - فأجاب : الذي هو أمرٌ منه » ، ولذلك فهو يصدق عليه قول القائل :

عجبتى تقتضي مُقامي وحالتي تقتضي الرحيل

هذا ما كان من شأن يوسف وأفكاره ، وأما ما كان من شأن إخوته وأفكارهم ، فانهم فرحوا بما أخذ لمصر فرحاً شديداً ، واعتقدوا أن قضيتهم ناجحة موفقة قد استجمعت كل عناصر الفوز والظفر .

الرد على من اعترض على يوسف بعدم تملصه من القافلة ولحاقه بأبيه

ورب معترض يقول : إنه كان يمكن ليوسف أن يتملص من هذه القافلة لأنه كان من جهة ابن (١٧) سنة ، ومن جهة أخرى كان ولم يزل في وسط بلاده الفلسطينية ، بين معارفه ومعارف أبيه وجده وأسرته ، ولكن الذي يظهر أنه كان يتخوف من عمله على الهروب لأبيه أن تلحق به إخوته ضرراً أعظم وكيداً أشد ، وأن عيشته بين إخوته كانت مهددة بالأخطار وليست بالعيشة الراضية ، فلما حصل هذا الحادث خضع له ولم يعمل أدنى مقاومة .

حرص يوسف على انتهاز الفرص وشواهد عليه

والذي يظهر أيضاً أن يوسف كان حريصاً جد الحرص على انتهاز الفرص متى منحت له ولنا على ذلكم الشواهد الآتية :

الشاهد الأول — هذه الحادثة التي نحن بصدددها، فهو حينما أخرج من الحب وأخذ كأسير، لم يأت من المقاومة شيئاً ، بل انتهز فرصة البعد عن إخوته المناوئين له المتألبين عليه ، وفضل الجلاء عن فلسطين بلاد البـداوة والتوحش إلى بلاد الحرية والتمدن والأمن ، فاستخذأ « للسيارة » ورافقهم لمصر لا يلوي على شيء (ع ١٩) .

الشاهد الثاني : — لما سأله الفتيان عن رؤياهما فقبل أن يعبر لهما ، انتهز الفرصة وشرع يدعوها للتوحيد ، ويمعظهما في الدين (ع ٣٧ — ٤٠)

الشاهد الثالث : — بعدما عبر رؤيا رئيس السقاة ، بما فيه سلامته وقرة عينه، ثم أراد الرئيس أن يخرج من معتقله ، تقدم إليه يوسف بالرجاء أن يشفع له عند الملك «الريان» ، وفعلاً إن رئيس السقاة نفعه وخدمه ، ولكن بعد حين (ع ٤٢ و ٤٥) .

الشاهد الرابع : — لما سئل يوسف عن تعبير رؤيا الملك ، وأدى واجبه بالجواب عن الرؤيا ، افترض الفرصة ، فأتى بما لم يسأل عنه ، وعرفهم ماذا يجب أن تعمل الحكومة الهكسوسية ، وبين لهم طريق السياسة وسبيل الاقتصاد (ع ٤٧ — ٤٩) وكان هذا لأجل أن يصير له شأن وذكر حسن لدى ملك مصر ورجال بلاطه ، وقد كان .

الشاهد الخامس : — لما جاءه سفير الملك آمراً له بالخروج من معتقله وأحسن

بأن الملك أحبه وتوجه عليه بالنظر ، ووثق به ، افترس أن توجه الملك عليه لابد أن يكون قد حكى في قصور أمراء مصر ، وأن كل من كان كذلك ، كان حقيقاً بأن يكون مهيب الجنب ، بحيث لا يتكلم فيه سوى الحقائق - فنظراً لهذا كله - انتهز الفرصة فأبى الخروج من المعتقل إلا بعد التحقيق ، وبعد سؤال السيدات المصريات ، لأنه بتوجه نظر الحكومة عليه ، يكون قد أمن غائلة هؤلاء النسوة ، فلا يتكلمن فيه إلا بالحق ، فيخرج من المعتقل ناصع الجبين (ع ٥٠) .

الشاهد السادس : - حينما مثل بين يدي الملك ، ورمى الملك له تلك الإشارة ورمز له بذلك الرمز ، الذي يشير إلى أن الملك أزمع على إسناد منصب ما ليوسف في البلاط ، فاكسب الفرصة وتوآ تقدم إلى الملك بتعيين وتشخيص المنصب (ع ٥٤ و ٥٥) .

الشاهد السابع : - لما جاءه اخوته لمصر للمرة الأولى انتهز الفرصة وعمل معهم كل الأعمال التي تقتضي رجوعهم لمصر بأخيه بنيامين (ع ٥٨ - ٦٢) الأمر الذي هو كل ما يتمناه ، لا أقل ولا أكثر .

الشاهد الثامن : - لما رجعوا بأخيه بنيامين ، اكتسب الفرصة وعمل تلك المكيدة التي تقتضي بقاء بنيامين عنده (ع ٧٠ - ٧٢) .

الشاهد التاسع : - طلب إتيان إخوته وأهليهم أجمعين لمصر منتهزاً الفرصة بذلك ، لكي يكونوا تحت نظره ، ويعيشوا تحت رعايته ، بعكس ما فعلوا معه سابقاً منذ ٢٣ سنة ، وليس يوجد ألد للنفس وأشهى للقلب من ذلك العمل ، وأيضاً لكي يظهر لهم من مكارم أخلاقه مقدار ما أظهروا هم له من سوء أخلاقهم ، وثالثاً احتساباً لوجه الله وصلة للرحم ، ومقابلة للسيئة بالحسنة ، وبضدها تمييز الأشياء .

وعلى الجملة فيوسف أجرى ما أجرى من هذه الأمور التسعة ، إما مهاشة للطبيعة الاسرائيلية ، لأن الاسرائيليين ، عموماً منذ القدم إلى اليوم هم حريصون على انتهاز الفرص ، قال الشاعر :

وانتهز الفرصة إنَّ الفرصة
تصير إنَّ لم تنتهزها غصة

وإما لكون ما أجراه هو مقتضى العقل والكياسة ، وبالأجمال إن يوسف كان قوي الإرادة في كل شيء أراده ، وكبير النفس في كل شيء رام أن يتعاطاه ، وكان يوسف بعدما خرج من سجنه ، وجلس على أريكة وزارة المسال بمصر صار السعد خادماً له فكان يميل إرادته على الزمان ، والزمان يواتيه ويفعل ما عليه عليه.

(وجاءت سيارة .. الخ)

— ٢ —

وقال الاستاذ راشد البعلبكي :

يوسف بين يدي « السيارة »

بينما يوسف يفكر في ضيقه ، وما أشكل من أمره ، إذا فرج الله له على طرف التمام ، وأقرب إليه من ظله ، فقد وردت « سيارة » سخرها الله تعالى لتكون الواسطة الوحيدة في إخراجه من الجب ، وكانت هذه القافلة قد جاءت من المشرق لأنه كان يوجد اتصال تجاري واقتصادي بين الأمم الشرقية والمملكة المصرية الجنوبية ، فكثروا غير بعيد ، وللحال أرسلوا واردهم ليأتي لهم بالماء ، وبينما يوسف ساكت ساكن ، يفكر في حاله ، سمع وقع أقدام وصوت إنسان ، فوجه انتباهه إليه ، وجعل قلبه يخفق بشدة وسرعة ، إذا بصدى ذلك الصوت يتماظم شيئاً فشيئاً ، ويقترّب نحو الجب ، فتطاول يوسف لباب الجب ، فنظر وارداً يرد الماء

ليستقي لقومه ، أرسل رشاء فيه دلو ، فتعلق به يوسف قائلاً : يا رجل : انشلي رحمك الله ، فنشله ، فرآى صبياً قد أبرقت أسارير وجهه ، فكان هذا الوارد كموسى ، (ع) ذهب ليأتي بقبس من النار ، فأتى بنور النبوة ، فاستبشر وارد القوم استبشاراً يمازجه استغراب وجود فتى جميل كهذا الفتى في وسط الحب الذي هو في صحراء قفراء ، لا يمر بها أحد إلا الرعيان والقوافل ، وصرخ بنعمة الظافر : يا بشرى وألف يا بشرى (هذا غلام) في ربيع العمر ومقبل الشباب ، أنا سعيد به اليوم — ثم أخذه الوارد واسمه مالك بن ذعر الخزاعي ، ورجع به لقومه — ولما صار بين يدي هؤلاء «السيارة» التجار ، نظروه فاعجبوا به ، وكأني بهم قد أدنى بعضهم فيه من أذن الآخر قائلاً بصوت خافت : لعل هذا الغلام من أبناء الملوك ، وقال آخر : لعله من أبناء التجار المنغمسين في الترف والرفاهية ، وقال ثالث : بل لعل هذا الفتى من الممالك الذين يجلبون من بلاد الكرج ، وقال البعض منهم : كأن هذا الخلق ملك على ملائكة السماء ، ولأمر ما نزل الى الأرض وأخذ صورة بشر ، ثم اتفقوا على أن يجعلوه من جملة العروض التي يريدون بيعها في مصر بشكل سري خوفاً من عرقلة مرامهم من بيعه ، لو أظهروا أمره للناس الذين معهم في القافلة ، وكانت هذه الطريقة ، وهي جعل القوافل كل ما وقع تحت يدها من الغرباء الضعفاء سلعة بيع — تقول كانت طريقة مسلوكة لهم قديماً ، كما وقع «لسليمان الفارسي» رضي الله عنه .

وكأني بيوسف قال لهم عند ذلك : « كل ما قلتموه لم يكن » . ولكني من فلسطين ، جيء بي الى هذا الحب ، فأوقعني الاقدار الإلهية في غياهبها ، فصبرت على قضاء الله وقدره ، حتى أتاح الله سبحانه مروركم ، واستقضاءكم من الحب ، فرأيتموني فنشلتُموني ؛ هذه حادثتي بصورة مختصرة ، وأما أنتم فما شئتم فافعلوا معي ، فإن الفعال هو «الألوه شدائي»^(١) ، وقد رضيت بكل ما يأتي علي .

(١) لفظة عبرانية معناها « الإله القوي »

ما أبرمه سبحانه في سابق علمه ، لا أعتزكم ولا أتماضي عليكم ، فقد صرت بين أيديكم كأسير ، والله الأمر من قبل ومن بعد .

ولم يطلق يوسف لنفسه العنان في بيان ترجمة حاله الشخصية والعائلية ، إذ رأى أن لا فائدة له من ذلك لأنهم أعراب أو مديانيون أو كنعانيون ، لا يهتمون بأمر يعقوب ولا إسحق ، ولا يقدرّون هذه الأسرة الاسرائيلية حق قدرها ، ولا يتعرفون إليها ، ولأنه يعلم أنه لو سعى في رجوعه لأبيه لمامله إخوته بما هو أشد وأنكى ، وربما قضوا على حياته ، ففضل البراح والبعد عن البيئة التي تجمه باخوته ، وفضل الغربة على الاقلمة في الوطن ، إذا كان فيه تخوف على النفس والحياة ، كالقائل :

رُبَّ هجر يكون من خوفِ هجرٍ وفراق يكون خوفَ فراقٍ
أو كالقائل :

لا تصبوتُ إلى وطنٍ	فيه تضام وتُمتَن
وارحل عن الدار التي	تُعَلّي الوهادَ على القُنن
واربأ بنفسك أن تُقيمَ	بحيث يخشاك الدرن
وجِبِ البلاد فأثبها	أرضاك فاختره وطن

أو كالقائل :

وإن نبتَ بك أوطانٌ نشأت بها
فأرحل فكل بلاد الله أوطان
وإن جفالك أخٌ قد كنت تألفه
فاطلب سواه فكم في الأرض إخوان

لسان حال يوسف مودعاً وطنه وأهله وهو مع «السيارة»

وعلى ذلك ذهب يوسف معهم ساكتاً ساكناً واجماً ، تنطق دموعه بما صمت عنه لسانه ، يعالج الداء بالداء ، ويفرم من هم إلى هم ، ومن قضاء إلى قضاء ، فقاموا راحلين به للديار المصرية ، وكأني به حينئذ بين حدود فلسطين وحدود مصر قريباً من « رَفْع » ، التفت شمالاً فرآى فلسطين ماثلة أمامه ، فألقى عليها نظرة واجمة ، ثم قال :

إن مجاورة الأعداء المتألبين ، ومخالطة الخصماء المناوئين ، غدر بالنفس حتى ولو كان الوطن طيباً والعيش نضراً ، فكيف والوطن بادية ، ومدار معيشتنا رعي الغنم ، وإن العاقل لهو حقيق أن تكون همته مصروفة إلى ما يحصن به نفسه من نوازل المكروه ، ولواحق المحذور ، وإلى ما يدفع الخوف لاستجلاب المحبوب ، وإن معاشرة الحسدة والمصاحب لهم ، لهو كراكب البحر ، إن هو سلم من الفرق ، لم يسلم من المخاوف ، وإننا لنرى أن الدواب قد خُصّت في طبائعها بتوقي المكروه ، واكتساب ما فيه المنفعة ، ولذلك لم نرها تورد أنفسها مورداً فيه بوارها وهلكها ، وأنها متى أشرفت على مورد مهلك لها ، مالت بطبائعها التي ركبت فيها ، شحاً بأنفسها وصيانة لها إلى النفور والتباعد عنه .

ثم استقبل « دوتان » وقال :

الوداع أيها الإخوة الذين طردوني وشردوني من بينهم ، وأبعدوني عن أبي الشيخ الجليل ، وعن أخي الوحيد اللطيم ، ولم يزودوني لقمة واحدة أتبلغ بها في طريقي ، ولا كلمة طيبة آنس بها في مطارح غربتي ، وإنكم قد ألقيتُموني هذه المرة في الحب ارتكاباً لأخف الضررين المناسب لِسْنِي ، فأخاف لو رجعت وبقيت على ما أنتم عليه من العدا والمناوأة أن تلجأوا لاستمهال أشد الضررين !

ثم استقبل « سيلون » وقال :

الوداع أيها الوالد المحب المخلص ، الوداع أيها الشيخ الجليل ، فقد كنت محباً لي جدت الحب ، ولصحتك متغلب عليك من أولادك المستبدين ، فالتسكني معك محفوفة بالخطر ، فالسباق السباق لمصر ، واللاحاق اللاحاق لدار الحرية والأمنية ، والسلام عليك ورحمة الله .

قال ذلك ، ثم سار مع الراكب ، وقد أبغض فلسطين واجتواها وفارقها نائماً على أهله وأهلها ،

وكأنني بهذا الراكب حينما دخلوا مصر إلى « سوق بيع الرقيق » أجلسوه مع ذكران العبيد من بيض وسود وحمير ، فعرف إذ ذاك أنهم أزمعوا على بيعه ، ففزع إلى ربه ، ودعاه أن يعينه على أمره هذا « الجديد » ويجعل نصيبه عند رجل أمين .

وما فعلته « السيارة » من أخذ يوسف معهم كرقيق سنة قديمة عند جميع الأمم ، فقد كان التجار وغيرهم من الروم والقوط يسطون على قبائل البربر ، فيخطفون الأطفال والفلسان ويحملونهم إلى الآفاق يتجرون ببيعهم ، كما كانوا يتجرون ببيع الغلمان البيض ، من أهل اسبانيا وغيرها .

المشاهون لحالة يوسف (ع) في الرق

ويسرني أيها السادة قبل أن أختم خطابي هذا أن أقول ما أشبه حال يوسف « بدانيال » عليها السلام ، فيوسف أسر من فلسطين لمصر سنة ٢٣٢١ ق. ن ثم عبر رؤيا ملك مصر سنة ٢٣٣٤ ق. ن ، وكانت وفاته بمصر سنة ٢٤١٤ ق. ن ، ودانيال أسر من فلسطين لبابل سنة ١١٧٥ ق. ن وفسر رؤيا نبوخذ نصر سنة

١١٧٢ ق . ن ثم كانت وفاته بالعراق ، وكما تذكر يوسف حادثة دانيال قبله ، فإننا نذكر به أيضاً حادثة (ياقوت الحموي) بعده ، أعني صاحب «معجم البلدان» فإنه نشأ أسيراً ، أسر من الروم وبيع في بغداد فاشتراه تاجر يعرف بـ (عسكر الحموي) واليه نُسب فقيل : ياقوت الحموي ، قرأ شيئاً من النحو والصرف وولع بالأسفار في سبيل التجارة ، فبرز ونبغ في علم «تقويم البلدان» الذي يعبر عنه أهل اليوم بالجغرافية .

وتذكر بحادثة يوسف أيضاً ، حادثة (سلمان الفارسي) حيث ادعى بعض المسافرين معه استرقاقه ، فباعوه في المدينة المنورة ، ثم أسلم واشترى نفسه ممن تملكوه ، وصار من أفاضل الصحابة المحترمين .

(وجاءت سيارة .. الخ)

— ٣ —

وقال الأديب الحلبي^(١) :

لبسبح لي السادة أن أوضع معنى بعض مفردات هذه الآية الكريمة :

معنى «السيارة»

١ — معنى «سيارة» ركب ، ويقال عنها «قافلة» ، ومعنى الألفاظ الثلاثة رفقة سائرون ، هذا هو المعنى المعروف قديماً وحديثاً لهذه اللفظة ، وما زال معروفاً لم تنكره الحياة الحاضرة ولم يندثر بعسده ، ولكن الذين يعرفون شيئاً عن الحياة

(١) نسبة الى الحلة من بلاد العراق .

الصوفية يعرفون «السيارة» بمعنى الطائفة من أهل طريقهم تسير وأمامها علمها .. وأما عند أهل اليوم المتعدين فيطلق لفظ «السيارة» على ما يدعى بالانجليزية «أوتوموبيل» .

معنى «الوارد»

٢- كان اسم هذا «الوارد» فيما قيل «مالك بن ذعر الخزاعي» ، قالوا : هو رجل من العرب دميم الخلقة قذر الثوب ، تقذى به النواظر وتتقزز منه النفس ، فسبحانك اللهم ما أخفى حكمتك ، قرد يصيد غزالاً ؟!!! ولمعري لو لم يفعل هذه الفعلة السوأى لم يعلم به أحد ، ولو لم يرد على هذا البئر ، لم يكن في ورود ولا صدر ، ولكن هذا العمل الخبيث هو الذي أنتج هذه الشهرة ، فمثل كمثل رجل من غمار الناس ، ليس له اسم ، سحج فأحب أن يكون له شهرة وصيت ، فجاء وبال في بئر زمزم بمراى من الواقفين ، وقال لهم أنا فلان ، فطار اسمه في الآفاق ، والله في خلقه شئون !

فاء السرعة في قوله «فأرسلوا» ، «فأدلى»

٣- التعبير بالفاء في قوله «فأرسلوا» وقوله «فأدلى» يشير إلى السرعة في هذا الأمر ، بمعنى أنهم جاءوا وتوياً أرسلوا واردهم ، ولم يتأخروا عن إرساله فواقاً ، وهو ذاهب توياً إلى الجب وأدلى دلوه ، ولم يتأخر عن إدلائه فيه فواقاً ، وهذا من لطف الله تعالى بيوسف ، إذ سخر له عبيده ، واستخدمهم في سرعة إخراجه ، وإذا أراد الله بعبد لطفاً ، فسرعان ما يسخر له كل الأسباب التي تلتطف ما حل به من المقدور ، رحمة منه تعالى .

« يا بشرى »

ع - قوله « يا بشرى » أسلوب من أساليب الكلام العربي والعبراني ، يعبر به الانسان عن شعوره واغباطه بما رآه ، ولم يكن وارد القوم أكثر سروراً بيوسف ممن سواه من كل من رآه فيما بعد .

اللقاب يوسف

ه - لفظة غلام في قوله « هذا غلام » هو أول لقب لُقِّب به يوسف في بدء غربته وهو في دوثان ، لقبه به مالك بن زعر الخزاعي . وقد لقب بعده بألقاب عدة ، منها لقب « مُخْلِص » لقبه به المولى عز وجل وهو في مصر إذ قال : ﴿ إنه من عبادنا المُخْلِصِينَ ﴾ ومنها لقب « فتى » لقبه به النسوة المصريات إذ قلن : « تراود فتاه عن نفسه » وذلك قبل أن يرَبِّنَه ، ومنها لقب « ملك كريم » لقبه به أيضاً نسوة المدينة بعدما رأينَه .

ومنها لقب « الصديق » لقبه به رئيس السقاة ، وهو في سجنه . ومنها لقباً « مكين أمين » لقبه بها ملك مصر الريان ، بعد براجه السجن .
ومنها لقباً « حفيظ عليم » وقد لقب هو نفسه بهما ، ترجمة حال نفسه عند الحكومة .

ومنها لقب « العزيز » لقبه به إخوته ، تبعاً للحكومة المصرية التي — طبعاً — لا بد أن تكون قد وجهت عليه هذا اللقب ، فكان « عزيز مصر » تحت سلطة مليكها الريان .

فيكون أول لقب وجه على يوسف في بدء محنته « غلام » وآخر لقب وجه عليه في بدء إشراق سعده « عزيز مصر » .

الدلو

٦ - لم يذكر لفظ « دلو » في كتاب الله تعالى إلا هنا ، كأن الله جل جلاله إنما أزل « الدلو » في هذه السورة مساعدة ليوسف ، حتى يتعلق به ويخرج من جبه .

الفصل الثاني

بيع يوسف (ع)

آ (٢٠) (وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ !
وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ !).

افتتحت الجلسة وتليت الآية العشرون فقام السيد جمال العكاري^(١) وقال :
(و) لما وصلوا مدينة « منف » وذلك سنة ٢٣٢١ ق . ن (شروه) أي باعوه فيها لعزير مصر (بثمان) اسمي (بخس) مبخوس ناقص عن قيمة يوسف نقصاناً ظاهراً ، أو زيف ناقص الميار (دراهم) لا دنائير (معدودة) قليلة تعد عدداً ، ولا توزن ، لأنهم كانوا لا يزنون إلا ما بلغ الاوقية ، وهي الأربعمون ، ويمدون ما دونها ؛ وقيل للقليلة « معدودة » لأن الكثيرة يمتنع من عدّها لكثرتها ، ومن التعبير بالقلة عن العدد الدعوة الماثورة على الكفرة : « اللهم أحصهم عدداً » ، وقيل كانت عشرين درهماً (وكانوا فيه من الزاهدين) ممن يرغب عما في يده فيبيعه بما طف من الثمن ، لأنهم التقطوه ، والملتقط لاشيء متهاون به ، لا يبالي بمباعه ، ولأنه يخاف أن يعرض له مستحق ينتزع منه من يده ، فيبيعه من أول مساوم .

(١) عكار احدى بلاد الشام (لبنان)

بأوكس الثمن ؛ فإخوة يوسف وقموا في الجريمة وتحت غضب أبيهم ، ويوسف ذاق من جراء ذلك الصاب والعلقم ، وعزير مصر الأجنبي أخذه لقمة سائغة أته دون تعب ولا نصب .

(وشروه بثمان بخص ... الخ)

— ١ —

وقال الشيخ اسماعيل الصيداوي^(١) :

ليسمح لي السادة الأفاضل أن أذكر نبذة عن أسواق الرقيق في تلك العصور قبل الكلام على الآبة الكريمة فأقول :

اسواق الرقيق

كان يوجد قديماً في الممالك الكبيرة كمصر أسواق تسمى « أسواق الرقيق » ، يأتون فيها بالرقيق الأبيض والأصفر والأحمر والأسود من الجوارى والغلمان على اختلاف القدود واللغات والأسمان ، يستجلبونهم من أقاصي بلاد الترك والروم والكرج والخزر وطبرستان وخراسان والسند والمغرب والبربر والحبس ، يأتي بهم النحاسون أولاً ، إما بطريق الغزو أو بطريق الشراء من والديهم أو بعض أقاربهم بثمان زهيد ، ثم يبيعونهم لتجار الرقيق ، هؤلاء التجار يسوقونهم كالأنعام إلى « سوق الرقيق » مشدودي الأيدي بعضهم يبيع بالأمراس لبيعوهم بدورهم أيضاً ، وهذه « السوق » هي سوق عمومية يجتمع إليها الناس من أقاصي البلاد ،

(١) نسبة الى بلدة صيدا من بلاد الشام (لبنان) .

لشراء الرقيق أو اشتراؤه أو للمبادلة والمقايضة ، وبحول هذه السوق مور ، بعضه من الخشب ، وبعضه من الأحجار ، فيدخل التجار السوق مع الرقيق ، ويقفلون بابه ، وحينئذ يحلون أيدي الأرقاء من الأمراس ، ويجعلون الذكور في جهة ، والانات في جهة ، وربما أفردوا من يكونوا صغير السن جميلاً ، فيخصونهم بحبة على حدة ، فيأتي المشترون فينظرون اليهم ويفحصونهم ، يأمرهم بفتح أفواههم ، فتفحص أسنانهم ورائحة حنكهم ، وينظرون في عيونهم وآذانهم وأنوفهم ، وأيديهم وأرجلهم ، ويسومونهم ، ومتى تمت صفقة البيع ، أخذوا العبد واستخدموه فيما يشاؤون ؛ من رعي غنم أو حرث أو زرع أو غرس ، أو خدمة في بيت ، إلى غير ذلك ، وكان تجار الرقيق قديماً ، إذا وقفوا على جارية جميلة ، أو غلام جميل ، أنفذوا بعض السماسرة إلى دار الحاكم أو الأمير أو فلان الثري ، يسمون في ترويج تلك السلع ، وكثيراً ما يكون الوسيط بالسمرسة بعض المقرين من بطانة الحاكم أو الأمير ، ممن يحبون الكسب من هذا السبيل ، ولعل وقوع يوسف ليد « عزيز مصر » المدعو « فوطيفار » كان يعض هذه الوسائط .

يوسف في سوق الرقيق

حينما أخذت « السيارة » يوسف من الحب وأسرتته بضاعة ، ساروا به يطوون البيداء ، لا يلوون على شيء ، حتى وصلوا مصر ، ولم يصبروا إلا فواقياً ، حتى دخلوا به « سوق الرقيق » وكان لابساً أمتالاً بالية ، ولا نخاله عند ذلك إلا قد « تكهرب » وتألم وحزن حزناً شديداً ، وحيث رأى نفسه بين الزوج . فكان جالساً بهيئة محزنة مؤثرة ، تستثير الأشجان ، وتستدرف الدموع ، ولو لا علمه بمواعيد الله له ، لقضى أسمى من وقوفه ذلك الموقف . وقد كان ليوسف إذ ذاك

فكرتان تتصارعان ، فكرة حاله الظاهرة ووقوفه موقف الذل والهوان ، وفكرة حاله الباطنة ، ومواعيد الله له بالرقى إلى الأوج الأعلى ، فكان عند الفكرة الأولى يحيش صدره ، ويبكي بعينيه ، وعند الفكرة الثانية يضحك في قلبه ويطمئن .
وبينما هو كذلك ، إذ بالقافلة تسلمه لنهار «عزيز مصر» الذي اشتراه منها ، فنزل حادث الشراء على نفسه ، نزول الجرة على تأمور القلب ، وتخيّل عندئذ كأنما سهم رائش أصمى كبده ، إلا أنه تماسك ريثما يخار الله له ما يشاء من الفرج ، فسلم أمره لله ، وذهب لبیت «عزيز مصر» يعالج داء بداء ، وينتقل من ذل إلى ذل !

ابضاح مفردات الآية

وبعد ذكر ما تقدم سأبين لكم معنى قوله تعالى «شروه» ثم عود الضمير في «شروه» والتحقيق عن من باع واشترى يوسف ثم معنى «ثمن بخس» وكم هو هذا الثمن .

معنى «شروه»

١ - فعنى قوله تعالى «شروه» باعوه ، وتنازلوا عنه وبذلوه ، ضد «اشروه» التي تفيد معنى الأخذ ، قال تعالى ﴿ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢ : ١٠٢) أي باعوها ، وقال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ ﴾ (٢ : ٢٠٧) أي يبيعها ويذلها في الجهاد ، وقيل : يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حتى يقتل ، وقال تعالى : ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ﴾ (٤ : ٧٣) أي يبيعونها وقال الشاعر العربي :

شَرِيتُ بُرْدًا وَلَوْلَا مَا تَكَنَّنْتَنِي

من الحوادث ما فارقتُهُ أبدا

ومنه تسمية (الخوارج) الذين خرجوا على الإمام عليّ كرم الله وجهه
(الشراة) أي الذين باعوا أنفسهم - في زعمهم - لله ، ويقال في اللغة : جدّعه
وشراه ، بمعنى شق أذن عبده وباعه .

عود الضمير في «شروه» والتخفيف عن من باع واشترى يوسف

٢ - الضمير في «شروه» هل هو عائذ على إخوته ، أو عائذ على السيارة ؟
في الأمر قولان : الأول مروى عن ابن عباس (ض) ، ومعناه أن إخوة يوسف
باعوه للسيارة ، وأصل ذلك في سفر التكوين (تك ٣٧ : ٢٨) وليس من مصدر
آخر لهذا القول غير توراة اليهود التي بين أيديهم ، ولا يوجد حديث صحيح في
هذا الموضوع يؤيد رواية التوراة أو يضعفها .

والقول الثاني يتبين من ظاهر الآية :

أ - إن الضمير في «شروه» عائذ على السيارة ، لأنها
أقرب مذكور ، وإنما أعاد الضمير عليها مذكراً ، لأنها بمعنى الجمع
أو القفل أو الرجال المسافرين ، ومما يؤيد رجوع ضمير «شروه» للسيارة ،
رجوع الضائر قبله إليها في قوله « فأرسلوا » وقوله « وأسروه » فعود الضائر مرة
على السيارة ، ومرة على الإخوة ، يوجب تعقيداً في التركيب ، وبالنتيجة يجب
المشي مع الظاهر ، وإجمال هذه الرواية عن ابن عباس ، والله أعلم .

ب - إن الله تعالى يقول (شروه ، واشتروه) ، فإذا الصفقة واحدة
لا ثاني لها .

ج - إن الله تعالى علم أنه سيأتي قوم يفهمون غلطاً تبعاً لتوراة اليهود ، فيقولون
إن الذين شروه هم إخوته : شروه للسيارة ، وبالطبع اشتريته منهم السيارة وكانت
صفقة هذه المقايضة في فلسطين ، فلأجل دفع أو رفع هذا التوهم ، أقحم الله تعالى
اللفظ (من مصر) ، ليدلنا على أن الحادثة واحدة ، لم يُشترَ ولم يُشترَ إلا مرة

واحدة ، فالشارون هم جماعة السيارة ، والمشتري هو عزيز مصر ، والحادثة لم تكن في فلسطين بل في الديار المصرية ، فهذه قرائن ثلاث تدلنا على صحة ، بل تعيين ، ما فهمنا (والحمد لله) وتبعد أو تحيل ما فهمه المفسرون ، وإن عزوه لابن عباس .

التمن البخس وما هو وكم هو

٣ - ومعنى « تمن بخس » أي تمن نزر ، تافه ، مألوت ناقص ، وإنما قنعوا بالتمن البخس لأنهم لم يدفعوا في مشتراه فلساً واحداً :

ومن أخذ البلاد بغير حرب يهون عليه تسليم البلاد

ولخوفهم من هروبه وتخلصه منهم ، ولكونهم لا يعرفون قدره ومنزلته ولا ابن من هو ، فكانوا كالرجل الجاهل الذي سرق ياقوتة ، وكان لا يعرف ما هي ، وكان خائفاً من أصحابها ، فباعها بخززة لا تساوي إلا دراهم يسيرة ، مع أن الياقوتة ثمينة ، لو وقت في يد عارف بها لأصاب بثمنها غنى الدهر .

٤ - ما هو هذا التمن البخس وكم هو ؟ كان « دراهم معدودة » ويعلم أنها كانت أقل من أربعين ، وذلك لأن الناس في ذلك الزمن كانوا يتبايعون بالأواق ، وكانت الوقية أربعين درهماً ، فما قصر عن الوقية فهو بالعدد .

أو يقال « معدودة » كناية عن كونها قليلة ، ومن التعبير عن القلة بالعدد الدعوة الماثورة على المشركين « اللهم أحصهم عدداً » فالدعوة به وإن كان إحصاؤهم عدداً في الظاهر ، إلا أن هذا ليس مراداً ، لأن الله تعالى أحصى كل شيء عدداً ، وأحاط به علماً ، فلا بد من مقصود وراء ذلك ، وذلك المقصود هو — لازم العدد وهو القلة ، فلما كان كل قليل معدوداً وكل كثير غير معدود ، دعا عليهم

بالقلة معبراً عنها يلزمها وهو الإحصاء، هذا ما قاله العلماء وقرره أحمد الاسكندري في حواشيه على الكشف، وهو جيد، ولنا في ذلك وجه آخر، وهو أن هذه الدراهم كانت مقصورة الأطراف، لأنهم كانوا قديماً (كما هو اليوم) يتعاملون بالدراهم عدلاً لا وزناً، فكان يوجد مجال كبير لقليلي الأمانة (وكثير ما هم) أن يأخذوا من أطراف الدراهم، كما أن أهل عصرنا الحاضر يسحبون، والدائبر، والناس عند ذلك يحرصون على المعاملة بالمد دون الوزن، لأنه أربح لهم، فيكون المعنى الذي يرمي إليه اللفظ، انه ياليت أن هذه الدراهم التي بيع بها يوسف، كانت صحيحة سليمة من النقصان حتى توزن وزناً، بل كان يغلب عليها النقصان، ولهذا عدت عدلاً.

وقد كانت هذه الدراهم عشرين درهماً من الفضة، وكان الدرهم يساوي إذ ذاك (١٧) غرشاً، فكانت قيمة ذلك نحو (٣٤٠) غرشاً، وهي قيمة بخسة زهيدة جداً بالنسبة لأثمان العبيد والجواري الذين كانوا يباعون وبشرون بقيم تبلغ أضعاف أضعاف قيمة يوسف، سواء في تلك العصور أو فيما بعدها، ولو أردنا سرد أثمان العبيد والجواري في عهد الدولة العباسية والأموية لطال بنا الشرح والبيان، وقد كانت الفضة في تلك الأيام أثمن منها اليوم، ومع قلة هذه القيمة، فبائنوا يوسف رأوا أنهم بهذا البيع وهذا الثمن فازوا بصفقة رابحة، فواضيعته! يا يوسف!

(وشروه بثمن بخس ... الخ)

— ٢ —

وقال الشيخ محمد أحمد علماء أم درمان (السودان) :

الاسترقاق قبل الاسلام وفي الاسلام

قضي على البشر أن يستعبد بعضهم بعضاً من قديم الزمان، فلم تخل أمة من

الاسترقاق ، حتى في شريعة موسى عليه السلام ، وليس هذا فقط ، بل كان الناس يخطف بعضهم بعضاً للتجارة ، فكانوا متى التقطوا شخصاً غريباً استأسروه واسترقوه ، وقد عمل الرقيق في سائر الشعوب بضروب من القسوة ، تنفطر منها الانسانية ، وهكذا قضت المسيحية البولصية ، ببقاء أحوال الأرقاء على ما كانت عليه من قبل ، إذ لم يرد في المسيحية كلمة واحدة عن تحرير الرقيق ، إنما الذي ورد فيها ، هو أمر الأرقاء أن يطيعوا مواليهم مع الخوف والرعب والرعدة ، كما يطيعون المسيح عليه السلام (أف ٦ : ٥) وأن يبالغوا بحسن القيام بخدمة ساداتهم ، تمجيذاً لتعاليم المسيح ، كما يقوله القديس بولص في (كو ٣ : ٢٢) وفي (تي ٢ : ٩) وقد وافق على ذلك القديس بطرس الخواري ، حيث أوصى العبيد بأن يخضعوا لساداتهم ويخشعوا (ابط ٢ : ١٨) وهكذا بقي هذا الحال ، إلى أيام الإسلام ، فلما أتى الإسلام ، رق لحال الأرقاء ، كما كان شأنه لجميع الضعفاء ، فتمنع الاسترقاق بتاتا ، إلا أن يكون في حرب شرعية ، مع قوم من غير المسلمين ، لم يؤمن أذاهم ، أعني انه إنما أباح الأسر في الحرب الدينية فقط ، وعذر الإسلام في ذلك ، أنه قد وجد النوع الإنساني ، قد تأصلت فيه عادة الأسر ، فأباح أسر الأجانب فقط ، في مقابلة أنهم يأسرون أهل الإسلام ، إذ لو حرم أسرهم على المسلمين ، لا تقرض المسلمون جميعاً ، إذ كانوا في الحرب يأسرم غيرهم إذا غلبهم ، وهم إذا غلبوا لا يأسرون أحداً ، وفي ذلك شر عظيم على أهل الإسلام ، وهلاك مبيد ، فلهذا أباح أخذ الأسرى ، وبهذه القاعدة ، سدّ تقشي الاسترقاق وانتشاره ، وغلق أبواب الظلم والعدوان ، ثم أمر بالإحسان إلى الأرقاء ، وبمعاملتهم بالرفق واللين ، كما قال جل ثناؤه : ﴿ وبالوالدين إحساناً ، وبذي القربى ﴾ - إلى أن يقول - وما ملأ أيمانكم ﴿ (٤ : ٣٥) ورغب في العتق ، وجعل بين المعتق والعتيق ولائاً ومودة ، وإن شئتم اقرأوا قوله تعالى ، ﴿ فلا تقتحم العقبة ﴾ وما أدراك

ما الْعَقَبَةُ ! فَذِكُّ رَقَبَةٍ ، أَوْ إِطْعَامُ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ، يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ، أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ، ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ، وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٩٠ : ١١ - ١٨﴾ فَاللَّهُ تَعَالَى ، أَوَّلُ مَا قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ « فَك رَقَبَةٍ » ، إِذْنُ فَكِ الرَّقَبَةِ ، أَمُّ مَا تَقْتَحِمُ بِهِ الْعَقَبَةُ ، وَذَكَرَ بَعْدَهَا الْإِيمَانَ ، مَعَ الصَّبْرِ وَالْمَرْحَمَةِ . وَنَهَى الْإِسْلَامُ عَنْ لَطَمِ الْمَمْلُوكِ وَضَرْبِهِ وَجَعَلَ كَفَّارَةَ ذَلِكَ عِتْقَهُ ، حَيْثُ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « مَنْ لَطَمَ مَمْلُوكَهُ أَوْ ضَرَبَهُ ، فَكَفَّارَتُهُ عِتْقُهُ » ، وَلَيْسَ هَذَا فَقَطْ ، بَلْ قَالَ : « إِخْوَانُكُمْ خَوْلَانُكُمْ ، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ ، فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ ، وَلْيَلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ ، وَلَا تَكْلُفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ ، فَإِنْ كَلَفْتُمُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ فَأَعِينُوهُمْ » ، بَلْ قَالَ : « لَا يَقُولُ أَحَدُكُمْ : عَبْدِي ، أُمِّي - وَلْيَقُلْ : فِتْنَانِي ، وَفِتْنَانِي وَغُلَامِي ، وَحَثَّ عَلَى تَهْدِيهِمْ وَتَعْلِيمِهِمْ ، فِي مِثْلِ قَوْلِهِ : « مَنْ كَانَتْ لَهُ جَارِيَةٌ ، فَعَلَّمَهَا وَأَحْسَنَ إِلَيْهَا وَزَوَّجَهَا ، كَانَ لَهُ أَجْرَانِ » ، هَذَا وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِتَزْوِيجِهِمْ فَقَالَ : ﴿ وَانكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ ، وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ، إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ : يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ (٢٤ : ٣٢) ، ثُمَّ إِذَا اقْتَرَشَ السَّيِّدُ أُمَّتَهُ ، فَوُلِدَتْ لَهُ ، كَانَ الْأَوْلَادُ أَحْرَارًا ، وَيَرِثُونَ مِنْ آبَائِهِمْ ، وَهِيَ تَعْتَقُ بِذَلِكَ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ ، مِنَ الْقَوَاعِدِ الْعَادِلَةِ ، الَّتِي لَمْ تَأْتِ بِهَا شَرِيعَةُ قَطْ وَلَيْسَ هَذَا هُوَ كُلُّ مَا جَعَلَهُ الْإِسْلَامُ ، مُسَاعِدَةً لِأُولَئِكَ الضُّعَفَاءِ ، بَلْ جَعَلَ تَحْرِيرَ الرِّقَابِ ، كَفَّارَةً لِكَثِيرٍ مِمَّا يَقَعُ مِنَ الْإِنْسَانِ ، مُخَالَفًا لِلدِّينِ ، حَتَّى فِي أَبْسَطِ الْمَسَائِلِ كَالْحَثِّ فِي الْإِيمَانِ : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ، وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْإِيمَانَ ، فَكَفَّارَتُهُ - إِلَى أَنْ قَالَ - أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ (٢ : ٢٢٥) ، وَلَيْسَ هَذَا فَقَطْ ، بَلْ أَمَرَ بِجَمْعِ الْأَمْوَالِ - الزَّكَاةِ - مِنَ الْأَغْنِيَاءِ وَصَرَفَ جُزْءَ مِنْهَا فِي تَحْرِيرِ الرِّقَابِ : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ - إِلَى

قوله - وفي الرقاب ﴿ ٩ : ٦١ ﴾ وكور حث ذوي اليسار ، على ذلك ، المرة
بمد المرة : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ،
ولكن البر من آمن بالله - إلى أن قال : - وآتى المال على حبه ، ذوي
القربى - إلى أن قال : - وفي الرقاب ﴿ ٢ : ١٧٧ ﴾ إلى غير ذلك مما يطول
شرحه ، فإذن نسأل أهل الإنصاف ونقول : أليس ما أتى به القرآن والدين
الإسلامي منذ قرون ، هو ما تفتخر به المدنية الحديثة وتبته به إعجاباً ؟ !

استفادة الرقيق عند المسلمين

لقد جاء في كتاب للأستاذ الكريم الشيخ عبدالقادر المغربي قوله : ليس
الغرض من الاسترقاق عندنا ، مجرد استغلال الأرقاء والامتناع بخسدتهم ، كما
ينتفع بالدابة ، وإنما الغرض نفع الرقيق نفسه ، ونفع البشرية ، بنشر تعاليم الإسلام
بين أبنائها ، فإننا نأخذ الأرقاء في الحرب أسرى وندخلهم في بيوتنا ، ونغزجهم
بمائلاتنا ، كي يتخلقوا بأخلاقنا ، فيدخلوا أخيراً في ديننا ، ويكثر بهم سواد
أمتنا ، وربما كان ثلث المسلمين اليوم ، هم من سلالة أولئك الآباء ، الذين دخلوا
في الإسلام من طريق الرق ، فالرق في نظر العالم المسلم الاجتماعي ، ضرب من
ضروب الاستعمار ، أو ما يسميه سواس هذا العصر (التجنس بالتبعية) ..

استرقاق الشعوب في اوربا وامريكا

وجاء في كتاب لأمير البيان الأستاذ شكيب أرسلان مانصه :
وإذا قيل إن الرق قد وجد في الإسلام ، فالجواب إنه لم يوجد فضيلة حث
عليها الإسلام بصريح القرآن ، ومتواتر السنة أكثر من تحرير الرقيق ، على أنه
النصرانية لم تنكر الرق ، كما ظهر من كلام بولس الرسول .

وإن كانوا في أوروبا قد اتفقوا مؤخراً على إلغاء الرق فلا يجوز أن ننسى أن الشعب الروسي إلى زمان الامبراطور بولس كان رقيقاً لأمرائه ، وأن النبيل إذا باع قرية يملكها ، يبيعها مع الأهالي الذين فيها ، لا يملكون لأنفسهم أمراً ، بل حكمهم كان حكم الحيوانات التي في القرية ؟ هذا كان شأن الأمة الروسية ، منذ ١٥٠ سنة لا زيادة ، ولا يجوز أن ننسى أن الفرنسيين بعد أن تمكنوا من طرد المسلمين من جنوبي فرنسا ، استعبدوا البقية التي بقيت من المسلمين واغتصبوا أملاكهم ، واستعملوهم خولاً وخدماء مدة طويلة ، حتى اندمجوا في غمار الأمة الفرنسية وتوسيت أصولهم ، ولا يجوز أن ننسى أن الحرب قامت في أميركا من سنة ١٨٦٣ م إلى سنة ١٨٦٦ م من أجل تحرير العبيد ، وأن الأميركيين سكان جنوبي الولايات المتحدة ، حاربوا سكان شمالها مدة سنوات عديدة من أجل إصرارهم على استعباد السود ..

حكم الاسترقاق الشائع عند بعض المسلمين قديماً وحديثاً في الشرع

وأما حكم الاسترقاق الذي كان شائعاً في العصور السابقة فهو غير شرعي ، سواء ما كان منه في بلاد السود ، وما كان منه في بلاد البيض ، كبسات الجراكسة اللواتي كن يبعن في الأستانة جبراً من عصر قديم إلى ما قبل الدستور العثماني ، وكلهن حرائر من بنات المسلمين الأحرار ، ومع هذا كنت ترى العلماء ساكتين عن بيعهن والاستمتاع بهن بغير عقد نكاح ، وذلك من أعظم المنكرات ، حتى لو سألت عن حكم المسألة بعد شرحها له لأفتاك بأن هذا الاسترقاق محرّم إجماعاً . وربما قال لك : (وإن مستحل ذلك ~~يكفر~~ ، لأنه لا يعذر بالجهل) . وعلل ذلك بما يملون به مثله ، وهو أنه يجمع عليه ، معلوم في الدين علماً : يشبهه الضروري .

وكما كان يوجد هذا في الاستانة ، فهو قد كان يوجد في الحجاز أيضاً ، أعني انه كما كان يوجد في عاصمة الإسلام المدنية ، فكذا كان يوجد في عاصمة الإسلام الدينية ، والمسؤول عن هذه الفملة الشنعاء والغلطة القبيحة هم العلماء والأمراء الذين كانوا معاصرين إذ ذاك . والحق إن الاسترقاق يحتوي على مفسد كثيرة ، وإنه منافع لمحاسن الإسلام وحكمته العالية ، ولكنه قد كان مما عمت به البلوى بين الأمم ، فلذلك لم يمنع الإسلام منعاً باتاً ، ولكنه خفف مصائبه ، ومهد السبيل لئلا ، حتى إذا جاء وقت تقتضي فيه المصلحة العامة منعه ، مع عدم وجود مفسدة تعارض المنع وترجع عليه ، كان لأولي الأمر منعه ، فإن المصلحة أصل في الأحكام السياسية والمدنية ، يرجع إليه في غير تحليل المحرمات ، أو إبطال الواجبات .

زعم دعاة المسيحية بشأن تحرير الرقيق والرد عليه

زعم دعاة المسيحية ، بأن ما قام به الأوروبيون في الزمن الأخير ، من « تحرير الرقيق » ، هو من آثار دينهم فيهم ، ولكن الحقيقة إن ذلك نتيجة الاشارات الرمزية ، التي وردت في القرآن ، وشجرة مكبرة ناجمة عن النواة التي غرسها القرآن ، في حقل حياة الإسلام ، وإلا فلماذا قضوا القرون العديدة ، في استعباد الناس ، على أشنع الأحوال ؟! وقد علمت فيما مر ، أقوال رؤساء النصرانية في حق الأرقاء ، وأين هي من أقوال القرآن والأحاديث ؟ وأين هذا من ذاك ؟ ولم لم يهتم الدين المسيحي بشأن العبيد ، ويعطف عليهم ، كما عطف عليهم الإسلام ؟ لم لم يأمر باستعمال الرقيق بهم واللين معهم ولو بكلمة واحدة ؟

سيقولون : إنه لم يأت ليسن شرائع ، أو ينسخ ما كان موجوداً منها - ونقول

في تنفيذ جوابهم : لَمْ حَرَّمَ الطلاق والتزوج بالملقة والتعدد في الزوجات ؟
أما كان يمكنه أن ينهى الناس من استعمال القسوة على الأقل مع أولئك الضعفاء ؟

هذا ، والحق يقال إن ما أتى به الاسلام في شأن الرقيق لم يأت بمثله دين على وجه البسيطة ، وإن « تحرير الرقيق » الذي اتفق عليه ملوك أوربا ، كان الإسلام قرره قبلهم ، لأن الرقيق الموجود اليوم ، ليس هو مضروباً عليه الرق ، في حرب دينية ، حتى يوافق عليه الاسلام ، بل هو من قبيل الاختطاف ، كما وقع مسع يوسف عليه السلام ، وهذا النوع لا يقول به الإسلام ، ولو كان المسلمون في درجة الأوربيين مدنية وعلماً وقوة ، لكانوا أولى من ملوك أوربا ، في إظهار ما يعتقدون ، من تحريره ، ولأنه في عقيدتهم ، ليس رقيقاً شرعياً ، ولكن هكذا قضي أن يكون المسلمون حجة على دينهم .

وما أن نزل الشيخ محمد عن منبر الخطابة حتى تعالت الهتافات والتكبيرات في المؤتمر استحساناً لما قال .

الفصل الثالث

وصية عزيز مصر لامرأته يوسف

آ (٢١) : ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَامْرَأَتِهِ !
 « أَكْرَمِي مَثْوَاهُ ، عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا » ،
 وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ، وَلِإِنْعَلِمَهُ مِنْ
 تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ... وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ
 النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ... ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الحادية والعشرون فقام أمين الدين
 الجوشي ^(١) وقال :

(وقال الذي اشتراه من مصر) المسمى « فوطيفار » ، وهو العزيز الذي كان
 على خزائن مصر ، في عهد الريان بن الوليد العالقي الهكسوسي ، قال (لامرأته)
 « زليخا » بلسان الالتباس (أكرمي مثواه) اجعلي منزله ومقامه عندنا كريماً ،
 أي حسناً مرضياً ، بدليل قوله : « إن ربي أحسن مثواي » ، والمراد تفقديه بالاحسان
 وتمهديه بحسن الملكة ، حتى تكون نفسه طيبة في صحبتنا ، ساكنة في كنفنا ،
 (عسى أن ينفعنا) إذا تدرب وراض الأمور وفهم مجاريها ، نستظهر به على بعض
 ما نحن بسبيله ، فينفعنا فيه بكفايته وأمانته ، (أو نتخذه ولداً) نتبناه ونقيمه

(١) نسبة إلى جرش من بلاد الشام (شرقي الاردن) .

مقام الولد ، لأنه قيل إن فوطيفار كان عقيماً لا يولد له ، وقد تفرس في يوسف الرشد فقال ذلك . (وكذلك) الذي تقدم من إنجائه وعطف قلب العزيز عليه — والكاف في كذلك منصوب تقديره : ومثل ذلك الإنجاء والعطف — (مكننا ليوسف في الأرض) أي كما أنجينا وعطفنا عليه العزيز ، مكننا له في أرض مصر ، تمكيناً يليق بصلاحيته ما دام عند فوطيفار ، أي تمكيناً مقيداً بالتصرف في ممتلكات فوطيفار وأطيانه وعقاراته ، لأن يوسف صار وكيلاً مفوضاً عن فوطيفار في كل ماله ، أي وكيلاً دخل وخرج ، يتصرف في ذلك بأمره ونهيه ، فكان فوطيفار لا يعرف شيئاً إلا الخبز الذي يأكله ، كان ذلك لفوائد كثيرة تعود بالخير على يوسف (ولنعلمه) بإقامته ومكثه بمصر (من تأويل) أي مرامي ونتائج (الأحاديث) عموماً ، لأن مصر هي دار العلم والاستبصار بحيث من أقام بها ترقى واستنار قلبه ، وحصل ما لم يحصله في مثل فلسطين (والله غالب على أمره) على أمر نفسه ، لا يمنع عما يشاء ولا ينازع ما يريد ويقضي ، أو غالب على أمر يوسف ، يدبره ولا يكله إلى غيره ، قد أراد إخوته به ما أرادوا ، ولم يكن إلا ما أراد الله ودبره (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أن الأمر كله بيد الله .

(وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمومي مثواه)

— ١ —

وقام الشيخ الرّمي (١) وقال :

دخول بالفاري، الى المملكة المصرية الرّسكوسية

فوطيفار عزيز مصر

ينقسم تاريخ يوسف في غربته إلى قسمين : الأول تاريخ عبوديته ، والثاني

(١) نسبة الى الرمة من بلاد الشام (شرقي الاردن)

تاريخ حكمه على كل مصر . ونشرع الآن في القسم الأول :
أزل يوسف إلى مصر فاشتراه « فوطيفار » بواسطة بعض بطائه ، وكان من
رجال البلاط .

و « فوطيفار » هذا هو رئيس شرطة مملكة مصر ، وكان بالنسبة للملك
كوزير الدولة ، أو كنائب الملك ، وكان يلقب بـ « عزيز مصر » (آ ٣٠) وهذا
الاسم يدل على أن الرجل من المصريين الوطنيين الأصليين لأنه مركب من كلمتين
قبطيتين بتغيير قليل ، والأصل (فوطي فارع) أي « مختص بالشمس » أو « موقوف
للشمس » والشمس هي من معبودات المصريين ، ومع ذلك فقد نصّ قدماء المؤرخين
على أنه كان مصرياً أي قبطياً ، لأنها لفظان مترادفان ، والفلاحون ينطقون بهذه
اللفظة بأصح مما نكتبها ، إذ يقولون « جبطي » أي (إيجيبي) أو مصري ، ومن
هذا الاسم اشتق الإفرنج كلمة (إيجيت) وهي لفظة يونانية في الأصل ، وعلى ذلك
فقوله تعالى « من مصر » يظهر أنه نعت « للذي » أو حال منه ، وهو الأرجح ،
لأن الجمل وما شابهها بعد المعارف أحوال .

ومن ألقاب هذا الرجل أيضاً « خصي » الملك ، ولفظة خصي تدل على وظيفة
لا على حالة شخصية ، لأنه كان متزوجاً ويعد في الخصي الحقيقي أن يتزوج ، وإغما
هذا اللفظ يطلق على من يكون رئيساً في البلاط وناظراً للحرم ، لأن الذين كانوا
يستخدمون لذلك جرت العادة أن يكونوا خصياناً حقيقة ، وقد كان عزيز مصر
ناظراً للحرم أيضاً ، ومما لا يجب أن ننساه أن اصطلاح حكومة مصر قديماً تسمية
جميع المأمورين فيها « عبيداً » لفرعون ، مع أنهم أحرار ، وكذا « خصياناً » مع
أنهم ليسوا مجبوين ، فكما أن تسميتهم « عبيداً » لا تنفي أنهم أحرار ، فكذا
تسميتهم « خصياناً » لا تنفي أنهم كاملوا الخلقة فأفهموا ...

(وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه)

— ٢ —

وقال الحافظ الترماني^(١) :

مباة يوسف المادية

كان فوطيفار قد عرف بوجه الإجمال أن هذا العبد عبراني ، من نزل فلسطين ، ولكن لم يعرف ابن من هو ؟ ولا السلالة التي ينتسب إليها ، وأيضاً هو لم يسأله عن ذلك ، لأن هذا الأمر لايهمه كثيراً ، لأن العبرانيين كانوا في فلسطين جماعة غرباء نزلوا ، وهم على دين التوحيد ، الذي يغير دين الوثنية الذي كان إذ ذاك دين أهل مصر ، وأيضاً فقد كان يوسف في ذلكم الحين صغيراً ، وإذا فلا مناسبة بين يوسف وبين فوطيفار لا في الوطنية ولا في العنصر ، ولا في الدين ولا في السن ، ولا في الجاه ولا في المركز الاجتماعي ، فلهذه العلل ونحوها لم يعتن فوطيفار في التعمق والبحث عن حاله .

فلما اشتراه أدخله على عقيلته وكان اسمها « زليخا » على المشهور ، أو « راعيل » على ما قيل ، وكان والدها من أولاد ملوك القبط — قال لها فوطيفار : « يا أمة الله ، لقد عثرنا على ضالتنا المنشودة ، إذ اشترينا هذا الغلام العبراني الوديع الحديث السن ، وإني أقترح عليك شيئاً ، لي ولك فيه فائدة ، أكرمى مثواه ، واجعلي له امتيازاً خاصاً فوق ما لساير العبيد الذين في خدمتنا ، وليكن عندك ضمن البيت تحت جناحك مرفهاً مسروراً ، ولا تخرجيه ، عسى أن ينفعنا غداً ، وإن غداً لناظره قريب ، أو نتخذه ولداً في مستقبل الأيام ، فها هو عمره نحو (١٧) سنة ،

(١) نسبة الى بلدة ترماني من البلاد السورية .

وعما قريب ينظم في سلك الشبّنة فيصلح لتعصيدنا، فاعطني وتحدي عليه، وعامله بالدماثة والبشاشة .

وإنما قال لها ذلكم ، لأنها هي صاحبة الحول والطول في البيت ، وهي الأمرة الناهية ، وقد قالوا : إن عقيلة الرجل في البيت تعتبر كناظر داخلية ، ضمن دائرة الآداب والاخلاق الشرعية ، كما يعتبر هو كناظر خارجية بالنسبة لأشغاله البرانية ، وعلى هذا الوجه — من تقسيم الأعمال — تم الفائدة ، وتستتب الراحة للزوجين معاً .

لذلك هو يقول لها : « انفعيه اليوم ينفعنا غداً ، لا نغني عنه شيئاً من نوالك ، بل اجعلي له في البيت المقام الأول بين عبيدنا ، وهيتيه وأهليه للقيام بمصالحنا في المستقبل ، وأديبه وأرشدبه ، لما يكفل له النبوغ والثقافة ، نعم نحن فزنا بأشترائه ، ولا سيما بذلك الثمن الذي لا يذكر ولا يساوي حذاء نعله ، لكن الفوز الأكبر إنما يكون بثقيفه وتأديبه وأنهيله أن يكون عضواً عاملاً معنا ، وساعداً قوياً لنا في المستقبل ، فهذا هو الذي يضمن لنا الفوز بكل معنى الكلمة » .

وأما هي فقالت في نفسها : (نِعِمّاً فعل ، وجبذا ما قال) لأنها لما رأت يوسف أحبته حباً لا مزيد عليه ، لما رأت فيه من جمال الخلق والنفس . فهذه الآية تفيد أن عزيز مصر 'عني به ، وقدم له كل ما يلزم للصغير جسدياً وأديباً ، حتى وصل لسن الرشد ، وقوله تعالى بعد ذلك ﴿ ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً ﴾ (آ ٢٢) يفيد أن يوسف حينما بلغ مبلغ الرجال ، أرشده الله ووفقه لكل ما فيه غوه روحياً ، فمرمى مجموع الكلام أن الأرض والسماء 'عنيّتا بيوسف ، عنيت الأرض بكفالاته وتربيته وتثقيفه وغوه ، مادياً وأديباً ، وهذه هي المدرسة الابتدائية التي تعلم فيها العالم الابتدائية منذ ما كان عمره (١٧) سنة إلى أن بلغ أشده ، ولما بلغ أشده 'عنيت السماء بإرشاده وتوفيقه وتعليمه الحكمة والعلم وغوه روحياً ، وهذه هي

المدرسة الثانوية ، التي تعلم فيها العلوم العالية ، وأما مدرسته عند أبيه ، فكانت عبارة عن « بستان أطفال » .

مصر أيام يوسف

وأما مصر أيام يوسف ، فهي مدينة « صَوْعَن » ويقال لها « تانيس » ، وهي التي كانت عاصمة المملكة للسلالة السابعة عشرة من سلاسل الهكسوس الثالث ، وهي في بحرية مصر الحالية ، ويسمى اليونان « طانس » وتسمى اليوم « صان » ، وكانت على فرع النيل الطائي ، وإلى شرقيها سهل متسع يسمى بلاد « صوعن » ، وهذا السهل هو البلاد الشرقية ، بلاد « جاسان » التي سكنها بنو اسرائيل ، (فصوعن) هي عاصمة مصر السفلى ، أيام الرعاة ، وبسط المقام إن كلمة « مصر » بحسب الأصل عبارة عن وادي النيل ، وقد تطلق هذه الكلمة ويراد بها خصوص العاصمة ، وعاصمة مصر السفلى في ذلك العصر عصر الهكسوس كانت (صوعن) فإذا أريد من كلمة « مصر » في هذه الآية خصوص تلك العاصمة ، كان اللفظ مجازاً ، من قبيل تسمية الجزء باسم الكل ، وهذا كما يطلقون اليوم كلمة « مصر » على خصوص « القاهرة » عاصمة مصر اليوم ، وكلمة « الشام » على « دمشق » عاصمة الشام اليوم .

ومما يجب أن يعلم أن « مصر القاهرة » إنما بنيت ووجدت أيام « معز الدين الفاطمي » (سنة ٣٥٠ ب. هـ) بيد جوهر الرومي القائد .

(حسن جداً)

(وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أ كومي مشواه)

- ٣ -

وقال السيد الكلبي (١) :

شيء جديد عن حياة يوسف

انتقل يوسف الآن إلى طور آخر من أطوار الحياة ، ولم يعد ذلك الإنسان المبين المثوى ، ذلك الإنسان الجالس في « سوق الرقيق » ، ذلك الإنسان المزهود فيه ، لا .. لا .. بل صار ذلك الإنسان الكريم المثوى ، ذلك الإنسان المقيم في قصر « العزيز » مرغوباً فيه ، محبباً مرجوئاً .

وبهذه المناسبة يخالج نفسي بضع مقولات لها علاقة بهذا البحث أرجو أن تلقى أذنًا صاغية من حضراتكم :

مصر مهبط الأنبياء والأولياء

المقولة الأولى — بمناسبة رحلة يوسف الصديق إلى مصر نقول إن مصر كانت مهبط الأنبياء والأولياء من القرون الأولى ، إليها قدم إبراهيم الخليل وزوجه سارة في فجر التاريخ ، وفيها بلغ يوسف شأوه الأعلى وتولى خزائن البلاد ، وإليها هاجر أبوه يعقوب ومعه أسرته جميعاً ، وفيها تكاثروا بنو إسرائيل ، وفيها ولد هرون وموسى ، وإليها قدم المسيح في طفولته مع أمه ورجلها يوسف النجار — فيما يقولون — وفيها مراقد آل البيت النبوي الشريف — حسب المشهور —

(١) نسبة إلى كلس وهي اليوم في بلاد الأتراك ..

وفيهما أثر النبي موسى في كنيس الاسرائيليين بمصر القديمة ، فان الاسرائيليين يعتقدون أن النبي موسى أدى فرائض الصلاة في هذا المكان ، وفيها الامام الليث ابن سعد ، والامام محمد بن إدريس الشافعي ، فأرضا غنية بتلك الذكريات الدينية والآثار المقدسة..

منزلة المرأة عند قدماء المصريين وعند الشرقيين

المقولة الثانية - يظهر من الآية الكريمة أن المصريين في ذلك العصر - وهم شوقيون - كانوا يحترمون (المرأة) ، ويعتبرون أنها ذات الحول والطول ومصدر العمل البقي ، وأنها ليست في بيتها متاعاً لا قيمة له ، ولا أنها في البيت (أداة) غير عاملة ، ولا أنها فيه تحت رحمة زوجها ، مسلوبة الحرية والإرادة ، بل إنها كانت عاملة آمرة ، ذات سلطان ، ولها قيمة معترف بها ، نعم . نعم . لقد كان للمرأة عند المصريين القدماء مقام ممتاز ، فكانت تعقد العقود ، وتقوم بالأعمال التجارية ، وتنهمك في الأمور السياسية ، ويقول بعض العلماء : « إن الله عندما أراد أن يخلق حواء من آدم ، لم يخلقها من عظم رجله ، لئلا يدوسها ، ولا من عظم رأسه ، لئلا تسود عليه ، ولكن خلقها من ضلع من أضلاعه ، لتكون مساوية له ، قريبة من قلبه » ، وقال آخر : « المرأة حلقة عظيمة في سلسلة الحياة الوطنية ، وهي أعظم شأنًا وأهم عملاً من الرجل المدرّب ، ومن مدير الأعمال العظيمة ، ومن الاستاذ في العلوم والفنون » وقال ثالث : « المال كله من الرجل ، ولكن كله للمرأة » .

وغني عن البيان أن فوطيفار شرقي ، وقد لفظ بالوصاة الآنفة الذكر إلى قريبته زليخا ، التي تشف عن لعتبار (المرأة) ، ومن ههنا نعلم أن الغربيين يظلمون الشرقيين في زعمهم أن الشرقي كان ولا يزال ينظر إلى المرأة نظرة استخفاف أو إهانة ، فإننا نرى هذه الآية تفيد عكس ما يزعمون ، فهي تشير إلى أن (الشرقي)

كان يحترم المرأة ويراعي عواطفها ، وربما أكثر من الغربي ، فالغربي ، اليوم مهما بلغ من احترام المرأة ، ومهما حرص على مراعاة إحساساتها ، لا تراه يتنازل لدرجة أنه إذا استأجر خادمة مثلاً يقول لامرأته : « أكرمي مثواها » ولو فرض أنه تنازل وقال لها ذلك ، فهو يقوله قولاً جامداً جافاً خالياً من بيان العلة ، ولا يرى نفسه في حاجة أن يذكر لزوجته علة إكرام تلك الخادمة ، كما فعل هذا الشرقي فوطيفار .

منزلة المرأة عند العرب

وهكذا كانت معاملة أكثر العرب للمرأة ، إذ أن من أسمائها عندهم (أم المئوي) ، وفي الحديث الشريف : « المرأة سيدة بيتها » و « رفقا بالقوارير » يعني النساء « والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسؤولة عن رعيتهما » ، وإننا إذا أردنا أن نستقي معاملة رجال العرب لنسائهم ، وجب علينا مراجعة أشعارهم التي هي ديوان أخبارهم ، فنرى أنهم كانوا ينظرون إلى المرأة نظراً احترام ، فقد كان الرجل إذا أراد أن يتمدح بما لهُ في نظر العرب من المقام السامي ، ومن الكرم والشجاعة لم يكن يخاطب في أكثر أوقاته إلا (المرأة) التي إن ترقى في نظرها ، فقد رضي عنه كل الناس ، وترى ذلك واضحاً جلياً في أشعار حاتم الطائي شيخ الكرام ، وعترة العبيسي شيخ الشجعان ، ثم انظر إلى أي شجاع من العرب هل كان يفتخر إلا محدثاً امرأة من قومه بأنه المدافع عن الشرف ، الحامي للحقيقة ؟ ترى العربي إذا عدلته المرأة على السرف ، وأشارت عليه بالقصد ، يحجها بأرق ما يجيب به مخالف في الرأي فيقول :

ألم تعلمي - يا عثمرك الله - أنني كريم على حين الكرام قليل

ويقول المفتخر بالشجاعة :

هلاّ سألت الخيل يا ابنة مالك إن كنت جاهلة بما لم تعلمي ؟

أو لا ترى أن جميع الشعراء إذا بدأوا قصائدهم التي بها يفتخرون بمحامد قومهم ، وعظيم أعمالهم ، لا يذهبون إلى شيء من ذلك حتى يعطوا (المرأة) قسطها مما تحب من النسب أو الغزل ، ويرون أن شعرهم بدون ذلك يفقد الطلاوة المقبولة . وتراهم حيناً يخاطبونها . وهي ذات زوج يلقبونها بخير الألقاب ، فيقول أحدهم :

ياربة البيت قومي غير صاغرة ضمي إليك رجال القوم والقربا ؛
فإعطاؤها هذا اللقب الجميل يشعر بما كان لها في النفس من سمو الدرجة .
ويقول الآخر لزوجته :

سلي الطارق الممز - يأمّ مالك - إذا ما أتاني بين قدرى ومجزري
أيسفر وجهي وهو أول للقرى وأبذل معروفى له دون منكري

فلا يناديها إلا بكنتها ، وهذا من سمات التشريف في عرفهم .

وقال ابن الميث :

لا تعذليّ فيما ليس ينفعني إليك عني جرى المقدار بالقلم
سألف الحال في عُسروفي يُسر إن الجواد الذي يعطى على العدم

وبالجملة فإن المتبع لأشعار العرب لا يشتم منها رائحة الصغار والإهانة للمرأة بل بالعكس يجد فيها علائم التجارة والتشريف وتراهم يفخرون بنسبتهم إلى أمهاتهم ، كما يفخرون بنسبتهم إلى آبائهم ، وترى الواحد منهم يتكئ بأول مولود يرزقه ، لا يفرق بين ذكر وأنثى ، وقد عرفنا كثيراً في عرب « بئر السبع » ممن يتكئ باسم بنته ، فيقال له « أبو زنب » ، ويقال لآخر « أبو مبروك » ، وكانت المرأة عند

العرب ، إذا أرادت فرقت ، وإن شاءت جمّعت ، وإن اتجهت عواطفها للسلام سمعت إليه ونجحت ، وإن كانت وجهتها لإرادة الانتقام والشر ، أشعلت النار بين الأحياء .

واليك هذه الحكاية التاريخية التي هي عجيبه في بابها ، وعجيبه جداً :

قال «الحارث بن عوف المرثي» ، «لخارجة بن سنان» في إبان الحرب بين عبس وذيان : «أتاني أخطب إلى أحد فيردني ؟ - قال : نعم ، «أوس بن حارثة الطائي» - فقال الحارث لعلامه : هيء لي مركباً ، ثم ركب هو و غلام ، ومعها «خارجة» حتى أتيا «أوساً» ، فوجداه في داره ، فلما رأى (الحارث) رحب به ، وسأله عن مجيئه ، فقال : جئتك خاطباً - فقال «أوس» : لست هناك ، فانصرف الحارث ولم يكلمه ، ثم دخل أوس على امرأته مغضباً ، وكانت من «عبس» ، فقالت له : من الرجل الذي وقف عليك فلم تطل ولم تكلمه ؟ - قال : ذاك سيد العرب «ابن عوف» - قالت فما لك لم تستزله ؟ - قال : إنه استحق ، جاءني خاطباً - قالت : أفتريد أن تزوج بناتك ؟ - قال : نعم - قالت : فإذا لم تزوج سيد العرب فمن ؟ - قال : هكذا كان ، - قالت : «فتدارك ما كان منك ، فالحقه وقل له : إنك لقيتي ، وأنا مغضب ، وكلتني بأمر لم تجعل له بساطاً قبل ذلك ، فلم يكن عندي من الجواب إلا ما قد سمعت ، فارجع إليّ ، ولك عندي كل ما أحببت ، فإنه سيوافيك ، ففعل ذلك «أوس» ، ورد «الحارث» ، فلما وصلوا إلى بيت أوس ، قال أوس لزوجته ، ادعي لي فلانة ، لكبرى بناته ، فأتته ، فقال : يا بنية ، هذا «الحارث بن عوف» ، سيد من سادات العرب ، وقد جاءني طالباً خاطباً ، وقد أردت أن أزوجه منك ، - فقالت : لا تفعل ، لأنني امرأة في وجهي ردة ^(١) ، وفي خلقي بعض العهدة ^(٢) ، ولست بأبنة عمه ، فيرعى رحمي ، وليس

(١) الردة بثور فيها قبح (٢) العهدة ضعف في العقل .

بجارك في البلد ، فيستحي منك ، ولا آمن أن يرى مني ما يكره فيطلقني ، فيكون عليّ في ذلك ما فيه . — قال : قومي بارك الله فيك ، ثم دعا الوسطى ، فأجابته بمثل جوابها ، وقالت : إني خرقاء ، وليست بيدي صناعة ، ولا آمن أن يرى مني ما يكره فيطلقني ، فيكون عليّ في ذلك ما تعلم ، ثم دعى الثالثة ، وهي صفراهن ، فلما عرض عليها قالت : « أنت وذاك » ، فأخبرها بإباء أختها ، فقالت : « لصكني والله الجميلة وجهاً ، الصنّاع يدأ ، الرفيعة خلقاً ، الحسيدة أباً ، فإن طلقني فلا أخلف الله عليه بخير » ، فزوجها الحارث ، وهبّت إليه في بيت أبيها . فلما خلاها ، وأراد أن يمد يده إليها ، قالت : « مه » أعند أبي وإخوتي ؟ هذا والله مالا يكون ؛ فارتحل بها حتى إذا كان ببعض الطريق ، أراد قربانها ، فقالت : أكلما يفعل بالأمّة الجليلة ، أو التسيّة الأخيذة ؟ . لا والله حتى تنحر الجزر ، وتذبح الغنم ، وتدعو العرب ، وتعمل ما يعمل لمثلي ، فرحل حتى إذا وصل ديار قومه ، أعند لها ما بعد لمثلها ، فلما أراد قربانها قالت له : أتفرغ لنكاح النساء ، والعرب تقتل بعضها ؟ اخرج الى هؤلاء القوم ، فأصلح بينهم ، ثم ارجع الى أهلك ، فلن يفوتك ؛ فخرج « الحارث » مع « خارجة بن سنان » ، فأصلحا بين القوم ، وحملوا الديات ، وكانت ثلاثة آلاف بعير ، مقسطة على ثلاث سنين .

فهذه الحكاية تدل على مكانة (المرأة) في نظرهم ، ومشاركتها لهم في جميع أمورهم ، وتبين كيف كان الرجل لا يزوج بناته ، إلا بعد أن يستشيرهن ، ثم يقف عند إرادتهن ، نعم ، نحن لا يمكننا أن ندعي أن هذا كان أمراً عاماً عندهم ، بحيث تكون (المرأة) محترمة الجانب في جميع الطبقات ، تعامل هذه المعاملة من جمهور الأمّة ، ولكن الذي يمكننا أن نقوله : هو إن ظهور هذه المعاملة على ألسنة الشعراء الذين هم بمثابة لسان حال الأمّة من غير أن يقابلوا بالنكير ، يدل على أنه لم يكن عندهم بدعاً من العمل ، بل كان شيئاً معهوداً لا تنفر منه طباعهم .

يوجد بيننا حقيقة من يحترم المرأة احتراماً جماً ، ولكن لا يجسر أن يخالف التقاليد العامة يوماً ما ، فيكتب في إحدى الجرائد : قلت لامرأتي ، واستشرت امرأتي في زواج بنتي ، فكان مني ومنها كيت وكيت ، ولا يجسر أحد أن يقول على صفحات الجرائد : لا تلوميني يا امرأتي على بذلي الأموال لأنتي طبعت على الكرم ، أو يقول : قومي ياسيدة بيتي مرجوة غير مأمورة ، هيئي لنا الطعام مثلاً . كما وقع كل هذا من العرب ، فنحن نعلم يقيناً أن شخصاً لو قال شيئاً من هذا القبيل ، لقابلته النفوس بالاستنكار ، لأنه ليس من مألوفات عادات القوم ، ومن ذلك يمكننا أن نقول : إن المرأة الشرقية كان لها من حرية الإرادة ونفاذ القول القسط الوافر .

منزلة المرأة في الاسلام

والشريعة الاسلامية هي الشريعة الوحيدة التي رفعت شأن النساء وأعطتهن حقوق الاستقلال التام في التصرف بأموالهن ، وساوت بينهن وبين أزواجهن في أكثر الاحكام بالمعروف ، إلا رياسة المنزل وزعامة الأسرة ، وقد هتف القرآن بمجد المرأة قائلاً : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ، لَتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ، وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ (٣٠ : ٢١) وان كلمة وجيزة من كلمات القرآن الحكيم في ذلك ، لأبلغ من كثير من الأسفار التي الفت في المطالبة بحقوق النساء أو ما يسمونه « تحرير المرأة » ، الا وهي قوله عز وجل : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ (٢ : ٢٢٨) وأما قوله : ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ (٢ : ٢٢٨) فإنما هي درجة القوة ورياسة البيت التي أعطيت للرجل بحق ، لأنه أقدر على الكسب والحماية ، وهو المطالب بجميع النفقة ، وقال تعالى : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ (٤ : ١٨) .

كما ذكر في آية أخرى ساوى بينها وبين الرجل في جميع الأوامر والنواهي الدينية : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ، وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ، وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ ، وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ ، وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ ، وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ ، وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ ، وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ ، وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ - أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (٣٣ : ٣٥) ، وقال جل ثناؤه : ﴿ إِنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى ﴾ (١٩٥ : ٣) فعلم الرجل أنها مثل له في الآخرة ، كما هي في الدنيا ، ولا امتياز بينها في ذلك ، ويقول تعالى في الزوجين : ﴿ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ ، فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ﴾ (٢ : ٢٢٣) . إذ اعتبر في إرضاع الولد وفضامه تراضي الوالدين وتشاورهما ، ولم يكتف برأي الزوج فقط ، ولا يخفى ما في هذه الآيات الكريمة وغيرها من اعتبار المرأة واحترام حقها ، ومعاملتها بالاحسان والمعروف ، وقد اهتدى كثير من الأمم ، بيمض هدي هذه الشريعة ، في هذه المزية ، ولم يبلغ أحد منهم شأوها ، ولكن أهلها قصرُوا في إقامتها ، حتى صاروا - مع الأسف - حجة عليها عند من يجهلها .

وفي الحديث الشريف : « أَكْمَلَ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا ، أَحْسَنَهُمْ خُلُقًا ، وَأَلَطَهُمْ بِأَهْلِهِ » وفيه « خِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِكُمْ » ، وفيه أيضاً « اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا » وفيه « المرأة راعية في بيت زوجها ، وهي مسؤولة عن رعيته » ، وفي لفظ « المرأة سيدة بيتها » .

ومن أعجب المصادفات أن يتعقد جمع « ما كون » في « فرنسة » في زمن النبي ﷺ أي في سنة ٥٨٦ ميلاد المسيح ، ويبحث هل المرأة إنسان ؟ .. هل لها نفس ؟ ... ثم قرر أن لها نفساً وأنها إنسان ، لكنها خلقت لخدمة الرجل ، ولم يكذب صدر قرار الجمع هذا ، حتى نقضه النبي ﷺ في الحجاز ، ورفع صوته

قائلاً : « إنا النساء شقائق الرجال » وقائلاً : « يغلبن كريماً ويغلبهن لثيم » ثم لم يكن احترامه ﷺ للنساء والحض على احترامهن بالقول فقط ، بل دعم ذلك بالفعل ، إذ أنه كان ﷺ يضع ركبته على الأرض ، لتضع زوجته عليها رجلاًها إذا أرادت أن تركب ، وهذا أبلغ ما يكون في الاحترام وحسن المعاملة .

وحكى لنا المؤرخون ومنهم ابن جرير ، أنه استأذن رجل على « عمر » (ض) فدخل بيته وقت الغداء ، فقال عمر : (يا أم كلثوم غداءنا) ، فأخرجت إليه خبزة بزيت ، في عرضها ملح لم يدق فقال : يا أم كلثوم ، ألا تخرجين إلينا ، تأكلين معنا من هذا ؟ .. - فقالت : إني أسمع عندك حس رجل - قال : نعم ولا أراه من أهل البلد - قالت : لو أردت أن أخرج إلى الرجل لكسوتي ، كما كسا (ابن جعفر) امرأته ، وكما كسا (الزبير) امرأته ، وكما كسا (طلحة) امرأته - قال : أو ما يكفيك أن يقال : أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب ، وامرأة أمير المؤمنين عمر ؟ ثم قال للرجل : « كُذِّب » ، فلو كانت راضية لأطعمتك أطيب من هذا .

فهذه الحادثة تبين كيف كانت (المرأة) في صدر الإسلام ، فقد كانت أم كلثوم صاحبة الرأي الأعلى في بيت أمير المؤمنين ، وكانت المرأة تتكلم في شأن نفسها ، كما يتكلم أعظم الرجال نفساً ، ولي الشرف أن أقول ذلك كشرقي يدافع عن شرفه بأنه يحقر المرأة والعياذ بالله .

(تصفيق حاد من المقصورة التي فيها السيدات)

أخطاء فوطيفار

المقولة الثالثة - طلب فوطيفار من زليخا العناية بيوسف ، لأن للمرأة في بيتها - الذي هو مملكة صغرى - إدارة وزارة الداخلية والمعارف ، كما ان للرجل

إدارة وزارة المالية والأشغال العامة والتجارة والحرية والخارجية - مع الرئاسة العامة - ، المرأة رقيقة وصابرة على التربية ، فلذلك يجب أن تكون هي مسدرة المنزل ، ومع كون المرأة هي الكافلة للطفل أو العبد الصغير ، فالرجل هو الكافل للمرأة ، وهو سيد المنزل الأعلى ، لقوة بدنه وعقله ، وكونه أقدر على الكسب والدفاع ، ولذلك زاه الآن هو (الأمر) للمرأة .

وبعد هذا كله ، واستندرا كآ على ما مرّ ، فعندنا أن فوطيفار أخطأ فيما عمل من ثلاثة وجوه :

أولاً - إحالة إكرام يوسف على تلك المرأة الناعمة حليلة زوج لا يأتي النساء ، بحال أن هذا العبد العبراني ، كان أبدع سطر خطته يد القدرة الإلهية في لوح الوجود ، ولم تنعقد المناطق على مثل قوامه رشاقة واعتدالاً ، ولا اشترقت الشمس على مثل وجهه حسناً وبهاء ، فكان ينبغي لفوطيفار ، إحالة إكرام مثواه للخدمات والقهرمانات اللاتي في القصر ، وفي وصية « علي بن أبي طالب » كرم الله وجهه لابنه « محمد بن الحنفية » : « لا تمكن المرأة من الأمر ما يتجاوز نفسها ، فإن المرأة ريحانة ، وليست بقهرمانة » .

ثانياً - مسائلنا السفور والاختلاط الموجودين في القصر فيها أساسات كل بلاء .
ثالثاً - إباحة الخلوة ، فمجموع هذه الأمور الثلاث شكّل سبباً نشأ عنسه سهولة مراودتها له عليه السلام .

وهنا أتذكر ما كان أنشد فيه صديقي السيد حبيب العبيدي مفقي الموصل قال :
أولو العلم ظنوا ، واستبد أولو الأمر

وظنت جيلاً جهلاً ربة الخدر

ثلاث جرائم عبثت بأمة

وقفن بها طبعاً على حافة القدر

ولو أن أمراء المصريين ، ومنهم فوطيفار ، ولو أن علماء مصر ، ومنهم كهنتها رجال الدين ، ولو أن نساءها ومنهن زليخا امرأة العزيز - لو أن هؤلاء الجرائم الثلاث ، التزموا طريق الهدى ، وقاموا بواجبهم في مثل هذه الحادثة ، فمنعوا استرقاق الأحرار واستخدام الشبان داخل البيوت ، لما وقع هذا الحادث وأمثاله .

المثوى

المقولة الرابعة - المثوى والثواء والمحلّ والمأوى والمغنى والمنتدى والمتبوء أو المباءة والمكان والمرس والمقام والنزل والسكن والنادي والتديّ - كلها تقريباً بمعنى واحد ، فمعنى « أكرمى مثواه » اجعلي منزله ومقامه عندنا كريماً ، أي حسناً مرضياً ، بدليل قوله : « إنه ربي أحسن مثواي » والمراد تفقيده بالإحسان وتعديده بحسن الملكة حتى تكون نفسه طيبة في صحبتنا ، ساكنة في كنفنا ، ويقال للتزبل : كيف أبو مثواك وأم مثواك ؟ يُسأل بذلك أصحاب البيت الذي نزل فيه يراد هل طابت نفسك بثوائك عندهم ، وهل راعوا حق نزولك بهم ؟

مرادفات كلمة مصر

المقولة الخامسة - يقال لمصر « أم خنثور » والخنور الداهية والنعمة ضد ، و « الكنانة » ، و « مصرايم » أخذاً من مصرايم بن حام ، ويقال لها « أرض حام » و « رهب المتكبر » ، وأما اسمها القبطي فهو « خيمي » أي أسود ، أخذاً من لون تربتها .

وأما كلمة « ايحيت » اللاتينية ، فأخوذة من لفظ « القبط » أو بالعكس .

(مرحى مرحى)

(هسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً)

— ١ —

قال حمدي باشا الانطاكي (١) :

وصية فوطيفار لزوجته

تفرس فوطيفار في يوسف فوجد أن له غناء فيما يسند إليه ، وكفاية فيما يقلد إياه ، فكان يتنازعه عاملان ، قائمان عنده مقام الاحتمال ، فهو يتراوح بينهما ، وهما فكرة اتخاذ يوسف كخادم ممتاز ، وفكرة تبنيه ، فلذلك يوصي زوجته زليخا به قائلاً : ما أحوجنا إلى خادم كهذا الغلام ، وما أحوج هذا الغلام إلى أناس مثلنا ، ليس لهم ولد ، يعيش عندهم بالراحة والرفاه ، وتعلمين إنه لا تتكون أخلاق الفتي في عهد طفولته . أو في عهد شيخوخته ، بل في عهد شبابه ، فإذا رببته تربية حسنة ، وكفليته كفالة صالحة ، وهذبته تهذيباً حسناً أريد منك ، بعد قليل من الزمن نجد فيه عبداً خادماً أميناً ، يقوم بمصالحنا ، ويحمل عنا شيئاً من أعباء هذه الحياة ، أو نجد فيه لنا ولداً مطيعاً ، نكون بجنبه كأب وأم ، ويكون لنا قرة عين في الحياة ووارثاً وذكرأ بعد الممات ، بحيث يحسب من أسرتنا ، وله ما للولد من الإرث والنصر والمحبة ، وعلى أولاد الصلب السلام .

ويلاحظ أن فوطيفار لم يكشف بتوصيته زوجته وصية مجردة عن الحكمة والعلة ، بل أردفها بأن بين لها السبب الدافع له على هذا الأمر ، وهو لطف منه

(١) نسبة الى انطاكية من بلاد الشام (سورية) .

ينبيء عن أن المصريين - ولا سيما كبارهم - كانوا أهل لطف مع أزواجهم ، أهل لين ورفق ، حتى إذا أرادوا منهن شيئاً ، لم يقتصروا على الأمر الجاف اليابس ، سواء أَدَبِيْمَنَ حكته أم لا ، بل كانوا يبينون لهن علته وثمرته ، وهذا من الواجبات الأدبية الاجتماعية .

يوسف وكييل فوطيفار

وقد تمّ ما توّسمه فوطيفار في يوسف بأجلى مظاهره فإن يوسف نفع فوطيفار نفعاً عظيماً ، فنجح في بيت سيده نجاحاً باهراً ، وكان الله معسه في كل ما يفعل ، بالتوفيق والسداد ، وكان علة بركة ونجاح سيده ، فوكتله على جميع أمور بيته ، ودفع ليده كل ما كان له ، فحصلت من جراء ذلك البركات في واردات فوطيفار ، وتدفقت لأجل يوسف الخيرات ، ثم نفعه وعقيلته بسلوكة معها بالأمانة والشرف والطهارة ، وعدم خيائته له في عقيلته ، ثم إنه قام بنفع عام حينما أسند لهدّته « نظارة بيت المال » بمصر ، وصار « عزيزاً » خُدم بذلك مصر والمصريين ، وأخيراً نفع المصريين بما أجرى الله على يديه من هداية وارشاد ، إذ أرسله الله إليهم نبياً ورسولاً (٤٠ : ٣٤) .

امرأة العزيز تنفذ وصية زوجها يوسف

وأما زليخا زوجة فوطيفار ، فقد عملت بوصاة سيدها ، وأكرمت يوسف أيّما إكرام ، ورفهته أيّما ترفيه ، ولكن ربما كان في ذنبك الإكرام والترفيه ، يد خفية للفرام المنبعث في أنحاء نفسها ، سيما لأنها حينما نظرت إلى يوسف ، وقع من نفسها ، وملك عليها جميع مشاعرها ، وحل من قلبها محلا لم يحله أحد من قبل ، نظرته فاذا هو حسن الصورة بحيث ما كانت تظن أن الأرض تنبت مثله ، نظرته

فإذا هو صبيح مع جاذب وحلاوة بندران في البيض ، ولهذا وقع كلام سيدها في أذنها وقوع الماء على قلب الظمآن ، برداً وسلاماً ، وكأني بها قالت له : ليك ليك أمرك مطاع ، ووصاتك نافذة .

وقد اغتبطت زليخا بتلك الصلة التي نشأت بينها وبين هذا الفتى العبراني ، بوجوده في قصرها كمعبد وخدام لها ولسيدتها ، وبودها لو استحالت تلك الصلة إلى صلة أخرى غيرها ، أدنى إلى نفسها وألصق بفؤادها . ولكن لطهارة هذا الفتى العبراني وعفته لم يتم لها ما أرادت .

وهنا لا بد لي من الجهر قبل مغادرة هذا المنبر الحر بأن أخالف بعض إخواني المحاضرين في كلمة ، وهي أن تسليم سياسة الخدم والعبيد لسيدة البيت هو أساس التعب والبلاء ، وعندى أن المسئول عن حادثة « زليخا » المشؤمة والمسبب لها ابتداء هو سيدها « العزيز » وهكذا يخطئ ذوي البيوتات الكبيرة في إباحتهم اختلاط خدمهم وعبيدهم لا سيما البيض بنسائهم فهو أمر مخالف للدين والشرف والمروءة ، رضوا بهذا التعبير أم غضبوا ، فرضاؤهم شرف وغضبهم شرف ..!

(عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً)

— ٢ —

وقام عبد الكريم الادلي^(١) وقال :

سأقتصر الكلام هنا على أمرين :

المقصد من استعمال حرف «أو» في قوله «أو نتخذه ولداً»

الأمر الأول - هو ان حرف (أو) في قوله «أو نتخذه ولداً» ليس لمنع

(١) نسبة الى ادلب من بلاد الشام (سورية)

الجمع ، بل لمنع الخلو ، كما في قولك : « جالس الحسن أو ابن سيرين » ، أي لا يخلو من أحد هذين الأمرين ، فلا ينافي أنه يجوز اجتماعهما فيه في آن واحد ، فقد ينفعهم مع اتخاذهم إياه ولداً .

الظهار والتبني عند المصريين وفي الاسلام

والأمر الثاني - هو أن عبارة « أو تتخذه ولداً » ظاهرة في أن التبني كان مشروعاً عند المصريين ، كما كان عند العرب قبل الإسلام ، وفي صدر منه ، ثم نهى عنه الإسلام وحرمه ، قال تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قُلُوبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ، وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ، وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ، ذَلِكَ كُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ ، وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ ، وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ، ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ، فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ، وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ ، وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ (٥٥٤: ٥٥٤) .

فالآية تنص على أنه كان يوجد عند العرب شيء آن : الأول الظهار ، والثاني التبني ، فالكتاب يقول : إن قلباً واحداً لا يمكن أن يتصور أن أنثى واحدة هي في آن واحد زوجة وأم لشخص ما ، لأنه تناقض ، وكذا يستحيل أن يتصور القلب الواحد أن غلاماً هو عبد وابن في آن واحد ، لأنه تناقض ، وبناء عليه فهذا القول إما هو قول لساني لا قلبي ، أي لا يمكن للإنسان أن يعتقد بقلبه ، إذ لا يجمع في القلب بين المتناقضين ، نعم ، لو كان للإنسان قلبان ، لأمكن أن يعتقد كل قلب بعقيدة تضاد العقيدة الأخرى ، فقوله تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قُلُوبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ ليس معناه أن العرب كانوا يعتقدون هذه

العقيدة .. لا .. وإنما يؤتى بهذا القول في بدء الكلام ، إذا كان بعده شيء متناقض
لا يمكن أن يدخل في العقل الواحد . (حسن)

(وكذلك مكنا ليوسف في الأرض)

— ١ —

وقام فضل الله الاسكندري (١) :

تمكين يوسف الأول

أولاً - تعليقاً على قوله « وكذلك مكنا ليوسف في الأرض » فيه إشارة إلى
ما تقدم من إنجاء يوسف وعطف قلب العزيز عليه ، والكاف من (كذلك)
منصوب تقديره : ومثل ذلك الانجاء والعطف ، مكنا ليوسف في هذه الحياة
الجديدة ، حياة وجوده كملوك في بيت عزيز مصر ، لأنه أصبح أثيراً عند فوطيفار
وزليخا ، مكث عندهما في مأمن من الفوائل والحسدة ، مرتاح الضمير ، وملك
ثقة سيده ومحبة سيده ، وهذا هو عصره الفضي ، وكان هذا التمكين لأول
مرة عشر سنين ، من حين أن كان عمره (١٧) سنة إلى أن بلغ من السن (٢٧)
سنة ، وأما عصره الذهبي ، فأنما ابتداء بعد جلوسه على كرسي « وزارة المالية »
وعهد ملك مصر له بالوكالة المطلقة .

كان في عصره الأول ، وهو موضوع حديثنا الآن قرير العين ، رفيع الجنب ،
قد دفع كل شيء ليد ، مع أنه وجد في بلاد غربة ، ومملكة غير مملكته ، وعند
قوم لا يعرف سذمتهم ولا شيمتهم ، مع افتراق الأديان وتباين الأشكال ، ومنافرة
المذاهب ، ومع كل هذا كان النجاح في أعماله ، ألصق به من ظله ، وأسرع إليه
من الماء إلى منحدره .

(١) نسبة إلى الاسكندرية من البلاد المصرية .

كان هذا التمكين الأول. آخر عهد يوسف بحياته القديمة ، وأول عهده بحياته الجديدة ، وحياته القديمة هي حياته في حضن أبيه في بادية فلسطين ، مرؤوساً بين إخوته ، وحياته الجديدة هي حياته في قصر فوطيفار في حاضرة مصر ، رئيساً بالوكالة عنه في كل أشغاله .

ثانياً — رب سائل يقول ما هذا التمكين الذي كان عبارة عن وجوده عبداً في بيت فوطيفار ثم تلتها محنة ، ثم تلاه السجن بضع سنين ؟ فالجواب هو رب محنة في وسطها منحة ، فلولا هذه العبودية ! لا كان مجال للمحنة ، ولولا هذه المحنة ! لا كان هذا السجن ، ولولا هذا السجن لما عرفه رئيس السقاة ، ولولا رئيس السقاة ، ما عرفه ملك مصر ، ولولا ملك مصر ، ما صار يوسف على خزائن الأرض ، ولا صار (عزيز مصر) ولا وكيلاً مطلقاً عن مليكها الريان ، فهذه الأدوار كلها حلقات متلاحمة شكلت سلسلة نشأ عنها تمكين يوسف في الأرض .

ثالثاً — يتعدى التمكين باللام وبنفسه ، فيقال : « مَكَّنْ له في الأرض » : جعل له فيها مكاناً ، ونحوه : « أَرْضْ له » ، جعل له أرضاً ، ويقال : « مَكَّنْه في الأرض » ، أي أثبتته فيها ، والتحقيق أن معنى مَكَّنْه في الأرض أو في الشيء ، جعله متمكناً من التصرف ، تام الاستقلال فيه ، وأما مَكَّنْ له ، كما في هنا وكما في قوله تعالى في ذي القرنين : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ ﴾ ، (١٨ : ٨٥) ، فهو على تقدير المفعول المحذوف ، كأن يقال : مَكَّنَّا ليوسف ولذي القرنين في الأرض جميع أسباب الاستقلال في التصرف ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ﴾ ، (٢٤ : ٥٥) وقوله تعالى ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا ؟ ﴾ (٢٨ : ٥٧) ومعناه أنه يمكن لهم جميع شعائر دينهم ، يتظاهرون بها كما يشاؤون ، ويمكن لهم جميع جهات الحرم يمشون في أي جهة

يوسف م- ٣١

أرادوا ، ففي هذا التعبير من المبالغة والاتساع ما لا يوجد في التعبير الأول ، وقيل :
ان مكنته ومكن له كوهبه ووهب له ، وقل أبو علي : اللام زائدة ، كدفع له .

رابعا — وقمت جملة « وكذلك مكنا ليوسف في الأرض » في هذه السورة
مرتين ، فقيلت فيه أولاً ، باعتبار وجوده في بيت العزيز وكيلاً عنه في أشغاله
ومحبوباً منه جد الحب ، وقيلت فيه ثانياً ، باعتبار وجوده في البلاط ناظر مالية ،
ومحبوباً جـد الحب من الملك الريان ، فالتمكن الأول خاص ، وبطريق التبعية
لعزيز مصر فوطيفار ، لأن نَفَسَ العبد من نَفَسِ سيده ، فكان يوسف يتجول
في مستعمرات سيده ، ويأمر الزراع وينهاهم ، ويحل ويربط ، على حساب سيده
(العزيز) وبهمته ونفوذه .

تمكين يوسف الثاني

وأما التمكين الثاني فقد كان عاماً في كل المملكة الهكسوسية ، وبطريق
الاصالة ، ولذلك أتبعه بقوله تعالى : « يتبوا منها حيث يشاء » لأنه هو بذاته صار
« العزيز في مصر » مع « وزارة المالية » ومع الوكالة المطلقة عن الريان ، وههنا
نكتة يجب الانتباه إليها ، هي أن التمكين الأول ، كان ناشئاً عن إلقاء الله محبة
يوسف في قلب « عزيز مصر » وأما التمكين الثاني ، فكان ناجماً عن إلقاء الله
محبة يوسف في قلب « ملك مصر » ، فالأول تمهيد للثاني ، والثاني أقوى وأمن
من الأول ، واسع جداً وأطلق حرية ، وإن شئت قلت : إن التمكين الأول كان
نواة لشجرة التمكين الثاني ، « وأول الفيت قطر ثم ينهل » .

(ولنعلمه من تأويل الأحاديث ...)

—١—

قال الشهاب الحيفاوي^(١).

تعليم يوسف

كأنّ العناية الإلهية رأت أن يوسف بحسب السنن الجارية يحتاج في تعلمه علوم الاجتماع ، والعلوم الكونية ، والعلوم السياسية ، والعلوم المدنية ، ومبادلة الكلام ، والأخذ والرد ، والقبول والرفض ومصائر الكلام ومراميه وعواقبه و .. و .. الخ الخ ، فخرّ سبحانه وتعالى الأسباب التي اقتضت ذهابه لأرقى مملكة في العالم إذ ذاك . ليتعلم فيها ما ذكر وما إليه مما تتوقف معرفته على وجود الانسان في محيط راق .

ومما لا مشاحة فيه أن كل إنسان يكتسب العلم من ثلاثة ينابيع الارث والمحيط والتجارب ، فلم يعقوب وفرط ذكائه وقوة مداركه قد انتقل شيء منه لولده يوسف بطريق الارث ، فاخذ منه نصيباً مفروضاً ، ووجود يوسف في محيط كمصر أكسبه مبلغاً عظيماً من الفهم والنبيل والثقافة المصرية ، لأن مصر إذ ذاك كانت أرقى الممالك المجاورة لها ، كالكلدان واليونان وأشور وآرام ونحوها ، وقد حكى لنا التاريخ أن اليونان تلاميذ مصر وعالة عليها في المدنية ، والرومان تلاميذ اليونان . ثم صار العرب تلاميذ الرومان واليونان والفرس ، وصارت أوربا تلميذة للعرب ، فاساس المدنية والرفي والمعارف هو مصر ؛ وتجارب يوسف واحتكاكه

(١) نسبة الى حيفا من بلاد فلسطين

بذلك المجتمع الراقي زاده فضلاً على فضل ، وجعله يضم الى التالذ طريفاً ، نقوله تعالى : ﴿ ولتعلمه الخ ﴾ معناه لنضم لعلمه المطبوع ما يزيد من العلم المسموع ، وما لبث سبحانه أن وفي بما وعد فعلته من تأويل الأحاديث ما تطرب اليه أكباد الابل ، كما قال تعالى ﴿ ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً ﴾ ولولا هجرته لمصر لانهصر فضله في الحصنة التي وصلت اليه من طريق الارث ، فالله القدير الذي لا يخرج فعله عن السنن الكونية ، ولا يتجاوز ربط المسببات بأسبابها ، أرسله لمصر ، ومكن له فيها ليزيده من فضله ، بزيادة الأسباب التي هي أيضاً من وضه سبحانه وتعالى .

فوائد الارتحال والسفر

لا يسمع أحداً أن ينكر أن الارتحال من إقليم لإقليم أكبر ، والانتقال من بلد لبلد أعظم — من شأنه زيادة العلم ونمو مادته ، خصوصاً إذا كان الإقليم أو البلد الذي ذهب اليه متحضراً وراقياً أكثر فأكثر ، ﴿ الأعراب أشد كُفراً ونفاقاً ، وأجدر أن لا يمتدحوا حدود ما أنزل الله ﴾ (٩ : ٩٨) ، وفي الحديث « ساكن الكفور كساكن القبور » .

وقد سافر « ابن البيطار » إلى بلاد الأغارقة ، لجمع غريب النبات وتدوينه ، وسافر الامام « البخاري » لجمع صحيحه ، وساح كل من « الأسد الإفريقي » و « البيروني » و « الشريف الإدريسي » في آسية وأفريقية والجزر ، واكتشفوا تلك البقاع ، ووصفوا لنا تلك المواطن ، كما ساح « ابن بطوطة » وأخبرنا بالمجائب . ولذلك سن الشارع لنا السياحة ، واستشراف أحوال الأمم ، وتعرف قواها الخليفة والعمران ، والنظر في الكون ، وتنور أسرار الكائنات ، حتى قال عن

السياحة لأجل النظر في عواقب الأمم : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ، فَسَيِّرُوا فِي الْأَرْضِ ، فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ (٣ : ١٣٧) وقال عن السياحة لأجل النظر في تبدلات الدول والشعوب والمواليد : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ، فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ، ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ﴾ (٢٩ : ٢٠) ، وقال عن السياحة لأجل العلم والحج وصلة الرحم والجهاد : ﴿ النَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ ﴾ (٩ : ١١٢) وقال : ﴿ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ﴾ (٦٦ : ٥) ولكن الرجال للقتال ، والنساء لخدمة الجيش وتغريضه ، وقال تعالى عن السياحة لأجل التعقل واستخراج النتائج من الأقبسة : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ، أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ، فَانْهَاجُوا لَعْنَتِي الْأَبْصَارُ ، وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (٢٢ : ٤٦) تشير هذه الآية إلى أن السياحة تكسب الانسان تعقلاً وفهماً وإدراكاً ، أكثر وأكثر جداً مما لو بقي في بيته وبلده ، فالسياحة تزيد في سعة المدارك ، وتشرّف بالانسان أسرار العالم ، وعلى نواويس العمران والخراب في الأمم ، وعلى أسباب المدنية والوحشية في الشعوب ، وتجعل للانسان فكرة عامة على معنى الحياة الانسانية الصحيحة ، وهذا يعلو بالعقل والفكر ، ويسمو بها درجات متوالية على أقدار محسوسة ، فيحصل ما يسمونه « الترقى في الهيئة الاجتماعية » .

العلم الكسي والعلم الوهي

وغني عن البيان أن العلم نوعان ، كسيي ووهي : فالكسي يتوسل اليه بما يقرؤه الانسان في الكتب السماوية ، وما يؤثر عن الأنبياء وما يسمعه من آثار أصحاب الأنبياء ، وكذا من علماء الأمصار . وما يستفيدة من دقائق اللغة وأساليبها ، ومن

علوم الكون ، وشؤون البشر ، وسنن الله في الخلق ؛ وأما العلم الوهي فيكون
زيادة الفهم في أسباب العلم الكسبي وعلو المدارك في ينابيع هذا العلم .

المطف على محذوف في القرآن

والواو في قوله « ولنعلمه » للمطف على محذوف تقديره : « مكنا ليوسف في
الأرض لأغراض شتى ولنعلمه .. الخ » ، وهذه طريقة قرآنية ، وأسلوب عربي
لطيف ، ضابطه عطف مذكور على محذوف ، للايدان بأن المصلحة في إيجاد
يوسف بمصر وتمكينه فيها ليست بواحدة ، بل المصالح في ذلك كثيرة ، منها
ما لا تحويه العبارة ، ومنها تعليمه من تأويل الأحاديث ، ولهذا شواهد ومثل
كثيرة في كتاب الله تعالى : منها قول إبراهيم وإسماعيل (ع) : ﴿ رَبَّنَا...
وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ﴾ (٢ : ١٢٨) أي يا ربنا اجعلنا كذا وكذا واجعلنا
مسلمين لك ، أو كأنها يقولان : وفي النفس حاجات وفيك نباهة ، وعلمك بها يفي
عن ذكرها ، ولكننا نصرح الآن بواحدة منها ، وهي أن تجعلنا مسلمين لك ؛ ومنها
قوله تعالى : ﴿ يَرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ... وَلِتُكْمِلُوا
الْعِدَّةَ ، وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾
(٢ : ١٨٥) ومنها قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نَعْرِفُ الْآيَاتِ .. وَلِيَقُولُوا
دَرَسْتَ ﴾ (٦ : ١٠٥) ، ومنها قوله تعالى : ﴿ إِنَّ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ
مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ ، وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ .. وَلِيَعْلَمَ
اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ، وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ (٣ : ١٤٠)
ومنها قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بَيِّتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ
إِلَى مَضَاجِعِهِمْ .. وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ ، وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (٣ : ١٥٤) .

ومنها قوله تعالى : ﴿ وَالْقَسِيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةٌ مِّنِّي ... وَلَيْتُ صُنْعَ عَلَى عَيْنِي ﴾ (٢٠ : ٣٩) .

ومنه حديث : « أخوك البكريري ... ولا تتأمنه » .
وقول الأبوصيري :

يارب.. واجعل دعائي غير منعكس لديك واجعل رجائي غير منخرم
وإنما أكثرنا من شواهد هذا النوع ، لأن بعض المفسرين تكلم هنا
بكلام غير صحيح ، فكان حقاً علينا أن نذكر ما ذكرنا من الشواهد :
ولو كان هذا موضع العتب لاشتفى فؤادي ، ولكن للعتاب مواضع
هذا وأما الكلام في شرح « تأويل الأحاديث » بصورة مسبهة ، فقد كفانا
فيه المؤونة أخونا الشيخ مضيوف اليافي في محاضراته على قوله تعالى ﴿ وليعلمك
من تأويل الأحاديث ﴾ (آ : ٦) فليرجع إليه . (أحسنت)

(والله غالب على أمره)

— ١ —

قال السعيد الدوماني (١) :

الله غالب على امر نفسه أو على امر يوسف

إن الله سبحانه وتعالى غالب على أمر نفسه ، لا يمنع عما يشاء ، ولا ينزع فيما
يريد ويقضي ، أو إن الله تعالى غالب على أمر يوسف ، بدبره ، لا يكله إلى غيره ،
قد أراد إخوته به ما أرادوا ، ولم يكن إلا ما أراد الله ودبره .

فالله تعالى غالب على أمره الذي يريد من سلامة يوسف وحياته ، ورسوخ قدمه في أرض مصر ، وتعليمه فيها من تأويل الأحاديث ، معززاً مكرماً ، فمحاولة إعدامه وزلزلته وإهاتته وإذلاله عبث وضرب من المحال ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (٥٨ : ٢١) .

والله غالب على أمره ، غصباً عن الفلك ، فلا بد من تمكين يوسف ولا ندحة عن تعليمه . وكل ما أراد الله له واقع لا محالة ، ولا خيرة في الواقع ، رغم حسد الحاسدين ، وكيد الكائدين .

والله غالب على أمره ، فيوسف كان أصيب بموت أمه راحيل ، ثم بحسد إخوته له ومناواتهم إليه ، ثم بإلقائه في غيابة الجب ، ثم بأخذ المديانيين له واسترقاقه كملوك ثم بوجوده في بيت فوطيفار كخادم ، ثم بالتهمة الباطلة في ذلك البيت ، ثم بالاعتقال ظلماً ، فكان قضاء حياته معمل لنوازل الدهر وحوادثه ، ولكن رغمًا عن هذا كله ، فقد كانت عاقبته الترقى لأوج العلا .

وبعبارة أخرى إن الله غالب على أمره فيما غبر ، وفيما حضر ، وفيما يأتي من الزمان ، لأنه فعال لما يريد ، لا دافع لقضائه ولا مانع لحكمه في أرضه وسماؤه ، فلقوة يوسف أرادوا به كل سوء ومكروه ، والله أراد به الخير ، فكان كما أراد الله تعالى ، احتالت إخوته عليه ، فأوقعوه في البلاء الشديد ، فجعل تعالى وقوعه في ذلك البلاء سبباً في وصوله لمصر ، اتهمته امرأة فوطيفار ؛ وسعت في اعتقاله ، فكان ذلك سبباً في تعرفه برئيس السقاة في السجن ، الأمر الذي نجم عنه أن هذا الساقى أخبر بيوسف ، حتى صار « عزيزاً » في مصر ، صار عزيزاً بعد أن كان ذليلاً ، صار مليكاً بعد أن كان مملوكاً ، صار حراً بعد أن كان عبداً ، صار فوق العرش ، بعد أن كان تحت الأرض ، فهذا المعنى ونحوه قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ ﴾ .

آ (٢٢) جهل أكثر الناس أن الأمر كله بيد الله - شهادة الله ليوسف بالحكم والعلم والاحسان ٤٨٩

(ولكن أكثر الناس لا يعلمون)

— ١ —

قال عبد المتعم السلطي (١) :

جهل أكثر الناس أن الأمر كله بيد الله

أولاً — أكثر الناس في كل عصر ومصر لا يعلمون أن الأمر كله بيد الله تعالى وحده .

ثانياً — أكثر الناس لا يعلمون ، أي لا يدركون حكمته في خلقه ، وتلطفه وفعله لما يريد ، أو لا يعلمون ما الله به صانع .

ثالثاً — وردت هذه الفقرة في القرآن إحدى عشرة مرة ، ووردت بصيغة ﴿ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ تسع مرات ، والجملة عشرون مرة ، أنزلها الله من السماء تنفي العلم عن أكثرية الناس من وثنيين ويهود ونصارى ومسلمين .

شهادة الله ليوسف بالحكم والعلم والاحسان

آ (٢٢) ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ،
وكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾

افتتحت الجلسة وأليت الآية الثانية والعشرون فقام الشيخ محسن الصيداوي (٢) وقال :

يقول الله تعالى (ولما بلغ) يوسف (أشده) أي مبلغ الرجال (آتيناه حكماً)

(١) نسبة الى السلط من أعمال بلاد الشام (شرقي الاردن) .

(٢) نسبة الى بلدة صيدا من بلاد الشام (لبنان) .

منعاً لنفسه من المعاصي وإلزاماً لها على الطاعات (وعلماً) لدنياً ، قال تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾ (٢ : ٢٨٢) وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ﴾ (٢ : ٦٥) وإنا قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ تنبيهاً على أنه كان محسناً في عمله ، متقياً في عنفوان شبابه ، وأن الله آتاه الحكم والعلم جزاء إحسانه ، وعن الحسن (رض) : « من أحسن عبادة ربه في شبابه آتاه الله الحكمة في اكتماله » . والعلم علماً : علم لدني يحصل بمحض فضل الله تعالى على العبد ، لكن بسبب إخلاصه وتقواه ، وعلم كسبي وهو ما يكون بالسر والتعب ، وإلى هذا القسم الثاني يشير بعضهم بقوله :

لو كان نور العلم يدرك بالني ما كان يبقى في البرية جاهل
اجهد ولا تكسل ولا تك غافلاً فندامة العقبي لمن يتكاسل

(ولما بلغ أشده)

— ١ —

وقام الشيخ عبد الحلي الجولاني (١) وقال :

بلوغ يوسف الأشد

قضي الأمر ، وعاش يوسف في بيت فوطيفار ، عزيز مصر ، وهو متمتع بحياة طيبة ، محفوفة بالهناء والراحة ، لا يفكر إلا فيما يعود عليه بالسرور ، كأن لسان حاله يقول : أريد أن أنعم بالحاضر ، وأعد الماضي نسياً منسياً ، غير أنه كان في وسط هذه المسرات يتذكر أباه الشيخ الجليل ، فتفيض نفسه ، لبعده عنه ، وعدم

(١) نسبة الى الجولان احد أفضية بلاد الشام (سورية) .

تمتعه برؤيته ، زد على ذلك أنه كان يعتقد أن أباه في غمرات من الأحزان لأجله ، ولعله كان يفكر أن يكتب لأبيه كتاباً عن حياته ومكان وجوده وكافة أحواله الحاضرة والماضية ، ولكنه كان يخاف من إخوته العشرة أن يلحقوا به كيداً ، فيقمعن عن العمل بهذه الفكرة لوقت مناسب .

ومعنى « بلغ أشده » بلغ قوته ، وخرج من سن الصبوة ، قال « أبو نخيلة » يمدح « هشاماً » :

طُوِّقَتْهَا مُجْتَمَعُ الْأَشْدِّ فَانْهَلَّ لَمَّا قَمَتَ صَوْبُ الرَّعْدِ

أي نلت الخلافة ، وأنت مجتمع القوة مكتهل ، فانفتحت أبواب الخير .

أو تقول « بلوغ الأشد » عبارة عن بلوغ السن الذي يخرج به عن كونه ضعيفاً ، وقد اختلف أهل اللغة في هل هو مفرد ، أو جمع لا واحسده ، أو له واحد ؟ ... قال في اللسان : (الأشد) مبلغ الرجل الحنكة والمعرفة ، ونقل عن ابن سيده : بلغ الرجل أشده إذا اكتهل ، وقال علماء اللغة أقوالاً في معناه كثيرة ، ولكن لها طرفان ، أدناها الاحتلام الذي هو مبدأ سن القوة والرشد ، ونهايتها سن الأربعين ، حين تجتمع للمرء حنكته وتتمام عقله ، فبلوغ الأشد ، محصور الأول ، محصور النهاية ، غير محصور ما بين ذلك .

وقال الأزهري : الأشد في كتاب الله على ثلاث معان : أما في قصة يوسف فبلوغه مبلغ الرجال ، وكذا في اليتيم : حكمة أن يحفظ عليه ماله حتى يبلغ أشده ، وبلوغه أشده أن يؤنس منه الرشد ، مع أن يكون بالغاً ، وأما قوله تعالى في قصة موسى ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى ﴾ (٢٨ : ١٤) فقرن بلوغ الأشد بالاستواء ، وهو أن تجتمع قوته ويكتهل ، وذلك عن ثمان وعشرين إلى ثلاث

وثلاثين سنة ، وذلك منتهى الشباب ، وأما قوله تعالى : ﴿ حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة ﴾ (٤٦ : ١٥) فهي نهاية بلوغ الأشد .
ورأيت في خطبة الحجاج العراقية : « أخو خمسين مجتمع أشدي » .

الرشد والرشد في القرآن

ويقول العبد الحقير ، يوجد في القرآن الكريم كلمتان : « أشد » و « رشد » فكلمة أشد تعني النمو في الجسم والخروج من سن الصبوة . وكلمة الرشد تعني النمو في العقل وإصلاح أمور الدين والدنيا ، وهذه تكون من الأولى ، وتارة على إثرها ، وقد يوجد الأشد ولا يوجد الرشد ، بسبب عارض ، كما إذا عرض له إسراف وتبذير أو جنون أو قلة دين ، قال تعالى : ﴿ ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكمةً وعِلْماً ﴾ (٢٨ : ١٤) وقال تعالى : ﴿ وابتلوا اليأسى حتى إذا بلغوا النكاح ، فإن آنسستم منهم رُشداً فادفموا إليهم أموالهم ﴾ (٥ : ٤) ويمكن أن يكون قوله : « حتى إذا بلغوا النكاح » هو سن الأشد الذي يتقدم الرشد أو يقارنه ، فلا رشد إلا بعد تحقق الأشد ، وقد يوجد الأشد ولا يوجد الرشد إلا بعد مدة ، ولكن يوسف (ع) من حين أن بلغ الأشد أوتي الرشد بإيتائه الحكيم والعلم .

(أحسنت)

(آتيناه حكمةً وعِلْماً)

— ١ —

قال العلامة المعري (١) :

ابناء يوسف الحكمة العملية والحكمة الفكرية

أصل « الحكيم » الإلزام والمنع ، وسميت (حَكَمَة) الدابة بهذا الاسم

(١) نسبة الى مرة النعمان من بلاد الشام (سورية)

لأنها تمنع الدابة عن الحركات الفاسدة ، و « الحكم » ملكة في النفس بها يقرر الإنسان أن يحكم نفسه ، بحيث يلزمها الطاعات ، ويمنعها من المعاصي ، و « الحكم » بهذا المعنى هو « العصمة » التي تكون في الأنبياء ، ويجب علينا اعتقادها فيهم ، ولهذا كثر ذكر إتياء الحكم لهم في القرآن الكريم بهذا المعنى ، والحكم بهذا المعنى تصدر عنه العلوم الدنيوية والمعارف الوهبية ، التي تكون في الدرجة الأولى للأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ولهذا ذكر العلم هنا بعد الحكم .

ورأى بعض المحققين أن معنى « حكماً وعلماً » حكمة عملية ، وحكمة فكرية ، ويقال لمن أوتي الحكم أو الحكمة (حاكم وحكيم) ويقال لمن أوتي العلم (عالم وعليم) . فيوسف أوتي العلم العملي ، المدعو تارة بالحكم وتارة بالحكمة ، وأوتي العلم الفكري الذي هو معرفة الأشياء ، وبعبارة ثانية: يوسف أوتي الحكم الذي فيه استخدام الجسم والحواس ، والعلم الذي فيه استخدام العقل والروح ، وبعبارة ثالثة: أوتي حكم النفس بالنفس ، أي منعها عما لا ينبغي (وهذا المعنى يدخل فيه ما يدعونه بالعصمة والعفة أو الحفظ) ، وأوتي العلم اللدني الذي لا يصل إليه الإنسان إلا بتلك المجاهدات ، فالثاني هو نتيجة الأول ، كما قال تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾ (٢ : ٢٨٢) ، وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً ﴾ (٨ : ٢٩) ، وفي الحديث الشريف : « مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلَّمَهُ رَزَقَهُ اللَّهُ مَا لَمْ يَعْلَمْ » .

لا ينشأ الحكم عن العلم بل عن الدين

وأذكر أنه اعتفاني أحد الطلبة يوماً من الأيام ، فاستفتاني قائلاً : نرى الله جل

جلاله قد أتبع كلمة « الحكم » بكلمة « العلم » في كتابه الكريم أربع مرات ، كما قال تعالى في شأن يوسف : « ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً » وقال تعالى في شأن لوط : ﴿ ولوطاً آتيناه حكماً وعلماً ﴾ (٢١ : ٧٤) وقال تعالى في شأن موسى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى ، آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً ﴾ (٢٨ : ١٤) وقال تعالى في شأن داود وابنه سليمان : ﴿ وَكُنَّا آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً ﴾ (٢١ : ٧٩) قال : فلماذا نراه تعالى يذكر العلم بعد الحكم حينما يذكرهما معاً ، مدحاً وثناءً على أنبيائه الكرام عليهم الصلاة والسلام ؟ ... فأفئته بقولي : إن الله تعالى علم أنه سيوجد أناس في مستقبل الأيام يسمون (بالفلاسفة) يقولون : (إن الحكم فرع عن العلم ، فمتى كان الانسان عليمًا كان حكيماً ، لأن علمه يحكمه ويعينه من ارتكاب ما لا ينبغي ، ويدفعه لعمل ما ينبغي ، ومن هؤلاء « ابن رشد » من فلاسفة الاسلام فيما حكى عنه ... ، وقد قالوا : « إن الدين إنما تقصد به منفعة العامة فقط ، أما العلماء ففي غنى عنه بعلومهم » ، وقلت له : فلذلك سبق الله تعالى وذكر العلم بعد الحكم ، ليشير إلى أنه ليس الحكم ينشأ عن العلم ، ولكن عن الدين ، فلا غنى لأحد مطلقاً عن الدين ، سواء أكان عالماً أم جاهلاً ، نعم يوجد قبل الحكم علم يقال له علم الشريعة أو علم الفقه ، ويوجد بعد الحكم علم يقال له العلم اللدني ، ويقال لأولهما كسبي ولثانيهما وحيي ، وليس الفقه ، بمعنى معرفة الأحكام ، هو المراد من كلمة « علم » في هذه الآيات ، بل المراد منها العلم اللدني الوحيي ، وتسبب العلم الوحيي عن الحكم ظاهر ، بخلاف تسبب الحكم عن العلم الكسبي الذي هو الفقه ، « فكم من فقيه ، يتبلغ المأذنة في فيه ... » .

فظهر مما قررنا ان لفظ « الحكم » هنا مرادف للفظ الحكمة ، لا فرق بينهما ، أبداً ، يقال : « الصمتُ حُكْمٌ » أي حكمة ، على حد ما في قول المتنبي :
 إن بعضاً من القريض هُراءٌ ليس شيئاً وبعضه أحكامٌ

فأحكام جمع حُكْم مراداً منه الحكمة ، ومعنى آتيناه حكماً وعلماً ، أنعمنا عليه برتبتين : رتبة « حكيم » ورتبة « عليم » ، بل وحققناه بذلك ، فكان يتصرف في كل أموره بحكمة ودراية .

تفسير العلم بالمعرفة

هذا وقد قال بعض الأصدقاء : إن لفظ (العلم) في القرآن أينما وجد هو بمعنى المعرفة بأوسع معانيها ، وهو بهذا المعنى يطلق حتى على المعارف الدنيوية كما ورد على لسان (قارون) : ﴿ قَالَ : إِنِّي أَوْتَيْتُهُ - أي المال - عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ (٤٩ : ٣٩) أي معرفة بطرق كسب المال ، ومنه قوله : ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ على قول المفسرين إن معناه تفسير المرائي المنامية ، ومن علمه الدنيوي أيضاً أنه بعد ما عبر ودو في السجن رؤيا (الملك) التي جاء بها (الساقى) أتبعه بتدبير (اقتصادي) وهو قوله : « تزرعون .. الخ » وعلم الاقتصاد من العلوم الدنيوية . وبعد ، فأكثر ما يستعمل (العلم) في المعرفة التي توصل إلى الهداية كما يوجد ذلك في أكثر آيات القرآن .

(آتيناه حكماً وعلماً)

— ٢ —

وقالت السيدة قوت القلوب المصرية :

إيتاء يوسف قوة الإرادة ونور العقل

أوتي يوسف « الحكيم » بحيث صار يحكم نفسه عما لا يليق ، لأنه قوي الإرادة وهذا هو الحد الفاصل بين الفضيلة والرذيلة ، لأن الناس يتشابهون في ميولهم

البدنية ، وفي تمييزهم بين الفضيلة والرذيلة ، وإغما يتفاضلون بقوة الإرادة على كبح الشهوات ، والعمل بما يقتضيه الشرع ويوجبـه الضمير ، ففي مثل ذلك الموقف يتفاضل الناس ، وأقربهم إلى الفضيلة أقوام إرادة ، فأهل النزاهة والعفة لا يفضلون سواهم بالتمييز بين الخير والشر ، ولا يفهمون من معنى الفضائل والرذائل أكثر مما يفهم سواهم ، ولكنهم يفضلونهم باقتدارهم على ضبط عواطفهم ، فإذا استطاعوا ضبطها حفظوا كرامتهم طول العمر ، وعاشوا في راحة وسعادة ، يدلك على ذلك ان الذين يعجزون عن كبح شهواتهم ، ويستسلمون لأهوائهم ، لا يلبثون أن يندموا حين لا ينفع الندم .

ثم أوتي يوسف « العلم » الذي هو نور العقول ، وحياة النفوس ، وحسبنا في تعريف فضله قوله تعالى خطاباً لخاتم الأنبياء ﷺ : ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾ (٢٠ : ١١٤) ، وقوله ﷺ : ﴿ إِذَا أَنَى عَلَيَّ يَوْمٌ لَا أَزْدَادُ فِيهِ عِلْماً يَقْرِبُنِي إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، فَلَا بُورْكَ لِي فِي طُلُوعِ شَمْسٍ ذَلِكَ الْيَوْمَ ﴾ .

والعلم خير من المال ، لأنك أنت تحرس المال ، ولكن العلم يحرسك ، والمال بلا علم صائر للزوال :

إذا لم يكن علم يزان به الفتى فقال الفتى جهل عظيم يشينه
لعمرك إن المال داعية الهوى إذا هو لم يُصحب بعلم يصونه

يمكن رفع الانسان وخفضه في كل وقت ، والآلة الرافعة والحافظة له هي العلم أو الجهل ، وعلة الملل في ارتقاء الانسان وانحطاطه هي العلم أو الجهل ، وما عدا ذلك فأسباب ثانوية ، والعلم هو أهم سلاح تسليح به يوسف للاقتصار على العزيز وامراته ، ثم للرقى إلى البلاط الملكي ، ثم للاقتصار على إخوته ، فعمله وهو « فرد »

انتصر عليهم ، وهم « عصابة » هو فزع إلى القوة العلمية ، وهم فزعوا إلى القوة الجسمية ، والجاهل ولو قوياً بالجسم ، مع العلم ولو ضعيفاً بالبدن ، كالأعزل مع المدجج بالسلاح .

وبعد ، فيظهر لنا ان إيتاء الله يوسف — وهو في بدء سن الأشد — الحكمة والعلم هو من قبل الإرهاص لنبوته المزمعة أن تصير ، فهو بآياته « الحكم » يكون قد ملك نفسه وهواه ، وبآياته « العلم » يكون قد انتقل من دور التقليد لدور معرفة الحقائق كما هي .

ورد في الحديث الشريف : « الشباب شعبة من شعب الجنون » ، وقال بعض الشعراء :

إن الشباب والفراغ والجِدَّة مفسدة للمرء أي مفسده

فالمادة ان الانسان في شرح شبابه ، تكمل فيه قوة الشهوة الحيوانية ، فيميل مع هواه ، وينزل على إرادة عواطفه ، حتى انه ليستغرب حال من يخالف هذه العاطفة ، كما في حديث : « عجب ربكم من شاب ليس له صبوه » ، ولكن في نحو هذا الوقت أوتي يوسف مايؤتاه الشيوخ الكبار ، من العفة والطهارة والعلم الوهبي . فهذا القول : « ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً » ، وكذلك تجري المحسنين . كالتمهيد الاستدراكي أو كالاتدراك التمهيدي قبل قوله : « وراودته التي... الخ » . فكان الله تعالى يقول : قبلما تراوده تلك المرأة عن نفسه هو كان قد ترقى إلى الدرجات العلوية ، وصار كأهل الملائكة الأعلى ، طهارة وصفاء وقداسة ، وأحرر عن آتاه الله (الحكم والعلم) أن يكون طاهر النفس ، وتقي الثوب .

(حسن وحسن جداً)

(آتيناہ حکماً وعلماً)

— ٣ —

وقال السيد محمد الجاوي (١)

سبب تقديم الحكم على العلم

قدم الله الحكم على العلم ، مع ان العلم مقدم على الحكم ، لأن الانسان أولاً ، يعلم ثم يعمل ، ليسر دقيق لا يعقله إلا من وفقه الله تعالى لفهم دقائق أسرار كلام الله العزيز جل جلاله وذلك انه لا يلزم من العلم الحكم ، فكم وكم من عالم لا يقف عند حدود علمه ولا يعمل به ، كما انه لا يلزم من الحكم العلم ، فكم وكم من حاكم لنفسه تقليداً لغيره ، مع جهله وقلة علمه ، فلا يقع فيما نهى الله عنه ، ولكن لا عن علم بل عن تقليد ، وعلى هذا فلا ملازمة بين الحكم والعلم ، فقد يكون حكم بدون علم ، ولكن عن تقليد ، وقد يكون علم بدون حكم ، وهو الذي لا يعمل بعلمه ، وهما مصيبتان كبيرتان ، وفتناتان عظيمتان ، ولكن أيهما أكبر من أختها ؟ لا شك ان الثانية أكبر من الأولى ،

وعالم بعلمه لم يعمل معذب من قبل عباد الوثن

فالحاطي عن جهل ، أخف جرماً من الحاطي بعد العلم ، والجاهل التقي ، خير من العالم الشقي ، إذ ألتقوى مع الجهل ، خير من الشقوة مع العلم ، وبذلك صار الحكم أهم من العلم ، وإن المهم المقدم ، وقد أخبر تعالى أن اتباع الهوى ، وهذا يكون بترك الحكم ، يضل عن سبيل الله ، ولم يخبرنا بأن عدم العلم كذلك ، فقد يكون الانسان سالكاً سبيل الله تقليداً ، لا علماً كما قررناه ، قال تعالى : ﴿ ياداعود انا جعلناك خليفة ﴾

(١) نسبة الى جزيرة جاوة من بلاد اندونيسيا .

في الأرض ، فاحكم بين الناس بالحق ، ولا تتَّبِعِ الهوى ، فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٣٨ : ٢٦﴾ ولم يرد وعيد كهذا للجاهل ، ولا تنس ههنا ان أهل الفترة الناجون ، وان المقضوب عليهم أقبح من الضالين ، وان الفواة أرباب الشهوات ، أقبح من الضلال أصحاب الظنون والشبهات .

(و كذلك نجزي المحسنين)

— ١ —

قال مولانا عمر البيلاني (١) :

إن لي على هذه الآية الكريمة خمسة تعليقات :

١- اجماع على احسان يوسف

التعليق الأول: — نسمع هذه الآية في هذه السورة ترن على آذاننا كثيراً ، فمرة نسمع الله يقول في شأن يوسف : ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ (آ ٢٢) ، ثم نسمع الفتيين السجينين يقولان له : ﴿ نَبِئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ، إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (آ ٣٦) ، ثم نسمع إخوته يقولون له : ﴿ فَخُذْ أَعَدْنَا مَكَانَهُ ، إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (آ ٧٨) ، ثم سمعناها من فم يوسف نفسه متحدثاً بنعمة ربه يقول : ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (آ ٩٠) ، وهذا من قبيل توارد الخواطر ، الذي يفيد تحقق مورده ، فالرب والعبد ، والأقارب والأباعد نطقوا بنعمة واحدة ، هي ان يوسف كان محسناً ولا بد .

الجزاء على السبب لا على النسب

التعليق الثاني : — لم يقل : وكذلك نجزي أولاد الأنبياء ، أو يقل : وكذلك

نجزى ذوي البيوتات المريقة في المجد ، بل جعل هذه المجازاة أثراً من آثار إحسان يوسف في أعماله وأقواله وأفكاره وسيره وسيرته ، لأن الله تعالى لا ينظر للأنسب والأحساب ولكنه ينظر الى الأعمال والنوايا ، فالمرء بأعماله ، لا بأمله ، وبسببه ، لا بنسبه ، وبطي لسانه ، لا بطيلسانه ، وبأصغريه ، قلبه ولسانه ، وبجنانته ، لا بجبنانه .

أركان الاحسان

التعليق الثالث : — رب سائل يسأل : ما هو هذا الاحسان الذي كان يوسف متحلياً به ، حتى استحق المكافأة عليه ، وصار به خليقاً لا يتاء الله إياه (الحكم) وجدير أن يسدي الله اليه مَوْهَبَةً (العلم) اللذي ؟

فنجيب قائلين : الاحسان يقوم بثلاثة أركان ، الركن الأول — العقيدة ، وهي الايمان بالله تعالى وكتبه ورسله واليوم الآخر ، والركن الثاني — الأعمال البدنية والمالية ، وهي الصلاة والصوم والحج والزكاة والصدقة وما إلى ذلك ، والركن الثالث — الآداب مع الله والناس ، والأخلاق الفاضلة ؛ وذلك يقوم بسلامة القلب ، وحسن النية ، وطهارة الوجدان ، وصلة الرحم ، ونفع أهل الجوار ، والنصيحة والارشاد ، والصبر عن وعلى ، والوفاء بالوعد ، والثبات على العهد ، والصدق في القول والعمل ، والوداعة ومحبة الخلق ، والتفكر في آلاء الله تعالى ومصنوعاته ، وآياته العجيبة ، وطاعة الوالدين ، والعفو عن المسيء ، والصفح عن الزلات والحلم والأناة ومقابلة السيئة بالحسنة وخدمة الإنسانية وخدمة المصالح العامة ، والكف عن الضرب والقتل والسرقه ، وزجر النفس عن الكبرياء والغضب ، والرجوع إلى الحق بعد ظهوره ، وتنزيه القلب عن الحقد والبغض ، وصون اللسان وسائر الأركان عن الكذب والبهتان ، وترك الغيبة والنميمة وكل أمر مكروه ، وعدم البغيان على أي إنسان ، ومزايلة الأشرار .

اركان الوصاية في القرآن ونجلي يوسف بها

قال تعالى وفيه صراحة بالأركان الثلاثة ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ؛ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ - ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ، وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ، وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا، وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ. أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (٢: ١٧٧)، ولقد كان يوسف متحلياً بهذه الأركان الثلاثة التي منها إيتاؤه المال ذوي القربى، إذ أنه أمر فتياه أن يجعلوا بضاعة إخوته في رحلهم، فهم لما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم، ومنها صبره في البأساء والضراء كصبره في غيابة السجن وصبره على أخذه لمصر وبيعه وخدمته في بيت العزيز كمبد. وصبره عن سوء والفحشاء، وفي غياهب الحبس وصبره عن شفاء غليله من إخوته.

وقال تعالى وفيه عشرة أسهم من أسهم الدين: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ، الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٩: ١١٣)، ولقد كان يوسف (تائباً) راجعاً في كل حين إلى ربه، (عابداً) له بأركانها وجنانه (حامداً) له أيام حريته وأيام رقه (سائحاً) بهجرته من بلاد الهوان إلى بلاد الإطمئنان (راكعاً ساجداً) لمولاه (آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر) كما وقع منه مع الفتين السجينين، إذ نهاهما عن الوثنية، وأمرهما بالتوحيد، (حافظاً لحدود الله) إذ لم ينزل على إرادة امرأة العزيز ولم يخن سيده في أهله وعرضه.

وقال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ، الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ،
وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ
حَافِظُونَ ، - إِلَى أَنْ يَقُولَ - وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَعْدِهِمْ رَاعُونَ ،
وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ، أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ، الَّذِينَ يَرَثُونَ
الْفِرْدَوْسَ ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٣٣ : ١ - ١١) وبديهي أن يوسف كان
(مؤمناً) بالله (خاشعاً في صلاته) لمولاه (معرضاً عن اللغو) كما ظهر ذلك جلياً
في إعراضه عن لغو إخوته حينما قالوا له : ﴿ إِنَّ يَسْرِقَ فَسَقَ سَرِقَ أَخْ لَه
مِنْ قَبْلُ ، فَآسَرْنَاهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبَدِّهَا لَهُمْ ﴾ (مزكياً) كما
آنس منه إخوته ذلك إذ قالوا له : ﴿ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾
ولا بد أن يكون قد صدق ظنهم فيه (حافظاً لفرجه) ، (مراعيّاً لأمانته) كما
ظهر ذلك بأجلى مظاهره في حادثة سيدته معه .

فما اشتملت عليه هذه الآيات الكريمة هو قوام الإحسان الذي وصف به
يوسف عليه السلام ، ولذا كان خليقاً بما أنعم الله عليه من الوسامين المرصعين ،
وهما وساما (الحكم) و (العلم) مكافأة له على إحسانه . وفي قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ
فَجَعَلْنَاهُ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ تقريظ ليوسف ، بأنه لم يؤت ما أوتي به مجاناً أو محابة ،
لا . لا . بل لسابق إحسانه في أقواله وأعماله ونواياه وسرايره ، أي أنه تعالى
وجه عليه وسامي (الحكم والعلم) لأنه محسن ، فهو فن بذلك ، وهكذا هو
تعالى يجزي سائر المحسنين .

الجزء يكون في الدنيا كما في الآخرة

التعليق الرابع - قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ يريد به الجزء
الدنيوي ، لأن هذا الجزء الذي عجل ليوسف هو كان في الدنيا ، كما سيأتي قوله

في موضع آخر : ﴿ وكذلك مَكْنُئًا لِيُؤسِفَ فِي الْأَرْضِ ، يَتَسَبَّوْا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ، نُنْصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ ، وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ، وَلَا أَجْرَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ (آ ٥٦ و ٥٧) .

فكثيراً ما يصيب الإنسان في الدنيا صنوف من الخير ، جزاء على أعماله الصالحة ، وصنوف من الشر ، عقاباً له بما اجتراح من الأعمال السيئة ، كما يظهر أن تدبر سنة الله في خلقه ، ودرس توارىخ الأمم الخالية والأمم الحاضرة ، فليس الجزاء على الأعمال الصالحة ، والأعمال السيئة مقصوراً على الآخرة فقط ، بل يكون في الدنيا كما في الآخرة ، ولكن لكل دار ما يناسبها من الجزاء .

(فالحكم والعلم) الذي أوتيته يوسف هو من الجزاء الذي يستحقه على إحسانه ، جزاء معجلاً في الدنيا ، فهو من قبيل : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾ (٢ : ٢٨٢) ، ومن قبيل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، إِنَّ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا ﴾ (٨ : ٢٩) ومن قبيل : ﴿ ذَلِكَ بِمَا عَدَّيْنِي رَبِّي ، إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (آ ٣٧) الخ حيث جعل تعليم ربه له ثواباً على ترك الوثنية واتباع التوحيد .

فيوسف أحسن أعماله وأقواله ونواياه ، فأحسن الله إليه ، لأنه : ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ (٥٥ : ٦٠) وهذه قاعدة جارية في الدنيا والآخرة ، لأن كلام الله تعالى فيها مطلق ، نعم هو في الدنيا مطرد في الامم ، وغير مطرد في الأفراد ، وأما في الآخرة فهو مطرد للجميع .

الله يؤتي الحكم والعلم لكل من اتصف بالاحسان

التعليق الخامس — نتعلم من هذه الآية ان إبتاء الله (الحكم والعلم) ليس هو عطية شخصية ، ولكنها عطية وصفية ، وأريد أن أقول إنها ليست عطية خاصة

بشخص يوسف ، ولكنها عامة لكل من اتصف بالاحسان ، وهكذا العطية في قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ، يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ، نُنْصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ ، وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (آ ٥٦) فتعلم منه ان كل من كان محسناً ، مكّنه الله في الأرض ، وأصابه برحمته ، فليس هذا العطاء متعلقاً بالشخص ، ولكنه منوط بالوصف ، يدور معه حيثما دار ، وهكذا نتعلم من قول يوسف الآتي : ﴿ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ، إِنَّهُ مَنْ يَشَقْ وَيَصْبِرْ ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (آ ٩٠) ، فمِنَّة الله على عباده بالنعم الوافرة ليست مرتبطة بشخص مشخصين ، ولكنها مرتبطة بوصفي التقوى والصبر ، فأبنا وجدت التقوى والصبر ، وجدت نعم الله .

الوعد يتناول الناس بحسب أوصافهم

نأخذ من المثل السابقة وأشباهاها قاعدة ، هي : الوعد لا يكون قاصراً على أشخاص وآحاد معينين ، بل إنه يتناول الناس بحسب أوصافهم ، واليكم بعض الأمثلة على ذلك من غير سورة يوسف :

(١) — ﴿ وَاعْدِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ (٣٤ : ٥٥) فالموعدون بالاستخلاف في الأرض ليسوا هم أشخاص الصحابة فقط ، بل كل من اتصف بالإيمان والعمل الصالح .

(٢) — ﴿ إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ ﴾ (٢٧ : ٧) فهذا الوعد ليس خاصاً بشخص الصحابة ، بل هو عام لكل من اتصف بنصر الله .

(٣) ﴿ رَبَّنَا ... وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ ، وَلَا تَخْزِنَا

يَوْمَ الْقِيَمَةِ ، إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ، فاستجابَ لهم رَبُّهُمْ ﴿٣﴾ الخ (١٩٤ : ١٩٥) فهذه الاستجابة ليست خاصة بأولئك الصحابة أولي الألباب ، الذين كانوا يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، ويتفكرون في خلق السموات والأرض، ثم يتلون هذا الدعاء ، وليست هذه الاستجابة منوطة بأفراد بحسب ذواتهم ومشخصاتهم ، بل هي عامة لكل من اتصف بتلك الأوصاف ، لأن فضل الله ليس قاصراً على شخص دون شخص ، ولكنه منوط بالأعمال والأوصاف ، فأبنا وجدت الأعمال والأوصاف ، تحقق وعد الله تعالى ، فالله تعالى لا يراعي ولا يحابي الأشخاص ، ولا ينظر إلى الوجوه ، ولكنه ينظر إلى العمل التقى ، فينوط به الجزاء الألهي .

الله يؤتي كل محسن حكماً وعلماً على قدر احسانه

وعلى هذا فيمكننا أن نقطف من قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ قاعدة كلية مطردة ، وهي ان كل محسن يؤتيه الله حكماً وعلماً ، على قدر إحسانه ، ممن كان وممن هو كائن ، وممن سيكون وسوف يكون . فليعتبر بذلك القارئون والسامعون .

المراودة

آ (٢٣) * وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ،
وَعَلَّقَتْ الْأَبْوَابَ ، وَقَالَتْ : هَيْتَ لَكَ ! - قَالَ : مَعَاذَ
اللَّهِ ! إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ . *

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثالثة والعشرون وما كاد المقور ينهي
من تلاوتها حتى سمع جلبة من مقصورة النساء المؤتمرات كلا ممن تريد
التكلم على هذه الآية فقامت أولاهن وهي السيدة انصاف الدمشقية وقالت :

في يوم من الأيام دخل يوسف القصر ليقوم ببعض الخدم والملاحظات
والترتيبات على حسب عادته ، فاتهزت امرأة سيده فرصة خلو المكان من كل
أحد ما عداها ، فاقتربت منه (وراودته) أي كلمته (التي هو في بيتها) وهي السيدة
زليخا - والمراودة مفاعلة من راد يرود : إذا جاء وذهب ، كأن المعنى خادعته -
(عن نفسه) أي فعلت ما يفعل الخادع لصاحبه عن الشيء الذي لا يريد أن يخرج
من يده ، يَحْتَالُ أَنْ يَغْلِبَهُ عَلَيْهِ وَيَأْخُذَهُ مِنْهُ ، وهي عبارة عن التمثل لمواقفه إياها
(و) لما لم تفد المراودة الكلامية وقام بها تهيج جنسي شديد (غلقت الأبواب)
أي كل ماله قصر من أبواب ، حذراً من هروبه ، وخوفاً من مجيء إحدى الخاديات
على غفلة ولئلا يسمع أحد كلامها ، إذ الأبواب والنوافذ آذان البيت ، (وقالت)
له بصريح العبارة وبلسان الغرام والحب (هيت) أي أقبل ، فسألها لمن قولين
هذا الكلام ؟ - فقالت (لك) - (قال) بلسان العظمة والنفور : بَرَحَ ، لا

يكون ذلك دون أن يبيض الفار ويجتمع الليل والنهار ، أنا أخون مولاي العزيز في عرضه ؟؟؟!! .. (معاذ الله) أي أعوذ بالله معاذاً (إنه) أي الشأن والحديث (ربي) سيدي ومالكي وهو فوطيفار ﴿ أَحْسَنَ مَثَوَايَ ﴾ حين قال لك : ﴿ أَكْرَمِي مَثَوَايَ ﴾ ، فما جزاؤه أن أخلفه في أهله سوء الخلافة وأخونه فيهم ﴿ إِنَّهُ لَا يَفْلَحُ الظَّالِمُونَ ﴾ الذين يجازون الحسن بالسيء .

(وراودته التي هو في بيدها)

— ١ —

وقالت السيدة عليّة المكيّة (١) :

المرآودة من زليخا والترفع من يوسف

جعلت زليخا تفكر فيما مر بها من الأحوال منذ عرفت يوسف ، وما رآته من حوادث الحب وهو اجسه ، وتذكرت حلها قبل قدوم يوسف إليها ، وأنها كانت خلية البال ، لا تعرف الهواجس ولا الأفكار ، وكان السبب في ذلك كله الحب ، ذكرت يوسف وجماله فطارت عجباً ، ثم ذكرت أنه فتاها ورهين إشارتها فرقص قلبها طرباً وسهل عليها ما ينتابها من الشواغل والحب ، ظنت أن في وجوده عندها بصفته عبداً لها مؤتمراً بأمرها تعزية لها ، تنسيها الهموم وتخفف عنها الأحزان ، وتهون عليها أمر حبها له ، فانتعشت جوارحها وثابت إليها آمالها . وانجلى صدرها وانبسطت نفسها ، وكانت عادة في مستقبل العمر ، وشرح الفتوة ، جميلة الطلعة ، قد أشرق وجهها بماء الشباب ، وقد تعبدت له وسلمته قلبها . لأن المرأة

(١) نسبة الى مكة المكرمة من البلاد الحجازية .

تفوق الرجل في بعض القوى العاقلة ، كالإدراك عن طريق الحواس ، المعروف بالشعور ، وكسلامة البداهة والذوق العقلي ، فلذلك مالت إليه كثيراً . ومع كل هذا لم تكن ترى منه ميلاً وانعطافاً فلبثت أياماً تتردد بين اليأس والرجاء ينقبض صدرها تارة ، وينبسط أخرى ، فبالغت في تعزية نفسها عنه ، ولكنها لم تنزع ، فغلب الحب على عواطفها ، واستحوذ الضعف الطبيعي وسلطان الهوى على مشاعرها وعيل صبرها ، فخفضت أمواطفها ، ورغخت لأميالها ، فانتهزت فرصة دخوله البيت ليصلح بعض شأنه ، كما هو العادة كل حين ، فلم يرم مكانه حتى دنت منه ، وجملت تنظر إليه نظرات الحب والشفغ ، وتفضي إليه من طريق الصمت والسكون ، بما تحجل عن الإفضاء به من طريق الكلام ، ولما لم يفد معه ذلك ولم تطق هي صبراً استجمعت قواها فراودته ويا للخجل !!! ... فاقشعر بدنه ووقف شعره ، وقال مستهجنأ مستغرباً : ماذا تقولين يا امرأة ؟ ... ! لقد ابتغيت بيض الأنوق ، وطلبت المستحيل ، إني ولدت شريفاً ، وعشت شريفاً ، هو ذا دم الشرف والأصالة جار في عروقي ، وهامي ذي العفة العنقية سارية في كل جروحي ، فبعد ذلك هل أسمع للتاريخ أن يسجل عليّ فعل الفحشاء ؟ ... لا والذي نفسي بيده وبعد فهل لهذا غلقت الأبواب ، وتنازلت ممي في الخطاب اللين ، فوالله ما أحسنت في القول ، ولا أجملت في الفعل .

الكبرياء

إنه لأمر غريب أمر هذه المرأة ! فقد كانت تحسب مراودتها إياه منة وتكرماً عليه ، وكانت تظنه لا يلبث إن علم بميلها أن يطير فرحاً ، لأن حاله الدنيوي منقطع عن حالها كثيراً ، فهو فتاها وعندها ، وعبراني غريب ، وهو في نظرها من السوق ، ومن سائر الناس ، وهي سيدته وقرينة سيده ، وأميرة من أميرات

البلاط الملكي ، ومن سلائل الفراعنة فلذ لسم كانت تتوقع منه قبول اقتراحها ،
والنزول على إرادتها بما لها من دالة السيادة والنفوذ .

المرأة العتيقة الجديدة

وغنى عن البيان ، أن هذه المرأة من قديميات النساء المصريات وهو ظاهر ،
لأن بينها وبين الإسلام ما يقرب من (٣٧٠٠) سنة قمرية فهي بحسب
الزمان من نوع « المرأة القديمة » ولكنها بحسب مسلكها وأفكارها . هي من نوع
« المرأة الجديدة » ، إذ كانت لها السيادة المطلقة في المنزل ، بدليل قول العزيز لها :
« أكرمى مثواه » ، وكانت تبغض الحجاب بغض الشريقات للسفور ، بدليل أنها
راودته عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت : « هيت لك » وكانت متهتكة لا تبالي
بشيء ، بدليل أنه لما هرب منها لحقته الى الباب ، وهي متملة نبيهة مدافعة كأكبر
المحامين ، بدليل قولها للعزيز ، وهي في أخرج المواقف وأذهبها للألباب : « ما جزاء
من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم » ، وقولها للسيدات المصريات :
« هذا الذي امتني فيه » تقيم عليهن الحجة ، وكانت تعرف كل شيء ، إلا واجب
عرضها وواجبات زوجها ، بدليل أنها خانتة في نفسها أولاً ، ثم لم تمثل أمره ثانياً ،
وكانت لها المهارة في الخداع والتغلب على عقل الزوج ، بدليل أنها نفذت وعيدها
ليوسف بالسجن ، فاقنعت زوجها بذلك ، فسجنه حتى حين ، وأخيراً كانت ذات
بيان واقتدار فصيحة وخطيبة بليغة ، بدليل النطق الذي فاهت به أمام مندوب
التحقيق من طرف الملك ، إذ قالت : « الآن حصحص الحق » الى آخر الآيات
الثلاث ، فهي بأوصافها هذه تعد من نوع « المرأة الجديدة » بكل معنى الكلمة .

المرأة أعف من الرجل

وقبل الختام ليسمح لي السامعون الكرام أن أتصر للمرأة ولهم عليّ أن لا أتكلم إلا بما يوافق العقل والمنطق وبما هو مدون في بطن كتب التاريخ :

إن هذا النوع من بدء المرأة بمراودة الرجل نادر ، وقليل جداً ، ومن المسلم به أن المرأة تقل عن الرجل فساداً وشذوذاً ، وتزيد عليه فضلاً وعفة ، انظر إلى أيّ بلد شئت من البلاد الكبيرة ، وتطلع فيها إلى « دور الفسق » تجد في كل بلد يعد أهله الخمسين ألفاً من السكان ، ألفاً من النساء من تلك الطبقة « الشاردة » وتجد من يرتادون هذه الدور من الرجال عشرة آلاف ، أي أن كل واحدة من « الشاردات » يقابلها عشرة من « الشاردين » وهذا تقدير تقريبي ، ولكننا نظن أنه صحيح في الأغلب ، بالنظر للبلاد الكبيرة ، التي دخلتها المدنية الموجهة ، وأما البلاد المتوسطة « فالساقطات » فيها ، هن واحدة في المئة ، وأما البلاد الصغيرة « فالساقطات » واحدة في الألف ، وربما شذ في بعض العائلات واحدة بينها أولاً يشذ منها أحد مطلقاً من النساء ، ولكن يكون قد خرج عن قانون العفة فيها جمع من الرجال ، وهذا أمر مشهود يعرفه جميع الناس ، ويعترفون به سرّاً ، إذا لم يكن جهرّاً ، وها نحن أولاً نلاحظ أن المرأة في الشارع أكثر حشمة ووقاراً من الرجل ، ويندر أن تتحرش امرأة برجل ، حتى ولو كانت من « الشواذ » إلا قليلاً ، ولا نرى المضايقة تأتي إلا من قبل الرجال ، بما فيها من كلام لطيف أو خشن .

وظاهر ان المرأة رجحاناً في كفة العفاف على الرجل ، وهذه ميزة لها ، يجب علينا الاعتداد بها والافتخار ، وترويض النفوس على الاقتداء بما فيها .

وأما حادثة «امرأة العزيز» مع يوسف «فشاذة» بسبب أن تلك المرأة اندهشت بمجاله العبراني ، فلم تعد تتمالك ، ومما سهلها كثرة اختلاطها به ، وأنه تحت أمرها ويوسف أبي عليها بما أوتي من عفة وطهارة ، فهذه حادثة نادرة في بابها ، فما كل النساء «زليخا» ولا كل الشباب «يوسف» .

وما أريد من هذا البحث إلا رفع الغرور من رؤوس الذين يتبعجون بفضائلهم ورذل المرأة واحتقارها لهفوتها ، وبظني إن مراودة امرأة لرجل أندر من الكبريت الأحمر ، ولذلك ذكرت هذه المراودة في التاريخ الذي لا يذكر فيه إلا الشيء النادر ، ولو كان يعنى في التاريخ بذكر فواحش الرجال ، لكانت صحفه مملوءة أكثر مما هي اليوم مرتين ، ولا أحسبكم إلا مسلمون لي في هذا الاعتقاد على طول الخط .

مقابلة بين زليخا وبين بعض نساء العرب

وتابعت السيدة عليه المكية خطابها قائلة :

والآن ليسمح لي السادة المؤتمرون أن أجري مقابلة بين امرأة العزيز «زليخا» وبين بعض نساء العرب الفضليات اللواتي سطر التاريخ فضلهن وعفتن ورجاحة عقلمن بمداد من الفخار والشرف فأقول :

١ — أين هذه المرأة (زليخا) من السيدة (خديجة بنت خويلد) ، زوج النبي وأم المؤمنين ، فانها لما رغبت في النبي ﷺ أرسلت إليه عجوزاً تشوقه في خطبتها من وليها ، فالتقي ﷺ بعد مشورة أعمامه ، خطبها من أبيها ، فاقرن بها .

٢ — بل أين هذه المرأة (زليخا) من (هند بنت عتبة) التي أراد أبوها أن يزوجه من أحد رجلين ، رجل ذي ثروة وجمال رائع .. ورجل ليس عنده

شيء من ذلك ، ولكنه منظور إليه في الحسب والنسب ، فمدلت عن صاحب الثروة والجمال ، واختارت الثاني فكان هو (أبا سفيان بن حرب) « فولدت منه معاوية مؤسس دولة بني أمية ، وأحد نجباء العرب ودواهيهم .

٣ — وأين هذه المرأة (زليخا) من الفتاة (بيهة بنت أوس) الطائي التي لا زفت إلى (الحارث المري) وأراد أن يدخل إليها ، نسيت لذتها وشهوتها وقالت له : « أنفرغ للنساء ، والعرب يقتل بعضها بعضاً !!! » تشير إلى حرب ظلت مستعرة نحواً من أربعين سنة ، بين بني عبس وبني ذبيان ، ولم يتفكر أحد في إطفائها إلا هيهة ، فقال لها وهي بين ذراعيه . « ماذا تقولين ؟ » . قالت : « أخرج إلى هؤلاء القوم ، فأصلح بينهم ، ثم ارجع إليّ !!! » ، فقام من عندها وخرج ومشى بالصلح ودفع الديات ، ثم رجع إليها وحظي بها ، فلا ريب أن مسلك هؤلاء النسوة كان خيراً جداً وأشرف مما سلكته (امرأة العزيز) التي كان معظم اجتهادها النظر إلى شهوتها ولذتها .

٤ — وأين هذه المرأة (زليخا) من (معاذة الباهلية) التي نزل بها رجل من العرب ، وليس زوجها عندها ، فأكرمته وفرشت له ، فلما لم ير عندها أحداً سامها نفسها ، فأخذت مدية فأخفقتها ، فلما ثار إليها ، ضربته بها في نحره ، فسقط ميتاً (مصارع المشاق ج ٣) .

٥ — وأين هذه المرأة (زليخا) من (أسماء ابنة رويم) التي كانت من نساء العرب العاقلات الحكيمات الولودات والتي كانت تسمى أولادها بأسماء الوحوش الضارية ، قيل أنه مرّ بها يوماً (وائل بن ساقط) فرآها منفردة في خباثتها ، فراودها عن نفسها فقالت : « والله لئن قربت مني ، لأدعون أمي » . فقال : « ما أرى سواك في الوادي ، فصاحت بينها : « يا كلب يا ذئب ، يا فهد ، يا سبع ، يا دب ، يا ضبع ، يا غر » فجاءوا يتعادون بالسيوف ، فقال وائل : « ما هذا إلا

وادي السباع ، فلزم هذا الإسم ذلك الوادي ، وقالوا لها : « ما شأنك ؟ » - قالت :
« إنه نزل بنا ضيف فأجبت أن تكرموه » فأكرموه إكراماً زائداً وانصرف
وهو يتعجب من ذريتها ومن حضور بديتها ، لتحمل المذر الذي أبدته
لأولادها !! .

هذا قليل من كثير أيها السادة ولو أردت أن أسرد جميع ما كتب في التاريخ
من أمثال ذلك لاحتجت إلى مئات من الصفحات .
« وما أن أتمت السيد عليّة خطابها حتى دوت في قاعة المؤتمر عاصفة حادة من
التصفيق وكلمات الاستحسان » .

(وراودته التي هو في بيتها)

— ٢ —

وقالت الآنسة أسماء المقدسية :

المزاودة من طرف واحد

كانت زليخا أولاً فارغة من حب يوسف وسواه ، ولكن لما وُجد يوسف
عندها على ما هو عليه من الصبابة ، ومقبل الشباب ، وشرخ الفتوة ، وتكررت
(طبعاً) رؤيتها له صباح مساء ، علفت به من حيث لا تشعر ، ومن غريب أمر
الحب أنه يقع على الناس وقوع السبات ، من حيث لا يعلمون .

أحبت يوسف ، وباليته اقتصرت على الحب فعمت وصبرت ، ليكون ظاهراً ،
بل أرادت تلويثه بما فعلت ! إذ تآقت نفسها وشرهت ، وألحّ عليها الغرام
ونازعتها الميول الجسدية واستولى عليها سلطان الحب فأناها سلطانها ،

وسلطان سيدها ، الذي كان رئيس الشرط ، وناظر الحرم ، وعزيز مصر ،
والحب نافذ الكلمة ، ماضي القضاء ، غالب على كل سلطان ، يستذل السلوك ،
ويحطّم سيوف القادة .

علقت زليخا بيوسف ، وأرادت قضاء وطرها منه ، فجعلت تفتكر هل تطيع
قلبا وتعصي زوجها ؟ وهل سيكون عند يوسف مثل ما عندها ؟ وهل يمكنها
الوصول لذلك بدون أن يشمر بها أحد من خدمة قصرها ؟ وهل يمكن ليوسف
أن يدوس إرادتها تحت أقدامه ولا يمثل أمرها ، وهي سيدته النافذة ؟ وهل سيخفي
هذا الأمر أو يفضيه .

قضت في ذلك أياماً وليالي ، وهي تطوف في عالم الخيال ، ثم تعود إلى حيث
بدأت ، حتى لم تعد تستطيع الصبر ، ولم تمالك السكوت ، فتغلبت عواطفها على
عقلها ، واستسلمت لشیطان شهوتها ، وانقادت لميولها الحيوانية ، وآثرت اللذة الفانية ، على لذة
الشرف الباقية وتنزلت عن عرش أنفثها وعزة نفسها ، وتزافت له بالذو طاب من لطيف الخطاب
ولم تكن ترجو الوصول لمطلوبها بسهولة ، افترت أن هذا الأمر يحتاج إلى روية
وتعميد ، فابتدأت في مناغمة يوسف ومناغشته بالبسمة الخفية ، فلم تجد منه سوى
الجد والإغضاء والصلابة ، ولم تر في شيء من حركاته وأقواله ما يفتح لها نافذة من
الأمل ، ولكن الحب كان يعترض عوامل اليأس فيها ، وكانت أميالها وآمالها
تقوى شيئاً فشيئاً ، — والخلاوة — كما يقولون — رقية الفحشاء — ، كما ان
— الجمال عزيزة الحب — فراودته جائية ذاهبة وذاهبة جائية ، ولكن هو لم
يراودها ، فالفاعلة من واحد ، كخطابة الدائن ، ومما طلة المديون ، ومداداة الطبيب
ونظائرهما ، مما يكون من أحد الجانبين بالفعل ، ومن الجانب الآخر سببه ، ومنه
قوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلْهُمَا ﴾ (٧ : ٢٠) أي حلف لهما ، ولم يحلفا له ، كما قاله
البخاري ، ومنه كلمة : فقاطم كلامه .

وإنما وقعت المراودة منها فقط لأن الفريزة النوعية فيها أكثر عملاً وأقوى فعلاً ، فضلاً عن أن عواطفها تتغلب على عقلها بعكس الرجل الذي يتغلب عقله على عواطفه ، فهي أحس بالجمال من الرجل وإن كانت أضيق له فهماً ، ولا تنس ما ليوسف عليه السلام من عفة دينية ، لا يزعمها جمال ولا جبال .

(وراودته التي هو في يديها عن نفسه)

— ٣ —

وقال الامام الاناهري لي على هذه الفقرة التعليقات التالية :

الحكمة من ذكر حديث المراودة

١ — لا بد لسائل يسأل عن الحكمة في ذكر حديث المراودة فنقول إن في ذلكم هي العبرة للقارئ ، ليحذروا لأنفسهم فلا يقتنوا في بيوتهم الفتيان والمهاليك وإذا اقتنوهم لم يسوغوا لهم الخلوة بنسائهم فإنهم إن يفعلوا هكذا يمزقون أعراضهم بأيديهم ، ولا يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، إذ ليس كل فتى هو يوسف ، وليس كل مملوك كهذا الملك الكريم . كما إن الحكمة في ذكر حديث المراودة الصادر من امرأة العزيز وذكر تهتك النسوة المصريات وعشقهن ليوسف واستغراقهن في جماله وتقطيعن أيديهن وتغزلهن في محاسنه ، هو للزم في أهله بصورة تبغضه وتنفر عنه ، وتوجب الانتهاء عما نهى الله عنه ، والبغض لما يبغضه ، وتبين سوء عاقبة أهله ثم تبين عفة يوسف وطهارته ، وحسن عاقبة المتعفين ، وسوء عاقبة الساقطين ، هذا وقد قص الله تعالى علينا في القرآن الكريم قصص الأنبياء والمتقين وقصص الفجار والكافرين ، لنعتبر بالأمرين ، فنحب الأولين وسبيلهم ونقتدي بهم ، ونبغض الآخرين وسبيلهم ، ونجتنب فعاظمهم .

والحكمة أيضاً في ذكر قصة المراودة هي تعليم الاناث ان عاقبة مراودة الشابات للشباب إنما هي الخزي والعار وسوء السمعة وانها مهما اجتهدت في قلب الحقيقة وستر الفحشاء ، فلا بد أن الله تعالى يظهر الحق ويدافع عن الأبرياء الأعفاء وإن الانثى الساقطة قد يكون أبوها أو أخوها أو غيرها من أهلها من المقاومين لها ، كما اتفق أن الرجل الشاهد من أهل زليخا كان من أعظم المقساومين لها وكذا زوجها العزيز ، وكذلك صديقاتها النسوة المصريات ، وإن العاقبة للأعفاء الطاهرين ، وفيه أيضاً تعليم أن سقوط المرأة أو محاولتها السقوط ربما يسبب نزول محنة زوجها ، كما وقع لزوج زليخا فانه أنزل عن وظيفة « عزيز مصر » بسبب أعمال زوجته ، فظهر أن في قراءة هذه القصة أو هذه السورة فائدة كبرى للرجال والنساء .

وأما ما يرويه بعض المفسرين من حديث : « لا تعلمونهن سورة يوسف ، علموهن سورة النور » فهو من الموضوعات ، وماذا يقول من يروي مثل هذه الأخبار الموضوعة في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (آ : ٢) هل هذا التعلل خاص بالرجال ؟! وما يقول في قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ (آ : ٣) فهل أحسن القصص هذا مخصوص بالرجال ؟! وماذا يقول في قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (آ : ١١١) فهل هذه العبرة هي منحة ومزية للرجال فقط ؟! وما القصد من قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ (آ : ١٠٢) فهل القصد نوحيه إليك لتبلغه للرجال فقط وتكتمه عن النساء أو لتبلغه للجميع كما هو مقتضى عموم قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ ، بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ (٥ : ٧٠) وهل القرآن نازل لأجل الرجال فقط أولهم وللنساء ؟ وهل تبليغ الرسول لما أنزل من ربه خاص

بناس دون ناس ، وبشيء من القرآن دون شيء ؟! سبحانه هذا بهتان عظيم ، وإذا كنا منهيين عن تعليم نساتنا سورة يوسف لما فيها من ذكر قصة امرأة العزيز ، فلم لا تنهى عن كل قصة يوسف مع إخوته لما فيها من ذكر قطع الرحم والعقوق ، والختل .. والخ والخ .

فالخلاصة ان رواية النهي عن تعليم النساء سورة يوسف هي كاذبة محضة وفرية على الله ورسوله والله أعلم .

مواضع استعمال المراودة في القرآن

٢- لم تقع هذه المادة « المراودة » في القرآن الكريم إلا في موضوع الإحتيال والدهاء ، فحينما استعملت في مفاوضة (امرأة العزيز) ليوسف الصديق ، كما هنا وحينما استعملت لدى مفاوضه أبناء يعقوب لأبيهم في إرسال بنيامين معهم لمصر عند رحلتهم الثانية ، وذلك في قولهم : ﴿ سَرَاوِدَ عَنْهُ أَبَاهُ ﴾ (آ : ٦١) وحينما استعملت في مفاوضة السدوميين لني الله لوط (م) بشأن ضيوفه الملائكة ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ ، فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ ﴾ (٥٤ : ٣٧) بهذه مواضع ثلاثة وردت فيها هذه المادة ، ولم ترد في غيرها ، وكلها من نوع التحيل والاستدراج كما قلنا .

اختلاط الرجل بالمرأة

٣- نعلم حق العلم أن الذي سهل على زليخا (امرأة العزيز) مراودة عبدها العبراني (يوسف) إنما هو المخالطة والخلوة ، ولو لا ذلك لما حصل شيء مما ذكر .

قيل لأعرابية : « لم زيتِ بعبدك ، ولم زنِ بحري ، وما أغراك به ؟ » .
 قالت : « طول السواد ، وقرب الوساد » فما يرق السهم من الرمية كمروق السيدة
 للباطل ولماذا كره عبدها الذي تحتلي به بلا رقيب ولا ملاحظ ، بخلاف ما إذا لم
 تكن هناك مخالطة ولا خلوة ، فإن وصولها لهذا الأمر لبعيد جداً .
 فاختلاط الرجل بالمرأة فيما إذا كان (مثلاً) زائراً أو خادماً كما هنا
 لهم اختلاط مخوف بالمخاوف .

وبدعة الاختلاط ، وبالأحرى بدعة المفاوضات السرية الدنيئة ، موجودة
 (غالباً) في الطبقات العليا من الناس ، وإنما قلنا (غالباً) لأننا نعرف أنه يوجد
 في الطبقة العليا من هن أعف وأشرف من كل من عداهن ، وحكم الطبقات الدنيا
 كحكم العليا ، وأما الطبقات الوسطى ، فهن أبعد عن أمثال هذه البدعة
 من الطبقتين .

وكما كان الاختلاط والخلوة من أسباب سهولة المراودة في العصور القديمة
 فهو من سموم العصور الحاضرة الحقاء ، ومن دواعي السفور والخلاعة والاستهتار ،
 وقد أثبت كتاب أوربا وكاتباتها — ان سبب سقوط أكثر النساء عندهم هو
 اختلاط المرأة بالرجل في البيوت والمعامل والمخازن والأسواق وغيرها من
 أبواب الحياة .

ولذلك جاءت الشريعة المحمدية بالحجاب الحقيقي الشرعي ، وهو يتجلى في
 كل ما يمنع الفتنة ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ، قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ
 الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبٍ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ ، فَلَا يُؤْذَيْنَ ،
 وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (٥٩ : ٣٣) وقال تعالى : ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ
 يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ، وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ، وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ
 إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ ، وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ
 أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ
 بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ
 غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ،

وَلَا يَضُرُّ بَنَ بَارِجَلِيمِينَ ، لِيُعَلِّمَ مَا يُخْفَيْنَ مِنْ زَيْنَتَيْنِ ، وَتَوَبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ، لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . ﴿ ٣١ : ٢٤ ﴾ ، ومعلوم أن يوسف لم يكن مملوكاً لامرأة العزيز ، بل لسيدها ، ولم يكن من غير أولى الأربه ، بل من أصحابها .

هذا وإن الشرع الشريف ، يحرم الخلوة بالمرأة الأجنبية ، وكذلك مكالتها للأجنبي مع الخلوة دون الملاء ، وأما مكالة المرأة الرجال في الملاء ، فجائزة ، كما كان يقع ذلك من نساء النبي (ص) مع الأجانب ، وهن اللاتي أُمرن بالمبالغة في الحجاب ، وقد ورد : « أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يكلم إحدى أزواجه « زينب » في باب المسجد ، فمر رجلان ، فأسرعا في المشي ، فقال لهما : على رسلكما ، إنها فلانة . ففي هذا تنبيه للمسلمين ، إلى أنه لا يجوز للرجل أن يخلو بامرأة ، مهما كان صالحاً ، هذا في الشريعة الإسلامية ، ولعل الشريعة الإبراهيمية — العبرانية — كانت تبيح كلام من الخلوة ، والمكاملة في الخلوة ، كما وقع من يوسف ، أو لعل يوسف كان يرى نفسه مقهوراً على ذلك ، حيث أنه عبد .

وقد أباح علماء المسلمين رؤية الوجه واليدين ، قائلين إنها ليسا بعورة ، ومن قال إنها عورة أباح رؤية الوجه ونحوه إذا مست الحاجة ، وذكروا من ذلك تحمل الشهادة والمتاجرة مع المرأة والتطبيب والمحاسبة وما إلى ذلك ، وبالجملة : فالمدار عندهم على الحاجة كائنة ما كانت .

وجه اضافة البيت الى زليخا

٤- كثيراً ما أضيف البيت إلى النساء باعتبار انهن القائمات بمصالحهن أو الملازمات له ، كما يقول الكتاب : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ (٣٣ : ٣٣) و ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ تَكْفُلُونَهُ لَكُمْ ؟ ﴾ (١٢ : ٢٨) و ﴿ إِنَّمَا

يرسّد الله لينذ هيب عنكم الرّجس أهل البيت ﴿ (٣٣ : ٣٣) ﴾ ولا
 تخرجوهنّ من بيوتهنّ ﴿ (٦٥ : ١) ﴾ هذا وجه ، ووجه آخر ، وهو انه قد
 يكون انساء الحكام والأمراء ، وذوي البيوتات الرفيعة بيت خاص بهن ، لزيارة
 النساء ، كما يكون للرجال بيت خاص بهم ، لاستقبال الرجال ، ويكون بيت ثالث
 قريب من الباب يسمى بهواً .

وكلمة « في بيتها » ، أريد بها أمران ، الأول الستر عليها ما أمكن ، بعدم
 التصريح باسمها ، والثاني الإشارة إلى استهجان هذه المراودة بكون (امرأة
 العزيز) إنما راودت عبداً ، هو من خدمة القصر ، وعن حوام القصر للخدمة .

وفي تبيان أن يوسف « في بيتها » ثم تغلق الأبواب ، واستعدادها له - إعلاء
 شأن يوسف ، لأن كونه في بيتها أدعى إلى موافقتها ؛ وتغلق الأبواب ، أدعى
 وأدعى ، فإن المستر لا سيما مع من يملك أمره - يفعل ما لا يفعله الذي يستبين
 فعله ويظهر حاله ، وقد راودته من تملك أمره ، وتملك نفعه وضره ، فالعفة مع هذه
 الأحوال أرقى ما وصل إليه أهل العفة .

لأذا عبر بكلمة « عن نفسه »

٥- وأما كلمة « عن نفسه » فعناها خادعته عن نفسه ، فعدي بـ « عن » لتضمنه
 معنى الخداعة ، أي فعلت ما يفعل الخادع لصاحبه ، عن شيء لا يريد صاحبه
 إخراجه من يده ، وهو يحتال أن يأخذه منه ، والكلمة عبارة عن التمعجل في
 مخالطته إياها .

عمر يوسف وزليخا حين المراودة

٦ - نعلم أن يوسف لما اشتراه (عزيز مصر) كان ابن ١٧ سنة وأما كم كان عمره وعمر زليخا حينما حدثت تلك الحوادث ، حوادث المراودة فذلك سؤال لا يمكننا الإجابة عنه ، غير أن الظاهر من التاريخ ، أن عمر يوسف حين المراودة كان يتراوح غالباً بين ٢٦ و ٢٧ سنة ، كما أننا نقدر أن نستنتج من حال امرأة العزيز وشيقها وشغفها وحبوتها أنها كانت نصفاً أو إلى الشباب أقرب .

(وغلقت الأبواب ..)

— ١ —

وقالت السيدة لطيفة العامرية :

أبواب قصر العزيز

لما دخل يوسف يوماً على جاري عادته قصر سيده العزيز ، انتهزت زليخا فرصة تلك الخلوة ، فأرادته ، فأبى ، وهكذا ما زالت تؤزه أزاً ، وهو لا يزداد إلا ترفماً ، حتى اضطرها إلى أن قامت بسرعة وغلقت الأبواب ، ومنعت كل دخول وخروج منها ، وقالت : الآن اختر الحائط التي تريدها واخرج منها .

والأبواب هذه ، هي كما جرت العادة من القديم إلى الآن أن يكون لقصور الأمراء والكبراء عدة أبواب ونوافذ من الجهات الأربع ، أو أن يكون لكل قصر أبواب متتامة بعضها وراء بعض خارجة وداخلة ووسطى ، وقد جرى «أبو حيان» في «البحر» على الاحتمال الأول إذ قال : « هي أبواب ليست على الترتيب باباً باباً بل هي في جهات مختلفة ، وكلها منافذ للبيت الذي كان فيه ، ، وقد قلنا شأن بيوت الأمراء والكبراء أن يكون للقصر الواحد عدة أبواب في عدة نواح للدخول

والخروج ، كما يكون فيها عدد من النوافذ لتبادل الهواء ودخول النور ، فكل تلك المرأة أوصدت كل ذلك وقوله فيما يأتي : ﴿ واستبقا الباب ﴾ بالإفراد يؤيد الاحتمال الأول .

المرآة وتعليق الأبواب

وعندنا أن تعليقيها الأبواب كان لأحد ثلاثة أسباب أو لجميعها :

الأول — التقدم لتلك الفعلة الشنعاء التي ترخى على مثلها الستور ، وتسد النوافذ ، وتقام من حولها الدعائم والجدران .
الثاني — خوف أن يدخل أحد من الخدم والجواري الذين اعتادوا الدخول فيه بلا إذن ، ليعملوا عملهم ، أو خوف أن يبتغهم العزيز نفسه إذا جاء على حين غرة وفي غير وقت مجيئه المعتاد .

الثالث — خوفها أن يأبى يوسف عليها ، ويركن إلى الهروب من بين يديها ورب مسائل يسأل : لماذا لم تغلق الأبواب قبل المرآة . مع أن فيه احتياطاً واحتفاظاً أكثر ، ثم أليست حكاية المرآة تكفي عن ذكر أنها قالت له « هيت لك » ؟ لأنها شيء واحد ؟ فالجواب هو أن هذا السؤال مبنى على أن ما ذكر في كلام الله تعالى هو حادثة واحدة ، وهو ما درج عليه المفسرون ، وعندنا أنه يحتمل أنها حادثتان ، فالحادثة الأولى هي أن « امرأة العزيز » كانت رفعت عينها إلى يوسف يوماً ما وراودته فأبى ، ثم كلمته يوماً آخر ولاحقته على أن يضطجع معها ، ولكنه لم يسمع وأبى إباء كلياً ، ثم حدث بعد ذلك أن دخل القصر ليقوم بما كان عليه من الأعمال والخدم ، باعتبار أنه وكيل البيت ، ونظر حرم ، فكلمته أيضاً وأرادته على نفسها قائلة : « هيت لك » تعال اضطجع معي في هذه الكلبة ، فقال : « معاذ الله » الخ ما حكاها الله تعالى عنه ، فطلب امرأة العزيز

ليوسف تكرر مراراً ، كما صرح به في (تك ٣٩ : ٧ - ١٣) وقد أشار الله تعالى لذلك بكلمة « راودته » ، وكل ليبب بالإشارة يفهم ، لأن هذه الكلمة تشعر بالذهاب والإياب تكررأ ، كما نعلمه من كتب اللغة ؛ وبهذا التحقيق يظهر أنها حادثتان ، لا حادثة واحدة ، فقوله : ﴿ وراودته التي هو في بيتها عن نفسه ﴾ يشير للحادثة الأولى وقوله : ﴿ وغلقت الأبواب ، وقالت هيت لك ﴾ الخ يشير للحادثة الثانية ، وبهذا يظهر الجواب عن السؤال بشقيه .

ويجوز أن تكون راودته بلطف وإيماء ، ولما لم تر منه نزولاً على إرادتها ، قامت وغلقت الأبواب ، وانتقلت من دور اللطف والايحاء الى دور الصراحة والوضوح فقالت : « هيت لك » وعلى هذا فالحادثة واحدة ، والله تعالى أعلم .

ما معنى « غلقت »

و « غلقت » أجافت وأوصدت دونه الأبواب ، وأرتجتها - « بالمزلاج » وهو ما يفتح باليد ، ويقال له في عرف اهل الشام « الدقتر » ، حملاً على العوائد القديمة عند أهل المائيم ، أو ارتجتها « بالمغلاق » ويقال له « الغلّسق » ، وفي العرف « ضبّة » وهذا لا يفتح إلا بالمفتاح ، أو غلقتها « بلاقطة » من خشب سهلة الحركة ، ويقال لها في عرف أهل الريف اليوم « لبقطة » .

وقد عبر « بغلّسقت » دون « غلّسقت » ، لأنه لشغّة أو لغنيّة رديئة متروكة « ولا يقال لباب الدار مغلوق » فما بقي إلا غلّسق وأغلّسق ، ولكن الأول أكثر استعمالاً ، وربما قالوا « أغلق » قليلاً ، والأفصح غلّسق ، فلذلك اختير في كتاب الله هذا التعبير .

(وقالت هيت لك — قال : معاذ الله)

— ١ —

وقالت الحاجة صفيه المقدسية :

طلب زليخا الفاحشة من يوسف وأبائه يوسف

عملت زليخا أمام يوسف كل عزيمة سحرية ، وحرقت بين يديه البخور ،
وقالت بلغة الحب والغرام ، قالت وهي باشة مهللة قالت وهي رقبه بعينين بشع منها
بريق الأمل ، قالت يا يوسف ، أمتع الله بك ، تعال لتقض من اللذات الأرب ، ثم
ليكن بعد ذلك الطوفان ، يا يوسف ، إني في خطر الموت من حيي لك ، وحياتي
في يدك ، فذهلم إليّ ؛ يا يوسف ، هذا صوتي ، فاسمني صوتك ، وهذه رغبتني ،
فأرني رغبتك ، وهذا حيي ، فأرني حبك ، وهذه إرادتي ، فأرني طاعتك ...
وهكذا أقبلت به وأدبرت واجتهدت ، وفي لحن كلامها وملاحمها ما يدل على شدة
توابعها وتلاميذها ، بغية الوصول لهذا الأمر ، وكانت قد أخفت صوتها لئلا يسمعها
أحد ، وجعلت تتطلع من النوافذ خوفاً من تجسس بعض الجوّاري أو القهرمانات.
سمع يوسف خطابها فتمعّر وجهه ، حتى صار كالصّرف ، وقال أيّ هنتاه ، لمن
تقولين هذا القول ؟ — قالت لك وإياك أعني ، — قال هل غرك أني عبد لك ؟ ،
« وأنك مهما تأمرني القلب يفعل ؟ » حاشا لي من ذلك ؛

فكررت عليه القول وكرّر عليها الإباء مبيناً لها حرمة الطلب وشناعة
اللمس ، ولما رأت منه ذلك أخذت تخطر في القصر وقلبها يخطر في صدرها ، ثم
أعادت عليه الطلب ملحّة ملحفة وأخذت تتبعه بنظراتها ، لتفحص صورة نفسه

المرسمة على وجهه ، فما رأت إلا أنه قد اربدّ ، وعلاه لون الكدر والكمد وقال لها بملء فيه : ' برحى ' برحى ' ، معاذ الله ، وألف مرة معاذ الله حاشا لي أن أقدم على هذه العظيمة التي فيها العار والشنار ، وفي الآخرة النار .

وما زالت امرأة العزيز تستعطفه باللين تارة ، وتعمده بالسعادة تارة أخرى كما انها لم تترك وسيلة من الوسائل إلا اتخذتها للوصول الى غرضها منه ولكن يوسف كافح كفاح الاسود وصبر عما أرادته صبر الرجال ، وثبت على قداسته وطهارته . ويظهر لنا ان استنكاف يوسف عن مس تلك الأميرة يعد من قبيل الإرهاص لنبوته ، لأن تعفف شاب من الشبهة ، عن قربان سيدة أميرة ، تطلب منه وترغب اليه أن يعرفها ، حال كون هذا الطلب كان وهو في قصرها ، ليس عليها رقيب ولا ملاحظ ، ولا محلّ لخوف يوسف منها أو من زوجها ، لأنها هي المتزلفة المتهاقنة ، فهذا الامتناع في مثل هذه الحال ، هو نادر في بابه جداً ، ويمد من الأولياء كرامة ، ومن سيكونون أنبياء إرهاباً .

(انه ربي أحسن مشواي)

— ١ —

ووقف الشيخ أحمد من علماء « ليبيا » ليلقي خطاباً حبهته يد السيدة عصمة بالنيابة عنها فقال :

اعتراف يوسف بالجبل

يقول يوسف ان فوطيفار رباني في عهد الثقافة بنعمته ، وكلائي برعايته ، فتح لي صدره ومنازله ، فيجب عليّ أن أحفظ كرامته ، أباح لي التصرف في بيته ،

واني إذا لم أحسب له حساباً ، يجب عليّ أن أحسب لفضله وخيره ألف حساب .
ألقي الي مقاليد أموره ، وهو صاحب نعماي ، وقد أمني على عرضه ، ولا
إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عقل له ، فلا ندحة من أن أحفظ بمعروفه ،
لأن لي شرفاً أحب أن أبقى عليه . أكثر ما أُبقيّ على متاع الدنيا ولذاتها .

إني فقدت وطني وأهلي ، وخسرت أبوي وإخوتي ، ولم يبق لي إلا شرفي ،
فهو كل ما أصبحت أملكه ، من بعد ذلك كله ، فهل يسوغ لي أن أعدمه أيضاً ،
وأُلحقه بملك الخسائر ؟!.. حاشا لي من ذلك ...

نعم إنه ربي أحسن مثواي ، وجدأ أحسن مثواي فيما درج من الأيام ، وبذل في سبيل راحتي
كل مرتخص وغال ، ورَفَدني وأفضل عليّ ، ولا يُقدم على هذا الأمر ، إلا كل ناس
أو متناس للأحسان ، ميت الضمير ، لا زمام له يزجره ، ولا عقل يعقله ، وإن لي
بحمد الله ضميراً حياً يؤنبني ، وعقلاً عاقلاً يعقلني .

هو جعل لي في قصره ، بل وفي قلبه ، المقام الأول ، وكلني على بيتيه ،
وائتمني على عقيلته وحرمة ، فيجب أن تكون حقوقه عندي مقدسة ، فإن كان
مثلي يخون ، فرحمة الله على الوكلاء ، وسلام على الأمناء ، إن مأسألتني إياه محذور
من وجهين : وجه ديني ، ووجه أدبي ، فلو لم أدع هذا تأثماً ، لتركته تأدباً ، وإذا
كانت الشرائع تقول : « لا تخن من خانك » فكيف أخون أنا من أمني ؟ وإذا أراد
الله بمبد خيراً ، جعل صنائمه ومعروفه في أهل الحِفاظ ، وإذا أراد به شراً ،
جعل صنائمه ومعروفه في غير أهل الحِفاظ ، كما نطق بذلك الحكيم السماوية ،
فهل تريدن أن أكون من غير أهل الحِفاظ ، هذا هو مرمى كلام يوسف
(م) ومغزاه .

وهنا فوائد :

الاسباب التي تبعد الانسان عن الفحش والمخالطة

الفائدة الأولى — إن ما يبعد الانسان عن الفحش والمخالطة المحرمة ، هو إما سبب صحي يبين الخطر الهائل الكامن في هذا الفعل ، أو سبب ديني ، يدعو إلى الاتجار بأمر الله والالتقاء بنبيه والخوف من ناره وغضبه ، والرجاء في جنته ورضوانه أو سبب أدبي ، يدعو إلى المحافظة على المروءة والشرف ، وحسن السمعة وكرم المجتد ، ومراعاة الامانة .

وظاهر ان الذي منع يوسف الصديق (م) هو السببان الأخرا ت ، الديني والأدبي ، فلهذا عصم نفسه بعصمة الله تعالى إياه .

توبيخ يوسف لزليخا ضمناً

الفائدة الثانية — كانت كلمة ﴿ إنه ربي أحسن مثواي ﴾ أشد وقعاً على رأس زليخا من الصاعقة ، ولا سمعتها اضطربت لها كل جارحة من جوارحها ، لأنها تذكرها بارتباطها بزوجها الرباط المقدس ، الذي لا يجوز لها مراودة سواه بمثل ذلك ، ولا ريب أنه عندما سمعت جوابه ، استاءت وخجلت بتلك الكلمة ، لما تضمنته من التوبيخ والتعنيف ، ولكن مع الاسف رغماً عن كل ذلك ، فما زالت مندفعة بتيار العواطف الرديئة ، حتى كررت عليه الطلب ، فالجأت إلى همه بقتلها فالهرب كما سيأتي .

تعريض يوسف بزيخا

الفائدة الثالثة — يريد بقوله « إن ربي أحسن مثواي » نفسه ، ثم هو أيضاً يعرض به لها ، كأنه يقول : أنا أفكر هذا الفكر ، وأحفظ لسيدي معروفه معي ، وأحافظ على شرفه ، فكان من الواجب عليك أنت أيضاً أن تحفظي لسيدك (الذي أحسن مثواك) حقه ، ولا تظلميه في التعدي على شرفه ، بل إن هذا بك أولى مني ، فليس العبد أولى بحفظ معروف سيده وبالمحافظة على شرفه — من زوجته (شريكة حياته التي هي وهو إنسان واحد) .

المراد بالرب في قوله انه ربي

الفائدة الرابعة — نتعلم من قوله « إنه ربي » أن إطلاق لفظ « الرب » مضافاً للعاقل — على غير الله تعالى كان جائزاً عند يوسف الصديق وفي عصره ، أو بعبارة أصح كان جائزاً في شريعة حده إبراهيم (م) بل إن مثل ذلك وارد في شريعتنا ، ففي صحيح البخاري ، في أشراط الساعة الصغرى : « وأن تلد الأمة ربها » وفي رواية « ربها » ، وربما جاء باللام عوضاً عن الإضافة إذا كان بمعنى السيد ، قال الحارث بن حنزة :

فهو الرب والشهيد على يوم الحيارين والبلاء بلاء

(مصباح) ومنه ما في صحيح البخاري أيضاً : « إن تداول سليمان الفارسي بضعة عشر من رب إلى رب » ، أي تداولته الأيدي من مالك إلى مالك .

وعليه فيكون المراد ههنا « بالرب » — « عزيز مصر » والرب بمعنى السيد والمولى والمالك .

ومنه فيما أفهم على احتمال ما في قوله تعالى : ﴿ لَوْ لَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ (آ : ٢٤٤) إذ يحتمل عندنا أنه بمعنى سيده ومالكه وهو فوطيفار ، وبرهانه هو إحسانه لثواه . ومنه : ﴿ فَيَسْأَلُ رَبَّهُ خَمْرًا ﴾ (آ : ٤١) أي سيده ومولاه . وهو الريان ملك مصر .

ومنه : ﴿ اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ (آ : ٤٢) ، أي سيدك وهو الريان .

ومنه : ﴿ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾ (آ : ٤٢) أي الريان .

ومنه : ﴿ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ (آ : ٥٠) أي الملك الريان .

ومن هذا القبيل — فيما نفهم — ما في قول يوسف : ﴿ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِمْ عَلِيمٌ ﴾ (آ ٥٠) فربه هنا فيما نفهم هو سيده ومالكه عزيز مصر ، الذي كان علم بكيدهم ، إذ قال : ﴿ إِنَّ كَيْدَ كُنْ عَظِيمٌ ﴾ (آ ٢٨) ، ودليلنا على ذلك أن يوسف يريد الاحتجاج ، ولا تقوم له حجة ، إلا إذا كان المراد من لفظ « ربي » في هذه الآية هو ما فهمناه ، وأما علم الله فلا ينهض حجة عليهم ، لأنه غير مطلع عليه ، بل هو غيب محض ومن اطلاق « الرب » على السيد ما في قول « أبي . نَحْيَلَةَ » ، مدح « هشاماً » :

إلى أمير المؤمنين المجدي رَبِّ مَعْدَةٍ وَسَوْى مَعْدَةٍ

تعالم الاسلام في كلمة الرب

الفائدة الخامسة — إطلاق « الرب » على غير الله تعالى اصطلاح عتيق ، كان جرى عليه الأشوريون والكلدان والسوريون والمصريون واليهود والنصارى — تبعاً لهم — والعرب في الجاهلية ، وبعض شعراء العرب في الاسلام ، الذين ما كانوا يتقيدون بالدين ، ولكن الاسلام يعلمنا أن لا نطلق كلمة « الرب » على غير

«الله تعالى أدباً مع الله ، واحتياطاً في باب التوحيد ، ولهذا قال ﷺ : « لا يقولن أحدكم : عبدي ، أمتي ، ولا يقل المملوك ربي ، ليقبل المالك فتاي وفتاتي ، وليقل المملوك سيدي وسيدتي ، فانكم المملوكون ، والرب هو الله عز وجل » ، رواه الشيخان ، وهذا الأدب اللطيف أخذه النبي ﷺ من القرآن من نحو قوله تعالى ﴿ فَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَانِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ (٤ : ٢٤) ، وقال لفتيانه : اجعلوا بضاعتهم في رحلهم ﴿ (آ ٦٢) ، تراود فتاها عن نفسه ﴿ (آ ٣٠) ، ﴿ ولا تُكْرِهُوا فَتِيَانَكُمْ ﴾ (٢٤ : ٣٣) ، والصواب أن يمنع في غير ما ورد النص به فيما إذا كان معرفاً بأل ، أو مضافاً لما قل عام ، وهذا نظير السجود ، أعني سجود إنسان لإنسان على جهة الاحترام والترسم ، فانه كان مجازاً في العصور السابقة ، ولكنه منع في شريعتنا المحمدية منعاً مطلقاً ، احتياطاً في باب التوحيد ، والله تعالى أعلم .

هل كان العزيز خصياً حقيقة أو مجازاً

الفائدة السادسة — قيل : « كان العزيز خصياً ، فكانت امرأته ترسل الدفعة إثر الدفعة ، وتتأهبها لوعة بعد لوعة ، كما استعرضت حياة الزوجية الكاملة ، التي تكفل اللذة والولد ، ولكنها لم تزل خلواً من طفل محبوب تناغيه ، وطفلة جميلة تلاعبها ، لذلك فهي لا تفتأ تطلب الذرية ، وتسعى لها سعيها ، والآن قد سمعت ذلك السعي المعلوم ، ترمي بذلك حجراً لتصيد به صيدين ، أي لتحصل على استكمال الشهوة البدنية واللذة الجسدية ، ولتكون أما وبصير « العزيز » أباً ، ولكن على حساب سيدنا يوسف ، حماء الله وعصمه » .

ولكن الصحيح إن فوطيفار « عزيز مصر » لم يكن خصياً حقيقة لغوية ، بل

كان خصياً حقيقة عرفية ، جرى عليها عرف حكومات المصريين والأشوريين والكلدانيين ، وربما بل كثيراً ما يسمون المأمورين في التاريخ عبيداً ، والحقيقة أنهم أحرار وكاملو الخلقة ، ومن لم يقف على هذا الاصطلاح الذي جرى عليه قدماء المؤرخين تبعاً لاصطلاح تلك الحكومات دخل عليه من الغرور ما جرّاه أن يقول إن فوطيفار عزيز مصر كان خصياً حقيقة لغوية ، كما اغتر بنحو ذلك من المفسرين ابن جرير ، رحمه الله ، وأما قول عزيز مصر لامرأته « أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً » (آ ٢١) فلا تقتضي أنه كان خصياً مقطوع عضو الرجال ، إذ يجوز أن يكون عدم وجود ولده ناشئاً لما نفع من جانب زوجته أو لما نفع من جانبه غير قطع العضو كالمقم أو الارتقاء أو العنة أو نحو ذلك مما بسطه علماء الطب ، فافهموا ..

(انه لا يفلح الظالمون)

— ١ —

صعد على المنبر الشيخ حسين العاملي ^(١) وقال :

أيها الاخوان هذا خطاب السيدة سلمى بنت الحاج حسين الصيداوي فأرجوكم أن تصفوا اليه .

الظالم لا يفلح

يقول يوسف : إن سيدي خلق لك ، وأنت خلقت له ، فبعد ذلك هل يجوز لي أن أظلم سيدي وأتعدى على ما خصته الشريعة به ؟ — حاشا — إنه لا يفلح الظالمون .

(١) نسبة الى جبل عامل في بلاد الشام (لبنان) .

أنا كما لي يد تتناول إحسان سيدي ، فلي قلب يحس بواجب شكره ، ويشهر
بحفظ معروفه ، ويُقدّر إنسانيته معي حق قدرها ، فهل يسوغ لي التناضي عن ذلك
الحس والشعور ؟ حتى أكون بذلك قد ظلمت قلبي وحسه وشعوره — خاطأ —
إنه لا يفلح الظالمون .

أنا لا أمتنع من هذا العمل خوفاً من القانون ، فالقانون في هذا البلد مدني
لا أدبي ، ولا خوفاً من الحكومة ، فالحكومة (بالنسبة اليّ) هي أنت ، وأنت
هيه ، ولا خوفاً من أيك وولي أمرك ، فانها لا يعلمان من حالنا شيئاً ، ولكي
أخاف من ضميري يوبخني ، فإن ربي فوطيفار أحسن مثواي ، وأخاف من (الأ'لوه)
أن يكتبني في ديوان الظلمة ، الذين لا يفلحون ، حيث يجازون الحسن بالسيء .
إن هذا العمل ، ظلم لسيدي العزيز ، ظلم لحقوقه وشرفه وعرضه ، ظلم لنعمته وخبره
وملحه ، ظلم لنفسي ، ظلم للشريعتين ، شريعة الطبع وشريعة السماء ، واني أخاف إن
عصيت ربي عذاب يوم عظيم .

بدء المعركة بين زليخا ويوسف

آ (٢٤) * ... وَلَقَدْ ... هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ! ، لَوْلَا أَنَّ
رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ... ، كَذَلِكَ ، لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ
وَالْفَحْشَاءَ ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ . *

افتتحت الجلسة وتليت الآية الرابعة والعشرون فتسابت السيدان
أيضاً الى الكلام على هذه الآية ، فقامت السيدة نزار الموصلية وقالت :
(ولقد) كان انه لما لم ينجع مع « يوسف » الطلب باللين والرفق ، ولم ينجح مع

« زليخا » الرد بالعظة الحسنة ، ولم تجدي عند صدى غرامها به ، وقد أخذ الشبق منها مأخذاً قوياً ، كما أخذ التغيظ منه مأخذاً قوياً أيضاً ، (همت به) ضرباً أو لكماً أو قتلاً (و) هو أيضاً (هم بها) كذلك ، وكاد أن يقع ذلك منها ، لولا أن تراخت هي عن تنفيذه ، بالنظر لما هو معلوم طبعاً من ضعف المرأة ، و (لولا أن رأى) هو ، أي استحضر أو تصور أو تخيل في نفسه (برهان ربه) وهو الدفع بالتي هي أحسن أو التملص متى أمكن (كذلك) - الكاف منصوب المحل - أي مثل ذلك الثبوت ثبته - أو مرفوعة أي الأمر مثل ذلك (لنصرف عنه السوء) وهو الزنا أو مقدماته ، بدليل قولها فيما بعد :

« ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً » ثم قول النسوة : « ما علمنا عليه من سوء » ، (والفحشاء) القتل (إنه من عبادنا المخلصين) الذين قلنا فيهم إنهم : ﴿ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ﴾ (٢٥ : ٦٨) وقلنا فيهم : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ (١٥ : ٤٢) وورد فيهم : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَا غَوْرَ يَتَّبِعُهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ (٣٨ ٨٢ و ٨٣) ؛

هذه كلمتي ابتعشها الألم ، فسطرها القلم ، وهذا هو التفسير الذي يطير رؤوس غلطات المفسرين عن أبدانها لأن المعنى الذي قرروه شيء لا وجود له في الواقع وإنما هو من مخلوقات الخيال ، ليس إلا ... !! وإنه ليعز علينا أن تناقش المفسرين هذه المناقشة الشديدة ، ولكن دفاعنا عن مقام نبي الله ورسوله « يوسف الصديق » نحدو بنا لمثل ذلك والسلام .

(ولقد همت به وهم بها ...)

— ١ —

وقالت السيدة ميمونة الخليلي^(١) :

همت به جلياً وهم بها وقماً

أعظمت زليخا إباء يوسف ، وهالها جفاء جوابه ، ورأت أنه لم ينفع فيسه الكلام الهادي ، الناعم المرن ، فأخذت تغلظ له في القول ثم قامت « فهمت به » ، جلياً ، وتقاتت طلباً ، واستماتت رغبة ، في سبيل الحصول على شهوتها والوصول إلى رغبتها ، واجتهدت على هذا بكل حواسها وعواطفها النفسية ، وأما هو (ع) « فهم بها » ، دفعاً ، واستماتت منماً في سبيل المحافظة على شرفه وطهارته ، والاحتفاظ بدينه ، واجتهد على ذلك بكل حواسه وعواطفه العقلية ، وهكذا قامت القيامة بينها ، وشتت الغارة وأعلنت الحرب .

برهان ربه هو حجة الله التي تقضي عليه بالرفع بالتي هي أحسن

أراد يوسف أن يدفعها بشدة وعنف « لولا أن رأى برهان ربه » القاضي عليه بالدفع بالتي هي أحسن ، فاستدركه وشرع يحاول دفعها باللطف ، عملاً بالقانون السماوي المذكور ، ولئلا يعرض نفسه للخطر لأنه عبدها وفتاها و « برهان ربه » هو حجة الله على العبد في تحريم الضرب أو القتل أو الدفع بقسوة وشدة ، مع إمكان الدفع بيسر ولين .

(١) نسبة الى بلدة الحلة من بلاد العراق .

هذا هو المعنى الذي أعثرني الله عليه، وأطلعني على مكنونه ، فإن كنت مصيبةً
فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، وإن كنت غطئة فما ذلك
بأول قارورة كسرت . (مرحى)

(ولقد همت به وهم بها ، لولا أن رأى . الخ)

— ٢ —

وقالت السيدة خديجة الغزية :

همت بقتله وهم بقتلها

إن رأي في هذين الهمين هو أن يوسف رأى نفسه مع تلك المرأة في حالة أخذت
ورد ، ورغبة وإباء ، وأنه صار في موقف خطير ، فاحتمد الدم في وجهه ، فكررت
الطلب بإلحاح وشدة ، وكرر هو الإباء بأشد ، فصارت هي في حالة غير اعتيادية ،
وهاجت عواطفها أكثر من ذي قبل ، « همت » به أن تقتله أو تبطش به أو
تضربه ، أي أنها لجأت إلى الطلب اليابس الجاف ، ولكن خوفها منه اعترض مجرى
أفكارها ، فتوقفت ، ورأى هو نفسه أن موته أهون ، ولئن مات شهيداً الطهر
والعفاف ، ولكنه أخيراً لم يرد أن يستسلم لها ، بل أراد الدفاع ، فصار في حالة غير
اعتيادية « وهم » بها أن يقتلها أو يبطش بها أو يضربها ، إذا لم يجد مخلصاً سوى ذلك
لسان حاله يقول : « إن الموت في سبيل حياة الشرف ، خير من الحياة في سبيل
موت الشرف ، وإنه لا محيص من الصدر أو القبر » ، ولكن برهان سيده منعه من
إتمام ذلك . وحوادث الفرام والحب مملوءة من ذكر القتل أو إرادة الإقدام عليه
تارة من جانب الحب إذا استولى عليه الحب وملك عليه حواسه ، وطوراً من
المحبوب إذا كان شريفاً ، وحيناً من الجانبين عند اختلافهما في الفكرة كما هنا ،

وهذا هو المعتاد في مثل هذه الحال بمقتضى الطبع البشري ، وله شواهد تقع دائماً .
والعبارة تدل عليه دون غيره ، فإن المقام مقام خلاف ومغاضبة ، ولا يقال :
« هم بالشخص » في هذا المقام إلا إذا أريد بالهم الضرب أو ما مائله أو فوقه من
الأيذاء ، وأيضاً لا يقال : « إن المرأة همت بالرجل » بالمعنى الذي جرى عليه
المفسرون ، لأن الهم إنما يتعلق بالعمل دون الشخص ، وهي في المباشرة موآتية
لا عمل لها .

البرهان في قوله « لولا أن رأى برهان ربه »

وأما رأيي في هذا البرهان فهو أنه لما حمى الوطيس بين يوسف وزليخا وانتقل
الكلام من الجدل الى الجلاء ، ومن المقال الى القتال ، أراد أن يتأدى هو على
ذلك « لولا أن رأى برهان ربه » وهو شعوره بثقل فضل سيدته عليه ، وثقل
فضل سيده فوطيفار ، ولكونه تربى في بيتها ونعمتها وكفالتها ، ورآى في هذا
البيت عزاً وراحة .

ويمجوز أن يكون الرب هنا هو الله سبحانه ، وبرهانه هو أن الضرر لا يزال
بالضرر ، كما ورث ذلك من أبيه يعقوب وجديه إسحاق وإبراهيم ، من أنه
لا يجوز قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأنه يجب الدفاع بالتي هي أحسن ،
قال الشاعر :

ليس الشجاع الذي يحمي فريسته عند القتال ونار الحرب تشتعل
لكن من كف طرفاً أو ثنى قدماً عن الحرام فذاك الفارس البطل

وجواب « لولا أن رأى برهان ربه » محذوف ، تقديره : لولا أن رأى برهان ربه

لقتلها أو ضربها أو صفعها ، لأن قوله «م بها» يدل عليه ، كقولك : «همت به أي بقتله ، لولا أني خفت الله» ، أي لولا أن خفت الله لقتلته .
هذا هو المعنى الذي يشف عنه اللفظ ، شغوف الكأس الصافية عن الشراب ، وتفسير هذه الآية بتغير نحو ما قدمنا ، هو من قبيل تفسير الكلام بالمعنى المركوز في نفس السامع ، لا من قبيل تفسيره بالمعنى الذي أراده القائل ، ولعمري إن ما قالوه في تفسير هذه الآية لا يقبله إلا من يأخذ برواية «مسيلة» عن «فاخنة» ويا ليت الأقلام التي كتبت تلك الروايات لم تنبت بعد ، ولعمري إن أول ما قرأته أصابني نوبة ذهول شديدة ، صرعتي أكثر من عشر سنين ، ولم أفق منها إلا بعد ما رأيت الفيلسوف الشيخ محي الدين بن عربي يقول «همت به» جلباً «وم بها» دفعاً ، ثم رأيت العلامة ابن حزم يقول : «همت به» قتلاً «وم بها» كذلك ، فسررت بذلك كثيراً والحمد لله .

الرؤية في قوله (لولا أن رأى) هي رؤية علمية

والرؤية هنا علمية ، كما في قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ ، فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ (٣٦ : ٧٧) ، وقوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزْوَاجُهُمْ﴾ (١٩ : ٨٤) ، وقوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ؟﴾ (٥٨ : ٧) وقوله تعالى : ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ (٧ : ١٤٥) وقوله تعالى : ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ، وَزَاهٍ قَرِيبًا﴾ (٧٠ : ٦ و ٧) وما إلى ذلك مما هو كثير في كتاب الله وسنة رسوله ، وفي شعر العرب ، ولكن القافية ضاقت على فريق من المفسرين فحملوه على الرؤية البصرية ، وفهموا غلطاً أن ما رآه كان كتابة في خاطره ، أو في صورة برزت منها ، إلى آخر ما فهموا ...

ولو كان المعنى على حسب ما ذكره هذا الفريق من المفسرين ، لم يكن في قوله
 «مبجحانه» همت به ، فائدة جديدة ، لأن ههما به — بالمعنى الذي تصوره — قد
 عرف تماماً من سابق قوله «وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب
 وقالت : هيت لك» ، فلو قال قائل : إن قوله ، ولقد همت به تأكيداً سبق من
 مراودتها وتغليقها الأبواب وطلبها إياه ، — قلنا إنه لأمر معلوم أن التأسيس خبير
 من التأكيد كما هو معلوم أن المؤكد يجب أن يكون من درجة المؤكد ، حال
 كون «الهم» هنا — بالمعنى الذي تخيلوه — ليس هو من درجة المرادة وتغليق
 الأبواب وطلبها إياه ، بل ليس من درجة «العزم» الذي هو أعلى من الهم ، كما
 قال الناظم اللغوي الفقيه :

مراتب القصد

مراتب القصد خمس : «هاجس» ذكروا
 «فخاطر» «فحديث النفس» فاستمعا
 يليه «هم» «عزم» كلها رُفِعَتْ
 سوى الأخير ففيه الأخذ قد وقفا
 هكذا كنت رأيته منذ القديم أو نحواً منه ، في كلام الفيلسوف الشيخ محي الدين
 ابن عربي ، وكلام العلامة ابن حزم . (مرحى)

استعمال كلمة الهم في كلام العرب والقرآن والحديث

وتفسيرنا هذا الهم ، وهذا الهم بما قلنا هو الذي يستدعيه الأسلوب العربي ،
 قال الشاعر :

هممت ولم أفعل وكدت وليتي ترصكت على عثمان تبكي حالله

ويقول جميل بثينة :

فليت رجالاً فيك قد نذروا دمي وهما يقتلي يا بئس لستؤني
 وقال تعالى : ﴿ وَهُمْ أُولَئِكَ يُدْعَوْنَ إِلَى اللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ هَؤُلَاءِ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (١٤ : ٩) وقال تعالى : ﴿ إِذْ هُمْ
 قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ ﴾ (١٢ : ٥) وقال تعالى : ﴿ وَهَمَّ كُلُّ
 أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ﴾ (٥ : ٤٠) فهذه النقول تفيد أنه كثيراً ما يستعمل
 الهم في الإيقاع والاقدام على المكروه والقتل ، وفي حديث ابن ماجه وغيره :
 « جاء رجل يطلب نبي الله ﷺ بدين ، فتكلم ببعض الكلام « فهم » صحابة
 رسول الله به ، فقال رسول الله : « مه » ، إن صاحب الدين له سلطان على صاحبه
 حتى يقضيه » ، وفي ابن ماجه أيضاً : « بعث رسول الله ﷺ أبا حذيفة مُصَدِّقاً
 فلاحه ، رجل في صدقته ، فضربه أبو جهم فشججه ، فأثوا النبي ﷺ ، فقالوا :
 القود يا رسول الله ، فقال النبي ﷺ : لكم كذا وكذا ، فلم يرضوا ، فقال لهم كذا وكذا
 فرضوا فقال النبي ﷺ : إني خاطب على الناس وخبرهم برضاكم — قالوا : نعم ، فخطب النبي ﷺ
 فقال : إن هؤلاء الليثيين أتوني يريدون القود ، فمرضت عليهم كذا وكذا ،
 أرضيتهم ؟ — قالوا : لا ... « فهم » بهم المهاجرون ، فأمر النبي أن يكفوا ،
 فكفوا ، ثم دعاهم فزادهم ، فقال أرضيتهم ؟ — قالوا : نعم — قال : إني خاطب على
 الناس وخبرهم برضاكم — قالوا : نعم ، فخطب النبي ثم قال : أرضيتهم ؟ قالوا نعم »
 وفي البخاري عن ابن عباس : « أن عُبَيْدَةَ بْنَ حِصْنٍ ، قال لعمر (ض) : هي (١)
 يا ابن الخطاب ! فوالله ما تعطينا الجزل ، ولا تحكم بيننا بالعدل ، فغضب عمر حتى
 « هم » به ، فقال له الحر بن أخى عُبَيْدَةَ : يا أمير المؤمنين ، إن الله تعالى قال
 لنبيه ﷺ : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٧ :

(١) كلمة تهديد ، وقيل هي ضمير لمبتدأ حذف خبره ، أي هي داهية .

٥٤٠ الرد على من طعن في عفاف يوسف بقوله إنه لم يمت بمخالطة امرأة العزيز (٢٤)

(١٩٨) ، وإن هذا من الجاهلين ، فوالله ما جاوزها عمر ، حين تلاها عليه ، وكان وقافاً عند كتاب الله .

(ولقد همت به وهم بها ، لو لا أن رأى برهان ربه)

— ٣ —

وقالت الأنسة ربيعة المقدسية :

الرد على من طعن في عفاف يوسف بقوله إنه لم يمت بمخالطة امرأة العزيز

هذه كلمة يجب التكلم عليها برفق وأناة ، وهي قبل التأمل فيها « شبهة » لمن طعن في عفاف يوسف ، وقوله ﴿ إنه من عبادنا المخلصين ﴾ مع ملاحظة قوله : ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ « حجة » لمن قام يناضل عن يوسف ، وقد فسر الخطباء من قبلي « الهم » بما سمعتم ، فلا تكونوا ممن يتمسك « بالشبهة » وينفض نظره عن « الحجة » ، فإن قوماً من المفسرين ذكروا في هذا المثل ما يهوي برأس الحقيقة الى عقبها ، ولعمري إنهم لطخوا عرض يوسف بما هو براء منه ، وأرادوا أن يكسبوا تاريخه لوناً قائماً ، قد كادوا له كيداً أعظم جداً من كيد إخوته له ، فإن من يسقطك عن درجة الأعتاء الأطباء ، يسيء اليك أكثر ممن يلقيك في غياهب الجباب .

وعندنا إن كلام هؤلاء المفسرين الذين أرادوا تشويه تاريخ يوسف (ع) متصل بالمعمل الذي خرجت منه تلك « الأسفار » التي لا تزال تنال من عفة الأنبياء الأطهار .

أي أن بعض المفسرين نقلوه عن جهلة اليهود الذين اعتنقوا دين الإسلام لأمر ما ، مع أن نفس تلك الأسفار اليهودية وإن تكن قد حشيت بالطعون الفاحشة في أنبياء الله ، لكنها خلت عن الطعن بيوسف (ع) .

وطالما دافعت بلساني وقلبي عن يوسف (ع) في هذا المقام ، وإني أود أن يكون لي لسان ثان ، وقلم آخر ، لأستخدمها في سبيل الدفاع عن هذا النبي الصديق (ع) .

فأنا الحقيرة أو من بأن يوسف نبي ورسول (٤٠ : ٣٤) وصديق (١٢ : ٤٦) وأنه لما بلغ أشده ، آتاه الله حكماً (١٢ : ٢٢) يحكم به نفسه عن الهم بمخالطة وعن كل سوء ، وأنه من عباد الله المخلصين (١٢ ، ٢٤) الذين ليس لا بليس عليهم سلطان بحكم قول القرآن : ﴿وَلَا غَوْلَ يَنْهَاهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ قال : هذا صراط علي مستقيم ، إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴿ (١٥ : ٣٩ - ٤٢) وبالتالي والنتيجة أو من بأن يوسف إنما هم » بدفعها بشدة أو بضرها أو بقتلها ، لولا أن رأى برهان ربه ، الذي أرشده للدفع بالتي هي أحسن ، وأما من صدق بهذه الآيات الكريمة مع قوله : إن يوسف هم » بمخالطتها فقد آمن بشطر دون شطر ، أو نقول إنه آمن بالمقدمات دون النتيجة ، أو بالفاظ الكتاب دون معانيه .

حقاً إنه ليصعب علينا أن نعتقد ما قاله القائلون ههنا ، مما يلوث شرف السيد الصديق ، مما يخالف ما أخذ على نفسه تحقيقه ، وهو حفظه معروف ربه ، وإن الظالم لا يفلح أبداً .
(مرحى مرحى)

(كذلك ، لنصرف عنه السوء والفحشاء)

— ١ —

قال الشيخ اسعد البنهاوي ' :

السوء والفحشاء

الكاف في كذلك منصوب المحل ، أي مثل ذلك التثنية ثبتناه ، أو مرفوعه ، أي الأمر مثل ذلك (الكشف) .

« والسوء » هو كل ما يُغْم الإنسان من الأمور الدنيوية ومن الأحوال النفسية والبدنية والخارجية ، من فوات مال وفقد حميم ، وفعل قبيح ، وهو اسم من ساء ضد سره ، والسوء ضد الحسن ، وهو في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (١٦ : ٢٧) بمعنى الغم ، وفي قوله تعالى : ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ (٣ : ١٢٢) بمعنى القبيح ، فالسوء كل عمل قبيح بسوء فاعله إذا كان عاقلاً سليم الفطرة كريم النفس أو يسوء الناس .

« والفحشاء » هي والفحش والفاحشة الفاظ ثلاثة معناها واحد ، وهو كل ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال ، وفحش الرجل صار فاحشاً ، قال الشاعر :

أرى الموتَ يَعتام الكرام ويصطفي عقيلة مال الفاحش المتشدد

يعني به العظيم القبح في البخل ، وفي الحديث : (إن الله يبغيض الفاحش المتفحش) ، فالفاحش : ذو الفحش في كلامه وأفعاله ، والمتفحش الذي يتكلف ذلك ويتممه ، وكل ما يشتد قبحه من الذنوب والمعاصي تطلق عليه هذه الألفاظ

ومنه الحديث : (قال لعائشة : لا تقولي ذلك ، فإن الله لا يحب الفحش ولا التفاحش) أراد بالفحش التعدي في القول والجواب ، والتفاحش تفاعل منه ، وقد يكون الفحش بمعنى الزيادة والكثرة ، ومنه حديث بعضهم ، وقد سئل عن دم البراغيث ، فقال : (إن لم يكن فاحشاً فلا بأس) وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ، إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْتُمْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٢ : ١٦٩) « فالسوء » القبيح ، « والفحشاء » ما يتجاوز الحد في القبح (كشف) .

وكل واحد من القتل والزنى يقال له سوء وفحشاء ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ، إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ، إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ (٤ : ٢١) وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانِيَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ (١٧ : ٣٢) وقال : ﴿ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأًا سَوْءًا ﴾ (١٩ : ٢٨) أي زنى ، وقال : ﴿ وَلَا تَقْسُوهَا بِسَوْءٍ ﴾ (٧ : ٧٣) أي قتل ، وقال : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السُّوءِ الْعَذَابِ ، يُذَكِّرُونَ آبَاءَكُمْ ﴾ (٢ : ٤٩) وقال : ﴿ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْكُمُ النَّصَفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنْ الْعَذَابِ ﴾ (٤ : ٢٤) .

فاذا تقرر هذا فحاصل المعنى لنصرف عنه ما ينعمة ويجزئه وكل أمر قبيح وكل ما يتجاوز الحد في القبح ، أو لنصرف عنه الصغيرة والكبيرة ، أو لنصرف عنه الكبيرة والكبرى من المعاصي ، فلعلمه أراد : لنصرف عنه ما يسوءه ، وهو خيائته لسيدته ، والفحشاء وهو قتله لسيدته ، أو السوء ما لا حد فيه وهو قتله لسيدته دفاعاً عن عرضه ، والفحشاء ما فيه حد وهو الزنى ، أو لنصرف عنه السوء وهو مقدمات الفاحشة من التقبيل والضم ونحو ذلك والفحشاء وهي الزنى أو القتل ، أو السوء هو الزنى والفحشاء هي القتل ، وهذا الأخير هو الأقرب عندنا بدليل قوله تعالى : ﴿ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا ﴾ أي زنى ، و ﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ

من سوء ﴿ أي زنى ، و ﴿ إن النفسَ لأمارّةٌ بالسوء ﴾ أي الزنى ، فكلمة سوء في هذه الآيات الثلاث في هذه السورة مستعملة في الزنى ، فليكن لفظ «السوء» في قوله ﴿ لنصرف عنه السوء ﴾ مراداً منه الزنى ، وإذا ثبت هذا «فالفحشاء» هي القتل الذي كان حاوله يوسف ثم رأى غيره أحسن منه وهو الفرار ، ومع كل هذا فنحن لا نمنع أن يسمى كلا فعلي الزنى والقتل سوءاً وفاحشة . هذا ما فهمته ذكرته لكم والله تعالى أعلم .

(انه من عبادنا المخلصين)

— ١ —

قال العلامة الجيزاوي (١) :

(اخلص يوسف لله واخلص الله ليوسف)

هذا هو حجر الزاوية في عفة يوسف وطهارته ، فيوسف كان من عباد الله الذين قال فيهم : ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً — الى أن يقول — ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ولا يزنون ﴾ (٢٥ : ٦٣ — ٦٨) ، كان يوسف من عباد الله الذين قال فيهم : ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ (١٥ : ٤٢) كان يوسف من عباد الله الذين ورد فيهم : ﴿ قال فبمزةً تك لاغور بينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ (٣٨ : ٨٣ و٨٢) .

فيوسف بانصرافه عن الزنى والقتل تم فيه قوله تعالى : ﴿ ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ﴾ (٢٥ : ٦٨) وباعراضه عن

مراودة امرأة العزيز إياه وقولها له « هَيْتَ لَكَ » ثم فيه قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا
 كَرِهُوا بِاللَّغْوِ كَرِهُوا كَرَامًا ﴾ (٢٥ : ٧٣) وبرؤيته برهان ربه والعمل
 بمقتضى ذلك البرهان تم فيه قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا دُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ
 لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ (٢٥ : ٧٣) .

وهنا تنمة للكلام مهمة جداً ، وهي أن كلمة « مَخْلَصِينَ » في القرآن
 الكريم تقرأ بالفتح والكسر ، بمعنى أن الانسان لما أخلص دينه لله أخلصه الله
 لطاعته ، ومن خواص الاخلاص انه لا يعلمه مَلِكٌ فيكتبه ، ولا عدوٌ فيفسده ،
 ولا يعجب به صاحبه فيعطله . فامرأة العزيز كانت مشركة ، فوقعت مع زوجها
 فيما وقعت فيه من السوء ، وأما يوسف (ع) فمع عزوبيته ومراودتها له واستماتتها
 عليه بالنسوة ، وتهديدها له بالحبس ، فقد عصم نفسه ، فمحصنه الله باخلاصه لله .

فِصصُ الشَّرَاهَةِ

آ (٢٥) ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ ، وَقَدَّتْ قِصَّةُ مِنْ دُبُرٍ ،
 وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ ... قَالَتْ : مَا جِئْتُ مِنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ
 سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . ﴾

افتتحت الجملة وتليت الآية الخاتمة والعشرون فقام الشيخ
 الدنوشري (١) وقال :

(واستبقا الباب) أي تسابق يوسف وزليخا الباب البراني الذي هو المخرج
 من الدار والمخلص من العار ، لأنها ضابقتة وضغطت على حربيته ، وشددت عليه .

(١) نسبة الى دنوشر في السودان .

وأخرجته، ولما كانت شدة الضغط تولد الانفجار، ولما كان الإخراج يؤدي إلى الإخراج، نفر منها فأسرع يريد الباب ليخرج، وأسرع وراءه لتمنعه الخروج، (وقدت قيصه من دبر) اجتذبت من خلفه فانقد أي انشق قيصه حين هرب منها إلى الباب وتبعته تمنعه، وما كان منه إلا أن نزع عسه عن جسمه ليسهل عليه التخلص منها فأخذته ملفوفاً في يدها (وألفيا سيدها) بصادقا بطلها فوطيفار (لدا الباب) مقبلاً يريد أن يدخل وقيل كان جالساً مع ابن عم المرأة، فما تصورت إلا كأنها أفاقت من سبات، وقد رجعت إليها حواسها، فراعها ذلك، والتمست مخرجاً أرادت أن تلهب به عليه سيدها (فقات) بلسان المشتكي المظلوم: الله أكبر، ما هذا؟ «إن البغاث بأرضنا يستنسر»، الله أكبر «حاميا حراميا» جئنا بالعبيد لكي يجرسوننا فإذا هم الخائنون! صدق من قال: «من اشترى الدون بالدون، كان هو المغبون»، قالت وجرس صوتها يئم عليها (ما) أي ليس (جزاء) عقاب كل (من أراد بأهلك) بزواجك (سوأ) زناً (إلا أن يسجن أو عذاب أليم) كالضرب بالسياط مثلاً أو تشغل بأشغال شاقة، ويجوز أن تكون «ما» استفهامية بمعنى أي شيء جزاؤه إلا السجن، ولو كان حبها شريعاً، لم تقل ذلك ولا أثرته على نفسها، ولكن حبها إياه كان حباً شهوانياً، وأما يوسف، فنظن أنه لما سمع هذا السباب تأفف جد التأفف ولكنه صبر، وردد في نفسه معنى قول القائل:

إذا ما كنت في قوم غريباً فعاملهم بعقل يستطاب
ولا تحزن إذا فاهوا بفحش غريب الدار تنجسه الكلاب

(واستبقا الباب)

- ١ -

قالت الأنسة معصومة النابلسية (١) :

هرب يوسف من زليخا ولحقا زليخا به

كانت زليخا لم تأل جهداً في استئزال يوسف على مرادها ، وهو لم يأل جهداً في ردها عما ترغب اليه فيه ، فتشا كساوهم كل بالآخر ، وبتمبير آخر لما حمي الوطيس بينها ، أرادت ضربه أو لسكره أو قتله ، وأراد ضربها أو لسكرها أو قتلها ، ثم رجع هو عن هذه الفكرة ، بحكم البرهان الذي رآه ، القاضي عليه أن يدفع بالتي هي أحسن ، وعندئذ رأى نفسه عاجزاً أمامها ، وأن ليس له سلاح يتسلح به سوى الفرار من بين يديها ، فولى وجهه شطر الباب ، فرهارباً وللنجاة طالباً ، فلطمت يداً بيد وضربت صدرها ، وما عتمت أن لحقته ، فذهبا يتسابقان نحو الباب ، وهما بين هارب وطالب ، طريد هارب ، وصائد طالب ، تسابقا تسابقاً يمضي المصور أن يراه في رسمه ، لكي يرسم صورة الطهارة والعفة في ذلك استاب الشريف ، ويرسم صورة الخيانة والدناءة في تلك المرأة الساقطة .

هو يستبق لباب الجنة ، وهي تستبق لباب جهنم ، هو يستبق لباب الطهارة ، وهي تستبق لباب الدنس ، هو يستبق لباب الشرف والعلو ، وهي تستبق لباب الدناءة والانحطاط — كل منهما يريد الباب ، ولكن لأمرين مختلفين ، كل منهما يريد الباب ، وهو عمل في ظاهره واحسد ، ولكنه في باطنه مختلف أيما اختلاف ، صورة هذا العمل واحدة ، ولكن الروح مختلفة ، هو استبق الباب ليخرج منه ،

(١) نوبة الى نابلس من بلاد فلسطين .

وهي استبقت الباب لثمنه من الخروج ، هو استبق الباب ليفتحه ، وهي استبقت الباب لتسده في وجهه ، هو استبق الباب ليفر بدينه ومروءته ، وهي استبقت الباب لتهدم دينها ومروءتها .

هذا ياسادتي ما أردنا التعليق به على كلمة (استبقا) ، وأما تعليقنا على كلمة (الباب) فيظهر أن هذا الباب هو أحد أبواب القصر الداخلية التي تحوطه من جهاته ، وكانت قد غلقتها كما تقدم ذكره ، وكان الباب في طريقه ، فقصده ليخرج منه ، وكان مغلقا (بالزلاج) أي السقطة ، على حسب العوائد القديمة ، وليس هو الباب الخارجي الذي يؤدي إلى الطريق السلوكية ، إذ يبعد أن تعمل هي هذا العمل ، اللهم إلا إذا كانت الحركة حركة حب جنوني ؛ هذه كلتي في هذا الموضوع ، والله أعلم .

(وقدت قيمه من 'دُبر')

— ١ —

وقالت السيدة فريدة الحمصية (١) :

فر القميص

هرب منها يريد الخروج من باب القصر ، وعدت خلفه لتجذبه إلى نفسها ، فتبادرا إلى الباب ، يجتهد كل واحد منها أن يسبق صاحبه فإن سبق يوسف ، فتح باب القصر ونجا لأنه بصير بين جمهور من الخدم ؛ وإن سبقت هي أمسكت

(١) نسبة إلى بلدة حمص من سورية

الباب لئلا يخرج ، ولكن يوسف سبقها إلى الباب ، وأراد الخروج وهي تعدو خلفه ، فلم تصل إلا إلى دبر قميصه فأمسكت به وجذبت به فانشق والغالب ان هذا كان طولاً ، لأن أكثر استعمال « القد » في الشق طولاً ، وأما عرضاً فيقال له « قط » وفي وصف سيدنا علي (رض) « إنه كان إذا اعتلى قده ، وإذا اعترض قط » ، ولم تزل المرأة متمسكة بالقميص ، نزع يوسف وتركه بيدها وبقي مثابراً على الهرب ؛ وهنا دقيقة قد أغفلها جميع أهل التفسير ، ولكن نحن لا بد لنا من التنبيه عليها وهي :

هل بقي يوسف لابساً قميصه بعد قده

هل بقي يوسف لابساً قميصه بعد قده ، حتى ألقى « سيدها » لدى الباب ، أو هو لما رآها قد تمسكت به فانقذ ، وكانت لا تزال متمسكة به ، تضابق منها فترعه عن جسمه وتركه لها ، إمعاناً في سرعة التخلص منها كما أشرنا إليه سابقاً ؟

هذا هو السؤال الذي لم نجد من المفسرين والمؤرخين من تخيله فذكره في أثناء هذه القصة ، وجوابنا بطلان الشق الأول من هذين الاحتمالين ، لأنه لو بقي لابسه ، وهو واقف مائل أمام تلك الهيئة المتولفة من « عزيز مصر وامرأته والشاهد من أهلها » لكان الأمر ظاهراً ، وكان القد محسوساً منظوراً للجميع ، فلا يكون هناك مجال للشك والتردد وتطريق الاحتمالات ، وثانياً لو كان لا يزال لابسه لجاز « لإمرأة العزيز » أن تدافع عن نفسها وترد كلام ذلك « الشاهد من أهلها » قائلة له : « إنك متحيز لهذا العبد لأمر ما ، وإنك حاقد عليّ لسابقة بيني وبينك » ، فأنت لما رأيت القميص غير مقدود من قبيل ، اعتقدت بالضرورة أنه مقدود من دُبُر ، فلذلك تحيزت لهذا العبد ، وحكمت بهذا الحكم الجائر .

ولكنها لما لم تحتج على « الشاهد من أهلها » ولم تنتقد على حكمه بشيء بل سلمت له تسليماً ، تبين أن يوسف لم يكن لابس القميص ، كما هو الواقع ، بل كان القميص ملفوفاً بيدها ، فلما فتش وجد أن قدّة كان من دبر ، هذا هو الصواب الذي يجب أن يقال في هذا المقام ، والله تعالى أعلم ..

(وألفيا سيدها لذا الباب)

— ١ —

وقالت الحاجة سالحة الموصلية (١) :

مفاجأة فوطيفار لزليخا ويوسف عند الباب

ولم يكن إلا كلع البصر حتى وجدا عزيز مصر عند باب القصر ، وقد انقلب من دار الحكومة للغداء أو لبعض شؤونه ، وإذا هو بين ظهرانيها ، وكأنما كان يسمع صدى عدوها حيناً قريباً منه ، وكان كل من زليخا ويوسف متهيّجاً ، يخرج منها نفّس مرتفع متواتر ، وعند ذلك تحشت الغمزات والاشارات في أفواه الجوّاري والعبيد وعيونهم ، وعقّدت أنظارهم نطاقاً حول ذلك المنظر المدهش . ويا لهول ذلك الموقف ! موقف يترك في النفس حسرة ، وفي القلب لوعة ، موقف يندى له الجبين خجلاً ، وتشمئز منه النفوس الطاهرة .

ألفيا سيدها لدى الباب ، ويا شرّ ما ألفيا ، وبعبارة أصحّ ياشرّ ما ألفت هي فقط وأما يوسف فكان ذلك له — بحسب النتيجة — فرجاً ومخرجاً ، ألفيا سيدها لدى الباب ، فاعترت الأشخاص الثلاثة حالة غير اعتيادية ، فأما يوسف فبغت بهذا

(١) نسبة الى الموصل من بلاد العراق .

الاتفاق ، ولكن سر فؤاده وفرح به قلبه ، لأنه رأى انه قد تخلص من شرها ، بحضور سيدها ووقوفه على واقعة الحال ، وقد تبدل حاله من وجل الى خجل ، وتخيل كأنما يد القدر كانت قد خبأت عزيز مصر خلف الباب ، ثم أبرزته حين اللزوم ، نعم ، لا يخلو ان يوسف في بدء ما رأى عزيز مصر ، تقرر في نفسه لأول وهلة ، قائلاً : « ههنا المطرقة والسندان ، وأنا بينها » ، ولكنه ثاب الى أمته أخيراً ، لأنه يعتقد في نفسه البراءة ، وأن البريء لا يخاف ظلماً ولا رهقاً ، فلذلك اطمأن بالله ، وسكت راجياً من الله الخلاص .

وأما فوطيفار فبهت وشده ، وألقى عليها نظرة التعجب ، ورا به منظرهما ، وخيل اليه أن ذلك العبد آبق ، أو سارق أو هارق ، فدارت به الأرض الفضاء دورة كاد يصعق فيها ، وتمثل له أن صرح راحته ومسرته بذلك العبد الكنعاني قد خرب بين يديه دفعة واحدة ، فثار لذلك ثأره ، واكفهر وجهه واربد ، ونقص عرقاً .

رأى فوطيفار من الأمور المدهشة المحزنة ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، فرا به أمرها ، وقال ما لكما ؟ إني أراكما في أمر مريب ثم التفت لامراته ، لفتة استفهام بتغيظ وتحرق واستغراب . وأما زيلخا فراعها ذلك ، فتضامضت واستخذت ، واستطير عقلها ، خوفاً ورعباً ، فولولت وجلت وصاحت ، وتبرمت وضاحت بذلك ذرعاً ، ودق قلبها دقات متسارعة ، وظهرت البقعة على وجهها ، وارتعدت فرائصها ، كأنها أمسكت نضيدة (١) كهربائية قوية ، وأوجست في نفسها خيفة ، وانتشيع لونها وامتقع . ولكنها ما لبثت أن عادت الى

نفسها واستجمعت قواها ، وخاطبت سيدها بلهجة يابسة ونفمة جافة ، كأنها يزيد بذلك « ستر السموات بالقبوات » (١) .

هذا خطابي المختصر ، ألقينه على مسامعكم الشريفة ، ولا ندحة لي قبل الختام من أن أتكلم كلمتين :

ايضاح لفظ السيد في اللغة والقرآن والتوراة

الكلمة الأولى : — إطلاق كلمة « سيد » على الزوج هي لفظة المصريين ، وشائعة بينهم الى اليوم ، حكاهما القرآن الكريم جرياً على اصطلاحهم ، وأما العرب فيسمون شريك الحياة « زوجاً » قال تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾ (٥٨ : ١) وربما سموه « رجلاً » كما قال تعالى : ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ ﴾ (٤ : ٣٣) ، و« بعلًا » كما قال تعالى : ﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ ﴾ (٢ : ٢٢٨) و« حليلاً » كما يستفاد بالمقابلة من قوله تعالى : ﴿ وَحُلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ ﴾ (٤ : ٢٢) و« صاحباً » كما تتعلمه بالمقابلة من قوله تعالى : ﴿ وَصَاحِبَتَيْهِ وَبَيْنَهُ ﴾ (٨٠ : ٣٦) وقد ورد : « المرأة سيدة بيتها ، والرجل سيد بيته » .

الكلمة الثانية — لم يطلق لفظ « السيد » في كتاب الله تعالى إلا على شخصين فمرة على نبي الله « يحيى » (م) في قوله جسد من قائل : ﴿ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (٣ : ٣٩) وثانية على « عزيز مصر » في هذه الآية : ﴿ وَأَلْقَا سِيدَهَا لَدَا الْبَابِ ﴾ ، ومن غريب الصدف أن الأول (م) لم يتزوج قط ،

(١) القبوات احشاء الحيوانات من كرش ومصارين وهو مثل عامي يضرب لمن يريد ستر أمر مفضوح .

والثاني كان غنياً على أشهر القولين ، وورد في الأسفار الالهية ، إطلاق لفظ « السيد » على عيسى المسيح (م) وهو أيضاً لم يتزوج ، فإطلاق لفظ « السيد » على هؤلاء الثلاثة خاصة ، الذين ليس للنساء حظ منهم ، إن لم يكن له سر ، فهو من عجائب المصادفات وأخشى أن يكون من معاني « السيد » من لم يخضع لشهوة النكاح فهو من هذه الجهة سيد على الحقيقة ، وأما من كان خاضعاً لتلك الشهوة ، فهو من هذه الوجهة « عبد » على الحقيقة ، قال الشاعر :

صاحب الشهوة « عبد » فإذا ترك الشهوة أصبح مَلِكاً

(قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم ؟..)

— ١ —

قالت الأنسة سهير المصرية :

المرافعة والالتهام

رمت زليخا بهذا الحجر ، لتصيد صيدين ، أي لتبرر نفسها أمام زوجها ، ولتوغر صدره على عبده ، فتشفي غليلها منه بسجنه أو عذابه ، لأنه لم يقض لها شهوتها .

نطقت بهذا الحكم القضائي بكل عين قوية لما تعلم من دالتها عليه ، ولتهيج من ثورته ، وتشعل من نار غضبه على عبده وفتاه العبراني وقالت وصوتها يرتعش ، وركبتاها تصطكان ، ولسانها يتلثم ، وكلامها يتقطع مما لحقها من التعب بسبب الجري ، أو مما لحقها من الخزي والحجالة وحراجة الموقف :

« ما جـ... زاء .. مـ... نـ ... أراد .. بأـ... هـ... لك ... »

سـ... وأ... وافض... يح...ناه ! إلا... أن... يسـ...جن
أو عـ... ذاب ألـ...يم... وا خجـ...لـ...ه ! ،

هكذا نطن ان نفمة كلامها كانت متقطعة ، كأنما قد أصيبت في مخيلتها بمرض عصبي في دماغها تقول : بماذا يحكم على من ريناه كظلي ، فاذا هو غر ضاري ، يريد أن يلبتهم فريسة القصر بين أنيابه ، ولا يخشى بأس الأسد حارس القصر وعزيز مصر ؟ .. إذ قد تزلف لي وغازلي ، ثم أرادني وراودني ، فانتك حرمة بيتك ، وعبث بشرفك .

رأت أنها وقعت في الشرك ، فتسلحت بالكذب ، لتتخلص من الشرك الذي وقعت فيه وكان صوتها متزعزعا مضطربا ، مع أن اليهود فيه ان يكون رخيما مطربا .

صرخت باكية شاكية ، لكي تدفع عنها الشبهة ، كما قيل : « وسيلة المرأة في هجومها دموعها ، ووسيلتها في دفاعها صراخها » ، والنكبة الحقيقية تظهر جلد المرأة ، بينما الهموم الصغرى تظهر ضعفها ، فلماذا انقلبت من « غزاة » وديعة ، إلى « وحش » ضار مهاجم ، حاولت إخفاء عواطفها الشهوانية أمام سيدها وعكست الآية ، وشوهت الحادث ، وقلبت المسألة رأسا على عقب ، وكانت كما تقول العامة : « ضربني وبكى وسبقني واشتكى » .

تقول في تصاغر كله كبرياء : ليس جزاء من حاول الفحشاء مع حرمك ، وهن في عقر دارهن ، واقتسرن على ما أراد اقتساراً ، واعتسرن عليه اعتساراً ، إلا السجن في المطبق ، أو أن يسام الخسف والجور والإذلال ، وكل ما فيه ألم وأذى ، فيجب أن يدان بأحد هذين الأمرين ، ولا أحسبك إلا مسلماً لي ذلك على طول الخط ، لأن فعلته هذه خيانة وكفران بالنعمة ، وجراًة على « عزيز مصر » .

هذا ما رمت اليه في مقالها التي استعنت بها على يوسف البريء جبارة الأرض وزبانية جهنم ، نطقت بذلك لا بلهجة الصاغرة المشدوهة ، بل بلهجة المستكبرة المتأمرة ، وبلسان سليط .

ولنا هنا إحدى عشرة ملحوظة :

التناقض في حكم زليخا على يوسف

الملحوظة الأولى — رأيناها تقول هنا : « ما جزاء من أراد باهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم » وسنراها تقول : « ولقد راودته عن نفسه ، فاستعصم ، ولئن لم يفعل ما أمره ، ليسجنن وليكونن من الصاغرين » فجعلت الجزاء على جريمة الفحش (المزعومة) والجزاء عن التزاهة عن تلك الجريمة واحد !!! فما أبعد إنصاف الانسان !!! وما أشد تناقضه خدمة لأغراضه الشخصية !!! ...

ارتباب العزيز في أمر زوجته منذ بدء نكاحها

الملحوظة الثانية — أدرك سيدها من هيئتها وغنة صوتها ، وجعل حالها أنها هي الطالبة وهي الراغبة وهي التي أرادت السوء ليوسف وان حالها تم عن مكنون صدرها ، إذ قد قرأ في صفرة وجهها وملاحظها ان في الأمر دسيسة ، وانها مفترية « ويسكاد المريب يقول خذوني » ، ولذلك لم يجاوبها بشيء ، ولم يظهر له أقل عناية . وبعبارة أبسط من ذلك : سمع سيدها كلامها ، فأدرك أنه ليس فيه شيء من من النفيظ والحنق ، كما هو الواجب لو كانت صادقة ، وليس فيه شيء من الشدة والغلظة التي يجب أن تكون نتيجة للتمدي على شرفها ، بل بالعكس فيه ما يشف عن الرأفة بيوسف ، وذلك لأنها راعت في كلامها دقيقتين ، فأولاً بدأت بذكر

السجن ، واخترت ذكر العذاب ، لأن الحب لا يبادر إلى السبي في إيلام المحبوب ، ولطفت امر السجن بقولها : « إلا أن يسجن » ، لأن هذه العبارة تصدق بسجن أي مدة ولو قللت ؛ فأما السجن الدائم ، فإنه لا يعبر عنه بهذه العبارة بل يقال مثلاً « إلا ان يكون من المسجونين » .

وثانياً لم تصرح باسم يوسف ؛ بل ذكرت ذلك ذكرأ مرسلأ ، صونأ له عن الذكر بالسوء والألم .

ادرك سيدها العزيز هاتين الدقيقتين في طي شكاتها ، فساء فيها ظنه ، واتخذ ذلك علامة انها هي الماكرة الخائلة ، وحفظ الأمر عليها .

ما المراد بكلمة «الأهل»

الملاحظة الثالثة — المراد بكلمة «الأهل» ههنا الزوجة ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ﴾ (٢٨ : ٢٩) فاهله هنا هي زوجته « صفورة » وقوله تعالى للنبي (ﷺ) : ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾ (٣ : ١٢١) اراد من اهله عائشة (ض) لأن غدوه الى أحد كان من حجرتها ، وقوله تعالى : ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ ﴾ (٥١ : ٢٦) ، اراد من اهله هنا ساراي وهاجر خاصة ، لأن ولده اسماعيل كان اذ ذاك ابن ١٢ سنة ، وابن اخيه لوط كان ساكناً في شرقي الأردن ، بخلاف ابراهيم ففي غريبه في فلسطين ، فالأهل ههنا في هذه الآيات الأربع انعام الزوجات .

زليخا تضيف نفسها الى زوجها اعظاماً للخطب

الملاحظة الرابعة — في إضافة نفسها إلى العزيز في قولها : « بأهلك » ، إعظاماً للخطب ، وإغراء على تحقيق ما تتوخاه ، بحكم الغضب والحمية .

زليخا تبادر بالكلام خشية ان يسبقها فيه يوسف أو زوجها
الملحوظة الخامسة — رأت نفسها قد وقعت في مأزق حرج ، فخافت ان
يتكلم يوسف قبل ان تتكلم هي ، او خافت ان يبادرها « سيدها » بالسؤال عن
هذا الحال ، فبادرت في التكلم وسبقت قبل ان تسأل .

اطانة زليخا الكلام في الشكوى

الملحوظة السادسة — لم تعتمد في كلامها الى الاختصار الذي فيه البلاغ إذ كان
يكفيها أن تقول : « هو راودني عن نفسي » ، كما اكتفى يوسف بمثل ذلك إذ قال :
« هي راودتني عن نفسي » ، ولكن أنى هذا وقد قال العلماء : « إن حذق فن
الكلام والبراعة فيه ، مع طول وكثرة واطناب ، هو شيء تحتكره النساء من
دون الناس أجمعين » .

عقاب محاولة فعل الفاحشة في الشريعة المصرية

الملحوظة السابعة — قولها : « ما جزاء من اراد بأهلك سوءاً إلا ان يسجن
أو عذاب أليم » هو من مواد الشريعة المصرية ، وهذه المادة توافق شريعتنا المحمدية
لأن كلاشي هذه المادة من انواع « التعزير » الذي هو عقاب من حاول فعل
الفاحشة ، وبعبارة اخرى ، الذي يكون في المعصية التي لا حد فيها .

انقار زليخا اسم يوسف عند الانهاض

الملحوظة الثامنة — لو قال قائل : « كيف لم تصرح في شكاتها بذكر يوسف ،
وأنه هو الذي اراد بها سوءاً » — قلنا قصدت العموم ، وان كل من اراد بأهلك
سوء افحقه ان يسجن او يعذب لأن ذلك ابلغ فيما قصده من تخويف يوسف ، او
يقال : إنها اظهرت بهذا الإجمال الحياء والحشمة ان تقول لبعلا امام ذي رحمة :
« هذا اراد بي سوءاً » ، ولذلك ايضاً كدنت بالسوء عما أضمرته من الهناة ، مبالغة
في المكر والكيد ، وابعاداً للتهمة عنها ، بتوقي ما يشعر منها بالتبرج والقحة .

القميص المفرد طاله دناراً

الملحوظة التاسعة — نتعلم من قوله : « وقدت قميصه من دبر » مع ما روى التاريخ من انه خلع ثوبه في يدها ، أن هذا القميص كان دناراً لا شعاراً ، وإلا لزم أن يوسف صار عرياناً لا شيء على جسده ، ونتعلم ايضاً أن يوسف كقدماء المصريين المعاصرين له انه لم يكن يلبس البسة كثيرة ، على قبيل ما هو حاصل اليوم من تقطيع الثياب الى قطع كثيرة ، بل كان يلبس ثياباً طويلة بحيث تكون قطعة واحدة ، كما هو المعروف عند قدماء العرب والاسرائيليين .

سبب عدم ذكر القرآن اسم العزيز واسم امرأته

الملحوظة العاشرة — قالوا : لم يصرح القرآن الكريم باسم « العزيز » وامرأته سترأ عليها ، ولـكننا نحن ذكرناهما باسمها وهو العلم الشخصي ، لأننا نعتقد أنها اليوم مجهولان جداً ، بحيث لا يمكن لأحد ما أن يعرفها من هنا ، ولأنهم قالوا يجوز التصريح في مقام التعليم ، على أن القرآن الكريم لم ينبه علينا بعدم ذكر اسمها اختصاراً حسب عادته ، فلذلك نحن في حل من التصريح باسمها على هذا المنبر .

الثأر هو الدافع للثمة

الملحوظة الحادية عشرة — هي قالت : « ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم » ، فتراها بحسب الظاهر حولت العاطفة من القلب الى السجن ، أو الى العذاب الأليم ، أصبح إنه يوجد حب يؤدي لمثل ذلك؟ والجواب نعم إن الحب إذا لم يكن طاهراً يؤدي لمثل ذلك ، ولأعظم من ذلك كالقتل ونحوه ، وثانياً يخيل إلينا أن المسألة مسألة كبرياء وأنفة ، وتحويل جريمة من شخص لشخص آخر ، وإن الدافع لهذه التهمة إنما هو الثأر لعدم امتثال الأمر . (مرحى)

المحاكمة

آ (٢٦) * — قَالَ : « هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي » ،
وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا : إِنَّ كَانَ قِيصُهُ قَدْ مِنْ قَبْلٍ ...
فَصَدَقَتْ ، وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * .

آ (٢٧) * وَإِنْ كَانَ قِيصُهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ ... فَكَذَبَتْ ،
وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ * .

افتتحت الجلسة وتليت الآيتان السادسة والعشرون والسابعة والعشرون
فقام الشيخ عبد الغني الانطاكي وقال : (١)

لما أغرت زليخا يوسف وعرضته للسجن والعذاب ، وجب عليه الدفع عن
نفسه ، فقال بل (هي راودتني عن نفسي) ولولا ذلك لكرم عليها (وشهد شاهد)
أي وقال قائل من (أهلها) قيل كان ابن عم لها ، قال بلسان الحاكم العدل (إن
كان قيصه قد من قبل) أي شق من أمام (ف) قد (صدقت وهو من الكاذبين)
لأنه يكون قد هجم عليها فدفعته عن نفسها فقدت قيصه من قدامه ، وإنما ألقى الله الشهادة
على لسان من هو من أقاربها ، لتكون أوجب للحجة عليها وأوثق لبراءة يوسف
وأنفى للتهمة عنه (وإن كان قيصه قد) شق (من دبر) أي من خلف (ف) قد

(١) نسبة الى انطاكية من بلاد الشام (سورية) .

(كذبت) في رميها له (وهو من الصادقين) في أنها هي التي راودته ، لأن شق قميصه من خلفه يدل على أنه كان هارباً ، وهي لاحقة له .

قيل هو الذي كان جالساً مع زوجها لدى الباب ، ويجوز أن يكون بعض أهلها كان في الدار فبصر بها من حيث لا تشعر ، فأغضبه الله ليوسف بالشهادة له والقيام بالحق ، وسمى قوله شهادة ، وما هو بلفظ الشهادة ، لأنه أدى مؤدى الشهادة في أن ثبت به قول يوسف وبطل قولها ، وأنه ليصدق على هذا « الشاهد ، المثل السائر » ربّ أخ لك لم تلده أمك .

(قال هي راودتني عن نفسي)

— ١ —

وقالت الآنسة رحمة الناصرية (١) :

دفاع يوسف

تعلمون أيها السادة أن يوسف كان أولاً سمع من زليخا مراودتها إياه ، ثم رأى ههما بضربه إن لم يوأتهما ، ثم بلحقها إياه حينما هرب منها ، ثم الآن رآها تُسمع (٢) به زوراً وبهتاناً وتهمة وتلصق به العيب ، فشعر بالدم يغلي في عروقه ، ولكنه تماسك وتمالك ، ولم يكن يحجزه عن المبادرة لاظهار الحقيقة إلا ما لبنت العزيز عليه من الاحسان واكرام المثوى ، فاقصر عن الدفاع عن نفسه بأخصر عبارة وأوجز كلمة ، قائلاً « هي راودتني عن نفسي » مؤملاً أن الواقع سيتكلم عنه طويلاً ، وإن ميزان العدل سيكون له القول الفصل بالبحث عن القرائن والاستشهاد بالامارات .

(١) نسبة الى الناصرة من بلدان فلسطين .

(٢) سمع بالرجل اذاع عنه عيباً وندد به وأشهره وفضحه واسمع الناس اياه .

قال كلمته الموجزة هذه مفصلاً فيها نوع الاكتفاء ولم يطلق لسانه العنان في الدفاع عن نفسه بأن يقول مثلاً : « هي راودتني عن نفسي ، وأرادتني على السوء » ، فلم أزل على إرادتها ، وهي غلقت الأبواب ، لتحصرني وتكرهني على الأمر الشنيع ، وهي همت بالايقاع بي ، جلباً وحملأ على مرغوبها ، وهي لحقتني إذ هربت منها ، وبالنتيجة هي شقت ثوبي من خلني ، عندما أرادت أن تمسكني ، نعم ، لم يطلق لسانه العنان ببيان ذلك كله ، بل تجاهل عن أكثر ما حصل منها ، واختصر الكلام في المحاماة عن نفسه اختصاراً ، لأن خير الكلام ما قل ودل .

قال يوسف كلمته وأمارات العفة والطهارة ظاهرة على وجهه ، ودلائل الصدق لائحة على محياه ، وهو رابط الجأش ، ثابت الجنان ، يقرأ الناظر في إشراق وجهه وملاحه آية النزاهة والشرف فكانت دعواه كما قال القائل :

سَبَّوحٌ لَهَا مِنْهَا عَلَيْهَا شَوَاهِدُ

وأما « العزيز » فكأنني به كان مصغياً لجوابه ، وعيناه شاخصتان فيه ، يتفرس في حركاته وسكناته ، ليستطلع مقدار ما في كلامه ، فرآى الصدق ظاهراً على كل حرف من حروف جملته المختصرة .

وأما « امرأة العزيز » فتخيّل أنها لما فرغت من كلامها التفتت لجهة يوسف وتسمعت ما عسى أن يبدو منه ، وكانت تتوقع استياءه وكدره ، ليندفع ببذيه . الكلام ، فيشفي ما في نفسها ، ولكن يوسف لم يزد على كله « هي راودتني عن نفسي » ، معرضاً عن اهانتها له بتلك الافتراءات والأيعادات ، فزاد استياءه وابلبالها ، لأن من يتعمد إهانتك إذا لم يَرَ قوله قد أغضبك . يرى أن تلك الإهانة رجعت إليه ، وشق ذلك عليه .

(مرحى مرحى)

(وشهد شاهد من أهلها : إن كان ...)

— ١ —

قالت الأنسة سميرة الدومانية (١) :

الشاهد والتحقيقات

كان رجل من أهلها حاضراً ومشاهداً الحادث وكأني به قد افتتح جلسة المحاكمة في هذه المحكمة المختلطة ، ... بقوله : ﴿ الله شهيد بيني وبينكم ﴾ (٦ : ١٩) ، ﴿ وإذا قلتم فاعدوا ولو كان ذا قربى ﴾ (٦ : ١٥٢) ، ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ... أن تصيدوا قوماً بجهالة ، فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ﴾ (٤٩ : ٦) ، ﴿ يا أيها الذين آمنوا ، كونوا قوامين لله ، شهداء بالقسط ، ولا يجر منكم شأن قوم على أن لا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله ، إن الله خير بما تعملون ﴾ (٥ : ٩) ، ثم قال مخاطباً يوسف وزليخا : كلا كما يدعي وليس بيده سلطان ، وكلاً منكما يريد هدم ما عند خصمه من العفاف والطهر ، فهذه بهجومها تريد هدم عفاف هذا العبد وطهره ، بدون إثبات ولا برهان ، وهو بدفاعه يقصد هدم عفاف هذه السيدة وشرفها ، بغير مستند ولا حجة وما هكذا يدلي بالتم ، ولا سيما في باب الأعراض ، ولذلك وحيث لا يوجد مع كل شهود تثبت له صحة دعواه ، فما علينا إلا أن نلتجئ إلى الأمارات ، ونحكم العلامات ، ونستطلع حقيقة الأمر من الدلائل المحسوسة ، فأطلقوا لاساني الحرية لأقول كلمة - فقال له صهره العزيز : « اقض ما أنت قاض » - فقال : أيها العزيز « أحب الجهاد إلى الله تعالى كلمة حق » .

(١) نسبة الى بلدة دوما من ضواحي دمشق الشام (سورية) .

تقال لإمام جائر^(١) ، حاشاك ، أيها العزيز ، أنا أكفيك أمر هذا المشكل ،
وأكشف لك عنه النقاب .

وعندما وصل إلى هنا اشترأت أعناق كل من الحاضرين ، من عزيز وامراته
ويوسف ، وأصاخوا لما سيقوله هذا الرجل « الشاهد » وتولاهم جميعاً
سكوت عميق .

ثم قال : « أيها العزيز ، أنت تعلم ان الدعاوي لا ينصرها إلا الدليل ، وعليه
فالدليل الممكن هنا الذي يصلح لكشف وجه هذه المعركة ، والبرهان الذي ينبغي
التعويل عليه ، ولا ينبغي التعويل على غيره .

والذي نقيمه مقام الشهود ، هو أن نتأمل في هذا القميص الملفوف المحمول
بيدها ، الذي يقولان عنه إنه قدّ — هل هو مقدود من أمام ، أم من خلف ؟
فإن رأينا مقدوداً من قُبُل ، فهي صادقة في دعواها ، وإنه كان تابعها وهاجماً
عليها ، وإنها هي دافعتة عن نفسها فقدت قيمته من قدامه بالدفع ، وإن رأينا
مقدوداً من دُبُر ، فهي كاذبة ، بل تكون هي التي تبعته واجتذبت ثوبه
إليها فقدته . »

هذا مرمى كلام ذلك « الشاهد » وكان هذا الشاهد رجلاً شهياً عاقلاً فليماً ؛
مثلاً للمدالة والانصاف .

فبعد ذلك صارت الهواجس تتقاذف المتداعيين وأخذت الخواطر تتضارب في
نظر هذين المتدافعين ، بين يأس وأمل ، وخوف ورجاء .

ولا بد انه قبلما سرد الشاهد حكمه ، كان الأمل والرجاء يغلبان على امرأة

(١) رواء احمد في سنده من حديث أبي امامة .

العزیز ، لكون « الشاهد » من أهلها ، وان حال يوسف كان بالمكس ، لأن غايته انه خادم وغريب ، ولكن بعدما أصدر « الشاهد » حكمه ، انعكست الآية ، وصار يوسف في غاية الأمن والرجاء ، ولا تسلم عما خامر فؤاده من الامتان لذلك « الشاهد » وحكمه عفواً ، خدمة للعقل والوجدان الطاهر ، وهو وان لم يشكره بلسانه ، اكتفى بشكره بقلبه ، ومن القلب إلى القلب دليل ؛ أمّا امرأة العزیز فلا تخال إلا انه قد وقع حكم « الشاهد » عليها وقوع الصاعقة على الخشبة اليابسة .

وقف هذا « الشاهد » وقد تمثلت في كلامه روح العدالة ، ولم يكن ليريد الدفاع عن واحد من هذين الخصمين بعينه ، وإنما يريد الانتصار للحق والحقيقة ، ولكنه ما كانه إلا وقف وقفة مدافع عن يوسف ، كحسام قدير وقف للذب عن موكله ، فאלله تعالى هو الذي سخر هذا « الشاهد » للانتصار للواقع وخدمة يوسف من حيث لا يشمر هو ولا يوسف .

يمثل هذا الرجل صاحب العبقرية البارزة الذي لا يخشى في الحق لومة لائم . تتجلى العدالة في أجلى مظاهرها ، وتعلم أنه كان يوجد في مصر في ذلك التاريخ المظلم أفراد أفدادهم ذوو إنصاف وضمير حي .

رجل وقف كحاكم وهو من ذوي قربي امرأة العزیز ، وبالتالي هو صهر لنفس العزیز ، وقف على منصة الحكم ، وتلا ذلك الحكم العادل ، الذي لم يراع فيه قرابته لتلك السيدة الأميرة ، ولم يحجب فيه صهره الوجيبه ، ولم يغدر فيه بذلك العبد المبراني الغريب ، ولكن نطق بالصدق ، ولم يشطط عن جادة الصواب ، فعلمنا نحن ان وسد الينا أمر الحكم مهما كان نوعه ان لا نراعي الوجوه ولا نحاي ولا تغدر بالضعيف ، لكي يسطر لنا التاريخ صفحة بيضاء بمداد الفخر ، كما سطر لهذا الرجل النصف .

وهنا لا بد من قلم كاتب ماهر ، به يمكن الكشف عما كان يخالج نفسى يوسف « الصديق » وزليخا « المفترية » ، وهما واقفان بين يدي « العزيز » و « الشاهد » وما يحيط بالجميع من الجواري والقهرمانات والخدم ، لا شك انها كانتا فريسة الهواجس والخاوف وكيف انها لا يكونان كذلك و « امرأة العزيز » تعرف نفسها ، والخائن خائف ، ويوسف يعرف ان الانصاف في الدنيا قليل ، وانه غريب وحيد مملوك ، وان خصماءه هم حكامه ؟ ..

ولكن كان هذا بالنسبة ليوسف في الابتداء ، وأما أخيراً فقد تجلت له أمانة هذا « الشاهد » وظهرت له عدالته وانصافه ، فصار من الأمن بمكان هذا ما يسره الله لي من القول في هذا الموضوع ، والله تعالى بالحقيقة اعلم .

(وشهد شاهد من أهلها ..)

—٢—

وقالت السيدة مليحة اليافية :

لي على هذه الآية عدة فرائد :

شهد شاهد بمعنى أخبر حاضر أو حكم حاكم

الفريدة الأولى — « شهد » بمعنى أخبر ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا ﴾ (آ : ٨١) ، و « شاهد » حاضر ، كما في ﴿ لَيْشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ﴾ (٢٢ : ٢٨) ، ﴿ وَلَيْشْهَدُوا عَذَابَهُمَا ﴾ (٢٤ : ٢) ، ﴿ وَمَا شَهِدْنَا مَبْلَكِ أَهْلِهِ ﴾ (٢٧ : ٤٩) ، ويقولون : « صَلَّيْنَا صَلَاةَ الشَّاهِدِ » وهي صلاة المغرب ، لأنها لا تقصر ، بل يصلحها الغائب كما يصلحها الشاهد ، أي الحاضر (أساس) .

إذا تقرر هذا فيجوز أن يكون بعض أهلها كان في الدار ، فبصر بها من حيث لا تشمر ، فأغضبه الله ليوسف ، والانتصار لهذا المبد المظلوم .

فكل من أخبر بشيء فقد شهد به ، وإن لم يتلفظ بلفظ « أشهد » فلا يشترط في صحة الشهادة ذكر لفظ أشهد ، بل متى قال الشاهد : رأيت كيت وكيت ، أو سمعت أو نحو ذلك ، كانت منه شهادة ، ولا يتوقف إطلاق لفظ الشهادة لغة ولا شرعاً على قول « أشهد » قال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ شَهِدْتُكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا ، فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ ﴾ (٦ : ١٥٠) ، ويشهدون يخبرون ، فلا تشهد معهم : فلا تنجز كأخبارهم ، أي لا تسلم لهم ما شهدوا به ولا تصدقهم ، لانه إذا سلم فكأنه شهد معهم مثل شهادتهم ، وكان واحداً منهم ، وقال تعالى : ﴿ لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ ﴾ (٤ : ١٦٥) ، ومعنى شهادة الله بما أنزل إليه ، إخباره بآيات صحته ، ولكن هذا الاخبار ليس كلامياً ، بل فعلياً باظهار المعجزات كما تثبت الدعاوى بالدلائل المحسوسة المشاهدة ، وقال تعالى : ﴿ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ ، إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ ﴾ (٤٣ : ٨٦) أي أخبر بالحق وهو توحيد الله ، وهو يعلم ما ينجز به عن بصيرة .

ويجوز أن يكون معنى « وشهد شاهد » : وحكم حاكم ، والنكته في المدول عن جملة « حكم حاكم » الى جملة « شهد شاهد » الاشارة الى أن هذه الأمانة هي قائمة مقام « الشاهد » فكأنها شهادة ، لأن معنى قول النبي (ﷺ) « البينة على المدعي » : ان عليه أن يظهر ما يبين صحة دعواه ، فإذا ظهر صدقه بطريق من طرق الأمارات والعلامات والقرائن حكم له (١)

موجبات الحكم

لم يوجب الله على الحكام أن لا يحكموا إلا بشاهدين ، وإنما أمر صاحب الحق أن يحفظ حقه بشاهدين ، أو بشاهد وامرأتين ، وهذا لا يدل على أن الحاكم لا يحكم بأقل من ذلك ، فقد حكم النبي ﷺ بالشاهد واليمين ، وبالشاهد فقط ، ويجوز للحاكم أن يحكم بالنكول ، وباليمين المردودة ، وبالقرعة ، وبالقافة ، وبالقسامة ، ويجوز له أن يحكم بشاهد الحال ، إن تداعى الزوجان والصانعان متاع البيت والدكان ، ويجوز له أن يحكم بوجوه الآجر في الحائط ، فيجمله للمدعي إذا كانت الى جهته (١) .

من هو الحاكم

فلو سأل سائل وقال : هل كان هذا الرجل قاضياً حتى يحكم ؟.. قلنا : كل من حكم من ولاية الأمور ، أو من أهل الفهم والعلم فهو حاكم ، سواء سُمّي قاضاً ، أو ولاية الأحداث ، أو ولاية المظالم ، أو حكام صلح ، أو حاكماً منفرداً ، أو كانوا من أهل الفضل ، أو كانوا محكمين ، أو حكاماً إداريين ، أو غير ذلك من الأسماء العرفية ، والألقاب الاصطلاحية ، فإن كل واحد من هؤلاء يعتبر حاكماً ، ولو لم يسم عند الناس بهذا الاسم ، ويعتبر قاضياً ولو لم يستحق هذا اللقب في اصطلاح القوم ، ولكنه يستحقه بحسب اللغة ، لأن الحكم والقضاء ، والحاكم والقاضي واحد ، وأن الفلاحين أهل الأرياف ، والبندو أهل الخيام ، يسمون اليوم كل من حكم لهم من رؤسائهم « قاضياً » ، فالحكم ليس مختصاً بناس دون ناس

(١) الطرق الحكيمة لابن القيم .

ولا يتوقف على نصب من طرف الحكومة ، قال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ ، وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ ، لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ (٥٧ : ٢٥) ، وقال جل جلاله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ، وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ (٤ : ٥٧) ، وقال جل من قائل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصِّدِّيقَ ، وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ، وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا ، فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ ، يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾ (٥ : ٩٨) .

مرادفات الشاهد

الفريدة الثانية — الشاهد والضمين والعريف والنقيب واحد ، كما في القاموس في مادة « نقيب » ، قلعل ذلك « الشاهد » كان من أهل العلوّ والرئاسة ، حتى أنه ليمكننا أن نفسر كلمة « شاهد » برئيس .

نفي كون الشاهد كان طفلاً

الفريدة الثالثة — قيل كان هذا الشاهد « طفلاً » ، وعندنا أن هذا القول بعيد جداً لوجوه :

أولاً — لو كان الحال كذلك لم يحسن التعبير بعبارة « شهد شاهد » التي تفيد أن ما قاله هو من قبيل الشهادة أي من قبيل الاخبار عن مشاهدة ، ولو كان « طفلاً » لحسن أن يقال : « ونطق طفل في مهده » .

ثانياً — لو كان ذلك صحيحاً ، لم يحتاج لتقوية هذه الشهادة بكونه من أهلها ، لأن هذا « الطفل » لو كان من هنود أميركا أو من هندوس الهند لقبلت شهادته ، قال الجبائي : لو كان « طفلاً » لكان قوله معجزاً لا يحتاج معه إلى البيان .

ثالثاً — لو كان ما روى صحيحاً لم يحتج الى التطويل ، والالتجاء الى تقرير هذه الملامة ذات الوجبين ، بل كان يكفي من هذا « الطفل » الرضيع أن يقول : « يوسف صادق » أو « امرأة العزيز كاذبة » ، ثم يرجع لطبيعته ويسكت ، ويكون حينئذ قد ظهرت براءة يوسف ليس بعلامة فقط ، بل بأوضح دليل في العالم ، لأن نطق الطفل الرضيع في مهده ، يعد معجزة ، أو إرهاباً خارقاً للعادة ، وهادماً لناموس الطبيعة .

تحريم الدفاع عن الخائن والمجرم

الفريضة الرابعة — نحن لا نسعنا إلا أن نقدم لهذا « الشاهد » كل شكر وثناء ، يليق بأن بمدائه وإنصافه ، حيث تكلم بما أوجبه عليه ضميره ، ولم يراع قرابته لزليخا ، ولم يدلّس ، لأنه صهر للعزيز ، بل نطق بما أوجاه اليه الإنصاف قال تعالى : ﴿ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً ﴾ (٤ : ١٠٤) ، فلا يجوز للمحامي أو للحاكم أن يخاضم البراء لأجل الخائنين ، وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَجَادِلْ عَنْ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيماً ﴾ (٤ : ١٠٦) ، فلا يجوز للمحامي ولا للحاكم أن يدافع عن الذين يخونون أنفسهم بالمعصية كما في حادثة زليخا ، فهذا القول يحرم المحاماة عن المجرمين ، والدفاع عن الخائنين .

لم يكن الشاهد شاهراً بالمعنى المصطلح عليه عند الفقهاء

الفريضة الخامسة — لو سأل سائل : « إن الرجل الذي يشهد ولم يُستشهد ، ويحلف ولم يُستحلف مذموم ، كما ورد في الحديث في سنن ابن ماجة وغيرها ، ومع ذلك فالشاهد الواحد لا يكفي ، بل لا بد من اثنين » ، والجواب : هو أن شهادة هذا « الشاهد » ليس من قبيل الشهادة الواردة في الحديث والمصطلح

عليها عند الفقهاء ، ولكن معنى « شهد شاهد » : قال حاضر ، فشهد مضمّن معنى قال ، ولذلك جازت حكاية الجملة الشرطية بعد فعل الشهادة و « شاهد » بمعنى حاضر كما قال الشاعر :

ما علموا أني لكم حافظ شاهداً ما كنتُ أو غائباً
أو « شهد شاهد » بمعنى حكم حاكم ، أو أخبر مخبر ، كما تقدم آنفاً .

تغلب الحق على القوة

الفريدة السادسة — كان هذا الرجل « الشاهد » من أهل امرأة العزيز ، ودمه من دمها ، ولكن الأخلاق والطباع متباعدة :

أبوك أبي والأصل لا شك واحد ولـكـننا صنوان ورد وخروج
ولكونه من أهلها ، وبالتالي لكونه صهراً « لقوطيفار » كان له دالة عليه ، فأطلق لسانه بين يديه ، وتكلم بحرية تامة ، ونطق بحكمه المبادل وبفضل هذا الحكم تغلب يوسف على امرأة العزيز من قبيل تغلب الحق على القوة .

مناجاة الشاهد لبعض الحكام والحكام

الفريدة السابعة — ما أشبه هذا « الشاهد » في فراسته بالنبي سليمان (ع) وعمر بن الخطاب (رض) وعلي بن أبي طالب (رض) والقاضي أبياس بن معاوية ، والقاضي شريع ، والقاضي أبي حازم ، وغيرهم من حكام العرب وحكائهم ، فجميع هؤلاء مع مشاركة سواهم في العلم والحكمة قد اختصوا بالفهم وامتازوا بالاستدلال بالأمارات وشواهد الحال ، وهذا الذي فات كثيراً من الحكام الجامدين ، فأضاعوه كثيراً من الحقوق ، وأحيوا كثيراً من الباطل .

جواز الحكم بالقرائن والاستدلال بالأمارات

الفريدة الثامنة — أخذوا مما فعله هذا الرجل « الشاهد » أن للحاكم أو الوالي أن يحكم بالقرائن التي يظهر له فيها الحق ، وأن يستدل بالأمارات ، ولا يقف عند خصوص البيانات والقرارات .

اختصم رجلان الى « أياس » قاضي البصرة ، في قطيفتين حمراء وخضراء ، فقال أحدهما : « دخلت الحوض لأغتسل ووضعت قطيفتي ، ثم جاء هذا ووضع قطيفته بجانب قطيفتي ، ثم دخل واغتسل ، فخرج قبلي ، وأخذ قطيفتي فتبعته ، فزعم أنها قطيفته » — فقال أياس : ألك بينة ؟ — قال : لا — قال : اثبوني بمشط فأثني به ، فسرحت رأس هذا ثم هذا ، فخرج من رأس أحدهما صوف أحمر ومن رأس الآخر صوف أخضر فقضى بالأخضر لصاحب الأخضر ، وبالأحمر لصاحب الأحمر .

ولا تنس في هذا الموضع حكاية نبي الله سليمان (ع) مع المرأتين اللتين ادعتا الولد ، فحكم به داود (ع) للكبرى ، فقال سليمان : « اثبوني بالسكين أشقه بينها » فسمحت الكبرى بذلك ، وقالت الصغرى : « لا تفعل رحمك الله ، هو ابنها » فاستدل برضى الكبرى بشقه وامتناع الصغرى من الرضا بذلك — على أنها أمه ، وإن الحامل لها على الامتناع من الدعوى ما قام بقلبها من الشفقة والرحمة التي وضعا الله في قلب الأم ، فاتضح هذه القرينة عنده حتى قدمها على إقرارها ، فانه حكم به لها مع قولها : هو ابنها .

وهنا في هذه السورة الكريمة نرى ذلك « الشاهد » من أهل امرأة العزيز توصل بقدر القميص الى تمييز الصادق منها من الكاذب ، وهذا « لوث » في دعوى « العرس » وقد حكم به .

وقد يكون « اللوث » في دعوى « المال » فيحكم بموجبه، وهذا مذكور في سورة المائدة في دعوى المال ، في قصة شهادة أهل الذمة على المسلمين ، في الوصية في السفر ، في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، شَهَادَةُ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ، أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ، إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ ، فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ ، تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ ، فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرْتَبْتُمْ : لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا ، وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ، وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ ، إِنَّا إِذَا لَمِينُ الْآثِمِينَ ﴾ (٥ : ١٠٩) .

وقد يكون « اللوث » في « الدماء » ، فقد حكم النبي ﷺ بموجب اللوث في القسامة ، وجوز للمدعين أن يحلفوا خمسين يمينا ويستحقوا دم القتل .

وقد حكم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) والصحابة معه بجرم المرأة التي ظهر بها حمل ، ولا زوج لها ولا سيد ، وحكم عمر وابن مسعود بوجوب الحد برائحة الخمر من فم الرجل ، أو قيئه خمرأ اعتمادا على القرينة ، ولم يزل الأئمة والخلفاء يحكمون « بالقطع » إذا وجد المال المسروق مع المتهم ، وهذه القرينة أقوى من البينة والإقرار .

وهل يشك أحد رأى قتيلاً يتشحط في دمه ، وآخر قائم على رأسه بالسكين أنه قتله ؟ ولا سيما إذا عرف بمداوته ، وكذلك إذا رأينا رجلاً مكشوف الرأس وليس ذلك عادته ، وآخر هارباً قدماه ، بيده عمامة ، وعلى رأسه عمامة ، حكنااله بالعمامة التي بيد الهارب قطعاً ، وجزمنا بأنها يد ظلمة غاصبة ، بالقرينة الظاهرة ، التي هي أقوى بكثير من البينة والاعتراف .

وهل القضاء « بالنكول » إلا رجوع إلى مجرد القرينة الظاهرة ، التي علمنا بها

ظاهر أنه لو لا صدق المدعي لرفع المدعى عليه دعواه باليمين ؟ فلما نكل عنها ، كان نكوله قرينة ظاهرة دالة على صدق المدعي ، فتقدمت على اصل براءة الذمة (١) .

وبالجملة فإن ما قاله وما حكم به ذلك « الشاهد » هو من قبيل الاعتماد على « الأمانة » وانها تقوم مقام البينة ، وله نظائر كثيرة ، فمن ذلك ان النبي (ﷺ) أمر المتقط أن يدفع اللقطة الى واصفها ، وأمره أن يعرف عفاها ووعاءها ووكاءها كذلك ، فجعل وصفه لها قائماً مقام « البينة » ، وقد سئل الإمام احمد عن المستأجر ومالك الدار ، تنازعا « دفيناً » في الدار ، فكل واحد منها يدعي انه له ، فقال : « من وصفه منها فهو له » .

وكذلك اللقيط إذا تداعاه اثنان ووصفه أحدهما بعلامة خفية في جسده حكم له به عند الجمهور ، ومن ذلك أن ابني عفراء لما تداعيا قتل أبي جهل ، فقال النبي (ﷺ) : « هل مسحتما سيفيكما ؟ - قالوا : لا - قال : فأرياني سيفيكما ، فلما نظر فيها ، قال لأحدهما : هذا قتله ، وقضى له بسلبه » .

وعلى الاجمال « فالبينة » اسم لكل ما يبين الحق ويظهره ، ومن خصتها بالشاهدين ، لم يوف مسأها حقه ، ولم تأت « البينة » قط في القرآن الكريم مراداً بها الشاهدان ، وإنما أتت مراداً بها الحجة والدليل والبرهان ، وكذلك قول النبي (ﷺ) : « البينة على المدعي » المراد به أن عليه ما يصحح دعواه ليحكم له ، والشاهدان من البينة ، ولا ريب أن غيرهما من أنواع البينة قد يكون أقوى منها كدلالة « الحال » على صدق المدعي ، فانها أقوى من دلالة إخبار الشاهد ، والبينة والدلالة والحجة والبرهان والآية والتبصرة والعلامة والأمانة والسلطان والمستند

(١) ملخصاً من الطرق الحكيمة لابن القيم .

والقريئة — ألفاظ متقاربة المعنى ، فالشارع لم يبلغ القرائن والامارات ودلائل الأحوال ، بل من استقرى الشرع ، في مصادره وموارده ، وجده شاهداً لها بالاعتبار ، مرتباً عليها الأحكام ، وقد مدح الله سبحانه الفراسة وأهلها في مواضع من كتابه ، فقال تعالى ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ ﴾ (١٥ : ٧٥) ، وهم المتفرسون الآخذون بالسبأ ، وهي العلامة ، يقال : تفرست فيك كيت وكيت وتوسمته ، وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ ﴾ (٤٧ : ٣٠) ، وقال تعالى : ﴿ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنَاءَ مِنَ التَّعْقُفِ ، تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ ﴾ (٢ : ٢٧٣) ، وفي جامع الترمذي مرفوعاً : (اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ ، فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ) ثم قرأ : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ ﴾ (١)

وقد ذكر الفقهاء ان الدعوى إن كانت من قبيل تهمة ، وهي أن يدعي إنسان على إنسان فعل محرم ، مثل قتل أو قطع طريق أو سرقة أو غير ذلك من العدوان الذي يتعذر إقامة البينة عليه في غالب الأحوال ، فهذا القسم إن أقام عليه المدعي حجة شرعية فذاك ... وإلا فالقول قول المدعي عليه يمينه ، لا روى مسلم في صحيحه عن ابن عباس قال ، قال رسول الله (ﷺ) : (لَوْ يُعْطَى النَّاسُ بِدَعْوَاهُمْ ، لَا دَعَى نَاسٌ دِمَاءَ رِجَالٍ وَأَمْوَالَهُمْ ، وَلَكِن الْيَمِينَ عَلَى الْمُدْعَى عَلَيْهِ) (٢) .

فلهذا وحيث ان يوسف رفض الدعوى عليه رفضاً مجرداً عن اليمين ، وان المرأة المدعية لم تأت ببينة تثبت دعواها ، احتيج الى الاستناد الى أمانة تؤيد واحداً من المدعى والمدعى عليه ، فقول : إن كان .. وإن كان ...

(١) الطرق الحكيمة لابن القيم

(٢) الطرق الحكيمة لابن القيم .

وهذا من قبيل نصب العلامة على الحق المشروع ، وقد نصب الله سبحانه على الحق الموجود والمشروع علامات وأمارات تدل عليه وتبينه ، قال تعالى : ﴿ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ، وَأَنْهَاراً وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ، وَعَلَامَاتٍ ، وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ (١٦ : ١٥ و ١٦) ، ونصب على القبلة علامات وأدلة ، ونصب على الإيمان والنفاق علامات وأدلة ، قال النبي (ﷺ) : (إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان) ، فجعل اعتياد شهود المسجد من علامات الإيمان ، وجوز لنا أن نشهد بإيمان صاحبها ، مستندين الى تلك العلامة ، والشهادة إنما تكون على القطع ، فدل على أن الأمانة تفيد القطع ، وتسوغ الشهادة ، وقال (ﷺ) : (آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان) .

وقد نصب تعالى الآيات دالة عليه وعلى وحدانيته وأسمائه وصفاته ، فكذلك هي دالة على عدله وأحكامه ، والآية مستلزمة لدلولها ، لا تنفك عنه ، بحيث وجد اللزوم وجد لازمه ، فاذا وجدت آية الحق ثبت الحق ، ولم يتخلف ثبوته عن آيته وأمارته ، والحكم بغيره يكون حكماً بالباطل ، وقد اعتبر النبي (ﷺ) وأصحابه من بعده العلامات في الأحكام ، وجعلوها مبينة لها ، كما اعتبر العلامات في اللقطة ، وجعل صفة الواصف لها آية على صدقه وأنها له ، وقال الجابر : « خذ من وكيلى وسقاً ، فإن التمس منك آية ، فضع يدك على رقوته » ، فنزل هذه العلامة منزلة البينة ، التي تشهد انه أذن له أن يدفع له ذلك ، كما نزل الصفة للقطة منزلة البينة ، بل هذا نفسه بيّنة ، إذ البينة ما يبين الحق ، من قول وفعل ووصف ، وجعل الصحابة رضي الله عنهم الحبّل علامة وآية على الزنا ، فجحدوا به المرأة ، وإن لم تقر ولم يشهد عليها أربعة ، بل جعلوا الحبّل أصدق من الشهادة ، وجعلوا رائحة الخمر ، وقيئه لها آية وعلامة على شربها ، بمنزلة الإقرار والشاهدين ، وجعل النبي

(عليه السلام) كثرة المال وقصر مدة إنفاقه آية وعلامة على كذب المدعي أنه ذهب في النفقة والنائب ، في قصة «حي بن أخطب» واعتبر العلامة في السيف وظهور أثر الدم به في الحكم ، بالسلب لأحد المتداعيين ، فنزل الأثر منزلة البينة ، وجعل الحيض علامة على براءة الرحم من الحمل ، واعتبر العلامة في الدم الذي تراه المرأة ويشتبه عليها ، هل هو حيض أو استحاضة ، واعتبر العلامة فيه بوقت ولونه ، وحكم بكونه حيضاً بناءً على ذلك ، وهذا في الشريعة أكثر من أن يحصر وتستوفى شواهد ، فمن أهدر الأمارات والملاحظات في الشرع بالكلية ، فقد عطل كثيراً من الأحكام ، وضيع كثيراً من الحقوق (١)

ولولا العلامة التي اتخذها الشاهد ، دليلاً على التمييز بين الحق والمبطل هنا لحكم على يوسف ، أو على الأقل لكان حال يوسف مشكوكاً فيه .

سبب تأخير أماره صدق يوسف على أماره صدق امرأة العزيز

الفريضة التاسعة — إن كان «الشاهد» بعض أهلها كان في الدار فبصرها من حيث لا تشعر ، فأغضبه الله ليوسف بالشهادة له ، كما ذكره الزمخشري احتمالاً ، ونحن درجنا عليه في تقريرنا — إن كان كذلك كان من حقه أن يصرح بما رأى ، فيصدق يوسف ويكذبها ، ولكنه أراد أن لا يكون هو الفاضح لها ، ووثق بأن انقداد قميصه كان من دبر ، فنصبه أماره لصدقه وكذبها ، ثم ذكر القسم الآخر ، وهو قدمه من قبل ، على علم منه بأنه لم يتقدم من قبل ، حتى ينفي عن نفسه التهمة في الشهادة ، وقصد الفضيحة ، وينصفها جميعاً ، فيذكر أماره على صدقها المعلوم نفيه ، كما ذكر أماره على صدقه المعلوم وجوده ، ومن ثم قدم أماره صدقها

على أماره صدقه في الذكر ، إزاحةً للتهمة ووثوقاً بأن الأماره الثانيه هي الواقعه ، فلا يضره تأخيرها ، وهذه اللطيفه بعينها — والله أعلم — هي التي راعاها مؤمن آل فرعون في قوله : ﴿ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَمَلَيْهِ كَسَدٌ بِهِ ﴾ ، وإن يكُ صادقاً يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَبْعِدُكُمْ ﴾ (٤٠ : ٢٨) ، فقدم احتمال الكذب على احتمال الصدق إزاحه للتهمة التي خشي أن تنطرق اليه في حق موسى (م) ووثوقاً بأن الاحتمال الثاني وهو صدقه ، هو الواقع ، فلا يضره تأخيرها في الذكر لهذه الفائده ، ومن ثم قال : « بعضُ الذي يبعِدُكم » ، ولم يقل : : « كلُّ ما يبعِدُكم » ، تعريضاً بأنه معهم عليه ، وأنه حريص على أن يبخسه حقه .

وينحو هذا النحو تأخير يوسف (ع) لكشف وعاء أخيه ، لأنه لو بدأ به لفطنوا أنه هو الذي أمر بوضع السقايه فيه ، والله أعلم ، فقصد هذا « الشاهد » الأماره الأخيره فقط ، وأما الأمارات الأولى فليست مقصوده ، وإنما ذكرها توطئة وهي من قبيل الفرض والتقدير ، وكأنه قال : إن كان قميصه قد من قبل فهي صادق ، لكنه يعلم انتفاء الأماره المذكوره ، فعلق صدقها على محال ، وهو ثبوت قدّه من قبل حالة عدمه .

هذا هو التقرير الصواب ، والحق اللباب . وهنا قام السيد رئيس المؤتمروقال : -
حقاً ان هذه الفرائد هي فرائد دريه وفريده في بابها ، لأنها مفعمة بالابحاث الاجتماعيه والدينيه الدقيقه ، فبارك الله في الخطيبه .

(وإن كان قميصه قدّم من دبر .. الخ)

— ١ —

وقالت السيدة صباح النابلسية :

سأقتصر كلامي على هذه الآية بكلمات ثلاث :

هل كان يوسف لابساً القميص المقدود حين التداعي

الكلمة الأولى : — قوله في الآية السابقة : « إن كان ... الخ » وقوله هنا : « وإن كان ... الخ » ، هذا التشقيق والتشكيك يفيدنا أن يوسف لم يكن لابساً القميص إذ ذاك ، بل كان منزوعاً عنه ، كما قالته اختنا السيدة فريدة الحمصية في محاضرتها ، على موضوع « قد القميص صحيفة ٥٤٨ » ، لأنه لو كان إذ ذاك لابساً القميص المقدود لكان القدر ظاهراً ملموساً ، واقفاً تحت حس ونظر الجميع ، إذ كيف يعقل أن يخفي القدرين هو ، هل هو في جهة الأمام أو في جهة الخلف ، ويوسف لابسه وواقف قدام تلك الهيئة ، فلا ريب إذاً أن يوسف لم يكن لابساً القميص آنئذ ، بل كان ملفوفاً مستوراً ، بحيث لا يعلم قده في أي جهة كان ، أمن قبل أو من دبر ، والظاهر من كلام « الشاهد » ومن احتماليه اللذين حكاهما بقوله : إن ... وإن ... ، أن القميص لم يكن ملبوساً حين التداعي ، هذا ما فهمته في هذه الآيات القرآنية الكريمة ، ولا أظنه إلا الصواب الذي لا محيد عنه ، وعليه فالصحيح أن امرأة العزيز لما جذبت قميص يوسف انشق طولاً ، فسهل على يوسف أن ينزعه عن بدنه ويتملص منه ، فتركه لها في يدها ، ومضى في حال سبيله مستمراً في فراره ، حتى وصل الباب ، وهذا الذي فهمناه من أن القميص كان منزوعاً وكان في يد امرأة العزيز هو المذكور صريحاً في (تك ٣٩ : ١٢ - ١٨) .

احتقار الشاهد «لامرأة العزيز» رغم مقامها

الكلمة الثانية — قال ذلك «الشاهد» أمام تلك السيدة «امرأة العزيز» :
 « فكذبت » ولم يحترم مقامها ، لأن الرجل الحر يقدر الناس بفضائلهم لا بمناصبهم .
 ثم ان ما ظنه في يوسف من الصدق قد أظهرت الحادثة تحققه ؛ وسيأتي لرئيس
 السقاة أن يصفه بالصدق حيث يقول له : « يوسف ، أيها الصديق » ، كما سوف
 سيأتي لنفس عدوته امرأة العزيز أن تصفه بالصدق ، إذ تقول : « وإنه لمن الصادقين »
 فهذا من قبيل توارد الخواطر الذي يفيد تحقيق مورده .

قد القميص من قبل دليل الإقبال وقده من دبر دليل الإدبار

الكلمة الثالثة — لو كنت حاضرة محاكمة يوسف وزليخا أو لو رفعت إليّ
 دعوى تشبه دعواهما لكانت خلاصة حكمي الجملة المختصرة التالية : « إن قد القميص
 من دبر دليل على إدبار يوسف عن زليخا بظهره ، وقد القميص من قبل دليل على
 إقباله عليها بوجهه والسلام » ، هذا ما أحب أن يسجل التاريخ ويحفظه غني
 علماء الحقوق ...
 — بخ بخ —

وثيقة البراءة

آ (٢٨) * فلما رأى قميصه قد من دبرٍ ، قال : إنه من
كيدٍ كنٍّ ، إن كيدكن عظيمٌ . *

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثامنة والعشرون فقام الشيخ عبد الجواد
السلطي^(١) وقال :

فتش العزيز قميص يوسف الذي بقي في يد زوجته زليخا (فلما رأى) سيدها
(قميصه) أي قميص يوسف الذي بيدها قد (قد من دبر) علم براءة يوسف
وصدقه وكذبها ، ثم (قال) آتخذ بلسان الغاضب الماقت : كل هذا يجري تحت
جناحي وفي عقر داري !.. (إنه) أي إن قولك : « ما جزاء من أراد بأهلك
سوءاً .. الخ » ، أو إن هذا الأمر — وهو طمعها في يوسف ، أو إن هذا
الالصاق والتجريم ، بغير حق (من كيد كن) يا بنات حواء (إن كيدكن
عظيم) بالنسبة لكيد أبناء آدم ، لان النساء أطف كيداً وأنفذ حيلة ، ولهن في
ذلك نيفة^(٢) ورفق ، وبذلك يغلبن الرجال .

وفي هذه الآية الكريمة تعليم للملوك ومن دونهم أن ينزلوا على حكم القضاة
ويعملوا بقضائهم ، كما فعل « العزيز » ، إذ نزل على حكم ذلك الحاكم « الشاهد » .

(١) نبة ال بلدة السلط من البلاد الاردنية .

(٢) النيفة اسم من التنوق وهو الرفق والأناة .

(فلما رأى قميصه ... الخ)

— ١ —

قال الحاج صالح الاسكندروني (١) :

تبرئة يوسف وتجريم زليخا وتوبيخها

لما أتم « الشاهد » خطابه الذي به (قطعت جبهة قول كل خطيب) استطابه « العزيز » ، وزل على حكمه ، ثم طلب نشر القميص ليُفتش ، فلما رآه مقدوداً من دبر ، فهم اللديسة ، فضرب يداً بيد ، وحوقل وندب حظله ، وقرع سنه ، وأضمر بين جنبيه لوعة وأسى ، وكاد قلبه يذوب بين أضالعه ، ذوب السبيكة في البوتقة .

نعم ، نعم ، انه دهش دهشة عظمية ، وعرض على شفته السفلى ، وورد عليه مطار بلبه ، وأخذ عليه أنفاسه ، فصمت لحظة ثم التفت يمنة ويسرة ، وبعد لأي ما استطاع أن يقول بصوت منخفض ، لئلا يسمعه أحد من العبيد والخدم : « عَقَرَتْنِي حَلَقَتْنِي — إن آفة الحديث الكذب — إن طمعك في هذا العبد ، وقولك ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم — إن هذا العمل وهذا القول من كيد كن الذي تُعَدِّدُنه للناس ، وسوف يرتد لنحوركن ، إنه من مصائد كن التي تنصبها لمن تردن وقوعه في الشرك ، إنه من ختلكن يابنات آدم الذي لا يعدوكن ، إنه من دهائكن الذي لا يتجاوزكن يا حبائيل الشيطان ، آه ... »

(١) نسبة الى اسكندرونة من بلاد الشام (سورية)

إن من غره النساء بود بعد هذا الجاهل مغرور

فالآن — وقد رأينا القميص — فقد دفع الحق الباطل ، وظهر الصبح لذي عينين ، وزالت الرغبة وبدا الصريح ، يميناً لقد ظهرت الحقيقة ، ووثقتها معها ، و (على نفسها جنت براقش) ، يميناً لقد تبين أن «السوء» الذي الصقته يوسف هو واقع منك ، ولا خيرة في الواقع ، وماله من دافع .

« إن كيد كن ، يا فصيلة (الجنس اللطيف) «عظيم» ، بخلاف فصيلة (الجنس القوي) فالغالب فيهم حقارة كيدهم .

« إن كيد كن ، الذي يدبر من جهتك «عظيم» ، فقد ظهر لي الآن أنني ما كنت أعرفك إلا معرفة مطبوسة (١) ، كنت لا أعرف منك إلا السذنب ، ولكن اليوم عرفت منك الدماغ ، وماحوى من خبث وطيش .

« إن كيد كن عظيم » ، فأتين معشش الشياطين ، ووكرك الباطل ، ومرسى دعائم الفتنة ، اللهم إلا قليلاً .

« إن كيد كن عظيم » لا سيما فيما يتعلق باللبس والأزياء وأمر الاستمتاع بالشهوة والحب ، فهناك رحمة الله على الأمانة ، رحمة الله على العفاف والشرف .

نعم انه «عظيم» من معازم الشؤون المنكرة ، ومن عظام الصفات المستقبحة وأي عظمة أقبح من الختل ؟ وأي كبيرة أفحش من المحال (٢) .

عجبت لك كيف تهين هذا المبد بهمة باطلة ؟! ... كبرت كلمة تخرج من فيك ، ان تقولين إلا كذباً .

(١) مطبوسة متصورة أو متخيلة.

(٢) المحال بكسر الميم الكيد والمكر

قال العزيز ذلك ، وعلى وجهه دلائل البتة والاندھاش ، وفي ملامحه أمارات الخجل من هذه المرأة ، قال العزيز ذلك موجهاً الخطاب لزيخا ، وتفرس فيها يسر حالها ، فاذا لونها محتق ، وإذا الارتباك ظاهر على وجهها : قال لها ذلك ، وهو ينظر اليها بعين تتجلى فيها الحدة .

وأما هي ، فكانت واقفة وقوف الصنم ، وقد حمد اللبم في عروقها ، واصطكت ركبناها ، واناث (١) قلبها ، كما يثاثل الثلج في الحر ، وعقرت (٢) حتى كادت تقع الى الأرض ، بل كأنما خرت من السماء في مكان مسحيق ، وأخيرا أطرقت برأسها . أطراف من ترى ان بطن الأرض خير لها من ظهرها .

وأما يوسف ، فلما سمع هذا القياس الذي أنتاج هذه النتيجة ، أفرخ روعه ، وأمن جنائبه ، وأحس كأنه قد ألقى عن ظهره حمل ثقيل ، وحمد الله تعالى ، وشكر في نفسه هذا الرجل ، وقال : « رب أخ لك لم تلده أمك » .

هذا ما اردت قوله على هذه الآية الكريمة ولا بد لي من إنتهاء حديثي .
بترفيلات (٣) تسع :

رب محنة في وسطها منحة

الترفيلة الاولى — كان في مصيبة يوسف بقدر قميصه فائدة له كبرى ، وهي براءته مما نسب اليه ، ورب محنة في وسطها منحة :

من عرف الله أزال التهمة : وقال : كل فعله لحكمه

(١) اناث ذاب (٢) عقرت : فجأها الروح فلم تقدر أن تتقدم أو تتأخر (٣) الترفيل التذليل ..

حفظ القميص المقدود للعبرة والذكرى

الترفيلة الثانية - لو كنت مكان يوسف لادخرت هذا القميص في «صوان»^(١) وحده ، وأوصيت أن يكون أثراً من بعدي ، يحفظ في «دار الآثار» المصرية ، تذكراً لهذه الحادثة التاريخية المؤلمة السارة ، ولأنه من الأزياء التاريخية .

تبادل التهينة والشكر

الترفيلة الثالثة - كأني «بالشاهد» بما ظهرت براءة يوسف ، أخذ بهنته ويمسحه ، وكأني بيوسف ، أخذ «بجثري» «الشاهد» خيراً ، وبقدم له التحيات والشكران..

مرادفات الكبير

الترفيلة الرابعة - الكيد والمِحَال والخداع والختل والفدر والتمحل والخب والمكر والدهاء والخلاصة - تقريباً واحد .

الكبير والمكر مع صفات الضعفاء واليهود

الترفيلة الخامسة - الكيد والتقلب والرياء والنفاق والخداع والخيانة والمكر والتدابير الخفية والألغاز المجهولة - كل هذه هي من الصفات المشتركة بين الرجل والمرأة ، غير أن المرأة لما كانت أضعف من الرجل ، رأت نفسها مضطرة الى الالتجاء لهذه الصفات أكثر من الرجل القوي الجبار القاهر ، فلذلك اشتهرت النساء

بهذه المعاني أكثر من الرجال ، ويوجد الختل والمكر في النساء عموماً ، وفي اليهود ، من الرجال وغيرهم ، وسببه الذل والمسكنة لأن الرجال ظلموا المرأة وأهانوها وأذلوها ، وكذا حال « اليهود » بين الناس ، من حين أن هاجروا من العراق إلى سورية وفلسطين ، فعاشوا غرباء بين تلك الأمم المتوثنة ثم حين أن عاشوا بمصر بعد يوسف فأذلهم الفراعنة وسخروهم وذبحوا أبناءهم واستحيوا نساءهم ، ثم - بعد رجوعهم لسورية وفلسطين - من حين أن استولى عليهم الكلدان فالفرس فالبيونان فالرومان ، فبعض قساة ملوك الاسلام .

كيد المرأة

الترفيلة السادسة - يريد بقوله : « إنه من كيد كن » ، إنه من كيدكِ ، ولكنه عبر بصيغة الجماعة ليشير الى أن الكيد طبيعة مدفونة في قلب جميع النساء ، فجعل النساء في الخدعة والميغال كزليخا ، وزليخا في الختل والحيلة صورة صادقة لجل النساء .

وبعبارة أخرى : هو لا يصف ما جال في نفس امرأته فحسب ، وما حاك في صدرها فقط ، من ختل وخب ، إنما هو يصف العادة الطبيعية لكل امرأة ، ويخبر بالحال النفسية لكل أنثى ، فهو يمثل النوع بأن ديدنه كما ذكر ، فالكيد هو خلق لهن عريق فيهن :

ولا تحسبن هنداً لها الغدر وحدها سجية نفس ، كل غانية هند

وبعبارة ثالثة : لم يقع الكيد إلا من واحدة ، ولكن لما كان الكيد من نفسية « الجنس اللطيف » نسبه لذلك الجنس ، ونظيره قوله (ص) : « إنكن لأنثى » صواب يوسف ، يريد أن الإلحاح والمكر من نفسية هذا الجنس النسائي ، قاله صلى الله عليه وسلم حفصة ، إذ كانت قالت عائشة (رض) : (إن أبا بكر رجل أسيف ،

إذا قام مقامك ، لم يسمع الناس ، من البكاء ، فر عمر فليصل بالناس) فلم يقبل
 ﷺ ، ثم قالت له ذلك حفصة ، فلم يقبل ، وإذا رأيته قد ألحن ، قال ذلك ..

هذا وإن سبب اتصاف المرأة بالكيد أكثر من الرجل هو أنها لما أضلت
 حريتها في ظلمات الأجيال الماضية ، وفقدت استقلالها وعزها ، وأدركها المجزع
 تناول ما ترغب اليه بالطرق المسنونة ، بسبب ظلم الرجل لها ، اضطرت إلى استعمال
 الحيلة ، وأخذت تعامل الرجل — وهو سيدها وولي أمرها — كما يعامل المسجون
 حارس سجنه والحفيظ عليه ، وغت فيها ملكة المكر إلى غاية ليس وراءها متزع ،
 فأصبحت ممثلة ماهرة ، ومشخصة قادرة ، تظهر في المظاهر المتضادة ، والألوان
 المختلفة ، في كل حال بحسبها ، وذلك لا عن عقل وحكمة ، وإنما هي حيل الثعالب ،
 وعذرها في ذلك أنها ليست حرة مع ولي أمرها ، من أب أو زوج مثلاً .

الكيد موجود في الرجال والنساء ، إلا أن النساء ألطف كيداً ، وأقذ حيلة ،
 ولهن في ذلك نيفة ورفق ، وبذلك يغلبن الرجال ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ومن
 شر النفقات في المقد ﴾ (١١٣ : ٤) ، والقصريات من بينهن معهن من البوائق
 ما ليس مع غيرهن .

ولعل الحال في بلاد « التبت » بالعكس ، لأن الأمر والنفوذ والإرادة والسيادة
 هي هناك — كما يقال — « للنساء » ، وأما الرجال عندهم فخدمه مستعبدون لهم في
 كل شيء بلا استثناء ، فالمرأة هناك أقوى جداً من الرجل ؛ فإذا لا ندحة من أن
 رجالهم هم أصحاب الكيد والتقلب والرياء والختل .

سئل الشاعر الانكليزي « ميلتون » : لماذا يسمحون « لولي العهد » عندما
 بأن يتولى الملك في الرابعة عشرة من عمره ، ولا يسمحون له بأن يتزوج قبل

الثامنة عشرة ؟.. فقال : « لأن سياسة البلاد على مافيا من رعايا كثيرين ، أسهل مراساً من سياسة الزوجة » :

وقال بعضهم : « إن النساء لو تدربن على السياسة ، لكن أعظم سائسي العالم » .
كتب أحد الأغنياء على بابه : « يا باب ، لا يدخلك سوء » ، فلما قرأه « ديوجينس » قال : « وامرأتك من أين تدخل ؟ »

إذا رأيت أموراً منها الفؤاد تفتت
فتش عليها تجدها من النساء تأتت

قال نابليون : « إن المرأة التي تهز المهدي يمينها ، تهز العالم بيسارها » ، وقال بعضهم : « إني لا أخشى في الحياة سوى تلك التي ملكت قلبي ، إذ هي وحدها قادرة على أن تمنحني السعادة والشقاء » ، وقال فولتير : « إذا كانت المرأة هي التي أفقدتنا النعم ، فهي وحدها تستطيع أن تعيده إلينا » ، وقال بلزاك : « لقد درست طبائع النساء طويلاً ، وإني لأفخر بأنني لم أضع وقتي كله ، فقد عرفت الآن أنني لا أعرفهن » ، وقال « سنت جوست » : « لا يمكنك أن تتصور ما يتولد في قلب المرأة الضعيف من القوة والإقدام حال ما تحب » ، ومن الأمثال اليابانية : « النساء يفهم الرجال ، ولكن لا يفهم النساء إلا النساء » ويقولون أيضاً : « الرجل يضحك بقلبه ، أما المرأة فتضحك بفمها فقط » ، وقال الفيلسوف شوبنهاور الألماني : « يسألوني عن الأفعى اللينة الملمس ، وهي أمامهم في كل وقت ، بل في كل لحظة ، وهي المرأة » ، وقال أيضاً : « لتكن المرأة ملاكاً طاهراً ، أو شيطاناً رجيماً ، فمالنا ولها ؟ أجارنا الله من شرها وأذاها » ، وقال سنت بوف : « المرأة شيطان محسن » .

فضل المرأة

الترفيلة السابعة — جرت المقادير ، وقضى الأمر على « المرأة » أن تكون أضعف من الرجل في الجسد والقوة والسيطرة ، فلذلك التجأت للتسلح « بالتدابير الخفية » والأفكار الباطنية ، لكي تقوى بذلك على الدفاع عن نفسها ، وتارة على الهجوم عند الاقتضاء . غير أن هذا لا ينافي أن « المرأة » أحسن من « الرجل » في الفضل الأدبي ، والتهذيب الفطري ، والعفة ، وعمل الخير ، وما إلى ذلك من أمثال وفضائل ، فهذه ما لا يقدر الرجل أن يجاري المرأة فيها ، وهي من هذه الوجهة أفضل من الرجل وأسمى منه ، في كل آن ومكان ، على اختلاف الأجناس والأديان .

انظر إلى الرجل أولاً من جهة قوته الجسدية وشدته ، تجد أن قوته هذه أدت في جميع أدواره إلى ارتكابه الجرائم ، كبيرة وصغيرة ، من السرقات ، إلى قطع الطرق على السابلة ، ونهب أموالها ، إلى تأليف العصابات وإيقاد الثورات ، والانتقام من بعض إخوانه في الانسانية ، وربما في الدين والوطن ، هذا عدا ما في إثارة الحروب ، وتقتيل البشر — مزاحمة على حطام الدنيا — من نبذ لكل شريعة ومدنية .

فكل ما جرى ويجري في هذه الدنيا من الفجائع والاستبداد والاستعباد واستعمار البلاد وإرهاق أهلها ، إنما يفعله الرجل ، نعم أن الرجل هو القائم بكل هذه البلايا ، ولم يعرف لا في عصرنا ، ولا في العصور الماضية أن النساء ألقن من بينهن عصابات للسرقة والقتل والسلب ، ولا تَجَمَّعنَ لجرمة ، أو أعنَّ عليها ؛

ولا يقدح في هذا أنه وجد في التاريخ نساء دعون إلى مثل هذا ، وبأشرنه
بأنفسهن ، « كوقعة الجمل » ، وأعمال « جاندارك » و « غزالة » الخارجية ،
و « زنوبيا » ملكة تدمر ، و « الزباء » إلى غير ذلك من الشواذ ، فما كان الدافع
إلهم إلا حب تأييد عقيدة ، رسخت في تلك النفوس ، لا حباً بسفك الدماء ،
والتغلب على الأعداء ، ولا يدحض أيضاً ما هو معلوم عن مساعدة النساء لرجالهن
في الحروب ، فهو إنما اضطرت إليه « المرأة » لتخفف من ويلات الحرب عن
الرجال ، بدافع الكرامة القومية ، لا بقصد قتل الأعداء .

ونعلم ان كثيراً من جرحى الحرب الذين يؤسرون ويدخلون مستشفيات أعدائهم
— كانوا يلقون من عطف « المرأة » وحنانها مثل ما كان يلقي أهلها وقومها ، إذاً
فما كان وجودهن في تلك الساحات قديماً وحديثاً إلا لتلطيف هذه المصائب .
بحنانهن ورقة إحساسهن ، فهن محسنات بالطبيعة ، والروح الأدبية فيهن أقوى
وأسمى مما هي في الرجال .

أراك يعلو صوتك ، وتندفع الرد عليّ قائلاً : إن أكثر الحروب والمداوات
الشخصية ، والجرائم المتعددة ، التي ذكرتها ، إذا دقت في أسبابها ، تجد لها آتية
من طريق « المرأة » ، وهو أمر مشهور وبرهانه ساطع ، لا يقبل الرد — إذا قلت
هذا فإنني أجيبك ان السبب ليس هو « المرأة » ، أي أن المرأة لم تدفع الرجال إلى
هذه الخمازي ، ولا حرّضتهم عليها ، ولكن الرجال بأنانيتهم ، وجهم — للآثرة ،
ومزاحمة بعضهم لبعض ، وما في رؤوسهم من مطامع يندفعون إلى هذه الشرور ،
تنفيذاً لمآربهم ، فلا ذنب « للمرأة » في هذا .

وهل شهدت أو سمعت إلا نادراً ان امرأتين اقتتلتا ، أو قتلت إحداهما الثانية
من أجل الوصول للرجل؟ — وهي أولى منه بذلك لما فيها من قوى ثائرة، وعواطف

متهيجة - أو أثارت جنسها أو ناحيتها أو قومها من أجل الحصول على رجل ؟ هذا ما لا وجود له إلا في القليل النادر ، وخاصة فيمن كان في حياتهن العائلية شيء من الشرف ..

وهل تعتقد أن الزانيات في النساء يبلغن عشر عشر الزانين من الرجال ؟ - كلا - ، وهل تعتقد أن شاربات الخمر من النساء يساوين جزءاً من ألف من شاربي الخمر الرجال ؟ - كلا - ، وهل تعتقد أن المرايات من النساء يساوين جزءاً من ألف جزء من مرابي الرجال ؟ - كلا - .

هذا ما عدا ما « للمرأة » من التأثير على الرجال بإبعادهم عن تلك المآزق الخرجة ، وما عدا ما لها من الفضل في نشر السلام ، فهي رسوله الصادق الأمين ، وهذا ما يدعو كل منصف بصير أن يعترف « للمرأة » بهذه الحسنات الكبرى ، وبُعدِها عن الأعمال القاسية .

ثم إذا استعرضت « الرجل والمرأة » في ملاعب الميسر تجد أن الرجل يأخذ من هذه البلية القسط الأوفر ، والبلاء الأعظم ، ولا ينال « المرأة » منها إلا جزء صغير ، إذ « للمرأة » أبعد من الرجل عن المخازي الفتاكة بالهيئة الاجتماعية ، والمنهكة للأجساد والأرواح ، الدافعة للناس - بين بأسهم ورجائهم - إلى اقتراف السرقة والقتل .

ولننظر إلى « الرجل والمرأة » من حيث الدمثة واللفظ ورقة المواطن والشعور والحنان ، فهذه الأخلاق تفضل فيها « المرأة » الرجل .

ولا أحسبك إلا مسلماً لي في هذا الاعتقاد على طول الخط... وفوق ما اتصفت به من تلك الأخلاق وتفوقها فيها ، فهي مخصصة للقيام بعبء عظيم ، من أعباء هذه

الحياة ، إذالم تقل أعظمها ، وهو الحمل والولادة والرضاع وتربية الأطفال الترية الأولية .

نعم لا ننكر ان الرجل يفضل المرأة بأشياء هي جوهرية وذات قيمة كالمقل الثابت في مقابلة عاطفتها المضطربة ، والقيام بالواجبات الاقتصادية والسعي والإنفاق في مقابلة كونها لا تقوم بشيء من ذلك ، والدفاع عن الوطن والشرف والمال في مقابلة كونها ليس فيها أهلية لذلك ، والثبات على المبدأ في مقابلة تناقضها في أعمالها وأقوالها ، فهذه الأشياء وأمثالها فَضَّلَ الرجلُ المرأةَ .

كبر النساء وكبر الشيطان

الترفية الثامنة — قال بعض الناس : إني أخاف من النساء أكثر مما أخاف من الشيطان، لأنه ورد في النساء: ﴿ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِ كُنْ إِنَّ كَيْدَ كُنْ عَظِيمٌ ﴾ (٢٨: ١٢) وورد في الشيطان : ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ (٧٥ : ٤) .

وفي كلام هذا البعض نظر ، لأن كيد الشيطان مذكور في الآية مقابلاً لكيد الله تعالى ، فكان ضعيفاً بالنسبة إليه ، ألا ترى أول الآية : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ ، فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ ، إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ (٧٥ : ٤) فصدر الآية متضمن لكيد الله تعالى ، وعجزها متضمن لكيد الشيطان ، وكيد الشيطان ضعيف بالنسبة لكيد الله تعالى ، وأما قوله « إِنَّ كَيْدَ كُنْ عَظِيمٌ » فهو بالنسبة لكيد الرجال ، أي ان كيد زليخا وأمثالها من النساء عظيم بالنسبة لكيد يوسف وأمثاله من الرجال .

وأيضاً فإن الكيد الذي يتعاطاه النساء وغيرهن مستفاد من الشيطان بوسومته،

وتسويله ، وشواهد الشرع قائمة على ذلك ، فلا يتصور حينئذ أن يكون كيدهم أعظم من كيده .

قميص يوسف والقميص الذي وضع فيه الحجر الأسود

الترفيلة التاسعة — كآني بهذا « القميص » المقدود هو أشبه شيء « بالقميص » الذي وضع فيه « الحجر الأسود » حين بناء قريش الكعبة ، فهذا القميص المذكور هنا كان سبباً لرفع الخلاف بين يوسف وزليخا ، وذلك « الشاهد » بسبب حكمته كان الواسطة الكبرى لعمل طريقة أزال بها الخلاف ، كذلك كان « القميص » الذي أمر النبي ﷺ قريشاً أن يأتوا به ليضع ﷺ « الحجر الأسود » فيه ، كان هو الواسطة العظمى لازالة الشقاق العظيم بين قبائل قريش وكان هذا بسبب حكمة النبي عليه الصلاة والسلام . هذا ... وإذ قد تم خطابي فاني أقدم أسمى احتراماتي لحضرات إخواني أعضاء المؤتمر المحترمين ، وأختم هذه الجلسة بأعراب عن تشكراتي وتقديم اسمي التحية لهم لحسن إصغائهم إليّ والسلام عليكم . (مرحى)

نتيجة الحكم

آ (٢٩) « يُوسُفُ ، أُعْرِضْ عَنْ هَذَا ، وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكَ ، إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ .. »

افتتحت الجلسة وتليت الآية التاسعة والعشرون فقام الأستاذ العلامة البغدادي^(١) وقال :

قال العزيز بلسان الرجاء إلى يوسف يا (يوسف) لأجل خاطري (أعرض

(١) نسبة الى بغداد من القطر العراقي العربي .

عن هذا) الأمر ، واكتمه ولا تحدث به ، (و) قال بلسان النصيحة لزوجته زليخا (استغفري) أنت (لذنبك) الذي ثبت عليك ، واسدلي الستار على هذه المأساة (إنك كنت من) جملة القوم (الخاطئين) المتعمدين للذنب .

ولما سمعا هذا القول ، امثثل يوسف وعادت أمور إدارته في القصر لجراها الطبيعي ، غير أنه كان فيما نظن بعيداً عن امرأة العزيز والخلوة بها ، وأما امرأة العزيز فجلست في كسر بيتها يحفها الخجل ويحوطها الذل والهوان .
(يوسف أعرض عن هذا ..)

— ١ —

وتابع العلامة البغدادي قوله :

طلب الاعراض من يوسف

جعل « العزيز » يتطلع حواليه ، ويلتفت بمنة ويسرة ، لئلا يسمعه أحد من الخدام والجواري ، وقال مخاطباً يوسف بصوت منخفض ، ونفس صغيرة :
يوسف :

لله أنت ، ولله أبوك ، لا فض فوك ، ولا عايش من يشنوك ، هنيئاً لبطن حواك ، وثدي سقاك وحجر آواك ، فقد نظقت بالحق ، وتكلمت بالصدق ، بورك فيك من عفيف شريف ، ومن شاب نشأ في طاعة ربه ، حقاً أنت من يستظلون بظل العرش يوم القيامة .

يوسف :

كن مطمئناً ، تهناً بمرءتك وشرفك ، فقد ظهر لنا جلياً أنك أطهر من الزهرة المطلولة ، وأنقى من القطرة الصافية :

يوسف :

كفاك افتخاراً انتصارك على العواطف البشرية ، وحسبك شرفاً ، انتصارك على هذه « المرأة » ، رجل من أهلها ، فلا تفكر في هذا الشأن ، وافرض أن هذا الكائن لم يكن ، « أعرض عن هذا » الحادث ، وقدره كأنه ما كان ، ولا تخطر لك على بال ، اضرب عنه صفحاً ، وأعرض عنه إغراض الكرام ، واغض عنه إغضاء ذوي السر والمروءة :

وقد علمت وغيري علم تجربة أن الكياسة خبء السر في خيس (١)

فا كنتم حديثك لا يشعر به أحد : من رهط جبريل أو من رهط ابليس ، أعرض عنه ، ريثما تسكن هذه السيرة المنتنة ، وتتلاشى من نفسها ، بل أعرض عنه مطلقاً ، وانتزع رسمه من خيالك ، واجعله نسياً منسياً ، فلا تذكره لأحد ما ، حتى لا يفشو ويشيع وينتشر بين الناس ، ولا تكثرت بهذا الأمر ، ولا تهتم به ، فقد بان عذرك ، واتضحت براءتك .

هذا مغزى كلام « العزيز » ، وهذا هو معناه الروحي ، الذي يجب أن يكون قد أراده « عزيز مصر » في خطابه ليوسف .

وأما يوسف فكأنني به حينما سمع كلام « العزيز » ، قال له : لييك لبيك ، سمعت لك مأموراً مطاعاً ، لأن الذي يجب أن تشيع الفاحشة ملعون في الدنيا والآخرة . ثم ربض يوسف في مكانه في بيت العزيز على حاله ، وآثر الصمت ، واعتصم بالأناة ، واستمسك بتناسي كل ما وقع ، وهذا الحادث — والحمد لله — لم يقلل من شرف يوسف ، بل بالعكس زاده قيمة واعتباراً .

(مرحى)

(واستغفري لذنبك)

— ١ —

وقالت السيدة وشيدة البيرونية :

طلب الاستغفار من زليخا وعطفا

من انصاف « العزيز » أنه أعدى يوسف على زوجته ، وحكم له عليها ، نظر فيها نظرة كأنها وقع السهام ، نظر إليها نظرة ملؤها الكره والهوان . وقال لها : وأما أنت ، فلا إخالك إلا مفترية على هذا البريء الطاهر ، وكأني بك قد سمعت إلى حثفك بظلفك ، أقلمي عن كل ما تقدم ، وابغضي حالتك الأولى بغض الأرض للدم ، اقرأ سورة التوبة ، وعليك بسرعة النية والأوبة ، أسمعني السماء صوت توبتك ، قبل أن تسمعي منها صوت العذاب الأليم ، الذي سيحيق بك إذا لم تؤوبني وتؤوب ، وتقرعي سن الندم ، على ما فرط منك في حق هذا العبد العبراني من الرغبة إليه ، ثم الفرية عليه ، فذنبك مزدوج ، ولذلك فأنت قد أصبحت مخروطة في سلك الخاطئين ، الذين إذا عدوا فأنت — واخجلناه — معدودة ، وإن حدوا كنت — وآسفاه — محدودة ، فليتك قبل هذا كنت مؤودة .

« استغفري لذنبك » ، فليست العفة عفة الخدر والخباء ، ولكنها عفة النفس والضمير ، وأنت مسؤولة عن ذنوبك وآثامك أمام نفسك وضميرك ، فضميرك هو الذي يتولى بنفسه محاسبتك على جميع أعمالك ، وهو المراقب على حركاتك وسكناتك ، لأنه أعظم سلطاناً وأقوى يداً من جميع الوازعين والمسيطرين ، فأصلحي ما بينك وبين من خلقك ، الذي يعلم السر وأخفى ، أنا لا أريد أن أرهقك ، ولا أن أدينك ، لأنك ربما ترين أنك لست مسؤولة أمام رجلك ،

ولكنك مسؤولة في الدنيا أمام ضميرك ، وفي المعقب تسألين أمام هيئة المحكمة العادلة الكبرى المؤلفة من الملائكة ، تحت رئاسة الديان العظيم .

يسوءني أن أصرح باسمك ، وأناديك بلقبك الرسمي في هذا المقام ، مقام صدور الحكم عليك ، ولكني أكني عنك فقط ، فيا أمة الله ، يا هنتاه ، بل يا عدوة نفسها ، يا قرّنة الفتنة ، قد هبّدت ، فاستغفري لذنبك ، وسبعين مرة استغفري لذنبك ، واشطبي جميع حسابات الحب الماضية ؛

خليق بك أن تستغفري الله ، فقد أسأت وظلمت ، ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ﴾ ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ ، يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٤ : ١٠٩﴾ .

ثم جعل « فوطيفار » ينظر الى يوسف ، نظر عناية و إعجاب ، موصيه أن يتغاضى عن هذا الحادث الأليم ، راغباً اليه أن يجعله تحت طي الكتمان ، وجعل ينظر الى « زليخا » شذراً وتنفس نفساً وصل اليها حرّة ، وأمرها بالتوبة والاستغفار وطلب العفو من المولى الغفار عن « ذنبها » الذي هو مجموع المراودة باللسان ، وتغليق الأبواب باليد ، وهما بالقلب أن تبطش به إذا لم يوأتهما ، فقد زنت بلسانها ويدها وقلبها ، لأن الزنا كما يكون بالفرج ، فكذا يكون بالجوارح ، وهو الزنا الأصغر ، وهو (طبعاً) دون الأول ، وفي البخاري عن أبي هريرة : « فزنى العين النظر ، وزنى اللسان المنطق ، والنفس تتمنى وتشتهى ، والفرج يصدق ذلك كله ويكذبه » .

سمعت « زليخا » خطاب سيدها لها ، فودّت لو تفتّح الأرض وتبتلعها ولا يراها أحد ، ولم تفه بينت شفة في تبرير فعلها ، ورجعت لقصرها وهي كاسفة البال مسرّبة بالخزي والعار . قبعت في كسر بيتها ، تُصعّد الزفرة تلو الزفرة ، وترسل

العبرة فالعبرة ، وباتت محطمة من آثار معركة التحقيق . ولكأنني أراها حينئذ قالت
بينها وبين نفسها : يأمرني بالاستغفار !! أسأل الله العافية ، لقد أدخل يده في
الجراب ، فأخرج أشد ما فيه وأصعبه ، وإلا .. فمن ماذا استغفر ؟ .. أستغفر
من حب يوسف ؟ .. أستغفر من حرصي على قربه ؟ .. أستغفر من تمتعي بحاسنه ؟ ..
أستغفر الله العظيم !!! ثم قالت متمثلة :

ما ذا لقيتُ من الهوى وعذابه طلعتُ عليّ بليّةٌ من بابه

مرحى

(واستغفري لذنبك)

— ٢ —

وقالت الأنسة ثريا الاذفانية :

سوف لا أتكلم في هذا المقام إلا عما تضمنته هذه الآية الكريمة من
نكات دقيقة لا ندحة لي من التنبيه عليها :

بعض فضليات النساء في التاريخ

النكتة الأولى — لقد ذكر التاريخ كثيراً من السيدات الفضليات ، مثل
السيدة « مريم » بنت عمران ، من بنات إسرائيل ، ومثل « بلقيس » ملكة سبأ .
من بنات قحطان ، ومثل « زنوبيا » ملكة تدمر ، من صميم العرب ، ومثل « تماضر
الخنساء » أفضل شاعرة من شواعر العرب ، ومثل السيدة « خديجة » بنت خويلد ،
زوج النبي ﷺ ، والسيدة « عائشة » وأختها « أسماء » بنتي أبي بكر الصديق ،
من بنات قريش ، ومثل « كليو بطرة » ملكة مصر ، من بنات الرومان ، ومثل
« جاندارك » من بنات الفرنسيين ، وغيرهن .. وغيرهن .. وقد حفظ التاريخ

لهؤلاء وأشباههن ذكريات نغمة ، غير أن هذه « المرأة القبطية » ، زليخا ، مع الأسف ، لم يرو لنا التاريخ عنها إلا أسوأ الذكري .

لماذا لم يعاقب العزيز امرأته بصرامة

النكتة الثانية — لا ريب أن « فوطيفار » كان اعتبر أن هذه الحادثة نكبة من أعظم النكبات التي حلت به وبأسرته ، وبأسرة زوجته أيضاً ، ولكنه لم يؤاخذها بأكثر من العظة ، حتى قيل عنه : « إنه كان رجلاً فسلماً »^(١) ، لامرؤة له ، وكان ضعيف الغيرة ، وقيل عنه : « إن هذا الرجل ، جبان هتابة ، رعديد رعشيشة ، قنذع ، طسيع »^(٢) وقيل عنه : « إنه كان خوار العود ، رخو المكسر » ، وعندنا أن هذا الرجل لم يقاص امرأته ، ولم يعاملها بشيء من الصرامة ، ولم يطلقها ، ولم ... ولم ... الخ ... لوجوه عديدة ، وكلها وجهة إن شاء الله .

بدا فوطيفار أوكتا وفوه نفخ

أ — لأنه هو الذي وضع هذا « الحمام الوديع » يوسف ، بين مخالب هذه « الببوة الشرسة » زليخا ، هو الذي جمع بين هذا « الشاب » الفاتن وبين تلك المرأة القوية الشعور ، هو الذي غرس بيده هذه الشجرة ، شجرة الحب في قلب امرأته ، وهو الذي « يداه أوكتا وفوه نفخ » ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾ (٤ : ٧٠) ، وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، قُوا

(١) الفصل : الضعيف المسترذل الذي لا مروءة له .

(٢) الرعديد : الجبان الكثير الارتعاد . والرعشيشة : الجبان الكثير الارتعاش . والقنذع :

الذي يفض ما يرى من زوجته . والطسيع : عديم الغيرة .

أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً ، وَقَوَّدُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ، عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ ، لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ ، وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦٦ : ٦﴾ ..
 فنحن أن « العزيز » لم يعاقب امرأته بما يلزم من العقاب ، ولم يقاصها ، ولم يعاملها بشيء من الصرامة ، لأنه افترى فرأى أن الذنب كل الذنب عليه ، لأنه هو الذي جلب يوسف إليها ، وجعل لها عليه سلطاناً ودالة ، إذ قال لها « أكرمي مثواه » وسوّغ له الدخول في أيّ وقت في بيتها الخاص بها . كما يدل عليه قوله : « في بيتها » ، فإذا كان هذا ، وكان يوسف من الجمال كما وصفه سفر التكوين . والقرآن الكريم والحديث الشريف ، فهل يستطيع أقدر « محام » في الأرض أن يدافع عن « العزيز » ؟ وهو السبب الوحيد في هذه الفتنة التي حدثت في قصره ، وهو الوسيلة الكبرى في هذا الخطر الذي أحرق بامرأته ، وهل يستطيع ذو مسكة أن يتصور خطراً على امرأة العزيز ، وعلى عفتها وطهرها . أعظم من هذا الخطر ، الذي عرّضها له سيدها العزيز ؟ .. كلا ..

فإذا الضرر كل الضرر إنما جاء من جانبه ، ولذلك ولكونه يوجد عنده شيء من الانصاف ، لم يقاص زوجته بما يجب من القصاص ، ولم يعاقبها بطلاق أو غيره .. ثم الغريب أنه أخطأ في التسبب في وجود يوسف عندها في القصر وفي بيتها ، وعرف أنه مخطيء ، وتبين له عاقبة خطئه ، ولم يتدارك الأمر ، بل بقي مصرّاً على خطئه ، إذ لم يبعدها عن يوسف ، أو يبعد يوسف عنها ، نعم لا ننكر أنه لما تفاقم الشر ، واتسع الخرق على الراقع ، بسبب حادثة النسوة ، وتقطيع أيديهن في قصره ، بدا له أن يعتقله وقد فعل ، ولكن بعد خراب البصرة ..

والخلاصة أن « العزيز » هو الذي هباً الوقود لنار هذه الفتنة بيده ، إذ أتى بيوسف بين يدي زوجته ، وأطلق لها الحرية أن تجتمع به ، بلا رقيب ولا ملاحظ . كما أطلق الحرية ليوسف في خدمة القصر ، والدخول والخلو بلا مهيمن ولا

مسيطر ، فيوسف قدر الله أن يكون معصوماً بتوفيقه تعالى ، لكن تلك المرأة « زليخا » لم يقدر لها ذلك ، ف وقعت في الشرك ، ولو أن « سيدها » أراد معاقبتها لكانت تقدر أن تقول له « يداك أوكتا ، وفوك نفخ » .

فلذلك نحن نرى أنه لم يعاقبها ، مع أن عملها جريمة ، لأنه باهماله وتفريطه شاركتها في ارتكاب الجريمة ، فقد سهل لها الاجتماع والخلوة بفتاه ومملوكه الجميل فرط في واجبات اعتزال زوجته عن الغير ، فحق عليه القول : « المفرط أولى بالخسارة » .

إحتمال إتصاف العزيز بشيء من فساد الأخلاق

٢ — ربما كان « عزيز مصر » من الأمراء الذين لم يترفعوا عن بعض أنواع الفحشاء ، فكان يحاسب نفسه بنفسه ، ويقرر مبدأ المساواة بين الرجل والمرأة ، ويقول في نفسه : ليس من العدل أن يغضب الزوج من خيانة زوجته إذا كان هو يخونها ، فلذلك لم يحاسبها على ما صدر منها بأكثر من العظة والنصيحة ، وقد روى الحاكم من حديث أبي هريرة : « وليردك عن الناس ما تعلم من نفسك » .

وحيث أن إيضاح المقام يحتاج إلى بسط في الكلام نقول :

إنه لأمر معلوم أن « عزيز مصر » كان تهاون في صون امرأته وحجابها عن الخدمة ، وبناء عليه ، فيحتمل أن هذا الرجل كان عنده شيء من فساد الأخلاق والتطلع إلى الأجنبية ، بمقدار ما كان عند زوجته من ذلك ، ولذلك لم ينكحها ، من قبيل : « افتضحوا فأصلحوا » و « إن الطيور على أشكالها تقع » و « إن هذا الكعك من هذا العجين » و « الجنس للجنس يميل » ، قال تعالى : ﴿ الخبيثات للخبيثين ، والخبيثون للخبيثات ، والطيبات للطيبين ، والطيبون للطيبات ﴾ (٢٤ : ٢٦) ، وقال تعالى : ﴿ الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة ﴾ ،

والزانية 'لا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ' (٣: ٢٤) ، ومعنى الآية الأولى أن الغالب أن الطيب لا يقترب إلا بالطيبة ، والطيبة لا تقترب إلا بالطيب ، ومعنى الآية الثانية أن الغالب في المائل الى الزنا أنه لا يرغب في نكاح الصالح ، والزانية لا يرغب فيها الصالحاء ، فالمشاكله على الألفه ، والمجالسة من دواعي الانضمام ، والمراد « بالزاني » ولو بالنظر أو اللسان أو تمني القلب ، فإن تحول الأخلاق الاجتماعية في النساء ، ينشأ من تحول الأخلاق الاجتماعية في الرجال ، لأن الرجل مرآة المرأة ، كما ان المرأة مرآة الطفل ، ولذلك لما فسدت أخلاق أكثر شباننا ، بدأ فساد أخلاق أكثر النساء ، بما يتناسب مع هوى الرجل .

حقاً إن العوامل التي تفسد المرأة ، وتحول أخلاقها هذا التحويل المشوم ، ترجع كلها إلى تحول أخلاق الرجل ، فإذا صار هو فاسقاً ، فلا ينتظر أن تكون هي العفيفة ، وإذا هو هدم المسجد ، فلا يعقل أن تبني هي المأذنة ، وإذا كان هو مهتكاً ، فلا يمكن أن تبقى هي حَيَّة مصونة . هذه هي القاعدة الاجتماعية (الغالبه) ، وما خرج عنها فهو شاذ ، وقليل مام .

ولا نعلم هل هذا العزيز « فوطيفار » ممن قد انخرطوا في سلك هذه « القاعدة » أم هو من الأفراد الشاذة التي خرجت عنها ؟ ، ولذلك قلنا : إن فساد أخلاق « فوطيفار » « من المحتمل » ، وليس من « الأمر المحق » .

احتمال خوف العزيز من أسرة زوجته وضعفه تجاهها

٣ - لعل « عزيز مصر » سكت عن تأديب زوجته بأكثر من التأنيب الكلامي لأنها كانت بنت رجل عظيم في البلاط ، يخاف « العزيز » من إفساده قلب ملك مصر عليه ، لو أهان أو فارق بنته ، والتزوج أو التزويج في سبيل التجارة ، عادة قديمة بين العظماء ، ومستمرة إلى اليوم ، فكم من رجل يتزوج امرأة لملها أو لأملاكها ، أو لجاء ونفوذ أبيها ، أو لمنصبه ومكاته في الحكومة ، عسى أن ينال الزوج من مالها شيئاً ، أو يعيش تحت ظل والدها .

ويظهر لنا مما سبق من قول « سيدها » لها : « أكرمي مثواه ، عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً » ، ومن اقتراحها إذ قالت : « ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم » ، ومن جرأتها فيما سيأتي إذ تقول أمام النسوة : « ولقد راودته عن نفسه فاستعصم » ، ومن استبدادها حين تقول : « وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ ، لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ » ، ومن الإجمال والابهام ، وعدم تخصيصها بالكلام حينما يقول يوسف : « رَبِّ ، السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ » ، ومن أن يوسف أهمل التصريح باسمها ، مكثفياً بالتلويح إليها فيما يقول : فاسأله ما بال النسوة اللاتي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ، إن ربي بكيدهن عليم » ، ومن صراحتها المدهشة وعدم خوفها من سيدها ، إذ تقول أمام مندوب التحقيق : « آلآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ » ، أنا راودته عن نفسه ، وإنه لمن الصادقين ، — يظهر لنا من مجموع ذلك أن امرأة العزيز كانت (كما روى) من سلائل العائلة القبطية ، التي كانت مالكة ، أو على الأقل كانت من قوم مدلّنين بأنفسهم وبوفرهم وراثتهم ومكائهم في الهيئة الاجتماعية ، أو كانت شخصياً ، لها مال أو جمال ، نافذة ، مستبدة ، جريئة ، محفوفة — الأمر الذي يكشف لنا سر ضعف « سيدها » الذي تجلّى في قوله لها : « واستغفري لذنبك ، إنك كنت من الخاطئين » ، حيث جعل عقابها على خطئها مجرد الاستغفار .

احتمال عدم وجود طلاق في زمن العزيز عند المصريين

٤ — يقول بعضهم : لماذا لم يطلقها ؟ — ونحن لا نعلم المانع له من طلاقها تماماً ، لأننا لم نقف على نظام « الأحوال الشخصية » عند هؤلاء المصريين القدماء ، ثم إنني لقد رأيت في شرح سفر التكوين أنه كان للمرأة عند المصريين أن تستولي على كل ما يملكه الرجل إذا تركها ، كما علم مما نشر من أخبارهم ، على ما قال الدكتور

« بين سميث » ومع ذلك فلمله لم يطلقها ، لأنه ليس في شريعتهم طلاق البتة ، كما هو عند الكاثوليك ، ويحتمل أن الطلاق لا يجوز عند المصريين إلا في صور وحوادث معلومة صعبة التطبيق والاثبات ، كما يقول بعض المؤرخين ، وكما هو مذهب « الأرثوذكس ».

احتمال حرص العزيز على ستر حادثة زوجته

هـ — من المحتمل أن « فوطيفار » لم يكن سريع الانفعال ، متكهرب الأعصاب ، كان بعيداً عن خشونة الأخلاق ووعورتها ، فلذلك اكتفى بعظمتها وتوحيها ، ولم يؤدبها بالسجن أو الضرب ونحوها ، لأن المرأة التي لا تحافظ من تلقاء نفسها على شرفها ، فعبثاً أن يؤمل منها الخير بالضرب أو السجن ونحوها ، كما أنه من العبث أن تحاول صيانتها بوضعها تحت المراقبة ، والتضييق على هريتها ، ولهذا قيل : إن هذه الطريقة التي جرى عليها فوطيفار هي منه عقل ، وحرص على ستر هذه الحادثة ، والمائل من ستر إهانة نفسه .

والتاريخ حافل بأمثال ذلك ، إذ أن « الحجاج » في عتوّه ، لم يتعرض « لابن غير » في تشبيهه « بزئب » أخته ؟ مخافة أن يكون ذلك سبباً للخوض في ذكرها ، فيزيد زائد ، ويكثر مكثر ، وكذلك « معاوية بن أبي سفيان » ، لم يتعرض « لعبد الرحمن بن حسان بن ثابت » ، وكان يتشبيب بابنته .

ولدى التأمل العميق يرى القاري أن ما فعله « عزيز مصر » خير مما فعله « هرون الرشيد » مع أخته « العباسة » ، فانه كان عقد عليها لوزير « جعفر بن يحيى البرمكي » ، عقداً شرعياً صحيحاً ، وأذن لهذا الوزير بالدخول على كل أهل بيته وأخته ، وأمرها أن لا تمنعه من دخول البيت ، في أي وقت شاء ، ليلاً أو نهاراً .

أجرى ذلك العقد مستوفياً لشروطه الشرعية ، لأجل أن يحل لوزير « جعفر » النظر والاجتماع والخلوة والمكاملة ، وكل شيء ما عدا النكاح ، ولكن الوزير « جعفر » كان دخل عليها سرّاً ، ورزق منها ولدين ، سماها الحسن والحسين ، ولما بلغ « الرشيد » ذلك ، حرق أسنانه ، واشتد غضبه ، وقتل أخته « العباسة » والوزير « جعفر » ، مع انها لم يفعلوا إلا ما أحله الله ، وأذن فيه ، ثم قتل الغلامين الصغيرين المعصومين ، وقتل عشرات من القفلة والحمالين والحفارين الفقراء ، الذين أطلعوا على هذا القتل ، ارتكب هذه الكبائر الفاحشة بداعي الكبرياء ، ودعوى أن « جعفر » البرمكي ليس كفواً « للعباسة » وأراد بقتل أخته وولديها ، ومن نقلهم وحفر لهم ودفنهم من القفلة الفقراء إخفاء هذا الأمر ، وجعله في طي الكتمان ، مع انه قد تناقلته الألسنة ، وكتبه المؤرخون ، ولم يغادروا من هذه الحادثة صغيرة ولا كبيرة إلا سطورها ، فالذي عمله « فوطيفار » أفضل مما عمله « هرون الرشيد » ، ولو عمل « فوطيفار » كما عمل « الرشيد » لكان قتل « يوسف » وقتل زوجته « زليخا » و « الشاهد » الذي من أهلها ، وقتل جميع من اطلع في قصره على هذه الحادثة ، من الجواري والقهرمانات ونحوهم ، ولكان بثها عمل ، ولكن أنتى للرجل ذي الأناة والرصانة راجع الحكم ، ثابت التؤدة أن يعمل ذلك ؟

معصية امرأة العزيز عقوبتها التعزير

٦ — المعاصي ثلاثة أنواع : نوع فيه « الحد » وذلك كالزنا والسرقة وشرب الخمر ، ونوع فيه « الكفارة » وذلك كالجماع في الإحرام وفي نهار رمضان ، والحديث في اليمين ، ونوع لا حد فيه ولا كفارة ، بل فيه « التعزير » ، وذلك كسرقة مالا قطع فيه ، واليمين الغموس ، والنظر إلى الأجنبية بشهوة ، ومحاولة ارتكاب الفاحشة وأخذه في أسبابها وإقامة الدعوى الباطلة على أهل الفضل والدين كما وقع من « امرأة العزيز » لما راودت يوسف ، ثم لما افترت عليه ، فهذا النوع الثالث فيه التعزير فقط ، والتعزير أنواع : منها التشهير وتغيير الهيئة وحلق اللحية ،

ومنها الضرب ، كما في حديث أبي بردة بن نيار في الصحيحين وغيرهما انه سمع النبي ﷺ يقول : « لا يجلد فوق عشرة أسواط إلا في حد من حدود الله » ، ومنها الحبس ، إذ حبس ﷺ رجلاً في تهمة ، يوماً وليلة ؛ ومنها الربط ، إذ ثبت أن عمر (ض) أمر أبا عبيدة بن الجراح أن يربط خالد بن الوليد بعمامة ، لا عزله عن إمارة الجيش ، كما في كتب السير ، وسبب ذلك أنه استنكر منه إعطاء شيء من أموال الله ؛ ومنها إقامة الانسان من المجلس ، ومنها النفي كما فعله ﷺ بالثلاثة الذين تخلفوا ، حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ؛ ومنها السب الذي لا فحش فيه ، كقول موسى للاسرائيليين الذي استنصره أولاً ، واستصرخه ثانياً : ﴿ إِنَّكَ لَنفُوءٍ مُّبِينٍ ﴾ (١٨:٢٨) وقول النبي ﷺ لأبي ذر ، لما سمعه يسب امرأة : « إِنَّكَ أَمْرٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ » كما رواه البخاري ، ومن هذا القبيل قول « العزيز » لامراته « زليخا » : « إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ » مع سابق قوله : « إنه من كيد كن إن كيد كن عظيم » يعتبر قوبيخاً وزجراً « لزليخا » لأن تعزير كل إنسان بحسبه وعلى قدر منزلته ، ورب امرأة غير زليخا إذا افترت افتراءها تستحق الضرب ، وأخرى تستحق الحبس ، الى غير ذلك ؛ فكل واحد يُعزَّر بما يليق بمقامه ومركزه بين الناس .

عقاب المراودة في الشريعة الاستتابة مع التعزير

لا يوجد في الشريعة في مثل حادثة « امرأة العزيز » مع يوسف ، أعني حادثة المراودة ، سوى الاستتابة مع التعزير ، والتعزير — كما سبق — يكون لكل شخص بحسبه ، وواحدة مثل امرأة العزيز يكفي في تعزيرها ما خاطبها به سيدها لا أكثر ، سيما أنه لم يثبت عليها عند زوجها انها راودته وطلبت اليه الفحشاء من طريق البرهان الجلي ، ولكن من طريق « اللوث » ، طريق الأمانة والعلامة ، وقد ذكر الفقهاء في باب « اللعان » : أن الزوج إذا رمى زوجته بالفحشاء ،

وجبت عليه البيعة ، وإلا أقيم عليه الحد ، فإن لم تكن بيعة ، وأراد الزوج تبرئة نفسه من الحد أتى بالإيمان المؤكدة ، وعند ذلك يثبت « اللوث » عليها ، فتحبس لأجله ، ويضيق عليها به ، فإن دافعت عن نفسها بالإيمان المؤكدة ، سقط عنها الحد ، وفرق الحاكم بينها .

هذا ما ذكره في باب « اللعان » ، وهذا الباب مبني على أن الزوج رمى امرأته بالزنا ، ولكن هنا لا يوجد رمي من الزوج بالزنا ، وإنما كل الموجود ينحصر في أن « امرأة العزيز » تدعي أن يوسف راودها ، وبالمقابلة يدعي يوسف أن المراودة وقعت منها لأمته ثم بالبحث وجدت قرينة تدل على أن المراودة والرغبة صدرت من امرأة العزيز ، فاذا تقرر هذا فما هو الحكم يأتى في هذه الحادثة ؟ والجواب ، أنه لا حكم سوى ما فعله « سيدها » ، من استتابتها واستغفارها لا غير .

نعم ، ينبغي طلاق المرأة التي يصدر منها ما يغير المروءة والشرف ، كما إذا ثبت عليها أنها راودت رجلاً أجنبياً عن نفسها ، لأن المرأة مأمورة أن تعاشر زوجها بالمعروف ، ومن يصدر منها ذلك ليست من هذا القبيل ، كما ورد في صحيح البخاري عن عبد الله (ض) أنه قال عن زوجته : « لو صدر منها نحو الوشم ، ما جامعنا » ، أي ما اجتمعت معنا في بيت واحد ، بطريق العشرة الزوجية ، ولا تنس ما تقدم من أن الفراق عند المصريين كان يوجد له مانع كبير ، وهو استيلاء المطلقة على كل ما يملكه الزوج ، بل نفى بعضهم الطلاق عن المصريين بالرة .

هذا ما حضرني الآن في الجواب عن « عزيز مصر » ، والله تعالى أعلم .

(إنك كنت من الخاطئين)

- ١ -

وقالت الانسة سلمى البصرية :

العزير بخطي، زوجته ويوبخها

كأنني بالعزير بعد أن طلب من امرأته أن تستغفر لذنبا ، أخذ يوبخها ويعزرها
فائلاً لها : أيتها السافرة المتبرجة ، تقدمين على عمل هو من العار والندالة بمكان ! ،
تقدمين على هذه المراودة مع عبد أنت سيدته ؟! ؟! هاه . هاه .

الموض على الله في أخلاقك وآدابك ، حقاً (إنك كنت من الخاطئين) خطأ
مزدوجاً ، إذ راودت يوسف الطهور ، ثم هممت بالابقاع به ، ثم رميته بارادة
السوء : « وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ، ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا ، فَقَدْ احْتَمَلَ
بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا » (٤ : ١١١) ، وقد أخطأت في حق سيدك وأهلك ، وفي
جانب الله تعالى ، وقد أخطأت للهيئة الاجتماعية بمصر ولكل بنات مصر ، فأنت
إذاً من الخاطئين ، حقاً أيتها المتحفزة للخلوة ، الجاحدة للواقع ، إن وجهك يتكلم ،
وعينيك تعترفان ، وحالك ينطق بما ينكره اللسان ، فتبصري وانظري في أمر
نفسك ، بعين غير عين الحب ، فانها دائماً حولاء ؛

حقاً لقد أوقعت ذاتك في مهواة لا منقذ لك منها سوى الاستغفار ، وأوردت
نفسك موارد لا تصدر لك منها بغير التوبة الى الكريم الغفار .

هذا هو مغزى كلام سيدها معها ، وهذا هو المعنى الروحي الذي اراده من
خطابه لها .

ولكن « زليخا » سكنت على مضض إذ لم تنجح فيها هذه العظة ، بل زادت بها .
 تأججاً وثوراناً ، وكان من الواجب المعقول على سيدتها ، بدلاً من هذه العظة ،
 أو بمد هذه العظة ، أن يعمل على التفرقة بينها ، بأن يعتق يوسف ويطلقه من
 قصره ، ليذهب حيث يشاء ، أو يرجعه الى وطنه فلسطين ، إذ لا أنفع لزوال
 الغرام من ابعاد المحب عن محبوبه ، أو لبعاد المحبوب عن محبه ، ولو فعل « العزيز »
 ذلك من أول الأمر ، لما حدثت حادثة « نسوة مصر » ، وتقطيع ايديهن ، ولما
 ثارت زوجته ثانية ، رغبة الى يوسف بالنزول على حكمها (تكراراً) ، ولما احتاجوا
 لاعتقاله ظمناً ، ولكن هكذا صار ، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً .

معنى الخطء

هذا وأختم كلمتي بلحوظة لغوية وهي : يقال للمتعمد : خطيئ فهو خاطيء ،
 والمصدر الخطء ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾ (٣١ : ١٧)
 والاسم منه الخطيئة ، ويقع على الصغيرة ، كما في قول ابراهيم (م) : « أَنْ يَغْفِرَ
 لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ » (٨٢ : ٢٦) ، وعلى الكبيرة كما في : « وَأَحَاطَتْ بِهِ
 خَطِيئَتُهُ » (٨١ : ٢) ويقال فيمن لم يتعمد الفعل : أخطأ وكذا لمن اجتهد ولم
 يوافق الصواب ، لحديث « إذا اجتهد الحاكم فأخطأ فله أجر » وإنما أوجب له
 الأجر على اجتجاهه في إرادة إصابة الحق ، لا على الخطأ الذي يكفي صاحبه أن
 يعذر فيه ، ويرفع عنه مأثمه ، والفاعل من أخطأ : « مخطيء » ، والاسم الخطأ ، قال
 تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً ﴾ (٩١ : ٤)
 وقال الحريري :

- لا تخطون الى خطء ولا خطاء من بعدما الشيب في فوديك قدو خطاء
- فأي عذر لمن شابت مفارقه إذا جرى في ميادين الهوى وخطاه

كل سر جاوز الاثنين شاع

آ (٣٠) « وقال نسوة في المدينة : امرأة العزيز تراود فتاها
عن نفسه ! ، قد شغفها حباً ! ، إنا لنراها في ضلال مبين . »

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثلاثون فقامت ست اخوتها اللدية (١)
وقالت :

انتقل الخبر لقصور الأميرات بواسطة بعض الخدم والجواري ، ووقع هذا
النبأ عندهن موقعاً سيئاً ، (وقال نسوة) جماعة من النساء ، وكن خمساً : امرأة
رئيس السقاة ، وامرأة رئيس الخبازين ، وامرأة صاحب الدواب ، وامرأة صاحب
السجن ، وامرأة الحاجب ، (في المدينة) وهي صو عن عاصمة المملكة العمليقية
الهكسوسية ، - قلن بلسان المكر (امرأة العزيز) فوطيفار - والعزير في اصطلاح
المصريين من قديم وحديث هو نائب الملك (تراود) تخاتل (فتاها) عبدها العبراني
يوسف (عن نفسه) ليقرب منها لأنه (قد شغفها حباً) خرق حبه شغاف قلبها .
حتى وصل الى الفؤاد ، والشغاف حجاب القلب ، وقيل جليلة رقيقة يقال لها
لسان القلب ، وقد اصطلاح عليها اليوم بأنها جليلة رقيقة تبطن جوف القلب ، فيميناً
بآلهة مصر المقدسة (إنا لنراها في ضلال مبين) في خطأ وبعد عن طريق الصواب .
- وقد وجهوا اليها هذا النقد مبطناً بالزراية - .

(١) نسبة الى اللد من بلاد فلسطين .

(وقال نسوة في المدينة)

— ١ —

وقالت السيدة مديحة الديرية (١) :

وصول خبر السوء الى نساء الأمراء الخمس

إن « حادثة » يوسف وزليخا ، لم تظل مكتومة في قصر « العزيز » بل ذاعت وشاعت ، حتى وصلت الى قصور الأمراء ، ودخلت في آذان سيدات تلك القصور ، وإن الداخل الى غرف الأميرات المصريات إذ ذاك ، يجد أحاديث الغيبة والانتقادات قد أخذت مأخذاً فيها ، ويرجع السبب في ذلك اما الى « القيّمات » اللاتي أطرن الحادثة الى بيوت الأميرات ، أو الى « المواشط » صواحب النفوذ في بيوت الكبراء ، لأن الأميرات يفضين الى « الماشطة » بأسرارهن ، ويعتمدن عليها في المهام العظام ، فإذا كانت من أهل الذكاء والدهاء ، ملكت زمام القصر ، ووقفت على جميع حوادثه . فتصبح « خزانة أسرار » وجعبة حوادث ، أو يرجع الى بعض « القهرمانات » ، و« الجواري » لأنهن أكثر الناس رغبة في نقل الأحاديث ، وأنتم من الصبح في إفشاء السر ، وأسرع من البرق في حكاية ما يسمعن ، وخصوصاً إذا كان من هذا القبيل .

سئل « ديوجنيس » : « أي فعل يفسر على الانسان ؟ — فقال أن يعرف نفسه ويخفي سره » ، وقال أبو العلاء المعري :

تلقى الفتى كالرياح إن أودعته

سراً ، أذيع ، فصار كالزمار

(١) نسبة الى دير الزور من بلاد الشام (سورية) .

والشمس أكنتم للسريرة في الضحى

من قهرمانه دمية وجواري

وربما يكون الحادث بلغن بواسطة « الخاديات » ، بل ربما أن يكون بعض الخاديات 'مقامة في قصر العزيز « رَصَدًا » لبعض نساء الأمراء ، تأتيهن بالحوادث التي تحدث في قصر العزيز .

وهذه عادة قديمة ومستمرة ومطردة في قصور الأمراء ، فقد كان « للأمين ابن الرشيد » ، جارية في بيت الوزير « جعفر » البرمكي ، أهداها له ، لتكون رَصَدًا عليه ، تراقب حرركاته ، وتنقلها للأمين ، كما كان « لزيدة » زوج الرشيد « جاسوس » عند « العباسة » أخت الرشيد ، يطلعها على ماجريات العباسة ، وهكذا نعلم أنه كان للسلطان عبد الحميد العثماني « جواسيس » من جواري ورجال في كل قصر من قصور الأمراء في « الأستانة » .

وربما أن النبأ اتصل ببيوت هؤلاء النسوة بواسطة أناس من أهل بيت العزيز ، فإن امرأته كانت نادت أهل بيتها ، وكلتهم قائلة : « انظروا قد جاء سيدي العزيز الينا برجل عبراني ، ليداعبنا » (تك ٣٩ : ١٤) ، وكل سر جاوز الاثنين شاع . وبالجمل : تناهى الخبر الى قصور الامراء ، وتساقطت هذه الحادثة الى سطة السيدات المصريات ، واستطار ذلك النبأ الى سرب من عقيلات رجال البلاط ، واتصل بسجيرات زليخا ، وهن من بطانة الملكة وسراوات السيدات ، ومنهن امرأة حاجب الملك الذي كان رئيس التشريفات ، فطرق آذانهن ، وحام حول قلوبهن ، وذلك رغماً عن أن يوسف أعرض عن ذكر هذا المصاب ، وتكنم امرأة العزيز فيه ، فصِرْنَ يَصِحْنَ تلك « المرأة » بكل عيب حتى صارت مضغة في أفواههن ، ونبذنها من نفوسهن نبذ النواة ، لأنهن استفظعن هذا الأمر ، وهالهن

هذا العمل الذي من سيدة شريفة من شريفات مصر وكبرياتهن ، وبدأن يحاولن التوفيق بين نظريتي الشرف والدناءة ، وكدن أن لا يصدقن الخبر ، لولا تكرار الروايات المؤكدة لوقوعه ، وليس بين الأحاديث حديث أسير ولا أذيع من حديث سوء .

ولكن .. كم كنا نتمنى لهؤلاء « النسوة » — وبأ للأسف — أن ييقن ثبات على فكرة انتقادهن تلك « المرأة » ، إذ سرعان ما رأينا هن قد تغير فكرهن ، حينما وقع نظرهن على يوسف وجماله ، (كما سيأتي) ، وهكذا شأن مخضوبات البنان ، ليس لهن ثبات على حال ، اللهم إلا على حال القلب والدهاء .

وتشعر كلمة « المدينة » أن « النسوة » كن « مدنيات » من سيدات مصر ، من مدينة « صوعن » أو « منفيس » عاصمة المملكة الهكسوسية في ذلك العصر ، ومثلن 'يصغى' لقولهن ، لوقوفهن على الحوادث الاجتماعية ، وهن من سحيرات وخليطات امرأة العزيز ونظيراتها ، فلا ريب أنها تتأثر بيلوغ الحادثة لهن ، ثم بانتقادهن ، بخلاف ما لو كن من « البادية » أو « الأرياف » فقولهن لا يفيظ ، ولا يجد آذانا صاغية .

(امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه)

— ١ —

وقالت السيدة ماهتاب الكابلية (١) :

انتشار حديث سوء

لما بلغ خبر المراودة إلى سيدات « صوعن » أخذن في لومها وتضليلها ، قائلات ما هو في معناه :

(وا أسفاه) امرأة العزيز « تراود فتاها عن نفسه » ، مع أنها مقترنة بزوج ،

(١) نسبة إلى كابل عاصمة أفغانستان .

وأى زوج؟؟؟ فلا عذر لها ، وكان يجب حسب العادة أن تكون المراودة منه فالشبان هم الذين يراودون النساء ولا عكس ، لمكان الحياء الشديد الذي يمنعهم من المراودة ، وبالله العار ! فإنها لو أرادت أميراً من أمراء البلاط من سجناء سيدها لكان لها بعض العذر ، ولكنها لم تراود إلا عبداً من العبدان !

امرأة العزيز — سائلة المجد ، ربيبة النعمة والنعمة ، مالكة الدور ، ساكنة القصور ، ذات المال الوفير والخير الكثير ، ربة التاج والحلتي الوهاج ، تراود عبدها عن نفسه ، لأنها علقت بحبه !!! امرأة العزيز — يغفر الله لها ، من البيوتات الشريفة ! ومسيدها من علية القوم وجلتهم ، فانها أرادت خادمها لنفسها ، لتشبع لذتها الحيوانية ، فانا لله ، وإنا اليه راجعون ؛

امرأة العزيز — تراود خادمها (المبراني) عن نفسه ، تريده على الفعل الشنيع عنوة وقسراً ، ومراغمة وقهراً ، لا يلفتها عن ذلك شيء ، ومن العجب العاجب أن تستبيح سيده كزليخا مثل هذا الفعل ، الذي يتردد صدهاء في القصور ، وهي من اللاتي يؤخذن بأعمالهن أمام ضميرهن ، وأمام الناس .

نسبة زليخا الى زوجها في حديث السوء واغفال اسمها

وهنا لا بد للمدقق في هذه الآية الكريمة أن يبحث في الدقائق التالية :

أولاً — ان « النسوة » قد دعون زليخا « امرأة العزيز » ، للاشعار بأنها شريفة وماجدة ، إذ لو لم تكن كذلك ، ، لما اقترن بها ، كما أنهم قد دعون يوسف « فتى » لها ، للايدان بأنه عبد من عبيدها ، وخادم من خدامها ، وكل ذلك لاظهار ما بينها من التباين البين ، وأيضاً ليظهر أن « زليخا » هي امرأة عزيز مصر ، أي امرأة رجل عظيم ومقترنة به بالفعل ، قصدن بذلك الاشباع في لومها ، فإن من لا زوج لها من النساء ، أولها زوج دنيء قد تعذر نوعاً في مراودة الأخدان ، لا سيما إذا كان فيهم شيء من علو الجنباب ، وأما التي لها زوج ، وأي

زوج هو؟ هو عزيز مصر، فلمعري إن مراودتها لغيره، لا سيما لعندها الذي لا كفاءة بينها وبينه أصلاً — بحكم الظاهر — وتماديها في ذلك، فهي غلبة الغي، ونهاية الانحطاط.

هذا، ويحتمل أنهم أردن من هذه الاضافة (امرأة العزيز) نسبة العار والعيب للعزيز، باضافة هذه المرأة الساقطة اليه، نسبها له، لا لأهلها، لأنه هو السبب فيما حدث، فهو الملوم دون سواء من أهلها، ولذلك لا يجب نسبتها لواحد من أهلها، ولكن لزوجها.

إن التهاون الذي يبدو من الزوج في شأن زوجته، قد يكون له سوء مغبة، ليس في جانب الزوجة فقط، أو في جانبها وأهلها فحسب، بل إن سوء المغبة قد يلحق الزوج، لا سيما إذا كان هو المتسبب.

انظر (يا رعاك الله) الى هؤلاء النسوة المصريات، عندما أردن ذكر زليخا بالاقذاع، لم يسميها باسمها الشخصي، بأن يقلن: «زليخا تراود فتاها عن نفسه» بل نسبها إلى زوجها، قائلات: «امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه» وتناسين اسم أبيها وأسرتها، كأنها «حواء» ثانية، خلقت من ضلع من أضلاع زوجها اليسرى، فهو أبوها وهو عصبتها.

فلماذا ياترى هذه النسبة؟ قلنا إنها للإشارة لنسبة العار والعيب للعزيز نفسه، بنسبة هذه الساقطة اليه، ولماذا هذا ياترى؟ قلنا لأنه هو الذي تسبب، فهذا جزاء كل زوج يتساهل في حفظ زوجته مما يخاف منه العار،

نحن لانلوم عزيز مصر في إطلاق يد فتاه في سائر أموره الاقتصادية ورؤيته الصادر منها والوارد اليها، ورؤيته سائر أحوال البيت، ولكن ما هو عذره في السماح لزوجته زليخا أن تدخل على فتاه في غرفته الخاصة به وبأشغاله؟ وما هو عذره في

أمره ليوسف أن يدخل القصر في أي وقت شاء لرؤية بعض اللوازم ؟ سواء .
 أكانت العزيرة زليخا في القصر أم لا ، لا فرق في ذلك ، حتى ولو كان هناك
 خلوة ، فلا منع ولا حظر أصلاً ، وهل يجمع بين النار والحطب ؟
 نعم ، صاف أن هذا العبد (من حيث لا يعلم العزيز) ، ذو دين وشرف
 وعصمة ، ولماذا ؟.. لأنه يوسف وكفى ! ولكن ليس كل الفتيان يوسف ، فاذاً .
 يجب علينا المحافظة على صواحبنا وبناتنا كل حين ، والله خير حافظاً ، وهو
 أرحم الراحمين .

تسمية العبد فتي

ثانياً — إن هذا الأدب الذي كان يمشي عليه المصريون الأقدمون في تسمية العبد
 « فتي » ، هو نعيم الأدب ، ففي الحديث الشريف : « لا يقل أحدكم عبدي وأمتي ،
 وليقل : فتاي وفتاتي » ، والفتى من الناس : الشاب ، ويستعار للمملوك أو التابع أو
 الخادم أو المستخدم للحكومة « قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ ﴾ (٦١: ١٨)
 لأن يوشع بن نون كان تابعا لموسى عليها السلام ، وقال تعالى : ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ
 السِّجْنَ فَتَيَانِ ﴾ (آ ٣٦) لأن رئيس السقاة المسمى « نَبُو » ورئيس الخبازين
 المدعو « مَجَلَّتْ » ، كانا مستخدمين في حكومة المكسوس ، وقال تعالى :
 ﴿ وَقَالَ لِفَتَيَانِهِ ﴾ (آ ٦٢) لأن هؤلاء أيضاً كانوا مستخدمين عند
 يوسف أيام عمالته بمصر .

تسمية حاكم مصر عزيزاً

ثالثاً — إن تسمية حاكم مصر الذي يكون تحت أمر وسلطة فرعون « عزيزاً » ،
 هو اصطلاح للمصريين ، ونظيره تسمية حاكم مصر سابقاً « خديوي » ما دام تحت
 نفوذ وإمرة السلطان العثماني بالآستانة ، بل إننا أدركنا العصر الذي كان يسمى

فيه الخديوي بكلمة « عزيز مصر » ، وأما ملك مصر الأكبر ، ملك القبط قديماً فكان اسمه الرسمي « فرعون » كما أن اسم ملك الفرس كسرى ، والروم قيصر ، والترك خاقان ، واليمن تبّع ، والحبشة نجاشي ، وفلسطين أبي مالك ، فهذه كلها ألقاب حكومية رسمية ، يلقب بها الملك من جانب الرعية يوم تتويجه ، وهي غير الأعلام الشخصية التي يسمي بها هؤلاء الملوك من جانب آبائهم يوم سابغ ولادتهم ، وكما أن الرعية تعطي الملك لقباً خاصاً يوم إجلالته على العرش ، فكذلك هو يعطي رجال دولته ألقاباً رسمية مثل: عزيز ، خديوي ، وزير بلاط ، رئيس تشريفات ، صدر أعظم ، الخ .. الخ ..

(قد شففها حباً)

— ١ —

وقالت السيدة سكيمة العدنية (١) :

شفف الحب

يقول سيدات «صوعن» : إن امرأة العزيز تراود عبدها العبراني لأنه « شففها حباً » بحيث لو بحث بين جوارحها ، وفشت قلبها ، لما رأت فيه غير يوسف ، وغير جماله وحبه ودلاله « شففها حباً » حتى قهرها سلطان الهوى وأحاط حبه بقلبها كاحاطة الشفاف بالفؤاد .

وإننا لنعجب ، وتأخذنا الدهشة ، كيف أنه « شففها حباً » مع أن العادة الغالبة ، أن الشباب هم الذين يشغفون بحب النساء ، وإن عشق الكواعب للشباب ، أندر من الكبريت الأحمر ؛

ما هذا العشق الذي تمكن من قلبها ، واستبد بفؤادها ، واستقل بميولها

(١) نسبة الى عدن عاصمة مقاطعة عدن جنوب المملكة اليمنية .

وعواطفها ، اللهم لا شك انه عشق خال عن جادة الصواب ، وإلا فكيف يسوغ
لأميرة مصرية ، قرينة أمير مصر الوحيد ، وأول رجل بعد الملك ، أن تتنازل
لعبد من عبيدها !!!

وليسمح لي السادة والسيدات والآنسات أن أنهي خطابي هذا بالتعليقتين التاليتين:

امثلة من غرام النساء بالرجال

التعليقة الأولى — إن كتب التاريخ تذكر لنا عدة أمثلة من غرام « الجنس
اللطيف » ، « بالجنس الخشن » منها :

١ — حب الأنسة « قارعة » بنت ثابت ، « لعبد الرحمن » بن الحارث المخزومي
عني قالت فيه :

يا خلي لي نابني سهدي	لم تم عيني ولم تكدر
فترابي ما أسيغ وما	أشتكي ما بي إلى أحد
كيف تلحوني على بفع	آنس تلثذه كبدي ؟
مثل ضوء البدر طلعتـه	ليس بالزئملـة النكـد
نظرت عيني فلا نظرت	بعده عيني إلى أحد

٢ — حب « عليّة بنت المهدي » لفلانها « طلّ » ، وقد حرم عليها أخوها
« هارون الرشيد » أن تتشبه به ، فكان من نتيجة ذلك ، أن تشبهت بجارتها
زينب ، وجعلتها كناية عن « طل » .

٣ — أحببت امرأة من الأوس شاباً من الخزرج ، كان تقياً باراً بأبيه ، قد
كفاه جميع ما يعنيه ، فأرسلت إليه تشكواه حبها ، وتسأله الزيارة ، وتريده على
نفسها ، وكانت ذات بعل ، فأرسل إليها :

إن الحرام مبيّل لست أسلكه ولا أمر به ما عشت في الناس
ألغى العتاب فإني غير متبّع ما تشتهين وكوني منه في يأس.
فكتبت إليه :

دع عنك هذا الذي أصبحت تذكره

وصيرني إلى حاجتي يا أيها القاسي.

دع التنسك إني غير ناسكة وليس يدخل ما قد قلت في رأسي
فأمسك عنها وأهملها ، فأرسلت إليه : « إما أن تزورني وأما أن أزورك » .
فأرسل إليها : « إربعي أيتها المرأة على نفسك ، ودعي عنك هذا الأمر ، واكتفي
بعرسك » (مصارع العشاق ج ١٤) .

٤ — قيل إنه كانت جارية اسمها « سَلَامَة » اشتراها « يزيد بن عبد الملك » ،
بثلاث مئة دينار ، وكان يوجد في زمنها فتى صالح تقي ، اسمه « عبد الرحمن » بن
أبي عمار من عباد أهل مكة ، ولقب « بِالْقَسِر » لكثرة عبادته ، وكان شاباً
جميلاً ، رآته تلك الجارية فأحبهته ، وشغفت به ، كما هو بها ، وصار بينهما تخالل
وتواد ، فقالت له يوماً على خلوة : « أنا والله أحبك » — قال : « وأنا كذلك » .
قالت : « أحب أن أقبلك » — قال : « وأنا كذلك » — قالت : « أحب أن
أصادرك وأخاصرك » — قال : « وأنا كذلك » — قالت : « فيها يمنعك » — قال .
قوله تعالى : ﴿ الْآخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾
(٤٣ : ٦٧) ، وأنا أكره أن تؤول خلقتنا إلى عداوة ، ولذلك اشتهرت
هذه الجارية باسم « سَلَامَة القِس » (أخبار النساء لابن قيم الجوزية) .

٥ — روي أن جارية من الجواري القِيَان : كانت على غاية المشق لشاب من
أهل الأدب والظرف ، اسمه « العلاء التغلي » ، فكانت تتودد إليه ، ولا ترى منه
سوى الجفاء والاباء ، ولم يزالا على ذلك ، حتى مرضت الجارية من حبها له فماتت .
(مصارع العشاق ج ٨) .

العشق بين الرجل والمرأة وبالعكس

التعليقة الثانية — العشق بين الرجل والمرأة وضع سماوي ، فتارة يكون من الطرفين ، وطوراً يكون من أحدهما ، والغالب على الهندوس الوثنيين أن العشق يكون من جانب المرأة للرجل ، وسببه أن المرأة في دينهم ، لا تتزوج إلا زوجاً واحداً فقط فحظ عيشتها منوط بحياة الزوج ، حتى انه إذا مات تحرق نفسها معه ، وتنام الحظ يكون بجمال الزوج وصحته ونشاطه ، وهذا بخلاف العرب والهنود الموحدين ، فالأكثر أن العشق يكون فيهم من طرف الرجل للمرأة (حسن صديق) .

(إنا انراها في ضلال مبین)

— ١ —

قالت السيدة سعيدة الكويتية :

تلو ثم السبرات الخمس على امرأة العزيز صبرها ليوسف

لم يكثف النسوة الخمس ، بترداد حديث السوء ، حديث المراودة ، بل حكى على « زليخا » بأن حبها هذا للعبد العبراني ، هو حب أحق ، حب ضال عن محبة الصواب ، وها هن يقلن انه إذا كان لها نفس تحملها على انتهاز اللذات ، ألم يكن لها عقل يعقلها عما فيه سوء السمعة وسوء المغبة ، وإذا كان لها جسد حيواني يطالبها بارتكاب الشهوات ، ألم يكن لها روح شريفة زكية ، تربأ بها عما فيه خسة ودناءة ، وإذا كان فتاها جميلاً ، ألم يكن لها من المنصب والمركز والجاه ما هو أجل وأجل ، فإذا « ويمينا » بأبيس « المقدس » إن فكرتها لفكرة جنونية ، يمينا ، ولسنا بالحاتات في يمينا ، إنما ذات ضمير ميت ، وخلق سيء ، وصاحبة وجدان غير طاهر . مسكينة هذه المرأة ، فقد تنابعت في عمايتها ، ولحست في غلوائها ، وإن مراودة سيدها مثلها ، لعبد من عبدائها ، وشغف قرينة « عزيز مصر » بالإغرام بخادم من

خدامها ، أمران مستهجنان جداً وكل واحد منها منفرداً ، خليق أن يشين بسمعتها ، فكيف وقد اجتماعاً ! إن هذا ليس فعل الحرائر ، ولا أهل المروءة والدين ، فتباً له من عمل ، يورث العار والشنار ، ويخفض الرأس ، ويُفمِضُ الأبصار .

إن هذه المرأة قتلت شرفها ، وقاتل الشرف أخس من قاتل النفس ، لأن قاتل النفس يحول احتقار الجمهور إلى ذاته فقط . أما قاتل الشرف ، فيحول ذلك الاحتقار إلى الأسرة جميعها ، هي كانت سابقاً « قرينة العزيز » ولكنها اليوم (قرينة الذل والصغار) ، لتسقط ولتنزل إلى أسفل سافلين ، ونحن لم يصدر منا هذا الحكم مجازفة أو عن تقليد ، بل عن علم ورأي ، وإننا بحمد الله متزهات مترفات عن أمثال ما هذه المرأة عليه من السقوط والانحطاط ، « وإلى المنتقى إن كبرت » .

هذا مرمى كلامهن ، ومعناه الروحي ، قلن هذا الكلام بلهجة الإنكار والانتقاد والتلوم عليها ، وكن في هذا القول ما كرات أولاً ، ومقتابات ثانياً .
(مرحى مرحى)

تذييل : — إن ما قاله هؤلاء المحاضرات الأربع هو الصحيح ، وما عداه لا يستحق النظر مما قاله بعض المفسرين .

اقامة الحجّة على النسوة الخمس

آ (٣١) ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ ...
وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكًا ، وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ
سِكِّينًا ، وَقَالَتْ : « اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ » ، فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ
وَقَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ، وَقُلْنَ : « حَاشَ لِلَّهِ ، مَا هَذَا بَشَرًا ، إِنْ
هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ » . ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الحادية والثلاثون فقامت السيدة فاطمة
اليوغوسلافية ورجت أحد الأعضاء المؤتمرين لقراءة خطبتها فقال :

وأما زليخا (فلما سمعت بمكرهن) واغتيابهن وسوءفالتن ، وقولهن : امرأة
العزير عشقت عبدها الكنعاني ، ففقتها وأجفل منها أيما إجفال - وسمى الاغتياب
مكرًا ، لأنه في خيفة وحال غيبة ، كما يخفي الماكر مكره ، وكثير من الألفاظ
في هذه السورة استعملت في غير معناها الحقيقي وذلك مثل (وشهد شاهد) وقد
مر الكلام عليه ، ومثل (قلن حاش لله) وسيأتي الكلام عنه - ، أقول لما سمعت
زليخا ذلك قالت أنا أعلم أن لكل حادث حديثاً ، وأن هؤلاء النسوة معذورات
لأنهن لم يرين جمال يوسف ، ولذلك (أرسلت اليهن) تدعوهن ضيوفاً عندها لكي
يرينه فيعذرنها ، فلبين الدعوة وآتين ودخلن عندها في البهو (وأعدت لهن متكاً)
أي مجلس طعام - لأنهم كانوا يتكثون عند الطعام والشراب والحديث كمادة
المترفين ، وقيل المتكأ الطعام أو المائدة التي عليها الطعام - (وآت) أمرت بأن

يؤتي الخدم (كل واحدة منهم مسكيناً) ليعالجن بها ما يأكلن من فواكه وغيرها، على حسب العادة الجارية عند المترفين في تلك الأزمنة من الأكل بالسكين ، (و) بعد ما انتظم الجمع وقدمت أنواع الأطعمة اليهن وشرعن يأكلن ، وبيناهن في ذلك قالت: ما الذي بلغني عنكن؟ - قلن هو الذي بلغك - تحاشياً منهن عن الكذب فعند ذلك أرادت أن تقيم عليهن الحجة ليعذرنها ، فرفعت رأسها و (قالت) بلسان الافتخار والابتهاج ، لعبدها العبراني (اخرج عليهن) ، ولا بد انه لم يكن في البدء عندهن ، بل كان جالساً في مكتبه أو نحوه من الغرف ، وربما انه لم يكن شاعراً بشيء من هذه الترتيبات ولا سبق له بها علم ، لأن الحادثة ليست إلا حادثة ضيافة يقصدها التوصل لرؤيتهن يوسف وجماله فيعذرنها ، هذا كل ما كانت ، لا أقل ولا أكثر ، وأما يوسف فلم يسهه إلا امتثال أمرها والنزول على إرادتها ، لأنه عبدها ورهين إشارتها ، فخرج ومثل بين أيدي هؤلاء السيدات الجالسات حول المتكأ ، (فلما رأيته أكبرنه) أعظمته وهبن ذلك الحسن الرائع والجمال الفائق (وقطعن أيديهن) أي جرحنها وشطبنها - كما تقول : « كنت أقطع اللحم فقطعت يدي ، تريد جرحتها ، وقد يطلق تقطيع الأيدي على فصلها وإزالتها جملة » ، كما في قوله تعالى : ﴿ السارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ﴾ (٥ : ٤١) فلفظ التقطيع أو القطع مرن يمكن تضييقه وتوسيعه ، إنما قطعن أيديهن وانشغلن به عن الطعام ، لأنهن في ذلك الوقت لم يكن منهن منهن منهن وأحشائهن ، بل بحواسهن وأذواقهن ، فكاننهم النظر والذوق منهن ، أشد من نهم المعدة والأحشاء - (وقلن) بلسان الاندهاش والتنزيه (حاش لله) وهي كلمة تفيد معنى التنزيه والبراءة ، فمعنى حاش لله : براءة لله وتنزيه له ، وكأن هذه الكلمة من جملة الكلمات التي عرف معناها المراد من غير أن يدل عليه اللفظ ، لأن المقصود هنا التعجب من جهال يوسف لا غير (ما هذا بشراً) نفقین عنه البشرية لغرابة جماله ، ومباعدة حسنه لما عليه محاسن

الصور (إن) أي ما (هذا إلا ملك كريم) نزل من السماء «سفيراً»، ليمثل الملكة الملائكية السماوية، في المملكة البشرية الأرضية، فابتعث له الملكة وابتعث بها الحكم، لأن الله ركز في الطباع أن لا أحسن من الملك، كما ركز فيها أن لا أقبح من الشيطان، وركز أن لا أجمع للخير من الملائكة، كما ركز فيها أن لا أدخل في الشر من الشياطين، قامت عليهن الحجة لأمراة العزيز.

(فلما سمعت بمكرهن ...)

— ١ —

وقالت السيدة وفائيه الدمهورية (١) :

بلوغ امرأة العزيز اغتيال النسوة لها

وصل النبأ الى امرأة العزيز بأن نساء رجال الدولة من الوزراء والعظماء قد بلغن حادثها مع يوسف وانهن أخذن في لومها واغتيالها، شامتات، منافسات، حاسدات، نعم «سمعت بمكرهن» بواسطة جواربها أو ماشطاتها أو قهرماناتها أو غيرهن، وربما كان الذي نقل عنها الخبر الى النسوة هو الذي نقل خبر لوم النسوة ومكرهن واغتيالهن اليها...، «سمعت بمكرهن» الذي منه قولهن: «قد شغفها حباً» وانهن أرففن وخضن، فثارت حفيظتها وبدأت تمتعض ويحيش صدرها من الغيظ، ويفلي دماها من الحق، ورأت أن معاملتهن لها كعامله «الجبان المبرقع»، لغريمه، فافتكرت أن تحول دفتن عن جهة لومهن إياها، إلى جهة معذرتن لها؛ «سمعت بمكرهن» وتألمن عليها. وعرفت أنهن يسخرن بها في أعماق نفوسهن، ونيلن بلسانهن من شرفها، «سمعت بمكرهن» وسقط اليها أن السيدات المصريات تآزرن وتكاتفن على تنقيضها، وتضافرن على تضليلها، وأصبحن

حرباً وألباً واحداً عليها ، فقالت في نفسها : إن هؤلاء السيدات الغافلات ليس لهن سلاح ، إلا القيل والقال ، ثم حسبت لذلك ألف حساب ، وافتكرت فرأت أن تظلمهن على يوسف ليعذرنها ، أو لكي توقعهن في الشرك الذي وقعت هي فيه ، فيشاركنها في عواطفها وبلاياها ، حتى يصدق عليهن جميعاً المثل القائل : « افتضحوا فأصطلحوا » وتكون بذلك قد طوقت مكرهن ، وأجهزت عليه وهو في مهده .

وجه تسمية الغيبة مكرراً

ملحوظة - سميت الغيبة مكرراً ، باعتبار أساسها ومنشأها ، لأن الغيبة التي هي من هذا القبيل المذكور هنا ، إنما تنشأ عن اختلاس أسرار الناس ، واستطلاع ما يدور في البيوت من الحوادث بواسطة البحث والتنقيب مع الجواري والعجائز ونحوهن ، وهذا مكر بمن يبحث عنهم ، وينقب عن أحوالهم وخفاياهم ، ولا ريب أن هذا أمر منكر ، لما فيه من عدم احترام تلك الأسرار ، وعدم الاغضاء عن استطلاعها وتجسسها ، عملاً بالآداب العامة ، ووجه ثان في تسمية هذه الغيبة مكرراً : وهو أنهم كن يتمنين يوسف ويشتهينه لأنفسهن ، لأن المرأة كالسياسي سواء بسواء ، تقول بلسانها ما ليس في قلبها ، والله أعلم بما تكنه ، ولذلك لم يُسمه غيبة بل مكرراً ، فمن بقولهن : « تراود فتاها عن نفسه » يتمنين أن تكون الأسباب قد سهلت لهن مثل هذه المراودة ، وبقولهن « قد شغفها حباً » يشتهين أن يكون هذا الشغف لقلوبهن ، ولما قلن : « إنا انراها في ضلال مبين » أردن أنها في هداية ظاهرة حيث اهتدت لمحبة هذا الشاب الوحيد في صباحته ، عديم النظير في ملاحظته ، فلاحظتهن على امرأة العزيز ، ملاحظة غبطة وغيره ، ملاحظة لا يقصد منها معنى آخر ، يعرفه وتعرفه امرأة العزيز ، ويعلمه الله الخبير ، الذي سمي هذه الغيبة « مكرراً » .

ووجه ثالث : كن قلن ما قلن تحت تأثير عاطفة « المكر » بدليل إنهن لهنه وهن غائبات عنها ، ولم ينصحنها وجهاً لوجه ، وإلاّ فن لو أردن النصيح لاجتمعن

بها وقد من لها ما يعود عليها بالغناء ، فسماء « مكرراً » ، لأنه من قبيل التحكك
بشخصية تلك المرأة وتنقصها ، وليس من قبيل العظة والنصيحة التي تكون بالمواجهة .

ووجه رابع : سميت هذه الغيبة « مكرراً » ، لأنها طعن لم يرتكز على مستندات
قوية ، لأن هذا الذي وقع منهن ، وإن استند على إخبار الوصائف أو القهرمانات
أو العجائز ، إلا أنه غير جائز ، إذ يجب أولاً التثبت والتبين ، لأنه يغلب على هؤلاء
الخبرات الفسق والفساد والكذب ، وقد قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ،
إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا .. أَنْ تَصِيبُوا قَوْمًا بَظَاهِلٍ ، فَتُصِيبُوا
عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ (٤٩ : ٦) ويجب على العاقل أن يظن باخوانه وأخواته
ظناً حسناً ، كما قال تعالى : ﴿ لَوْلَا — إِذْ سَمِعْتُمُوهُ — ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ
وَالْمُؤْمِنَاتُ بَأْنَفُسِهِمْ خَيْرًا ؟ وَقَالُوا : هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ ﴾ (٢٤ : ١٢) ،
لأنه ليس من دليل بصدقه ، والأصل في الرجال والنساء العدالة ، والسلامة من
الطمعون ، وحيث لم يقم عند هؤلاء النسوة — على تلويث تلك المرأة — دليل مقنع ،
كان الواجب عليهن حسن الظن بها ، ورد ذلك الاخبار السييء ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا ، اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ ، إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ (٤٩ :
١٢) ، ويقول النبي (ﷺ) : « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث » ،
والانسان ينهي عن تلقي مثل هذا ، كما قال تعالى : ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِالِاسْتِنْتِكُمْ
وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ ، وَتَحْسَبُونَهُ هَيئًا ، وَهُوَ
عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ، وَلَوْلَا — إِذْ سَمِعْتُمُوهُ — قُلْتُمْ : مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ
بِهَذَا ، سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢٤ : ١٥ و ١٦) وقال تعالى :
﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ (١٧ : ٣٦) .

وكان يجب على هؤلاء النسوة المصريات ، أن يسكنن حين سمعن هذا الخبر السيئ ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ، فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ (٢٤ : ١٩) ، وهو ذم لمن يتكلم بالفاحشة ، أو يخبر بها حسداً أو بغضاً ، وكان الذي هون على هؤلاء النسوة القبطيات أن يصدقن خبر هؤلاء المخبرات ، ان امرأة العزيز كانت من المشركات ، وأن مراودة أهل التوثن الناس عن أنفسهم ، أمر معهود وقريب جداً ، بل قد عهد مراراً من أهل الشرك الوقوع في الفاحشة ، وذلك لأن الزنا والشرك أخوان ، قلما يوجد شرك إلا ومعه زناً ، وقلما يوجد زناً إلا ومعه شرك ، كما يعلم ذلك من الاطلاع على توارىخ الأمم المتعينة .

هذا ما ظهر لنا في تعليل تسمية هذه الغيبة « مكرراً » ، فان صادف قبولاً عند أولي النظر ، فذاك من فضل الله علينا بصحة تعليلنا ، وعليهم لحسن ظنهم ، وسلامة طويتهم ، وأما الرجعيون فعليهم أن يرجعوا الى ما قاله غيرنا في هذا المقام .

(أرسلت اليهن ..)

— ١ —

وقالت الآنسة رؤوفة الحمصية :

دعوة امرأة العزيز للنسوة

تضافرت الأخبار في قصور الأميرات المصريات ، عن هذه الحادثة الأليمة ، وانتشرت فيهن ، رغماً عن كل الاحتياطات والتحفظات وبالتالي طفقن يتتقدنها . ويسلقنها بألسنة حداد ، فزجى الخبر باشاعة ذلك عند هؤلاء النسوة الى زليخا ،

فظنت انها تقدر أن تدرأ انتقادهن بما ستتخذنه من التدابير الصامته ، التي يرجى أن تكون ناجحة ، في سبيل تسكين غيبتن ومكرهن ، وتدير نفسها عندهن ، في حبها إياه ، بما سيرين من جماله الفائق ، ومنظره الجاذب ، فلذلك « أرسلت اليهن » ، وللمفسرين ههنا كلام غير هذا الكلام ...

« أرسلت اليهن » برسم الدعوة لقصرها ، على سبيل الضيافة ، مع الإعزاز والاكرام ، لتحتج عليهن بما سي شاهدن من جمال يوسف وكأله ، احتجاجاً صامتاً ، ولتقلّم ظفر انتقادهن ، وتشذب من لومهن ، وقد هيأت لهن مظاهر الزينة والنعم ، وبجالي السرور والتكريم ، وأما هن فصدعن بجرامها ، ولبيّنين وحضّرن ، عملاً بسنة « مَنْ دُعِيَ فليجب » أو امتثالاً لأمرها ، لما لها عليهن من الدالة ، بكونها امرأة العزيز .

ولنا ههنا كلمة — وهي بدلاً من هذه الدعوة النسائية ، كان يجب على امرأة العزيز حينما سمعت بوصول النبأ لقصور الأميرات أن تتدارك حصره قبل شيوعه ، وتلافي طيه قبل نشره ، بطريقة غير طريقة هذه الدعوة النسائية ، طريقة تكفل كتمانها عن غير هؤلاء السيدات ، وتضمن إخفاءه عما عداهن من قبيل حصر النار قبل انتشارها في سائر البيوت ، لأن دعوة هؤلاء النساء توسع دائرة الفتنة ، ولكن أبي الحب إلا أن يترك في نفس الحب نوعاً من الجنون ، وأبي الشموخ الذي في أنف امرأة العزيز ، وأبت الفطرسه التي في رأسها ، إلا أن تعمل عملاً من شأنه توسيع الخرق على الراقع ، ومن طبيعته أن يزيد الطين بلة ، فرأت بحسب اجتماعها أن تعتذر لهن اعتذاراً صامتاً ، وبعبارة أصح أن تحتج عليهن احتجاجاً أخرس .

وقد كان الأحرى بها اختصار هذه الحوادث ، ويكفي ما وقع سابقاً من الممارك ، بينها وبين يوسف ، ثم المحاكمة بمعرفته سيدها والشاهد من أهلها ، فهي بتلك الدعوة

النسائية ، مع ما نجم عنها من تقطيع الأيدي والفراغ ، وبما صدر عنها من الاعتراف أمام السيدات ، ثم توعدها ليوسف توعداً مشتملاً على القحّة وقلة الحياء وعدم المروءة ، قد زادت الفتنة اشتعالاً ، وبذلك انتقلت الحالة من ردىء الى أردأ ، ومن سيء الى أسوأ ، فيا للفضيحة .. ويا للعار .. ويا للجهالة .. ويا للحب يُعَمِّي ويصم ...

(وأعدت لمن متكأ ...)

— ١ —

وقالت السيدة زهراء النجفية :

المطعم الصائد — المتكأ

لما أرسلت زليخا تدعو النسوة الى قصرها أعدت وهيات لمن متكأ يكفل أنواع الأطعمة اللذيذة ، من لحوم أرضية وسماوية ومائية ، ومن فواكه وأثمار مختلفة الألوان والأجناس ، وأمرت بفرش الطنّافس ، وترتيب المجالس ، واستحضرت مياه النيل المروّقة المزوجة بماء الزهر ، والمطوية بالبخور ، وقد أمرت بنصب ذلك في روضه من رياض القصر يجري من تحتها النيل ، قد غرست بالوان من الأشجار الياضعة الثمار . واكتست أرضها بسندس النبات ، ومختلف الورود والرياحين ، فطاب هواؤها ، ورق مأواها ، وتطارت عصافيرها ، وانطلق نسيمها ، فاختلط حفيف الأشجار بتغريد الطيّر ..

هناك أشارت بترتيب المائدة ونصبها ، فكانت هذه الروضة كالجنة ، وكان هؤلاء السيدات المصريات فيها كالخور العين ولم ينقص تلك الجنة الا الولدان ، فلذا

أمرت يوسف بالبروز لهن (كما سيذكر) ليتم بهاء ذلك المنظر الجميل ، وتكمل
الذات من جميع الوجوه .

وهنا نذكر الملحوظات التالية :

معنى أعتدت

الملحوظة الأولى — يقال عَتَدَ الشيءُ عَتَاداً : حضر ، عَتَدُوْهُ وَعَتَيْدُ ،
ويتعدى بالهمزة والتضعيف ، فيقال : أَعْتَدَهُ صاحبه وَعَتَدَهُ إذا أَعَدَّهُ وهَيَّأَهُ ،
ويقال : أَخَذَ لِلأمر عَتَادَهُ ، أي ما أَعَدَّهُ من السلاح والدواب وآلة الحرب ،
أَعْتَدُوْهُ وَأَعْتَدَةَ ، مثال زمان وأزْمُنْ وأزْمِنَةٌ ، وفي حديث : « إن خالداً جعل
رفيقه وَأَعْتَدَهُ حُباً في سبيل الله » (المصباح) ، وفي البخاري « وَأَعْتَدَتِ » :
أَعَدَّتْ ، « أَعْتَدْنَا » : أَعَدَدْنَا ، أَعْلَنَّا مِنَ العِتَادِ .

معنى المتكأ

الملحوظة الثانية — يطلق المتكأ على نفس الطعام ، وعلى نفس المائدة والخوان ،
وعلى نفس ذلك ومحلته ، وعلى النمارق والوسائد ، كل ذلك جائز ، وصحيح في اللغة
والاصطلاح ، وفي البخاري « المتكأ : ما اتكأت عليه لشراب أو حديث أو طعام » ،
ولكن التعبير بالاعداد والتهيئة والتحضير ، قرينة واضحة على أن المراد هنا نفس الطعام
الذي يؤكل ، لأن هذا الذي يحتاج عادة للاعداد والتهيئة ، بحيث يجلب حيناً فحياً ،
وشيثاً فشيثاً ، وأما نفس الخوان أو المكان أو النمارق ، فتباعد إرادته هنا ، لأنه
موجود ، متوفر في بيوت الأمراء والمترين على الدوام .

ومع ذلك فقد فسر بعضهم « المتكأ » هنا بالجلس يجلسنَ عليه أو الكراسي
يقعدن عليها متكآت على ظهورها ، فكلمة « متكأ » هي مثل كلمة « نُزُل » ، فإن

النزل يطلق على ما يعد للضيف من الطعام وعلى المحل الذي فيه الطعام ، ويقال للمتكأ بمعنى الطعام : « سُؤْر » بلغة الفرس ، وفي الحديث : « يا أهل الخندق ، إن جابراً صنع لكم سُؤْراً ، خفيّ هلاً بكم » رواه البخاري في صحيحه ، وقد فسرهُ شراح البخاري بالضيافة أو الطعام ، ويسمى عند العرب « مأدبة » وهو طعام الدعوة .

وقال بعض العلماء : الاتكاء الجلوس مع التمكن والقعود مع تمايل معتمداً على أحد الجانبين ، وتوكأ على عصاه ، اعتمد عليها ، وقال تعالى : « وسُرُراً عليها يَتَّكِئُونَ » ، يجلسون ، والعامة لا تعرف الاتكاء إلا الميل في القعود معتمداً على أحد الشقين ، ويقال اتكأ : أسند ظهره أو جنبه إلى شيء معتمداً عليه ، وكل من اعتمد على شيء ، فقد اتكأ عليه ، ويقال : اتكأته : أعطيته ما يتكىء عليه ، أي ما يجلس عليه ، وضربته حتى أتكأته ، أي سقط على جانبه ، والاسم التُّكَاة مثل رُطْبَة . وإعداد « المتكأ » للطعام هو عادة للمتربين ضد إعداد « الحصيرة » للطعام الذي هو عادة للفقراء ؛

ويطلق « المتكأ » على مائدة مؤلفة من ثلاث قطع ، على طرفي الواحدة منها الاثنان الآخران ، على وضع قائم معها ، فتشبه الثلاث مربعا زعت إحدى أضلاعه ، فيكون بذلك فيها مدخل لموزعي الطعام ، وكانوا يضعون حول الجوانب الخارجة للمائدة أسرة ، تتكىء عليها الأكلة ، ورؤوسهم مسندة على أكفهم اليسرى ، متجهة الى المائدة ، وأرجلهم منفرجة الى الراء .

هذه هي صورة « المتكأ » عند المصريين واليهود قديماً ، وكان « متكأ » صاحب الوليمة في الصدر ، مقابل مدخل المائدة ، ومحل الشرف عن يمينه ، وهو المقعد الأول ، لأعظم الضيوف وأوجههم « فالتكأ » إذا آلة خشبية للأكل ، بديعة عالية يستعملها الأغنياء والأمراء في الولائم ، في عشايتهم أو غذائهم .

هذا وقد قرأ بعضهم « مُتَكَيّاً » بضم الميم وسكون التاء ، وتنوين آخره بلا همز ، وذكر « المفضل » أنه المائدة أو الحجر ، في لغة « كندة » ، وكانت بعض أصحابنا تعجبه هذه القراءة مع تفسير « المَتَكَيِّك » بالحجر ، ويقول : « إنه يسهل حينئذ على من يكون أجنبياً عن الدين هضم القول : بتقطيع الأيدي — فقلت له : « أليس القصد وجود السكر ، حتى يهضم الأجنبي حادثة تقطيع الأيدي ؟ » — قال : نعم — قلت له : فالجمال نوع من السكر ، فقد ذكروا أن للسكر سبعة أنواع : سكر الشراب ، وسكر الشباب ، وسكر المال ، وسكر الجمال ، وسكر المنصب ، وسكر القوة البدنية ، وأخيراً سكر الموت ، فالسكر على كل حال حاصل ، فالرجوع للقراءة المشهورة أولى ، لأنها وقد حدثت حوادث كثيرة للعشاق ، تشبه هذه الحادثة (١) .

(وأنت كل واحدة منهن سكّيناً)

— ١ —

وقالت السيدة تماضر الحضرموتية (٢) :

سكّين الطعام

بعد أن استقر المقام ببقيلات الأمراء والوزراء في قصر امرأة العزيز أمرت جواريتها بأعداد الطعام وأعطت هي بيديها كل واحدة من هؤلاء المدعوات سكّيناً لتأكل بها ، مبالغة في الاحترام ، ويحتمل أنها أمرت الجواري بذلك ، على جاري العادة ، فقد كان من عادة المصريين أن يأكلوا اللحم والفواكه بالسكّين (الخازن)

(١) راجع مصارع العشاق ج ٢ و ٨ و ١٠ و ١٢ و ١٤ و ١٨ .

(٢) نسبة إلى حضرموت عاصمة إحدى مقاطعات الجزيرة العربية الجنوبية .

وكذا كان من عادة العرب أكل اللحم بها ، كما كان يفعل النبي (ﷺ) (١) ، بل وبالشوكة ، أعني شوكة النخل ، التي يقال لها مسلة النخل (٢) ، تكون طول شبر تقطع وتشذب وتفرز في اللحم ، أمام كل واحد سكين مربوطة بسلسلة في الجفنه وشوكة من سلاتي النخل ، إذ لم يكونوا يستعملون الصابون ولا غيره ، مما يزيل الدهن .

وأهل اليوم يأكلون بالسكين والشوكة والملقعة ، المصنوعة من المعدن .
وامرأة العزيز لم تأمر باعطاء كل سيدة سكيناً ، توصلاً لما لعله يقع ، وذريعة لما ربما يصير ، من قطع السكين ليد حاملتها ، لا .. لا .. لأنها لم تكن تتوقع منهن ذلك ، ولم يقم عندها احتمال قط أنه ستزل بهن تلك الفاجعة . ولكن هي أمرت الخادومات وأشارت على مرتبات المتكأ أي المائدة ، بأعداد السكاكين ، جرباً على القاعدة عند الكبراء ، ومشياً مع العادة في بيوت الأمراء ، من وضع السكاكين على « الخوان » ، لأجل تقطيع ما عليه من خبز ولحم وفاكهة ، فتقطيعهن لأيديهن كان حصل بالعرض وعن طريق الصدفة ، لا أكثر ولا أقل .

ويقال للسكين مدية ، حتى ان بعض العرب لا يعرف إلا الاسم الثاني ، وقد روى أن أبا هريرة ، لما قدم من دؤس عالم خير ، لقي النبي (ﷺ) وقد وقعت من يده السكين ، فقال له : « ناولني السكين » ، فالتفت أبو هريرة يمنة ويسرة ، ولم يفهم ما المراد باللفظ ، فكرر له القول ثانية وثالثة ، ثم قال : « آلمدية تريد ؟ » وأشار إليها ، « فقبل له نعم » — فقال « أو تسمى عندكم السكين ؟ » — ثم قال : « والله لم أكن سمعتها إلا يومئذ » .

(وقالت اخرج عليهن)

—١—

قالت السيدة إنيصاف الدمشقية : —

اجتماع الحب والحبيب والعواذل

إن طعن أولئك السيدات في شرف امرأة العزيز وعقلها ، ترك أثراً سيئاً في نفسها ، فأرادت أن تمحو انتقادهن باحتجاج صامت أخرس ، فقدمتن للعائدة ، فصرعن يأكلن ، وأنشأن يتساقطن الأحاديث والأخبار ، في سرور وضحك ، وفيها هن في ذلك قالت لهن : « ما الذي بلغني عنكن ؟ — قلن : هو الذي بلغك » ، تمحاشياً منهن عن الكذب ، فعند ذلك أرادت أن يرين ما كن سمعن من جمال يوسف وصباحته ، لأن الرؤية فوق السماع ، « وما راى كمن سمعا » ، أعني أرادت أن تقيم عليهن الحجة الصامته ليعذرنها ، فوجهت وجهها شطر المكتب الذي هو فيه وقالت منادية : أنت ، يوسف ، اخرج ، اخرج من مكتبك على ضيوفنا هؤلاء السيدات العواذل ، اخرج عليهن لأدلي لهن بأن رأبي في هواك هو عين الصواب ، واتي لم أكن في ضلال مبين كما قلن ، اخرج عليهن وعلى إحساسهن السلام ، وعلى عقولهن رحمة الله ؛

فلما سمع يوسف هذا الطلب من سيدته ، تمرمر في داخله ، وكرب وضاقت ذراعاً ، وأوجس خيفة مما قد يتلوه من اقتراحات ، لا يمكنه تنفيذها أو من أعمال لا يروق له أن يراها ، أو من سفور . وإبداء زينة وتبرج جاهلي ، لا يمكنه أن يصبر على رؤيته ، بدون أن يتكدر ويتنقص ، وأخيراً لما سمع إلحاحها ، لم يجد بداً

من الامتثال لأمرها ، لأنه لم يكن وهو في بيت العزيز ذا جاه وشوكة ، بحيث يسوغ لنفسه عصيان سيده ، والاستبداد عليها فيما تأمر ، ولذلك زاه نزل على إرادتها ، وترك دفاتره ومحابره وخرج من مكتبه على السيدات وهو خائر النفس ، وقلبه يخفق ، لما يتوقع من مغازلة له منهن ، ومداعبة تصدر عنهن ؟

برز لهن كبد التام ، وباله من موقف غرام ، ووله وهيام ، موقف دهشة وحيرة وارتباك ، موقف ذهول ، وسكر عقول ، وغيبة عن الإحساس !!! لاسيما وانه لما رأى نفسه وسطهن ، اعترته حمرة الخجل ، وأسبل جفنيه حياء وعفة ، فزاد بذلك بهاء وجمالا ، وأنف أن يتبع نظره اليهن ، فلم تزد الأنفة إلا حسنا وكالا ورواء .

وأما السيدات فلما سمعن من امرأة العزيز كلمة اخرج عليهن ، أتلعن بأعناقهن ، وشخصن بأبصارهن ، ينتظرن طلوعه عليهن ، التي كن سمعها ، والتي كن خضن فيها ، وهن يتناولن لرؤية محيا يوسف الباهر ، ويستشرفن للقياء ، ويشتقن لمشاهدة طلعتهم ، فلما مثل بين أيديهن ، شرعن ينظرون اليه ، نظر المنجم إلى الكوكب ، الخافق في أفق السماء .

وأما زليخا فانما اختارت خروجه عليهن وهن على المتكأ ، لأن هذه الحال حالة صفاء وسرور ، فأرادت حضور فتاها الجميل ، لتكمل لهن اللذة بمشاهدته ، وبذلك تكون جمعت لهن بين تمتع البطن بالأكل من صنوف الطعام ، وتمتع العين والأذن بنظرهن لذلك الجمال الباهر ، وسماع كلامه الرخيم .

(فلما رأيته أكبرنه ...)

—١—

قالت الأنسة أسماء من كلكتا (١) :

انقلاب العواذل محبين

لما خرج يوسف عليهن (رأيته) كأنه آية الجمال المحركة ، التي لا تقبل تبديلاً ولا تغييراً ، فظهرت على وجوههن الدهشة ، (رأيته) فرأين ما يُبهر النظر ، ويستوقف البصر ، وقرآن في صحيفة محياه « سورة النور » ، (رأيته) فانفتحت له قلوبهن ، وفرحت به أفئدتهم ، واختلط فرحهن بأمارات البغته ، وبهتن كأن على رؤوسهن الطير ، (رأيته) لأول مرة ، فأعقبت تلك النظرة ألف حسرة وحسرة ، وسرعان ما ذهبن وغبن عن أنفسهن ، (رأيته) فبغتن ودهشن ، ودخل عليهن رعب شديد ، ولم تبق جارحة من جوارحن لم يتصورن فيها « صورة أبي مسلم » ولا تسل عن حالهن في تلك الجلسة الرهيبة ، من الاضطراب والذعر الحارّين (رأيته) ودرسن صحيفة وجهه ، وقرآن فيها آيات الصفاء القلبي ، رأين مالا عين منهن رأت ، وسمعن مالا أذن منهن سمعت ، وظهر لهن ما لم يخطر على قلوبهن يوم اعتراضهن على « زليخا » ، (رأيته) فرأين نزهة النفس ، ورييع القلب ، وعددن يومهن هذا « يوم عيد كبير » ، وودن لو أن هذا اليوم يكون « يشوع » ، يطول عن باقي الأيام بارتداد الشمس فيه بعد الغياب ، فلما رأيته (أكبرنه) — وأجللن جماله وأعظمن حسنه ، وكدن أن يقمن اليه ويجذبنه ، ولكنهن رأين في عينيه هبة أوقفتهن عند حدهن ، فاكتفين بالكلام ، (أكبرنه) وصار موضوع

(١) كلكتا إحدى مدن الهند .

إكبارهن وإجلالهن ، ومركز دائرة إطرأتهن وتقريظهن ، وأحلامهن المحل
 الأعظم من نفوسهن وألسنتهن ، (أكبرنه) وغدوت مسبوهات (ذاهبات)
 العقول ، مشردات الأفكار ، مبلبلات النفوس ، وامتلأت به قواهن ومشاعرهن ،
 وصرن به صرعى الهيام ، ومشت الرعدة في أجسامهن ، مشي المدام في أدمغة
 أهل الغرام . (أكبرنه) ما أن رأيته ، فاذا هوفي نواظرهن ، أكبرن مما كان في
 خواطرهن ، أي أنهن وجدن مخبره ، أسنى جداً من خبره ، وأن
 « ليس الخبر كالبيان » . (أكبرنه) لأنهن رأين عليه نور النبوة ، وسبى
 « الرسالة » وشاهدن فيه مهابة ملكية ، وهي عدم الالتفات الى الطعام والنساء ،
 وعدم الاعتداد بكل ذلك ، فتعجبين من تلك الحالة ، فلا جرم إنهن أجللنه (١) .
 وههنا تتمتان :

هرم رؤية النسوة ليوسف قبلاً

التممة الأولى : — يظهر من قوله : « فلما رأيته أكبرنه » مع قولها : « هذا
 الذي لم تنني فيه » أنهن لم تسبق لهن رؤيته ، رغمًا عن أنه كان مضى عليه في (قصر
 العزيز) نحو عشر سنين ، وإن بيت العزيز كان في ذلك العصر كعبة الرائدات ،
 ومنتدى الصديقات النبيلات ، فلذلك نظن أن امرأة العزيز كانت تحرص على إخفاء
 يوسف ، وإبعاده عن هذا « الجنس اللطيف » غيرة منها عليه وأمثال ذلك كثير
 في التاريخ ...

امترام النسوة للاقصى ليوسف

التممة الثانية — إن الذي صدر من هؤلاء النسوة حينما رأين يوسف هو

بجموعة مركبة من ثلاثة أركان : ركن قلبي ، وهو اكبارهن له ؛ وركن عملي ، وهو تقطيعهن أيديهن ، وركن لساني ، وهو قولهن : « حاش لله ، ما هذا بشراً ، إن هذا إلا ملك كريم » ؛ فقد ظهر احترامهن ليوسف في مظهره الثلاث ، في الجنان والأركان واللسان ، على حد قول الشاعر :

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجّب
وهذا أقصى أنواع الاحترام ، هذا ما حضرني الآن فما قولكم فيه ؟
(مرحى وأحسن)

(وقطعن أيديهن)

— ١ —

وقالت الآنسة وصفية الديربند :

جرح النسوة المدعوات أيديهن

بينما النسوة المدعوات يأكلن ، وقد مسكت كل واحدة منهن سكيناً في يدها اليمنى وأهوت بها لتقطع الطعام ، من لحم أو فاكهة ، وهو مُمسك بيدها اليسرى إذ دخل عليهن يوسف ، تلبية لأمر امرأة العزيز ، فلما رأينه تأثرن بجماله تأثراً زائداً ودهشن اندهاشاً عظيماً ، وذهلن به عن شعورهن ، وأصبحن كأن قوى الاحساس المتنوعة المتفرقة على أعضائهن ، قد توحدت واجتمعت كلها وانحصرت في عيونهن ، فلم يعد في أيديهن حس ولا إدراك ، أو كأن في اندهاشهن بجمالة قوة التخدير الموضعي لأيديهن ، فبدلاً من أن يقطعن الطعام أو الفاكهة بالسكين قطعن أيديهن ، بأن جرحنها وحززنها من حيث لا يشعرون بألم ، ولا يعلمن أنهن يصنعن شيئاً ، لفرط ما قد تولاهن من الدهشة والذهول ، حتى يكاد الناظر اليهن في تلك الساعة

يمتقد أن هناك منزلة وسطى بين الحياة والموت ، تنبعث فيها الحواس في سبيلها ، ولكنها لا تعود الى الدماغ بشيء مما تحس به ؛

أو يحتمل أن يكون المنى أنهن قاربن ذلك ، كيف لا وقد ورد قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا طَلَقْتِ النِّسَاءَ فَلْيَسَّغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ (٢ : ٢٣١) (ومثله في ٦٥ : ٢) ، أي إذا شارفته ، كما يقال : بلغ البلد إذا شارفته وداناه ؛ ويقال : وصلت ولم يصل وإنما شارف (الكشف) .

وأما امرأة العزيز فلم تدهش ولم تذهل لرؤيته معين ولم تقطع يدها ، لأنها قد تعودت رؤيته من قبل ، وتكرر لقائه ، إذ أنها أول ما رآته كان ابن ١٧ سنة ، أي صغير السن ليس محلاً لمحبة الإناث إياه « فضلاً » عن أنه « فتاها » وعبيدها ، وتحت يدها ، وإن مشاهدته مبذولة لها في كل حين ، بخلاف النسوة فإنهن لم يكن قد تعودن رؤيته من قبل ، وإنهن حينما رأيته لأول مرة كان بالغاً مبلغ الرجال ...

ويمكن أن نقول وجهاً آخر في تفسير ذلك ، وهو أن زليخا قدمت للنسوة مع الطعام « مُتَسَكِّاً » الذي هو « الخمر » في لغة « كندة » على ما فسر « المفضل » رحمه الله ، فلما أكلن وشربن وسكرن ، ضاعت عقولهن ، وضل إحساسهن ، فلم يعدن يميزن بين الطعام وبين أيديهن ، وعند مباغتتهن بخروج يوسف عليهن ، واندها لهن بحاله وقده سكرن سكر الهوى ، فاهوين بالسكين على أيديهن بدل الطعام فجرحنها وشطبنها ، ولما صحون من سكر الخمر وسكر الهوى ، أدركن حالهن ، فرأين الدم يسيل من أيديهن ، فجعلن يمسحنه بمناديلهن ، ثم أتى لهن بمناديل أخرى ، عصبن بها جروحن وضمدنها .

ولنا هنا بضع ملحوظات :

وقع جرح النسوة أيديهن على امرأة العزيز

الملحوظة الأولى — كأني بامرأة العزيز وقد نظرت إلى هذا الحادث الأليم المدهش ، حادث تقطيع النسوة أيديهن ، ووقفت أمامه وقفة التحير ، ولسان حالها يقول : « ما هذا الاتفاق الغريب ؟ ! إنني إنما أمرت بالسكاكين لهؤلاء السيدات لأجل أن يقطعن بها طعامهن الذي على المتكأ (طبعاً) ، لا ليقطعن بها أيديهن ، ولكن حقاً ، إن لي من هذه الصدفة العجيبة حجة بينة على هؤلاء اللوامي ، بها يكون لي عندهن من العذر الواضح » .

هي افكرت أن تدعوهم في قصرها ضيوفاً ، وقت غداء أو وقت عشاء ، فربعة لجمعين ييوسف ، ورؤيتين جماله الفائق ، حتى يعذرنها في إغرامها به ، وسميها في وصاله .

هذا كل ما أرادت ، وهذا جميع ما قصدت لا أقل ولا أكثر ، وقد حصلت على ما أرادت وقصدت ، ولكن ليس العجب حصولها على هذا الذي قصدت إليه ، وسعت فيه ، فانه أمر عادي ، ليس فيه ما يقتضي العجب ، ولكن إن تعجب فعجب كونه حصل شيء (عن عرض) هو فوق مرامها ، وهو تقطيع أيديهن ، لشدة دهشتن وذهو لهن وغيتن عن إحساسهن ، حتى بذلك تسنى لها بكل سهولة الاحتجاج على ثريين عليها احتجاجاً صامتاً أخرس ، ولكنه أنطق من اللسان .

اضمحلال جرح النسوة أيديهن في عدة مواضع

الملحوظة الثانية — من المحتمل أن التشديد في « قَطَّعْنَ » هو ليكون الأيدي متعددة كما قالوه ، ويحتمل عندنا أن معنى التشديد ، هو أن كل واحدة

جرحت يدها جروحاً عدة في مواضع من يدها ، ويشير له ابن جرير بقوله :
« حزن بالسكين في أيديهن حزاً حزاً » .

أمثلة للنسوة اللاتي جرحن أيديهن في التاريخ

الملحوظة الثالثة — ليست حادثة تقطيع النسوة أيديهن بالحادثة الأولى في التاريخ ، بل هناك أمثاله كثيرة ومنها ، الحوادث التالية :

١ — دخلت « عزة » على « كُشَيْر » وهو يبري سهاماً ، فجعل ينظر إليها ، ويبري ساعده ! فدنت منه ومسحت الدم بثوبها (١) .

٢ — روى أن « الحارث بن حِلْزَةَ اليَشْكُورِي » ، أشد معلقته بين يدي « عمرو بن هند » الملك ، وهو متوكي على قوسه ، وقد زعموا أنه حين إنشادها ، اقْتَضَطِمَ (٢) كفه من الغضب ، وهو لا يشعر .

وقال ابن السِّيد في « أدب الكاتب » : كان متوكئاً على عَزَّة (٣) ، فارزت (٤) في جسده ، وهو لا يشعر .

٣ — كان بالكوفة شاب حسن الوجه ، نظرت إليه فتاة ، ذات جمال وعقل ، فشغفت بحسنه ، ولم تأل جهداً في أن تحظى به ، وهو يأبى عليها ، ولم تجد لذلك سبيلاً ، فجعلت تبكي بكاء مرأ ، وتحزن حزناً شديداً ، ولم تزل كذلك ، حتى مرضت ولم تلبث أن بليت بليّة في جسمها ، فكان الطبيب يقطع من لحمها أرتالاً ، ولما كان قد عرف حديثها مع الفتى ، كان إذا أراد أن يقطع من لحمها ، يحدثها

(١) الدر المنثور .

(٢) قطع .

(٣) رمح صغير لاسنان له وفي أسفله زج أي حديدة .

(٤) اقرزت .

بحديث الفتى ، فما كانت تجد لقطع لهما الماء ، ولا كانت تتأوه ، فاذا سكنت عن ذكره تأوهت ، ولم تزل كذلك حتى ماتت كمداً (١) .

٤ — كان شاب يقال له « مسافر » يحب جارية من أهل مكة ، وكان غائباً بالحيرة ، فسأل عنها ، فقبل له : تزوجت ، فشقي ومات في مكانه (٢) .

فاذا كان خبر زوجها أثر على جميع جسمه وروحه ، فأسلم روحه توأ ، فهل من غير الممكن أن تؤثر رؤية يوسف فقدان الاحساس من أيدي هؤلاء السيدات اللاتي شغفن به ، وبوعائ برؤيته ؟ .. كلا ..

٥ — حكى أن فتى علق بجارية من القيان ، فاشتراها بستة آلاف دينار ، فلما حصلت عنده وملكها ، قالت له : « أيها الفتى لم اشتريتني ؟ وما في الأرض أبغض إليّ منك ، وإني أرى نظري اليك عقوبة ، فاسترد مالك ، فلا متعة لك بي ، مع بغضي إليك » ، ورآى منها بغضاً وإعراضاً شديدين ، فبذل لها كل ما يبذله الناس ، فما ازدادت إلا عتواً ، واعتزلت في بيت ، لا تأكل ولا تشرب ، وإغما كانت تبكي وتتضرع ، حتى ضعف صوتها ، وأحس منها بالموت ، وكان كل يوم يحجى إليها ، ويبذل لها الرغائب ، ولا ينفع ذلك ، ولا تزداد إلا بغضاً ، مكثت على ذلك ثلاثة أيام ، فلما كان اليوم الرابع ، ذهب إليها ، فرآى منها شيئاً من الاقبال ، فسألها عما تشتهي ، فاشتتهت عليه « حريرة » ، فحلف لا يعملها أحد سواه ، فأوقد النار ونصب القدر ، وبقي يمرس ما جعل فيها ، والنار تعمل وتتقد ، وقد أقبلت عليه تشكو

(١) مصارع العشاق ج ٢ .

(٢) مصارع العشاق ج ٨ .

ما مرّ بها من الآلام ، في هذه الأيام ، وبينما هو يمس الحريرة يده على النار ، إذا يده قد انسمطت ^(١) بالحريرة ، فصارت مشلولة ^(٢) وهو لا يدري ، ولا يشعر ، لولا أن دأته جاءت فرأت ذلك ، فأخبرته ، فأخرج يده ونظرها ، فإذا هي مشلولة ^(٣) .

٦ — قال ابن حزم في كتابه « طوق الحمامة » : حدثتني امرأة أثق بها ، أنها شاهدت فتى وجارية ، كان يجد كل واحد منها بصاحبه فضلاً وجداً ، قد اجتمعا في مكان على طرب ، وفي يد الفتى سكين يقطع بها بعض الفواكه ، فجراها جراً زائداً ، فقطع إبهامه قطعاً لطيفاً ، ظهر فيه دم ، وكان على الجارية غلالة قصب خزائنية ، لها قieme ، فأخرجت منها فضلة شديداً إبهامه .

حمل التقطيع على التجزير والتشطيب

الملحوظة الرابعة — لقد حمل تقطيع الأيدي على تشطيبها وتجريحها وتحزيرها وهو أمر ظاهر ، وعليه درج ابن جرير وسواه من محققي علماء التفسير ، ومما مرّ بي في بعض كتب التاريخ أن « المبرد » دخل يوماً على « عبيد الله بن طاهر » ، وقد فصد ، فظن أن ذلك لعله ، فدعاه بالشفاء ، فقال عبيد الله : « خفص عليك أبا العباس ، فليس ذلك لعله ، وانظر ما تحت طرف البساط » ، فنظر ، فإذا رقعة فيها :

حلف الظريف بقطعه يده إذ مس من يهواه بالأم

حتى إذا ضاق الفضاء به جعل الفصاد تحلة القسم

فقال المبرد : « حسن أيها الأمير فما سببه ؟ » ، قال : مددت البارحة يدي إلى بعض الجوّاري بالضرب فألمت ما نالها من الألم ، فحلفت بقطع يدي ، فاستفتيت اليوم

(١) ذهب شعرها من شدة الحرارة .

(٢) يابسة . متكئة .

(٣) . مصارع العشاق ج ١٠٤ .

فأُفْتِتُ بالفصد ، ففعلتُ ، قالوا : لأن الله تعالى قال : « قطعن أيديهن » مريداً التشطيب والتجريد .

كتمان حادث تقطيع النسوة أيديهن عن ملك مصر

الملحوظة الخامسة — رب سائل يسأل ، لم لم يظهر لتقطيع هذه الأيدي سيرة في البلاط ، بل طوي هذا الحادث عن ملك مصر ، كأنه لم يحدث ، مع أنه عمل مهم ومغيظ ، ولماذا حصل هذا التكم يا ترى ؟ — فنجيب أن المصريين القبط هم أصحاب البلاد ، وهم الوطنيون الأصليون ، فكانوا يكرهون هؤلاء المهاجرة المستعمرين ، فلأجل كراهتهم لملك مصر « الريان » المستولي على البلاد بالقهر والنصب ، — كانوا يطوون أخبارهم وحوادثهم عنه ما أمكن ، ولا يريدون أن يوقفوه على أحوالهم الداخلية ، لا سيما حادث كهذا يمس بشرف عزيز مصر وامراته وهؤلاء السيدات المدعوات ، وبالجملة يمس بشرف عموم القبط الوطنيين ، فلذلك طويت هذه الحادثة عنه كأن لم تكن ، بل طويت عن سمع التاريخ وبصره بامرة ، حتى أذن الله أن نقص علينا في كتابه الكريم .

جمال يوسف

الملحوظة السادسة — ذكر البغوي بسنده المتصل أن النبي ﷺ قال : « أعطي يوسف شطر الحسن » ، ويقال إنه ورث ذلك الجمال عن جدته « سارة » وكانت قد أعطيت سدس الحسن ، وقال محمد بن إسحاق : « ذهب يوسف وأمه بثلي الحسن » (١) ، وقال عكرمة : « كان فضل يوسف على الناس في الحسن ، كفضل القمر ليلة البدر على سائر النجوم » ، وروى أبو سعيد الخدري (ض) قال قال رسول الله ﷺ : « رأيت ليلة أُسري بي إلى السماء يوسف كالقمر ليلة البدر » ، وورد في سفر التكوين أنه قد « كان يوسف حسن الصورة وحسن المنظر » (تك ٣٩: ٦) .

وتحرير المقام أن يقال :

يوسف هو ابن يعقوب من زوجته راحيل، ويعقوب هو ابن اسحاق من زوجته رفقة، واسحق هو ابن ابراهيم من زوجته ساراي، فابراهيم كان جليلاً وكذا زوجته ساراي فقد جاء في سفر التكوين «أنها حسنة جداً» (تك ١٣: ١٤) فهذان الزوجان ورثا الجمال لولدهما إسحق، وهو تزوج برفقة التي جاء في سفر التكوين أنها «كانت حسنة المنظر» (تك ٢٦: ٧)، وهذان الزوجان أيضاً ورثا الجمال لولدهما يعقوب، وهو تزوج براحيل التي جاء في سفر التكوين أنها «كانت حسنة الصورة وحسنة المنظر» (تك ٢٩: ١٧) ثم هذان الزوجان ورثا الجمال لولدهما يوسف، الذي وردت في جماله النقول الكثيرة، فهو ورث الجمال من أبيه يعقوب وأمه راحيل، وأما يعقوب فكان ورث الجمال من أبيه إسحق وأمه رفقة، وأما اسحق فكان ورث الجمال من أبيه ابراهيم وأمه ساراي، فيصدق على يوسف أنه الجميل بن الجميل بن الجميل، من زوجات أربعة جميلات، فلذلك وردت في حسنه الروايات المتعددة، ونظمت في ذلك الأشعار، وضربت الأمثال، وهذا المقدار من حسن يوسف، كاف لأن يدهش هؤلاء السيدات المصريات، ويأخذ بأفئدتهم، بل ويذهب بإحساسهن، لاسيما وانهن ما خرجن عن كونهن من سلالة حام، وغني عن البيان ان كل أفراد هذه السلالة الحامية سواء أكانوا رجالاً أم نساء، هم (كما ذكر المؤرخون وعلماء الجغرافية) فطس الأنوف، متجعدو الشعر، طوال القفا، ذوو رؤوس مفلطحة، ووجنات بارزات العظام، وأفواه واسعة كبيرة، وشفاه غليظة، وألوان سوداء، لأنهم من «العرق الأسود» أحد عروق البشر الأربعة، وأما يوسف فكان كغيره من العبرانيين من سلالة سام أي من «العرق الأبيض» الذي من مميزاته انه أبيض الجلد ناصعه، دقيق الانف، رقيق الشفة، سبط الشعر ناعمه. فالتقاربي الفهم إذا لاحظ هذا وهذا، ولاحظ ثالثاً ان النساء عموماً، والأفريقيات منهن خصوصاً، رقيقات الشعور، شدييدات الحس، سريعات التأثر بالجمال والمحاسن، — إذا استحضرت ما ذكرنا كله سهل عليه اعتقاد ان هؤلاء النسوة المدنيات قد قطعن أيديهن .

هذا ما فتح به الوهاب ، في هذا الخطاب ، وهو تعالى أعلم ، واتباع الحق أولى وأسلم .
(حسناً حسناً)

(وقلن حاش لله !)

— ١ —

قالت الأنسة ست إخوتها الكوفية (العراق) -

النسوة المدعوات ينزهن يوسف عن البشر

من المعلوم ان النسوة المدعوات كن في ذهول عميق ، أو في سكر متغلب على العقل ، ولكن لما أفقن من ذلك ، ونجون من غلابه ، ورجعن لأنفسهن شرعن يهتفن بحال يوسف ، ويعجبين من محاسنه ، نعم ، كن سكتن سكتة استغراق في محاسنه ، ثم رأين أن يتكلمن كلمة يخرجن بها من هذا الذهول والاستغراق ، فقلن « حاش لله » أي براءة لله ، وتنزيهاً لله ، — أصله حرف جر وضع موضع التنزيه والبراءة ، فهو مفعول مطلق ، كقولك : « سقياً لك » والمعنى تنزيه لله تعالى — أن يكون هذا الشاب من العالم الأرضي ، بل هو من العالم السماوي ، وكلمة « حاش » يختص استعمالها بالله تعالى ، فلا تقل : « حاش لك » بل حاشاك ، وحاشي لك ، والمقصود من كلمة « حاش لله » تنزيه يوسف عن أن يكون بشراً ، فهذه الكلمة من قبل الكلمات التي استعملت في غير معناها ، ومنه قول النبي ﷺ في أبي بكر (ض) : « والله يغفر له » ، وقوله (ﷺ) في عتبة بن أسيد : « ويل أمه » ، وقوله ﷺ لأم سلمة « تربت يدك » ، وقولهم « لا أم لك » ، وقول الكتاب : ﴿ أَرَأَيْتَ هَذَا؟ ﴾ (٦٣: ١٧) وقوله : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْدينِ ﴾ (١: ١٠٧) ونحو ذلك .
والغريب ان كلمة « حاش لله » لم ترد في القرآن المجيد إلا في هذه السورة ، ثم

لم تحك هذه الكلمة في هذه السورة إلا عن فم هؤلاء النسوة المصريات ، في مقام تنزيه يوسف عن أن يكون بشراً مرة ، وفي تنزيهه عن السوء مرة أخرى (آ: ٥١) .

(ما هذا بشراً)

وقالت الأنسة زبيدة الغزية .

المقالة طبيعة في المرأة

جعل النسوة يتأملن في وجه يوسف ، ويتفرسن في ملامحه ، تارة يستفرقن في النظر لوجهه ، وطوراً يطرقن متأملات ، يبحثن في ذاكرتهن : هل سبق انهن رأين إنساناً يشبهه في الحسن ؟ .. أجهدن فكرتهن في تذكر أهل المحاسن والجمال ، فلم يهتدين على أحد يشبهه ، أو يقاربه في صباهته وملاحته ، فعند ذلك قررن انه ليس من عالم البشر ، بل هو من عالم أرقى جمالاً ، وأعلى بهاء ، وأسمى نوراً ، نعم إن الصورة وإن تكن صورة إنسان أرضي ، لكن النفس التي يحملها بين جنبيه ، هي نفس ملك سماوي .

هنّ كنّ ظننّ قبل أن يرينه أنه جميل الصورة فقط ، حسب العادة المألوفة ، أي انه ليس فيه إلا جمال الجسم ، وقسامة الوجه ، ونحو ذلك .

أما الآن ، وقد رأينه ، وتأملن وتفرسن فيه ، وعلمن ما عنده من طهرونزاهة وجمال نفس ، ونورانية روح — فقد عرفن شيئاً كنّ يجهلنه من قبل ، فقد امتزج في نظرهن جمال صورته بجمال نفسه ، فاستحالتا الى صورة واحدة ، هي يوسف ! حتى انه لو نزلت به كارثة ، من كوارث الدهر أفقدته جمال صورته ، لبقى معشوقاً للقلوب ، تتشربه النفوس ، وتهفو له الأحلام ،

بما فيه من الجمال النفساني ، الذي هو أعلى قيمة جداً من الجمال الجسدي ، فكيف
وقد اجتمع فيه الجمالان ، فاذا هو نور على نور .

إن هؤلاء النسوة ، ولا ريب ، كن يعتقدن أنه بشر ، ولكن المغالة طبيعة
نسائية ، قال « غونكور » : « أظهر أخلاق المرأة حب المغالة في كل شيء » ، لا سيما
إذا لاحظنا أن أفكارهن هذه شمرية بحتة .

عجبت لهؤلاء النسوة ، لا يشغلن شأن عن شأن ، ولا يمشين على طريقة من
قال : « حال المريض دون المريض » ، فمن مع ما أصابهن من الجراح تراهن
يتلهين بتقريظ يوسف ، وإطراء ماله من جمال وجلال ، وطبع النساء معادة
الصمت في حالي الحزن والفرح ، وعجبة الكلام ، وهن بين الحسرة والغبطة .

(إِنَّ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ)

— ٦ —

وقالت السيدة ماهتاب البنجابية :

النسوة اللاتمات ينقلبن الى متغزلات مادحات

عجيب وايم الله ذلك الذي أحدثه هذا الاتفاق الغريب الأطوار !! فالنساء
اللاتي كن لاتمات أصبحن متغزلات مادحات عاشقات ، ووقعن في شرك الحب كما
وقع غيرهن ، وصار لسان كل واحدة منهن ينشد :

وعذلتُ أهل العشق حتى ذقته فعجبت كيف يموت من لا يعشق
وعذرتهم وعرفت ذنبي أنني غيرتهم فلقيت منه ما لقوا

انهن نظرن شاباً في ريعان الشباب ، جميل الصورة ، له منظر جذاب يغري
الرائين ويعجب الناظرين ، يدل على الجلال والعظمة ، فهتفن بهذه الجملة الامتداحية .

يوهي : « إن هذا إلاملك كريم » بجمال ذاته وكمال نفسه ، وطهارة ضميره ، بحيث لم يبق فيه من صفات البشر إلا الاسم واللقب ، بأن نقول عنه : « يوسف فتى امرأة العزيز » ، فهو بشر ، بحسب ذلك اللفظ فقط ، وأما فيما عدا ذلك ، فهو من نوع سكان السموات ، المنشأين من النور .

ورغماً عما أصابنا من هذه الكارثة ، فإننا اليوم سعيذات ، برؤية هذا الفتى . مثلوجات الصدر ، بمشاهدة وجهه الصبيح ، الله أكبر ! إنه لجميل ! وجميل جداً ! . إنه زهرة سماوية ، ونفس ملكية . كلامن هذا هو من قبيل الغزل بجمال يوسف ، المبني على استحسانن له ، واستكبارهن لظرفه ، ومن قبيل المدح بالزاهة والطهارة ، والدليل على أن تشبيهن له « بالملك » غزل ومدح ، استعملن الشعراء قديماً وحديثاً . ذلك التشبيه في مقام الغزل بمحاسن المحبوب ومدح كماله ، وشواهد ذلك أكثر من أن تحصر ، وأشهر من أن تسطر .

نفين عنه البشرية ، لغرابة جماله ، ومباعدة حسنه لما عليه محاسن الصور ، وأثبتن له الملكية وبشئن بها الحكم ، وذلك لأن الله عز وجل ركز في الطباع أن لا أحسن ولا أكمل من الملك ، كما ركز فيها أن لا أقبح ولا أنقص من الشيطان .

فهذا بدء التغير الفكري الذي جدّ لهن ، وأعظم دليل على تغير فكرهن عن ذي قبل ، هو اندهاشن وغيبوبتهن عن الحس ، حتى قطعن أيديهن ، من حيث لا يشعرن ، ولا يحسسن ، فهذا هو دليلنا على انهن اندهشن بجماله وجلاله .

ذاب فكرهن الأول الانتقادي فيما صرن إليه من هذا الفكر الجديد ، فانقلبن عما كن فيه ، فكنن من قبيل من قيل فيهم : « يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً » ، أو « الحرام ما حرموه ، والحلال ما حلّ بأيديهم » . وكأن « الشغف حباً » ، وإنما يعد « ضللاً مبيناً » ، لغيرهن ، وأما لهن فهو الهدى الساطع !!!...

كنّ سرقن لحمها وأكلته ميتاً ، فقطعت أيديهن وهن في قيد الحياة ، مكرن بها قولاً ، فمكرت بهن فعلاً ، حكمن عليها بالضلال ، فضللن عن تقطيع طعامهن إلى تقطيع أيديهن ، دعون يوسف قبل أن يرينه « فتى امرأة » ، فلما رأيته دعونه « ملكاً كريماً » .

هذه الانقلابات والتطورات هي نتيجة من نتائج الاندهاش بالجمال ، فسبحان مقلب قلوب النسوة ، قبل قلوب الرجال ، وبهذا صرّ من « مريدات » امرأة العزيز ، المحبذات لغرامها وحبها ، بعد ما كن سابقاً من اللوامي المنتقدات ، والمواذل المنكرات ، فانقلبت حالهن ، وتغير فكرهن ، وشاطرنها في شغفها ، وهذا كل ما أرادت وسعت إليه .

كان جمال يوسف من أكبر المؤثرات على دقائق قلوبهن ، وكان كماله من أقوى السلطات النافذة لأفئدتهم ، فقلن ذلك القول مع اعتقادهن أنه بشر ، فبن يعبرن بذلك عن شعورهن ، وشدة سرورهن وإعجابهن بيوسف ، نظير قول القائل :

محمد بشر ما كان كالبشر بل كان ياقوتة والناس كالحجر

والنساء يحكمن بمقتضى الشعور والوجدان ، أكبر مما يحكمن بمقتضى العقل والبرهان ، أو انهن قلن ذلك على الطريقة الشعرية ، أو على وجه المبالغة في الوصف وعلى كل ، فلعمري ما أبعدن المثل ، ولا تجاوزن القياس ..

قال بعض الحكماء : « الملائكة روح وعقل ، والبهاائم نفس وهوى ، والانسان يجمع صفات الملائكة وصفات البهاائم ، فان غلبت روح الانسان وعقله على نفسه وهواه ، كان أفضل من الملائكة ، وإن غلبت نفسه وهواه على روحه وعقله ، كانت البهاائم أفضل منه » .

لوم واعتراف ووعيد

آ (٣٢) * قالت : فَذَلِكَ الَّذِي لُمْتُنِّي فِيهِ ، وَلَقَدْ
رَاودَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ، وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ
لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ *

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثانية والثلاثون فقامت السيدة هدى
اليانية وقالت :

رأت « امرأة العزيز » أن النسوة بما صدر منهن من فعل وقول قد قامت عليهن
الحجة ، فمند ذلك (قالت) لهن بلسان الاحتجاج (فذلكن) الفتى الرائع في
الجمال الفاتن في الحسن ، أو فذلكن العبد الكنعاني الذي صورتن في أنفسكن ثم
(لمتني فيه) ولم تخطرن على بالكن قول بعض الحكماء : « لعل لها عذراً وأنت
تلوم » و « ليس من العدل سرعة العذل » ، تعني انكن لم تصورنه بحق صورته
ولو صورته بما عابتن لعذرتني في الافتتان به ، ولذلك وبما صار لكن أحتج عليكن
في انتقادكن علي ، ثم قالت بلسان الاعتراف : (و) السر عندكن انني (لقد
راودته عن نفسه فاستعصم) — والاستعصام بناء مبالغة يدل على الامتناع البليغ
والتحفظ الشديد ، كأنه في عصمة وهو يجتهد في الاستزادة منها ، ونحوه استمسك
واستوسع الفتق واستجمع الرأي واستفحل الخطاب ، وهذا بيان !! كان من
يوسف عليه السلام لا مزيد عليه ، وبرهان لا شيء أنور منه على أنه بريء مما
أضاف إليه أهل الحشو الذين لا يفقهون — ثم قالت بلسان الایعاد والارهاب :
(و) قسماً بأبيس وبماسيح النيل (لئن لم يفعل ما أمره) به (ليسجنن) في المطبق
(وليكونا من الصاغرين) الأذلاء .

(قالت : فذلكن الذي لمتني فيه)

— ١ —

قامت الأنسة زينب العدنية وقالت :

لوم زليخا للنسوة

بعد ما احتجت امرأة العزيز عليهن احتجاجاً صامتاً قالت لهن بلسان اللوم والعتاب : « ذلكن » الشاب الفتى الذي برؤيته لم تتبين لكن حقيقة معذرتي.. هو « الذي لمتني فيه » ، وهل أنا في حاجة إلى أن أعذر لكنّ ، وقد رأيت ما حل بكُنّ ، مما لم يكن في الحساب ؟.. هل أنا في حاجة إلى أن أعذر لكنّ ، وقد صرتن به مغرمات ، بعد ما كنتن فيه عواذل ؟.. هل أنا في حاجة إلى أن أعذر لكنّ ، وقد جنّ جنونكنّ في حبه ، فزدتنّ فيه عليّ أضعافاً مضاعفة ؟..

« ذلكن الذي لمتني فيه » ، وماذا عساي أن أعمل ؟.. وأنا قد وُلدت « امرأة » ، ضعيفة الارادة ، ودبت « امرأة » لطيفة الشعور ، وشببت « امرأة » رقيقة الاحساس ، ونشأت « امرأة » تغلب عليها العواطف ، ثم الدم النسائي اللطيف جار في عروقي ، والميول النسائية المتقلبة سارية في كل جوارحي ، وهذا الفتى قطعة من الجمال ، خلق من معمل اللطف والحسن ، خلق فتنة للعباد ، وهو عبدي وتحت يدي ، أفمن العجب بعد هذا كله أن أستسلم لجماله ، وأسلم له عقلي ؟!؟..

« ذلكن » الفتى الأديب الذي أكبرُته وقطعتن بمجرد النظر اليه أيديكن ، هو « الذي لمتني فيه » ، والآن مع انني من جهة آسفة جداً ، لما أصابكن من هذه النازلة ، لاصيا وأنتن في بيتي وضيافتي ، لكنني من الجهة الثانية أحمد الله ، إذ شعرتن بثقل الحب وشدة سلطانه ، وإني لأرجو أن كل ما صدر مني وسيصدر لا يقلل من قيمتي شيئاً

عند من رأت جمال الفتى ، وكانت ذات إنصاف ، فأنا لست من غير طينتك ، بل أنا مثلكن من لحم ودم .

أنتن كنتن لمتني فيه ، ساحكن الله ، فابحن الآن في ذات أنفسكن ، هل ترين ضميركن يشهد ان حيي إياه عبث ، أو انه في غير محله ؟ ..

أنتن كنتن لمتني فيه ، وأراكن هذه الساعة قد شغفتن به حباً ، فهل ألومكن أنا الآن فيه ؟ .. كلا .. لأن من جرب الحب لا يلوم فيه أحداً :

بالأثمى في الحب ذق طعم الهوى فإذا عشقت فبعد ذلك عنف

فاذن نحن الآن قد تفاهمنا جميعاً ، فلا تمكرن بي ولا تنتقدني .

ملحوظة — لقد تقدم انها كانت سمعت بلومين لها ، وانتقادهن عليها ،

فتنازعها العوامل التي تتنازع عادة كل محب انصب عليه لوم اللاتمين ، ونيل من شرفه وعرضه ، فتارة كان يدفعها « عامل الكبرياء والنفطسة » لرد لومين بحمو وشدة ، زاعمة انه ليس من شأنهن البحث والسؤال عما في قصر العزيز ، وان كل تدخل من فريق ثالث في الشؤون التي بينها وبين عبدها تدخل غير ودي .

وحيث يدفعها « عامل الذل » — ذل المحبين المغرمين — للاعتذار بهدوء

وسكينة ، ومرة يدفعها « عامل الاعتدال » للجواب عما يخالج ضميرهن ، بما يكفل عزتها ويرفع بلطف لومهن ، كانت تتجاذبها هذه العوامل ، وتنتابها هذه الأفكار المختلفة ، ثم حسن في عينها أن تعمل عملاً أهم من هذه كلها ، وهو أن تبث اليهن على سبيل الضيافة في قصرها ، حتى يرين يوسف ، فيشاطرنها في حبه ، ويقمن في الشرك الذي ارتطمت هي فيه ، او على الأقل يرين جماله فيعذرنها ، وبذلك تكون قد مدت لهن معذرة محسوسة ، بارزة ، صامته ، ذلك كل ما قصده من الارسال اليهن ، وأما ما حصل في تلك الجلسة ، من تقطيع النسوة ايديهن ، واعترافها الصحيح أمامهن ، وتوعدها ليوسف إن لم يوأتهما ، فلم يكن شيء من ذلك مقصوداً

لها ، ولم يخطر على بالها ان هؤلاء السيدات ، سيستغرقن في حبه ، ويندهشن
بجماله ، لدرجة أن يغبن عن أنفسهن وإحساسهن ، فيقطعن ايديهن ، وأما هي فلما
حصل منهن ، ولما قيل : « حبك الشيء يعمي ويصم » ، سوغت لنفسها أن تبوح
لمن بكل صراحة انها (نعم) مشغوفة به حباً ، وانها كانت أرادته فأبى ، وانها
حتى اليوم والى الغد باقية على هذا الحب ، وعلى هذا الشغف ، وعلى هذا الشيء
الذي سمينه (ضلالاً) ، لا يهدأ لها بال ، ولا تروق لها معيشة ، الا بالحصول على
غرضها ، أحب يوسف أم كره ، وبقين هن على لومهن ، أم أقلعن عنه .

هذا ما سمح به الوقت أن ألقيه على مسامعكم ، والسلام عليكم ورحمة الله .

(مرحى)

(ولقد راودته عن نفسه فاستعصم)

قالت السيدة لطيفة المراكشية

— ١ —

اعتراف زليخا للنسوة

لقد أرادت امرأة العزيز أن تبرهن للنسوة ثقتها بهن فقالت لهن : أريد أن
أدلي اليكن بحديث خطير ، أرجو أن يكون سراً ، تحت طي الكتمان ، فأتين
لستن بمن يتاجر بالاسرار النسائية ، نعم سأعلمكن بجمالية الواقع ، مما كان مني
ومنه ، فأما ما كان مني ، فهو انني كنت سلمت أمري لمواطني فراودته عن نفسه ،
وأما ما كان منه ، فإنه سلم أمره لعقله لذا فقد استعصم ، متعللاً بأن سيدي « العزيز »
أحسن مثواه ، مع ان إحسان سيدي العزيز لمثواه كان بواسطة ومباشرتي ، ونحن

إنما أحسننا له وأكرمنا مثواه ، ليكون طوع إرادتنا ، فما تصوراتنا نحن (سيباً) ،
تصوره هو (مانعاً) ! فيا للعجب من هذا العبد المتمرّد ! ولا بد أن أضحي كل افكاري
وتدائيري وقواي في سبيل الوصول الى رغبتى منه .. الخ مالهذا من قول هراء
كما سيأتي .

ولنا هنا ملحوظات أربع :

زيادة قحة زليخا

الملحوظة الاولى — جرت عادة بعض العشاق أن يبوح بسرّه لبعض خالصائه ،
ولكن مقتصرأ على ما يجوز ذكره شرعاً ومروءة ، امثالاً لقول القائل :

لا تخف ما فعلت بك الأشواق و اشرح هواك فكلنا عشاق
إنما هذه المرأة زادت في القحة ، فنفضت لهن جملة حالها ، فذكرت ما الأفضل
عدم التصريح به ، إذ ينبغي لمن ابتلي بشيء من هذه المعاصي أن يستتر بستر الله ،
كما ورد في الحديث الشريف .

عدم صبر النساء على حفظ الاسرار

الملحوظة الثانية — كانت سمعت أن النسوة المصريات وقفن على حادثتها ، ثم
دعتهن فرأت اندهاشهن بتقطيع أيديهن ، وحكمن على يوسف بأنه ليس من نوع
البشر ، بل من نوع الملائكة ، فعلمت من هذا انهن صرن شريكات لها في جبهه ،
ولا بد أن يكنّ قد عذرتهافي شغفها به . وأخيراً رأت أن تلك الجلسة السرية ، انتقلت
من جلسة ضيافية الى جلسة غرامية ، وهي قديماً تعرف ان المصدور يرتاح لبث شكواه
لمن يخفف عنه لذا رأت أن سلسلة هذه الاشياء ، تصلح أن تشكل سيباً يسوغ
« اعترافها » بالحب أمام هؤلاء النسوة ، فصارت عواطفها تتراوح بين « الاعتراف »

بما كان صدر منها ، وبين البقاء على التكم ، وأخيراً فضلت أن تبوح لمن بما كان ، وقد اعترفت لمن بذلك ، لأن النساء أقل صبراً على حفظ أسرارهن وأسرار سواهن من الرجال ، ذلك بما فطرن عليه من ضعف المزاج ، وخصوصاً فيما يتعلق بالحب وأسبابه ونتائجه ، ويغلب أن يكون إفشاؤهن السر على سبيل المسارة ، والانسان إذا أعجزه أمر . أحس بميل شديد الى مكاشفة بعض أخصائه به ، فامرأة العزيز لما أعيأها أمر يوسف ، أرادت أن تكشف به هؤلاء السيدات ، لعل أن يكون عندهن ما يسهل عليها الوصول لغرضها منه .

اعتراف فاسقة لفواسق

الملحوظة الثالثة - إن قولها للنسوة (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) هو « اعتراف » منها بالخطيئة ، ولكنه ليس « اعترافاً » أمام رجل دين مسلم ، توصلاً للتوبة عن يده إلى الله ، ولكي يخبر ذلك الرجل الديني المعترف بالكفارة التي تجب لهذه الخطيئة ، كما أنه ليس « اعترافاً » لرجل دين مسيحي ، توصلاً لمغفرته تلك الخطيئة ، وإنما هو « اعتراف » فاسقة لفواسق لا تترتب عليه فائدة دينية أبداً .

الاعتراف السري

الملحوظة الرابعة - لا نشك في أن اعتراف زليخا للنسوة بمرادتها ليوسف وباستعصامه كان ضمن دائرة الأسرار ، وتحت طي الخفاء ، عن كل ما عدا هؤلاء النسوة المدعوات ، لأنه سيأتي اعترافها جهرأ بهذه الحوادث في جلسة التحقيق ، على يد مندوب الملك ، كما سيأتي الكلام عليه إن شاء الله تعالى في الكلام على الآية (٥٢) .

(ولئن لم يفعل ما أمره ليدسجنن وليكوناً من الصاغرين)

— ١ —

قالت الخاتون ماهتاب الشيرازية (١) :

انذار يوسف ووعيده

تعلمون أن امرأة العزيز كانت أولاً راودته ، فرأت منه كل الآباء والامتناع فتركته وتناست هذه الفكرة ، ولكن شهوة النفس وعواطف أمثال هذه المرأة ، وعزة المنصب وعبودية يوسف في بيتها — أمور دفعها لتعليل نفسها بالأمل ، وسهولة حصولها على رغبتها ، لا سيما إذا سمعته إرعاداً وإبراقاً ، والحب يهون على صاحبه كل عسير ، حتى يريه القصور مبنية في الهواء ، فلذلك هي تقول الآن موجهة خطابها للنسوة ، وعلامات الاهتمام ظاهرة على وجهها يمازجها شيء قليل من الحياء : لئن لم يفعل ما أمره به ، ولم ينزل على حكمي وارادتي عاجلاً أو آجلاً ، ليكون عرضة للجزاء الصارم بالاعتقال في (المطبق) والاهانة والذل ، حتى ولو كان هذا الجزاء مخالفاً لقانون الجزاء المصري ، الذي هو بالعكس يمتثل ويهين من يفعل ذلك ، فآخر الدواء الكي ، وإنني لقديرة أن أرغم هذا الفتى بالقوة ، وأصل إلى ما أريد منه بالقسر بدون احتياج إلى ترغيب وتشويق ، كما قال الشاعر :

من أطاق اغتنام شيء غلاباً واغتصاباً ، لم يفتنمه سوآلا
فكم مرمر معيشتي بدم انصياغه لميولي ، فإن هو بقي مصرّاً على إباته ، ولم يحتم
رواية حي له بما أريد ، فإنني سأعامله بالمثل ، وأمرمر معيشته ، بسجنه وصغاره .
ثم قالت وصوتها يرتجف ، وجوارحها ترتعش ، أنا والله لست بمغلوبة لمن هو .

(١) نسبة الى شيراز احدى مدن ايران .

في يدي ، وتحت أمري ، وضمن قصري ، وقد اشتري بدراهمنا ، وغُذي بخيراتنا
فهو أصغر من أن يثابر على مخالفتي ، وأنا أكبر من أن أكون مقهورة باستبداده .
ولاني سوف لا أستصعب أمراً في سبيل الحصول على غرضي من هذا الفتى .
البراني ، فخلاصه من دخول الحبس ، وشمله بالصغار معقود بتنفيذ ما أريد منه .
وإلا عوقب بيد منبسطة ، ولسان منطلق .

هذا مرمى كلامها الروحي مع هؤلاء النسوة ، وهكذا قضين سحابة ذلك .
اليوم . وهن في أحوال متناقضة ، في أفراح وجراح ، في عتاب وتراض ، في .
اندهاش وانتعاش ، في إرعاد وإبراق ، ووعيد وتهديد ، في أمل وبأس ، ثم ختمت .
تلك الجلسة النسائية ، فتحفز لالقيام ، وودعن امرأة العزيز ، وهن يحسبن بألم سهم
الفراق . وقبل أن أنهى خطابي أذكر الدقيقتين التاليتين :

وهي زليخا ليوسف دون وعده

الدقيقة الأولى — ترى أن زليخا أوعدت يوسف بشقاوة مستقبله إن لم يخنع
لأمرها ، بقولها : « وإن لم يفعل .. الخ .. » ، ولكنها لم تعده بسعادة مستقبله ،
إن أطاعها وطاعها ، لأنه من جهة حاصل في بيت « العزيز » على كل سعادة ، تليق
بواحد مثله ، ومن جهة ثانية ، هي تعلم ترفعه عما عساه أن يصل إليه من السعادة
على يدها ، فرأت أنه لا يجدي معه وعدها ، بل وعيدها ، وأنه لا تؤثر عليه
بشارتها ، بل انذاراتها .

ولائل نفوذ زليخا وشموعها

الدقيقة الثانية — كانت « امرأة العزيز » شديدة الذهاب بنفسها ، مُدلة
بجاهها ونفوذها ، متشددة في آرائها وأفكارها ، متغلبة على سيدها ؛ ألا ترى إلى

ضراعته لها بقوله : « أكرمى مثواه ، عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً » ؟
 ألا ترى إلى شدة وطأة انتقادها على سيدها بما ورد في سفر التكوين من قولها :
 « قد جاء إلينا برجل عبراني ليداعبنا » ؟ (تك ٣٩ : ١٤)

ألا ترى إلى أنها لحقته لما هرب ولم تبال برؤية الجواري ونحوهن لها واقتضاح
 أمرها عندهن ؟

ألا ترى إلى ثقل اقتراحها واستبدادها أمام سيدها ، إذ قالت له كحاكم مستبد :
 « ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم » ؟

ألا ترى إلى سيدها ، حينما ثبت عليها « الجرم » لم يقاصها إلا بقوله : « إنه
 من كيدكن إن كيدكن عظيم » ، وقوله : « استغفري لذنبك إنك كنت
 من الخاطئين » ؟

ألا ترى إلى قبحها إذ قالت بمسمع ومرآى من السيدات المصريات ، وربما كان
 واقفاً عندئذ بعض الجواري : « ولقد راودته عن نفسه فاستعصم » ؟

ألا ترى إلى استهانتها بوصاة سيدها واستبدادها في الحكم إذ قالت : « ولئن
 لم يفعل ما أمره ليسجنن ، وليكونا من الصاغرين » ؟ تتوعده بما كانت هي
 حقيقة به ؟

وأخيراً ألا ترى إلى صراحتها واعترافها أمام مأمور التحقيق ، المندوب من
 جانب الملك ، إذ قالت : « الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه » ، ثم قالت :
 « وما أبريء نفسي » ؟

فهذه المواضع التسعة تعلمنا أن هذه المرأة كانت شاحخة مستبدة .

المناجاة

آ (٣٣) ﴿ قَالَ : رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ، وَإِنْ لَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ ، أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ، وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ . ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثالثة والثلاثون فقامت الأنسة سليمة البعلبكية وقالت :

سمع يوسف كلام « امرأة العزيز » وتهديدها له ، فالتجأ إلى ربه ، و (قال) يا (رب) الذي إليه التجيء وبه اعتمد (السجن أحب إلي مما يدعونني إليه) أي أحب إلي من ركوب المعصية — لأنه وإن يكن زول السجن مشقة على النفس شديدة ، وما دعونه إليه فيه لذة عظيمة ، لكن تلك المشقة آثر عنده نظراً لحسن الصبر على احتمالها في وجه الله ، ونظر القبح معصية ، وعبر بكلمة « يدعونني » على إسناد الدعوة إليهن جميعاً ، لأنهن سكتن على كلام امرأة العزيز ، والسكوت رضاً ، بل كن بحالة من يدعو إلى الفحشاء ، ورب حال أفصح من مقال ، ومن استحسن عملاً قبيحاً فكأنما عمله — ثم قال يوسف أدعوك يا مولاي أن تصرف عني كيدهن صرفاً متأسلاً دائماً ، بحيث إذا قُبر اليوم لا يبعث غداً ، (وإلا تصرف عني كيدهن) بالطفاف الإلهية ، وعصمتك الربانية (أصب) أي أميل (إليهن) — والصبوة الميل إلى الهوى — فإني لا أملك من القوة إلا معونتك (وأكن من الجاهلين) الذين لا يعملون بما يعلمون ، لأن من لا جدوى لعلمه ، فهو ومن لا يعلم سواء ، أو من السفهاء ، والحكيم لا يفعل القبيح .

(قال : رب ، السجن أحب الي مما يدعونني اليه)

— ١ —

قالت الأنسة جهينة المحصية :

مناجاة يوسف ربه لصرف كيد النسوة عنه

رأى يوسف تلك الحفلة النسائية الخطيرة ، وسمع فيها كلام « امرأة العزيز » وتهديدها وإنذارها الشديد ، ومالأة « النسوة » لها عليه بسكوتهن على ما قالته ، فعلم أنها تريد أن تبعث مسألة « المراودة » من قهرها ، رغماً عن نهي « العزيز » لها فرأى نفسه انه على شفا حفرة من التهمة ، وأنه ليس بينه وبين وقوع « الكيد » عليه ، من هؤلاء الكواعب إلا كلفتة الجيد ، فقال في نفسه : ليت شعري أراجع مَنْ مِنْ أهل البلاط في شأنها ، واقتراحاتها الساقطة ؟.. فهل أراجع سيدها عزيز مصر ، وأخبره بأنها لم تسمع صوت أمره لها ، ولم تر ضح لنصحه ؟.. أو ياترى أراجع ملك مصر « الريان بن الوليد » ، وأحيطه علماً بسلسلة هذه الحوادث ، التي جرت وتجري في مملكته ، بغير علم له بها ؟.. وَمَنْ لي بأن أقف مائلاً بين يديه ، حتى أنفض له جميع ما في صدري ؟.. لا .. لا .. لا لزوم لمراجعة عزيز مصر ، ولا ملك مصر ، ولكنني أراجع العزيز الحقيقي المطلق ، عزيز كل الأمصار ، وملك الملوك الحقيقي الأكبر ، ملك الأرض والسموات ، وهو « الله » سبحانه وتعالى ، فيارب ، يا الله ، إليك أتوجه بعرض حالي ، وإليك أضرع بمقالي ، يا رب ، أبعد عني هذه الفتنة العمياء ، وغير قلوب هؤلاء النسوة ، ليرجمن إلى طاعتك ، ويشعرون بفضاعة الأمر ، الذي هنّ عازمات على ارتكابه .

يا رب ، أرشدني إلى سبيل أنجو به من هذه الأشرار ، واحفظ عبدك يوسف

من دهائن وختلن ، تحن يا رب على هذا المسكين الغريب ، هذا المسكين الذي ليس له ملجأ إلا لك ، أنت ملجأ البائسين الضعفاء فاحفظني من كل سوء وتجربة ، وحقاً إنني أفضل المعتقل المظلم على القصور المتلألئة بالأنوار ، فإن كان لا ندحة عن الإعتقال ، فلهو خير لي مما يرغبني إلي فيه ، ولو قضيت فيه سحابة عمري ، ولا يهمني مفارقة القصر المنير ، إلى سجن مظلم ، فقد عافت نفسي القصور ، وما يحف بها من أسباب الفتن والفجور .

هذا ما حدثت به أيها السادة، ان هذه المعاني حاكت في صدر يوسف (ع) فجعل ينجي بها ربه سبحانه وتعالى .

(قال : رب ، السجن أحب إلي مما يدعونني إليه)

— ٢ —

وقالت الأنسة خيرية الريحابوة (١) :

سبب سكوت يوسف في حفلة النسوة المدعوات

تعلم من كتاب الله تعالى أن يوسف في تلك الحفلة النسائية السابقة ، كان ساكناً ، لم يتبادل الحديث ، لا مع النسوة المدعوات ، ولا مع امرأة العزيز صاحبة الدعوة ، ونعلم أن ذا كم السكوت زاده رفعة في أعينهن ، وزاده هيبة في قلوبهن ، فالصمت يرفع منزلة صاحبه ، وكثرة اللفظ تقلل من مهابته ، وهذا في مبادلة الحديث بين رجل ورجل ، فكيف والجليسات في تلك الحفلة اناث لا يليق بذئ المروءة مثل يوسف أن يتبسط في الكلام معهن ، ولكن بصمت عن محادثتهن ، فلذلك وحيث ان العاقل يحتفظ بكلامه إلى حين الحاجة ، بقي يوسف ساكناً ،

(١) نسبة الى اريحا من بلاد فلسطين .

٦٦٢ كيف كانت مشقة نزول السجن أحب إلى يوسف مما يدعوه النسوة إليه (٣٣)

حتى سمع إنذار « امرأة العزيز ، إياه ، فأوجس منها خيفة ، وخشي أن تصيبه من ختلها دائرة ، لأنها تقول وتفعل ، وكابد في نفسه ألماً مفضاً ، لا تستشف مكانه من أعماق قلبه ، غير عين واحدة ، وهي عين الله تعالى ، ففزع إلى مولاه ورفع بصره إلى السماء ، وشخص لجهة العلو ، وقال وفي صوته غنة الضراعة ، والذل : يا رباه ، يا من يجيب المضطر إذا دعاه ...

(قال : رب ، السجن أحب إلي مما يدعونني إليه)

— ٣ —

وقالت السيدة سعدى العكبية (١) :

كيف كانت مشقة نزول السجن أحب إلى يوسف مما يدعوه النسوة إليه

لي ههنا كلمة مختصرة في هذا الموضوع ، يقول يوسف الصديق (م) : « السجن أحب إلي مما يدعونني إليه » وقد استشكلوه بأن نزول السجن مشقة على النفس شديدة ، وما دعونه النسوة إليه لذة عظيمة ، فكيف كانت المشقة أحب إليه من اللذة ؟ وأجابوا عنه بأنه كانت المشقة أحب إليه وآثر عنده ، نظراً في حسن الصبر على احتمالها لوجه الله ، وفي قبح المعصية ، وفي عاقبة كل واحدة منها ، لا نظراً في مشتهى النفس ومكروها .

وهو جواب حسن جداً ، ونحن نزيد على ذلك بأن هذا أسلوب عربي مألوف ومنه ما رواه مسلم في صحيحه عن علي (رض) : « إذا حدثتكم عن رسول الله ﷺ فلاّن آخر من السماء أحب إلي من أن أقول عليه ما لم يقل » ، مع أن كلاماً من الخروار من السماء والكذب على النبي ﷺ مبعوض للنفس . والشاعر العربي يقول :

(١) نسبة إلى بلدة عكا من بلاد فلسطين .

لنقل الصخر من قُلل الجبال أحب إليّ من مَن الرجال
 على أن أصحاب النفوس الملكية العالية ، يرون أن الفاحشة مرة الطعم جداً ،
 وعليه فالمعنى : حامض السجن ، أخف عليّ من مرّة الفاحشة ، « حنانك بعض
 الشر أهون من بعض » ، على أن أحد المحاضرين قد بين في خطابه أن في السجن
 فوائد جمة ، لا يستهان بها ، وقد سمعتموه آنفاً ، « وما بالمهد من قدّم .. »
 (قال : رب ، السجن أحب إليّ مما يدعونني إليه)

— ٤ —

ثم قامت السيدة عليّة النجفية وقالت :

لماذا نسب يوسف الدعوة لجمع النسوة

نسمع يوسف يقول « يدعوني » بصيغة الجمع ، مع أننا نعلم أن التي دعتة إنما
 هي واحدة ، وهي مولاته « زليخا » ، ونرى أنه كثر في هذه السورة كغيرها ،
 إطلاق الجمع على المفرد ، لعله من العلل المناسبة لكل موضع ، وفي بيان ذلك
 أربع احتمالات :

الاحتمال الأول : أن المراد من قوله تعالى « يدعوني » هو امرأة العزيز خاصة ،
 لأنها هي التي دعتة للفحشاء ، كما حكاه القرآن الكريم عنها ، ولم يحك ذلك عن غيرها من
 النسوة . وأما ما حكى من أنهم قلن ليوسف : « أطع مولاتك » أو أنهم طلبن منه كما طلبت ،
 أو أن الطلب كان منها خاصة ، وهن مالاّنها على طلبها ، فهو افتراء على هؤلاء النسوة ، وهتك
 سترهن ، بما لم يثبت عنهن ، وعندنا أن من نسب إليهن ذلك القول ، قد أقولهن ما لم يقلن ،
 ونسب إليهن مالاّ تجوز نسبته إلاّ بحجة وبينة وقوله تعالى : ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا
 الْآيَاتِ ﴾ (آ : ٣٥) وما رأوا سوى آية واحدة ، وهي القميص ، وقوله تعالى :
 ﴿ أَضْغَاثَ أَحْلَامٍ ﴾ (آ : ٤٤) وما هو إلاّ حلم واحد ، وقوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلُونِ ﴾

(آ: ٤٥) خطاباً للملك الريان ، وقوله تعالى : ﴿ لِعَلِّي أَرْجِعَ إِلَى النَّاسِ ، لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (آ: ٤٦) والمراد من الناس الملك الريان أيضاً وقوله تعالى : ﴿ إِذْ رَاوَدَتْهُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ (آ: ٥١) والتي راودته هي امرأة العزيز خاصة ، فهي التي راودته في بيتها : وهي قالت « أنا راودته عن نفسه » ، ولكن اتى هنا بصيغة الجمع سترأ عليها ، وقوله تعالى : ﴿ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ ﴾ (آ: ٥٥) أي ناظر خزينة ، وهو وزير المالية ، وفي غير هذه السورة قال تعالى ﴿ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴾ (١٥ : ٥٣) وإنما هو إله واحد ، وقال تعالى : ﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴾ (٢٣ : ١٠٠) قال (في فقه اللغة) : « من سنن العرب الاتيان بالجمع مراداً به الواحد » ، كما قال تعالى شأنه : ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ ﴾ (٩ : ١٨) ، وإنما أراد المسجد الحرام ، وقال عز سلطانه : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ﴾ (٢ : ٧٢) ، وكان القاتل واحداً وهكذا قال في (المقد الفريد) ومثله بقوله جل جلاله : ﴿ نَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ ، وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ ﴾ (٣ : ٣٩) ، والمراد بالملائكة جبريل فقط وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَبَاودُونَ نَفْسًا مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٤ : ٤٩) وإنما هو رجل واحد من بني تميم .

وفي القاموس إن « المدائن » هي مدينة كسرى قرب بغداد ، وسميت بذلك لكبرها . والخلاصة ان هؤلاء النسوة المرسل إليهن باسم الضيافة ، لم يطلبن من يوسف شيئاً ، مما يقال عنه « سوء وفحشاء » ، كما طلبت امرأة العزيز ، نعم إنهن يتلاقين معها في نقطة واحدة ، هي الابتهاج بحسن يوسف ، والاعجاب بجماله وجلاله ، وإنما قال : « يدعوني » بصيغة الجمع ، سترأ على سيدته زليخا ، فهو لم يرد أن يطمئن سيدته في صدرها ، ولكنه لمس حاشيتها فقط ، وذلك لأنه لم يذكر شخصها في دعائه ، بل لفتها في مجموعة النساء وجنسنهن ، والسماع أدري بمراد المتكلم .

الاحتمال الثاني - وهو انه حينما قال : « يدعوتني » ، لا يصف امرأة العزيز فقط ، ولا يحكي عنها فحسب ، ولا يتكلم عن شخصية هذه المرأة ، وطبيعتها الخاصة بها ، ولا ينعت واحدة مخصوصة ، لأن الأشخاص تفنى وتزول ، وإنما يصف « نوع الإناث » الذي يبقى ويدوم ، يصفه ان هذا شأنه . يصف الحياة النفسية لكل شابة ، ويحكي عن الحالة الغرامية لكل ذات هوى ، هو يتكلم عن النوع بأن شأنه ما ذكر ، وهو دعوتهن للشبان ، شنشنة أخدمية ، وعادة كالطبيعة الثانية ، فكل امرأة لا بد أن يملكها الهوى ، وتؤثر عليها عاطفة الغرام ، نقول « كل » ومرادنا الكل المجموعي لا الجمعي ، والا فيوجد في هذا النوع أفراد ، هن كملائكة الرحمة ، طهارة وقداسة ، وما من عام إلا وخصّص ، فأرجو من السيدات عدم موأخذني .

الاحتمال الثالث - وهو ان امرأة العزيز دعتة بلفظها المسموع بالأذان ، وأما النسوة المصريات ، فدعونه بسكوتهن على طلبتها . نعم كنّ صامتات ، ولكن نفوسهن الصامتة ، كانت تنطق بلسان الحال ، لسان الموافقة ، فهو سمع نفوسهن الصامتة تتطلب سرّاً ، ما تطلبه زليخا جهراً ، ولكن حلّ السكوت محل الكلام ، « ولسان حالي بالشكاية أنطق » ، « ورب حال أفصح من مقال » . امرأة العزيز نطقت بدعوته صريحاً علناً بمرآى ومسمع من النسوة المصريات ، فلم يشرّ بنّها ، ولم يلدّها ، ولم يضلّلها ، كما سبق انهن جرين على ذلك في غيبتها قبل دعوتهن عندها ، وقبلما يرين يوسف وجماله ، فسكوتهن على كلامها ، يعد موافقة لها ، فصار ذلك من قبيل الاجماع السكوتي ، فلهذا نسب يوسف الدعوة اليهن ، وعندى ان إنكار نسبة الدعوة للجميع ، مع سكوت النسوة على كلام زليخا ، لهو من قبيل الانكار للاجماع السكوتي ، وإلا فما الفرق ؟ امرأة العزيز تكلمت ورغبت وتوعدت ، والنسوة سمعن هذا المنكر وسكتن عليه وقررنه ، هن لم يؤيدن شرعة

العفاف ، ولم ينكرن الباطل ، فجُعِلن بسكوتهن وإقرارهن مشاركات لها في الدعوة للفحشاء ، وصارت هذه الدعوة مجعاً عليها إجماعاً سكوتياً من هؤلاء النسوة ، جميعاً ، المتكلمة منهن والسامعات .

وعلى هذا المذهب قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَيْنَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةُ الْخِ ﴾ وظاهران هذا القول لم يصدر من كل فرد من إخوته العشرة ، ولكنه صدر من البعض ، وأقره البعض الآخر ، فنسب جميعهم ، وكذا نرى الله تعالى يقلل عنهم انهم قالوا : ﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا ﴾ ، ولم يصدر هذا القول إلا من البعض ، قيل إن هذا البعض هو « شمعون » ، قاله وأقره آخرون من إخوته ، ولم يقله جميعهم ، إذ قال يهوذا : « لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب إن كنتم فاعلين » ، وسبق النقل عنهم انهم قالوا : « يا أبانا ما لك لا تأمنا على يوسف » وانهم قالوا : « يا أبانا إنا ذهبنا نستبق ، وظاهر ان ذلك لم يصدر عن جميعهم ، وسبق ان « نسوة المدينة » لما رأين يوسف « قلن حاش لله ، ما هذا بشراً » وطبعاً لا بد أن يكون هذا القول إنما صدر من البعض ، لا من الكل ، وهكذا يقال فيما سيأتي من قوله : « قالوا أضغاث أحلام الخ .. » وقوله : « سنراوِدُ عنه أباه .. الخ » وقوله : « قالوا يا أبانا مُنِعَ مِنَّا الْكِيل .. » الى ما لا نهاية له في كلام الله تعالى من هذا القبيل ، ففني عن البيان ان هذه الأقوال عادة وعرفاً إنما تصدر من البعض ويقرها الباقون ، وبسبب هذا الاقرار ينسب القول للجميع ، لأن السكوت موافقة واعتراف ، فكيف وقد زاد هؤلاء النسوة على المشاركة السكوتية المشاركة الفعلية ، بالحلب والغزل ، فلذلك اعتبر يوسف انهم دعونه جميعاً ، فقال « يدعوني » ذا كراً انهم دعونه ، ونسب اليهن كيدهن إياه ، لأنه يجب على من سمع أو رأى منكراً أن ينكره وينهى عنه ، فاذا قصر في العظة والإنكار ، كان شريك الفاعل فيما هو بصدده .

الاحتمال الرابع — جرت العادة منذ القديم الى اليوم ان كل عمل وقع من فرد من أفراد «أمة» أن ينسب ذلك العمل للأمة ، وكل فعل صدر من فرد من أفراد «نوع» مثلاً أن ينسب ذلك الفعل لكل النوع ، وهكذا ، جرياً على قاعدة التضامن والتكافل ، فما حصل من شخص من بلد نسب ذلك الحاصل لأهل تلك البلد ، وما صدر من انسان من قبيلة ، نسب ذلك الصادر لتلك القبيلة ، وهلم جرا ، وعليه تتخرج آيات كثيرة في كتاب الله تعالى ، وذلك : كقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ﴾ (٢ : ٧٢) وقوله تعالى . « وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ ، وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى ﴾ (٢ : ٥٧) ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنَنصُوبَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ ﴾ (٢ : ٦١) . وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ (٢ : ٥١) ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنَنُؤِمَ مِنْ لَدُنْكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ ثم بَعَثْنَا كُفْرًا مِنْ بَعْدِ مَوْنِكُمْ ، لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٢ : ٥٥ و ٥٦) ، الى غير ذلك مما لا يحصى كثرة ، مما نسبته ليهود المدينة المنورة ، المعاصرين لحضرة صاحب الرسالة (ﷺ) ، مع ان هؤلاء اليهود اليرشليميين المعاصرين للنبي (ﷺ) المخاطبين بهذه الخطابات لم يفعلوا شيئاً من ذلك ، وانما الذين فعلوه آباؤهم ونسبة للذرية لأنهم «أمة» متكافلة متضامنة ، مرتبطة بعضهم ببعض بما لها وما عليها فهو هؤلاء اليهود في المدينة كما كانوا عرباً أو متعربين ، وكانوا يفهمون الأساليب العربية التي نزل بها القرآن الكريم لم ينكروا على النبي (ﷺ) شيئاً مما سمعوه ، فهنا لما دعت زليخا يوسف ، نسب الدعاء لمعوم هؤلاء النسوة ، اللاتي كن حاضرات إذ ذاك ، والله تعالى أعلم .

ولم تكذ السيدة علية النجفية تنتهي من مقالها حتى قامت السيدة لمياء الدمشقية وقالت :

إنني لا أنتقد الاحتمالات الأربع التي جادت بها اختي المحترمة السيدة علية ، بل

أسلم بها تسليماً ، ولكن عندي احتمال خامس ، جرى عليه المفسرون قبلنا ، وذلك انه يظهر من قوله : « رب ، السجن أحب إليّ مما يدعونني اليه ، وإن لا تصرف عني كيدهن ، أصب اليهن » ، ومن قوله : « فصرف عنه كيدهن » ، وقوله : « فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ، إن ربي بكيدهن عليم » — يظهر من هذه الأقوال الثلاثة ، ان النسوة المصريات كنّ دعونه لإطاعة مولاته زليخا ، والتزول على إرادتها ، على ما قاله علماء التفسير ، والقرينة على ذلك هذه النسبة في هذه المواضع الثلاثة . ومن المعروف ان المعنى يلتقط من مجموع الجمل ، المتساند بعضها لبعض ، أقول هذا ، راجية من اختي السيدة عليّة أن لا تؤاخذني ، والعلم مائدة مباركة ، تقتضي المشاركة ، وكلنا يصيب ويخطئ ، ويسرع ويبطئ .

(وإن لا تصرف عني كيدهن ، أصب اليهن ، واكن من الجاهلين)

— ١ —

وقالت الأنسة أميمة الحلبيّة :

استغاثة يوسف بربه لحمايته من الانعطاف للنسوة

يقول الصديق (م) : ها أنذا ، سادافع عن ديني وشرفي ومروءتي جهد طاقتي إلى آخر نسمة من حياتي ، ولكن واخية من اعتمد على قواه ، تاركاً مولاه ، فلذلك أسألك يارب أن تمدني بالتوفيق ، وتصرف عني بألطفك مكر هؤلاء النسوة . نعم ، إنني لا أبالي بهن ، ولا بجهالهن وزينتهن ، ولا أحسب لهن حساباً ، ولا أقضي لواحدة منهن وطراً ، ولا أشعر بانعطاف نحوهن ، وميل اليهن ، ومع كل هذا ، فلست اعتمد في السلامة من فتنهن على نفسي ، بل عليك يارب اعتمد ، وبك أتحصن ، وإليك التّجّي ، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله .

فلا تتركني لنفسي فواقاً ، ولا لفتة جيد ، بل ولا طرفة عين ، وإغاساعدي
بألفاك الخفية ، وإلا فأنا في خطر من الوقوع في براثن هؤلاء الثعالب .

حل بيني وبين ختلن ، وأزوعني كيدهن ، وإلا ذهبت عفتي أدراج الرياح ،
وقلت قيمتي التاريخية المعنوية ، كما كانت قلت قيمتي الذاتية ، حينما اشتريت في هذه
الديار المصرية ..

أنا الآن أسخر من كل القلوب التي تميل مع الهوى ، وأضحك على كل فتى
شاب ، يستسلم لفتاة شابة ، ولكي أخشى على قلبي ، إن لم يكن محفوفاً بألفاك
الربانية ، وأتخوف على نفسي إن لم تكن محوطة بمعصمتك الصمدانية ، وفي الحقيقة
أنت عصمتي التي اعتصم بها ، وأنت حماي من غوائل الصبوة وشرورها .

يارب ، إن لم تدركني بالعفة أتق وأميل نحوهن ، وأنطف عليهن ، وإن
لم تسمعني بحمايتك أفنّ فيهن ، ويجنّ جنوني بهن ، وإن لم تحفني بالعناية ، أقع في
غفوخهن ، وأعلق بشباكهن ، ويصرن عثرة في سبيل طهاري وزاهتي ، ويتسلطن
على قلبي ، فإنهن الخطر العظيم ، الذي يحيط بالمرء من كل جانب ، فلا يعرف له
سبيلاً إلى الخلاص منه إلا بمعونتك ، وهن المغناطيس الجذاب ، الذي يستهوي
قلب الناظر إليهن ، وعقله وجميع حواسه ومشاعره ، إلا إذا أدركته مساعدتك ،
فأصرف عني ختلن ، ، وردّه في نحورهن ، وإلا ... أميل نحوهن ، وأكن
من المأفونين ، الذين لا يعملون بما يعلمون ، لأن دائرة الشغف (بالجنس اللطيف)
مرنة ، تسع كل من لم يلطف به ربه ، ولم يصرف عنه أسباب الهوى والغرام .

يارب ، أنا إنسان ، لا مَلَك ، حساس ، لا جامد ، في شرح الشباب ،
لا هرم ولا شيخ ، مركب من مادة وروح ، لا روحاني فحسب ، قابل للاقتراح
والتناسل ، لا خصي ولا عقيم ، والحاصل أنا بشر كسائر الناس ، وغاية الأمر أنني

معصوم ، ولكن هذه العصمة ليست لي ، ولكنها بك يا الله ، فاحفظها عليّ ، بلطفك الخفي ، فأنت الحفيظ اللطيف .

فهذا الالتجاء ، وهذه الضراعة ، هو كل ما أملك اليوم ، فاستجب لي يا رب ولا تردني خائباً ، فوالله لو ددت أن أكون تائباً ، ولا أسمع من هذه المرأة ما سمعت من كلام الفحشاء والمنكر .

هذا مرمى دعاء يوسف واستغاثته بربه سبحانه وتعالى ، دعاء مخلصاً له ، لاجئاً إليه ، بعد أن عمل بما أمر الله به عباده على قدر الطاقة ، وبعد ما استعمل ما يصل إليه كسبه من الوسائل والذرائع ، التي هي وسائل الاستجابة في الحقيقة ، فهو في الحقيقة دعا ربه بلسان مقاله ولسان حاله معاً ، قال الشاعر :

ليس الشجاع الذي يحمي فريسته يوم القتال ونار الحرب تشتعل
لكن من غض طرفاً أو ثنى قدماً عن الحرام فذاك الفارس البطل

الدعاء الى الله تضرعاً وخفية

تذييل أول — كأني بيوسف (ع) نطق بدعائه وهو يخفض صوته ، احتراماً لمقام الربوبية ، وعملاً بالشرائع السماوية ، كما قال تعالى : ﴿ أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (٧ : ٥٤) في بعض وجوه التفسير أن المعتدي هو من يرفع صوته في الدعاء ، وقال ﷺ : « أيها الناس أربعوا على أنفسكم ، إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً ، إنكم تدعون سميعاً بصيراً ، وهو معكم ، والذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته » .

الجاهلون هم الفاعلون فعل الجهالة

تذييل ثان — « الجاهلين » هنا الفاعلين فعل الجهالة ، لأن من عمل ما يؤدي

إلى الضرر في العاقبة ، وهو عالم بذلك ، أو ظان ، فهو من أهل الجهل ، لا من أهل الحكمة والعلم ، ومنه قول الشاعر :

على أنها قالت عشية زرتها : جهلت على عمد ولم تك جاهلا
وفي الحديث : « ابن آدم ، أطع ربك تسمى عاقلا ، ولا تمعه ،
فتسمى جاهلا » .

استجابة الدعاء

آ (٣٤) ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ ، فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۚ ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الرابعة والثلاثون فقام الحاج أحمد
اللاذقاني وقال :

(ف) لم يكن إلا بمقدار ما صعدت الدعوة إلى السماء كشرر النار ، وخرقت
الحجب ، حتى (استجاب له ربه) — وإنما عبر بالاستجابة التي تقتضي تقديم الدعاء
عليها لأن قوله : « وإن لا تصرف عني كيدهن .. الخ » فيه معنى طلب الصرف
والدعاء باللطف — (فصرف عنه كيدهن ، وإنه) سبحانه (هو السميع) لدعوات
المتجئين إليه (العليم) بأحوالهم وما يصلحهم .

وهنا أيها السادة أزمعنا على ترك الكلام المتعلق بهؤلاء النسوة ، وسنأتي على
تمتمه عند قول يوسف « ارجع إلى ربك فأسأله ما بال النسوة .. الخ » .

(فاستجاب له ربه .)

— ١ —

وقال المرزا حسين الأصفهاني^(١):

أَسْطَلَّ الرَّعَاءَ

دعا يوسف مولا ، باستكانة وضراعة ، فصعدت كلمته من قلبه الطاهر ،
تطير إلى الأجواء العليا ، حتى قرعت صفحة السماء ، فسمعت الملائكة رنينها ،
وعرضتها على ربه (وهو أعلم بها) فاستجاب له ربه دعاءه .

والدعاء قد يكون صريحاً ، مثل « اصرف » و « لتصرف » ، وقد يكون
بالثناء والمدح ، كما هنا ، لأن قوله : « وإن لا تصرف عني كيدهن ، أصب اليهن
وأكن من الجاهلين » ثناء يتضمن الدعاء ، وعلى ذلك قول الفقهاء : « دعاء الثناء » .
وهو : « سبحانك اللهم وبحمدك ، وتبارك اسمك ، وتعالى جدك » ، ولا إله
غيرك » و « دعاء الافتتاح » وهو : « وجهت وجهي للذي فطر السموات
والأرض ، حنيفاً مسلماً ، وما أنا من المشركين ، إن صلاتي ونفسي ومحياي
ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا من المسلمين » ،
ومنه حديث : « أفضل دعاء قلته أنا والنبيون من قبلي ، لا إله إلا الله ،
وحدّه لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، يحيي ويميت ، وهو على كل شيء
قدير » ، وسبب تسمية هذا كله ونحوه دعاء ان الثناء على الكريم بحمله على الاحسان
كما قال الشاعر في عبد الله بن جدعان :

(١) نسبة الى بلدة أصفهان من البلاد الايرانية .

أذكر حاجتي أم قد كفاني جباؤك إن شيمتك الحياء
إذا أتني عليك المرء يوماً كفاه من تعرضه النساء

وقال تعالى حكاية عن يونس (ع) : « فنادى في الظلمات : أن لا إله إلا أنت ، سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ، فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ، وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ » وكذلك نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ » (٢١ : ٨٨ و ٨٧) وقد سماه النبي ﷺ دعاء ، حيث قال : « من دعا بدعاء يونس استجيب له » ، وفي حديث : « أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الحمد لله » ، وقال تعالى : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ : أُنِّتِي مَسْنِيَ الضُّرِّ ، وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ، فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ، فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ ، وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ ، رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ ﴾ (٢١ : ٨٤ و ٨٣) .

(فصرف عنه كيدهن ، إنه هو السميع العليم) :

- ١ -

وتابع المروا حسين الأصفهاني قوله :

استجابة دعاء يوسف بصرف كيد النسوة عنه

دعا يوسف ربه ، فما هو إلا أن لفظ آخر كلمة ، حتى استجاب له ربه فوراً ، وفي أسرع ما يكون ، بدون أدنى تأخير ، وسرعان ما يستجيب الله للمخلصين من عباده !

فقال الله له : لبيك ، قريباً دعوت ، فصرف عنه كيدهن حسبما طلب ، وحجز بينه وبين جهنم على ما رغب ، وأطفاً الله نارهن التي كن أوقدنّها ، لاستمالة هذا

الصديق الكريم ، فأحس يوسف حينئذ كأنه ألقى عن ظهره حملاً ثقيلاً ، ومن ذلك الحين صار يستهزئ بكل حيلهن ، ولقد قيل : « من يهرب من أمام الحب هو الظافر » .

دعا يوسف ربه ، فأحس بانسباط نفسه ، وارتياح ضميره ، وشعر كأن الأخطار قد زالت عنه ، (وقد ألقى اتسكاله على الله) ، ومثل هذه الراحة لا يشعر بها غير أهل الايمان الوطيد ، فان أحدهم إذا أحذقت به مصائب العالم تحملها بالصبر وأذهب آثارها بالدعاء والتوجه إلى الله تعالى ، كما كان نبينا ﷺ إذا حز به أمر قام إلى الصلاة ، كما رواه البخاري في صحيحه .

إلى هنا انتهت حادثة تجربة يوسف ، وخروجه من تلك التجربة ، شريفاً طاهراً ناصع الجبين ، فاطمأن حينئذ وطاب نفساً ، وقال في نفسه : (أحمد الله على ما حفي بلطفه ، فإن ما تشمره إليه نفوس الناس ، لا يساوي شيئاً في جانب روح الأبد وراحته) ، وأخذ بعد ذلك يخدم في البيت كجاري عادته ، لكن مع التحفظ التام من زليخا ؛

كيف صرف الله كيد النسوة عن يوسف مع انه سجن بعد ذلك

ورب سائل يسأل ويقول : كيف يمكن أن ندعن بأن الله تعالى صرف عنه كيدهن ، مع أنه سجن وصار من الصاغرين ، كما سيأتي على الأثر ، تحقيقاً لإبعادها عنه بقولها : « واثن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين » ؟ فالجواب عنه ان سجنه لم يكن نتيجة انه لم يفعل ما أرادت منه ، إذ هي ليس لها دخل في سجنه ، كما سيأتي توضيحه وتدليله ، وإنما كان سجنه برأي « العزيز » وآله ، ورأي آل « زليخا » بدون حضورها ولا أخذ رأيها في هذا الشأن ، لأن سجنه كان لأجل إبعاده عنها ، ولأجل إلصاق التهمة به عند الجمهور ، فهم عملوا هذا العمل لأمرين ،

كمن رمى حجراً ، فصاد صيدين ، وهذا سيأتي بيانه بما لا مزيد عليه ، وأما توعدّها له بأن يكون من الصاغرين ، فلم يقع ، لأن العبرة بالخواتيم ، وهو في الخاتمة كان من الكبراء المحترمين ، والأعزاء المعظمين ، ولا أدل على ذلك من كونه صار « عزيزاً لمصر » . بدلاً من فوطيفار ، ووزير ماليتها ، ووكيلاً عن مليكها . الأمر الذي به سقط « فوطيفار » ، فسقطت زوجه « زليخا » بسقوطه .

— مرحى —

الفصل الرابع

يوسف في السجن

آ (٣٥) * ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ ، مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا الْآيَاتِ ،
لَيْسَ جُنَّتْهُ حَتَّى حِينٍ ... *

افتتحت الجلسة وتليت الآية الخامسة والثلاثون فقام العلامة
الصندي وقال :

(ثم) بعد حين من الزمن ، بظن أن مقداره نحو ثلاث سنين ، أعني لما صار عمر يوسف نحو ٢٨ سنة ، تفكروا في هذا الحادث المشؤوم الذي حدث في القصر ، وخافوا سوء معرفته ، وأن يفهم الجمهور أن المراودة كانت من طرف زليخا ، لا من جانب يوسف ، فأرادوا تغشية الأبصار ، وقلب الحقيقة ، و (بدا) أي ظهر (لهم) أي للعزيز وأهليه وأقارب امرأته وفي مقدمتهم ذلك

الشاهد الذي هو من أهلها ومع الأسف ان ذلك الذي بدا لهم كان (من بعدما رأوا الآيات) وهي الشواهد على براءته ، وما كان ذلك إلا رعاية لمصلحتهم ، وسترأ لما حدث من زليخا ، وقلباً للحقيقة (ليسجننه حتى حين) أي سجنأ مؤقتاً روعيت فيه مصلحتهم الشخصية ، بينما يسكت عن زليخا الحب والغرام ، أو لينما تموت تلك السيرة السيئة ، أو حتى يثبت عند الناس ان الجاني هو يوسف لا غير ، وقد سجن كما أرادوا وأراد لهم ظلمهم واستبدادهم ، لأن السياسة ليس لها قلب ، وليس فيها شيء من الانصاف .

(ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين)

— ١ —

وقال الشيخ منصور السوداني :

لماذا سجن يوسف

لندع نساء مصر وقصتهن ، ونشرع في الافصاح عن الفكرة الجديدة التي طرأت « للعزیز ، وذويه :

إن المسألة منذ الآن ستنتقل لدور آخر ، وتتطور تطوراً مدهشاً ، لأن « العزیز » قنع قناعة تامة ببراءة يوسف ، وكان هو وقريب زوجته من أنصار هذا « الصديق » الكريم ، فكان مقتضى ذلك أن لا تمس كرامته بشيء ، ولعمري إن هذا العمل الجديد من « العزیز » بعد أن اتضحت له الحقيقة لهو منكر جداً ، غير أنه افترى ان المصلحة تقتضي سجن يوسف ، لكي يقول من سمع بالحادث ، أنه سجن لأن المراودة كانت منه ، ولأن سجن يوسف يفرق بينه وبين زوجته زليخا التي وصل حبها له لدرجة قصوى ، وبهذا يستريح « فوطيفار » فلا تشتغل

أفكاره فيها وفيه ، فلهذين الوجهين أراد العزيز أن يمسك بالجبل من طرفيه ، فأقدم على سجنه .

نعم أيها السادة لم يكذب يوسف يتوسم الراحة ، ويحيا الأمل ، بالخلاص من المكاره ، والابتعاد عن حوادث الزمان، حتى بفت بادخاله في السجن ، وكان أمر الله مقدوراً ، ولو شاء ربك ما فعلوه .

خلص يوسف من تهمة امرأة العزيز إياه ، ثم خلس من فتنة النسوة المصريات ودعاه به أن يمنع عنه كيد النساء فلبى طلبه ، فهو بعد ذلك كان يحسب أنه قدذلت كل عقبة في سبيل راحته ، ولم يكن يخطر له على بال انه سيدعى يوماً إلى السجن بعد ما تبرأت ساحته ، ولكن الظلم ليس له حدود تعرف ، وأعمال الاستبداد ليس لها غاية تقف عندها ، وما هو إلا أن تلقى تلك المفاجأة المستغربة التي تستفز النفوس بهدوء وسكينة شأن كل عاقل كريم ، أو شأن كل غريب ضعيف بين أحكام ظلمة لا يراعون خالقاً ولا ضميراً .



سجن يوسف سجنًا إداريًا ، عداً وزوراً، بحجة أنه الذي تقتضيه مصالحهم وتستدعيه السياسة ، وكثيراً ما ساقطت هذه الفكرة الادارية الأبرياء والأشراف إلى أعماق السجون ، وقضت عليهم بالاعتقال في « الجزر » تارة ، وتحت بطن الأرض أخرى ، كما قضت على يوسف اليوم ، فسجنوه ليبرءوا ساحتهم ، ويظهروا شرفهم ، على حسابه ، وعلى حساب ظلمه والاساءة اليه .

سجن يوسف حينما رأى « العزيز » نفسه كحجر بين مطرقتين ، فهو من جهة يريد أن يتستر ، ويخفي قباحة زوجته بحبسه يوسف ، ليقال انه هو المجرم دونها ، ومن جهة أخرى ، هو ما زال يعتقد في يوسف البراءة الكاملة ، كما يعتقد ذلك

فيه صهره الرجل الذي هو من « أهلها » ولكنه لم يعدم حلاً لهذا المشكل ، فرآى أن يسجن يوسف ، ولكن ليس في سجن العامة ، بل في سجن الأمراء والأشراف . وليس سجناً مؤبداً ، ولكن سجناً مؤقتاً إلى حين من الزمن ، ثم يعاد إلى القصر أو يفعل الله ما يشاء .

حالة يوسف عند دخوله السجن

كانت حالة يوسف عند دخوله السجن ، مزيجاً من الحزن والفرح ، فأما الحزن : فلكونه سجن ظالماً محضاً ، ولأنه سينجم عن سجنه سمعة سيئة ، عند من لم يكن مطلعاً على الحقيقة ، وهم الجمهور من الناس . وأما فرحه ، فلخروجه من بيت « فوطيفار » بيت الفتنة والآتاع ، إلى بيت العزلة والراحة ، قائلاً في نفسه : « حنانيك بعض الشر أهون من بعض » ، فهو لذلك كان مسروراً (نوعاً) ، لا سيما وإن سجنه كان على نوع ما بسبب دعائه وطلبه إذ كان قال : « رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه » (آ : ٣٣) دخل السجن وهو ساكت صامت ، مع أن سجنه كان بدون إقامة دعوى ، ولا إثبات ريبة ما عليه ، ولكنه ماذا يصنع ، وخصمه حاكمه ؟ !



« قضي الأمر وسُجن يوسف ! وصبر على هذه المصيبة التي نزلت به ظمناً وعدواناً ، صبر مترقباً من الله فرجاً قريباً ، وخلصاً عاجلاً ، فلا بد من تغير الأحوال ، وإن للدهر لدورة ، وإن سكك الإنسان ، فالدهر لا يسكت » قال الشاعر :

كن حليماً إذا بليت بغيظ وصبوراً إذا أتتك مصيبة
فالليالي من الزمان حبالى كل يوم يلدن كل عجيبة

نتائج سجن يوسف

قضى الأمر وسجن يوسف ! ولقد كانوا ظالمين له بسجنه ، ولذلك وقعت عاقبة ظلمهم على رؤوسهم ، فأما « العزيز فوطيفار » فانه نُحِتَ عن منصبه ، بجلس يوسف الصديق محله ، بدليل ما نقرؤه في هذه السورة الشريفة ، من أخذ يوسف لقب « العزيز » بعد ما كان لقباً لفوطيفار ، حتى أنه بعد ما أعطي يوسف « وزارة المالية » بمصر ، لم يرد ذكر لفوطيفار البتة ، بل أميت اسمه تماماً ، وأما « امرأة العزيز زليخا » فانها اضطرت أخيراً للاعتراف صريحاً أمام « مندوب » التحقيق ، فأعلنت أنها هي التي راودته عن نفسه ، فكان في ذلك انكشاف سرها ، وانتشاره لدى الجمهور .



قضى الأمر وسجن يوسف ! وكان سجنه هذا هو « الحلقة الأخيرة » من سلسلة ما اتت به من خطوب ، فمن فقد أم رؤوم ، إلى عيشة بين إخوة حسدة ، إلى إلقاء في غيابة جب ، إلى تشريد واسترقاق ، إلى بيع في سوق الرقيق ، إلى خدمة وعبودية ، إلى تلويث عرض بلا حق ، إلى غياهب السجن . ويمكن أن نعتبر أن سجن يوسف هذا هو « الحلقة الأولى » من سلسلة أسباب رقيه لوزارة المال بمصر ، وانه « النواة » التي أنبتت شجرة شهرته بالعلم ، ثم جاءت « ثمرة » رقيه العظيم .



قضى الأمر وسجن يوسف ، ولكن كان هذا الاعتقال بحسب النتيجة مفيداً له ، وذلك بسبب تعرفه في معتقله برئيس السقاة الذي أفاده الفائدة العظمى ، والذي كان خروجه من « مطبقة » بسببه ، كما كان بواسطته قد وقف مليك مصر « الريان » .

على ترجمة حال يوسف وفضله ، وأنه سجن عدواناً وهذا بخلاف ما لو بقي يوسف في قصر العزيز « فوطيفار » منعماً مرفهاً ، فإن ذلك لا يفيد شئاً ، ولا بقي في القصر ضعف ما لبث في السجن ، واقد صدق من قال : « رب محنة ، ضمنها منحة » فعزير مصر ، وإن يكن باقتصاره على قوله : « يوسف أعرض عن هذا » بدون أن يبعده عن القصر لقصر آخر — يكون قد أساء ليوسف ، لأنه لم ينجه عن مواقف التعب . كما انه بالعكس بفكرة سجنه إياه يكون قد أحسن إليه ، بحسب العاقبة ، وعليه فهو ما أساء إلا حيث ظن الاحسان ، وما أحسن إلا حيث ظن الاساءة .

(ثم بدا لهم من بعدما رأوا الايات ليسجننه حتى حين)

— ٢ —

وقال السيد عبد المحسن الصيداوي :

لي ههنا ملاحظات تسع :

متى سجن يوسف

الملاحظة الأولى : التعبير بكلمة « ثم » يفيد أنه كان مضى زمن بعد تلك الحادثة المشؤمة ، وكان هذا الزمن ليس بالقصير ، أي بعد ما مضى ما شاء الله أن يمضي من زمن فيه شيء من الطول ، فبدت لهم فكرة الحبس .

مرادفات لفظة « بدا »

الملاحظة الثانية .— من مرادفات « بدا » : عرض ، ظهر ، خطر ، لاح ، بان ، حدث ، عَنّ ، طرأ ؛ فمن التعبير « ثم » ومن هذه المفردات جميعها التي هي مرادفة

«لبدا» نعلم أن فكرة سجنه لم تكن حاصلة على أثر تلك الحوادث ، ولكن بعدما مضى ربح من الزمن ليس باليسير عرض لهم استحسان سجنه .

من هم الذين «بداهم» سجن يوسف وهل لامرأة العزيز دخل في ذلك
الملاحظة الثالثة — تعلم من كلمة «لهم» ان الذين استحسنوا سجنه كانوا جماعة ولعلم فوطيفار وذووه ، ونظن أن فوطيفار جمع ذوي قرابته وقرابة زوجته وذاكرهم في شأن يوسف وسجنه ، فرأوا جميعاً ان المصلحة تقضي ذلك .

ولسائل أن يسأل : هل لامرأة العزيز دخل في سجن يوسف وانها اشتركت معهم في المؤامرة ! والجواب ان جمهور المفسرين أو جميعهم فهموا أن لها ضلماً ورأياً في سجنه ، بل هي التي كانت مهيجة وحاملة عليه ، بقرينة قولها سابقاً : «ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين» .

وأما نحن فيظهر لنا أن لا دخل ولا رأي لامرأة العزيز في سجن يوسف ، وأما توعدا إياه سابقاً بالحبس ، فانما هو من قبيل أقوال العشاق ، الذين هم كالشعراء يقولون ما لا يفعلون .

ولكن هذا الرأي حدث جديداً لنفس فوطيفار عزيز مصر ، ومن اليه من ذوي قرابه ، وذوي قربي زوجته ، ولنا على هذا عدة أدلة :

١ — قوله تعالى «بدا» لأن فكرة سجنه إنما بدأت في ذهن فوطيفار وذويه دون امرأته ، وأما امرأته فإن فكرة سجنه لم تكن بدأت جديداً في ذهنها ، بل هي بالنسبة اليها فكرة بعيدة العهد قديمة ، اختلجت في ذهنها مرة ، إذ قالت : «ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن» ، أو «عذاب اليم» ، وثانية إذ قالت : «ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين» فهذه كانت فكرة شخصية فردية تردت في ذهن زليخا قبل الوقت الذي ظهر لهم فيه استحسان سجنه .

٢ — إن الله تعالى قال : « فصرف عنه كيدهن » ، فحيث أنه أبعد عنه مكر الماكرات ، لا جرم ان امرأة العزيز لا دخل لها في سجنه ، بل هي بهذا الصرف السماوي ، تحولت هي وغيرها من مفسدات على يوسف ، لمساعدات له ، ولذلك سيأتي أنهم لم يتكلمن في شأنه إلا بالجميل الطيب ، حيث قلن ، « حاش لله ، ما علمنا عليه من سوء » ، وتقول امرأة العزيز ، « الآن حصحص الحق ، أنا راودته عن نفسه ، وإنه لمن الصادقين » .

٣ — إن امرأة العزيز بظهور خيانتها سقطت من نفس العزيز ومن اليه ، فكيف فيما بعد يستأمنها ويشار كها في مذاكرة حبس يوسف ، ولا سيما وأن سجنه كان لأغراض منها إبعاده عنها ؟ . .

فيظهر من هذه الأدلة أن ليس لامرأة العزيز ضلع في سجن يوسف ، خلافاً لما ذكره المفسرون .

هذا ، ومع كل ما ذكر ، يحتمل أن يكون لزيلخا دخل في سجن يوسف ، وأن صرف « كيدهن » عنه إنما هو من جهة ما عيس العرض لا مطلقاً .

سجن يوسف كان بعد حادثة دعوة النسوة وخروجه عليهن

الملاحظة الرابعة — نرى أن العزيز وذويه لم « يبد » لهم أن يسجنوا يوسف بعد الحادثة الأولى التي جرت بين يوسف والتزيه وزليخا الطموحة ، وذلك لأنها حصلت في دائرة السكون وتحت طي الخفاء تقريباً ، وقد « بدا » لهم سجنه في الحادثة الثانية بسبب ما وقع للنسوة ثم لتصميم زليخا بكل شدة على فكرة المراودة — تكراراً — مهما كلف الأمر إذ بعد المفاوضة ظهر لهم أن المصلحة العمياء والسياسة الخرقاء تقتضي سجن يوسف ، فسجنوه ، وعلى العدالة السلام ، و « إن من الحسن لشقوة » .

الاستقلال الاداري لامراء ووكلاء الدولة المصرية في عهد مليك مصر الريان

الملاحظة الخامسة — يظهر من قرائن الأحوال ، ومن أمثال هذا المقال ، أن الأمراء ووكلاء الدولة في مصر ، في ذلك العهد ، كانوا متمتعين بما يشبه « الاستقلال الإداري » ، فكان كل مأمور في الحكومة يحبس ويطلق ، حسبما تسول له نفسه ، ولذلك حبس يوسف بمجرد إرادة فوطيفار عزيز مصر ، فهو فاه بكلمة « ليسجن » فكان مسجوناً ، بدون علم مليك مصر الريان ، وبلا إقامة دعوى وثبوت جرم .

دعوى امرأة العزيز هي من قبيل دعاوى التهم

الملاحظة السادسة — نعلم أن دعوى امرأة العزيز هي من قبيل دعاوى التهم ، ونعلم أن المدعى عليه في هذا النوع ينقسم الى ثلاثة أقسام ، فإن المتهم إما أن يكون « برّاً » ليس من أهل أمثال تلك التهمة ، أو « فاجراً » من أهلها ، أو « مجهول » الحال ، لا يعرف الوالي أو الحاكم حاله .

فإن كان « برّاً » لم تجز عقوبته اتفاقاً ، ولكن بالعكس ان الذي يعاقب هو المتهم . فيعاقب صيانة لتسلط أهل الشر والعدوان ، على أعراض ذوي البراءة ، وإن كان المتهم معروفاً بالفجور ، كالسرقة وقطع الطريق والقتل نحو ذلك ، حبس ، وكذلك اذا كان المتهم مجهول الحال ، لا يعرف ببر ولا فجور ، فانه يحبس حتى ينكشف حاله ، ويتبين للحاكم أمره ^(١)

وغني عن البيان أن المدعى عليه هنا وهو يوسف هو من القسم الأول ، أي أهل « البر » الذين لم يعرف لهم عدوان ، فقد مكث في بيت العزيز نحو العقد من

السنين لم يجترم فيها جريمة قط ، ولم يتهم بخيانة ، فيكون حبسهم اياه — على حسب هذه الشريعة — ظالماً محضاً ، وكان يجب اجراء العكس ، وهو حبس تلك المرأة التي اتهمته زوراً تأديباً لها ولأمثالها الشريرات أن يجسرن على أهل الفضل والدين ، ولكن العزيز وما اليه اعتبروا يوسف من القسم الثالث وهو من كان « مجهول الحال » فسجنوه .

بعض الانبياء والصلحاء الذين سجنوا

الملاحظة السابعة — هذا السجن الذي صار على يوسف يذكرنا بسجن « يحيى الحصور » (ع) لأن سجن يوسف كان بسبب رفضه الزنا ، وكذلك كان سجن « يحيى » بسبب اعتراضه على « هيرودس » لأنه لم يترك خطية الزنا مع « هيروديا » ، ويذكرنا بحبس « أبي حنيفة » أيام « المنصور » وحبس « الامام أحمد » أيام « المعتصم والواثق » وبحبس شيخنا « الشيخ عlish » وشيخنا « الشيخ حسن العدوي » في الحادثة العراقية .. والخ والخ

نحسر يوسف وهو في السجن

الملاحظة الثامنة — كأنني بيوسف لما سجن أمسى يقول : أَوْه . أَوْه . أَوْه ! اليوم يشاع غني مالا ينبغي ذكره ، ولا يليق بسمعتي ، فإننا لله ، كانت إخوتي تريد القضاء على « حياتي الجسمانية » والآن وقعت فيما ربما يقضي على « حياتي الأدينية والأخلاقية » ، فما من يوم يمضي الا والذي بعده شر منه ، سلمت من الرماد فوقعت في ذات الجمر ، فان موت الجسوم ، أهون جداً من موت الشرف .

أَوْه . أَوْه . أَوْه ؟ إخوتي في بُلَهْنِيَّة وترَف عند أيهم ، وأنا أُنْقَل من جب ، لبلاد غريبة ، لسوق بيع الرقيق ، لبيت الخدمة والاستعباد ، وأخيراً لأعماق السجون !!! ...

ذو العقل يشقى في النعم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعمُ

مكان سجن يوسف

الملاحظة التاسعة — قيل كان سجنه في « بوسير » من أرض مصر ، وأعمال « الجزيرة » في أول « الصعيد » من ناحية مصر (١) وأما العاصمة في ذلك العصر ، فهي « صوعن » ويقال لها « تانيس » وهي في بحرية مصر الحالية ، وكانت على فرع النيل الطائي ، وإلى شرقها البلاد الشرقية ، بلاد « جاسان » .

السجن في زمن النبي والصحاب

الملاحظة العاشرة — على ذكر « السجن » ، — والشيء بالشيء يذكر — نتذكر أنه لم يكن الحبس في زمن النبي ﷺ هو الحبس في مكان ضيق مجمل لذلك خصيصاً ، كما هو الحال اليوم ، وإنما هو تعويق الشخص ومنعه من التصرف بنفسه ، سواء أكان في بيت أو مسجد ، أو كان يتوكل الخصم أو وكيله عليه وملازمته إياه ، ولهذا سماه النبي ﷺ « أسيراً » أو باقاة حافط عليه ، وهو الذي يسمى « الترسيم » ، وهكذا كان الحال في زمن أبي بكر (رض) فلم يكن له حبس معد لحبس الخصوم ، ولكن لما انتشرت الرعية في زمن عمر بن الخطاب (رض) ابتاع بمكة داراً ، وجعلها سجناً يحبس فيها ، وهي دار صفوان بن أمية ، اشتراها عمر بأربعة آلاف درهم وجعلها حبساً (٢) ، وقد اتخذ معاوية بن أبي سفيان السجن سنة (٥٠) هـ ، وأما سجن يوسف . فاسمه في العبرانية « السُّمَر » ومعنى هذه الكلمة برج مستدير كان يسجن فيه ، وكان جزءاً من « الثكنة » التي كان فيها

(١) معجم البلدان .

(٢) ابن القيم

« فوطيفار » بالنظر الى كونه « رئيس الشرط » ، هذا مافتح الله به على عبده الحقير ، وفوق كل ذي بصارة بصير .
مرحى

ثم بدا لهم ، من بعد ما رأوا الآيات ، ليسجننه حتى حين

— ٣ —

قال العلامة البيروني :

ماهي الآيات التي أدت الى سجن يوسف

رب سائل يسأل ماهي هذه الآيات التي رأوها ؟ وكيف رأوها ؟ فنقول انهم رأوا بعضها رأي العين وبعضها رأي الأذن وبعضها رأي العقل والتجربة ، فمما رأوه رأي العين كون القميص قدّ من دبر ، ومما رأوه رأي الأذن اعترافها أمام النسوة يوم أن دعتن بانها هي التي راودته عن نفسه فاستصم ، ومما رأوه ، رأي العقل والتجربة هو ماجربوه على يوسف من حسن السلوك وكرم الاخلاق والأمانة في العمل ، حينما كان في القصر وكيلاً عن العزيز في وارداته ، ومصرفاته ، فهذه ثلاث آيات ، والآية الرابعة انها لم تدافع حين قال « الشاهد » : « وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين » بأن تقول مثلاً : « هذا لا يدل دلالة قطعية على كذبي وصدقه ، وعلى أنني كنت تابعة له من ورائه ، لاحتمال أنه عثر في مقدم قميصه حين إسرعه فانقد » أو تقول : « إنه قصدي وطلبني فغضبت عليه ، فهرب ، فعدوت خلفه وجذبت له كي أضربه ضرباً موجعاً ، فتمزق قميصه من دبر ، فأنا البريئة وهو المجرم » ، فلما لم تقل ذلك ، تبين أنها هي الطالبة للفحشاء .

والآية الخامسة سكوتها حينما سمعت قول العزيز : « إنه من كيدكن ، إن كيدكن عظيم » وقوله : « استغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين » ، فسكوتها

وعدم دفاعها عن نفسها حينما سمعت هذا القول هو آية باهرة على براءة يوسف كما قيل « السكوت إقرار » .

والآية السادسة هي ما كان يلوح على وجه امرأة العزيز نحو يوسف من الحب في بحر هذه المدة ، ثم ما كان يلوح على وجه يوسف نحوها من العفة ، قال « لاروشفوكو » : « ليس شيء يستر الحب حيث يكون ، ولا شيء يظهره حيث لا يكون » .

والآية السابعة : قوة شكيמתها بقولها : « ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم » ، فقد قالوا : « إن للبطل صولة وللكاذب دولة » وفي الحديث : من آيات المنافق : « وإذا خاصم فجر » . فهي صالت بهذا القول وفجرت ، ولكن يوسف اقتصر على مجرد قوله : « هي راودتني عن نفسي » ، فتلك الاستطالة وتزويق الطمن مع هذه المدافعة البسيطة الموجزة لهي من الآيات التي تميز المحق من المبطل .

الآية الثامنة : شكل عيونها وهيئتها وقت التكلم ، على حد ما قال عبد الله بن المعتز :

تفقد مساقط لحظ المريب فان العيون وجوه القلوب
وطالع بواده في الكلام فانك تجني ثمار الغيوب

وقول مجنون ليلى :

وكيف يفوت هذا الناس شيء وما في الناس تظهره العيون

وكثيراً ما كشفت العينان ما حاول صاحبها ستره من الأسرار النفسية ، والقضاة اليوم يستعينون بها على كشف الجرائم وقد قيل : « قلب الانسان في عينيه ، فما عليك إلا أن ترى وتقرأ » وقال بعض الحكماء ، « متى كلمتك المرأة ، فاسمع ما تقوله عيناها » .

حكى أنه تقدم للقاضي أياس بن معاوية أربع نسوة ، فقال أياس « أما إحداهن فحامل ، والأخرى مرضع ، والأخرى ثيب ، والأخرى بكر ، فنظروا فوجدوا الأمر كما قال ، قالوا : كيف عرفت ؟ - قال : « أما الحامل فكانت تكلمني وترفع ثوبها عن بطنها ، فعلت أنها حامل ، وأما المرضع فكانت تضرب ثديها ، فعلت أنها مرضع ، وأما الثيب ، فكانت تكلمني وعينها في عيني ، فعلت أنها ثيب وأما البكر ، فكانت تكلمني وعينها في الأرض ، فعلت أنها بكر ، (١) .

الآية التاسعة : اصفرار وجهها دون احمراره . كما حكاها بعض المؤرخين ، ومعنى هذا أن المرأة اذا خافت اصفر وجهها ، وهذا يكون حينما تكون مقهورة ، وإذا لم يكن لها دخل فيما يستحي منه خجلت وهذا فيما اذا لم تكن مقهورة .

الآية العاشرة : حالتها النفسية ، ولا ريب أن الناس يتفاهمون ببواطنهم أكثر مما يتفاهمون بظواهرهم وإن لاح لنا أن الأمر خلاف ذلك ، لطول عهدنا باستخدام اللغة في الإعراب عن مرادنا ، فما اللسان إلا الموضع والمفسر لما عساه أن يهيم على السامع من يحمل سر المتكلم ومما قد تحتويه أفكاره ، ولا يمكن أن تعبر عنه تمام التعبير ألفاظه ، والحاذاق لا يعول فيما يراه من رضى صاحبه أو غضبه ، ومن صدقه أو مكره ، ومن أمانته أو خيانتة - على شيء غير ما يتفرس في أسارير وجهه وغمزات طرفه وحركات أعضائه .

فجملة الآيات هذه ، على حسب ما فهمناه واستخرجناه ، عشرة ، ولهذا أتى بصيغة الجمع فقال : « من بعد مارأوا الآيات » .

ذلك أن تقول إنها آية واحدة فقط ، هي آية القميص ، وإنما جمعها على طريقة

العرب وسنتهم من الإتيان بالجمع مراداً به الواحد ، كما تقدم مبسوطاً مثلاً موضحاً .
في خطاب أختنا السيدة عليّة النجفية حفظها الله ، في خطابها على قوله تعالى « يدعوني
إليه » فانظره إن شئت .

فالقوم من بعد ما رأوا تلك الآيات ، ومن بعد ما تبين لهم الخيط الأبيض من
الخيط الأسود ، واتضحت لهم براءة يوسف تماماً ، وارتاح ضميرهم من هذا القبيل
— من بعد ذلك كله سجنوه ، ظلماً وعدواناً ، فصدق عليهم أنهم صرعوا البرهان
بالسلطان ، وصادموا الحق بالقوة ، وقابلوا الآيات التبرات ، بالسجن في أعماق
الظلمات ، كان هذا كله وهم يعلمون أنهم ظالمون معتدون ، ولكن هل تظنهم بعد
ذلك أصغوا لنداء ضميرهم ؟.. كلا .. فأنهم لو صفوا لما تأثروا على اعتقاله ساعة واحدة .
على أنك لو سبرت غور قلوبهم لرأيتهم يناجون أنفسهم بشبهة أنهم عمدوا إلى ذلك ،
ليقال ان المراودة كانت منه لا منها ، ولإخاد ثورة الحب بالتفريق بين المحب
والمحبوب يناجون أنفسهم بذلك ، ليدفعوا تبكيت ضمائرهم فهذا الاعتقال هو أشبه
بما يسمونه اليوم « اعتقالاً إدارياً سياسياً » يرتكز على القوة ، لا على الحق .

وهم لم ينووا أن يسجن مؤبداً ، ولكن « حتى حين » أي الى زمان انقطاع
القالة ، أو إلى أن تزول حرارة الحب ودواعيه ، أو إلى مدة يرون فيها رأيهم ،
أو إلى مدة يفعل الله فيها ما يشاء ، وعلى كل فليس هذا من قبيل ما يسمونه اليوم
« التوقيف المؤقت » الذي يكون عند ما يكون الحاكم مشغولاً عن تعجيل الفصل
بين المتخاصمين ، أو يكون عنده حكومات سابقة ، فيسجن المتهم من حين يُطلب
إلى أن يفصل بينه وبين خصمه ، ولكن هو كان للأسباب أو لبعض الأسباب التي
قدمناها ، والله تعالى أعلم .

سجن الفتيين ورؤياهما

آ (٣٦) * ودخل معه السجنَ فتَيان ، قالَ أحدهُما :
 إِنِّي أَرَانِي أُعْصِرُ خَمْرًا ، وقالَ الآخَرُ : إِنِّي أَرَانِي أُحْمِلُ
 فوقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطيرُ مِنْهُ ، نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ، إِنَّا
 نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ . *

افتتحت الجلسة وتليت الآية السادسة والثلاثون فقام السيد
 الطنطاوي (١) وقال :

لقد تقدم أنهم مجنوا يوسف (و) صادف أنه (دخل معه السجن فتيان)
 عبدان المالك الريان مستخدمان عنده ، وهما رئيس السقاة « نبو » ورئيس الخبازين
 « ملحج » (٢) ترقى اليه أنها يسمانه أو أنها دخلا في المؤامرة على خلعه ، فحبسا
 ساعة حبس يوسف عليه السلام ، ثم بعد زمن رأى كل منهما رؤيا ، فأرادا أن
 يقصا ما رآيا على يوسف فـ (قال أحدهما) وهو (نبو) رئيس السقاة ، بلسان
 المستفهم المستفتي (إني أراي) في المنام (أعصر خمرا) أي عنباً ، تسمية للعنب بما
 يؤول اليه — وقال الزجاج وابن الأنباري : « العرب تسمي الشيء باسم ما يؤول
 اليه إذا وضع المعنى ولم يلتبس ، يقولون فلان يطبخ الآجر ويطبخ الدبس ، وإنما
 يطبخ اللبَن والعصير ، وقال قوم إن بعض العرب يسمون العنب خمراً ، لقي
 بعضهم أعرايياً معه عنب ، فقال له : « ما معك ، قال خمر » ، وفي قراءة عبد الله :

(١) نسبة الى طنطا من البلاد المصرية .

(٢) وفي رواية يسمى « ملجث » .

« إني رأيتني أعصر عنباً » — (وقال) الفتى (الآخر) وهو « ملحب » رئيس الخبازين (إني أراي أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه) ، فرجاءً ولفظاً (نبثنا بتأويله) ، أي بعاقبة ما قصصناه عليك (إنا نراك من المحسنين) الذين يحسنون عبارة الرؤيا ، أي يجيدونها — ، كأنهم رأياه يقص عليه بمض أهل السجن رؤياه فيؤولها له ، فقالوا له ذلك ، أو رأياه من العلماء ، لأنها سمعاه يذكر للناس ما علما به أنه عالم ، أو رأياه من المحسنين لأهل السجن ، فقالوا له أحسن إلينا بأن تفرج عنا الغمة بتأويل ما رأيناه إن كانت لك يد في تأويل الرؤيا .

وقد قيل كان يوسف يُطرفهم في السجن بالحكايات النادرة المثال ، ويشنف آذانهم بالعظات ، وإن أصاب بعضهم انحراف صحي عاجله ، فكان عوناً لهم في السجن على المصائب ، ومجناً يدفعون به أحزانهم ، وبالجملة كان يحتفي بالمسجونين ، احتفاء يليق بهم ، ويخفف من وطأة سجنهم ، وشدة عنائهم .

إن وجوده في السجن وكدره من الحيف والظلم الذي وقع عليه ، لم يمنعه من اكتساب جميل الذكر ، ولا قطعه عن اغتنام جليل الشكر ، ولا حال بينه وبين استعمال الاحسان إلى أهل السجن ، لا سيما هذان الفتيان اللذان عهد إليه بهما .

وهاتان الرؤيان هما من قبيل الرؤى الصادقة المعتبرة التي لها تأويل ، لأن الرؤيا الصادقة المعتبرة لا تتوقف على دين ، بل تقع لمن يكون وثيقاً واجهداً وفاسقاً ، ولذلك اعتبرها يوسف وأولها لها .

(ودخل معه السجن فتيان)

— ١ —

قال الامام الدمشقي :

من هما الفتيان السجينان مع يوسف وما سبب سجنهما

كان « عزيز مصر » صمم على سجن يوسف ، ولكنه — مع ما في الحكومة من الاستبداد والفوضى — كان يتخوف من الملك « الريان » أن يسأله عن سبب سجنه إياه ، فاتفق أن الملك أصدر إرادته بسجن شخصين من مستخدمييه أحدهما ساقيه وصاحب شرابه واسمه « نبو » ويقال له « رئيس السقاة » والآخر خبازه وصاحب طعامه واسمه « ملحب » ويقال له « رئيس الخبازين » ، فانتهر « العزيز » الفرصة ، وحبس يوسف معهما ، وأقامه عندهما ليعخدمهما ، وليقوم بمصالحهما في السجن ، فقام بما أسند إليه أحسن قيام ، وعمل كل ما نيط به على أتم الوجوه .

والسبب في سجن الفتيين ، الساقى والخباز ، هو أنه يظن أن زمن الملك « الريان » الذي هو من الهكسوس ، كان زمن اضطراب وضعف في السلالة الخامسة عشرة ، ويظن أن « الملك الريان » كان هو الأخير أو قبل الأخير منها ، وأنه كان حصل تواطؤ بين بعض أشرف مصر الوطنيين ، وبين هذين الفتيين ، لأجل نقل الملك من الغربة إلى الوطنيين ، أو أن التواطؤ كان حصل بين السلالة السادسة عشرة من الهكسوس وبين هذين الفتيين ، لأجل نقل الملك من نخذ إلى آخر ، أي من السلالة الخامسة عشرة إلى السلالة السادسة عشرة .

وقيل أن « نبو » رئيس السقاة ، اتهم بدس السم في شراب الملك ، وأن « ملحب » رئيس الخبازين ، اتهم بدس السم في خبزه ، لذا أمر بسجنهما .

وهنا بدا لي الملحوظتان التاليتان في هذا الصدد :

غاية عزيز مصر من سجنه يوسف مع الفتيين

الملحوظة الأولى — كأني بعزير مصر رمى حجراً فصاد طيرين ، قصد بسجن يوسف أن يظهر للناس انه سجنه تأديباً له ، لأن المراودة كانت من جانبه لا غير ، كما قصد أن يقوم في السجن بخدمة رئيس السقاة ورئيس الخبازين ، لأنها وطنيان وعزير مصر وطني أيضاً ، وهو إذا سئل من قبل الملك « الريان » عن ذلك لا يعدم جواباً مرضياً أن يقول له : إنني أرسلته للسجن لأجل أن يكون عيناً على هذين الرجلين اللذين هما ضد الملك .

كما أنه أرسل سهماً فأصاب صيدين ، حينما أمر يوسف بخدمتهما في الحبس ، لأنه قصد إذلال يوسف ، وقصد إكرام الفتيين ، لأنها مثله وطنيان ، ولما ذكر كله كان دخول يوسف في المعتقل في الساعة التي دخله فيها هذان الرئيسان ، من بطانة الملك وحاشيته .

« الفتي » « والرب » في اصطلاح المصريين أيام يوسف

وهكم في الشرع العربي

الملحوظة الثانية — نعلم من قوله : « ودخل معه السجن فتيان » ومما سيأتي من قوله : « أما أحدكما فيسقي ربه خمرأ » ان اصطلاح المصريين الذي كان أيام يوسف ، وجري هو عليه — هو أنهم كانوا يطلقون كلمة « فتي » على المستخدم في الحكومة كما تطلق على « العبد » كأن المستخدم في نظر الملك عبد من عبيده ، وأنهم كانوا يطلقون كلمة « رب » على « الملك » كما تطلق على « المالك » ، كأن

الملك في نظر الرعية بمنزلة « الرب » أو هو الرب بمعنى المالك أو المربي لرعيته
بضعه وحدوده .

هذا هو عرف المصريين القدماء في عصر يوسف أما تسميتهم المستخدم في
الحكومة أو تسميتهم العبد « فتى » فهو أدب حسن ، أقره الشرع الاسلامي وحسنه ،
وأما تسميتهم الملك أو المالك « رباً » فهي عنه الإسلام في آخر الأمر ، وأرشدنا
أن نسمي الملك كالمالك « سيداً » .

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة : « لا يقولن أحدكم : عبدي ،
فلكم عبيد الله ، ولكن ليقل : فتاي ؛ ولا يقل العبد ربي ولكن ليقل سيدي »
وفيه أيضاً من حديث أبي هريرة : « لا يقل أحدكم اسق ربك ، أطعم ربك ،
وخى ربك ، ولا يقل أحدكم ربي ، وليقل سيدي ومولاي ، ولا يقل أحدكم :
عبدي ، أمتي ، وليقل : فتاي ، غلامي » .

(قال احدهما : إني أراني أعصر خمراً ، وقال الآخر : إني أراني أحمل ... الخ)

— ١ —

وقال الاستاذ السامرائي (١) :

رؤيا الفتيين

بعد ما دخل يوسف السجن مع الفتيين ، لم يلبث الفتيان أن رأى كل منها
حلماً في ليلة واحدة ، فدخل يوسف اليهما في الصباح على جاري عادته ، لأنه
كان يخدمهما بأمر سيده فوطيفار ، فاذا هما مغتمان ، فسألها : ما بالهما ، ولماذا وجهها
مكدان ؟ — فقالا له : « حلمنا حلماً وليس من يعبره » ، قالا ذلك ، لأنه كان في

(١) نسبة الى سامراء من بلاد العراق .

ذلك العصر رجال ، يعلمون تفسير الأحلام ، ويتخذون ذلك عملاً خاصاً ، وكانوا يسمون سحرة وحكماء ، ولم يكن أحد منهم في السجن ، ليُفسر لها حلميهما ، ولكن يوسف نفي حصر القدرة على تفسير الأحلام في أشخاص مخصوصين ، وأثبت أن ذلك فضل الله يهبه لمن يشاء ، من أهل الذكاء وأصحاب القياس ، فقال لهما : أليست التعمير لله ؟ ، قصاً عليّ ما رأيتهما - فقص رئيس السقاة « نبو » حلمه على يوسف وقال له : « بأبي أنت وأمي ، نمت الليلة ، فشعرت براحة وسرور ، وهدوء في نومي ، ورأيت أمامي كرمه ، وفي الكرمه ثلاثة أغصان ، وهي مفرخة ، قد طلع زهرها ، وأنضجت عنا قيدها عنباً ، وكانت كأس الملك الريان في يدي ، فأخذت العنب ، وعصرته في كأس الملك ، وسلمته الكأس في يده ، فأفدني تأويله . أمتع الله بك ، وخلاك ذم » .

ثم قص رئيس الخبازين « ملحج » حلمه قائلاً : « نمت الليلة فشعرت بقلق واضطراب وتشتت فكر ، ولم أذق في ليلتي رقاداً هنيئاً ، وبينما كنت نائماً ، رأيتني أحمل على رأسي ثلاثة سلال مملوءة خبزاً حواري ، وفي السلال الأعلى أنواع من الخبز مما يصنع للملك الريان ، والطيور تأكله من السلال عن رأسي » .

هذا منام الساقى والخباز وهذا كلامهما ، ثم قال أحدهما ليوسف « هذا ما رأيناه قصصناه على سمعك ، فما قولك ؟ فمن فضلك نبئنا تأويل ما رأينا حتى يتبين لنا الخيط الأبيض من الخيط الأسود ، نزجوك أخبرنا بسريره ، وعرفنا بما يصير إليه حلمنا ، فقد غمت علينا حاله ، واستغلق مآله ، أنز نفوسنا بتفسيره ، وأفتنا بعبارته ، وهذا وقت الحاجة اليك ، وإنا نقرأ آية الاحسان على وجهك ، فانك لا تخذل من قصدك ، وتعلم ما لا يعلمه غيرك ، وتسبحو بملك ولا تبخل به ، فأضف منتك هذه الى سائر منتك وصل نعمتك علينا بنظائرها من نعمك » .

وهنا أبحاث مهمة :

ملوك مصر الاقدمين والخمر

(١) يظهر ان ملوك مصر الأقدمين ؛ ما كانوا يشربون الخمر التي يشربونها من الأسواق أو الحانات ، بل كانوا يتخذون خدماً أخصائين لعملها خصيصاً لهم ، ويرى علماء الآثار في جدران قبور المصريين صور رجال يقطفون العنب ويفرطون من المناقيد حبه ، ويعملون العصير في دنان من فخار يضعونها في المخازن.

اقوال في الخمر ومضارها

(٢) قالوا : « الخمر كالرأبي ، تأخذ من العقل أكثر مما تعطي » ، ولما خرج عبد الرحمن الداخل من البحر أول قدومه الى الاندلس ، أتوه بخمر ، فقال : « اني محتاج لما يزيد في عقلي ، لا لما ينقصه » ، وكان العباس بن علي المنصور يأخذ الكأس بيده ثم يقول : « ها ، أما المال فتبلمعين ، وأما المروءة فتخلعين ، وأما الدين فتفسدين » ، وسقى قوم أعراية مسكراً ، فقالت : « أشرب نساؤكم مثل هذا ؟ » قالوا : « نعم » قالت : « فما يدري أحدكم من أبوه ... وقيل لعدي ابن حاتم : « ألا تشرب الخمر ؟ » - فقال : « لا أشرب ما يشرب عقلي » ، وترك رجل النبيذ ، فقيل له : « لم تركته » وهو رسول السرور الى القلب ! » - فقال : « ولكنه بثس الرسول ، بيعت الى الجوف ، فيذهب الى الرأس » ، وقيل للعباس ابن مرداس : « ألا تشرب الخمر ؟ » - فقال : « لا أرضى أن أصبح سيد القوم ، وأسي سفيهم » .

هذا قطرة من بحر ، ودرة من عقد نحر ، مما أثر في الخمر عن عقلاء العرب وغيرهم .

وأما الأطباء فقد اتفقوا على أن الخمر تضر بأجهزة الجسم المختلفة ، إذ تضعف

المعدة وتحدث فيها الالتهاب والتقرح والسرطان ، كما أنها تضر بالكبد فتحدث فيها ضخامة أو ضموراً وتلفاً وتوقفاً عن العمل ، وتضر بالرئتين فينجم منها السل ، وقد قالوا في ذلك : الغول ^(١) يؤدي الى فراش السل ، كما أنها تؤذي القلب وعروق الدم فتحدث فيها أمراضاً شتى تؤدي بصاحبها الى الهلاك البطيء أو السريع وتضر بالكلية وينشأ عنها أمراض مدنفه شتى « وتؤدي الحصين بمحصول الضمور وقلة أو فقد الحيويينات المنوية في النطفة ، كما أنها تحدث في الجلد حكاً وأكال ودمامل وبثور وغيرها من الامراض الجلدية ، وأخيراً تضر بالملخ والمخيخ والنخاع الشوكي والأعصاب ويتجلى ذلك بالصداع والأرق والرجفة في الرأس واليدين وركاكة اللسان والتلعثم وفقد الذاكرة ونقص الحفاكمة والتمييز ، ثم يصبح الشخص مستعداً للإصابة بداء الصرع والهزيان والعمه الباكرو وتغير طباعه فيغدو أنانياً ، مهملًا لواجباته ميالاً لمعاشره الأدياء والسفهاء ، قليل التحسس بصفات الشرف والمروءة .

الخمر عند الأمم الغربية وفي كتب الدين المسيحي وفي القرآن والحديث

(٣) وأما عند الأمم الغربية ، فقد انشئت في أنحاء العالم المنتمين جميعات متعددة ، لتحريم الشراب ، وأخذ الشاربين بالعقوبة ، تفادياً من المضار التي تنجم عن الغول ، وما يجلبه قانون الوراثة ، من خروج نسل ضعيف ، والجنون والسل الرئوي وزيادة معدل الجرائم ،

حقاً إن من آيات العبرة ، ومن الرجوع الى دين الاسلام أن الأفرنج الذين يستبيحون شرب الخمر ديناً ، ويستحسنونه أدباً ومدنية ، ويصنعون منه أنواعاً

(١) ويسميه البعض بالكحول وهو الشراب المسكر .

كثيرة ، يربحون منها ألوف الألوف من الدنانير في كل عام — قد ألفوا جمعيات للنهي عن الخمر ، والسعي لإبطالها .

ومن آيات العبرة فيها ان العرب كانوا في الجاهلية يعدون من منافع الخمر الحماصة في الحرب ، وقوة الاقدام فيها ، ولكن ثبت عن الطب أن السكر يضعف الجنود عن القيام بأعباء الحرب ، واحتمل أثقالها ، فقررت بعض الدول إبطال الخمر الوطنية ، الشديدة الرواج في بلادها ، مدة الحرب ، مع ان أكثر انتفاعها المالى منها ، قال تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (٤١ : ٥٣) ومع هذا كله لا يزال بعض المسلمين (جغرافياً) يتعاملون من تحريم الاسلام للخمر !!!

ومن إحدى العجائب أن كتب المسيحيين الدينية تقول : إن أول معجزة جرت على يد المسيح (ع) حدثت في قرية « قانا الجليل » ، وهي تحويله الماء خمرأ ، وذلك ان المسيح (ع) دُعِيَ هو ووالدته وإخوته وتلاميذه لعرس في « قانا الجليل » وهي قرية على بعد نحو ساعتين على الماشي من بلدة « الناصرة » ، لجهة الشمال الشرقي عنها ، فذهب وجلس مع الناس ، وصار أهل العرس يصبون للمدعوين خمرأ ، وكان ان الخمر التي عندهم فرغت ، قبل أن يشرب كثير من المدعوين ، فوقع أهل العرس في حيرة وخجالة من الناس . فقالت له أمه : « ليس لهم خمر » ، وكان في دار أهل العرس ستة أجران حجرة يسع كل منها نحو ثمان جرار ماء اعتيادية ، فأمر المسيح الخدام أن يملأوا هذه الأجران ماء ، فملأوها حسب أمره الى فوق ، ثم أمر أن يستقوا منها ويقدموا للرئيس المتكأ فامتلأوا ، ولما ذاقها الرئيس ، شهد للجودة الممتازة في هذه الخمرة المقدسة ، وأدعى شهادته جهاراً بعد أن نادى العريس وشكره ، لتقديمه خمرأ أجود مما شربوا أولاً ؛

وقد نهى نبينا عنها ، إذ ورد عن عقبة بن الحارث انه قال : « جيء بالنعمان أو

ابن النعمان شارباً ، فأمر رسول الله (ﷺ) من كان في البيت أن يضربوا ، قال : فكنت انا فيمن ضربه ، فضر بناه بالنعال والجريد « رواه البخاري ، وفيه : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا ينتهب نهبة يرفع الناس اليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن » ، وفيه : « كل مسكر حرام » ، وروى الحاكم من حديث ابن عباس : « اجتنبوا الخمر ، فانها مفتاح كل شر » .

وقد نهى القرآن عن الخمر ، لأن العرب كانوا في الجاهلية وصدر الاسلام يشربونها ، فنزل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ ، وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ (٤ : ٤٢) فحرمها بذلك في الأوقات القريبة من وقت الصلاة ، لأنه نهى عنه قرب الصلاة في حال السكر . فلم يبق للمصر على شربها إلا الاغتباق بعد صلاة العشاء ، وكذا الصبح من بعد صلاة الفجر ، لمن لا عمل له ، ولا يخشى أن يمتد سكره الى وقت الظهر ، ثم نزل قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهَا إِثْمٌ كَبِيرٌ ، وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ ، وَإِثْمُهَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهَا ﴾ (٢ : ٢١٩) ، فشربها قوم لقوله : ﴿ مَنْفَعٌ لِلنَّاسِ ﴾ ، وتركها آخرون لقوله : ﴿ إِثْمٌ كَبِيرٌ ﴾ ، ثم نزل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، إِذَا خُمِرُوا بِالْخِمَرِ وَالْمَيْسِرِ وَالْأَنْصَابِ وَالْأَزْلَامِ مِنْ عَمَلٍ الشَّيْطَانِ ، فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » ، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم المداوة والبغضاء في الخمر والميسر ، وَيَصْنَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ، فهل أنتم مُنْتَبِهُونَ ؟ ، وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا ، فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ (٥ : ٩٣ - ٩٥) نزلت هذه الآيات ، فقال عمر (رض) : « أقرنت بالميسر والأنصاب والأزلام ؟ بعداً

لك وسُحِقاً ، ، فتركها الناس جميعاً ، وروي أن عمر لما سمع « فهل انتم منتهون » قال « اتقينا، اتقينا » .

والحكمة في تحريم الخمر بالتدريج أن الناس كانوا مفتونين بها ، حتى أنها لو حرمت في أول الإسلام ، لكان تحريمها صارفاً لكثير من المذنبين لها عن الإسلام ، بل عن النظر الصحيح المؤدي إلى الاهتداء به ، لأنهم حينئذ ينظرون إليه بعين السخط ، فيرونه بغير صورته الجميلة ، فكان من لطف الله تعالى ، وبالغ حكمته أن ذكرها أولاً في سورة النساء بما يقتضي تحريمها في الأوقات القريبة من وقت الصلاة وإباحتها فيما عدا ذلك ، ثم ثانياً ذكرها في سورة البقرة بما يدل على تحريمها مطلقاً ، لكن دلالة ظنية ، فيها مجال للاجتهاد ، ليتركها من لم تتمكن فتنها من نفسه ، ثم تركهم الله تعالى على هذه الحال زمناً قوياً فيه الدين ، ورسخ اليقين ، وكثرت الوقائع التي ظهر لهم بها إثم الخمر وضررها ، فنزلت آية سورة المائدة بما يدل على تحريمها صريحاً في كل حين .

والخلاصة إن الله تعالى حرم الخمر تحريماً قطعياً في معظم الأوقات ، ثم حرمها تحريماً ظنياً في باقي الأوقات ، ثم تحريماً قطعياً مستغرقاً لكل زمن .

هل كانت الخمر حلالاً عند المصريين والرعاة في زمن يوسف

(٤) إن قال قائل : هل كانت الخمر حلالاً عند هؤلاء المصريين والرعاة ، حتى كان الملك يشربها علناً بلا نكير ! قلنا إن الخمر محرمة بالسنة جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، على جميع الشعوب والأمم ، فالمصريون والرعاة وغيرهم كانوا يشربونها في حال أنها محرمة عليهم ، ويحتمل أن المحرم عليهم هو القدر المسكر فقط ، وإن ما دون القدر المسكر حلال ، وهو ظاهر كتب المهديين الموجودة اليوم عند اليهود والنصارى ، فلما كان من حكمة الله تعالى سير أمور البشر كلها

على سنن الترقى التدريجي ، الذي من مقتضاه أن يكون الآخر أكمل مما قبله ، أكمل الله دينه العام بإزال القرآن الحاوي تحريم الخمر مطلقاً ، لما فيها من الضرر الذاتي .

الخمر عامة هو ما يعصر او ينبذ

(٥) قول رئيس السقاة : « إني أراني أعصر خمرأ » لا يدل على أن الخمر هي ما يعصر فقط ، بل إنما يدل على أنهم كانوا يستعملون هذا النوع ، فلا ينافي أن الخمر قد تكون ما ينبذ نبيذاً أو يقطر تقطيراً ، فاتخاذ المصريين الخمر من العصير ، لا ينافي اتخاذها من غيره ، وليس في كلام رئيس السقاة ما يدل على الحصر ، دع ما يمكن ان يقال : « إن هذا القول محكي عن أعجمي في بيان ما رآه في نومه » ، مما هو معهود في بلاده ، فليس بحجة في لغة العرب ولا في صناعتهم وصناعة غيرهم للخمر ، وبالأولى لا يكون حجة في الشرع ، فالخمر لغة وشرعاً ، أعم مما يتخذ من العصير .

الرؤى المصرية

(٦) نعلم من صحيحي الشيخين وغيرها من الأسفار الصحيحة أن النبي ﷺ كان في بدء الوحي ، لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، أي تجيء كما يراها صريحة ظاهرة لا تحتاج إلى تفسير ، قالوا : وهذا هو الغالب في رؤى أهل الخير والصلاح ، فلذلك ولما كان « رئيس السقاة » مسجوناً ظلاً ، وكان يرى الساحة مما اتهم به ، كانت رؤياه صريحة ، ليست من قبيل الاستعارات والتمثيل ، وهذا بخلاف رؤيا « رئيس الخبازين » التي هي من نوع المجاز والمثال ، لأن الظاهر من الحكم عليه بالموت ، أنه كان غير سليم الساحة ، وإنما قلنا إن رؤياه مجاز ، لأن الخبز الذي رأى أن الطير تأكله هو حياته ، لأن بالخبز حياة

الانسان ، وقوام الأجسام ، ولذلك ناسب تأويله بالرأس ، الذي به حياة سائر البدن لأنه العضو الرئيسي .

الطرح ضمير المفرد على مثنى والجمع في لغة العرب

(٧) إنما قيل « بتأويله » ولم يقل بتأويلها ، لأن من سنن العرب ، أن تجمع بين شيئين اثنين ، ثم تذكر في الضمير أحدهما دون الآخر ، وتريد بالضمير كليهما معاً ، يقولون : « رأيت زيداً وعمراً وسلمت عليه ، أي عليها ، قال الله عز وجل : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْتَنِبُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ ، وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (٣٥:٩) وتقدير الكلام ولا ينفقونها في سبيل الله ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْهَا ﴾ (١١ : ٦٢) وتقديره انفضوا إليها ، وقال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ ﴾ (٩ : ٦٣) والمراد أن يرضوها ^(١) ومنه قوله تعالى فيما يأتي : ﴿ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ (آ : ٤١) ، تقديره قضي الأمران اللذان فيها تستفتيان ، وقوله : ﴿ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ ﴾ (آ : ٤٣) أي في رؤْيَيَّ ، ويوجد من مثل ذلك في كلامهم الشيء الكثير .

امسان يوسف وهل السجن

(٨) إنما قال له : « إِنَّا نراك مِنَ الْمُحْسِنِينَ » لأنه كان إذا احتاج من أهل السجن إنسان جمع له ، وإذا مرض إنسان في السجن عاده وقام عليه ، وتعاوده وداواه ، وإذا انقطع رجاء إنسان في سجنه ، واشتد عليه فيه بلاؤه جعل يقول له : « أبشر واصبر تؤجر ، فإن لهذا أجراً ، ولهذا ثواباً » ، وكان إذا ضاق على أحد المكان أوسع له ، وكان يعزي حزينهم ، ويجتهد لربه في عبادته ، ويعبر لهم أحلامهم . ^(٢) فكانه جعل من السجن مدرسة ومستشفى ومعبدا وجمعية خيرية ومجالس وعظ وتذكير .

(١) فقه اللغة .

(٢) جامع البيان

الاعتراف بإحسان يوسف

(٩) كل من كان من أهل الاصلة يُسرّ بأن يقر بالفضل لأهل الفضل ، ويعترف بالإحسان لأهل الاحسان ، كما وقع من هذين الرئيسين . فيظهر أنها كانتا كبيرتي النفس ، أصيلي المحتد ، وهذا بخلاف طائفة من الناس ساءت سريرتهم ، وسفلت طباعهم ، وصغرت نفوسهم ، فهؤلاء يفكرون فضل الفضلاء ، ويحجدون إحسان المحسنين ، بل قد تحملهم الكبرياء على إيقاع الأذى بمن أحسن اليهم ، لا سيما إذا كان هؤلاء المحسن اليهم ممن ولدوا في الفاقة وخفض العيش ، وساعدتهم — الأقدار على الارتقاء ، فرجما حدثتهم أنفسهم الأماراة بإنكار إحسان المحسنين اليهم بل بايذائهم بل بإهلاكهم .

نهاية الجزء الأول

* * *

فهرس الجزء الأول من كتاب موتمر تفسير سورة يوسف (ع).

الصحيفة والموضوع :

- ٥ اهداء الكتاب ٧ كلمة سماحة المفتي العام الدكتور ابو اليسر عابدين ٨ هذا التفسير لابن المؤلف الدكتور عبد الحليم العلمي ١٣ تقديم الكتاب لفضيلة الاستاذ محمد بهجة البيطار ١٧ رسالة الاستاذ الامام السيد محمد زشيد رضا: لمؤلف الكتاب ١٨ التعريف بمؤلف الكتاب لفضيلة الاستاذ محمد علي عمار ٢٦ إيضاح الرموز الواردة في التفسير

٣. الباب الأول :

٣. الفصل الأول — في دفع شبهة المجاردة على سورة يوسف ٣٢ بيان بالمناسبة بين سيدنا محمد (ﷺ) مع قريش وبين يوسف الصديق مع إخوته. ٣٦ ايقاف النبي (ﷺ) على طبائع يهود المدينة ٣٧ بيان بالمناسبة بين نبينا (ﷺ) مع اليهود وبين يوسف الصديق مع إخوته . ٤. الفصل الثاني — في هل اخوة يوسف أنبياء

- ٥١ الفصل الثالث — في شيء عن حياة إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام. ٥٢ حياة إبراهيم (ع) ٥٥ حياة إسحاق (ع) ٥٧ حياة يعقوب (ع) . ٦١ الفصل الرابع — في زوجات يعقوب (ع) ٦٧ التشاؤم والتفاؤل من اسم يوسف ٦٨ التشاؤم والتفاؤل من الأسماء .

- ٧١ الفصل السادس — في تقليد المفسرين بعضهم لبعض . ٧٣ الفصل السابع — في أبطال قصة يوسف وأن القصة سورة طبق الأصل. حياة الشعب الاسرائيلي .

الصحيفة والموضوع

٧٥ الباب الثاني :

٧٥ الفصل الأول — في متعلق البسملة : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

٧٧ مقدمة الشيء المقصود الذي انعقدت له سورة يوسف : آ (١) ﴿ آ لربك تلك

آيات الكتاب المبين ﴾ — (آ لربك) كلمات القرآن مؤلفة من حروف الهجاء

المعروفة لدى العرب ٧٨ نظائر لفظة آ لربك في التوراة والانجيل ٧٩ الأساليب

المبتكرة في القرآن ٨٢ (آيات) معنى آيات القرآن ٨٣ (الكتاب) أسماء

القرآن ٨٧ (المبين) بيان القرآن وسهولته ٨٨ الناسخ والمنسوخ في القرآن

٨٩ المتشابهات في القرآن .

٩١ نزول القرآن : آ (٢) ﴿ إنا أنزلناه قرآنًا عربيًا لعلمك تعقلون ﴾ ٩١

(أنزلناه) - نزول القرآن ٩٣ ما معنى إنزال القرآن الكريم ٩٤ ما معنى

الإنزال ٩٥ زمن بدء نزول القرآن ٩٧ جمع القرآن ٩٨ (قرآنًا عربيًا) -

لغات كلام القرآن ٩٩ لزوم تعلم المسلمين اللغة العربية ١٠١ بعث محمد ﷺ

العربي للأمم كافة ١٠٢ كلمة الحواريين في القرآن ١٠٣ ترجمة القرآن ١٠٤

اللغة العربية لغة العلاقات بين الدول الإسلامية ١٠٥ فلسفة لغة القرآن ١٠٦

(لعلمك تعقلون) - تعقل القرآن وفهمه ١٠٨ تعقل القرآن وفهمه من صفات

المؤمنين ١٠٩ مزية الانسان بالعقل والادراك ١١٠ استعمال اكثر المسلمين

القرآن في غير ما هو له ١١١ القرآن يمدح المتعقلين بآياته ويذم الغافلين عنها

١١٣ تعقل القرآن هو التفقه فيه بالوقوف على مراميه ١١٤ الحكمة من

انزال القرآن .

١١٦ الفصل الثاني - القرآن وعلم التاريخ : آ (٣) ﴿ نحن نقص عليك أحسن

القصص ، بما أوحينا إليك هذا القرآن ، وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾

الصحيفة والموضوع

- ١١٨ (نقص) - سور القرآن التي سميت باسماء حوادث تاريخية ١١٩
الحكمة من سرد الوقائع التاريخية في القرآن ١٢٠ جبريل (ع) هو واسطة
نقل كلام الله الى النبي ﷺ ١٢١ (أحسن القصص) - لماذا عبر بأن
قصص القرآن هو احسن القصص ١٢٢ مقابلة ما بين آيات قصة يوسف
في القرآن وفي التوراة ١٣٨ قصص التوراة ١٣٩ غلط التوراة في قولها
إنه يوجد ليل ونهار قبل ما كانت الشمس ١٤٠ مخالفة التوراة لعلم النشوء
والترقي ١٤١ قول التوراة بأن الله ينهى عن العلم واسبابه ١٤٢ غلط التوراة
بقوله إن الحية تفتدي بالتراب ١٤٣ نسبة التوراة السكر لنوح وأنه لعن من لم يسيء
(حاشاه) - نسبة التوراة الديانة لابراهيم (حاشاه) والرد على ذلك ١٤٦
نسبة التوراة السكر لابراهيم (حاشاه) ١٤٧ غلط التوراة بقولها ان
الملائكة يأكلون ١٤٨ نسبة التوراة السكر والزنى الى لوط (حاشاه) ١٤٩
دعوى التوراة ان إسحاق ديوث كأبيه (حاشاهما) ١٥٠ تعليم التوراة
الكذب والمكر ومحبة الخمرة وحب الذات والحسد ١٥٣ تعليم التوراة الخداع
وخلف الوعد والزنا ١٥٤ تعليم التوراة ان الانسان قد يكون أقوى من
الملك ١٥٥ غلطة تاريخية في التوراة - تعليم التوراة الزنا والحياة ١٥٧ تعليم
التوراه اغتصاب الأموال ١٥٨ تعليم التوراة تقديم قربان للشيطان وتسييب
السواائب ١٥٩ تعليم التوراة استئصال الشيوخ والاطفال والنساء في الحرب
١٦٠ تعليم التوراة قتل غير المسيء ١٦١ تعليم التوراة اللهو واللعب - التوراة
تنسب الزنا لداود (حاشاه) ١٦٦ التوراة تنسب الفساد والبربرية الى داود
(حاشاه) - التوراة تجازي على الزنا بالزنا ١٦٨ التوراة تقص أقاصيص
الزنا ١٦٩ التوراة تنسب الشرك لسليمان وأنه تزوج بالوثنيات (حاشاه)
١٧١ التوراة تنسب لبعض الأنبياء الكذب في البلاغ ١٧٢ التوراة تثبت

الصحيفة والموضوع

أن الوحي ينزل بسبب آيات الطرب ١٧٣ التوراة تثبت لله التعب
 ١٧٤ التوراة تثبت حياة أخنوخ — التوراة تعلق القصص بالموت — التوراة
 تثبت أن الأصل في الإنسان الشر ١٧٥ غلط التوراة في التاريخ —
 تكرار ذكر حوادث الزنا في التوراة ١٧٦ التوراة تقول بجزاء خارج
 عن المعقول — التوراة تقول بتضييع المال بلا فائدة ١٧٧ مميزات قصة
 يوسف عن القصص الأخرى ١٧٨ (أوحينا) — الوحي الاصطلاحي ١٧٩
 الفرق بين الوحي والالهام — الوحي نوع من التعبير عن الكلام الرباني
 ١٨٠ (هذا القرآن) — سبب إحياء القرآن ١٨١ (لن الغافلين) محمد
 (ﷺ) في طفولته وشبابه ١٨٢ القرآن معلم النبي (ﷺ) ١٨٣ غفلة
 النبي (ﷺ) ليست عيباً يذم به .

١٨٤ الفصل الثالث — بدء الأمر المقصود الذي انعقدت له السورة : آ (٤)
 * إذ قال يوسف لأبيه : يا أبت ، إني رأيت أحد عشر كوكباً ، والشمس
 والقمر ، رأيتهم لي ساجدين * ١٨٥ (يا أبت ..) — استعطاف الأبوة
 والفرق بين خطاب يوسف (ع) لأبيه وخطاب إبراهيم (ع) لأبيه
 ١٨٦ إعراب يا أبت ١٨٧ أدب الخطاب ١٨٨ (رأيت) — يوسف في
 رؤياه ، ١٨٩ يوسف يقص رؤياه على أبيه ١٩١ الرؤيا والشرع ١٩٢ رؤيا
 الأنبياء ورؤيا الناس ١٩٤ الرؤيا عند النصارى ١٩٥ الرؤيا المنامية لا تحرم
 حلالاً ولا تحل حراماً ١٩٦ لماذا لم ير يوسف رؤيا تدل على ماسيحيه من شر
 ١٩٧ رؤيا يوسف الحزم الأحد عشر ١٩٨ (أحد عشر كوكباً) — علو
 الرؤيا بعلو النفس ١٩٩ قداسة عدد (١٢) ٢٠٤ (كوكباً) — لماذا
 عبر عن إخوة يوسف بالكواكب ٢٠٥ (والشمس والقمر) — التعبير
 عن الرجل بالشمس وعن المرأة بالقمر في رؤيا يوسف ٢٠٩ هل مسجد

الصحيفة والموضوع

أبوا يوسف له ٢١١ (رأيتهم لي ساجدين) — التطرية في القرآن
٢١٣ اعتراض ثم تسليم — معنى السجود .

٢١٤ لا تقص الرؤيا على العدو : آ (٥) ﴿ قال : يا بني ، لا تقصص رؤياك على

اخوتك ، فيكيدوا لك كيذا ، إن الشيطان للانسان عدو مبين ﴾

٢١٥ (قال يا بني ..) — نصح يعقوب لابنه يوسف بأن لا يقص رؤياه

على إخوته ٢١٧ التفسير في اللغة وأنواعه ٢١٨ بحكم المقتبسة من الآية

٢١٩ خطاب الاستعطاف بين الأقرباء ٢٢٠ (لا تقصص ..) (بعض العداوات

التاريخية التي تشبه عداة إخوة يوسف له ٢٢٢ وجوب إطاعة الابن للأب

الوصايا العشر في التوراة والقرآن ٢٢٤ (اخوتك) المناوؤن ليوسف من

إخوته والتنافس بينهم ٢٢٥ (فيكيدوا ..) تعريف الكيد ٢٢٧ (إن

الشيطان ..) الشيطان عالم غيبي ضار بالانسان ٢٢٨ إطلاق لفظ الشيطان على

العدو وبعض الأشخاص والجن والإنس ٢٣٠ الشيطان قوة غضبية أو

قوة ذميمة في الإنسان ٢٣١ ليس للشيطان مبدل على الانسان إلا بالاغراء

والوسوسة ٢٣٤ معاهدة سيلان ٢٣٥ سلطان الشيطان على إخوة يوسف

٢٣٦ سعادة الدين تكون باقامته ٢٣٨ انتقاد معاهدة سيلان والرد عليه

٢٤٠ آمال يعقوب في يوسف : آ (٦) ﴿ وكذلك يجتبيك ربك ، ويعلمك

من تأويل الأحاديث ، ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب ، كما أتمها على

أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق إن ربك عليم حكيم ﴾ (وكذلك ..)

بشارة يعقوب ليوسف بثلاث : الاجتناء والتعليم وإتمام النعمة ٢٤٣ فرح

يوسف ببشارة أبيه له ووقوعها حرفاً بحرف ٢٤٤ (يجتبيك) الاجتناء

في اللغة واجتناء الله ليوسف والأنبياء والاسلام ٢٤٦ نبوة يوسف والانبياء

الصحيفة والموضوع

والمرسلين قبله وبعده ٢٤٨ (ويملك ..) تعليم يوسف ٢٤٩ (تأويل الأحاديث) مقومات الحديث وتأويله ٢٥٣ (الأحاديث) الحديث لغة واصطلاحاً ٢٥٥ (ويتم نعمته ..) اتمام النعمة على يوسف ٢٥٦ (آل يعقوب) - من هم آل يعقوب ٢٥٧ آل إبراهيم ٢٥٨ النعم التي أتمها الله على آل يعقوب ٢٦٢ (كما أتمها) - النعم التي أتمها الله على إبراهيم وإسحاق ٢٦٣ (إن ربك عليم حكيم) علم الله وحكمته .

٢٦٤ الفصل الرابع - الحكم والعبر في قصة يوسف : آ (٧) ﴿ لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين ﴾ ٢٦٧ (لقد كان ..) - التفكير والاعتبار حال قراءة القرآن ٢٦٨ (وإخوته ..) - القرآن يكفي بذكر المهم من الحوادث التاريخية ٢٧١ سلامة قلب الأناث وبعدهن عن حسد أقاربهن ٢٧٢ (آيات ..) - العبر المتضمنة قصة يوسف ٢٧٤ العبر بمقابلة يوسف وإخوته ٢٧٦ (للسائلين ..) - تخصيص الفائدة بمن يبحث عنها .

٢٧٧ مقدمة الموآمرة : آ (٨) ﴿ إذ قالوا : ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منا ، ونحن عصابة ! ! إن أبانا لفي ضلال مبين ! ﴾ ٢٧٨ (إذ قالوا . .) مفاوضة الاخوة في شأن يوسف ٢٧٩ سبب عداوة إخوة يوسف له ولأخيه بنيامين ٢٨١ أسباب عداوة الاخوة الهامة ليوسف ٢٨٣ تفنيده عداوة إخوة يوسف له ٢٨٤ ضرر تعدد الزوجات ١٨٦ لم يسند الحسد لجماعة معينة إلا لليهود ٢٨٦ الحكمة من ذكر الأعمال السيئة لأقرباء الأنبياء في القرآن ٢٨٩ الدفاع عن حب يعقوب لولديه يوسف وبنيامين ٢٩٠ إسناد القول الى الاخوة العشرة جميعاً ٢٩١ الساكت عن المنكر يكون شريكاً في الاثم لفاعله ٢٩٢ (ونحن

الصحيفة والموضوع

- عصبة . .) - وجه انتقاد الاخوة العشرة لأبيهم على حبه ليوسف وأخيه
والرد عليه ٢٩٣ العصبة في اللغة ٢٩٤ (إن أبانا لفي ضلال مبين) - تضليل
الاخوة لأبيهم جهلاً وسفاهة .
- ٢٩٨ الدخول الجدي في الموآمرة : آ (٩) * اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً ،
يخل لكم وجه أبيكم !! وتكونوا من بعده قوماً صالحين ! * ٢٩٩ (اقتلوا
يوسف . .) - الاقتراح بقتل يوسف أو إبعاده ٣٠٠ موآمرة قريش على
قتل أو إبعاد أو حبس النبي ﷺ ٣٠١ الطرح أرضاً كالقتل ٣٠٢ الفوائد
المستنبطة من الآية ٣٠٣ لماذا لم يدخلوا بنيامين مع يوسف في موآمراتهم
٣٠٤ من هو صاحب الاقتراح بقتل يوسف أو إبعاده ٣٠٥ الحسد هو
الدافع الحقيقي لإخوة يوسف على إرادة قتله - أنواع الامزجة البدنية
ونظمية على إخوة يوسف ٣٠٦ غرابة مشايمة دان وفتالي لاختوتهم في
الموآمرة ٣٠٧ نظائر أعمال أبناء يعقوب العشرة في التاريخ ٣١٣ التستر
وراء الدين للتوصل للمآرب الشخصية ٣١٥ الحسد والغيرة والعداء هي أصل
كل شر ٣١٦ النتيجة عند اليهود تبرر الوساطة معها كانت منحة ٣١٧ إن
أكرمكم عند الله أتقاكم - بعض طبائع الاسرائيليين - ماهي أفكار الصهيونيين
اليوم مع أبناء اسماعيل ٣١٨ الطرح أرضاً في اللغة - كلمة « اطرحوه »
في القرآن - الصلاح وأقسامه ٣١٩ الحسد والغبطة والمنافسة ٣٢٠ عمل
الاخوة مع يوسف هو من الحسد الممقوت المشؤوم ٣٢١ سبب اقتصار
الاخوة الحكم على يوسف وحده - ما أشبه الليلة بالبارحة أو حال
الصهيونيين اليوم مع عرب فلسطين ٣٢٢ شواهد من التوراة على صلابة
اليهود وقساوتهم ووحشيتهم ٣٢٤ يهود اليهود متخرجون على مدرسة
اليهود القدماء - غيري جنى وأنا المعذب فيكم .

الصحيفة والموضوع

٣٢٥ تعديل الحكم : آ (١٠) ﴿ قال قائل منهم : لا تقبلوا يوسف ، وألقوه في غيابة الجب : يلتقطه بعض السيارة ، إن كنتم فاعلين ﴾ ٣٢٦ (قال قائل منهم ..) طلب تعديل الحكم على يوسف ٣٢٨ من هو « القائل » بتعديل الحكم على يوسف ٣٣٠ القتل والطرح أرضاً سواء في النتيجة ٣٣١ ابتعاد يهوذا عن الانتساب ايوسف دفاعاً عن مصلحة إخوته ٣٣٢ غيابة البئر — الجب وهل هو جب معهود ٣٣٤ التحقيق في تفسير الغيابة — إخوة يوسف لم يبيعوا يوسف ٣٣٥ لماذا لم يبت « القائل » برأيه ٣٣٦ ضلع القائل مع يوسف .

٣٣٦ تدبير الحيلة لتنفيذ المؤامرة : آ (١١) ﴿ قالوا : يا أبانا ، مالك لا تأمننا على يوسف ! وإنا أنه لنا صحتون !! ﴾ ٣٣٧ (قالوا يا أبانا ..) — التمهيد لتنفيذ المؤامرة على يوسف ٣٣٩ إخوة يوسف بين عاملي الخوف والرجاء عند طلب يوسف من أبيهم — طريقة طلب الاخوة ليوسف من أبيهم تدل على سوء نيتهم — دفع ونفع — وثيقة الاعتماد ٣٤٠ النصح لغة ومعنى — لسان حال إخوة يوسف هو ترجمان أهوائهم ٣٤١ المتكلم بطلب يوسف من أبيه واحد من الاخوة .

٣٤١ السم في الدسم : آ (١٢) ﴿ أرسله معنا غداً يرتع ويلعب ، وإنا له لحافظون ﴾ ٣٤٢ (يرتع ويلعب ..) الاخوة يضربون على الوتر الذي يجبه أبوهم لأخيهم يوسف ٣٤٣ معنى الرتع واللعب ٣٤٤ فوائد اللعب ٣٤٥ اللعب عند العرب وأنواعه ولعب النبي (ﷺ) والصحابة ٣٤٦ جواز اللعب للكبار كما للصغار ٣٤٧ (لحافظون) — خديعة اخوة يوسف لأبيهم ٣٤٩ خلف الوعد والوفاء به .

٣٥٠ تخوف يعقوب من طلب أولاده : آ (١٣) ﴿ قال : إني ليجزني أن تذهبوا •

الصحيفة والموضوع

به ، وأخاف أن يأكله الذئب ، وأنتم عنه غافلون ﴿ ٣٥٣ ﴾ (ليحزني ..) عزو حزن يعقوب لثلاث احتمالات ٣٥٤ (وأخاف ..) خوف يعقوب على يوسف وعلى آماله فيه من الذئب ٣٥٦ التوفيق بين خوف يعقوب على يوسف وبين رؤيا يوسف ٣٥٧ خوف يعقوب على يوسف أمر طبيعي قسري ٣٥٨ جواز عدم وجود اعتقاد جازم عند يعقوب في ولده ينافي خوفه عليه ٣٥٩ جواز عدم قطع يعقوب بأن رؤيا يوسف هي ليوسف بل لغيره من ذوي قرابه ٣٥٩ جواز قصد يعقوب بالذئب وأكله إضرار شمعون بيوسف ٣٦٠ (وأنتم عنه غافلون) - يعقوب يكشف ما يجول في ذهن أولاده بالنسبة ليوسف ليعلم بماذا يجيبون ٣٦١ يعقوب يصف غفلة أبنائه عن حفظ يوسف ، بأنها أمر ثابت لهم في نفسه .

٣٦٢ جواب المخاتلة والمكر : آ (١٤) ﴿ قالوا : أين أكله الذئب ، ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون ﴾ ٣٦٣ (قالوا أين أكله ..) - إصرار أبناء يعقوب على أخذ يوسف من أيه ٣٦٥ تهرب الاخوة من الاجابة على حزن أبيهم ومغالطتهم الجدلية له ٣٦٥ القوة الجسمانية لا تكفي وحدها لحفظ يوسف ٣٦٦ اختلاف القرآن والتوراة في هذه الآية ٣٦٦ حال التاريخ قبل الاسلام وبعده ٣٦٧ عناية المسلمين في أول الاسلام بالرواية والرواة ٣٦٧ غلط اليهود في تاريخهم ووقوع الزيادة والنقصان في التوراة .

٣٦٩ الفصل الخامس - تنفيذ المؤامرة : آ (١٥) ﴿ فلما ذهبوا به ، وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب .. وأوحينا اليه : لتنبئهم بأمرهم هذا ، وهم لا يشعرون ﴾ ٣٧٠ (فلما ذهبوا به ..) - الأنبياء غير معصومين من تصديق الكاذب ٣٧٢ يوسف مع إخوته في طريقهم الى دوثان

الصحيحة والموضوع

٣٧٣ كيف سلم يعقوب ابنه يوسف لاختوته رغم تخوفه عليه منهم
 ٣٧٤ حذف جواب الشرط في القرآن الكريم وشواهد عليه ٣٧٧ يوسف
 في الحب ٣٧٨ كيف اتفق إخوة يوسف على إلقاءه في الحب مع اختلاف
 مشاربهم وميولهم ٣٧٩ خيبة آمال إخوة يوسف ٣٨٠ «سيلون»
 و«دوثان» و«الجب» ٣٨١ (وأوحينا إليه . .) - الإيحاء ليوسف
 وهو في الحب ١٨٣ الوحي لغة واصطلاحاً .

٣٨٦ دموع التماسيح : آ (١٦) ﴿وجاءوا أباهم عشاء يبكون . .﴾ ٣٨٧
 (وجاءوا أباهم . .) - حال يعقوب بعد ذهاب يوسف مع إخوته وحال إخوته بعد
 لقائه في الحب .

٣٩١ عذر أقبح من ذنب : آ (١٧) ﴿قالوا : يا أبانا ، إنا ذهبنا نستبق ، وتركنا
 يوسف عند متاعنا ، فأكله الذئب ، وما أنت بمؤمن لنا . ولو كنا
 صادقين ﴿٣٩١﴾ قالوا يا أبانا . .﴾ إخوة يوسف يلفقون لأبيهم كيف
 افترس الذئب يوسف ٣٩٣ المذرة المصطنعة - الاستباق ٣٩٤ المتاع ٣٩٥
 ادعاء الاخوة الوجه الذي خاف أبوهم هلاك يوسف بسببه ٣٩٤ إطلاق اكل
 الذئب على الخدش والنهش تجزأً - تعدي الايمان بالباء وباللام وبعلى ٣٩٦
 الصادق من صدق قلباً ولساناً وجارحة ٣٩٧ الخير مؤجل والشر معجل
 ٣٩٨ (فأكله الذئب . .) - التوفيق بين خوف يعقوب على يوسف من
 الذئب وبين رؤي يوسف وبشائه ٣٩٩ استعمال الذئب والأكل في المجاز
 ٤٠٠ الذئب مجاز عن شمعون ٤٠١ الأكل مجاز عن النهش والعض
 والإضرار ٤٠٢ تفسير كلمة يأكله بكلمة يتولى أمره ويتصرف فيه ٤٠٢
 تسبيك القول بأن الأكل هو الاستيلاء والإضرار، وبأن الذئب هو شمعون

الصحيفة والموضوع

- في المجاز ٤٠٣ رد القول بأن الأرض التي كانوا يرعون فيها مذابة ٤٠٥ من أنكر على مفسر رأياً فكأنه أنكر على جميع المفسرين تفاسيرهم ٤٠٥ جواز كون الذئب ذئباً معهوداً غائباً أو حاضراً ٤٠٧ كيف قالت المفسرين الذهاب للمعنى المجازي في الأكل والذئب وشواهد على ذلك .
- ٤٠٩ قميص العلامة : آ (١٨) ﴿ وجاءوا على قميصه بدم كذب ، قال : بل سولت لكم أنفسكم أمراً !! فصبر حميد ، والله المستعان على ماتصفون ﴾
- ٤١٠ (وجاءوا على قميصه ..) القميص والدم ٤١١ القميص - دم القميص
- ٤١٢ لسان حال يعقوب عند ما رأى قميص يوسف ملطخاً بالدم ٤١٢ حجة القميص التي لهم صارت عليهم ٤١٣ البرهان الباطل - مناجاة يعقوب المذئب الحقيقي والمجازي ٤١٤ الدم نفس أو جسد ٤١٥ السجع والترسل في القرآن ٤١٧ القصد من ذكر القرآن لقصة يوسف ٤١٨ انتقاد دعاة النصرانية ، اعتقادنا بنبوة يعقوب (ع) والرد عليهم ٤١٩ مخاطبة يعقوب لأولاده عند سماعه الخبر السوء منهم ٤٢٠ لفظ القميص في القرآن - هل حقق يعقوب صحة افتراس الذئب ليوسف ٤٢١ (قال بل سولت ..) - حالة يعقوب النفسية بعد سماعه نبى ولده يوسف ٤٢٢ عدم انطلاء الكذبة على يعقوب - صبر يعقوب الجليل ٤٢٣ يعقوب يغمز من قناة أولاده فيما ذكروه عن يوسف ٤٢٤ مواعيد الله في يوسف خفت من وطأة مصيبة يعقوب فيه ٤٢٤ انتقاد يعقوب على تفریطه بيوسف والرد عليه ٤٢٥ حال اخوة يوسف عندما عرض أبومهم بأنهم كاذبون ٤٢٦ الغمز من قناة شمعون ، انتقاد يعقوب على عدم بحثه عن يوسف والرد عليه ٤٢٨ المشاركون ليعقوب في حزنه على فقد يوسف ٤٢٩ معنى السؤل

الصحيفة والموضوع

٤٣٠ إحساس يعقوب بمكيدة أولاده اجمالاً — التنكير في لفظة (أمراً)

٤٣١ معنى الصبر والصبر الجميل .

٤٣٢ الباب الثالث

الفصل الأول ، خروج يوسف من الحب : آ (١٩) ﴿ وجاءت سيارة ، فأرسلوا واردهم ، فأدلى دلوه .. قال : يا بشرى هذا غلام ! وأسروه بضاعة ، والله عليم بما يعملون ﴾ ٤٣٣ (وجاءت سيارة ..) القافلة تخرج يوسف من الحب وتقوده معها الى مصر ٤٣٥ الرد على من اعترض على يوسف بعدم تخلصه من القافلة ولحاقه بأبيه ٤٣٦ حرص يوسف على انتهاز الفرص وشواهد عليه ٤٣٨ يوسف بين يدي « السيارة » ٤٤١ لسان حال يوسف مودعاً وطنه وأهله وهو مع السيارة ٤٤٢ المشاهون لحالة يوسف (ع) في الرق ٤٤٣ معنى « السيارة » ٤٤٤ معنى « الوارد » ، فاء السرعة في قوله : فأرسلوا ، فأدلى ٤٤٥ يا بشرى — ألقاب يوسف ٤٤٦ الدلو .

٤٤٦ الفصل الثاني — بيع يوسف (ع) : آ (٢٠) ﴿ وشروه بثمن بخس ! دراهم معدودة ! وكانوا فيه من الزاهدين ! ﴾ ٤٤٧ (وشروه بثمن ..) اسواق الرقيق ٤٤٨ يوسف في سوق الرقيق ٤٤٩ معنى « شروه » ٤٥٠ عود الضمير في « شروه » والتحقيق عمن باع واشترى يوسف ٤٥١ الثمن البخس وما هو وكم هو ٤٥٢ الاسترقاق قبل الاسلام وفي الاسلام ٤٥٥ استفادة الرقيق عند المسلمين — استرقاق الشعوب في أوروبا وأمريكا ٤٥٦ حكم الاسترقاق الشائع عند بعض المسلمين قديماً وحديثاً في الشرع ٤٥٧ زعم دعاة المسيحية بشأن تحرير الرقيق والرد عليه .

٤٥٩ الفصل الثالث — وصية عزيز مصر لامراته يوسف : آ (٢١) ﴿ وقال

الصحيفة والموضوع

الذى اشتراه من مصر لامرأته : أكرمى مثواه ، عسى أن ينفعنا أو نتخذه
ولداً ؛ وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ، ولنعله من تأويل الأحاديث ..
والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .. ﴿ ٦٠ 〉 (وقال الذي
اشتراه ..) دخول بالقارىء الى المملكة المصرية الهيكسوسية ، فوطيفار
عزيز مصر ٦٢٢ حياة يوسف المادية ٦٤ مصر أيام يوسف (ع) ٦٥ ٦٦
جديد عن حياة يوسف — مصر مهبط الأنبياء والأولياء ٦٦ منزلة المرأة
عند قدماء المصريين وعند الشرقيين ٦٧ منزلة المرأة عند العرب ٧١ منزلة
المرأة في الاسلام ٧٣ أخطاء فوطيفار ٧٥ المثوى ، مرادفات كلمة مصر
٧٦ (عسى أن ينفعنا ..) وصية فوطيفار لزوجته ٧٧ يوسف وكييل
فوطيفار : امرأة العزيز تنفذ وصية زوجها بيوسف ٧٨ المقصد من
استعمال حرف « أو » في قوله « أو نتخذه ولداً » ٧٩ الظاهر والتبني عند
عند المصريين وفي الاسلام ٨٠ (وكذلك مكنا ..) تمكين يوسف الأول
٨٢ تمكين يوسف الثاني ٨٣ (ولنعله من تأويل الأحاديث ..) تعليم
يوسف ٨٤ فوائد الارتحال والسفر ٨٥ العلم الكسبي والعلم الوهي
٨٦ العطف على محذوف في القرآن ٨٧ (والله غالب على أمره) الله غالب
على أمر نفسه أو على أمر يوسف ٨٩ (ولكن أكثر الناس لا يعلمون)
جهل أكثر الناس أن الأمر كله بيد الله .

٨٩ شهادة الله ليوسف بالحكم والعلم والإحسان آ (٢٢) ﴿ ٢٢ 〉 ولما بلغ أشده
آتيناه حكماً وعلماً ، وكذلك نجزي المحسنين ﴿ ٩٠ 〉 (ولما بلغ أشده)
بلوغ يوسف الأشد ٩٢ الأشد والرشد في القرآن ٩٢ (آتيناه حكماً
وعلماً) إتياء يوسف الحكمة العملية والحكمة الفكرية ٩٣ لا ينشأ الحكم

الصحيفة والموضوع

عن العلم بل عن الدين ٤٩٥ تفسير العلم بالمعرفة ٤٩٥ إيتاء يوسف قوة الارادة ونور العقل ٤٩٨ سبب تقديم الحكم على العلم ٤٩٩ (وكذلك نمجزي المحسنين) الاجماع على إحسان يوسف ٤٩٩ الجزاء على السبب لا على النسب ٥٠٠ أركان الإحسان ٥٠١ أركان الإحسان في القرآن وتحلي يوسف بها ٥٠٢ الجزاء يكون في الدنيا كما في الآخرة ٥٠٣ الله يؤتي الحكم والعلم لكل من اتصف بالإحسان ٥٠٤ الوعد يتناول الناس بحسب أوصافهم ٥٠٥ الله يؤتي كل محسن حكماً وعلماً على قدر إحسانه .

٥٠٦ المراودة آ (٢٣) * وراودته التي هو في بيتها عن نفسه ، وغلقت الأبواب ، وقالت : هيت لك ! قال : معاذ الله ! إنه ربي أحسن مثواي ، إنه لا يفلح الظالمون * ٥٠٧ (وراودته . .) المراودة من زليخا والترفع من يوسف ٥٠٨ الكبرياء ٥٠٩ المرأة العفيفة الجديدة ٥١٠ المرأة أعف من الرجل ٥١١ مقابلة بين زليخا وبين بعض نساء العرب ٥١٣ المراودة من طرف واحد ٥١٥ الحكمة من ذكر حديث المراودة ٥١٧ مواضع استعمال لفظة المراودة في القرآن ٥١٧ اختلاط الرجل بالمرأة ٥١٩ وجهه اضافة البيت الى زليخا في قوله « التي هو في بيتها » ٥٢٠ لماذا عبر بكلمة « عن نفسه » ٥٢١ عمر يوسف وزليخا حين المراودة ٥٢١ (وغلقت الأبواب) ابواب قصر العزيز ٥٢٢ المراودة وتغليق الابواب ٥٢٣ ما معنى « غلقت » ٥٢٤ (وقالت هيت لك . .) طلب زليخا الفاحشة من يوسف وإبائه يوسف ٥٢٥ (إنه ربي أحسن مثواي) اعتراف يوسف بالجليل ٥٢٧ الأسباب التي تبعد الانسان عن الفحش والمخالطة ، توبيخ يوسف لزليخا ضمناً ٥٢٨ تعريض يوسف بزليخا ، المراد بالرب في قوله « إنه ربي » ٥٢٩ (إنه لا يفلح الظالمون) الظالم لا يفلح .

الصحيحة والموضوع

- ٥٣٢ بدء المعركة بين زليخا ويوسف آ (٢٤) * .. ولقد .. همت به وهم بها ،
لولا أن رأى برهان ربه .. كذلك ، لنصرف عنه السوء والفحشاء ، إنه
من عبادنا المخلصين * ٥٣٤ (ولقد همت به وهم بها) همت به جلباً وهم بها
دفعاً ٥٣٤ برهان ربه هو محبة الله التي تقضي عليه بالدفع بالتي هي أحسن
٥٣٥ همت بقتله وهم بقتلها ٥٣٦ البرهان في قوله « لولا أن رأى برهان
ربه » ٥٣٧ الرؤية في قوله (لولا أن رأى) هي رؤية علمية ٥٣٨ مراتب
القصد ٥٤٠ الرد على من طعن في عفاف يوسف بقوله إنه هم بمخالطة
امرأة العزيز ٥٤٢ (كذلك لنصرف ..) السوء والفحشاء ٥٤٤ (إنه
من عبادنا المخلصين) إخلاص يوسف لله وإخلاص الله ليوسف .
- ٥٤٥ قميص الشهادة آ (٢٥) * واستبقا الباب .. ، وقدت قميصه من دبر .. ،
وألفيا سيدها لدى الباب .. قالت : ماجزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن
يسجن أو عذاب أليم * ٥٤٧ (واستبقا الباب) هرب يوسف من زليخا
ولحق زليخا به ٥٤٨ (وقدت قميصه من دبر) قد القميص ٥٤٩ هل بقي
يوسف لا بساً قميصه بعد قده ٥٥٠ (وألفيا سيدها لدى الباب) مفاجأة
فوطيفار لزليخا ويوسف عند الباب ٥٥٢ ايضاح لفظ السيد في اللغة والقرآن
والتوراة ٥٥٣ (قالت : ماجزاء من أراد .. الخ) المرافعة والاتهام
٥٥٥ التناقض في حكم زليخا على يوسف ، ارياب العزيز في زوجته منذ
بدء تكلمها ٥٥٦ ما المراد بكلمة « الأهل » ، ٥٥٦ زليخا تضيف نفسها الى
زوجها إعظماً للخطب ٥٥٧ زليخا تبادر بالكلام خشية أن يسبقها فيه
يوسف أو زوجها ، إطالة زليخا الكلام في الشكوى ، عقاب محاولة فعل
الفاحشة في الشريعة المصرية ، إخفاء زليخا اسم يوسف عند الاتهام

الصحيفة والموضوع

٥٥٨ القميص المقدود كان دثاراً ، سبب عدم ذكر القرآن اسم العزيز واسم امرأته ، الثأر هو الدافع للثمة .

٥٥٩ المحاكمة آ (٢٦ و ٢٧) * — قال : هي راودتني عن نفسي .. ، وشهد شاهد من أهلها : إن كان قميصه قدّ من قبل .. فصدقت وهو من الكاذبين وإن كان قميصه قدّ من دبر .. فكذبت وهو من الصادقين . * ٥٦٠ (قال هي راودتني عن نفسي) دفاع يوسف ٥٦٢ (وشهد شاهد من أهلها ..) الشاهد والتحقيقات ٥٦٥ شهد شاهد بمعنى آخر حاضر أو حكم حاكم ٥٦٧ موجبات الحكم ، من هو الحاكم ٥٦٨ مرادفات الشاهد ، نفي كون الشاهد كان طفلاً ٥٦٩ تحريم الدفاع عن الخائن والمجرم ، لم يكن الشاهد شاهداً بالمعنى المصطلح عليه عند الفقهاء ٥٧٠ تغلب الحق على القوة مشابهة الشاهد لبعض الأحكام والحكماء ٥٧١ جواز الحكم بالقرائن والاستدلال بالامارات ٥٧٦ سبب تأخير أمانة صدق يوسف على أمانة صدق امرأة العزيز ٥٧٨ (وإن كان قميصه قدّ من دبر .. الخ) هل كان يوسف لابساً القميص المقدود حين التداعي ٥٧٩ احتقار الشاهد لامرأة العزيز رغم مقامها ، قدّ القميص من قبل دليل الاقبال وقده من دبر دليل الادبار .

٥٨٠ وثيقة البراءة آ (٢٨) * فلما رأى قميصه قدّ من دبر ، قال : إنه من كيدكن ، إن كيدكن عظيم * ٥٨١ (فلما رأى قميصه .. الخ) تبرئة يوسف وتجرّيم زليخا وتوبيخها ٥٨٣ رب محنة في وسطها منحة ٥٨٤ حفظ القميص المقدود للبرة والذكرى ، تبادل التهينة والشكر ، مرادفات الكيد ، الكيد والمكر من صفات الضمفاء واليهود ٥٨٥ كيد المرأة ٥٨٨ فضل المرأة

الصحيفة والموضوع

- ٥٩١ كيد النساء وكيد الشيطان ٥٩٢ قميص يوسف والقميص الذي وضع فيه الحجر الأسود .
- ٥٩٢ نتيجة الحكم آ (٢٩) * يوسف ، أعرض عن هذا ، واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين .. * ٥٩٣ طلب الاعراض عن يوسف . ٥٩٥ (واستغفري لذنبك) طلب الاستغفار من زليخا ووعظها ٥٩٧ بعض فضليات النساء في التاريخ ٥٩٨ لماذا لم يعاقب العزيز امرأته بصرامة ، يدا فوطيفار أو صكتا وفوه نفخ ٦٠٠ احتمال اتصاف العزيز بشيء من فساد الاخلاق ٦٠١ احتمال خوف العزيز من اسرة زوجته وضعفه تجاهها ٦٠٢ احتمال عدم وجود طلاق في زمن العزيز عند المصريين ٦٠٣ احتمال حرص العزيز على ستر حادثة زوجته ٦٠٤ معصية امرأة العزيز عقوبتها التعزير ٦٠٥ عقاب المرادة في الشريعة هو الاستتابة مع التعزير ٦٠٧ (إنك كنت من الخاطئين) العزيز بخطيء زوجته ويوبخها ٦٠٨ معنى الخطأ .
- ٦٠٩ كل سر جاوز الاثنين شاع آ (٣٠) * وقال نسوة في المدينة : امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ! قد شغفها حباً ، إنا لنراها في ضلال مبين * ٦١٠ وصول خبر السوء الى نساء الأمراء الخمس ٦١٢ (امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه) انتشار حديث السوء ٦١٣ نسبة زليخا الى زوجها في حديث السوء واغفال اسمها ٦١٥ تسمية العبد فتى ، تسمية حاكم مصر عزيزاً ٦١٦ (قد شغفها حباً) شغف الحب ٦١٧ أمثلة من غرام النساء بالرجال ٦١٩ المشق بين الرجل والمرأة وبالعكس ٦١٩ (إنا لنراها في ضلال مبين) تلوم السيدات الخمس على امرأة العزيز حبها ليوسف .

الصحيفة والموضوع

٦٢١. إقامة الحجة على النسوة الخمس آ (٣١) * فلما سمعت بمكرهن ، أرسلت اليهن .. وأعتدت لهن متكأ ، وآتت كل واحدة منهن سكيناً ، وقالت : اخرج عليهن ، فلما رأيتهن أكبرنه وقطعن أيديهن ، وقلن : حاش لله ! ما هذا بشراً ! إن هذا إلا ملك كريم * ٦٢٣ بلوغ امرأة العزيز اغتيال النسوة لها ٦٢٤ وجه تسمية الغيبة مكرأ ٦٢٦ (أرسلت اليهن) دعوة امرأة العزيز للنسوة ٦٢٨ (وأعتدت لهن متكأ) المطعم الصائد ، المتكأ ٦٢٩ معنى أعتدت معنى المتكأ ٦٣١ (وآتت كل واحدة منهن سكيناً) سكين الطعام ٦٣٣ (وقالت اخرج عليهن) اجتماع الحب والحبيب والعواذل ٦٣٥ (فلما رأيتهن أكبرنه) انقلاب العواذل محبين ٦٣٦ عدم رؤية النسوة ليوسف قبلاً ، احترام النسوة الاقصى ليوسف ٦٣٧ (وقطعن أيديهن) ٦٣٩ وقع جرح النسوة أيديهن على امرأة العزيز ، احتمال جرح النسوة أيديهن في عدة مواضع . ٦٤ أمثلة للنسوة اللاتي جرحن أيديهن في التاريخ ٦٤٢ حمل التقطيع على التحزيز والتشطيب ٦٤٣ كتمان حادث تقطيع النسوة أيديهن عن مليك مصر ، جمال يوسف ٦٤٥ (وقلن حاش لله) النسوة المدعوات ينزهن يوسف عن البشر ٦٤٦ (ما هذا بشراً) المغالاة طبيعة في المرأة ٦٤٧ (إن هذا إلا ملك كريم) النسوة اللاتعات ينقلبن الى متغزلات مادحات .

٦٥٠. لوم واعتراف ووعيدآ (٣٢) * قالت : فذا لکن الذی لمتني فيه ، ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ، وأئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين * ٦٥١ لوم زليخا للنسوة ٦٥٣ (ولقد راودته ..) اعتراف زليخا للنسوة ٦٥٤ زيادة قحة زليخا ، عدم صبر النساء على حفظ الاسرار ٤٥٥ اعتراف

الصحيفة والموضوع

فاسقة لفواسق ، الاعتراف السري ٦٥٦ (ولئن لم يفعل .. الخ) انذار
زليخاليوسف ٦٥٧ وعيد زليخاليوسف دون وعده ، دلائل نفوذ زليخا وشموخها .

٦٥٩ المناجاة آ (٣٣) * قال : رب ، السجن أحب اليّ مما يدعوتني اليه ،
وإن لاتصرف عني كيدهن أصب اليهن ، وأكن من الجاهلين *
٦٦٠ (قال رب السجن .. الخ) مناجاة يوسف ربه لصرف كيد النسوة
عنه ٦٦١ سبب سكوت يوسف في حفلة النسوة المدعوات ٦٦٢ كيف
كانت مشقة نزول السجن أحب الي يوسف مما يدعوه النسوة اليه ٦٦٣ لماذا نسب
يوسف الدعوة لجميع النسوة ٦٦٨ (وإن لاتصرف عني كيدهن .. الخ)
استغاثة يوسف بربه لحمايته من الانعطاف للنسوة ٦٧٠ الدعاء الى الله تضرعاً
وخفية ، الجاهلون هم الفاعلون فعل الجمالة .

٦٧١ استجابة الدعاء آ (٣٤) * فاستجاب له ربه ، فصرف عنه كيدهن ، إنه
هو السميع العليم * ٦٧٢ (فاستجاب له ربه) أشكال الدعاء ٦٧٣ استجابة
دعاء يوسف بصرف كيد النسوة عنه ٦٧٤ كيف صرف الله كيد النسوة
عن يوسف مع أنه سجن بعد ذلك .

٦٧٥ يوسف في السجن آ (٣٥) * ثم بدا لهم ، من بعد ما رأوا الآيات ،
ليسجننه حتى حين .. * ٦٧٦ لماذا سجن يوسف ٦٧٨ حالة يوسف
عند دخوله السجن ٦٧٩ نتائج سجن يوسف ٦٨٠ متى سجن يوسف ،
مرادفات لفظة « بدا » ٦٨١ من هم الذين بدا لهم سجن يوسف وهل لامرأة
العزير دخل في ذلك ٦٨٢ سجن يوسف ، كان بعد حادثة دعوة النسوة
وخروجه عليهن ٦٨٣ الاستقلال الاداري لامراء ووكلاء الدولة المصرية
في عهد مليكها الريان ، دعوى امرأة العزير هي من قبيل دعاوى التهم

الصحيفة والموضوع

- ٦٨٤ بعض الأنبياء والصلحاء الذين سجنوا ، تحسر يوسف ، وهو في السجن ٦٨٥ مكان سجن يوسف . السجن في زمن النبي ﷺ والصحابة (رض) ٦٨٦ ماهي الآيات التي أدت الى سجن يوسف .
- ٦٩٠ سجن الفتيين ورؤياهما آ (٣٦) * ودخل معه السجن فتيان ، قال أحدهما : إني أراني أعصر خمراً ، وقال الآخر : إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً : تأكل الطير منه ، نبئنا بتأويله ، إنا نراك من المحسنين * ٦٩٢ (ودخل معه السجن فتيان) من هما الفتيتان السجناء مع يوسف وما سبب سجنها ٦٩٣ غاية عزيز مصر من سجن يوسف مع الفتيين ، الفتى والرب في اصطلاح المصريين أيام يوسف وحكمه في الشرع الاسلامي ٦٩٤ قال أحدهما إني أراني .. الخ) رؤيا الفتيين ٦٩٦ ملوك مصر الأقدمين والخمر ، أقوال في الخمر ومضارها ٦٩٧ الخمر عند الامم الغربية وفي كتب الدين المسيحي وفي القرآن والحديث ٧٠٠ هل كانت الخمر حلالا عند المصريين والرعاة في في زمن يوسف ٧٠١ الخمر عامة هو ما يعصر أو ينبذ ، الرؤى الصريحة ٧٠٢ اطلاق ضمير المفرد على المثنى والجمع في لغة العرب ، احسان يوسف لأهل السجن ٧٠٣ الاعتراف باحسان يوسف .

فهو من الآيات والمواضيع التي للمؤلف فيها رأي أوفهم خاص في الجزء الاول
الصحيحة والموضوع :

٣٠ في دفع شبهة المجاردة على سورة يوسف (ع) ٣٦ إيقاف النبي (ص)
على طبائع يهود المدينة . ٤٠ في هل اخوة يوسف (ع) أنبياء ؟ ٧١ في تقليد المفسرين
بعضهم لبعض ٧٨ نظائر لفظة « الر » في التوراة والانجيل ١٢١ لماذا عبر بأن
قصص القرآن هو أحسن القصص ١٣٨ - ١٧٧ قصص التوراة ٣٢٨ - ٣٣٦ قال
قائل منهم .. الخ ٣٧٢ فلما ذهبوا به ... الخ ٣٧٤ فلما ذهبوا به .. الخ ٣٨٦ وجاءوا
أباهم عشاء سيكون ٣٩٨ فأكله الذئب .. الخ ٤٤٧ وشروه بثمن بخس .. الخ ٤٦٠
وقال الذي اشتراه من مصر .. الخ ٥٢٥ إنه ربي أحسن مثواي .. الخ ٥٣٤ ولقد
همت به وهم بها .. الخ ٥٤٢ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء .. الخ ٥٧٨ وإن
كان قبضه قد من دبر .. الخ ٥٩٧ واستغفري لذنبك .. الخ ٦٢٣ فلما سمعت
بجكرهن .. الخ ٦٢٦ أرسلت اليهن .. ٦٣٧ وقطعن أيديهن ٦٨٠ و ٦٨٦ ثم بداهم
من بعد ما رأوا الآيات ..

جدول الاخطاء المطبعية وتصويبها في الجزء الاول

التصويب	الخطأ	سطر	صحيفة
سنة ونيف ، وتركه مسوداً بخط يده في بضع وستين كراساً تمت بتبييضها بعد ما نسقت مواضعها وربتها وضبطت الآيات القرآنية ثم وضعت للمواضيع عناوين تناسبها وشرحت بعض الكلمات في الهامش ووضعت فهرس الكتاب وفهرس المواضيع التي انفرد المؤلف في فهمها وقسمت الكتاب الى جزئين الجزء الأول من مقدمة السورة الى الآية ٣٦ والجزء الثاني من الآية ٣٧ الى آخر السورة ، فان ظهر في الكتاب هفوات أو أخطاء فما ذلك إلا من تقصيري وعجزتي ، اذا المعصمة لله وحده ، هذا ولم يكن ..	سنة ونيف ، لم يكن	١٣	١٢
السيد محمد رشيد رضا . .	السيد رشيد رضا	١٠	١٧
الغزوة	الغزلية	١٥	٢٣
تطبيدتها	تطبيقتها	١٣	٢٥
عَجَزْد	عَجَزَ	١٠	٣٠
العزير	الفرير	٩	٣١
يمثلون	ويمثلوا	١٩	٣٦
نمود	تعوز	١٢	٦٧
يحضروه	يحضره	٧	٧١
كثير	كثيرة	٦	٧٩

التصويب	الخطأ	سطر	صحيفة
مكاتب	مكاتب	٤	٨٥
كثيراً	كثيراً	١٤	٨٥
زول	مزول	١٥	٩١
عِنْدَ	عند	٣	٩٢
بلاغتها	بلاغتها	١١	٩٩
وفهم	وفيههم	١٣	١٠٠
الالفة	املفه	١١	١٠٤
آ (٢)	آ (١)	١	١١٢
المراقين	المراقين	١٥	١١٨
ومن أجل	أحلامه ومن أجل	٣	١٢٣
ثلاثاً	ثلاث	٨	١٣٧
إذا	إذ	١٦	١٤٣
أثماً	وإثماً	٥	١٤٧
إنّ	أن	٩	١٤٧
فقال ملاك الرب لنوح	فقال الرب	٢١	١٤٧
(ص ٢٠ : ٢)	ص (٢٢٠)	١٤	١٤٩
عِنْدَ	عند	١١	١٥٢
اسرائيل (تك ٣٦ : ٣١)	اسرائيل، لا يصلح أن	١٠	١٥٥
فقلوه : قبلما ملك ملك لبني إسرائيل،			
لا يصح أن			
(٤ : ٢٨)	(٣ : ٢٨)	١٣	١٥٨
الخطية	الخطيئة	٢	١٥٩
يربعام	يربعام	١٣	١٧٠
الكذب	للكذب	٦	١٧١

صحيفة	سطر	الخطأ	التصويب
١٧١	٨	وأمر الرب	وأن الرب
١٧٣	٦	طاردتك	طارذك
١٧٣	١٨	التواة	التوراة
١٧٤	١٨	فَطَرِ النَّاسَ	فَطَرِ النَّاسَ
١٧٧	١	آ (٢)	آ (٣)
١٨١	١١	وهو تربية	الا وهو تربية
١٩٥	٢	نحل	تحل
١٩٦	٦	نجساً	نجساً
٢٠٣	١٤	(ص)	(رض)
٢١٩	١٥	يَا بُنَيَّ إِنَّ اللَّهَ	يَا بُنَيَّ إِنَّ اللَّهَ
٢٢١	١٦	ماجدا	ما حدا
٢٢٢	١٤	بين وأبيه	بين يوسف وأبيه
٢٣٧	١٢	شْتَرَوْا	اشْتَرَوْا
٢٣٨	٨	توفير	توقير
٢٤٥	١	والاعلام	والاسلام
٢٤٧	٩	أَنْ تَقَاتِلَ	أَنْ لَا تَقَاتِلَ
٢٤٨	٨	ابن يَفُضُّهُ	بن يَفُضُّهُ
٢٦١	١٧	لكم حكم مقتبس	لكم مقتبس
٢٦٢	٧	شخص	شخصي
٢٦٣	٣	ووثي	ووثني
٢٧٥	١	بمقبة	بمقبة
٢٨١	١	المهمة	الهامة
٢٨١	٤	فَتَنَّا	فَتَنَّا
٢٨١	٩	المهمة	الهامة

صحيفة	سطر	الخطأ	التصويب
٢٨٢	١	اسباب عواد الاخوة الهامة	اسباب عدااء الاخوة الهمة
٢٨٢	١١	يتخيلون إن	يتخيلون أن
٢٨٢	١١	يظنون إنه	يظنون أنه
٢٨٢	١٥	واذ دادو	وازدادوا
٢٨٣	١١	لحزُمته	لحُزُمته
٢٨٤	٤	وإن	وأن
٢٨٥	١٨	فا استطارت	فاستطارت
٢٨٧	١٤	فينبغي	فينبغي
٢٨٨	٨	قَيَات	قَهَات
٢٨٨	٩	سليمان	سليمان
٢٩٢	١٠	أولوا	ألو
٢٩٥	٤	يَروك : محباً	يَروك : محباً
٣٠٤	١٣	ثم اتخذتم	ثم اتخذتم
٣٠٥	١٣	البدنية	البدنية
٣١٠	٧	قيل أنه	قيل إنه
٣١٦	١٦	صيرت	صيدت
٣١٦	١٧	فهما	مها
٣١٨	٢	مع أبناء	مع أبناء
٣١٨	٦	الكلمة السابقة	الكلمة السابعة
٣٢٠	١٥	وزاد	وزداد
٣٢٠	١٨	يوسف من الحسد	يوسف هو من الحسد
٣٢٢	٣	فالصهيونيون	فالصهيونيون
٣٢٥	١١	﴿ قال قائل ﴾ منهم	﴿ قال قائل ﴾ منهم

صحيفة	سطر الخطأ	التصويب
٣٢٧	١٩ فإن قلم أنه	فإن قلم إنه
٣٣٢	١٧ الجب على	الجب من
١٣٤	١٥ بدل	يدل
٣٣٥	٧ الكلمة السابعة	الكلمة السابقة
	وهي الأخيرة	
٣٣٧	١ آ (١٠)	آ (١١)
٣٣٧	٤ أحسن	أحسن
٣٤٦	١٣ والضر	والفتر
٣٤٧	٢ إن الكثير	أن الكثير
٣٤٧	١٦ لاسمح الله	لاسمح الله
٣٥٠	٨ خذا الوعد	خذ الوعد
٣٥٢	٢ عليكم إنكم	عليكم أنكم
٣٥٣	١٧ إداً لذهب	إذاً لذهب
٣٥٨	٣ كأنها جان	كأنها جان
٣٦١	١٤ ومعناها إن	ومعناها أن
٣٦١	١٧ معناها ، إن	معناها ، أن
٣٦٣	١٢ دومان	دوئان
٣٦٣	١٩ ليس لناقط	ليس لناقط
٣٦٨	٤ (بالعزيز)	(بالعزيز)
٣٨٠	١٨ في والدم	والدم في
٤٠١	١ والأضرار	والإضرار
٤٠٣	١٣ وافتر	وافتر
٤٠٨	٥ (ص)	(رض)
٤١٠	١٤ والبلاء	وبالبلاء

التصويب	الخطأ	سطر	صحيفة
الصلبيين	الصلبيين	٢٠	٤١٨
حشويو	حشويوا	١٧	٤٢٢
عود الضمير	عود الضمر	٥	٤٥٠
(شروه، اشتراه)	(شروه، واشتروه)	١٨	٤٥٠
وقد أمر	وقد أمرا	١٣	٤٥٤
وإنّ	فان	٢	٤٦٦
سأ تلف المال	سأ تلف الحال	١٧	٤٦٨
بينته	باسم بنته	٢٢	٤٦٨
وهو أمر	فهو أمر	١٣	٤٧٨
جهات	جهات	٢٢	٤٨١
الثاني	الثالي	١١	٤٨٢
نواميس	قواميس	٢٠	٤٨٤
آ (٢٢)	آ (٢٠)	١	٤٩١
فيقمنس	فيقمنس	٥	٤٩١
يقدر	يقرر	٢	٤٩٣
خسة	خسة	٩	٤٩٩
القار	الفار	٢	٥٠٧
بهسة	بيهة	٥	٥١٢
السيدة	السيد	٨	٥١٣
بِخْمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ	بِخْمُرِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ	٢٣	٥١٨
يَكْفُلُونَهُ	تَكْفُلُونَهُ	٢٢	٥١٩
وصبوتها	وحبوتها	٧	٥٢١
بالجميل	في الجميل	١	٥٢٥
بالجميل	في الجميل	١	٥٢٦

صحيفة	سطر	الخطأ	التصويت
٥٣٤	١	همت به جلياً وهم	همت به جلياً وهم بها دفماً
		بها وقماً	
٥٣٥	١٦	لسان	ولسان
٥٤١	١١	المُخْلِصِينَ	المُخْلِصِينَ
٥٤٢	٥	كذلك	(كذلك)
٥٤٤	١٦	المُخْلِصِينَ	المُخْلِصِينَ
٥٧٧	١٢	عقار	عقاب
٥٦١	٢	مفصلاً	مفضلاً
٥٩٢	١٦	لِذَنبِكَ	لِذَنبِكَ
٦٠٠	١٩	فأصلحوا	فاصلحوا
٦٣٥	١٦	يكون « يشوع »	يكون يوم « يشوع »
٦٤٢	١	التحزير	التحزير
٦٦٥	٧	أخدمية	أخزمية
٦٦٧	١٧	ونسبة	ونسبه
٦٩٥	١٤	حواري	حواري
٦٩٧	٧	حكاك وأكال	حكاكاً وأكالا
٦٩٧	٨	وبشور	وبشوراً
٧٠٣	٤	لمثنى	المثنى

وهناك اخطاء اخرى لا تنففى على القارىء

MOU'TAMAR TAFSIR SOURAT YOUSSEF

**Congrès pour l'explication de la Sourate de Joseph
(Chapitre XII du Coran)**

Met en lumière les caractères des sionistes, montre que les caractères des descendants sont hérités de leurs ancêtres, dévoile la vérité sur les juifs et donne une leçon aux arabes de palestine .

O Arabes de Palestine ! O Arabes et Musulmans de tous les pays Lisez ces conférences sur la sourate de Youssef vous comprendrez ce dont sont capables les sionistes de par leur hérédité .

PAR
CHEIKH ABDALLAH EL - ALAMI
(1862 — 1936)

Professeur, chargé de l'explication du Coran
à la Mosquée des Omayades à Damas

Editeurs
Imprimerie DAR - EL - FIKR
DAMAS

Tous droits réservés

MOU'TAMAR TAFSIR SOURAT YOUSSEF

**Congrès pour l'explication de Sourat de Joseph
(Chapitre XII du Coran)**

Met en lumière les caractères des Sionistes, montre que les caractères des descendants sont hérités de leurs ancêtres, dévoile la vérité sur les Juifs et donne une leçon aux Arabes de Palestine .

O Arabes de Palestine ! O Arabes et Musulmans de tous les pays ! Lisez ces conférences sur la Sourat de Youssef vous comprendrez ce dont sont capables les Sionistes de par leur hérédité .

**PAR
CHEIKH ABDALLAH EL - ALAMI
(1862 — 1936)**

**Professeur, chargé de l'explication du Coran
à la Mosquée des Omayyades à Damas**

**Editeurs
Imprimerie DAR - EL - FIKR
DAMAS**

Tous droits réservés

مؤتمِر

تفسير سورة يوسف

عَلَيْهِ السَّلَامُ

وفيه

بيكان طبائع الصهيونيين

وأن طبائع الآباء موروثه في الأبناء ، وكشف حال اليهود وعبرة أهالي فلسطين

يأهالي فلسطين ! وبأيها العرب والمسلمون ! اقرؤوا هذه المحاضرات
على سورة يوسف ، تعرفوا ما أنطوى عليه الصهيونيون وما ورثوه من أصولهم

الجزء الثاني

من الآية الـ ٣٧ إلى آخر السورة

بقلم

عبد الله العالبي

(الفزي الدمشقي)

أستاذ دروس تفسير القرآن والتحذير الاسدي في الجامع الرمزي بدمشق سابقاً

قام بتبيض مسودة الكتاب المخطوطة بخط يد المؤلف

وبترتيب مواضعه وبوضع عناوينها وبشرح

بعض كلماتها في الهامش ابن المؤلف

الدكتور عبد الحكيم العالبي

قدّم له فضيلة الأستاذ العلامة

محمد هجّـة البيطار

عضو مجمع اللغة العربية بدمشق

حقوق الطبع والنقل والترجمة

محفوظ بها لورثة المؤلف

الطبعة الأولى : مطابع دار الفكر بدمشق

١٣٨١هـ - ١٩٦١م

الشيخ عبد الله العلمي الغزالي دمشقي

مؤتمّر

تفسير سورة يوسف
عليه السلام

الجزء الثاني

دار الفكر

الفصل الخامس

يوسف (ع) يعرف بحاله ويعهد الدعوة للتوحيد

آ (٣٧) ﴿ قَالَ : لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا
بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ، ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ، إِنِّي
تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ، وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية السابعة والثلاثون فقام السيد عبدالحق الداغستاني وقال:
(قال) يوسف ، بلسان المرف بنفسه تمهيداً لما بعده ، مخاطباً الفتيين في
السجن (لا يأتكما) ولا يحمل اليكما في هذا السجن (طعام ترزقانه) تأكلانه
وتشربانه من أي نوع كان من الماء كولات والمشروبات . وهذا العموم مستفاد من
وقوع النكرة وهي ﴿ طعام ﴾ في سياق النفي ، ومن كلمة ترزقانه أيضاً التي
قصد بذكرها تأكيد إفادة العموم والشمول . أي لا يحضر لكما وقت الصباح أو
وقت الظهر أو المساء طعام ، أي طعام كان ، ترزقانه ويجلب لكما من الحكومة أو
أو من يوتكما ﴿ إلا نأتكما بتأويله ﴾ أي ببشارته لو فرض أنكما رأيتمه مناماً
﴿ قبل أن يأتكما ﴾ تأويله ، أي قبل مايقع مصداقه ، و ﴿ ذلكما ﴾ التأويل
والتعبير ﴿ مما علمني ربي ﴾ سبحانه وتعالى ، وكيف لا يكون لي ذلك و ﴿ إني
تركت ﴾ أي اجتنبت ﴿ ملّة قوم ﴾ كأهل مصر ومن كانت الفتيان على دينهم
ونحوهم ﴿ لا يؤمنون بالله ﴾ قائماً بذاته ، غير منتشر في ذرات هذا العالم ، ولا حال ،
ولا منبث في أحد من المخلوقين ، وليس له شريك ولا وسيل ، سوى عبادته وطاقته
وحده ، ﴿ وهم بالآخرة ﴾ أي بدار الجزاء ﴿ هم كافرون ﴾ متكرون وجاحدون .
قال : ﴿ لا يأتكما طعام ترزقانه إلا نأتكما بتأويله قبل ... الخ الآية ﴾

- ١ -

هنا وقف الرئيس وترجى ثلاثة علماء كبار من علماء المؤتمر بأن يقولوا كل واحد بما يفتح الله به عليه في تفسير هذه الآية ، فنهض الأول وهو العلامة الطرابلسي^(١) وقال :

يوسف يترجم حياته الشخصية والعلمية

بدأ يوسف « ع » في هذه الآية والتي بعدها . يذكر لافتتين شئت من ترجمة حياته الشخصية . والحياة العائلية ، العلمية والدينية ، بساطاً وتمهيداً للغة ، التي أزمع على إلقائها عليها ، فكأنه جرى في كلامه على ما يسمونه بـ « سياسة (المراحل) » أى التقدم مرحلة مرحلة ، ومن كلامه ظهر لها أمران :

(١) أن هذا السجين بعدما كان في أعينها مجهول الأصل ، ممسك بالنسب ، إذا هو شريف عريق من أهل البيوتات الدينية الكبيرة .

(٢) أن هذا السجين بعدما كان في نظرهما مجرم ، ظهر أنه هادي مرشد واعظ معلم للخير .

ولم يكن تعبير الرؤيا ليهم يوسف أكثر مما يهيمه الوعظ والتعليم عند سنوح الفرصة ، فلذا ابتدأ بما هو أهم في نظره ، وكأنه عليه السلام ، رام أجر أعلى تعبيرة رؤيها ، ولكن ماهو هذا الأجر ياترى ؟ ليس هو دينار او لا درهما ولا شيئاً ما من الأمور المادية ، ولكنه إعفاء رئيس السقاة ورئيس الخبازين لتعليمه ووعظه . وهذه طريقة لطيفة ، على كل ذي علم أن يسلكها مع الجهال والفسقة إذا استفته واحد منهم أن يقدم الهداية والارشاد والموعظة والنصيحة أولاً ، ويدعوه الى ما هو أولى به وواجب عليه مما استفى فيه ، ثم يفتيه بعد ذلك ، وفيه ان العالم

(١) نسبة الى طرابلس من بلاد الشام (لبنان)

إذا جهلت منزلته في العلم فوصف نفسه بما هو بصدده ، وكان غرضه أن يقتبس منه ويتفجع به في الدين ، لم يكن من باب التزكية .

ثم ان معاملته يوسف (ع) يذكرنا اليوم بما يفعله أصحاب المستشفيات أو المدارس التبشيرية ، فانهم يطيبون المرضى ، ويعلمون التلاميذ ليس في مقابلة أجرة من دينار أو درهم ، ولكن هذه الأجرة هي إصفاؤهم للكرز الديني ، الأمر الذي يشجعنا نحن أن نعمل مثل هذا العمل ، ويدعونا أن نفترس الفرص كلما لاحت لأجل أن ندعو الجحدة للإيمان ، ونرشد العصاة للطريق القويم .

كان السكوت سائداً في غرفة السجن التي فيها الرئيسان ، فوقف يوسف أمامها وقال بملء فيه : سأشرح لكم تعبير رؤيكم . ولكن أحب أن تنتظروا قليلاً ، ربنا أنكلهم معكم ببذرة صالحة من تعريفكم بشخصي ، ومن العظة والذكرى . قبل كل شيء إني أشكر الله على أنه لا يأتيكم طعام ترزقانه من أي نوع كان مما يرزق عادة إلا نباتكم بما يؤول ويصير إليه ولو فرض أنكم رأيتم مناماً ، قبل أن يحدث لكم مصداقه وعاقبته بقطعة ، فأنا مستعد أن أخبركم عنه قبل وقوعه وحدوثه ، وهذا الذي أذكر اني أعلمه في عبارة الرؤيا هو مما علمني إياه ربي فعلته ، فهو شيء استفدته من قبيل السماء ، لا من قبيل الأرض — وأني بكلمة ﴿ ترزقانه ﴾ ونكر ﴿ طعام ﴾ في سياق النفي لافادة العموم — كأنه يقول : إن علمي بتأويل الرؤى عام . وليس مقصوراً على تأويل طعام دون طعام ، بل إني قدبر على تفسير أي رؤيا كانت ، في أي طعام يكون ، مما يرزق عادة ، فكل نوع من أنواع الأطعمة التي ترزق إذا رآه الانسان في منامه أقدر أن أفسره . فأنا قدبر على تعبير رؤيا طعام الحجر ، ورؤيا طعام الخبز ، كما إني قدبر على تفسير ماعداهما من صنوف الطعام عموماً .

ولست أريد المكاثرة بذلك ، ولكن التعريف برجل مجهول الهوية (عندكم) ، إني تركت منذ ديت الى أن شبت ملة قوم لا يعرفون حقاً ولا ينكرون باطلاً .

وسببه انهم لا يؤمنون بوجود الله مطلقاً ، أو بوحدايته ، لأن من لم يؤمن بالوحدانية ليس مؤمناً بالله الإيمان المطلوب شرعاً ، وهم كافرون بيوم الجزاء ، وإن إنكار الصانع ووحدايته مع الكفران بيوم الدينونة هو العقبة الوحيدة في سبيل تلبية العلوم الدنية من السماء .

فقوله : ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ الْخَبْءَ لَعَلِّي أَقُولُ : رَبِّ ذِكْرٌ ، إِنِّي سَمِعْتُ رَبِّي دَعَا ، وَمَعَهُ نَعْلَمُ أَنَّ جَزَاءَ الْإِنْسَانِ عَلَى عَقَائِدِهِ الْحَقُّ وَأَعْمَالِهِ السَّالِحَةُ قَدْ تَعَجَّلَ لِي مِنْهُ فِي الدُّنْيَا ، ثُمَّ ذَلِكَ الشَّيْءُ الْمُتَعَجَّلُ فِي الدُّنْيَا قَدْ بَكَوْنٌ مَادِبًا ، وَقَدْ بَكَوْنٌ مَعْنَوِيًّا كَمَ هُنَا ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَازَى يُوسُفَ عَلَى عَدَمِ ابْتِدَاعِهِ بِإِقْتِنَانِ مِلَّةِ الْكَافِرَانِ ، وَعَلَى اتِّبَاعِهِ لِمِلَّةِ التَّوْحِيدِ بِأَنْ عَلِمَهُ مَا يَشَاءُ : ﴿ يَنْبَغِي وَابْتَغُوا اللَّهَ وَنِعْمَ الْوَعْدُ لِلَّذِينَ هُمْ ﴾ (٢ : ٢٨٢) ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّي تَنصِفُوا اللَّهَ بِحَقِّكُمْ فَرَقْنَا ﴾ (٢٩ : ٨) ويريد يوسف بقوله ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ الْخَبْءَ ﴾ إلى آخر آية ٣٨ ، إن الدين الذي دعه عليه اليوم ليس دين « تعيين » عينته فيه أبوه مثلاً . ولا هو : « من » « نهيد » ، « فإني » فيه الأسلاف ، بل هو دين « انتخاب » انتخبه هو نفسه ، بالدايات والبرهان ، واعتنقه مختاراً له من دون سائر الأديان .

وقد يكون قد أشار بقوله : ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ الْخَبْءَ ﴾ إلى أنه « حفيظ » . لأنه سيشير بقوله : ﴿ وَابْتَغْتُ الْخَبْءَ ﴾ إلى أنه « حفيظ » وهو جامع لـ « من » « نهيد » . هذا ما تيسر لنا الآن . واتباع الحق أسلم ، والله تعالى أعلم .
ثم نهض العالم الثاني وهو العلامة الحلي وقال :

يوسف يغتنم الفرصة فيعظ الفتيين تمهيداً لدعوتهما للتوحيد

يقول يوسف مخاطباً الفتيين السجيين ، إني بحمد الله على استعداد تام بوجه عمومي لتفسير كل ماترون ، فعلى الخبير سقطها — فقَالَ لَهُ : ذَاتُ الظُّلُمَاتِ ، أَمَّا الْإِنْسَانُ الْحَسَنُ — قَالَ : يَا سَائِلِي أَمَّا وَأَيُّكُمَا اتَّبَعَنِي ، فَمَنْ كَانَ لَهُ مِنْكُمْ أَدْنَى

السمع فليسمع ، ومن كان له قلب فليحضره ، لا بآتيكما في اليقظة طعام مأكولاً كان كالخبز الذي رآه أحديكما ، أو مشروباً كالصير الذي رآه الآخر ، ترزقانه .- (عبر بذلك لإفاده العموم ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ - وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ (٦ : ٣٨) فزاد « في الأرض وجناحيه » لإفاده التعميم والاحاطة ، وكذلك ههنا زاد كلمة « ترزقانه » لإفاده الاستغراق والشمول ، فكأنه قال : أي طعام كان مما عادته أن يرزقه الانسان في هذه الدنيا) .- إلا نبأتكما تأويله ، أي مصداقة ومرجعه ، وهو نفس الشيء المخبر عنه . أي أنبأكما بالتأويل بلفظي ويأني ، قبل أن تريا التأويل بالذات ذلكما مما علمني ربي ، ولا فخر ، فما أنا إلا سفير من سفراء الحق ، واسان من أسنة الصدق ، ولهذا فتأويل الروى منها عظمت هو أهون عليّ من قطع الخيط ، ولا أقول ذلك مفتخراً ، فإن آفة الحسب الفخر ، بل تحدثنا بنعمة الله تعالى .

جعل يوسف (ع) العلم اللدني ثواباً على تركه ملة من لم يؤمنوا بالله ولا يوم الدين ، ثم أخذه بملة التوحيد (انظر التعليق الرابع من خطاب مولانا عمر البيلاني على قوله : ﴿ وكذلك نجزي المحسنين ﴾ (آ : ٢٢) .

ثم قال الصديق عليه السلام تمهيداً لوعظه للفتيين : ولا اكذبكما ، ولا أخفي عنكما ، ما كان عرض لي أني استعملت عقلي ، واستخدمت أفكاري ، وجعلت البرهان رائدي ، والتبصر مطيقي ، وتفكرت في سائر الملل والنحل ، حتى وصلت لنور الحق ، وعرفت ماهي الملة التي ينبغي طرحها ، وماهي النحلة التي يجب اعتناقها . ﴿ فتركت ملة قوم .. الخ ﴾ ، وأتما لو سلكتما طريقي هذه لكفيتم شر التقليد ، ووصلتما الى نور الاستقلال الفكري ، الذي هو أصل كل خير ، وكنتما بعده تصلان الى الملة الحقه فتعتقانهما .

هذا مرمى كلام الصديق (ع) ونري أنه قد افترض فرصة سؤالها له ، فحول بمجرى الحديث الى عظمتها ، وأخذت جمل الوعظ تنثال على شفثيه .

آس منها ارتياحاً ، فأحب أن يطيل معها الحديث ، جرياً على رأي من قال :

وقد وجدت مكان القول ذاسمة قالت وجدت لساناً قائلاً فقل

اقتحم هذه الفرصة لإرشادها ، لأنه رجل ديني ، وأهل الدين يكرسون حياتهم لاستئابة المجرمين وأصحاب الذنوب ، حتى إنهم ليطوفون المسجون ويترفون إلى المسجونين ، ويتوددون إليهم ، ويعظونهم ويدعونهم إلى الحق ، ويحرضونهم على التوبة ، فما أتاه يوسف هو من أهله في محله .

سألاه فعمل على اغتنام السانحة ، لعله يستطيع التسلط على أفكارها ، ويكشها بأنه هو على عقيدة التوحيد ، خلافاً للمصريين ونحوهم ، ووفقاً لعائلته الكبيرة .

أتى في هذه الآية والآيات الأربع التي بعدها يحدث ذي شجون ، منه ما يتعلق بترجمة شخصه ، ومنه ما يتعلق بترجمة أصوله ، ومنه ماله علاقة بالدعوة الدينية والوعظ والإرشاد ، ومنه ما هو جواب على سؤالها .

المراد « بالترك » الامتناع

والمراد بكلمة « الترك » في قوله ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ ﴾ الامتناع منه . رأساً ، كما يفصح عنه قوله الآتي : ﴿ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ (آ: ٣٨) ، لا تركها بعدملاستها — حاشا — وإنما عبر بهذا التعبير لكونه أدخل بحسب الظاهر في اقتدائها به (ع) فهو للاستعجال لها أن يتركها ملتها ، وقوله : ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ الْحَافِ أَوَّلَ غَمْزَةٍ ﴾ ، ولكن في الحاشية . وقوله الآتي : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ إِلَّا هِيَ الْغَمْزَةُ الثَّانِيَّةُ ﴾ ، ولكن في الصميم .

القوم الوثنيون الذين عناهم يوسف

وأما هؤلاء (القوم) الذين ذكرهم السيد الصديق فلم يبين المفسرون رضي الله عنهم من هم ، وكأنه لأن يبينهم من هم ليس مهماً ، ولكننا نحن نظن أنهم

سكان العراق وسوريا وفلسطين ومصر ، الذين كانوا معاصرين له ومحيطين به ،
وهم الأمم التالية :

(١) — القينيّون : ، وهم قبيلة من العرب كانت متفرقة في الجنوب ،
بين الهائلة .

(٢) — الحثيّون : وهم قبيلة قوية ، استولوا على سوريا ، وكانت عاصمتهم
بجاورة لبلدة (حماة) .

(٣) — الفبرزيّون : وهم إحدى قبائل فلسطين ، سكنوا في الجبال
في داخلية البلاد ، وكانوا رعاة لا مدّن لهم .

(٤) — الأموريّون : وكانوا في الدرجة الثانية بعد الحثيين في القوة ،
كانوا في اليهودية الجبلية ، وفي شرقي الأردن .

(٥) — الكنعانيّون : وهؤلاء ينقسمون الى خمسة أمم ، (صيدوني) سكان
صيدا وسور ، و (عرقي) سكان لبنان ، و (أروادي) سكان جزيرة أراس ،
و (حماتي) سكان حماة ، و (حوتي) سكان شكيم أي نابلس .

(٦) — اليبوسيون : سكان أورشليم وهي بيت المقدس .

(٧) — الكلدانيّون : سكان العراق .

(٨) — القبط : سكان مصر .

(٩) — الفلسطينيون : سكان البلاد التي بين نهر الأردن شرقاً ، والبحر
الأبيض المتوسط غرباً .

فهؤلاء الأمم كانوا وثنيين ، ولا يعتقدون بحقيقة يوم الدين ، وكانوا معاصرين
لأبراهيم فاسحاق فيمعوب عليهم السلام ، وبالطبع كان يوسف قد عرفهم ، لأنه
تولد في العراق ، وبقي فيه الى أن بلغ من العمر عشر سنين ، ثم هاجر مع أبيه

يعقوب وسائر الأسرة اليمقوية الى سوريا فلسطين ، وبقي في فلسطين سبع سنين ولما بلغ من العمر ١٧ سنة أخذ مصر ، وعاش فيها الى أن توفي ، واغا قلنا : نظن أنه عني بلفظ (قوم) هؤلاء الأمم لأنه عاش فيهم واختلط بهم وجاورهم وعرفهم حق المعرفة . وهنا فوائد مهمة ، لا بد من التنبيه عليها :

الدور الذي سكت فيها يوسف والأدوار التي تكلم فيها

الفائدة الأولى — تعلم أنه كان أتى على يوسف منذ نبأه عن والده ثلاثة أدوار (الدور الأول) أخذ (السيارة) إياه لمصر . كسلعة تجارية ، (الدور الثاني) — حالة الخدمة والعبودية للعزير فوطيفار ، وزاهي هدى الدهر . ساكتاً ، لم يهتف بشيء من مدح شخصه ، ولم يقرظ أهله بشيء من أنواع التقريظ ، ذلك لأنه لم يجد داعياً لذلك ، ولكنه الآن وقد اذعن الى (الدور الثالث) — دور الاستقال في أعماق السجون ، مع المجرمين ، منهم نمرير ، الفاحش . فقد رأى من اللازم اللازم أن يهتف بشيء من الثناء على شخصه . وإن لم يزل أسرته وأصوله بعض التقرب ، شأن كل واحد ، دوت دهره في ديار الناس وتصوت غصن فضله في أعينهم ، وابتنى ثلثه ، وشعر في الناس . وانس عنه ، فانه عندئذ يبين فضل نفسه بنفسه بقدر ما تستدعي الحاجة . ونبأ له . ويستند على أثيل منبته ، وكرم أصله ، ويأوى الى سباح من شدة ضربه من حوله ، فلقد در هذا الصديق ، ما أحسنه في الحين ، حال التكلم .

معنى ترزقانه

الفائدة الثانية معنى (ترزقانه) تعطيانه وتنتفعان به ، جعل الخير رزقاً لأنهم لم يكونوا يمتقدون تحريم شربها . والرزق هو كل ما انتفع به مطلقاً ، سواء أكان حلالاً أم حراماً .

معنى ذلكهما مما علمني ربي

الفائدة الثالثة — قوله (ذلكما مما علمني ربي) كما أن الله علّم يوسف تأويل الرؤيا في قديم الأيام ، كذلك علّم (ابن سيرين) تأويلها في العصور الحديثة ، (فابن سيرين) هو يوسف (البصريين) كما أن (الصديق) هو يوسف المصريين ، فإن ابن سيرين رزق من علم (عبارة الرؤيا) العجيب العجيب .

مصدر فضل يوسف

الفائدة الرابعة - قوله : (اني تركت ملة قوم الخ الآية الى أن يقول : واتبعت الخ الآية) يبين أن ليس مصدر فضله كونه ابن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم عليهم السلام ، بل جعل مصدر فضله تركه ملة أولئك الجاحدين ، واتباعه ملة آبائه الموحدين ، ففضل الانسان بأعماله لا بنسبه ، قال أبو العلاء المعري :

لا يفخرن الهاشمي : على امرئ من آل بربر

فالحق يحلف ما عليّ عنده الا كقنبر

(ترك يوسف ملة الوثنيين بدون سبق مزاولته)

ثم هو يريد بقوله : (تركت) رفضت بدون سبق مزاولته ، كما ان (العود) قد يطلق على الصيرورة ، بدون سبق المزاوله أيضاً ، ومنه : **يُؤَدُّوْكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ** (١٨ : ٢٠) معناه يصيروكم ، لأن هؤلاء القوم لم يسبق لهم أن اعتنقوا ملة التثليث ، ومنه حديث معاذ : (**أَعْدَتْ فَتَانَا يَا مَعْزُذُ ؟**) ، أي أحسرت ، ويقول كعب : (**وَدِدْتُ أَنْ هَذَا اللَّاتِبَنَ يَعُوْذُ قَطْرَانًا**) أي يصير ، ف قيل له : لم ذلك ؟ فقال : (**تَتَبَعْتُ قَرِيْشَ أَذْنَابِ الْإِبِلِ ، وَتَرَكَوا الْجَمَاعَاتِ**) ، فكما ان العود الى الشيء قد يستعمل بمعنى الصيرورة اليه ، بدون سبق مزاولته

له ، فكذلك ترك الشيء قد يستعمل بمعنى رفضه وعدم معاناته ، بدون سبق التلبس به كما هنا ، والا فلا أنبياء معصومون من الكفر والشر ، حتى قبل النبوة . ويعجبني ما رأيته لبعض المحققين من تعليل آخر لتعبيره بكلمة (الترك) ، وهو أنه لما كان يوسف مختلطاً بالوثنيين بالمرأى ثم في فلسطين ثم في مصر ، وكان مكشوراً بهم ومغموراً بينهم - عبر « بالترك » نظراً للظاهر لهؤلاء الجيلة بحاله ، وورث منه ما في قوله تعالى : **يَقُولُ الْمَلَأُ الَّذِينَ آمَنُوا مِن قَوْمِهِ : إِنَّهُمْ كُنْتُمْ هَاهُنَا بَاغِيَيْنَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكُمْ مِّن قَسْرَيْنَا** أو **لَا تُؤْمِدُونَ فِي مِلَّتِنَا** . قال : **أَوْ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ؟** ، قد افترينا على الله إذما إن صدق ما تكلم به بعد إذ نجانا الله منها ، وما يكون لنا أن نعود فيها ؟ الخ (٧ : ٨٧ و ٨٨) وقد عثرت لبعض المصريين ^(١) على تحقيق مهم في هذا المقام ، خلاصته :

(العوامل التي تجذب البشر إلى السعادة أو الشقاء)

(يوجد في هذا الكون عوامل تجذب البشر إلى السعادة أو الشقاء ؛ ومن أمثلة تلك العوامل ، أولاً (الحكومة) التي تسيطر على الناس ، وثانياً (العمل أو النادي) الذي يحتشد فيه القوم للحديث ، أو السحر أو الله أو ما يشبهه ، أو مختلف الأعمال والمصالح ، وثالثاً (العائلة) التي تربط الأفراد ، ورابعاً (المرأى) التي تنتقل من الآباء والأمهات والأجداد والحداث . سواء من جهة الأب أو من جهة الأم ؛ وحامساً (العلم) الذي يشربون منه ، ويشتاقون له ، ويذوقون حرته وبرده ، ويقتاتون بمحصولاته ، وهذا المؤثر الخامس هو ما سمي به علماء النفس (بالبيئة الجغرافية) وأما العوامل السابقة فيسببونها (البيئة الاجتماعية) .

البيئة الوثنية التي عاش فيها يوسف وتغلبه عليها

إذا تقرر هذا نقول : إذا كان الإنسان أسير من قوتهم حقيقيين ، ساء

(١) وهو العلامة الشيخ عبد القادر عيسى رحمه الله .

سيطره (الحكومة) التي تمتد تلك العقيدة ، أو (المحفل) الذي يؤثر بالاختلاط أو (العائلة) التي منها الجد والجدة لأم ، ومنها الحال ، أو (الاقليم) ، ثم قاوم تلك المؤثرات ، واتخذ لنفسه عقيدة استحسنها ، فانه يصح له أن يعبر بقوله : (تركت كذا واتبعت كذا) لأنه كان بسبيل أن يفعل ويتأثر وينجذب لبعض هذه الجواذب ، ولكنه قاوم هذه كلها أشد المقاومة ، فيوسف الصديق كان عاش في العراق عشر سنين ، تحت سيطرة (حكومة) وثنية على دين الصابئة ، وكانت عيشته تلك المدة في بيت جده لأمه (لاباب) الذي كان وثنياً ، ثم عاش سبع سنين بفلسطين الوثنية ، ثم عاش بمصر في بيت (فوطيفار) نحو عشر سنين ، وأصحاب هذا البيت وسكانه كلهم وثنيون ، ثم دخل (السجن) مع سجناء من الشعب المصري الوطني وشعب الاحتلال الهكسوسي ، وكلهم من أهل التوثن ، وكل من كان كذلك كان بسبيل أن يكون على ملة هذه البيئات ويخضع عليه من ورائة طريقة أحواله ، ولكن يوسف الصديق بما أوتي من عقل وافر ، وحفظ إلهي ، تغلب على كل هذه المؤثرات ، ولم يجذبه شيء من هذه الجواذب ، ولم يتمسك إلا بعقيدة التوحيد ، والايان بالنشأة الآخرة ، لاسميا وأن ذلك هو ملة آبائه الكرام ، كان كل هذا قبل النبوة ، وأما بعدها فالأمر ظاهر .

الوثنيون لا يؤمنون بالله واحداً والماديون لا يؤمنون به موجوداً .

الفائدة الخامسة - قوله : ﴿ لا يؤمنون بالله ﴾ يحتمل معناه : لا يؤمنون بالله واحداً ، بل يشركون معه غيره ، وذلك (كالقوم) الذين عاصروهم يوسف ، من عراقيين وفلسطينيين ومصريين ، لأن هؤلاء كلهم وثنيون ، لا يحجدون وجود الله ، بل يعترفون به ، ولكنهم لا يؤمنون به الايمان الحق ، الايمان المطلوب ، وهو ايمان التوحيد ، بل يشركون معه غيره من الآلهة التي بعبدونها لتقربهم الى الله زلفى ، ويحتمل أن معناه موجوداً ، وذلك كالماديين ، مع أن المادة جاهلة ، لا يمكن أن

ينشأ عنها هذا الابداع في الكون ، وارتباط المصالح في سائر العوالم ، مع وجود الحكمة في كل مازى ونسبح ونفخس ، فكل "صنوع لغرض صحيح وقصد مقبول ولا يمكن للمادة — وهي لا تتقل شيئاً وانما تحدث عنها التفاعيل آثاراً صماء — أن توجد عقولاً مدبرة مفكرة ، تعمل بالحكمة وبمقدار في هذا الوجود .

الأدلة على وجود الله تعالى

كان يجب أن لا يختلف الناس في العقيدة بوجود الله ، لأن دلالة الأثر على المؤثر والنظام على المنظم ، والعقل المحكم على الحكيم — بديهية ، بل قالوا ، إن ذلك مما يدركه الحيوان ، فضلاً عن الانسان ، فانك إذا ضربت الحمار مثلاً ، التفت ابرى من ضربه ؟ لأنه مركز في فطرته ان الأثر لا يكون بلا مؤثر ، والفعل لا يكون بلا فاعل ، قال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَّاتٍ ، كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ۗ ﴾ (٤١: ٢٤) وأب إذا رأيت كلمة من ثلاثة احرف لم تشك في أن كاتباً كتبها ، وإن رأيت ساعة تشير الى الأوقات ، أيقنت أن لها صائناً ، رتب جزاءها واعدها لتلك الغاية ، وما مثل من ينكر وجود الخالق — وهو أظلم من الشمس — إلا كمن رأى (خزان اسوان) بالقطر المصري ، أو (برج إفل) بباريس ، مما : ان ذلك على فخامته وضخامته لا يحتاج الى (مهندس) ولا (صانع) !!! ، أو لمن رأى (كتاباً) بديعاً في مبانيه ، بليغاً في معانيه ، ومبه من العظمة العسابة ، والأفكار السامية ، ما يفوق أفكار (أفلاطون) وفلسفة (أرسطو) ، ومن الأدب الرائع ، والشعر البارع ، ما يسمو على شعر (المتنبي) ، ولما نظر مبه قال : ما هذا الكتاب إلا أوراق كانت في صندوق ، وكان معها شيء من حروف الطباعة ، ثم هز الصندوق هزات متوالية ، فوجد ذلك الكتاب على مزرون . مهلا ترمي صاحب ذلك القول بالجنون ؟ .

وإذا كنت لاتسلم أن (ساعة) توجد بلا صانع ، وأن (باختره) توجد

بلا مهندس ، بل لاتسلم أن « كلمة صغيرة » توجد بلا كاتب ، فكيف تسلم أن هذا « الكون » العظيم ، الذي يهر العقول ، وبحير الأبواب ، قد وجد بلا موجد ، ونظم بلا منظم ، وكان كل ما فيه من نجوم وغيوم وقفار وبحار وليل ونهار وظلمات وأنوار وأشجار وأزهار وشموس وأقار ، الى أنواع لا يحصها العد ، ولا يأتي عليها الحصر ، وقد وجدت بلا موجد بخرها من الدم ، وينوعها الى مالا يحصى من الأنواع ، ويمتعا بما شاء من الخصائص المختلفة ، والمزايا المتباينة ، والصفات المتقابلة ؟ وقد قال بعض الفلاسفة : « يكفيني في الدلالة على الله وجود - الأتى - بجانب - الذكر - فهل علمت الطبيعة أن النوع لا يبقى ولا يحفظ إلا بوجود « المرأة » فأوحدها ؟ وغابت بينها وبين الرجل ، وأعدتها لما يراد منها ، فخلقت لها الرحم والمهبل ، ومنعتها بما يجذب الرجل اليها ، من صفات الجمال ، حتى في صوتها ، ومنحتها ما يحتاج اليه طفلها الصغير ، وقال أفلاطون : « يكفينا ما في - العين - من التدبير الذي جعلها في مكان مكين من الحجاج ^(١) ، وجعل لها - الحجاب - ليقبها من العرق أن يتساقط فيها ، و - الهدب - ليقبها من الغبار ، ولا يمنعها الضوء » ، وهذا الباب واسع جداً ، وفيما ذكرناه كفاية .

عقيدة ابراهيم (م) وأولاده وعقيدة العرب الجاهليين

والاعتقاد بوحداية الله تعالى هو دين ابراهيم وأولاده من جهة إسحق ومن جهة إسماعيل ، غير أنه كان وجد في العرب مشركون لله في العبادة لا في الخلق والإيجاد ، يعني أن هؤلاء الصنف من العرب كانوا مع اعترافهم بوحداية الربوبية ، مشركين في الألوهية ، قال تعالى : ﴿ لَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَخَسَخَرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ : اللَّهُ ، فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ! ﴾ الى أن يقول : ﴿ وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ -

(١) هو الحفرة العظيمة التي فيها المين ويقال لها وقب .

بعد موتها؟ لَيَقُولُنَّ: اللهُ، قُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٩﴾ (٢٩: ٦١ و ٦٣) وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؟ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ؟ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ؟ وَمَنْ يُدْبِرُ الْأَمْرَ؟ فَسَيَقُولُونَ: اللهُ فَقُلْ: أَفَلَا تَتَّقُونَ؟﴾ (١٠: ٣١) إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي تصرح بأن مشركي العرب إنما كانوا مشركين في الألوهية، دون الربوبية، وهكذا وحده في اليهود أناس كثيرون كذلك كما يعلم من البيان الآتي:

بيان سقوط أكثر بني إسرائيل في هاوية

الوثن سبب النوراة التي هي اليوم بأيديهم

(١) في عصر يعقوب: كان (على ذمة التوراة) يوجد في بيت يعقوب أناس وثنونيون في بعض أيام حياته، كما نستفيده من قول التوراة: (وقال يعقوب لبيته ولكل من كان معه: اعزلوا الآلهة الغريبة التي بينكم) (٢: ٣٥) وقولها (فاعطوا يعقوب كل الآلهة الغريبة التي في أيديهم) (٣٥: ٤)

(٢) في مدة إقامتهم بمصر - «كانوا عبدوا آلهة المصريين» (١٧: ٧) و (يش ٢٤: ١٤) و (حز ٢٠: ٧ و ٨) و (أر ٤٤: ٨ - ١٩)

(٣) في أول مدة الخروج «عبد بنو إسرائيل العجل في البرية بعده، حمر حوا من مصر في مقاطعة جبل سيناء حتى قتل منهم نحو ثلاثة آلاف رجل» (خر ٣٢: ٢٧ و ٢٨)

(٤) في آخر مدة الخروج - «عبد بنو إسرائيل بعل وفتور وداب حين كانوا في النور فغضب الله عليهم وأمات منهم بالوباء ٢٤ ألفا» (خر ٩: ١٥)

(٥) في مدة التيه - وقع أكثر بني إسرائيل في وهدة الشر في جميع مدة

التيه البالغة ٤٠ سنة لافرف بين الآباء الذين خرجوا من مصر تحت قيادة موسى ولا بين أبنائهم الذين تولدوا في البرية ، فالجميع عبدوا الأصنام في البرية ، وقربوا لها القرابين (خر ٢٠ : ٧ - ٢٦) و (تث ٩ : ٧)

(٦) في عصر يشوع - وقد وقعوا في وهدة الشرك ، وهم تحت قيادة يشوع لآخر أيام حياته (ينس ٢٤ : ١٤ و ٢٣)

(٧) من موت يشوع إلى أول قاضي - وقد رجع بنو إسرائيل للسقوط في أودية الوثنية في الجبل الذي بعد يشوع إلى أيام أول قاض قام فيهم وهو «عثنيل» بن قناز (قض ٢ : ٨ - ٢٣ وقض ٣ : ٥ - ٩)

(٨) بعد موت القاضي الأول - مات القاضي «عثنيل» فعاد بنو إسرائيل لشركهم المعبود (قض ٣ : ١٢ - ١٤) مع ملاحظة مافي (قض ٢ : ١٩)

(٩) بعد موت القاضي الثالث - وقع بنو إسرائيل في أودية الوثنية بعد موت القاضي «شعجر» بن عناة (قض ٤ : ١ مع ملاحظة مافي قض ٢ : ١٩)

(١٠) بعد موت دبورة وباراق - عاد بنو إسرائيل لشركهم وأدخلوا عبادة البعل الى وسط البلاد وأقاموا له مذبحاً وسارية (قض ٦ : ٢٥ و ٢٨ و ٣٠) واعتقدوا أن البعل إله ، وبقوا على هذا الحال حتى قام القاضي جدعون (قض ٦ : ١٠)

(١١) في أيام جدعون - ثم وقع بنو إسرائيل بواسطة مخلصهم جدعون في الوثنية في أيام جدعون ، على إثر مقاتلته المديانيين (قض ٨ : ٢٤ - ٢٧)

(١٢) على أثر موت جدعون - كان بعد موت جدعون أن بني إسرائيل رجعوا وزنّوا وراء «البعليم» وجعلوا لهم بعل بريث لها (قض ٨ : ٣٣)

(١٣) بعد موت يائير - بعدما مات «يائير» الجلعمادي الذي كان قاضياً ثامناً على بني إسرائيل عادوا يعملون الشر ، وعبدوا «البعليم والعشاروت» وآلهة «آرام» وآلهة «حيدون» الخ ما في (قض ١٠ : ٦ و ١٠ و ١٣ - ١٦)

(١٤) بعد موت عبدون — بعد ما مات القاضي « عبدون » عاد بنو إسرائيل يعملون الشر المهوديين وهو الوثن (قض ١٣ : ١) مع ملاحظة ما في (قض ١٩ : ٢) (١٥) شرك بعض اللاويين — ثبت إن بعض اللاويين كان يكن في بيت الأصنام (قض ١٧ : ٤ - ١٣) في قرية « الطيبة » التابعة لقضاء « طول كرم »

(١٦) شرك سبط الدانيين — ثبت أن سبط « الدانيين » صعدوا الى جبل أفرام ، ونهبوا من بيت (ميخا) الذي في قرية (الطيبة) التمثال المنحوت والآفود والترافيم والتمثال المسبوك التي هي آلهة (ميخا) ، وأقاموا لأنفسهم التمثال المنحوت للعبادة (قض ١٨ : ١٧ و ٢٤ و ٣٠ الخ) .

(١٧) في عصر صموئيل — ثبت أن بني إسرائيل سقطوا في حفرة الشرك أيام النبي (صموئيل) ، فكانوا يعبدون في عصره الآلهة الغريبة و (المشتاروت والبلعيم) (١ صم ٧ : ٣ و ٤) .

(١٨) في عصر ملك شاول — ثبت انه كان يوجد في عصر (شاول) أول ملوكهم في بيت ابنته (ميكا) أصنام صغيرة ومجسمة ، على هيئة الانسان ، بحيث من رآها يظنها لإنساناً ، وتسمى هذه الأصنام (ترافيم) (١ صم ٢٩ : ١٣) وهي في شريعة اليهود وحسب كتبهم قرينة الوثن (١ صم ١٥ : ٢٣) .

(١٩) في عصر سليمان — تقول اليهود إن نساء سليمان أملائن فلبه وراء آلهة أخرى ، ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلهه ، فذهب وراء أربعة آلهة ، وهم « عشتروت » و « ملكوم » و « كهوش » و « مولك » (١ مل ١١ : ٤ - ٨) وكان يوجد في الرعية في عهده قوثن ، فتركوا الرب وسجدوا للآلهة « عشتروت » و « لاله » « كهوش » و « لاله » « ملكوم » (١ مل ١١ : ٣٣) وكانوا يقربون آباءهم وبناتهم لاله « مولك » وهو محمي بالنار (٢ مل ٢٣ : ١٠) .

(٢٠) أيام رحبعام — ثبت من التاريخ أن أهالي المملكة الجنوبية مملكة يهوذا أيام ملكها « رحبعام » بن سليمان ، عملوا الشر وعبدوا الآلهة الباطلة ، وبوا

لها مرتفعات وأنصاباً وسواري (١ مل ١٤ : ٢٣ و ٣٢) وكذا هم يقولون إن نفس الملك رجيعام أشرك بالله (١ مل ١٥ : ١٢ و ٣) .

(٢١) أيام أبيتا — سار « أبيتا بن رجبام » في جميع خطايا أبيه الذي تقدم آنفاً أنه كان مشركاً ، ولم يكن قلبه كاملاً مع الله (١ مل ١٥ : ٣) ولم تنزع الأصنام في مدته ، ولكن في مدة أبيه « آسا » (١ مل ١٥ : ١٢) .

(٢٢) أخزيا — توثن « أخزيا » ملك يهوذا بن « يهورام » (٢ مل ٨ : ٢٦) وأما الرعية فكانوا سقطوا في الوثنية بهمة أبيه « يهورام » أيام ملكه عليهم (٢ أي ٢١ : ١١ — ١٣) .

(٢٣) عثليا — « عثليا » ملكة يهوذا كانت مشركة ، لأنه هي التي أدخلت عبادة « البعل » إلى يهوذا (قاموس الكتاب المقدس لجورج بوست) .

(٢٤) أيام يواش — رجعت يهوذا وهم أهالي مملكة القدس إلى السقوط في الوثنية أيام الملك « يواش » (٢ أي ٢٤ : ١٨ و ١٩) — حتى أنه لما قام النبي زكريا ينصحهم رجوه بالحجارة ، بأمر الملك « يواش » في دار بيت الله (٢ أي ٢٤ : ٢٠ و ٢١) .

(٢٥) أيام أمصيا — وسقط أهالي مملكة يهوذا أيام « أمصيا » في القدس الشريفة في هوة الوثنية (٢ مل ١٤ : ٤ و ٢ أي ٢٥ : ٢٠) كما أن ملكهم « أمصيا » كان كذلك (٢ أي ٢٥ : ١٤ — ١٦) .

(٢٦) أيام آحاز — وسقطت أهالي مملكة يهوذا في الوثنية أيام ملك القدس آحاز ، هم وملكهم جميعاً (٢ مل ١٦ : ٣ و ٤ و ٢ أي ٢٨ : ٢ — ٤ و ٦ و ٢٣ — ٢٥) .

(٢٧) أيام منسى — وسقطت أهالي مملكة يهوذا في الشرك أيام ملكهم « منسى » ملك أورشليم (٢ مل ٢ : ٢ — ١٦ و ٢ أي ٣٣ : ٢ — ١١) .

(٢٨) أيام آمون — عبد « آمون » ملك يهوذا الأصنام السقي عبدها أبوه « منسى » وسجد لها ، وترك الرب إله آبائه (٢ مل ٢١ : ٢١) وهكذا الشعب (٢ مل ٢٢ : ١٧ و ٢ مل ٢٣ : ٤ — ٢٦) .

(٢٩) أيام يوشيا — وسقطوا في الوثنية أيام « يوشيا » ملك يهوذا (٢ أي ٣٤ : ٣ — ٧) ولكن الملك كان موحداً مصلحاً .

(٣٠) أيام يهوياقيم — سقط « يهوياقيم » ملك أورشليم وشعبه في الوثنية (٢ مل ٢٣ : ٣٧ و ٢٤ : ٢ و ٣) .

(٣١) أيام صدقيا — سقطوا في الوثنية كل أيام الملك « صدقيا » ملك يهوذا (٢ أي ٢٦ : ١٢ — ١٧) .

هذا ما يتعلق بمملكة أورشليم التي هي مملكة يهوذا الجنوبية ، وأما السكلام على مملكة الأسباط العشرة الشمالية التي عاصمتها « شكيم » — وهي نابلس اليوم — فأنهم بالاجمال من دون استثناء قد سقطوا جميعهم في الشرك من أول أن نشكلت المملكة الى أن زالت ، كما يعلم ذلك صريحاً من أسفار العهد العتيق ، ولا حاجة الاطالة بذكر تلك المواضع ، ثم أيام سبي اليهود الى بابل كانوا سقطوا في الوثنية أيضاً (حز ١٤ : ٢٢ و ٢٣) .

الايان بالله واليوم الآخر

الفائدة السادسة — عدم الإيمان بالله واليوم الآخر ، هو مصدر كل الشرور والأضرار كما بالمقابلة ان الإيمان بالله واليوم الآخر ، هو مصدر كل خير ونفع ، قال تعالى : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ، أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ ، وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ ، وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ » ، أُولَئِكَ

حِزْبُ اللَّهِ ، أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥٨ : ٢٢﴾ وقال تعالى : ﴿فَإِذَا بَلَغَتِ ابْنَةُ جَدِّكَ أَجَلَهاُ ، فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرِوفٍ ، أَوْ قَارِئُوهُنَّ بِمَعْرِوفٍ ، وَأَشْهِدُوا ذُوَيْ عَدْلِ مِنْكُمْ ، وَأَقِيمُوا الشَّاهِدَةَ لِلَّهِ ، ذَلِكَكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴿٦٥ : ٢﴾ وقال تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ، لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴿٣٣ : ٢١﴾﴾ وقال تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ - أَي فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ - أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ، لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴿٦٠ : ٦﴾﴾ وقال تعالى : ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ، وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ ، إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴿٢ : ٢٢٨﴾﴾ وقال تعالى : ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ ، فَبَلَّغْتُمْ أَجَلَهُنَّ ، فَلَا تَعْضِلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ ، إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ، ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴿٢ : ٢٣٢﴾﴾ ، وقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ، فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ ، فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ، إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴿٤ : ٥٨﴾﴾ وقال تعالى : ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةً جَلْدَةً ، وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ، إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴿٢٤ : ٢﴾﴾ .

يوم الآخرة

الفائدة السابعة - قوله : ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ الآخرة هي اليوم الأخير الذي يبتدىء حين ترفع الشمس جاذبيتها عن الكواكب ، بإذن الله تعالى ، والأدلة متضافرة على وجود هذا اليوم ، المنتظر ، وأقربها تناولاً أنه اذا لم يكن آخرة ولا عقاب ولا ثواب ، كانت الحياة ضرباً من العبث ، لأن العدل في

هذه الدنيا غريب تائه ، لا يعرف مأوى ، ولا نرى في أعمال الناس غير المظالم الفادحة ، نرى الأشرار في رغد وهناء وسعادة ، بينما نرى الأبرار يقاسون مِرَّ العذاب ، وما كان ربك ليثيب الظالمين ، فستأتي ساعة تلقى فيها كل نفس ما كسبت ، إن خيراً وإن شراً ، ﴿ قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (٣٧: ١٩) ﴿ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٣٠ : ١٦) .

الايان بالآخرة والطوائف التي لا تعتقد به

الإيان بالآخرة هو دين ابراهيم وأولاده سواء كانوا من سلالة إسحق ، أو من سلالة إسماعيل ، إنما وجد من سلالة إسماعيل طائفة من العرب كانوا لا يعتقدون بالآخرة : ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا ، نَمُوتُ وَنَحْيَا ، وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ (٤٥ : ٢٣) ، كما أنه وجد من سلالة إسحق طائفة يقال لهم « صدوقيون » نشأوا كما قاله « يوسفوس » نحو سنة (١٥٠) ف.م أنكروا القيامة ، لأنهم أنكروا خلود النفس ، أي اعتقدوا أن النفس تموت مع الجسد ، فإذا كانت النفس قد تلاشت عند الموت ، لم يبق باب لحياة الجسد ، وهؤلاء طائفة صغيرة في اليهود ، وسطوتهم قليلة بين الشعب ، وكان لهم ميل شديد الى الفلسفة وكانت أفكارهم دنيوية ، وكان اعتبارهم للديانة الموسوية اعتباراً سطحياً ، وهم اذا رفضوا تعليم « القيامة » سقط عندهم تعليم الثواب والعقاب ، وهم يرفضون الاعتقاد بالملائكة والأرواح . (هذا ما يؤخذ من قاموس الكتاب المقدس لجورج بوست) ومن « الكنز الجليل » في تفسير الانجيل للدكتور وليم أدبي الاميركاني . وقد كان يوجد شيعة في الاسلام يقال لهم « الخطائية » زعموا أن الدنيا لا تنفى ، وأن الجنة هي ما يصيب الانسان في الدنيا من خير ، وأن النار هي ما يصيبهم من شر ، وقريب منهم فرقة يونانية ، يقال لها « التناسخية » يقولون بتناسخ الأرواح ، وأن لا بئ ولا آخرة ، وأما اليوم فيوجد فرقة ، يسمون

أنفسهم « بالبهائية » ، مركز تبشيرهم بدينهم عكا وحيفا ، وهم لا يستقدون بالآخرة ولا بالملائكة بالمعنى الذي نعرفه ، بل يأولون ذلك بأن الآخرة هي آخرة الأفراد أو الأمم في الدنيا ، وأن الملائكة هم خيار الناس وملحائهم ، هذا ماتيسر لنا الآن ، والله تعالى أعلم .

(مرحى)

ثم نهض العالم الثالث وهو الملامه الحموي وقال :

اتباع يوسف ملة آباؤه بعد التفكير

يقول السيد الصديق عليه السلام : انه قبل أن يتبع ملة آباؤه وأجداده ، كان تحرر واستقل وافتكر في ملل الناس ونحلهم فلم ترق له ولم تعجبه ، فلزم ملة آباؤه وأجداده ، لأنه رآها بالبرهان الساطع أحسن من غيرها ، من ملل المعاصرين ، ونحل المجاورين ، فلم يكن متبعاً لملة آباؤه لمجرد التقليد المحض ، حسب العوائد المطردة ، عند أكثر الناس - حاشا له من ذلك - بل إنما كان ذلك بعد الإيفال في التأمل والتفكير العميق ، ذلك لأنه كان تولّد فيه منذ الصغر الميل الى البحث عن الأسباب ، والتماس البرهان عن كل شيء ، فنشأ لا ييالي إلا بحقائق الأمور ، ولا يحترم سوى العقيدة التي يطمئن لها القلب ، ويثلج بها الصدر ، وذلك لا يكون إلا غب الاستقلال ، وبعده التفكير ، ثم الاتّصال ، فكأنه يقول :
إني حررت نفسي من كل تقليد ، وركنت الى الاستقلال الفكري ، واستخدمت العقل ، وتعمقت في التفكير ملياً ، حتى وصلت بالبرهان والتعقل لملة التوحيد ، التي هي ملة آبائي وأجدادي ، وأنا إذ لم أكن قد حررت نفسي سابقاً من كل تقليد ولم أركن الى الاستقلال الفكري ، فلست مستحقاً أن أقوم بالدعوة الدينية ، التي أطلب فيها من المدعو أن يعمل نظير ما عملت ، يتحرر ويستقل ويعتمد على البراهين ، حتى يصل للعقيدة الحقّة .

الفرق التي لا تؤمن بالله كما يجب له

وقوله ﴿ لا يؤمنون بالله ﴾ أي لا يؤمنون بوجوده مطلقاً كالدهرية والمادية والطبيعية ، ولكن الاعتقاد بالله يكاد يكون عاماً بين الشعوب ، فلا تسكاد نحلو أمة متبدية أو متحضرة من اعتقاد إله ، ولكن فكرة الألوهية وأوساف الإله تختلف اختلافاً كبيراً بين الأمم ، ولذلك فيمكن أن يكون قد غنى بقوله ﴿ لا يؤمنون بالله ﴾ أنهم لا يؤمنون به كما يجب له من « الانفراد » ، خلافاً « للوثنيين » ، ومن « الاختيار » خلافاً لفريق من « علماء الهيئة » ، ومن « إحاطة » علمه بكل شيء ، حتى الجزئيات ، خلافاً « للفلاسفة » ، ومن أنه « خالق كل شيء » ، خلافاً « للمأنوية » ، ومن كونه هو الذي تقدم له وحده أنواع « العبادات » كلها ، وأنه هو « الشارع » ، لا غير ، خلافاً للشركيين له في « الألوهية » ، ومن أنه « لم يتولد من شيء » . ولم يتولد عنه شيء ، خلافاً « للنصارى » ، ومن أنه تعالى واحد ، ليس اثنين هما الأب والابن ، خلافاً « للمكدونيين » الذين يقولون بالوهية الآب والابن فقط ورفضون ألوهية الروح القدس ، فهم لذلك نصارى مثنية وإمامهم في ذلك مكدونيوس ، أسقف القسطنطينية ، ومن أنه تعالى واحد في ذاته وطبيعته الألوهية ، خلافاً للنصارى « المملكانية » الذين يقولون بالثالوث وبطبعيتين ، « فالثالوث » معناه الآب إله والابن إله والروح القدس إله ، والكل إله واحد ، ومعنى الطبيعيتين أن لأقنوم الابن طبيعة الناسوت وطبيعة اللاهوت ، أو طبيعة الانسان وطبيعة الاله ، وكل طبيعة على حدتها لم تمتزج مع الطبيعة الأخرى ، وهؤلاء مثل اللاتين والروم الأرثوذكس والكاثوليك والسرطان الجديد والبروتستانت ، فهؤلاء يقولون بطبعيتين في أقنوم واحد ، أو بأقنوم واحد في طبيعتين ، وبناء عليه يقولون عن السيدة مريم : « إنها أم الاله ، أو أم الله ، أو والدة الاله » .

ومن أنه تعالى واحد في ذاته وطبيعته ، ولكن طبيعته ليست تتزجه بطبيعة الانسان ، خلافاً للنصارى « اليعاقبة » مثل السريان القديم والأرمن والأقباط بمصر وكانت اليعقوبية منتشرة في « غسان » وصائر قبائل الشام ، وكذا في نصارى « نجران » ، وهؤلاء الطوائف يعتقدون أن المسيح طبيعة واحدة متركة من طبيعتين ، يمتنون أنه صار امتزاج الطبيعة الألوهية بالانسانية أو بالعكس ، وهؤلاء هرطقة (١) في نظر الملاكانية .

ومن أنه تعالى واحد ذو أُنُوم إلهي واحد ، خلافاً « للنساطرة » القائلين بأُنُومين أُنُوم إلهي ، وأُنُوم بشري ، كلاهما يمتاز عن الآخر ، والأول مشرق على الثاني إشراق الشمس على الكون تقريباً ، وبناء عليه هم لا يقولون عن السيدة مريم انها أم الله ، بل أم الانسان فقط وهم على كل حال على غير حق ، وإن كانوا أقرب اليه بالنسبة لمن سواهم ، حتى مؤرخي النصارى اعتبرهم « كالأريوسيين » ولذلك وقع اتفاق النصارى الملاكانية واليعقوبية على أن هؤلاء النسطورية هرطقة ومعظم أهالي هذا المذهب في المعجم وفيا بين النهرين (دجلة والفرات) « في جبل النساطرة » وعند منابع نهر الزاب وبحيرة أرمية ، وبين الفرات وحدود إيران وجنوبي الهند وفي الموصل على دجلة ، وفي أذربيجان ، ويسمون « الكلدان » ، وكانت النسطورية منتشرة في « الحيرة »

ومن أنه تعالى واحد ولا دخل فيه للانوثة والذكورة ، خلافاً « للمريسين » من النصارى ، فانهم يقولون بربوبية المذراء . وهؤلاء كانوا بجزيرة العرب وهم معدودون في نظر جميع الطوائف النصرانية هرطقة ومن أهل البدعة .

ومن أنه تعالى ليس إله جمال فقط ، ولا إله أرياح فقط ، ولا إله قبيلة

(١) الهرطقة الخارجون على الدين عند النصارى .

واحدة دون أخرى ، ولا أمة واحدة دون سواها ، خلافاً لقدماء اليونان ،
و... الخ الخ .

عقيدة الإيمان الكاملة بالله

تلخص عقيدة الايمان الكاملة بالله بأنه : (هو اللهُ أحدٌ ، اللهُ الصمدُ ، لم
يلدْ ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحدٌ) (١١٢) ، (وربك يخلق ما يشاء ويختار)
(٦٨ : ٢٨) وهو (خالق كل شيء) (١١٢ : ٦) ، (إياك نعبد وإياك نستعين)
(٤ : ١) وهو (رب العالمين) (١ : ١) ، (ولله ما في السموات وما في الأرض)
(١٠٩ : ٣) ، (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً) (٢٩ : ٢) (الذي
خلق السموات والأرض وما بينهما) (٥٩ : ٢٥) (الله ربكم ورب آبائكم
الأوليين) (١٣٦ : ٣٧) (الله الذي سخّر لكم البحر) (١١ : ٤٥) ، (وألقى
في الأرض رواسي أن تمتدّ بكم) (١٥ : ١٦) ، (الله الذي رفع السموات
بغير عمد ترونها) (٢ : ١٣) . (وهو الذي رسل الرياح بشراً بين
يدي رَحْمَتِهِ) (٥٦ : ٧) ، (جعل لكم الأرض ساطعاً) (١٩ : ٧١) ،
(والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً) (٧٢ : ١٦) (والله أنبت لكم من
الأرض نباتاً) (١٧ : ٧١) ، (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ،
ويعلم ما في البر والبحر ، وما تسفط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة في
ظلمات الأرض ، ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين) (٥٩ : ٦) ،
(إن الله على كل شيء قدير) (٢٠ : ٢) ، (إن ربك هو القوي العزيز)
(١١ : ٦٦)
« أحسن »

يوسف (ع) يبدأ بالدعوة الى التوحيد

آ (٣٨) * وَاتَّبَعَتْ مُلَّةَ آبَائِي ، إِبْرَاهِيمَ وَاسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ، مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ، ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ *

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثامنة والثلاثون فقام السيد فتح الله الجاوي وقال: يقول يوسف : (واتبعت) مع تمسكي بالدليل والبرهان (ملّة آبائي ابراهيم و) ابته (اسحق و) ابته (يعقوب) الأنبياء الكرام ، المحروفين في العراق ومسورية والحجاز وفلسطين ، فأنا بحمد الله من بيت نبوة وتوحيد ، (ما كان) ما صحّ (لنا) نحن معاشر الأنبياء (أن نشرك بالله من شيء) لا شيئاً من الشرك ولا شيئاً من الشركاء ، فلا نشرك في عبادته ، وهو شرك الألوهية ، كما لا نشرك معه غيره ، وهو شرك الربوبية ، و (ذلك) التوحيد (من فضل الله علينا) معاشر الأنبياء المهادين (وعلى الناس) المهتدين ، فلذلك نحن وهؤلاء الناس شاكرون له فعلاً بتمسكنا بالتوحيد ، وشاكرون له قولاً بتقديرنا هذه النعمة واعترافنا بهذا الفضل ، وثناءنا لله عليه (ولكن أكثر الناس) مع الأسف خاصة هؤلاء المصريين (لا يشكرون) نعمة التوحيد ، لا فعلاً باتباعها ، ولا قولاً بالثناء على مجديها . ووجه كون التوحيد من فضل الله انه تعالى نصب الأدلة التي ينظر فيها الانسان ويستدل بها ثم لطف بمن لطف حتى توفيق للتوحيد ، وقد نصب مثل تلك الأدلة لساثر الناس من غير تفاوت ، ولكنهم لم ينظروا ولم يستدلوا اتباعاً لأهوائهم فبقوا كافرين غير شاكرين ، قال تعالى : (وقليلٌ من عبّادي الشكور) (١٣: ٣٤) والشاكرون في المائة لا يتجاوزون عدد الأنامل ، ولا حركات العوامل .

واتبعت ملة آبائي ، ابراهيم واسحق ويعقوب

— ١ —

وقام صنع الله الصيداوى^(١) وقال :-

ملة آباء يوسف

كان يوسف عليه السلام تابعاً لملة آبائه ، عقيدة وشريعة ، وكان نابعاً في ذلك لأبيه يعقوب ، التابع لأبيه اسحق ، التابع لأبيه ابراهيم ، عليهم الصلاة والسلام ، (فالملة) هي في البدء لابراهيم ، وأما أنسالة المذكورون ، فتابعون له فيها ، وإن كانوا أنبياء . ومن أمثلة ذلك أن أنبياء بني اسرائيل بعد موسى عليه السلام ، تابعون له في شريعة التوراة وعقيدتها ، مؤبدون لها ، مفسرون لمعانيتها ، حصون على العمل بها والرجوع اليها ، مع ان كل واحد منهم ، نبى ، وقد يكون المعص منهم رسولا أيضاً ، وقد يكون كثير منهم أصحاب أسفار مجيدة .

أصول الدين الموجودة في كل ملة موصوفة

نعلم من سابق قوله : (إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون) ولاحق قوله (واتبعت ملة آبائي الخ) ان ملة آبائه هذه التي اتبعها هي الايمان بالله وبالآخرة ، ثم بالطبع كل من آمن بالله والآخرة لزم أن يعمل عملاً صالحاً ، وهذه الثلاثة هي أصول دين الله تعالى الموجودة في كل ملة ، لا ينفك فيها دين ودين ، بل الأديان فيها سواء ، قال تعالى : (إن الدين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين ، من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً ، فلهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) (٢: ٦٢) وقال تعالى :

(١) نسبة الى صيدا من بلاد الشام (لبنان)

﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ،
وُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ، وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٣ : ١١٤)، وقال
تعالى: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ؟
وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ (٤ : ٣٨)، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَغْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ
مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ، وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا
اللَّهَ، فَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ، أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ
وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ؟ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٩ : ٢٠ و ١٩)
وقال تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَيَتَّخِذُ
مَائِنَةً قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ، أَلَا إِنَّا قُرْبَتُهُمْ، سَيُدْخِلُهُمُ
اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٩ : ١٠٠)، وقال تعالى:
﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ، وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ
اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ، حَتَّى يُؤْطُوا
الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ، وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (٩ : ٣٠) وقال تعالى: ﴿وَالِى مَدِينٍ
أَخَاهُمْ شُعَيْبًا، فَقَالَ: يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ، وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ، وَلَا تَعْتُوا
فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (٢٩ : ٣٦)، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ
اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ، لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ، وَذَكَرَ اللَّهَ
كَثِيرًا﴾ (٣٣ : ٢١)، هذا ما يحضرنى الآن من الآيات التي تجمع الأصول الثلاثة
المهمة، وهي الإيمان بالله، والإيمان باليوم الآخر، والعمل الصالح.

أركان الإيمان الستة

ويزاد على هذه الثلاثة ثلاثة أيضاً، وهي: الإيمان بالملائكة والأنبياء والكتب
السموية، وبمجموع الستة هو أركان الأيمان، وهذه الستة مذكورة في نحو قوله

تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولَّوْا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ، وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ، وَآتَى الْمَالَ (عَلَى حُبِّهِ) ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ ، وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ، وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ، وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (٢ : ٢٧٦)

العمل بأركان الإيمان شرط مهم في الدين

فالعمل شرط مهم لاندحة عنه ، إذ ليس الغاية من الدين مجرد الاتساع اليه ولا مجرد فهمه ومعرفته حق المعرفة ، فإن ذلك لا يهدي إلى خير ، ولا يدفع شرأ ، وإنما العمل الانتفاع بكل ما جاء فيه ، هو الذي يربي صاحبه إلى ذرى الكمال ، وذلك « كالطب » ، فإنه لا يكتفي أن يعتقد الإنسان أنه نافع ، فيبرأ من مرضه وأوصابه ، وإنما يحصل ذلك باستماله والالتزام بأوامره ، والانهاء عن نواهيه ، ولذلك حرصت جميع الأديان على تبيان هذه الحقيقة للناس ، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ، وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ (٤٩ : ١٥) ، وقال تعالى : ﴿ لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولَّوْا وُجُوهَكُمْ ﴾ الخ الآية التي تقدمت ، فالبار الصادق النقي هو بحكم هذه الآية من جمع بين العقيدة الصحيحة ، والأعمال البدنية والمالية والأخلاق الحميدة ، وقال تعالى ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ ، مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ، وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ ، مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ، وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ (٤ : ١٢٢ و ١٢٣) وفي القرآن الكريم : ﴿ وَقَالُوا : لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ : أَنْتُمْ تَمَسُّونَهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ

عَهْدًا ؟ فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ، أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَمْلِكُونَ ؟ بَلَى مَنْ كَسِبَ سَيِّئَةً وَاحَاطَتْ بِهِ خَاطِبَتُهُ ، فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿ ٢ : ٨٠ - ٨٢ ﴾ وفي القرآن الكريم : ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ، قُلْ : هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ، وَهُوَ مُحْسِنٌ ، فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ، وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ، وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٢ : ١١١ و ١١٢)

ونقل عن المسيح مامنها : « كل من يسمع أقوالي هذه ويعمل بها أشبهه برجل عاقل بنى بيته على الصخر ، فنزل المطر ، وجاءت الأنهار ، وهبت الرياح ، ووقعت على ذلك البيت ، فلم يسقط ، لأنه كان مؤسساً على الصخر ، وكل من يسمع أقوالي هذه ولا يعمل بها ، يُشَبَّه برجل جاهل بنى بيته على الرمل ، فنزل المطر ، وجاءت الأنهار ، وهبت الرياح ، وصدمت ذلك البيت فسقط ، وكان سقوطه عظيماً » (مت ٧ : ٢٤ - ٢٧) ونقل عنه أيضاً مامنها : « ماذا تظنون ؟ كان لإنسان ابنان ، فجاء إلى الأول وقال يا بني ، اذهب اليوم اعمل في كرمي ، - فأجاب وقال : ما أريد ؛ ولكنه ندم أخيراً ومضى ، وجاء إلى الثاني وقال كذلك - فأجاب وقال : ها أنا ياسيد ، ولم يعض ، فأمر الاثنين عمل إرادته أبيه ؟ قالوا له : الأول - قال لهم يسوع : الحق أقول لكم ، إن العشارين والزواني يسبقونكم إلى ملكوت الله ، » (مت ٢١ : ٢٨ - ٣١)

عن تلقى يوسف عقيدة التوحيد

كان نسب يوسف عليه السلام غامضاً عند المصريين ، وكان يحسب أنه من غمار

الناس ، سواء أيام وجوده عبداً في بيت العزيز ، أو في أزمئة سجنه ، ولكنه لما وجد أنه اضطهد اضطهاداً زائداً ، وقد حانت له الفرصة ، أظهر نسبه أمام الفتيين فبقيا عند سماعها كلامه ، وعظم في أعينها أكثر من ذي قبل ، إذ قال لهما إني متولد من سلالة الموحدين ، دعاة التوحيد ، وقد اتبعت ملتهم وهم إبراهيم وإسحاق عليها صلوات الله ورحمته وبركاته ، ويعقوب حفظه الله : فإن كننا بمن سمع بهم فقد كفا كما مسمعناهم وإن كننا لم نسمعناهم ، فسلوا عنهم من أهل « ما بين النهرين » وأهل مملكة « آرام » ومملكة « أبي مالك » .

وغني عن البيان أنه لا يريد بهذا القول الفخار بذكر سلسلة النسب ، لأن سائر الشرائع السماوية جاءت تدعو لمحو التعصب للقبيلة والتمسك بالأنساب ، ففي الحديث الشريف : « المؤمنون اخوة ، تتكافأ دماؤهم ، ويسمى بذمتهم أدناهم » ، ولكن يوسف عليه السلام ذكر آباءه ضمن ذكره اتباع عقيدة التوحيد :

أو تقول : ذكر ذلك على سبيل التحدث بالنعمة ، لأعلى سبيل الفخر والعنجهية وعلى كل فهو « ديمقراطي » صميم ، وليس فيه شيء من « الشيوعية » .

وهنا نذكر الشيء بالشيء فنقول إن إبراهيم عليه السلام ولد سنة (٢٦٢٠) ف. هـ وكل حياته (١٧٥) سنة ، وبعد (١٠٠) سنة من عمره ولد له إسحاق عليه السلام فيكون إسحاق قد عاش مع أبيه (٧٥) سنة ، وكل حياة إسحاق (١٨٠) سنة ، وبعد ٦٠ سنة من عمره ولد له يعقوب عليه السلام ، فيكون يعقوب قد عاش مع أبيه (١٢٠) سنة ، وكل حياة يعقوب (١٤٩) سنة ؛ وبعد (٩٣) سنة من عمره ولد له يوسف عليه السلام ، فيكون يوسف قد عاش مع أبيه (٥٦) سنة ، وبذلك أمكن ليوسف أن يتلقى التوحيد ويتلقنه جيداً من أبيه يعقوب ، كما أمكن ليعقوب أن يتلقاه ويتلقنه جيداً من أبيه إسحاق ، كما أمكن لإسحاق أن

يتلقاه ويتلقفه جيداً من أبيه إبراهيم ، فضلاً عن أن كل واحد منهم قد صار فيما بعد نبياً ورسولاً كريماً عليهم جميعاً أفضل الصلاة والتسليم .

إذا تقرر هذا ، فقول : ﴿ واتبعت ملة آبائي .. الخ ﴾ يحمل على اتباع فرد من أفراد الأمة لنبيها ، بالنسبة لمدته التي قبل نبوته ، حينما كان من أمة أبيه يعقوب تابعاً صرفاً له ، ثم صار بعد ذلك رسولاً ، كما قال : ﴿ ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به ، حتى إذا هلك ، قلتم : لن يبعث الله من بعده رسولاً ﴾ (٤٠ : ٣٤) ، فيوسف في هذا مع أبيه نظير « لوط » عليه السلام مع عمه إبراهيم ، حيث كان قبل نبوته فرداً من أفراد أمة عمه ، تابعاً له ، كما قال تعالى : ﴿ فأمن له لوط ﴾ (٢٩ : ٢٦) ، ثم صار لوط من بعد ذلك نبياً ورسولاً ، كما قال تعالى ﴿ وإن لوطاً لمن المرسلين ﴾ (٣٧ : ١٣٣) وهكذا كان « يوشع بن نون » فتي موسى بالنسبة لموسى ، وسليمان بالنسبة لأبيه داود ، عليهم جميعاً الصلاة والتسليم .

﴿ ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ﴾

— ١ —

وقام مولانا صنعة الله الهندي وقال :

يوسف ينهى عن الشرك بالله والسلب القرآن في

استعمال النفي بمعنى النهي

يقول يوسف عليه السلام : (إن كل شيء من أمر الجاهلية والتوث هو تحت أقدامنا ، هو موضوع ليس له قيمة ، هو خلاف قضية العقل ، ولا يجوز لنا شرعاً ولا عقلاً أن نجعل لله شريكاً في عبادته وطاعته ، كما في ربوبيته) أو هو نفي بمعنى

النهي ، أي لنتنه عن الشرك . ويوجد في القرآنة من هذا الأسلوب الشيء الكثير ،
واليكم بعض الشواهد :

(١) قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ، وَسَعَى فِي خَرَابِهَا ؟ .. أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ﴾
(٢ : ١١٤) ، أي لا ينبغي للمؤمنين أن يمتنعوا هؤلاء من دخول مساجدهم ،
إذ ما كان لهم في حكم الله وشرعه أن يدخلوها إلا خائفين ، فهذا النهي كناية عن
نهي المؤمنين من أن يمتنعوا أحداً من الخاق الأذى بمساجدهم .

(٢) قوله تعالى ﴿ وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ﴾ (٣٣ : ٥٣) ،
أي لا يباح لكم ذاكم ، فهو نفي للاباحة ، أو هو نهي بمعنى لا تؤذوا .. الخ .

(٣) قوله تعالى ﴿ لا يمسسه إلا المطهرون ﴾ (٥٦ : ٧٩) ، أي لا يجوز
لهم مسسه بغير طهر ، أو هو نهي في المعنى أي لا يمسسه إلا المطهرون .

(٤) قوله تعالى : ﴿ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾
(٤ : ١٤٠) أي لم يكن ليجعل من أحكام شريعته ، ما يلزم المسلمين
بالتخوع والالقياد لأحكام الكافرين ، ولا يوجب عليهم السكون والطهانة
لسلطانهم ، لأنه يريد أن تكون كلمة الذين كفروا هي السفلى ، وكلمته هي العليا ،
أو هو يحول على النهي ، والمعنى لا تجعلوا أيها المؤمنون سبيلا عليكم للكافرين ، قال
تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾
(٤ : ٥٨) ، فكلية « منكم » صريحة في أنه ليس المؤمنون أن يطيعوا أولي الأمر
من غير أنفسهم إلا أن يتقوا منهم تقاة ، الى غير ذلك من الشواهد والأمثال القرآنية .

دين التوحيد هو الدين الخالص الذي جاء به الانبياء

دين التوحيد هو الدين الخالص الذي جاء به الانبياء حتى المسيح ، فالمسيح

ما جاء لينقض الناموس ، الذي أساسه التوحيد ، بل ليتمم ، ولكن « بولس » الذي هو أفضل مقدس عند النصارى ، نقض الناموس حجراً حجراً ، ولبنة لبنة ، مع انه يوجد عندهم نصوص واضحة في عقيدة التوحيد ، وإنما هم مع الأسف - أهملوها وأولوها وحرفوها .

نصوص عقيدة التوحيد في الانجيل

منها - قول المسيح : (وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ، ويسوع المسيح الذي أرسلته) (يو ١٧ : ٣) فيبين أن الله تعالى هو الإله وحده ، وأن يسوع المسيح إنما هو رسوله فقط ، وهذا هو الذي دعا إليه القرآن ، وهو عندهم بمثابة ما هو عندنا ، من قولنا : « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » ، وكان يجب أن يكون هذا النص أساس عقيدتهم ، يرد اليه بالتأويل كل ما يوهم خلافه ، لأجل المطابقة بين المنقولات بعضها مع بعض ، ولأجل موافقة المنقول للمقول .

ومنها - أن أحد الكتبة سأل يسوع عن أول الوصايا ، فأجاب يسوع : أول الوصايا « اسمع يا إسرائيل : الرب آلهنا رب واحد - فقال له الكتائب : جيداً يا معلمهم بالحق نطقنا ، لأنه واحد ، وليس آخر سواه ... فلما رأى يسوع أنه أجاب بمقل قال له : لست بعبداً عن ملكوت السموات » (مر ١٢ : ٢٩ و ٣٢ و ٣٤) فعلم من هذا أن التوحيد الخالص هو العقيدة المعقولة التي تؤخذ على ظاهرها بلا تأويل ، فإن فرضنا أنه ورد ما يناقضها ، وجب رده اليها .

المشرك في الربوبية والمشرك في الألوهية

والمراد من قوله : ﴿ ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ﴾ في جواز نوعي

الشرك في الربوبية ، أي الشرك في الربوبية والشرك في الألوهية اما الشرك في الربوبية فهو ان يطاع غير الله في أمر ونهي ، وتشريع وتحليل وتحريم ، وبعبارة أخرى : ان ترى لبعض المخلوقين حق التشريع والتحليل والتحريم لذاته ، فهذا هو الشرك في الربوبية ، المشار إليه بقوله : (أرباب متفرقون خير ؟) الخ وقد فسر النبي ﷺ اتخاذ أهل الكتاب أجبارهم ورهبانهم أرباباً بطاعتهم فيما يحلون ويحرمون .

والشرك في الألوهية ، هو أن يعبد مع الله سواء ، وبعبارة أخرى ، أن ترى لبعض المخلوقات سلطة غيبية وراء الأسباب العادية العامة ، فترجو نفعه وتخاف ضره ، وتدعوه وتذلل له . سواء شعرت في توجه قلبك إليه بأنه ينفعك بذاته ، أو تأثيره في إرادة الله تعالى ، بحيث يفعل لأجله ما لم يكن يفعله لولاه ، ببعض فضله ورحمته ، فهذا هو الشرك في الألوهية ، المشار إليه بقوله تعالى : ﴿ يا معبدون من دونه ألا أسماء .. ﴾ الخ (آ ٤٠٠) .

(ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس)

— ١ —

وقال جمال الدين البغدادي : —

— (التوحيد فضل من الله على عباده) —

يقول يوسف : إن ما ذكر من الترك والاتباع ، الذي حاصله ملة التوحيد ، هو من فضل الله علينا ، لأنه وإن يكن بكسبنا وأعمال أفكارنا وسمينا ، ولكننا إنما وصلنا إليه ، وحصلنا عليه ، بتوفيق الله تعالى ، أو إن (ذلك التوحيد هو من فضل الله علينا) وليس علينا نحن خاصة ، بل (وعلى) عموم (الناس) لأنه الوسيلة العظمى ، لجمع كلمة الخلق ، والذريعة الكبرى لاتظام أمور معاشهم ، فحسن العاقبة في معادهم . وكيف لا .. وإن فكرة الحب الانساني العام هي ناشئة

عن الاعتقاد بوحدانية الله ، الله الذي نحن جميعاً (رعيته) وهو (الملك) الواحد الأكبر لجميع هؤلاء (الرعايا) فإذا (المملكة) واحدة و (مليكها) واحد و (الراية) واحدة ، و (التبعية) واحدة ، إذاً فنحن (إخوة) في الدين ، وليس بيننا (أجنبي) في هذه (المملكة الدينية) ، أو إن (ذلك) التوحيد (من فضل الله . الخ) فهو مائدة مباركة منصوبة لمن يريد الجثو حولها ، والتناول منها ، فنصب هذه المائدة هو من محض كرم الله على عباده ، وأما التوجه إليها وتنفيذ الروح بها ، فهو متعلق بكسبنا ، ولا ينال إلا بعمل الفكر وسمي العقل ، ومع كل ذلك ، فهذا التوجه لهذه المائدة ، يحتاج الى لطف وتيسير ، من الله تعالى ، فعلى كل نحن أسراء فضل الله تعالى الموهوب والمكسوب ، قال الشاعر :

فله سبحانه الحمد دوماً وله الشكر بكرة وعشية

وهذا القول (ذلك من فضل الله علينا ..) يذكرنا بقوله تعالى : (يا بني اسرائيل : اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم ، وأنيّ فضلتكم على العالمين) (٤٦ : ٢) ، فهذه التفضلة التي فضلهم الله بها على عالمي زمانهم ، أي على الأمم المعاصرة لهم هي (التوحيد) الذي ذكر انه من فضل الله على بيت ابراهيم . ومع ذلك فهو لم يخص شخصه ولا بيته بهذا الفضل ، بل قال : (وعلى الناس) فعممه للجميع ، موافقة للواقع .

المؤمنون اخوة

فالشرائع السبائية تهدم (الوحدة القبيلية) (والوحدة العنصرية) وتكره التفاضل بشرف القبيلة أو شرف الجنس والعنصر ، فالمؤمنون كلهم كتلة واحدة ، لا تفاضل بين أفرادها الا بطاعة الله وتنفيذ أمره ، قال تعالى : (إنما المؤمنون إخوة) (١٠ : ٩) وقال : (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) (١٣ : ٤٩) ،

وقال عليه الصلاة والسلام : (ليس منا من دعا الى عصبية أو قاتل عصبية) وقال
 ﷺ : (من دعا الى عصبية فمات ، مات ميتة جاهلية) ، وقال أيضاً : (لا فضل
 لعربي على عجمي الا بالتقوى) ، وقال (ﷺ) : (الناس سواسية) ، وقال :
 (رب أشمت أغبر ، لو أقسم على الله لأبره) ،

(المرء بأعماله لا بنسبه)

وثبت في الصحيح انه ﷺ قال : (من بطأ به عمله ، لم يسرع به نسبه) ،
 رواه مسلم ، وخطب النبي (ﷺ) في خطبة الوداع : (أيها الناس ، إن الله
 تعالى أذهب عنكم نخوة الجاهلية ، وفخرها بالآباء ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ،
 ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى) .

وقال الشاعر :

الناس من جهة التثيل أ كفاء أبوم آدم والأم حواء
 فإن يكن لهم من قبل ذا نسب يفاخرون به فالطين والماء

وقال :

وإني وإن كنت ابن سيد (عمر) وفي السير منها والصريح المهذب
 فما سودتني (عمر) عن ولادة أبي الله أن أسمو بأب ولا أب
 ولكنني أحمي حماها وأتقي أذاها ، وأرمي من رماها بمنكي

فهذا مع إمكانه أن يفتخر بالآباء ، لم يفتخر إلا بنفسه ، وقد أخذ هذا المعنى
 عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب

فقال :

لسنا وإن أحسابنا كرمتم يوماً على الأحساب تتكل
 نبني كما كانت أوائلنا تبني وفعل مثل ما فعلوا

ورآى (المأمون) يوماً رجلاً ، من أبدع الناس زياً ، ووفاراً وهية ،
وهو لا يلتفت إعجاباً بنفسه ، فسأل عنه المأمون ، فقيل له : « إنه عالم من العلماء ،
فأنشد عندئذ قول الشاعر :

كن ابن من شئت واتخذ أدباً يفتيك مأثوره عن النسب
إن الفتى من يقول : ها أنا ذا ليس الفتى من يقول : كان أبى

وتكلم رجل عند (عبد الملك) بكلام ، ذهب فيه كل مذهب ، فقال له
وقد أعجبه : (ابن من أنت يا غلام ؟ — فقال : ابن نفسي يا أمير المؤمنين ، التي
نلت بها هذا المقعد منك ، — قال : صدقت) واخذ هذا المعنى (ابن دريد) فقال :

كن ابن من شئت وكن مؤدباً فانما المراء بفضل حسه
وليس من تكرمه لغيره مثل الذي تكرمه لنفسه

قالت عائشة (رض) مامعناه : (اذا كرمت أفعال الانسان لم يضره لؤم
آبائه ، واذا لؤمت ، لم ينفعه كرم آبائه) وقال المعري :

لو يعلم الانسان مقداره لم يفخر المولى على عبده
لولا سجاياه وأخلاقه لكان كالمعدوم في وُجده (١)
ومجده أفعاله لا الذي من قبله كان ولا بعده

وقال الحريري : تباً لمفتخر ، بعظم نحر ، انما الفخر بالتقى ، والادب المنتقى .

وما الفخر بالمعظم الرميم وانما فخار الذي ينبغي الفخار بنفسه

وهذا (عصام) الجرمي ، الذي رقى الى أن صار حاجباً عند (النعمان بن
المنذر) ، لم يكن شريعافاً ، ولا نشأ في قومه ، ولكن كان من أشد الناس بأساً ،
وأفصحهم لساناً ، وأحزمهم رأياً ، فصار أقربهم الى النعمان ،

قال له رجل يوماً : (كيف بلغت هذه المنزلة من الملك ، وأنت دنيء الأصل ؟) — فقال :

نفس عصام ستودت عصاماً وعلمته الكرم والاقداماً
وصيرته سيداً هماماً

وبذلك صار يقال : (كن عصامياً ، ولا تكن عظامياً) أي افتخر بنفسك
لا بآبائك الذين ماتوا وبقيت عظامهم .
وللسيد رئيس المؤتمر :

إني وإن أكنُ فرع بيت طاهر ما ينبغي لي أن أكون بفخر
لكن فخاري بالوداعة والتقى والعلم والقلب السليم العامر — ي (١)
﴿ ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾

— ١ —

وقال الاستاذ فكرة التركي :

الغمز من قناة الفتيين ، ادب الانبياء في الخطاب

يقصد يوسف من قوله : ﴿ ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ أن العدد
الجم من الغفلة لا يشكرون الله بتوحيده ، بل يكفرون به إذ يشركون ، فإن
كفّرته النعم أكثر من الحصى ، وقد أراد يوسف (ع) بقوله هذا غمز قناة
الفتيين بأنهما لم يكونا من الشكر في شيء ، ولكنها بالعكس كفرا بنعمة التوحيد
ولم يستعلا فيها قواهما العقلية .

وبلاحظ أنه لم يقل (ولكن أكثركم لا تشكرون) كما أنه قال : (يا صاحبي

(١) قوله العامري فيه تورية لأن اصول السيد رئيس المؤتمر القدماء من محلة بني عامر
في بلدة غزة هاشم .

السجن) (آ: ٢٩) ولم يقل (أيها المسجونان) وقال ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ (آ: ٤٠) ولم يقل (ولكن أكثركم لا تعلمون) تحسناً للجواب ما أمكن ؛ وتلطيفاً للخطاب ماتيسر ، كما قال تعالى : ﴿ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة﴾ : (١٦ : ٢٥) وقال : ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب ، لانفضوا من حولك﴾ (٣ : ١٥٩) وقال تعالى : ﴿وانك لعلى خلق عظيم﴾ (٦٨ : ٤) ، وهكذا جميع أنبياء الله ورسله ومظاهر أمره ، كلهم حكماء رحماء لطفاء أصحاب أخلاق كريمة وذوو خطابات أدبية ، خلافاً « للبولسين » الذين نقلوا (كما في مت ١٥ : ٢٢ - ٢٨) أن امرأة كنعانية صرخت للمسيح ليشفي ابنتها الجبونة ، وكانت تقول له : (ارحمني ياسيد يا ابن داود) ، فلم يجبها بكلمة ، فصارت تصيح وراءه ، حتى طلب تلاميذه منه صرفها ، فقال لهم : (لم أرسل إلا الى خراف إسرائيل الضالة) فجاءت وسجدت له قائلة : (ياسيد أعني) - فقال لها : (ليس حسناً أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب) - فقالت له : (نعم ياسيد والكلاب أيضاً تأكل من الفتات الذي يسقط من مائدة أربابها) - حينئذ شفى لها ابنتها بعد هذا العناء العظيم ، والالحاح الكبير . فانظر الى هذه الجوابات القاسية ، والخطابات اليابسة ، في مقابلة كلام تلك المرأة اللطيف ، وخطابها الأدب ؛ بل إنهم نقلوا عنه أيضاً أنه كان يخاطب قومه بني إسرائيل بالسب واللعن بأفحش الألفاظ ، كقوله : (أيها المراءون ، والقادة العميان والجهال والحيات أولاد الأفاعي) (مت ٢٣ : ١٣ - ٣٦) ، وقوله : (إن المشارين والزواني يسبقونكم الى ملكوت الله) (مت ٢١ : ٣١) ، كل هذا نقوله ، ونحن بريئون منه الى الله ، ولا نفتقد أنه صدر من السيد المسيح ، وإنما ننقله التزاماً بالخصم ، وإظهاراً لما

تجر اليه قصص هذه الأناجيل ، ويناثا لكال وأدب البولسين مع السيد المسيح عليه السلام ! (هذا ما أعطانا الله وألهم ، وهو بالحقائق أعلم)

يوسف (ع) يدعو الى التوحيد

آ (٣٩) ﴿ يَا صَاحِبِي السَّجْنِ ، أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ؟ ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية التاسعة والثلاثون فقام العلامة التونسي وقال :

يقول يوسف (ع) بلسان الهاديء الداعي مخاطباً الفتيين السجينين : (يا صاحبي السجن) أي يا صاحبي في السجن ، وقد أضاف صاحبيه الى السجن كما تضاف الليلة لالسارق في قولك : يأسارق الليلة ، فكما أن الليلة مسروقة فيها غير مسروقة ، فكذلك السجن مصحوب فيه غير مصحوب ، وإنما المصحوب به وهو يوسف ، خاطبها بذلك تحبباً اليها وتودداً لأن النصيح علاج مر فليصحبه شيء من حالو الكلام ، مثل : يا بني اسرائيل . يا أهل الكتاب . يا أيها الذين آمنوا التي صدرت بها جمل الوعظ في كتاب الله المجيد ، (أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ) في العدد والتكاثر ، أو مختلفون ، أي أن تكون لكأ أرباب شتى يستعبدكأ هذا ، ويستعبدكأ هذا (خير) لكأ (أم الله الواحد) أي أم يكون لكأ الله الواحد الذي لا يشارك في ربوبيته ولا في الهيته (القهار) الذي لا يغالب بل هو الغالب ؟ أفتوني مأجورين ، أفيقوا من نومكم وأحييوني — وهذا مثل ضربه لعبادة الله وحده ولعبادة الأصنام المصرية كالفرعنة والعجول ، أينس وبوخيس وغيرها ، والشمس والتماسيح ونحوها من معبودات قدماء المصريين : الذين كانوا يمتقدون

بالحلل السام . وانبثاث الروح الالهي في العالم ، انبثاثا متفاوتا على قدر مافي المخلوق من مزايا وقوى .

يا صاحبي السجن ، أأرباب متفرقون خير ، أم الله الواحد القهار ؟!

— ١ —

وقال السيد عبدالعال البحريني^(١) وقال

يوسف يهري الفتيين بالحاجة والافتقار

وقف يوسف ، وقد اتى على صاحبيه الفتيين نظرة الجد والحس ، وقال :
أيها الصاحبان ، واحد منكأ رآى نفسه في (المنام) أنه يحمل الكأس في يده
للملك ، وثانيكما رآى نفسه في « الحلم » يحمل الخبز على رأسه ، وأما أنا بدوري
فاني أراي في « اليقظة » أحمل بين جنبي قلباً ملئ عيرة دينية ، وتوفرت لديه
أسباب الدعوة والارشاد ، ولذلك وبهذه المناسبة أقول لكما : « ناشدتكما الله
أأرباب متعددون متشاكسون ، متعادون ، مختلفون ، أفضل ياترى ؟ أم الله الواحد
القهار ؟ افتكرا وأجيباني ، إذ يجب أن يكون لنا أدمعة ، كما لنا رؤوس ،
فابحثا فيما بعد هذه الجلسة ، في ذات أنفسكما ، هل تريان ضميركما يشهد أن الأرباب
المتعددة ، سبب المتشاكسة المختلفة ، خير من الواحد ؟ أظن أن جوابكما سيكون
باختيار الشق الثاني ، فان لم يحضر كما شيء في هذا الموضوع الآن ، فأجيباني فيما بعد .
يا شريكى في عواطفى وبلاي ، يا شريكى في هذا السجن الذي هو مدار
الأشجان ، ودار الأحزان ، ومحل الهوان ، يا شريكى في السجن الذي تصفو
فيه المودة ، وتخلص النصيحة ، يا شريكى في هذا السجن الذي تصير فيه الأعداء
أصدقاء والبعداء أنسباء ، أقتياني في سوا لي .

(١) نسبة الى البحرين احدى الامارات العربية في شرق جزيرة العرب .

أنا لا أزيد كما علماً في ذلك ، فأنتم تعرفان حق المعرفة ، وتحسنان أن نحييا عنه الجواب الشافي ، فأترك الجواب في ذلك لكم ، لتحكم بما يوحى به اليكم الجودان الطاهر ، والعقل الكامل ، أنتم فطنان عاقلان ، فلا توقموا نفسيكم فيها يخالف العقل السليم ، والنقل الصحيح ، فمضى أن تصفيا الى نداء الضمير ، وتعليا جواباً يرضاه الواقع .

أنا لا أريد أن أسادر كما فيها تمتقدان ، ولا أقصد أن أهجم عليكما هجمة قاهرة بل كل الذي أريد منكم أن ترجعا الى عقولكم ، وتستفتيا ضمائركم ، وتسألا وجدانكم ، أطالبكم بالحاج أن تتأملا . فان الحقيقة بنت الفكرة ، والتدبر قنطرة الصواب ، والاستدلال يريد اليقين .

انظرا بعقولكم ، ولا تدوساها تحت أقدامكم ، فان الله إلهنا أنتم عليكم بها لتستعملوها ، انظرا لا تستبد بكم رجال دينكم الكهنة المصريون ، كما يستبد رجال الأديان الأخرى بعقول عوامهم ، ليكون دينكم عقلياً منطقياً ، ولا يكون دين تقليد وجود ، غير موافق للعقل والمنطق .

هذا ما يرمي اليه كلام يوسف عليه السلام ، وقد أبرر وسطها في سورة الاستفهام ، حتى لا تنفر طباعها من المفاجأة بالدليل من غير استفهام ، وهكذا الوجه في محاجة الجاهل أن يؤخذ بدرجة يسيرة من الاحتجاج بقبلها ، فدا قبلها لزمته عنها درجة أخرى فوقها ، ثم كذلك الى أن يصل الى الاذعان بالحق . وأما الفتيان فلم يحمي يوسف على سوء آله شيء ، كيف وهما قد يؤلها وبكوي غرورها وكبرياءهما أن يكون جوابهما : ﴿ الله الواحد القهار خير ﴾ .

وليسمح لي السادة أن أتكمم الآن كلمة عن الديانة الوثنية بمصر .

الديانة الوثنية بمصر

علمنا أن يوسف عليه السلام ، جرى في خطابه للفتيتين على طريقة الاختصار

وأجل الكلام إجمالاً ، ولم يشأ أن يتوسع في تسمية آلهة المصريين الدينية ، مثل العجل (أيس) والتاسيح والهرر ، بل وكل الحيوانات المنحطة ، ولم يطلق لنفسه العنان في قباحة اعتقادهم (بالثالوث) الأقدس ، المركب من أب وأم وابن ولهم ثوابت متعددة ، أي مجموعة آلهة ثلاثة ، ثلاثة ، كما في الثالوث المسيحي ، إلا أن المسيحيين ليس لهم إلا (ثالوث واحد) وأيضاً ان المسيحيين يعتقدون أن الثالوث هو إله واحد ، ولكن المصريين لا يعتقدون أن ثالوثهم إله واحد ، بل ثلاثة ، غير أنهم يعملون معاً ، وكان لكل مدينة معتبرة (ثالوث) يجرسها ويستحق عبادتها على نوع خاص ، ومن أشهر ثوابتهم (اوسوديس وايسيس وهورس) .

إن ديانة المصريين هي الشرك كباقي الأمم القديمة في فينيقية وأشور وبابل واليونان والرومان والبراهمة والعرب ؛ والمصريون يعتقدون بآلهة كثيرة فائقة العدد ، ويمتقدون بانثاث الآلهة في كل العالم ، فعندهم ان كل شيء فيه جزء من الألوهية بحيث يستحق العبادة ، فأجازوا السجود لكل مخلوق ، وأجازوا أن يكون الانسان إلهاً ومألوهاً في وقت واحد (وَيَذَرُكَ وَآلِهَتَكَ) (١٢٦ : ٧) ، ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ (٣٨ : ٢٨) ، ﴿ أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى ﴾ (٢٤ : ٧٩) .

كان لكل مدينة في مصر معبود لا يشبه معبود ما يجاورها من المدن ، وكانوا يسمون الإله في هليوبوليس (را) وفي منفيس (أمون) ، وكان لهم في منفيس ثور يدعى (أيس) وفي جهة أخرى ثور يدعى (بوخيس) وكانوا يعبدون الشمس والليل والفجر والاسد والكبش وابن آوى وغير ذلك من الحيوانات . (مرعى)

يا صاحبي السجن ، أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟

— ٢ —

وقام الأستاذ الازهوي (من علماء الأزهر) وقال :

سأورد على مسامع أعضاء المؤتمر الفوائد التي تضمنتها هذه الآية الكريمة :

واجب الواعظ نحو الموعوظين وأمثلة من القرآن

الفائدة الأولى — نجد أن يوسف (ع) قد خاطب القتين بأنها رفيقاء في السجن ، وعشيراه في هذه المحنة ، ترفلاً إليهما ، وارتباطاً بهما وإبناساً لأنفسهما ، واحتراماً لشخصهما ، ذلك كله تمهيداً لسيذكره من وعظهما ودعوتهما ، وهذا أسلوب لطيف في الوعظ ، كما تقول الواعظ اليوم .

(أيها الاخوان) مثلاً ، ومنه نعلم أنه ينبغي لكل واعظ أن يبدأ وعظه بكلمة تشف عن ارتباطه بالموعوظين واحترامه وتنزله لهم ، وحفظ كرامتهم « لكي يستعدوا بذلك لقبول الموعظة ، الأمر الذي يشفع الواعظ بسبب ما يستلزمه الوعظ من فطنة الالهانة ، فمعتدئ يسهل على الناس احتمال الوعظ ويقرب قبولهم إياه ، وقد قال صاحبنا أمير البيان الأمير شكيب أرسلان : « النصيح علاج مر ، فليصحبه شيء من حلو الكلام » وهذه طريقة القرآن الكريم التي حري عليها كثيرة جداً ، واليك بعض أمثلة ذلك :

أولاً — قال تعالى : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ، اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ، وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا ، وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ ، وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ، وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ (٤٧ : ٢) .

أراد تعالى أن يأمرهم بالتقوى فاستهل ذلك أولاً بتشريعهم بأنهم سلاله يعقوب ، وأنهم مهبط نعمة الله ، وأنه تعالى فضلهم على معاصريهم .

ثانياً — قال تعالى : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ، اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ، وَإِلَيَّ فَارْهَبُونَ ﴾ (٢ : ٤٠) .

ثالثاً — ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ ، لَمْ تَكْفُرُونَ بآيَاتِ اللَّهِ ، وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ؟ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ، وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ؟ ﴾ (٣ : ٧٠ و ٧١) .

رابعاً — ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ، آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ ﴾ الخ (٣ : ٤٦) .

وتراه إذا أراد وعظ المؤمنين وإرشادهم يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، لَا تَقُولُوا « رَاعِنَا » وَقُولُوا « انظُرْنَا » ﴾ (٢ : ١٠٤) ، ويقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ، إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (٢ : ١٥٣) ، ويقول : ﴿ يَا أَيُّهَا آمَنُوا ، ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً ، وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ (٢ : ٢٠٨) .

كما إنك تراه إذا خاطب كفار أهل مكة ، ناصحاً ومرشداً لهم يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَكُمْ تَقْوَى ﴾ (٢ : ٢١) ، ويقول : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا ، وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ (٢ : ١٦٨) ، ويقول : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، وَخَلَقَ مِنْهَا رَوْحَهَا ، وَبَثَّ مِنْهَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (٤ : ١) .

هذا .. وأما نحو قول 'قل' يأيها الكافرون لا أعبدُ ما تعبدون (١٠٩ : ٢٥١) الخ فهو ليس من باب الوعظ والارشاد ، ولكنه من نوع التنصل والانفصال ، ولم يرد في القرآن الكريم 'يأيها المنافقون' ، قط ، فافهم دقائق كتاب الله ، والا فالسلام عليك .

واجب المصلح المرشد

الفائدة الثانية - تعلم من هذه الآية أن الرجل المصلح المرشد ينبغي أن لا يفتقر عن تعليم الناس وإرشادهم في كل حين ، وبأي مكان ، وعلى أي حال ، من عسر أو يسر ، من ضيق أو فرج ، من سرور أو حزن ، فهذا النبي يوسف الصديق قام بالنصح والارشاد وهو في سجنه ، فيأبى بحن الإنسانية ، ووفاء بواجب الدين ، نصح ولم تعفهُ ضيقة السجن ، ولا زور التهمة عن أن يشع عن الناس سحب الضلال ، ويصقل قلوب العامة بصقال العلم ، ويجلوها بجلاء المطلب والحكمة ، فكان بذلك من المحسنين ، فليقم العلماء والمرشدون ، الى انشال المؤمنين من وهذه الجبل ، وليرفعوهم الى سماء الفضيلة ، وليعمموا العلم بين أفراد الأمة كما تعلم من كلام السيد الصديق درسا آخر ، وهو أنه ينبغي للعالم المرشد أن لا يخل برشده وهدايته على أحد مطلقاً ، حتى لو كان عربياً في الوطن أو الجنسية ، فقد نصح عليه السلام للعصريين ، وهو عريب عن وطنه وعن جنسيتهم ، ولا ينبغي للعالم اذا وجد في بلد غير بلده ، أو بين اقوام ليسوا من جنسه ، أن لا يفرأ درس الوعظ والارشاد ، ولا يقوم بهداية العباد ، بل عليه ذلك اقتداء بهذا النبي الصديق وباني الانبياء الكرام ، الذين لم يقتصروا في هدايتهم وإرشادهم على أهل وطنهم ، وذوي جنسيتهم ، بل عمموا العلم للجميع . . .

الدعوة الى الحق تكون بالدليل والبرهان ولا اكراه في الدين

الفائدة الثالثة - تعلم من هذه الآية مع ما قبلها وما بعدها ، أن الدعوة الى

الحق . لا تكون بالسيف والستان ، ولكن بالدليل والبرهان ، وذلك كما قال تعالى :
 « فَذَكِّرْ » إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ، لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ ، (٢٢:٣١ و ٢٢:٣٢) ، وقال تعالى :
 « مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ، وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا » (٧٩:٤) ،
 وقال تعالى : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا ، إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾
 (٤٢: ٤٨) وقال تعالى : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بِصَافِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَمَنْ أَبْصَرَ
 فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِظٍ ﴾ (٦: ١٠٤) ، وقال
 تعالى : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، عَلَيْهِ
 تَوَكَّلْتُ ، وَهُوَ رَبُّ الْمَرْثَسِ الْعَظِيمِ ﴾ (٩: ١٣٠) وقال تعالى : ﴿ وَكَذَّبَ
 بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ ، قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ (٦: ٦٦) وقال تعالى :
 ﴿ فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَاغْمَا يَضِلَّ عَلَيْهَا ، وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ
 بِوَكِيلٍ ﴾ (٣٩: ٤١) ، وقال تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ،
 أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ؟ ﴾ (٢٥: ٤٣) وقال تعالى : ﴿ قُلْ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ
 كُنْتُ عَلَىٰ يَبِينَةٍ مِنْ رَبِّي ، وَأَتَانِي رَحْمَةٌ مِنْ عِنْدِهِ فَمُخِيِّتُ عَلَيْكُمْ ،
 أُنَلِّسُكُمْ مَكَمُّوْهَا ، وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ؟ .. ﴾ (١١: ٢٨) ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ
 يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ، لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ، وَلَا أَنَا
 عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ، لَكُمْ دِينُكُمْ ، وَلِيَ دِينِ ﴾
 (١٠٩:) وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ،
 أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ ، وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (١٠: ٤١) وقال تعالى :
 ﴿ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ، لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ،
 اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَالِيهِ الْمَصِيرُ ﴾ (٤٢: ١٥) ، فمعنى قوله (لا حجة) لا خصومة ،
 لأن الحق قد ظهر وصرتم معجوجين به ، فلا حاجة الى الحاجة ، وهو على نية

مضاف ، أي لا إيراد حجة ، وقال تعالى : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ، قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ (٢٥٦:٢) ، وسبب نزول هذه الآية مارواه أبو داود والنسائي وابن حبان وابن جرير عن ابن عباس قال : (كانت المرأة تكون مقلاة (أي لا يعيش لها ولد) ، فتجعل على نفسها إن عاش لها أن تهوده ، فلما اجلجت بنو النضير ، كان فيهم من أبناء الأنصار ، فقالوا : لا ندع أبنائنا) ، فأُنزل الله (لا إكراه في الدين) ، وأخرج ابن جرير من طريق سعيد وعكرمة عن ابن عباس قال : (نزلت « لا إكراه في الدين » في رجل من الأنصار من بني سالم ابن عوف ، يقال له الحصين ، كان له ابنان نصرانيان ، وكان هو مسلماً ، فقال للنبي ﷺ : أَلَا أَسْتَكْرِهُمَا ؟ ، فأنهما قد آبيا إلا النصرانية) فأُنزل الله الآية ، وفي بعض التفاسير أنه حاول إكراهها ، فاختصموا الى النبي ﷺ فقال : (يا رسول الله ، أيدخل بعضي النار ، وأنا أنظر ؟) ولابن جرير عدة روايات ، في نذر النساء في الجاهلية تهويد أولادهم ليعيشوا ، وإن المسلمين بعد الاسلام أرادوا (إكراه) من لهم من الأولاد على دين أهل الكتاب — على الاسلام فنزلت الآية ، فكانت فصل ما بينهم ، وفي رواية له عن سعيد بن جبير أن النبي ﷺ قال عندما أنزلت : (فдохير الله أصحابكم ، فإن اختاروكم فهم منكم وإن اختاروهم فهم منهم) هذا هو حكم الدين الذي يزعم كثيرون من أعدائه أنه قام بالسيف والقوة ، قالوا : (إنه كان يحرص على الناس ، والقوة عن يمينه ، فمن قبله نجا ، ومن رفضه حكم السيف فيه حكمه) ، هذا كلام أعداء الاسلام ، وهو تمت أو جهل وإلا فهل كان السيف يعمل عمله في « إكراه » الناس على الاسلام في مكة ، أيام كان النبي ﷺ يصلي مستخفياً ، وأيام كان المشركون يقتنون المسلم بأنواع التعذيب ولا يجردون رادعاً ، حتى اضطر النبي وأصحابه الى الهجرة ؟ أم يقولون : إن ذلك « الاكراه » وقع في المدينة بعد أن اعتز الاسلام ؟ ، وهذه الآية قد نزلت

في غرة هذا الاعتزار ، فإن غزوة « بني النضير » كانت في شهر ربيع الأول من السنة الرابعة للهجرة ، وقال البخاري إنها كانت قبل غزوة « أُحُد » ، التي لاخلاف في أنها كانت في شوال ، سنة ثلاث للهجرة ، وكان كفار مكة لا يزالون يقصدون المسلمين بالحرب .

لقد نقض « بنو النضير » عهد النبي ﷺ فكادوا له وهموا باغتياله مرتين ، وهم بجواره في ضواحي المدينة ، فلم يكن له بد من إجلائهم عن المدينة ، فحاصرهم حتى أجلاهم ، فخرجوا مغلوبين على أمرهم ، ولم يأذن لمن استأذنه من أصحابه « باكره » أولادهم اليهوديين - على الاسلام ، ومنهم من انخرج مع اليهود ، فذلك أول يوم خطر فيه على بال المسلمين « الاكراه » ، على الاسلام ، وهو اليوم الذي زل فيه قوله تعالى ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ (٢ : ٢٥٦) .

وقبل أن نختم هذا الموضوع زيد أن نذكر قوله تعالى : ﴿ وقل للذين أتوا الكتابَ والأُميينَ ، أأسلمتم ؟ ، فإن أسلّموا فقد اهتدوا ، وإن تولّوا فإنما عليكُ البلاغُ ، واللهُ بصيرٌ بالعباد ﴾ (٣ : ٢٠) ، فهذه الآية نص قاطع في حصر وظيفة الرسول بالبلاغ عن الله .

هذا وأما حديث : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فإذا قالوها ، عصموا مني دماءهم وأموالهم ، إلا بحقها ، وحسابهم على الله) فليس بالاكراه على تلك الكلمة ، لأنهم يمكنهم المهاجرة ، والرسول لا يمتنع منها ، ولأن المراد (بالناس) العرب في الجزيرة الذين كانوا استحقوا القتال باعتدائهم المتوالية على المسلمين ونقضهم المواثيق والعهود التي جاء ذكر نقضها في الآيات التي قبل هذه الآية ، وجرت القاعدة الإلهية غالباً ، أنه متى قيل في القرآن : (يا أيها الناس) مثلاً ، فالمراد قریش وسائر عرب الجزيرة .

أو أن المعنى حتى يقولوها ولو ظاهراً بلسانهم ، غير مكلفين أن يعتقدوها
بدليل التعبير « بالقول » ، وبكلمة « وحسابهم على الله » ، فيكون الغرض كف
شرهم فقط ، لأنهم اذا تظاهروا بالاسلام ، لم يقدروا على إيذاء المسلمين المخلصين ؛
وهناك وجه رابع في الجواب عن هذا الحديث ، وهو أنه وقع فيه اختصار
من الراوي له ، إذ الأصل : (أمرت أن أقاتل الناس — أي قريش — حتى
يتمكن مرید الاسلام من قوله لا إله إلا الله ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَاتِلْهُمْ حَتَّى
لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾ أي حتى يصلوا في الضعف الى أن لا يقدروا
أن يفتنوا المؤمنين ، وهو يدل على أن النرض من القتال كان إيجاد الحرية للمسلمين
في العقائد الدينية ، قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى
يُخْرَجَ فِي الْأَرْضِ ﴾ (٨ : ٦٧) .

والذي يضطروننا الى نحو هذه التأويلات قرائن منها رواية الترمذي في سننه عن
جابر انه بعد أن أتم الحديث السابق قرأ قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ ، لَسْتَ
عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴾ (٨٨ : ٢٢) ، فذه الآية التي استشهد بها رسول الله ﷺ
تؤيد ما قلناه في معنى الحديث ، وإلا فأى مناسبة بينها وبينه ؟ ومنها التوفيق بين
الحديث المذكور وبين الآيات القرآنية الكثيرة مثل قوله : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ
رَبِّكُمْ ، فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾ (١٨ : ٢٩)
و (ليس عليك هدايم) (٢ : ٢٧٢) ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ
اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ (٢٨ : ٥٦) و ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآتَمَنَ مَنْ فِي
الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا . أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾
(١٠ : ٩٩) و ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ، لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا
اهْتَدَيْتُمْ ﴾ (٥ : ١٠٨) و ﴿ لَا تَسْجُدُوا لِلَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ،

فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدُوًّا بُغِيرَ عَلَيْهِمْ ، كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ، ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ ، فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦ : ١٠٨﴾ و ﴿١٠٨ : ١٠٨﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ، ثُمَّ ابْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩ : ٧﴾ وهذه الآيات وأشباهها ليست منسوخة كما قال بعض الناس ، وقد ورد في الحديث الشريف : (سيكون أفلس يضربون القرآن بعضه ببعض ليطلوه ويتبعوا ما شابه منه ، ولكل دين مجوس . وهم مجوس أمي وكلاب النار) .

انطباق الآية على معتقد البوليسين من النصارى ورد استدلالهم

على معتقدهم في الوهيز المسيحي

الفائدة الرابعة — ما أصدق هذه الآية الشريفة على « الثالث » معتقد البوليسين . فانه يحتوي على أرباب متفرقين في الجوهر ، متفرقين في العمل ، أما كون هذا الثالث مركباً من أرباب ، فلأنهم قالوا ، إنه مركب من الآب وهو رب وإله ، والابن وهو رب وإله ، والروح القدس وهو رب وإله ، والثلاثة واحد ، وأما كون هذه الارباب الثلاثة ، أو الاقانيم الثلاثة أو الجواهر الثلاثة ، أو ماشاءوا يقولون — متفرقين في الازالة ، فلأن أصل الجميع أقنوم الآب ، وأما الأقنومان الآخرا فمشتقان منه أو متوالدان منه ، أو ماشاءوا يقولون ، وأما كون هذه الثلاثة متفرقين في الجوهر ، فلأنهم قرروا أن جوهر الآب شخص مستقل قائم بنفسه وكذا جوهر الابن ، ومثله جوهر الروح القدس ، وأما كون الثلاثة متفرقين في العمل ، فلأن الآب هو خالق ما كان وما يكون ، والابن به كان ما كان وبه يكون ما يكون ، والروح القدس ، هو الذي يث العلم والنور والهدى في قلوب الناس كما كان هو الناطق بالانبياء .

هذا ومن المدهشات استدلال القصارى على مستقدم في الوهية المسيح بقوله خطاباً لله تعالى : ﴿أنت في وأنا فيك﴾ (يو ١٧ : ٢١) ولكن هذه الجملة مقطعة من مقال طويل ، لو سمع الانسان لم يقدرا أن يستنتج منه معتقدهم ، وإليك نقل هذا المقال ، في دعائه لأتباعه هكذا : (ليكون الجميع واحداً ، كما أنك أنت أيها الآب في وأنا فيك ، ليكنوا هم أيضاً واحداً فينا ، ليؤمن العالم أنك أرسلتني ، وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني ، ليكنوا واحداً كما أننا نحن واحد ، أنا فيهم وأنت في ، ليكنوا مكملين الى واحد ، ولعلم العالم أنك أرسلتني ، وأحببتهم كما أحببتني) (يو ١٧ : ٢١ - ٢٣) ، ويتقلون أبضاً عن المسيح عيسى أنه قال : (إني أنا في أبي ، وأنت في ، وأنا فيكم) (يو ١٤ : ٢٠) ، فهذه العبارات ان ادعوا أنها تدل على الوهية المسيح ، فلا شك أنه بانهم أن يقولوا ، إن تلاميذه أيضاً آلهة ، لأن ما عبر به عن نفسه ، عبر به أيضاً عنهم بلا فرق ، وقريب من هذه التعابير ، قول النبي ﷺ لربي (رض) : (أنت مني وأنا منك) أخرجه في الصحيحين من حديث البراء بن عازب ، وفيها عن أبي موسى الأشعري أن النبي ﷺ قال : (إن الأشعريين إذا رملوا في الغزو ، أو قلت نفقة عيالهم في المدينة ، جمعوا ما كان معهم في نوب واحد ، ثم قسموه بينهم بالسوية ، هم مني وأنا منهم) وكذلك قال ﷺ عن حبيب : (هنا مني وأنا منه ، هذا مني وأنا منه) ، رواه مسلم في صحيحه عن أبي بزة .

التثليث عند المصريين القدماء

الفائدة الخامسة — كان المصريون القدماء ، ومنهم المعاصرون ليوسف عليه السلام — من أهل « التثليث » ولكن ليس لهم « ثلوث » واحد ، بل كل مقاطعة تعبد « ثلوثاً » وكان أصحاب هيكلي « منفيس » يعتقدون بثالوث مركب من « الله » قبل كل شيء ، ثم « الكلمة » ومهما « روح القدس » ولؤلؤا الثلاثة طبيعة

واحدة ، وهم واحد بالذات ، وعندهم صدرت القوة الأبدية ، قال « دوان » في كتابه « خرافات التوراة » : (لا ريب أن تسمية الأقنوم الثاني من الثالث المقدس « كلمة » هو من أصل وثني مصري ، دخل في غيره من الديانات كالمسيحية ، و « أبولو » المدفون في بلدة « دهلي » في الهند يدعى « الكلمة » ، وفي علم اللاهوت الاسكندري الذي كان يعلمه القسيس « بلاتو » قبل المسيح بسنين عديدة ، « الكلمة هي الإله الثاني » وتدعى أيضاً « ابن الله البكر » ، فالمصريون يقولون بلاهوت الكلمة ، وإن كل شيء صار بواسطتها ، وإنها « منبثقة » من الله ، وإنها هي الله ، وكان « بلاتو » عارفاً بهذه العقيدة الوثنية ، وكذلك « أرسطو » وغيرهما ، وكان ذلك قبل التاريخ المسيحي بقرون (كذا قاله « بونويك » في كتابه « عقائد قدماء المصريين ») ، وهو أشبه شيء بما في مفتتح إنجيل « يوحنا » بلا فرق ، ولكن اعتقاد مبشري المسيحيين « مقدس » ، واعتقاد قدماء المصريين « نجس » !! وبمناسبة ذكر الثالث عند قدماء المصريين سأذكر الثالث عند باقي الأمم :

١ - (الثالث عند البراهمة) : « البراهمة » من الهند يعبدون « ثالوثا » مركباً من « برهما وفشنو وسيفا » ، وعندهم أن هذه ثلاثة أقانيم متحدة لا تنفك عن الوحدة ، فهي إله واحد ، وعندهم أن « برهما » هو « الآب » و « فشنو » هو « الابن » و « سيفا » هو « الروح القدس » .

فبرهما الآب — هو المثل لمبادئ التكوين والخلق ، وفشنو الابن — يمثل حفظ الأشياء المكونة — من الزوال والفساد ، وهو منبثق عن اللاهوتية ، وسيفا الروح القدس — هو الذي له التصرف والتحويل في الكون ، ويرمزون له بصورة « حمامة » (كذا قاله « موريس » في كتابه « الآثار الهندية القديمة » ج ٢) وهذا هو نظير اعتقاد مبشري المسيحيين في « ثالوثهم » من

كل وجه . ولكن ثالوث اليراحمة نجس ، وثالوث مبشري المسيحين مقدس !!! ..
 ٢ — (التثليث عند البوذية) : البوذية يمدون « بوذا » ويسمونه « خو » ،
 ويقولون إنه إله ، له ثلاثة ألقاب ، هذا بالنسبة لبوذي الصين ، وكذلك بوديو
 « جيسنت » يقولون إن « جينا - » مثلث الألقاب ، وكذلك شيعة « تاوو » اتقي
 ابتدأت قبل المسيح بنحو ٦٠٤ سنين ، وكانوا يسمون إلهًا مثلث الألقاب ، كان
 « تاوو » عندهم هو العقل الأول ، انبثق منه واحد ، ومن الثاني انبثق ثالث ، وعن
 هذا الثالث انبثق كل شيء ، وهذا القول بالتولد والاختلاف أدهش العلماء موريين ،
 لأن قائله وتني ، ولكن الاختلاف عند هؤلاء الوثنيين باطل ، بخلاف الاختلاف
 عند مبشري المسيحيين فإنه حق !!! ..

٣ — (التثليث عند الكلدانيين) : الكلدان قوم أراميين لهم ثالوث مركب
 من « إل » و « بعل » و « حيا » وعندهم أن « إل » هو الله ، و « أما » بعل « تهرمييه
 (كما في قاموس جورج بوست) رب آوسيد ، وهما اللذان اللذان يلقب بهما المسيح
 كثيرًا ، و « أما » حيا » فيرى بعض الباحثين أن اسمه من مادة الحياة ، فهو قريب
 من « روح القدس » ؛ وعليه فيكون ثالوث مبشري المسيحيين ، « لأب والابن
 والروح القدس تفسيراً لثالوث الكلدان » إل وبعل وحيا ، ولكن ثالوث الكلدان
 غير صحيح وثالوث مبشري البروتستانت هو الصحيح !!! ..

٤ — (التثليث عند الفرس وأهل آسية) : قال « دوان » في كتابه « حرافات
 التوراة » كان الفرس يمدون إلهًا مثلث الألقاب ، ويسمونها « اوزمرد » ، مثران ،
 أهرمن « فاوزمرد الخلاق » ، ومتران ابن الله المخلص والوسيط ، وأهرمن
 الملك ، ودين مبشري البروتستانت يشبه دين هؤلاء ولكن عقيدة المبشرين صححة
 وعقيدة أسلافهم الفرس باطلة !!! ..

٥ — (التثليث عند اليونان) : كان الوثنيون القدماء يعتقدون أن الإله واحد ، ولكنه ذو ثلاثة ألقاب ، كذا في كتاب « سكان أوروبا الأولين » ؛ وإن اليونان كانوا يقولون : إن الإله مثلث الألقاب ، ونقل « دوان » عن « اورفيوس » أحد كتاب اليونان وشعرائهم قبل المسيح بعدة قرون أنه قال : « كل الأشياء صنعها الإله الواحد مثلث الأسماء والألقاب » ، وهذا اعتقاد اليونانيين القدماء . الذين جال « بولس » في بلادهم جولات واسعة ، وامتزج بهم امتزاجاً شديداً ، ثم إن الكنيسة المسيحية بعد دخول نصرانية « قسطنطين » فيهم ، اقتبست منهم هذا التلميح ، ولكن يوجد فرق جوهري بين عقيدة هؤلاء الوثنيين ، وبين عقيدة مبشري البروتستانت المحققين ، وهذا الفرق ينحصر كله في قولنا : إن عقيدة وثنيي قدماء اليونان باطلة ، وعقيدة هؤلاء السادة المبشرين حقة !!! .

٦ — التثليث عند الرومان : كان الرومان الوثنيون القدماء يؤمنون بالتثليث يؤمنون بالله أولاً ، ثم « بالكلمة » ثم « بالروح » ، (كذا في كتاب الخرافات ومختبروها) تأليف « فسك » ص ٢٠٥ ، وهل هذا سوى عقيدة مبشري البروتستانت اليوم ؟ غير أنهم نزلوا « الكلمة » على السيد المسيح .

٧ — (التثليث عند الفنلنديين) : كان للفنلنديين البرابرة الذين كانوا في شمال روسية - إله اسمه « تريكلاف » ، وقد وجد له تمثال في « هرتونجرج » ، له ثلاثة رؤوس على جسد واحد ، قاله « بارخوست » في القاموس العبراني ، وتريكلاف مركب من كلمة « تري » ومعناها ثلاثة ، وكلمة « كلاف » ومعناها إله .

٨ — (التثليث عند الاسكندنافيين) كان الاسكندنافيون يعبدون إلهاً مثلث الألقاب ، يدعونها « أودين ، تورا ، فري » ويقولون : الثلاثة الألقاب إله واحد ، وقد كان أهل اسوج وزوج والدمبارك يفاخر بعضهم بعضاً في بناء

الهيكل لهذا الثالث ، وكانت جذران هذه الهيكل مصفحة بالذهب ومزينة
ببتايل هذا الثالث ، ويدعون «أودين» باسم الآب ، «تورا» باسم الابن البكر
«فري» باسم مانع البركة والنسل والسلام والغنى ، (كذا قاله «دوان» في
كتابه «خرافات التوراة» ص ٣٧٧ ، وغير خاف ان هذا الثالث الاسكندنافي
قريب من ثالث مبشري البروتستانت الأذكىاء ، لما أشبه الليلة بالبارحة ، ولكن
عقيدة هؤلاء المبشرين الكرام صادقة ، وأما عقيدة أسلافهم الاسكندنافيين
فهي كاذبة !!! ..

هذا ما تيسر لنا نقله في بحث الثوالمث .

فرق النصارى الشهيرة

القائدة السادسة - فرق النصارى الشهيرة ستة :

الفرقة الاولى الأريوسية :- «يقولون بالآه واحد، هو الله ، وينفون
الالهية عن المسيح وعن الروح القدس ، ويحملون ماورد في الأناجيل من
تسمية الله بالرب وتسمية المسيح بالابن - على الحجاز ، فهم من أهل التوحيد الصرف
ولأجل رد قول رئيسهم «آريوس» بأن المسيح إنسان فقط ، ليس فيه لاهوت
فقد انعقد أول مجمع في «نيقية» ، وهو محل قروب من الاستانة سنة (٣٢٧)
مسيحية ، ويقال له «المجمع النيقاوي» ، وهو الذي قرر عقيدة «الأمانة» أو «قانون
الإيمان» وسمى الآريوسيين «هراطقة» ولكن فكرة آريوس هذه ، وهي
عقيدة التوحيد ونفي الالهية عن المسيح ، قد انتشرت في أوروبا في أواسط
القرن السادس عشر ، لا سيما في ايطاليا وبعولانده وترانسلفانيا ، وقد اشتهرت هذه
البلاد الأخيرة بأنها صارت مهد القول بتوحيد الله تعالى ، ثم انتشرت كنائس
الموحدين من النصارى في أوروبا وغيرها ، وكذلك اقيمت لهم المدارس في كبريات

المدن العلمية ، وفي كل مملكة من الممالك الاسلامية ، وآريوس هذا يعتقد في المسيح عين ما يعتقد فيه المسلمون ، ويقول عن المسيح إنه ابن الله مجازاً ، وقد كان كاهناً للكنيسة الاسكندرية ، وكان معه على هذا الاعتقاد أتباع من النصارى ورجال الدين كثيرون ، خصوصاً في الشرق ، خصوصاً في مصر وفلسطين ، وكان على مذهبه من ملوك الرومان الملك « قسطنس » والملك « فالص » ولما فتح القوط الغربيون « اسبانيا » في القرن الخامس للميلاد كانوا يدينون بالأريوسية ، وظلوا على ذلك قرناً وبعض القرن ، وفي أواخر القرن السادس تولى اسبانيا ملك من القوط اسمه « ريكارد » ، اتبع المذهب الكاثوليكي سنة (٥٨٧) للميلاد ، فتبعه الأساقفة ثم الرعية ، فمادت اسبانيا إلى مذهب كنيسة رومية ، ولقد كان المذهب الأريوسي مذهب معظم قبائل القوط قبل خروجهم على المملكة الرومانية وقضوا نحو مئتي سنة ، وهم على مذهب آريوس ، والذين استبدلوا مذهبهم في أول الأمر إنما استبدلوه مسaire إلى « ريكارد » ، لا عن اقتناع البرهان لأن مذهب آريوس أقرب إلى أحكام العقل من سائر مذاهب النصرانية « قاله « جين » مؤلف تاريخ المملكة الرومانية ، وهذه الفرقة من النصارى « موحدة » .

وقد حكم المجمع الذي ألفه الملك قسطنطين سنة (٣٢٥) ميلادية بمقاومة آريوس وإحراق كتبه وتحريم اقتنائها ، ولما انتشر تعليمه من بعده قضى « تيودوسيوس » الثاني باستئصال مذهبه وإبادة الأريوسية بقانون روماني صدر في سنة ٦٢٨ مسيحية ، وبقيت مذاهب التثليث يكافح بعضها بعضاً .

الفرقة الثانية المكدونية - يقولون بألوهية المسيح دون الروح القدس ، نسبة إلى « مكدونيوس » اسقف القسطنطينية ، وقد انعقد المجمع الثاني القسطنطيني سنة (٣٨١) مسيحية ، لأجل الرد على مكدونيوس الذي أنكر ألوهية الروح القدس وهذه الفرقة من النصارى « مثنية » .

الفرقة الثالثة المكنانية — يقولون بالثالث ويطيعتن وأقنوم واحد، أي المسيح طبيعة الناسوت وطبيعة اللاهوت، أو تقول: طبيعة الانسان وطبيعة الإله وكل طبيعة على حدها، لم تترج مع الطبيعة الأخرى، ومن هؤلاء اللاتين والروم الارثوذكس والكاثوليك والسريان الجديد والبروتستانت فجميعهم يقولون بطبعين في أقنوم واحد، أو بأقنوم واحد في طبيعتين، وبناء عليه يقولون عن السيدة مريم إنها أم الإله أو أم الله، أو والدة الإله أو الرب، وهؤلاء طبعاً «مثلثة».

الفرقة الرابعة التساطرة — يقولون بالثالث وأن المسيح له أقنومان، أقنوم ناسوتي وأقنوم لاهوتي، وأن أقنوم اللاهوت ليس متداخلاً معه، بل هو مشرق عليه إيمانياً فقط، ولذلك فليس للمسيح عندهم سوى طبيعة واحدة بشرية، وأن السيدة مريم لم تلد إلا أقنوم الناسوت، فليست هي أم الإله، بل أم الانسان فقط وهم عند باقي طوائف النصارى أشبه بالاثنيين ويسمونهم هراطقة، وكان معظم أهالي هذا المذهب موجوداً في المعجم وفيما بين النهرين أو حوالي ذلك، ويوجدون عند منابع الزاب، وبحيرة اوزمية، وما بين العراق وحدود الفرس وجنوبي الهند، ويسمون «الكلدان»، ويوجدون في الموصل على نهر دجلة وفي أذربيجان، ولأجل الرد عليهم انعقد المجمع الثالث الاقسوسي سنة (٤٣١) ميلادية، وينسب هذا المذهب الى «نسطوروس» أسقف القسطنطينية الذي لا يقول بالتجسد، أي تجسد أقنوم الكلمة، ولا يقول بالانحداء أي اتحاد أقنوم الكلمة بناسوت المسيح، خلافاً للمكنانية، وقد قرر المجمع المذكور أن أصحاب هذا المذهب هراطقة، ولكنهم على كل حال «مثلثون».

الفرقة الخامسة البقوبية — يقولون بالثالث ولكن المسيح له طبيعة واحدة

والباقية هم اليوم عبارة عن أربع طوائف ، السريان غير الكاثوليك أو إن شئت قلت : السريان القديم ، والأرمن والأقباط بمصر والحبشة ، هؤلاء يعتقدون أن للمسيح طبيعة واحدة إلهية متراكبة من طبيعتين ، يمتون أنه صار امتزاج الطبيعة الألوهية بالإنسانية أو بالعكس ، وهم عند غيرهم من النصارى هراطقة ، ولأجل الرد عليهم انقعد المجمع الرابع الخلقيدوني سنة (٤٥١) م وقرر الطبيعتين .

الفرقة السادسة المريمية - تقول ربوبية المذراء ، وانها أقنوم آلهي ، وهؤلاء أصحاب بدعة في نظر طوائف النصارى ، (راجع خلاصة تاريخ الكنيسة للمعلم لومند الفرنسي تعريب الخورى يوسف البستاني الطبع في بيروت ، وغيره وغيره من تواريخ الكنيسة تقف على العجب العجائب من الخلافات والتفصيلات الكثيرة) وقبل الختام وعلى ذكر « الاقباط » نقول كان الأقباط أيام أجدادهم الفراعنة في التوثن ، وما زالوا كذلك الى سنة (٣٨١) ب . م ^(١) ، ومن هذا التاريخ اعتنقوا النصرانية بأمر « ثيودوسيوس » ، ولكن على مذهب يعقوب البرادعي كما علمت ، وأما الرومان الذين كان لهم الانتداب على مصر فكانوا « ملكانية » ، ولذلك كان يوجد حزازات بين الحكومة الرومانية المنتدبة ، وبين القبط الوطنيين المنتدب عليهم .

شرك المصريين القدماء في الربوبية والالوهية

الفائدة الثامنة - نعلم من قوله « أرباب... الخ » ومن قوله الآتي « ماتبدون... الخ » أنه كان يوجد عند المصريين القدماء شرك في الربوبية وشرك في الألوهية ، فشرك الربوبية كان عندهم باتباع رؤساء دينهم الكهنة فيما يحلون لهم وما يحرمون عليهم « وشرك الألوهية كان عندهم بعبادة غير الله تعالى كالعجل أيس وسواه ، وقد أخذ النصارى عن المصريين وسواهم هذين النوعين من

الشرك، ولذلك دعا النبي ﷺ أهل الكتاب في كتبه إلى الاسلام بقوله عز وجل: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ، وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً، وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَإِنْ تَوَلَّوْا، فَقُولُوا: اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (٣ : ٦٤) فأهل الكتاب طرأ على فوجدهم شرك في الألوهية باتخاذ المسيح إلهاً وعبادتهم إياه، بل هم قد اتخذوا غيره من حواريه آلهة بطولسلطة والنفاعة، وطرأ عليهم فوق ذلك شرك في الرومية باتباعهم لأجبارهم ورهبانهم فيما يحلون لهم ويحرمون عليهم، فدعاهم النبي ﷺ إلى توحيد الألوهية والرومية معاً.

ومرانيّة الرومية والالهية

هذا وهناك وحدانيّان، وحدانيّة الرومية، ووحدانيّة الألوهية، فأما وحدانيّة الرومية فهي ترجع إلى الالتئام بأمر الله وحده، والانتهاء بنبيه وحده، والرجوع إليه تعالى وحده في الشرح والتعليل والتحريم، كما ورد في حديث عدي بن حاتم قال: (أتيت رسول الله ﷺ وسميته بقرآنيّة) اتخذوا أخبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله) (٩ : ٣١) فقلت له: يا رسول الله، لم يكونوا يبدونهم - فقال: (أليس يحرمون ما أحل الله ويحلون ما حرم الله؟ - فقلت: بل - قال: فهو ذلك) فأقرب هو السيد المربي الذي يطاع فيها بأمر وينهى وله حق التشريع الذي يربي به الناس.

وأما وحدانيّة الألوهية فهي ترجع لامتداده أي حصر المبادء في الله تعالى، فلا يسأل إلا الله ولا يستعين إلا بالله ولا يعبد سواه.

الدهوة الأدبية

الفائدة التاسعة - هذه الدعوة التي قام بها يوسف عليه السلام من الآية ٣٧

لآخر الآية ٤٠ هي دعوة أدبية وافية بالمقصود ، لم تخرج عن دائرة الذوق والكمال الأمر الذي هو من أوكد واجبات الماظرة ، فلم يسب تلك الآلهة الباطلة ولم يجرح عاطفة السامعين بكلمة ما ، كما في الحديث الشريف « المسلم ليس بسبّاب ولا لعان » ، والله تعالى يقول : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ (٦ : ١٠٨) .

(واجب الداعي التحقق مما يدعو اليه)

الفائدة المباشرة — قوله عنها « أرباب » الخ الآية الأربعين ، هو الأمر المقصود ، وأما ما قبله من قوله ﴿ ذَلِكُمْ مَاعَلَيَّ ﴾ الخ الآيتين ، فهو مقدمة لهذا الغرض المقصود هنا ، أنى به قبله لأنه يجب على الداعي أن يكون متحققاً بما يدعو اليه ، لكي يتفع بارشاده ودعوته ، قال شبيب عليه اسلام : « وما أريد أن أخالفكم الى ما أنتم كُمن عنه » (١١ : ٨٨) يقال خالفني فلان الى كذا ، اذا قصده ، وأنت مول عنه ، ويقال خالفني عنه اذا ولى عنه وأنت قاصده ، ويلقاك الرجل صادراً عن الماء ، فسأله عن صاحبه ، فيقول : خالفني الى الماء ، يريد أنه قد ذهب اليه وارداً ، وأنا ذاهب عنه صادراً ، فمعنى عبارة شبيب : لأريد أن أسبقكم الى شيوانكم التي نهيتكم عنها ، لا أستبد بها دونكم ، وقال تعالى ﴿ هل يستوي هو ومن يأمر بالبدل وهو على صراط مستقيم ﴾ (١٦ : ٧٦) يعني يأمر الناس بالخير ، وهو في نفسه على سيرة صالحة ودين قويم .

وجاء في التزييل ما فيه تفرع وتمجب من حال الذي يلقي الموعدة ، ويبسط لسانه بالأمر بالمعروف ، وهو تارك للعمل به فاحية ، قال تعالى : ﴿ أَمَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ؟

(٢: ٤٤)، وقال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ؟ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (١٦: ٢ و ٣)

سبب اقتصار يوسف على دعوة صاحبي السجن إلى التوحيد فقط

الفائدة الحادية عشرة - الدعوة إلى اصلاح العقائد، و وضع التوحيد محل التوثق: أمرهم بقصد منه نقل النفوس من ملّة إلى ملّة، ومعلوم أنّ تحويل النفوس من عقيدة إلى أخرى صعب جداً على الساعي وعلى الدعو، ولذلك سأل موسى عليه السلام ربه أن يشرك معه في الرسالة شقيقه هرون، فقال: ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزيراً مِنْ أَهْلِي﴾ هرون أخى، اشددّ به أزرى، وأشركه كدّ في أمرى ﴿٣٠: ٢٩ - ٣٣﴾: وبعث عيسى عليه السلام إلى أهل انطاكية برجلين اثنين ليدعواهم إلى الايمان، فقايلوهما بعتاد وتكذيب، فأضاف إليهما ثالثاً يؤيد بهنّهما، قال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ، إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا، فَعَزَّزْنَا ثَلَاثًا، فَقَالُوا: إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ﴾ (٢٦: ١٣ و ١٤)، وبالنظر إلى صعوبة ذلك وأهميته جداً اقتصر يوسف على دعوة صاحبي السجن إلى التوحيد، وأما الارشاد إلى أحكام الدين العملية - مثلاً - فهو أيسر من اصلاح العقائد ووضع الايمان موضع الجحود، ووضع التوحيد موضع التوثق، على أن التوحيد هو الأساس، فيجب البدء بالدعوة إليه أولاً، وأما الأعمال الفرعية فيتمني تأخير الدعوة إليها بعد اعتناق الأصول، وبهذا تعلم نكته كون يوسف لم ينه رئيس السقاة عن سفني ربه خمرًا، فتفهم هذا، وإلا فالسلام عليك.

مثل من يسير على الهدى والهدى والمراد الكمال

المعبر المملوك للرب، هديته أو لالهك وهدى

الفائدة الثانية عشرة - نظير هذه الآية التي نطق بها يوسف عليه السلام قول

الله تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا ، رَجُلًا ، فِيهِ شُرَكَاءٌ مُتَشَاكِسُونَ ، وَرَجُلًا ، سَلَمًا لِرَجُلٍ ، هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ؟ ﴾ (٣٩ : ٢٩) ، فالرجل الأول مملوك من المالك قد اشترك فيه شركاء ، بينهم اختلاف وتنازع ، كل واحد منهم يدعي انه عبده ، فهم يتجادبون ويتعاورونه في مهنٍ شتى ، ومشاده (أشغال) متنوعة ، واذا بدت لهم حاجة تدافعوه ، فهو ساذج (متعجب) في أمره ، قد تشعبت (فرقت) المهوم قلبه ، وتوزعت (فرقت) أغراضهم أفكاره ، لا يدري أيهم يرضى بخدمته ؟ وعلى أيهم يعتمد في حاجاته ؟

والرجل الثاني قد سلم لملك واحد وخلص له ، فهو معتق لما لزمه من خدمته ، معتمد عليه فيما يصلحه ، فهمه واحد ، وقلبه مجتمع ، فأى هذين العبدین أحسن حالاً وأجمل شأنًا ؟ ، والمراد تمثيل حال الرجل الأول الذي يثبت آلهة شتى ، وما يلزمه على قضية مذهبه ، من أن يدعي كل واحد منهم عبوديته ، ويتشاكسوا في ذلك ويتغالبا ، ويبقى هو محيراً ضائعاً لا يدري أيهم يعبد ؟ ، وعلى ربوبية أيهم يعتمد ؟ ومن يطلب رزقه ؟ ومن يلتمس رفقه ؟ فهمه شعاع ، وقلبه أوزاع .

وحال الرجل الثاني الذي لم يثبت إلا إلهاً واحداً ، فهو قائم بما كلفه ، عارف بما يرضيه ويسخطه ، لا يذل إلا لهذا السيد القد ، ولا يعتمد إلا عليه ، منه يطلب حوائجه ، وهو مع غيره حر ، مهما مسه الضر .

فكرة الدعوة والارشاد في القرآن ومراتبها

الفائدة الثالثة عشرة - لقد فتح لنا يوسف الصديق بهذا المقال باب الوعظ والتبشير على مصراعيه ، والقرآن الكريم لا يزال يرشدنا إلى هذه الفكرة الحميدة ، فكرة الدعوة والارشاد ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ (٣ : ١٠٤) وهذا الأمر والنهي هو التواصي في قوله تعالى : ﴿ وَالْعَصْرُ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، وَتَوَّصُوا بِالْحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالْمَبْرُورِ ﴿١٠٣﴾ :، ثم إن لهذه الدعوة الى الخير والأمر والتبى مرحبتان ، فالرنبه الأول هي دعوة هذه الأمة سائر الأمم الى الخير ، وأن يشاركوهم فيها هم عليه من التور والهدى ؛ وعليه فالخير والمعروف هو الاسلام ، والمنكر هو الكفر والكفر ، ودعوة يوسف هتامن هذا القبيل . والمرتبة الثانية في الدعوة والأمر والتبى - هي دعوة المسلمين بعضهم بعضاً الى الخير وأمرهم فيما بينهم بالمعروف ، وتناهيهن عن المنكر ، وعليه فالخير والمعروف هو الواجبات ، والمنكر هو الحرام .

قال تعالى : ﴿ لَسِعَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ كانوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٥ : ٧٨﴾ .

صفات الداعي الى التوحيد

ولمنا بمناسبة دعوة يوسف لهذين الوثنيين نريد أن نذكر ما يجب أن يكون عليه « الداعي » من الصفات :

(١) العلم التام بما يدعو اليه ، وهو العلم بالقرآن والسنة والسيرة النبوية وسيرة الخلفاء الراشدين . وسلف الأمة الصالح ، وأهم ما يجب أن يعلمه « الداعي » من القرآن ما في الآيات المتعلقة بالنصارى والمسيح وأمه والحواريين ، والآيات التاريخية التي لها علاقتها بتاريخ اليهود .

(٢) العلم بحال من توجه اليهم الدعوة فيشعروهم واستندادهم وطبائع بلادهم وأخلاقهم وسائر أحوالهم الاجتماعية .

(٣) معرفة المل والنحل ومذاهب الأمة ، ليتيسر « الداعي » بأن ما فيها من الباطل ، فإن المدعو إذا لم يبين له بطلان ما هو عليه ، لا يلتفت الى الحق الذي عليه غيره ، وأهم شيء في هذا الباب ، الوقوف على ما عند النصارى (مثلاً ، من

المذاهب والتقاليد الدينية ، وأهم هذا الأهم ، مطالعة كتب توارىخ الكنيسة وكتب الجدل التي لنا ولهم ، والوقوف التام على شرح ما بأيديهم مما يسمونه بالتوراة والانجيل والتمكن من مواطن الخلاف بين فرق النصارى الملكانية واليعقوبية والنسطورية ، وما تعتقده كل فرقة في غيرها ، مع الوقوف التام على عقائد الروم الأرثوذكس والروم اللاتين والبروتستانت ، وما تقوله كل فرقة في شأن غيرها .

(٤) — يجب أن يكون «الداعي» زيهياً عن السباب والشتائم والصخب ، دمث الاخلاق ، وديعاً ، حمولاً ، حريصاً على مراعاة العواطف ، واحترام من ينظره أو يدعوه ، لا ينطق بينت شفة تمس كرامة مدعوه ، أو تجرح عاطفته ، كما قال تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ، وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (١٦ : ١٢٥) وأحسن شيء يري في «الداعي» هذه الملكة ، مراجعته للآيات القرآنية الحاوية على الجدل المتبادل ، بين الأنبياء وأممهم ، والتأمل في ذلك تأملاً عميقاً ، لكي يتخلق بأخلاق الأنبياء ، ويتأدب بأدابهم ويتحمل كما تحمّلوا ، ويلطف كما تلطّفوا ، فإن في القرآن من ذلك العجب العجائب ، والكثر الثمين الذي لا يقدر بثمن .

اعتقاد المصريين القدماء بيوم الدين

الفائدة الرابعة عشرة - لقد حدث يوسف صاحبي السجن في هذه الآية وما بعدها ، على التوحيد ، ولم يحنها على الايمان باليوم الآخر ، لأن ذلك كان من أكبر عقائدهم العتيقة ، من وجود يوسف بينهم ، ولولا اعتقادهم بالدينونة في اليوم الآخر ، ما قال عزيز مصر لامرأته ، لما وجدها خاطئة : ﴿ واستغفري لربِّكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ (٢٩ آ) والظاهر أن هذه العقيدة ، أتت للمصريين ، من طريق الوحي إليهم ، ولذلك كانوا يعرفونها قبل اليهود ،

وكانوا يمتقدون أن قلب الانسان، سيوزن يوم القيامة، لمعرفة إن كان يستحق الرحمة أو المذاب، ولعل مرادهم من ذلك هو كمراد القرآن عند المحققين، بما ذكره مشابهاً لذلك في قوله: ﴿وَنُزِعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً، وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ، أَتَيْنَاهَا، وَكُفِيَ بِهَا حَاسِبِينَ﴾ (٢١: ٤٧)، فالقصود بالمبالغة في بيان دقة الحساب وكمال العدل الإلهي، في ديتونة الخلائق، كأن أعمالهم أو قلوبهم، توزن وزناً دقيقاً .

فالمصريون القدماء، كانوا يستقدون يوم الدين، وكذلك ينو اسرائيل « طبعاً، كما يفهم من قول يوسف: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ، وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ (٣٧ آ) .

وجه عدم ذكر اليوم الآخر في التوراة

لم يذكر يوم الآخرة في اسفار العهد القديم، لأن وجود بني اسرائيل بين المصريين مدة (٤٣٠) سنة على ذمة التوراة (خر ١٢ : ٤٠) (أومدة ٢١٥) سنة على ما حققه علماء اتاريخ المدني - استندعى اقبياسهم قديم هذه المفيدة، التي كانت عاقلة كثيراً بأذهان المصريين، فانتقلت منهم لبني اسرائيل، وأصبحت من الأمور التي لا يترددون في قبولها، فلذا لم يحتاجوا التذكير بها كثيراً .

وهناك وجه ثان لعدم ذكر اليوم الآخر في التوراة، هو أن اليهود، كانوا في تلك الأزمنة، قصيري الإدراك، بلقاء الشعور، وكافوا ذوي وقاب صلابة (خر ٣٢ : ٩)، فلذا ما كانوا يتأثرون، ولا تنفعل نفوسهم بالواعيد والآجلة، انفعالها بالواعيد العاجلة، التي أكثرت كتبهم من ذكرها لهم، تعلق قلوبهم وقساوبها . ولنا وجه ثالث في الموضوع، وهو أن كتبهم كالتوراة والنزبور دخلها نقص كثير، ونسوا حظاً مما ذكروا به، فلعل عدم ذكر اليوم الآخر، هو من أمثلة هذا التقصان، ومن أفراد ذلك الحظ الذي نسوه .

عقيدة اليهود الفريسيين والصدوقيين يوم الدين

لقد نجم عن عدم ذكر اليوم الأخير في كتب العهد القديم ، ضعف هذه العقيدة في اليهود ، وكأنها مع طول الزمن ، تلاشت من بين كثير منهم ، حتى أن اليهود اقساموا الى قسمين ، قسم يعرفون باسم « فريسيين » يعتقدون يوم الدين ، وقسم يعرفون باسم « صدوقيين » ينكرون البعث والقيامة (مت ٢٢ : ٢٣ ، أع ٢٣ : ٨) وههنا تذكر قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، قَدْ يَلْبَسُوا مِنَ الْآخِرَةِ ، كَمَا يَبْئَسُ الْكَافِرُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾ (١٣ : ٦٠) هؤلاء « القوم المنضوب عليهم » هم يهود المدينة ، وهؤلاء « الكفار » الذين بئسوا من أن يلاقوا أقاربهم وأصحابهم ، لأنهم لا يعتقدون بالآخرة ، وهم الدهرية من العرب .

إذا تقرر هذا ، فكيف تقدر أن تفهم أن اليهود ، لا يعتقدون بالآخرة ، كالدهرية من العرب ؟ والجواب فيما يظهر لنا أن هؤلاء اليهود الذين هاجروا للحجاز كانوا من « الصدوقيين » الذين يقولون « لا بعث ولا قيامة » أو كان بعضهم « صدوقياً » وبعضهم « فريسياً » ولكن إذا طال عليهم الأمد ، وامتزج « الفريسي » بكل من « الصدوقي » اليهودي والدهري العربي ، ضعف في جميعهم الاعتقاد بالقيامة ، فبئسوا من الآخرة ، كما بئس دهر يو العرب .

ضعف عقيدة اليهود يوم الدين كانت سبباً في كون

أكثر معجزات المسيح (ع) نزل على هذه العقيدة

قال الدكتور توفيق صدقي : « وكأنه لهذا - أي لضعف هذه العقيدة في اليهود - ولكثرة الشك بين الناس فيها - جاء المسيح عيسى عليه السلام ، لتبين هذه العقيدة.

العظمى ، واشتهر بالتصريح بها ، أكثر من جميع من سبقوا من أنبياء بني إسرائيل ، وقد بين قدرة الله تعالى على البعث والنشور بمجزاته العظيمة ، كإحياء الموتى ، وخلقه من الطين طيراً ، وبوجوده هو نفسه بدون أب ، خلافاً لما اعتاده الناس ، فآلة تعالى الذي أجرى على يديه كل هذه الآيات البينات (أع ٣٠ : ٢٢) لا شك أنه قادر على إحياء الموتى يوم القيامة .

لذلك زى أن أكثر معجزات السيد المسيح عليه السلام ، هي له علاقة بإحياء الميت ليدل بذلك كله على قدرة الله التامة ، على البعث ، فات الذي خلفه بدون استيفاء أهم الشروط المعتادة ، في خلق الأحياء الزاكية ، ثم إحياء على يديه الموتى بل الجسد ، لا شك أنه قادر على بعث الخلائق يوم القيامة ، مهما طوار عليهم من الفساد والانحلال والتنوير ، ومنها فقد من الشروط المعتادة ، أو اللازمة لإحياء في هذه الدنيا ، لذلك قال تعالى في عيسى عليه السلام : ﴿ وَلَتَجِدَنَّ آيَةَ قَوْلِهِ ﴾ (١٩ : ٢٠) وجاء عن أسانه مكرراً في موضع واحد (٣ : ٤٩ و ٥٠) قوله : ﴿ إِنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَاسْمَعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ أي إذا علمتم بما جئكم به من الآيات ، أن الله موجود ، وأنه سيعينكم للحساب ، يوم القيامة ، كان واجباً — عليكم إن كنتم تقولون — أت تقولون كالأوثان ونظيرون .

وجود المسيح (م) من غير أب آية على وجود القيامة

وقبل ختم هذا البحث ، يجب أن لا ننسى قوله تعالى في شأن المسيح : ﴿ وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ السَّاعَةَ ، فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا ﴾ (٤٣ : ٦١) ، وقد قرئ : ﴿ عَلَّمَ ﴾ — بدون لام — أي هو سبب العلم بها ، فإنه هو ومجزاته من أعظم الدلائل ، على إمكان البعث ، وهذه البشارة في الآلة بحجاز مرسل ، علاقته المسيحية ، فإنه تعالى أطلق المسبب ، وهو العلم ، وأراد السبب ، وهو عيسى ومجزاته ، كقولك

أمطرت السماء نباتاً ، وقريء (عَلَّمَهُ) ومعناه ان قوله عيسى من غير أب ، دليل على جواز قيام الموتى من قبورهم ، وذلك لأن فرقة من اليهود ، وهم (الصدوقيون) كما قدمته لكم ، كانوا ينكرون القيامة (مر ١٢ : ١٨) فجعل الله تعالى ولادة المسيح من غير أب ، آية لهم على وجود القيامة ، أي كما جاء أن يولد شخص بدون أب ، يجوز أن توجد الناس يوم القيامة ، بدون وساطة آباء ، بل بمحض ارادة الله تعالى .

هذا هو الاحتمال الأول لهذه الآية الكريمة ، وفيه الشاهد هنا ، ولبعض المتأخرين احتمال ثان ، وهو أن المسيح عيسى ، كان علماً لساعة انقراض النبوة من بني اسرائيل ، ونقلها الى بني اسماعيل ، ولهذا قال لهم المسيح : (لذلك أقول لكم : إن ملكوت الله ، ينزع منكم ، ويعطى لأمة تعمل أثماره ، ومن سقط على هذا الحجر يترضض ، ومن سقط هو عليه ، يسحقه) (مت ٢١ : ٤٣ و٤٤) .

التعليق على قوله « أم الله الواحد »

الفائدة الخامسة عشرة : تعليقا على قوله : ﴿ أم الله الواحد ﴾ ، قال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، اللَّهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ (١١٢ : ١ - ٤) (فالله أحد) إشارة لتوحيد الربوبية ، (والله الصمد) إشارة لتوحيد الألوهية ، الذي كان العرب على خلافه ، وقوله (لم يلد ولم يولد) رمز لتوحيد الكمية ، الذي مشى النصراني على خلافه ، إذ أن اليعقوبية من النصراني والاقوخية ومنهم السريان القديم والأرمن والآقباط ، يقولون ان ليس للمسيح الطبيعة واحدة لاهوتية فقط ، وليس له طبيعة بشرية ، ومن نتائج هذه العقيدة القول بأن المسيح هو الله ، وان العذراء هي أم الله والدة

الإله ، وأما الملكانية ، ومنهم الانكليز والفرنسيون والألمان والاطليقيون والروس فيلبتون له طبيعة بشرية مع الطبيعة اللاهوتية .

التعليق على قوله القهار

الفائدة السادسة عشرة — تعليقا على قوله : (القهار) ، بخلاف هؤلاء الأرباب التي من دون الله ، فهي مقهورة وضعية : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ ، كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْكُفْرَ فَهُمْ كَثِيرٌ مِمَّنْ ظَنَّ أَنْ يَكُونَ عِندَ اللَّهِ مُتَّخَذِينَ دِينًا ، وَلَئِنْ لَمْ يَأْتِهِمُ الْيَقِينُ لَتَهَيَّئَ لَهُمْ لَهُمْ آيَاتِهِمْ ثَمَرًا وَأَلْهَوْهُمْ فِيهَا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٢٩ : ٤٩) ﴿ مَثَلُ الْمُشْرِكِ الَّذِي يَبْعَثُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْقِيَاسِ إِلَى الْكُفْرِ الَّذِي يَجْعَلُ اللَّهُ مَثَلُ الْمُتَكَبِّرِينَ تَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ ، إِذَا اسْتَفْرَجَتْ سَاعَةُ دِينِهِمْ ، دِينًا دِينًا ، يَتَّبِعُ الْمُتَكَبِّرِينَ ، كَذَلِكَ أَصْعَدَ الْإِدْبَاتِ ، إِذَا اسْتَفْرَجَتْ سَاعَةُ دِينِهِمْ ، عِبَادَةُ الْأَوْثَانِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ، وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ (٢٩ : ٤٣) .

هذه الكلمة (القهار) تشير إلى أن الرب الإله المعبود ، لا يجوز أن يكون ذليلا مقهورا ، بل يجب أن يكون عزيزا عاليا ، لأن المؤمن يجب أن يكون عزيزا ، بالأولى يجب أن يكون معبوده عزيزا .

يوسف (ع) يتابع الدعوة للتوحيد

آ (١٠) ﴿مَاتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ ، سَمَّيْتُمُوهَا
أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ ، مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ، إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا
لِلَّهِ أَمَرَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، وَلَكِنْ
أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

انفتحت الجلاسة وتليت الآية الأربعون انقام الشيخ مصطفى الطنطاوي وقال :

ماليت يوسف أن وجه خطابه لصاحبيه في السجن وابن على دينها من أهل
مصر بقوله : لا أخفي عليكم أيها المصريون القدماء إنكم ماعبدتم و (ماتعبدون من
دونه) أي من غيره تعالى ذات إله جوهرية مشخصة ، سوى وهم صرف وعدم
محض ، بل لاتعبدون (إلا أسماء) لاغناء فيها ، أربأ بكم أن تعبدوها ، إذ سميتم
مالا يستحق الألوهية ، آلهة ، ثم طفقت تعبدونها ، فكأنكم لاتعبدون سوى أسماء
فارعة ، ليس تحتها مسميات ، وهذه الخيالات المعبودة (سميتوها) سميتم بها (أنتم و)
من قبلكم (آباؤكم) آلهة ، وهذه المسميات في الحقيقة والواقع مألوهة لا آلهة ،
فما أشبه ذلك منكم بتسمية العرب للأناء الفارغ ملائنا ، وللسيارة الزاهية قافلة ،
وليس هذه التسمية في محلها ، بل هي كما قال القائل :

أسماء مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأمد

(ما أنزل الله بها) ولا ينزل ولن ينزل أبداً بتسميتها (من سلطان) من حجة ،
إذ ليس بيدكم برهان على صحة عبادتها ، ولا عقل يسلم بذلك ، وإنما هي الشبهة
تزوجت بشموبل الشيطان فجلت بهذه المعبودات فولدتها ، فإذا هي تمائيل سيئة

المثال ، فعبودانكم وليدة شبهة ، وتبيجة تقليد ، فأني باطل أخذتم ؟ ! وأي حق رفضتم ؟ ! . والحق الحق أقول : (ان الحكم) في أمر العبادة والدين (الاله) وحده لا يمدوه لسواه ، ثم بين ما حكم به فقال : (أمر أن لا تعبدوا إلا إياه) خاصة (ذلك الدين القيم) الثابت الذي دللت عليه البراهين ، والذي يقوم ويثبت به الحق ، والذي هو وحده الكفيل باصلاح الانسانية ، والذي يحمل في كيانه العزاء للمكدرين في الحياة ومن اتابتم مصائبها ، وحلت بهم أرزاقها ، وهو الذي يحمل في كيانه ما يرضي النفس ويحقق لها مطامحها وآمالها في حياة أخرى ، تقوم على العدل بين الناس ، ويرتفع فيها العبن وعدم المساواة ، وهو الذي وحده يغرس الفضائل في النفس ، وينشر الواطف الكريمة ، وأمهات الأخلاق الحسنة (ولكن أكثر الناس) أي السواد الأعظم من الناس في كل زمان ومكان (لا يعلمون) من أمر التوحيد شيئاً ، فالجهلاء على وجه الأرض أكثر من الجراد ، ولا يخلو معظم الناس أن يكون من أهل الخرق^(١) والشوك^(٢) لأنهم تبع لكل فاعق وناعر ، والعوام كالأنعام ، لو كانوا عبيداً لأبي يوسف ، صاحب أبي حنيفة ، لاعتقهم وأسقط ولاه عنهم .

(، لا تعبدون من دونه إلا أسماء سميت بها أنتم وآبائكم)

— ١ —

وقام السيد الحسام المقدسي وقال :

لي هنا عدة مسائل بها يتم تفسير الآية وهي :

اعتناقه المصريين الانباط النصرانية

المسألة الأولى — كان المصريون القدماء وثنيين منذ أول عهد الفراعنة ،

(١) الحرق بالضم والتحريرك تنذر الرق ، وان لا يمس الرجل العمل والنصر في الأمور .

(٢) الثول الجنون يصيب الشاة .

وبقيت الوثنية فيهم الى أن دخلت النصرانية في الديار المصرية بأمر « ثيودوسيس » (سنة ٣٨١ م) فاعتنقها المصريون ، وهزم الأقباط ، فصاروا على دين الدولة الرومانية الحاكمة في مصر وانقرضت الديانة الوثنية ، وهدمت هياكلها وكسرت تماثيلها ، ولكن كان « الأقباط » متمذهبين بالذهب « اليعقوبي » وكان « الرومانيون » أصحاب الانتداب في مصر متمذهبين بالذهب « الملكاني » ، فالمصريون الأقباط كانوا نصارى يعاقبة ، والرومان الحكم كانوا نصاري ملكانية .

وجوب الجهر بالدعوة الدينية

المسألة الثانية — رمى يوسف صاحبيه وغيرهما من المصريين بحجر واحد ، فقال « ماتمبدون » الخ بصيغة الجمع ، أو يقال : هو لم يرد التحرك بشخصية واحد منها ولكنه أراد الانتقاد على عمل عام أطبقت عليه الأمة المصرية ، وهو عبادتها لغير الله تعالى ، والمخاطبان بدخلان في كلامه دخولاً أولياً ، وآم استعبدوا للأهواء ، وخضعوا للأوهام ، وحصر واقعولهم في مضائق الخرافات ، فنعى عليهم سذاجتهم . تعرض للطن عليهم في دينهم ، ولم يبال بما يعلمه من أن كل من تعرض لدين قوم وجد المقاومة الشديدة من الأفراد ، ثم من الجماعات ، ثم من الدولة ففسهااتي يمثلها الملك وبلاطه — لم يبال بذلك لأنه يجب على الانسان الصدع بالأمر الديني والجهر بالدعوة الدينية على كل حال ، شأن أنبياء الله وهداة دينه .

الامور الداعية لعبادة المعبود

المسألة الثالثة — عبادة المعبود نتيجة لأحد أمرين : الأمر الأول شعور الانسان بقوة المعبود وعظمة سلطانه ، فهو لذلك يخضع له ، رغبة فيما عنده من

الخير ، ورهبة مما يقدر عليه من الشر ، ولذلك تراه يفزع إليه عند الشدة ، لتخفيف مآلَم به من الكروب .

والأمر الثاني شموه بأن المعبود ذو نفس كبيرة لما جرى على يده من عظام الأمور ، فالإنسان يتخيل لذلك أن تلك القوة التي بها تغلب على المصاعب لم تكن إلا نتيجة مساعدة مخصوصة له من الإله القادر على كل شيء ، لأنه يحبه حباً جماً ، فترى المأبد الخاضع يجعل هذا وسيلة في عبادته إياه ، يرجو بها رضا المعبود الأول ، الذي هو وحده خالق العالم ، وهو وحده رب السموات والأرضين ، فإن كان حياً فهو الوسيلة ، وإن كان ميتاً قام قبره مقامه ، أو جعلت له صورة تمثله ، وقد تكون من حجر أو صقر أو ماشاء كل ذلك ، وتعطي هذه الصورة من الخضوع ما كان يعطي صاحبها في حياته .

وقد يكون التعظيم أو العبادة لحيوان من الحيوانات النافسة أو الضارة ، أو لجناد فافع أو ضار ، لأن القوة التي أعطاها ، وبها ضر ونفع — أثر من آثار الخالق الوحيد ، وقد يصور ذلك الحيوان أو يمثل ، وتجعل صورته أو تمثاله مما يُقرَّب من خالق القوي ، ويسمون التمثال الذي على صورة إنسان من حجر أو فضة أو ذهب « صنماً » ؛ ويسمون الحجر المُثفل من الصنعة « وثناً » ، وعلى ذلك ورد في القول المأثور عنه ﷺ : (لا تتخذوا بربى وثناً بعد) .

العبادة ضرب من الخضوع لعظمة المعبود وسلطته

المسألة الرابعة — العبادة ضرب من الخضوع بالغ حد النهاية ، ناشئ عن استعمار القلب بعظمة المعبود لا يعرف منشأها ، وعن اعتقاده بسلطة له لا يدرك كنهها وماهيتها ، وقصارى ما يراه منها ، أنها محيطه به ، ولكنها فوق

إدراكه ، فمن ينتهي الى أقصى الذل للملك من الملوك لا يقال إنه عبده ، وإن قبل موطنه أقدامه . مادام سبب الذل والخضوع مبرروفاً ، وهو الخوف من ظلمه المعبود ، أو الرجاء بكرمه الحدود ، ألههم إلا بالنسبة للذين يعتقدون أن الملك قوة غيبية سماوية ، أفيضت على الملوك من الملأ الأعلى ، واختارتهم للاستعلاء على سائر أهل الدنيا ، لأنهم أطيب الناس عنصراً ، وأكرمهم جوهرأ ، أو يعتقدون حلول حصّة كبيرة من الالهوية في الملوك ، وهؤلاء هم الذين انتهى بهم هذا الاعتقاد الى الشرك ، فاتخذوا الملوك آلهة وأرباباً ، وعبدوهم عبادة حقيقية ، كما هو الحال في المصريين مع فراعنتهم ، والحقيقة أن السلطة الغيبية التي هي وراء الأسباب ليست إلا له تعالى دوت غيره ، فلا يشاركه فيها أحد ، فيعظم تعظيم العبادة ..

ليس في المخلوقات شيء من اللاهوت

المسألة الخامسة — يريد بقوله « الاسماء » انكم سميت ما لا يستحق الالهوية آلهة ، ثم طفقتم تعبدونها ، فكأنكم لا تعبدون إلا أسماء فارغة ، ليس تحتها سميات لأن معنى الالهوية فيها معدوم ، محال وجوده ، وهذا كقوله : ﴿ اتجادلونني في أسماء سميتوها أتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ (٧: ٧٠) ، وقوله : ﴿ ما يدعون من دونه من شيء ﴾ (٤٢: ٢٩) ، فتعلم من هذه الآية الكريمة انه لا لاهوت في شيء من المخلوقات ، ما عبد منها وما لم يعبد ، لا فرق فيها بين الضار والنافع ، ولا بين القوي والضعيف (خلافاً لقدماء المصريين وأمثالهم .

وقريب من هذا ، وان يكن ليس من نوعه ، احترام الناس على اسمائها ، لا على أفعالها ، فتجد الانسان متى فهم أن جليسه هو من الاسرة الفلانية أهال عليه الاحترام ، وقدم له الاكرام ، جزافاً بلا كيل .

وجوب علم أمور الدين علماً استقلالياً استدلالياً

المسألة السادسة — سبق في الآية التي قبل هذه أن يوسف (ع) أحال الخاطبين إلى غرائزهم وفطرهم ، والآف أحجم في هذه الآية كلمة « وآبؤكم » ليدكرهم بتأثير الترية التقليدية في أنفسهم ، ونشأى عروض الشبهات لأذهانهم والزامهم الحجة بحساسة عقولهم ، ومخالفة التقاليد والمسلات ، للغرائز والملكات وهم في الحقيقة تابعون لآبائهم في ذلك ، كما قال تعالى في إخوانهم من مقلدة قريش :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا : بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَفْقَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا — أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُكُمْ لَاتَّعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (١٧٠:٢) وقال تعالى : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا ، وَرَأَوْا الْعَذَابَ ، وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴾ (١٦٦:٢) ، ومن هذا نعلم بطلان التقليد للأباء والأجداد والمنسوخ والعلمين والرؤساء ، لأنه جهل وعصية جاهلية ، ويجب على الإنسان العلم الاستقلالي الاستدلال في أمور الدين ، لاسيما الأحكام الأساسية الاصولية ، وإن في تحريم الأخذ بالدليل اثباتاً على دين الله ، ونسخاً لكتابه ، وشرعاً لم يادن به الله ، خلاصته تحريم العلم وإيجاب الجهل ، وهذا منتهى الافساد للفطرة والعقل . وهو أقطع الددى لأوصال الحق . وأفضل المعاول لهم قواعد الأدب ، وعلة العلل لاقتشار البدع التي تذهب بهداية الدين ، وتستبدل بها الخرافات ودخل الدجالين .

هذا ما تيسر لنا في هذا المقام ، فتفهمة بإيمان وإعلاء ، واتباع الحق أسلم ، والله تعالى بالصواب أعلم

مرحى

ونكلم بعد ئذ رئيس المؤتمر مشيراً الى أنه لم يسمع من السيد المحاضر ما يشفي

الغليل في بيانه على جملة قوله تعالى : ﴿ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ ، فتقدم عندئذ سنة من العلماء المحاضرين طالبين التكلم على هذه الآية قدون أسماءهم ، وقام أولهم وهو الامام الزقازيقي وقال :

(ما أنزل الله بها من سلطان) .

— ١ —

اصطلاحات القرآن اللفظية

كل ('سلطان') في القرآن هو بمعنى (الحجة) كما انه — والشيء بالشيء — يذكر — كل فعل في القرآن من (الإمطار) فهو العذاب ودائماً بدون استثناء . كما قاله البخاري ، وكل كلمة ('صيحة') في القرآن هي بمعنى (الهلكة) كما قاله البخاري والكشاف ، وكل ('ظل الغمام') في القرآن هو عذاب ، كما يعلم من البخاري أيضاً ، ويعلم من الكشاف انه متى قيل : (أتاهم الله) مثلاً فهو أيضاً العذاب ، كما اذا قيل (أتاهم أمرنا) ، (أتاني الله بُنْيَانَهُمْ) ، (أو يأتي أمر ربك) ، (الا أن يأتيهم الله) وكل (ولي الله) في القرآن ، فهو المؤمن التقي ، وكل (أهل الكتاب) فهو اليهود والنصارى ، وكل (يا أيها الناس) فهو كفار أهل مكة .

(ما أنزل الله بها من سلطان)

— ٢ —

ثم قام الشيخ المنصوري ^(١) وقال :

«السلطان والحق وتعلم شأنهما

» السلطان « الحجة والبينة والبرهان ، وسميت الحجة سلطاناً ، لأن لها

(١) نسبة الى المنصورة من البلاد المصرية .

سلطة على العقل والقلب ، آوان اشتقاقه من السليط ، وهو الدمن ، لإخضاعه ،
وغني عن البيان أن الشرك بالله أبطل الباطل ، فلا يمكن أن تقوم عليه حجة
من العقل ، ولا بينة من الرحي ، وإذا أنا منى قوله ههنا : ﴿ ما أنزل الله بها من
سلطان ﴾ والجواب عن ذلكم انه تعالى عظم شأن « السلطان » في دينه ،
وناط به تصديق دعوى الدعوي وردها ، بصرف النظر عن موضوعها ، حتى كأن
من جاء « بالسلطان » على الشرك يصدق فيه ، وهو من قبل نرس الحال ، فلما لفته
في مدح البرهان ، وفضل الاستدلال ، وقد قال تعالى في سياق إقناع اليراهين
على توحيدہ : ﴿ آلله مع الله ؟ قل : هاؤا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾
(٢٧ : ٦٤) ، على انه صرح بأنه ليس ليسهم برهان فيما أقام على كتبهم بيه
البرهان ؛ وكيف يكون لديهم ما هو في نفسه محال ؟ وذلك في قوله تعالى :
﴿ قالوا : اتخذ الله ولداً ! ، سبحانه هو القي ، له ما في السموات وما في الارض
إن عندكم من سلطان بهذا ، أتقولون على الله ما لا تعملون ؟ ﴾ (٩٠ : ٦٨)
أي ليس لديكم أدنى دليل بهذا القول الفظيع الذي تقولونه ، مع أن مثله مما
تبطله البراهين والدلائل البينة يحتاج مدعيه الى أقوى البراهين والحجج ،
وأعظمها سلطاناً على العقول ، ومن فيبيل معالة يوسف قوله سلفه هود عليها
السلام : ﴿ أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ، هازل الله بها من سلطان ؟ ﴾
(٧٠ : ٧) ، وقول جده ايراهيم : ﴿ وكيف أخاف ما أشرككم ولا تخافون أنكم
أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً ؟ ﴾ (٦١ : ٨١) ، وقوله تعالى ﴿ ويعبدون
من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً ، وما ليس لهم به علم ، وما للعالمين من قاصر ﴾

(٧١: ٢٢) ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ —
 إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبِيرٌ ، مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ ﴾ (٥٦: ٤٠) ومن أمثلة استعمال
 لفظ « البرهان » في هذا القبيل قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ
 — لَا بَرَاهَانَ لَهُ بِهِ — فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ (٢٣ :
 ١١٨) ومن أمثلة استعمال كلمة « حق » في هذا القبيل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ
 يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ، وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ الخ (٢١ : ٣) ،
 فهذا القيد يقرر لنا أن ذم الشيء ومدحه يدوران مع « الحق » وجوداً وعدماً ،
 لأمع الأشخاص والأصناف ، فهو تعظيم لشأن الحق ، حتى كأنه من قتل نبياً
 بالحق لا يؤاخذ ، وهو من باب فرض المستحيل ، مبالغة في احترام الحق !!!
 ونحوه قوله تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ
 الْحَقِّ ﴾ (١٤٥ : ٧) ، فلا ريب أن التكبر لا يكون مرة بحق وأخرى بغير حق ،
 ولكن رمزاً لاحترام الحق ، من حيث هو حق ، وفرضاً للمحال قيل : لو كان
 التكبر في الأرض بالحق ، لكان مقبولاً ، ولكنه مستحيل ، لأن التكبر لا يكون
 إلا باطلاً ، ومن أمثلة استعمال لفظي الحق والسلطان قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ
 رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ — مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ — وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ (الحق) ،
 وَأَنْ تَتَّبِعُوا كُودًا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ (سلطاناً) ، وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ
 مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٣٢ : ٧) ، وهكذا ورد قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ
 نَبَأَهُمْ (بالحق) ﴾ (١٨ : ١٣) ، وقوله تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ
 آدَمَ (بالحق) ﴾ (٥ : ٣٠) فهذا ونحوه تعظيم للحق ، وإلا فآلة تعالى لا يقص
 على نبيه نبأ دائماً إلا بالحق ، والنبي لا يتلو على قومه أي نبأ كان إلا بالحق .

(ما أنزل الله بها من سلطات)

— ٣ —

ثم قام الحافظ البصري^(١) وقال :

الدين مبني على الحجة والعلم

يقول هنا « ما أنزل الله بها من سلطان » ، وسبق أن قلناه أن بقوله : ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ فمن هاتين الكلمتين وأشباههما تتلهم أن الدين مبني على (الحجة) ، ومؤسس على (العلم) قال تعالى : ﴿ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ (٢ : ١١١) ، ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ﴾ (٦ : ٨٣) ، ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ﴾ (٢٢ : ٣) ، ﴿ إن يتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ، وَإِنْ الظَّنُّ لَا يَفِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً ﴾ (٥٨ : ٢٨) ، ﴿ ولا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ (١٧ : ٣٦) هذا ما يصرح به القرآن ، وهذا ما تشهد به العقول النيرة ، فمن قال أن التقليد يكفي في الدين ، فقد غمس لسانه في حمأة الأغاليط .

(ما أنزل الله بها من سلطان)

— ٤ —

ثم قام سيدي حسام آغا الفيومي^(٢) وقال :

المسميات لا تنبرل بنبرل الوجود كما احادهميل والشمس وانها ساج

ولا نصبر آثره بنبرل اسمها

يقول : ﴿ ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ ويريد أن الخطابين على قمة من ذلك ،

(١) نبة الى الصرة من بلاد العراق

(٢) نبة الى الفيوم من البلاد المصرية .

يعقلونه بعقولهم ، ولكنهم يميلون الى التقاليد المصرية ، الموروثة عن الآباء الأقدمين ، التي يسميها العلماء « الحركة المستمرة » فيقبلون الحقائق ، ويفيرون التوايس ، ويرون المألوه إلهاً ، والضعيف قوياً وما كانوا يدعون له في الصلاة عليه يوم وفاته ، صار يُدعى بعد زوله في حفرة !! ، واذا بلغ الناس في حالتهم العقلية الدينية ، الى هذه الدرجة ، فقولوا : على عقولهم السلام .

ومعلوم أن المسميات لا تتبدل بتبدل الأسماء ، لاذواتها ولا أحكامها ، ولا وضعيتها ، فالمجل « أييس » الذي يبدونه هو مازال عجلاً ولو سمي إلهاً ، و « آمون » إله « ثيبة » الموفر عندهم مازال مألوهاً ولو دعي إلهاً ، و « را » أي الشمس وهو الاله الشمسي عندهم هو في الواقع كوكب مخلوق ، وهكذا يقال في تماثيلهم وفراعنتهم وغيرها وأسُخِفَ بالمائل إن عبداً سماً بلا مسمى ! وأجمل بالإنسان إن خضع لشيء موهوم ! حقاً إن هذا الحال ليذيب لفائف القلب ويقضي بالعجب العجيب !..

(ما أنزل الله بها من سلطان)

- ٥ -

ثم قام صبيح المكي وقال :

سكوت صامبي يوسف في السجن عن الجواب حكم صامت بصحة كلامه

يقول يوسف عليه السلام لصاحبيه في السجن إن عبادتهم للشمس والعجل « أييس » وغيرها لا تستند على برهان ، ولا تدعم بعقل ، فهل تظنهما بعد ذلك أصنيا الى نداء الضمير ، إذا كان لهما ضمير !! - على أنك لو سبرت غور قلوبهما وهما يسمعا خطاب « الصديق » لرأيتهما يتاجيان نفسيهما ليدفعا عنها تبكيت الضمير

بشبهة أنهما — كغيرهما من المصريين — إنما اعتقدا تعدد الآلهة ، مشياً مع القول الشائع عندهم ، وهو أن الله « روح عظيم » مبعث في هذا العالم ، انبثاث الكهرباء في الاجسام ، أو الأشعة في الفضاء ، أو الأثير في العالم ، وكل واحد له من هذا الروح حصة تناسبه على قدر الاستعداد والناهل ، وعلى كل فلا نحسبها إلا قدرأيا شخصيها مغلوين ، وأقنه قد سمدت عليهما أجواب الجواب والدفاع لسطوع البرهان ، وظهور الصبح لذي عيتين ، ولهذا نراها قد سكنا ولم يفوها بكلمة ، مع أن لها نفوذاً أن يتكلم مع يوسف ، إذ هما من أهل المقاصب المتبصرة في بلاط الملك ، وأما يوسف فأنما هو عبد عبراني غريب قد اعتقل بتهمة تمس العرض والشرف . وقد كان معها في السجن كخادم لهما ، إذ أقامه رئيس السُرط عندهما لأجل هذه المهنة ، فسكونتهما والحالة هذه حكم صامت واعتراف بصحة كلام هذا الصديق . عليه السلام .

(ما أنزل الله بها من سلطان)

— ٦ —

ثم قام الاستاذ المديني وقال :

« الاستدلال المطلوب في الدين »

حكى أن حامد بن العباس ، سأل قاضي القضاة أبا عمرو عن أداء « الخمار » وعن دوائه ، ففتح القاضي لاصلاح صوته ثم قال : قال الله تعالى : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ (٥٩ : ٧) وقال النبي ﷺ : (استعينوا على الصناعات بأهلها) والاعشى هو المشهور في الجاهلية بهذه الصناعة ،

وقد قال :

وكأسٍ شربتُ على لذةٍ وأخرى تداويت منها بها
لكي يعلم الناس أنني امرؤ أتيت المروءة من بابها

ثم تلاه ابو قواس في الاسلام فقال :

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء وداوني بالتي كانت هي الداء

فقد استظهر في جواب المسألة بآية قرآنية ثم بمحدث نبوي ثم بين الفتيا وأدّى المعنى وتقصى من العبرة (١) ، فإذا كان الاستدلال مطلوباً حتى في آتفه الامور فما بالك بالدين ، خصوصاً عقائده ، ولذلك طالبها يوسف الصديق بالسلطان على ما يعتقدان ان كان لهما سلطان .

ولما اتمى الاستاذ من كلامه قام السيد الرئيس وشكر الاساتذة الستة على ماذكروه من تفسيره قيم لهذه الجملة بحيث لم يتركوا زيادة مستزيد .

(إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ)

قال عبد الملك الكري :

الحكم الشرعي والحكم الفعلي

حكم الله نوعان : حكم شرعي وحكم فعلي ، فالحكم الشرعي هو بوحى الله الى رسله بأمره ونهيه وإيجابه وحظره ، وهذا يكون في العبادة والدين ، وماهنا من هذا النوع ، بدليل ما قبله وهو قوله : (ما أنزل الله بها من سلطان) وما بعده وهو قوله : ﴿ أَمَرَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ ، ومثله قوله تعالى : ﴿

الذين آمنوا ، أوفوا بالعقود ، أُحِلَّتْ لَكُمْ هَيْمَةُ الْأَنْتَاهُمْ لِأَحَابِئِهِمْ عَلَيْهِمْ
غَيْرَ مُحِلِّي الصِّيْدِ وَأَقِمْ حُرْمَ ، إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿٥ : ٢١﴾
والحكم الفعلي بمعنى القضاء ، والنفوذ ، يفصل فيه بين الخلق ، تارة في الدنيا ،
وتارة في الآخرة ، كما سيقول ينفوذ عليه السلام ﴿لِإِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾
(آية ٦٧) أي القضاء والنفوذ في الدنيا كالأخرة لله وحده ، وكما يقول الله :
﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ بِالْكِتَابِ وَاصْبِرْ ، حَتَّىٰ يَخْرُجَ إِلَيْكَ الْكَاذِبُ﴾
(١٠ : ١٠٩) وحكمه هذا في الدنيا بين المسلمين وغيرهم بنصر الأقرب للمحل
والإصلاح في الأرض ، ومثل حكمه في الآخرة قوله تعالى : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ :
لَيْسَتْ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ ، - وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ : لَيْسَ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ ، -
وَمَنْ يَتْلُو الْكِتَابَ ! كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ، فَاللَّهُ يَحْكُمُ
بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّمَا كُنُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (٢ : ١١٣) فالحكم هنا القضاء والنقل
بتصويب قوم وإدخالهم الجنة ونخطة قوم وإدخالهم النار .

(أَمْرًا أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا يَاهُ)

قال نادر الزمان الآتي :

وحدة الربوبية ووحدة الربوبية

وهذه هي وحدانية اللاهوتية ، وهي ترجع إلى عبادة الله وحده ، السؤال
منه وحده ، والاستماتة به وحده ، ودعائه وحده ، (تالاه) هو المعبود الذي
تَوَلَّى القول في معرفته ، وتدعوه وتصعد إليه ، لا اعتقادها أُلَّ السلطة الغيبية له
وحده ، كما لنا وحدة في اللاهوتية ولنا وحدة في الربوبية ، وفي الاعتقاد بأن مصدر
الخلق والرزق والاحياء والامانة وكذا التشريع والحظر والاباحة وسن الأحكام

انما هو الله وحده الذي يربي العالم بقوانينه السماوية ، التي ينزلها على رسله ، والى
الوحيدين ، وحدة الربوبية ووحدة الالهية الاشارة بقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ
الْكِتَابِ ، تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ، أَنْ لَا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ ، وَلَا نَتَّكِفَ
بِهِ شَيْئًا ، وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا ، فَقُولُوا :
أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (٣ : ٦٤) .

(ذلك الدين القيم)

وقال عبد العظيم التركي :

الدين والعلم اخوان

نرى في هذه الآية الكريمة ان الدين والعلم اخوان ، متى ثبتت أحدهما ثبت
الآخر ، ومتى انتفى أحدهما انتفى الآخر ، ولا يقول قائل : إنه يوجد تباين بين
الدين والعلم يتنافيان به ، فان ذلك غير صحيح ، وانما جاء ذلك لهم من أجل انهم
جعلوا من الدين ما ليس به ، أو أخطأوا مقاصده ومعناه ، قال الفيلسوف (هربرت
سبنسر) : (العلم عدو الأوهام المتداولة بين الناس باسم الدين ، ولكنه ليس بعدو
لدين الحق ، الذي كثيرأ ما تحاول هذه الاوهام ستره عن الأبصار ، نعم إنه
يوجد شيء من العلم المتداول يظهر عليه مناقضة الدين ومعاداته ، ولكن هذا أيضاً
من قبيل العلم الذي أكثره وهم ، اذ العلم الحقيقي الذي بغوص وراء حقائق
الأمور لا يناقض الدين) . وقال إمام الفلسفة الحديثة (ياقون) : (القليل من
العلم يبعد من الله ، والكثير منه يقرب منه) ، وقريب منه قول ابن تيمية :
(أمر شيء على الناس نصف فقيه ونصف مفسر ونصف محدث ونصف مؤرخ
ونصف طبيب وهكذا الى آخر الأنصاف) ، وقال (هكسلي) الحكيم الكبير :

(الدين والعلم كنوايين متلاصقتين ، فصلهما يؤدي الى موتها ، فان العلم ينمو ، متى كان دينياً والدين يثبت متى كان علمياً) — مرحى —

(ولكن اكثر الناس لا يعلمون)

— ١ —

قاله شيخنا البوغوسلافي

يوسف بكرر القصر من فناء صاحبيه في السجن

كان يوسف غمر من فتاة الفتيين المساجين له في السجن يقول له لم في الآية (٣٨) : (ولكن اكثر الناس لا يشكرون) ، وهنا في هذه الآية كرا لنت من قاتما بقوله لها : (ولكن اكثر الناس لا يعلمون) أي لا يعرفون حقاً ، ولا تنكر عقولهم باطلاً ، وأما أنما ايها الفتيان فلا بد أن تكونا قد عرفت وجه كلامي اليكما ، ولا أحسبكما إلا مسلمين لي اعتقادي على طول الخط ، وهذه هي أهم مادة في برنامج (دين التوحيد) قد ألفت نظركما اليها ، وعسى أن تصان كلمتي معكما آذانا صاغية ، وقلوباً واعية ، وهذه هي الحقيقة الرائعة ، فالحواها ولا تمحوها ، واكشفها ولا تكسها ، واتبعها ولا تبندعها :

لمعري لقد نهت من كان ناعماً وأصحت من كانت له أدف

هذا رأيي بعثه لكما ، وأما أقتما فارأيكما ؟ وهذا قولي ، لما قولكما : .. أترك الجواب عن ذلك الى وجدانكما الطاهر ، وخبركما الحر ، وفوكمما السليم ، وليس من التعذر على الباحث الذي يحمل مصباح عقله في بده البني ونيراس علمه في يده اليسرى أن يصل الى نتيجة صالحة تكفل له السعادة الدينية .

(عظة يوسف للفتيين كانت صرخة في واد)

هذه عظة يوسف التي أنى بها هنا استطراداً قد تمت ، وهذه دعوته التي قدمها انتهازاً للفرصة قد كملت ، ويظهر انها انما كانت صرخة في واد ، أو نفخة في رماد ، لأن الكتاب والتاريخ لم ينقلا لنا عن ايمانها شيئاً ، لاسيما (رئيس الخبازين) الذي لم يقل عنه الكتاب أقل كلمة تشعر بميله ليوسف ، وأما (رئيس السقاة) فقد أشار الكتاب الى أنه مدح يوسف للملك الريان ، وخطبه بلبق (صديق) ، ولما كان مأمور بتحقيق في حادثة النسوة مع يوسف ظهر له براءته ، وطهارته ، الأمر الذي لا بد أن يكون نتج عنه محبة ليوسف ، وحسن اعتقاده فيه ، هذا الذي تقدر أن نستنتجه من الكتاب ، وأما ان (رئيس السقاة) ترك دينه واعتنق دين التوحيد فلا صراحة فيه لا في كتاب ولا في حديث .

(وجوب الجهر بعقيدة التوحيد في كل زمان ومكان ومال)

وبعد فهذا الوعظ والتعليم من يوسف اقدم عظيم على بث عقيدة التوحيد على رؤوس الاشهاد ، مع انه في محيط كله متوثن منذ أجيال : فدين الحكومة الرسمي هو التوثن ، وكذلك دين الشعب المصري الوطني ، وهكذا دين المستعمرين الهكسوس ، وقد أراد يوسف يا قال غمز قناة الفتيين بأنهما لم يكونا من العلم في شيء وانما هو تقليد محض وتخرس وظنون وان الظن لا يقني من الحق شيئاً .

جهر يوسف بهذه الدعوة ، دعوة عقيدة التوحيد ، وهو طريد من بلاده ، وغريب في مصر ، ومعدود من عبادان بعض رجال الحكومة ، ومسجين بدعوى جريمة سائنة ، ومع هذا كله لم يسه سوى إعلان عقيدة التوحيد ، ودعوة الفتيين اليها ، والظن في عقيدة التوثن التي عليها القراعة والامة المصرية والامة الهكسوسية ، وكأن الارض — والحمد لله — لا تتخلو من قائم لله بحجة في

عبادة ، حتى أرض السجون ، وهكذا كان يفعل الإمامان أبو حنيفة النعمان ، وأحمد بن حنبل ، وهما في سجنهما يبتعدان أيام الباسيين يعلمان المسجونين معها ، ويرشدانهم لما فيه خير ، رغمًا عما هما فيه من السجن .

وقد قال بعض المصريين : « لعمري إنه إذا لم يكن لدى الداعي جرأة وشجاعة أدبية في عرض دعوته ، فإن دعوته تموت ، مهما كان واثقاً من صدقها ، بل مهما كانت حقاً في نفسها ، وكم من دعوة حق ماتت في مهدها ؟ وكلمة صدق أطفئت في مشكلاتها ؟ يسبب تهيب الداعي من المقاومين ، وما ينقص من الشجاعة الأدبية في تحمل الكوارث والشدائد التي تعترض سيره ، ومن ثم جعل زعماء المدنية الحديثة « الحرية الفكرية » ركناً من أركان مدنيته ، وعماداً قوياً لحضارتهم ، ولو قال قائل : إن مدينة التريين وظهور النوابغ فيهم ، وعروجهم في العلم والفن والصناعة والاحتراع ، ثم في المزة والصولة والغلبة إلى الأوج الذي وصلوا إليه اليوم إنما هو أثر من آثار « الحرية الفكرية » — لو قال ذلك لما كان غالياً ولا مبالغاً . ومن أحب أن يسمع محبوساً في أعماق السجون يقف في سجنه خطيباً ، ويجلس في مجالس الوعظ والدعوة إلى الله ، فليقرأ هذا البحث من قصة يوسف عليه السلام ، ولعمري إن هذا لما يجب أن يحملنا على الذهاب لدور السجناء ، لأجل وعظهم وإرشادهم ، وتذكيرهم بالتخلي عن الرذائل والتحلي بالفضائل ، وتشويقهم للتوبة ، وترغيبهم في الصبر الجميل .

حكم القرآن بالمظالم الرديئة على الأكثرية الساحقة من الناس

نقرأ في القرآن المجيد ، نتجده دائماً يحكم على الأكثرية الساحقة من الناس بالأحكام الرديئة ، كالجهل والكفر — إلى الفسق والشرك — إلى

الإعراض والندر والجدل ونحو ذلك ، وهاكم بعض الشواهد على ذلك :

﴿ وكثيرٌ منهم ساءَ ما يَعمَلُونَ ﴾ (٦٩:٥) ، ﴿ ثم عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ ﴾ (٧١:٥) ، ﴿ وكثيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ المَذَابُ ﴾ (١٨:٢٢) ، ﴿ لَآخِرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ ﴾ (١١٣:٤) ، ﴿ ثم إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾ (٣٥:٥) ، ﴿ وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ والعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السَّحْتِ ، لَئِيسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٦٥:٥) ، ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أَتَزَلَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طَغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ (٦٧:٥) ، ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ ، وَأَضَلُّوا كَثِيرًا ﴾ (٨٠:٥) ، ﴿ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا - لَئِيسَ مَا قَدَّمْت لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ - أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ ، وَفِي المَذَابِ هُمُ خَالِدُونَ ﴾ (٨٣:٥) ، ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيَضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ (١١٩:٦) ، ﴿ وَلَقَدْ دَرَأْنَا لِلْجَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ، أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (١٧٨:٧) ، ﴿ إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ والرَّهْبَانِ لَيَسَاءَ كَلَامُ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ، وَيَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللهِ ﴾ (٣٥:٩) ، ﴿ رَبِّ إِنَّنَّهِ ضَالِّينَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ ﴾ (٣٦:١٤) ، ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ﴾ (٣٦:١٤) ، ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْتَغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ (٣٨: ٢٤) ، ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ - وَلَوْ حَرَصْتَ - بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٢: ١٠٣) ، ﴿ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ (١٧: ٨٩) ، ﴿ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ (٢: ٢٤٣) ، ﴿ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٧: ١٨٦) ، ﴿ وَإِنْ تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الأَرْضِ يَضْلُوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، إِنَّ بَنِيَّعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ، وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ (٦: ١١٦) ، ﴿ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ

الخير في كل مصر وعصر، وكل كوخ وقصر، (راجع كتب الملل والنحل وانظر كتب الحمرافية . تجد صدق ما قلنا) .

يوسف يعبر رؤيا الفتيين بالجزم

آ (٤١) ﴿يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمْ فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا، وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلَّبُ، فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ، قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ *

افتتحت الجلسة وتليت الآية الاحدى والاربون فقام اقاى حسن جم الهمداني^(١) وقال :

قال يوسف لصاحبيه بلسان الملقى الجيب (يا صاحي السجن) لكل حادث حديث، اسمما تأويل رؤييكما (أما أحدكما) وهو « بنو » رئيس السقاة (يسقي ربه) سيده (خمرأ) حيث يخرج من هذا المعتقل بريئاً، ويرجع مقامه الأول عند « الريان »، (وأما الآخر) وهو « ملحب » رئيس الخبازين (فيصلب) على الجذع فيموت (فتأكل الطير من رأسه) ، لأنه يتهم بمقاومة الملك (قضي الأمر) قطع ونم (الذي فيه تستفتيان) ، ولو كنت أعلم أن التمني سينفع أحدهما الخباز لتمنيت له السلامة، ولكن التمني لا يدفع مقدوراً ، والأمل لا يقضي على الحقيقة. هذه فتوى يوسف التي خلاصتها هلاك أحدهما ونجاة الآخر .

(١) سبة الى همدان من البلاد الارابية .

(يا صاحبي السجن ، أما أحذركا .. الخ)

- ١ -

وقال المصاحب للمملوكي (١) :

يوسف يعبر رؤيا الفتيين بصبر

لما أتم يوسف عملها ، وقضى مناصبته إياها ، رجع يحيطها عما سألاه عنه فقال :
يا صاحبي السجن يارئيس السقاء ويارئيس الخبازين من كان منكم له أذنان للسمع
فليسمع ، أنا لست أريد أن أطيل عليكم القول في عبارة هذه الرؤيا ، بالكلام على
مخضها ، بل أقصر على أن أبين لكم زبدتها فأقول :

أما أحذركا وهو أنت يارئيس السقاء « نبو » فطلب نفساً وقر عيناً ، فلنجدتك
قد تحرك ، ولني أرف لك البشارة بأبقاء الملك عليك ، لظهور براءة ساحتك ،
من المؤامرة على الملك أو من دسك السم في شرايه (راجع تفسير آية ٣٦)
وصدور إرادته بإخراجك من السجن ، ورجوعك لوظيفتك ، بذات الراتب
المقرر لك فلا ، تفقد بين يدي سيدك الملك الريان وتسقيه خمرأ ، تصبها له من
أباريقه السجدية ، في القوارير الزرجدية ، حسب سيرتك الاولى .

وأما الآخر وهو أنت يارئيس الخبازين « مجلت » ، فاعذرني إن صارحتك في
نصير رؤياك ، لتكون على نية من أمرك ، وبصيرة من شأنك إذ سينزع الملك
اسمك من ديوان الأحياء ، ويكتبه في سجل الموتى ، وترفع على أعواد الصليب ،
وتأتي الطير تأكل من رأسك ، ذلك لأنه تبين دخولك في المؤامرة على الملك ،
أو أنك دسست السم في خبزه ، وإنه لميزر عليّ والله أن أحمل إليك الخبر الذي

(١) نبة الى جليلك من بلاد الشام (لبنان) .

يسوءك ، ولكن ماذا أصنع وأنت تحدوني إلى تأويله ، واخبارك به كيفا كان ؟
 هذا ما أعلمه مما علمني ربي ، وأما كونك يارئيس الخبازين خليفاً بهذا العقاب
 لأنك دخلت في المؤامرة على الملك ، أو غير خليك لأنك لم تتأمر عليه ، فذلك مما لا أعلمه .
 ثم وجه يوسف خطابه للفتيين وقال : قضي الأمر الذي فيه تستفتيان ، فهو
 أمر لامندوحة أن يقع ، ولا خيرة في الواقع ، وإن صوتي هذا هو صوت من
 أصوات أهل السماء ، فاني لأرمي القول جزافاً ، ولكني أتكلم عن الله عز وجل ،
 ولأن الرؤيا لأول عابر ، ولذلك فان شأنكما لا يتجاوز كلامي خطوة واحدة ،
 وإن مع اليوم غداً .

هذا وقد وقع صوت البشارة على طيلة اذن رئيس السقا وقوع الماء على قلب
 الظمآن وتمشت روح الفرح في أعضائه تمشي الشرف والمروءة في نفوس العرب .
 وأما رئيس الخبازين فقد وقع صوت النذارة على أذنيه وقوع الصاعقة على
 المشيم ، فاتفقت انتفاضة شديدة كادت تطار لها أجزاء نفسه ، ، ثم جدد المم
 في عروقه ، وكرب الحال أن يذهب بلقائف قلبه . (مرحى)

(يا صاحبي السجن ، أما أحديكما ، ، للنع)

— ٢ —

وقال ولي الدين المراكشي :

إنما لتفسير هذه الآية وعدا عما ذكره المحاضران الفاضلان نرد
 التكميلات التالية

اصفاء الفتيين الى وعظ يوسف

التكملة الأولى - كأنك بكل من رئيس السقا ورئيس الخبازين قد رأيا ان

درس الوعظ قد امتد أكثر مما كانا يتوقعان ، وقد كان قلباها متعشين بالأكثر
لسماع تأويل حلميها ، فكانا يقولان في نفسيهما :

لك الحمد لم نسمع عبارة حلمنا ونسمع مالا نشتهي فلك الحمد
وكان كل منهما يهم بأن يقطع على يوسف سلسلة حديثه ، لولا أن ملكا نفسيهما ،
فما شعر إلا وهو يقول : ﴿ يا صاحبي السجن أماً أحديك .. الخ ﴾ ذلك لأن
الناس منذ القديم الى اليوم ، لا يمتنون باللب عنايتهم بالقشور .

استبشار يوسف ببراءة رئيس السقاة

التكملة الثانية - كأنك يوسف عليه السلام وقد وجد له في معتقله أخاً
مظلوماً مثله ، تبرأت ساحته - كأنك به أنه تمنى أن يكون هو أيضاً قارب آلامه
النهاية ، والعامّة من الناس تقول : « إن مطرت بلاد بشر بلاداً » .

الحجر الاول في بناء حجر يوسف

التكملة الثالثة - كان تعبير يوسف لهذين الحلمين هو الحلقة الاولى من سلسلة
الحلقات التي تشكل سبب خروجه من السجن لدست وزارة المالية ، قم ما قيل :
« سمعناك بين شفتيك » .

وبعبارة أخرى : كان تعبيره لهذه الرؤيا هو (الحجر الأول) في أساس
خروجه من السجن وبناء مجده الخالد العظيم ، وأما (حجر الزاوية) فهو تعبيره
رؤيا الملك الآتية ، وأما (ثالثة الأتافي) فهي ظهور براءته بلسان النسوة من كل
مارئي به ، حتى خرج من معتقله عزيز الجنب ، ناصع الجبين .

مال الفتيين حين سمعهما تعبير رؤيهما

التكملة الرابعة - كأنك (برئيس السقاة) لما سمع بشارة يوسف له مثل من

الفرح وصار نشوان بجمرة هذه البشرية ، وكأنك (برئيس الخبازين) بفت ووجم^(١) وعض على سبابه ، وصار مُشْتَرَكاً^(٢) مشدوهاً^(٣) لا يحير جواباً ، ولا يعرف صواباً ، وسقط في يده ، وتدم ولات ساعة مندم .

النواة والشجرة والثمرة

التكملة الخامسة - كان هذا التعبير الابتدائي (نواة) لحيء (رئيس السقاة) ليوسف مندوباً من جانب ملك مصر الريان ، ليعبر رؤيا الملك ، كما أن تعبيره رؤيا الملك أخيراً كان (شجرة) من تلك النواة ، وبالتالي كان خروج يوسف من السجن الى البلاط الملوكي هو (الثمرة) لتلك الشجرة .

تسمية الملك رباً عند المصريين

التكملة السادسة - تسمية الملك (رباً) اصطلاح للمصريين كالكلدان والعبران ونحوم وقد بحث عن ذلك سابقاً بما فيه الكفاية .

لما را عبر يوسف رؤيا الخباز بصراحه

التكملة السابعة - لما وصل يوسف الى تعبیر رؤيا (رئيس الخبازين) تنازعه عاملان عامل السكوت عن تأويل رؤياه ، لثلا يفزعه ويكدره ، ويكون قد واجه بما يكره ، وعامل الصراحة ليكون ذلك الرجل على بينة من أمره ، وبصيرة من شأنه ، فيجري مايجب أن يجريه قبلما يصلب ، فربما كان عليه أوله دين ، وعسى أن يكون عنده أو له عند غيره أمانات ، ولعله يريد أن يوصي أهله بشيء ، أو يقيم على قاصر وصياً ، أو لعله اذا عرف أمره أن يتوب من جرائمه

(٢) هو الذي يحدث نفسه ظلمهم الموسوس

(١) سكت

(٣) من دهش وتخير

وأوزاره ، قل هذا ولما كان كاتم العلم ملعون ، أولأن الله يرسل الرؤيا لصاحبها ليعرف تأويلها ، ويعمل مايجب عليه عمله بحسبها ، أولأن يوسف ألهم أن هذا الرجل كان مجرمأ ولايد ، فحقق عليه ولم يتالك أن أخبره ، فلاجل ذلك لم يجد بداً من أن يبين له تأويل رؤياه ، وكان هذا هو أصل مايفعله حكام اليوم من تبليغهم المجرم ، الحكم الذي حكمت به عليه المحكمة ، ليكون على بينة من أمره .

ومامثل تبير هذه الرؤيا الاكثل الفتيا التي تصدر من المفتي يسأل عن حكم شرعي ، فيجيب مطلقاً ، أعني سواء أكان في جوابه حظ ومنفعة للساائل ، أوكان فيه متع من إرث مثلاً أو غرامة ، حتى لو اقتضى الحال أن يحبيه أنه يستحق القتل أجابه بلا مواربة .

تحقق وقوع تبير رؤيا الفتيين

التكلمة الثامنة - كل ما أخبر به يوسف وقع ، فبعد ثلاثة أيام أرجع (رئيس السقاة) الى عمله في قصر الريان ، ثم أخذ بتليب (رئيس الخبازين) ورفع على الصليب ، ونادى النادى : « هذا جزاء من يدخل في المؤامرة على الملك أوالتعدي على حياته » ، وجعل في اذنه رقعة مكتوب فيها (هذا جزاء من ثبتت عليه المؤامرة ضد الملك) ، وهذا الجاني هو (جلث) ، كان أنه حينما أخرج من سجنه لشنقه ينظر الى قصره ، ولسان حاله يقول :

يا مزلأ لم تبَقَ أطلاله حاشا لأطلالك أن تبَلِّى
لم أبك أطلالك لكنني بكيت عيشي فيك إذ ولّى

وعندنا انه بالنظر لكونه أطاع المؤثرين على الملك فتأمر معهم عليه بشر ، أو سم خبز ، كان حقيقاً بأن يتلو هذه الآية الكريمة : ﴿ ربنا إنا أظننا سادتنا

وَكُتِبَآءَا فَاُضْلِكُونَا السَّيْلَا ، رَبَّنَا آتِنَا ضِعْفَيْنِ مِنَ الْمَذَابِ ، وَالْعَنَتُهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٣٣ : ٦٧ و ٦٨﴾ .

خباز فرعون يوسف وخباز فرعون موسى

التكملة التاسعة - نقرأ في كتب التفسير أن (خباز) فرعون يوسف ، واسمه (مجث) قتل صلباً ، ثم نقرأ في تلك الكتب أيضاً ، عند قوله تعالى : ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا ، فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ ، هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ ، وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ ، فَاسْتَنَاهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ ، فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ ﴾ (٣٨ : ١٥) فنرى أن هذا المصري كان خبازا لفرعون موسى ، واسمه (فانون) وكزه موسى فمات فطمره تحت الرمل ، نسبحان الله ! خباز علق فوق الاعواد ، وخباز طمر تحت الرمل ، وعلى كل فالنتيجة واحدة ، وهي الامانة غير الطبيعية ، فما أسوأ حظ (الخباز) منذ القديم !!!

من عادة قدماء المصريين خلق شعور رؤوسهم ولحاهم

التكملة العاشرة - القول بأن الطير ستأكل من رأس هذا المصلوب ربما يدل على صحة ماقاله مؤرخو مصر : أن من عادة قدماء المصريين خلق شعور رؤوسهم ولحاهم فلا يبقون منها شيئاً ، وربما كان يوجد عندهم عادة منيعة فيمن يراد صلبه وهي تجديد خلق شعر رأسه ولحيته . والذي يحدونا لأحد هذين الاحتمالين هو أنه لو كان المصلوب موفر شعر الرأس واللحية كماهي العادة التي كانت مطردة في العبرانيين والعرب والفرس لما كان يتسنى للطير بسهولة أن تأكل من جلدة الرأس أو جلدة الموارض ، لكونها محجوبة بما يحوطها من الشعر .

الصاب عرفاً هو الامانة على الصليب

التسكلة الحادية عشرة - إذا قيل : « صلب فلان » فمناه عرفاً أنه أميت على الصليب ، فالصلب عرفاً لا يطلق إلا إذا كان معه إزهاق روح ، فاذا صح هذا فعمل مرمى قوله ههنا « فيصلب » فترهق روحه عليه ، ولذلك رتب عليه قوله « فتأكل الطير من رأسه » ، لأن الطير لانحوم حوالى رأس الحي على الصليب ، ولكن على الميت فقط ، والقرآن الكريم دائماً لا يستعمل « الصلب » إلا بهذا المعنى العرفي ، كما يقول في شأن عيسى عليه السلام ﴿ وَمَاتَ تِلْكَ الْوَلَدَ وَمَا صَلَبُوهُ ﴾ (٣ : ١٥٦) أي لم يقتلوه على الأرض بأيديهم ولا على الصليب بواسطة ما كدوام التعليق وطول مدته ، أو بنحو السامير والحراب والجوع والعطش والألم وما الى ذلك ، مما يقتضي الموت فوق الصليب .

معنى الصلب في القرآن

فاذا صح هذا فعمل المنفي عن المسيح إنما هو الصاب المقرون بالموت ، ومن هذا النوع قول الكتاب الكريم : ﴿ ثُمَّ لَأُصَلِّبُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ، قالوا : إننا الى ربنا لمُنْقَلِبُونَ » (١٢٤ و ١٢٣) ، فهم قد فهموا من تسليمهم موتهم لا محالة ، فلهذا قالوا : إنهم حينئذ يذهبون الى ربهم ، وكذا قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا .. ﴾ الخ (٣٦ : ٥) فعمل معناه : يقتلوا باليد على الأرض بدون تسليم ، أو يشدوا على الصليب حتى ترهق أرواحهم ، بسبب ما من أسباب الموت ، فمادة « صلب » في القرآن الكريم لم ترد إلا فيما فيه إرهاب الروح فعلاً .

استشفاع يوسف بالناجي من الفتنين

آية (٤٢) ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهَا: اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ، فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ، فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ.﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثانية والأربعون، فقام الحاج موسى النابلسي وقال:
(و) بعد ذلك (قال) يوسف بلسان الرجاء والاسترحام (لِ). رئيس السقاة.
(الذي ظن انه ناج منها) من الصلب والحبس والتهمة (اذكرني عند ربك) أي
صفني عند الملك الريان بصفتي، وقصّ عليه قصتي، لعله يرحمني ويتأشني من هذمه
الورطة، فان العلاقة بينك وبين الملك ستكون وثيقة والصلة متينة، (فأنساه
الشیطان) أي فأنسى الشيطان رئيس السقاة (ذكر ربه) أي أن يذكر يوسف.
لربه الذي هو الملك الريان (فلبث) يوسف (في السجن بضع سنين) أي ستينين.
وشيثاً من السنة الثالثة على التحقيق، والبضع من واحد الى أربعة.

(وقال للذي ظن انه ناج منها... الخ)

— ١ —

وقال الشيخ بدر الدين المحمدي:

استشفاع يوسف بالفتى الناجي

مل يوسف وستّم من طول مدة سجنه، وصار يشعر أن نفسه سجيّة في صدره، كما سجن جسمه في معتقله، فزفر زفرة من زفرات الضيق، فلذلك
ولكونه قد رأى أن «الانصاف» أخذ يدخل في السجن، ليخرج المظلومين —

صار له أمل قوي أن تشبهه العدالة، ويقوز بنعمة الخلاص، ثم لكون «رئيس السقاة» على وشك الخروج من السجن والتول بين يدي الملك، أدلى برأيه إليه قائلاً له :

(أيها الشرابي، إني مع احتفاظي بالانكال على الله، والاستعداد من مونة الحق، أقول لك : المروف صيد، هنيئاً لمن صاده، والمعروف قروض، ومع اليوم غد، وهذه فرصة لك فانتزها، تذكر ما كان بيني وبينك من اخوة الضيق، فاجعل ذاك شفيعي اليك، وذماحي لذيبتك، أنت قد جربت الظلم ومرارة طعمه، والقلوب التي عرفت الآلام هي التي تشفق على التائبين، والأفئدة التي احترقت بنار ظلم الحكم، هي التي ترثي للمظلومين، فأرغب اليك أن تجعلني منك ببال حيناً تقف بين يدي (الربان) وأن تذكرني بكلمة إسعاد عنده، وهما أنا ذا سألتك حاجتي ولم أُنصَ وجبي عن ذلك، فأنت لا تَصْنُ وجهك عن التب في تميم هذا الأمر، أنت صديقي، وليس الصديق الذي يقبل عليك والدنيا في إقبال وبدنو منك ما حاطت حولك الآمال، إنما الصديق هو الذي يذكرك في الضيق، أو ينفذك من ظلم الظالمين، ولا مثوبة يقدمها المرء بين يدي الله تعالى، يوم جزائه أفضل من إسعاد البائس، وتفريج كربة المكروب) ومن فرّج عن أخيه كربة من كرب الدنيا، فرّج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، والله في عون العبد مادام العبد في عون أخيه، والدال على الخير كفاعله، وإن خيراً من الخير فاعله) وتذكر اني أسمعتك صوتي، متخللاً في أعماق قلبك لسرك، ويحمل اليك البشري بخروجك من هذا السجن، فرتبك عند الملك، فأنت بالمقابل، أسمعني صوتك، حاملاً اليّ — على الأقل — بشري خروجي من السجن، وخلاك ذم).

هذا مرهمي كلام يوسف الروحي، وكأني (بالشرابي) قال له : (ليبك،

سماً وطاعة ، وحباً وكرامة ، فقد تفضلت بما لا طاقة لي على شكره ، فلا أبرح
أذكر إحسانك الى آخر نسمة من حياتي ، فثق إني لسوف أقوم بواجبك ، الذي
هو حتم عليّ ، وأحسبني سعيداً إذا خدمتك .) قال ذلك ثم خرج يمشي في أذيله
لسرعته وفرحه بقاء أهله وذويه ، وهو بحال السلامة كأنما جاء وليداً ، وأعطى
عمرأً جديداً .

نسيان الفنى الناجي ذكر يوسف للملك واسبابه

هذا ولم يكن إلا مسافة الطريق حتى أنسى الشيطان الساقى أن يذكر يوسف
للملك ، بدليل قوله : (وقال الذي نجا منها وادكر) ، فإن الذاكرة إنما يكون
بعد النسيان ، هذا هو الصواب ، ولا يجوز لأحد أن يقول غيره ، إلا أن يكون
قد اعتزل العقل والذوق ، بحيث هو لا يعرفها ، وهما لا يعرفانه .

وإنما نسي الشرابي ذكر يوسف للملك ، لوسوسة الشيطان اليه بما شغله عن
ذكره له ، حتى ذهب عنه وزل عن قلبه ذكره ، فقربه من الملك أنساء بوعده
السابق ، وقصر الملك أنساء السجن ، وأيام السعادة أنسته أيام الشقاء ، وأصحابه
في البلاط أنسوه صاحبه في حبسه ، وحالة السعة والعز جعلته ينسى حالة الضيق
والذل ، وبعبارة أخرى فرحه بالولائم التي كانت تقام له بعد خروجه ، وبأهله
وذويه ، وحصوله على منزلته الأولى عند الملك ، أصبح شغله الشاغل ، هذه هي
الوسائط التي استعملها الشيطان ، حتى غفل (الشرابي) عن يوسف ، ولكون هذه
الأشياء وما إليها هي آلات للشيطان نسب الإنساء اليه ، ولو أن يوسف عليه السلام
استقبل من أمره ما استدير ، لما كان قدم للشرابي رجاءه ، ولكن لا يعلم الغيب إلا
الله عز وجل .

وهذا النوع من التسيان معهود ، وليس يدع ولا مستبعد ، بل هو كثير في تاريخ الأصدقاء ، فكأي من بصحيك حال شدته وضيقة ، ينساك يوم الرخاء والفرج ، بل كثيراً مايتسى الناس خالقهم في أيام الرغد والرخاء ، فلا عجب من أن ينسى (الساقى المصري) (يوسف البراني) العبد السجين :

و كثيراً من أن الأولاد لا يذكرون آتاء والديهم عليهم في صغرهم والأصدقاء ينسون أصدقاءهم متى آسدت لهمدتهم عمالة ما ، كما أن كثيراً من الأصحاب الفقراء إذا اغتتوا وأيسروا نسوا من كان يألفهم في التزل الحشن ، وزى كثيراً من أهل الأمراض متى صحوا وشقوا ينسون طبيهم ، كما ترى متعلمين متى تعلموا وأخذوا الشهادات نسوا أساتذتهم ، الى آخر ما هنالك من الضروب والأشكال ، وقد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ﴾ (٩٦ : ٦) وقال تعالى : ﴿ قَتَلَ الْإِنْسَانُ مَا كَفَّرَهُ ۚ ﴾ (٨٠ : ١٧) ثم إن أنس لا أنسى ان من الأسباب الأساسية لنسيان (الشرايى) ذكر (يوسف) الملك ، معاطاته شرب الخمر ، قان شربه ، كما يعمل تأثيراً سيئاً في الأخلاق والصحة والاجرام ، وفي المال وفي قوة الانتاج فكذلك يسبب ضعف الذاكرة عند الإنسان ، وكم ظهرت للعقلاء هذه المضار ، وكم هالهم أن تكون المسكرات سبباً لاضايات بالجنون .

وهذا وان الفاء في قوله : (فأنساه) ليست تقريعية بمعنى ان الإساءة كانت نتيجة عن كون يوسف امتعان بغير الله في كشف ما كان فيه ، بل هي عاطفية خلافاً للمفسرين ، إذ المعنى على ما نفهم أنه حصل أن يوسف قال كذا وكذا ، ثم فوراً حصل أن الشرايى نسي ما تكلم به معه ، وهذا هو المعنى اللائق بمقام يوسف عليه السلام ، والمناسب للواقع ، لا أقل ولا أكثر ، فكن لما ذكرناه من الحافظين وإياك من أن تعرج هنا على كلام المفسرين .

مرة بقاء يوسف في السجن

وعلى هذا النسيان لبث يوسف في سجنه بين أربعة جدران ، صابراً محتسباً ، سنتين وشيء من الثالثة كما ذكره المؤرخون ، إذ يستعمل البعض فيما دون العشرة كما حكاه ابن جرير ، ووجهه إن البضع هو البعض ، لأن الحروف واحدة ، والبضع الطائفة من الليل ، كما في القاموس ، يعني قلت أو كثرت .
وهنا فوائد لها علاقتها بتفسير الآية الكريمة :

التوسل وأنواعه والبهائم منها شرعاً

الفائدة الأولى — كان هذا الطلب من يوسف « لرئيس السقاة » من باب الأخذ في الأسباب المأمور به شرعاً وعقلاً وعادة وطبعاً ، إذ لولا الوساطة لذهب المتوسط ، والتوسط (وإن شئت قل التوسل) على أربعة أوجه :

(١) توسل الإنسان الى الله تعالى بإيمانه به وطاعته له والعمل بما يرضيه تعالى ، وهذا صحيح جائز باتفاق العلماء .

(٢) توسل الإنسان الى الله بدعاء إنسان آخر وشفاعته ، بأن يطلب منه الدعاء الى الله تعالى ، وهذا أيضاً صحيح جائز باتفاق الجميع ، وقد قال النبي ﷺ لعمر رضي الله عنه حينما ذهب ليعتمر : « أشركنا يا أخي في دعائك » وفي رواية « لا تنسنا يا أخي من دعواتك » .

(٣) التوسل بمعنى الإقسام على الله بذات نبي أو ولي أو ملك ، فهذا هو الذي لم تكن الصحابة تفعله ، ولا يعرف في شيء من الأدعية المشهورة بينهم المأثورة عنهم ، وهذا النوع هو الذي قال « أبو حنيفة » وأصحابه « انه لا يجوز » ونهوا عنه قائلين :

« لا يسأل تعالى بمخلوق » وهذه الأنواع الثلاثة في فيما إذا كان المتوسل (بافتح) إليه هو الله تعالى .

(٤) أما إذا كان المتوسل إليه إنساناً ، فلا مانع من أن يتوسل إليه بإنسان آخر ، كما هو ظاهر ، ظهور الشمس في رابعة النهار ، ولا يخفى أن السذي صدر من يوسف هو من هذا القبيل ، فانه استشعر عند ملك مصر برئيس السقا ، وهو عمل مقول ومعقول جداً لأن الحامل عليه الكفكة من ظلم « عزيز مصر » وتخطيه حدود العدل في سجنه يوسف ، فعزى مصر جار وظلم في حكمه على يوسف ، ويوسف يريد أن يرفع عنه هذا الجور بشفاعة هذا « الساقى » ولأمان من ذلك ولا حرج فيه أصلاً ، وما علمنا الرعية في الانطلاق من السجن محظورة على أحد ، وليس في توسطه « بالشرابي » دليل على أنه أغفل الدعاء الى الله تعالى ولكنه سعى في كف الظلم عنه بالوسائط المشروعة في كل دين .

الرد على من انتقد نوبل يوسف برئيس السقا لمرى ملك مصر - التوكل

هذا وإن من الأسف انه وجد من الناس من انتقد عمل يوسف هذا بما في دماغه ، عكساً للارم ، لأنه يلزم أن نزن ما في أدمتنا من عقائد بالقرآن وبما ورد عن أنبياء الله تعالى ، لا أن نزن القرآن وأعمال الأنبياء بما في أدمتنا بما تلقيناه عن المتأخرين ، فتجعل الموزون ميزانا ، والميزان موزونا ، قلباً وحقيقة ، فنحن همتا بدلاً من أن نتقن ونستشكل عمل يوسف يجب أن نستنتج منه عقائدنا ، فنقول : بما صدر من يوسف نحتاج على من يقولون أو يفضلون ترك الأسباب ، اتكلاً على القضاء والقدر ، وهو جهالة صرفة ، لأن هذا ليس من قبيل التوكل ، بل من قبيل العجز والكسل ، إذ التوكل هو الثقة بالله تعالى والاعتماد عليه واعتقاد أن الأمر منه وإليه ، مع الأخذ بالأسباب ، وهكذا ينبغي لكل عاقل متشعر أن

يدخل لكل أمر من بابه ، ويطلب كل رغبة من أسبابها ، ولا يقدر في التوكل
 تماطى الأسباب ، اتباعاً لسنة الكون وسنة الرسول ﷺ فقد ظاهر الرسول
 عليه الصلاة والسلام في الحرب بين درعين ولبس على رأسه المغفر وأقعد الرماة على
 فم الشعب ، وخذق حول المدينة ، وأذن في الهجرة الى الحبشة ، ثم الى المدينة ،
 وهاجر هو بنفسه ، وتماطى أسباب الأكل والشرب ، وادخر لأهله قوتهم ، ولم
 يتنظر أن ينزل عليه القوت من السماء ، وقد ورد : « أأعقل نأقي أم أتركها
 وأتوكل ؟ - قال : اعقلها وتوكل » وقال ﷺ : « إن الله جمل رزقي تحت ظل
 رحمي » مع انه سيد المتوكلين . وقد روي انه ﷺ لم يأخذ النوم ليلة من الليالي ،
 وكان يطلب من يحرسه ، حتى جاء سعد بن أبي وقاص ، فنام .

وقال في القرآن على لسان المسيح عليه السلام : « مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ؟ »
 (٥٢ : ٣) هذا وانه لاختلاف في جواز الاستعانة بالكفار في دفع الظلم والفرق
 والحرق وما الى ذلك .

وانا لرى رجاء يوسف من رئيس السقاة نفعت في الجملة لأنه وان لم ينفعه في
 الحال فقد نفعه في الآل ، إذ حين رأى الملك حلميه وأعوزه من يعبرها له تذكر
 رئيس السقاة يوسف . وتذكر اقتداره في عبارة الرؤيا ، وتذكر أنه كان قد رغب
 اليه أن يذكره عند الملك فذكره حينذاك ، وعلى كل فيوسف لم يعمل بدعاً .
 وليس ما أتاه غلطاً ، فعلى الانسان الاجتهاد ، وعلى الله قضاء المراد :

على المرء أن يسعى لما فيه نفعه وليس عليه أن يساعده الدهر

تحقيق رجاء يوسف من الشرابي

الفائدة الثانية : كانت فكرة يوسف الاولى وجوب استعمال الأسباب العادية ،
 تذرعاً لخروجه من السجن ، ولكن كان عدم وجود واسطة ترفع شكواه للملك

يمتري مجرى هذه الفكرة ، فذلك كان ساكتاً ساكناً ، ولكن «مُكْرَر»
أخاك لا يَطْلُ» فالآن حيث وجد «الشرابي» يريد أن يخرج من السجن الى
البلاط ، فضل نشاطه على جموده ، وسعى على كسله ، متمن الفرصة لاقتداب
هذا الرجل لهذه المهمة ، لاسيما وأنه كان قد أتاه تعليم دينياً ، وبشره بحرمي رؤياه ،
وانغمدت بينها أخوة السجن وآلامه ، فكلبه أن يصفه عند الملك بسفته ، ويقص
عليه قصته ، لعله يرحمه ويتأمله من هذه الورطة .

تأمل يوسف أت تنفج أزمته بواسطة هذا «الساقى» ومع أن هذا الرجل
نسي يوسف وأمله فيه ، فقد حقق الله رجاء يوسف ، وحمل ظنه في محله ، ولكن
بأعجوبة أعني بسبب الرؤيا التي رآها الملك ، بعد حين من الدهر ، ولم يجد من
يعبرهاله ، وعليه فيصدق على يوسف أنه ساقى رآيه فيما فعل ، وماض ظنه فيما
رجا ، فان هذا «الشرابي» الذي نجوا وادكر بعدأمة» - أخبر الملك بشأن
يوسف ، فأرسله الملك إليه ، وبالنتيجة كان هذا من أكبر أسباب خروج يوسف
من معتقله .

الاستعانة بالاسباب في قضاء الحاجة

الفائدة الثالثة — احتياج الانسان للاسطة والرجاء في قضاء حاجته أو رفع
الظلم عنه عادة قديمة ، وفي الغالب لا تكون إلا إذا كان الحكومات ظالمة مستبدة ،
لا يعمل فيها بموجب الشرائع والأقلمة ، ولكن بالرأي الفردي وبحسب الشهوة ،
وهذه الحال السيئة كما كانت في تلك الحكومات المصرية المكسوسية ، فهي سائدة
في جميع الأمم ، ينسب تفاوت تبناً للتربية والأخلاق .

وأذكر أنه مرة سألني سائل فقال: ﴿إن الصريعة كما حصرت الباطل﴾ في
الله تعالى فقد حصرت «الاستعانة» فيه أيضاً ، إذ ورد: ﴿إِنَّكَ لَن تَعْبُدُ إِلَّا نَاكَ

نَسْتَعِينُ ﴿١ : ٤﴾ فَمَا أَمَرْنَا تَعَالَى أَنْ لَا نَعْبُدَ غَيْرَهُ ، لِأَنَّ السُّلْطَانَةَ الْعِلْمِيَّةَ الَّتِي هِيَ وَرَاءَ الْأَسْبَابِ لَيْسَتْ إِلَّا لَهُ دُونَ غَيْرِهِ ، فَكَذَلِكَ أَمَرْنَا أَنْ لَا نَسْتَعِينُ بِغَيْرِهِ أَيْضاً . فَاجِبُهُ :

إِنَّ كُلَّ عَمَلٍ يَعْمَلُهُ الْإِنْسَانُ تَتَوَقَّفُ ثَمَرَتُهُ وَنَجَاحُهُ عَلَى حَصُولِ الْأَسْبَابِ ، الَّتِي اقْتَضَتْ الْحِكْمَةُ الْإِلَهِيَّةُ أَنْ تَكُونَ مُؤَدَاةً إِلَيْهِ ، وَعَلَى انْتِفَاءِ الْمَوَانِعِ الَّتِي مِنْ شَأْنِهَا بِمَقْتَضَى الْحِكْمَةِ أَنْ تَحُولَ دُونَهُ ، وَقَدْ مَكَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى الْإِنْسَانَ بِمَا أَعْطَاهُ مِنَ الْعِلْمِ وَالْقُوَّةِ مِنْ دَفْعِ بَعْضِ الْمَوَانِعِ وَكَسْبِ بَعْضِ الْأَسْبَابِ ، وَحُجِبَ عَنْهُ الْبَعْضُ الْآخَرُ ، فَيَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَقُومَ بِمَا فِي اسْتَطَاعَتِنَا مِنْ ذَلِكَ ، وَنَبْذِلَ فِي اتِّقَانِ أَعْمَالِنَا كُلِّ مَا نَسْتَطِيعُ مِنْ حَوْلِ وَقْوَةٍ ، وَأَنْ تَعَاوَنَ ، وَيُسَاعِدَ بَعْضُنَا بَعْضًا عَلَى ذَلِكَ ، ثُمَّ نَقُوضَ الْأَمْرَ فِيهَا وَرَاءَ كَسْبِنَا إِلَى الْقَادِرِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، وَنَلْجَأَ إِلَيْهِ وَحْدَهُ ، وَنَطْلُبَ الْمَعُونَةَ الْمُتَحَمَّةَ لِلْعَمَلِ وَالْمَوْصِلَةَ لثَمَرَتِهِ مِنْهُ سُبْحَانَهُ دُونَ سِوَاهُ ، إِذْ لَا يَقْدِرُ عَلَى مَا وَرَاءَ الْأَسْبَابِ الْمَنْوُوحَةِ لِكُلِّ الْبَشَرِ عَلَى السَّوَاءِ ، إِلَّا مَسَبِّبُ الْأَسْبَابِ وَرَبُّ الْأَرْيَابِ ، فَقَوْلُ يُوسُفَ هَهُنَا (اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ) هُوَ مِنْ قِبَلِ الْإِسْتِعَانَةِ بِالْأَسْبَابِ الَّتِي نَصَبَهَا اللَّهُ تَعَالَى ، وَجَعَلَهَا بِتَوْفِيقِهِ ذَرِيَّةَ الْمَقْصُودِ ، وَهَذَا الضَّرْبُ لِمَانَعٍ مِنْهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ﴾ (٥ : ٢) ، وَلَنَضْرِبَ لَذَلِكَ مَثَلًا : الزَّارِعُ يَبْذُلُ جَهْدَهُ فِي الْحَرْثِ وَالْعَذْقِ وَتَسْمِيدِ الْأَرْضِ وَرِيَّتِهَا ، يَفْعَلُ ذَلِكَ بِنَفْسِهِ وَيَسْتَعِينُ عَلَيْهِ بِغَيْرِهِ ، ثُمَّ يَسْتَعِينُ بِاللَّهِ تَعَالَى عَلَى إِتِمَامِ ذَلِكَ بِمَنْعِ الْآفَاتِ وَالْجَوَانِحِ السَّاهِيَةِ أَوْ الْأَرْضِيَّةِ ، وَإِشْرَاقِ الشَّمْسِ وَإِزْالِ الْمَطَرِ الْكَافِي ، عَلَى سَبِيلِ التَّعَاقُبِ بَيْنَ الشَّمْسِ وَالْمَطَرِ بِمَقْدَارِ الزَّمَنِ ، فَلَا مَسْتَعَانَةَ بِالْعَبْدِ عَلَى الْقِسْمِ الْأَوَّلِ جَائِزَةً طَبْعًا ، وَشَرْعًا ، وَأَمَّا الْإِسْتِعَانَةُ عَلَى الْقِسْمِ الثَّانِي فَإِنَّمَا هِيَ بِاللَّهِ وَحْدَهُ .

هل نام الشرايى بما طلبه منه يوسف فورخروجه منه السجن

الفائدة الرابعة — كان رئيس السقاة رجلاً شريفاً مصرياً من أشراف مصر

(الاصطلاحيين) أي الذين اصطلاح الناس على تلقينهم بهذا اللقب ، فنظراً لذلك ونظراً لكون يوسف كان قد أوّل له رؤياه بما يعود عليه بالقبطة والسرور ونظراً لكونها قد اقمعدت بينها أخوة السجن والاعتقال ظلاماً ، وأقرب ما تكون النفوس الى النفوس اذا جمعتها في صعيد واحد هموم الحياة وآلامها ، نعم انه قد وحد ما بينهما ما صب فوق رؤوسهما من الظلم ومازج بين نفسيهما ما كان من الوحدة والعزلة عن العالم ، الى الذكرى المؤلمة ، الى البؤس المشترك ، فيها أخوان في المساءة والأحزان ، تجمعها صلة الجرح التي ذكرها الشاعر في قوله :

قد قضى الله أن يؤلّفنا الجرح ح وأن تلقني على أشجانته
كلّا أن " بالعراق ، جريح لمس " الشرق ، جنبه في عيانه ،

فظراً لذلك كله حسب يوسف أن مجموعة هذه الأمور تصلح لأن تشكل سبباً يدفع صديقه (رئيس السقاة) لأن يهتم بأمره ، ويرفع مظالمه للملك ، ويأخذ على عاتقه إطراؤه والثناء عليه ، متخيلاً ان العطاء في دار الحكومة ، عطاء في المعروف ، عطاء في مقابلة الاحسان بالاحسان ، عطاء في تقدير الرجاء ، يقدرون القصد ويحسبون ان المعروف صيد ، لا ينسون أصدقاءهم ، ولا يخلفون إذا وعدوا ، ولا يبتلون بجاههم — كان قد خيل اليه ذلك كله ، فاذا هو قد خاب قاله ، واستسمن ذا ورم ، ودفخ في غير ضرم ، ولم ينتفع منه على الفور ، ولكن بعدما دقّ العظم ، ورقّ الشحم ، وبلغ السيل الزبي ، ثم حدث ما أوجب أن يتذكره قسراً ، ويطر به بسببه عند الملك قهراً ، والمفسرين هنا كلام ، لو شئت أن أقول عنه لقلت إنه أقل من أن ينظر اليه الناظرون ، ويعلق عليه المعلقون .

اسباب عدم اخبار يوسف اياه يسجنه

الفائدة الخامسة — ان قال قائل : « لماذا لم يكتب يوسف لأبيه يعقوب عليها

السلام بطاقة يخبره فيها بهذا الحادث عساه أن يأتي ويسعى في مساعدته واخراجه من سجنه ، وقد جرت العادة ان الانسان عند الشدة يفرح لأقاربه ويستنصر بهم ، وان رجاء يوسف لوالده أفضل من رجاء الأجنبي ؟ « قلنا ، يظهر لنا في جوابه وجوه :

(١) أن خصيمه هو الحاكم ، فشكوى حاله لأبيه لاتجديه شيئاً ، وقد قيل « إذا كان غريمك القاضي . فلن تشنكي ؟.. » وقال الشاعر :

لو بغير الماء حلقي شرقاً كنت كالغصان بالماء اعتصاري

(٢) ربما كان يخشى من سوء سمعته في فلسطين . لعدم وقوفهم على براءة ساحته مما اتهم به وحبس لأجله .

(٣) ربما كان لا يزال يخاف من اخوته وكيدهم إياه فيأتون لمصر ويتدخلون . لأجل كيدهم مع الحكومة . فيزيدون الطين بلة .

(٤) ان يوسف كان رأى ان أحد عشر كوكباً والشمس والقمر سيسجدون له . وهذه الرؤيا تفيد انه لا بد أن يأتي يوم تسجد له فيه إخوته الأحسد عشر وكذا تسجد له الشمس وهي أبوه . والقمر وهو مربيته بلهة . إن قلنا إن (الواو) في قوله تعالى : (والشمس والقمر) عاطفة . فان قلنا إن هذه (الواو) واو المعية أفادتنا أن سجدوا الاخوة الأحد عشر ليوسف لا بد أن يكون اجتماع يوسف بالشمس والقمر أمراً مؤكداً عنده ، منتظراً له . كما كان أيضاً منتظراً لأبيه يعقوب . وعلى ذلك فكان يعقوب يترقب اجتماعه بولده يوسف وينتظر ذلك اليوم المهود . وكان يوسف يترقب اجتماعه بوالده يعقوب ، وينتظر ذلك اليوم الموعود أيضاً ، وكان الاثنان على مثل اليقين ، بل على حق اليقين من اجتماعها فيما بعد ، مهما طال الوقت ، فلذلك لم يسع يوسف في تعريف والده بوجوده ولم يجتهد على

إحاطة والله بأنه في مصر ، لتحققه ان الاجتماع سيقع أو سوف يقع بكفالة سماوية ، ووعد رباني لن يتخلف ، هذا أقصى ما أمكننا من الاعتذار عن سيدنا يوسف عليه السلام .

فصول مأساة يوسف (ع)

الفائدة السادسة — كانت مأساة يوسف عليه السلام ذات فصول سبعة :

(١) القافز في الجب (٢) نقل السيارة له من موطنه لوطن آخر (٣) بيعه لقوطيقار كركبق ، (٤) اتهامه زوراً بالفحشاء (٥) محنته بالنسوة المصريات (٦) سجنه ظلاماً (٧) وأخيراً نسيان صديقه له وقد تشفع به أن يذكره الملك فكانت هذه الحادثة الأخيرة المؤلة ظلمة هذه الفصول وثمة تلك الذكريات المحزنة .

على من يريد انتقاد امرئ يتمرد حتى نستوفي البينة نصابها

الفائدة السابعة — (وقال للذي ظن . . الخ) وهنا يحشر المفسرون أحداث تخوي انتقاد يوسف في هذا وفيما ذكر في آية ٤٧ و ٥٠ و ٥٥ ، وياليتهم تروا وتعلموا وتأملوا ، ولم يكونوا سراعاً في إيراد الطعن من قبي في قبي ، كأننا نحن المسلمين لم نكتف بإيقاد نار الفتنة بين رجل ورجل من غمار الناس وغوغائهم ، حتى وسعنا في هذا الباب وفتحناه على مصراعيه ، وجعلنا ننقل مافيه إيقاد نار الفتنة بين الأنبياء الكرام ، عليهم الصلاة والسلام ، وياليت المفسر حيناً يريد أن ينقل انتقاد نبي على نبي ، واعتراض رسول على رسول ، يصبر حتى تستوفي البينة نصابها ، فقد ورد أن عمر بن الخطاب استشار الناس في دية الجنين ، فقال المغيرة بن شعبه : (شهدت رسول الله ﷺ قضى فيه بغيره عبد أو أمة) — فقال عمر : (إثني بمن يشهد معك) فشهد معه محمد بن مسلمة رواه ابن ماجه في سننه ، وفيها أيضاً أن أبابكر الصديق رضي الله عنه طلب من راوي الحديث شاهداً آخر ، في حادثة

ميراث الجدة ، فقد روى ابن ماجه : جاءت الجدة الى أبي بكر الصديق تسأله ميراثها ، فقال لها أبو بكر : (مالك في كتاب الله شيء ، وما علمت لك في سنة رسول الله شيئاً ، فارجمي حتى أسأل الناس) فسأل الناس ، فقال المغيرة بن شعبة : (حضرت رسول الله أعطاهما السدس - فقال أبو بكر : هل معك غيرك ؟ - فقام محمد بن مسلمة الانصاري ، فقال مثل ما قال المغيرة بن شعبة ، فأفنده لها أبو بكر)

تعليل تعبيره بكلمة (ظن) في الآية

الفائدة الثامنة — إنما قيل (ظن) في قوله (وقال للذي ظن أنه ناج) ، ولم يقل (عليم أو جزم) لأن عبارته لرؤيا الشرايبي ، ليست مبنية على حس أو تواتر أو وحي ، ولكن على ملكة ومقدرة ، وتوضيح المقام يحتاج لشيء من بسط الكلام : للعقل أحكام قاطمة ، وهي ما تستند الى يقينيات كالمشاهدات والمتواترات والأمور الموحى بها من الله ، وللعقل أحكام غير قاطمة ، وهي ما تستند الى ظن ، وقد رفع الله الظنون بعضها فوق بعض درجات ، فمن الظن ما يقوى ، فيوشك أن يكون علماً ، ومن الظن ما يضعف ، فيوشك أن يكون شكاً ، وقوة الظن وضعفه يرجعان الى تفاوت الامارات والدلائل التي توجهه وترية في النفس ، فلهذا ولما كان اعتقاد يوسف بنجاة « رئيس السقاة » ليس مستند على حس أو تواتر أو وحي ، بل على مجرد ملكة في عبارة المراتي ، ومقدرة وهبها الله له ، ناسب أن يعبر في جانبه « بالظن » هذا هو الصواب في تعليل تعبيره بكلمة « ظن » خلافاً للمفسرين ، فدع كل صوت غير صوتي فإني أنا الصائح المحكي والآخر الصدي

اطمرق لفظ الرب مضافاً للماقل على غير الله تعالى

الفائدة التاسعة — نتعلم من قوله « عند ربك » ان إطلاق لفظ « الرب » مضافاً للماقل على غيره تعالى كان جائزاً عند يوسف وفي عصره ، نظير السجود ، أي

سجود الانسان للانسان على جهة الاحترام والترسم ، فان كان جائزاً في ذلك العصر وما قبله لمهد آدم عليه السلام ، كذا قالوا ، وهو حسن ، ولكننا نريد عليه ما هو أحسن اقتضاء الله تعالى وهو أن هذا النوع من التعبير مبني على اصطلاح عند المصريين والعبرانيين ، وهو اعتبارهم الملك سيداً ، وكل رجل من رعاياه عبداً له ، وهم كالعرب يبرون عن السيد بالعرب ، مضافاً للفظ العبد أو لصيغته . فيقولون : رب المبدور به ، وهذا أي اضافة لفظ الرب للعبد جائز لغة ، كما نص عليه (الاساس) .

علاقة الشر بالله تعالى

القائدة العاشرة : — تعلم من قوله : ﴿فأنساه الشيطان﴾ أن نسب ما كات من نوع الشرور ، الى غير الله تعالى ، كإسنا والشيطان ، ولا تنسب لله عز وجل إلا ما كان من نوع الخير ، قال موسى عليه السلام ، لما قتل القبطي : ﴿ هذا من عمل الشيطان ﴾ (١٥ : ٢٨) ، وقال ابن مسعود لما سئل عن الفريضة :

﴿ أقول فيها برأيي ، فإن يكن صواباً ، فمن الله ، وإن يكن خطأ ، فمني ومن الشيطان ، والله ورسوله بريان منه ﴾ ، وكذلك قال أبو بكر في الكلافة ، وقال عمر نحو ذلك ، ومرادهم ان الصواب ، قد أمر الله به وشرعه وأوجبه ورضيه ، والخطأ لم يأمر به ولم يحبه ولم يشرعه ، بل هو مما زينه الشيطان لنفسه ، فغلبه بأمر الشيطان ، فهو مني ومن الشيطان ، وتوضيح ذلك : أت الله تعالى وإن كان خالفاً لكل شيء ، ولكن لا يضاف اليه الشر مفرداً ، بل إما أن يدخل في العموم ، وإما أن يضاف الى السبب ، كالشيطان والتففس الخبيثة مثلاً ، وإما أن يحذف فاعله فالأول كقوله تعالى : ﴿ الله خالق كل شيء ﴾ (١٣ : ٩٨) والثاني كقوله : ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ ، من شر ما خلق ﴾ (١١٣ : ٢٩١) أي من شيطان ونفس

خبينة ونحوها ، كما قال تعالى : ﴿وَلَمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ ، فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِ كَثْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٦٨:٦) ، وقال فتي موسى :

﴿وما أنسا نيه إلا الشيطان أن أذكره﴾ (٦٤:١٨) ، ولما نام النبي وأصحابه في الوادي عن الصلاة ، قال : (هذا وادي حضرنا فيه الشيطان) ، وقال : (إن الشيطان أتني بلالاً ، فجعل يهديه ، كما يهتدي الصبي ، حتى نام) ، والثالث كقول الجن : ﴿وأنا لا ندري أشر أريد من في الأرض ، أم أراد بهم ربهم رشداً؟﴾ (١٠:٧٢) وقد قال تعالى : ﴿اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ (١:٥-٧) فذكر أنه فاعل النعمة ، وحذف فاعل الغضب ، وأضاف الضلال إليهم ، وقال الخليل عليه السلام : ﴿وإذا مرضت فهو يشفين﴾ (٨٠:٢٦) وأما يذكر الشر في المفعولات كقوله تعالى : ﴿اعلموا أن الله شديد العقاب ، وأن الله غفور رحيم﴾ (١٠١:٥) وقوله : ﴿إن ربك لسريع العقاب ، وإنه لغفور رحيم﴾ (١٦٦:٧) ، وقوله : ﴿نبيء عبادي أنا الغفور الرحيم ، وأن عذابي هو العذاب الأليم﴾ (٤٩:١٥) ، وقوله : ﴿حسم ، تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ، غافر الذنب ، وقابل التوب ، شديد العقاب﴾ (٣:٤٠) (منهاج السنة).

معنى قوله «ذكر ربه» تذكير ربه

الفائدة الحادية عشرة — معنى قوله : ﴿ذكر ربه﴾ تذكير ربه ، فهو من إضافة المصدر لمفعوله ، فإن الذكر مصدر ، نارة يضاف إلى الفاعل ، وتارة إلى المفعول ، كما يقال : دق الثوب ، ودق القصار ، ويقال : أكل زيد وأكل الطلم ، ويقال : ذكر الله : أي ذكر العبد الله ، ويقال ذكر الله : أي ذكر الله من ذكره ، وكل هذا في إضافة الذكر إضافة المصادر ، وقد

يضاف الذكر إضافة الأسماء المحضة ، كقولك ثوب زيد : أي الثوب المختص بزيد وذكر الله : أي الذكر المختص بالله ، ويحتمل المنين قوله تعالى ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي ، فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ ونحشره يوم القيمة - أعمى ، قال ربِّ ، لَمْ حَسَرْتُكَ أَعْمَى ، وقد كنت بصيراً ؟ — قال كذلك أتتك آياتنا فتكسبها ، وكذلك اليوم تُنسى ﴿٢٠ : ٢٤-١٣٦﴾ ، نقوله ﴿ذكرني﴾ * إن أضيف إضافة المصدر ، كان المعنى : الذكر الذي ذكرته ، وهو كلامه الذي أنزله ، فهو من إضافة المصدر الى مفعوله ، وإن أضيف إضافة الأسماء المحضة ، فذكره هو ما اختص به من الذكر ، والقرآن هو ما اختص به من الذكر ، قال تعالى ﴿وهذا ذِكْرُ مُبَارَكٍ أَنْزَلْنَاهُ﴾ ﴿٢١ : ٥٠﴾ وقال أيضاً ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ ﴿٣٦ : ٣٩﴾ (منهاج السنة) .

سبب مكث يوسف في السجن يضع سنين

الفائدة الثانية عشرة — قوله ﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ * هو مرتب على قوله : ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ * ولا علاقة له بقوله : ﴿قَالَ أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ * ، حتى يظن أنه مجازاة ليوسف ، كما توهمه بعض من ليس عنده دقة وإدراك للأمور ، وليس عنده كبير احترام للأنبيا الله الكرام .

التخفيف في معنى «البضع» وفي مدة مكث يوسف في السجن

الفائدة الثالثة عشرة — «البضع» هو من واحد الى عشرة ، نقله الطبرسي في (جمع البيان) عن ابن عباس ، ونقله الشريفي في شرحه على مقامات الحريري عن الأخفش والقراء ، ونقل صاحب القاموس أن من معاني البضع ما بين الواحد الى الأربعة ، أو أن البضع ما بين الفقد من واحد الى عشرة ، ومن أحد عشر الى عشرين وهكذا ، قال تعالى : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ بَدَّلَ عَلَيْهِمْ سُبُحَاتِهِمْ فِي بَضْعٍ

سنين (٣٠ : ٣) وذلك أن المسلمين كانوا يحبون أن تظهر « الروم » على « فارس » .
لأنهم أهل كتاب ، والمثركون يميلون الى « فارس » لأنهم أهل أوثان ، فلما بشر
الله المسلمين بأن « الروم » سيفلبون ، سُر المسلمون بذلك ، ثم أن أبا بكر رضي
الله عنه أخبر مشركي قريش بما نزل عليهم ، فقال له « أمية بن خلف » : « خاطرنى
على ذلك » فخاطره على خمس قلائص في مدة ثلاث سنين ، ثم أتى النبي ﷺ
فأخبره بخطاره مع « أمية بن خلف » فقال له النبي : « ماحملك على تقريب
المدة ؟ » - قال الثقة بالله ورسوله ، - فقال له : عُدَّ اليه فزوده في الخطر ،
وازدد في الأجل - فزادهم قلو صين ، وزادوه ستين ، فظفرت (الروم
بفارس) قبل انقضاء الأجل الثاني ، ولكن كان (أُبَيُّ بن خلف) ،
قد مات ، فأخذ أبو بكر الخطر من ذرية (أُبَيُّ) وتصدق به ، وهذه الحكاية
تدفع القول بأن (البضع) ما بين الثلاثة والعشرة ، وهل كان (أبو بكر) لا يعرف
معنى البضع في اللغة العربية ، وهو من صميم العرب ؟ إذ لو كان البضع كما قالوا لم
يخاطر في مدة ثلاث سنين بل في مدة بعد الثلاث سنين ، ولكان النبي ﷺ
ينتقد من هذه الجهة ، بل أقره على فهمه ، ولكن أراد النبي الاحتياط بازدياد
الأجل ، والخلاصة والنتيجة يصح لنا أن نقول ان مدة إقامة يوسف في السجن
إنما هي سنتان وشيء من السنة الثالثة كما يستفاد من (تك ٤١ : ١) وكل ما يروى
في تحديد مدة سجن يوسف بأكثر من ذلك فهو غير حائز على شروط الصحة ،
ومبني على حب المبالغة التي هي عادة في الناس .

هذه هي كلتي في هذا الحل وهي آخر كلمة فأرجو الاصفاء اليها ، وآمل من
السامعين قبولها .

لأنحقر الرأيَ ياتيك الصغيرُ به فالتحلُّ وهو ذبابٌ طائرُ العسل

الفصل السادس

حلمها الملك

آية (٣) ﴿...﴾ وقال الملك: إني أرى سبع بقرات سمان، يأكلهن سبع عجاف، وسبع سنبلات خضر، وأخر يابسات، يا أيها الملأ، أفتوني في رؤيائي، إن كنتم للرؤيا تعبرون ﴿...﴾ .

افتتحت الحلقة وتليت الآية الثالثة والأربعون فقام الشيخ ناصر الدين الأفغاني وقال: لقد تم الكلام في اعتقال يوسف وذيله، ولتركه في سجنه كما قدر الله، وقد ذهب بالقارئ إلى الملك الريان وحلمه، والملك الريان: (وقال الملك) الريان بلسان المتفهم المستغني (إني أرى) في المنام (سبع بقرات سمان) جمع سمنة (يأكلهن سبع) من البقرات (عجاف) جمع عجفاء، والمعجب الهزال الذي ليس معه، (و) أرى أيضاً في حلم آخر في ذات الليلة (سبع سنبلات) سنبلات (حضر) سبعاً (أخر يابس) وهذا ما رأيت في حلمي هيئاً (يا أيها الملأ) الأعيان من العلماء والحكام والكهان (أفتوني في رؤيائي) علموني تأويلها وبينوه لي، بينوا لي حكم هذه الحادثة (إن) كان عندكم ثروة علمية و (كنتم للرؤيا) النامية (تعبرون) وترفون ناقبتها ومآلها .

(وقال الملك : اني أرى سبع بقرات ... الخ)

- ١ -

وقال العلامة الروحاني البخاري :

المملك الريان يقص حلميه على الملائطابا تعبيرهما له

شاءت العناية الالهية أن يخرج يوسف من سجنه بسبب شريف علمي . .
فقد آن للمظلوم أن ينتصر على الظالمين ، وحق الحق أن يدفع الباطل ، وإذا أراد
الله شيئاً هيا له أسباباً ، لذلك لما أراد الله اخراج يوسف من معتقله ، واسناد
وزارة المالية وحاكمية مصر ثمده ، أرى ملك مصر رؤيا منامية ذات بال ، إذ بينا
الريان نائم رأى رؤيا أكبرها جداً وأفاق من نومه وهو خائر النفس ، وأصبح
من جرائها في اضطراب لم ير قبله مثله ، ولن يضطرب بعده مثله ، وأوجس منها
خيفة ، وأجفل أياً إجحاف ، ولذلك جمع الكهنة والكتبة المقدسين والحكماء ،
وقال لهم بلهفة وهو مضطرب الحواس ، محطم من آثار ما رأى في منامه : إني أرى
حلماً ذا بال ، إني رأيت فيه سبع بقرات سمان وحسنة الصورة ، طلعت من النهر ،
فأرتمت في روضة كثيرة الكلاء ، ثم رأيت سبع بقرات أخرى طالعة وراءها
ممزولة وقبيحة الصورة جداً ورفيعة اللحم ، لم أنظر في كل أرض مصر مثلها في
القباحة ، فأكلت البقرات الممزولة القبيحة البقرات السبع الأولى السمينة ،
فدخلت أجوامها ولم تظهر علامات ذلك ، وكانت كأنها لم تأكلها ، وعليه فبقي
منظرها قبيحاً كما في الأول ، وههنا استيقظت ، ثم غمت فرأيت في حلمي سبع
سنابل خصر طالعة في ساق واحدة ممتلئة وحسنة ، ثم رأيت سبع سنابل يعض
يابسة رقيقة ملفوطة بالريح الشرقية نائية وراءها ، فابتلعت السنابل الرقيقة
السنابل الحسنة :

فيا أيها الكهنة ويا أيها العلماء والحكماء والكتبة القديسين أنيروا ظلمة نفسي ،
 وينتوالي بفجر أفكاركم ، الخيط الأبيض من الخيط الأسود ، فقد التبس عليّ
 أمر هذه الرؤيا ، والتوى عني مآلها ، يا أيها الملأ الذين يملأون بهيئاتهم عبود الناس ،
 لله أبوكم ، ينتوالي مرمى ماريت ، إن كنتم تتدبون لعبارة الرؤيا ، وتعرفون
 مآلها ومرجعها

قال ذلك ، ولوائح الاهتمام تلوح على وجهه ، وظواهر النائية تبدو على لسانه .
 وههنا نسرده ثلثي مسائل لها علاقتها بتوضيح معنى الآية :

من هو الملك « في قوله : وقال الملك ..

المسألة الاولى — ان هذا « الملك » الذي يعنيه القرآن هو « الريان بن الوليد »
 كما ذكره مؤرخو العرب ، وكما وجد اسمه منقوشاً على بعض الأحجار الأثرية ،
 وهو من العائلة ، وبعبارة أخرى من الاسرة الخامسة عشرة أو السادسة عشرة
 لدولة الرعاة العربية بمصر ، أي الهكسوس ، إذ لما كانت السلالة الرابعة عشرة من
 الفراعنة المصريين تحكم في وادي النيل سنة (٢٠٠٠ ق.م) ، كانت الأقوام السامية
 تنتقل في شرقي مصر (مديرية الشرقية المسماة في التوراة أرض جاسان) ، على
 حدود البادية ، وهذه الأقوام هي التي كان المصريون يسمونها « شاسو » أو « هكسوس »
 أي البدو ، وهم قوم من البدو يشبهون العرب ، ويتكلمون لغة يظهر أنها كانت
 قريبة جداً من العربية ، وكانت هذه الأقوام تترقب ضعف الفراعنة في مصر ،
 فتسطو على المصريين في مدنهم ، أو يقطعون عليهم السبيل للغزو ، وكانت الفراعنة
 تخافهم كثيراً ماسألهم واستعانت بهم في حروبهم ، لقوتهم وشجاعتهم ، شأن
 أهل البادية في كل عصر ، ومارالوا كذلك حتى منحت لهم فرصة وثبوا فيها على
 مصر السفلى ، وامتلكوها ، وكيفية ذلك انه لما حدثت الاضطرابات والفتن ،

منذ السلالة الرابعة عشرة ، اغتتم الهكسوس ضعف دولة النيل ، فوثبوا على مصر السفلى ، وأعملوا فيها يد النهب والسلب ، واستعمروا الوجه البحري ؛ وجزءاً من الوجه القبلي ؛ واستولوا على مدينة « منفيس » وضبطوا « الدلتا » بكاملها ، وولوا عليهم ملوكاً منهم ، فتقهقرت الفراعنة الى الجنوب ، ثم بدأوا يقيمون الضرائب من الأهاليين ، وما زالت مصر في حوزتهم حتى أول القرن الثامن عشر ق . م ودامت سيطرة الهالقة (الهكسوس) على مصر نحو أو أكثر من خمسة قرون ثم طردهم المصريون .

دولة الهكسوس في مصر

وكانت دولة الهكسوس عندما انحسر تيارهم وقت ورود يوسف الصديق تقع في المثلث الذي تتألف منه رؤوسه ، من « مينا القمح » و« بوسطه » (القرية من الزقازيق) وسان الحجر ، وهي المسماة « صوعن » ، ثم لما تقدم ، لما بيع يوسف لم يجد أقل مشقة في محادثة الأهالي ، لأنهم كانوا منه ، وهو منهم ، يتكلمون كلهم لغة سامية ، فيوسف لم يخدم أحداً من فراعنة مصر ، لأن هؤلاء كانوا في « طيبة » في ذلك الوقت ، وكانت لغتهم مصرية لا يفهمها يوسف .

تعبير «فرعون» ولفظ «ملك» ولفظ «فرعون» نظام مصر الأفراسين

المسألة الثانية - عبر القرآن الكريم على كبير مصر الذي كان في عهد يوسف بلفظ «ملك» ولم يعبر بلفظ «فرعون» ، لأن هذا الملك «الملك الريان» لم يكن من « القبط » بل كان من البدو الغرباء المحقرين المكروهين في نظرهم ، وقد كان في اصطلاح المصريين الأقباط أن لا يطلقوا كلمة « فرعون » إلا على من كانت مستولياً على مصر استيلاءً شرعياً وكان مصرياً قحاً ، وليس دخيلاً أو مستعمراً وعلى هذا جرت عادة كتاب الله تعالى أن يراعي الاصطلاحات المعروفة عند أهلها ،

وهو ما فهمته في توجيه تسمية حاكم مصر في زمن يوسف بلفظ «ملك» في خمسة مواضع من هذه السورة الكريمة ، منها ما جاء في هذه الآية التي نحن وصد تفسيرها ومنها قوله تعالى ﴿ وقال الملك : أثبتوني به ﴾ وقوله ﴿ وقال الملك : اثبتوني به استخلصه لنفسى ﴾ وقوله ﴿ تفقد حواصل ﴾ الملك ﴿ وقوله ﴿ ما كات ليأخذ أخاه في دين الملك ﴾ فهذه خمسة مواضع اطلق الله فيها على حاكم مصر بصورة متبادلة لقب « ملك » لالقب « فرعون » ، ولكنه في سائر السور سمي بملوك مصر الوطنيين « فراعنة » جريباً على اصطلاح « القبط » كما في قوله تعالى في فرعون التسخير « رمسيس الثاني » من السلاة التاسعة عشرة : ﴿ فالتقطت آل فرعون ﴾ (٨: ٢٨) ، وقوله تعالى في فرعون الخروج « منشا » الاين الثالث عشر لمسيح الثاني : ﴿ وقال فرعون ياأيها السلا ما علمت لكم من إله غيري ﴾ (٣٨: ٢٨) ، وقوله تعالى في بعض فراعنة مصر : ﴿ وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون ﴾ (١: ٦٦) وهذا لا قلم من أي سلاة ، وفي أي عصر هو ؟

غلط المؤرخين والمفسرين في تسميتهم « ملك مصر »

في زمن يوسف باسم « فرعون »

وبعد كل ذلك قلم غلط جميع المؤرخين من أهل التاريخ القديم والحديث العرب واليهود والنصارى ، وكذا المفسرين والمحدثين ، في تسميتهم « ملك مصر » في زمن يوسف باسم « فرعون » لانه مخالف للواقع ولا اصطلاح أصل ذلك الزمن ، ولكتاب الله تعالى ، وقد تبع التوراة في هذه التسمية ، جمهور المفسرين والمؤرخين ، أو كأن المسلمين أخذوا تسمية الرعاة بالصراعنة ، ضمن دخول في الاسلام من أهل الكتاب ، فقلدوهم في ذلك ، حتى انصل بالمفسرين والناس — كما قال ابن تيمية — اسراب طبر يتبع بعضهم بعضاً ، وليعذرني القارىء

الكريم في مخالفتي لجميع من ذكر ، فالهدهد رد على سليمان ، والمرأة أصابت دون التعمان ، والفاروق يقول : « اخطأ عمر وأصابت امرأة » والسمكة ردت على الشيخ محي الدين الأكبر .

ونهج سبيلي واضح لمن اهتدى ولكنها الأهواء عمت فأعمت

وعندنا ان هذا من جملة البراهين على أن القرآن وحى بوحى ، وليس من تأليف البشر ، لأنه لو كان كذلك ، لاتبع القرآن ما هو المشهور عند أهل الكتاب ، المتداول على ألسنتهم ، المكتوب في أسفارهم ، من تسمية « ملك مصر » في زمن يوسف باسم (فرعون) كما هو كذلك في توراتهم وغيرها من كتب اليهود المقدسة عندهم ..
(مرحى مرحى)

عدد سبعة في تاريخ يوسف

المسألة الثالثة — كثر عدد « السبع » في تاريخ يوسف ، فالبقرات السمان سبع ، والعجاف سبع ، والسنبلات اخصر سبع ، واليابسات سبع ، وسنو الخصب سبع ، والسنو الشداد سبع ، والحفلة النسائية التي تشكلت في قصر العزيز ، لكي تلف حوله وتراه ، كانت مؤلفة من سبع نسوة ، والأبواب التي غلقتها امرأة العزيز كانت سبعة ، والاخوة الذين تبعوا مشورة شمعون في قتل يوسف أو طرحه أرضاً كانوا سبعة ، ولما ماتت « راحيل » حضنت « بلهة » يوسف سبع سنين ، وكان عمر يوسف حين قام أبوه من حاران سبع سنين .

اصتبايح الملوك للعلماء

المسألة الرابعة — تتلم من قول « الريان » للملأ الذين هم الكهنة والكتبة والحكام - ان الملوك معها كانوا من ذوي الأيد والشدة ، لا يستغنون عن أهل العلم ، يستشيرون بنور علومهم ، في دياجي الحوادث ، فكم من ملك بنى القلاع والحصون ، وقاد

الجيش ، واستكثر من السلاح والكراع ، وأوغل في الفتح ودوخ البلاد ، واستعبد الأمم ، وعاش في التبعة والسرور ، ومع كل هذا لم يستغن عن سؤال العلماء ، والاستفادة من معارفهم ، فقول «الريان بن الوليد» ههنا : «يا ملأ الملأ أفتوني في رؤياي» قول يتضمن احتياج الملأ للعلماء وكفى بهذا شرفاً للعلم وأهله !

الملأ جماعة من رجال البلاط والعلماء

المسألة الخامسة — «الملأ» جماعة يجتمعون على رأي فيملأون الميوت ، أو ينظرون فيملأون بهيئتهم الميوت ، كما قالوا ، وعليه يكون «ملأ» بمعنى مالىء ، ويحتمل عندنا أن يكون «ملأ» بمعنى ملأوا ، لأنهم ملأوا من الرأي ، واملأوا من الهيئمة الجميلة ، فهو فَعَلَّ بمعنى مفعول ، وقد عهد بحكي فَعَلَّ بمعنى مفعول أكثر من مجيئه بمعنى فاعل ، فمن ذلك :

حسب ، تقض ، صمد ، سكن ، ولد ، حصب ، نفص ، ذهب ، جلب ، سرب ، خرز ، ملك ، نعم ، طرج ، الى غير ذلك .

وربما كان هذا «الملأ» من رجال البلاط ومن العلماء اصحاب المناصب في الديوان الملكي ، الذين ليسوا أخصائيين في عبارة الرائي التامية ، ولذلك قال : **﴿** إن كنتم للرؤيا تعبرون **﴾** فان هذه الجملة تفيد ان الملك «الريان» لم يكن على بينة من أنهم يعبرون الرؤيا ، وليسوا مشهورين ولا أخصائيين في عبر المنام ، هذا ما فتح به المولى الكريم ، وهو بكل شيء عليم .

بغلب على الحلم أن يرى ولا يسمع

المسألة السادسة — تعليقاً على قوله «لاني أرى» قلنا يحلم الانسان حالاً تحتوي مادته على لغة وكلام ، وانما الأكثر أن «يرى» الحلم ولا يسمع ، وهو لذلك يسمى «رؤيا» فتعبر في معظم أحلاما حرس لا فتكلم وانما يرى فقط ، كما كان

الإنسان في بدء حياته الانسانية عقب خروجه من الطور الحيواني أخرس لا يتكلم، ويوجد في هذه السورة الحيدة خمسة مرآئي : الأولى رؤيا يوسف أحسد عشر كوكباً والشمس والقمر ساجدين له ، والثانية رؤيا رئيس السقاة أنه يعصر خيراً والثالثة رؤيا رئيس الخبازين أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه ، والرابعة والخامسة ، رؤيا الملك البقرات ثم رؤياه السنابل ، وكل ذلك رؤيا لم تحتو مادته على لغة وكلام ولكن على شيء منظور ، نعم في ذلك أفكار مجسمة ، وتجسيم الأفكار هو الاصل في الرموز ، ففي الرؤيا الأولى ، علو يوسف وشرفه مجسم في ذاته المسجود لها ، وخضوع اخوته مجسم في ذوات اخوته الساجدين ، وأما في الرؤيا الثانية فرجوع رئيس السقاة إلى رتبته ، عند الملك هو مجسم في عصر الخمر للملك ، وأما في الرؤيا الثالثة فصلب رئيس الخبازين هو مجسم في الخبز المعلق فوق رأسه ، وأما في رؤيا ' الملك ، فالخصب مجسم في أشخاص البقرات السماء والسنابل الخضراء ، والجدب مجسم في أشخاص البقرات الجفاف والسنابل اليابسات ، فالأفكار والآراء تتجسم للرائي في الحلم أشخاصاً أو أشياء ،

الفتوى

المسألة السابعة - (أفتوني) بمعنى علموني تأويل تلك الرؤيا ، في حديث رويناه ، في سنن ابن ماجه : (سيأتكم أقوام يطلبون العلم ، فإذا رأيتهم فقولوا لهم : مرحباً مرحباً بوصية رسول الله ، وأنتهم) قال محمد ابن الحارث للحكم بن عبيد : (ما أنتهم قال علمهم) وأفتاه في الأمر بأنه له ، والفتيا والفتوى وتفتح : ما أفتى به الفقيه (قاموس) .

تعبير الرؤيا

المسألة الثامنة - حقيقة (عبرت الرؤيا) ذكرت عاقبتها وآخر أمرها ، كما

قول: عبرت النهر إذا قطعته حتى تبلغ آخر مرضه وهو عبده، ونحوه أولت الرؤيا، إذا ذكرت مآلها وهو مرجعها، وعبر الوادي وعبر النهر ويفتح: شاطئه وناحيته، وعبرت الرؤيا عبراً أو عبارة فأنا عابر، أفصح من عبرت بالتشديد، والتعبير والمعب، ثم لفظ (نمرون) لم تذكر في القرآن إلا مرة واحدة، في هذا الموضع لا غير..

اسطقس رؤية حلين في نوم واحد

وقبل الختام فعندي كلمة لا يد من التصریح بها، وفي أن بعضهم سئِلَ: هل يمكن أن يرى الإنسان في نومه حلين من مراد واحد يتكرران في ليلة واحدة: فأجاب بأن هذا من الممكن، بل من المرجح، لأن الإنسان يحلم بما يشغل باله، فلذا كان هذا الشاعل قوياً تكرر حدوثه، بل إذا تذكرنا حلمي مليك مصر وهما من نوع واحد وفي ليلة واحدة، قلنا إنه واقع وثابت، هذه هي كلتي الختامية والسلام عليكم.

(مرحى)

مهرل العز بنأويل ااصلام وهو ابرهم

آية (٤) - قالوا: أضغاث أحلام، وما نحن بتأويل

الاحلام بعالمين

افتتحت الجلسة وتليت الآية الرابعة والأربعون فقام الشيخ أسعد الحوراني^(١) وقال:

(قالوا) أي المأل بلسان الجمل أو المكر (أضغاث أحلام) أي نخاطبها

(١) نسبة الى منطقة حوران من بلاد الشام (سورية)

وأباطيلها وما يكون منها من حديث نفس أو وسوسة شيطان ، وأصل الأضغاث
ما جمع من أخلاط النبات وحزْم ، الواحد ضغث ، فاستعيرت لذلك ، والاضافة
بمعنى من ، أي أضغاث من أحلام ، فإن قلت : لم قالوا أضغاث أحلام بصيغة الجمع ؟
هو جمع ، لأنها حلمان ، فالسبع بقرات حلم ، والسبع سنابل حلم بمده ، إنما
كلاهما في ليلة واحدة ، وقد قيل أقل الجمع اثنان ، (وما نحن بتأويل الأحلام) .
أي المنامات الباطلة (بعالمين) فليس لهما عندنا تأويل ، فإن التأويل إنما هو للمنامات
الصحيحة ، ويحتمل أن المعنى : هي أضغاث أحلام ومع ذلك فلسنا في تأويل .
الأحلام الصحيحة بنحارير ، وههنا يظهر الفرق بين العالم والمجاهل .

(قالوا : أضغاث أحلام ، وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين)

— ١ —

وقال الاستاذ عبد الحق الاخصائي في علم النفس :

طعن الملائ في رؤيا الملك على اعتبار انها غير صحيحة

سبق أن الملك الريان دعى « الملائ » الذين عنده في البلاط وقد حسن فيهم ظنه
واستفناهم في أمر حلميه ، وهم كانوا في اثناء استفتاء الملك جالسين جلوس الاصنام ،
وقد جمد الدم في عروقهم ، لأنهم رأوا أن جهلهم لا يساعدهم على تأويل رؤياه ،
فلذلك أجابوه وقد علام الاصفرار والحجل واكتفتهم ظلمة الجهالة : أيها الملك ،
علا نجبك ، وغاب نحسك ، ودامت أيامك ، إن هذه الرؤيا التي رأيت ، لا يعول .
عليها في تصارب الايام بل هي تخالط أحلام وأباطيلها ، اقتضتها هواجس الملك
وشكوكه ؛ أو هي منامات باطلة ليس لها عندنا تأويل ، فإن التأويل إنما هو للمنامات
الصحيحة الصالحة .

فترى أنهم طعنوا في الرؤيا بأنها غير صحيحة ، وليست رؤيا رحمانية ، بل هي حلم من الأحلام الشيطانية التي لا تستحق النظر ، أرادوا أنهم وإن بكت عتدهم علم بتأويل الرؤى ، لكن هذه الرؤيا إنما هي حلم شيطاني ليس له تأويل مطلقاً ، لا عندم ولا عند سواهم .

جهل الأمل بتأويل رؤيا الملك على اعتبار أنها صحيحة

وهناك احتمال آخر ، وهو أن يكون منى الأحلام في قولهم : (وما نحن بتأويل الأحلام بما لى) الرؤى المناسبة للصحة ، كقولهم يقولون : ومع ذلك فلسنا هناك ، فإنا غير أهل لتأويل الرأى المتابعة مطلقاً ، حتى على فرض أنها صحيحة صادقة ، فقد نصدق إن قلنا : « خير أ رأيت » ، وقد نصدق إن قلنا : عكس ذلك ، لا سمح الله ، فنحن لا نعلم إلا أننا لا نعلم ، وإن من العلم أن نقول : « لا نعلم ، بل الله أعلم » . وعلى هذا فيكونون قد اعترفوا بقصور علمهم ، وأنهم ليسوا في تأويل الأحلام بنحاري ، ويكون كلامهم هذا اعترافاً بالجهل أو العجز ، وانسحاباً من ميدان القدرة على التعبير مطلقاً ، وإعلاناً لا فلاسهم من العلم والمعرفة ، وبهذا يكونون قد استراحوا من حيث تمب الكرام ، كما أنهم بهذا قطبوا آخر خيط كان في نفس الملك من خيوط الرجاء بوقوفه على تأويل رؤياه بواسطة علمهم ، وهذا الاحتمال الثاني قوي جداً ، وقول الملك لهم أولاً : (إن كنتم للرؤيا تعبرون) دليل على أنهم لم يكونوا في اعتقاده عالمين بها ، لأنه أتى بكلمة الشك ، وجاء اعترافهم بالفصور مطابقاً لشك الملك الذي أخرجهم عن كونهم عالمين بالرؤيا أو غير عالمين ، وقول القى الذي نبأ : ﴿ أنا أنشكم يتأويله ... الخ الآية ﴾ دليل أيضاً على ذلك .

ولنا هنا خمس فوائد :

كذب الملائة وصدقهم في جوابهم للملك

الفائدة الاولى — نرى أن هؤلاء « الملائة » قد كذبوا في جوابهم للملك وصدقوا أما كذبوا ، ففي قولهم : « أضغاث أحلام » ، فإن هذه الرؤيا ليست من قبيل أضغاث الأحلام ، بل هي من الروى المتبصرة ، وأما صدقوا ، ففي قولهم : ﴿ وما نحن ... الخ الآية ﴾ الذي حاصله الاعتراف منهم بالجهل .

جواب الملائة للملك يدل على جهلهم بتعبير الروى

الفائدة الثانية — يوجد في هذه الآية نكتة ، وهي أن هؤلاء « الملائة » جمعوا في جوابهم بين قولهم ﴿ أضغاث أحلام ﴾ وقولهم ﴿ وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين ﴾ ذهاباً منهم الى إرادة عدم الجواب على كل حال ، فهم يقولون : هذه الرؤيا لا تتخلو من أحد أمرين ، فإن كانت أضغاث أحلام فيما نظن ، فليس لها عندنا ولا عند غيرنا تعبیر ، وإن كانت من قبيل الحلم الذي له تأويل فلسنا هناك ، لأننا لسنا من العلماء بتفسير الأحلام ولو صحيحة ، فعلى كل حال لا تكلفنا أيها الملك بتعبير هذه الرؤيا .

معنى الضغث

الفائدة الثالثة — الضغث من العمل ما كان مختلطاً غير خالص ، فهو فعلٌ بمعنى مفعول ، كالذبيح والحمل ، من ضغث الحديث إذا خلط ، وأتانا ضغيثه من ناس : أي جماعة ملتبسة ، داخل بعضها في بعض ، ومنه قولهم للحرمة من كلاً أو غيره « ضغث » والأحلام الملتبسة « أضغاث » .

طاف عمر رضي الله عنه بالبيت فقال : ﴿ اللهم إن كنت كتبت عليّ إثمًا أو ضغثًا فامحه عني ، فإنك تمحو ما تشاء وعندك أم الكتاب ﴾ ، وفي حديث أبي

هريرة رضى الله عنه أنه أردف غلامه خلفه ، تقيل له : ﴿ لو أنزلته فيسمى خلقك فقال : لأن يسير معي ضيفان من نار ، يحرقات نبي ما أحرقا ، أحب إلي من أن يسمى غلامي خلفي ﴾ ، (الفاثق) .

وقد جاء هنا د أضغاث أحلام ، بصفة الجمع والقصود ضغثا أحلام ، لأنها ضغثان اثنتان فقط ، ولكن من سنن العرب إذا ذكرت اثنين أن تجريها مجرى الجمع كما تقول عند ذكر الحسين : « كرم الله وجوهها » ، وكما قال عز وجل : ﴿ إن تتوبا إلى الله .. فقد صغت قلوبكما ، وإن تظَاهرا عليه .. فإن الله هو مَوْلَاهُ . الخ الآية ﴾ (٤: ٦٦) ولم يقل « قلبا كما » ، وكما قال عز وجل : ﴿ والشارق والساورة فاقطعوا أيديهما ﴾ (٥: ٩٠) ، فلم يقل « بديها » فقه اللغة .

الْحِلْمُ وَالْحِلْمُ

الفائدة الرابعة - « الأحلام » جمع حِلْمٍ بالضم بمعنى الرؤيا المتأمية وهو من الباب الأول ، مثل حكم يحكم حكما ، واسم الفاعل منه حالم ، ويقال : حِلْمٌ يَحْلُمُ كحَسَنٌ يَحْسُنُ من الباب الخامس ومصدره الحِلْم بالكسرة ومعناه صفع وستر وثأني وتروى وتغل ، واسم الفاعل منه حلِيم ، وجمع الحِلْم بمعنى الغفل حلوم وأحلام أيضا ، كما قال تعالى : ﴿ أَمْ تَأْمُرُ أَعْلَامَهُمْ بِهَذَا ؟ ﴾ (٣٢: ٥٢) وقال حسات :

لا بأس بالقوم من طول ومن قصر
حسم البقاء وأحلام المصافير

اصطلاح نجاهل الملاء تعبير رؤيا الملك وسيره

الفائدة الخامسة - كل ما تقدم من أن هؤلاء « الملاء » جهلوا تأويل حلم الملك جهلا حقيقيا ، لانجاهلا صنيا ، هو ما ذهب اليه جميع مقصري القرآن الكريم ، ومفسري التوراة ، وهو حسن ، وعندى أنه يجوز أيضا أن يكونوا غير جاهلي

تأويل هذه الرؤيا ، ولكنهم تجاهلوه ، تذكروا ما انطوت عليه الصدور ، وانحتت فوقه الضلوع ، من الحقد القديم ، والضغينة السياسية ، بين القبط الوطنيين ، الذين منهم هؤلاء « الملأ » ، وبين أمة الهكسوس الذين منهم هذا الملك ، ولا بدع في كون الوطنيين كانوا يدون الهكسوس غريبين عنهم ، مفتصبين لبلادهم ، مع حلولهم بمصر نحو مدة (٥٠٠) سنة ، فهذه بلدة سلافيك ، ظلت في قبضة الترك (٤٨٢) عاماً ، ومافقء أهلها يدون الأتراك أجنب ومفتصبين ، و ترام عند كل فرصة كانوا يشورون على دولة « آل عثمان » حتى سلمت اليهم .

وغني عن البيان ان تأويل هذه الرؤيا بسيط وبسيط جداً ، ولكن هؤلاء « الملأ » لا يريدون أن يبينوا التأويل لهذا الملك الغريب المقتصب ، ولم يكونوا يريدون نصحه والاخلاص له ، إكان الاختلاف بينه وبينهم في اللغة والعنصر والوطن والدين ، فلعنتهم وجروثومتهم قبطية ، ولكن الملك الريان سامي في لغته وجروثومته ، وأما وطنهم فافريقية وهو من آسية ، وأما معبوداتهم فهي قطعاً غير معبوداته ، وإن كان كل من الفريقين وثنياً .

فهل بعد هذه المخالفات يمكن أن يخلصوا لهذا الملك ، أو لأي واحد من سلالته ، أو لأي سلالة من سلالات الهكسوس الثلاث ؟ — حاشا —

وعندي أنه بهذا الفهم ينحل إشكال ، صورته ماييلي :

كيف ان « الملأ » الذي يجمع بين السحرة والحاذة والنجيمين والمفكرين والمعبرين لم يحببوا عن سوا آل الملك ، مع بساطة الجواب لاسيما على المصريين .

فإذا صح هذا يكون المعنى هكذا : سألهم الملك الريان عن رؤياه ، فتفاوضا فيما بينهم : ﴿ إن هذا الملك المألقي الغريب المقتصب قد استبد هو وأجداده بمقدرات الشعب المصري ، والآآن (يستفاد من رؤياه) ، سيحدث بمصر حوادث هامة حيوية اقتصادية ، ربما أوجبت اضطراباً في مملكته وأنهكت قواه وزلزلت أقدام هؤلاء

الغرباء ، وعليه فالأوفى أن لا نصح له ، ولا نحييه على سؤاله لئلا يستدرك ويلطف هذه الحادثة التي ستحدث ، ولذلك قالوا له يأواهم فقط دون قلوبهم ، لأنهم لا يمتقدون ما بلفظون : (أضفنا أحلام) تجاهلاً منهم ، والافهم أهل لتعبير هذه الرؤيا وغيرها ، وأما قول الملك لهم : (إن كنتم للرؤيا تعبرون) فليس هو من قبيل الشك في مقدرتهم ، ولكنه من قبيل الحث والتحضير لكي يؤولوا هذه الرؤيا بمجد وسرعة ، أو لكون الملك هو قد امتصعها في نفسه ، وإن لم تكن صعبة عليهم في الواقع ، هذا ما نذكره على سبيل الاحتمال ، والله تعالى أعلم .

وقبل الختام ، فلا ندحة لنا من أن نقول : جل الله القدير ، إن هؤلاء الملاء ، أطبقوا وتماثلوا على ما قالوا ، جهلاً منهم بجراحي الرؤى النامية أو كراهة منهم للملك ، وإذا كان معاوية بن أبي سفيان كان قال في حادثة : (إن لله جنداً من العسل) ، فنحن هنا نقول : (إن ليوسف جنداً من جهل هؤلاء الملاء أو مكرمهم بالملك) لأن يوسف انتفع بذلك ، ولو لا جهلهم أو تجاهلهم ، لم يحتاج إليه في تفسير رؤيا الملك ، فكان يبقى في معتقله لآخر لحظة من حياته ، ولكن هكذا أراد الاله القدير ، والله تعالى في خلقه شئون .

مرحي

وعند جبهة «يوسف» الخبر اليقين

أو تذكر الفتى الناجي يوسف وطلبه أن يذهب إليه ليؤول له حلمي الملك :

آ (٤٥) ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا ، وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ :

نَا أَنْبَيْتُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ ، فَأَرْسِلُونِ ﴾

افتتحت الجلسة ونليت الآية الخامسة والاربعون فقام الجان عبدالسلام لتركاني وقال :

سمع الملك الريان جواب (الملاء) فقال : سبحان الله ، ما هذه الحادثة التي

آ (٤٥) تذكر الفتى الناجي يوسف وطلبه الذهب اليه ليسأله تأويل حلمي الملك ٨٧٠.

هي أعقد من ذنب الضب ، وإن أعجب ، فمجب أنكم تقولون عنها انها أضغات أحلام ، ثم تقولون ما أنتم بتأويل الأحلام بما لين (و) عند ذلك (قال) الفتى ، رئيس السقاة (الذى) كان في السجن مع يوسف ثم (نجا منها) من الفتين من القتل (وادكر) تذكر يوسف وما شاهدته منه ، ولكن مع الأسف انما كان تذكره (بعد أمة) بعد مدة طويلة ، وذلك أنه حين حكي الملك الريان رؤياه واستفتى فيها الملاء ، وأعضل على الملاء تأويلها ، تذكر الناجي يوسف وتأويله رؤياه ورؤيا صاحبه رئيس الخبارين ، كما تذكر أيضاً طلب يوسف اليه أن يذكره عند الملك ، قال : (أنا أنبئكم) أخبركم (بتأويله) بواسطة من عنده علمه وهو الفتى العبراني خادم فوطيفار رهين السجن (فأرسلون) أي فابثوني اليه لأسأله ومروني باستعباره .

(وقال الذي نجا منها ... الخ)

— ١ —

ثم قام الحاج عبد القهار الألباني^(١) والفتى المقال التالى :

تذكر الفتى الناجي يوسف وطلبه الذهب اليه ليستبره علمي الملك

سمع رئيس السقاة (نبو) سوآل الملك الريان وجواب (الملاء) السلي ، نصار يضحك في قلبه على جهلهم ، ويقول بينه وبين نفسه : (إن هؤلاء الملاء ، هؤلاء العلماء الرسميين ، لهم أضعف من أن يقدروا أن يعبروا رؤيا الملك) ، ثم ماعثم أن تذكر يوسف العبراني ، فقام ووقف أمام الملك وركع بين يديه وكفّر وقال : (أيها الملك المعظم ، ماهؤلاء وذاك ؟ . . اعط القوس بارها ، واسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون) .

(١) سبة الى بلاد الانلان السكائنة بين اليونان وايطاليا .

(أنا) بصفتي كوسيط (أتبتكم بتأويله) بكل تدقيق وتفصيل ، على أهون سبيل ، فإن في معتقل الخاصة كهلاً فضلاً صالحاً ، كثير العلم كثير الطاعة ، كنت معتقلاً معه أنا ورئيس الخبازين (مجلث)^(١) ، وكان كلانا رأى حلماً ، فقص كل منا حلمه على هذا الانسان ، فذكر لنا تأويلها بأسرع من لمح البصر ، وليس هذا هو العجيب ، بل العجيب أنه صدق في تأويل كليهما ، وما أخطأ في حرف واحد . فإن رأى جلالة ربي الملك أن يعثني إلى سجن الخاصة ، ويصحبني بمن يسمع ويحيي . معي ما يقوله ذلك السجين فعلت ورجعت بالجواب الوافي الذي يرد الغلة ، ويشفي من العلة .

وهكذا هتف الشرايبي بمدح يوسف وأفاض فيه ، حتى ألبسه ثوباً فضفاضاً من الاعجاب والتقدير ، وكانت تلوح على فمه آيات الصدق والاخلاص ، فإذ لك قال له الملك : (ليكن كما تحب ، وليذهب معك من أردت ، دونك ما بدا لك) فسار في كوكبة من رجاله الى يوسف السجين .
وهنا ملحوظات أربع :

ثمرة الاحسان

الملحوظة الأولى - تعلم من هذه الآية أنه مادل ملك مصر على يوسف الصديق ، وعرفه بفضله إلا ذلك المصري (رئيس السقاة) ، لما سبق أنه سمع منه الحكمة والفوائد الجليلة ، مع ما عهد له إليه يوسف من ذكره الميكة ، فأثر عنده الاحسان ووفى بالوعد ، وإن كان بعد طول العهد .

الحكمة من صرف الله الملو عن تأويل رؤيا الملك

الملحوظة الثانية - لقد صرف الله الملو عن تأويل رؤيا الملك ، وجمد أفكارهم

(١) وفي رواية يسمى « ملج » .

عن فهمها ، وألجم ألسنتهم عن بيانها ، حتى يسمع « الساقى » فيطير بها ليوسف ويقضى الله أمراً كان مفعولاً .

التدائير الالهية وجهل الملا

الملاحظة الثالثة — يالبلالاه والسذاجة ! ألمهذه الدركة يكون الجهل في هؤلاء الملا ؟ .. أين علماء « صوعن » ؟ .. أين سحرة « تانيس » ؟ .. أين حكام « الوجه البحري » ؟ أين فلاسفة « الوجه القبلي » ؟ .. أين حازة « المديرية الشرقية » ؟ .. أين عافة « بوبسطة » ؟ .. أفلا يوجد واحد على الأقل في هؤلاء يقدر أن يعبر حلمي الملك ؟ .. لكن هي التقادير والتدائير الالهية صرفت هؤلاء عما هو بسيط ، وجعلتهم يجهلون ماهو غاية في السهولة ، حتى يحتاج الريان لمراجعة ذلك السجين العبراني ، ليقضى الله أمراً كان مفعولاً .

الفتى النامي ينهضى المراء

الملاحظة الرابعة — رأى « رئيس السقاة » أن هؤلاء « الملا » حولوا رؤيا الملك عن جهة كونها رؤيا معتبرة قيمة تستحق التعبير — الى جهة كونها حلماً ليس له قيمة ، وليس له اعتبار ولا تعبير ، بل هو تخاليط وخيالات ، ثم رأهم أيضاً يتصلون من معرفة التعبير مطلقاً — فلذلك قال : (أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون) .

استيعار رؤيا الملك من يوسف

آ (٤٦) ﴿... يوسف ، أيها الصديقُّ ، أَقْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ ، يَا كُلُّهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ، وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ، لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ .﴾

انتهت الجلسة وتليت الآية السادسة والاربعون فقام مولانا احمد حسن الهندي الكلكتي^(١) وقال :

وافق الملك وحاشيته على إرسال «رئيس السقاة» الى يوسف ، ولما أتاه ، قال له : يا (يوسف أيها الصديق) البليغ في الصدق ، لقد تعودنا أن نسمع حديثك اللذيذ وفنوك الصحيحة ، التي ذقت أحوالها وترفت صدها في تأويل رؤياي ورؤيا صاحبي ، حيث قد جاءت كما أولت لنا ، فترجوك الآن (أنتنا في سبع بقرات .. الخ) وان أمكنك أن تكون الغتبا في هذه الجلسة بذاك هو المطلوب ، حيث الحاجة ماسة والمسألة مستعجلة ... (لعلني أرجع الى الناس) وهم الملك وحاشيته (لعلهم يعلمون) التأويل أو يعلمون فضلك ومكانك من العلم ، فيطلبوك ويخلصوك من محنتك . (يوسف أيها الصديق ، أقتنا في سبع بقرات سمان .. الخ)

١ -

وقال السيد محمد الساهراني^(٢) :-

الفني الناجي يقابل يوسف ويعتبره رؤيا الملك

قام رئيس السقاة يدور في ذهابه ، حتى لراه يكاد يخرج من إهابه ، وذهب

(١) نسبة الى كلكتا احدى مدن الهند . (٢) نسة الى سامراء بلدة في العراق .

الى سجن يوسف ودخل عليه قائلاً :

« يوسف » قبل كل شيء أطلب إليك الصفح ، فقد كنت أدبت حياك ،
لأنني أنسيت أن أذكرك لربي ، وما أنساك إلا الشيطان أن أذكرك ، (أيها
الصدق) لله أبوك ، لك الله من رجل صدق ، رجل حذق ودكاء ، لك الله من
رجل جمع الى الاحسان في عمله ، الصدق في رأيه وقوله ، أريد أن أجتديك ،
وأعتني فضلك ، فقد آتيت لك بهمة ذات بال : أفنتنا وأنز ظلمة نفوسنا ، وبين لنا
المرمى في رؤيا سبع بقرات ممان اللحم وحسنة الصورة ، طلعت من النهر فأرتمت
في روضة فأكتهن سبع بقرات مهزولة وقبيحة الصورة جداً ورقيقة اللحم ، لم
أنظر في كل أرض مصر مثلاً في القباحة ، طلعت البقرات الرقيقة القبيحة من
النهر وراء تلك السبع الأولى فأكلتها ودخلت أجوافها ، ولم أعلم أنها دخلت أجوافها .

ثم أفنتا في رؤيا ثانية أيضاً ، رؤيت بعد الأولى في ليلة واحدة وهي سبع
سنابل خضر طالعة في ساق واحدة ممثلة وحسنة ، وسبع سنابل أخر يابسات
ورقيقات ثابتة وراء تلك ، ملفوحة بالريح الشرقية الجنوبية ، المدروفة بريح الشمال
تأتي لمصر من صحارى بلاد العرب اليابسة ، فابتلعت السنابل الرقيقة السنابل
السبع الحسنة ؛ هذا هو الحلم الذي استعجم علينا مآله ، والتبكت تفسيره ، فأدني
من فضلك وخلاك كتمان العلم ، لأنني سأرحع الى الملك « الريان بن الوليد » و« الملائم »
الذين من حوله ، فأطلعهم على علمك وفضلك ، فتصير بالطبع تحت الطلب ، وأنا
لا أكلفك بتوقيع الجواب عن سؤالي اعتباطاً ، بل لداع هام منحصر في دائرة ،
وهي علم الملك وحاشيته بتأويلك ، فلههم بفضلك ، فخرجك من السجن ، فهذه
الفتوى ليست مجانية ، بل مأجورة ، وأجرتها ما قد علمت ، فقد عودتنا
الاحسان منذ القديم ، فجدد بقتواك اليوم سالف إحسانك ، وألحق النعمة

٨٧٦ الشرايي بنه يوسف الى سانب محته له بدعوته اياه باسمه ولقبه آ (٤٦)

الأخيرة بأولها ، وأنت تعلم أن (الساكن بين التائم والاخوس) فترجوه الجواب ،
ولك من الله الثواب .

فلما سمع يوسف ذلك رأى وهو في ظلمات السجن ، دقوت سلامته يشرف عليه
كالقبس في الديمور ، وحقا من بحبي رحمتي السفاة خيراً وفرجاً قريباً .

(يوسف أيها المدين ، أنتنا في سبيع نوات .. الخ)

— ٢ —

وقال مولاي عبد الحفيظ التونسي :

سوف أقصر كلامي على هذه الآية بالمحوظات التالية :

الشرايي بنه يوسف الى سانب محته له بدعوته اياه باسمه ولقبه

الملحوظة الاولى — نجد أن « الشرايي » قد بفت يوسف بذكر اسمه ولقبه ،
لينبهه الى صحبته له سابقاً ، ويعرفه به وحاله ، وليلغف فكره الى ما كان سبق
من عبارته رؤياه ، وصدقه فيها .

كرم افهوق يوسف بدم سانبه الشرايي لدم قلام بما طله طلبه منه
الملحوظة الثانية — كان « الشرايي » يتوقع أن يوسف سيذكره بما كان
رغب اليه فيه ، ويعاينه على عدم قلامه به ، ولكن يوسف عليه السلام لم يفعل ،
إما ترفعاً عنه ، أو كرم أخلاق منه .

لقاب يوسف

الملحوظة الثالثة — لقبه « بالصاديق » لأنه كان جريه في عبارة حلمه وحلم
رئيس الخبازين ، فوجده صادقاً وصادقاً ، ولقد حفظ له التاريخ هذا اللقب ،
واعتبره منذ ذلك الوقت إلى اليوم ، فكلمة (صديق) هي الكلمة الوحيدة التي
تأتي دائماً بعد كلمة (يوسف) ، عندما يراد ذكره ، أو زجة حياته الشريفة ،

وفي صدد تلقيه (بالصديق) نرى إخوته لقبوه (بالعزيز) حيث قالوا له ، لما دخلوا عليه في السفرة الثالثة (يأيها العزيز مسنا وأهلنا الضر . . الخ) (آية ٨٨) ولا بد أن يكون هذا . قد صار لقباً رسمياً له من حين أن جعل في الحكومة المصرية ثاني الملك ، كما كان قبله (فوطيفار) ، ثم هو بمجمله على خزائن الأرض طبعاً قد صار (ناظر مالية عاماً) ، وزى في بعض كتب التاريخ القديم أن ملك مصر وجه له لقب (صفات فنيح) حيناً رآه قد أحيا أهل مصر ، وخلصهم من عذاب الجوع ، لأن هاتين الكلمتين مصريتان ، معناهما على ماقله (القانون كوك) : (طعام الحياة) أو (قوت الأحياء) ، وفسرهما آخر (بمخلص العالم) والمعنى على التفسيرين أن يوسف كان علة قوت الأحياء أو طعامهم وإقناذهم من الموت ، بما أتاه من خزن الحنطة إلى زمن القحط ، فهذا هو رابع الألقاب ، وزى ليوسف عليه السلام في القرآن الكريم لقباً خامساً ، وهو (رسول) ، كما قال مؤمن آل فرعون : ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ ، فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ : لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا ﴾ (٤٠ : ٣٤) وبما يستحق اللغات أن هذه الألقاب الخمسة كانت مؤسسة على أعمال صدرت منه استحقها بحق ، بدون سبي منه ، أو توسط بمن يلزم ، أو دفع رشوة لأولياء الأمر أو ابتياع الاسماء والألقاب والرتب كما يفعل كثيرون من المتمجدين من أهل اليوم . . . !

اخفاء رئيس السقاة اسم الملك عن يوسف

الملاحظة الرابعة — مما يستحق الذكر أن رئيس السقاة لم يبين ليوسف من هو الذي رأى هذه الرؤيا ، وتتمياً لهذا التستر ، تجده ذيل استفتاءه بقوله (لعلني أرجع إلى الناس ، لعلهم يعلمون) عبر بهذا بدلاً من أن يقول : (أفتنا في

رؤيا رآها الملك وفي كيت وكيت ، ثم يذبل سؤا له بأن يقول : لعلني أرجع إلى الملك لعله يعلم) ، فما هي النكتة يترى في ذلك ؟ وعندنا أن الداعي لذلك هو أن رئيس السقاة خاف من يوسف لو علم أن الحلم هو حلم الملك أن لا يؤوله إلا بعد خروجه من السجن ووقوفه أمام الملك ، مشروطاً بذلك ، قوصلاً لخروجه من معتقله فلما ظن ذلك ، وهو حريص على تأويل الحلم ، وحريص أيضاً أن يسمع الملك تأويل حلمه ليس من قم يوسف ، بل من فمه ، لينال حظوة عند الملك بذلك ، فلهذا ستر الحلم سترأ ، ودحر تفصيل الواقعة دحراً .

منى الرفاء

الملاحظة الخامسة — افتاء في الأمر : أبانه له ، وأخوات هذه المادة تشير للكشف والظهور ، وذلك مثل فن ، فيج ، فر ، فض ، فتق ، فتك ، فتن ، فكل ذلك يرمي إلى البيان والوضوح والكشف ، وبعد لم يقل كما قال هو و (الحجاز) أولاً (قبتاً) لما عاين من سمو رتبة يوسف ، وجرب من علو فضله سابقاً ، لأن هذه المادة تشعر بذلك ، فإن (الفتى) يطلق على السخي الكريم ، (والفوة) هي الكرم .

منى الصديق

الملاحظة السادسة — الصديق : من غلب عليه الصدق وعرف به كالسكر لمن غلب عليه السكر ، هذا إذا لوحظ أخذه من الصدق ، كما هنا ، وقد يلاحظ في موضع آخر أخذه من التصديق ، وهو المبالغة في تصديق الأنبياء وكال إيمان بهم ، وذلك كما في لقب « الصديق » لآبي بكر رضي الله عنه ، ومن اطلاق « الصديق » بالمعنى الأول ، قوله تعالى : ﴿ واذكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴾ (١٩ : ٤٦) . وقوله تعالى : ﴿ واذكُرْ فِي الْكِتَابِ

إدريس ، إنه كان صديقاً نبياً ﴿٥٦:١٩﴾ ومن قبيل إطلاق الصديق بالمعنى الثاني قوله تعالى : ﴿وَأَمَّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ ﴿٧٨:٥﴾ بدليل : ﴿وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا﴾ ﴿١٢:٦٦﴾

ويطلق الصديق على كل من آمن بالله والرسول كما قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ ﴿١٩:٥٧﴾ فمن هذه الآيات الكريمة نعلم أن كلمة « صديق » أطلقت في كتاب الله تعالى على إدريس وإبراهيم ويوسف ، بمعنى ، ثم على مريم وكل مؤمن بالله والرسول بمعنى آخر .

هذه كلمة ولنا كلمة أخرى ، وهي أن الصديق رتبة من أربع رتب رسمية ، ولقب من ألقاب أربعة سماوية ، وهي نبي ، صديق ، شهيد ، وصالح ، وهؤلاء الأربعة هم المنتم عليهم في قوله تعالى : ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ﴿٦:١٠١﴾ والدليل على ذلك كله قوله تعالى : ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ، وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ ﴿٦٨:٤﴾ .

وجوب التزام الادب عند مخاطبة النبي (ص)

الملاحظة السابعة — قال علماؤنا : يجب الأدب مع النبي ﷺ في حين خطابه ، أخذاً من قوله تعالى : ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ ﴿٦٣:٢٤﴾ ، فلا يجوز أن يخاطب بيا محمد أو يا أحمد ، ولكن بلقب الرسول والنبي ونحوهما بما فيه احترام له عليه السلام ، ولو قيل : يا محمد خاتم النبيين مثلاً ، جاز ، لأنه وإن يكن نداء باسمه ، لكنه قد أتبع بلقب احترام .

ولقد التزم « الشرايبي » الآن هذا الأدب مع يوسف عليه السلام حيث أتبع لفظ العلم بلفظ اللقب .

٨٨٠ قوله لعلمهم يعلمون بدل اشتغال من قوله لعلي. أرجع الى الناس آ (٤٦)

قوله لعلمهم يعلمون بدل اشتغال من قوله لعلي أرجع الى الناس

المحوظة الثامنة — ربما كانت قوله ﴿لعلمهم يعلمون﴾ بدل اشتغال من قوله ﴿لعلي أرجع الى الناس﴾ ، والله أعلم .

الوجيز في القرآن

المحوظة التاسعة — يوجد بين قوله : ﴿أنا أنبئكم بتأويله فأسئلون﴾ وقوله : ﴿يوسف ، أيها الصديق .. الخ﴾ إيجاز لطيف مقبول معهود ، والمعنى :

أنا أنبئكم بتأويله ، فإني أتذكر اليوم أن حضرة الملك لا مسخط عـ. ليّ وعلـ
« الخباز » وجبنا ، رأى كل منه حلماً ، وكان في الحبس غلام عبراني ، عبد
« لمز مصر » قصصنا عليه ما رأينا فبهـ لنا ، وكما عبر حدث ، إذ ردني الملك
الى مقامي ، وأما « الخباز » فعلى ، فلا أعلم أحداً أصدق منه عبارة العراقي ،
فأرسلوني اليه لاستعبره ، فأرسل الى يوسف ، فأثاء فقال له : « يوسف أيها الصديق
الخ » ، ولهذا نظرنا في اللغة العربية وفي القرآن الكريم ، لا تحصى كثرة ، وهي في
القرآن نحو الـ ٥٠ أو يزيد ، واليك بعض الأمثلة .

١- قوله تعالى : ﴿فَسَجِدُوا لِلْإِبْلِيسِ آمَنَ وَاسْتَكْبَرَ ، وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ
وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ (٢: ٣٥ و٣٤).

٢- قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ : يَا قَوْمِ إِنَّمَا ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ
بَاتِّخَا ذِكَّ الْمَجَلِّ ، فَتَوْبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ ، فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ، ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ
فَتَابَ عَلَيْكُمْ ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (٢: ٥٤) ، والمعنى ففعلتم ما أمركم به موسى
فتاب عليكم باريكم .

٣- قوله تعالى . ﴿وَإِذْ اسْتَمَقَّتْ مَوْسَىٰ لِقَوْمِهِ ، فَقُلْنَا : اضْرِبْ بِعَصَاكَ

الحَجَر... فانفجرت منه اثنتا عشرة عَيْنًا ﴿٢٠:٦٠﴾ والمعنى فضرِب فانفجرت.

٤- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ، وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ، فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ، وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ...﴾ (١٧٣:٤ و ١٧٤) والمعنى وأما الذين كفروا بالله واعتصموا بالطاغوت، فسيدخلهم في نقمة منه وغضب، ويسلك بهم الصراط الأعوج.

٥- قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ... أَنْ تَضَلُّوا﴾ (١٧٥:٤) ومعناه. كراهة أن تضلوا.

٦- قوله تعالى: ﴿لَا يُؤْخِذُكُمْ اللَّهُ بِاللَّذِينَ فِي أَيْمَانِكُمْ، وَلَكِنْ يُؤْخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ... فَكَفَّارَتُهُ.. الخ﴾ (٩٢: ٥)، والمعنى ولكن يؤخذكم بما عقدتم الإيمان إذا حثتم، فكفارته الخ.

٧- قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ، فَعَلَيَّ إِجْرَامِي... وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾ (١١: ٣٥) يعني ولم يثبت ذلك، وأنا بريء من إجرامكم في. اسناد الافتراء إلى.

٨- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَنْ يُجْعَلُوا فِي غِيَابَةِ الْجَبِّ...﴾ (آية ١٥)، جواب «لَا» محذوف، ومعناه فعلوا به ما فعلوا من الأذى.

٩- قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ... وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ.. الخ﴾ (آية ١٨ و ١٩)، فهنا كلام محذوف تقديره، وبعد أن ذهب آباء الأسباط. لأبهم، ونموا له أخاهم، وقال أبوم ماقال، ومضى مدة من الزمن ويوسف في الجب. «جاءت سياراة الخ».

١٠ - قوله تعالى : ﴿ فَارْسَلُوا وَارِدَهُمْ ... فَأَدْلَى دَلْوَهُ ... قَالَ بِإِشْرَى هَذَا غُلَامٌ ﴾ (آية ١٩) ، والمعنى أرسلوا واردهم ، فذهب حتى وصل الجب ، فأدلى دلوه ، فتعلق يوسف بالرشاء ، فلما خرج إذا هو بقى أحسن ما يكون ، فقال بإِشْرَى الْخ .

ويوجد في كتاب الله تعالى الشيء الكثير من هذا القبيل الذي لو تتبعناه لخرجنا عن الصدود فيما ذكرنا كفاية المستبصرين .

تأويل يوسف لرؤيا الملك

آية (٧) : « قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا ، فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ ، إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ » .

افتتحت الجلسة وتليت الآية السابعة والأربعون فقام السيد صدر الدين الدمشقي وقال :

(قال) يوسف غاطباً الشرايبي : أريد أن آتيك بالتعبير على وجهه (زرعون) أي ازرعوا جميع أراضيكم (سبع سنين دأباً) - بسكون الهذرة وتحريكها وها مصدر دأب في العمل وهو حال من المأمرين أي دائبين إما على تدأبون دأباً ، وإما على إيقاع المصدر حالاً بمعنى ذوي دأب فتأتي زرع أخصب زرع وبريع أحسن ربيع حتى أن قطعان الغنم تختفي عن الأبصار بين أعشاب الربيع وحتى أن الجاموسة بطولها تنحجب في المراعي بين الأعشاب ذلك لمظمة قوة الانبات وجودة التربة وكثرة الإبل في تلك السنين (فما حصدتم فذروه) اتركوه وأبقوه (في سنبله) لئلا يتسوس (الا قليلا مما تأكلون) ، فهذا لا بأس أن ندرسه وتذروه وتخرجون

حبه ونيزوه من تبته تهيتونه لأجل أكلكم وقوتكم ، وبما أن هذه المسألة مسألة أساسية ، حيوية ، ينبغي لكم أن تمتوا بها ولا تخالفوا ماقلت لكم .

(قال : تزوعون سبع سنين .. الخ)

— ١ —

ثم ألقى العلامة الديري^(١) البيان التالي :

تعبير يوسف لرؤيا الملك يبسط التدبير اللازم

جاء الشرايبي بن معه من الجند ، وقص على يوسف تلك الرؤية ، فلما سمع منه يوسف ذلك ، لم يكن إلا كلعج البصر أو هو أقرب ، حتى أمعن في بيانه وجوابه وقال : على الخبير سقطت ، ولا ينبئك مثل خبير ، إن هاتين الرؤيتين ستحدثان تبدلات خطيرة في الموقف الحاضر ، إذ السماء نظمت برناجاً جوباً أرضياً وسوف تطبقه عليكم ، ولا مفر من ذلك ولا محيص غير أنه يمكن تخفيف وطأة مواد هذا البرنامج السباوي ، فإذا كان قدراً قابلاً به بقدر مثله ، وهو العمل على تلطيفه ما أمكن ، ولذلك أقول لكم تأتي على مصر أولاً سبع سنوات هي سنوّ جذب وقحط هي موت زفاف ، تفعل في الناس ولا فعل الحروب والأوبئة ، إلا إذا تدورك هذا الخطب الجلل ، وتتلطّف هذا البلاء العظيم ، بحسن التدبير والحكمة ، والاقتصاد القويم ، فهذه طريقتي تضمن لكم الفوز ، وتؤمنكم من الخطر الذي يريد أن يحدق بكم فازرعوا كمعادنكم سبع سنين دأباً ، عادة مستمرة ، كما كنتم تزرعون سائر السنوات السابقة قبلها ، بدون أن يتخلل تلك السبع سنة واحدة بغير زراعة بأن تتركوا الأرض بوراً مثلاً فما جززتم وقطعتم بالمتجمل فذروه في منبلة

(١) نسبة الى دير الزور من بلاد الشام « سورية » .

لئلا يتسوس إلا قليلا ، أي يسيراً ، فانه لا بد لكم من فصله عن سنبله واخراجه منه لأجل أكله ، الأمر الذي يميزكم لوجود عامل صاحب مهمة عالية ، ينشطكم للاعمال الزراعية وتمميمها وتقوية أصحاب الأراضي وتفهمهم مايلزم عمله .

سر هذا اجابة يوسف بتعبير رؤيا الملك دون قيد ولا شرط

وتابع العلامة الديري قوله : إن لي على ما سبق ذكره ملحوظة واحدة وهي أن يوسف (ع) أجاهم على القور ، ولم يشترط أن يخرجوه لقاء ذلك ، لأنه كريم ، وشأن الكريم عدم الإبطاء والاخلاص في الاعطاء . عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (ما أتى الله عالماً علماً إلا أخذ عليه الميثاق أن لا يكتمه) ، وعن علي كرم الله وجهه : (ما أخذ الله على الجاهل أن يتعلموا حتى أخذ على العلماء أن يعلموا) ، وقال المسيح عليه السلام للجواريين : (مجاناً أخذتم ، مجاناً أعطوا) وببارة أخرى : إنما أفناه يوسف مع إنه كان عهد إليه بتوسطه له عند مليك مصر ولم يفعل ، وإغابسط له التدبير اللازم وكيفية تلطيف هذه الأزمة التي سنحل بالمصريين ، مع أن المصريين هم الذين سجنوه ظلماً ، لأن النصيحة من الايمان ، وكاتم العلم ملعون ، ولأن الذي سجنه إنما هو واحد فقط وهو « فوطيفار » ، وكذلك الذي نبي أن يذكر حال يوسف ومظلمته للملك إنما هو أيضاً واحد ، وهو « الشراي » ، فكيف يمتثل يوسف بالعلم وحسن التدبير ، بذنب رجل أو رجلين ؟ (مرحي)

(قال : نزوعون سبع سنين .. الخ)

— ٢ —

ثم قام المحقق الانطاكي ^(١) وقال ليسمح في السادة الافاضل بالتحقيقات

(١) نسبة الى انطاكية من بلاد الشام « سورية » .

التالية لشأن سياسة يوسف في مجاعة مصر وفي بعض الالفاظ التي وردت في هذه الآية الكريمة :

تدبير يوسف الاقتصادي لأهل مصر

١ — وضع يوسف هذا التدبير الاقتصادي لأهل مصر ، في ذلك العصر لقلة طرق المواصلات ، وضعف وسائل النقل البرية والبحرية ، إذ لم يكن أمن مستتب بين مملكة وأخرى ، كما لم يكن هناك سفن بخارية في البحر ولا سكك حديدية في البر ، فلذلك كان إذا حصل قحط في جهة من الجهات أثر عليها تأثيراً كبيراً ، أما لو كانت الحال على ما نحن عليه اليوم من اتصال الممالك بعضها ببعض ، وتسهيل طرق التجارة براً وبحراً وجواً وتيسير أسباب النقل بسرعة ، لما كان لذلك القحط تأثير يذكر .

ملكية الحاصلات في مصر

٢ — تنص هذه الآية أن يوسف أمرهم بادخار جميع الحاصلات في سبع سنين الخصب في سنابلها ، والظاهر أن هذه الحاصلات هي ملك لأربابها الأهالي ، وأما الحكومة فلا سيطرة لها عليها إلا بأن أجبرتهم على هذه الطريقة أو شوقتهم إليها وحببتهم فيها ، وهذا ما تعلمه من كلام الله تعالى ، وللمفسرين هنا نقول في كيفية خزن الحكومة لهذه الحاصلات ، ثم بيعها للأهالي بالفضة حتى نفذت ، ثم بالواشي والخيل والحير حتى نفذت ، ثم بيعت لهم بأرضهم وأنفسهم بأن صارت الأرض ملكاً للحكومة ، وصاروا هم عبيداً للحكومة ، فكتاب الله تعالى لا يشير لشيء من هذا ، بل ظاهره ينافي ذلك ، وإنما هو شيء نقلوه من (تك ص ٤١ : ٣٤ — ٣٧ و ص ٤٧ : ١٣ — ٢٦) ونحن إذا تعارض كتاب الله مع سواه من التواريخ يجب علينا الرجوع لكتاب الله فقط ، ورفض ما يخالفه ، والله أعلم .

الخبر في معنى الأمر والانشاء في قوله «تزرعون»

٣- قوله «تزرعون» خبر في معنى الأمر والانشاء كقوله : ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ، ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ، يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ، وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ . الخ الآية ﴾ (٦١ : ١١ و ١٢) ، فهو خبر في معنى الأمر ، ولهذا أجيبه بقوله : (يغفر لكم) ، وإنما يخرج الأمر في صورة الخبر للمبالغة في إيجاب إيجاد الأمور به ، فيجعل كأنه وجد فهو يخبر عنه ، والدليل على كونه في معنى الأمر قوله : (فذروه في سنبله) .

وهذا أسلوب عربي فسد جرى عليه القرآن كثيراً ، لو لاحظناه المفسرون لما وقعوا في كثير من الآيات في حبس يص ، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ (٢ : ٢٧٢) وقوله تعالى : ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ (٥٦ : ٧٩) وقوله تعالى : ﴿أُولَٰئِكَ مَا كُنْ لَّهِمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ (٢ : ١١٤) وقوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ (٣٣ : ٥٣) وقوله تعالى : ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ (٤ : ١٤٠) وقوله تعالى : ﴿قَانِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُطَاقُوا جَوْلَكُمْ ، وَأَقْتَفُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ ، فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ (٤ : ٨٩) وقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تَجَارَةٍ نُنَاجِيكُم مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ؟ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ (٦١ : ١١) وقول النبي ﷺ : (لا يزال هذا الأمر في قرش ، هاتي من الناس اثنان) .

ادخار الحنطة

٤ — أشار بقوله (فذروه في منبلة) إلى رأي نافع بحسب طبيعة طعام مصر ونواحيها وحنطتها التي لا تبقى عامين بوجه ، إلا بحيلة لإبقائها في السنابل ، فلذا بقيت فيها . حفظت ويكون قصبه علفاً للدواب .

السنين والاعوام

هـ — أراد (بالسنين) السنين الشمسية ، لأن الموضوع موضوع زراعة ، وهي مركبة على السنة الشمسية ، فالمصريون هم أول من عرف بالسنين الشمسية ، لأنهم أول أمة اهتمت إلى معرفة الزراعة ، فلما مارسوها احتاجوا إلى سنة فلكية : لا تتغير فيها أوقات الفصول ، فعرفوا السنة الشمسية ، وقد كانت الزراعة ولا تزال هي الوسيلة الطبيعية لمعيشة المصريين وسعادتهم ، وكان أهم ما زرعه الشعير ثم القمح ثم الكتان والذرة ، وبعد ذلك صاروا يمتنون بزراعة القطن .

ثم إن لفظ (السنين) يستعمل لسني الجذب والقحط ، ولفظ الأعوام يستعمل في أعوام الخصب والخير ، وعلى ذلك قوله تعالى : ﴿ فَلَئِنْ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ (١٤:٢٩) ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الشَّجَرَاتِ ، لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (١٢٩:٧) ، ومنه الحديث في صحيح مسلم : ﴿ إِذَا سَافَرْتُمْ فِي الْخَصْبِ ، فَاعْطُوا الْإِبِلَ حَظَّهَا مِنَ الْأَرْضِ ، وَإِذَا سَافَرْتُمْ فِي السَّنَةِ فَاسْرِعُوا عَلَيْهَا السَّيْرَ ﴾ ، وإنما لم يعبر يوسف بكلمة « أعوام » . ههنا ، بل عبر بكلمة « سنين » ، مع أن هذه السنين هي سنو خصب وخير ، لأن هذه القاعدة إنما يجري عليها في غير مقام العدد والاحصاء ، أو لأن اللغة العبرانية ، لا تعنى بهذا الفرق الدقيق الذي هو من مزايا اللغة العربية ، أو يقال : إن هذه القاعدة غالباً لا مطردة .

اقسام الاعوام الصحيحة

٦- قد علم من تمييز يوسف حلمي « الملك » وحلمي « الثوراي » ، ود الحجاز «
 إن الأحلام الصحيحة على ثلاثة أقسام : منها ما يستر حياءً ، فليرحم رئيس اسفاة
 السابق ، ومنها ما يسوء صاحبه قطعاً ، ولبس له رد ولا فيه جلالة ، وشاله مارآه
 رئيس الحجازين ، ومنها ما لا يدعو الى السرور . وربما خيف منه إذا لم تستعمل
 فيه الحكمة ، وبفعل فيه ما يلفظه ، مثل حلمي « الملك » المذكورين ، فهو كما قلنا
 لا يدعو الى الفرح والاطمئنان ، ولا يروح له القلب ، لكن إذا وثق فيه الانسان
 لاستعمال الحكمة وسلوك سبيل الاقتصاد وتدبير هذا الحادث الهام ، تطففت هذه
 النازلة ، فما رآه « الملك » هو من قبيل القضاء الساوي الذي يمكن تخفيفه
 بالالطاف الالهية ، على يد عبيده الحكماء ، أمل المبصر والبصيرة ، على حسب ما
 أشار اليه يوسف عليه السلام .

معنى الدأب

٧- أصل الدأب مصدر دأب في العمل إذا كدح فيه واجتهد ، وعليه ففناه
 تجدون في هذا الأمر ، وتصرفون فيه عنايتكم ، وقرغون فيه مجهودكم ، وقد
 يوضع موضع ما عليه الانسان من شأنه وحاله ، فيكون معنى العادة واليدن ،
 . وحيث تقيد المادة الدوام والاستمرار ، أي ترعون سبع ستين ، على حسب
 عادتكم وشأنكم وسابق عملكم ، قال تعالى : ﴿ كذأب آل فرعون ﴾ (١٣٠ : ٣)
 وقال : ﴿ مثل دأب قوم نوح ﴾ (٤٠ : ٣١) أي مثل عادتهم الجارية المستمرة
 الدائمة ، ويجوز أن يكون لفظ « دأباً » هنا ، ظرفاً زمانياً ، بمعنى دائماً لأن
 « الدائب » هو الدائم والمعنى : دائماً في كل مدة السبع سنين ، كما قال : ﴿ وسخر

لکم الشمس والقمر دَابَّینِ ﴿١٤: ٣٣﴾ أي يدأبان في سيرهما ، ومجدات على مدى الأيام .

والحاصل إن لكلمة « دأباً » ، ثلاثة معان في اللغة : المعنى الأول ، الجد والتعب ، والمعنى الثاني « السَّوْق الشديد » ؛ والمعنى الثالث ، الشَّان والعادة ؛ وهذا المعنى الثالث هنا ، يرجع للمعنيين الأولين ، لأن شأن أهل مصر وعوائدهم المعروفة عنهم في الزراعة ، هو الجد والتعب فيها والسوق الشديد .

فالمصريون أول من عُني بالزراعة ، كما ذكره المؤرخون ؛ وبالنسبة ، فكل واحد من المعاني الثلاثة للكلمة « دأباً » يرمي الى التوصية بالنشاط والعناية في واجبات زراعتهم لمدة السنين السبع ، وهذا أمر لازم وضروري جداً لأن الاتكال على الطبيعة وحدها لا يكفي .

(إذا ذكر المحققون خيلاً بالفاضل الانطاكي)

نعمة تعبیر يوسف لرؤيا الملك

آ (٤٨) ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ ، يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ ، إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تَحْصِنُونَ ﴿٤٩﴾

استمر انعقاد الجلسة وتليت الآية الثامنة والاربعون فقام مولانا ناصر الدين التونسي وقال :

أضاف يوسف الى قوله السابق قوله : (ثم يأتي من بعد ذلك) سنون (سبع شداد) جمع شديدة (يأكلن) أي يأكل أهلن من الاستاد المجازي أي جمعل . أكل أهلن مستنداً اليهن - ، (ما) كنتم (قدمتم) وادخرتم (لهن) وهو الذي

تركتموه في سنبله سابقاً (إلا قليلاً مما نحصون) تحرقوت وتخبثون لأجل
بذر الأراضي في العالم الخامس عشر .

في هذه الآية تابع يوسف عليه السلام نعيم رؤيا الملك بقوله تأتي ببد
سني الخصب السبع السابقة سنون سبع شداد ما بين حمر ، و بين يضر ، وتجذب
فيها الأرض ، ويقل ماؤها ، وتغار عيويتها ، ويذري قبتها ، ويسس شجرها ، فلا
وابل ولاطل ، ولا رش ولا رذاذ ، سنون سبع شداد تأتي باللازمة ويعم الناس
فيها المدم ، سبع شداد حائلة ، حارقة ، تأتي على الزرع والصرع ، ويخمس فيها
القطر ، ويجف النيل ، ويسوء أثرها في الانسان والحيوان ، أرض جرد
وعمام جهام ، سبع سنون شداد ، بحر فيها الشجر ونهلك الاموال ، ونقطع السبل
ولا يرى في السماء قزعة ، سبع شداد ، يأتي على الاخضر والباس ، ويهلك
الحرث والنسل ، ويضعف من الاتقان والحيوان ، حتى كانه يحبل للانسان أن
مواد الارض المتبخرة ، اصطلم بعضها بيمض ، فداع وقتح فيها نوهات ، فخرج
لحمها ونارها ، من ههنا وههنا ، فحرق كل ما سبلته من نبات وشجر وحيوان .
سبع شداد هي البقرات السبع الجفاف والسحاب السبع الباسات ، كما أن السنين
السابقة ، هي البقرات السبع الحان ، والسحاب السبع الخضران ، سبع شداد
﴿ يا كلن ما قدمتم لهن ﴾ وبذهب ادراج الرياح لانه ما كان الا قليلاً مما تحصون .
في الحصن الحصين الذي لا يوصل الى جوفه تمرزون فيه أو تخبثون أو تحرقونه
أو تدخرون بقدر الزراعة وللإعالة أيام الشتاء .

وبذلك تكونون قد تخلصتم من كابوس الجوع وبراثن اللحم ، فإن علمتم
اوضحت لكم ، كيفتم شر هذه السنين الاوازم ، ولا يكون حقاً لا بواسطة
مرشد يهديكم سواء السبيل ، وعيقري يصلح من شؤون حاصلات الارض .

تكلم يوسف عليه السلام بهذا الكلام والسكوت سائداً في تلك الجلسة لا يبدأ

أحدهم بكلام ، ولا ينطق بينت شفة ، ولكنهم كانوا يتناولون باعناقهم لاستماع فتوى يوسف وعبارته رؤيا جلالة الملك ، وارشاده لهم ماذا يعملون ؟. ولقد اعتقدوا ان فتواه هذه ليست مستندة لمراجعة أسفار تعبیر الاحلام ، ولا لتعليم أحد من الناس ، ولكنها صوت من أصوات السماء ، فتقبلوه بكل اخلاص ، وعندما أرادوا الذهاب قال له مندوب الملك بورك في بطن حواك ؛ وثدي سقاك ، وحجر طواك ، لقد أحسنت سابقاً ولاحقاً ، فلك الشكر مرتين ، كما تفضلت اننتين.

وحاصل القول ان يوسف عليه السلام علمهم أن يقتصدوا من السنين الاولى ويدخروا الحبوب للسنين الجديدة عملاً بقول الناس : « إخبأ درهمك الابيض ليومك الاسود » ، فيكون يوسف لفت فكرهم للاقتصاد ، وهكذا فنحن نرى ان « للاقتصاد » اليوم شأناً من شؤون بني اسرائيل (أو اليهود) حتى في حال البسر فضلاً عن السر.

وبعد فهل كانت تدبير يوسف عليه السلام رافعاً للشدة من أصلها ، بحيث لم يلحقهم في هذه السنين جوع أبداً ، أو ياترى انما كان تدبيره عليه السلام مصلحاً وتخفيفاً فقط من شدة وطأة الجوع؟

لا بل كان الشق الثاني ، بدليل حديث البخاري : ﴿ اللهم اشد وطأتك على مصر ، اللهم اجعلها سنين كسني يوسف ﴾ ،

يوسف يبشر باتهاء أزمة رؤيا الملك بالبركة والخصب

آ (٤٩) ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ ، فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ ،
وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ .

تابع الوئيل انقضاء الجلسة ثم تليت الآية التاسعة والاربعون فنهض
الشيخ الأرونجاني^(١) وقال :

قضى يوسف كلامه بقوله : ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ ﴾ خصيب مريع
﴿ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ ﴾ الفلاحون — من الفوت أو من النيث ، والنيث المطر ،
وغاث الغيث الأرض أصابها ، وغاث الله البلاد ، وبأبها باع وغيث الأرض
تغاث غيثاً ، فهي أرض منيثة ومنيثة — ، ﴿ فِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ العنب والزيتون
والسمسم ونحو ذلك . يشرهم يوسف مدفراغه من تأويل حلمي الملك بأن العام
الثامن يجي مباركاً خصيباً كثير الخير غزير النعم ، وذلك من جهة الوحي أو من
جهة الفهم والذكاء ، إذ من المعلوم أن السنين الجديدة اذا انتهت كان انتهاءها بالخصب
(اشتدي أزمة تنفرحي) ، و (إن مع العسر يسرا) ، ومعلوم أن السماء كانت في
سني الجذب ضنطت بشدة ، على السحاب الذي هو امفتحة المطر ، ولذلك ولكون
شدة الضنط قول الانفجار ، علم طبعاً أن السنة الخامسة عشرة هي عام خير وخير عام .
(ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ ..)

— ١ —

ثم قام العلامة الدمشقي وقال : عندي على هذه الآية الكريمة عدة مسائل :

عزواخبار يوسف بحسن عاقبة الأزمة الى رؤيا

المسألة الأولى — لما كانت السنين الجديدة سبباً ، لكون « العجاف » سبباً ،

(١) نسبة الى مقاطعة ارزغان الواقعة في شمال غرب ايران .

وقطعاً لا تزيد على هذا العدد ، صار من المعلوم بالضرورة أن الحاصل بعد انقضاء القحط هو الخصب ، إذ ما بعد الشدة إلا القرح ، فلذلك فهم يوسف أن العام الخامس عشر هو عام خير و ميثر وهصر وعصر . ولكن المفسرين لا يريدون أن يحملوا ذلك من يوسف عليه السلام على مجرد الذكاء ، بل نسبوه الى الوحي السماوي كأننا الانبياء الكرام يحتاجون الى الوحي في أبسط الأشياء التي يفهمها أقل الناس فهماً ، قال الشاعر :

عسى فرج يأتي به الله إنه : له كل يوم في خليقته أمر
عسى ماترى أن لا يدوم وأن ترى له فرجاً مما ألح به الدهر
إذا اشتد عسر فارح يسراً فانه قضى الله أن العسر يتبعه اليسر

عناية قدماء المصريين بالحدائق والبساتين

المسألة الثانية — كان المصريون القدماء يعنون بالحدائق والبساتين ، وكان لها عندهم نظام دقيق ، تكثر به الفواكه وتنفّر ، وكان العنب والبلح أكرم الثمار التي اشتهرت بها مصر في تلك الأزمان الخالية (عمر الاسكندري) .
وعليه فكانوا يعصرون العنب والبلح ويمسحوا بمصر أيضاً الزيتون والسمن والمشمش والمان والليمون والورد والزهو والخروب والقراصيا والتوت والتفاح ، وهكذا الضروع تمصر لتجلب .

بشرى يوسف للمصريين بحسن خاتمة الروبما

المسألة الثالثة — وجد يوسف هذه النهضة فأحب أن يفتنهما ، وقدم له هذا السؤال ، فأحب أن يستثمر من جوابه ، فلم يقتصر على تأويل رؤيا الملك ، تأويلاً بسيطاً حسب عادة العابرين للاحلام ، بل علمهم ، بما سبق من الآيتين ، ماذا يصنعون ، ودبر لهم الخرج مما عساه أن يصيبهم ، وأخيراً ، ههنا ، بشرهم بحسن

الخالقة ، اذ قال لهم : « ثم بعد انتهاء هذه السنين السبع يأتي عام خير وير فيه بقاء الناس بالامطار ، كأنما جادت عليهم مياه الحيط ، وفيه بعصرت ما يصر ولا استخراج عصيره ، وعند ذلك يتمدك درهمكم ديناراً ، وتقلب أتراسكم أرواحاً ، وتستحيل أصوات الاضطراب الى أصوات سرور وطرب ؛ هذا أكبر علمي الذي وحيته ربي في هذا الموضوع الذي سألتكم عنه ، وهذا الجواب الذي أستنبطه باجتهادي حسب الأسس والقواعد التي علمتها ربي ، وهذه وصاتي إليكم ، فليكنكم أن تأتمروا بها ، وإلا .. على مصر السلام ، فإن هذا امر قد قدر وقرعته ، وصار عند ربكم حتماً مقضياً . »

لطف الله بالمصريين عهد بر يوسف

المسألة الرابعة — كآتي بالمدون « قيو » لا سمح جواب يوسف عليه السلام جزاءه خيراً ، وقال له : (سأحل جوابك هذا الى حلالة الملك ، وسبكون ذلك السبب الوحيد في خروجك من هذا المختل) .

نعم إنه سمع جوابه كأنه وحي صادر من أفواه الملائكة ، وبالمحل علم ذلك يكون الله قد لطف بالمصريين بلطفه فيما جرت به المقادير ، ولكن عن يد يوسف عليه السلام .

انفعال يوسف تكبير ذكره عند الملك في هذه المرة

المسألة الخامسة — لم يقل يوسف في هذه المرة الثانية « الشراي » : (اذكرني عند ربك) ، ربما لكونه تصور أن سيكون حظه في هذه المرة بقول « الشراي » : (لعلني أرجع الى الناس لعلهم يعلمون) ، فإن في هذا القول ما يطمئن برحمت الله سوف لا ينساه ، ومع ذلك فهو في هذه المرة اعتمد على أنهم بالطبع سيخبرون علمه

وفضله ، ويضطرون لآخرأجه من معتقله بدون رجاء ولا شفاعة ، للاستفادة من إرشاده ومشورته لهم .

تدبير يوسف ازمة المصريين بنفسه

المسألة السادسة — هكذا أرشد يوسف المصريين ، وبين لهم المخرج من المصيبة التي ستحل فوق رؤوسهم ، ودبر لهم طريق النور فيما يعملون ، ونصح لهم بكلامه فيما يجرون ، ثم نصحهم بفعله بأن باشر هو بنفسه تدبير شؤونهم وحمل على عاتقه الاتاب ، لأجل راحتهم وسلامتهم ؛ قال هذا ثم فعل هو حسبما قال :

مقابلة بين « الملوك » الجاهل والمؤمن يوسف العالم

المسألة السابعة — هنا يتجلى الفرق بين من يفهم ومن لا يفهم — بين العالم والجاهل — بين النور والظلمة ، فأولئك « الملوك » بدم فهمهم نزلوا للحضيض الاسفل ، وترك ذكرهم كآتهم أموات ، وهذا العبد العبراني يفهم وعلمه ترقى الى أعلا الدرجات ، ولا بدع ، فعبارة رؤيا ملك مصر ، أكسبته حبه إياه ، وحسن اعتقاده فيه ، وسرعة الاتصال به ، واستخدامه في البلاط كوزير مالية ، وكعزير مصر ، وكوكيل عن جلالة الملك ، فكان في البلاط ثاني الملك .

أبن فوطيفار في هذه الازمة

المسألة الثامنة — يجدر بنا هنا أن نتفقد « فوطيفار » ونسأل عنه أين هو ؟ فان أزمة الملك وحيرته في رؤياه المتنامية لم تحل الا على يد عبده العبراني السجين ، وأما ذاته « الشريفة » ! ! فكأنها في هذه الضيقة لم تكن شيئاً مذكوراً ؛ وبمينا إنه لو جرد من لقبه ووثروته ووظيفته ، لم يبق في اليد منه شيء ، قال المعري :

لو يعرف الانسان مقداره لم يفخر المولى على عبده
 لو لا سبحانه وأخلاقه لكان كالمعدوم في وجده

الرؤيا على ما عبرت أولاً

المسألة التاسعة — قتل الطبرسي في تفسيره (جمع الهيئات) عن البلخي أن هذا التأويل الذي وقع من يوسف يدل على بطلان قول الناس: «إن الرؤيا على ما عبرت أولاً» قال: لأن الملائكة كانوا قالوا: «أضغاث أحلام»، فلو كان ما قاله هؤلاء الناس صحيحاً، لكان يوسف لا يتأولها، أنولده هو وهم، لأن قول الملائكة: «أضغاث أحلام» ليس من قبيل التأويل، ولكنه من قبيل التصل من التأويل كما هو ظاهر فأنهم... .

الفصل السابع

النصر بطلب يوسف (ع)

آ (٥) «... وقال الملك: ائْثُونِي بِهِ»، فلما جاءه الرسول... قال: ارجع الى ربك، فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن؟، إن ربِّي يكيدهن عليمٌ.»

افتتحت الجلسة ولعن الامة المحسونة فقامت السيدة انصاف الدمشقية وقالت:

النصر بطلب يوسف

كان رئيس السقاة قد رجع أدراجه من عند يوسف، حاملاً عبارة الرؤيا، وهو يطوي الطريق طياً، حتى حضر بين يدي الملك، فاقتص الملك منه القصة، وكان ينتظره وهو على آخر من الجمر، بحكاهاه كما سمع، فأعجب الملك بذلك،

وأحب يوسف ، « والأذن تشق قبل العين أحياناً » (وقال الملك) الريان بلهفة :
مرحى ! ، اذهبوا حالاً ، و (اثنوني به) فإن له رأياً سديداً وحزماً ، وإن لي
منه خير مشير ، لاسيما في الشؤون الاقتصادية . فأض رئيس السقاة ليوسف (فلما
جاءه الرسول) مندوب الملك المسمى « نبو » أخبره بما كان من الملك ، وطلب
منه أن يخرج من السجن ، فتأني يوسف وتثبت في إجابة الملك ، و (قال) للمندوب :
لإني سوف لا أخرج إلا بعد النظر في التحقيق عما نسب إليّ ، لذا أرجوكم
(ارجع) ثانية (الى ربك) جلالة الملك الريان (فأسأله) يا للعجب ! ! (ما بال
النسوة) المصريات الخمس ، عقيلات بعض أمراء البلاط (اللاتي) كن (قطن
أيديهن) يوم مادعين في بيت سيدي العزيز ! (إن ربي) الله سبحانه وتعالى
(بكيدهن عليم) كيدهن الذي سبق لي منهن منذ بضع من السنين ، والذي
أرجو بفضل البحث والتحقيق أن يرتد في نحورهن .

وقد قدم سؤال النسوة ليظهر براءة ساحته عما قرف به وسجن به ، لئلا
يتساق به الحاسدون إلى تقبيح أمره عند الملك ، أو يجملوه سلماً إلى حط منزلته
لديه ، ولئلا يقولوا : مامكت في السجن بضع سنين إلا لأمر عظيم ، وجرم كبير
حق به أن يسجن ويمذب ويستكشف أمره ، ولأنه لو خرج قبل أن يعلم الملك
والعزيز بشأنه ، لما زالت في نفسها بقولان فيها : هذا الذي كان راود سيدته ،
فأشفق من أن يرى مشكوكاً في أمره ، فأحب أن يزول عنه كل ريب فطلب
التحقيق ، وفيه دليل على أن الاجتهاد في نفي التهم واجب وجوب اتقاء الوقوف في
مواقفها ، في الحديث : (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفن مواقف التهم) .

(وقال الملك : ائتوني به ... الخ)

— ۱ —

وقال العلامة قهر الدين من علماء بلدة كواش في الهند (۱) :

الملك يطلب يوسف فيرفض الخروج من السجن قبل تبرئة ذمته

بعدما رجع رئيس السقا (نبو) من عند يوسف الصديق عليه السلام وقص على ملك مصر تأويل حلمه ، كما كان قص عليه حادث اعتقاله ظلماً ، مع بيان ترجمة حالة ، أكبر (الملك الريان) يوسف وأعجبه منه حسن عبارته الرؤيا ، ولا سيما بعدما عبرها له ، عرفه ماداً بصنع ، كما أهدأ كبير اعتقاله قائلاً : يا لظلم ويا للعار ! رجل كهذا يحبس دون تحقيق أو إقامة دعوى ، بل دون إثبات جريمة ، بل بعد براءته من تهمة الجريمة ، وأخيراً دون أن يكون لي علم بحبسه ، ؟ ! ! يظهر أن في الأمر دسيسة ، انهضوا اذهبوا حالا دون توقف ، وائتوني به ، فإني أراه حسن الرأي ، يستداليه في الأمور ، وتلقى اليه مقاليد الأحوال ، ويؤخذ رأيه في الحوادث والنوازل ، ولا عرو . قال الملك لا يستطيع ضبطه إلا بالوزراء والأعوان ، ذوي الرأي الصائب ، والتدبير البالغ ، وإن هذا العبراني خلقت أن يكون (المستشار الاقتصادي) في البلاط أو في رجال المية ، ليرجع اليه في الشئون وليدأ كر في المهام .

فعاد رسول الملك إلى يوسف ، ووجهه يتهلل فرحاً وبشراً ، فبادره يوسف قائلاً : أهلاً بالمندوب الكريم ، أراك أسرع الرجعة ، قل ما وراءك يأخا القبط — قال المندوب : أئشريا أخا العبرانيين قد آآن أوان الفرج ، وآآن أوان خروجك من المعتقل ، فإن ربي عاهد الديار المصرية المليك الريان أنقذني اليك لأجل

شخوصك اليه ، وانه يريد أن تكون عتده ، وعند ذلك ثارت في يوسف عزة النفس ، وجرى في عروقه دم الشرف والحفاظة على العرض وحسن السمعة ، وأخذ يراجع المضايقات التي مرت به في بيت (العزيز) ويستعرض تلك التهمة التي أتت عليه ، فكادت تهدم شرفه من الأساس ، واستحضرتك الدعوى المزورة المشؤومة ، بمقابلة اخلاصه لهم ، وانتكر في اعتقاله ظلماً أمام أمانته ومحافظه على شرف (العزيز) وزوجه ، فرآهم قد قابلوا إحساناً بإساءة ، ومعروفاً بمنكر ، وأمانة بخيانة ، فشعر بديب ميله للانتقام للمرة الأولى في حياته ، وقال في نفسه : (إذا كانت الشريعة المصرية ، والقوانين الوضعية ، قد عجزت عن أن تنتصف للناس من الناس ، فلينتصف الناس لأنفسهم بأنفسهم) ، فاعتقد أنه لا بد أن يقتص بشخصه من شخصي العزيز وامراته ، كما اعتقد أنه لا بد من أن يسمى في براءة ذمته ، فلاجل هذين الغرضين لم يشأ أن يخرج من الحبس ، وتوجه بالخطاب الى المندوب قائلاً له أيها المندوب :

« أقول لك بكامل الحرية ، قد آن لي أن أعيش أو أموت ، فللملك أن يلبس التاج ، ويحمل الصولجان ، له أن يجلس على عرش الملك ويسيطر على جميع البلاد والرعيا ، له أن يوجه الرتب والأوسمة والانعامات لمن يشاء ، له أن يستز الأموال ويحكم على الاجسام ، له أن يعزل ويولي ، له أن يقرب ويبعد ، له أن يقتل الجرمين ، ويجزر الخائنين ، له كل ذلك ، ولكن ليس لمدالته وانصافه أن يكرهني على خروجي من السجن ، وعلى جهتي غيرة الاجرام ، بل أرغب اليه وأستمع فضله ، أن يصبر علي قليلاً ، حتى تجرى التحقيقات اللازمة عما نسب الي ، فان تبين أنني مجرم ، مكنت في معتقلي هذا البقية الباقية من عمري ، والا .. خرجت برأس عال ، ووجهة مرتفعة ، ونفس مطمئنة ، وثوب نقي أبيض ، لم تعلق به ذرة

٩٠٠ الملك يطلب يوسف قيرفض الخروج من السجن قبل تبرئة زمته آ (٥٠)

من غبار العار ، ولم تلوثه شائبة من شوائب الركنس ، بحيث لا أهاب ، ولا أغضي لشيء ، ولا أخجل من شيء ، فمع احتفاطي بالمطالبة بالتحقيق عن الاسباب التي دعت لاعتقالي ، سأمثل أمر الملك ، وأخرج اليه شاكرًا حسن رعايته وعنايته ، غير أنني أرجو أن ترجع الى ريك ، جلالة الملك الربان ، ونص عليه ما سمعت وما رأيت من حالي ومن أمري ، وأسأله ما بال الظعائن رسل الشيطان ، نساء بمض امراء البلاط ، اللاتي كن منذ بضع سنين جرحن أيديهن ، يوم ضياقتهن في قصر « العزيز » فأننا أريد أن أنقل الدعوى من محكمة « العزيز » الى محكمة « الملك » ، إذ أن ربي الذي كان قال سابقاً : (لأنه من كيدكن) هو اليوم أيضاً « بكيدهن » ، المعروفات به « عليم » ، بل هو أعلم أهل الارض بذلك ، فهو كان عرف كيد امرأته يوم حادثة « قد القيص » وهو إذا أنصف ورجع الى ما يعلمه حجة لي على سلامة شرفي ومكر سواي ، وإني أطالب بإلحاح الإمعان في البحث عن أسباب ذلك .

وأقول هنا نعم ما فعل يوسف عليه السلام ، وقد أصاب فيما أتى ، لأنه يريد أن يخرج من السجن موسوماً بالبراءة ، لابساً تاج الأمانة ، وهذا هو السائق بالحازم العاقل ، إذ لو خرج في الحال ، ربما بقي في قلب الملك من تلك الهممة أثر .

هذا وأما ما يذكره المفسرون من « حديث » يشتم منه الانتقاد على عمل يوسف ، وعدم تمييزه ، فعلى فرض صحته فهو آحاد ، والآحاد لا يؤخذ بها في باب العقائد ، وعصمة يوسف عليه السلام ، حتى من الغلط في عدم مبادرته للخروج عقيدة من العقائد ، لا يؤخذ في تفهيمها عنه إلا باليقين ، ولا يجوز أن يؤخذ فيها بالظن ، وعلى كل حال فلنا بل علينا أن نقوض الأمر في الحديث الذي يحتوي طعنني في نبي الى الله تعالى .

« وقال الملك ، انتوني به ... الخ »

— ٢ —

وقال السيد المراكشي لیسلمح لی السادة المستمعون بالقاء التعليقات التالية على هذه الآلة الكريمة :

البراءة أولاً ثم الخروج ثانياً

اولاً — جمل يوسف « براءته » في المقام الأول « وخروجه » من السجن في المقام الثاني ، فلم يكن طلب الملك له والافراج عنه ليهمة بمقدار ما يهمة براءة ساحته مما الصق به من العار .

تأدب يوسف بهرم ذكر اسم امرأة العزيز في قصته تبرئته

ثانياً — لم يقل يوسف « مابال امرأة العزيز » بل قال : « مابال النسوة » تأدباً معها وحفظاً لما رأى منها من معروف واکرام مثوى ، عندما كانت في بيتها وتحت يدها لأنه كريم ابن كريم ابن كريم ابن كريم ، لم يسمعه عليه السلام إلا أن يحفظ غض نظره عن ذكرها كرامة لمركزها ، قال الشاعر :

ما وهب الله لامرأة هبة أفضل من عقله ومن أدبه
هما كالفتى فإن فقدا ففقده للحياة أحسن به

سؤال بحقوق البراءة

ثالثاً — وقال يوسف المندوب سل الملك : « مابال النسوة » أي ما حالهن ، ولم يقل : « سله ان يفتش عن شأنهن » لأن السؤال مما يبيح الانسان ، ويحركه للبحث عما مثل عنه ، فأراد أن يورد عليه السؤال ليجد في التفتيش عن حقيقة

القصة ، وأراد قصّ الحديث ، حتى يتبين له برأته يا نأ مكشوخاً يتميّز فيه الحق من الباطل .

هوية الرسول الذي ذهب إلى يوسف

رابعاً — عندنا أن هذا الرسول ، هو رئيس السقاة الذي كان قال « فأرسلون » فهذه أول قرينة ، وقرينة أخرى ، وهي قوله : « الصدين » فهو يدل على أنه كان أخبره سابقاً وعرف صدقه في تأويل الأحلام ، ود الرسول « بمعنى المرسل أو البريد أو السفير أو المحضر أو المدوب أو المبعوث .

تسمية الملك رباً

خامساً — جرى اصطلاح الشعوب والممالك القديمة ، مثل ملكة مصر وبوذا واسرائيل وأشور والكلدان حتى العرب في الحريرة — على أن يسموا الملك رباً ، وكل من سواه عبداً ، وقد سبق تفصيل ذلك .

العلماء أعتبوا علم الملوك والعلم ولبس الملوك بأغنياءهم العلماء بالملك

سادساً — باحتياج ملك مصر ، وهو على أريكة ملكه ، إلى يوسف وهو في معتقله ظهر جليلاً أن العلماء أعتبوا عن الملوك والعلم ، وليس الملوك بأغنياء عنهم بملكهم . قال الشاعر :

إن الأكابر يحكمون على الوري وعلى الأكار نكمم العلماء

هبة اصطحاب سيدي

سابعاً — رأى يوسف أن « زليخا » غدرته باتهامه إياه ، وأن « قوطيفار » ظلمه بسجنه طيلة بضع سنين ، رأى ذلك ورأى أنه لا يقلل الحديب إلا الحديب ، فلماذا يسكت عن غدره وظلمه ؟ ...

فلا بد من أن يسأل عن سبب مسجنه ، ويفتح باب البحث عن تلك الحوادث الأولى على مصراعيه ، ليحيط « البلاط » بها علماً ، ويكون بذلك رمى حجراً قاصاب صيدين ، الأول وصوله لظهور براءته مما الصق به ، والثاني اظهار ان « عزيز مصر » و « امرأته » كانا قد غدراه وظلماه ، فاهتبل فرصة توجه « الريان » نحوه وجبه إياه فطلب ما طلب وهذا ما أعثرنا عليه الفتاح العليم ، وللمفسرين هنا كلام أستطيع أن أقول عنه إنه موجب للأسف .

الاجتهاد في نفي التهم واجب

ثامناً — الذي سهل على يوسف عدم المبادرة الى امتثال أمر الملك بالخروج اليه ، والذهاب عنده انه تصور في كرم أخلاق الملك أن سيعذره ويستغفر له ذلك أمام حرصه على براءة عرضه ، وفي سبيل اجتهاده على حسن سمعته .

وقدذكروا أن الاجتهاد في نفي التهم واجب ، فقد أخرج مسلم من رواية أنس : (ان رسول الله ﷺ كان مع إحدى نسائه فمر به رجل ، فدعاه وقال : هذه زوجتي .) — (فقال يارسول الله من كنت أظن به فلم أكن أظن بك) — فقال رسول الله : (إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم) وكأنه لهذا كان الزنجشري رحمه الله — وكان ساقط الرجل — قد أثبت عند القضاة أن رجله لم تقطع في جنابة ولا في فساد بل سقطت من ثلج أصابها في بعض الأسفار ، وكان رحمه الله يظهر مكتوب القضاة في كل بلد دخله خوفاً من تهمة سوء .

ديموقراطية حكم الملك الريان

تاسعاً — إنه لأمر معلوم أن الملك (الريان) أرسل مندوبه ليوسف ليأتيه به ، ولكن يوسف أي الخروج إلا بعد إجراء التحقيقات عن سبب مسجنه .

فناخذ من هذا انه قد كان مطلق فرد من أفراد الناس بمصر، حتى السيد الدخلاء كانوا يعيشون بمصر عيشة حرية شخصية آمنة بأجلى معانيها وأبعد مراميها، حتى مع نفس الملك القابض على ملكة مصر، سيدة ممالك العالم إذ ذاك، وإن هذا الملك كان ديموقراطياً بحتاً، يأمر بشيء في حق عبد خيل، قيأى عليه ذلك العبد امتثال أمره إلا بعد إجراء التحقيق، مع انه يحكمته الجمع بين امتثال إرادة الملك وبين إجراء التحقيق، فإن يبادر يوسف للخروج ثم يطلب من الملك ذلك، ولو فعل اليوم نظير هذا الأمر مع «مدير شرطة» لأخذته العزة بالآثم، وفقدت قيامة كبريائه، وعدل عن إخراجه من السجن ولا قلب له عدواً لرد آف لو قارنت هذا الملك (الريان) بأمر مقاطعة صغيرة، أو اهبط قليلاً قتل وزير من وزرائه، أو اهبط قليلاً قتل بوكيل الوزير، أو اهبط قليلاً قتل بالحفاظ أو المتصرف أو المدير، أو اهبط ثم اهبط ثم اهبط قتل بأمر الانضباط، إذا حاولت أن تقارن بين هؤلاء وبين مليك مصر الريان، وجملت الكبرياء ومحبة النفوذ وقوة النفس مقياس التمييز بين القويين لوجب أن يحتل هؤلاء عرش مصر ووجب على الريان، اللوديع المنصف أن يحل كرسي مأمور الانضباط.

سبب نزول الملك الريان على رغبة يوسف بدم خروجه

من السجدة قبل إجراء التحقيق في القصة المزعومة اليه

عاشراً — ترى أن ملك مصر (الريان) منذ حاسم (يوسف) وخبره وعلمه، بادر تَوَّأ لاطلاقه من معتقله، واسترسل في ذلك استرسالاً يفوق عوائد الملوك في تؤدتهم وترويحهم، وهو أمر يستوجب دقة النظر، وما هذا الحب والاحلاص الذي أظهره ملك مصر ليوسف قبل أن يراه؟! فقابل يوسف ذلك بالرفض، إلا بعد التحقيق عن التهمة التي وسم بها! هذا الرفض من يوسف

بدلاً من الشكر والامتنال ، كان يجب أن يتجهم عنه حقد الملك ، عليه . وكدره منه ، ولكن الأمر أتى على عكس ذلك ، إذ أمر بالمساعدة اللازمة بأجراء التحقيقات نزولاً على رغبة يوسف !!! فما سبب ذلك يأتري ؟

وعندنا أن الجواب عن ذلك ، هو أن ملك مصر اسويى أجني عن القبط الأفريقيين ، ويوسف كذلك (وكل غريب للغريب نسيب) فلذلك استرسل في إطلاق يوسف من معتقله استرسالاً ، وتساهل معه إذ رفض امتثال أمره بالاتيان إليه إلا بعد التحقيق وآثر التمشي مع الماطفة الوطنية على التمشي مع نزعة الصلف والكبرياء ، على أننا نظن قوياً أن هذا الملك (الريان) هو من العقلاء الرصحاء الذين ليسوا من ذوي المجرفة فلذلك نزل على إرادة يوسف عليه السلام .

دواعي عدم خروج يوسف من السجن

حادي عشر — إن لعدم خروج يوسف من السجن دواعي عديدة منها (١) أنه لم يرض المثول بين يدي الملك وأمره بين بين ، وحاله غامض ، وعاقبته مجهولة ، وبجمال الغض منه واسع لهذا أبى أن يخرج من السجن إلا بعد أن ينكشف أمره ، وتزول التهمة عنه بالكلية — (٢) أنه بهذا العمل لا يقدر أحد بعد خروجه من السجن أن يلمطخه بتلك الرذيلة ، وأن يتوصل بها الى الطعن فيه ، (٣) أن الإنسان الذي بقي في سجنه بضع سنين ، إذا طلبه الملك وأمر بخروجه ، فالظاهر أن لابد أن يادر بالخروج ، فحيث لم يخرج ، عرف منه أنه في نهاية التعقل ، وأعلى درجات الصبر والثبات ، وذلك يصير سبباً لأن يُعْتَقَد فيه بالبراءة عن جميع أنواع التهم ، ولأن يُحْكَم بأن كل ما كان يقال فيه كذب وبهتان . (٤) أن التماسه من الملك أن يتفحص عن حاله من أولئك النسوة يدل أيضاً على شدة طهارته ، ووثوقه بكسب الدعوى ، وبعبارة أصح : وثوقه بالبراءة ، اذ لو كان ملوثاً بوجه ما ، لكان يخاف من ذكر ماسبق ، ولا يريد أن يخطر ذلك على بال (٥) كان يوسف يخشى

أن يخرج وينال من الملك حظوة وتقريباً ، ويسكت عن أمر تلويثه ، فيراه الناس بتلك العين ، يقولون « هذا الذي كان راود امرأة العزيز عن نفسها ، انظروا له كيف صار من أهل البلاط ، انظروا له كيف صار مقرباً من حضرة الملك ، » .

كيف لم يخش يوسف من النسوة أن يكتمن حقيقة امره

ثاني عشر — لم يخش من النسوة أن يكتمن الحقيقة عندما قال (ما بال النسوة .. الخ) ، بما لا يحب كرامته إحداهن من قبل ، لأنه (١) رأى الحالة اليوم لاتساعد على إنكار الواقع ، فقد آن لسلطان الحق أن يغلب سلطان الباطل و (٢) هو قد ظن فيهن خيراً ، واعتمد على شرفهن فأثلا في نفسه : إن لهن ضميراً سوف لا يتصامن عن ندائه و (٣) لأنه كان يعتمد على « الشاهد » من أهل امرأة العزيز و (٤) كان يستأنس بكون هؤلاء النسوة قد سمعن بأذانهن اعتراف امرأة العزيز بأنها هي التي راودته عن نفسه فاستنصم ، وأشد اعتياده على امرأة رئيس السقاة ، التي كانت مدعوة فيهن ، ولا بد أن تكون أفشت لزوجها اعتراف امرأة العزيز و (٥) كان يعتمد أيضاً على شرف (عزيز مصر) الذي كان قنع قناعة تامة ببراءة يوسف ، وحصر التهمة في زوجه ، ولذا قال عنه ﴿ إن ربي بكيدهن عليم ﴾ ، وإنما كان حبسه يوسف حبساً إدارياً لأجل إبعاده عن زوجته ، و (٦) اعتمد على توجه نظر ملك مصر عليه ، وتمكنه من محبته ، وثقته بعلمه ودرايته ، ويوسف بعلم أن كل من توجهت عليه أنظار الملوك هابه الناس ، وأعظمته الرعية ، وأكبره الموظفون الذين هم تحت إدارة ذلك السلطان القاهر ، فصار بذلك أميناً من مكر هؤلاء السيدات ، نساء المستخدمين بعمية الملك .

كيف ينسب يوسف الكبير للنسوة ثم يطلب سؤا لهن عن قصة المرادفة

ولم يقع منهن شيء من ذلك

ثالث عشر — إن قال قائل : إن هؤلاء النسوة لم يكن من الكيد في غير

آ (٥٠) كيف ينسب يوسف الكيد للنسوة ثم يطلب سؤالهن عن قصة المراودة ٩٠٧

ولا فقير ، ولم يكن من المراودة في ورد ولا صدر ، فكيف ينسب لهن يوسف الكيد ، و يطلب سؤالهن ؟ .. وكيف يسألهن مندوب الملك عن مراودتهن ليوسف ؟ ولم يقع منهن شيء من ذلك ؟ ..

والجواب عن ذلك يعلم براجعة ما قيل في الآية ٢٨ والآية ٣٣ فراجعوه إن شئتم .

لم يقصد يوسف التستر بامرأة العزيز في طلبه التحقيق بل ظهور براءته رابع عشر — لا ريب أن يوسف عليه السلام لا يريد لأحد الرجال ، ولا لأحدى النساء ، أن يفتضح وتشيع فملته ، ولكن لامندوحة له عن السمي في ظهور براءته مما اتهم به ، وحبس من جرائمه ! حتى لا يخرج من السجن ، وهو مخفوض الرأس بين الناس ، فلذلك شرع في طلب التحقيق عن هذه الحادثة ، تذرعا للحصول على ملاك شرفه ، وقوام حسن سمته ، وهو ظهور طهارته من كل دنس الصق به زوراً . فلذلك رأى أن خروجه من السجن سابق لأوانه ، إنما أوانه بعد ظهور براءته ، وبهذا يسقط ما عساه أن يقال : كيف سعى يوسف في اشاعة الفاحشة ، وأحب تشهير تلك المرأة ؟

فضل يوسف ذلك على خروجه وشيكاً ، ضناً بشرفه ، وحسن سمته ، لأنه تصور في نفسه وصمته بإرادة السوء والفحشاء مع أهل « العزيز » وحبسه من جرائم ذلك ، لا يزالان عقبة كؤوداً في طريق خلاصه وحسن سمته ، وإنما من أعظم الموانع لوصوله لما تطمح إليه همته .

تنازع يوسف عند طلب الملك له عاملان : عامل التزول على إرادة عاهل مصر ، ومحبة النفس لمبارحة الحبس ، وعامل الشهامة والعزة ومحبة ظهور البراءة من كل لوث ، ففضل المشي مع العامل الثاني ، فقال لارسل (ارجع .. الخ)

سعة صدر الملك الريان

خامس عشر — لم يعضب الملك على يوسف ، لأنه رفض نعمته عليه ، ولم

يطع إرادته السنية التي صدرت من لذه ، لإتحاف يوسف بخروجه من معتقله حلالاً بل تناسى ذلك لطفاً منه وكرماً ، وليس ذلك فقط ، بل زاد عليه — كما سيلي — أنه نزل على إرادته في اجراء التحقيق عما كان وصم به ، واعتقل من جوائمه ، ولعمري إن هذا من الملك لتضحية كبرى لأخفته وكبريائه بمسحق ذاك الملاك العمليقي . من أجلها أعظم الثناء .

قذف البريء يعود عليه بالخير عند ما تظن برأيه

سادس عشر — نسمع الملك يقول هنا (اثبتوني به) ، ونسبسه يقول بعدئذ (اثبتوني به أستخلصه لنفسي) ، فالطلب الثاني أدنى من الطلب الأول ، وسببه أن الطلب الأول كان مبنياً على علمه بيلم يوسف وبهمة فقط ، وأما الطلب الثاني فكان مبنياً على ذلك وعلى يقين الملك بسلامة يوسف من الجريمة ، وبعبارة أخرى كان ظهراً للملك أولاً تحلية يوسف فحبس ، ولكن بعده ظهر له أيضاً تخليه ، ولا ريب أن التخلية مع التحلية ، أهم من التحلية وحدها ، وهكذا جرت السنة أن في قذف البريء خيراً يعود عليه عندما تظن برأيه كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الذَّنْبَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ ، بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ . (٢٤ : ١١) .

على الباغي تدور الدوائر

سابع عشر — لا ريب أن « العز » وذو به كآخو أرادوا بسجن يوسف القضاء على تهمة « المرأة » بتوجيه التهمة اليه ، ولكن نتيجة السجن خرجت معكوسة ، لأن سجنه سبب معرفته إلى « الساقى » فالتقدم إليه بأن يذكره عند الملك ، ولما رأى الملك رؤاه ، ذكر الساقى يوسف فحصل إليه تلك الرؤيا فأولاهها يوسف ، فتج عن ذلك طلب الملك إياه فلم يرد أن يخرج إلا بعد التحقيق ، فكانت

النتيجة حصر التهمة في « المرأة » وبراءته مما غي اليه ، فكان « العزيز » بحسب يوسف كمن رمى الوقود في النار ليخمدوها ، أو كمن حول الضرب الى سقف جاره ، فاذا الضرب في سواء داره ، ولا غرابة في ذلك ، ففي المثل السائر :

« على الباغي تدور الدوائر » .

المراد بالكيد

ثامن عشر — أراد انه كيد عظيم لا يعلمه الا الله لبعده غوره ، كما قيل :

« وهن شر غالب لمن غلب » ، أو استشهد بعلم الله على أنهم كدنه وأنه بريء مما قرب به ، أو أراد الوعيد لمن ، أي هو عليم بكيدهم فجازين عليه ، أو أراد بربه « عزيز مصر » — كما ذكره احتمالاً كل من ابن جرير والسيد حسن صديق وغيرهما ، على حسب اصطلاح المصريين والعبرانيين وغيرهما من تسمية الملك رباً بمعنى السيد ، وعندنا أن هذا الاحتمال الثاني أحسن ، فهو يشير بذلك الى سابق قول العزيز : « لأنه من كيدكن إن كيدكن عظيم » ، فكان يوسف يقول :

« اسألو اميدي — عزيز مصر — الذي سبق منه انه حكم على زوجته بالكيد ، ووصفها به ، فإنني أقبله شاهداً عليّ وأرضى به حكماً ، بل واحتج به وبلمه الحقيقة على كيدهم » لي « فلي هذا الاحتمال الثاني يكون قد استشهد على أنهم كواذب « بعزير مصر » وما يعلمه فيهن ، وهذا ممكن ، وفيه فائدة عاجلة وتقوم به الحاجة ، وأما على الأول الذي جرى عليه جمهور المفسرين فيكون قد استشهد بالله وعلمه بكيدهم ، وهذا لا فائدة فيه ليوسف في الدنيا ، ولا يدفع عنه المؤاخذة عند رجال المحكمة وفي نظر الشعب ، ولا يبرئ ساحته من الجزاء الديني بوجه ، لأنه من يعرف علم الله فيهن ؟

(مرحى مرحى ولا فض فوك)

اعتراف امرأة العزيز ببراءة يوسف

آ (٥١) [. . . قالَ مَاخَطَبُكُنَّ ، بِذُرَاوَدْتُنَّ يَوْسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ؟ - قُلْنَ : حَاشَ لِلَّهِ ، مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ - « فَاَلْتُمْ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ : الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ، اَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ ، وَاقَةُ لَمَنِ الصَّادِقِينَ »] .

افتتحت الجلسة وتليت الآية الاحدى والخمسون ، قامت الانسة أسماء الغوية وقالت :

كان « بو » مندوب الملك « الريان » رجع اليه من عند « يوسف » عليه السلام وقص عليه القصة ، فقال له الملك : « أما قلت لك أن في الأمر دسيسة ، فالآن اذهب واعمل كما أحب هذا السجين ، واثنى بنتيجة » فصدم « بو » بأمر الملك ، وقفل راجعاً ، و (قال) النسوة : فاشدتنكن الله يا سيدات « متفيس » ، (ماخطبكن) (١) وما شأنكن ، (إدراودتن يوسف) العبراني السجين (عن نفسه) فيا دولة الجنس الطليق ، لله دركن ، هل وجدتن منه ميلاً اليكن ، هل رأيتم منه عمزة ، هل سمعن منه رمزة ، هل ضحك لكن وداعبكن ، حتى أقدمتن على مرادته ، وتجراتن على مطالبته بما لا ينبغي لأمثالكن أيها السيدات ؟

وأما السيدات فأجبن و (قلن حاش لله) — تعجباً من عفته ومن نزاهته عن الريبة — ووالله (ما علمنا عليه) قط ، (من سوء) ، ووالله لو كان في أنفسنا غير ما ننتطق به لقلناه ، هذا حوائنا عما يسأله عنه جناب المحقق ، وخلاك دم .

(١) الخط : الأمر الذي يعظم شأنه ويحاطب الانسان فيه صاحبه .

هذا ولما كان العاشق يفادي بنفسه وشرفه عن طيب خاطر مرضاة لمشوقه (قالت) زليخا (امرأة العزيز) فوطيفار ، معترفة بجلية الواقع ، تذود عن يوسف وتنصر له على نفسها : أنا أخبرك بواقعة الحال ، وأطلعك على جليلة الواقع (الآن حصحص الحق) والحق على مضاضته يقال ، واني لإنشاء الله لا اكذب بك شيئاً (أنا راودته عن نفسه) ، وعلى المكشوف ، أنا براقتن التي جنت على نفسها ، أنا المذنبه ، وله العُشْبِي (١) ، ووالله اني لم آراود قط أحداً قبله ولا بعده ، ولا يمكنني التنازل لأحد سواء ، وأنا الآن أستغفره على هذا الذنب ، (وانه من الصادقين) في قوله منذ سنتين : « هي راودتني عن نفسي » ، فهو لم يلوث لسانه بالكذب والغفريه قط ، وإنه لمن الصادقين في العمل ، حيث أبي عليّ ، وامتنع من النزول على إرادتي ، وتمسك بدينه ، وثبت على متانته ومروءته ، وكأنها خافت أن تلبت عليها التهمة ببعض البراهين إذ رأت أن السماء تنذر بتقلب الجو ، فسبقت الى الاعتراف على حد قول القائل : « بيدي لا ييد عمرو » أو على حد قول الشاعر : « وليس لمخضوب البنان عين » ، أو كما يقولون في المرأة :

« إن الأمومة عودتها عادات إنكار النفس والتضحية والربعة في مصلحة الآخرين ، أكثر من الرحل » .

(قال ما خطبك إذ راودتني .. الخ)

— ١ —

وقامت السيدة لُبَيّ البغدادية وقالت : يستفاد من هذه الآية الكريمة :
عدة فوائد سأتلوها على مسامعكم :

استطاق النسوة عن قصة المراودة مجتمعات أو منفردات

نعم اعترف امرأة العزيز براءة يوسف

الفائدة الأولى — تعليقا على قوله : (ماخطبك) ، نسب « ابن كثير ،

ود البغوي « هذا القول الى الملك الريان ، وقال له هو الذي جمع عنده هؤلاء النسوة واستنطقهن ، وقال ما خطبك ، وهو يريد امرأة العزيز خاصة .
وقال بعضهم : إن القائل هو مندوب الملك ، دهبه اليهن وجمعن في عدل واحد بما فيهن امرأة العزيز ، وسألن هذا السوال ؛ ويجوز أن يكون قد سأل كلاً منهن على انفراد في بيتها ، ثم للاختصار حكى الله ما حدث جملة واحدة ، كما في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، وَاعْمَلُوا صَالِحاً ، إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ، وَإِنَّ مَعَهُ أُمَمَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَأَنْتُمْ بِكُمْ فَاتَحْتُمْ بِهِ ﴾ (٥٣: ٥٢: ٥٣) .
فهذا النداء والخطاب ليس على ظاهرهما ، كيف والرسول إخبارا لسوا متفرقين ، في أزمنة مختلفة ، وإنما المعنى الإعلام بأن كل رسول في زمانه نودي لذلك ، وَوُصِّيَ بِهِ .

نسبة المراودة الى جميع النسوة والمراد منه واحدة

الفائدة الثانية — قال : (إذ راودتن) بصيغة الجمع ، والمراد منه واحدة ، وهي امرأة العزيز ، وقريب منه ما في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ ، إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ ﴾ (١٧٣: ٣) ، فقد قيل لفظ الناس الأول عبارة عن شخص واحد ، هو « تميم بن مسعود الأشجعي » ، ولفظ الناس الثاني هو عبارة عن « آبي سفيان » ، ذلك لأنه من جنس الناس ، كما أن امرأة العزيز هي من جنس المراودات ؛ كما يقال : فلان يركب الخيل ويلبس البرود ، وماله إلا فرس واحدة ، ويرد واحد .

شهادة النسوة لبرسف بالفضة والعطارة

الفائدة الثالثة — مع تسبب يوسف تجريح أبدي هؤلاء النسوة ، يتأثير جماله الباهر ، ومع أنهم لم يرون منه عطفاً فوهن ، حتى ولا ابتسامة واحدة على الأقل ،

دية لتلك الأيدي المجرحة ، وتعويضاً على تلك العقول المذهولة — مع هذا كله فهو لاء السيدات لم يشهدن في يوسف إلا بما يجب له من العفة والطهارة ، ذلك لأنهن كن من النساء الداجنات والمسامات ليوسف ، ومن صواحب الوجدان والشرف ولعمري لا مزيد على شهادتهن وشهادة زليخا له بالبراءة والزهارة ، واعترافهن بأنه لم يتعلق بشيء يشينه ، — مع أنهم خصومه ، وإذا اعترف انلصم بأن خصيمه على الحق وهو على الباطل ، لم يبق لأحد مقال ، خلافاً لحشويي المفسرين ، الذين قالوا : (نحن قد بقي لنا مقال ، ولا بد لنا من أن ندق في فروة من ثبوت زهاته) !! ..

حال زليخا عند اعترافها بمراودة يوسف عن نفسه

الفائدة الرابعة — كآني «بامرأة العزيز» قالت وهي تتلعم في كلامها ، وتضطرب مما لحقها من الخجل والخوف ، وترتجف من حراجة الموقف :

« الآن .. حص .. حص .. الح .. ق .. أنا المشدو .. هة .. راود .. ته ...
عن نف .. سه .. واحد .. سرتاه ! وانه .. حر .. سه .. الله ... لمن
الصا .. دقين .. في .. سابق .. قوله : هي راودتني عن نفسي ، ذلك ليع .. لم .. أني ..
لم أخضه .. بالغ .. ب كما خذ .. ته بالح .. ضور .. واويلاه ! وان الله ..
لا .. دي .. كيد .. الخا .. ثنين .. وا .. قداماه ! .. وما ابرىء .. نف .. سي
إن النفس .. س .. لأمر .. سارة .. بالسوء .. واسوأته ! إلا .. مار .. حم .. ري ..
إن ري .. غ .. غو .. ر .. رحيم .. واخج .. لاه ! .. »

وما أكملت هذا النطق إلا وقد زاد صوتها في التقطع ، وصارت رجلاها تصطكان ، توقفت عند هذا الحد من البيان والاعتراف .

دواعي اعتراف زليخا بوقوع المراودة منها

الفائدة الخامسة — عندي لدواعي اعتراف زليخا بوقوع المراودة منها ثلاث نظريات :

النظرية الأولى: ان النسوة قد أجبن المستنطق بقولهن (ماعلمنا عليه من سوء) وسببه أن امرأة العزيز لما أرسلت إلهي، وهبات لهن متكأ، رأيته في جماله الذاتي والنفسي، حيث لم ينظر إلهي نظرة سوء، كأنه ملك كريم، ثم ان امرأة العزيز اعترفت لهن بأنها كانت راودته، ولكن هو امتنع، فمارأته في تلك الجلسة وما سمعته فيها كان دليلاً على براءة يوسف عليه السلام، فامرأة العزيز، بما دبرت من دعوة النسوة، وبما قالت أمامهن كانت كاليابح عن حتفه بظلفه، خصوصاً لما سمعت قولهن: « ماعلمنا عليه من سوء » فكانت هذه الجملة في الطعنة النجلاء التي أثبتت « زليخا، وقطعت بها جبهة قول كل خطيب. - فمد ذلك رأت زليخا من الحكمة والتفكير أن تعترف بالواقع، لأنها اذا بقيت مصممة على انكارها، شهد عليها هؤلاء النسوة بأنها كانت قالت: « ولقد راودته عن نفسه فاستعصم » (آية ٣٢) فهي بذلك اعتقدت أنها ألقى في نهم المدفع أو قد وضعت السلسلة في رقبتها واتمى الأمر، وأنه لا ندحة لها من الاعتراف، فلذلك ولكون شدة الضغط تولد الانفجار شرعت تكشف السر، كمن يريد الاقرار أمام المستنطق في عكمة، أو « الاعتراف » أمام قسيس في بيئته .

فاهت بتلك المقالة العصماء التي في آيات (٥١ و ٥٢ و ٥٣) والسكوت سائد في تلك الجلسة، جلسة التحقيق السرية، لا واحدة تتكلم بيئت شقة، بل كن جميعاً مصفيات لمقالتها، منصتات لخطاياها .

النظرية الثانية : هي انه مهما بلغ الحقد بالقلب الانساني، وغلبت الشهوة شعوره

ووجدانه ، فلا بد أن تهبّ عليه من حين الى حين ، نفحة من نفحات الفطرة
الالهية ، تنعشه وتوقظ شعوره ، فيستطيع أن يعود الى طهره وصلاحه ، وما انطوى
عليه من صدق وأمانة ، فهي في هذه الجلسة ، نسخت ما كانت قالته سابقاً ،
والنفس الانسانية كما يقول « روسو » مرآة ، تترآى فيها مختلفات الصور والألوان ،
ومن خبر عقلية المرأة ، لا يستبعد هذا التطور العجيب :

إنما المرأة مرآة بها كل ما نظره منك وذلك
فهي شيطان اذا أفسدتها واذا أصلحتها فهي ملك

وكأنه قد صار الحال بحيث يحيل اليك أن هناك سيدتين ، واحدة
أبتلعها نار الذنوب والتهتك ، والأخرى ولدها التوبة والاخلاص ، تلك
كانت كاذبة فاجرة عيابة ، وهذه صادقة مدافعة متواضعة .

النظرية الثالثة : جلست زليخا في مجلس « الاستطاق » وجعلت تراجع فهرس
حياتها الماضية مع فتاها العبراني ، وتقلب صفحاتها صفحة صفحة ، فشعرت بديب
الخطأ الذي كان صدر منها ، فحكمت بنفسها على نفسها ، انها مجرمة آثمة ، وانها لم
تستفد من كل ما عملت سوى سوء السمعة ، وانحطاط المنزلة ، وانها لم تسىء الى
فتاها بمقدار ما أماءت لنفسها باحباط شرفها ، وكأن حياتها الحاضرة — حياة
الشيخوخة — قد أنست حياتها الماضية — حياة الشباب — فلم يبق في قلبها أثر
للبنفس والموحدة ، كما لا أثر فيه للعشق والغرام ، فلذلك قررت أن تعترف بالصحيح
فلفظت كلمتها الأخيرة ؛ هذا ما يظهر من حكاية القرآن المجيد توبة زليخا .

وإنما قلنا ان حياتها الحاضرة حياة شيخوخة ، لأننا نظن انها لما تكلمت
بهذا القول ، كانت في سن الاربعين أو تزيد ، ذلك لأن يوسف عليه السلام حينما
وقف بين يدي الملك الريان بعد خروجه من السجن ، كان ابن ثلاثين سنة ، ويظن
أنها كانت أكبر منه بـ عشر سنين أو أكثر ، وعليه تكون دخلت في غرة سن

الشيخوخة ونسيت الحب وآلامه ، والفرام وأيامه ، ودخلت في سن الوفا والكمال ، من التوبة والانابة الى الله ، فسليلة هذه الأسباب هي التي خلقت هذه الاعجوبة ، وأتت بهذه الخارقة ، حتى نفضت زليخا لتدوب الملك جملة حالها ، وصارحته بكشف المعنى .

معنى حصحص

الفائدة السادسة - حصحص ، ظهر ، برز ، ثبت ، استقر ، كلها ألفاظ متقاربة ، وهي من حصحص البير : إذا ألقى ثقله للناخه ؛ وأصل حصحص حص ، كما في كفكف ، أصله كف ، وكبكبوا أصله كببوا ، وردد أصله رد ، ولم ترد هذه الكلمة في القرآن الا في هذه السورة .

الاجماع على سلامة سرف يوسف

الفائدة السابعة - تعلمون أن الذين لهم علاقة بمحادثة يوسف ثمانية ، وهم : الله سبحانه وتعالى ، وإيليس ، والعزير فوطيفار ، وامراته زليخا ، والشاهد من أهلها ، والنسوة المصريات ، ويوسف نفسه ، وثامنهم الخادمة ، وكلهم متفقون على سلامة سرف يوسف .

فأما « الله » سبحانه وتعالى فإنه يصف يوسف بأنه لما بلغ أشده آتاه حكم نفسه بنفسه ، وما نشأ عنه من العلم اللدني ، ويقول : ان زليخا هي التي راودته عن نفسه ، وهي التي غلقت الابواب ، وهي التي قالت : « هيت لك » ، ويقول : ان يوسف أجابها جواباً سليماً فقال لها : « معاذ الله ، إنه ربي أحسن مثواي » ، إنه لا يفلح الظالمون ، ويقول : « ولقد همت به وهم بها » ، أي قتلاً ، وعلى الأقل لكماً وضرباً ، لولا أن رأي برهان ربه العزيز ، وهو أنه أحسن مثواه ، ويقول : « إنه من عبادنا المخلصين » ، وحسبنا هذا وكفى .

وأما «ابليس» ، فإن الله تعالى حكى عنه أنه قال يوم موامرة «سيلان» :
 «إلا عبادك منهم المخلصين» (١٥ : ٤٠) فأجابه الوكيل المفوض بقوله على حساب
 الله : ﴿ هذا صراطٌ عليّ مستقيمٌ ، إنَّ عبادي ليسَ لكَ عليهم سلطانٌ ﴾ (١٥ :
 ٤٠ - ٤٢) فحالته مع يوسف كانت سلبية تماماً .

وأما «فوطيفار» عزيز مصر ، فقد كان قال لما ظهرت له الأمارة : «إنه من
 كيدكن ، إن كيدكن عظيم» ، وخطب امرأته بقوله : «استغفري لذنبك إنك
 كنت من الخاطئين» .

وأما «زليخا» امرأة العزيز ، فقد اعترفت أمام النسوة بالحقيقة ، قائلة :
 (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) ، ثم توعدته إن لم يتزل على إرادتها بقولها :
 ﴿ ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين ﴾ ، ثم أقرت في حكمة
 التحقيق بجليّة الواقع فقالت : ﴿ الآن حصحص الحق ، أنا راودته عن نفسه ، وإنه لمن
 الصادقين ، ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب ، وأن الله لا يهدي كيد الخائنين ، وما
 أبرئ نفسي ، إن النفس لأمارة بالسوء ، إلا مارحم ربي ، إن ربي غفور رحيم ﴾ .
 وأما «الشاهد» من أهلها ، فانه استدل بالامارة قائلاً : ﴿ إن كان قميصه قد
 من قبل ، فصدقت وهو من الكاذبين ، وإن كان قميصه قد من دبر ، فكذبت
 وهو من الصادقين ﴾ ، وأخيراً رؤي قميصه مقدوداً من دبر ، فإذن يوسف في
 نظره من الصادقين في دعواه أن المراودة إنما كانت منها لامنّه .

وأما «النسوة» المصريات ، فانهن إنما نسبن المراودة والحب والضلال لامرأة
 العزيز ، إذ قلن : ﴿ امرأة العزيز تراودفتها عن نفسه ، قد شغفها حباً ، إنالزها
 في ضلال مبين ﴾ ، ثم لما رأين يوسف قلن : ﴿ حاش لله ، ما هذا بشراً ، إن هذا
 إلا ملك كريم ﴾ ، ثم اليوم في جلسة التحقيق قلن : ﴿ حاش لله ! ما علمنا عليه

وأما « يوسف » نفسه ، فإنه كان واقفاً مع امرأة العزيز موقفاً سليماً ، إذ قال ﴿ معاذ الله ! إنه ربي أحسن مثواي ، إنه لا يفلح الظالمون ﴾ ، حتى أنه في الدرجة الثانية لم يهاجم قتلها أو لطمها وضرباً ، وأخيراً في الدرجة الثالثة هرب من أمامها طالباً الباب ، وقال بمحضورها وحضور العزيز : ﴿ هي راودتني عن نفسي ﴾ ثم قال يوم الضيافة النسائية : ﴿ رب ، السجن أحب إلي مما يدعونني إليه ﴾ ، ثم لما جاءه رسول الملك ، وطلب إليه الخروج من المعتقل ، آبى ذلك إلا بعد التحقيق والتمحيص فائلاً ﴿ أرجع إلى ربك فاسأله : ما بال النسوة اللاتي قطنن أيديهن ؟ إن ربي بكيدهن عليم ﴾ .

وأما « الخادومات » في قصر العزيز ، اللاتي لا بد أن يكن قد حضرن ، عندما استبق يوسف وزليخا الباب ، هرباً وطلباً ، ثم سمنن حكم « الشاهد » ثم خطاب « العزيز » لزوجته : ﴿ استنقري لذنبك انك كنت من الخاطئين ﴾ فانهن حينما نقلن هذه الحادثة لقصور الاميران المصريات ، لم يتكلن إلا بأن « الراودة » وقعت من « امرأة العزيز » بدليل كلام السيدات المصريات ، اللاء ما علمن بالحادثة ، إلا من أنواء هؤلاء الخادومات ، ولو كان صدر من يوسف شيء بنافي شرفه ، لنقلته لهؤلاء النسوة .

هذا خلاصة الكلام ، في تحقيق هذا المقام ، ولعله يكفي لرد ما زعمه (غلطاً) بعض المفسرين ، مصرحين بما تتجاهى عن سماعه آذان المتأدبين ، مع أنبياء الله المخلصين .

تحقيق صرف الكيد عن يوسف

الفائدة الثامنة — زى « نسوة المدينة » قد ﴿ قلن حاش لله ، ما علمنا عليه من سوء ﴾ ، وزى « امرأة العزيز » قالت : ﴿ الآن حصحص الحق ، أنا راودته عن نفسه الخ ﴾ وكل هذا كان مصداقاً لقوله تعالى ﴿ فصرف عنه كيدهن ، انه هو السميع العليم ﴾ .

الاعتراف بالخطأ فضيلة

القائدة التاسعة — لقد رأيتم أيها السادة أن هذه « المرأة » زليخا قد تناست منزلها ، وتغافلت عن عظمتها ، ونطقت بكلمة الاعتراف ، والاعتراف بالخطأ فضيلة كما تعلمون ، وهو خير من التماهي فيه ، ونظن أن هذه المرأة لو لم تعترف ، ثم أتت بشهود زور ، ممن لهم بها علاقة محسوبة (مثلاً) لطالت ذيول « الحادثة » وتشعبت كثيرًا ، لاسيما لو ظهر فيما بعد أنها مبطلة في تقديم أولئك الشهود ، فتكون العاقبة أدهى وأمر ، ولكن الله هداها « للاعتراف » ، فبقيت الحادثة مختصرة وقاصرة على محاكمة القرآن الكريم ، واقتصر في عقاب هذه المرأة [وزوجها على مجرد الطرد من الوظيفة الرسمية ، وجعلها نسيًا منسيًا .

« مرحى ، مرحى »

(قال ما خطبكن اذ راودتن ... الخ)

— ٢ —

ثم قام الامام الفلقيلي وقال : نشكر اختنا البغدادية على ما اتحققنا من فوائد قيمة وأرجو أن يسمح لي السادة بسرد الفوائد التالية :

انصباع الرسول ليوسف بمراجعة الملك

الفريدة الأولى — انصاع « نبو » رسول الملك ، لطلب يوسف ورجع بدون اعتراض ولا توقف الى الملك ، فأمره بإجراء التحقيقات السرية ، لأنها « دعوى » متعلقة « بالعرض » .

عاطفة المرأة تملك عقلها وعقل الرجل يملك عاطفته

الفريدة الثانية — قال النسوة : « حاش لله ... الخ » وشهدن في يوسف الطهارة

والعنة ، مع انه في تلك الجلسة القديمة لم يعبا بهن ، ولم يلنفت اليهن ، كما نعلم ذلك من أنهن ﴿ لما رأته أكبر منه ، وقلن : حاش لله ! ما هذا بشراً ، إن هذا الا ملك كريم ﴾ ، وكذلك كان حال « زليخا » معه ، فعمم انه لم ينزل على إرادتها شهدت فيه شهادة طيبة إذ قالت : ﴿ أقاراً ودته عن نفسه ، وأنه لمن الصادقين ﴾ . الخ ، فهذا كله نتيجة ان في المرأة عاطفة ليست في الرجال ، فالنساء أشد تأزراً وأرق شعوراً من الرجل ، لأنهن أطوع للفؤاد منهن للعقل ، ومن كان ينكلم تحت تأثير الدماغ ، كان أقرب للكذب ممن ينكلم تحت تأثير الفؤاد ، لأن عاطفة المرأة تملك عقلها ، بخلاف الرجل ، فان عقله يملك عاطفته ، فهو الى الكذب واخفاء الحقيقة أقرب ، وأما المرأة ، فهي الى الصدق واظهار الواقع أقرب .

داعي اندفاع زليخا المزعومة بفعلتها والرفاع عن شرف يوسف

الفريدة الثالثة — إن وجه اندفاع « زليخا » لهذا « الاعتراف » الذي أعلنته بكل وضوح وصراحة ، مسبب عن أمور اذا اجتمعت صلحت ان تشكل سبباً قوياً حدا بها أن تعلن اعترافها ، وذلك عداهما سبب ذكره في الفائدة الخامسة من فوائد السيدة لبنى اليفغاديه وهي :

(١) — تعلمون ان المندوب « نبو » كان قال : ﴿ أنا أنبئكم بأوبله فارسلون ﴾ فلا بد انه إذ ذاك كان يمين « للملك » ، الريان « للأهل » البلاط ، ماذا سمع من يوسف من تأويل رؤياه ورؤيا الخباز « ملج » ، وماذا رأى من أعماله وذكائه .

و (٢) — تعلمون أن المندوب « نبو » كان يرجع من عند يوسف بعبارة رؤيا الملك ، التي كانت ألقاها على « الأمل » ، فآظفروا جهلهم بتعريفها ولكن « يوسف » عبرها تماماً ، وزاد على ذلك انه يئن لهم ماذا يجب أن يصوروه .

و (٣) — لا بد أن يكون الشراي « نبو » أفهم للملك عن يوسف أنه

من «العران» تولداً ، ثم من «فلسطين» منشأً ، فهو «آسيوي» صرف ، يعني من «آسيا» التي منها جلالة الملك ، ومن «العنصر السامي» الذي ينتمي اليه الملك .

و (٤) - لا بد أن يكون الملك زاد ثقته يوسف وحسن اعتقاده فيه جداً حينما أرسل اليه ليخرج من معتقله ويكون عنده فلم يقبل إلا بعد التحقيق عن سبب اعتقاله .

فهذه الوجوه ، وماليها ، لا بد أن يكون شاع واشتهر في «البلاط» الملكي أن «يوسف العبراني» المعتقل ، سيصير مقرباً عند الملك ، وسيكون له شأن ذو بال ، وبالطبع لا بد أن يكون عزيز مصر «فوطيفار» قد بلغه كل هذه الحوادث . وأنه حكى ذلك لزوجته «زليخا» وعليه صار لسان حالها يقول :

مَسِيرَى مَالِكُ رَقِيٍّ مَالِكَا رَقَّ الرِقَابِ
لَمْ يَكُنْ يَا أَحْسَنَ الْمَا لَمْ هَذَا فِي حَسَابِي

فلذلك كله تغيرت حال امرأة العزيز ، وتبدلت خُطُطُها ، واعتدلت أفكارها عن ذي قبل ، فاعترفت بجلية الواقع ، لاسيما اذا لاحظنا انها علمت ان هذه المناظرات والتفحصات ، إنما هي بسببها ، ورأت أن النسوة قد نزهن يوسف ، وأن التهمة انحصرت فيها ، وانها كانت في ذلك التاريخ قد تقدمت نوعاً في السن ، فتقدمت في العقل والاستقامة ، وانها قد حيل بينها وبين يوسف بضع سنين ، نحت فيها ثورة الحب ، وان طبيعة النساء سرعة التحول والتطور ، فمجموع هذه الأشياء يصلح أن يشكل سبباً كافياً لاندفاع «امرأة العزيز» لهذا «الاعتراف» الصريح ، فمند ذلك أخذت كلمات الدفاع عن يوسف تتقال من شفقتها ، اثتيال الماء من الساء ، هذا ما أفهمه في (٥١-٥٣) ، والمفسرين هبتا كلام رجبي ، لو شئت أن أقول عنه لقلت إنه لا يستحق أن يلتفت اليه طفل صغير .

عجبا لهذه المرأة ! وقت هنا يروح جذبة ، موقب السانح عن شرف يوسف ، وافقت في هذا النطق كل ما تملك من قوة ويا ، صار هذا بعد تلك الوقفة الطويلة التي حفظها عليها التاريخ ، وقفة الاتهام المشين ، وهي أمام زوجها بالافتيتحة — وبعد تلك الوقفة التي وقعت أمام النسوة ، ترعد وترق ، ونوع دنتاها بالمقاب الأليم ، إن لم ينزل على حكمها ، فهذه « الحسة » التي صدرن منها الآن ، في جانب مضايقاتها ليوسف سابقا ، كالفترة البيضاء في الأديم الأسود ، وهذا « التقرىظ » الذي نسجه منها اليوم ، هو في جانب ما سبق من « الهجاء » كالكهرباء أمام الظلام القائم .

فيا له من تطور مذهش ! ويا له من تغير غريب !

فهي بمقدار ما اجتهدت أولاً أن تلمق به العيب ؛ فاليوم اجتهدت أن تبرىء ساحته من العيب ، فسبحان من ألهمها قبحورها وقروها ، وصدق من قال : « إن للباطل صولة » ثم يضمحل ، ولريح الصلاة عصفة ، ثم تخفت « وصدق صاحبنا الأمير شكيب أرسلان إذ قال : « لا تطلب البتات من ثلاثة أشياء : القبرصة والتفرد والهواء ، وإن شئت فضم قلوب النساء » .

واليك سببا ثانيا قد ألهمته الآن وأقا مائل بين أيديكم بين وجهه تبر فكر زليخا :

كانت قد بقيت بقية من مرارة الحب في أعماق قلبها حتى بلغت أن حبيب قلبها قد انقلب في السجن من « شاب » إلى « كهل » ومن « فاتن » إلى « مفتى » يُستفتى فيفتى ، ويُسأل فيجيب ، بل إلى « واعظ » يجلس على كرسي الوعظ ، يعلم المسجونين ، عقائد الدين ، كما يلنا أنه صار في السجن طويل « الفزع » طويل « اللحية » ، والمصريون في ذلك العصر كانوا يتبرون للحية علامة « الدل » والدعاة ، فقد شوهوا على الآثار المصرية ، « الأسرى » والأبناء بصورين بلحي .

وأما المصريون فكانوا عموماً يرون وجوب خلق لحام ورؤوسهم ، فكانت امرأة العزيز كلما يلعبها عنه شيء من هذا القبيل ، تتضائل شعلة محبتها له ، شيئاً فشيئاً :
وَمِنْ بَدَةِ يَوْمًا عَارِضٌ « وَجَنَاتِهِ فَكَبَّرَ عَلَيْهِ أَرْبَعًا لَوْفَاتِهِ
فكان ذلك الزمان آخر عهدها بالحب ، وكان شبح الغرام هامة اليوم أو غده ،
فلذلك نسيت أحكام الهيام ، وسبحان من له الدوام .

هذا ما كنا وعدناكم به على لسان السيدة لطيفة المراكشبة عند محاضرتها على
(٣٢ آ) (وهذا كلام « المرأة » التي كانت خصيصة يوسف بالأمس ، واقلبت اليوم
محامية مدافعة عن شرفه ، وانه كان يجب أن يكون لجماعة المفسرين مغزى وعبرة
من قولها : ﴿ أَنَا رَاوِدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَانْه لَمَنِ الصَّادِقِينَ ﴾ ، فينبغي لنا نحن أن
لا نتعدى حدودنا ويقلّ حيائنا ، ونقول فيه كما قال فريق منا ، مما يخالف ما شهدت
به زليخا ، فلا ينبغي أن تكون هي أهدي منا لمعرفة واجبات ذلك
« الصديق الكريم » :

قم فقد قامت الطيور تغني لا يكون الحمام أطرب منا
(مرحى)

تمت اعتراف امرأة العزيز ببراءة يوسف

آ (٥٢) (ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَيُّ لَمْ أَخْنَهُ بِالْغَيْبِ ، وَأَنَّ اللَّهَ
لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ .

استمرت الجلسة في محاضراتها وتليت الآية الاثنتان وخمسون فقام العلامة
الغزوي وقال :

تقول امرأة العزيز إن (ذلك) القول الذي قلته في تنزيه يوسف ، والاقرار

على نفسي بالراودة من جانبي الذي ضجيت به شرفي وحسن سمعتي في سبيل شرف يوسف وحسن سمعته ، ليس لراعدة أتخوفها منه ، ولا عائدة أرجو أن يقبسنيها ، وليس هو دهاناً ولا نلقاً ، لا . . . لا . . . ولكن (ليعلم) يوسف (أني لم أخنه بالغيب) وإن كنت خنته بحضرته وعند مشاهدته ، ولم أغفل واجبه ، ولم أصنمه بدينية ولم أعبه بما يشيته ، فلئن كنت متذ بضع سنين قد أحلت الذنب عليه وهو حاضر ، فلا يسعني الآن أن أحيل الذنب عليه حال غيبته ، احتفاظاً بالأمانة وحقوق الغائبين ، أي ليعلم أني لم أكذب عليه في حال الغيبة ، بل جئت بالصحيح والصدق ، فيما مثلت عنه ، فملت ذلك لتطيب نفسه وتقر عينه ، ويعرف أنه يوجد من يحفظ الود ، ويتمسك بالمهد ، ولو على البعد ، ول (أن الله لا يهدي كيد الخائنين) بل يجعله قبض الريح ، فلا ينفذه ولا يسدده ؛ وأنا الحقيرة كنت من هؤلاء الخائنين مع الاسف ، فاني أقدمت على الكيد والمكر لاجرم انني افتضحت ، وانه لما كان بريئاً عن الذنب لاجرم طهره الله تعالى بالثناء عليه .

وبعد ما سبق ذكره نذكر الذبول التالية :

توبة زليخا

أولاً — نرى الآن « امرأة العزيز » قد أقلعت عن أفكارها الأولى ، أفكار العار والدنس والكذب ، الى أفكار جديدة ، أفكار الشرف والطهارة والصدق ، وهذا من نعمة الله عليها ، فتاب الله عليها من أفكار الفحشاء ، كما تاب أخيراً على اخوة يوسف من أفكار العداة (آ ٩١ و ٩٧) .

معنى بالغيب وحله اللغوي

ثانياً — قوله « بالغيب » محله الحال من الفاعل أو المفعول ، على معنى : « وأنا غائبة عنه ، خفية عن عينه ، لأنني ههنا في قصري وهو في سجنه ، أو وهو غائب

عني ، خفي عن عيني » ، ويجوز أن يكون ظرفاً ، « أي بكان الغيب وهو الخفاء والامتنار في قصرها » .

الكيد المذموم والكيد المدوح

ثالثاً - خص الخائنين في قوله ﴿ وَأَنْ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ تنبيهاً على أنه قد يهدي كيد من لم يقصد بكيده الخيانة ، فالكيد يكون مذموماً ومدوحاً ، وإن كان يستعمل في المذموم أكثر ، فمما هو من قبيل المذموم ، مافي هذه الآية ، وكقوله سابقاً « فيكيدوا لك كيداً » (ع ٥) ، ومما هو من قبيل المدوح مافي قوله تعالى « كذلك كدنا ليوסף » (ع ٧٦) وقد مر تفصيله في آ ٣٨٩ و ٥٠٠ .

نسبة القول في قوله « ذلك ليعلم الخ » الى زليخا وليس الى يوسف

رابعاً - قوله : ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي .. الْخ ﴾ ، قال جمع من المفسرين ، ومنهم مع الأسف العلامة الزمخشري ، إن هذا القول من كلام يوسف ، وهو في سجنه وإن الضمير في « ليعلم الخ » راجع للعزير ، وقولهم هذا لا يصح ، لأن الضائر التي قبله ، عائدة الى يوسف ، فلا ضرورة تدعو الى حمل الضمير في « ليعلم » على العزيز ، وجعله من كلام يوسف ، وقد تضمنته الآية المصدرة بنسبة القول لزليخا ، فلذلك يجب أن تكون المحكيات كلها من كلام تلك المرأة .

فالخاصل إن امرأة العزيز أتت في استجوابها على ثلاث جمل ، أو ثلاث آيات ، نطقت بها أمام « المستنطق » في قصرها أو في قصر مليك مصر ، في حال وجود يوسف في سجنه ، الذي ربما يكون بعيداً عن قصور الأمراء ، كما يفيد كونا « فأرسلون » و « لعلني أرجع الى الناس » ، فنسبة بعض القول ليوسف لهو من أبعد البعيد .

وأما ما نظر به صاحب الكشاف من قوله تعالى : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ

فرعون: «إن هذا الساحر عليم، يُريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره، فماذا تأمرون؟» قالوا: أرجه وآخه، وأرسل في المدائن حاشرين، يأكلون بكل ساحر عليم ﴿٧: ١٠٨ - ١١١﴾، يقولون إن هذا الساحر الخ هو مفول قول الملأ، وأما قوله، فماذا تأمرون، فهو كلام فرعون، يخاطبهم ويستشيرهم، كذا قرره صاحب الكشاف، ورد بأنه إنما يجري الكلام على هذا الوجه، إذا ألجأ إليه محوج، في الآية المذكورة اذ لا يمكن جعل «فماذا تأمرون» من كلام الملأ، فتعين أن يصرف الضير عنه إلى فرعون، وإنما في آيتنا التي في سورة يوسف، فلا محوج فيها لمثل ذلك، كذا قرره صاحب الكشاف، ولنا أن نقول: إن جملة «فماذا تأمرون» هي أيضاً من حكمة كلام الملأ، أي أن فرقة من الملأ، قال لفريق آخر منهم، هذا القوم يستطلع رأيهم، ولما اختلف حال هذا الفريق من الملأ، قريباً آخر منهم، أجاب الفريق المسؤل، موجهين الخطاب لفرعون، وقالوا: أرجه وآخه، وأرسل الخ، وقال بعض المفسرين: إن الملأ من قوم فرعون، ما قالوا هذا القول إلا قبلاً لقول فرعون، الذي حكي عنه في سورة الشعراء: ﴿قال للملأ حوله: إن هذا لساحر عليم، يُريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره، فماذا تأمرون؟» قالوا: أرجه وآخه، وابعث في المدائن حاشرين، يأكلون بكل ساحر عليم ﴿٢٦: ٣٥ - ٣٧﴾، أي أنهم ردوا كلام فرعون، وصار يلقيه بعضهم إلى بعض، كدأب الناس، في نقل كلام ملوكهم وروسائهم وترديده، اظهاراً للسوافة عليه، ونعياً لتبليغه، فهذه ثلاثة وجوه في الآية التي استشهد بها الكشاف، كل وجه منها يطل الاستشهاد بها.

(وما أن نزل الخطيب عن المنبر، حتى وقف السيد رئيس المؤنر، وطلب التكميل إعجاباً بآيته تحقيق الخطيب، فكبر المأمرون ثلاثاً)

آ (٥٣) ختام اعتراف امرأة العزيز ببراءة يوسف ثم طلبها الرحمة والغفران ٩٢٧

ختام اعتراف امرأة العزيز ببراءة يوسف ثم طلبها الرحمة والغفران

آ (٥٣) ﴿وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي، إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ،
إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي، إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .

الجلسة وتليت الآية الثالثة والخمسون فقامت الأنسة خديجة

اللدية وقالت :

استمرت « زليخا » في كلامها قائلة : ومع ذلك يا حضرة « الحق » (وما أبرئ نفسي) من الخيانة ، فاني قد خنت يوسف حين قرفته ، وقلت ﴿ ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم ﴾ واني انحرفت عن طريق الفضيلة ، ففقدت السعادة والاعتباط في معيشتي .

ثم أرادت الاعتذار مما كان منها بقولها : (إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي) أي إلا نفساً رحمها الله بالعصمة كنفس يوسف الذي هو تقي الجيب ، صحيح العرض ، (إن ربي غفور رحيم) وعفا الله عما مضى . هذا لفظها الذي دق وشف ، وقد استعجلت في طلب المغفرة والرحمة ، مع أن يوسف لا يزال بمساعيها في سجنه ؛ وما أظلم الجنس اللطيف اذا قلت إنه اذا طلب لم يصبر على التريث في الإجابة ، حتى عند الطلب من النساء ، — وجملة الاستغفار والاسترحام ، جملة خبرية لفظاً ، انشائية معنى — إذ تقول : (إن ربي غفور رحيم) يتعمد الذنوب ، وبصفع عن العيوب ، وإني ممن يرجو مغفرته ورحمته ، فلست فيما حاولت من الخطيئة بأولى النساء ولا واحدهن ، وليست رحمة الله اذا شملتني بأول رحمة شملت الخطائيات .

قال الشاعر :

إن الكبائر في الغفران كالهم
تأتي على حسب العصيان في القسم

يانفس لا تنظي من زلة عظمت
لعل رحمة ربي حين يقسمها

وبسارة ثانية يمكن أن تقول :

(وما أبرئ نفسي) ولا أكذب الله، ولا أخلص نفسي من الحياة، عن كل ما فعلت مع يوسف من مراودتي أنا وإياه، ولا من قلبق الأبواب، ولا من قولتي «هيت لك»، ولا همي بالإيقاع به، ولا من تخافتي له حين أراد أن يفر بشرفه، ولا من تلويئي شرفه بنسبته لإرادة السوء، ولا من تشويقي لسبدي أن يسجنه أو يعذبه عقاباً ألياً، وأخيراً: وما أبرئ نفسي من كيدي له بظلمنا، فالآن اعتذر إلى الله وإليه ما كان، (إن القس لأماراة بالسوء)، بحسب صليقتها وغريزتها، وبقتضى دينها وعادتها، فكل ما عملته ناشئ عن شعور نفسي، لا عن خواطر عقلية، لأنني أعتقد أن كل ما صدر مني، هو ما ينبئ عنه العقل، وإن أمرت به النفس فهو خدعة من خدعها، وزعة طائشة من زعجات الشباب، هذه جليلة الواقع، قد كشفت عنها القمام، بمراي ومسمع حضرة «الحقيق» المحترم، وحضرات أترابي السيدات، وسواء علي أشكرت على هذا الاعتراف، أم اقتدت، فأنا اليوم لا يهمني سوى براءة هذا البسدا الطاهر، بمقتضى ما أوداه إلي الضمير الحو، ولا خير في حياة يميها المرء بغير ضمير، ولا خير في ضمير لا يخدم به الإنسان صديقه المظلوم... وهكذا ألم تأل «زليخة» جهداً في براءة ساحة يوسف، ونزاهة جنابه، عن كل وصمة تآببها الشبهة، وبذلك صارت قضية يوسف ناجحة موفقة، قد استجمعت عناصر القوز والظفر.

(وما أبرئ نفسي، إن النفس - الخ)

- ١ -

وقام سيدي جعفر الجيزاوي^(١) يلقي خطاب السبلة وينب «الجعبوية» بالنياية عنها فقال :

ليس من لزوم إلى الاستغاضة في شرح مقرراته وتراكيب هذه الآية الكريمة.

فإن هذا البحث قد قام به من سبقنا أحسن قيام ، وإنما عرضي الآن أن أذكر بعض ملحوظات لها علاقتها بهذه الآية بل والآيتين قبلها واليك البيان :

الملاحظة لفظة « ما » على العاقل وغيره إذا أريد بها الصفة

الملاحظة الأولى — قيل « ما » في قوله « مارحم » ، ذهاباً الى الصفة ، أي « المرحوم » ، ومتى أريد بها الصفة ، أطلقت على العاقل وغيره ، ومن أمثله : (لا أعبدُ ما تعبدونَ ، ولا أتم عابدونَ ما أعبدُ » (١٠٩ : ٢ و ٣) فلنفظ « ما » في هذه الآية ، أريد به الصفة : أي « المعبود » ، أو يقال : إن امرأة العزيز تكلم في الاثاث من العقلاء ، بحجري بحري غير العقلاء ، ويحتمل الوجهين قوله تعالى : « فانكحوا ما طاب لكم من النساء » (٤ : ٣) وقوله : « أو ماملكت أبناكم » (٤ : ٣) ، ألا ترى أنه قد جاءت « من » عند ارادة الذكور من العقلاء ؟ كقوله : « لا عاصمَ اليومَ مِن أمرِ اللهِ إلا مَنْ رَحِمَ » (٤٣ : ١١) ، وقوله : « ولا يزالونَ مُختلفينَ إلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ » (١١ : ١١٩) وقوله : « يومَ لا يُغني مولى عن مولى شيئاً ، ولا هم ينصرونَ ، إلا مَنْ رَحِمَ الله » . (٤٤ : ٤٩) .

فضائل الرحمة ومزاياها

الملاحظة الثانية — قوله : « إلا مارحم ربك » ، فرحمة الله ، تبعث النفس عن أمرها بالسوء ، كما أنها تقرب للانسان المصيبة : « لا عاصمَ اليومَ مِن أمرِ اللهِ إلا مَنْ رَحِمَ » (٤٣ : ١١) ، وتنتفي عن الناس الاختلاف : « ولا يزالونَ مُختلفينَ إلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ » (١١ : ١١٩) ، وتنتج العذاب يوم القيامة عن الانسان : « يومَ لا يُغني مولى عن مولى شيئاً ، ولا هم ينصرونَ ، إلا مَنْ رَحِمَ الله » .

(٤٤ : ٤٩) ، « قُلْ إِنِّي أَخَافُ أَنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ، مَنْ يُصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ ، وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ » ، (٦ : ٩٥ و ١٦) ، « وَمَنْ تَقِرَّ السَّيِّئَاتِ — آيَ عَفْوِهَا — يَوْمَئِذٍ ، فَقَدْ رَحِمْنَاهُ » ، وذلك هو الفوز العظيم » (٤٠ : ٩) الى غير ذلك من فضائل الرحمة ومزاياها .

رحمة الله الخاصة ورحمته العامة

الملاحظة الثالثة — تليقاً على قوله ﴿إِنْ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ «باعتباره» «غفوراً» ، نرجو أن يكون قد غفر الله لاسرأة النزيء ، إذ هي قد اعترفت وندمت ، وغالباً عازمت على عدم الودء ، وباعتباره «رحباً» ، لم يوح لبوسف بقصاصها وعقابها ، هذا من جهة رحمته الخاصة بها ، وأما من جهة رحمته العامة ، فإنه تعالى أَرْطَحَ عَنْ سَمَوَاتِهَا ، ورفَعَ عَنْ رَأْسِهَا النَّجَاءَ ، بِإِزَالِ سَيِّئَاتِهَا الْعَوِيْزَ ، عَنْ حَنْمَةِ الْحَكَمِ ، هذه هي الرحمة الخلقية بترية أخلان الأعداء وهذا هو الحَنُوُّ الإِلَهِيُّ الَّذِي يُخَفِّفُ مِنَ الْجَرَامِ الْخَرَمِينَ ، وأما الرحمة التي هي مجرد عَفْوِ الظَّالِمَةِ أَوِ الْقَتْلَةِ أَوِ السَّرَّانِ مثلاً ، فإِذَا فِي الْإِتْكَاتِ لِلظُّلْمِ أَوْ سَفْكَ الدَّمَاءِ ، أَوِ السَّرَفَةِ ، لِأَنَّهَا تُولَدُ لِلْمَلِيلِ لَارْتِكَابِ أَمْثَالِ هَذِهِ الْجَرَائِمِ .

إننا وإن كنا نشعر بحزن عميق ، من أجل الجرم ، الذي يعاقب من جراء جرمه ، إلا أنه يجب علينا أن نأقبه ، لنسمع الآخرين ، ولنعلمه هو أيضاً من العودة ، إنه لمن أقطع الأعمال ، أن نسير له الخلد الآخر ، ولأن ذلك لم يرد جدّاً ، لأنه يشجع الشريرين ، على السير في تيار جرائمهم . (هكذا رأيت في كلام لحضرة اللورد هادلي المسلم الانكليزي رحمه الله تعالى) .

أقوال في نور زليفا

الملاحظة الرابعة — (قيل إن «زايخا» اضطرت للاعتراف اضطراباً ،

حيث رأت ان النسوة ، قد شهدت فيه شهادة طيبة ، ورأت أن ملك مصر أحبه ، وأراد أن يقربه من لدنه ، فهي ليست مخلصه في هذه التوبة) وفي هذا القول نظر ، فإن العبرة بالظاهر ، وهي ظاهراً قد تأت وحسنت توبتها ، وقد ثبت في الصحيحين عن « أسامة بن زيد » رضي الله عنه أنه قال : (بعثنا رسول الله ﷺ في سرية ، فصباحنا الحرفات من جينة ، فأدركت رجلاً فعلوته بالسيف ، فقال : « لا إله إلا الله » ، فطمئنته فقتلته ، فوقع في نفسي من ذلك ، فذكرته للنبي ﷺ ، — فقال : أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله ؟ — قلت يا رسول الله : إنما قالها خوفاً من السلاح — قال : أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقلها خوفاً من السلاح أم لا ؟ — فما زال يكررها حتى تمتيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم) .

نهاية سيرة العزيز وامراته

المحفوظة الخامسة — آخر كلمة تكلم بها «عزيز مصر» هي قوله: ﴿ واستغفري لذنبيك إنك كنت من الخاطئين ﴾ (ع ٢٩) ، وآخر كلمة تكلمت بها امرأته ، قولها ﴿ إن ربي غفور رحيم ﴾ ، فكانت امتثلت إرشاد سيدها لها بالتوبة والاستغفار ، لكن بعد حين ، وبعد حوادث وعواصف ، وإلى هنا انتهى تاريخ « العزيز وامراته » ، وطويت صحيفة ذكرهما ، وتداعى مجدهما ، كما تداعى بيت أقيم من الورق ، أو قصر بني على الرمال ، وكأن لم يكن شيئاً مذكوراً ، وبسبب هذه الحوادث ، قد خسر « العزيز وامراته » خسارة عظيمة ، مادياً وأدياً ، فأما خسارة العزيز المادية ، فبنزوله عن وظيفته ، وأما خسارته الأديية فبتساهله بالجمع بين امرأته وفتاه ، ثم تساهله في مجازاة امرأته ، بعد ظهور خيانتها ، وأما خسارة « زليخا » المادية فبنزول تاج وظيفة سيدها عن رأسها . وأما خسارتها الادبية فبما حفظ عليها التاريخ ، من سقوطها في هوة محاولة الشهوة البدنية ، وهكذا شأن كل ظالم مستبد ، خارج عن قوانين شريعة الأدب ، فإن الله تعالى يهمل ولا يهمل ، وما ربك بظلام للعبيد .

الماردائم والسبة خالدة

الملحوظة السادسة — كادت « امرأة العزيز » بما فعلت سابقاً ، كتبت لنفسها يدها صحيفة سوداء ، في قاريخ حياتها ، ولكنها اليوم بما أقرن واعترفت ، وبما ندمت واستغفرت ، قد شقت من تلك الجريمة شيئاً أو كل شيء ، ثم هي اذا كانت قد تابت الى الله توبة خالصة ، فلا ريب أن الله يتوب عليها ، ويفر لها ، فلا يؤاخذها يوم الدين ، ولكن على كل حال فالمار دائم والسبة خالدة ، فليعتبر بذلك المتبرون والمعتبرات ، بأخذوا لأنفسهم كل أنواع الخذر والخطئة .

زليخا نمر مجرمة عزماء وليست مجرمة فعلاً

الملحوظة السابعة — لم نر في قاريخ الإثلاث الشقيان ، أخف مشاء من هذه « المرأة » ، لأنها اعترفت أخيراً أمام مندوب الملك ، وصرحت بجلية الواقع ، وذاتت عن غريها . واتصرت له على نفسها ، وأعلنت ندمها وتوبتها ، وطمت في عقران الله ورحمته ، وقليل جداً من الشقيان من يصدر عنهم كل هذا .

تاب لهذه المرأة رشدها ، وحاولت الرجوع الى ربها ، والتوبة من ذنبها ، ولا ريب أنها اذا كادت غلصة — ولا نلاحظ إلا كذلك — إن الله يتوب عليها ، ويفتح أمامها أبواب السماء ، كما هي مفتوحة للقائلين والمحادين ، متى تابوا ، لاسيما أنها أرادت السوء فقط ، ولم تساعد إلا الحوائ على حصولها على ما أرادت ، فهي « مجرمة » عزماء ، غير مجرمة فعلاً وبباشرة ، فجرها أخف من جرم من سقطت بالفعل ، كما أن جرم من سقط فعلاً وهي مستقرة ، أهون من جرم من تكون في المواخير ، تنف نفسها في سبيل الفحشاء على وجه القحة والمجاهرة .

هذه « المرأة » لاهي شريفة ، بحيث تعد من السيدات الثريفات ، ولا هي متينة القلب غير حساسة ، حتى تعد من النساء الساقطات ، بل هي في منزلة بين

المزلتين ، لأن كل ماصدر منها إنما هو « المرادة » ، ثم انها أخيراً تابت وثابت ، فوجدت أمامها رباً غفوراً رحيماً .

بهذا الاعتراف المقرون بالتوبة والندم ، تعلم أنه قد وجد في هذه « المرأة » التي تعد نصف ساقطة ، فضيلة من فضائل النفس ومزاياها ، لا توجد إلا قليلاً في أفاذاذ الرجال ، وأقل من القليل في فضليات النساء ، فقد ضحت بشرها في سبيل الدفاع عن يوسف ، ولعمر الحق ان هذا النوع من التضحية ، لمو نادر الوجود في هذا العالم ، المتمدين الحاضر ، الذي يعد نفسه من عالم النور .

مؤثرات الحب في النفس والاخلاق

المحفوظة الثامنة - الحب يخفف الغضب ، ويذل الأسود ، ويستأسد الجيابة ، وهو الذي يبعث الى الشفقة والحنو ، فاذا رأيت انساناً في خلقه جفاء وخشونة ، فاعلم أن الحب لم يستول على قلبه بعد ، نعم إن حب « امرأة العزيز » ليوسف ، لم يكن خالصاً من شوائب المنكر ، ولكن ذلك لا يمنع تأثيره على القلب نحو ذلك التأثير ، لاسيما وانه لم يفسد بفعل الفاحشة ، فالحب وإن ظهر في الناس ، مختلفاً باختلاف أخلاقهم وأحوالهم ، فسيبه واحد ، وهو الجمال الجاذب ، ونتيجة واحدة ، وهي تلطيف الطبع ورقة القلب ، وهذا ما حمل « زليخا » على أن تسمع منها هذا « الاعتراف » الذي هو من قبيل رد القول ، وعلى أن يصدر منها هذا « الندم » الذي هو من قبيل ما يسمى رد الفعل ، فحبذا هذه العبقريّة التي يسجلها لها « التاريخ » بمداد الاعجاب .

نعم . نعم . قلنا ولا نزال نقول : إن هذا النوع من التعقل والخضوع والإنابة ، الذي صدر من امرأة العزيز ، هو شأن كل من عرف الحب ، وشعر به ، لأن الحب يدمت الأخلاق ، ويلطف الطباع ، وله الأثر البالغ في تهذيب العقول ،

وترويض النفوس ، وهو أبو الشفقة وشقيق الختان ، ولولاه لأكل الناس بعضهم بعضاً ، لأن الذي لا يحب ، لا يرحم ولا يشفق ، ولا يكون فيه شيء من عواطف الحيين ، فذلك استقام طبع « زليخا » وتحولت مجاري أفكارها ، وبدأت تطري يوسف ، وتقرظه بما هو أهله .

زليخا سهلت ليوسف الخروج من السجن شريفاً باعترافها

الملاحظة الثالثة — إن « زليخا » هنا باعترافها سهلت على يوسف الخروج من سجنه شريفاً ، ومهدت له الجراءة أن يطلب من الملك أن يجعله على خزائن الأرض ، ولولا ذلك لقامت دون خروج يوسف من سجنه الحوائل ، ولتعرقلت مساعيه فيما رغب ، إذ كان يمكنها أن ترفض « العلامة » التي أقامها « الشاهد من أهلها » قربنة على أنها هي المرادة بأن تقول : « إنما جذبتني من خلفه لأمسكه فأضربه ، لأنه لما راودني غضبت عليه بهرب » كما يمكنها أن ترد تزكية النسوة له بأنهن كن « لما رأينه عشقته حتى غبن عن إحساسهن ، وقطن أيديهن ، فتركيتهن له معلولة ، كما كان يمكنها أن تقول : « لو شهدن — أي النسوة — عليها بأنها أقرت واعترفت بمرادته وأنه استعصم بطنها في شهادتهن لأنهن حسدنها عليه » ، فمع إمكان كل ذلك لما لم تفعل ، بل أحججت عن كل ما ذكر ، بل أقرت واعترفت ، بأن الجرم إنما كان من جانبها ، وزيادة على ذلك أثنت عليه ثناءً حسناً ، وفصدق عليها أنها أحيت يوسف ، مع تحكمتها من موته إن لم يكن جسدياً فمعنوياً .

صدى جواب النسوة وامرأة العزيز في الاوساط

الملاحظة العاشرة — لا ندحه من انه كان لجواب هؤلاء النسوة — لاسيما امرأة العزيز — صده العظيم في قصور أميرات مصر ، وفي بلاط الملك ، حتى رنت له « صَوَّعَنَ » رنة استغراب واندھاش ، مع الاعجاب الشديد ، بيوسف وطهارته .

(وما ابرىء نفسي ، إن النفس لأماوة ...) الخ

— ٢ —

وقالت السيدة لطيفة الكشميرية (١) :

عبرة وذكرى من حادثة العزيز وامرأته

الى هنا انتهت سلسلة ذكريات « امرأة العزيز » و « العزيز » ، وطويت صحيفتهما ، وأتى الدهر على جميع ما كان لهما من ترف ونعيم ، وجاه ونفوذ ، وذكر جميل ، ولم يبق لهما من ذلك كله إلا تلك السيرة التي تتلى في مدارس اليهود والنصارى والمسلمين ، في الصوامع والبيع والصلوات والمساجد ، في حلقات الوعظ ، في المحارب والنوادي والحفلات ، وفي البيوت ، حتى في مراسح التمثيل ودور السينما ، فلتعتبر السيدات والآفات ، وليحافظن على عفتهم ، التي هي كل ما يمكن من شرف وافخار ، وليعتبر الامراء والوجهاء وليحفظوا من الوقوع في مثل هذه الاشراك ، التي تجر عليهم العار والشنار ، فان هذه السيدة ماسجلت في بطون الكتب الدينية إلا للعبرة والذكرى .

الى هنا ينتهي ذكر زليخا وفوطيفار ، ولم يعد لهما ذكر في كتاب الله تعالى . وأصبح ذكرها أثراً بعد عين ، أثراً من الآثار الدارسة ، التي يهديها التاريخ الغابر للتاريخ الحاضر ، ولم يبق إلا ذكر يوسف ، فكأن سعادة يوسف وأهله بنيت على أنقراض شقاء فوطيفار وأهله ، وهكذا شأن الدنيا ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

الى هنا يتم القول في تلك الفتنة التي أضربت زليخا نارها ، وتم تاريخ عزيز مصر وأذن نجم سمعه بالأفول ، ولقد صدق من قال : « ما بينه الرجل من الآمال

في سنة ، تهدم المرأة في يوم واحد ، ولو كان تاريخ النساء مطراً ، لصح أن يدعى تاريخ العالم بأسره ، لأن النساء أصل كل ثورة في الممالك أو في الأسر ، وقد قيل : « المرأة سر عامض ، منها ولد الرجل ، ومنها يحيى ، ومنها يموت » . هذا وإن في كتاب الله تعالى ، في سورة النساء ، اللاتي هذه المرأة « رليخا » منهن ، ثمان آيات ، هي خير مما طلعت عليه الشمس وغربت ، كما أخرج البهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس ، رضي الله عنهما :

الآية الأولى والثانية والثالثة — قوله تعالى : ﴿ يَرْبِدُ اللَّهُ لِبَيْبِنَ كَلِمَ ، وَيَهْدِيكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ، وَتُوبَ عَلَيْكُمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ، وَاللَّهُ يَرِيدُ أَنْ يُتُوبَ عَلَيْكُمْ ، وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ يُتْبِعُوا مِلًّا عَظِيمًا ، يَرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ ، وَخُلِنَ الْإِنْسَانُ ضِعْفًا ﴾ (٤ : ٢٥ - ٢٧) .

والآية الرابعة — قوله تعالى ﴿ إِنْ تَحْتَسِبُوا كِبَارًا مَادُّهُمْ عَنْهُ ، تُكْفَرُ عَنْكُمْ سِئَاتِكُمْ ، وَنَذَرُكُمْ مُذْخَلًا كَرِيمًا ﴾ (٤ : ٣٠) .

والآية الخامسة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا ، وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (٤ : ٣٩) .

والآية السادسة — قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ ، يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (٤ : ١٠٩) .

والآية السابعة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ (٤ : ١١٥) .

والآية الثامنة وهي الأخيرة — قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ، وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ، أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجُورَهُمْ ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (١٥١٤) .

الى هنا يتم خطاب الاعتراف ، الذي صدر من رليخا ، وقد قبل انه كانت تلك المرأة عذراء في مزاودتها ليوسف ، وذلك أن زوجها كان خصياً ، ورُدَّ

بأن هذا القول مأخوذ من تعبير سفر التكوين عنه : « بَحْصِيَّ فرعون » ، ولكن هذا الأخذ غلط ، لأن لفظ « حَصِيَّ » لا يراد به أصل معناه ، بل يراد به من يكون « ناظر آ في الحرم » ، لأن الذين كانوا يستخدمون في الحرم ، جرت العادة أن يكونوا خصباناً ، ولهذا ترجمت في بعض الترجمات غير العربية « رئيس الحرم » هكذا قاله بعض شراح سفر التكوين ؛ وقبل إن زوجها فوطيفار كان ديسماً ، فلما رأت يوسف ، ظهر لها بالمقابلة قبحه أكثر وأكثر .

إن اعتراف زليخا بجلية الواقع ، بعد أن أنكرت قبلاً تمام الإنكار ، وانقلابها الخطير من مهاجمة الى مدافعة ، ومن ظالمة الى عادلة ، ومن كاذبة الى صادقة ، كان كله بحسب النوااميس الطبيعية ، وبحسب الظاهر ، وأما العامل الحقيقي في تغيير فكر زليخا وعدم ثباتها على الكيد ليوسف ، هي ورفيقاتها النسوة المصرياب ، هو الله تعالى مقلب القلوب ومصرف الأمور ، تحقيقاً لسابق قوله تعالى : ﴿ فاستجاب له ربه ، فصرف عنه كيدهن ، إنه هو السميع العليم ﴾ (ع ٣٤) .

ختمت امرأة العزيز اعترافها بأن ربهها غفور رحيم ، إيماناً بطعمها فيها ، قال تعالى ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (٣٩ : ٦٣) وقوله تعالى : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (٧ : ١٥٥) ، والمغفرة من الفقر وهو السر ، وسر الذنب بدم الحساب والمقاب عليه ، لا ينافي بقاء أثر خفي له ، وأما العفو فهو ذهاب الأثر ، فالعفو عن الذنب ، جعله كأن لم يكن بأن لا يبقى له أثر في النفس ، لا ظاهر ولا خفي ، وبناء على هذا ، فالعفو أبلغ من المغفرة ، وانما عبرت امرأة العزيز بالمغفرة دون العفو مع انه أبلغ ، لأنها لم تطمع إلا فيه فقط ، وربما يقال : إن الفرق بينهما لغوي ، واما النتيجة فهي واحدة . (مرحي)

وعند هذا الحد يتختم الفصل الأخير من رواية هذه المرأة وزوجها فلا يذكران أبداً ، وكأنهما ما كانا :

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا أنيس ، ولم يسمر بمسكة سامر

الباب الرابع

الفصل الأول

من ظلمة السجن الى نور الحرية وقصود برهان من السجن ريثا

آ (٥٤) ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ: «اِنَّكَ لَمَّا كُنْتَ امِينًا»﴾
فلما كلمه ، قال : « إِنَّكَ الْيَوْمَ لَمَّا كُنْتَ امِينًا » .

افتتحت الجلسة وتليت الآية الوابعة والחסون ، فقام الجان عبد السلام التتوي (١) وقال :

دع المقادير تجري في أعينها ولا تبتغ إلاّ خالي البال

ما بين رمشه عينه وانتباهتها يغير الله من حال الى حال

لندع أيها السادة امرأة العزيز والقسوة المصريات لتغير أجل ، فإنّ نصصهم قد افقضى ، ولتعد ليوسف الصديق وخروجه من السجن ، فالآن سنتتبع سلسلة آلامه ، ويتبدى أن يدخل في دور جديد .

لقد قدم أن « الرسول » أجرى التحقيقات اللازمة وما هي الا جولة في هذا المعترك السري ، حتى عاد من بعدها متجسدا في حقيقته نتيجة التحقيق ، أو أنه حكى شفاهيا ما رأى وسمع في غرفة « الاستنطاق » من وقت دخوله بها الى رقبته خروجه منها ، ولانسل عن سرور الملك ، وشدة محبته ليوسف ، غيبا بلغم نتيجة التحقيق ، (ر) لذلك (قال الملك) الريان ، والاهتمام ظاهر في كلامه ،

(١) نية الى قوم التتوي واصول التتوي القدماء

مزوجاً بالشوق (ائتوني به) سراعاً ، لأنني أقصور أن هذا الشخص هو المرساة
التيينة التي تمنع سفينة مصر من أن يجرفها تيار الجذب والقحط (أستخلصه لنفسه)
وأستخصه وأصطنعه لشخصي ، وأصطفيه ، وأتخبه لذاتي وأزلقه اليّ ، بحيث
أرجع اليه في تدبير مملكتي ، وأعمل على اشارته في مهات أموري ، يكون عندي
كاستشار أو نادموس ؛ فذهب الرسول الى يوسف ، وأنبأه بقوله : « لقد جرت
التحقيقات السرية ، حسبما رغبت ، فكانت النتيجة براءة ساحتك من كل وصمة ،
فالسيدات نساء الأمراء قد شهدن فيك بالطهارة ، بل إن نفس « امرأة العزيز »
قامت كمدافع عنك ، واعترفت بأن المراودة كانت منها فقط ، وانك صادق ، وهي
المبطلّة ، ودامت عنك دفاعاً مجيداً ، ولم تال جهداً في بيان طهارتك وعفتك ، وعليه
« فالملك الريان » يكرر طلبك ، ويأمر بشخصك اليه ، فلما سمع ذلك قال : « الحمد
للإلهي ، والشكر للإلهي ، غب الصباح بحمد القوم السرى » ثم خرج من السجن .
بعد ماودع رفاقه فيه ، ومع أنهم سرّوا بالافراج عن صديقهم الصديق ، فقد أحسوا
في أنفسهم شيئاً أقلق راحتهم ، لا يدرون ماهو ؛ وقد فاتهم انه سهم مفارقة يوسف
اليهم ، الذي كان في السجن تغزية لهم ، فما هي الا جولة أو جولتان حتى وصل الى
حيث يجلس الملك فدخل عليه ، وقال له : أيت اللعن أيها الملك ، (فلما) وقف
بين يديه ، رآه فلمس قلبه قلبه ، و (كله) يوسف ، فعجب الملك من فصاحته
وقال : حقاً إن في الزوايا خبايا ، حقاً إن الرجال تحت طي لسانهم ، لا تحت طيلسانهم ،
حقاً إن الحديث أدل على الرجل من لباسه ، حقاً إن يوسف هذا هو ملء الاذن ،
كما هو ملء العين ، وعند ذلك قال له الملك بلسان الوعد والتطمين : لله أبوك ! ،
(إنك) عندنا يا أخا العبرانيين (مكين) ذو مكانة ومنزلة (أمين) مؤتمن على كل
شيء ، أو آمن من كل مترهب مابقيت وبقيت ، فأنت المضطرب الخائف سابقاً ،
والثابت الآمن لاحقاً ، أنت الدليل المتهم بدءاً ، وذو المكانة والمأمون أخيراً ، أنت

٥٤٠ طلب الملك ليوسف ثانية بعد رجوع التدوب من التحقيق (٥٤)

الظلم والظلم ، ونحن الجنة والرداء ، ويحصل ان مناه مكين في ملكي ، أمين على تديره .

« وقال الملك ائتوني به . » التح

- ١ -

وقال الاساذ عبد الفقار الجركسي :

طلب الملك ليوسف ثانية بعد رجوع التدوب من التحقيق

كانت تمي للملك تأويل يوسف لرؤياه ، كما علمت ، برآه من أهل الفضل والحنكة والسياسة ، ثم ظهرت له من نتيجة التحقيقات براقته ، ورآى أنه يوجد بينها صلة وثيقة ، وفي الاتحاد في الوطن الآسيوي ولذلك ، ولكون الملك الريان آسيوباً أولاً ومملوكاً على مصر ثانياً ، قاله : « إن هذا السجن كريم الشيمه ، مرضي الأخلاق ، ائتوني به أستخلصه لنفسي ، وأحيل له في مجلي المقام الأول فقد بلوح لي أن هذا الفتى فيه روح ، روح الأمانة ، روح الحكمة ، روح الاقتصاد روح الفهم ، ائتوني به أستخلصه لنفسي ، وعلى باقي النبلاء السلام ، أسرعوا بالفيضة اليه ، فلم يبق مني أكثر من صبر ساعة ، ولأن لهذا اليوم مابعد — هذا كلام « الريان » وهذه مساءه الجميلة ليوسف ، هو مع كونه وثناً ، أحب يوسف وأخرجه من سجنه ، ولكن إخوته « جنود » ، وفي عيابة الحب قذروه ، ولقد صدق من قال : « إذا ضيكت الأقرب ، أتيج لك الأبعد » .

فأت اليه « الرسول » ، وأنياه بما كان من أسر برأته ووقعه من نفس الملك الموقع الأول ، وجهه له حباً لا ينقصه إلا الموت ، ثم أراد على الخروج من السجن بأمر الملك الريان ، فتدثذ آس يوسف أنه لا مانع من خروجه ، وأنه قد استحصل على البراءة تماماً ، وعلى حسن السمعة وطيب السيرة ، وإن الملك قد وثق به وأحبه ،

فأبرقت أسارير وجهه ، فقام وقال للسجناء : أستودعكم الله ، ثم خرج من السجن باسم بريء ، بعد أن كان دخله باسم متهم ، فحضر بين يدي الملك ، وعمل له « الريان » حفلة تكريم ، جمع له فيها الوزراء وجميع كبار البلاط ، وعزاه بما أتى عليه سابقاً ، وطمأنه وهناه بما سيلاقيه من الخفاوة ، فشرع يوسف يكلم الملك ، فنال حظوة في عينيه ، وتبادل معه الحديث ، وأحبه أكثر من ذي قبل ، واحتفى به بنوع خاص ، واقتص منه تأويل رؤياه ، لكي يسمعه منه بأذنيه ، قائلاً له : أعد عليّ تعبیر الرؤيا كله . ولا تدع منه حرفاً إلا جئت به ، فيجعل يوسف يثر كلامه والملك مصغ اليه ، ولم يمض فواق حتى عرف الملك تأويل حلميه ، فدهش منه أيما اندهاش وأنشد :

وأستكبر الأخبار قبل لقائه فلما التقينا صغر الخبَرُ الخُبَرُ
وقال له عند ذلك : ﴿ إنك اليوم لدينا مكين أمين ﴾ ومن معلقة زهير
ابن أبي سلمى :

وكأن ترى من صامت لك معجب زيادته أو نقصه في التكلم
لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يسبق إلا صورة اللحم والدم

(وقال الملك اتوني به ...) الخ

— ٢ —

وقام الشيخ عبد الاله اليافى مستأذنًا ورئيس المؤتمر في بيان ما يراه من فوائد في هذه الآية الكريمة وبعد أن أذن له قال :

عدد حيئات الرسول السجن

(١) — جملة حيئات الرسول « قبو » للسجن أربع مرات ، فالمرة الأولى

كان متهاً بحريرة الزامرة على الملك ، والمرة الثانية لا ذهب إلى يوسف ليستفتيه عن رؤيا الملك ، والرتان الأخيرتان لأجل إخراجيه من السجن الى الملك ، فافهم .

رواهي حب الملك ليوسف ثم استخلصه اياه لنفسه

(٢) — أصبح يوسف كائن جيل مغناطيسي ، وأصبح قلب الملك كائنه قطعة حديدية تحاول أن تنفصل من جسم الملك وتترامى لجهة يوسف ، فلما أحس الملك بهذا التداعي المدهش ، قال اثتوفي به .. الخ وبعبارة أخرى : وقف الملك على صحة براءة يوسف وعفته ، فازداد شعوراً بالانعطاف اليه ، وردّد في ذاكرته ما آتته فيه قبلاً من الذكاء والفهم حين أول رؤياه ، فتداداه ضميره باستخلاصه لنفسه ، فلبى نداء الضمير ، وقال : السَّبَقَ السَّبَقَ ؛ والسَّرْعَ السَّرْعَ ، صيروا اليه وأسرعوا الكرة ، واثتوني به أستخلصه لنفسى . فاني إذا منيت به ، قوي ساعدي ، واشتد عضدي .

ثم تمير يوسف سابقاً رؤيا الملك ، وتديره الذي ذكره للخروج من ذلك المأزق الحرج ، ثم ظهور الظلم الفادح في سجنه ، وانه بريء مما نسب اليه ، مع ظهور أنه سامي فلسطيني ، وليس من الأمة المصرية ، — كل ذلك ترك أثراً قوياً في نفس الملك ، حبيبه فيه حباً حمماً ، فرغب في استخلاصه لنفسه .

هوامس يوسف حينما استمر لقاءه الملك

(٣) — لما أراد يوسف الخروج من السجن بحلق وأبدل ثيابه (تك ٤١ : ١٤) وإعما حلق لأن المصريين ما كانوا يطلقون بروعهم ولحام إلا في أوقات الحزن ، وكان حلق الرأس عادة في كهان الفرس ، خلافاً للفلسطينيين يومئذ ، فقد كانوا يعدون اللحي زينة الرجولة ، وشوهد على الآثار المصرية الأسرى والأدنياء

آ (٥٤) اكبار الملك ليوسف عندما كلمه وسمع كلامه ثم تقريره منه ٩٤٣

مصورين بلحي^(١) ، ولذلك كان يوسف في السجن طويل الفرع واللحية ، رمزاً لحزنه ، أو تقليداً لأهله ، فلما دعي الى الثول في حضرة ملك مصر حلقتها ، لأن حزنه زال ، ولأن المصريين يكرهون فرع الرأس واللحية ..

اكبار الملك ليوسف عندما كلمه وسمع كلامه ثم تقريره منه

(٤) — سمع الملك الريان كلام يوسف فوقع في نفسه وأكبره ، وعلم أنه يحمل بين جنبيه نفساً كبيرة ، تختلف صورتها عن صورة الأسماك الحفيرة التي عليه ، وانه كان لا يليق بصاحب هذه النفس أن يسجن بضعة أيام ، فضلاً عن بضع سنين ..

وقد جرت عادة الناس في الحكم على جلسائهم لأول وهلة أنهم يقدرونهم بما يظهر من لباسهم وحلام ، ثم باسمائهم وأنسابهم وما يحملون من رتب وأوسمة ، فاذا اختبروهم قدرهم بجواهرهم وقوام ، وزى ملك مصر هنا انها قدر يوسف وأجلكه ياررقه الله من مواهبه السامية ، وأفكاره الثاقبة ، كما قال ألاملاطون لجلس له :

« تكلم لأعرفك » ، فلذلك ولما كلمه يوسف قال له : « إنك اليوم لدينا ممكن أمين ».

عمر يوسف عند مثوله بين يدي الملك

(٥) — كان يوسف عليه السلام لا وقف بين يدي الملك ابن ثلاثين سنة ، ولكن يوسف لا يعتبر من تلك الأعوام الطوال التي عاشها في ذلك العالم المتكود سوى (١٧) سنة ، وهي السنون التي مضت عليه وهو في حضن والده .

(١) كما قاله هيرودوس ،

تقاهم يوسف مع الملك في اللغة

(٦) - كلم يوسف الرابن، وكانا يتفاهمان تملًا، لأن لغة الرابن علمانية، وهي قريبة جداً من العربية، أو هي عربية، وسلم أن العربية والبرانية متقاربتان، وكذلك كان يوسف يتفاهم مع القبط المصريين الأصليين، لأن القبطية قريبة أيضاً للغة، والحاصل أن اللغة المصرية القبطية واللغة العبرانية واللغة المملانية واللغة السراقية واللغة المديانية، قريب بعضها لبعض، فكانها من أمهات مخلقة لأب واحد، ولذلك كان بإمكان الجميع متى اجتمعوا أن يفهموا.

وعاء يوسف لأهل المسجد الذي لأهله

(٧) - قيل إن يوسف دعا أهل المسجد حين خروجه منه، فقال: (اللهم اعطف عليهم قلوب الأحياء، ولا تسم عنهم الاحبار، فهم أعلم الناس بالحوادث والواقعات) وقيل كتب على باب المسجد: (هذه منازل الابتلاء وقبور الأحياء، وشماة الأعداء، ونجيرة الأصدقاء).

البصرة في هذه الامور وما بعدها

(٨) هذه الآية والاقتناك بعدها نفع الانسان عدم الحسد، لأنه بقرائنها يعلم أنه يوجد في التاريخ من كان عبداً مشري بشن نحس ثم ترقي الى درجة عالية في دار الحكومة، حتى صار من الوزراء العظام.

يوسف وزير مالية

آ (٥٥) ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ ، إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الخامسة والخمسون فقام السيد عبد القهار الألباني^(١) وقال :

(قال) يوسف مخاطباً الملك الريان : ياذا الجلالة (اجعلني) ولّني (على خزائن الأرض) حاصلات الأرض المصرية عموماً المخزونة في حقول القرى والمدن والحصون (إني حفيظ) أحفظ ما تستحقظنيه (عليم) عالم بوجوده التصرف بها . ونرى هنا ان يوسف قد وصف نفسه بالأمانة والكفاية اللتين هما طلبه الملوك ممن يولونه ، فقال له الملك : « أنت لها ، أنت لها ، قد فعلت ، فأوقف يوسف حياته وسخر عواطفه وقواه وجوارحه لخدمة مصر والمصريين ، بل وما إليها مما جاورها من فلسطين وغيرها .

(اجعلني على خزائن الارض .. الخ)

- ١ -

وقال السيد الحصري^(٢) :

مؤهلات يوسف لترشيح نفسه لوزارة مالية مصر

آنس يوسف من نفسه من النشاط والذكاء وعلو الهمة ما يؤهله لإدارة .

(١) سبة الى بلاد الألبان الاسلامية .

(٢) نسبة الى حضرموت إحدى مقاطعات جنوب الجزيرة العربية .

وزارة مالية مصر ، فاقترح هذه الطلبة ، ولسان حاله يقول :

ذريتي أنل مالا ينال من العلا
فصب العلاقي الصعب والسهل في السهل
تربدين إدراك المالي رخصة
ولا بد دون الشهد من إبر التحل

أو يقول :

من رام وصل الشمس حاك خيوطها سبباً إلى آماله ومعلها

أو يقول :

أين بضلي إذا قمت من الد هر يعنى مجل التأكيد
عش عزيزاً أوت وأنت كريم بين طعن القنا وخفن البنود

وهو عليه السلام وإن لم تسبق له خدمة في الحكومة وإدارة شؤون ماليها
إلا أنه كان على مذهب من يقول :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم
وتنظم في عين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظائم
على أن الله عز شأنه قال في شأنه : ﴿ ولما بلغ أشده آتيناها حكماً وعلماً ﴾
(ع ٢٢) وليس بعد هذا بيان لمستبين .

لذلك قال للملك الريان : (يا صاحب الجلالة ، عيني على حاصلات أرضك أرض
البلاد المصرية عموماً ، التي تختزن الحاصلات والفلال في حقولها ومزارعها وحصونها
— وكانت تلك الحاصلات عبارة عن القمح والشعير والذرة الصفراء والبرسيم
والكروم والتين والزيتون والجوز والنصص والبلح والتمر وما أشبه ذلك من
غلات مصر كما يعلم ذلك من التواريخ القديمة — ثم أردف يوسف قائلاً : إني

خلقت اقتصادياً وعشت اقتصادياً ، ودم العلم والخبرة جار في عروقي ، وملكة المعرفة سارية في جوارحي ، حفيظ للأموال بمن لا يستحقها ، حفيظ لها في خزائنها ، خبير بالوجوه التي يمكن تحصيل الدخل والمال منها ، خير بالجهات التي تصلح لأن يصرف المال إليها ، عليم بمصالح الناس وبمواقع حاجاتهم ، عليم بوجوه التصرف دخلاً وخرجاً ، وهذا هو سلاحي الذي أتسلح به وهذه هي حلتي التي أتملى بها ، وهذه هي وسيلتي التي أقومل بها إلى ملك الديار المصرية ، ليس لي سلاح ولا حلية ولا وسيلة بمد الله تعالى سوى الخبرة والحفظ والأمانة . هذا ولا نشك بأن الريان قال له : (ذلك الظن بك أيها العبراني الاقتصادي الحيسوب القدير) ، ثم التفت إلى وزرائه وقال لهم : (هل نجد رجلاً ينهض بالعمل في بلاطنا ويستقل به استقلالاً أحسن من هذا الفتى ، هل نرى انساناً أجزأ للعمل وأمضى من هذا الإنسان ؟ . . . كلا . . .) ثم أمر فجعله كما طلب في مهرجان عظيم ، وقد هاج المصريون وماجوا من هذا المهرجان والموكب الذي عمل لأجله ، وكان هذا الحادث يمد من الحوادث التاريخية الباهرة في تاريخ يوسف . وبهذه الحادثة يكون انتهاء فصل المأساة التاريخية ، وبدء لمصر جديد وتعلم من هذا الذي حكاه الله تعالى عن (الريان) — وهو وثني — أن ننظر عند إستاد الوظائف للكفاآت ، لأنه إذا كانت الحكومة الوثنية — حكومة مصر — قد جرت على هذه الطريقة المثل ، فأولى أن تجري على ذلك الحكومات ذات الأديان السهاوية .

لقد ادعى يوسف دعواه السالفة الذكر وأتى من العمل بما يصدقها وحفظه له التاريخ ، إذ قام بما أصاره إليه الريان ملك مصر من الأمر ، أحسن قيام وأتى بكل ما عصبه به ، وعود عليه فيه ، فكان هاماً أحوذياً ماهراً ، لا يفوته

شيء، ولا يعجزه أمر، مشمراً للأعمال، بسوقها أحسن مساق، لا يشذ منها عنه شيء ما.

وتعلم من كلام وعل يوسف عليه السلام، أنه يتبني للعامل — إن كان عاقلاً — أن يسمى في طلب الدنيا، ليعيش بشرف، وغني عن الناس، ولا يتكل على مانأتي به الألبام، ورحم الله من قال :

لعمرك إن المال قد جعل الفنى
نسيباً وإن الفقر بالحر قد يزري
وقال آخر :

ولا مجد في الدنيا لمن قلّ ماله ولا مال في الدنيا لمن قلّ مجده
وفي الحديث الشريف : (اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل) .

« اجعلني على خزائن الأرض . . الخ »

وقال الاقتصادى الكبير الأستاذ الدمشقى :

عمل يوسف في بني الخصب والجذب في مصر

لقد طلب يوسف عليه السلام أن يكون جايئاً للحاصلات في بني الخصب . السبع وخزناً لها ، ثم بائعاً لتلك الحاصلات في بني الجذب السبع الأخيرة .

ويظهر أن هذه الوظيفة التي هي عبارة عن الجباية فالخزن فالبيع وظيفة جديدة لم تكن من قبل ، لأنه لم يكن لها داع ، وقد جاء في سفر التكوين وشرحه أنه بطن أن أهل مصر كانوا يعطون الملك ، عشر القلال ، ولكن يوسف أشار على الملك أن يأخذ خمس الحاصلات ، وكان إعطاؤهم للملك ضعفي ما كان يأخذه سابقاً ، ليس تعبيراً عليهم في بني الخصب ، لكثرة غلالها كثرة لم تعهد ،

ويرجح أنهم علموا ما كان من حلم الملك ، فكان ذلك مما خفف عليهم دفع الخمس . وقد جمع يوسف (ع) جميع الفضة التي في أرض مصر ، وفي أرض كنعان باليرة التي كانوا يتناعونها وأدخلها بيت ملك مصر ، فيوسف لم يكتف بأن تلافى مضار المجاعة بل عني كرجل خبير بالسياسة والاقتصاد ، أن بقوي سلطة مولاه ، ويزيد غنى دولته ، بإدخال فضة الأهليين خزائن الملك ، ثم بتخليكه ما شيتهم ، إذ قال يوسف للمصريين طالبي الطعام : (إذا كانت فضتكم قد نفذت فهاقوا ماشيتكم ، أبعكم بها ، فقاموا يوسف بماشيتهم فأعطاهم طعاماً بالخيل والماشية من الغنم والبقر والحمير ، ثم إن المصريين عادوا في السنة الثانية إلى يوسف يشكون اليه سوء مصيرهم ، لأنه لم يبق بين يديه إلا أبدانهم وأراضيهم ، ويسألونه أن يشتريهم وأراضيهم للملك ، فاشتري يوسف جميع أراضي المصريين للملك ، لأنهم باعوا كل واحد حقله ، فصارت الأرض للملك ، إلا أن أرض كهنتهم لم يشتريها ، لأنها كانت للكهنة وظائف أي أرزاقاً من قبل الملك يأكلونها ، ولذلك لم يبيعوا أراضيهم (كذا في التوراة وشروحها والله أعلم بصحة ذلك).

إني حفيظ علم

— ٣ —

وقال الاديب العدني (١) :

السرائر علمت يوسف ادارة شؤون مصر المالية والاقتصادية

كان يوسف ذاق نكبة المنكوبين ، وجرب ذل الأعزاء ، واختبر مهانة الأشراف ، وعالج مرارة العيش ، وشاهد بؤس البؤساء — وسمع آئين أهل البلواء .

(١) نسبة الى عدن احدى بلاد الجنوب العربي .

ذاق نكبة المنكوبين ، حين ألقي في (غيابة الجب) وحرب ذل الأعزاء حين جلس في « سوق الرقيق » ، ليباع لمن يرغب فيه ، واخبر بنفسه مهافة الأشراف ، حين كان عبداً في بيت « بوطيقار » ، وعالج مرارة العيش ، حين اعتقل في « السجن » كجرم ، وهناك شاهد يؤس البؤساء وسمع أنين أهل البلواء .

كان يوسف (ع) مرّ بجميع الطبقات ، وخالط جميع الناس ، خالط (طبياً) اخوته ، فرأى حسد القريب القريب ، خالط « السبارة » ، فرس كيف يكون تعدي القوي على الضعيف ، خالط « الترنوج » في سوق الرقيق ، فأدرك شدة السادة على العبيد ، خالط « الكبراء » في بيت العزب ، فحرب ظلم الاميرة والايبر ، خالط « المعتقلين » في السجن ، فشاهد كم فيه مظلّمين ، وسمع أنان التالّمين وزفرات المتوجّمين .

تصور كل ماجرى عليه فيامضى ، ثم نصر وكل ما سيجري على الناس المصريين ، في سني القحط بما يأتي ، يخاف أن يندروا كما ندروا ، فاقوا كما آهين ، ويصب من فوقهم الظلم كما صب بوته ، فأحب أن يتولى شؤونهم المستقبلية نفسه ، وأن يكون هو القائم بخدمتهم ، ليعطي كل ذي حق حقه ، ويقوم واجب العدل والانصاف ، ولتتم في نفسه عاطفة الرفق والرحمة ، فعطف على الفقير عطف الأخ على الأخ ، ويرحم المسكين رحمة الجيم لأحميم ، لذلك اقترح على الملك أن يجعله على خزائن الأرض .

لله درّ الألم ما أنفعه ! لله درّ المؤس ما أنعمه ! فالألم هو البنيوع الذي تفجر منه جميع عواطف الخير والاحسان في الأرض ، وهو الصلة الكبرى بين المجتمع الانساني ، والجامعة الوحيدة التي تجمع بين طبقاته وأجاسه .

لم يرد يوسف أن يعيش عيشة تربية ، لا يخدم بالساء ، ولا يعطف على متكوب ، ولا يرقى لأمة ، ولا يسكن على وطن ، لم يرد يوسف أن يكون كـ بعض هؤلاء النف من

العلماء الذين لا يشتركون في شأن من الشؤون العامة ، ولا يعتبرهم ماداموا راضين عن أنفسهم ، مغتربين بحظوظهم ، قابضين رواتبهم ، أسقطت على الأرض السماء ، أم عرفت الدهماء في الدأماء !!!

لم يرد يوسف أن يعيش دينياً قنياً لأن هذا من سفالة المهمة ، بل أراد أن يعيش عظيم المهمة ، وعظم المهمة هو استصغار مادون النهاية من معالي الأمور وطلب المراتب السامية ، كما أراد يوسف عليه السلام .

هذا ما ينبغي أن يكتب في هذا المقام ، وما يليق أن يقوله القائلون ، وما يناسب أن يسمعه السامعون ، وإن لم يقع موقع الاستحسان من أشياخ الكسل ، وأساتذة العجز ، وأئمة الثاؤب والتامل ، الذين يحتفرون نعمة العقل والقوة ، بتعطيلها عن العمل ، وربما كان الواحد منهم في نفسه أطمع من « أشعب » نذهب نفسه حشرات على « الذهب » ، لو استطاع أن يهدم بيتاً ، ليربح حجراً لفعل ، يظهر الزهد ، وهو احرص على الدنيا من صيارفة اليهود .

إن الرجل ذا النبل والمروءة يكون خامل الذكر ، فتأبى نفسه إلا أن تشب وترتفع ، كالشعلة من النار يضررها صاحبها ، وتأبى إلا ارتفاعاً ، فلذلك اشرأبت نفس يوسف عليه السلام ، للرفعة ، والمجد ، لكي يقوم بخدمة مصلحة عمومية ، وفي ضمنها مصلحة الشخصية ، لأن حب الذات فطرة في الناس ، لا يمكن أن يخلو منها أحد ، حتى الانبياء عليهم الصلاة والسلام ، إذ لم يقل أحد ما انت الأنبياء معصومون من ذلك .

خرج يوسف من سجنه ، فطلب الجلوس على أريكة « وزارة المالية » ، فاستحق بذلك قول أبي فراس الحمداني :

ونحن أناس لا توسط بيننا لنا الصدر دون العالمين أو القبر

طموح الانسان الى الرياسة، من ملك ووزارة وقيادة جيش ونحوها، هو
لا شك مما يبعث على التنافس، وبذلك المستطاع في سبيل الوصول اليها، وهو أمر
حسن، قال **صاحب الزهد** =

﴿ لا يزال الناس بخير ما تناقضوا، فاذا تساوا هلكوا ﴾، معناه انهم لما
يتساوون إذا رضوا بالانقاص، وتركوا التنافس في طلب الفضائل ودرك العالي،
(ابن الأثير في نهايته).

(قال اجعلني على خزائن الأرض ...) الخ الآية

—؛—

وقال الاستاذ الزبيدي^(١)

عزير مصر ونمبرها

نتعلم من هذا القول أن يوسف عليه السلام كان «وزير مالية»، ثم تعلم
من تسمية اخوته له «بالعزير»، إذ قالوا له في سفرهم الثالثة :
﴿ يا أيها العزيز ﴾ أنه كان «عزير مصر»، وعزير مصر بحسب اصطلاح
المصريين القديم والحديث هو حاكمها الكبير، والمتصرف العظيم فيها، بعد ملكها
الأكبر، وفرعونها الأعظم، فليس يوفق «عزير مصر» سوى الملك فرعون،
ووظيفة عزير مصري النظر في جميع أمورها بلا استثناء، فهو المرجع في كل
حدث مهم لجميع المصريين، ويكون في حكومة هذا العزيز وزراء، ورئيس
وزارة، ويكون التركيز كأمير مطلق اليد ضمن الشروط المشروطة له، وفي
دائرة الحدود المحدودة، ويكون تحت تفويض ملكها الأعلى، الذي إذا أراد عزله
عزله، وعين له خلفاً، وعلى هذا الاصطلاح المصري القديم جرى الاصطلاح

(١) نسبة الى زيدة بلدة في الحجاز

الجديد ، منذ عهد مؤسس العائلة الخديوية « محمد علي باشا ، لأواخر الحرب العالمية ، فقد كانت مصر « أيلة ، من أيلات الدولة العثمانية ، وكان ملكها هو الخليفة العثماني ، الذي كان يدعى له على منابرها ، وكان « الخديوي ، فيها يسمى « عزيز مصر » وللخديوي حكومة مؤلفة من وزراء ورئيس وزارة .

إذا تقرر هذا نجم عنه سؤال صورته : كيف يكون يوسف في وقت واحد « وزير مالية » بحكم قول الكتاب العزيز ﴿ اجعلني على خزائن الارض ﴾ (ع ٥٥) و « عزيزاً لمصر » بحكم قوله أيضاً : ﴿ يَأْتِيهَا الْغُزِيرُ ، مسناً وأهلنا الضر ﴾ ؟ (ع ٨٨) ، وجوابنا عنه من وجهين ، الأول يحتمل أنه صار أولاً وزير مالية ثم ترقى فصار عزيزاً لمصر مع احتفاظه بوزارة المال ، كما كان آخر خديوي بمصر وهو « عباس حلمي الثاني » عزيزاً لمصر وناظر أوقافها في آن واحد ، ويحتمل أنه كان من يجعل على (خزائن الارض) يكون (بالطبع) هو « عزيز مصر » فتأملوه عسى أن تفقدوا يبصيرتكم لأحسن منه والسلام عليكم .

(اجعلني على خزائن الارض .. الخ)

- ٥ -

وقال ميرزا حسين الكاشاني^(١) :

تظير حادثة يوسف في التاريخ

تقدم أن يوسف عليه السلام ، استسلم « للسيارة » وسلم بأن يذهب معهم لمصر ، بدون أدنى مقاومة ، وإن من مهونات هذا الاستسلام ومسهلاته ، بل من دواعيه وبواعثه ، خوف يوسف على نفسه من اخوته « بني العلات » لو حاول الرجوع لأبيه ، وبناء عليه فهو قد بقي صابراً يقترص الفرص ، حتى منحت له ،

(١) نسبة الى بلدة كاشان في ايران .

هذه الحادثة التادرة المثلث ، وهي وقوفه أمام ملك مصر مخفواً بحجة منه له هي نادرة المثال ، نعرض لهذه القصة . وطلب أن يكون من أهل البلاط ، وما هي إلا لفظة الجيد ، حتى صار وزير مالية مصر العام ، فقام بهذا المنصب أحسن قيام ، وأسس لنفسه ولأهله مجداً بمصر ، له عزه وجلاله .

ولعمري إن هذه الحادثة تشبه من بعض وجوها حادثة (عبد الرحمن الداخل) الأموي الذي فرّ من وجه بني عمه العباسيين ، إلى النرب خوفاً من قتلهم إياه ، ولحق بالأندلس ، وأسس ملكاً ودولة مستقلةً بها عن بني العباس وإذا كان « المنصور » العباسي قد لقب « عبد الرحمن » هذا « بصقر قریش » فما أحق « يوسف » أن يلقب « بصقراسرائيل » ؟ ! وههنا (والشيء بالشيء يذكر) تذكرت حكاية رأيتهما في بعض التواريخ وهي مشهورة وخلاصتها أن « عبد الرحمن الداخل » هذا دخل ذات يوم وهو صبي على جده « هشام » ، وعنده أخوه « مسلمة » ، وكان مسلمة شديد الفراسة ، بعيد النظر ، فأمر « هشام » أن ينحى عنه ، فقال له مسلمة : (دعه يأمر المؤمنين ، هذا صاحب بني أمية ، ووزرهم عند زوال ملكهم ، فاستوص به خيراً) ، قال عبد الرحمن : (فلم أزل أعرف من جدي منزلة من ذلك الوقت) فهذه البشري من مسلمة لعبد الرحمن تشبه بشري « يعقوب » ، لولده « يوسف » حينما قال له : ﴿ وكذلك يحببك ربك . الخ ﴾ ، سواء كان كلام يعقوب لابنه من قبيل الفراسة ، أو مبنياً على الوحي السماوي ، فهذا وجه ثان من وجوه المشابهة بين عبد الرحمن الداخل ويوسف عليه السلام ، واليك وجهاً ثالثاً ، وهو اني رأيت في بعض الدفاتر قصيدة تصف عبد الرحمن الداخل فكان منها :

دبر ملكاً وشاد عزا ومنيراً للخطاب فصلا
وجند الجند حين أودى ومصر المصر حين أخلا

ثم دعا أهله اليه حيث اتأوا أن هلم أهلا
فجاء هذا طريد جوع شديد روع يخاف قتلا
فقال أمتأ وقال شعباً وقال مالا وقال أهلاً

وغني عن البيان أن انطباق هذه الآيات على يوسف حيث دبر الملك وشاد
العز وجند الجند ومصر الأمصار ودعا أهله اليه أجمعين .

« قال اجعلني على خزائن الارض . . . الخ »

— ٦ —

وقال السيد العبادي :

الدين الاسلامي والسعي في الدنيا

السعي في الدنيا وطرق الشرف والمجد ، هو من تعاليم الأديان الحقة . . . ،
المطابقة لروح المدينة الحقيقية . . . ، وفي مقدمة هذه الأديان « الاسلام » نعم
إن دين الإسلام هو دين علم وعمل ، دين جهاد ونشاط ، دين روحي ومادي معاً ،
وبعبارة أخرى دين ايجابي ، بعكس بعض الأديان الأخرى ، كالدين الهندوسي
مثلاً ، الذي هو سلبي محض ، يأمر بإنكار الذات التام ، ويحض على الابتعاد
عن كل مافي هذه الدنيا من رزق ومتاع وأسباب شرف ومجد ، بحيث أن
من أراد العمل بأوامر ذلك الدين — بالحرف الواحد — ترك الدنيا والتنسك
في صومعة ؛ ولكن دين الإسلام يمكننا العمل بأوامره تماماً ، دون أن نحتاج
ذلك إلى الابتعاد عن العالم ، وما فيه مباح اللذة والتمتع بكل ماتحت الكلمة من
أكل وشرب ولباس وأثاث ورياش ومجد وشرف .

وأما تلميم الزهد والرهبانية وترك الدنيا ، فالتما هو من الزوائد التي أدخلها
بعض رجال الدين من العجم ، ومن متمشيخة العرب الذين لم يفقهوا حقيقة الدين

فأدخلوا عليه ما ليس فيه فسخوه مسخاً ، وشوهوه تشويهاً ، وأما الطريقة التي كان عليها الفاروق الأكبر ، رضي الله عنه ، فإنما هي حالة نفسية ، رضيها لنفسه بنفسه ، وألزم فيها نفسه ، ولم يلزم بها غيره ، ومع ذلك فهو رضي الله عنه إنما زهد في الملبس والمأكل ، ولكنه فيها يتعلق بالمجد والشرف وبعد الصيت ، فقد وصل لغاية لا غاية بعدها ، بحيث قهر كسرى فارس ، وقيصر الروم . ووضع رجله فوق رؤوس كل الناة المتجبرين ، وهو الذي كان إذا رأى رجلاً جالساً في المسجد بعد أداء الفريضة بضربه بالدرّة ، ليخرج لمعاظاة أسباب المعاش ، وكان يقول : (إني ليمجني الرجل ، حتى إذا علمت أنه ليس له عمل سقط من عيني) .

إذا كان الإنسان خلقاً قادراً على استخدام الطبيعة في مصلحته ، فإنه عليه أن لا يني في ذلك ، لأن به ترتبط رفاهيته وراحته ، وإذا كان ينبغي للقادر على الشغل أن يحمل الفأس ويقطع بها الصخور ، أو يقلب بها الأرض — أفلا ينبغي لمن فيه أهلية للوظيفة أن يرشح نفسه لها ، ليقوم بواجبات نفسه وأهل وطنه ؟ وإذا كان الله يقول : ﴿ وَسَخَّرْ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ ﴾ (٤٥ : ١٢) فهل يجوز أن ينكر على يوسف الصديق أن يتطلب بعض منافع ما في الأرض ؟ ... حاشا .

وهل من العبث تسمية الله تعالى المال خيراً في قوله تعالى :

﴿ إِنَّ تَرَكَ خَيْرًا ، الْوَصِيَّةُ ﴾ (٢ : ١٨٠) وقوله : ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ (١٠٠ : ٨) ... ؟

وأما قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (٥١ : ٥٦) فالعبادة فيه هي طاعة الله في كل ما أمر ، والانتفاء عما عنه نهى وزجر ، والله يقول : ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ نَفْسِكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ (٢٨ : ٧٧) ، ويقول ﴿ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ (٦٢ : ٩) ،

ويقول : ﴿ هو الذي جعل لكم الارض ذلولا ، فامشوا في مناكبها ، وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾ (٦٧ : ١٥) والإنسان مكلف أن يعمل بكل أوامر الله تعالى ، سواء كانت أوامر دنيوية ، أو أوامر أخروية ، ذلك لاجل خدمة الجسم والروح ، وكل من اتبع شقاً من ذلك وترك شقاً ، يكون محشوراً في زمرة الذين يكونون بقول الله : ﴿ أَتُؤْمِنُونَ بِمَعْصِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ ببعض ؟ ﴾ (٢ : ١٥) أحسنت

« قال اجعلني على خزائن الارض . . . الخ »

— ٧ —

وقال العلامة الدمشقي الصالحاني (١) :

دحض اعتراض بعض رجال الدين على طلب يوسف وزارة المال

لم يزل بعض علماء الدين يتشددون في الدين ويتنطعون ، ويقنطعون من هفئته الشياء ، صخوراً صماء ، يضعونها عقبة في سبيل المدينة والحضارة ، حتى صيروا عبثاً ثقيلاً ، على كواهل الناس وعواقبهم ، فلهذا الكثير منهم ويرموا به ، ولو أن علماء الدين لانوا به مع الزمان وصرونه ، وتمشوا بأوامره ونواهيه مع شؤون المجتمع وأحواله ، لاستطاع الناس أن يجمعوا بين الأخذ بأسباب دينهم والأخذ بأسباب دنيائهم .

هذا « داود » نبي الله عليه الصلاة والسلام ، كان ملكاً ، وامتحن الله عليه بذلك ، حيث يقول له : ﴿ يادادو ! إنا جعلناك خليفة في الأرض ﴾ (٣٨ : ٢٦) خلفاً عن « شاول » ، فهل يمتن الله عليه بشيء لاقيمة له ، أو شيء يزهد هو فيه ، ولا يأبه له ؟ .. حاشا . .

وهذا ابنه «سليمان» نبي الله، عليه الصلاة والسلام، كان ملكاً، حتى أنه قال: «وَهَبْ لِي مِثْلَكَ»، لابتيني لأحدٍ مِن بُعْدِي، (٣٨ = ٣٥) أي لا يتطلبه غيري من العائلة المالكة، ولا ينافيني فيه، من بعد جلوسى على كرسيه، كما جربت من أخي «أدونيا» فبا مضى، فهذا الطلب «وطلب يوسف» بخرجان من مشكاة واحدة، فهل كان سليمان أقل تقوى من هؤلاء المتعالمين المداجين، الذين يقولون للناس في دروسهم وعظهم بالاحفظون فيما بينهم وبين أنفسهم وفي داخل بيوتهم؟ ... حاشا ...

وهذا أبو بكر الصديق، وبه «عمرا الفاروق» تقبلاً للخلافة، وربما كان لها في الحصول عليها نصيب من السعي، فهل كان هؤلاء المتشددون المتطعون، أكثر من الشيعتين زهداً وورعاً؟ .. حاشا ..

وهذا «عثمان ذو النورين»، و«علي الرضى» و«الحسين» و«محمد صاحب النفس»، وزيد بن علي، رضي الله عنهم أجمعين، قتلوا في سبيل المحافظة على الخلافة، أو طلبها، فهل أولئك المترضون - على طلب يوسف الدجالون أكثر منهم تقوى وإخلاصاً وزهداً؟ .. حاشا ..

أليس ان الدنيا مبطية المؤمنين؟ .. أليس ان الدنيا مزوعة للآخرة؟ .. ألم يقل الكتاب ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ (٣٨: ٢٧) ألم يرد «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً» ..

لمعرك إنا لنأسف أنه مع تربي العقول وتطور الأذهان في هذه الصور المستتبيرة، لم يزل جماعة من التشدديين عمدة الأرباء يتفalcon في الدين ويدون أن يفهموه ويحيطوا به علماً، ويقفوا على حكمه ومهامه، ويأبون على الناس إلا أن يجدوا معهم حيث وجدوا، ويترلقوا على حكمهم به أراءوا، وبقيمون المناجات السوداء على كل عالم يريد أن يجمع دين أطرانه الدين ونصوصه، في مواضع المعاش والمعاد،

حتى ملتهم الناس ، وملتوا الدين منهم ، فتمردوا عليهم ، وخلصوا طاعتهم ، وطلبوا لأنفسهم الحرية الدينية المطلقة ، فسقطوا في هوة الضلال ، وكادت تنقطع الصلة بين الأمة ودينها ، لولا أن تداركها الله برحمته ، فقيض لها هذا الفريق المستنير ، من العلماء الواقفين على حكمة التشريع ، والفضلاء الذين أدركوا كنه الدين ، وهم ما بين مؤلف يكتب للأمة الرماثل الدينية ، التي توافق روح القرآن والسنة وطريقة السلف ، وما بين خطيب يخطب لهم الخطب المنبرية التي تحثهم على النظر لآخرتهم ، بالعين الواحدة ، ولدنيام بالعين الاخرى ، وما بين مدرس يوقفهم في دروسهم على الحقائق الراهنة من الدين ، وينهض بهمهم الى معالي الأمور ، ولولا هؤلاء ، لبقى الدين في أيدي الجاحدين ، فمات أو غلب عليه الجهل فاخفى .

يمينا لو نشر اليوم أبو بكر وعمر الفاروق وعلي المرتضى وعمر بن عبدالعزيز ، وأحمد بن حنبل والحسن ، وأشياهم ، لما كان لهم بد من أن ينزلوا الى عالمنا الذي نعيش فيه ، فترى منهم صاحب العمل الصناعي ، وصاحب المستودع التجاري ، وصاحب المستعمرة الزراعية ، والأمير السياسي ، والحاكم الشرعي ، والملك المقيم ، ووزير المالية ، وناظر المدلية ، وشيخ الاسلام ، ووزير الحرية والبحرية ، وقائد الجيوش ، ووزير المعارف والاقواف ، كما ترى منهم زعيم قوافل التجارة البرية والبحرية والجوية ، ومدير الشرطة ، وأمر الضبط والربط ، حتى يستتب الأمن العام في الأمة .

فان هم لم يريدوا أن يكونوا كذلك ، رأوا أن من الواجب عليهم أن يمودوا الى مراندم من حيث جاؤوا .

إن الكثيرين من أسلافنا لم يكونوا بالصورة التي يصورها لنا بعض الواعظين ، بل كانوا في رغد من العيش ، فقد أثبت لنا التاريخ أنه في أيام خلافة عمر بن الخطاب

كان يُدفع من الرواتب لكل واحدة من أزواج النبي ﷺ، كل ستة اثنا عشر ألف درهم (فرقك)، والعباس رضي الله عنه كذلك، ولكل من الحسن والحسين خمسة آلاف درهم (فرقك) (١)، فلو كان أصحاب هذه الرواتب أقل زهداً من المتشددين من أهل اليوم!.. حاشا..

وجد عند خازن عثمان رضي الله عنه، ماله الخاص بمسند استشهاده دينار ودرهم نسائي (٥٧٥٠٠٠) جنيهاً، ووجدن قيمة صباغة بواقي القرى وخين وغيرها مائتاوي (٥٠٠٠٠) جنيهاً، وذلك بعد وفاته سنة ٣٥ هـ (٢).

أنا لا ألوم على الأخذ بطرق من الدين، وزك الطرف الآخر — الأعياء الذين أظلمت أذهانهم، فأظلمت دروس وعظم، وظلمة المدرس أثر من آثار ظلمة العقل، ولا الجاهلين الذين لم يعرفوا لباطن الإسلام، ولم يمارسوا حكمها، ولم يشبعوا بروح نصوصها، ولا الوعظ القاصدين الذين لم ينفقوا من الدين الحمدي إلا على بعض قصوره القاتلة لروحه، قهولاً جمعاً لا حول لنا فيهم ولا جيلة، لأنهم لا يستطيعون أن يكونوا غير ذلك، إنما ألوم العلماء الحقيقيين، العربيين، الذين صرفوا الدين، واطلموا على حكمه، وفهوا مراحي نصوصه، ومناري شرعته، وأنقم منهم عدولهم عن بيان ذلك للناس، وآتني عليهم قصص القادرين على السقام.

يجب على العالم الإسلامي أن لا يألو جهداً في الحصول على أسباب الثروة، فلا دين إلا بمالك، ولا ملوك إلا برجال، ولا رجال إلا بالمال، ولا مال إلا بالسعي والجهد والنشاط، وما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا.

حكى المؤرخون أن بعض الشعراء مدح «المؤمن» فكان من قوله:

أضحى إمام الهدى المؤمن مستغلاً بالدين، واقناس بالدينا مشاغلاً

فلم يتحرك له ، لأنه مازاد على أن جعله عجوزاً في عمرها ، في يدها مسبحتها ،
ولذلك قالوا ، أحسن منه قول بعضهم :

فلا هو في الدنيا - مضيع نصيبه ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله
ولا عبرة بتزهد بعض المشايخ الكسالى ، وربما كانوا كاذبين في زهادتهم ،
فإن أكثر ما نرى من الزهاد ، إما يتجلى لنا زهدهم في ألبستهم أو ألسنتهم ، أو
العرف التي يستقبلون فيها زائريهم ، هذه هي مظاهر زهدهم ، ولو أتبع لنا أن
نطلع على داخل بيوتهم ، وما فيها من أثاث ورياش ، أو لو بحث عن حال نسائهم ،
وكم في خزائنها من أنواع الالبسة المزركشة وكم في صناديقهن من ضروب الحلي
والجواهر ، لرأينا أمراً عجباً ، يدهش الابصار ، ويأخذ القلوب !!!

(مرحى)

« اجعلني على خزائن الارض .. الخ »

— ٨ —

وقال المهام البحواني^(١) :

حكم طلب يوسف في الدين الاسلامي والنصوف في الاسلام

هذا الطلب — طلب يوسف — هو من روح الدين الاسلامي ، يوم كان الدين .
ديناً والاسلام إسلاماً ، إذ لم يكن فيه شيء مما يسمونه قطع العلائق مع الناس ،
وزهداً في الحياة الدنيا ، لأن هذا بعيد عن روح الدين الاسلامي ، إذ الاسلام
دين فتح ورفعة ، دين عز وشرف ، دين نشاط وعمل . دين سعي وجد ، دين ابتغاء
من فضل الله بالتجارة والصناعة والزراعة ونحوها ، وقد قال تعالى : ﴿ وَأَنْتَ

(١) نسبة الى نطر البحرين احد الامارات العربية على الخليج العربي .

ليس للانسان إلا ما سمعى ، وأن سمعته سوف يرى ، ثم يُخزاه الجزاء الأوفى ﴿ (٥٣ : ٣٩ - ٤١) ﴾ وهل هذا لا ينافي مايسمونه « تصوفاً » ، إذ التصوف بالمعنى الصحيح ، هو طهارة الباطن وحب الخير ، وبغض الشر وما الى ذلك ، مما يتعلق بخلوص النفس البشرية من خبيث الصفات ، وهو بهذا المعنى يرجع في جوهره الى روح الاسلام ، وأما « التصوف » بالمعنى المشهور عند الجمهور ، فليس هو لما تدعو اليه الشريعة الاسلامية ، وإنما هو مزيج من عدة مذاهب ، هندية وقارسية ويونانية ويهودية ، قال الدكتور « وليم ادي » الأميركاني في شرحه على الانجيل : (قد كان في اليهود جماعة « الأسينيين » ، كانوا بين اليهود بمشابة الباطنيين أو المتصوفين ، مارسوا التطهيرات اليهودية ، واعتنقوا الفلسفة اليونانية ، وكثيراً ما اعتبروا النفثات الجسدية ، وتجنبوا مخالطة الناس) ، فهذه التعاليم المزيجية ، نقلت الى المسلمين ، وصادفت هوى في نفوس الزاهدين منهم ، فوسموها باسم الدين ، ووضعوا لها حسابها من القواعد والأصول . وحقيقة الاسلام أنه يُميد معتنيه لأن يكونوا سادة ، وإن التصوف بالمعنى المشهور عند الهنود واليونان والفرس — يلبس أصحابه أرواح البعيد ، وإلا فلماذا ساد المسلمون وأفلحوا في الحياة يوم كانت مبادئ الاسلام الخالصة رائدتم ، وتعاليمه البريئة هاديهم ؟ ولماذا فقدوا مكانتهم ، وأضاعوا عزمهم ومجدهم وذلوا في الحياة سواء السبيل ، حتى صاروا طعمة سائمة لكل طاعم ، ونهية هنيئة لكل ناهب ، يوم شابوا تلك المبادئ السامية بشوائب التصوف ، وخلطوها بتعاليم المتصوفين .

دين الاسلام ، الذي هو دين ابراهيم وأولاده اسماعيل وإسحق ويعقوب ويوسف — هو دين السعادتين ، سعادة الدنيا وسعادة الآخرة ، دين يقول في هدايته : ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَكَ مَنْ الدُّنْيَا ﴾ (٢٨ : ٧٧) ويقول : ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً ﴾ (٢ : ٢٠١) ويقول : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ

لكم الأرضَ ذلولاً ، فامشوا في مناكبها ، وكلوا من رزقه ، وإليه النشور ﴿٦٧ : ١٥﴾ ويقول : لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة ﴿٢ : ٢١٩﴾ ويقول : ﴿ ليسَ عليكم جناحٌ أنْ تبغثوا فضلاً من ربكم ﴾ ﴿٢ : ١٩٨﴾ أي في مواسم الحج كما قاله ابن عباس ، ويقول : ﴿ فاذا قضيتُم الصلاةَ فانتشروا في الأرض ، وابتغوا من فضلِ الله ﴾ ﴿٦٢ : ١٠﴾ أي بالتجارة والسعي كما رَوَاهُ عن ابن عباس ، ويقول عليه الصلاة والسلام : (إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكفون الناس) ويقول ﷺ : (اليد العليا خير من اليد السفلى ، وخير الصدقة ما كان عن ظهر غنى) ويقول ﷺ : (يعمل يديه ، فينفع نفسه ويتصدق) ويقول ﷺ : (والذي نفسي بيده لأن يأخذ أحدكم حبله ، فيحتطب على ظهره ، خير له من أن يأتي رجلاً فيسأله ، أعطاه أو منعه) ويقول ﷺ : (كان أصحاب رسول الله عمالاً أنفسهم) ويقول ﷺ : (الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله ، أو القائم الليل الصائم النهار) ويقول ﷺ : (أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا) وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى ، وأخيراً يقول : (في كل ذات كبد رطبة أجر) (١) .

وكيف يستطيع الانسان أن يسعى على الأرملة والمسكين ، ويكفل اليتيم ، ويتصدق على ذي الكبد الرطبة إذا لم يكن ضارباً في الأرض أو عاملاً من عمال الحكومة ، أو صانعاً أو زارعاً أو تاجراً أو محامياً أو طبيباً أو مهندساً أو حائكاً أو نحو ذلك ؟؟؟؟

دين الاسلام ، الذي هو دين يوسف أيضاً — متصل بشؤون المسلمين الدنيوية ، كما هو متصل بشؤونهم الآخروية .

من هنا كان « الاسلام » دين عقيدة وعبادة وحيكم ، دين قضاء وإمامة

وجهاد دفاعي ، دين سياسة شرعية ، دين علم وفنون ، دين أعمال أخروية وأعمال دنيوية ، أعمال روحية ، وأعمال جثمانية ، أعمال شخصية ، وأعمال اجتماعية ، دين ضبط وربط ، وأمر ونهي ، وإقامة حدود ونمازير ، دين معاملات مع الخلق ، ومعاملات مع المخلوق ، دين يشمل بتدبيره جميع ماعلى وجه الأرض ، ويشمل بمقتاده ما فوق السموات وتحت الأرضين ، دين ينظم شؤون القلوب ، بما فيه من « علم أخلاق » ، وينظم شؤون الجوارح ، بما فيه من « علم أعمال » ، وينظم الجماعات بما فيه من « علم اجتماع » ، وبالجملة : يعلم الانسان كل ما يلزم له في دنياه وأخراه ، ويحضر على السعادة المالية ، كما يحضر على السعادة المآلية ، ولأن يترك الانسان المال لألد أعدائه بعد مماته ، خير من أن يحتاج لأعز أصدقائه في حياته .

قال الحجاج بن يوسف ، لحريم الناعم : « ما النعمة ؟ » — قال : « الأمن ، فاني رأيت الخائف لا ينتفع بعيش » — قال له « زدني » — قال « فالصحة ، فاني رأيت المريض لا ينتفع بعيش » — قال له « زدني » — قال « فالنبي ، فاني رأيت الفقير لا ينتفع بعيش » — قال له : « زدني » — قال : « فالشباب ، فاني رأيت الشيخ لا ينتفع بعيش » — قال له « زدني » — قال : « ما أجد مزيداً » :

هذا هو دين الاسلام ، الذي هو دين جميع الانبياء من لدن آدم الى فخر الوجود ، عليه وعليهم الصلاة والسلام ، خلافاً لما يوجد عند متصوفة الهندوس ، ومتصوفة النصارى ، ومتصوفة الاسلام ، أقول : « متصوفة الاسلام » ولا أعني المتصوفة الحقيقيين الذي بتطبق تصوفهم على الشرع ، ولكي أعني جهلهم فقط .

التهيد والبراءة من الدنيا في الشريعة المسيحية

إن كل من يقرأ في « البشائر الأربع » من التهيد والبراءة من الدنيا ، ليس هو الشريعة المسيحية ، وإنما هو تنعيم لشريعة « الناموس العتيق » ، وتلطيف لها ،

وتشذيب لأطماع اليهود وتكالبهم على الدنيا ، ولذلك روي عن المسيح انه قال : « إنما جئت لأتمم » ، فالناموس العتيق لم يذكر الآخرة — على ذمة أسقاره المطبوعة — بل اقتصر على ثواب الدنيا ، ولم يذكر ملكوت الأخيار ، ولا جهنم الاشرار ، بل إنما خوف الناس ، إذا خالفوا الأوامر بمصائب الدنيا وعاهاتها ، وكذا لم يذكر شيئاً من قواعد الزهد والقناعة والرقائق القلبية ، والطائفة الروحية ، فجاء المسيح ذا كراً لكل ذلك ، ومتماً لمواضيع التوراة بذكر مقابلها ، وملطفاً لحرص وطمع وشراهة اليهود ، وبذلك كان مجموع « المهدين » — التوراة والانجيل — كتاباً واحداً ، كما نطق القرآن الكريم (٢ : ١٥٥ و ٤ : ١٣٥ و ٦ : ١٥٦) الى غير ذلك من الشواهد الكثيرة في القرآن الشريف .

انتقاد يوسف على طلبه وزارة المالية ليس مبنياً على التعاليم الإسلامية

وأخيراً وبالنتيجة ، كل من أبدى ههنا انتقاداً على يوسف الصديق في طلبه وزارة المالية ، فليعلم أن انتقاده ليس مبنياً على التعاليم الإسلامية وسماحتها ، ولكن على تلك التعاليم الأخرى المبتدعة ، التي لا يعترف بها القرآن ولا السنة ولا الاجماع ولا عمل السلف الصالح ، الذين كانوا « عمال أنفسهم » .

كل حرفة منها كانت منحة في أعين الناس ، لا يمكن أن تكون أخط من عيشة المتكسل على غيره ، فكيف لو كانت خدمة في « البلاط » ؟ ولهذا فإننا نحبذ طلب يوسف من ملك الديار المصرية أن يجعله على خزائن الأرض .

حبذا الطموح الشريف إلى العلا ، حبذا سعي الإنسان في استزادة موارد كسبه ، ليتسنى له أن يحسن غذاءه وملبسه ومسكنه ، وأن يستعمل ما يزيد بعد ذلك عن حاجاته العادية ، فيما يعود على هيئة المجتمع بالفائدة .

ليس المانع من اهتمام الشرقي اليوم بقناعة في النفس وزهد في الأموال ،

ورغبة عن زخارف الدنيا ، لأنه لو كان الأمر كذلك ، لما وجد أحد حاسداً غيره على قمته ، ولا ناظرأ إلى غني نظراً شذراً ، والشرقيون كلهم بين شاك ومشكو من هذه الحال ، فالشرقي إذن طماع كغيره ، وليس عنده من الزهد ما ليس لغيره ، ولكنه مع ذلك لا يحب الشغل ، ولا ينشط لعمل فيه رزقه ، فهو إذن يجب أن تطرده السماء دهباً ، وأن تبت له الأرض فضة ، يجب أن يكون أغنى الناس على شرط أن لا يعب جسمه ، ولا يجهد فكره .

حب المال ليس مقدوماً لذاته ، ولكن لكونه يشغل عن الآخرة ، وكيف يكون مذموماً لذاته ، والله تعالى قد جعل بذل المال من آيات الإيمان ، وهو تعالى ينهى عن الاسراف والتبذير في إنفاقه ، كما ينهى عن البخل به ، وقد امتن على قبيه بأنه وحده عائلاً ، أي فقيراً فأغناه ، وجعل المال نواةً للام ، ومنزلاً للدين ، ووسيلة لاقامة ركبتين من أركانه ، ومن أعظم أسباب التفرق إليه تعالى وفي الحديث الشريف : (إن الله يحب البدن التي الغني الخفي) رواه مسلم في صحيحه ، فليس المال مقدوماً لذاته في دين الله ، ولا ميفضاً عنده تعالى على الاطلاق ، كيف وقد شرع لنا الكسب الحلال ، وهدانا إلى حفظ المال ، وعدم نضيعه ، ونأهيك بآية الدين التي ذكر الله فيها سبع مؤكدات ، وفيها خمسة عشر نبياً وأمرأ ، وقد آرشدنا تعالى إلى اختيار الطرون النافعة في إنفاقه ، أن نستعمل عقولنا في تعرقها ، ونوجه إرادتنا إلى العمل بخير مانعنه منها ، قال تعالى ﴿ وَلَا تُؤْمُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالُكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ﴾ (٤ : ٥) أي تقوم وتثبت بها منافعكم ومصالحكم ، وفي الحديث الشريف : (نبي المال الصالح للرجل الصالح) ، رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط من حديث عمرو بن العاص بسند صحيح .

فإذا جرى لتأخى المسلمين بعد هذه الوصايا الحِكَم ، حتى صرنا أفقر

الأمم ؟ وماذا جرى لتلك الأمم التي يقول كتابها الديني : (الحق أقول لكم : إنه يسر دخول غني إلى ملكوت السموات ، وأقول لكم أيضاً : إن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله) (مت ١٩ : ٢٣ و ٢٤) ويقول : (لا يقدر أحد أن يخدم سيدين ، لأنه إما أن يبغض الواحد ويحب الآخر ، أو يلزم الواحد ويحتقر الآخر ، لا تقدر أن تخدموا الله والمال ، لذلك أقول لكم : لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون ، ولا لأجسادكم بما تلبسون) (مت ٦ : ٢٤ و ٢٥) ، ويقول : (لا تقننوا ذهباً ولا فضة ولا نحاساً في مناطقكم ، ولا مزوداً للطريق ، ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصا ، لأن الفاعل مستحق طعامه) (مت ١٠ : ٩ و ١٠) ، ويقول : (تأملوا الغربان ، إنها لا تزرع ولا تحصد ، وليس لها مخدع ولا مخزن ، والله يقيتها ، كم أنتم بالحري أفضل من الطيور . . . فلا تطلبوا أنتم ما تأكلون وما تشربون ، ولا تقلقوا . . . بل اطلبوا ملكوت الله ، وهذه كلها تزداد لكم) (لو ١٢ : ٢٢-٣١) .

فماذا جرى للامة ذات هذه الأقوال ؟ . ماذا جرى لها في دينها ؟ حتى صارت أبرع الخلق في فتون جمع الثروة ، وسادت بالغنى جميع أمم الأرض ؟ وكيف جاز أن يسمى مانحن عليه (مدنية إسلامية) مع مخالفتنا للقرآن والحديث في هذا الأمر الذي هو قوام المدنية ؟ وكيف جاز أن تسمى مدنيته (مدنية مسيحية) مع مخالفتها لتعاليم دينهم من المبالغة في الزهد وبغض المال ؟

والجواب عن ذلك واضح ، وهو انهم نبذوا تعاليم كتابهم وأخذوا بما في كتابنا ، كما أننا بالعكس تركنا تعاليم كتابنا وأخذنا بما في كتابهم ، وقد أثرت علينا تأثيراً سيئاً أقوال الجاهلين ، الذين لبسوا علينا بلباس الصالحين ، فنفثوا في الامة سموم المبالغة في التزهيد والانتكال ، والحث على إنفاق كسب الكاسيين عليهم ، وهم كسالى لا يكسبون ، زعمهم أنهم يحب الله مشغولون !!

وذموا لتسا الدنيا وهم يرضعونها أفأولئك حتى ماتدر لها ثمل

صار هذا ، حتى صار من المعروف المقرر ، عند جميع شعوب المسلمين ،
إدراك المال والرزق على علماء الدين ، وشيوخ الطريق الصالحين ، فهم يأكلون
مال الأمة بدينهم ، وإن ورد في حديث الصحيحين : « اليد العليا خير من اليد
السفلى !! » .

هذا هو الذي تبسر لنا في هذه الوقفة والله تعالى أعلم .

(لافض فوك)

« قال اجعلني على خزائن الارض ... »

— ٩ —

واختم البحث في تفسير هذه الآية الشيخ الصنعاني بالتعليقات التالية :

(أولاً - حدود تعاون المسلم مع غير المسلم)

تعلم من طلب يوسف عليه السلام من الملك الريان الوثني ، أن يجمعه على
خزائن ، ليعخدم المصريين ومن جاورهم ، جواز التعاون على دفع الشر أو فصل
الخير مع غير المسلم ، أي يجوز للمسلم أن يطلب المساعدة من غير المسلم ويجوز للمسلم
أن يساعد غير المسلم ، وهل يوجد مجال للخلاف في الاستعانة بالكتابي أو الوثني أو
الملاحد ، على إنقاذ الغريق وإطفاء الحريق وإقامة الحمل في الطريق ؟ كما أنه لا مجال
للخلاف في جواز إعانة المسلم لغير المسلم وصلى الله على من قال : « في كل كبس
حرا صدقة » .

(ثانياً - خضوع المسلم لغير المسلم)

لا يبيح دين الاسلام للمسلم أن يكون تحت رعاية غير المسلم في غير ضرورة ،

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ (٥٨:٤) ، فهذه الآية تفيد أنه لا يجوز لنا الخضوع لغير المسلم ، وقال تعالى : ﴿ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ (١٤٠:٤) ، والمراد كما هو مقتضى الآية وروح مبدؤها أن الله تعالى لن يجعل من أحكامه الشرعية السبوية ما يبيح للمؤمنين أن يخضعوا لأحكام الكافرين ، ويستكينوا لسلطانهم وسيطرتهم ، فإن قبلوا أحكامهم ، ورضوا بسلطانهم ، فإنهم إذن هم الذين جعلوا للكافرين سبيلاً على أنفسهم ، خلافاً لشريعة الله تعالى : هذا هو الحكم عندنا في دين القرآن وسياسته ، ولكنه مقيد بحالة الاختيار ، وأما في حالة الاضطرار فهو جائز .

إذا علمت هذا فلعل يوسف الصديق عليه السلام رأى نفسه مضطراً أن يكون تحت سيطرة غير المؤمنين ، لأنه كيفما مكث في مصر ، سواء كواحد من الرعية ، أو على خزائن الأرض ، فهو على كل حال تحت سيطرة مليك مصر الوثني ، ثم لو أراد الرجوع لفلسطين ، فسيكون أيضاً تحت حكومة « أبيالك » ملك فلسطين الوثني ، وإذا أراد الرحلة لدمشق ، لزم كذلك أن يكون خاضعاً لحاكمها الوثني ، وهكذا الحال في العراق ، بلاد الصابئة ، فيوسف الصديق على كل حال وفي أي بلد لا بد له أن يخضع لحكومة وثنية ، كل الجالسين على كراسيها وثنيون ، لكنه إن تقلب باقتداره أن يكون حائزاً على كرسي فيها يكون قد خفف شيئاً من وطأة المشركين ، وشغل كرسيّاً من كراسيها برجل مسلم موحد ، هذا هو الجواب عن خدمة يوسف عليه السلام لتلك الحكومة الوثنية ، ثم ربما كان هذا جائزاً في شريعة العبرانيين الإبراهيمية ، وكفى بإقدامه على ذلك برهاناً على جوازه ، والله أعلم .

(جيد)

(ثالثاً - مقالة المؤمن لغير المؤمن)

لو سألت سائل : كيف يجوز ليوسف المؤمن أن يكون تحت سلطة « الريان »

بحيث يكون موالياً له ، وهو وثني ، وقد قال تعالى : ﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ، فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ ، إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ﴾ (٣ : ٢٨) ، وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ ﴾ (٥ : ٥٠) ، وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ، تُلْقَوْنَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ ، وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ ، يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ، أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ .. ﴾ الخ (٦٠ : ٩) ، فإن هذه الآيات ، تشترك في النهي عن موالاة الكافرين ، وتدل على أنه لا يجوز للمسلمين أن يتفقوا مع غيرهم ، ولا يوادوهم ، ولا يوالوهم ، وقال تعالى : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ ﴾ (٥٨ : ٢٢) .

فنجيبه عن ذلك : أما عن الآية الأولى ، فإن الاتفاق إذا كان لمصلحة المسلم فهو جائز ؛ فقد كان النبي ﷺ حالف « خزاعة » وهم على شركهم ، كما أنه عليه الصلاة والسلام ، لما رجع من الطائف لم تكنه قريش من دخول مكة ، لما علموه من أنه توجه الى الطائف يستنصر بأهلها عليهم ، فأرسل عليه السلام الى « المطعم بن عدي » يخبره انه سيدخل مكة في جواره ، فأجابه الى ذلك ، ودخل مكة في جوار « المطعم » وهو مشرك ، فاذا جاز هذا للنبي ﷺ ، جاز بالأولى ليوسف عليه السلام أن يكون من وزراء « الريان » المشرك ، وعن « قتادة » هو دليل على أنه يجوز أن يتولى الانسان عملاً من يد سلطان جائر ، وقد كان السلف يتولون القضاء من جهة البعثة ويرونه ، واذا علم نبي أو عالم انه لاسبيل الى الحكم بأمر الله ورفع الظلم الا بتسكين الملك الكافر أو الفاسق ، فله أن يستظهر به ، وقد صح في الحديث أن كعب بن بجرّة (ض) كان يخدم عند يهودي مستقيماً كل دلو بتمرة ، وكان ذلك باطلاع النبي (ﷺ) واققراره .

وعلى ذلك يكون معنى الآية الأولى : لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء وأنصاراً في شيء تقدم فيه مصلحة الكافرين على مصلحة المؤمنين ، « والاتخاذ ، يفيد معنى الاصطناع ، وهو عبارة عن مكاشفتهم بالأسرار الخاصة بمصلحة الدين ؛ وبعبارة أخرى : هذا «الاتخاذ» لا يحرم الا إذا كان ضد المؤمنين ، كما قال : « من دون المؤمنين » .

وأما عن الآية الثانية ، فالحرم إنما هو اتخاذ اليهود والنصارى أولياء من حيث هم يهود ونصارى ، أي ولاية دينية ، وأما صحبتهم لأموال دنيوية معاشية ، فلا مانع منها .

وأما عن الآية الثالثة ، فالموادة مشاركة في الاعمال ، فان كانت في شأن من شؤون الدين ، فيه خذلان له ولاهله ، أو إضاعة لمصالحهم ، فهو حرام ، وليس هذا الممنى موجوداً هنا ، وأما إن كان في شأن من شؤون التجارة والمناصب وغيرها من المعاملات الدنيوية ، فلا تدخل في ذلك النبي ، لأنها ليست معاملة في محادة الله ورسوله ، وأيضاً فهذه الآية ، إنما تفيد النهي عن موالاة أعداء الله ورسوله ، وإلقاء المودة إليهم بكونهم كفروا كفراً حمله على إخراج الرسول والمؤمنين من وطنهم ، لأنهم مؤمنون بالله ، وأما هنا ، فالأمر بالعكس ، فإن الريان بدلاً من أن يخرج يوسف من مصر ، فقد قربه اليه ، ثم سمح ببجيء أهله جميعاً من فلسطين وسكنام في مصر في الشرفية .

وحجبتنا على صحة هذا التأويل ، ورائدنا في هذا الموضوع ، قوله تعالى : ﴿ عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة ۖ والله قدير ۖ والله غفور رحيم ۖ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرؤوا منهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المتقسطين ، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين ، وأخرجوكم من دياركم ، وظاهروا على

إخراجكم أن تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴿٧:٩٠﴾ (٩-٧)
فالقرآن الكريم يرجو تجدد المودة بين المؤمنين والمشركون ، ولا ينهى عن البر
والقسط إلى المشركين الذين لم يقاتلوا المؤمنين ، ولم يخرجوهم من ديارهم ، وزاء
أخيراً يؤكد حصر النهي في الذين حاربوهم حرباً دينية ، وأبعدوهم من ديارهم ،
وساعدوا على إبعادهم عنها ، ومع كل ذلك نراه خص هذا النهي بتوليهم ونصرهم ،
لا بمعاملتهم وحسن معاملتهم بالبر والإحسان والعدل !! فماذا على يوسف عليه
السلام من اتقاؤه مع الريان المصلحة ؟ وماذا عليه من صحبته له لأمور دينوية
مماشية ؟ وماذا عليه من موادته له إذ أخرجه من سجنه وقربه لديه ؟ وماذا عليه
في بزه وإقساطه إليه ؟ اللهم إن هذا كله جائز لأخرج فيه .

(رابعاً - ارتقاء يوسف لوزارة المالية لأن بإرادة الله وقدرته)

الفريدة الثانية — إنه لامر معلوم أن يوسف عليه السلام لم يكن له سابقة
خدمة في دار الحكومة ، وإنه لامر معلوم أن يوسف غريب الدار ليس وطنياً ،
وقد كان عبداً لمؤكاً عند « فوطيفار » ، وقد اعتقل لاتهامه بجريرة سافلة ،
فارتقاؤه لمنصب « وزارة المال » ، و« عزيزاً » لمصر ، مع هذه الاحوال التي أحاطت
به يمد من الدهشات ، وقد يسمون هذا النوع فلتة من فلتات الطبيعة . أو أعجوبة
من أعاجيب الأيام ، أو شاذة من شواد القاعدة ، ولكننا نحن لانسميه بشيء من
هذا القبيل ، بل ندعوه قضاءً وقدرأ ، أو شيجة إرادة سماوية قاهرة ، وقدره
الهيمة باهرة ، تليان كل الارادات والقدر ، ماشاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ،
لأنها أمره شيء إذا أراده أن يقول له « كن » ، فيكون ، فالله الذي أسجد له
كواكب السماء ، وأوحى إليه في أخرج الاحوال انه سينبئ إخوته بها فعوله معه
والله الذي سخر له التجارة ليخرجوه من الحب ، والله الغالب على أمره ، والله

الذي لا بلغ أشده آتاه حكماً وعلماً ، والله الذي خلق له من عدوه « زليخا ، ولتيا مزكياً مدافماً ، والله الذي سخر له قلب مليك مصر ، فطلب الإتيان به من سجنه ليستخلصه لنفسه ، هو الذي منّ عليه بهذا المنصب الكبير ، وأفدّره أن يدبره بأحسن تدبير .

هذا ما ينبغي أن يذكر عند الكلام على هذه الآية ، ويذكر فريق من المفسرين هنا ما يعد هو وأمثاله من أسباب الجود في الاسلام ، وموطن الضعف والحول في معظم الشرقيين .
(لافض فوك ياأستاذ)

تمكين يوسف عليه السلام

آ (٥٦) ﴿... وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ،
يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ شَاءَ ، نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ ، وَلَا
نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ

افتتحت الجلسة وتليت الآية السادسة والخمسون فقام الاستاذ السلفي البريدي^(١) وقال :

يقول الله تعالى في حق يوسف (م) : ﴿ وَكَذَلِكَ ﴾ أي مثل ذلك التمكين الطاهر ﴿ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ﴾ جميع ﴿ الأرض ﴾ التي كانت مستعمرة وملوكة للهكسوس ، من أصل المملكة المصرية ، وذلك هو « الوجه البحري ، وجزء من « الوجه القبلي » الى منتهى بلاد « الشرقية » ، فيوسف تمكن في هذه الارض ،

(١) نسبة الى بلدة بريدة من البلاد النجدية في المملكة العربية السعودية .

وكان النجاح في أعماله أُلصق به من ظله ، وأسرع اليه من الماء الى منحدره ، وكان هذا التمكين علماً بحيث ﴿ يتبوأ منها ﴾ بعد الجلس والضيق والإسار ، أو بعد أن كان لا يتصرف إلا في أرض سيده بوطيقار خاصة ﴿ حيث يشاء ﴾ ، أي كل مكان أراد أن يتخذ منزلاً ومتبوءاً لم يتمتع منه ، لاستيلائه على جميعها، ودخوله تحت نفوذه وقهره ، فكان هو الكل في الكل ، وهو الأمر النهائي ، في كافة مرافق الحياة ، وكان هذا هو عصره الذهبي الذي دام له لآخر حياته ، وعند ذلك نبي يوسف فلسطين وأخوته ، ﴿ نصيب برحمتنا ﴾ ببطائنا في الدنيا من الملك والوزارات والغنى وغير ذلك من النعم ﴿ من نشاء ﴾ جرياً على سنة (تنازع البقاء واختيار الأحسن) ، فدايرة رحمتنا مرنة ، بحسب ما تقتضيه الحكمة ، تسمع كل خليق بها ﴿ ولا نضيع ﴾ في الدنيا ﴿ أجر الحسنين ﴾ كيوسف ، فهو خليق بالأجر العظيم ، فتمكيننا إياه ، وإصابتنا له بهذا النوع من الرحمة الخاصة ، هو بسبب إحسانه السابق ، لأن المستقبل نتيجة الماضي ، وثمرته الطبيعية ، و (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟ ..) ، فنحن قطعياً لاضيع أجر أي محسن كان ، من السابقين الأولين ، واللاحقين الآخرين ، موقفنا واحد ، ووضعيتنا واحدة ، مع يوسف وغيره ، برنامج ثابت لمجازاة كل محسن لا يتبدل ، ولن يتبدل .

(وكذلك مكنا ليوسف في الارض ...)

— ٢ —

وقال الشيخ احمد من علماء الرياض (١):

نستخلص من هذه الآلة الكريمة الجواهر التالية .

تمكين يوسف الخالص والعالم

(١) — كان تمكين يوسف في الأرض ، ينمو شيئاً فشيئاً على حسب

(١) الرياض بلدة في مقاطعة نجد من المملكة العربية السعودية .

الطبيعة ، فكان أولاً تمكيناً خاصاً ، بزمن محدود وأمكنة محدودة ، وبالوكالة عن « العزيز » وهذا هو المذكور في قوله تعالى سابقاً : ﴿ وقال الذي اشتراه من مصر لأمرائه أكرمي مثواه ، عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ، وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ﴾ (ع ٢١) ولكن هذا التمكين عقبه اضطراب وتقلقل عندما حبس يوسف ، فلم يدم ، ثم لم يكن عاماً وواسعاً ، كما أنه لم يكن إلاّ مستعاراً من جاه العزيز ، لأن العوام يقولون : (نفس المبد من نفس سيده) وهذا كله بخلاف التمكين الثاني المذكور هنا في هذه الآية ، فإنه تمكين عام مطلق في جميع الأزمنة والأمكنة وبالإصالة ، فأما عمومها لجميع الأمكنة فللقوله تعالى : ﴿ يتبوأ منها حيث يشاء ﴾ وأما كونه بالإصالة ، فلأن يوسف صار عزيزاً بمصر ووزير مالية فيها ، عوضاً عن فوطيفار ، وبهذا تعاملون أن لفظ « الأرض » مرّن كالمطاط يقبل التضييق والتوسعة ، فكلمة « الأرض » في سابق قوله تعالى : ﴿ وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ﴾ (ع ٢١) ربما كان معناها أرض عزيز مصر ، وكلمة « الأرض » في لاحق قوله تعالى : ﴿ وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء ﴾ (ع ٥٦) معناها عموم الأرض الداخلة في المملكة الهكسومية .

تقدير الملوك الاقدمين للناس بحسب مواهبهم

(٢) — تتعلم من هذه الآية ، أن الملوك الاقدمين — ومنهم الريان — كانوا يقدرون الناس بحسب مناقبهم ومواهبهم ، لا بحسب أنسابهم وأموالهم ، وإلا فيوسف عليه السلام لا يزيد في نظرهم عن أنه عبد لفوطيفار ، اشتراه بديارم معدودة ، وأنه فتى غريب عامض النسب ، ليس وطنياً ، وأنه من بلاد تعد في نظرهم بادية ، وأنه ليس له سابقة في خدمة الحكومة ، ولكن رغمًا عن ذلك كله ، عين وزير مالية بمصر وعزيزاً لها ووكيلاً عن مليكها .

تزكية انتصار يوسف

٣ - نحن نعلم أن يوسف عليه السلام بخروجه من السجن كان قد انتصار انتصاراً بامراً ، واليوم جاء جلوسه على كرسي الوزارة تزكية لهذا الانتصار ومتناً له .

كيف ان اغبار يوسف لم تصل لايه

٤ - إن قال قائل ، أو سأل سائل : لاريب أن يعقوب عليه السلام كان من الأنبياء المشهورين ، وكذلك كان أبوه إسحاق ، وجده إبراهيم ، وعم أبيه إسماعيل ، وابن عم جده لوط ، وعليه فيعقوب عليه السلام ، من أصحاب الصور البارزة ، وحائز على الشهرة الشخصية والعائلية ، ولا بد أن هذه الشهرة لما تجلت في « العراق » و « سورية » و « فلسطين » ، كانت أيضاً فيما جاور فلسطين من الديار المصرية ، كما أنه قد اشتهر في أهل مصر ، وجميع مملكتها أن « الربان » ابن الوليد أسند مأمورية « خزائن الأرض » لعبد عبراني فلسطيني من سلالة يعقوب ابن اسحاق بن إبراهيم المشهورين بمصر كسواها ، وأن ذلك العبد صار « عزيز مصر » و « وكيلاً » عن مليكها ، وقد فوض اليه أمور الخاصة والعامة ، فهذه الحقيقة الواقعة أصبحت أمراً مشهوراً معروفاً عند الخاص والعام . لا يقبل الخفاء والكتمان ، ولم يعرفه المصريون فقط ، بل والممالك المجاورة والبلاد المحاذية لمصر ، لاسيما فلسطين التي فيها يعقوب عليه السلام وأولاده وأنساله ، وإذا لم يكن هذا الحادث قد اشتهر وعرف عند أهل فلسطين قبل سنّي الجوع ، فلا بد أن يكون قد عرف أيام سنّي الجوع بسبب ورود القوافل الممتارة ذهاباً وإياباً ، من فلسطين لمصر ، بل قد أثبت لنا التاريخ ، ان القوافل كانت تسير من فلسطين لمصر ، وأنه كانت التجارة مشهورة ومتبادلة بين البلدين ، فاذا تقرر

هذا ، فكيف أن هذه الأخبار الشهيرة لم تصل ليعقوب عليه السلام وهو وعشيرته مشهورون بمصر ، وهم جيران مصر وعلى حدودها ؟؟؟؟؟؟؟؟؟ قلنا : إن هذا السرّ آل عظيم ، وله شأنه عند المفكرين المستقلين ، ولكن يوجد قاعدة كونية عجيبة جداً ، ومسألة عند العموم ، وهي أن الخبر يصل إلى ظاهر أذن صاحبه ويقف ، ولا يدخل فيها ، وهذا مجرب ومعهود ، فكثيراً ماتحدث حوادث تكون معروفة عند الجمهور ، ولكن عند من لهم ساس وعلاقة بها هي غير معروفة ولا مسموعة ، بناء على هذه القاعدة الكونية المذكورة ، التي لم يوقف لليوم على علتها ، والله تعالى في خلقه شؤون .

الاتصارات التي فاز بها يوسف

٥ - كان ما حصل ليوسف عليه السلام من قبيل انتصار العلم على الجهل - لأن يوسف بعلمه رقي للعلا ، خلافاً « للآ » الذين يجلبهم سقطوا في هاوية الخذلان ومن قبيل انتصار الحياة على الموت - لأن يوسف كان بذلك هو السبب الوحيد في استخلاص المصريين من الهلاك ، ومن قبيل انتصار التوحيد على التوثن - لأن يوسف بواسطة ذلك حصل على قوة بها بلغ دينه ودين آيائه ، ومن قبيل انتصار العبد على السادة ، وانتصار الذكاء على البلادة ، وأخيراً من قبيل انتصار التدابير السبوية على التدابير الارضية .

الظهور به يوسف في مصر

٦ - قوله : ﴿ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يُشَاء ﴾ ، حيث فوض الامر اليه ، وأطلقت يده في مصر ، لأن ملك مصر إذ ذاك - كباتي ملوكها - كان قليل الظهور للعامة ، إلا عند الاقتضاء ، إظهاراً لعظمة الملك ورهبة السلطان ، كما يزعمون .

أن « هرون الرشيد ، كان يجلس في الإيوان ، وفي وسطه متر من الحرير الصيني معلق عريضاً بين الحائطين ، يحجب الخليفة عن مجالسه ، على العادة في مجالسة الملوك يومئذ ، إلا من اختار الملك تقديمه ورفع الستار بينه وبينه ، من أهله وخاصته (١) .

تمكين يوسف في مصر سبعين عاماً

٧- مكن الله ليوسف في الأرض بغير سلاح ولا كراع ، بحيث صار صاحب الحل والقد ، والتقص والإيرام ، لأنه أصبح أعلى وزراء الملك ورتبة ، وآثرم عنده ، وأنفذهم في البلاط ، وأشدتم سلطة في الديار المصرية ، كان هذا طيلة سبعين عاماً ، عاشها بعد الأربعين سنة التي أتت عليه مابقاً ، واجتاز فيها أزمان ، ومع هذا فقد كانت هذه الاجداد وتلك الافراح ممزوجة بما يدعو للأسف والقلق ، وهو براته لاييه وأخيه ووطنه ودويه ، فكان ذلك يعترض مابه من غبطة وسرور ، فالسعادة في الدنيا لاتم لاحد ما ، ولا سعادة حقيقية تامة إلا في النشأة الآخرة .

مصر في أيام يوسف وبهره

(٨) — هذا التمكن وهذا التبوء العام في أرض مصر ، ودورها وقصورها — كان في ذلك العصر ، مما يليق أن يفتن به ، لاسيما على رجل كان بالاس في السجن ، وكان قبله من رعاة الغنم ومن سكان البوادي ، ولكن مصر فيها بعد صارت جزءاً من أملاك الخلافة الفاروقية ، ثم صارت جزءاً أصغيراً جداً من مملكة الدولة الأموية ثم الدولة العباسية ، وعن « الرشيد » أنه لما قرأ قوله تعالى : ﴿ ونادى فرعون ﴾

في قومه : قال يا قوم : أليس لي ملكٌ مصرَ ، وهذه الانهار تجري من تحتي ، أفلا تبصرون ؟ ﴿ ٤٣ : ٥١ ﴾ قال — أي الرشيد — : « لأُؤكِّلَينَهَا أَحْسَنَ عبيدي » ، فولاها الخصب ، وكان على وضوئه ، وعن عبد الله بن طاهر ، أنه ولها فخرج اليها ، فلما شارفها وقع عليها بصره ، قال : « أهي القرية التي افتخر بها فرعون ، حتى قال : أليس لي ملك مصر ؟ والله لهي أقلّ عندي من أن أدخلها » ، ففتى عنانه ورجع (كشف) .

رحمة الله واحسانه نصيان جميع من يستحقهما

(٩) — نصيب برحمتنا من نشاء ، ولو كان من الدهريين والماديين ، ولا نضيع أجر المحسنين ، ولو كانوا من الجاحدين والوثنيين ، لأن هذا إما يكون في الدنيا فكل من اتقن عمله وأحسسه ، أصيب برحمة الله ، من الأرباح العظيمة ، وكل من أحسن عمله ، أخذ الأجرة من إقبال الناس على مصنوعاته ، وتوجههم على ما يصدر من معمله ، وكلما زاد إتقاناً وإحساناً ، زادت الناس فيه ثقة ، وزاد ربحه وشاع صيته ، وجُمِّلَ ذكره ؛ وإنا لنأسف إذا غض الجمهور من الثريين عن إحسان أعمالهم وصناعاتهم وعلومهم وكتبهم ومطابعهم ومعاملهم ، حتى لو شرعوا في إحسان شيء في البدء ، لم يثبتوا على ذلك دوماً ، فتراهم بعد قليل من الزمن يغيرون مصنوعاتهم ويدخلون فيها الغش ، فتتغير قلوب المشتريين عنهم وينفرون منهم ويعاملون سواهم ، ومع الأسف إنا نرى الذين فازوا بذلك هم الغريون ، فوفى الله بعدله للثريين حظهم من التأخر ، ووفى الله بفضله للغريين حظهم من التقدم ، فإنه سبحانه لا يضيع أجر المحسنين لأعمالهم ، سواء أكانوا ثريين أم غريين ، وفي ذلك عبرة للمعتبرين .

ملاحظة : هنا قال الرئيس الفلسطيني : « قد ممتع أيها السادة ما فاه به أخونا

الشيخ الرياضي ، وأما الحقير فليست أريد أن اعلق عليه شيئاً ، لأنني لم اكون حتى هذه الساعة رأيت الشخص في هذا الموضوع .

ثم تابع الشيخ الرياضي كلامه في انعام الجواهر :

أجر الحسين في الدنيا

(١٠) لانضيق في الدنيا أجر الحسين ، الذين يقصدون بعملهم وجه الله والذمة والضيمر ، لأن الذي ينبغي الآخرة لابقوته حظ الدنيا ، وان مشكته مثل الزارع الذي يبذر حبه في الأرض ، ويمررها ابتغاء الزرع لا ابتغاء العشب ، ثم هي لاحتالة نابت فيها ألوان العشب مع ناضر الررع .

امسان يوسف الذي استحق عليه التكمين والنبؤ في الارضى

(١١) — إن قال قائل : ما هذا الإحسان الذي عمله يوسف حتى استحق أن يمكن في الأرض بحيث بقبوا منها حيث يشاء ، قلنا إنما نعلم منه إباءه عن موأاة تلك المرأة الساقطة ، وحفظه لمروب سيده مه ، وقيامه بالدعوة إلى التوحيد ، وهو في سجنه ، إلى غير ذاك من أنواع إحساناته التي بعلمها الله تعالى ، وسيثبه عليها في الآخرة بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

مبدأ تبادل الارسان

(١٢) — تتعلم من هذه الكلمة الفائزة الجامعة (لانضيق أجر الحسين) أن مبدأ التبادل مرعي شرعاً ، فقد أمرنا الله بالصلاة والصوم والزكاة ووعدنا في مقابلة ذلك بالجنة ، وقال : ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ .

وتعلم من هذه الآية الشريفة أيضاً أن الله تعالى يثيب العبد على صالح عمله في الدنيا والآخرة جميعاً ، لأنه تعالى جعل تمكينه ليوسف في الأرض من ثوابه إياه

في الدنيا على إحسانه ، ثم الثواب التام يكون في الدار الخالدة كما قال تعالى : ﴿وَلَا جَرْجَارَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ...﴾ الخ

اجر المحسنين في الدنيا والآخرة

(١٣) — ولانضيق أجر المحسنين ، لاني الدنيا ولا في الآخرة ، لأن كلام الله تعالى ههنا مطلق ، ولكن الأجر في الدنيا إضافي مطرد في الاعم ، إضافي غير مطرد في الافراد ، وأما في الآخرة فالاجر حقيقي مطرد للجميع ، ؛ ﴿وَنُصِّعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ، فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ، وَإِنْ كَانَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ ، أَتَيْنَا بِهَا ، وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (٤٧:٣١) و ﴿مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (٨٩:٩٩) وهذا هو الدستور وكل ما أروهم خلافة مؤول .

صدّة الملك الريان يوسف

(١٤) — لا بد أنه كان بين يوسف وبين الملك الريان ، مالم يكن بين مليك ووزير ، كان ذلك على تفاوت بينها في المذهب ، فقد كان الريان وثنيًا ، وكان يوسف بالطبع موحدًا ، كما أن بينها اختلافًا في الشعب ، فقد كان الريان عمليقيًا عربيًا ، وكان يوسف عبرانيًا إسرائيليًا ، وليس هذا بنادر في نوعه ، فإننا نتذكر من هذا القبيل أمثلة كثيرة ، منها صحبة الكُصَمِيتِ للطَّرِمَاحِ ، وإخلاص أحدهما للآخر ، مع أن الكُصِيتِ كان متشيعًا لبني هاشم ومضريًا ، وأما الطرماح فكان خارجيًا متمصبًا لأهل الشام وقحطانيًا ، ولكن ذلك لم يمنع صداقة كل الآخر ، وربما كان الجامع بينهما صنعة الشعر ، كما أن الوظيفة هي التي جمعت بين الريان ويوسف ، زد علي ذلك أنها ساميان ، بخلاف المصريين فحاميون ولا تنس إحسان الريان ليوسف بتخليته من الحبس وتخليته بالمتصب العظيم ، ولذلك

ممكن يوسف مصر وهو مطمئن الخاطر ، قدير العين ، معشداً بلسان الحال :
وكل امرئ بولي الجليل محب وكل مكان يتيت العز طيب

اجر الدنيا واجر الآخرة

آ (٥٧) ﴿ وَلَا يُجْرُ إِلَّا خَيْرَةٌ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾

من الجلسة وتليت الآية السابعة والخمسون فقام الاساذ السلفي العنبي (١) وقال : يقوله الله تعالى عز وجل :

﴿ وَلَا يُجْرُ إِلَّا خَيْرَةٌ خَيْرٌ ﴾ بكثير جداً ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾
كيوسف وأشباهه ، يوسف مأجور نطقاً في الدنيا والآخرة . والمؤمن يثاب
على حسناته في الدنيا والآخرة ، والفاجر يعجل له الحسير في الدنيا ، وماله في
الآخرة من خلاف ، فقله يما مر : ﴿ فصيبر رحمتان نشاء ﴾ أي في الدنيا —
هو حكم عام ، يشمل المؤمن وغيره ، ويسمى التقي والتقي ، بدليل التخصيص بقوله :
ولا أجر الآخرة .. الخ قال تعالى : ﴿ مَنْ كَانَتْ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا
مَانِئَاتٍ لِمَنْ تُرِيدُ ، ثُمَّ جَلَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ بَصُلَاهَا مَذْمُومًا مَذْهُورًا ، وَمَنْ أَرَادَ
الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا — وَهُوَ مُؤْمِنٌ — فَأُولَئِكَ كَانَ مَعَهُمُ
مَشْكُورًا ، كَلَّا تُعِذُّ هَؤُلَاءِ مِنْ عَذَابٍ وَبَكَ ، وَمَا كَانَ عِطَاءُ رَبِّكَ
مُحْظُورًا ، أَفَظَرُ كَيْفَ نَصَلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، وَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ
وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ (١٧ : ١٨ — ٢١) وقال تعالى : ﴿ وَنَنْزِيلُ الْكِتَابِ نَزْلًا مِنْ رَبِّكَ مُبَارَكًا مَذْهُورًا ﴾ (١٧ : ١٨ — ٢١)

(١) قصة الى عنبرة بلدة في مقاطعة نخد من المملكة العربية السعودية .

الدنيا ثَوْرَتِهِ مِنْهَا ، وَمِنْ 'رِدِّ ثَوَابِ الآخِرَةِ ثَوْرَتُهُ مِنْهَا ، وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿٣ : ١٤٥﴾ ، أَجْرَ الآخِرَةِ خَيْرٌ مِنْ كُلِّ مَا فِي الدُّنْيَا ، وَلَوْ كَانَتْ كَتُوزٌ «قَارُون» ^(١) وَصَنَادِيقُ «رُوكْفَل» ^(٢) وَخَزَائِنُ «رُوتَشَلِيد» ^(٣) ، وَالْآنَ لَنَا عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ التَّعْلِيلَاتُ الْآتِيَةُ :

الآخرة لفظة واصطلاحاً

التعليق الأول — الآخرة آخرتان ، الآخرة المرووفة المقابلة للدنيا ، وهي المعبّر عنها باسم «يوم القيامة» و«يوم الدين» ونحوهما ، والآخرة بمعنى المدة الأخيرة من عمر الإنسان في الدنيا ، وهي التي ربما يعبر عنها بلفظ «العاقبة» ونحوه ، وعلى كل حال ، فالآخرة بقسميها خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ، ومن المحتمل للمعنيين ما في مثل قوله تعالى : ﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَسَّتْ؟ فَلَهُ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾ (٥٣ : ٢٥) وقوله تعالى : ﴿وَلِالْآخِرَةِ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾ (٩٣ : ٤) ، قال «علي وفا» : (معناها وللحظة المتأخرة خير لك من اللحظة المتقدمة) ، وقوله تعالى : ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ﴾ (٢٨ : ٧٠) وقوله تعالى : ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ (٧٩ : ٢٥) ، فهذه أمثلة يحتمل استعمال لفظ «الآخرة» فيها في المعنى اللغوي وفي المعنى الاصطلاحي ، وأما لفظ الآخرة في مثل قوله تعالى : ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ (١٧ : ٧) ، وقوله تعالى : ﴿مَاسِعُنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ (٣٨ : ٧) فهو مستعمل في المعنى اللغوي قطعاً ، كما أن لفظ الآخرة في مثل قوله تعالى : ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ (٢ : ٣) ، هو مستعمل في المعنى الاصطلاحي قطعاً ، فتدبر ، فإن لكل مقام مقالاً.

(١) هو قورح التوراة (٢) اميركي اغني العالم قاطبة (٣) من اغنياء اليهود.

نواب الجنة جسماني وروحاني

التعليق الثاني — دار الآخرة هي دار المثوبة والعقوبة ، فدار المثوبة الجنة ، ودار العقوبة النار ، وقد جُمِلَ في الجنة نوعان من الثواب ، نوع من اللذائذ الجسمانية كما قال تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا ، قَالُوا : هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ ، وَأُوتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ، وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ، وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٢ : ٢٥) وقوع روعي ، وهو رضا الله والقرب منه ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ، ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ﴾ وقال تعالى : ﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٦ : ١٢٧) ويجمع النوعين قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ ؟ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (٣ : ١٥) وقوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (٩ : ٧٣).

عظ المؤمن في الآخرة أرقى منه في الدنيا

التعليق الثالث — هذه الآية جارية على قاعدة «تنازع البقاء واختيار الأحسن» في الآخرة ، كما في الدنيا ، قال تعالى : ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ، فالؤمن التقي في الآخرة ، هو أسعد حظاً وأرقى نعيماً من حاله في الدنيا ، فمثلاً : يوسف الذي هو موضوع الحديث ، لئن كان قد تبوأ من خريطة مصر حيث شاء ، فلمعمرى سوف يتبوأ من خريطة الجنة أعظم وأعظم .

اجر الآخرة مادي وروحي

التعليق الرابع — تعليقاً على قوله ﴿ولا اجر الآخرة﴾ ، اجر الآخرة قسمان: مادي وروحي ، فأما المادي ، فهو معلوم وهو اللعوم ، وأما الروحي فهو للخواص وسبحان من أشار اليه بقوله : ﴿وقال لهم خَزَلْنَاهَا : سلامٌ عليكم ، طِبْتُمْ ، فادخلوها خالدين﴾ (٧٣:٣٩) ، فالسلام ، أي الامن ، هو في نظر كل عاقل ، أقصى أمان المرء ، وأعظم الملاذ قاطبة ، وجل من قال : ﴿وَنَزَعْنَاهَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ ، إخواناً ، على سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ (٤٧:١٥) ، وأي رذيلة أخبث من الغل ، مصدر الحن والمصائب ، والنقم والآفات ؛ وأي شيء أهنأ من التآلف والتصافي ؛ وأي دليل أشهر ببراءة الإسلام من الميل الى الملاذ ، من شهر رمضان الذي تلجم فيه الشهوات ، وتزجر النفس عن غايتها ، وتقدع عن مأربها ، وهذا هو منتهى العقل والحزم ، فإن مباشرة الذات ليس بالمنكر ، وإنما المنكر هو أن تذلل النفس لجبار الشهوات ، وتفقاد لحادي الاوطار والרגبات ، وسبحان من قال : ﴿وأما الذين ابْيَضَّتْ وَجُوهُهُمْ ، فِي رَحْمَةِ اللَّهِ ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١٠٧:٣) .

اجر يوسف في الآخرة أجل مما ظاهره في الدنيا

التعليق الخامس — يخبر تعالى في هذه الآية ﴿ولا اجر الآخرة﴾ الخ أن ما ادخره لنبيه يوسف عليه السلام في الدار الآخرة ، أعظم وأكثر وأجل مما خوله من التصرف والنفوذ في الدنيا ، وهذا كقوله تعالى في شأن سليمان : ﴿هذا عطاؤنا فامننْ أو أمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ، وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ (٤٠:٣٩) ، وكقوله تعالى في شأن المهاجرين الذين يصح أن يعد منهم يوسف : ﴿والَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ، لَنَمُوتَنَّهُمْ فِي

الدنيا حَسَنَةً ، وَلَا جَزَاءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ (٤١) .

الانغماس يكون بالإيمان والعمل الصالح

التطبيق السادس — جمع في هذه الآية بين الإيمان والتقوى ، كما جمع في آيات كثيرة ، بين الإيمان وعمل الصالحات ، إشارة الى أن الانسان لا يخلص إلا بالإيمان والتقوى ، وبعبارة أخرى ، بالإيمان والعمل الصالح ، خلافاً لكتب النصارى ، ليس للأعمال فيها قيمة ، ولا أجره مطلقاً ، قال بولس في رسالته الى أهل رومية : (أما الذي يعمل فلا تحسب له الأجره على سبيل نعمة ، بل على سبيل دين ، وأما الذي لا يعمل ، ولكن يؤمن بالذي يبرر الفاجر ، فإيمانه يحسب له برّاً) (رو ١٤ : ٤ و ٥) ، والله يقول في القرآن المجيد : ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ، وَآتَى الْمَالَ (على حُبِّهِ) ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ، وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ، وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ﴾ (٢ : ١٧٧) .

واجتهد بولس في احباط الاعمال ، حيث ذكر أن أعمال الناموس نحت لعنة ، وأنه لا يتبرر أحد عند الله بالناموس ، وأن الناموس لا لزوم له ، بعد مجيء المسيح (غلاطية ٣ : ١٠ - ١٣) ، مع أن المسيح نفسه يقول : (لا تظنوا أنني جئت لأتقض الناموس أو الانبياء ، ما جئت لأتقض بل لأكمل) (مت ٥ : ١٧) ولكن المسيحيين عملوا بكلام بولس ، فتركوا التوراة وأحكامها بالمرة ، وقد أباح لهم الرسل جميع المحرمات ، ماعدا أربعة : الزنا والدم المسفوح والخنوق والمذبح للأصنام (أع ١٥ : ٢٨ و ٢٩) .

يوسف النبي والرسول

التعليق السابع — كان يوسف بمصر نبياً ورسولاً ، وكان أهل مصر كفاراً وثنيين ، ولكنه لم يمكنه أن يقبل منهم كل ما يعرفه من دين الاسلام ، فإنه دعاهم الى التوحيد والإيمان ، فلم يحبوه ، قال مؤمن آل فرعون : ﴿ ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات ، فما زلتم في شك مما جاءكم به ، حتى إذا هلك قلتم ﴾ ، كُنْ يَسْمَعُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً ﴿ (٤٠ : ٣٤) ، فيوسف بلغ الرسالة ، ولكن المصريين لم يؤمنوا به ، بل كانوا في شك مما جاءهم به ، ولكنه هو أدّى الامانة ، ونصح لله واتفق الله ماستطاع .

الجزء يكون على الإيمان والعمل معاً

التعليق الثامن — نعم من قوله : ﴿ للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ ومن أمثاله مما لا يحصى قاعدة مهمة في الدين ، وهي أن الجزء إما يكون على الإيمان والعمل معاً ، لأن الدين إيمان وعمل ، ومن الغرور أن يظن المتسمي لدين نبي من الانبياء أن يكون ناجياً بمجرد الاتناء ، ومما يشهد لذلك ما حكاه الله لنا عن بني اسرائيل من غرورهم بدينهم ، ومارد به عليهم ، حتى لا تتبع سنتهم فيه ، وهو قوله تعالى : ﴿ وقالوا : لن نسمنا النار إلا أياماً معدودة ﴾ ، — قل : اتخذتم عند الله عهداً ، فلن يخلف الله وعده ، أم تقولون على الله ما لا تعلمون ؟ بلى من كسب سيئته وأحاطت به خطيئته ، فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة ، هم فيها خالدون ﴿ (٨٠-٨٢) ، وما حكاه عن اليهود والنصارى جميعاً وهو قوله تعالى : ﴿ وقالوا : لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى ﴾ ، — تلك أمانيتهم — قل : هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ، بلى من أسلم وجهه لله — وهو محسن —

فله أجره عند ربّه ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴿١١٢ و ١١١﴾ ، من هذه القصص نعلم أن التجاة في الآخرة والسعادة الابدية فيها . إنما تكون بالإيمان والتقوى ، لا بالإيمان وحده ، خلافاً « للمرجئة » ، في قولهم بكفاية الإيمان ، بدون أعمال ، سمّوا بذلك ، لأنهم أرجأوا العمل ، أي آخروه قالوا : لا يضر مع الإيماء معصية ، وخلافاً للنصارى ، في اكتفائهم بالإيماء بالآب والقداء .

استطواد :

وعقيدة الصلب والقداء وثنية محضة سرت للنصارى من الوثنيين ، كما بينه علماء أوروبا الاحرار ، بل ومؤرخوهم ، بل وعلماء الآثار والماديات منهم في كتبهم .

قال « دوان » : « إن تصور الخلاص بواسطة تقديم أحد الآلهة ذبيحة فداء عن الخطيئة قديم العهد جداً عند الهنود الوثنيين وغيرهم » وذكر الشواهد على ذلك ، منها قوله : « يستفد الهنود أن « كرشنا » المولود البكر الذي هو نفس الإله « فشنو » ، الذي لا يتداء له ولا انتهاء — على رأيهم — تحرك حنواً ، لكي يخلص الارض من ثقل حملها ، فأتاها وخلص الإنسان بتقديم نفسه ذبيحة عنه .. »

وقال « هوك » : « يعتقد الهنود الوثنيون بتجسد أحد الآلهة ، وتقديم نفسه ذبيحة فداء للناس عن الخطيئة » .

وقال القس « جورج كوكس » في سياق الكلام عن الهنود : « ويصفون « كرشنا » باليطل الوديع المملوء لاهوتاً ، لأنه قدم شخصه ذبيحة » . وقال « هيجن » عن « أندرا » الذي يبعده سكان النيبال والتيت : « أنه سقك دمه بالصلب وثقب المسامير ، لكي يخلص البشر من ذنوبهم » ، والبوذيون يقولون في « بوذا » إنه خلص

العالم ، وإنه إنسان كامل وإله كامل ، تجسد بالناسوت ، وقدم نفسه ذبيحة ، ليكفر ذنوب البشر ، ويخلصهم من ذنوبهم ، فلا يعاقبوا عليها .

بين ذلك كثير من علماء الغرب منهم « ميل » في كتابه (تاريخ بوذا) ومنهم « هوك » في رحلته ، ومنهم « بولر » في كتابه (تاريخ الآداب السنسكريتية) ، والخلاصة إننا لانعتقد أن خلاصنا يكون بواسطة إنسان ، ولكن بالإيمان والتقوى .

رد دعوى زواج يوسف بـزليخا بعد موت زوجها فوطيفار

التعليق التاسع — ذكر فريق حشوي من المفسرين أن «عزير مصر» فوطيفار مات في تلك الليالي ، وأن ملك مصر « الريان » زوج « يوسف » « زليخا » امرأة ذلك العزيز فوطيفار ، وشاع عند القصاص أن « زليخا » عادت شابة بكرأ ، بعد ما كانت ثيباً غير شابة ، وهذا كما قال الآلوسي في تفسيره مما لأصل له ، قال : (وخبر تزوجها أيضاً مما لايعول عليه عند المحدثين) ، ونحن نزيد على ذلك أن نسبة يوسف عليه السلام للتزوج بهذه المرأة لايليق ، لأنها وإن تكن ثابت وحسنت توبتها ، فقد كانت عزمت على السقوط ، وصحمت عليه ، ومعلوم أن زوجة كل رسول هي أم لافراد أمته ، كما قال تعالى ﴿ وأزواجه أمهاتهم ﴾ (٦:٣٣) ، ولايليق أن تكون هذه المرأة نصف الساقطة أماً للمصريين إذ ذاك ، والصحيح أن ملك مصر الريان كان قد زوج يوسف « أسنات » بنت « فوطي فارع » كاهن « أون » ، ومعنى « أون » الشمس ، ولذلك سميت البلدة عند العبرانيين « بيت شمس » ، واليونانيون يدعونها « هليو بوليس » ، وأما « أسنات » لفظة مصرية معناها محبوبة « نات » ، ونات هذه إلهة الحكمة عند المصريين .

استطرد :

فان سأل سائل : كيف جاز ليوسف عليه السلام أن يتزوج بامرأة وثنية

بنت كاهن وثني ؛ فالجواب أنه يجوز أن تكون صارت من الموحدين إما قبل الزواج أو بعده بقليل ، ويكون ذلك جائزاً عندهم . وذلك كما أن مسلمي الصين اليوم يتزوجون بالصيغيات الوثنيات فلا يلبثن أن يسلمن عند أزواجهن ، حتى أن ذلك صار أحد أسباب انتشار الإسلام في الصين ، وقريب من هذا ماوقع قديماً أن إبراهيم عليه السلام كان زوج بساراي وهي ابنة أبيه « تارح » المسمى في كتابنا الكريم « آزر » ، فهي أخته من أبيه فقط ، وليست أخته من أمه ، ونارح أو آزر كان وثنياً فلا بد أن تكون بنته كانت في البدء كذلك ، ولكن لما تزوجها إبراهيم صارت من أهل التوحيد كزوجها ؛ ولنا أمثلة على ذلك كثيرة منها تزوج « لوط » عليه السلام بامرأة كافرة ، وكذلك قبله نوح عليه السلام كما قال تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا الَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتِ نُوْحٍ وَامْرَأَتِ لُوطٍ ، كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ ، فَخَفَا عَلَيْهِمَا فَقِيلَ يَفْعِلَا فَعَمِيَ عَنِ اللَّهِ شَيْئًا ، وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاحِلِينَ ﴾ (٦٦ : ١٠) ، ومنها تزوج إسحاق عليه السلام « برفقة » وهي بنت « يوبئيل » الوثني ، وتزوج يعقوب عليه السلام « ليفة » و « راحيل » وهما بنتا « لابان » وهو وثني ، وكذا تزوج إسماعيل عليه السلام بامرأة من أرض مصر على مافي التوراة ، أو بامرأة من جرهم على مافي التاريخ العربي ، وعلى كل ففي وثنية ، والامثلة من هذا القبيل كثيرة ، فما جاز لهؤلاء فعله في شريعتهم يجوز ليوسف عليه السلام في شريعته .

وجواباً ثانياً — وهو أن المشركات اللاتي حرم الله نكاحهن في قوله : ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ ﴾ (٢ : ٢٢١) ، هن مشركات العرب فقط ، وإن المصريين كالصابئين ووثني الهندوس والصين وأمثالهم كالإبانيين هم أهل كتب مشتتة على التوحيد ، وأن كتبهم طرأ عليها التحريف كما طرأ على كتب اليهود والتصارى التي هي أحدث عهداً في التاريخ ، وإن قوله

تعالى بعد بيان محرمات النكاح ﴿وَأَحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ (٢٤ : ٤) .
يفيد حل نكاح نسائهم ، فليس لاحد أن يحرمه الا بتص .

الفصل الثاني

سفرة اخوة يوسف الاولى لمصر

آ (٥٨) ﴿... وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ ، فَدَخَلُوا عَلَيْهِ ،
فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ .

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثامنة والخمسون ، فقام الشيخ الزبيدي
الصنعاني وقال :

تحقق تعبير يوسف لرؤيا الملك الريان ، بمجيء السنين السبع الخصبه ، ثم
السنين السبع الأخرى المجدة ، فحصل جوع وقحط لاسيا في البلاد المجاورة لمصر
كفلسطين ، لمدام استعداد أهلها لمثل هذا اليوم ، وقد أصاب يعقوب وأولاده كما
أصاب غيرهم ضيق شديد في العيش ، وسمع بوجود قمح في مصر ، فطلب من أولاده
أن يذهبوا اليها للامتيار ، فهبأوا وراح لهم قاصديها ، (وجاء إخوة يوسف) العشرة
الى مصر ، فرأتهم العيون المرصدة من قبل يوسف بشكل وعدد يلتفت النظر ،
فأخذوهم الى يوسف في بلاطه (فدخلوا عليه) وهو جالس على عرشه ، فسلموا
عليه ، (فعرّفهم) بملاحمهم وكلامهم وأزيائهم (و) أما (هم) فلم يعرفوه إلا انه
« العزيز » ، وأما من هو وما اسمه ومن أي عنصر فيقوا (له منكرون) .

(وجاء إخوة يوسف . . . الخ)

— ١ —

وقام الاستاذين نصيف أحد علماء بلدة جدة الأفاضل وقال :

مجيء أخوة يوسف لمصر للاعتبار

جاءت سنو الخصب ، ثم تلتها سنو الجوع ، فأصاب أهل مصر وما جاورها من البلاد وخاصة فلسطين شظف وضيق ، وخشونة عيش ، وأنهم الجذب كوحش هائل ، فاغر فاه ، يتلقف ما قرب منه وما بعد ، فقال يعقوب لأولاده : « أبقوا على عيالكم وأولادكم ، ولا تحبلوهم الى الفتاء ، فانه ليس من المروءة أن يرمي الإنسان بأهله في مهاوي الجوع ، بل يقيم بسميه ، ويدفع عنهم بجمده ، وإن السمي على العيال واجب ، قوموا اسموا في مناكبها ، وكلوا من رزقه ، وإليه التشور ، قوموا اضربوا في الأرض ، وابتنوا من فضل الله »

وما طلب الميشة بالتمني	ولكن ألقى دلوك في الدلاء
تجيء بملئها طوراً وطوراً	تجيء بجمأة وقليل ماء
ولا تقعد كذي كسل وجبن	تحييل على المقدر والقضاء
قمودك عن طلاب الرزق عجز	وعجز المرء أسباب البلاء

علم يعقوب عليه السلام أنه يوجد قمح في مصر ، فقال لبنيه : (لماذا تنظرون بعضهم الى بعض ؟ إني قد سمعت أنه يوجد قمح في مصر ، انزلوا الى هناك ، واشتروا لنا ، لنحيا ولا نموت ، وإن ما عندنا من بقايا القوت يوشك أن يفنى وينبتي معدمين ، حتى ولو اقتصدنا ، بل ولو قترنا في تناوله ، فإن قلة الانفاق ، لا يمنعها من سرعة النفاد ، فإن الكحل الذي لا يؤخذ منه إلا عيار الميل سريع فناؤه ، فكيف ونحن عشيرة كبيرة ، نحتاج كل يوم نحن ودوابنا الى قوت ليس بالقليل).

وقد كان يعقوب عليه السلام ، وأولاده أنفسهم في حاجة الى الطعام ، في تلك الايام ، وقد ضعفت مواشيمهم من قلة المرعى ، وربما مات كثير منها ، وأخذ الموت يحرف كثيراً من الناس .

سمع أبناء يعقوب كلام أبيهم ، قاموا وشرعوا في الرحلة ، ماعدا بنيامين ، فقد تخلف عنهم إذ لم يرسله أبوه معهم ، لأنه قال في نفسه : (أخشى أن يصيبه أذى) ثم ساروا بميمين الديار المصرية ، وقبيل ما وصلوا لمصر ، رأوا في ضواحيها من جهة طريقهم ، مضارب وخياماً منصوبة للمشارين القادرين ، وإيلاً وحمرأً ، ما بين مربوطة وذاهية لمصر فارغة ، وآية منها مثقلة بالميرة ، وصادفوا جلبلة وازدحاماً ، ولم يزالوا كذلك حتى دخلوا مصر ، ما بين نهيق الحمير ، وجدير الابل ، يتخلل ذلك ضوضاء وصلصلة وقمقة ، إذ كان في مصر اجتماعات مدهشة من صنوف المتتارين ، تعيد للاذهان ذكرى برج بابل ، أو تمثل للانسان يوم المحشر .

وكان أبناء يعقوب حينما دخلوا مصر معتمدين في جمهور كبير من المتتارين ، لكن العيون المرصدة من قبل يوسف انتحمت ذلك الجمع وتخطت الجمهور ، ولم تتناول إلا هؤلاء الاخوة ، فأخذوهم اليه في بلاطه ، فدخلوا عليه ، وهو في قصره يتأطح السحاب . جالس على عرشه ، وسلموا عليه سلام الامانة ، وتراموا بين قدميه ، وقد استوسق له كل ما أراد من سلطان ومراس ونفوذ كبير ، ومهابة عظيمة ، دخلوا عليه ، وهو في عنفوان دولته وشمخها ، وعزة ملكه وقبسا ، فففرس يهم ، فلم يكن إلا كلعج البصر ، حتى بصر بهم ، فعرفهم من بعد العهد ، عرفهم بلحاظهم ومشور رؤوسهم حسب عوائد الفلسطينيين وخاصة العبرانيين ، عرفهم بلباسهم ، عرفهم بالبرانية ، عرفهم بلباس من نوع أزياء أهل فلسطين يمازجه شيء من هندام المراقين ، عرفهم بحيث يقدر أن

يناديهم بأسمائهم ، ويخبرهم بأحوالهم ، التي غادرهم عليها منذ صغره ، عرفهم لأن صورهم كانت قد ارتسخت في « فِلْصَم » دماغه وهم كبار ، فلم يطرأ عليها تغيير كثير ؛ وأماهم ، فلم يرفوه إلا بأنه « عزيز مصر » ، و « وزير مالهتا » ، وأما من أي عنصر هو ، ومن أي عشيرة ، فلم ...

(وجاء إخوة يوسف ، فدخلوا عليه ... الخ)

— ٢ —

وقال العلامة العَدَنِي^(١) : نستفيد من هذه الآية الكريمة الفوائد التالية :

وصف منظر المتارين من الناس في مصر في زمن يوسف

الفائدة الأولى — جاء إخوة يوسف فإذا الناس من خواص العالم ، ورجالاتهم وعلمهم في هرج ومرج ، يموج بعضهم في بعض كموج البحر ، قد تسربوا أزواجاً وثلاثاً ، بين راكب وماش ، هذا يكال له ، وهذا يحمل الميرة ، يهرعون نحو الكيالين ، تتزاحم أقدامهم ، وتتراص صفوفهم ، ويندمج بعضهم في بعض ، الرجل يدفع الرجل ، والمرأة تدفع المرأة ، وهم أنواع شتى ، وأشكال متباينة ، ولغات مختلفة ، وأزياء مختلفة ، كار وفار ، داحل وخارج ، باك وضاحك ، منهم الشيوخ والمهرمى ، ومنهم الشبية والفتيان ، وقد علا الضجيج حني استكتت المسامع ، وتساعد الغبار ، حتى حجب السماء ، يتواردون كوكبة بعد كوكبة ، وزرافة بعد زرافة ، ولا غرو فمصر بعناية يوسف وتدايره ، أصبحت الحرم الوحيد الذي تقصده أهالي البلاد المجاورة لها ، وهي القلب الذي تتدفق منه مادة الحياة الى جميع الأطراف ، وهي الموئل الذي يرجع اليه عند الشدة ، وأما إخوة

(١) سبة الى عدن ، فاعده شبه جزيرة عدن .

يوسف ، فدهشوا لهذا المنظر الرهيب ، فوقفوا هنيهة في وسط الساحة ، ريثما يقل المتراحون ، وهناك أخذوا فأدخلوا على يوسف ليشرح لهم على وثيقة الامتياز .

ترقب يوسف مجيء أخوته

الفائدة الثانية — لم يعجب يوسف لهذا المجيء ، لأنه كان يعرف أن هذا المجيء سيكون طبعاً ، وكان يعد له الأيام عدداً ، كما يعد الفلكي الساعات والدقائق لكسوف الشمس واصطدام الكواكب ، إذ متى حصل الجذب والقحط في مصر حصل فيها مجاورها من البلاد ، التي منها بالأقرب فلسطين ، فتضطر إخوة يوسف للامتياز ، وقد وقع .

يوسف يسرع في تحقيق هدفه

الفائدة الثالثة — جاء إخوة يوسف فالتشرح صدره ، وشعر أنه تقدم خطوة نحو الغرض الذي كان يتوخاه ويتوقعه ، وهو مجيء بنيامين لمصر ، وحظوته ببقياه ، وقال في نفسه : « قد دنا وقت العمل » ، فلذلك سيأتي إنه عمل معهم الحيلة الأولى لرجوعهم بأخيه ، فائلاً في ضميره : متى رجعوا به ، أحتال لإبقائه عندي بحيلة أخرى ، أشد بها شيئاً من كبريائهم ، ثم أسمى في مجيء والدي لمصر ، وهكذا سيتم له ما أراد .

ابتهاد يوم يوسف

الفائدة الرابعة — من ههنا يتبدى اليوم الذي ليوسف ، وينتهي بنهاية (ع ١٠١) بعد ما صبر على اليوم الذي عليه المذكور في (ع ١٥) ، فهو في هذه الحوادث كغيره ، يوم له ، ويوم عليه ، يوم له كان في بكرته ممزوجاً بشيء من الرحمة (ع ٥٨ — ٦٢) ، وكان وقت الظهيرة شديداً جداً (ع ٧٠ — ٧٩) ثم صار حين

الأصيل رحمة مطلقة (ع ٨٩ — ٩٣) ، وأما اليوم الذي عليه فكان لونا واحداً ، وهو لون القسوة .

حال اخوة يوسف بعد ما شردوه

الفائدة الخامسة — كان حصل ما حصل من إخوة يوسف مع يوسف منذ ٢٢ سنة ، فأما هم فبقوا ساكتين ما كنين بفلسطين عند أبيهم مع زوجاتهم وأولادهم وقطانهم ، وأما يوسف عليه السلام فأقام بمصر ، في بيت العزيز ، ثم في السجن ، ثم في بلاط الملك ، ونامت تلك القضية ، التي كانت بين هؤلاء الإخوة ، نعم نامت ولكن بدون أن تمام تلك الاحقاد ، التي نشأت في الصدور ، بين الظالمين والمظلومين .

مجيء اخوة يوسف لمصر لأن من أكبر المساعدات لتحقيق آماله

الفائدة السادسة — مجيء إخوة يوسف لمصر ، ومثلهم بين يديه وتمكنه منهم — بعد من أعظم بتمتات مجد يوسف وسروره ، وبعد من أكبر المساعدات لآماله ، جاءه هذا الأمر عفواً صفواً ، لم يعد إليه يداً ، ولا تجثم فيه مشقة ، ولا خاض فيه غمرة .

المصر اقترعها بين مصر وفلسطين

الفائدة السابعة — تتلم من هذه الآية ، ومن سابق قوله ﴿ وجاءت سيارة الخ ﴾ ومن لاحق قوله : ﴿ والبير التي آقبلنا فيها ﴾ أنه كان يوجد اتصال اقتصادي بين فلسطين ومصر .

اسباب عدم معرفه اخوة يوسف له عندما قابلوه

الفائدة الثامنة — لم يعرفوه لأسباب منها أولاً : بسد الشقة ، وطول مدة

الفرقة ، ومما دعا لعلم معرقتهم إياه بنوع خاص وجوده في البلاط ، في دست الوزارة المالية ، وانه عزيز مصر ، ووكيل مليكها .

ثانياً : الشوار الذي كان على لباسه ، وتكلمه معهم بالقبطية ، لأنها هي اللغة الرسمية ، وانه كان حليق الرأس والفرع واللحية ، لأن تلك الهيئة هي هيئة المصريين ، وهي عندهم هيئة العز والشرف ، وأما الذين يوفرون فروعهم ولحاهم فهم في نظر المصريين واصطلاحهم الأذناء والأذلاء ، كما ثبت ذلك في التاريخ ، وعلم من الرسوم المصرية .

ثالثاً : قد تغير اسمه في دار الحكومة وعند الاهالي بموجب إرادة سنية ، صدرت من البلاط ، لأن ملك مصر دعا يوسف « صفات صنيع » ، وهما كلمتان مصريتان ، قال القانون كوك : معناهما « طعام الحياة » ، أو « قوت الاجياء » ، وفسرهما آخر « بمخلص العالم » ، والمعنى على التفسيرين أن يوسف كان علة قوت الاجياء أو طعامهم وإقناذهم من الموت ، بما أتاه من خزن الحنطة الى زمن القحط .

رابعاً : كان قد تغيرت صورته ، لأن صورة الانسان وهو في سن الأربعين ، تبين صورته تمام المبائة وهو في سن ١٧ سنة ، إذ تكون قد تغيرت تقاطيعه ، واختلفت أوضاعه ، وتبدل فيه كل شيء ، حتى ملامحه وشمائله .

معنى نكر وأنكر

الفائدة التاسعة — نَكَرَ بالقلب وأنكَرَ بالعين (أساس) ، فاخوة يوسف لم يخافوا منه بقلوبهم ، ولم ينفروا منه حين رأوه ، ولكنهم لم يروه في الشكل المعروف لهم ، أو رأوا له حالاً وشكلاً خلاف حال السوقة من المصريين ، وهذا كما في قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ إِبْرَاهِيمَ الْمَكْرُمِينَ ؟ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا : سَلَاماً — قَالَ : سَلَامٌ ، قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴾ (٥١ : ٢٤ و ٢٥) ،

وكا في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ، قَالَ : إِنَّكُمْ قومٌ مُنْكَرُونَ ﴾ (١٥ : ٦١ و ٦٣) ، فمعنى قول ابراهيم وابن أخيه لوط « منكرون » لأنها لم يبرها الملائكة في اول دخولهم عليها ، فمعنى « منكرون » مجهولون غير معروفين ، وأما قوله تعالى : ﴿ ولقد جاءت رُسُلُنَا اِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى ، قَالُوا : سَلَاماً — قَالَ : سَلَامٌ ، فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيفٍ ... فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تُصِلُ إِلَيْهِ فَنَكَّرَ هُمْ ، وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ (١١ : ٦٩ و ٧٠) ، فمعناه أن ابراهيم عليه السلام لما رأى الملائكة لم تأكل من طعامه نفر منهم بقلبه ، وخاف انهم يريدون به مكروهاً ، لأن عادة الشرقيين هكذا ، إذا مس من يطرقهم طعامهم أمنوه ، وإلاّ خافوه ، ولذلك حسن التفسير بكلمة « نكر » هذا ما تقرر بناء على ما ذكره الزحشرى في أساسه ، من التفرقة بين نكر وأنكر ولكنه في كشفه لم يفرق بينهما ، وأنشد قول الأعشى :

وأنكرتني وما كان الذي ذكرت من الحوادث إلا الشيب والصلما

وما قاله في الأساس أدق ، وهو اصطلاح القرآن الكريم ، الذي أنزله الله حكماً عربياً ، وحكماً لغوياً .

سبب عدم اظهار يوسف نفسه لاختوته

القائدة الماشرة — لم يظهر يوسف نفسه لاختوته ، في هذه المرة من اللقاء ، خوفاً من حسدهم وإلحاقهم به الأضرار ، وأن يتقلبوا عثرة في سبيل تمكنه من منصبه الذي هو فيه لأنهم إذا كانوا قد حسدوه على مجرد حب أبيه له أكثر منهم ، فأخلق بهم أن يحسدوه ويضروه إذا رأوه قد تربع فوق دست وزارة المال بمصر ، وأنه قد صار عزيزها ووكيلاً مفوضاً عن مليكها ، وبما أنهم لإخوته ، فهم قديرون على ذلك ، إذ من ذا الذي يظن ان الاخوة العشرة من أبناء نبي الله وصفيه يعقوب ، من سلالة اسحق وذرية ابراهيم — يتألبون بالزور والبهتان على أخ منهم

وفهم !!!!! ... فلعمري إن طعنهم فيه قريب التصديق . فلذلك كان يوسف يخاف منهم ويتقي شرهم ، وبحسب لهم ألف حساب ، وهذا مادفعه الى التكتّم عنهم ، . والعاقل لا يجد له أماناً من حاسديه ، أوثق من الذعر والتحفظ ، واتقاء قريتهم ، . والتعرف اليهم ، والتحكك بهم ، ويحتمل انه لذاك العهد كان لا يزال متناظراً منهم وحاقداً عليهم .

داعي مجيء اخوة يوسف اليه رأساً

الفائدة الحادية عشرة — لاريب أن يوسف عليه السلام كان قد أقام أناساً لبيع الحنطة يبيعون كما يأمرهم ، فكيف أتى لإخوته رأساً إليه ؟
والجواب : إن علة ذلك كثرتهم ، لانهم عشرة ، ومعهم عبيد وخدم ، فكانوا ممن ينظر اليهم بريّة ، فلما دخلوا مصر ، رفع أمرهم الى حاكمها يوسف عليه السلام ، لينظر في أمرهم ، وقد كان المصريون راغبون من كل جماعة غريبة تدخل أرضهم ، ولا سيما الجماعات التي تدخلها من الحدود الغربية .

يوسف مجهز اخوته بالبركة وبطلب منهم الاتيان بينيامين

آ (٥٩) *... وَلَمَّا جَهَزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ ، وَقَالَ : أَتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَيْكُمُ ، أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ . *

افتتحت الجلسة وتليت الآية التاسعة والمخسون فقام الشيخ الحديدي
السيني وقال :

أعطى إخوة يوسف ما يديهم من الفضة ، وكال لهم يوسف القمح ، كيلاً

طافاً زاهداً عن الحق الذي لهم ، ثم تهيئاً لهم في إلباهم أعطوا زاداً للطريق ، وأعطاهم كل ما يصلحهم ، من كل ما يحتاج اليه المسافرون ، قائلاً في نفسه : بعله الزرع يسقى القرع ، (ولما جهزهم بجهازهم) أي هياً لهم جهازهم ، وهو ما يحتاجون اليه في قطع المسافة ، من دقيق وسويق ، وسقاء وماء ، وعلف للدواب ، وكل ما يلزم لهم في الإياب ، (قال) خاة وبنته ، بلا مسابق مذاكرة : يا أبناء فلسطين لله أنتم ، إني أقترح عليكم شيئاً واحداً (ائتوني) مرجعكم الي (بأخ لكم من أياكم) ، سمعت به ولم آره معكم في هذه الزيارة — قال ذلك جبراً بحيث يسمونه ثم قال بينه وبين نفسه : لأن « الشكلي تحب الشكلي » ، ثم رجع وقال مرغياً : [(ألا ترون) ناشدكم الله ، (آني أوفي الكيل) أي أكثره وأزيده بحيث يطف الحب عن المكيال (وأنا خير المنزلين) من الباعة الكياليين ، الذين ينزلون الممتارين عندهم ، فهم إنما يطوئهم الحق فقط ، ثم لا يجهزونهم بشيء من لوازم السفر ، ولكني قمت بالفريضة والنافلة ، قمت بالواجب والمستحب ، قمت بما يلزم وما لا يلزم] ، وربما كان معنى (المنزلين) بمعنى المضيفين ، لأنه يقال : أنزله بمعنى أضافه ، وأنزله الضيف .

ألا ترون اني اوفي الكيل .. الخ

— ١ —

وقال تقي الدين العريشي (١) :

جود يوسف على إخوته وببض الأمثلة المشابهة في التاريخ

إذا لاحظنا أن الوقت في مصر ومأحولها من البلدان كان وقت جذب وغلاء . وأن يوسف عليه السلام جهز لإخوته بجهازهم جوداً منه وكرماً ، وأوفى لهم

(١) نسبة الى بلدة العريش من فلسطين .

الكيل وزاده عن الواجب ، ثم جعل بضاعتهم في رحالهم ، فلا ريب أن يكون خير الباعة الذين يزلون المتارن عندهم ، فيبيعونهم بالثمن ، مقتصرين على حقهم فقط ، لا يزيدونهم عليه شيئاً ، لاسيما إذا لاحظنا أنه عمل هذا العمل مع قوم كرهوه وحسدوه وشردوه ، وإن هذا الجود الذي جاد به يوسف على إخوته ، أقصى ما يمكن أن يجريه « وزير مالية أمين » مع من أراد أن يحاييه من المتارين . ويجعل بنا بهذه المناسبة أن نسوق للقرآن بعض الأمثلة التي وقعت من الأجواد فنقول :

١ - وقع قحط في عهد « أبي بكر الصديق » رضي الله عنه ، فقيل له : « إن الناس في شدة » - فقال : « إنكم لاتمسون حتى يفرج الله عنكم » ، فلما كان آخر النهار ، جاءت عير محملة « لثان ابن عفان » رضي الله عنه ، من الشام ، يخافه التجار وقالوا : « إن الناس في شدة قحط » ، وقد قدم عليك مائة راحلة من البر ، فبئنا إياها » - قال : « كم تربحوني ؟ » - قالوا : « تبجل ربح المشرة درهمين » - قال « زادوني أكثر من ذلك » - قالوا : « تربحك أربعة » - قال : « زادوني أكثر من ذلك » - قالوا : « نحن تجار المدينة ، فمن زادك ؟ » - قال « إن الله زادني بكل درهم عشرة » ، قال تعالى : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشرُ أمثالها ﴾ (٦ : ١٦٠) ، أشهدكم إنها صدقة للمسلمين !!! .

٢ - في غزوة اليرموك ، عند الزريب ، في خلافة عمر رضي الله عنه ، قصد بعض الصحابة ابن عم له جريح طريح بشربة ماء ، فلما وصل اليه ، سمع شخصاً جريحاً يشكو عطشاً ، فأشار اليه : أن اسقه ، فجاء فسمع آخر يشكو عطشاً ، فأشار اليه : أن اسقه ، فجاء فوجده قدمات ، فرجع الى الثاني قرآه كذلك ثم أتى ابن عمه ، فرآه كذلك قدمات !!!

٣ — كان « لطلحة الخير » رضي الله عنه مال ، أربعمائة الف ، فتصدق به على المسلمين .

(٤) — وردت قافلة بتجارة من الشام « لبيد الرحمن بن عوف » رضي الله عنه حملها وقال : « من كان من أصحاب بدر ، فله عليّ أربعمائة دينار » ، واتفق أن أعتق ثلاثين ألف رقبة ، وأوصى بمحبة لأمهات المؤمنين يبعث بأربعمائة الف .

(٥) — أنفق « أبو بكر » رضي الله عنه ، أربعين ألف دينار ، كما رواه ابن عساكر في تاريخه ، وقيل : كانت ثروته أربعين ألف درهم ، أنفق منها خمسة وثلاثين ألفاً ، معونة لرسول الله ﷺ .

(٦) — « زيدة » امرأة هرون الرشيد ، أنفقت في سبيل الله وفي الحج وفي بناء المساجد والفتاخر ما لم يتفقه أحد من قبلها ، فمن ذلك ما أنفقت في حفرها للعين المعروفة « بعين زيدة » بالحجاز ، فإنها حفرتها ومهدت الطريق لها في كل ربع وخفض ، حتى أجرتها من مسافة اثني عشر ميلاً ، فأحصي ما أنفقت فيها ، فوجد ألف ألف ومبعمائة ألف دينار . وفي كتب التاريخ عدا ما ذكرنا أمثاله كثيرة من أخيار أهل الجود .

(ولما جهزهم بجهازهم . قال التوفي . . الخ الآية)

— ١ —

وقام نوو الهدى الصيد اوي^(١) : لنا ههنا تلمات لشرح هذه الآية :

معنى الجواز

١ — قوله ﴿ ولما جهزهم الخ الآية ﴾ ، لا بد له من مقدمة قولية تقديرها :

(١) نسية الى ميذا من بلاد الشام (لبنان)

إنه كال لهم فأوفى ، وأنزلهم خير منزل ، وجيزهم بكل معدات السفر ، ولما جهزهم .. الخ ، وجهاز الميت والعروس والمسافر بالفتح على الأنصح ما يحتاجون اليه ، وقد جهزه تجهيزاً فتيحيز ، والجمع أجهزة ، وتجهزت للأمر تهيأت له ، قال عمر بن عبد العزيز :

تجهزي بجهاز تبغنين به يا نفس قبل الردى ، لم تخلقي عبثاً

اشارة رمزية من يوسف لايه يعقوب عليها السلام

٢- قوله : ﴿ ائتوني بأخ لكم من أيكم ﴾ * هذا النوع من التعبير يفيد أنه لم يسبق « بنيامين » ذكر بين يوسف وبين إخوته مطلقاً ، وإلا لقال : « ائتوني بأخيك من أيكم » ، كما أن جملة : « ائتوني بأخ لكم من أيكم » متى نقلت لأبيهم ، أوقعت في استغراب ، وأذهبت نفسه كل مذهب محمكى ، وجعلته يظن أن لهذا الرجل المصري المحمول على خزائن أرض مصر مغزى في هذا الطلب ، وإلا فمن عرفه أن لهم أحاً من أبيهم ؟ وما هي علاقته به ؟ وألا يكفي أنه عرف عشرة من أولاد يعقوب ؟ فهل من الضروري أن يتعرف للحادي عشر ؟ وما هي الأسباب التي تدفعه لهذا الطلب ، وما هي هذه الأهمية ياترى ؟ وما المناسبة بين « عزيز مصر » وبين « بنيامين » ؟! وما فائدة العزيز من محيى بنيامين ؟!

كل هذه الأسئلة لابد أن ترد على ذهن يعقوب ، ولا بد أن يستنتج منها احتمال أن هذا الرجل صاحب هذا الطلب ، هو على الأقل يعرف يعقوب ، ويعرف أن له ولداً غير هؤلاء العشرة ، وأنه أخوهم من أبيهم . ويستنتج أن هذا الرجل صاحب هذا الطلب ، ذو علاقة خصوصية ببنيامين دون سواء ، وعليه فلا بد أن يعقوب يقول في نفسه حينئذ : « إن في الأمر لسراً » ، وبالنتيجة ، كأني يعقوب عليه السلام قد قام عنده احتمال ان هذا المتكلم بهذا الكلام ، الطالب هذا الطلب ، إما أن يكون يوسف ، أو رجلاً يعرف يوسف وله به علاقة ، ولذلك سيأتي له

أن يقول لأولاده : ﴿ يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ﴾ ، فكأنني به أنه ظن أن يوسف بمصر ، وعلى هذا فما كان هذه الجملة ، إلا برقية شفرة من يوسف لأبيه ، أولفز لا يحمله إلا يعقوب ، أو إشارة رمزية ، وكل ليب بالإشارة يفهم ،

هذا ما يجب أن تحمل عليه الآية الكريمة ، وأما من حلها من المفسرين على غير ما ذكرنا فهو كمن يقول بأن الأتف يجعل لمضغ الطعام ، والأذن للشم ، والعين للسمع .

ويمكننا أن نقول أيضاً أن تمييز يوسف إخوته بما يارم لهم في سفرهم ، وطلبه منهم الإتيان بأخ لهم من أبيهم ، هو لسمع يعقوب بما عمل ابنه يوسف وما قال ، فيتحرك ذهنه ، ويدرك أن في الأمر سرّاً ، وإلا فما هو السبب الذي يدعو « عزيز مصر » لتجهيزهم بلوازم سفرهم ، وإيفائه لهم الكيل ، أي زيادته ، ولطلب بنيامين ، ثم جعل بضاعتهم في رحالهم ؟؟

حقاً إن هذه الأعمال والأقوال لتقتضي الدهشة ، وتوجب التفكير والبحث الذهني العميق ، وتستدعي التدبر في مرمى ذلك ، وما هو المقصود منه ؟ لا ريب أن يوسف زجى أن يفهم أبوه أن في الأمر سرّاً ، فيتحرك ذهنه ، وبشرع في التفكير والبحث عن ذلك السر ، لعله يحوم حول ولده المفقود ، فكأن يوسف بما عمل وما قال ، اعتبر إخوته كالألة المسجلة التي تثقل الكلام من غير فهم لسره ومرماه ، ولاندحة من أنه قد اختلج في صدر أبيه شيء من هذا القبيل ، فنحن نرى أن يعقوب عليه السلام حام حول ما أراد يوسف .

لقد كانت يعقوب سابقاً يتحقق أن ابنه حي يرزق ، استناداً على ما رأى ولده يوسف من الرؤيا الحيدة ، إنما أين هو ، فسؤال كان لا يعلم له جواباً ، وأما الآن ، فإنه فهم من هذه الرموز ، أن ابنه يوسف بمصر ، بدليل أنه قال لأولاده

عند زيارتهم مصر للمرة الثالثة : ﴿ يابني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ﴾ (آ: ٨٧) وإلا لم يكن معنى للتحسس عن يوسف في مصر خاصة ، فما ذاك إلا لكون يعقوب ظن أن يوسف بمصر ، الأمر الذي هو سر تلك الاعمال ، وبهذا يمكننا الاعتذار عن يوسف في أخذه بنيامين واسترقاقه عنده ، حيث ربما يعترض معترض على يوسف بأن هذا العمل يسيء أباه ، فكيف أقدم عليه ؟ فيكون الجواب عن هذا الاعتراض أن يوسف قبلما يأخذ أخاه ، أفهم أباه بلطف بما عمل من تجهيزهم بجهازهم وإزالتهم خير منزل ، ووضع بضاعتهم في رحالهم ، وما قال من قوله : « اتنوني بأخ لكم من أبيكم » — أفهمه بهذا العمل وهذا القول انه بمصر ، وكل ليبب بالإشارة يفهم ، هذا ما يلوح لي ، تبعاً للأخ الاستاذ الحديدي حفظه الله ، والله تعالى أعلم .

وجه قبول اخوة يوسف منة اخيهم

٣ — قوله ﴿ ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين ﴾ ، إن قال قائل : كيف قبلوا منه هذه المنة وسكتوا عليها ، والشاعر التميمي يقول :
 إن الذين يسوغ في أعناقهم زاد يمن عليهم لئلا
 قلنا : إنه لا لؤم في قبول الرعايا منة الأمراء والملوك ، كقبولها من نحو الوالدين والمؤدبين .

وجواباً ثانياً — وهو أن من رضي لنفسه بقطعة الرحم والكذب والمقوق ، والحاق الضرر بأبيه وأخيه ، هو أقل من أن يرياً بنفسه عن قبول منة الناس ، كيف وهم رضوا لأنفسهم هذه المنزلة إذ قالوا : « وتصدق علينا » كما سيأتي :

سلسلة كرم يوسف مع اخوته

٤ — يوسف هنا جهزهم بجهازهم ، وأوفى لهم الكيل ، وأزلهم خير

مزل ، وهذا من رجل مشرد فعله مع مشردين ، مظهر من مظاهر الكرم ، واكبر منه قوله فيما يأتي : ﴿ واثتوني باهلكم أجمعين ﴾ (ع ٩٣) واكبر من هذا وهذا ، كرمه المتوي الذي عبر عنه بقوله : ﴿ لانتريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين ﴾ (ع ٩٢) .

دواعي طلب يوسف لبنيامين

٥ - رأى يوسف اخوته العشرة ، فاجت فيه ذكرى أخيه بنيامين ، وتنتهت أشجانه وقامت نفسه لرؤيته ، وجهده الشوق اليه ، فلذلك ولأجل أن ينقذه من براثن اخوته الفارزة في جسمه ، رغب اليهم أن يرجعوا به في السفرة الثانية ، من قبيل من رمى حجراً لكي يصيد به صيدن .

كما أنه نظراً لأن يوسف كان يتوسم من وراء محبي شقيقه نوراً يهتدي به استطلاع أحوال أبيه ، والاسرة اليعقوبية بصورة مفصلة ، تكفل وقوفه على أحوال إخوته ، مظهر منها وما بطن ، حتى يتبين له الخيط الأبيض من الخيط الأسود ، ونظراً لأن بنيامين هو أخوه الشقيق الأصغر ، فكان بالأشواق الكلية اليه - نظراً لذلك كله ، حسن في عين يوسف ، أن يطلب منهم « بنيامين » فقال لهم : اسمحوا لي أن أقترح أمراً ، ربما لا يكون فيه صعوبة عليكم ، أمراً تتوخون به مسرتي ، وتتخرون به رضاي ، « اثتوني بأخ لكم من أبيكم » الخ .

منشأ زيارة محبة يوسف لبنيامين

٦ - قوله : « اثتوني بأخ لكم من أبيكم » : تعلمون أن يوسف عليه السلام كان يحب « بنيامين » حباً جماً ، ولماذا ياترى ؟ . لأنها نشأت في خيمة واحدة كما تنشأ الزهرتان المتماثلتان في مقرب واحد ، فهو نام معه وليداً ، ولعب معه طفلاً وتسار معه قتي ، وذاق معه حلاوة السمر ، وذاق معه مرارة موت الأم

وشرب معه كائس كره الأخوة إياها ، زد على ذلك أن يوسف كان لا يعرف له وجوداً في قلب أخ من إخوته ، إلا في قلب بنيامين ، كما أن بنيامين كان كذلك ، لا يعرف له وجوداً في قلب أخ من إخوته ، سوى قلب يوسف ، فبنيامين شارك أخاه يوسف ، في كل هذه الأدوار والمعاني ، فهذا — مع كونها شقيقتين — هو منشأ زيادة محبة يوسف لبنيامين ، تلك المحبة الفائقة .

شيئاً لو بكت الدماء عليها عيتاي حتى تؤذنا بذهاب
لم أبلغ المعشار على حقها فقد الشباب ورؤية الأحباب

لماذا لم يذكر يوسف أباه بشيء

٧ — لسائل أن يسأل قائلاً : يقول الشاعر جرير في إحدى قصائده التي يتندح بها بعض الأمويين :

هذي الأرامل قد قضيت حاجتها : فمن حاجة هذا الأرملة الذكر ؟

ونحن نقول هنا لسيدنا يوسف عليه السلام : قد قضيت حاجة إخوتك بني الملأ بإيفائك لهم الكيل ، وإثرائك إياهم منزلاً حسناً ، بل وبجعلك بضاعتهم في رحلهم ، حتى صاروا آخذين القمح مجاناً ، وقضيت حاجة أخيك بنيامين بطلبك إياه للترفيه عنه ولرؤيتك إياه ، ولكن من حاجة ذاك الأرملة الذكر ، أعني والدك الشيخ الباكي الحزين ، فأننا لم نسمعك ذكرته بكلمة ؟ !

ولنا على هذا جوابان :

الجواب الأول — ان يوسف يعرف أن أخاه بنيامين لم يشتر بشيء من الله في مستقبل أخيه يوسف ، فهو لا يعرف عنه من هذا القبيل شيئاً ، وإذاً فليس له فيه رجاء ، فعيشته إذاً هي عيشة نصب وشقاء ، ولذلك أراد يوسف سعادته باحضاره إليه ، وهذا بخلاف أبيه يعقوب عليه السلام ، فهو يعرف مستقبل ولده

١٠٠٨ سلوك يوسف مع اخوته على قاعدة المثل القائل اذا لم تغلب فاخلب آ (٥٥)

ويتأكد تلك البشائر الربانية عنه ، نعيشته إذا ليست عيشة شقية ، باعتبار ماله من الأمل والرجاء ، وإن الذين يبشون بالأمل . ويحيون بالرجاء . لهم ببيدون عن الشقاء والتصب .

الجواب الثاني — لا يحكى إلا من فم لأذن .

سلوك يوسف مع اخوته على قاعدة المثل القائل اذا لم تغلب فاخلب

٨ — بقولون في المثل : « إذا لم تغلب فاخلب » ، فيوسف عليه السلام لما لم يستحسن قهر اخوته على إيمانهم بينامين سلك مسلك المصايدة والزلفى ، تدرعاً منه لمحيثهم به في السفرة الثانية .

كيف يمن يوسف على اخوته بما جاد به عليهم

٩ — قوله : ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ ، وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾ ، خطبه « معاوية ، خطبة ، أعجب بها كثيراً ، وفخر ببلاغتها ، وحسن صياغتها ، فقال : « أيها الناس ، هل ترون في خطابتي من خلل ؟ » فأجابه رجل : « نعم خلل كخلل المنخل » — فقال معاوية : « وما يكون هذا الخلل ؟ » — فأجابه الرجل : « ذلك الخلل هو اعجابك بها ومدحك لإياها » .

هذا شيء ، وشيء آخر أهم منه وهو قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، ثُمَّ لَا يُتَّبَعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى ، لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ، وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ؛ قوله معروف ومعتزلة ، خير من صدقة يتبها أذى ، والله غي حليم ، يا أيها الذين آمنوا ، لا تبطلوا صدقاتكم بالإن والأذى ﴿ البخ (٢ : ٢٦٢ - ٢٦٤) ﴾ وفي حديث علي رضي الله عنه ، « آفة الساحة المن » ، وعلى ما ذكرنا فلو قال قائل : كيف يعجب يوسف بعمله ، وكيف بمن على زلانه بما جادت به صرته عليهم ؟ فإننا نجيب بثلاثة أجوبة :

آ(٥٩) محاولة يوسف اغراء وتحفيز اخوته لجلب بنيامين معهم ٦٠٠٩

الجواب الأول — إن يوسف عليه السلام إنما تكلم معهم ، لا باسم أنه يوسف ابن يعقوب ، ولكن باسم أنه « عزيز مصر » ، وعزيز مصر أجنبي عنهم في المذهب والجنسية ، فهذا القول هو على حساب « عزيز مصر » ، لا على حساب « يوسف » .
الجواب الثاني — ان هذا من يوسف عليه السلام ، شروع في تشذيب نفوسهم العاتية ، وبدء في تخفيض شوكتهم الصلبة ، وفائدته تعود عليهم بالتهذيب والخضوع .

الجواب الثالث — يوسف لم يقصد الاعجاب ولا المن ، ولكنه قصد بما قل ترغيبهم وتشويقهم للرجوع بأخيه من أبيهم ، فهذا كل ما أراد من كلامه ، لا أقل ولا أكثر .

محاولة يوسف اغراء وتحفيز اخوته لجلب بنيامين معهم

١٠ — شوقهم يوسف بالآية الحاضرة « ألا ترون .. الخ » وهددهم بالآية الآتية « فإن لم تأتوني به .. الخ » (ع ٦٠) فسلط معهم بهذا القول وذاك القول ، مسلك من يكلم بيد ، ويأسو بأخرى ، وبعبارة ثانية — أحاط يوسف هذا الطلب الذي طلبه ، بالورود والرياحين أولاً ، ثم بالقنابل والمدابلات ثانياً ، وبعبارة ثالثة — هذه الآية والتي بعدها ، يمثلان لنا بابي « الاغراء والتحذير » الذين يدكران في علم العربية ، ثم إن الغرض الذي أراده يوسف من ذلك ، يمثل لنا « باب الاختصاص » الذي يذكره النحاة أيضاً ، لأنه أراد بهذا العمل وهذا التدبير ، أن يستحوذ على « الاختصاص » بشقيقه بنيامين .

محاولة يوسف رجوع اخوته ببنيامين عن طريق الترغيب والترهيب

١١ — ويقوم من ظاهر قوله « ألا ترون .. الخ » مع الآيات الثلاث التي بعده ،

أن يوسف عليه السلام ، إنما حاول رجوعهم بيني وبين عن طريق الترغيب والتجيب . والإغراء والتحذير ، فلم يهر في وجوههم ولم يتهمهم بمحاسوسية ، وقيل إنه حاول الحصول على ذلك عن طريق القوة والإرهاب ، والقهر والإزعاج ، حيث اتهمهم بالتجسس ، وجسهم ثلاثة أيام ، ثم أطلقهم وارتحن عنده أخاهم شمعون وقده لبينا يرجعون بيني وبين ، كما حكاه أكثر المفسرين الذين لم يأتوا عليه بسلطان مبين ، وليس له مصدر سوى سفر التكوين (تك ٤٢ : ٩ - ٢٤) ، وهو يخالف ظاهر الآيات الأربعة (ع ٥٩ - ٦٢) ، فحشر ما ذكرته التوراة مع كلام الله تعالى هنا هو من قبيل حشر الأروى مع التعمام ، أو الجمع بين النواصات والطياريات .

نعم نعم ، إن يوسف إنما جاءهم من باب التشويق والترغيب ، وأرادهم على الإتيان بأخيه من طريق الاقتناع ، دون طريقة القسر ، لأن طريقة الاقتناع هي التي تولد الميل في الإنسان ، ليحتشد في تحصيل ما يراود منه ، وأما طريقة الإكراه والإجبار ، فلا تجعل إخوته يميلون لإقناع نفوسهم ، فلا يجتهدون لإقناع والدهم ، فلا يحصل الغرض المروم ، وأما قوله : « فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون » فهو غير مجرب لهم الإتيان بأخيه ، إذ يمكنهم - بكل سهولة - أن يرسلوا عبيدهم وخدمهم بدلاً منهم ، ويوسف عليه السلام يعرف كل هذا الذي ذكرنا ، لأنه حكيم وذو مدارك عالية ، فلا يمكنه أن يزعجهم ، ولا تساعد الحكومة المصرية على حبس أو تقييد أخيه شمعون ، لأنه ما كان مطلق اليد ، فلا بد أن يكون إطلاقاً نسبياً ، فلا ندحة من أن يكون مقيداً بنظامات الحكومة المصرية وقوانينها ، ولهذا كان مسلكه مع إخوته مسلك حيلة وترغيب كما تتعلمه من (ع ٥٩ - ٦٢) ، هذا ما عثرنا الله عليه من الفهم في كتابه ، والله سبحانه أعلم .

معنى الإبقاء ووجه امتنان يوسف على أخوته

١٢٠ - أوفى الشيء كثيراً ، وأوفاه : كثرة ، فالمادة في بعض المواضع

كما هنا ، تدل على الكثرة والزيادة ، كما يقال : أوفى على المائة : اذا زاد عليها ، ويقولون في المدح : « هو أشعر أهل زمانه ، والموفى على أقرانه » ، وفي سنن ابن ماجه : « جاء اعرابي الى النبي ﷺ يتقاضى ديناً له عليه ، فقضى الأعرابي وأطعمه ، أي أعطاه زائداً عن حقه طعمة له ، فقال : أوفيتي ، أوفى الله إليك » ، والكثرة في الكيل إنما تحقق بالزيادة على الحق ، بحيث يصير الكيل أعلى من حرف الصواع لاسيما وان هذه المادة أيضاً تدل على العلو ، فانه يقال : « أوفى عليه : أشرف » ، فالغنى الذي أورده يوسف ههنا ، انه كال لهم وزاد عن امتحقاقهم في الكيل ، بحيث جعل القمح يملو طرف الصواع ، هذا ما يظهر لنا ههنا ، وبه يظهر وجه امتتان يوسف عليهم بذلك ، وإلا فالبايع لا يصح له أن يمتن على المشتري إذا كان اقتصر على إعطائه حقه فقط ، قلنا — والشئ بالشئ يذكر — وبهذا يظهر وجه الذم في قوله تعالى : ﴿ وَيَلِ لِلْمُطْطِفِينَ ، الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ، وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ (٨٣ : ١ - ٣) ، فهذا الاستيفاء هو زيادة عن الحق ، في الكيل لأنفسهم ، ولذلك قابله بقوله : « وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون » ، فالاستيفاء والإخسار ضدان ، والوسط هو وصول الحب المكيل الى طرف الصواع من فوق ، من غير أن يزيد عنه أو ينقص ، وبهذا التحقيق أيضاً يظهر وجه قول إخوة يوسف ، في السفرة الثالثة : « يا أيها العزيزُ مسنا وأهلنا الضُّرُّ ، وجئنا ببضاعةٍ مُزجاةٍ ، فأوف لنا الكيل ، وتصدق علينا ، إن الله يجزي المتصدقين » (آ : ٨٨) ، قدموا له الرجاء أن يزيدهم وأن يكون بذلك متصداً عليهم ، وإلا لما كان وجه لقولهم : « فأوف لنا الكيل ، لأن حقهم سيصلهم قطعاً ، كما جربوا ذلك منه في السفرتين الأولىين ، هذا ما فتح الله به ، وفوق كل ذي علم عليم ، والحمد لله رب العالمين .

يوسف يطلب بنيامين بالقهر

آ (٦٠) ﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ ، فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي ، وَلَا تَقْرَبُونِ﴾

افتتحت الجلسة ونليت الآية الستون ، فقام الشيخ الرشيدى ^(١) وقال :
سبق أن يوسف قال لإخوته بلهجة السرور والترغيب ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي
أَوْفَى الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمَزْلُومِينَ﴾ ، والآت بقول لهم بلهجة النفور والإرهاب :
﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ﴾ أي بينامين وتستقدمه معكم ، (ف) لا أخفي عليكم أنه
(لا كيل لكم عندي) فضلاً عن إيفائه (ولا تقربون) بدخول بلادي ، فضلاً
عن الإحسان في الإزالة ، فاقظروا الألف مصلحتكم ، فأتهم من أهل الحجى والنهى
أقول نولي هذا صدقاً وإعذاراً وإنذاراً ، والله يتولى هداي وهذاكم .

فَإِنْ تَدْنِ مِنِّي تَدْنِ مِنْكَ مُودِنِي وَإِنْ تَنَازَعْنِي تَلْقَانِي عَنْكَ نَائِيًا
كَلَامًا عَنِّي عَنْ أَخِيهِ حَيَاتِهِ وَنَحْنُ إِذَا مَتْنَا أَشَدَّ تَعَانِيًا

لم يأل يوسف جهداً في تمهيد المقدمات ، وتذليل العقبات التي تقف في طريق
حظوته بأخيه بينامين ، فاستعمل مرة اللين ، ومرة بعض الشدة ، رغم أن
كونه لا يريد إزعاجهم بحرف واحد ، ولكن ضرورة الحال أخرجته فأحوجته
إلى قال :

بين لهم بما سبق من قوله وبهذا القول الحاضر أن إليه الرتق والفتق ويده
البسط والقبض ، وأنه قد ير على النفع والضر ، متمكن من القبول والرد ، سياسة.

(١) نسبة إلى لادة رشيد من البلاد المصرية.

حكيمة ، وخطة معتدلة ، لين في غير ضعف ، وشدة في غير عنف ، يطمح ويؤيس ، يوحش ويؤنس ، رسم لهم الطريقين وهداهم النجدين ، ليختاروا لأنفسهم مايلجوا ، وقول يوسف « فإن لم تأتوني به .. الخ » ، هو أول رصاصة رماها في أول هذه المعركة ، وقوله الآتي لفتياناه : « اجعلوا بضاعتهم في رحالهم .. الخ » هو ثاني رصاصة ، وأما (القنبلة) فهي جعله السقاية في رحل بنيامين كما سيأتي في (ع ٧٠) .

(فان لم تأتوني به .. الخ)

— ١ —

وقال الامام سعيد المنتفكي (١)

يوسف ينذر اخوته اذا لم يأتوه بنيامين

يقول يوسف عليه السلام : إن لم تأتوني بأخيك فسوف أعرقل مساعيكم ، بأنه لا كيل لكم عندي حينما تغلبون لمصر ثانية ، كما ولا تقربون بلادي ، ما كرت الجديدان ، وتعاقب الملوآن ، فإن لم تفعلوا ما أشير عليكم ، فدون بلوغ مناكم عندي شرح القناد ، فعلى إتيانكم بينيامين بتوقف كيلى لكم ، بل دخولكم بلادي ، وإن حصواكم على المسيرة للمرة الثانية معقود بمجيء أخيك معكم ، أفهتكم ؟ ... لا تنسوا شرطي ، فالشرط أملك ، عليك أم لك ، أنتم تخيرون بين شهد الحياة وصاب الموت ، مجيئكم بأخيك هو أشبه بورقة الجواز التي يحملها المسافر ، فإن أبرزها حين وصوله للحدود دخل المملكة الأخرى ، وإلا .. فلا .. وهكذا أنتم إن أتيتم بأخيك سمح لكم بدخول بلادي ، وإلا .. أرجتم على أعقابكم ، ونفوسكم الملوثة ، ها أنذا قد أنذرتكم ، قبل أن تقررعوا السن ، ومن أنذر فقد أعذر ، هذه وصاتي إليكم ، فإن عملتم بها ، حمدتم غب رأيكم ، وخير الأعمال

(١) نسبة الى المنتفك وهو اسم احد الالوية العراقية الجنوبية.

أحمدھا عاقبة ، وإلا فلا آمن علیکم ما أكره وتكرهون ، وبالجملة والاختصار ، إن أتیتمونی به أدینتکم ، وإلا دیتکم ، ولا یمكنی أن أکیل لکم ولا أراکم فی بلادی .

هذا مرمى كلام يوسف عليه السلام مع إخوته العشرة . ومن ههنا عول على أن يجمع قواته وينازل بها إخوته في موقعة فاصلة ، هي حرب ولكنها حرب تحت طي الخفاء ، حرب تدير وتفكير .

(والشيء بالشيء يذكر) أتذكر أنه كان دفع رجلان الى امرأة مائة دينار وديعة ، وقالوا لها : « لاتدفعيها الى واحد منا دون صاحبه » فلبثا ماشاء الله أن يلبثا ، ثم جاء أحدهما فقال : « ان صاحبي قد مات ، فادفي اليّ الدنانير » فأبت وقالت : « إنكما قلتما لاتدفعيها الى واحد منا دون صاحبه ، فلست بدفعتها اليك » ، فثقل عليها بأهلها وجيرانها حتى دفعتها اليه ، ثم لبثت ماشاء الله أن تلبث ، فجاء الآخر فقال : « ادفي الي الدنانير » — فقالت : « إن صاحبك جاءني فزعم أنك قد ميت » ، فدفعها اليه « — فقال « إنه لعب عليك وذهب هارباً » فاختصمها الى القاضي ، فعرف أنها قد مكر بها ، فقال : « أليس قلتما : لاتدفعيها الى واحد منا دون صاحبه ؟ » — قال : « بلى » — قال : « إن مالكما موجود عندها ، فاذهب فجيء بصاحبك حسب شرطكما ، حتى تدفعه إليكما ، فإن الشرط أملك » ، وهكذا يوسف عليه السلام إذا رجع إخوته اليه بدون بينامين وأرادوا الميرة يقول لهم : « قد اشترطت عليكم أن تأتوني بأخ لکم من أيکم ، ولم تفعلوا ، فليس لکم عندي ميرة حتى تأتوني به » .

(مرحى)

وعد الاخوة باحضار بنيامين لمصر

آ (٦١) (قالوا :... سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ ، وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ)

افتتحت الجلسة وتليت الآية الاحدى والستون ، فقام الشيخ راشد البيسانى^(١) وقال :

(قالوا) أي إخوة يوسف بلسان الوعد والمواقفة ، لبيك ، نحن أطوع لك من ظلك ، وبالله إننا لنبتهج جدا لابتهاج عما ثلناه من التفاتك ، — وأنت عزيز مصر — لسوقه غرباء مثلنا ، وفتخر بنا أصبناه من الخطوة في عينيك ، وعليه فسنصدع بأمرك ، رغمًا عن انه لا قبل لنا بهذا المطلوب ، ولا يدان لنا بمحصوله ، لأن أمر أخينا من أيننا ليس بيدنا ، بل (سنراود عنه أباه) ، ولسوف لانألوا جهداً في إقناعه (وإنا لفاعلون) معه جهد الاستطاعة أن يرسله معنا ، متى رجعنا المرة الثانية .

(قالوا .. سنراود عنه أباه .. الخ)

— ١ —

وقال شمس الدين الديماطي^(٢) :

وعد الاخوة باحضار بنيامين معهم لمصر عند موافقة ابيهم

حينما طلب يوسف من إخوته تلك الطلبة ، وهي ضرورة إتيانهم بأخ لهم من أبيهم عند مجيئهم لمصر للمرة الثانية ، وحينما أفهمهم نتيجة عدم إتيانهم به ، خاطبوه .

(١) نسبة الى بيسان من فلسطين.

(٢) نسبة الى بلدة دمياط من البلاد المصرية .

قائلين له باعتباره انه عزيز مصر : أيها العزيز - لقد رغبت في أمر كؤود المطلب
وعر الملتبس ، فإن أحنانا هذا الذي ترغب في مجيئه ، أصغر أولاد أبنينا الشيخ
وابن شيخوخته ، وقد اتخذته أكبر مُعزٍّ له بعد أخ له مفقود ، فالإتيان به إن لم
يكن متعذراً ، فهو متعسر ، فلو قلنا لك : لسنا هناك ، لأن الأمر ليس بيدنا ، بل
بيد أبيه الشيخ كنا صادقين ، وإن قلنا لك : « إذا أردت أن تطاع ، فمر بها
يستطاع » وإن هذا الأمر ليس الينا كنا معذورين ، ومع ذلك فقد أذنا لك
وسمعنا وأطعنا .

نأكد أيها العزيز انه لقد مضى علينا مدة تنيف عن العشرين سنة ، ونحن
في أمر أحنانا من أبنينا هذا على « الحياء الدقيق » لاذكلف أباه شيئاً مما يتعلق به ،
وذلك من جراء حادثة لشقيق له كان خرج معنا فهلك ، فلذلك من الصعب أن
نكلم فيه أباه بشيء ، ولا نستطيع أن نقصب منه اختياره أو نصادر حرته الشخصية
ولكننا سنتلطف معه برقيق العبارة ، ورشيق الحيلة ، فلعله ينزل على رغبتنا ،
رغمًا عن أنه سيكون في هذه المرة صعب المراس جداً .

أيها العزيز - إن المراودة هي في ذاتها هينة ، أهون علينا من قطع الخيط ،
ولكن الصعوبة والإشكال ، في قبول أبيه مشورتنا فإن نجحنا فذاك ، والافعذرة
منا اليك سلفاً ، وماتلك المعضلة سوى كلمة واحدة هي « العجز » فانا لاندرى
ماذا سيكون جواب أبيه ، أيرسله معنا أم لا ؟ فقد نُصَدِّقُ إن قلنا : لا ، وقد
نُصَدِّقُ إن قلنا : نعم ، فنحن سنبدأ والتمام على الله .

وكأني بيوسف قد ثنى على كلامهم بقوله : ها أنذا انتظر رجعتكم ، وأنجز
وعدكم ، فلنفترق على هذا الاتفاق ، أودعتم الله ، سافروا بسلام .

يوسف يأمر بإعادة ثمن الميرة لاختوته لضمان مجيء بنيامين

آ(٦٢) ﴿وَقَالَ لِفَتَيَانِهِ : اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ ، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ...﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثانية والستون فقام العلامة للتدمري^(١) وقال :

أشفق يوسف أن لا ترجع إخوته ، فانتدب بعضاً من غلمانه الكياليين ، أحضرهم (وقال لفتيانه) هؤلاء ، وبه أيها الغلمان أغفلوا هؤلاء القوم الكنعانيين ، و (اجعلوا) ضعوا (بضاعتهم) فضتهم (في رحالهم) عدالهم ، بحيث تحفونها عن عيونهم ، (لعلهم يعرفونها) يطلمون عليها (إذا انقلبوا) منصرفين (إلى أهلهم) في فلسطين متى فرغوا ظروفيهم ، (لعلهم يرجعون) إلينا ثانية .

ففعل غلمانه ما أمرهم به ، إذ كانوا أطوع إليه من ظله ، وكأني بيوسف قد أخذ يردد في نفسه قول القائل : « ليس من رسول كالدرهم » :

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله على غيره يُستغن عنه ويذم

ثم قال : لعلهم يرجعون إلينا بينيامين لأنه حجر الزاوية ، وهو المقصود من هذه الأعمال ، ولعلنا بذلك نفتح باب الحركة وندير المعركة في فلسطين ، ونحن جالسون هنا في « صوعن » فنخضد شوكتهم ، وينزلون شيئاً من شكيمتهم ونزقهم لعلهم يرجعون — فلنهم بواسطة ذلك يحبوننا ويثنون علينا عند أبيهم فنصل إلى غرضنا :

والناس أكبر من أن يمدحوا رجلاً حتى يروا عنده آثار إحسان
نعم لهم يرجعون — فسيكون لي ولهم شأن ، فإن هذا حادث له ما بعده ،
وإن مع اليوم غداً ، فإن لم يرجعوا فعلى بضاعتهم السلام .

ثم صار يوسف ينتظرهم بكل فروغ صبر ، ويردد في نفسه معنى قول الشاعر :

عسى الملك المحيب لمن دعاه يساعدني ويعلم كيف شكري ؟
فأجزي بالكرامة أهل ودي وأجزي بالعداوة أهل وتري

وهنا لا بد من التنبيه على المسائل التالية :

سعي يوسف بمجيء بنيامين بالقول والفعل

١ — ترى من هذا أن أمر رجوع اخوة يوسف بنيامين قد أصبح شغله
الشاغل ، حتى أنه لم يكتف بمافاه به أمامهم من الوعد والوعيد ، بل أتبعه بالعمل
الجدي ، والفعل الفوري ، الذي يرجو أن يكون الدافع الوحيد لرجوعهم
بنيامين ، والكفيل لنجاح مساعيه ، وإن هذه المنفعة المادية ، ستكون كجاذب
مغناطيسي لهؤلاء القوم « أبناء العم المحترمين ! ! » تقودهم الى الرجوع فوراً ، بلا
أدنى تردد ، لا سيما في أيام كهذه ، فإن « أبناء العم » هم الأمة الوحيدة ، في محبة
المنافع المادية ! ! كما هو معروف ومشاهد لهذا العهد ! !

المراد من كلمة « الفتيان »

٢ — الفتيان هنا بحسب اصطلاح المصريين ، الخول والخدم والجند والتبعة
والمستخدمون والكيالون .

ماذا اراد يوسف برد بضاعته اخوته البرهم

٣ — أراد يوسف عليه السلام بهذا العمل أن يحمل إخوته — متى رجعوا الى

فلسطين وعرفوا ما فعل يبضاعتهم — على حسن الظن به ، وإنه قد بلغ من الكرم والسماحة والجود حداً لم يبال معه أن يعطيهم ما طلبوا من الميرة بلا عوض ولا ثمن فيوسف أتى ذلك العمل ليجريء لإخوته على الرجوع وليعرفوا أنه محسن لا عدو وأنه يتوقع منه مالا يعلمون من الخير .

كيف جاز ليوسف التصرف بأموال الخزينة المصرية

٤ — سألتني سائل قائلاً : كيف جاز ليوسف عليه السلام أن يتصرف بأموال الخزينة المصرية مع أنه لم يكن سوى موظف يجب عليه أن يشتغل في مأموريته بأمانة ؟

فاجبته بقولي أولاً — لناظر بيت المال أن يصرف شيئاً من الخراج في سبيل المصالح العامة التي منها مساعدة الغرباء المحتاجين ، ولعل إخوة يوسف منهم .
وثانياً — كانت المساعدات التي أداها يوسف لمصر ، والخدمات التي خدم بها أهلها ، بمثابة خيرة تثبت له وجه التصرف في أموال الخزينة بما شاء وكيف أراد ، فانه لو كان مستأجراً على ذلك لاستحق الشيء الكثير من واردات سني الخصب .

ثالثاً — يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ ، وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ، وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ، وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ ، وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۖ ﴾ (٩ : ١٦) وربما كان إخوة يوسف فقراء أو مساكين ، ولا بنافيه أنهم أتوا للميرة على دواب لهم ، لأنهم كانوا يحتاجون للدواب للركوب عليها في روحاتهم وجيئاتهم ، لأنهم من الرحل ساكني الخيام ، فبي لهم نظير آلة الجهاد للمجاهد ، وكتب العلم للعالم ، وآلة الصناعة للصانع ، ودواب السفر لمن يعيش بالمسكارة ، والضرب في الأرض ، وكالسقينة للملاح ، قال تعالى على لسان العبد المصالح :

﴿أما السفينة﴾ فكانت لساكنين يعملون في البحر ﴿١٨ : ٨٠﴾ فهذه السفينة كانت ملكاً لهم ، وملكهم لها لم يخرجهم عن المسكنة ، لما عرفت من أن الآلات التي تقوم بها المعيشة مستثناة ، وربما يكون يوسف عليه السلام ، قد اعطاهم فضتهم وميرتهم لأنه اعتبرهم من « المؤلفين قلوبهم » أعني بذلك تأليف قلوبهم للرجوع بأخيه بنيامين ، كما قال « لعلهم يعرقونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون » هذا مذهب له واجتهاد منه ، لا يجوز لنا أن نمتز عليه فيه ، لاسيما وأن له شرعة ومنهاجاً غير شرعتنا ومنهاجنا ، والله أعلم . وههنا شيء دقيق ، وهو أنه يظهر من قرائن الاحوال أن يوسف عليه السلام كان متمتعاً بما يشبه الاستقلال الإداري ، فكان يتصرف فيما عهد به إليه تصرفاً مطلقاً ، زيادة عن بقية مأموري الدولة ، فكان يوسف متفوقاً على باقي وكلاء الملك ، لأنه كان هو « العزيز » ، القابض على ناصية المال ، وهو الوكيل الأعظم والصدر الأعلى .

وأما ما أجاب به فريق من المفسرين بما مرماه : (أن يوسف عليه السلام موحد يشتغل في أموال قوم وثنيين ، فيجوز له أن يأخذ منها ما وصلت إليه يده) فهو جواب غير صحيح ، لأنه إنما يجوز أكل مال الحربي في داره فالعقود الفاسدة التي لا تحل في دار الاسلام ، كالربا والبيع الفاسد ، والحادثة التي ههنا لم تتوفر فيها هذه القيود ، أولاً - لأن « الريان » ليس حريباً ليوسف ، ثانياً - ليس من عقد فاسد جرى بين يوسف والريان ، ثالثاً - إن يوسف عليه السلام ، وكيده عن الملك الريان « والوكيل مؤتمن » لاسيما وقد وضع فيه الريان ثقته وقال له : (إنك اليوم لدينا مكين أمين) فيجب أن يكون الريان أميناً لدى يوسف كما كان يوسف أميناً لديه ، كما هو مقتضى الشهامة والمروءة ، فافهم ذلك ولا تكن من الغافلين ..

معنى الرحال

هـ - كلمة « رحال » هنا هي التي سميت « متاعاً » في قوله تعالى ﴿ ولا تفتحوا

متاعهم ﴿ (ع ١٥) و «أوعية» في قوله بعد ﴿ فبدأ بأوعيتهم ﴾ (ع ٧٦) فالجميع بمعنى لفظ «المدال» الذي عبرت به التوراة، ويقال أيضاً «غرامة» و «جواني» و «كيس» جمعه أكياس، وهو ما عبرت به التوراة أيضاً في موضع آخر.

مقصد يوسف مما قاله لاختوته ومما فعله معهم

٦ — قال يوسف ما قال (ع ٥٩ و ٦٠) وفعل ما فعل (ع ٦٢) لكي يستعين بإرادة إخوته على إرادة أبيه، لأنه يعلم أنه يصعب على أبيه السماح لأخيه «بنيامين» السفر لمصر، ويوسف عليه السلام كان بإكرامه لهم، وجعله بضاعتهم في رحالهم كصائد رأى طيوراً لا يريد اصطيادها، لأنه لا يهواها، ولكنه رمى لها الحب على أمل أنها بعدما تأكله تطير وترجع بطير يريد ذلك الصائد اصطياده، لأنه يهواه، وما قال رأيه فيما فعل، فإنهم لما وجدوا بضاعتهم ردت إليهم، أكدوا على أبيهم بأخذ أخيه، فرضي بعدما كان قد امتنع، ورجعوا لمصر بذلك العصفور الجميل؛

إن العظيم عظيم في كل شيء، حتى في حيلته التي يجريها توصلًا لمرامه، فيوسف أراد أن يحضر إليه أخوه بنيامين، فتذرع بكل ما يقدر عليه من الذرائع، فذكّر، وبشّر، وأنذر، وحذر، ومؤخراً أرجع إليهم بضاعتهم، تشويقاً لهم في رجوعهم به إليه.

لماذا لم يخبر يوسف اخوته بحيلة الواقع في سفرهم الأولى

٧ — سألتني سائل: لماذا لم يخبر يوسف عليه السلام اخوته بحيلة الواقع ويرغب إليهم أن يذهبوا بقميصه في هذه السفرة الأولى، ليلقوه على وجه أبيه، تمجيلاً لارتداده بصيراً؟ ولم آخر يوسف عليه السلام هذا التوضيح والبيان

للسفرة الثالثة بعد اللتيّا والتي ، وبعد ما بلغت الروح التراق ، وقيل من راق ؟ وغبا بلغت القلوب الحناجر ، وبلغ السيل الزبي ؟ وهل يجوز للطبيب أن يؤخر عن المريض علاجه النافع ، لمدة يعاني فيها المريض أشد المشقة ، خصوصاً وهو يعلم أن هذا العلاج طب ساعة ، وهو الترياق المفيد توأ ؟

فأجبت بقولي : لعله خاف لو أخبر لإخوته منذ الآن ، ولم تكن قد تشذبت أخلاقهم ، ولم تحضد شوكتهم بعد ، أن يعملوا مكيدة يكيدون له بها ، فيحذق به الخطر ، ويتزعزع مركزه بمصر ، خصوصاً وهو كان متهاً بتلك الجريمة السيئة ، فلذلك أخر إظهار نفسه للسفرة الثالثة ، حتى تكون قد سكنت ثورتهم ، وهيض جناحهم ، وتشذبت أخلاقهم .

ثم قلت للسائل : وعندي جواب آخر ، وهو أن صاع قصاص ... لم يمتلىء بعد ، لأن العشرين ... في مقابلة العشرين ... الأولى ، لم تكمل بعد ، فيوسف عليه السلام ، لما افتركر أن يخبرهم بحليلة الواقع ، ويكشف نفسه لهم ، ويريد أن ... ، كان يسمع صوتاً من السماء يقول له : « لم يحن الوقت بعد يا يوسف » ، فيسكت ، ففي الحقيقة نحن نرى يوسف بعمله هذا مسخرأً للقدر العدل ، وآلة تديرها يد القدرة السماوية ، حتى يبلغ الكتاب أجله .

هذا ما ألهمنيه الله وفتح به علي ، فتدبره فلعلك أصغى ذهناً ، وأخلص قلباً ، وأنور معرفة ، ﴿ سبحانه لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم ﴾ (٢ : ٣٢) .

كنه البضاعة التي اشترى بها الاخوة ميرتهم

٨ — قوله « جعلوا بضاعتهم في رحالهم » ، اختلف المفسرون في كنه هذه البضاعة ، ومنسلط « الأشعة » على هذه البضاعة ، بحيث يستطيع القارئ أن

يكشف حقيقتها : يظهر من كلمة « بضاعة » أن الذي كان معهم هو من غير النقود المضروبة — ويدخل فيه الفضة غير المضروبة — لأن النقد المضروب لا يعبر عنه « ببضاعة » ، بل يعبر عنه بدينار أو بدرهم ، كما سبق في قوله : ﴿ وشروه بثمن بخس دراهم معدودة ﴾ والغالب على البلاد غير المتمدينة ، أن تكون المقايضة فيها بغير الدراهم المضروبة ، كبلاد فلسطين ، « وجاء بكم من البدو » (ع ١٠٠) ، كما أن الغالب على البلاد المتمدينة أن تكون المعاوضة فيها بالدراهم أو الدينار المضروبة ، كما في البلاد المصرية ، ولذلك اشترى يوسف في مصر بدراهم ، وأما إخوته ، فلكونهم من فلسطين غير المتمدينة ، فقد جاءوا لمصر يمترون ، لا بدراهم مضروبة ولكن بنوع من البضاعة ، ربما كان فضة غير مسكوكة أو نحوها مما قد يخفى وقد يظهر ، كما يشير إليه قول يوسف عليه السلام « لعلهم يعرفونها » ، فإن هذا التعبير ينم عن أن هذه البضاعة ليست من قبيل النعال والأدم ، كما ظنه أكثر المفسرين ، لأن هذا مما يعرف قطعاً ، فإذاً هذه البضاعة هي مما قد لا يعرف إذا وضع في الرحال ، فلذلك قلنا إن هذه « البضاعة » كانت من قبيل الفضة غير المضروبة ، والله تعالى أعلم .

٩ — يجوز أن يكون قوله « لعلهم يرجعون » بدل اشتال من قوله : « لعلهم يعرفونها » ، كما سبق لمولاي عبد الحفيظ التونسي في قول المندوب « لعلني أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون » (ع ٤٦) والله تعالى أعلم . (مرحى)

الاخوة يطلبون بنيامين من ابيه

آ (٦٣) ﴿... فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ ، قَالُوا : يَا أَبَانَا ، مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ ... فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانًا ، نَكْتَلْ ، وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ .﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثالثة والستون فقام الشيخ غانم الاربدي^(١) وقال :

قام إخوة يوسف ، من مصر ، وركبوا رحلهم يطوون البيداء ، الى كنعان بلادم ، (فلما رجعوا آيين من وجه الغرب الى وجه الشرق ثم الى وجه الشمال ، أعني من « صوعن » عاصمة المملكة المصرية المكسوسية ، الى « ميلون » قافلين (الى أبيهم) الشيخ الجليل وكان في انتظارهم على مثل الجمر ، فتتحفز ملاقاتهم ، فترجلوا ومشوا اليه ، وساموا عليه فباركهم وسر بقدمهم غير أنه تأملهم فرآهم على غير حالة سرور ، قال : مالكم ومالي أراكم مضطربين قلقين ؟ — (قالوا) وعليهم إمارات الحيرة والضيق : « (يا أبانا) لانكذب الله ، لقد رأينا في عزيز مصر رجلاً شهماً كريماً ، أنزلنا خير منزل ، وأوفى لنا الكيل ، وجهنا خير جهاز ، فصرنا بفضلله مجيزين بالدقيق والسويق ، وبالسقاء والماء ، وبعلف الدواب ، وبكل ما يلزم لنا في الاياب ، وما رأينا منه إلا كل مانح وتجب ، غير أنه قال لنا : (اتوني بأخ لكم من أيمكم) فكما دهشنا من إكرامه لنا على غير معرفة ، فقد دهشنا بنوع خاص حينما كلفنا بذلك واشترط في امتيارنا من مصر للمرة الثانية

(١) نسبة الى اربد من بلاد الشام (شرقي الاردن)

بحيئه معنا ، وتوعدنا إن لم نحضره معنا ، بدم الكيل ، بل بعدم رؤية وجهه ، وأنذرنا بالمقاطعة التامة ، الأمر المدهش الغريب الذي لم نقف له على سبب ، ولذلك وبناء على إنذاره ، ربما رجعنا اليك في المرة الثانية وقد (منع منا الكيل) لأن هذا الرجل يقول ويفعل ، ذا إرادة سنية ، ونقوذ لا يعارض ، ولا نظن أن هذا الرجل يزع عن مقالته (و) نقدم اليك بهذا الرجاء الحار (أرسل معنا) في المرة الثانية (أخانا) المحبوب « بنيامين » حسب اقتراحه ، فإنك إن أرسلته (نكتل) من القمح كما في الاول ، وإن لم ترسله خشينا أن تلفظنا مصر ، وخشينا من هذا الرجل أن يصدق القول بالفعل ، فإنه ذو سطوة ومراس ، ولا ندحة لنا عما يدعونا اليه من طاعته ، والإذعان لدولته ، وأنت في هذه المرة لاتخف على بنيامين ، فإننا عليه ساهرون (وإننا له لحافظون) من كل مايضيمه ، من أن يستطار ، أو يغتال ، أو يفترس ، أو يتيه ، الى غير ذلك ، والوعد على الحرّ دين . هكذا نفضوا لأبيهم جملة ماوقع لهم بمصر وجملة ما في ذهنهم . ويمكننا أن نستنج من ذلك النتائج التالية :

افهوه يوسف بين مطرقتين

١ — أصبح إخوة يوسف كآلة بين مطرقتين ، لا يدرون أيقومون بعهدهم « لعزير مصر » وبطلبون بنيامين من أبيه ، أم يسكتون عن طلب بنيامين لئلا يتكدر والدهم من طلبه ولئلا يتذكر يوسف فيتجدد همه عليه بعد أن كان خادماً؟ .. ثم إنهم رجحوا الشق الأول ، وهو طلب بنيامين أن يسافر معهم ، لأنهم لا يستغنون عن الرجوع لمصر ليمتاروا لأهلهم ، ولذلك قالوا : يا أبانا الخ .

فكرة سفر بنيامين

٢ — من ههنا ابتدأت فكرة سفر بنيامين تتمشى خطوة خطوة الى أن استقر

الامر على سفره فسافر ، وهذا ينتهي باتهاء (ع ٦٨) والذي وضع أساس هذه الفكرة هو يوسف عليه السلام بما عمله وبما قاله لإخوته (ع ٥٩ - ٦٢)

يعقوب يفكر فيما عمله « العزيز » مع اولاده

٣ — لا بد أن يعقوب عليه السلام ابتداءً يفكر فيما عمل « عزيز مصر » مع أولاده من تجهيزهم بجهازهم ، ومن إيفائه لهم الكيل ، ومن إزوالهم خير منزل ، ثم صار يفكر في هذا الطلب على غير معرفة ، وبدون سابقة داعية اليه ولا مناسبة ، فأوغل في تفكره ، وقال في نفسه : « لأمر ماجد قصير أنفه » والمستقبل كشف.

الشك بخامر نفس يعقوب

آ (٦٤) « قَالَ : هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ ؟ ! ؟ ! فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ » .

تليت الآية الرابعة والستون فقام الشيخ الكرملی وقال :

سمع يعقوب كلام أولاده فخامره فيه الشك ، ووقعت في نفسه من ذلك الطلب رهبة ، فأطرق برهة ، ثم رفع رأسه و (قال) مستهزأً : مثلكم من يوثق بوعده !!! (هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه) يوسف (من قبل) إذ كنتم منذ ٢٢ سنة قلتم في يوسف (وإنا له لحافظون) كما تقولونه الآن في بنيامين ، ثم ختم بضمانكم ، فما يؤمنني اليوم من مثل ذلك ؟ . وبعبارة أخرى : لا آمنكم على بنيامين في الذهاب إلا كأمني إياكم على يوسف الذي ضمنتم لي حفظه ثم ضيعتموه ، وهكذا حالكم اليوم ، تضمنون لي حفظ بنيامين ثم تضيعونه ، والزامر يموت وأصابه تلعب ، وللعادة حكم لا يقوى المرء على مغالبتها ، « قاله يرضى عليكم

خطوا بغير هذه المسلكة ، فلا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ، ومن جرب
المجرب حلت به الندامة ، وقد قيل : ويل أهون من ويلين ، وقالوا : ما وعظ
امرءاً كتجاربه ، وقالوا : ومن نهشته الحية خاف من الرش ، حقاً إني أخاف أن
تعيدوا الكرة ، أخاف أن يكون ذئب أخيه موجوداً بعد ، فترسلوه له أيضاً
ليأكله ، وما أسرع مجيئكم لي عندئذ على قميص بنيامين بدم كذب ، وأظنها تكون
القاضية عليّ ، فبالله عليكم دعونا من هذه الوعود التي جربناها ، وخبرنا نوعها
ودرجتها وعرفنا نصيبها من الصحة ، وبالله عليكم دعونا من ترداد جملة (وإنّا له
لحافظون) ، فإن هذه الجملة لا تزال ترن في أذني يوم نطقتم بها يوم أخذكم يوسف ،
وما رأيتم من حفظكم شيئاً ، فإن كنت أريد إرساله معكم (فالله خير حافظاً) (وهو
أرحم الراحمين) وكفى ، فأرجو أن لا يجمع عليّ مصيبتين ، ولكي لا أريد
ذلك أبداً . هذا مرمى الجواب السليبي الذي وجهه يعقوب لأولاده ، وما أتم هذا
الجواب إلا وقد شرق بالدموع السخينة .

وجملة (فالله خير حافظاً) تميز كقولك هو خيرهم رجالاً ، ولله درّه فارساً .

(قال هل آمنكم عليه)

— ٢ —

وقال شيخنا الكركي (١) :

جواب يعقوب لأولاده جواباً سليماً مندداً بهم وبوعودهم

سمع يعقوب اقتراح أولاده ، وقد تذكر حادثتهم مع يوسف التي تركت أثراً
سلباً في نفسه ، فتمعر وجهه واقشعر بدنه ، وخفق قلبه ، ونأى بجانبه ، ونظر

(١) سبة الى الكرك من بلاد الشام (شرقي الاردن) .

إليهم شزراً ، وابتدروهم بالدهشة والاستغراب ، وجاوبهم جواباً سليماً قائلاً :
لا يكون ذلك ، ولن يكون ، هل تريدون مني أن آمنكم على بنيامين إلا مثل
ما أمتكم على أخيه يوسف سابقاً وكانت النتيجة التي تعرفونها ، ألا يحق لي أن
أحسب لإرساله معكم ألف حساب وحساب ، فها أنا ذا شيخ ، قد حنكتني التجارب ،
وعركني الدهر وعركته ، فعرفت أن ليس لعودكم قيمة ، ولا أراكم إلا جماعة
متألمين عليّ لتفقدوني بنيامين ، كما أفقدتموني قبله يوسف ، أنتم الآن تمدوني
وتطمثوني ، ولكن حقاً إن صوت أعمالكم سابقاً ، يصم أذني عن سماع أقوالكم
وتصديق وعودكم ، ومن جرب الحرب حلت به الندامة ، يا أولادي كذبكم
نفوسكم ، إن تاريخكم الماضي محفوظ عندي ، لم أنسه ، ولا أريد أن أنساه ، بل
ولا أقدر على تناسييه ، راجعوا جريدة أعمالكم وانظروا ماذا كنتم عملتم في
يوسف ؟ ... فهل تريدون اليوم أن تضيفوا إلى تاريخ أعمالكم الماضية صفحة
أخرى ، من صفحات الأعمال الحزنة ؟ .. أما أنا فذلك ما لا أريد أن يكون ،
كفى ما كان حصل سابقاً ؛ يا أولادي ، إن الثقة لا تتولد في النفس لمجرد صدور
الوعد ، لا سيما وإن التجربة الماضية التي جرت في حادثة يوسف ، لم تترك في نفسي
أثراً من الثقة والاعتقاد ، لذلك ليس من الأمر الهين في هذه المرة قناعة نفسي
بصدق وعدكم ، وطمأنة قلبي بإرسال بنيامين لنصر معكم ، أنتم أخذتم يوسف
قبلاً ، لمعنى غنمنا ، وفي بلد قريب منا ، ضمن بلاد فلسطين ، التي أنا ساكن فيها ،
فلم يرجع إليّ ، فكيف اليوم أَرْضَى بأخذكم أخاه لمصر ، لمملكة أخرى ، يبتسأ
وبينها مراحل ؟ .. تقولون لي (وانا له لحافظون) ؟ .. قسم ضائع لا قيمة له ، ووعد
مكذوب ، فقد كنتم « وقعتم المعاهدة » على حفظ أخيه ، وسجلتم الخسار على
أنفسكم ان لم تسهروا على صيائه ، ولكنكم هتكتم حرمة تلك المعاهدة ، ورجعتم
عليها بالنقض ، فإذا هي لم تخرج عن حدود الكلام !!! أوآه ! لشدة ما يقبض

لذلك صدري ، ولبتاع له فؤادي ، فما هذه الخطة السراء التي تريدون أن تحملوني عليها؟..

تريدون أن تأخذوا بنيامين ؟

لا يتسنى لي أن أنعمكم عينا بهذه الطلبة ؛

تقولون لي (إننا له لحافظون) ؟

ما أشبه الليلة بالبارحة ، فقد رأيت جمجمة ، ولم أر طحنا ؛ بالله عليكم ، عرفوني ، هل أكون هذه المرة أسمعده خطأ ، وأرقى حالا ، وأهنا بالاً ، وأحمد عاقبة ؟ دعونا بالله من هذا الاقتراح ، المزهق للأرواح ؛

هيهاه هيهاه ، دعونا من هذا الطلب الخطر ، فإن شراً واحداً أهون من شرين ، حقاً إن وعدكم بحفظ بنيامين هو كوعدكم سابقاً بحفظ يوسف ، وعدان خلابان يخرجان من مصدر واحد ، هو المكر ، ومن ينبوع واحد هو الختل ؛ هذا ما يظن أن يعقوب عليه السلام أجاب به أولاده جبراً ؛ ثم لكافي به جعل يقول بينه وبين نفسه :

لئن أرسلته معهم لا يكونن رجل في فلسطين أعظم مني لوعة ، أنا كلما ذكرت يوسف وجدت في وجه أخيه العزاء عنه ، فمن لي بالعزاء عنها إن فقدت وجهها معاً ؟ .. بنيامين هو صورة يوسف الباقية عندي ، هو رسمه التذكاري ، هو رائحة تلك الوردة الذابلة ، هو الممثل الوحيد لذلك الولد الفقيد ، هو البقية الباقية من آثار « راحيل » ، هو المعزي عن أمه وأخيه ، فمن لي بجزء سواه إن فقدته؟ ..

قال هل آمنكم عليه

— ٣ —

وقال الشيخ الطيفي^(١) : لي ههنا ذيول :

موقف يعقوب مع ابنائه في طلبهم بنيامين

للذيل الأول — هذا الموقف الذي وقفه يعقوب ههنا مع أولاده موقف سلمي

(١) نسبة الى الطفيلة من بلاد الشام (شرقي الاردن)

خلاقاً للزخشري ومن تبعه من المفسرين ، فهو بقي مقيماً على المخالفة ، مصرأ على الإلباء ، غير واقف معهم موقف إيجابي ، إلا بعد مذكروا عدة محسنات ، وبعد ما أتوه موثقاً (ع ٦٥ و ٦٦) ، وأما قول يعقوب (قائلة خير حافظاً الخ) فمعناه إن أردت أن أرسله معكم ، فلا أعتد على حفظكم له ، قالة خير حافظاً الخ ، ولكني لا أريد .

عمر بنيامين عند ما طلبه اخوته من ابيهم

الذيل الثاني — ربما يتوهم بعض القارئ من قول إخوة يوسف (وإننا له لحافظون) وقول أبيهم (هل آمنكم عليه إلا كما أمتكم . . الخ) ثم قولهم (ونحفظ أخانا) وقول أبيهم (لن أرسله معكم حتى . . الخ) — ربما يتوهم متوهم من مجموع هذه الأقوال المتبادلة أن بنيامين كان صغير السن ، بحيث يخاف عليه إذا سافر ، وليس هذا التوهم في محله ، والآيات الكريمة لا توهم شيئاً من ذلك ، كيف وقد كان عمر بنيامين حينما فارقه يوسف سبع سنين ، ثم مضى على يوسف بمصر ٢٣ سنة ، ثم افتكر يوسف في طلبه عنده ، وعند ذلك دارت هذه المحاورات والمقاولات بين يعقوب وأبنائه .

نعلم من التاريخ أن بنيامين كان وقتما ذهب لصر ابن نحو ثلاثين سنة ، كما في السنن القويم « وقد ورد أنه كان له حينما دخل مصر خمسة بنين صلبية ، على رواية سفر العدد (٢٦ : ٣ — ٤٠) ، أو كان إذ ذاك عشرة بنين على رواية سفر التكوين (٢٠) ، وعليه فلم يكن « بنيامين » حين هبوطه لمصر صغيراً وبالتالي لم يكن خوف أبيه عليه لذلك ، وإنما أبوه كان يخاف عليه من مجموع إخوته العشرة أن يتواطأوا عليه ، كما سبق أنهم تواطأوا على أخيه ، فالخوف عليه ليس من واحد أو اثنين مثلاً ، وليس من ذئب أو نحوه ، حتى يصح هذا التوهم ، ولكن الخوف من رجال عشرة يعدون « عصابة » ورهطاً ، قد عهد منهم سابقاً ،

ما يحمل على الخوف الآن ، وإن السبب الذي دفعهم للإيقاع بيوسف — وهو زيادة حب والده له أكثر من حبه لهم — متحقق في بنيامين ، كما كانوا قالوا منذ ٢٣ سنة : (ليوسف وأخوه ، أحب الى أئبنا منا) ، لاسيما وقد صاروا بعملهم السابق من أهل الضراوة والمادة تثبت بجرة ، ولكل امرء من دهره ماتعود ، ومما ريد يجرئهم (بنوع خاص) ان أباهم لم يعاقبهم ، ولم يجازهم على إيقاعهم بيوسف شيئاً ما فلهدا أو جس منهم خيفة وأجابهم بذاك الجواب السلي .

هكذا ماتيسر لنا الآن تحقيقه ، قد ألقيناه عفواً بين يديك فاحفظه والا فالسلام عليك .

الفائدة من قص القرآن المقاولات بين يعقوب وأولاده

الذيل الثالث — قص الله علينا مآذارهنا من المقاولات بين يعقوب عليه السلام وأولاده ، لكي يكشف لنا بعض غرائز بني إسرائيل ، كيف لم يأتهم أبوهم على أخيه الأصغر ، حيث سبق أنهم خافوا الأمانة لما ذهبوا بأخيه الصغير قاس أبوهم حادثة بنيامين التي ربا تقع على حادثة يوسف التي وقعت فعلا ، وقص الله علينا ذلك ، لنقيس نحن حاضر أحوال سلائلهم (أبناء العم المكرمين !!) ، على ماضيه ، ولنكون على حذر تام من يهود اليوم ، وإذا كان النبي ﷺ قال : « احترسوا من الناس بسوء الظن » كما رواه الطبراني في الأوسط وابن عدي والعسكري من حديث أنس ، فينبغي أن تكون اليهود من أول هؤلاء الناس . ، خصوصاً الصهيونيين منهم ، عافانا الله تعالى من شرورهم .

أولى الامور بالنجاح التكرار والالحاح أو

اتخاذ أبناء يعقوب رد بضاعتهم اليهم حجة لالحاح في طلب اخبرهم بنباين

آ(٦٥) * ... وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ . وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ
رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ، قَالُوا : يَا أَبَانَا ، مَا نَبْغِي ؟ ! هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ
إِلَيْنَا ... وَغَيْرُ أَهْلَانَا ، وَنَحْفَظُ أَخَانَنَا ، وَنَزِدَادُ كَيْلٍ
بَعِيرٌ ، ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِرُّ

افتتحت الجلسة وتليت الآية الخامسة والتون فقام الشيخ العقي^(١) وقال:

كان يعقوب عليه السلام أجاب أولاده بجوابه السلي السابق ، فاتخذوه تعنيفاً
لهم ، ومن قبيل التكذيب لإخبارهم ، وعلموا أن أباهم لا يزال مقيماً على المخالفة ،
مصرأ على الإباء ، فانتشر عليهم رأيهم ، ولما لم يعرفوا ماذا يجيبون ، وضاعت عليهم
أرض فلسطين بما رحبت ، وما هي إلا غمضة وانتباهة ، ان قاموا لفتح جواتهم
(ولما فتحوا متاعهم) عيالهم (وجدوا بضاعتهم) وهي الفضة غير المسكوكة
(ردت اليهم) فما وقفوا على تلك البضاعة حتى فرحوا بها ، واعتنقوها باليمين
والشمال ، لأنهم وجدوها تساعدهم على مطلوبهم ، وتصديق كلامهم ، فتقووا وتشجعوا
في طلب أخيههم ككرة أخرى ، وظنوا أنهم بهذا السبب يستطيعون أن يتسلطوا على
أفكار أبيهم ويقنعوه (قالوا) بنعمة المحتج الظافر بما يبرهن صحة كلامه : (يا أبانا)
المعظم لسنا اليوم كما تظن فينا ، لقد رأينا ما يصدق قولنا ، فنحن (مانبي) أي

(١) نسبة الى بلدة العقبة من بلاد الشام (شرق الاردن)

لسنا نزيد فيما وصفنا لك من إحسان « العزيز » ولا نكذب فيما حكيناه من إكرامه لنا ، فإننا نحمل شهادة الصدق فيما نخبر ، نحن قلنا لك الصدق فلا تستغشنا ، هأنذا الغامض قد انكشف ، وأبدت الرغبة عن الصريح (هذه بضاعتنا ردت إلينا) كما ترى بعينك ، الأمر الذي لم تتحرك به خواطرنا ، ولا علق بأوهامنا ، وهذا مصداق ما قلنا : إننا رأينا في « عزيز مصر » شهياً هاماً جواداً رحب الصدر عالي الجنب ، والآآن برد تلك البضاعة إلينا ، يصير لنا دالة عظيمة على هذا الرجل ، فهذه فرصة يجب أن تفرص ، ونفحة من النفحات ينبغي أن نتعرض لها ، فلا يجوز لنا أن نضيع الفرصة عبثاً ، ونحن علينا الحركة ، وعلى الله البركة ، ولا ننظر الرجل ردها في عدالتنا إلا قصداً ، بداعي الكرم والجود الذي طبع عليه ، فكأنه لم يبعنا الميرة بيعاً ، بل وهبنا إياها هبة ، أحسن الله إليه ، كما أحسن إلينا ، فلا ريب أن هذا العزيز فياض معطاء ، رحب الذراع ، واسع القناع ، فنستظهر بها عند رجوعنا إليه ، (غير أهلنا) الذين هم في لولاء ولأواء ، وأزمة وبأساء ، أي نجلب لهم الميرة والطعام ، لأن امتيارنا بدون وجود بنيامين معنا ، سيكون أعقد من ذنب الضب (ونحفظ أخانا) بنيامين ، ومن آداه منا يكون دمه على رأسه ، نحفظه من كل يد تتقدم إليه ، ولو رقصت الرماح ، ورخصت الأرواح ، فلا تمسه يد صالحة أو أثيمة ، وأما حادثة يوسف « المرحوم » في « بيضة الديك » أي من الشواذ والنوادر ، فلا يقاس عليها غيرها (ونزداد كيل بئر) أي جمل لأن الرجل لا يعطى أكثر من حمل جمل للتقسيط ، فإرسال أخينا معنا أربح لنا وأجدى علينا ، ولسنا في غنية عن السعي في هذه الزيادة ، ولماذا يقعد أخونا عن السعي ، وقد أمر الله به ؟ وإن كل فم واحد يخلق في هذا العالم ، يخلق معه يدان اثنتان ، فإن لم ينتج الإنسان يديه الاثنتين ضعف ما يستهلكه فمه ، فعلى الأقل يجب أن ينتج مقدار ما يأكله ، لاسيما وأخونا ذو أهل وأولاد (ذلك كيل يسير)

أي أن مايكال لنا قليل لا يقوم بأودنا ، فتريد أن نضم اليه مايكال لأختنا ، والتمرة الى التمرة تمر ، ومع ذلك فالأمر راجع اليك ، فأنت خير ، فإذا وافقتنا شكرناك ، وإذا خالفتنا أطمناك وعذرناك ، هذا هو الرأي الحازم الذي نراه الآن ، فما قولك ؟ .. قالوا ذلك وهم يتضرعون الى الله أن يغير قلب أبيهم ، ويلهمه السماح لهم بطلبتهم ، وهكذا لم يزالوا يجادلون أباهم جدال طلب ، وهو يجادلهم جدال امتناع ، ولكنهم أظهروا من ضعفهم مع أبيهم قوة ، أثروا عليه بهما ، وأولى الامور بالنجاح التكرار واللاحاح ، كما كانوا أثروا عليه حيناً أرادوا أخذ يوسف منذ ٢٣ سنة ، لكن نيتهم في هذه المرة كانت صالحة ، وبالنتيجة وأخيراً : اجتهد إخوة بنيامين حتى أخرجوا أباهم وأغارهم أذنأ صاعية ، واستنم لسكلامهم ، وركن اليهم ، وغلب على أمره ، وسمح بإفناذ بنيامين معهم ، لكن بشروط سلك فيها معهم سبيل الاحتياط .

(ولما فتحوا متاعهم . الخ)

— ١ —

وقال الأديب الزحلي (١) :

« ما » استفهامية في قوله ما ينبغي

إني أضمر صوتي لصوت أخي الشيخ العقي وأصادق على كل ما قال ، إلا أني أخالفه في كون « ما » في قوله (ما ينبغي) نافية ؛ بل أقول إنها استفهامية ، بمعنى أي شيء نطلب وراء هذا الإحسان ؟ أي ماذا نطلب وزوم ؟ وما هو الأمر الذي نحاوله وتتوخاه فوق ذلك ؟ ... وإنما رجحنا أنها للاستفهام لقراءة ابن مسعود : ما ينبغي ؟ بالتاء على مخاطبة يعقوب عليه السلام ، بمعنى أي شيء نطلب وتريد فوق هذا الجود والعطف .

(١) نسبة الى بلدة زحلة في لبنان .

وبعد ، فنندي عدا عما ذكرت عدة فوائد على هذه الآية الكريمة :

اغراء الاخوة لأبيهم بأربعة أشياء

الفائدة الأولى — يريدون بقولهم لأبيهم : « هذه بضاعتنا .. الخ » ان هذه أمور أربعة استفدناها ونستفيدها بعودتنا الى مصر مع أخينا بنيامين وهي : رد العزيز بضاعتنا اليها في المرة السابقة وربما ردها في المرة اللاحقة والامتيار ثانية وحفظ أخينا إذا أخذناه ثم أخذ ميرة بعير باسمه ، وكلها ذات بال ، تهون عليك النزول على مانرجوه منك ، ونمرضه عليك من إرسال أخينا معنا ، فأخبرنا بالذي اجتمع عليه رأيك.

نجاح حيلة يوسف في طلب بنيامين

الفائدة الثانية — قولهم : « هذه بضاعتنا .. الخ » وبذلك تمت حيلة يوسف على إخوته ، بل وعلى أبيه ، فقد كان لهم فيما أتاه معهم من الجليل والمكرمة حجة بالغة على أبيهم حينما طلبوا منه أن يرسل معهم أخاهم في سبيل الميرة بعد تلك الكرة.

معنى الميرة

الفائدة الثالثة يقال : مار يعير من المسيرة ، وهي الطعام ، وفي معناه ماد يبيد ومنه المائدة ، أي الطعمة ، وكما يقال لها « ميرة » يقال لها « غيرة » كما في القاموس ..

معنى البعير

الفائدة الرابعة — كما يطلق « البعير » على الجمل وهو المشهور ، يطلق أيضاً على الحمار ، وقد نقل ابن جرير عن مجاهد أن البعير هنا هو الحمار ، وسيأتي لهنا البحث تنمة عند تفسير (آ ٧٠).

معنى المتاع

الفائدة الخامسة — « المتاع » الأوعية بما فيها الميرة والطعام ، ومطلق إناء يقال له « متاع » قال تعالى: ﴿ وما يوقدون عليه في النار ، ابتغاء حلية أو متاع ﴾ (١٣ : ١٩) ، والمتاع ما يتمتع به ، أي ينتفع به زمناً ممتداً في الجملة ، لأنه من « المتوع » وهو الامتداد ، يقال : مَتَعَ النهار ، ومتع النبات ، إذا ارتفع وامتد « وما الحياة الدنيا إلا مَتَاعُ الغُرور » (٣ : ١٨٥) .

قلب المؤمن دليلاً أو

استراط يعقوب على اولاده لارسال بنيامين معهم أن يعاهدوه على ارجاعه

آ (٦٦) ﴿ ... قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ لَتَأْتُنِّي بِهِ ، إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ ... ، فَلَمَّا أَتَوْهُ مَوْثِقَتِهِمْ ، قَالَ : اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ . ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية السادسة والستون فقام جمال بك العكاري (١) وقال :

أيها السادة تلك المقابلة التي دارت بين يعقوب عليه السلام وأولاده العشرة ، بين جزر ومد ، ورعبة ورهبة ، وطلب وإباء ، وأخيراً : كأي يعقوب قال لهم : « لا تطلبوا مني بنيامين ، فما أنا بشقي مارأيت ولدي بجاني ، وما أنتم بأشقياء ماقتنم بها يحمله كل واحد منكم » الغيرة » ، لا يزيد زيادة على ماتمارون بحسب عددكم ،

(١) نسبة الى عكار من بلاد الشام (لبنان)

— سمعوا منه ذلك ، وكأني بهم قالوا : « لم نسألك إرسال أخينا معنا ، إلا ونحن نتوقع أن نسمع منك عين هذا الجواب السلي ، ولكننا لانرى ندحة عن إرسال بنيامين إذا كان لك ولنا فكر في الرجوع »

وبما ذكر من المقاولات والمخاورات قدروا على أن يقنعوا والدهم بلزوم أو باستحسان إرسال بنيامين معهم ، ولا ريب أن الإقناع يولد الميل في نفس السامع ، ولهذا تطور فكر أبيهم تطوراً جديداً ، وافتكر بإرساله بشرط ؛

نعم نعم ، إن يعقوب عليه السلام رأى المناقشة حامية ، ودرجة حرارة الجدل مرتفعة ، فثنى مع ذلك محتفظاً باشتراطه عليهم أن يحلفوا له ويهدوه بارجاعه له سالماً ففعلوا .

هذا ما ذكره دخولاً على قوله تعالى (قال) لهم أبوهم : قد أوليتكم ما توليتهم ، لكنني أنا اليوم قد صرت ممن يطلبون إيضاح الخطة قبل الدخول في المعركة ، فقد كنت تساهلت نوعاً عند إرسال يوسف معهم ، منذ ٢٣ سنة ، والآن لا أريد أن أعيد كرة هذا التساهل ، ولذلك ولكوفي أرى الخطر يتهددني (لن أرسله معكم) ولا فواقاً (حتى) تضعوا أيديكم في يدي (تؤتون موثقاً) أي تعطوني ميثاقاً^(١) أتوثق به (من) جهة (الله) عز وجل ، وهو الحلف به بأن تتحملوا مسؤوليته : لَتَحْمُنَّهُ وَلَتَدْفَعُنَّ عَنْهُ و (لتأنتني به) فإن رجعت بأخيكم سالماً ، كنت راضياً عنكم ، وإن كانت الأخرى - لاسمح الله - سخطت عليكم ، وقوله « لتأنتني » جواب اليمين لأن المعنى حتى تحلفوا لتأنتني به ، أي لا تمتنعون عن الإتيان به في حال من الأحوال العارضة ولعله من اللعل - (إلا) لعله واحدة ، وهي (أن يحاط بكم) أي إلا أن تغلبوا فلا تطيقوا الإتيان به ، أو إلا أن تهلكوا ، فهل تفوا لي هذه المرة بما تقولون ، ولي عليكم بذلك العهد والميثاق ، ماذا

(١) اصل الميثاق في اللغة عقد يتأكد يمين .

ترون؟ — فقالوا له: تأمر وتطاع، حسناً، ليكن كما تريد، فلك علينا العهد والميثاق أن نَقِيَّ لك، وأن نرد إليك ابنك، فو الذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، لنأتينك به، إلا أن يمنعنا قدر واقع، ماله من دافع، وإنا غوت بموته ونحيا بحياته، لك ذمة الأُلوه يَهُوَّة، وذمة أبراهام وإسحاق وذمتنا على ما أحببت، نحلف بأمره، لا يعترض أحد بيننا وبين احتفاظنا بأخينا بنيامين، إلا أهرقنا دمه، ومشينا على جثته، ما كان لنا به قوة، ولن يصل إليه أحد، إلا بعد أن نكون جثثاً باردة هامة بين يديه، ولسوف نرجع به إليك، وهو على أحسن ما يكون من العافية، اللهم إلا إذا قاومنا ما يجعل قوتنا ضعفاً وقدرتنا عجزاً، فمعذرة عندئذ منا إلى الله واليك.

وهكذا أقسموا لأبيهم بالله جهد أيمانهم، وحلفوا له بكل مُحَرَّجَةٍ (١) من الايمان أن يرجعوه له، وأن يحتفظوا به كما يحتفظون بأنفسهم، ويذبوا عنه كما يذبون عن حياتهم، وأعدوا لذلك الموثقُ عدته من شجاعة النفس، وقوة العزيمة والإخلاص القلبي، وهكذا أَرَهَقَهُمْ أبُوهم صعوداً بما حملهم من الشرط الثقيل، والميثاق الشديد (فلما أتوه موثقهم)، وأنس منهم صدقاً لم يعهده قبلُ منهم (قال الله) وأشار بأصبعه ونظره إلى السماء (على ما نقول) من طلبي الموثق منكم، واعطائكم لي هذا الذي طلبتُ (وكيل) مطلع رقيب، لا تخفى عليه منه خاية فهو المعاقب لمن خاس في عهده، وجفر في الحلف به، أو موكل اليه القيام بما شهد عليه منا، فيسجل التاريخ عليكم ذلك، وتحفظه عليكم الملائكة، ومستكون هذه المعاهدة والمواثقة تحت مراقبة الإله الحق، سبحانه وتعالى.

وهذا الذي حصل، حصل السباح من يعقوب عليه السلام بسفر ولده بنيامين،

(١) الايمان المحرجة: التي تصيق مجال الحلف وهي بتشديد الراء من حرج وبدون تشديد من اخرج.

فكانما هذا « الموثق » هو « جواز سفرهم » لمصر بأخيه بنيامين والله تعالى أعلم

(قال : لن ارسله معكم . . الخ)

— ٢ —

وقال السيد احمد الصفي^(١) : يمكننا ايها المستمعون الكرام ان نعلق على هذه الآية بالتعليقات الآتية :

الاحتياط والتحفظ لزمانه بجانب المقدّر

١— كان يعقوب عليه السلام ، استرسل استرسالاً في شأن يوسف وإنفاذه معهم سابقاً ، وسمح بذهابه للمرعى دون شرط ولا قيد ، فرآى من سوء المغبة ، فهاهنا لما شعر بذلك التساهل احتاط في أمر بنيامين ، ومع ذلك ما أغنى عنه ذلك شيئاً فتعلم من هذا أن المقدّر كائن لاحالة ، كما تعلم أنه على كل حال ينبغي لنا الاحتياط والتحفظ ، أخذاً بأسباب السلامة ما أمكن .

وجوه سماح يعقوب بإنفاذ بنيامين مع اقربائه

٢— سمح يعقوب بإنفاذ بنيامين معهم وقد شاهد ما شاهد ، وجرب ما جرب لوجوه : أولها استيثاقه باليمين المحرّجة التي حلفوها له ، وعلى الأخص لما شخص بيسره نحوه وجعل ينظر الى مسحهم ويتأمل في أقوالهم ويتفرس في حركاتهم . وسكنتاتهم ، فرآى الاخلاص ظاهراً متجلياً في كل كلمة من كلامهم ، ورآهم يومئذ للصدق أقرب ، فجفع لموافقتهم إنما بتعديل .

ثانيها إنهم كانوا تقدموا في السن ، وذهب عنهم نزع الشباب ، ثالثها أنه ليس بينهم وبين بنيامين من الحسد والعداء مثل ما كان بينهم وبين يوسف .

(١) نسبة الى صفد من بلاد الشام (فلسطين)

رابعها ضرورة القحط أحوجته وسهلت عليه ذلك .

الحالف بالله مالف على حساب الله

(٣) — قوله : ﴿ موثقاً من الله ﴾ جملة منه تعالى لأن من حلف بالله ، كان كأنه قد كفى الله على نفسه ، كما قال جل من قائل : ﴿ ولا تنقضوا الإيمان بمدّ توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً ﴾ (١٦ : ٩١) « ولما كان الكفيل كالأصيل ، صار المتعهد كأنه هو الله ، فالحالف بالله فهو حالف على حساب الله ، ومتعهد باسم الله ، فكان الحالف يقول : « إني أتعهد ليس باسمي ، بل باسم إلهي » ، وعلى الأقل كأنه يقول : « إني أتعهد وأجعل الله كفيلاً لي على هذا التعهد » ، والدليل على ذلك أنني أتقدم وأحلف باسمه تعالى ، « هذا هو وجه قول يعقوب عليه السلام ، إن الموثق الذي ترابط عليه الناس هو عند الحالف باسم الله — من الله ، هذا ما ألهمني المولى الكريم ، فتح الله على من تلقاه بقلب سليم .

عسى يعقوب بما سيبري لا وورده قبل أو أنه

(٤) يقول يعقوب عليه السلام « إلا أن يحاط بكم » ، فسبحان الملهم ، وجل المنطق ، كان يعقوب يرى ويحدّثه قلبه بشيء سيلاقونه ، ويحقق بهم ، ولكنه بجمل عنده لم يتعين في نظره ، فكان يتخوف منه كثيراً ، وكأني به أنه كان يتخيل كرباً شديداً يقيق بأولاده ، وربما يكون ذلك جيشاً يحيط بهم في سفرتهم هذه ، يرون منه يوماً عصيباً ومن الغريب أن هذا الخيال ، قد فسره الحادث الذي وقع ، فقد أحاط بهم عزيز مصر وفتياناه الذين عملوا عليهم الحيلة ، وأرهقهم بها ، وبواسطتها كان إمساك بنيامين بمصر ، وقلما نرى حادثاً مهماً لم تتقدمه الهواجس .

وجوب التعلم من دروس الماضي

(٥) — للماضي دروس تعلم الإنسان أموراً لم يكن في البال أن يتمسك بها .

هو بهذه الدروس يدرس ما في جملة الدهر من خفايا وأسرار ، فيحرص على اجتناب كل مضر منها ، وتقدير كل نافع مفيد ، وترانا لانذهب بعيداً للاستدلال على صحة ما نقول ، فهذا صفي الله إسرائيل (١) هو اليوم غيره ، قبل ٢٢ سنة . ومن ينكر أن هذا الصفي الكريم كان قبل ٢٢ سنة ، قد استرسل مع أولاده ، لحسن ظنه فيهم ، حتى جاؤوه وأثروا عليه ذلك التأثير المغناطيسي ، وسحبوا ولده المحبوب — يوسف — من حضنه ، وأسلموه لحضن الحب ؟... لا يستطيع أحد أن ينكر هذه الحقيقة أبداً ، كان أبوهم أمس هكذا ، ولكنه اليوم بخافهم ، كما يخاف الثعالب والثعالي ، فهو بين أمس واليوم قد تغير فكره في أولاده ، وشرع يسلك معهم سبيل الحيلة ، فلذلك لم يرد أن يلي طلبتهم ، بأخذهم بنيامين لمصر ، إلا بعد الالتيا والتي ، وبعد استيثاقه منهم بالايان المرحجة ، فهكذا ينبغي لنا نحن أن نكون مع الناس المشتبه فيهم ، لاسيما سلائل هؤلاء الآباء ، أعني يهود اليوم . « أبناء العم المحترمين » !!..

معنى الاحاطة بالشئ

(٦) — قوله ﴿إلا أن يحاط بكم﴾ .. يحتمل أن معناه إلا أن يحاط بكم من من أولي الصهيل والصليل ، وتلتف حولكم أهل السلاح والكراع ، وتلتقي حلقتنا البطان ، فتغلبكم أعداؤكم ، ولا تقدرّون على الدفاع عنه ، فيصادر منكم مصادرة . فلا تقدرّون على الإتيان به ، ومنه قوله تعالى : ﴿لَمَّا أَتَيْنَا نَارَ آحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ (٢٩: ١٨) وقوله تعالى : ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ (٢١: ٤٨) ، ويحتمل أن معنى «إلا أن يحاط بكم» .. إلا أن تهلكوا في سبيل الدفاع عنه ، وتنشب بكم أظفار العدو ، وتعلق بكم مخالبه ، وتقتلون في

(١) كناية عن سيدنا يعقوب عليه السلام .

الذب عن حياته ، وترتطموا في مهاوي المتالف ، كما في قوله تعالى : ﴿ وجاءهم الموج من كل مكان ، وظنّوا أنهم أحيط بهم ﴾ (٢٢:١٠) أي أهلكوا ، جعل إحاطة العدو بالحى مثلاً في الهلاك ، وكذا قوله تعالى : ﴿ وأحيط بثمره فأصبح يُقَلَّبُ على كفيّنه على ما أنفقَ فيها وهي خاوية على عروشها ﴾ (٤٣:١٨) فالإحاطة هنا عبارة عن الإهلاك ، وقوله تعالى : ﴿ وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس ﴾ (٦٠:١٧) أي أهلكهم وهم المشركون من قريش في غزوة بدر ، كان أخبره بذلك سلفاً قبل وقوعه ، وقوله تعالى : ﴿ بلى من كَسَبَ سيئةً وأحاطت به خطيئته ، فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ (٨١:٢) أي أهلكته .

وعد رأوين ويهوذا لأبيهما باعادة بنيامين اليه

(٧) — ورد في سفر التكوين ، أن « رأوين » كلم أباه وقال له : « اقتل ابني إن لم أجيء به إليك ، سلمه ليدي وأنا أردّه ليدك » (تك ٣٧:٤٢) ولم يكن « رأوين » يعتقد أن يعقوب يقتل حفيديه حاشا ، بل قال ذلك تأكيداً له انه لا يكون على بنيامين أدنى خطر ، وأن « يهوذا » قال لأبيه « أرسل الغلام معي لنقوم ونذهب ونحيا ولا نغوت نحن وأنت وأولادنا جميعاً ، أنا أضمنه ، من يدي تطلبه ، أنا إن لم أجيء به إليك وأوقفه قدامك أصر مذنباً إليك كل الأيام ، (تك ٤٣:٩٨) .

نصيح يعقوب لاولاده عند دخولهم مصر في المرة الثانية

آ (٦٧) ﴿... وقال : يَا بَنِيَّ ، لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ ،
وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ . وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ
شَيْءٍ ، إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ، وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية السابعة والستون فقام الشيخ اسماعيل
الصيداوي ^(١) وقال :

أعد أبناء يعقوب بما فيهم بنيامين معدات السفر وتجهزوا الرحيل فأخذ
أبوهم في نصيحهم (وقال) لهم بلهجة المشفق : (يَا بَنِيَّ) الأحد عشر ، لاتنسوا أن
« العين حق » واني أخاف عليكم عين الحاسد ، إذا عمل بمقتضى حسده ، وعين
الظالم ، متى جرى على طبيعة ظلمه ، وعين السارق والمفسد والواشي ، ولاتقفلوا عن
« ان العين لتدخل الرجل القبر ، والجل القدر » ، ولا أظنكم نسيتم ماجرى لكم
عند دخولكم مصر في سفر تكم الأولى ، من لفت نظر الناس ورجال العزيز عليكم
لدخولكم مجتمعين ، لذا حينما تصلون في هذه السفرة الى مصر أوصيكم أن (لاتدخلوا)
كوكبة واحدة (من باب واحد) من أبوابها الأربع ، لئلا تكونوا موضع التفات
الناس ، كما كنتم في السفرة الأولى ، مظنة لطموح الأبصار اليكم من بين الوفود
(و) لكن (ادخلوا) « الفرما » التي هي أول حصن في طريقكم لمصر (من أبواب)
« كانت لها أربعة أو أكثر » (متفرقة) ومتباعدة عن بعضها البعض ، وذلك

احوط لكم ، تحاشياً من ضرر شرطة مصر ، وتقادياً من اعين كل اهل السوء (و) مع ذلك ، فانا (ما) لست (اغني) ادفع (عنكم من) امر (الله) تعالى (من شيء) .. حاشا .. فإنه تعالى يجري الأمور بنظام ، تأتي فيه المسببات على قدر الأسباب ، (إن) ليس (الحكم) والقضاء الفعلي (إلا الله) الذي يده المستقبل (عليه توكلت) بعد مراعاتي سنته (وعليه فليتوكل المتوكلون) وليس احد في سعة عن الاتكال عليه ، وخاصة اتم فإنكم غرباء ، والغريب اعمى ، ولو كان بصيراً .

ملحوظة — لا بد انكم ايها السادة تنبهتم لتفسير الآثار الواردة في «العَيْن» وضررها ، الذي حشوته في كلامي حشو اللوز في الفالودج ، وقريب من هذا تأويل فريق من العلماء لقول : «إن يكن الشؤم في ثلاث : في المرأة والدار والفرس» وبعضهم يزيد : «والخادم» فقد اولوا ذلك بأن شؤم المرأة سلاطة لسانها وتعرضها للريب ونشوزها وعقمها وتبرجها ، وشؤم الدار ضيقها وعدم جريان الهواء فيها ، ورطوبتها ، وشؤم الفرس حراستها وغلاء ثمنها ، وشؤم الخادم سوء خلقه وخيائته وكسله وقلة تمده لما فوض اليه وجهله بما يشتره وجهله بتدبير المنزل .

(وقال : يا بني لاتدخلوا .. الخ)

— ٢ —

وقالت الشيخة فاطمة الصيداوية :

استعدوا أبناء يعقوب الايام عشر للسفر ونصح ابيهم لهم

لما سمع يعقوب عليه السلام بإنفاذ بنيامين مع إخوته الى مصر فرحوا فرحاً شديداً واخذوا يعدون العدة للسفر وقبل الرحيل بقليل قصدوا خيمة ابيهم

لوداعه ، فلما مثلوا بين يديه وقف بينهم مرشداً وناصحاً إذ قال لهم يا بني إن الوصية لو تركت لفضل ادب ، تركت لذلك منكم ، ولكنها تذكرة للغافل ومعونة للماقل وعليه فأوصيكم متى تجاوزتم « العريش » ووصلتم « القرّما » قرب « قطية » وهي اول حصن لمصر في طريقكم فإياكم ان تدخلوا اليها من باب واحد من ابوابها ، ولا تضعوا امركم في موضع القَرَر ، ولا تخاطروا بأنفسكم ، فإني لأأمن من ان تلتفت اليكم رجال الدولة المصرية ، كالشرطة والعيون الراصدة والعسس ، وإني اخاف عليكم من العين ، عين الشرطي وعين « الجاسوس » وعين الحسدة والمكرّة ، فيكون في ذلك ما كرهه وتكرههون ، لاسيما انكم ذوو بهاء وشارة حسنة ، وانكم من اهل فلسطين اعداء مصر والمصريين ، ولذا تلافياً لكل محذور ادخلوا من ابواب لها متفرقة لتتعدد متوجهاً منكم ولتتفرق مداخلكم لأنكم إذا تفرقتم كنتم مغمورين مجهولين بين الناس ، فلا تلتفت الأفكار نحوكم ، فليس التجمع مفيداً في كل شيء ، بل قد يكون مضرّاً في بعض الحالات ، فحفظوا عورتكم واحترسوا من غفلتكم ، ولا تلقوا بأيديكم الى ماعسى ان يكون فيه تهلكة . هذا هو الرأي الصليب الذي اراه الان ، وعلى كل حال فليس باستطاعتي ان ادفع عنكم مما قدر الله عليكم من شيء ، إذ لو اراد الله بكم سوءاً لم ينفعكم ولم يدفع عنكم ما اشرت به عليكم من التفرق ، بل هو مصيبيكم لاحالة ، بالرغم عن السدود التي اقمها في سبيل ما اخشى ان يصيب اخاكم ويصيبكم ، لأنني لا اعلم شيئاً من الغير التي ستكون ، ولا اعلم ما يأتي به الغد في طياته من الحوادث ، لست ادري ولا المنجم يدري :

قال الشاعر :

لعمرك ما تدري الطوارق بالحصي ولا زاجرات الطير ما لله فاعل

وقال آخر :

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم ما في غدٍ عمي

هذا هو « القَدَر » الذي لا يحصى عنه ، فهل أنا أقدر أن أمنعه عنكم بوصايتي إليكم ؟ أستغفر الله فها أنا أنتظر ما سيحيي به القدر ، واني عالم بأنه إذا كان الداء من السماء بطل الدواء ، كما أعلم أن يد الله فوق كل الأيدي ، وأنه المسيطر الوحيد الفعال لما يريد ، ولكن اليقين بالقدر لا يمنع الحازم من توفى المهالك ، وليس على أحد النظر في القدر المغيب ، ولكن عليه العمل بالحزم ، ونحن نجتمع تصديقاً بالقدر وأخذاً بالحزم ، وأخيراً فليس الحكم والقضاء الفعلي على سبيل الحقيقة إلا لله غضباً عن الفلك ، فإذا أسند الحكم والقضاء لغيره فهو على سبيل الصورة والإضافة المؤقتة (انظر تفسير ع ٤٠) نعم نعم ، ليس الحكم إلا لله وحده ، رغماً عن معاطسنا ، فهو الإله الذي تتبخر أمامه أحكام جميع الخلق فتصبح دخاناً منشوراً ، ومع كل هذا فإنني أريد أن أبذل كل ما أستطيع من أخذ الحيطة ، لئلا أكون اسير الحسرة والندامة إذا — لا سمح الله — صار ما أكره عليه توكلت لا على سواه ، وعليه لا على أنفسهم ولا على قوتهم وعددهم ولا على أولادهم فليتوكل المتوكلون .

ولما سمع أولاد يعقوب تحذير أبيهم وتعليمه ونصحه قالوا له : لبيك ليكن كما تريد ، ثم تقدموا منه وودعوه وركبوا وهم يودون أن يطيروا على أجنحة النسيم ، فرحاً بقدمهم على « عزيز مصر » ، الذي لم يجربوا منه بعد سوى الإكرام !!!... وكأني بيعقوب عليه السلام حين ودعه أولاده قال لهم بلسان حاله : الى الملتقى يا أبنائي ، على الطائر الميمون يا أولادي ، ثم لكأنه حين وداعه « لبنيامين » قال بينه وبين نفسه : في عهد الله أيها الابن المشكول ، وفي حراسة الله يا ولداه ، في ذمة الله وكفنه ، أنت سلوى أميك الشيخ ، أنت التعزية الوحيدة عن أخيك الفقيد ، أنت الأثر الباقي بعد « راحيل » خار الله لك في سفرتك ، الى الملتقى ، الى الملتقى.. الوداع الوداع ، الى يوم الاجتماع :

خف إذا أصبحت ترجو وارج إن أصبحت خائف
رب مكروه مخوف فيه لله لطائف
(مرحى مرحى)

(وقال : يا بني ، لا تدخلوا ..)

— ٣ —

وقال السيد الإسكندري : عندي على هذه الآية المسائل التالية :

سر التوكيل

١ — إن سر التوكيل وحقيقته ، هو اعتماد القلب على الله وحده ، فلا يضره مباشرة الأسباب مع خلو القلب من الاعتماد عليها والركون إليها ، كما لا ينفع الإنسان قوله : « توكلت على الله » مع اعتماده على غيره ، وركونه إليه وثقته به ، فتوكل اللسان شيء ، وتوكل القلب شيء ، كما أن توبة اللسان مع إصرار القلب شيء ، وتوبة القلب وإن لم ينطق شيء ، فقول العبد : « توكلت على الله » مع اعتماد قلبه على غيره ، هو مثل قوله : « تبت إلى الله » وهو مصر على معصيته مرتكب لها ، كذلك توكل العبد على الله مع عدم أخذه بالأسباب هو مثل من يتعاطى عبادة فاسدة كمن يصلي بلا وضوء مثلاً .

وجوب التحرز بأسباب التعمز والمحيط مع التوكيل

٢ — نعلم من قوله : لا تدخلوا .. وادخلوا ... عليه توكلت ... ان يعقوب عليه السلام فضل التحرز والمحيط ، ومع ذلك فقد القى حبل اتكاله على الله ، فجمع بهذا بين الأخذ بالأسباب والتوكل ، وكلام يعقوب يشير إلى أنه لا منافاة بين الأخذ بالأسباب والتوكل ، لأن التوكل ليس هو إلا الثقة بالله تعالى .

والاعتماد عليه والاعتقاد ان الأمر منه واليه ، ولو مع الآخذ في الأسباب ، ومقاله يعقوب عليه السلام هو على حد قول غير الكائنات : « اعقلها وتوكل » ، أشار الى أن عقل الناقة لا ينافي التوكل ، وقوله عليه الصلاة والسلام روي له الفداء : « لو توكلتم على الله حق توكله ، لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خفافاً ، وتروح بطاناً » ، فأثبت للطير توكلًا مع ذكره انها تغدو وتروح .

المفروض بأسباب الحيطة والسلامة فرضي ديني

وبعد فترانا في هذا المقام ، لا نقف عند هذا الكلام ، فنقول : غني عن البيان ان يعقوب عليه السلام هو نبي كريم ، وطبعاً يعلم كما يعلم كل مؤمن أن لا شيء يجري في هذه الحياة بدون قضاء الله وسماحه ، ولكنه يدرك مع ذلك ان سعيه في أسباب الحيطة والسلامة من الوقوع فيما يكره ، هو فرض من فروض الدين ، فنفسية يعقوب أرقى جداً من نفسية كل من يستسلم للقضاء والقدر ، ولا يأخذ في أسباب السلامة على قدر الإمكان ، وماذا عسى أن يكون مبلغ علم الناس ، عند علم يعقوب ؟ وماذا عسى أن يكون مبلغ إيمان الناس ، عند إيمان يعقوب ؟ وماذا عسى أن يكون مبلغ ثقة الناس بالله ، عند ثقة يعقوب ؟ ولكنه هو الآخذ بالأسباب المفروض على كل مسلم ومسلمة .

أسباب نجاح الغربيين وتأخر الشرقيين هو موقف كل

فرهم من القضاء والقدر

إن الغربيين هم أتباع ديانات ، يعلم فيها بالقضاء والقدر ، كما يعرف ذلك تماماً من توراتهم وزبورهم وإنجيلهم ، وسائر أسفار الأنبياء التي بأيديهم ، ولكنهم مع ذلك يدركون أن نشاطهم وابتعادهم عن طرق الشر ، وتعاونهم ومثابرتهم - كل

ذلك عندهم فرض من فروض النجاح، حتى ولو كان الأمر الذي يزاولونه بسطاً، لا يحتاج لتحفظات جدية، ولا الى أيدي كثيرة.

قد يجوز أن يكون هذا الموقف المختلف، الذي يقفه كل فريق منا ومنهم بآراء ما ندعوه « قضاء وقدرًا » هو من أسباب نجاح الغرب، وتأخرنا نحن أهل الشرق، وقد يجوز أيضاً أن يكون سبب خذلان مشروعاتنا الاقتصادية، وشركاتنا التجارية، وفقدان المؤسسات النافعة، من بين ظهرائنا هو نتيجة هذا الاتكال على « القضاء والقدر »، ليقدم لنا ما نطلب، ويتحفظ بما نحتاج اليه، والأمر لو وقف عند هذا الحد، لكان الخطر، وقلنا: إن الشرقيين شعب له ثقة بالله، واتكال على قضائه وقدره، والله سبحانه وتعالى لا يخيب من يقصده، ولا من يتكل عليه، ولكن المصيبة في أن هذا الشيء تأصل في عقولنا، وتوسعت فيه نفوسنا، وتشتعت منه أفكارنا، فتيستنا وجمدنا، وضرب علينا الكسل قبابه، ونصب حولنا الفشل خيامه، حتى ان الإكثار من ذكر « القضاء والقدر » أصبح عادة متمكنة من نفوسنا، وغدا ذلك شعاراً لنا عند كل عمل أردنا مزاولة، فصار لنا ذلك بمثابة طابع لنا نحن الشرقيين، نطبع به كل عمل، من صنع أيدينا، أو هو العلامة المسجلة لكل عمل أردنا أن نعمله، أو هو العقبة الكؤود التي إن لم تمنعنا من الاقدام على جلائل الاعمال، منعتنا من المثارة والإتمام.

انواع الناس بالنسبة الى عقيدة القضاء والقدر

(٣) — أرشد يعقوب أولاده لاستعمال أسباب الحذر، ثم أشار الى أن هذه الأسباب ليست أسباباً كاملة، ولا مضمية عن حكم الله شيئاً.. والناس في هذا الباب ثلاثة أنواع:

النوع الأول — متسبب صرف، قد قصر نظره على السبب وقوته وضعفه،

وهؤلاء هم المتكرون لوجود الصانع المختار، من قبيل الماديين والطبيين والدينيين، وظاهر أنهم من أهل الإلحاد، الذي ليس وراءه الحاد.

النوع الثاني - انكالي - صرف معرض عن الأسباب والوسائط، والآلات والأعمال، لا يريد أن يفكر ولا يتحرك، ولا يعمل عملاً ما، انكالا منه على القضاء والقدر، واعتماداً على ما سبق في العلم أزلاً، وإن شيئاً من هذا لا يتحول ولا يتحور، ولا يزيد ولا ينقص، وإن العمل وعدمه سيات، والحركة والسكون أخوان، وظاهر أن هؤلاء أهل جمود وكسل وجهالة، غاطلون في تصوراتهم من حيث لا يشعرون أو يشعرون، وهم بهذا مخالفون لشرائع الله وأوامره جميعاً، يُحتج عليهم ويثربون، ويحكم عليهم بأنهم عصاة ضالون، وهم للجنون أقرب منهم للعقل، ولو كان الناس كلهم على شاكلتهم، لما أتى قرن واحد، وعلى وجه الأرض إنسان، وأشرف منهم الطير والحيوان.

النوع الثالث - من يثق بالله تعالى، ويعتمد عليه، ويعتقد أن الأمر منه واليه، مع أخذه بالأسباب، ودأبه على العمل بجهد ونشاط، وظاهر أن هؤلاء أتقياء أهل الايمان، وهم أهل التوكل المشروع، وهذا ما جرى عليه يعقوب عليه السلام في وصيته لأولاده كما ترى.

التوكل والآيات التي تحض على العمل الديني والآخرى

(٤) لينظر القارئ اللبيب قول هذا النبي الكريم: « لا تدخلوا... الخ »، مع قوله: « عليه توكلت »، مع مدح الله له بقوله: « وإنه لذو علم لما علمناه » يجد أن الاحتراس من الأمور الضارة يمدح الله عليه من فعله، ويسلم له دعواه التوكل، فليسمع هذا جهلة المتصور لحين، الذين لا يفهمون التوكل إلا بأنه معاداة الأسباب وإهمالها، وليعلموا أن الله ورسله يكذبونهم، وأكبر رد على من يستهين بالأسباب قوله تعالى: ﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ، وَهُوَ مُحْسِنٌ ،

فله أجره عند ربه ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴿ ١١٢:٢ ﴾ ، فان الله تعالى لم يقل ﴿ ولا خوف عليهم ﴾ إلا بعد قوله ﴿ وهو محسن ﴾ منضماً الى إسلام الوجه لله ، وكذا قوله تعالى : ﴿ فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه ﴾ (١٥:٦٧) وقال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا خذوا حذرکم ﴾ (٧٠:٤) وقال تعالى ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ﴾ (٦١:٨) وقال تعالى ﴿ وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ﴾ (١٩٧:٢) وقال تعالى خطاباً لنبيه لوط عليه السلام : ﴿ فأسر باهلك بقطيع من الليل ﴾ (٨١:١١) وقال تعالى : خطاباً لنبيه موسى عليه السلام : ﴿ فأسر بعبادي ليلاً ﴾ (٢٣:٤٤) وقال تعالى : ﴿ فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله ﴾ (١٠:٢) وقال تعالى : ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم ﴾ (١٩٨:٢) ، وقال تعالى : ﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، وستردون الى عالم الغيب والشهادة ، فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ (١٠٦:٩) ، الى غير ذلك من الآيات التي تحض على مطلق عمل دنيوي وأخروي .

التوكل محله القلب ، والعمل بالأسباب محله الأعضاء والجوارح ، والانسان مسوق للعمل بمقتضى فطرة الله التي فطر الناس عليها ، وكل من خالف ذلك فهو فاسد الفطرة مبذل خلق الله .

إذا الإنسان توكل فقط ، ولم يستعد للأمر ، يأخذ له أهيته بحسب سنة الله في الأسباب والمسببات يقع في الحسرة والندم عندما ينجب ويفوته غرضه ، فيكون ملوماً شرعاً ، وعقلاً ، كما قال تعالى في الإسراف في المال : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط ، فتعبد ملوماً محسوراً ﴾ (٢٩:١٧) وقال تعالى خطاباً لفخر الوجود ﴿ ولا تطع الكافرين والمنافقين ،

وَدَعَ اِذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ (٣٣: ٤٨) قرن أمره بالتوكل بنهيه عن إطاعة من لا يوثق بقوله ، لأنه يغش ولا ينصح ، وقال تعالى : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ، فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (٣: ١٥٩) ، قرن الأمر بالتوكل بالمشاورة ، وكل ذلك من اتخاذ الأسباب سلباً وإيجاباً .

وبالجملة ، ضل اثنان خـير منها ثالثها ، الأول لا يريد أن يعرف النواميس ، والثاني يريد أن لا يعرف سواها ، فياقتل الله الإفراط والتفريط .

العين الشريرة وعادات الامم في دفع اذائها

(٥) — قوله : « لا تدخلوا .. الخ » : يعتقد فريق من الناس خصوصاً النساء أن العين الشريرة (كما يدعونها) تأثيراً على الاشخاص والاجرام والاشجار التي تنظر اليها هذه العين نظرة استعسان وإعجاب ، ولما كانت كل امرأة تنظر الى طفلها مثل هذه النظرة ، فهي تعتقد أن هذه « العين الشريرة » واقعة عليه لا محالة ، ولذلك قد جرت العادة أن تسلمح النساء أطفالهن بسلاح يرد هذا الضرر ، فالمرأة السورية لترد العين عن طفلها تلبسه خرزة من الخرز الأزرق .

والمرأة الفلسطينية ، تضع ضمن قلادة خرزة يديضاء وخرزة زرقاء ، وصورة شخص من ذهب ، تسميه « مُشَخَّص » .

والمرأة الإيرلندية ، تمنطقه بخصلة شعر من امرأة عجوز ؛

والمرأة الرومانية ، تربط كاحليه بشريطة حمراء ؛

والمرأة الإسوجية ، تضع في مهبه كتاباً من كتب الطب ،

والمرأة البلجيكية ، تعلق على صدره قطعة من النقود ؛

والمرأة الاسبانيولية ، تعلق على قبعته غصن صنوبر ؛

والمرأة الانكليزية ، تعلق فوق باب غرفته نعل حصان ، وفي عنقه زهرة من نبات يدعى « ميسيلتو » ، يوجد في غابات إنكلترة ؛

والمرأة الفرنسية ، تعلق فوق مهده غصناً من أغصان شجرة « الدرويد » المقدسة في نظرهم ؛

وبعد كل هذا فيعقوب عليه السلام إنغا أراد لأولاده التحفظ من عيون الناس الأشقياء أهل الفساد ، ومن عيون مستخدمي الحكومة .

ابواب الدخول الى مصر

(٦) — ﴿ وادخلوا من أبواب ﴾ قيل هي أبواب « الفرما » وكان لها أربعة أبواب ، قيل : هي في محل « بورسعيد » اليوم ، أو هي في محل البحرية « بورسعيد » ، وقال بعضهم : « الفرما » بالتحريك والقصر مدينة على الساحل من ناحية مصر ، وبعبارة أخرى : حصن على ضفة البحر ، وهي بعد « العريش » ، وقيل إنها مدينة قديمة بين « العريش » و« الفسطاط » قرب « قطية » وشرقي « تنيس » على ساحل البحر ، على يمين القاصد لمصر ، بينها وبين بحر القلزم ، وكان « احمد بن المدبر » قد أراد هدم أبواب الفرما ، وكانت من حجارة شرقي حصن الفرما ، فخرج أهل الفرما ومنعوه من ذلك ، وقالوا ان هذه الأبواب هي التي ذكرت في كتاب الله ، حين قال يعقوب لبنيه : ﴿ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ ، وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ ﴾ فتركها ، قالوا : وكان « عمرو بن العاص » فتحها عنوة سنة ١٨ هـ في خلافة عمر رضي الله عنه ^(١) اذ سار عمرو بن العاص بالمسلمين لفتح مصر ، فوصل « رفح » ثم « العريش » ثم « الفرما » .

الحذر لا يغني عن القدر

(٦٧) — تعليقاً على قوله ﴿وما اغني عنكم من الله من شيء﴾.

أولاً — تذكر ههنا نادرة ، هي انه نزلت قافلة بقرية ، فأووا الى دار خربة ، فاستكنوا فيها من الرياح والأمطار ، واستوقدوا نارهم ، وسوّوا معيشتهم ، وكان في تلك الدار حائط مائل قد أشرف على الوقوع ، فقال رجل منهم : يا هؤلاء لا تقعدوا تحت هذا الحائط ، ولا يدخلن أحد في هذه البقعة ، فأبوا إلا دخولها فاعتزلهم ذلك الرجل ، وبات خارجاً عنهم ، ولم يقرب ذلك المكان ، فأصبح الجميع في عافية ، وحمّلوا على دوابهم ، فبينما هم كذلك ، اذ دخل الرجل الى الدار للحاجة ، فخر عليه الحائط ، فمات لوقته ، ولم يغن حذره من قدر الله من شيء !!

ثانياً — يحكى أن عضد الدولة بن بويه ، نظم شعراً ، جاء فيه قوله في صفة نفسه .

عضد الدولة وابن ركنها ملك الاملاك غلاب القدر

ثم أصيب بعد بشي من الخبل والوسواس وفساد المزاج ، فكان لا يطلق لسانه إلا بقوله تعالى : ﴿ما أغنى عني ماليه ، هلك عني سلطانيه﴾ (٢٩: ٢٨ و ٢٩) .

هل للعبد ارادة واختيار

(٨) — وهو من قبيل تكميل البحوث السابقة : لانه سبحانه وتعالى الفعال لما يريد ، والمدبر يدبر والقضاء يضحك ، وما أرادته تعالى كائن لا محالة ، ولكن ليس معنى ذلكم أنه ليس للعبد كسب واختيار — كلا — لأن هذا المعنى مناف للعدل الالهي ، ومناقض لحكمة التشريع السهاوي ، ولا يلتحم مع نصوص الشريعة المتواترة القطعية في دلالتها على معناها ، من أن العبد له إرادة واختيار ، هما مناط التكليف والمؤاخذه ، وكذلك كان الصحابة والسلف يفهمون من تلك

النصوص ، فالعبد مختار ، حر ، مريد ، ولكنه إنما يختار لنفسه ماوافق استعدادة ، وجرت له اليه ملته وارادته وتربيته ومزاجه ووراثته ، وعوامل المحيط الذي يعيش فيه ، كالعقيدة والعادة والحكم والاسرة والمدرسة والمجتمع والمناخ ، والتعامل مع الناس ، والى غير ذلك من العوامل التي تجره الى السعادة او الشقاء .

واما قضاء الله وقدره فينا ، فيها خفيان عنا معشر البشر ، وانما يظهران لنا ويقعان تحت أعيننا ، ماثلين في سنته الكونية ، ونواميسه الاجتماعية ، التي بثها في هذا العالم ، وركب بناء عليها ، وهذه السنن والنواميس البارزة لنا هي مظهر قضاء الله وقدره الخفيين عنا ، بل هي المرايا الصقيلة التي ينعكس عنها الى أبصارنا ما في اللوح الساهوي من حكم الله وارادته ومشيتته ، في تدبير هذه الكائنات ، وفي سعادة البشر وشقاوتهم .

وإذا تقرر هذا فيعقوب عليه السلام ، أراد أن يحارب قضاء بقضاء ، ويقاوم قدراً بقدر ، حسبها هو مأمور بالتمسك بما عساه أن يكون سبباً في النجاة ، وتجنب ما عساه أن يكون سبباً في الهلاك ، وهو عليه السلام يمتد انبه في كلتا الحالتين بالغ هو وأولاده ما قضاء الله وقدره عليه وعليهم ؛ وبعد فإذا وصلت الى هنا ، وكنت من الأذكياء ، فلا بد أنك فهمت ما هو المظهر الإلهي للقضاء والقدر في قول يعقوب عليه السلام ﴿ وما أغني عنكم من الله من شيء ... ﴾ فتأمله ، سبحانه لا علم لنا إلا ما علمتنا . (مرحى)

قول الخوارج لا حكم الا لله

٩ — سألتني طالب علم صغير : إن هذه الجملة التي نطق بها يعقوب « إن الحكم إلا لله » هي كانت شعاراً للخوارج الذين خرجوا على علي رضي الله عنه ، فكيف كانوا على باطل ، وهذه الجملة شعارهم ؟ ... فتبسمت لسؤاله وشكرته عليه لحداثة سنه ، وقلت له : يا ولدي ، هذه الجملة كلمة حق أريد بها باطل ، أريد بها الخروج

على عليّ كرم الله وجهه ، حيث حَكَمَ وهو على حق ، فكان الخوارج يقولون « لا حكم إلا لله » .

نظام الطبيعة واحكام سيرها تعين على حل مشكلة القدر

٦٠ - إن ما قيل في آية (وما أغني عنكم من الله من شيء) فيه كفاية للمستبصرين ، ولكن تذييلاً للمقام أقول :

إن للطبيعة نظاماً ، وإن لله في سيرها أحكاماً ، فينبغي لنا أن نخضع لأحكام الله ولا نخل النظام ، قال تعالى : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ (٢: ٢٥) وقال تعالى ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ (٥٤ : ٤٩) ، وعندني ان في هاتين الآيتين ونحوهما ما يوقظ الأفكار لحل مشكلة القدر ، والله تعالى أعلم .

الفصل الثالث

سفرة اخوة يوسف الثانية لاصر

آ (٦٨) ﴿ ... وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ ، مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ، إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ، وَإِنَّهُ لَذُو عِلِيمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ ، وَلَكِنَّ كَثَرِ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

اقتتحت الجلسة وتليت الآية الثامنة والستون فقام الشيخ آدم الرمي^(١) وقال :

قام أبناء يعقوب وأبوهم واضع يده على قلبه ، وركبوا دوابهم ورحلوا من

(١) نسبة الى الرمتا من بلاد الشام (شرقي الأردن) .

سِيلُون الى غِزَّة الى رفح الى العريش الى السَّفَرَا وهي أول حصن حصين من بلاد مصر (و) لا أخفي عن القارئین والسامعين أنهم (لما دخلوا) السَّفَرَا (من حيث أمرهم أبوهم) وكما رسم لهم ، وعلى حسب الخطة التي اختطها لهم ، متفرقين لأبوابها الأربعة — لما دخلوا هكذا ما عتموا أن وقعوا فيما قدر عليهم وخاصة على أخيه بنيامين ، و (ما كان) ذلك الرأي ودخولهم متفرقين (يعني) يدفع (عنهم من) قدر (الله من شيء) ، لأن الإنسان وديعة غيب ، لا يعلم ما يطرأ عليه ، بل ذهب ذلك التحفظ أدراج الرياح ، وغلب التقدير التديير ، حيث أصابهم ما ساءهم من إضافة السرقة اليهم وانتضاحهم بذلك وأخذ أخيهما بوجدان الصواع في رحله ، وتضاعف المصيبة على أيهم ، ولكن عدم إغناؤه من الله من شيء ، لا يقلل شيئاً من قيمة الأخذ في الأسباب ، وسلوك سبيل الاحتياط والتحفظ ، (إلا حاجة) غاية (في نفس يعقوب قضاها) وهي على ما فهمه العلامة الزرخشري شفقته عليهم وإظهارهم بما قاله لهم ووصاهم به ؛ أو هي على ما يفهمه هذا الحقير أن لا تبقى في نفسه حسرة ، إذا حدث لولده « بنيامين » شيء مما يخشاه ، كما بقيت في نفسه حسرة في حادثة يوسف ، حيناً وحيناً استرسل مع أولاده استرسالاً ، وسلمه لهم دون قيد ولا شرط ، دون عهد وميثاق ، دون وصية وارشاد ؛

فهو كان رأى نفسه في حادثة تسليم ولده يوسف أنه استسلم لأولاده على العمياء دون كفالة ولا توث ، حال كونه كان يخاف منهم عليه ، لأنهم يكرهونه ، وهم له حسدة ، وأبوهم يعرف ذلك كله ، حتى انه قال له : « لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً ، إن الشيطان للانسان عدو مبين » (ع ٥) ، فمع كل ذلك قد زج به الى إخوته ، وتعذيبهم إياه ، حتى صار فريسة الإثم وطعمة النور ، وألموبة في يد المكرة ، وقد قيل : « من استرعى الذئب ندم » ، ويعقوب

استرعى الذئب على ولده بدون أن يكون معه حراس ، كان كل هذا في حادثة يوسف ، وأما اليوم في حادثة بنيامين ، فلم يرد أن يترك أخذ العهد المغلظ عليهم ، ولم يشأ أن يغفل إرشادهم ووصيته اليهم ، لئلا يتوهم انه ضيع ولده بيده ، وانه سلمه الى المهالك باختياره ، فيحزن عليه حينئذ حزن النادم المتفجع ، الذي لا يجد له عن مصابه عزاء ولا سلوى ، ويتحسر انه ترك نوعاً مما يقدر عليه ، من أنواع التحفظ ، بل يريد هنا أن يحتفظ لبنيامين ما وجد لذلك سبيلاً ، وأن يأخذ حذره ما أمكن ، فيعقوب عليه السلام بما أجراه هذه المرة مع أولاده في شأن بنيامين لا يتحسر كثيراً ، ولا يتأسف أسفاً جليلاً ، لو طرأ على ولده صدمة من صدمات القدر ، أو نزل عليه نازلة من نوازل القضاء ، لأنه حينئذ لا قصور منه ولا تقصير ابتداء ، ولا حول ولا حيلة انتهاء ، فهو إذ عمل بالواجب قد يهون عليه الأمر ، ويسهل في نظره المصائب ، فلا يصدر منه كبير أسف ، ولا كثير تحسر ، ولا يقدر أحد أن ينسب اليه الاسترسال مع الأولاد ، أو الإهمال لشيء من الحذر ؛ هذا ما أفهمه فيما هي هذه « الحاجة » ولا أعلم هل أنا مصيب أو مخطئ ولكن أعلم أنني كتبت ما اعتقد .

(وإنه لذو علم) أي فهم ومعرفة (لما علمناه) أي يفهم الذي علمناه إياه ، ومنه أمره لأولاده بالحذر وأن لا يدخلوا من باب واحد بناء على وجوب الأخذ بالأسباب وإنه مع ذلك كان يعتقد أن الحذر لا يدفع القدر ، وكان يعرف أن ليس للتدبير حظ من التأثير ، فنعماً ذلك الصفي الكريم ، أو معنى قوله « ذو علم » ذو عمل ، لأن العلم التصديقي « الإذعائي » المتعلق بالمنافع والمضار يوجب العمل ، وتقل البخاري عن قتادة أن العلم هنا العمل ، ولذلك فسره بقوله « عامل بما علم » ، ووجه أن من فهم معلوماً من المعلومات حق الفهم « أشرب بته روحه » ، وخالط لحمه ودمه ، ووصل من قلبه الى سويدائه ، وكان إحدى غرائزه ، فلا يرى له بدءاً من العمل

به ، رضي أم أبي ، فإذا أصبح العلم هو العمل ، لأن أثره اللازم له ، لزوم الظل
للاشخاص ، أو لزوم حركة الختام لحركة الاصبع ، ولذلك قالوا : آية فهم المعلوم
تأثر العالم به وظهوره في حرركاته ومساكناته وترقرقه في شمائله ، ترقرق الابن السائغ
في جسم الرضيع .

العلم علمان : نظريات وعمليات ، والعلم لا يتحقق أو لا يتأكد إلا بالعمليات ،
فلا يقال : فلان نجار ، إلا بعد أن يكون — عقب النظريات — قد عمل صندوقاً
أو خزانة مثلاً ، وكذا لا يقال : فلان حداد ، إلا بعد أن يكون قد عمل مفتاحاً
أو سكيناً مثلاً ، وهكذا لا يقال : فلان طبيب ، بمجرد نواله الشهادة ، ما لم يكن
قد ابتدأ في تطبيب المرضى بالفعل ؛ وعندنا أن جملة « لدو علم لما علمناه » تحتمل
تخريجاً ثالثاً ، وهو أن اللام في قوله « لما » للتعليل و « ما » موصول حرفي ، والمعنى
لأجل تعليمنا إياه ، (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ماعلمه يعقوب من الجمع بين
الاخذ بالاسباب والتوكل ، فالقبض منهم في غفلة عن ذلك ، وجمهرة الناس هم
من ذوي الغيب والنوء .

اجتماع شمل الشقيقين

آ (٦٩) « ولما دخلوا على يوسف ، آوى إليه أخاه ، قال :
إني أنا أخوك ، فلا تبتئس بما كانوا يعملون »

وتليت الآية التاسعة والستون في نفس الجلسة فقام الحافظ الترماني^(١)
وقال :

(و لا) وصلوا صوعن « صان الحجر » عاصمة المملكة الهكسوسية ، و (دخلوا

(١) سبة الى ترمانيين من بلاد الشام (سورية)

على (عزيز مصر (يوسف) ووقفوا وجاهه ، شعر بتعزية داخلية بمجيئهم عنده ، و (آوى اليه أخاه) بنيامين ، وأدناه منه ، وأنزله تحت ظله ، وجمعه اليه ، ورقله وعطف عليه ، و (قال) له (إني أنا أخوك) — قال بنيامين : « أخي في الحب والصدقة أم ماذا ؟ » — قال : « أخوك المفقود يوسف بن إسرائيل ، من زوجة راحيل ، أنا أخوك وأنت أخي ، أنت لي وأنا لك ، وكلانا على الدهر (فلا تبتئس) لا تحزن ولا تتذمر (يا كانوا يعملون) ويمرون به معيشة ، فإنه لا يقلل من قيمتنا التاريخية شيئاً ، هكذا قدر عليهم أن يعملوا ماعملوه ، فلا تذهب نفسك حشرات عليهم ، واجعل قرة عينك اليوم برؤية أخيك ، ناسخة لأحزان الثلاث والعشرين سنة الماضية : افرح وتهلل اعتباراً من هذه الساعة .

(ولما دخلوا على يوسف .. الخ)

— ٢ —

وقال السيد الكلبي

اخوة يوسف الاحد عشر بين يدي يوسف

ولما وصل إخوة يوسف مصر ساروا توطاً الى حيث يقسم العزيز « يوسف » معهم بنيامين الذي طلبه منهم ، وعند دخولهم عليه سُرِّي عنه بذلك كل هم وغم إذ كان ينتظرهم بقارغ الصبر ، وهو على أحر من الجمر ، ووقفوا أمامه وسلموا عليه تسليم الإمارة وركعوا وكفروا ، مترامين بين قدميه ، فلما رأى يوسف بنيامين معهم ، قال لهم : (أنجز حرّ ما وعد) ثم قال الذي على بيته : (أدخل الرجال الى البيت واذبح ذبيحة وهيء ، لأن هؤلاء الرجال يأكلون معي عند الظهر) ففعل الرجل كما قال له يوسف ، وأدخل الرجال الى بيت يوسف ، وأعطاهم ماء

ليفسلوا أرجلهم ، وأعطى عليقاً لدوابهم ، فلما جاء يوسف الى البيت سجدوا له الى الأرض ، فسأل عن سلامتهم ، وقال : (أسلم أبوكم الشيخ الذي قلتُ عنه ، أحيّ هو بعد) فقالوا : عبدك أبونا سالم ، وهو حيّ بعد ، وخروا وسجدوا ، وكان هذا السجود تمام الحلم الاول ، وهو أن حزمهم الإحدى عشرة سجدت لحزمته ، وكانت الحزم في الحلم مناسبة لطلبهم القمح منه ، فرفع عينيه ونظر بنيامين أخاه ابن أمه ، وقال : (أهذا أخوكم الصغير الذي سمعت به وطلبتك منكم ؟) وهذا الاستفهام للتكتم أو للتعجب ، لأنه رآه ابن نحو ثلاثين سنة ، وكان يوم بيع يوسف ابنَ نحو من ثماني سنين ، ثم خاطبه يوسف بقوله : (الله ينعم عليكم يا بني) واستعجل يوسف لأن أحشائه حنت الى أخيه ، وطلب مكاناً ليكي ، فدخل الخدع وبكى هناك ، ثم غسل وجهه ليزيل آثار الدموع وخرج وتجلد ، وقال للخدامين : قدموا الطعام ، فقدموه له وحده ، ولهم وحدهم ، وللمصريين الآكلين وحدهم ، لأن المصريين كانوا لا يقدرّون أن يأكلوا طعاماً مع العبرانيين ، لأنه رجس عند المصريين ، وهذا التمييز بين الآكلين كان عاماً في الأزمنة القديمة ، ولا يزال في الهند ، ولكنه عند المصريين كان بمقتضى أمر ديني ، أن لا يأكلوا مع الغرباء ، ففي تاريخ هيرودوتس أن المصريين كانوا يأبون الأكل مع اليونانيين وأن مس الطعام بسكين يونانية ينجسه .

ورفع يوسف حصصاً من قدامه اليهم ، ولكن كانت حصّة بنيامين أكثر من حصص جميعهم ، وهذه العادة كانت تعود من الرئيس في بلاد الشرق إكراماً عظيماً ، فأكلوا وشربوا ورووا ، وكانوا آمنين مبهجين ، وأما يوسف فكان يفعل ذلك معهم وهو يقول في نفسه : اليوم تمرّ وغداً أمر ، ثم بعد انتهاء حفلة الطعام ضم يوسف اليه بنيامين في عزلة عن باقي اخوته ، وهشّ له وبشّ ، وقد تفرقت الدموع في عينيه ، ثم قال له أتعرفني وتعرف اسمي ومن أنا ؟ — قال :

ما أنكرك لسوء — قال يا ابن راحيل انظر إليّ جيداً وتفرس فيّ ملياً إني ابن أمك وأبيك ، أنا أخوك يوسف — وأما بنيامين فسمع ما لم تضطرب به حاسته ، ولا هجس في الضمائر ، فقال : ما تقول يا حضرة «صفقات فعنيح المحترم» — قال هذا هو الواقع ، أنا يوسف ابن أمك راحيل ، من رجلها يعقوب بن إسحاق بن ابراهيم ، أنا أصح نسبة ليعقوب من المطر الى السحاب ، وأصح نسبة لراحيل من النور الى الشمس — فظن بنيامين نفسه في منام ، لأنه فارقه منذ ٢٣ سنة ، فلم يعرفه ، ولكن يوسف ذكر له من السماء ما أكد به أنه أخوه الفقيد ، وعند ذلك برح الخفاء وتقصعت الغمامة ، وظهر البدر التمام ، وأما بنيامين فطار فرحاً ، وقام اليه وتحاضنا ، وسلم عليه بالقبلة الاخوية ، وجاوبه أخوه بقبلة حارة ، وأمسك كل بيد الآخر إمساكاً شديداً ، ثم قال له يوسف والآن يا أخي ، لا تحزن ولا تنذمر بما يفعله إخوتنا ، مما سجله عليهم التاريخ ، بمداد من نار . إن الله قد أحسن اليكنا وجمعنا على خير مانرجو ، وقد أبدلك مرارة صابهم ، وغضاضة علقمهم بحلاوة اللقاء ، وجمع شمل الأحياء ، ومع ذلك فإن مع اليوم غداً . (مرحى)

(ولما دخلوا على يوسف .. الخ)

— ٣ —

وقال حمدي باشا الانطاكي (١) :

يوسف يعرف أخاه بنيامين به ويؤاويه اليه

لما دخل إخوة يوسف على يوسف ، حيوه تحية الأمراء ، وقالوا له : (هانحن أولاء قد سمعنا السمي الحثيث مع أبنينا حتى أتينا بأخينا بنيامين حسب رغبتك) ، وأما يوسف فلا تسل عن فرحه بمجيئهم وبينهم بنيامين ، فقد فرح بمجيئ إخوته بني

(١) نسبة الي اطاكية من بلاد الشام .

العلات ، فرح المنتصر الظافر ، وفرح بمجيء شقيقه ، فرح الحبيب بالحبيب ، ولما رفع نظره لبنيامين لمس القلب ، لاسياً وقد لاحته في صورته صورة المرحومة أمه « راحيل » ، فعطف عليه وآواه اليه ، وكأنه سبحانه وتعالى ، يشير بهذه الكلمة إلى إيقاظه من ظلم إخوته إياه ، واستبدادهم به ، فقد تكاد هذه الكلمة أن لا تستعمل إلا في مقام النصر والانتقام من الذل والتهلكة ونحو ذلك ، ومن قوله تعالى : ﴿ وَأَوْنَاهُمَا إِلَى رُبُوعٍ ﴾ (٢٣ : ٥١) وقوله تعالى : ﴿ وَفَصَلَّتْهُ الَّتِي تُوْوِيهِ ﴾ (٧٠ : ١٣) وقوله تعالى في النبي ﷺ : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ﴾ (٩٣ : ٦) وقول لوط عليه السلام : ﴿ أَوْ آوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ (١١ : ٨٠) وقول ابن نوح : ﴿ سَاوَى إِلَى جِبَلٍ يَمُصُّ مِئِنَ الْمَاءِ ﴾ (١١ : ٤٣) وقوله تعالى : ﴿ آوَى إِلَيْهِ أَبُوهُ ﴾ (ع ٩٩) ، وبدلنا على أن بنيامين كان محوطاً بظلم إخوته واستبدادهم ، قول يوسف له : ﴿ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ الذي يرمي إلى تكرار أفعالهم المحزنة معه ، ثم هو لما رأى بنيامين وضحه اليه - تتخيل أنه قال في نفسه :

كأنك لم توتر من الدهر مرة إذا أنت أدركت الذي أنت طالبه

وقال لبنيامين مقدماً نفسه اليه معرفه بشخصه الكريم ، إني أنا أخوك يوسف ، فكن مطمئن البال ، حيث ظفرت بأعز ماترجو ، وعلى الدنيا السلام ، فلا تحزن ولا تتذمر بما كانوا يعملون معنا ، فقد أصبح منذ اليوم خبراً ليس له أثر ، أصبح ليس له وجود إلا في بطون الدفاتر ، وأنا لا أريد أن أثير المعركة عليهم من جديد ساعهم الله ، فلننتاس مافات ، وننظر فيما هو آت ، وإن لم شملك بأخيك اليوم . يشفع في كل ما أصابك من الأسواء ، ويجب أن ينسبك كل بلواء .

بدء المعركة بين يوسف واخوته — التفسيريق

آ (٧٠) ... ﴿ فلما جهّزَهُمْ بِمِجَاهَازِهِمْ ، جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ . . . ثُمَّ أَذِنَ مُؤَذِّنٌ : أَيُّهَا الْعِيرُ ، إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ . ﴾

افتتحت الجلسة ونليت الآية السبعون فقام السيد مطيع الادلي^(١) وقال:
كان يوسف عليه السلام عقد النية بالاتفاق مع « بنيامين » على عمل الحيلة بنسبة السرقة اليه ، توصلاً لبقائه عنده قهراً كرقيق لمدة سنة أو أكثر ، فأمر خادمه الخصوصي الذي على بيته قائلاً : « املاً عدال الرجال طعاماً حسبما يطيقون حملة ، وضع فضة كل واحد في قم عدله ، وطاسي طاس الفضة تضعه في قم عدل الصغير مع ثمن قمحه » (فلما جهّزَهُمْ بِمِجَاهَازِهِمْ) من قمح وزاد للطريق من خبز « ودقيق وسويق وعليق ، وسائر لوازم السفر ومعداته (جعل) وضع (السقاية) أي طاس الفضة (في رحل) في عدل (أخيه) بنيامين ، بيد خادمه الخاص الذي على بيته ، فلما أضاء الصبح انصرف إخوته ، هم ودوابهم ، وعندما قاربوا الخروج من المدينة « صوعن » ولم يبتعدوا ، قال يوسف لخادمه الخاص « قم واسع وراء الرجال ، ومتى أدركتهم ققل لهم : لماذا جاريتم شراً عوضاً عن خير ؟ اليس هذا هو الذي يشرب سيدي منه ؟ أليس هذا هو الذي يكيل أيضاً به ؟ » فقام الخادم يسمى وراءهم (ثم أذن مؤذن) أي نادى مناد : (أَيُّهَا الْعِير) القافلة الفلسطينيون رويداً ، على رسلكم ، إن « العزيز » أرسلني ، والرسول غير ملوم فيما يبلغ ، وإن أغلظ في القول ، — قالوا : « فما الرسالة ؟ » — قال : (إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ) وسيكون لنا معكم شأن من الشؤون ، فأنتم لستم قافلة تجارة ، ولا رواد ميرة ، بل عصابة

لصوص ، أو حملة عداوية نحو « العزيز » فما هذا الشرك الذي نصبتموه لنا ، ذريعة للاختلاس ؟ وما هذا المركب الخشن الذي ركبتموه ؟ . .

فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية . . الخ

— ١ —

وقال السيد عبد الكريم العجاوني (١) :

الحادثة التي يظن انها جرت بين يوسف واخيه بنيامين قبل تسريقه

لو كنت من المحدثين في هذه الأمة المحمدية لقلت إنني «حدثت» بما يلي :

قال يوسف لأخيه « بنيامين » : « يا ابن الأعيان ، لي معك كلمة ، أصخ إليها ، فإن اجتويتها فأضرب بها عرض الحائط ، وإن وقعت عندك الموقع الحسن ، فتنازل بمساعدتي على ما أريد ، أنا أريد الآن بقاءك عندي ، لتؤنس من وحشي ، وتخفف من آلامي وفرقي ، وتعينني على احتمال أعباء الحياة وهمومها ، وها أنا ذا هنا أقلب طرفي حولي ، فلا أرى أخي الذي أحبه وأؤثره ، وأرى فيه شخص يعقوب وصورة راحيل ، إنني هنا لا أرى إلا أناساً آخرين أجانب ، لا شأن لي معهم ، ولا صلة بيني وبينهم ، فلذلك يخيل إليّ ، وأنا مجتمع بالجمهور من المصريين الحكوميين ومحفوف بالجمهرة من العالقة الحاكمين ، كأنتي خال بنفسي ، منقطع عن العالم وما فيه ، ولقد كنت سميت في أسباب حضورك ، وكنت أترب ذلك ترقب المقرور أشعة الشمس ، وكنت أنتظرك انتظار الظامء ديمة القطر ، فالآن أريد أن تبقى عندي لاسواك ، تبقى عندي مدة طويلة لا قصيرة ، لأننا مشتاقان كل إلى أخيه ، كما أريد ذلك بالأحرى لأبينا الشيخ الجليل ، ولكن الأمر بالنسبة لأبينا صعب الآن جداً ، لأن الظروف والأحوال لا تمكننا اليوم من الحصول على لذة الاجتماع

به ، لأن هذا لا يمكن إلا إذا أظهرت نفسي له ولإخوتي ، وبأن لجميعهم من أنا ، وهذا لم يكن حينه بعد ، وأما تمتعي بحصولك عندي فممكن ، بشرط أن تضحي شيئاً من شرفك مؤقتاً ولأجل محدود ، وبحيث يكون ذلك ضمن دائرة الخفاء إلا عن اخوتك ، تضحي ذلك من أجلك وأجل تمتعك برؤيتي ، بل وأيضاً من أجلي وأجل تمتعي برؤيتك — فأجاب بنيامين قائلاً: « وما الذي اجتمع عليه رأيك حتى توصل لذلك ؟ » — قال : « أنسب إليك أنك أخذت صواعي ، وجعلته في رحلك ، وليكن غزاؤك عما تلاقيه من عار السرقة أمام إخوتك أنك ستكون عندي مدة طويلة ، تتبادل فيها الأحاديث والسرور ، ويتمتع بعضنا بمشاهدة بعض ، كما انه ليكن عزاء أئينا الشيخ عما سيلقيه من الحزن والكمد بتسريقك وبعدك عنه — أنه سيمكن له ولنا بعمل هذه الطريقة ، بحيث لمصر ، ويتمتع كل برؤية الاخر ، ذلك لأنني أريد فيما بعد إظهار نفسي لإخوتي ، توصلاً لذلك ، ولكن بعد تنزيل شيء من كبريائهم وتقدم ، فإني لأنسى انهم كادوا لي كيداً ، وأنا اليوم أيضاً أخوف ما أخاف منهم : ولو خبرتهم الجوزاء خبري ، لما طلعت مخافة أن تكاداء على اني أعتقد أن والدي سيتخذ حبسك عندي إشارة رمزية يفهم منها أن لا بسد للأمر من سر ، ويشم رائحة يوسف من ناحية مصر ، نعم ، إنه من الشديد عليّ أن أسرقك أيها الأخ ، ولكن أشد منه عليّ مفارقتك إياي ، فتحمل أنت هذه الحملة اليوم ، لما قلت لك ، والنتيجة تبرر الوسطة ، نعم إن الحادثة التي ستستقبلها شديدة ، شديدة عليك وعلى أئينا الشيخ ، ولكن أبونا سيتحملها بما لديه من صبر ومسكون ، وعلمه بتأويل ما يكون ، وفهمه تلك الرموز والإشارات ، وكل ليبب بالإشارة يفهم ، هذا ما أراه في هذا الموضوع ، والله أعلم بإخلاصي فيما اتوبت أن أجريه ، وهو سبحانه من وراء القصد ، وأنا والله إنما أريد هذا لأسرك لا لأضرك ، فهل تطيعني يا بنيامين في ذلك ؟ .. » — فقال بنيامين : « ماعصيت لك

أمراً قبل اليوم ، ولكن هبك فعلت كل هذا ، وتوفقت له ، فأنى لقوانين أن تحكم يبقائي عندك سنة ، وهي إنما تغرم السارق بمثلي ماأخذ ، دون أن يستعبد؟» — قال يوسف : « سوف نستفتيهم ونطلب منهم القتيا ، وهم طبعاً إنما يقتونا بشرية جدنا إبراهيم ، وهي امتعباد السارق سنة عند المسروق منه » — فقال بنيامين : « افعل ما بدا لك ، مرني بما تريد ، فأنا في كل حين أطوع لك من بنائك » — قال يوسف « اسكت عليها ، لا تعرض بذكرها بين شفة ولسان » وبناء عليه فلما جهزهم بجهازهم ، بيده اليمنى ، جعل السقاية في رحل أخيه بنيامين بيده اليسرى ، قائلاً في نفسه : « شأن عساه أن يجر شؤوناً » ولم يأخذه مصادرة ، لئلا يقيموا عليه بذلك دعوى ، ويشتكوه للملك الريان ، فيكون قد غرر بنفسه ، وكان هذا بعرفة ورضى من بنيامين ، نزولاً على إرادة يوسف ، وهذا الأمر يعد أكبر توضيحية من بنيامين ، وإنما ارتأى يوسف هذا الرأي وأقدم عليه ليرد من شأوم ، ويثنى من عنانهم ، ويقلم أظفارهم ، ويكف من عرامهم ، ويحسم من شيرتهم :

ومن لم يصانع في أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسِم

قال قيس بن زهير :

إذا أنت أقررت الظلامة لامرئٍ رماك بأخرى خطبها متفام

فلا تبد للأعداء إلا خشونة فما لك منهم إن تمكن راحم

فكانت هذه «السقاية» كفخ نصبه يوسف ليصطاد به أخاه ليكون عنده ، فلما أضاء الصبح ، ثاروا إلى أحمالهم ووضعوها على ظهور الأبرة ، وانصرفوا ومشوا أدراجهم ، في غمار الممتارين ، الآيين الى بلادهم ، يطوون الأرض طياً ، من فرحهم بميرتهم ، وإياهم بسلامتهم وسلامة أخيههم ، ثم لما كانوا قد خرجوا من المدينة ولم يبعدوا ، أذن مؤذن ، أي صرخ صارخ أو نادى مناد ، أو صاح صائح ،

أو أعلم مُعَلِّم ، وهو الخادم الخاص ليوسف ، بملاء صوته والاهتمام ظاهر على وجهه ، حيث خف وراءهم في كوكبة من رجاله ، وشخصوا خلفهم وصمدوهم ، وصرخوا عليهم : أيتها العير ، أصلحكم الله ، أنتم تحت الطلب ، فعلى رسلكم ، وقفوا مكانكم ، لأنه ظهر أنكم سارقون ، — وفيه تمرىض باختلاس يوسف من أبيه ، أو بسرقة المسرة والجبور الذي كان في قلب يعقوب ويوسف وبنيامين ، وما كانوا يشعرون به من الغبطة في نفوسهم بلمّ شملهم ، وأنس بعضهم ببعض ، والسرقعة كما تكون في الماديات تكون في المعنويات ، كما يسرق الشاعر معنى لشاعر قبله ، وكما يسرق الفرخ أو الحزن النوم من الأحفان ، وكما يسرق فتقبض النفس بانقباضه ، صفاء جليسه وانسراحه ، ويحتمل أن المراد بقوله « لسارقون » أن حالهم تشبه حال السرقة ، يا أن الصواع مخبوء في رحالهم —.

(فلما جهزهم بجهازهم .. الخ)

— ٣ —

وقال الاستاذ المقدسي : لي على هذه الآية الملحوظات التالية :

هل كانت العير حميراً أم إبلاً

الملحوظة الاولى : — العير ، جماعة الإبل التي عليها الأحمال ، والمراد بها في الآية أصحابها ، ونحوه « يا خيل الله اركبي » ، ويقال لها « عيس » ، وإذا كانت خراسانية قيل لها « بُنْت » ، وتطلق كلمة العير على القافلة أو الإبل تحمل الميرة أو كل ما مثير عليه ، إبلاً كانت أو حميراً أو بغالاً ، وقال بعضهم ، العير هي القافلة إذا كانت فيها جمال ، قد تخللتها حمير تحمل الميرة ، وقد نقل ابن جرير في تفسيره عن مجاهد أن العير هنا كانت حميراً ، وأما كلمة بعير المتقدمة في قولهم (وزداد كيل بعير) ففيها خلاف أيضاً عند اللغويين في القاموس : « البعير وقد

تكسر الباء الجمل البازل أو الجتذع ، وقد يكون للأنتى ، وهو أيضاً الحمار
وكل ما يحمل ، قاله ابن خالويه « وقال في تاج العروس : قال ابن بري : « وفي
البعير سؤال جرى في مجلس سيف الدولة بن حمدان ، وكان السائل ابن خالويه ،
والمسئول المتنبى ، بين يدي سيف الدولة ، وكانت فيه خنزوانة وعنجدية ،
فاضطرب ، فقلت المراد بالبعير في قوله : (ولما جاء به حمل بعير) الحمار ، وذلك
أن يعقوب عليه السلام وإخوة يوسف ، كانوا بأرض كنعان ، وليس هناك إبل ،
وإنما كانوا يمتارون على الحمار ، وكذلك ذكره مقاتل بن سليمان في تفسيره » اهـ .

ويقول الحقيير إن القول بأن دوابهم كانت حميراً ، مأخوذ من التوراة ،
وأما قوله إنه لم يكن إذ ذاك بأرض كنعان إبل ، فهو وهم مخالف للواقع
وللتاريخ ، بل وللتوراة التي هي المستند في أن دوابهم كانت حميراً ، فقد ذكر في
التوراة : أن « رقة » لما جاءت من العراق لكنعان كانت راكبة على جمل (تك
٢٤: ٦٤) وذكر فيها أن راحيل وقت براحها العراق لكنعان أخذت الأصنام
ووضعتها في حداجة الجمل (تك ٣١ ٣٤) وفيها أنه صار لإبراهيم لما كان بمصر
غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وآتن وجمال (تك ١٢: ١٦) ، فهذان نصان تاريخيان
منها نعلم أنه كان يوجد بشرقي كنعان (أي العراق) جمال ، وكان يوجد بغربي
كنعان (أي مصر) جمال ، فلماذا حينئذ لا توجد الجمال في نفس كنعان المتوسطة
بينها ؟ على أنه ورد في التوراة أن اليعازر الدمشقي ، عبد إبراهيم ، أخذ عشرة
جمال من جمال مولاه ومضى الى العراق (تك ٢٤: ١٠) فهذا النص التاريخي
يفيد أن الإبل كانت موجودة في نفس كنعان من أيام إبراهيم ، وفيها أن الجمل
لا يؤكل (لا ١١: ٤) فهذا النص الثاني يفيد أن الجمل كان موجوداً أيضاً في
كنعان التي هي أرض إسرائيل لأيام موسى عليه السلام ، فالقول بأن الجمل لم يكن
موجوداً في كنعان أيام يعقوب وأولاده غلط تاريخي .

المراد بالمؤذن

الملحوظة الثانية — كلمة « اذن » في قوله « اذن مؤذن » بالتشديد تفيد كثرة الاعلام ، ومنه المؤذن لكثرة ذلك منه ، واما « آذن » فانما تفيد الاعلام ولو مرة واحدة .

بدء المعركة بينهم يوسف واخوته بابقاعهم في مأزق حرج مع ابيهم

الملحوظة الثالثة — من ههنا ، اي من قوله : « فلما جهزهم » تبتدىء المعركة بين يوسف واخوته وستنتهي بانتصار يوسف عليهم عند قوله : ﴿ فلما استياسوا منه .. الخ ﴾ (ع ٨٠) ، فلكتائي به قد سمع من شقيقه بنيامين تلك التعهدات القوية التي صدرت من رأوبين ويهوذا لأبيها ، فلذلك ولكون يوسف يعتب عليهما اكثر من باقي إخوته ، لأنه كان يركن اليها اكثر من غيرهما ، فقد عول على ان يوقع الجميع منهم في مأزق حرج مع ابيهم ، وان يعمل معهم عملاً يقابل عملهم ، بحيث يدخل على جميعهم الكرب والهم ، لأنهم كانوا أنزلوه في جب الماء ، فأراد ان ينزلوا في اتون من نار الهم والغم ، وهم كانوا قالوا له حيناً ألقوه في الجب : « خذ يا صاحب الأحلام » فقال لهم الآن : « خذوها ايها الظلام » كانوا عملوا معه عملاً يريدون به ان يخلو وجه ابيهم لهم ، فأراد ان يعمل معهم عملاً ، يلفت عنهم وجه ابيهم جزاءً وفاقاً ، فذر الرماد في العيون ، وهياً لهم ضربة اليمّة ، كما كانوا ذروا الرماد في عيون ابيهم وآلموا يوسف ، جزاءً وفاقاً ، فكان يوسف يقول : احصدوا أشواك اعمالكم السابقة .

ويقول الشاعر :

إذا قيل رفقا قلب للحلم موضع وحلم الفتى في غير موضعه جهل

أو يقول

وقد تصبرت حتى لات مصطبر فالآن اقحّم حتى لات مقتحّم

هو عمل معهم هذه الحيلة السيئة لهم التي سيضيقون منها ذرعاً ، لأنهم سبق
انهم عملوا عليه تلك الحيلة السيئة ايضاً ، وهي اخذه من ابيه بحجة انه « يرتع
ويبلغ » فما كان منهم إلا انهم انزلوه في غيابة الجب وقد قيل : « الهزيمة
تعلم الظفر » .

اتفاق يوسف مع بنيامين على تسريته

الملاحظة الرابعة — إن قال قائل ما الدليل على أن يوسف اتفق مع أخيه بنيامين
على تسريته ليقيم عنده ، فهل ورد بذلك حديث عن المعصوم ، أو هل يوجد في
القرآن ما يشير لذلك ؟ قلت لا هذا ولا هذا ، إنما دليلنا على ذلك كون يوسف
شقيقاً ومحباً مخلصاً لبنيامين ، وبنيامين كان عنده كضيف نزيل كريم ، وهذه
الضيافة كانت بدعوة سابقة من يوسف ، فمع هذه الأحوال لا تقدر أن تتصور أن
يوسف دبر هذه المكيدة لبنيامين بدون أن يشعره ويتفق معه عليها ، وإلا كان
ذلك قطعاً للرحم ، وأذى كبيراً للضيف الكريم البريء ، وقد قال تعالى « والذين
يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا ، فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً »
(٣٣ : ٥٨) .

ممرات قبول بنيامين

الملاحظة الخامسة — إن قال قائل « كيف رضي بنيامين بهذه الاهانة ووافق
عليها ووقف بازاء أخيه موقف السامع المطيع ، موقفاً إيجابياً محضاً ، مع أنه يوجد
له ثلاثة موانع ، تمنه من موافقة أخيه : أولها المحافظة على شرفه ومروءته أمام
المصريين والحكومة وخوفه من الوقوع في الخجلة معهم ، وثانيها ، تسبب بنيامين

بقبوله هذا الأمر في إدخال الكدر على إخوته الذين جاؤا به من عند أبيه بعد اللثيما والتي ، وبعد ما أعطوه الأيمان المرحجة ، واليهود الوثيقة ، وثالثها ، إدخال زيادة الهم والغم على قلب أبيه يعقوب ؟ .

فإننا نحب عن الاول بأن المتهمين له خادم بيت يوسف ، الخاص وأتباعه الخصوصيين ، وهم في الباطن يعرفون انه غير سارق ، لأنهم ، على قول ، هم الذين جعلوا السقاية في رحله بيدهم ، فالمسألة كانت ضمن دائرة الخفاء بين يوسف وخدمة بيته لا غير ، وهم لما رجعوا إنما رجعوا لبيت يوسف ، لالدار الحكومة في البلاط ، وهو ما نعلمه من التاريخ ، ويعلم أيضاً من التوراة (تك ٤٤ : ١ - ١٤) ونحب عن الثاني بأن بنيامين عمل ذلك لأن إخوته كانوا أوغروا صدره عليهم بما سبق انهم عملوه مع شقيقه يوسف ، وبما كانوا يعملون معه نفسه ، حسبما يفهم من قوله « فلا تبتئس يا كانوا يعملون » ثم قوله لهم « هل علمتم ما فعلتم بيوسف واخيه » ، ونحب عن الثالث بأنه كما لا يمكننا إنكار احتمال أن هذا العمل يدخل على أبيه غمًا وهماً ؛ فلا يمكننا إنكار احتمال ان هذا العمل يدخل على أبيه ارتياحاً وسروراً ، فإننا نعتقد أن يعقوب اتخذ من هذا العمل بشرى عن ولده يوسف بأنه - في الجملة - في مصر ، لاسيما اذا انضم اليه ماسبق في السفرة الأولى من أنه جهزهم بجهازهم ، وأوفى لهم الكيل ، وكان لهم خير المنزلين ، وجعل بضاعتهم في رحالهم ، وكان قال لهم بفترة : « اثثوني بأخ لكم من أبيكم » ثم انه في السفرة الثانية أزلهم ضيوفاً في بيته ، وجهزهم بجهازهم ، وأرجع لهم فضتهم أيضاً وأخذ بنيامين عنده بحجة عمل لم بعدد عليه قبله انه عمله - فكل هذه الاشارات والرموز ، هي برقيات لاسلكية ، وأحاجي لا يفهمها ولا يجلها إلا ذو قههم دقيق ، وشعور رقيق كيعقوب عليه السلام ، ولذلك نراه بعد ذلك قال :

« عسى أن يأتيني بهم جميعاً » ثم قال : « إني أعلم من الله ما لا تعلمون » ، ثم قال

« يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه » وكل هذا إنما بناء يعقوب على تلك الاشارات التي دارت بينه وبين ولده يوسف ، وإلا إذا كان يعقوب يعرف أن ولده يوسف حي ، فمن أين عرف أنه بمصر ، حتى قال لهم (اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه) ، لولا تلك الاشارات الخفية ، التي كان يرسلها يوسف لأبيه مع إخوته ، دون أن يحوموا حول فهمها خوفاً من إيذائهم وإضرارهم بإياه ، فيوسف كان ساكناً ، ولكن أفعاله تتكلم ، وإخوته تحمل هذا الكلام الرمزي ، دون أن يفهموه ، الى من يفهمه وهو أبوهم عليه السلام ، كساعي البريد يحمل الأخبار السرية والرسائل دون أن يطلع عليها ؟

الرد على من قال ان يوسف قال لبنيامين انا اخوك اخوة صداقة وحب

وإن قال قائل : نقل المفسرون عن وهب بن منبه انه قال : « إنما قال له أنا أخوك بدل أخيك المفقود أي أنا صديقك ومحب لك ، وعاضدك عوضاً عن أخيك الفقيد يوسف ، فهي أخوة صداقة وحب ومساعدة ، لا أخوة نسب ، وعليه فبنيامين لم يفهم قط ان المتكلم معه هو يوسف أخوه النسبي ، ولم يصير بينه وبينه اتفاق على تسريقه ، بل بنيامين سُرِّق دون أن يكون له شعور بذلك » قلنا في جوابه إن وهباً استند في هذا على ما في تورااة اليهود ، فانها تفيد أن بنيامين لم يكن له شعور بذلك (تك ٤٤) وبرّدّه انه خلاف الظاهر من قوله : (أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون) والا فلذي معنى مضى ، فلا يمكن تداركه وتلطيفه ، لأن أخوة « فوطيفار » التي هي أخوة صداقة ومساعدة ، لاتنع بنيامين فيما مضى من الايام ، بل فيما يأتي فقط ، وإنما يصح تفسير وهب لو قال : « أنا أخوك ، فلا تبتئس بما سيعملون » .

كيف جوز يوسف لنفسه ان يعمل على اخوته حيلة تسريق بنيامين ليأخذه بها

الملاحظة السادسة — إن سأل سائل : كيف جوز يوسف عليه السلام نفسه أن يعمل على إخوته العشرة هذه الحيلة المسيئة التي أزعجتهم أيما إزعاج ؟ فالجواب أنه أراد أن يعرفهم انه كما هو قوي بسلطانه وشوخته وجنده ، فكذلك هو غير غبي عن طرق الحيل التي هم يتقنونها ، ويرتكزون عليها ، قائلين : « رب حيلة أنفع من قبيلة » ، فكما جربوا وعملوا عليه الحيلة حتى أخذوه من أبيه ، وأوقعوه في الحب وغربوه ، وكما عملوا الحيلة ثانياً على أبيه حينما جاؤوا بدموعهم ودم معزاهم ، فكذلك هو قد ير على هذا النوع من الحيل ، وبعبارة أخرى : أراد أن يعرفهم من هو ؟ حتى في ضروب الحيلة التي يعرفونها فكما أنه لا يعرف الشجاع إلا الشجاع ، فكذا لا يعرف المحتال سوى المحتالين .

وإليك جواباً ثانياً ، وهو أن يوسف عليه السلام كان يعرف أنهم أصحاب عَرامة ، وذوو شراسة ، فأراد أن يخضع من شوكتهم ويقت في عضدهم ، تنزيلاً لنفوسهم المتكبرة ، وإضعافاً لقوتهم المتحكمة ، فأتى هذه الحيلة المزعجة لأفكارهم ؛ وبعبارة أخرى : يوسف كان لا يزال في نخوف من شر إخوته وحماسهم ونزقهم ، فرأى أن يعمل معهم عملاً يخفف جانباً من قوتهم ، ويشذب بعضاً من حماسهم ونزقهم ، ويطامن من نخوتهم ، ويكسر من زهوهم ، ويقمع من طغيانهم ، تأديباً وترويضاً ، وعليه ولأنه من جهة ثانية يريد بقاء شقيقه عنده دونهم ، رأى أنه قد يسوغ له — خصوصاً في شرعه — أن يجري هذه الحيلة ، ليصيد بها صيدين : الأول أن يبقى بنيامين عنده والثاني أن يؤدبهم ويهذبهم ويكسر من حذتهم وكبريائهم وشكيمتهم ، فعل ذلك اضطراراً ، لا تشبهاً ولا اختياراً ، وكأنه في ذلك كالعبد في اصطلاح الجبرية ، مجبور باطناً ، مختار ظاهراً ، فإن كان يوجد عبيد هم كذلك ، فمنهم بل أمثلهم في هذا المقام خاصة يوسف ، أمّا انه مجبور باطناً ، فلأنه أراد

تشذيب شرهم ليسلم منهم وأما أنه مختار ظاهراً ، فلأن خادمه الذي فعل ذلك بأمره يرى أن يوسف اختار ذلك من تلقاء نفسه بطواعيته ، وبحسب تشبيهه ، دون أن يكون له دافع مجبر ؛

وجواباً ثالثاً ، وهو لعل يوسف أراد أن يكون رسول « الارادة الالهية » فجازى مكرراً بمكر ، فهو إذ مكروا عليه وعلى والده ، واخذوه منه بالختل والدهاء ، أراد أن يظهر بظهور آلة قصاص لهم ، وأن يجازي مكرراً بمكر ، فكان في ذلك العمل مظهراً من مظاهر اسمه تعالى « المنتقم » قصاصاً من المعتدين ، فنصب هذه الأحيولة ، وأما ملحق أباه من جراء هذا العمل ، فهو أمر طبيبي حاصل عَرَضاً وبالتبع ، ولم يكن مقصوداً ، لأن شأن البلاء أن يعم ، أو هو من طبائع حوادث القصص في الكون ، قال تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾ (٢٥:٨) ، ومن حديث ابن عمر : « إذا أراد الله بقوم عذاباً ، أصاب المذاب من كان فيهم ، ثم بشوا على أعمالهم » ، يوسف أراد أن يرميهم بحجر نظير حجرهم الذي كانوا رموه به سابقاً ، أراد أن يربطهم بوتر نظير وترهم الذي كانوا ربطوه به قديماً ، أراد أن يكيد لهم كما كادوا له ، قال تعالى : ﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ ، وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ، فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾ (١٩٤:٢) ، فكل مايجب احترامه ، يجوز انتهاك حرمة قصاصاً ، فكما جاز للمسلمين مقاتلة منائهم في الشهر الحرام من أشهر الحج ، لأنهم كانوا قاتلوا المسلمين عام الحديبية رمياً بالسهم والحجارة ، وصدوهم عن دخول مكة ، وكان ذلك في ذي القعدة من الأشهر الحرم ، فكذا جوز يوسف لنفسه إجراء هذه الحيلة ، وإن كانت تحزنهم ، لأنهم كانوا أحزنوه سابقاً بالحيلة التي أجروها عليه ، وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴾ (٣٩:٤٢) ، فالتهم يكره أن يذلّ لثلاثا يجترأ عليه ثانياً ، والمنتصر لنفسه محمود

على انتصاره ، إذ لاجرج على الانسان أن يأخذ حقه قصاصاً غير متعد حد الله تعالى ، وإن كان العفو أفضل ، والمافي ممدوحاً أكثر ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ (٢٣٧:٢) ، ﴿ وَلَنْ صَبْرْتُمْ لَهَوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ (١٢٦:١٦) ، ﴿ وَلَنْ صَبْرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (٤٣:٤٢) ونظيره ماروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن لحسان بن ثابت أن يهجو قريشاً بعدما طفقوا يهجون مقامه الشريف ، لكي يجازي هجواً بهجو : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ (٤٠:٤٢) ، ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عَاقَبْتُمْ بِهِ ﴾ (١٢٦:١٦) ، ﴿ وَلَنْ اتَّصَرَ بَعْدُ ظَلْمُهُ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ مَسْئَلٍ ﴾ (٤١:٤٢) ، ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ، لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (٢٥١:٢) ، قال الشاعر :

لست ذا ذلة إذا عضني الدهر ولا شاخاً إذا واتاني
أنا نار في قلب من يظلموني أنا ماء جار مع الخلالن
وقال مُرَبِّطُ الْعَنْبَرِي :

لو كنت من «مارن» لم تستبح إلي بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا
إذا لقى من نصري معشر خشن عند الحفيظة إن ذو لومة لانا
قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم طاروا اليه زرافاتٍ ووحدانا

فيوسف كان في مقاصته لاختوته على مذهب « المازنيين » لاعلى مذهب « العنبريين » ، وكان على المذهب الذي تمذهب به أبو الطيب حيث بقول :

وإني لمن قوم كائن نفوسهم بها أنف أن تسكن الاحم والعظما
فلا عبرت بي ساعة لا تعزني ولا صحبتي مهجة تقبل الظلما

أو على مذهب « الفيند الزماني » في قوله :

وبعض الحليم عند الجهل للذة إذعان وفي الشر نجاة حين لا ينجيك إحسان

وجواباً رابعاً — « قد لا يقاوم الشر إلا بالشر ، وقد لا يدفع الظلم إلا بالظلم ، وقد لا يبرأ العليل إلا بتجريمه الدواء المر ، وقد لا يشفى الجريح إلا بقطع شيء من جسمه ، وحامل السيف لا يغمده في غمده ، إلا أمام حامل سيف مثله ، والسيل الجارف لا يقف عن جريانه إلا إذا وجد في وجهه سداً يعترض طريقه ، والظالم لا يظلم إلا إذا وجد بين يديه ضعيفاً ، والمحتال لا يحتال إلا إذا وجد أمامه غنياً ، والناس لا يتحامون ولا يتحاجزون ولا يأمن بعضهم بأس بعض إلا إذا برزوا جميعاً في ميدان واحد ، يتقلدون سلاحاً واحداً ، من نوع واحد » (١)

كان الممهود من طبع اخوة يوسف انهم يكدرون صفو الحياة ، فخشى أن يمسكوه اليوم كما أمسكوه سابقاً — من موضع الضعف منه ، وما هذا الموضع إلا أنهم يعلمون أنه لا يعرف شيئاً من الحيل ، التي يعرفونها ، ولذلك رأى أن لا بد أن يعمل معهم عملاً يوقعهم في حيص بيص ، يلبسه على خستوته ، ويسigne على كدورته ، ليعرفوه من هو ، وليعلموا أنه يعرف ما يعرفون ، فمثل كمثل السائر ، يعترضه الجبل ، فلا يجد بداً من اجتيازه ، نعم لاريب أن الطريق بغير الجبل يكون أجمل وأسهل وأنضر ، ولكنه صادف أنه كان في طريقه ولا بد من اختراقه ..

وجواباً خامساً « ثبت في الصحيح أنه إذا عبر أهل الجنة الصراط ، وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار ، فيقتص لبعضهم من بعض ، مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا هذبوا ونقوا ، أدن لهم في دخول الجنة » فلا يدخلون الجنة إلا بعد التهذيب والتنقية ، كما قال تعالى : ﴿ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ (٣٩: ٧٣) ، وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال : « لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر » ، وبناء عليه فكان يوسف عليه السلام ، اعتبر أن مصر جنة ، وأن فلسطين

بالنسبة إليها كأنها نار ، وأن إخوته قد وصلوا للصراط الذي بين الجنة والنار ، فأراد أن يقتص منهم وهم على الصراط ، حتى إذا ما هذبوا ونُقوا ، قال لهم : « طبتهم فادخلوها خالدن » .

هذا ما ظهر للعبد الحقير ، والله تعالى أعلم .

شبه حادثة يوسف هذه بحادثتي العبد الصالح الذي غرق في السفينة وقتل الغلام .
الملاحظة السابعة — حادثة يوسف هذه تشبه حادثتي العبد الصالح الذي آتاه الله رحمة من عنده وعلمه من لدنه علماً ، إذ خرق السفينة ، ثم قتل الغلام ، فما كان جواباً عنها ، فهو الجواب عن حادثة يوسف هذه عليه السلام .

استفهام اخوة يوسف واستهجانهم نسبة السرقة اليهم

آ (٧١) ﴿ قَالُوا : - وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ - مَاذَا اتَّفَقِدُونَ ؟ ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الاحدى والسبعون فقام برهان الدين الدرعاوي ^(١) وقال :

سمع إخوة يوسف صرخة الصارخين وراءهم ، فأجفلوا ، (و قالوا) بلهفة وامارات البغته تبدو من أسارير وجوههم ، (و) قد (أقبلوا عليهم) أي على المؤذن ومن معه ، محولين عنان دواهم اليهم ، (ماذا تفقدون ؟) بلهجة الاستفهام الذي يمازجه استغراب ، وفيه شيء من استهجان نسبتهم للسرقة .

الصواع المفقود

آ(٧٢) ﴿قَالُوا : نَفَقَدُ صُوعَ الْمَلِكِ ، وَلَمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ
بَعِيرٍ ، وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ .﴾

ثم تليت الآية الاثنتان وسبعون فقام تاج الدين العكي وقال :

(قالوا) أي المؤذن ومن معه من الصارخين (نفقد صواع الملك) الريان ،
— وكل ما يشرب به فهو صواع ، ويقال له أيضاً صاع ، وقيل هو إناء الشرب إذا
كان من فضة أو ذهب ، وأما « القدح » فهو ما كان من زجاج ، و« العُسَّ » من
الخشب ، و« العلبة » من الأدم ، و« الطَّرْجُبارة » من الصفر ، و« المِرْكَن »
من الخنزف ^(١) ، ولم ترد كلمة صواع في القرآن الا في هذا المثل ، وكان هذا
الصواع من فضة ، وتقدم تسميته بالسقاية وسماه في التوراة « طاساً » — وهو
ليوسف عليه السلام ، وإنما نسبته هنا للملك ، لأن كل ما كان ليوسف وغيره من
المأمورين فهو من الملك وللملك ، أو يقال أراد « بالملك » من له شيء من الملك ،
كما سيأتي ليوسف ان يقول : ﴿ رب قد آتيتني من الملك ﴾ ، فالملك إذن يوسف
نفسه ، وآثروا التعبير به تهويلاً على السامعين ، (ولمن جاء به حمل بعير) لأقله
من خالص الحب وجيده ، يَعْتَمُده من القمح الصافي ، فإن جاء به من رحله ،
أخذ حمل البعير مقدمة او هدية ، بعد العفو عنه ، لأن الاعتراف يهدم الاقتراف ،
وان جاء به من رحل غيره أخذه على انه جُمالة او عمالة ^(٢) او اجر او حلوان ،

(١) فقه اللغة ، ومنه يعلم ان كلمة صواع لم تحدث لهذا الاناء جديداً حينما صار يكال به .
بل هي اسم له عتيق قبل ان يكال به .

(٢) الجمالة ما يجعل للانسان من الرشا والمصانعات والعمالة ما يسمى للعامل لقاء عمله .

مع شكره ، فنحن مستعدون ان نجمع له بين الماديات والمعنويات ، وهو في اي قالب وضع ذلك فهو حر ، على كل حال نحن مستعدون لحجاراته بالحسن ، فارشدونا لذلك ، ارشدكم الله تعالى ، ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق واتمم تعملون والبعر بمنزلة الانسان ، والجل بمنزلة الرجل ، والناقة بمنزلة المرأة (ميرافى) — كان حمل البعير في ذلك الحين العصيب ، حين الأزمة وساعة العسرة يساوي مبلغاً لا يستهان به ، مبلغاً له قيمته ، فالوعد به اذ ذاك كالوعد بسعادة مستقبلية ، او بضمانة الحياة ، ومن هنا اقتضى الحال ضرورة وجود كفيل ، يتعهد بتحقيق هذا الوعد الهام ، ولهذا قال : ﴿ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴾ والزعيم غارم ، وانا له ضمين ، والضمين مسئول ، وانا به كفيل ، والكفيل كالأصيل ، وانا له حميل ، والحميل مطالب ، وسأكون اول مصفق له ولرؤيته ، إن اراحنا من عناء التفتيش ، وقد جاءت هذه اللفظة في قوله تعالى : ﴿ سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ ﴾ بذلك زعيمٌ ﴿ (٤٠ : ٦٨) ﴾ ولم يقع هذا اللفظ في كتاب الله في غير هذين الموضعين ، وهما بمعنى واحد وهو الضامن للشيء المتكفل به ، هذا هو معناه عند العرب ، واما اهل اليوم فيكثر استعمالهم له في الذي يتكلم عن القوم ويحتج لهم ويحامي عن حقوقهم ومصالحهم ، ضامناً لهم النجح والقلبة ، فهو بحسب استعمالهم هذا يفيد معنى الضمان والرأسة .

اخوة يوسف يرددون التهمة

آ (٧٣) ﴿ قَالُوا : تَاللّٰهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ ، وَ مَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾ .

ثم تليت الآية الثالثة والسبعون فقام الشهاب الحيفاوي^(١) وقال :

سبق أن مندوبي « العزيز » سألوا إخوة يوسف عن الصواع ، وقالوا لهم ،

(١) نسبة الى حيفا من بلاد فلسطين

هانحن أولاء سألناكم ، فما رأيكم وما علمكم ؟ ها قد سمعتم صوتنا ، فاسمعونا صوتكم ، وأطلعونا على جلية الأمر ، وأما إخوة يوسف فلما سمعوا كلام المؤذن ورققائه ، تعجبوا جداً وأحفظهم هذا السؤال ، وأغضبهم وعاظهم ، وتقززت منه نفوسهم ، لأول وهلة ، و (قالوا) لسنا هناكم ، ما أبعد وهمكم ! هي والله الفحشاء واللؤم (تالله لقد علمتم) أننا (ماجئنا) مصر (لنفسد في الارض) ونعيث في مملككم تعجب إخوة يوسف من نسبة السرقة اليهم ، ونفهم هذا من التاء ، لأنها وإن تكن حرف قسم كالباء والواو ، ولكن فيها زيادة معنى التعجب ، كما ذكره الزنجشيري في تفسير سورة الأنبياء .

وإنما قالوا « لقد علمتم » فاستشهدوا بعلامهم لما ثبت عندهم من دلائل دينهم وأمانتهم في كرتي بحبيثهم ، وورد أنهم قالوا لهم : هذه الفضة التي وجدناها في أفواه عدلنا رددناها إليكم من أرض كنعان ، فكيف نسرقة اليوم الصواع ؟ . . .

والفساد ضد الصلاح ، فكل ما يخرج عن وصفه الذي يكون به صالحاً ونافعاً يقال فيه أنه فسد ، ومن عمل عملاً كان سبباً لفساد شيء من الأشياء يقال إنه أفسده ، فإزالة الأمن عن الأنفس أو الأموال أو الأعراض لإفساد في الارض ، وإخلال لنظام الاجتماع وأسباب المعاش ، (وما كنا) قط (سارقين) أي نوصف بالسرقة .

سمعوا هذه التهمة التي ألصقت بهم ، فأكبروها وأعظموها ، وظهرت الأتفة على وجوههم ، ممزوجة بشيء من اضطراب ورعدة في الحواس ، وملامح الغضب تلوح على جباههم وصاروا ينظرون الى مندوبي العزيز شزراً ، وقالوا بنعمة جافة وقد عقدوا بين حواجهم : تبأ علينا ، ماهذه الظنونات التي تظنونها فينا ؟ بعد ما عرفتمونا وجربتمونا ، فلقد عرفتم تاريخ حياتنا وسوابق أعمالنا ، وتبينتم حقيقتنا ، وإن انطباق هذه على هذه لهو أيسر من إثبات السرقة علينا ، « وأن الرقمتان من وادي الفضا » ، هل نحن متلصصون ؟ . . هل نحن متشردون ؟ . . لا بد أن يكون

ذهنكم عالقاً حتى الآن بما كنا فعلنا من إرجاع بضاعتكم اليكم ، فكيف تقدم على هذه العظيمة التي هي زيادة عن كونها سرقة ، ففيها جرأة على « العزيز » وحكومته ، ونكران لجيلة الذي أجراه معنا ، فهل نحن مائتو الضمير لهذه الدركة ؟ .. أفٍ وتفٍ من هذه النسبة التي لطحمتونا بها !! ..

ج اخوة للمحكم على أنفسهم بنفسهم بجزاء سارق الصواع

آ (٧٤) ﴿ قالوا : فما جزاؤه ؟ إن كنتم كاذبين ؟ ﴾

ثم تليت الآية الرابعة وسبعون فتابع الشهاب الحيفاوي كلامه قائلاً:

قال مندوبو « العزيز » الى اخوة يوسف ، وقد نظروا اليهم شزراً : لآف ولا تفٍ ، أنظنون اننا نلقي القول جزافاً ، ولا نفكر فيما يثبت ويحققه ؟ طاش سهمكم ، إن البحث هو الذي يظهر صدقكم من كذبكم ، (فما جزاؤه) — الضمير للصواع — أي فما جزاء سرقة ، (إن كنتم كاذبين) في جحودكم وادعائكم البراءة منه ؟ هذا سؤال تقدمه لكم ، أفنونا ماجورين أو مشكورين ، وأفيدونا بالحكم القضائي في هذه الحادثة ، وخلاكم ذم ، فأجيبوا فأنتم أعلى رأيكم عيناً . ويمكن أن نقول بعبارة أخرى :

قال رجال العزيز لإخوة يوسف : أخفضوا أصواتكم ، واعرفوا مع من تتكلمون ، ومن هم الذين تخاطبون ، إنكم لستم تخاطبون جماعة من السوق ولكنكم تخاطبون جمعاً من خدمة الحكومة الهكسوسية ، وليست المسألة مسألة أيمان ، ولا اعتماد على وجدان ، بالله عليكم دعونا من الدعاوى العريضة ، فنحن لانعتبر الأقوال ، لكن الأعمال ، وإن أحسن حكم بيننا وبينكم هو القرائن الراهنة ، والدلائل الساطعة ، ولا نعلم هذا إلا من نتيجة التفتيش ، وعند الامتحان ، يكرم

المرء أويهان ، ونحن نريد أن نتحاكم معكم إليكم ، وننزل على حكمكم ، فمع أننا قد اعتبرناكم خصوماً ، نقبل أن تكونوا علينا قضاة ، فاحكموا بيننا بالقسط والنصفة .
ماقولكم دام فضلكم ، فيما لو تبين كذبكم ؟ وانه كذب خبريت (١)
وان الصواع معكم ، فما تقولون حينئذ وبأي حكم تحكمون ؟ زجواكم الجواب ، ولكم من الله الثواب .

وقبل الختام نقول : تبارك الله القدير ! ما أكبر الفرق بين الأنبياء وغيرهم !
يعقوب جاء اليه أولاده ، ينعون له يوسف وينبئونه باقتراس الذئب إياه ، فلم يصرح لهم بأنهم كاذبون ، مع أنهم كانوا كذلك ، وهو يعتقدهم كذلك ، لكنه صعب على طبعه اللطيف أن يواجههم بكلمة « كاذبين » وأما هؤلاء الجنود المصريون فوصفهم وواجههم بكلمة « كاذبين » مع أنهم ما كانوا كاذبين ، والمصريون لا يعتقدونهم كاذبين ، فما أكبر الفرق ؟..

الجزء من جنس العمل

آ (٧٥) ﴿ قالوا : جزاؤه من وجد في رحله ، فهو جزاؤه ،
كذلك نجزي الظالمين ... ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الخامسة وسبعون فقام الشيخ الجولاني (٢) وقال :
(قالوا) أي اخوة يوسف ، والشر باد في عيونهم (جزاؤه) أي جزاء سرقة في شريعتنا نحن آل يعقوب أن يؤخذ (من وجد في رحله) وليكن من كان (فهو جزاؤه) ولا كرامة ، — وهذه الجملة تقرير للحكم — أي فأخذ السارق

(١) كذب خبريت : خالص مجرد لا يستره شيء

(٢) نسبة الى الجولان من بلاد الشام

نفسه هو جزاؤه لا غير كقولك : « حق زيد أن يكسب ويطعم وينعم عليه ، فهو حقه » ، لتقرر ما ذكرته من استحقاقه (كذلك) بدون أسف طبعاً (نجزي الظالمين) فوقفنا واحد ، مع القريب والغريب ، برنامج ثابت لمجازاة كل ظالم ، لن تجد له تبديلاً ولا تحويلاً ، وإن سكوتنا عن هذا الظالم السارق بعد جريمة ومشاركة له في ظلمه وسرقته ، فلا بد لنا من مجازاته ، إحقاقاً للحق ، وانتصاراً للشريعة العبرانية ، وتأييداً للقوانين السماوية العادلة .

(قالوا : جزاؤه من وجد .. الخ)

— ٢ —

وقال العلامة الشويكي (١) :

جزاء السارق في شريعة آل يعقوب أخذه كعبد

سمع إخوة يوسف كلام مندوبي « عزيز مصر » فاشتموا منه جفاءً ، واستروحوا منه شدة ، فكادوا يميزون من الغيظ ، وصار الشرر يتطارر من عيونهم وتملكهم التهيج العصبي ، ولكن الأمر كما يقال : « المـين بصيرة واليد قصيرة » فهؤلاء المتكلمون هم أصحاب البلاد المسيطرون ، وإخوة يوسف ضيوف غرباء ، لذا قالوا بصوت يرتعش ، نحن لانبعأ بهذا التهديد ، بل نقول لكم إن جزاء سارق الصواع هو أخذ صاحب الرحل الذي تجذونه في رحله ، لأن كل غادر مأخوذ ، وإننا نجزي الظالمين في شريعتنا بهذا الجزاء ، ولا نجزيهم بسوى ذلك ، بحيث لانجزي نفس عن نفس شيئاً ، ولا يقبل منها فدية ، ولا تنفعها عندنا شفاعاة ، ولا أحد يقوم بنصر هؤلاء الظالمين ، هذي هي فتوانا ، والبحث والتحري هو الحكم بيننا وبينكم ،

١ :

هذا وقد حمي وطيس الشجار ، واشتدت بينهم نار الحوار ، الى أن كانت النتيجة أن مندوبي « العزيز » سمعوا هذه الفتوى من أخوة يوسف فاطمأنت قلوبهم عندما تلقفوا هذا الجواب المنتظر ، واعتقدوا أنهم وصلوا المطلوب لأنهم لم يسألوا إخوة يوسف السؤال السابق إلاّ وهم يرجون أن يسمعوا منهم هذا الحكم العبراني .
وأخيراً أُختمت كلامي بالملاحظات الآتية :

إقامة الظاهر مقام المضر في قوله جزاؤه

أولاً — كلمة « جزاؤه » في الآية مبتدأ والجملة الشرطية كما هي خبره على إقامة الظاهر فيها إقامة المضر ، والأصل : جزاؤه من وجد في رحله فهو هو ، فوضع الجزاء موضع هو ، كما تقول لصاحبك : « من أخو زيد ؟ » فيقول لك : « أخوه من يقعد الى جنبه فهو أخوه » أي فهو هو ، ولكنه أقام الظاهر مقام المضر .

جزاء السارق في متى السرائع

ثانياً — إن ما ذكر في الآية الكريمة من الحكم هو حكم السارق في الشريعة العبرانية الإبراهيمية ، الذي خلاصته ان جزاء الشيء المسروق هو نفس السارق ، فيؤخذ كعبد ، ولا أعلم مقدار مدة عبوديته في الشريعة الإبراهيمية ، غير ما قاله المفسرون (والعهد عليهم) ، أنها سنة ، وأما جزاؤه في الشريعة الموسوية ، فهو انه إن كان عنده مال أخذ منه بقدر ما سرق مضاعفاً ، والاّ أخذ عبداً مست سنوات ، قال في التوراة في السارق : « إنه يُعَوّض ، فإن لم يكن له ، يُبَع بسرقة » (خر ٢٢ : ٣) قال في السنن القويم : « ذهب أكثر المفسرين للتوراة الى أن مقدار العوض مضاعف قيمة الخسارة ، وفسروا بيعه بسرقة ، أنه يكون عبداً لرب البيت مست سنوات ، فيكون قد أوفى بذلك ما عليه » .

وأما شريعة المصريين ، فهي انه يجب على السارق أن يدفع ضعف قيمة المسروق
لا غير ، وليس فيها استرقاق .

وأما حكمه في شريعتنا المحمدية فهو كما قال الله تعالى : ﴿ السارقُ والسارقةُ
فاقطعوا أيديهما ، جزاءً بما كسبا نكالا منَ اللهِ ، واللهُ عزيزٌ حكيمٌ ﴾
(٤١:٥) وقد اختلف علماء الاسلام في القدر الذي يوجب الحد من السرقة ،
فذهب جمهور السلف والخلف ، ومنهم الخلفاء الأربعة الى أن القطع لا يكون إلا
في سرقة ربع دينار ، أي ربع مثقال من الذهب ، أو ثلاثة دراهم من الفضة ، وعلى
هذا الأئمة الثلاثة ، وأما مذهب الحنفية فهو أن النصاب الموجب للقطع عشرة دراهم
فاكثر ، ولا قطع في أقل منها .

الاسترقاق في شتى الشرائع

ثالثاً — تتعلم من هذه الآية أن الاسترقاق كان موجوداً في الشريعة الابراهيمية
ثم تتعلم من التوراة أنه كان موجوداً في الشريعة الموسوية ، والواقع أن الرق كان
فاشياً قبل البعثة المحمدية في العرب واليهود واليونان والرومان . على أبشع صورة
وأنكرها ، وههنا يجب أن لا تنسى استرقاق يوسف يمد « السيارة » التي نسلته
من الجب وباعته بمصر ، فلما جاء الاسلام ضيق دائرته ، وحصره في أسرى الحرب ،
وأمر أتباعه أن يعتبروا الرقيق كواحد من أسرهم ، فقال ﷺ : (إخوانكم
خوَلُكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فأطعموهم مما تأكلون ، وألبسوهم مما تلبسون ،
ولا تكفوهم من العمل مالا يطيقون) الى غير ذلك من الاحاديث .

كيف جوز يوسف لنفسه انه مجازي أهوته بشريعهم

رابعاً — نعلم إذا عمل إنسان جريمة في مملكة غير مملكته ، وجب استفتاء

قانون تلك المملكة التي وقع فيها الجرم ، وذلك احتفاظاً بشرف وسلطان تلك المملكة ، ولا يجوز الرجوع في الاستفتاء والحكم لقانون مملكة المجرم ، اللهم إلا ما استثنى من هذه القاعدة القضائية ، وذلك مثل « الملك » إذا وجد في غير مملكته ، وعمل هناك جريمة ، فانه إنما يعامل بقانون مملكته احتراماً لمقامه ، ومثل « سفراء الدول » في الممالك الأخرى ، فانهم إنما يعاملون بقانون دولهم ، وذلك لأجل حربهم تماماً ، ونوسيع نطاق عملهم في البلاد الأخرى ، واخوة يوسف ههنا ليسوا بملوك ولا سفراء ملوك ، حتى يعاملوا بأحكام مملكتهم ، فما الذي جوز ليوسف عليه السلام أن يوصي عبيده ، أن يستفتوا إخوته توصلاً للحكم عليهم بشريعتهم في مملكتهم ، دون الحكم عليهم بشريعة المملكة المصرية ، وأليس في هذا تحقير لمملكة مصر وقوانينها ؟.. ثم أليس في هذا ظلم لإخوته ، لأن في حكمهم في هذه الحادثة صرامة أشد وأغلظ من حكم المصريين ؟ ..

وجوابنا عن هذا: لعل يوسف عليه السلام اعتبر « الجاني » من إخوته « مملكاً » عمل جناية في غير مملكته ، فانه لا يعامل إلا بقانون مملكته ، أو كان يوسف اعتبر إخوته كأجانب أصحاب امتيازات فلذلك أراد أن يحاكمهم بقوانينهم ، وعلى كل حال ، فكأن يوسف من جهة عمل لهم شيئاً من الاحترام ، ومن جهة أراد أن يستعبد أخاه ليحظى ببقائه عنده ، فيكون كمن رمى حجر أليصيد صيدن ، ويحتمل أن هذه التدقيقات لم يكن معمولاً بها في تلك المصور بمصر ، بل كان يجوز أن يعامل الغريب الأجنبي بقوانينه في بلاده ، ولو وقعت منه الجريمة في مملكة أخرى لها قوانين أخرى .

ويحضرني الآن جواب ثالث ، وهو أن القوانين المصرية كانت في ذلك العصر وضعية ، أي من وضع البشر ، ولكن قانون العبرانيين كان شريعة من وضع

السماء ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون الظالمون الفاسقون ، هذا ما يفسر لنا من الجواب ، والله تعالى أعلم .

الوقوع في الفخ أو ثبوت السرقة

آ (٧٦) ﴿... فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ ، ثُمَّ اسْتَخْرِجَهَا مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ ، - كَذَلِكَ كَدْنَا لِيُوسُفَ ، مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ ، إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ، تَرَفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءَ ، وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ - ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية السادسة وسبعون فقام الاستاذ الحلبي () وقال :

قال لأبناء يعقوب الأحد عشر من وُكِّلَ بهم من المؤذن وجماعته : زيد أن نفتش أوعيتكم ، ما من ذلك بد (فبدأ بأوعيتهم) أي بدأ بتفتيش رحلهم (قبل وعاء) رحل (أخيه) بنيامين ، لنفي التهمة ، على حد قول الشاعر :

وطرفك إما جئتنا فاحبسنه كما يحسوا أن الهوى حيث تنظر

(ثم) لما وصل المفتش الى رحل بنيامين ، أصاب السقاة فيه و (استخرجها من وعاء) من رحل (أخيه) أخي يوسف (كذلك) أي مثل ذلك الكيد العظيم (كدنا ليوسف) بأن ألهمناه أن يوصي ممتدحه باستفتائه من إخوته عن حكم السارق ، ثم وقفا إخوته أن يوقعوا الجواب على السؤال حسبما ظن وأراد (ما كان) يوسف (ليأخذ أخاه) بنيامين (في دين الملك) في جزاء ملك الديار المصرية ، أي

آ (٧٦) كيد يوسف لاختوته كان بوحى من الله عقاباً لهم في الدنيا ١٠٨٩.

في المحكمة الجزائية بالديار المصرية — وهو تفسير للكيد وييان له — لأن الذي كان يحكم به في دين ملك مصر ان يغرم السارق مثلي ما سرق ، لا أن يستعبد ، فالدين ههنا بالمعنى اللغوي هو الجزاء ، كما في « ما لك يوم الدين » . (١ : ٣) ، ﴿ إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَلَمْ نَكُنْ مِنْ دُونِ يَوْمِ الدِّينِ ؟ ﴾ (٣٧ : ٣٥) ، ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ ﴾ (٢٤ : ٢٥) ، ﴿ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴾ (٥١ : ٦) ، ﴿ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً ﴾ (١٦ : ٥٢) قال الشاعر :

ولم يبق سوى العدوا ن دناهم كما دانوا

وورد « كما تدين تدان » أي كما تكافأ وتجازى ، ويحتمل أن يكون المراد بالدين الشريعة ، أي شريعة الجنايات والقصاص والعقوبات ، فيكون لفظ الدين محمولاً على المعنى الشرعي أو العرفي (إلا أن يشاء الله) أي ما كان يأخذه لإلزاميته الله ، بأن يجعل له عذراً فيما فعل ، وقد شاء الله ذلك (نرفع درجات من نشاء) في العلم ، كما رفعنا درجة يوسف فيه سابقاً ولاحقاً (وفوق كل ذي علم عليم) أي فوق كل صاحب علم أو كل ذي معرفة عليم عارف ، بحيث يكون فوقه بطبقات ، إلى أن ينتهي الإنسان الى درجة في العلم ليس بعدها أوسع منها إلا علم الله تعالى ، وعندها يقف علم ذلك الانسان .

(فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء اخيه .. الخ)

- ٢ -

وقال مولانا عمر البيلاني :

كبير يوسف لاختوته كان بوحى من الله عقاباً لهم في الدنيا

بدأ المقتس يفتش أوعيتهم قبل وعاء بنيامين فتناولت أعتاقهم ليروا ما يبرر كلامهم أمام من اتهمهم ، ثم مشى مشياً متثاقلاً نحو رجل بنيامين ، وما كاد يفتحه .

حتى استخرج الصواع منه ، وعندئذ قطعت جبهة قول كل خطيب ، فاقشعرت أبدانهم ووقفت شعور رؤوسهم ، وسكتوا كأنما على رؤوسهم الطير ؛ وأوذلك فأجفلوا وبهتوا جميعاً لما نظروه ، مما لم يكونوا يتوقعونه من بنيامين ؛ أما بنيامين فقد انصب عليه سوط لوم وطمع من إخوته ، فتظاهر بالخلجل وتصنع بالاضطراب تصنعاً لم يغير شيئاً من مظاهر عزته وأنفته ، وكأنه لم يعمل شيئاً يذكر ؛ صبر ولم يرد أن يكشفهم بالحقيقة ، خوفاً من ظهور الأمر قبل أوانه ، فتبطل الحيلة التي دبرها شقيقه يوسف ، فأبقى الأمر مكتوماً الى حينه ، وتحمل تبعه السرقة والتصاقها به ، لاعتقاده انه بذلك يخلص من جور إخوته له ومضايقتهم إياه بفلسطين ، وانه بذلك رفع من حضيض الأسر ، الى أوج النسر ، وهكذا تمت الحيلة ليوسف ، ورب حيلة أنفع من قبيلة ، وبسعيه هذا فاز بطريده وأخذ أخاه بنيامين .

وأما إخوته فاحسوا بنيران هبت في أبدانهم ، وودوا لو تسوى بهم الأرض ، ولا كانوا يشهدون هذا المشهد المخجل أمام « عزيز مصر » وعبيده .

كذلك الكيد العجيب كاد الله ، أي دبر وأراد وصنع ويسر ليوسف المكائد لأجل تحصيل غرضه من المقدمات التي رتبها ، يكيد بها من سبق أنهم كادوه ، ويصيدها من كانوا صادوه « جزاء وفاقا » ، « وواحدة بواحدة جزاء » ، « بالصاع الذى تكيل يكال لك » .

روى البخاري في تاريخه من حديث أبي بكر : « اثنان يعجلها الله في الدنيا ، البغي وعقوق الوالدين » ، فعمل الله تعالى أراد تعجيل عقاب أولاد يعقوب في الدنيا لبغيتهم على أخيه ، وعقوقهم لأبيهم ، بأن ألهم يوسف عليه السلام أن يدبر هذه المكيدة ، ليدوقوا وبال أمرهم . وفي الحقيقة إن هذا كله يرجع لقدرة الله تعالى التي لا تقاوم وإرادته التي لا تقال ، فلهذا ولما كان الله هو المرجع لكل حادث ، والممول عليه في كل الأمور ، نسب هذا الكيد له سبحانه وتعالى .

أو يقال : لا كان هذا الكيد محموداً ومأذوناً فيه شرعاً ، لما فيه من فائدة يوسف وأخيه ، نسب لله ، فقال : « كذلك كدنا ليوسف » ، بخلاف كيد الإخوة ، فإنه شر ليوسف ، ولهذا نسب لهم وللشيطان في قول أبيه له : ﴿ فيكيدوا لك كيداً ، إن الشيطان للإنسان عدو مبين ﴾ فيوسف ما قصد إلا خير أخيه ، والإخوة لم يقصدوا إلا شر أخيه ، قال الشاعر :

ويقبح من سواك الفعل عندي فتفعله فيحسن منك ذاكا

كيد يوسف يجوز أن يكون كيداً تكوينياً راجعاً للقضاء والقدر

ويجوز أن يكون كيد يوسف لإخوته كيداً تكوينياً راجعاً للقضاء والقدر ، أي راجعاً للظروف التي احتاطت بيوسف ، فإن هذه هي مظهر القضاء والقدر ، وتوضيحه أن يقال : إن الظروف والأحوال التي كانت أحاطت بيوسف أخيراً سهلت له أن يكيد لإخوته ، تلك الأحوال هي كونه قد صار من رجال البلاط المتسلطين ، وربما كان قد تعلمه من تأويل الأحاديث ، ومصائر الكلام ، وبما عرف من شريعتي إسرائيل ثم القبط ، حتى صار فيه أهلية للتصرف في الحوادث ، وكيفية الخروج منها والدخول فيها ، ومقدرة تامة على عمل ما يريد .

كيد يوسف لا هوته بل من حيث اقتضاه الحال بينه وبينهم او حيث اختار لنفسه

ويمكن أن يقال : إنه كان ليوسف عليه السلام وصفان : وصف كونه نبياً ورسولاً ، ووصف كونه وزير مالية وعزيراً لمصر في البلاط الملوكي ، وسياسياً محنكاً ، فهو باعتبار حالته الأولى ، كان له مساع وأعمال روحية يوققه الله لها ويساعده عليها ، وباعتبار حاله الثانية ، كان له مساع وأعمال زمنية ، يوفق لها ويساعد عليها من الله ، الذي هو خالق كل شيء ، ولا نشاء إلا ما يشاءه ، قال

تعالى : ﴿ وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا ، وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ ، نُؤْتِهِ مِنْهَا ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴾ (١٤٥:٣) ، فيوسف نبي ، ولكن لم يكن على منهج إدريس وهرون وركريا ويحيى وعيسى ونحوهم ممن كان نبياً محضاً ، بل كان على منهج إبراهيم وموسى وداود وسليمان ونحوهم . ممن هو نبي وأمير ومملك ذو سلطة وبأس ، ومعلوم ان الحالة التي كانت بين يوسف وبين إخوته ، كانت حالة حرب ، لا حالة سلم و « الحرب خدعة » كما في الحديث الشريف ، وقد كان له على إخوته ترة ، فأراد أن يثار لنفسه منهم ، لأنه كره أن يذل نفسه ، فيجتأ عليه ، فاختار الاقتصاص لنفسه ، ردعاً للتعدي ثانياً ، وهذه طريقة محمودة لمن أرادها ، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ ، هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴾ (٤٢ : ٣٩) وان كانت طريقة الغفران أفضل ، كما قال تعالى في نفس هذه الآية : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ ، لكن الغفران له أهله ، كما أن القصاص له أهله ، فبين من هذا أن كيد الله ليوسف من مناوليه - حيث اختاره لنفسه أو ش اقتضاه الحال - نعمة يتن بها عليه ، فلماذا قال : « كذلك كدنا ليوسف » .

لَمْ يَسْرِقْ يَوْسُفُ أَحَدَ إِخْوَتِهِ غَيْرَ بَنِيَامِينَ

فان قال قائل : كان الأصرح في الكيد أن يسرق يوسف أحد إخوته العشرة بني العلات خصوصاً « شمعون » ، فهو أفعال من تسريق شقيقه بنيامين ، وأشد بأساً وأشد تنكيلاً ، فلم عدل عن ذلك وسرق شقيقه المخلص له في الحب ؟ قلنا ليس مقصد يوسف مما عمل إذلال إخوته والكيد لهم فقط ، بل كان هذا حاصلًا ثانياً وبالعرض ، إنما كان مقصوده أولاً بالذات أخذ شقيقه عنده ، فان قال آخر : لماذا كان تسريق بنيامين كيداً ليوسف وانتصاراً على إخوته ؟

فالجواب هو لأنهم كانوا في البدء سعوا بكل جهدهم في سفر بنيامين معهم ، ولما امتنع أبوم شوقوه ورغبوه ، ولكنه لم ينزل على مرغوبهم إلا بعد أن أخذ

عليهم الأيمان المحرجة والعهود المتلظة ، ولهذا كان أخذ بنيامين منهم فشلاً عظيماً لهم ، وخيبة مخجلة أمام أبيهم ، فهذا وجه اعتبار ذلك اقتصاراً لأخيه يوسف عليهم .

(فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ... الخ)

— ٣ —

وقال السيد رشيد الرصافي^(١) في هذه الآية الملحوظات والتعليقات التالية :

يوسف يحتال على اخوته بالحسنى لشعوره بالضعف نحوهم

الملحوظة الأولى — تعلمون أيها السادة الأفاضل أن يوسف عليه السلام وإن كان قد صار « عزيزاً » بمصر ، وصار « وزير مالىها » ووكيلاً عن مليكها الريان ، فهو رغمًا عن ذلك كله ، كان لا يزال ضعيفاً أمام إخوته العشرة ، يخاف شرهم ، ويخشى بأسهم ، لأنه مقروض بمخالبهم سابقاً ، ومعضوض بأنبيائهم ، فهو كما تقول العامة من الناس « مضبوع » ولذلك احتاج في وصوله لغرضه أن يحتال عليهم بالحسنى ، فقدر الشقاء عليهم وهم لا يعلمون ، وأرصد لهم الانتقام من حيث لا يشعرون ، أظهر لهم الرفق واللين ، وهو ينصب لهم مصائد الخدعة ، حيث بقعوا فيها ، حيث هو لا يقدر على التظاهر بالبطش ، ولا المصارحة بالانتقام ، ذلك لكثرتهم وقوتهم وجراتهم وسرعة تصديق الناس لهم بطعنهم فيه لو أرادوا ، لأنهم إخوته وأقرب الناس إليه وأعرفهم فيه ؛ هذا منحول ما سمعته من بعض معاصري والعهدة عليه .

ابن مبرى تفتيش الأوعية

الملحوظة الثانية — لو قال قائل : هل كان تفتيش الأوعية خارج المدينة في المكان الذى وصل المفتشون إلى إخوة يوسف فيه ، أو أن المفتشين انصرفوا بهم

إلى يوسف وهناك صار تفتيشهم ؟ قلنا إن المفسرين (ومنهم العلامة الزمخشري مع الأسف) على الرأي الثاني . ولكن الحقيقة ان التفتيش حصل خارج المدينة في المكان الذي وصلوا اليهم فيه والدليل على ذلك ١ — قوله : « فبدأ » عبر بالفاء ليقيد ما قلنا ٢ — العقل والعادة ، إذ المعقول والمعتمد انه إذا اتهم جماعة بالسرقة فأدرکوا خارج البلد أن لا يكلفوا بالرجوع للبلد لأنهم يتكبرون تلك التهمة ويقولون : ها نحن أولاء وهذه رحلتنا ففتشونا ، فإن رأيت معنا المسروق مضى علينا الحكم الشرعي ، ورجعنا معكم للحاكم ليفعل ما يريد ، وإلا سرنا لحال سبيلنا مع جماعة המתارين من كنعان .

هذا هو المعقول المعتاد ، وأما ان الجند قالوا لهم : « لا نفتشكم في هذه الطريق ، ولكن ارجعوا للحاكم معنا قضاكم بقضيتكم حتى نصل الى المدينة وهناك عند الحاكم يصير تفتيشكم » فهذا مخالف للعقل والعادة ، ٣ — الواقع ، فان التاريخ ينص بصراحة ان التفتيش حصل خارج البلدة ، ٤ — قولهم فيما سيأتي « واسأل القرية التي كنا فيها والعرير التي اقبلنا فيها » (ع ٨٢) ، فهذه « العير » التي استشهدوا بها كانت معهم في الطريق وهم مقبلون من الديار المصرية الى الديار الشامية آيين الى أبيهم ، وهذه العير هي التي وقفت على هذه الحادثة ورأتها رأي العين ، ويجوز لنا أن نقول أيضاً إن هذه « القرية » كانت دسكرة في الطريق ، وهي التي وقع فيها التفتيش ، وليست هي العاصمة التي كان فيها يوسف ، فقد جرت سنة القرآن الحكيم في هذه السورة الكريمة ، أن لا يعبر عن المحل الذي فيه يوسف « بالقرية » بل تارة « بمصر » كما في سابق قوله تعالى : « وقال الذي اشتراه من مصر » (ع ٢١) ولاحق قوله تعالى : « وقال ادخلوا مصر » (ع ٩٩) ، وتارة بالمدينة كما مر في قوله تعالى : « وقال نسوة في المدينة » (ع ٣٠) ، وكلمة « قرية » لم تطلق في القرآن على مصر المعروفة ولا في موضع واحد ، فنأخذ من مجموع هذا الذي ذكرناه أن

هذه القرية كانت دسكرة في الطريق خارج العاصمة التي فيها يوسف ، فإذا صح ما قلنا يكون معنا أربعة أدلة تؤيد ان التفتيش وقع في دسكرة في الطريق وليس بالعاصمة التي فيها يوسف خلافاً للمفسرين .

تذكير ضمير الصواع وتأتيته

الملحوظة الثالثة : — ذكر ضمير الصواع مرات باعتبار اسم الصواع ثم أتته باعتبار أنه يسمى سقاية ، وهكذا في كل شيء له اسمان مذكر ومؤنث ، مثل : خوان ومائدة ، قتال وحرب ، رمح وقناة ، سنان الرمح وعاليته ، والـح .

كيف جاز ليوسف ان يعمل هذه الحيلة على اخوته

الملحوظة الرابعة — ان قال قائل: كيف جاز ليوسف أن يعمل هذه الحيلة ، وهي كذب حَسْبَرَيْتْ ، وفيها إهانة لإخوته ، وكسر خاطر لهم ، وإلحاق عار ، بدون تسبب منهم ؟ وكيف قبل بنيامين هذه الإهانة ، وقبل أن يظهر بمظهر مارق في نظر اخوته ونظر عبيد يوسف ، ثم في نظر أبيه وأولاده ، وأولاد اخوته متى بلغهم الخبر ؟ وبالتالي كيف جاز ليوسف أن يدخل على أبيه هذا الحزن والقلق بسبب هذا الحادث المصنوع ؟؟؟!! ..

فجوابنا عن هذه الأسئلة أن يوسف ، عليه السلام فعل ذلك بحسب الرأي وما تقتضيه المصلحة ، وتوضيح ذلك يحتاج الى بسط في الكلام ، واليكم البيان :

الرأي واتباع المصلحة مصدر مهم مصادر الشريعة

تعلمون أن مصدر كل شريعة الكتاب وأقوال الرسل وفتاواهم ، وهناك أصل ثالث وهو الرأي واتباع المصلحة ، وهو كما فسر « ابن القيم » ما يراه القلب بعد فكر وتأمل وطلب لمعرفة وجه الصواب ، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

أظهر الصحابة في هذا النوع وهو استعمال الرأي فقد روي عنه الشيء الكثير ، فكان يجتهد في تعرف المصلحة التي لأجلها كانت الآية أو الحديث ، ثم يسترشد بتلك المصلحة في أحكامه ، وهو أقرب شيء الى ما يعبر عنه اليوم بروح القانون لاجمرفيته . ونذكر من هذا القبيل أمثلة منها : قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْمَعْمَلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ۖ ۝ السَّخِ الْآيَةُ ﴾ (٩ : ١٦) فالآية جعلت المؤلفة قلوبهم مصرفاً من مصارف الزكاة ، وقد ثبت أن النبي ﷺ كان يعطي بعض الناس يتألف قلوبهم للاسلام ، كما أعطى جماعة منهم « عينة بن حصن » و « الاقرع بن حابس » ، ثم في زمن أبي بكر رضي الله عنه جاء عينة والاقرع يطلبان أرضاً ، فكتب لهما بها ، فجاء عمر فمزق الكتاب وقال : (إن الله أعز الاسلام ، وأعنى عنكم ، فإن ثبت عليه ، وإلا فبيننا وبينكم السيف !) ، فترى من هذا أن عمر علل الدفع الى المؤلفة قلوبهم بعله هي المصلحة ، فلما ارتفعت هذه العلة بعزة الاسلام وعدم حاجته الى من تتألف قلوبهم ، لم يستمر في إجراء الحكم . كذلك روي أن عمر رضي الله عنه لم يقطع يد السارق في عام الحجة ، ويوجد من هذا القبيل أمثلة كثيرة ، وأشهر من سار على طريقة عمر تلميذه عبد الله بن مسعود في العراق . وعلم أهل العراق ابتداءً ببن مسعود وختم بأبي حنيفة ثم بأبي يوسف ، ولذلك اشتهرت العراق « بالرأي » ، حتى صار اذا قيل « عراقي » فمعناه صاحب « رأي » كما بقابلته اذا قيل « حجازي » فمعناه تابع « نصوص » . وأما التعليقات التي لنا على هذه الآية فهي :

علم الله فوق كل علم في الكيف والكم

التعليق الأول — على قوله (وفوق كل ذي علمٍ عليمٌ) أي فوق كيف ماعلمه ، وفوقه في كم ماعلمه ، فكل ذي علم ، لو علم الشيء علماً مبهاً مجملأ ، فالله العليم فوقه ، لأنه يعلمه موضعاً مفصلاً ، وكل ذي علم ، لو علم شيء دون

شيء ، فالله العليم فوقه ، لأنه يعلم كل شيء ، وهذا هو الفرق بين علم المخلوقين وعلم الخالق ، فمثلاً : الانسان يعلم أنه يوجد غداً شمس ، ولكنه لا يعلم درجة حرارتها وإضاءتها ، والانسان يعلم أشياء كثيرة ، ولكنه مثلاً لا يعلم في أي وقت تقوم القيامة ، حتى ولو كان نبياً مرسلًا ، كما قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ؟ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا ؟ إِلَىٰ رَبِّكَ مُتَّبِعَاهَا ، إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مِّنْ يَّخْشَاهَا ﴾ (٧٩ : ٤٢ - ٤٥) ، وكما نقل عن السيد المسيح عليه السلام : (وأما ذلك اليوم وتلك الساعة ، فلا يعلم بها احد ، ولا الملائكة الذين في السماء ، ولا الابن ، إلا الآب) (مر ١٣ : ٣٢) .

علم الله فوق كل علم وتوصل اليه الانسان

التعليق الثاني — يقول تعالى : ﴿ وفوق كل ذي علم عليم ﴾ ولا يزال العلم آخذاً في الترقى ولا يزال الانسان آخذاً في التقدم ، ولا سيما في هذه الأيام ، فالانسان اليوم بلغ الثريا بمعارفه ، واكتشف الكواكب بعقله وعلمه ، وقاس الارض شبراً شبراً بحسابه ، وغاص البحار وطار في الهواء ، وابتقى القصور فوق الماء ، واكتشف الكهرباء واستخدم البخار . واخترع البرق والهاتف وأتى بالمعجزات العلمية كالحاكي والسماعة ، والراديو والنظارات المكبرة وموازين الارتفاع والانخفاض والحرارة والبرودة ، وأشعة رونكن ، وقدّر الانسان أن يعرف بعلمه وذكائه أسرار الطبيعة وقوانينها ونواميسها وتحولاتها واختلاف عناصرها ، ثم عرف مصدر الأرض وتركيبها وما تحتويه ، وعرف مصدر الماء وتركيبه ، ومصدر الهواء وتركيبه ، وعرف أن الغمام هو مصدر الأمطار ، وأن احتكاك الغيوم ببعضها هو مصدر الرعد والبرق ، وأن الشمس هي مبعث الحياة للأرض وسكانها ، وقدّر البعد الشاسع الذي بينها وبين الكواكب والارض ، وفهم أن

هذا الكون سائر بدقة ونظام تام ، وفهم أن مبدع هذه الاشياء هو خالق عظيم ، ورب قدير ، هذا بعض ما أدركه الانسان بعقله وعلمه ، وما هو ياترى هذا الانسان ؟ هو ذرة صغيرة في هذا العالم الواسع ، هو جرثوم ضئيل بين مخلوقات الله العظيمة ، هو لاشيء وكل شيء في آن واحد ، هو جزء من جزء وفي ذات الوقت هو الكل في الكل ، فسبحان المبدع القدير ، والخالق العظيم .

كيف رضى بنيامين بتطبيق حيلة اخيه يوسف عليه

التعليق الثالث — هذه الحيلة التي اجراها يوسف ، وان كان يقصد منها أولاً وبالذات أخذ بنيامين ، ويقصد منها ثانياً وبالعرض إيقاع إخوته في مشكل ، لكننا لا نقدر أن نجعل أن بنيامين كان من جملة ضحايا هذه الحيلة ، بل هي ما صبت إلاً فوق رأسه بالأكثر ، ولكن لما كان ذلك كله بحسب الظاهر ، ولما كان سيظهر للناس أن بنيامين بريء ، ولما كانت العبرة بالعواقب ، ولما كانت النتيجة تبرر الوسيلة رضى بها بنيامين كفدائي ، حتى رضى أخوه .

ماهية الكيد في هذه الحادثة وانواعه

التعليق الرابع — على قوله ﴿ كَذَلِكَ كَدْنَا لْيُوسُفَ ﴾ ، ففي مقابلة كيدهم ليوسف ، كادهم الله تعالى له ، والله يكيد من يكيد ، ويكيد من يكيد مظاهر أمره ، من أنبيائه ورسله ، ومصدر الكيد الرباني في هذه الحادثة هو نفس المكيد له وهو يوسف ، والكيد من الخلق الحيلة ، ومن الخالق التدبير بالحق .

فقوله كدنا ليوسف هو على حد ﴿ وَمَكْرُؤًا وَمَكْرَ اللَّهِ ﴾ ، والله خير الماكرين ﴿ (٣ ٥٤) ﴾ ، ﴿ وَمَكْرُؤًا مَكْرَأً وَمَكْرَئًا مَكْرَأُومَ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ﴿ (٢٧ ٥٠) ﴾ ومعلوم أن الأنبياء هم مظاهر أمر الله ، والأمراء هم مظاهر انتقام الله ، ولما كان يوسف مع نبوته معدوداً من الأمراء ، ظهر لآخوته بظهر اسم « المنتقم »

فكادهم كما كادوه ، وجزاء المعصية قد يتجزأ فيكون بعضه معجلاً في الدنيا ، وبعضه مؤجلاً الآخرة ، فما كان مؤجلاً للآخرة فهو موكول الى الله ، إن شاء عفا عنه ، وإن شاء عاقب عليه ، وأما ما كان معجلاً في الدنيا ، فهو مرتب على المعصية ، ترتب المسبب على السبب ، أو المعلوم على الملة ، ترتباً طبيعياً لا يمكن أن يتأخر عنه ، فضلاً عن أنه يمكن عدمه ، وأقل ذلك الجزاء الدنيوي ما يحصل لفاعل الجرم من توبيخ الضمير ، وتأنيب النفس اللوامة ، وما يدخل عليه من الحزن وانكسار النفس ، وما يحوم حول ذلك من سوء السمعة ومقووط الجرم من أعين الناس ، وهوانه عليهم .

وقد وقع الكيد في هذه السورة اليوسفية ١ — منسوباً لاختوة يوسف ، بناءً عن وسوسة شيطانية ﴿ فيكيدوا لك كيداً إن الشيطان للانسان عدو مبين ﴾ (ع ٥) ، وعليه فهذا الكيد في الحقيقة من الشيطان ، ونظيره في نسبة الكيد للشيطان ما في قوله تعالى : ﴿ فقاتلوا أولياء الشيطان ، إن كيد الشيطان كان ضعيفاً ﴾ (٧٥:٤) ، ٢ — منسوباً للنسوة اللاتي تقعن من بعضهن الحيل الشائنة ، وذلك في مثل قوله : ﴿ إنه من كيد كن إن كيد كن عظيم ﴾ (٢٨٤) ٣ — منسوباً للخائنين ، وذلك كما في : ﴿ وإن الله لا يهدي كيد الخائنين ﴾ (ع ٥٢) ، والكيد في هذه المواضع الثلاث مذموم ٤ — منسوباً لله تعالى ، وذلك في قوله ﴿ كذلك كدنا ليوسف ﴾ (ع ٧٦) ، وهذا الكيد ممدوح ، لأنه بسبب تعليمهم القديم على أخيه ، فهو من قبيل اقتصاص ومجازاة من الله على ما فرط منهم سابقاً ، ومما نسب فيه الكيد لله ، قوله تعالى ﴿ إنهم يكيدون كيداً ، وأكيد كيداً ﴾ (١٥:٨٦) ، وقوله تعالى ﴿ وأمنلي لهم إن كيدي متين ﴾ (١٨٢:٧) وهذا الكيد أيضاً ممدوح ، لأنه واقع من الله على الكافرين بسبب كفرهم .

معاني الدين

التعليق الخامس — على قوله تعالى ﴿دين الملك﴾ : يطلق الدين على معان منها :
أولاً — بمعنى الأحكام القضائية أو الجزائية ، كهذه الآية .

ثانياً — الدين بمعنى الشريعة الفروعية ، ومن هذا القبيل كلمة الدين الثانية في قوله تعالى : ﴿حرّمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير ، وما أكل السبع إلا ما ذكيت ، وما ذبح على النصب ، وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق ، اليوم يأس الذين كفروا من دينكم ، فلا تخشونهم واخشون ، اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام ديناً ، فمن اضطر في شخصية ، غير متجانف لإثم ، فإن الله غفور رحيم﴾ (٤:٥) ، وقوله تعالى : ﴿أم لهم شركاء ، شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ؟﴾ (٢١:٤٢) .

ثالثاً — الدين بمعنى ما يشمل العقيدة والشريعة ، فمن ذلك ما في قوله تعالى : ﴿ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ (٤:٥) وقوله تعالى : ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ (١٩:٣) وقوله تعالى : ﴿ديناً قيمياً ملة إبراهيم حنيفاً﴾ (١٦٢:٦) . وقوله تعالى : ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج ، ملة أبيكم إبراهيم﴾ (٧٨:٢٢) .

وبهذا علم أن الدين قد يطلق على العقائد وأحكام الشريعة ، من معاملات وعقوبات وغيرها ، وأما تخصيص « الدين » بالعقيدة ، وتخصيص الشريعة بالأحكام القضائية والجزائية ، فهو اصطلاح مستحدث ، جرى عليه علماء أوروبا ، وشايعه عليه كثير من علماء أهل اليوم في الشرق .

رابعاً — الدين بمعنى الأصول العبادية أو حصر العبادة في الله ، فمن ذلك قوله

تعالى : ﴿ إِنَّ الْحَكْمَ إِلَّا لِلَّهِ ، أَمَرَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ ﴾ (١٢: ٤٠) وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَمَرُوا إِلَّا لِيُعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ، وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴾ (٥: ٩٨) وقوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ، وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ (٢٨: ٧).

خامساً — الدين بمعنى المقائد فقط ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ يُلْقَاؤُنَكُمْ حَتَّى يَرُدَّوْكُمْ عَنْ دِينِكُمْ ، إِنْ اسْتَطَاعُوا ، وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فِيمُتَ وَهُوَ كَافِرٌ ، فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٢: ٢١٧) وقوله تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ ، لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ ، وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ الْإِلَهَ الْحَقَّ ، إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ ، وَكَلَّمْتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ ، وَرُوحٌ مِنْهُ ، فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ، وَلَا تَقُولُوا « ثَلَاثَةٌ » انْتَهُوا خَيْرَ لَكُمْ ، إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ ﴾ (٤: ١٧٠) وقوله تعالى : ﴿ قُلْ أُنْعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ ؟ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٤٩: ١٦).

جزاء السارق في حادثة بنيامين كان حسب شريعة ابراهيم

التعليق السادس — كان الملك « الريان » في زمن يوسف وثنياً ، وكانت شريعته أرضية لاسماوية ، وأما يوسف عليه السلام ، فهو وإن كان وزير مالية وعزيزاً بمصر ، فلم يكن له دخل في محاكم مصر الجزائية ، ولا المحاكم القضائية ، وهو في غير حادثة إخوته ، لم نعلم له مداخل في حكم جزائي ولا قضائي ، ومع ذلك فهو لما تدخل في هذه الحادثة ، اجتهد أن يكون الحكم بحسب شريعة جده ابراهيم عليه السلام.

الدرجات وأنواعها وإطلاقها

التعليق السابع — على قوله ﴿ تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ ﴾ فالدرجات في الأصل هي مرافق السلم ، ثم توسع فيها فصارت تطلق على المراتب المعنوية في الخير والجاه والعلم والسيادة والرزق ، فالعلم بشريعة إبراهيم درجة ، والعلم بشريعة المصريين درجة ، والعلم بالرأي والمصلحة درجة ، وسياسة القوم حتى يصل من يسوسهم الى مطلوبه منهم درجة ، والسيادة والحكم بالحق درجة ، والنبوة درجة ، وإيتاء الانسان شيئاً من الملك درجة ، وتعليمه تأويل الأحاديث درجة ، الى غير ذلك مما أنعم الله به على يوسف ، « والدرجات » المقصودة هنا هي في العلم ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ ، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ (٨٣:٦) وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُم : « تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ » فَافْسَحُوا ، يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ، وَإِذَا قِيلَ « انشُرُوا » فَانشُرُوا ، يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ ، وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (١١:٥٨).

وقد تكون « الدرجات » في الولاية العامة والخاصة ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْنَّ بِالْعُرْفِ ، وَالرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ (٢٢٨:٢).

وقد تكون « الدرجات » في الثواب والمنازل بحسب درجات الأعمال ، كما في قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ — غَيْرِ أُولِي الضَّرَرِ — وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ، فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ، وَكَذَلِكَ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ، دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (٩٥و٩٤:٤) ، وقد نكرن « الدرجات » في الدنيا ، كما في قوله

آ (٧٦) رفع الله درجات من يشاء من عباده لا ينافي ما وهبه لهم ١١٠٣

تعالى : ﴿ وهو الذي جعل لكم خلافتاً في الأرض ورفَعَ بعضكم فوقَ بعضٍ درجاتٍ ، لِيَبْلُوَكمَ فيما آتاكم ﴾ (١٦٧:٦) .

وقد تكون « الدرجات » في الدنيا والآخرة معاً ، كما في قوله تعالى : ﴿ انظُرْ كيفَ فَضَّلنا بعضهم على بعضٍ ، وَللآخرةِ أَكْبَرُ درجاتٍ ، وَأَكْبَرُ تفضيلاً ﴾ (١٧ : ٢١) .

ويقال في الصعود « درجات » وفي النزول « دركات » لا فرق في ذلك بين الصعود والنزول الحسيين والمعنويين ، قال تعالى : ﴿ رَفِيعُ الدرجاتِ ﴾ (٤٠ : ١٥) وقال : ﴿ وَرَفَعَ بعضهم درجاتٍ ﴾ (٢ : ٢٥٣) وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ (٤ : ٤٥) :

وقد تكون « الدرجات » متفاوتة جـد متفاوتة ، كدرجات الحرارة في مقياسها ، إذ ما كل درجة فيه يغلي بها الماء ، ولا كل درجة فيه ، يتبخر فيصعد بخاراً ؛ وكدرجات الامتحان في المدارس ، أو الأعمال في الحكومة ، لا ينال الفوز فيها إلا بالدرجات العليا ، المحدد أدناها وأعلاها بالحكمة .

ومقابل رفع الدرجات نزولها ، فهو قد يتفاوت تفاوتاً كبيراً ، كنزول درجات الرطوبة في مقياسها ، ونزول حرارة الجو ، ونزول حرارة الماء ، إذ ما كل درجة في نزول حرارة الجو يسبب نزول المطر ، ولا كل نزول درجة حرارة الماء يكون بها جليداً .

رفع الله درجات من يشاء من عباده لا ينافي ما وهبه لهم

من الاختيار والاستقلال

وبناء على ما تقدم فقوله تعالى : ﴿ نرفعُ درجاتٍ مَنْ نشاء ﴾ أي نرفع من

شئنا من عبادنا درجات ، وهذا لا ينافي ما وهبه الله للإنسان من الاختيار والاستقلال ، فإن الله خلق الإنسان وأعطاه نوعاً من الاستقلال في أعماله الاختيارية على حسب علمه ووجدانه ، وما تكون التربية والمادة في نفسه من الصفات ، وبذلك يكون مصدراً لسعادتها أو لشقاؤها بعمله ، وهو سبحانه يؤتي الدرجات ابتداء بأعداده وبتوقيفه من يشاء للكسي منها ، واختصاصه من يشاء بالوحي منها ، ثم هو يرفع درجات من يؤتيهم ذلك ، بتوفيق صاحب الدرجة الكسبية الى ما رتقي به درجته ، ويصرف موانع هذا الارتقاء عنه ، وبايتاء ذي الدرجة الوهية كالنبوة ما لم يؤت غيره من أهلها من المناقب والآيات :

— وحمل « رفع » استثنائية مبينة أن ما آتى الله يوسف من أخذه أخاه ، كان باختصاصه أعلى درجات معرفة الشرائع وإتقانه حسن التوصل المطلوب — .
وأخيراً أختم كلامي بكلمتين :

الكلمة الأولى — سوغ يوسف لنفسه أن يعمل هذا العمل مع إخوته العشرة وأخيه بنيامين توصلاً لسهولة مجيء أبيه والمائلة جميعاً لمصر ، فالعمل الذي كان أجراه مع إخوته في سفرهم الأولى كان هو « النواة » ثم هذا العمل الحاضر الذي أجراه معهم ومع أخيه كان هو « شجرة » ، ثم مجيء أبيه والأهل أجمعين لمصر كان هو « الثمرة » .

الكلمة الثانية — بعد ختام هذا العمل واحتظاء يوسف بينيامين ، لكأنى به التفت الى أخيه وقال :

يا أخي الحامل ضيمي	دوت إخواني وقومي
إن يكن ساءك أمسي	فلقد سرك يومي
فاعتفر ذاك لهذا	واطرح شكري ولومي

فبدأ باوعيتهم قبل وعاء أخيه . . الخ

— ٤ —

ثم قام السيد الهمام الغزي وقال :

جواز كون ما عمل يوسف عقاباً لاختوته في الدنيا لأن موسى به من الله تعالى

أيها السادة :

كنت تأملت برهة في هذا العمل الذي دبره سيدنا يوسف لاختوته ، ولم ألبث أن رأيت مقالة منقولة عن الجاحظ ، فيها شفي غليلي ، ومنها تعلمت الجواب عن سيدنا يوسف الصديق عليه السلام ، قال تحت عنوان « سياسة الخزم » :
 « من لم يعمل بإقامة جزاء السيئة والحسنة ، وقتل في موضع القتل ، وأحيا في موضع الاحياء ، وعفا في موضع العفو ، وعاقب في موضع العقوبة ، ومنع ساعة المنع ، وأعطى ساعة الاعطاء — خالف الرب في تديره ، وظن أن رحمته فوق رحمة ربه ، وقد قالوا : بعض القتل إحياء للجميع ، وبعض العفو إغراء ، كما أن بعض المنع إعطاء ، ولا خير فيمن كان خيره محضاً ، وشره منه من كان شره صرفاً ، ولكن اخلط الوعد بالوعيد ، والبشر بالعبوس ، والإعطاء بالمنع ، والحلم بالإيقاع ، فإن الناس لا يهابون ولا يصلحون إلا على الثواب والعقاب ، والإطعام والاختافة ، ومن أخاف ولم يوقع وعُرف بذلك ، كان كمن أطمع ولم ينجز وعرف بذلك ، ومن عرف بذلك ، دخل عليه بحسب ما عرف منه ، غير الخير ، ما كان ممزوجاً ، وشر الشر ما كان صرفاً ، ولو كان الناس يصلحون على الخير وحده لكان الله عز وجل ، أولى بذلك الحكم ، وفي إطباق جميع الملوك وجميع الأئمة في جميع الأقطار وفي جميع الأعصار على استعمال المكروه والمحجوب ، دليل على

أن الصواب فيه دون غيره ، وإذا كان الناس إنما يصطلحون على الشدة واللين ، وعلى المفو والانتقام ، وعلى البذل والمنع ، وعلى الخير والشر — عاد ذلك الشر خيراً ، وذلك المنع إعطاء ، وذلك المكروه محبوباً — وإنما الشأن في العواقب وفيما يدوم ولا ينقطع ، وفيما هو أدوم ، ومن الانقطاع أبعد ، آه ،

هذا هو كلام الجاحظ ، ومنه نتعلم الجواب عن سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام ، ومنه نعلم أن قوله تعالى ﴿ كَذَلِكَ كَدْنَا لْيُؤَسِّفَ ﴾ أن هذا الكيد الذي نسبته المولى لنفسه ، قد يكون جرى عليه يوسف بوحى الطبيعة ، لأن الله تعالى كتب ما ينزى عمله من الأدبيات على ضمائر أنبيائه عليهم الصلاة والسلام ، وقد يكون جرى عليه يوسف بوحى الشريعة ، فيكون ما أجراه يوسف عقاباً لآخوته في الدنيا موحى به من الله تعالى وحي شريعة ، فهذا نسب تعالى ذلك « الكيد » لذاته جل جلاله .
أحسن

الطعن في يوسف وشقيقه

١ (٧٧) ﴿ ... قالوا « إِنَّ يَسْرِقَ ... فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ » فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ ، وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ، قَالَ : « أَتُمْ شَرُّ مَكَانًا ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ » ﴾ .

افتتحت الجلسة وتليت الآية للسابعة وسبعون فقام السيد العاملي وقال :

لما رجع أخوة يوسف ، وصاروا بين يديه في بيته ، (قالوا) متملصين من بنيامين ﴿ إِنَّ يَسْرِقَ ﴾ هذا الفتى الغرّ ، فلا عجب ، ﴿ فَقَدْ سَرَقَ ﴾ سابقاً ﴿ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ ويعنون به يوسف ، — وقد اختلف فيما أضافوا له من السرقة ،

ف قيل : (كان أخذ في صباه صنناً لجده أبي أمه فكسره) ، وقيل : (أخذ تمثالاً صغيراً من ذهب فدفنه) ، وكل ذلك لم يكن - (ف) لما سمع يوسف هذه التهمة تأثر كثيراً ، وجرى الدم اليعقوبي في عروقه ، ووقف شعر رأسه ، ولكنه كظم غيظه ، وصبر ، وقال كلمة لم تتجاوز شفثيه بحيث (أسرها يوسف في نفسه) ، شفى بها بعض غليله * ولم ييدها لهم * ، بل جعلها بينه وبين ضميره ، - وهذا إضمار على شريطة التفسير ، وتفسيره قوله : * أنتم شر مكاناً * ، وقد جاء التعبير في قوله « أسرها » وفي قوله « لم ييدها » ، بصيغة المؤنث لأن قوله (أنتم شر مكاناً) هي جملة أو كلمة على تسميتهم الطائفة من الكلام كلمة ، كأنه قيل : فأمر الجملة أو الكلمة التي هي قوله (أنتم شر مكاناً) والمعنى قال في نفسه : أنتم شر مكاناً ، وهذه الجملة بدل من أسرها ، فمع أنهم وقعوا فيه ، وبألوانه ونطقوا بهذه الجملة القاسية ، لم يصارحهم ولم يبد لهم كلمة ما في مقابلتها ، بل طوى غيظه عنهم ، وأكن الحزاة الحاصلة مما قالوا ، ولكنه لشفاء غليله نوعاً ، (قال) في ضميره (أنتم شر مكاناً) أي أنتم أضرتُم منزلة في الشرِّق ، أو أنتم الذين خلقتُم هذا الضيق . وهذا الموقف الحرج ، من نفسكم لنفسمكم (والله) عز وجل * أعلم بما تصفون * من تسريق أخي وتسريقي ، كذباً وزوراً .

(قالون)

(قالوا : إن يسرق فقد سرق .. الخ)

— ٢ —

وقال ولي الدين الشهرستاني^(١) :

اتهم يوسف بالسرقه وحقيقه هذه السرقه

رأت اخوة يوسف أنه قد وضعت السلسلة في رقابهم وانتهى الأمر ، وكانت ذلك بسبب « بنيامين » ، فلبجؤوا الى شفاء بعض غليلهم بالطعن فيه وفي شقيقه

(١) نسبة الى شهرستان في البلاد الايرانية .

يوسف ، فقالوا : (إن بنيامين يتلو تلو شقيقه ، ويستسِن بستته ، فهو أشبهه بأخيه ، من الغراب بالغراب ، فيها قد قدا من أديم واحد ، وشقا من نيمة واحدة ، هو قد أخذ هذا الدرس من أخيه قبلاً ، فأراد اليوم أن يجرب هل يلحق شأو أخيه ؟ فيأبئس الخلف ، لبئس السلف ، وإنتا براء منها ومن عملها) .

واختلف فيما أضافوا الى يوسف من السرقة ، والصحيح عندي أنها أيقونة ذهبية من أيقونات التراقيم ، وذلك أن يعقوب لما قام من وجه حميه وخاله (لابان) الذي كان ساكناً فيما بين النهرين ، وأخذ معه زوجته ليثة وراحيل ، كانت راحيل أخذت معها تمثالاً صغيراً من ذهب هو خاص بآيها « لابان » فافتقده أبوها لابان ، وفتش فلم يجده معها ولا مع غيرها ، لأنها كانت خبأته في كُور الجمل الذي كانت راكبة عليه (تك : ٣١ : ٣٥) ، ثم لما وصل يعقوب بأهله الى فلسطين ، كانت تلك الايقونة أي الصورة الصغيرة في يد يوسف يلعب بها ، لأنها تشبه مايسمى « بلعبة الصبيان » ف قيل إنه سرقها من بيت جده لأمه ، فهم تذكروا هذه الحادثة ، وذكريات الصبا عميقة الأثر في النفوس ، فلذلك ذكروا مذكروا ، ولكن الحقيقة والحال ، أنه لم يفعل شيئاً من ذلك ، على أن سن يوسف في ذلك الوقت نحو عشر سنين ، ولكن سن بنيامين حين وقوع هذه الحادثة الحاضرة كان نحو ثلاثين سنة ، فأَيّ شاهد قدموا ؟ وعلى أيّ قياس قاسوا ؟

رأى اخوة يوسف ماحدث ، فانتشر عليهم رأيهم ، وضاع صوابهم ولم يعرفوا ماذا يقولون ؟ ولا ماذا يهون عليهم هذا المصائب . ولا ماهو الشيء الذي يضعف الصلة - نوعاً ما - بينهم وبين بنيامين ، فتصوروا أنه من غير أمهم ، فنفضوا منه أيديهم ، نفض المودع يده من تراب الميت ، فقالوا : إن يسرق بنيامين فلا غرابة ، فقد سرق أخوه يوسف الفقيد من قبله ، فيها شقيقان ، ورضيعا لبان ، فالدم

واحد ، والعواطف واحدة ، وقد تنقته أم واحدة ، والنفس التي كانت بين جنبي يوسف ، هي اليوم بين جنبي بنيامين ، وإن اختلفت المظاهر .

وأما يوسف فلما سمع قائلهم لم يطلق لنفسه العنان في الرد عليهم علناً ، بل أغض على القذى ، وتجرجع كأس الضيم ، وكظم الغيظ ، وأبدى من الحلم ما يصغر عنده حلم « معن » بن زائدة ، و « قيس » بن عاصم ، و « الوليد » بن عتبة ، و « معاوية » ابن أبي سفيان ، غايته أنه أضمر في نفسه كلمة واحدة ، هي قوله : (أنتم شر مكاناً) قالها بينه وبين ضميره ، ولم ييدها لهم بحيث يسمعونها ، وإنما لم يقل (فقال أو قال) لأنه جواب لسؤال اقتضاه الحال ، كأنه قيل : ما الكلمة التي أسرها في نفسه ؟ فقول : . قال أنتم شر مكاناً .. الخ أو لأن هذه الجملة تفسير للضمير في قوله « أسرها » ووقوع الجملة تفسيراً ، كثير في كتاب الله تعالى ، فمن ذلك :

١ — مافي ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ : إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ ﴾ (تثير الأرض) ، ولا تَسْقِي الْحَرْثَ ، مُسَلَّحَةً ﴾ (لا شِيَةَ فِيهَا) ﴿ (٢ : ٧١) ﴾ فقوله (تثير الأرض) تفسير لقوله (ذلول) ، وقوله (لا شية فيها) تفسير لقوله (مسلمة) ولهذا فُصِّل ولم يُعْطَف .

٢ — مافي ﴿ وَقَالَ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ ، فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ، وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ ﴾ (تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ) ﴿ (٢ : ٢٤٨) ﴾ ، فقوله (تحمله الملائكة) تفسير لقوله (أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ) .

٣ — مافي ﴿ كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ (كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا) ، فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ، وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿ ﴿ (٣ : ١١) ﴾ ، فقوله (كذبوا) (بِآيَاتِنَا) تفسير لقوله (ذَاب) ، ولذلك لم يعطفه .

٤ — مافي ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ، ﴾ (تَأْمُرُونَ بِالْعُرُوفِ)

وتشهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله ﴿ ٣ : ١١٠ ﴾ فقلوه (تأمرون .. الخ)
تفسير لقلوه (خير) .

هـ — ما في ﴿ يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك ﴾ (يقولون : لو كان
لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا) ﴿ ٣ : ١٥٤ ﴾ ، فقلوه (يقولون .. الخ) ،
تفسير لقلوه (يخفون .. الخ) ولهذا فصله ولم يقطعه ، الى غير ذلك مما هو كثير
في كتاب الله تعالى .

وكلمة « شر » أفعّل تفضيل ، وليس هو هنا على بابه ، نظير ﴿ قال : يا قوم ،
هؤلاء بناتي ، هن أطهر لكم ﴾ (١١ : ٧٨) ، فإنه لا طهارة في الملوط
بهم البتة .

ثم لكأنك يوسف قد قال في نفسه : « والله لأنكم لم تقولوا صدقاً ، ولا ذكراً
أمراً واقعاً ، والله إنني أقدر الآن أن أكذبكم وأفقأ في عيونكم الحصرم ، فأنكم
تلتصقون بي ما لا علم لي به ، ولا وثيقة بيدكم تبرهنه ، ولكن ليس هذا وقت الجدل ،
ولا هو وقت إظهار نفسي لكم » .
والآن نهى قولنا بالتعليقات الآتية :

اعراض يوسف عن اللغو

١ — تعليقاً على قوله « فأسرّها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم » لأن يوسف
عليه السلام كان ممن إذا مروا باللغو مروا كراماً ، وإذا خاطبهم الجاهلون
قالوا سلاماً ؛

شتم « هشام » بن عبد الملك رجلاً من أشرف الناس ، فقال له : « أما تستحي .
تسبني وأنت خليفة ؟ » — فقال هشام : « اقتص مني » — قال : « لا أريد أن
أكون سفيهاً » — قال : « تموض مني بمال » — قال : « ما كنت لأبيع شرفي

بالدرهم والدينار ، — قال : « اجعلها لله » — قال : « هي لله ولك » ، ففجل هشام ونكس رأسه ، وعاهد الله على انه لا يشتم أحداً بعدها أبداً (١) .

تذكر الاخوة ليوسف بالسوء

٢ — تعليقاً على قولهم « فقد سرق أخ له من قبل » ، لم يكتفوا بما كانوا صبوه من المصائب على رأس أخيهم المظلوم يوسف ، حتى وثبوا عليه الآن ، ووصوه في هذه المرة بجميرة السرقة ؛

وا أسفاه ! تذكروه في غيابه بالسوء ، بدلاً من أن يتذكروه بالشوق لمرآه ، والحزن على بعد عهدهم به ، والندم على ما فرط منهم في شأنه ، ولعمر الحق إن هذا الشيء لا يكون إلا بمن جفت طباعهم ، وسقمت ضمائرهم ، والأمر لله ؛ وهذه المسبة هي الحلقة الأخيرة من سلسلة إغاثاتهم ليوسف ، وأما الحلقة الأولى فهي صدهم إياه وهو في حضن أبيه في فلسطين ، وأما واسطة عقد هذه السلسلة ، فهي إلقاءهم له في غيابة الحب .

ظن الاخوة بأن بنيامين بريء من السرقة

٣ — تعليقاً على قولهم « إن يسرق » ، إما عبروا « بإن » التي تقتضي مرجوحية مدخولها ، لأنهم كانوا يغلب على ظنهم ان « بنيامين » كان بريئاً من أخذ الطاس ، لأنهم رأوا أن الحاكم قد أكرمه كثيراً ، وكان قبله طلبه ، فلا بد من أنهم استنتجوا من ذلك أن الحاكم أتى ذلك رغبة في إبقاء بنيامين في خدمته لأمر لم يعملوه (٢) .

ثبات الاخوة على كره يوسف

٤ — تعليقاً على قولهم « أخ له » هذه الكلمة تشف عن ثباتهم على كره .

(١) محاصرات عصرنا الاستاذ الحضري . (٢) السنن القويم

يوسف ، حتى يوم ما فاهوا بذلك ، وعن أن الحقد قد أكل قلوبهم ، والحفيظة ملأت صدورهم !!! والعجيب أنهم لم يكتفوا بالإيقاع بيوسف ، وبما عملوه معه ، حتى أردفوا عملهم السيء بالقول السيء ، مخالفين قول بعض الحكماء : « لا تُتْبِعْ أَخَاكَ بَعْدَ الْقَطِيعَةِ وَقِيعةً فِيهِ ، فَتُسَدَّ عَلَيْهِ طَرِيقُ عَفْوِهِ عَنْكَ » ، وأما هو عليه السلام فلم يحفل بطعنهم ، بل هضمه ، قائلاً : « إِنَّهُ كَلَامٌ لَا يَسْرُ وَلَا يَضُرُّ ، فَلْنَمِرْ عَلَيْهِ مَرَّ الْكَرَامِ » .

ويمكن أن نقول إنهم أرادوا بقولهم « أخ له » أخاه الذي يمت إليه من طرفين . طرف الأبوة وطرف الأمومة ، وأما نحن فلا نمت له إلا من جانب الأبوة فقط ، فاتصالنا به ضعيف ، ومشابهتنا له قليلة ، بخلافه هو ، فهو المشارك له في أخلاقه وأعماله ، فهو على وتيرته وشاكلته ، خَرَّيجُهُ ، الذي أخذ عنه هذه الثقافة .

اختصار الاخوة الطمن ييوسف

٥ - تعاقباً على قولهم « فقد سرق أخ له من قبل » ، اختصروا القول في الطمن ييوسف اختصاراً ما كان مأمولاً فيهم ولا مرجواً منهم ، وإلا فبفضهم الشديد ليوسف كان يقتضي الإسهاب والبسط في النيل منه ، وكأن السبب في ذلك أمور :
 ١ - إن المقام ليس مقام الطمن في يوسف ، ولكنه ذكر على وجه الاستطراد ،
 ٢ - إن يوسف كان قد غاب عنهم مدة طويلة هي نحو ٢٢ سنة ، فربما كانوا متصورين موته ، فلذلك خفت وطأة حقدهم عليه ٣ - المقام مقام « سرقة » لا غير ، فلذلك إنما ذكروا من طعنهم بيوسف « السرقة » فقط ، ٤ - إنهم لم يجدوا في « عزيز مصر » - الذي هو بالحقيقة يوسف - ميلاً لما يقولون ، ولا ارتياحاً لما يفترون ، فلما أحسوا بذلك لم يسترسلوا في الذم ، ٥ - هم إنما تكلموا فيما بينهم بلقنهم العبرانية ، ففاه بعضهم لبعض بهذه الكلمة ، من قبيل نفثة مصدور يريد أن يروِّح نفسه ، وهم

لا يعلمون أن « عزيز مصر » (يوسف) يفهم كلامهم ، ولو كان مرادهم الاعتذار عند عزيز مصر ، لتوسعوا في القول بعض التوسع ، من قبيل التنصل من هذا « الإنسان وأخيه » ، وأن تربيتها وأخلاقها ليستا كترينتنا وأخلاقنا ، لأنهما ولدا الزوجة المحبوبة « فلذلك ترك أبوها حبيلها على غاربها ».

أوجه احتمال قوله فأسرها ... الخ

٦ - تعليقاً على قوله « فأسرها .. الخ » عندنا أن هذا القول يحتمل وجوهاً ثلاثة :

الوجه الأول - أنه أجال ذلك في ضميره فقط، فهذا القول قول نفساني ليس إلا: إن الكلام لني الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلاً
أي أنه تحدث بكلمة لم تعد النفس والضمير، ولم تعرف عليها الشفة والسمير، وهذا هو الغاية القصوى في الحشمة والأدب، وفي المثل: « الشاتم من أسمع والضارب من أوجع ».

الوجه الثاني - أنه رطن باللغة المصرية التي لا تفهمها إخوته .
الوجه الثالث - أنه حرك بها شفثيه فقط اتهاجاً لطريقة الخرس ، بحيث لا يفهم كلامه إلا من يعرف طريقة المكاملة بحركات الشفاه .

مثال لحلم يوسف

٧ - وكما أن يوسف عليه السلام قد حلم على إخوته ، فقد وجد في هذه الأمة المحمدية كثير من العلماء ، واليك مثال من كثير من الأمثلة من هذا القبيل في حلم « معن » بن زائدة :

قدم أعرابي ذات يوم على « معن » بن زائدة يمتحن حلمه ، فلما وقف يباهى قال : أتذكرُ إذ لحافك جلدُ شاةٍ وإذ نعلاك من جلد البعير ؟

— فقال « معن » « أذكر ذلك ولا أنساه » — فقال الأعرابي :

فسبحان الذي أعطاك ملكاً وعلمك الجلوس على السرير

— قال « معن » « سبحانه وتعالى » — فقال الأعرابي :

فلمست مُسَلِّماً ما عشت يوماً على « معن » بتسليم الأمير

— قال « معن » : « يا أخا العرب ، السلام سنة ، وشأنك في الأمير ،

— فقال الأعرابي :

سأرحل عن بلاد أنت فيها ولو جار الزمان على الفقير

— قال « معن » : « يا أخا العرب ، إن جاورت فمرحباً بك ، وإن رحلت

فمصحوب بالسلامة » — فقال الأعرابي :

خذ لي يا ابن ناقصة بشيء فلمني قد عزمت على المسير

— قال « معن » : « أعطوه ألف دينار يستعين بها على سفره » ، فأخذها وقال :

قليل ما أتيت به وإني لأطمع منك بالمال الكثير

— قال « معن » : « أعطوه ألفاً آخر » ، فأخذها وقال :

سألت الله أن يبيقك ذخراً فمالك في البرية من نظير

— فقال « معن » « أعطوه ألفاً آخر » فقال الأعرابي : « يا أمير المؤمنين ،

ما جئت إلا مختبراً لحملك ، لما بلغني عنه ، فقد جمع الله فيك من الحلم ، ما لو قسم

على أهل الأرض لكفاهم » — فقال « معن » : « يا غلام ، كم أعطيته على نظمه ؟ »

— قال : « ثلاثة آلاف دينار » — فقال « معن » : « أعطه على ثره مثلها » فأخذها

ومضى في طريقه شاكراً .

استعطاف الاخوة

آ (٧٨) ﴿... قالوا: يا أيها العزيزُ، إنَّ له أباً شيخاً كبيراً
نخْذُ أحداً مكانه، إنا نراك من المحسنين﴾ .

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثامنة وسبعون فقام الشيخ خالد
البيتلحي وقال :

سكت عن اخوة يوسف الغضب نوعاً ورأوا أنفسهم أنهم صاروا في موقف
حرج ، لا بد لهم فيه من الحكمة والتدبير ، والعمل على الخروج منه بلباقة ،
نخاطبوا العزيز بنعمة المتوسل المستعطف و (قالوا) بصوت حزين (يا أيها العزيز)
ملكنا فأسجج^(١) ، قدرت علينا وارفق بنا ، وتساهل معنا ، ولا تأخذنا
بالسدة (إن له) أي لهذا السارق (أباً شيخاً كبيراً) طاعناً في السن ، وقد علمت
أنه هو أصغر أولاده ، كما أنك تعلم أن الأب الكبير مهما كان له أولاد ، فإن نفسه
تكون متعلقة بأصغرهم ، فهو طبعاً يحبه أكثر من غيره ، لأنه ابن شيخوخته
(نخْذُ) أي إنا نتقدم اليك أن تأخذ (أحداً) أي واحد منا أردت ، مستعبداً
(مكانه) وكل من أراض بذلك ، (إنا نراك من المحسنين) الينا ، فأتمم إحسانك ،
أو من عادتك الإحسان ، فاجر على عادتك .

(١) جرى مجرى المثل ، يضرب لمن قدر على خصمه ، فاراد المبالغة في قهره ، والسجاجة
السهولة ، ومنه كلمة « سجاج » .

قالوا : ياأيها العزيز . . الخ

— ٢ —

وقال السيد سعد الدين اليرودي (١) :

استعطاف الاخوة ليوسف باطلاق سراح بنيامين وأخذ واحد منهم عوضاً عنه
تذاكر أولاد يعقوب فيما بينهم ، فأرأوا أن الأوفق الخضوع لأمر
الحكومة والتزول على إرادتها ، قائلين في أنفسهم : وماذا عسى نعمل مع حكومة
مصر الجبارة :

ومن بعض أطراف الزجاج فإنه يطيع العوالي ركبت كل لهزم
ثم علموا بسبب ما صار عليهم أنهم قد استهدفوا للوم الشديد من أبيهم ، وأنه
سيظن بهم الظنون ، فوطنوا أنفسهم على إبقاء أحدهم بدلاً من بنيامين بدلاً شخصياً
فمثلوا بين يدي يوسف ، وهم يتمثرون من الخجالة والهوان وقالوا له : ياعزيز مصر
الحترم ، مكرمة أتيئك لها ، بها تبلغ الثريا إن اعتقدتها (٢) نحن لانريد عدالة فقط
بل رحمة ، والرحمة فوق العدالة وفوق القانون ، وماذا لك إلا أن لاخينا هذا أباً
كبيراً في المقام وفي السن ، قد ظهرت عليه علامات الشيخوخة ، فإن عمره الآن
١٣٠ سنة ، وقد ذوى عوده ، وخوى عموده ، وضعف نظره ، وتنجرت منه
الغضاريف ، وضعفت عضلاته ، وبرأى عظمه ، وقد كان له ابن يحبه ففقده ، وهذا
الابن المحبوب المفقود كان من أبيه بمنزلة الشعار ، وقد اتخذ هذا الولد الحاضر من
نفسه بمنزلة الدثار ، فالיום كيف تكون حالة الشيخ الكبير إذا فقد شعاره ودثاره
كلها معاً ؟ ؟ ! فإن رأيت أن تهيه لايه الشيخ فأنت لذلك أهل ، ومع ذلك

(١) نسبة الى يرود من ضواحي دمشق (سورة)

(٢) ايحزتها وصنعها .

فليس مجاناً ، ولكنها هبة بشواب ، فخذ أي واحد منا مكانه ، وخله بظمن لوالده الشيخ الهرم ، لاسيما وأن أباه أبي أن يرسله معنا ، حتى نؤتيه موثقاً من الله لنأتيه به ، وقد تمهدنا له بذلك : وأقسمنا بالإيمان المنحرجة ، وأعطيناه الميثاق الاكيد ولما نقرأ آية الإحسان على وجهك ، نراك كريم الطباع ، كثير الصنائع ، أحسنت إلينا أولاً وآخرأ ، سالفأ وحادثأ ، فافعل معنا ماتينيه على قديم أياديك ، وسوابق إحساناتك ، أحسن إلينا ، أحسن الله إليك ، أسمعنا أسعدك الله ، واتخذها عندنا يداً ، لا ننساها لك مدى الدهر ، وأنت إذا كنت لا تريد أن ترحم دموعنا السخينة فارحم ذلك الشيخ الهرم ، ذا المقام العالي في فلسطين وكنعان والعراق ، المشار إليه بالبنان من عموم السكان والقطان فيما بين البحر الابيض المتوسط الى نهر الفرات .

وهنا تعليقات :

اي الاخوة قام بالاستعفاف

١ — يقال إن الذي ناب عن إخوته في الكلام مع العزيز هو «يهودا» وقد عرض نفسه للعبودية مكان أخيه بنيامين .

طلب الاخوة ترك الجاني واضر البرى

٢ — من العجيب أن تخرج كلمة «خذ أحدنا مكانه» من فم هؤلاء الاخوة بعد صدور الفتوى الشرعية منهم ، بأن جزاء من سرق الصواع هو من وجد في رحله ، ولم يصدروا الفتوى بأن جزاءه أخذ أخ له لاعلم له بالسرقة ، ولا يد له فيها .

ومن العجيب أيضاً أنهم تذرعوا لترك الجاني وأخذ البرى ، بقولهم «انا نراك من المحسنين» ، كأن من احسان المحسن أن يفسك الآثم ويسترق العفيف الشريف !!!...

يوسف يرد استعطاف اخوته ويصر على اخذ سارق الصواع

آ (٧٩) ﴿ قَالَ : مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ ، إِنَّا إِذَا لَطَالُمُونَ ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية التاسعة وسبعون فقام الشيخ الجبرودي (١)
وقال :

ما كاد يوسف يسمع كلام اخوته الا وقد سفه فكرة الاستبدال ، وفيل رأيهم تقيلاً ، و(قال) بنفس عزيزة وصوت جهوري ، مجيئاً لهم جواباً سلبياً ، ما هذا الإبرام؟! وما هذه الشفاعة الملتوية؟!.. (معاذ الله أن) أي نعوذ بالله معاذاً من أن (نأخذ) نستبدل واحداً بريئاً بواحد آثم ، وقد أضيف المصدر الى المفعول به وحذف لفظ « من » (الا من وجدنا متاعنا) سلمتنا ، (عنده) في رحله ، ولم يقل « من سرق » تفادياً من تلويث لسانه بالكذب ، ولبيان مستند الجريمة ، فهو ليس بتصریح بالسرقة ، ولكنه تعريض بها ، وإن في المعارض لندوحة عن الكذب ، (إِنَّا إِذَا لَطَالُمُونَ) لالشريعة ولأنفسنا ولهذا البديل الشخصي عن بنيامين .

هذا هو موجز تفسير مقودات هذه الاية ايها السادة واما تفسير الاية المفصل فكمالي :

(قال : معاذ الله ... الخ)

— ١ —

رفض يوسف ترك بنيامين او اخذ غيره من الاخوة

كان اخوة يوسف قد عرضوا عليه رجاءهم ، وهم في شيء من القلق ، وضعف الأمل ، كأن قلوبهم حدثتهم بما سيقونه من الفشل عند « عزيز مصر » ، لأنهم كانوا يحسون بضعف مستندهم في طلبهم ، أمام قوة الحكم الصارم ، الذي صدر من ألسنتهم ، فلذلك لما سمع طلبتهم زهر في وجوههم ، وكشر لهم عن مثل ناب الليث ، ونأى بجانبه ، وقال قول مصر على مخالفتهم ، مقيم على محاربتهم ، ما هذا الذي تقولون ؟.. ما هذا المركب الخشن الذي تريدون أن تحملونا عليه ؟.. هل يجوز لنا أن نكرم أهل الشقاوة ، ونهين أهل السعادة ؟.. إياها^(١) يا قوم ، هل يجوز أن نأخذ البريء ونطلق المجرم ؟.. لعمري دون ما تطلبون شرح القناد ، حاشا لي من أن أقبل هذا الظلم الغير جائز ، لاسيما أني أمثل الوطن والتاج ، فاعذروني إذا لم أقبل توسلاتكم ، أتم أنفسكم قد حكتم بأفواهكم ، إذ قلتم : « جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه » ، كذلك نجزي الظالمين » ، فهل قلتم : « جزاؤه من وجد في رحله فأخوه جزاؤه » ، كذلك نجزي إخوة الظالمين ؟.. كلا .. لم تنطقوا بذلك ، ولا يكاد أن ينطق به عاقل ، وإن هذه الشفاعة منكم ، هي من قبيل : ﴿ ومن يشفع شفاعَةً سيئةً يكنَّ له كفلٌ منها ﴾ (٨٤:٤) ، وإن الشفاعة لا تمجوز في الحدود ، وإن هذا الاقتراح لا يقبله منكم أحد من

المشرعين ، إلا من بلغ من الغفلة والبله مبلغاً لا يملنه الأطفال ، ولا سكان
المراستانات ، ولعمري لولا إنكم غرباء نزلنا علينا ، لقرعت لكم العصا وعاملتكم
بما تستحقون ، فلاتخرجونا باسترحاماتكم ، فتخرجونا عن شريعة آبائكم ، فظلم
الظالم يكون عليه ، والنفس التي تخطيء موتاً تموت ، وكما بالراعي تملك الرعيّة ،
فبالعدل تملك البرية ؛ « وأما ما كان من جهة أبيكم ، فعزّيز عليّ والله أن أشق
عليه ، ولكن الضرورة لها أحكام ، والشئ قد وقع ، ولا خيرة في الواقع ، ولكن
إذا أتيتموه فأقرئوه السلام ، وقولوا له : « إن عزّيز مصر يدعو لك أن لاتموت حتى
ترى ابنك يوسف ، وحتى تعلم أن في أرض مصر صديقين مثله ، هكذا بلغوه عني ،
وخلاكم ذم » (١) .

وهنا نرى ان موقف يوسف في حالتي استرحامهم وعدمه واحد ، برناميج ثابت ،
وضعه لأخذ شقيقه ، لن يتغير أو يتبدل ، ولا بد أن يكون جوابه السليبي وقع
عليهم كالصاعقة ، فلبيل لأول وهلة خواطرهم ، وجالت في ذهنهم بل جرت كمجرى
البرق ، صور كلها سوداء تنذر بالبلاء ، والعياذ بالله تعالى . (قالون)

وأخيراً أنهى كلامي بالمواد التالية :

يوسف بين عاملي فرح وكدر

مادة ١ — كآني بيوسف عليه السلام صار يتردد بين عاملين ، عامل الفرح
بمصوله على أخيه وأخذه عنده ، وعامل كدر أبيه متى بلغه ذلك الحادث ، لكنه
آثر الجري مع العامل الأول ، توصلاً لتشذيب شكيمة إخوته ، وتخفيف دوشو كتهم ،
وقد دلت التجارب على أن إظهار شيء من قوة الحاكم أو الأمر كفيصل بتقويم
شيء من الاعوجاج ، فيوسف أراد بهذه الشدة أن يعمل على تحسين حال إخوته ،

ثم ان تصوره قرب انكشاف الواقع ودنو مجيء آييه وأهليه جميعاً اليه ، خفف تأثير العامل الثاني عليه .

لا محابة في أعظم الشرع

مادة ٢ — يريد بقوله ﴿ معاذ الله .. الخ ﴾ إن الحكم الشرعي الذي لفظتموه . عام ، فهو لا ينظر في كون المجرم له اب شيخ كبير ام لا ، ولا فرق فيه بين ولد وولد ، ولا يحتمل شيئاً من المحابة ومراعاة الوجوه .

لا تجزي نفس عن نفس شيئاً

مادة ٣ — تعليقاً على قوله : « معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذا لظالمون » ، فكما انه في الآخرة ﴿ لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعه » ، ولا يؤخذ منها عدل ، ولا هم ينصرون ﴾ (٤٨:٢) فكذا في الدنيا ، لا نسيخ البذل الشخصي ، ولا نقبل الشفاعه ، التي تعود على العدالة بالنقص والبطلان ، ولا نأخذ فدية من المحكوم عليه ، وليس أحد من عشيرته وذويه ، يقدر أن يخلصه من قهراً ، لأن فتح هذا الباب يزيد الناس ميلاً الى الشر ، وضراوة بالإثم ، وان تعطيل العدل ، والوقوف في وجه الشرائع والقوانين ان تأخذ مأخذها ، وتنفذ نفاذها — ضار بالأمم ، مفسد للعمران ، ولذلك فحكتنا في مصر ، لا ترضاه ، بل هي تباهي بأنها لا تروج لديها « المحسوبيات » ، ولا تميل الى « المحابة » ، وليس فيها متسع « للمداخلات » ، حقاً إن شيئاً من هذا القليل لهُو مما يضر بالأمم ويفسد حالهم ، ويؤخر عمرانهم ، ويوهن عزائمهم عن الوقوف عند حدود الشرائع والقوانين .

يوسف يصر على تنفيذ الحكم الذي نطق به أهوه

مادة ٤ — ربما ان يوسف لما سمع تعطفهم إياه ، واستنزاهم رحمته وإحسانه ،

وذكرهم شيخوخة أبيه وطمئه في السن ، وانه يحبه لكونه أصغر أولاده — ربما انه لما سمع ذلك حدثته نفسه بإطلاق بنيامين ، وفصم عُرَى التداير التي كانت رتبها ، ولكنه رأى وجوب إمضاء العزيمة ، لأن تقضها ضعف في النفس ، وزلزال في الأخلاق ، لا يوثق بمن اعتاده في قول ولا عمل ، فإذا كان ناقض العزيمة عامل حكومة أو قائد جيش ، كان ظهور نقض العزيمة منه ناقضاً للثقة بحكومته وبجيше ، ولا سيما إذا كان بعد الشروع في العمل ، وبعد الفكر والروية ، ولذلك لم يصنع النبي ﷺ الى قول الذين أشاروا عليه بالرجوع عن غزوة أحد ، بعدما كانوا أشاروا عليه بالخروج إليها ، وبعدها كان قد افترس فيها ملياً ، وعزم عليها ، ولبس لامته وخرج ، فإنه بذلك صدق عليه انه شرع في العمل بعد الروية ، ويمكن ارجاع ذلك الى قاعدة « ارتكاب أخف الضررين » ، وأي ضرر أشد على الحاكم من فسخ عزمته ، وما فيه من الضعف والفشل وإبطال الثقة .

تكرار جملة « معاذ الله » في القرآن

مادة ٥ — كلمة « معاذ الله » لم ترد في القرآن الكريم إلا مرتين ، حكاية عن فم يوسف عليه السلام ، فالمرّة الأولى تقدمت عندما قالت له امرأة العزيز ، « هيت لك » فأجابها بقوله : « معاذ الله » ، والمرّة الثانية ههنا ، حينما قال له إخوته : (خذ أحدنا مكانه) ، فيوسف أظهر لامرأة العزيز أن هذا الامر وهو الفحشاء منكر يستعاذ بالله من الوقوع فيه ، كما أنه هنا أظهر لآخوته ان استبدال بنيامين بغيره ، منكر أيضاً ، لأن فيه استرقاق البريء وفك المجرم .

ظاهر قوله « انا ارا اظالمون » وباطنه

مادة ٦ — تعليقاً على قوله : « انا إذا اظالمون » لأن الجاني هو بنيامين ، فكيف نجازي غيره بجنايته ، قال تعالى : ﴿ لها ما كسبت ، وعليها ما كسبت ﴾ ﴿ ٢٨٦ : ٢٠ ﴾ ، ﴿ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ، ثم توفى كل نفس ما كسبت ﴾

وَم لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢: ٢٨١﴾ ، ﴿ وَأَنْ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ ،
 وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا مَسَعَىٰ ۚ ۞ (٣٨ : ٥٣) ، ﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ
 نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ (٦ : ١٦٤) ، فالقاعدة
 ان عمل كل انسان له أو عليه ، لا يجرى به سواه ، فطلبكم استبدال الجرم بالبريء
 لا أقبله ولن أقبله ، ولا يستطيع أحد من علماء الشريعة أو الحقوق ، بل ولا من
 أخط الجبهة إدراكاً ، وأسخفهم ذهنًا ، وأبدهم عن الحق ، أن يفتكر هذا الفكر .
 هذا بالنظر لظاهر اللفظ ، وأما بالنظر لباطنه فكأنني به يقول : (أعوذ بالله
 ان آخذ إلا شقيقي المحبوب ، الذي كنت بالاشواق الكلية لرؤيته ، والذي عملت
 هذا الكيد المتسلسل حتى توصلت للحصول عليه ، وإنني لو أخذت أحد إخوتي
 الكبار الذين كادوا لي كيداً ، وعملوا على إيذائي وإبعادي ، في حين أنني غير مشتاق
 لواحد منهم — لكنني ظالماً بتركي شقيقي المحبوب ، واستبدالي به مكروه من
 أولاد العلات ، ولحق عليّ أن أنشد قول الشاعر :

لَكَ الْحَمْدُ أَمَّا مَانِحِبٌ فَلَا نَرَىٰ وَنَبْصُرُ مَا لَا نَشْتَهِي فَلَاكَ الْحَمْدُ

التورية في قوله « متاعنا »

مادة ٧ — تعليقاً على قوله : « متاعنا » فالتناع كما يطلق اسماً للسلعة كالطاس
 هنا فانه يطلق مصدراً بمعنى المنفعة واللذة ، فهذه الكلمة هنا من قبيل ما يدعى
 « تورية » أو « تعريضاً » (وفي السنة كثير من المعاريض ، التي هي جائزة ، اذا
 لم تبطل حقاً ، ولا تحق باطلاً ، كقوله ﷺ لمن سأله « ممن أنتم ؟ » قال : « نحن
 من ماء » ، وكان اذا أراد غزوة ورى بغيرها ، وكان الصديق رضي الله عنه يقول
 في سفرة الهجرة لمن يسأله عن النبي ﷺ : (من هذا الذي بين يديك ؟ فيقول :
 هاد ، يدلني على الطريق) (١) .

برقيتا شفرة من يوسف لآبيه

مادة ٨ — أراد يوسف عليه السلام بتلك الأعمال والاقوال ، التي عملها وقالها بشأن بنيامين ، أن تبلغ لآبيه ، فيعي منها حل الفلز ، وفك الطلسم ، وان لم تفهم اخوته منه شيئاً ، قرب مبلغ أوعى من سامع ، وطبعاً ان المرسل اليه الرسالة يفهم منها ما لم يفهمه ساعي البريد ، كما قيل : « ففتحنا سكوت والهموى يتكلم » ، ونحن نرى أنه أرسل لآبيه برقيتي « شفرة » الأولى تفهم من (ع ٦٩ - ع ٧٩) وقرأ الأب هاتين البرقيتين وفهم رموزها ، وبناء عليه قال كما ميسأتي : ﴿ يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه .. ﴾ (ع ٨٧) .

وهنا تنتهي « المعركة » بين يوسف واخوته
(أحسنت ولا فض فوك)

البأسى والمفاوضة والمناباة

آ (٨٠) ﴿ فلما استنيسوا منه خالصوا نجياً ... قال كبيرهم : أَلَمْ نَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوَثِقًا مِنَ اللَّهِ ، وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ ؟ فَلَنْ أُبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي ، أَوْ يَحْكُمُ اللَّهُ لِي ، وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ . ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الاية الثمانون فقام السيد الحلبي (١) وقال :

سمع الاخوة العشرة جواب « عزيز » مصر السليبي ، وردم بلا ج

(١) نسبة الى بلدة حلب في سورية .

وتغليطهم في طلبهم ورأوه انه غير مهتم بما قالوا ويقولون ، يئسوا وكانت إحدى الحشرات ، وتقهرقوا من أمامه منكسي الرؤوس (فلما استيأسوا) وظنوا أنهم قد وقعوا في محال الشقاء ، كالقابض على الماء ، وعقدوا فيما بينهم مجلس مؤامرة (خلصوا) أي اعتزلوا وانفردوا عن الناس خالسين لا يخالطهم سواهم (نحيباً) ذوي نجوى — وهو مصدر بمعنى التناجي — أو فوجأ نحيباً ، أي مناجياً ، لمناجاة بعضهم بعضاً ، كالعشير والسمير ، بمعنى المعاشر والمسامر ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَقرَّبْنَاهُ نَحِيْبًا ﴾ (٥٢: ١٩) ، وأحسن منه يمكن أن يقال : إنهم تمخضوا تناجياً لاستجماعهم لذلك وافاضتهم فيه ، بجسد واهتمام كأنهم في أنفسهم صورة التناجي وحقيقته ، فعلموا ذلك لكي يتفاوضوا في تدبير أمرهم على أي صفة يذهبون ، وماذا يقولون لأبهم في شأن أخيه ، كقوم تعايا بما دهمهم من الخطب ، وصاروا ينظرون الى أفق المستقبل بمنظار حالك ، لا يعلمون مادبر لهم القدر ، من رحمة أو من نقمة ، فاحتاجوا الى التشاور المطلوب شرعاً وعقلاً ، ثم (قال كبيرهم) في السن وهو رؤوين ، وقد استشاط غيظه ، وتلظى تلظياً ، وتضرم تضرمًا ولاحت له صورة ذلك التشديد والاحتياط الذي عمله أبوه معهم ، كما لاحت له صورة يوسف « المظلوم » : إن الأمر للجلل ، وهو أعظم مما تتصورون : (ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله) وعاهدتموه وواعدتموه ، والوعد على الحر دين — فقالوا : اللهم نعم — قال (ومن قبل ما فرطتم) أي تفرطكم (في) شأن (يوسف ؟) وتهاوتم في أمره ، وقصرتم في الاحتفاظ به ، ولم يرم واحد منكم من ورائه ، ويناضل كما يجب ، وما يؤلني انه قد شملني عقاب عملكم ، لأنه قد يؤخذ الجار بظلم الجار ، ولعمري لقد تفاقم الخطب ، واتسع الخرق على الراقع ، وبلغ السيل الزبى ، وإن مأسوف يكون ، أشد هولاً مما كان ، وإن في طيات المستقبل ما تتضاءل أمامه حوادث الماضي ، وإن الغد سيحيثنا بأروع مما جاءنا به

منذ ٢٢ سنة — قالوا : وما الذي نصنع ؟ وشمعون هو الذي اضطرنا لأخذ يوسف من حضن أبيه ، ويهوذا هو الذي حسن لنا اللقاء في غيابة الحب ، ثم أنت بالأشد ، ويهوذا بالأكثر ، بطلا رواية أخذنا بنيامين من أبيه ، لازلتما تلحان عليه ، ولا برحما تتعهدان له حتى وانا كما ، فيصح أن نقول لك كما ليهوذا : « يداك أوكتا وفوك نفخ » — قال : وما علمي بما سيكون ؟ اممري لقد سبق السيف الزل — قالوا : وماذا تريد الآن ؟ — قال : أما أنا ، فوالذي بإذنه تقوم الخضراء والغبراء (لن أبرح) لن أفارق (الأرض) الداخلة في مملكة الرعاة ولا فواقاً (حتى يأذن لي أبي) بالبراح ، أو الانصراف اليه ، بشرط أن يحلني من يميني ، الذي أقسمت له ، ويتنازل عن الوعد الذي وعدته إياه — وذلك أن رأوبين كان قال لأبيه : « اقتل ابني » إن لم أجيء به اليك ، سلمه بيدي وأنا أردته اليك » (تك ٤٢ : ٣٧) ، (أو يحكم الله لي) بمفارقة والخروج منها ، أو بتمة مدة أسر أخي ، أو بخلاصه من يده بسبب من الأسباب ، أو بموتي في مصر ، فلئن مت غربياً في هذه الديار بلا خجالة ولا ذل ، خير لي من أن أرجع لفلسطين بالخبجل والمهوان ، (وهو) سبحانه وتعالى (خير الحاكمين) لانه لا يحكم أبداً إلا بالعدل والحق ، هذا كل ما أملكه اليوم في مصر ، وكل ما أستطيع أن أقدمه ، أملاً في تخفيف ويلات والذي ، وتخفيف هذا المصائب الذي لي منه حظ وافر ، سمع أخوته منه هذا الخطاب ، فأظلمت الدنيا في عيونهم ، وخيل اليهم كأن المحيط الذي يحيط بهم ، قد صبغ بصبغة الظلام الدامس ، ووقعوا في حيص بيص ، ووقعوا في قريب مما كان وقع فيه يوسف أيام الحب ، منذ ٢٢ سنة ، وكما تدن تدان :

تحمكوا ما استطاعوا في تحكمهم	عما قليل كأن الحكم لم يكن
لو أنصفوا أنصفوا ، لكن بنوا فبنى	عليهم الدهر بالأحزان والحن
فأصبحوا ولسان الحال ينشدهم	هذا بذاك ولا عتب على الزمن

(فلما استيأسوا منه : خلصوا نجياً ... الخ) .

— ٢ —

وقال سيدي علي المسمي^(١) :

بأس الاخوة من تخليص بنيامين وتفاوضهم واقتال ائمتهم الاكبر

فرغنا مما كان من أمر الجدل بين يوسف واخوته ، وتوسلهم اليه ، وعدم اجابته لإيام ، فلنترك ذلك كله ، ولنترك يوسف وهو محظي بأخيه في فرح وجدل ، ولنذهب بالقارئ الى هؤلاء الاخوة العشرة ، وحيرتهم ووقوعهم في الضيق ، الى أن التجأوا الى المفاوضة .

رأوا أنه قد حمى الوطيس من جانب « عزيز مصر » فرجعوا الى أفاحيصهم متسللين متلاوذين ، ومارجعوا الابنخي حنين ، فتلبدت عليهم غيوم الحادثة ، وضاق صدرهم ، وضافت عليهم الأرض بما رحبت ، ووقعوا في أزمة شديدة ، ورأوا أن هذا الحاكم لا يراغم ، وعلموا أن بقاء أخيهام أمر حتم ، لا بد منه طوعاً أو كرهاً ، فثلث لهم حراجة الموقف بأجلى مظاهرها ، ورأوا أنهم وقعوا في حيرة ، تنقادفهم العوامل ، بين رجوعهم لفلسطين بدون بنيامين ، وبين بقائهم بمصر ، حياء من أبيهم ، وكلا الأمرين شاق ، وصاروا كلما تصوروا مسيرهم لفلسطين هالهم موقفهم أمام أبيهم ، وعظم عليهم الاعتذار ، ولم يكن ذلك الحادث ليهولهم أو يكبر عليهم ، لو لا ما سبق من حادثة يوسف ، فيها قد أصبحوا متهمين في نظر أبيهم ، فهذه المسألة هي بكان من الدقة والخطر ، فلذلك رأوا أنفسهم في حاجة الى التفكير والمفاوضة ، لعلهم يصلون الى رأي أو مشورة ، يكون فيها حل لهذا المشكل ، ومخرج لهم جميعاً ، وتخفيف على أبيهم الذي هو الآن في قلق واضطراب .

(١) نسبة الى المسمية من قرى قضاء غزة (فلسطين)

ينتظر بفارغ الصبر عودة ابنه بنيامين ، وعودتهم جميعاً سالمين ممتارين ، لذلك اقتبذوا جميعاً في ناحية بعيدة عن مجتمع الدهماء وضوضائهم ، متناجين ، وأعمالوا فكرتهم ، وفزعوا الى الموامرة ، فقال أخوهم الأكبر راووين كما روي عن قتادة وهو في الواقع ونفس الأمر كبيرهم على الاطلاق ، لأنه بكر اسرائيل ، وهو ذو البلاء الحسن واليد المشكورة (نوعاً) في آرائه في يوسف ، فقد كان له معه ضلع لا ينكر ، وإن كانت المقادير لم تساعد — قال وقد شمر بعظم التبعة التي تحملوها بالأقسام التي أقسموها لأبيهم : « يا أخوتي ، ألم تعلموا أن أباكم إسرائيل قد كان تخوف منكم على ولده بنيامين حتى أخذ عليكم موثقاً من الله في شأنه ، وشأن محافظته ، والرجوع به سالماً ؟ . . فقد أصبحتم مقيدين بهذا الموثق ، وصرتهم مرتبطين بذلك (والشرط أملك ، عليك أم لك) ، ومن قبل ما فرطتم في أمر المحافظة على « يوسف » رحمه الله منذ ٢٢ سنة ؟ . . أنا لا أريد أن أزيدكم علماً بذلك ، لأنكم تعرفونه تماماً ، اليس هكذا ؟ » — قالوا : « اللهم نعم ، ولكن إن لم يكن لنا في الواقع اعتذار عن حادث يوسف ، فانا نعتذر عن حادث بنيامين بأن أبانا قال : « إلا أن يحاط بكم » وقد أحيط بنا ، إذ لا يد لنا مع الحكومة المصرية ، ذات الحول والطول ، ولا طاقة لعشرة أنفار أن يعصوا دولة ، ويخرجوا عليها ، خصوصاً ونحن غرباء ، وفي داخل حدود مملكتهم ، لا سيما وقد أخذوه بوجه مشروع ، بعد استفتائهم منا ، وأنت تعلم أننا جميعاً لم نأل جهداً في استبداله بواحد منا ، وإن « عزيز مصر » لم يقبل رجاءنا من هذا القبيل ، وكيف يقال أننا قصرنا ، وكل واحد منا فادى بنفسه ، وقبل التضحية بذاته ، ولكن مساعينا لم تكن الا قبض الريح » — فقال راووين : « أتم وذاكم ، وأما أنا فقد وطنت نفسي على أن لا أزال مرابطاً في مصر ، بدون أن أتبرم أو أتذمر ، ولن أفارق هذه الأرض ولو جلست على الحكومة بجيلها ورجلها ، وسأبذل كل مرتخص وغال ، وأجود

بالنفس والنفس ، وأنسى أهلي وأولادي ، في سبيل إقامتي في د صوعن ، ، وعدم رجوعي لكتعان ، حياء من أبي ، ولأجل مشاركة أخي بنيامين وملاحظته ، وأملأ أن يجد في شأنه ما فيه بركة أمل ، حتى يأذن لي أبي بالانصراف إليه ، بشرط أن يحلني من اليمين التي كنت أقسمت لها بها عندما أخذنا بنيامين منه بأن أرد له يدي وأن يتنازل عن الوعد الذي كنت وعدته بإياه بأن يقتل ابني إن لم أجيء بنيامين إليه ، أو يحكم الله لي بما لا يعلمه سواه ، لأن المستقبل بيده سبحانه وتعالى .

(جيد)

فلما استأثروا منه ، خلصوا نجياً . . الخ

— ٣ —

وقال تقي الدين الدهشوري ^(١) :

نشكر المحاضر الكريم الأخ المسمي على تفسيره لهذه الآية الكريمة وأرجو أن تعيروني سمعكم للتعليقات التالية عليها :

معنى النجى

١ — النجى والنجوى والتناجي مصادر بمعنى المسارة بالحديث وأصله من من النجوى ، وهي المكان المرتفع عما حوله ، بحيث ينفرد من فيه عمن دونه ، أو من النجاة ، كآته نجا بسره ممن يحذر اطلاعهم عليهم :

والغالب في التناجي أن يكون خيراً للمتاجين ، وشرّاً لغيرهم ، أو مؤذياً لهم ولو من بعض الوجوه ، كإسرار الحرب والسياسة التي يتوخى بها أهلها نفع أنفسهم ، وضرر غيرهم ، فيكتمون أخبارها ، ويجعلونها نجياً بينهم ، لئلا تصل إلى خصومهم ، وعدوهم الذي يضره ما ينفعهم ، وينفعه ما يحبط عملهم ، ويبطل كيدهم

(١) نسبة الى دهشور من بلاد السودان المحري .

ويشبه ذلك ما يكون بين التجار وغيرهم من طلاب الكسب ، من التناحي فيما يخافون أن يطلع عليه غيرهم ، فيسبقهم اليه أو يشاركهم فيه ؛
فالنجوى تكون في الخير كما علم ، ولكن الأكثر أن تكون في الشر ، أو أنها فيما يعود بالشر على غير المتناجين ، ولذلك كانت النجوى مظنة الإثم والشر ، والحكمة في كون النجوى مظنة الشر في الأكثر ، هي أن العادة الغالبة وسنة الفطرة المتبعة هي استحباب اظهار الخير والتحدث به في الملأ ، وان الشر والإثم هو الذي يخفى ، ويذكر في السر والنجوى ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ لا خير في كثير من نجواهم ، إلا من أمر بصدقة ، أو معروف ، أو إصلاح بين الناس ﴾ (٤ : ١١٣) ، والنجوى هنا هي من قبيل هذا النوع الثالث ، وهو الإصلاح ، لأنهم يتناجون لما فيه صالح أخيه بنيامين ، أو فيه صالحهم جميعاً فيما بينهم وبين « عزيز مصر » ، أو فيما بينهم وبين أبيهم إذا رجعوا اليه ماذا يقولون له في شأن أخيه .

مجلس شورى الاخوة

٢ — لما وقعوا في الأزمة الشديدة عقدوا « مجلس شورى » ، وقد أصابوا لأن « يد الله مع الجماعة » ، و « المرء قليل بنفسه كثير بإخوانه » و « ماخاب من استخار ، ولا ندم من استشار » وقد أمر نبينا عليه الصلاة والسلام بالشورى ، فقال : وشاورهم في الأمر (٣ : ١٥٩) ومدح الصحابة بقوله : ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ (٢ : ٣٨) ، وقال أبو الطيب المتني :

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن برأي نصيح أو مشورة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاظة فان الخوافي رافدات القوادم
وماخير كف أمسك الغل أختها ؟ وماخير سيف لم يؤيد بقائم ؟

١١٣١ (٨٠) تعريض راويين باخوته بعدم اشتراكه في التفريط بيوسف

تعريض راويين باخوته بعدم اشتراكه في التفريط بيوسف سابقاً

٣ — نفهم من قول راويين : « ومن قبل ما فرطتم في يوسف » شيئاً مهماً ، وهو أن راويين لم يقع منه تفريط في الاحتفاظ بيوسف ، وهو حقيقة راهنة ، أيدها النقل الصريح ، فقد روى لنا التاريخ أن « راويين » لما سمع كلام إخوته وموآمرتهم الأولى في شأن يوسف ، منذ ٢٢ سنة . قال : « لا نقتله ، لا نسفكوا دماً ، لا تمدوا إليه يداً » وصادف أنهم بعد أن القوه في الجب أن راويين غاب عن الجب وعن اخوته في بعض شؤونهم ، ثم رجع الى الجب ، وإذا يوسف ليس فيه فزق ثيابه ، لانه لم يكن يعلم أن « السيارة » جاءت فسجنته ، وأصعدته من الجب وسافرت به لمصر ، وكان بعد لقائه في الجب عازماً على إخراجهم منه بحيلة ، ليرده الى أبيه ، فرجع الى اخوته وقال : « الولد ليس موجوداً في الجب ، وأنا الى أين أذهب ؟ » « فرأويين » كان يعمل في الخفاء ويريد أن يرد يوسف لآبيه فيما بعد ، — هذا ما ذكره التاريخ ، وهو يؤيد ما فهمناه من الكتاب الكريم من أن « راويين » لم يكن مفرطاً بالاحتفاظ على يوسف ، وإلا لجاز أن يقول له كل واحد من اخوته ، ما قاله « أبو العيلاء » لصاحبه ، حينما سأله عن سبب بكوره ، فقال : « أراك تشاركني في الفعل ، وتضروني بالعجب » أو كما قال بعضهم لآخر : « ماجاء بك في هذا الحل المريب ؟ فأجابه : « الذي جاء بك » .

اقرار الاخوة على التفريط بيوسف سابقاً

٤ — وأخيراً فقد لاحظت هنا ملاحظة ، ولا أعلم إذا كان اتيج لغيري أنه لاحظها أم لا ، وهي أن قول راويين : « ومن قبل ما فرطتم في يوسف » هو أول اعتراف بالحقيقة جرى على لسان واحد منهم ومسكت عليه الباقون ، فيكون الكل قد اعترف صراحة بأنهم فرطوا في يوسف ، وكان هذا نتيجة شيء من

الخلاف بين الاخوة ، وبعبارة أصح بين رأوين وسواه ، وبذلك صدق قول بعض الحكماء : « إذا تخاصم اللسان ظهر المسروق » (مرحى)

نتيجة المفاوضة:

آ (٨١) ﴿ ارجعوا الى أبيكم ، فقولوا : يا أبانا ، إن ابنك سرق ، وما شهدنا إلا بما علمنا ، وما كنا للغيب

١ : ١٠ .

افتتحت الجلسة وتليت الآية الحادية والثلاثون فقام الملا محمود السليمانى^(١) وقال :

يقول « رأوين » : هذا ماصحت عزمي عليه بالنسبة اليّ ، وأما بالنسبة اليكم يا اخوتي ، فليست أرى الا عودتكم ، فذلكم أخلص وأوفق لكم (ارجعوا) سراعاً ، واستحثوا غيركم جهد طاقتكم (الى أبيكم) ، ونها ، سيروا لفلسطين وإن يكن هذا الرجوع رجوعاً بشريّ وعراً^(٢) ، رجوعاً بصفقة المغبون، ولكن ما العمل ؟ ارجعوا اليه (فقولوا : يا أبانا ، إن ابنك) بنيامين اصلحه الله ، (سرق) سقاية الملك ، التي يكيل بها للمتارين ، وجدت في عدله ، فأخذ عبداً ، حسب شريعتنا ، وها هو الآن عند « عزب مصر » (وما شهدنا) عليه أمامك بالسرقة (إلا بما علمنا) ظننا بعمقضى ظاهر الحال ، وبعمقضى شريعتنا أن مجرد وجود الشيء بيد المدعى عليه بعد انكاره يوجب له أحكام السارق ظناً (وما كنا للغيب

(١) سبة الى السلطنة بلدة في العراق .

(٢) العر : المكروه

حافظين) أي وما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الموثق ، أو ما علمنا انك تصاب به كما أصبت ييوسف ؛

نحن اليوم وقمنا في مشكلة لم تكن في حُسابتنا ، وما كنا لنعلم ما يأتي به الغد.

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم ما في غدٍ عَمِي

ما كنا نعلم أن حادثاً كهذا ينزل فوق رؤوسنا ، وبنوع أخص فوق رأس أخينا بنيامين ، أنت قلت ، وكأنتك حفظت لنا خط الرجعة : إلا أن يحاط بكم ، وقد أحيط بنا ، فلقد غلبنا على أمرنا ، ولسنا أكفاء لحكومة مصر أن نقاومها ، وما عسى أن نصنع مع حكومة القاهرة غنية ؟ وقد قيل « إذا تكلم الجاه مسكت الصواب ، وإذا نطق المال خرس الحق » ، على أننا نعتزف بأننا رأينا الصواب في عدل أخينا رأي العين ، ونحن لو كنا نعلم الغيب لاستكثرنا من الخير ، وما مسنا السوء ، سبحانه لا علم لنا إلا ما علمنا ، إنك أنت العليم الحكيم .

جمل البشر وفهم الانبياء بالغيب — إقامة الحجية على النصارى بهرم الوهية المسيح

ملاحظة — لقد صدقوا في قولهم : ﴿ وما كنا للغيب حافظين ﴾ ، لانهم بشر مخلوقون ، وليس هم فقط ، بل كل بشر مخلوق لا يعلم الغيب ، حتى ولو كان نبياً مرسلًا ، قال فوح عليه السلام : ﴿ ولا أعلمُ الغيب ﴾ (٣١:١١) وكذلك قال خاتم الانبياء : ﴿ ولا أعلمُ الغيب ﴾ (٥٠:٦) وقال أيضاً :

﴿ ولو كنت أعلمُ الغيب ، لاستكثرتُ من الخير ، وما مسني السوء ﴾ (١٨٧:٧) وقال المسيح عيسى : ﴿ تعلمُ ما في نفسي ، ولا أعلمُ ما في نفسك ﴾ (١١٩:٥) وقال في الانجيل ﴿ وأما ذلك اليوم وتلك الساعة ، فلا يعلم بها أحد ، ولا الملائكة الذين في السماء ، ولا الابن ، إلا الآب ﴾ (مر ١٣:٣٢)

وبهذه المناسبة ، والشيء بالشيء يذكر ، نقول اذا كان المسيح بمقتضى هذه العبارة لا يعلم متى تقوم الساعة — سواء أكانت الصغرى أم الكبرى — باعترافه هذا ، فكيف يكون هو ديان الخلائق يوم القيامة ؟ وقوله فيها : إن الابن لا يعلمها ، نص على أنه ليس بإله ، فإن قيل : لعله يريد « الانسان يسوع » — قلت : ولم لم يعبر بذلك ، ليكون قوله خالياً من اللبس والتضليل ؟ ، واذا كان افنوم الابن متحداً بناسوته كما يقولون ، فكيف لم يعلم الناسوت ما يعلمه اللاهوت ، والا فمما معنى هذا الاتحاد ؟؟ وجاء أيضاً في انجيل يوحنا ، ان المسيح عيسى لما أشار عليه إخوته بالذهاب الى اورشليم ، لأجل العيد ، قال لهم : « أنا لست أسمع بعد الى هذا العيد » (يو ٧ : ٨) ولكن لما مضى إخوته الى العيد ، مضى هو ايضاً بعدهم متخفياً (يو ٧ : ١٠) ، فعبارته هذه إما انها كذب وغش ، ولذلك ذهب بعدها متخفياً ، وإما انه ما كان يعلم أنه سيذهب الى العيد (أي جهل وتردد) ، وكلاهما مما يجب أن ينزه الله تعالى عنه ، وان كان قائلها باعتبار الناسوت — وهو الجواب الذي صدّعوا آدائنا به — قلت وكيف لم يهده اللاهوت المتحد به ، الى البت في عمل صغير كهذا ، وتركه ييدي كل تردد وجهل ؟ وما فائدة اللاهوت إدأ ؟ وفي أي شيء أفاده ؟ ولم اتحد به الله ، وهو لم يصلب معه ؟ بل تركه ، ولذلك قال : « إلهي إلهي ، لماذا تركتني ؟ » ولم يعبد النصارى هذا الناسوت الماجز الجاهل مع اللاهوت ، ولم يفرقوا بينها ؟؟؟!

سُهود الحال على جريمة التسريق

آ (٨٢) ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا ، وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ، وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾

تابع الخطيب السابق كلامه على الآية الثانية والثانية قائلاً :

استمر « راوين » في مخاطبة اخوته مبيناً لهم ما يجدر بهم أن يقولوه لأبيهم ، (و) إذا أردت يا أبانا أن تثبتين حقيقة ما نقول ، وتعلم صحة ما ننقل ، (اسأل) بنفسك أو بواسطة أحد عبيدك سكان (القرية التي كنا فيها) حيث جرى حديث التسريق والتفتيش - وهي الدسكرة التي لحقهم فيها فتیان المزير و جرت فيها تلك المحاورة - (و) أيضاً اسأل (العير) أي اصحاب العير والعير هي القافلة من الإبل - (التي أقبلنا) التي رافقناها وكنا مقبلين (فيها) لجهة كنعان ، فذلك يوم مجموع به الناس ، وذلك يوم مشهود ، وهذه « القرية » لقربها لا تحتاج لقطع أعناق الإبل ، إنه ليس بينك وبينها سوى ثلاث مراحل ، وهذه « العيرة » من فلسطين من جيرانك ليسوا بعيدين عنك ، وهم كثير ، لا يأخذهم عدو ، ولا يتهم واحد منهم بأنه يشهد عن عاطفة أو محابة لنا ، بل كلهم شهود عدول ، وبراہین ساطعة ، وعند السوآل يتبين لك الخيط الأبيض من الخيط الأسود ، وتظهر لك صحة ما ندعي ، فان هذه الحادثة أصبحت من الاخبار المستفيضة المستطيرة المعلومة عند هؤلاء الناس أجمعين ، (و) والله الذي بإدنه تقوم السماء والأرض ، (إنا لصادقون) وإلا فكل واحد منا نَفِيٌّ من أورمة إسرائيل ، وقد قيل : « لسان أخرس خير من لسان ناطق بالكذب » ، فهذه شهادتنا بأنفسنا ، وهذا استشهادنا بالناس المرافقين

لنا ، وهذه ايماننا ، وذلك الآن هو كل ما نملك من الدلائل التي تقدر أن تقدمها أمامك ، وما بعدها زيادة لمستزيد .
وأختم كلامي بالمواد التالية :

التحقق من القرية والعر

مادة ١ — طلبوا الى أبيهم إن أحبب ، أن يسأل القرية والعر ، والغالب أن تلك القرية كهؤلاء العر ليسوا من المؤمنين ، ومع ذلك فإخبارهم مقبول ، لأنه من قبيل البيئنة ، لا من قبيل الشهادة ، وقد قال العلماء : « البيئنة في الشرع أعم من الشهادة » ، فكل ما يتبين به الحق بيئنة ، وذلك كلقرائن القطعية ، وعليه فشهادة غير المسلم تدخل في البيئنة بهذا المعنى ، إذا تبين للانسان بها الحق ، ومع ذلك فهم يقولون لأبيهم إن هذا الحادث مستفيض ، وعند الاستفاضة لا فرق بين المسلم وغيره ، وربما كانت أخبار غير المسلم مقبولة أيضاً والله أعلم .

المراد من القرية ١

مادة ٢ — المراد من « القرية » أهلها كما ذكرنا ، فإن العرب تذكر اسم المكان وتريد من فيه ، ومثاله : « والى مدين أخاهم شعيباً » (٧ : ٨٤) ، أي الى أهل مدين ، وكما قال حميد بن ثور :

قصائد تستجلي الرواة نشيدها ويلهو بها من لاعب الحي سامر
يَعَصُّ عليها الشيخ لبهام كفه وتجري بها أحياءكم والمقابر

أي أهل المقابر ، والعرب تقول : « أكلت قدرأ طيبة » أي أكلت ما فيها ، وكذلك قول الخالصة : « شربت كأساً » (١) .

مال يعقوب واسرته آتشد

مادة ٣ — قضاوا في هذه الموأمرة ساعة وبعض الساعة ، وأخيراً وعلى حسب ما قال « كبيرهم » قام الاخوة التسعة ، وأعدوا معدات السفر ، ورحلوا قافلين لفلسطين .

فوا أسفاه لهذه الحال المحزنة التي صارت اليها أسرة يعقوب عليه السلام : بلاء اكتنفهم ، وشروور تظاهرت عليهم ، ومحن قد أحاطت بهم ، وتفرق بعد اجتماع ، وانتشار بعد انتظام ، فأبوهم هو وأحفاده في فلسطين ويوسف - في رأيهم - مفقود ، وبنيامين ، مستعبد عند « عزيز مصر » ، ورأوين بقي في مصر في إحدى فنادقها ، غريباً وحيداً ، ينتظر الفرج من الله ، وأما التسعة الباقون ، فهم سائررون الآن في الطريق الى أبيهم ، بين مصر وفلسطين ، في تلك الصحراء القاحلة ، وكلهم في فكرة وقلق ؛ سبحان الله ؛ قضى يعقوب عليه السلام زمناً غير قليل من حياته بفلسطين ، تبعاً من أخيه « عيسو » الجبار ، ثم خوفاً منه أن يقتله قام للعراق وقضى فيها عشرين سنة وهو يرعى غنم خاله « لابان » ، ثم قضى برهة من أيام حياته مسروراً مغتبطاً بابن هو الزهرة اليانة في روض أبنائه ، ثم نكبه الدهر فيه نكبة عظمي ، فحزن عليه حزناً شديداً ، ثم جعل حزنه يخف تدريجياً ، كما تخف أحزان جميع الناس بطول المدة ، ولم يجد بداً من أن يعيش لابنه بنيامين أصغر أبنائه ، ليتولى تربيته واسعاده وأصبح بنيامين تعزيتة الكبرى بعد شقيقه المفقود ، وهو كذلك ، فما شعر إلا وقد فقدته اليوم أيضاً ، وصار عبداً لحاكم مصر :

محن الزمان كثيرة لا تقضي وسروره يأتيك كالأعياد

تكذيب فصبر فترجي

آ (٨٣) ﴿..... قال: بل سَوَّلْتُ لَكُمْ أَنْفُسَكُمْ أَمْراً، فَصَبِرْهُ جَمِيلٌ، عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً، إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثالثة والثمانون فقام الشيخ خليل من علماء الطائف (١) وقال :

رجع اخوة يوسف الى ابيهم فقالوا له ما قاله له أخوهم « رأوين » ، فلما سمعه أبوهم ، ألمّ به من الحزن ما كادت تتقد منه أضالعه ، فقال لهم : « ثم ماذا ؟ أتموا حديثكم — قالوا : هذا كل حديثنا ، وليس عندنا حديث غيره » فما عدا أن يسمع هذا الكلام حتى (قال) « لم اصدق ، ولا أريد أن اصدق ، (بل سولت) زينت وسهلت (لكم أنفسكم امراً) أردتموه ودبرتموه ، وإلاّ فما أدرى ذلك الرجل أن السارق يؤخذ بسرقة لولا فتواكم وتعليمكم له بعد ظهور السرقة تعمداً ليتخلف أخوكم » — قالوا : « ما أخبرناك إلا بالحق » — قال قلت لكم : « ان ابني لا يسرق ، ولن يسرق ، وان حاكم مصر لا يعرف هذا الحكم العبراني الا من فكم ، ولأمر ما دُبّر من قبلكم ، وقبّل حاكم مصر أن يحكم على رجل عمل جنابه في بلاده بغير شريعة مملكته ، والا فصرف مصر يتطلب الحكم على الجاني فيها بقوانينها لا غير » (فصبر جميل) على هذا التأني المقدور ، فان الصابر كالرجل القوي ، لا بنوء به الحمل الثقيل .

— وهنا نرى ان يعقوب عليه السلام نَزَعَ الى الصبر ربنا يتكرم عليه ربه بلقباً أولاده الثلاثة ، فيفرح فرحاً مثلثاً :

كن حليماً إذا بليت بنيظ وصبوراً إذا أئتت مصيبة
فالليالي من الزمان حبالى كل يوم يلدت فيه عجيبة
(عسى الله أن يأتيهم) بالثلاثة (جميعاً) عاجلاً أو آجلاً ، فاني أرى ذلك
بعين القلب ، ولا أزال أسمع صوت الوعد السماوي یرنّ في أذني ، (إنه هو العليم)
بحالي في الحزن والأسف (الحكيم) الذي لم يبتلني بذلك الا لحكمة ومصلحة .

(قال : بل سولت لكم أنفسكم ... الخ)

— ٢ —

وقال الشيخ الأسيوطي (١) :

حال يعقوب عندما بلغه نبأ تلصص واستعباد بنيامين

انصاع أولاد يعقوب لرأي أخيهم الا كبرأوين ورجعوا أدرجهم الى أبيهم ،
وقصوا عليه القصة ، وقد كان ينتظر عودة بنيه بكل فروغ صبر ، مع علمه بطول
المسافة التي بين « سيلون » محل اقامته في فلسطين و « صوعن » محل اقامة العزيز
بمصر ، ولكن مدة الانتظار تطول على المنتظر وان قصرت ، وكان بمدة
الانتظار مملوءاً من الرجاء والأمل ، وهو كذلك إذ جاءه أبناءه يحملون
له نبأ تلصص بنيامين واستعباده ، فتمعّر وجهه ، وقال في نفسه : كنت في مصيبة
فصرت في اثنتين ، ويحكم ! انه لحوب كبير ، ما هذا الذي تقولون ؟
... لا.. لا.. لم يكن شيء من هذا القبيل ، أنا اليوم مثلي بالأمس وبالغد ، أرتاب
في صحة كلامكم ، ولا اصدق ما تخبرون به ، لا أجد عن ذلك قيد شبر ، بل
سولت وزيت لكم أنفسكم أمراً ذا بال ، أمر أضل عني فهمه ، وعمت علي حقيقة
واغمي علي واستبهم ، وان سابق عملكم مع يوسف الفقيده ، يجعلني أقف تجاه
أخباركم هذه موقف المرتاب ، أنا لست الآن في معرض التحقيق والبحث ،

ولا اتفرغ له ، إنما لا أظن أن « بنيامين » يجرأ على هذا ، إذ يحتمل انكم أتم الذين جعلتم « السقاية » في رحله ، كما يحتمل ان حكومة مصر لها في ذلك الحادث شأن من الشؤون ، لا يعلمه الا الله تعالى ، نواحرناه ... يا بنياميناه ... آه من اهل الظلم ! أواه من الحكام الظلمة ، هل انت لص خائن يا بنيامين ؟!؟.. هل أنت متسول ؟!؟.. حاشا .. ولكن هي اغراض الطالمين ، تسلك الأبرياء في سلك المجرمين ، فصبر جميل على هذا الحادث الذي يتفتت له الصخر ، صبر جميل وإن اكن قد ذقت العذاب الواناً ، صبر جميل وإن يكن عنائي وهمي بفراق ثلاثة أولاد سيكون أضعاف عنائي وهمي بفراق ولد واحد :

نصيبك في حياتك من حبيب	نصيبك في منامك من خيال
رماني الدهر بالأرزاء حتى	فؤادي في غشاء من نبال
فصرت إذا أصابتي سهام	تكسرت الاتصال على النصال
وهان فما ابالي بالرزايا	لأنني ما انتفتت بأن أبالي

آه ... أرسلت ابني بنيامين لازداد حمل بعير ، فنقصت ولداً بل ولدين ، أرسلت ابني بنيامين لكي اخفف ويلي التي أصابتي بالقطط والأزمة مع من أصابت ، فكانت النتيجة انه استرق ، فكنت بحسب العاقبة كنافس الشوكة بالشوكة ، أو كغاسل الدم بالدم ، أو كمقرور هرب من الديمة ، فصار تحت الميزاب ، أو هرب من الرمضاء فتدهور في النار ، ولكن :

سأصبر حتى يعلم الصبر أنني	صبرت على شيء أمر من الصبر
فما مثل مر الصبر صبري وانما	صبرت على شيء أحر من الجمر
فما أحسن (الصبر الجميل) مع الرضا	وما قدر الولي على عبده يجري

وان بطل الدهر هو من كافح المصائب بشجاعة ، وتغلب عليها بالنبات ، والحازم من صبر عن مضض الحياة :

كم ساعة أزعجني وقها وآلتي يدها القاسية
فتشت فيها جاهداً لم أجِد هنية واحدة صافية
وكم سقني المر أخت لها فرحت اشكوها الى التالية
فأسلمتي هذه عنوة لساعة أخرى وبى مايه
يا صاحب الساعات انصت عسى تنجيك منها الساعة القاضية
ولكن عسى الله ان يأتيني بأولادي الثلاثة ، فان في ذلك لي رهبةً قوية
واملاً كبيراً :

ولربها نثر الجمان تمعداً ليعاد احسن في النظام واكتملا
وان الشمس تغرب ، فلا تلبث أن تطلع من شرقها ؛ ونرى تراكم السحاب
فوقها ، فلا تلبث أن تنفجر عنها ، حينها تهب عليها الرياح الباردة ، وان الاشجار
تعزى ، ثم تعود الى جمالها مخضرة نضرة ، حينها تهب عليها نسائم الريح . وإن
الأحياء ينامون في مضاجعهم حتى إذا طلع عليهم الكوكب النهاري بقرنه ، قاموا
من مراقدهم ، وهكذا أولادي ، سيؤوبون — ان شاء الله — الى وطنهم وحضن
أبيهم ، وما ذلك على الله بعزيز .
(مرحى)

(قال بل سولت لكم انفسكم .. الخ)

— ٣ —

وقال العلامة القزويني ^(١) في هذه الآية الكريمة التذييلات التالية :

هاتف من يعقوب

١ — رأيتني في مسقط رأسي « قزوين » في ذلك الحين ، حين أن سمع يعقوب

(١) نسبة الى قزوين بلد على بحر قزوين شمال ايران

من أولاده نبأ بنيامين ، وكان لدي « الهاتف اللاسلكي » فأدرت لولب أمواجه الى « سيلون » ثم أصغيت في صوانه ، فسمعت يعقوب عليه السلام يقول :

« ما هذه الكرب التي لا تزال تتعهدني ، كما تتعهد المحموم نوباته ، حيناً بعد حين ؟!.. موت راحيل ، ففقدان يوسف ، فموت اسحاق ، فاسترقاق أصغر الأولاد ، فاحتباس كبيرهم ، فما لحواذئ الأيام قد التفت حولي ، التفاف المقطرة بالمقطور ؟!.. ومالهاديات الدهر قد أحاطت بي ، إحاطة الجامعة باليد ، والتقيد بالرجل ؟!.. »

خليلي لا والله ما الدهر منصف وليس له يوماً علي جميل
يقرب مني كل شخص يسوءني ويبعد عني من اليه أمل
« آه .. أواه .. وا أسفاه .. »

سمعت هذا من ثم هذا الصفي الكريم ، ثم سمعت هاتفاً يهتف به من الملائكة العلى : ﴿ وَلَتَبْلُؤُنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ ، وَتَبْلُؤُنَّكُمْ ﴾ (٤٧ : ٣١) ، صار كل هذا ، فمجيئتي في نفسي كيف تسنى لي أن اسمع كلام يعقوب عليه السلام ، وبينه وبينه نحو (٣٧٠٠) سنة شمسية ؟ ثم استغربت من وجود اللاسلكي في ذلك الزمن ، وفيما أنا كذلك ، تلملت وفتحت عيني فاذا أنا في حلم ، فذهب عني كل ما كان عندي من تعجب واستغراب .

الايجاز والحذف في القرآن

٢ — تقدمت الإشارة الى ان في صدر الكلام حذفاً ، تقديره : فرجعوا الى ايهم فقالوا له ما قال لهم كبيرهم ، ولهذا نظائر في القرآن كثيرة منها قوله تعالى : « يوسف ، أيها الصديق الخ » فيه ايجاز ، والمعنى فأرسلوه الى يوسف ، فأتاه ، فقال يوسف الخ ، ومنها قوله تعالى : ﴿ فَأَتَيْنَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا : إِنَّا رَسُولُكَ ﴾

رب العالمين ، أن أرسل معنا بني إسرائيل ، قال ، ألم 'رَبِّكَ فِينَا وَلَيْدًا ؟ *
(٢٦ : ١٦ - ١٨) معناه فَأَتَاه فَقَالَ لَهُ مَا أَمْرُهُ اللَّهُ ، فَقَالَ فِرْعَوْنُ : أَلَمْ نَزِكَ الْخَ،

استغشاش يعقوب لاولاده في نبأ بنيامين

٣ - لم يصدقهم أبوهم هذه المرة ، مع انهم - فيما يمتقدون - صادقون فيها ، لأن من عهد عليه الكذب ، لا يصدق ولو تكلم بالصدق ، كما ان من عرف بالصدق يصدق في كل شيء ولو كان كاذباً ، فابوهم لم يقابل كلامهم بالتصديق بل استغشهم ، ولم يكن في هذه المرة الثانية أقل منه استغشاشاً لهم في المرة الاولى .
كانوا استشهدوا بسؤال القرية والعر ، فلم يأبه لاستشهادهم ، ولم يعبأ بأيمانهم ذلك لانه تعود منهم الغدر والكذب واليمين النموس ، فما صدقهم في هذه الحادثة ، مع أنهم كانوا - في تصورهم - صادقين . فما مثلهم الا كمثل حكاية الذئب وراعي الغنم المشهورة .

يعقوب بين الابتسام والانسجام

٤ - لو رأيت يعقوب عليه السلام حينما سمع هذا الخبر المقعد المقيم ، لرأيت منظرأ عجيباً ، وخلقاً غريباً ، نعم لو رأيت ، لرأيت في وجه واحد ، ثغراً يبتسم ، ودمعاً ينسجم ، أما الانسجام فلاجل مصيبة ولده بنيامين ، وأما الابتسام فلانه علم ان الله قد آذن بالفرج ، فان الكرب اذا اشتد هان .

تسلك يعقوب في حادثتي يوسف وبنيامين

٥ - تقدم انه نطق بعين الجملة الشريفة (بل سولت لكم أنفسكم أمراً) حينما أخبر بأن « الذئب » أكل يوسف ، فهو وان يكن قد ذهبت به الظنون

في شأن ولديه كل مذهب ، إلا أنه كان لا يعتقد أكل الذئب ليوسف ، ولا يصدق بسرقة بنيامين على الحقيقة .

صبر يعقوب

٦ - صبر يعقوب عليه السلام في هذه المرة الثانية ، مع انها مصيبة ملوثة بالعار والدناءة ، فلا تقل عن المصيبة الأولى ، بل ربما كانت أعظم ، وعلى كل فان أسباب الكرب والكدر فيها ترحي الصبر بالمنجنيق - صبر لأنه من أصحاب المبادئ الثابتة ، ومن ذوي الأخلاق المتينة ، هذا عدا أنه من الأنبياء المرسلين الذين هم سادة المتأدين ، بما أدبهم به رب العالمين .

موقف يعقوب واحمد في حالتي كذب وصرف اولاده

٧ - زى أن موقف يعقوب مع اخبارات اولاده واحد ، في حالتي كذبهم (ع ١٧) وصدقهم (ع ٨٣) برنامج ثابت ، وضعه لعدم ثقته بهم ، لن تجدد له تحويلاً ، ولن تجد له تبديلاً .

خوف يعقوب من اولاده

٨ - نقرأ في كتاب الله آية ، فنجدها كأنها فصلت ثوباً سابغاً ليعقوب عليه السلام ، وتلك الآية هي قوله تعالى ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ ، وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ، وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ (٢: ١٥٥) ، فانه عليه السلام كان في شيء من الخوف من اولاده ، بدليل أنه - لاسيما في المرة الاولى - لم يعاقبهم ولم يشدد عليهم ، ولم يجل طويلاً في البحث معهم عن يوسف ، وقد كان قبل هذا النوع من الخوف خاف خوفاً شديداً من شقيقه « عيسو » حتى انه خاف أن يقتله ، وهذا ما كان دعاه للهجرة من الشام للعراق .

عند خاله «لابان» ، تم قد وقع هو واسرته في شيء من الجوع ونقص الأموال والثمرات في سني الجذب ، ونقص من أولاده يوسف وبنيامين ورأوين ، ومع ذلك كله فقد صبر صبراً جميلاً .

دمعة على يو.

آ (٨٤) ﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ ، وَقَالَ : يَا أَسْفَا عَلَى يُوسُفَ
وَايْبَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ ، فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الرابعة والثلاثون فقام حيدر افندي الازميري^(١) وقال :

كره يعقوب ماجاء به أولاده ، فأعرض (وتولى عنهم) وهو يتعثر في اذياله من شدة الهم ، وقد احتدم احتداماً ، وصفق كفاً بكف ، وقد تفتحت جروحـه (وقال) بصوت شجي مؤثر (يا أسفا على يوسف) — والأسف أشد الحزن والحسرة ، يقال أَسِيفَ كَتعب : حزن وتلف ، فهو أسفٌ مثل تعب ، والألف بدل من ياء الاضافة ، — وانما أسف هنا على يوسف ، مع أن المقام مقام أسف على بنيامين ورأوين ، والرزة الأحدت أشد على النفس وأظهر أثراً ، لأن أسفه على يوسف كان متبادياً لم ينقطع قط ، وكأن الرزة فيه مع تقادم عهده كان غضاً طرياً ، ولأنه لم يقع حادث عنده موقعه ، ولأن الرزة في يوسف كان قاعدة مصيباته التي ترتت عليها الرزايا في ولده ، فكان الأسف عليه أسفاً على من لحق به (و) لازال يبكي حتى (ايضت عيناه) أي مقلتنا عينيه (من) كثرة البكاء الناجم عن (الحزن) ، لأن الاستعبار إذا كثرت محقت العبرة سواد العين وقلبتـه

(١) نسبة الى ازميز من بلاد الاتراك

الى بياض كدر ، ولا بد انه عليه السلام كان يدرك رؤية الأشياء ادراكاً ضعيفاً ،
لأن العمى لا يجوز على أنبياء الله ، لأنه من الداآت المنفرة للطبيعة؛

وجاز له أن يبلغ به الجزع ذلك المبلغ لأن الانسان مجبول على أن لا يملك
نفسه عند الشدائد من الحزن ، ولذلك حمد صبره (فهو كظيم) مملوء من الغيظ
لأجل أولاده ، ولا يظهر ما يسوءهم ، — وفعل بمعنى مفعول بدليل قوله ﴿ وهو
مكطوم ﴾ من كظم السقاء : اذا شده على ملئه ، والكظم (بفتح الظاء) مخرج
النفس ، يقال : أخذ بأكظامه .

(وتولى عنهم ، وقال يا اسفا .. الخ)

— ٢ —

ثم تابع المحاضر كلامه قائلاً :

تجدد حزن يعقوب

كان يعقوب يرى أن يوسف هو ثمرة حياته ، ومرجع آماله ، وزهرة
أعماله وتعزيتة في شيخوخته ، ووارث علمه ، ومجدد مجده ، وانه هو الذي تمثلت
فيه ملامحه ، وتوفرت فيه خلائق أبيه وغرائزه ، ولذلك لم ينسه ولن ينساه ،
فعندما سمع نبأ بنيامين ، تذكر ولده يوسف فتولى عن أولاده وخلا بنفسه ،
فصارت الهواجس تتقاذفه ، والأفكار تخنقه ، وقد جرت عادته أن يتعزى عن
يوسف ببنيامين ، ولكن اليوم لم يجد ما يتعزى به عنه ، فاندفع الى ذكره ، وقال :
« يا أسفا على يوسف ! فقد كان تعزيتي عن كل شيء ، وكان زينة أولادي ، وبيت
قصيدهم » فصعد الزفرات ، وأسأل العبرات حيث طفحت عواطفه عن طريق
العينين فانسكب دمعها قطرات ، يساق بعضها بعضاً ، وبالنتيجة ابيضت عيناه من
الحزن الصامت ، ولكن بدون أن يجني ذلك البياض على نظره ، وأشد الحزن

ما يبكي الرجال ، وكان حينما يبكي لا يدري ، أي يكي يوسف .. أم يبكي بنيامين ، أم يبكي رؤوين .. أم يبكي شخصه الذي أصيب بهذه المصائب .. أم يبكي تشوئش حال أسرته وتشتتها .. أم سوء سمعة بنيامين واسترقاقه في مصر .. الى آخر الأحوال الحزنة الأليمة التي صبت فوق رأسه ، عليه الصلاة والسلام !!؟

وهنا رب سائل يسأل ويقول : كيف بكى يعقوب حتى ابيضت عيناه مع أنه وعد أن يصبر صبراً جميلاً ..؟ والذي يفهم من كلام بعض الشعراء أن البكاء ينافي الصبر الجميل ، قال البحري :

إن الفراق كما علمت فخلني ومداماً تسع الفراق وتفضل
إن لا يكن صبر جميل فالهوى نشوان يجمل فيه مالا يجمل
وقال كثير :

وقالوا نأت فاخر من الصبر والبكا فقلت : البكا أشفى إداً لغليلي
وقال أبو فراس الحمداني :

إذا مادعوت الصبر بعدك والبكا أجاب البكا طوعاً ولم يجب الصبر
وقال المتنبي :

يأبى الشجاع وصبره متواتر يبكي ومن شر السلاح الأدمع
وإذا حصلت من السلاح على البكا فحشاك رعت به وخدع تفرع

قلت في جوابه : ليس مطلق بكاء هو من نوع منافيات الصبر الجميل ، كما تشير اليه هذه الأشعار ، ولكن الذي نص عليه علماء التفسير ، وفي مقدمتهم ابن جرير ان الصبر الجميل هو الذي ليس فيه جزع ولا شكوى ، أو كما جاء في الحديث المرفوع هو الذي لا شكوى فيه ، ومعناه لا شكوى فيه الى الخلق ، الا ترى الى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾ ، وعلى كل فهذا المعنى يصدق بما اذا كان فيه بكاء ولو كثيراً ، ومجرد البكاء ولو كثيراً ، لا يسمى جزءاً ،

إنما الجزع ما يقع من الصباح والناحاة ولطم الحدود وشق الجيوب ، فهذا النبي ﷺ ، كان سيد الصابرين الصبر الجميل ، مع انه بكى يوم وفاة ولده ابراهيم وقال : ﴿ إن المين لتدمع وإن القلب ليحزن ، وإننا بفراقك لحزونون ، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا ﴾ وعنه ﷺ : « انه بكى على ولد بعض بنيه وهو موجود بنفسه ، فقيل يا رسول الله تبكي وقد نهيتنا عن البكاء ، فقال : ما نهيتكم عن البكاء ، وإنما نهيتكم عن صوتين أحققين ، صوت عند الفرح وصوت عند الترح » ، وعن الحسن : « انه بكى على ولد او غيره ، فقيل له في ذلك ، فقال : ما رأيت الله جعل الحزن عاراً على يعقوب » قال الشاعر :

إن البكاء هو الشفاء من الجوى بين الجوانح

وأما ما يفهمه شعر هؤلاء الادباء من المنافاة بين الصبر ومطلق البكاء ، فهو من باب المبالغات الشعرية ، وأيضاً فليس كلام الادباء بحجة في اللغة ، وإنما الحجة الحديث الشريف الذي فسر الصبر الجميل بأنه الذي لا شكوى فيه الى الخلق (فهو كظيم) حيث صار ذا حرقة كامنة تعتلج في صدره ، ولا تجد لها متفساً ، وقد احتفظ بسكوته وهدوئه ، فلزم خيمته يقاسي من داء قلبه وداء عينيه مالا يطيق مثله الا مثله ، وفي الختام نعلم من هذه السورة الشريفة ان حياة يعقوب عليه السلام كانت مفعمة بحوادث الأحزان والكروب النادرة المثل في التاريخ .

(جيد جيد)

وتولى عنهم وقال : يا أسفا على يوسف . . الخ

— ٣ —

وقال الطيب هبة الله الدمشقي :

أخبرني يعقوب والنبين عليهم السلام

كره يعقوب ما جاء به أولاده ، فبرم بهم وتركهم ، أو أنه تغفلهم فأعرض

عنهم وابتعد منهم ، لأنه يريد أن يطلق عنانه في التأسف والتحسر ، ويوغل في البكاء بحرارة ، لأنه جرب فرآى أنه إذا أراد أن يذكر يوسف أمامهم ، فرعان ما يسمع منهم الانتقاد ، أو لأنه أحب أن يخفي عنهم ألمه ، الذي عجزت 'ممتته عن احتماله ، وأن يحمل ثقل ذلك على عاتقه ، دون أن يكدر صفاء من حوله ، ولو أنهم هم لا يهمهم أن يكدروه ، فلم يظهر لهم شيئاً من ذلك ، ولم يظهر ما يسوؤهم ، رغمًا عن أنهم أساؤوه ، شأن كل كريم ، لاسيا النبيين ، لا يظهرون انقباض نفوسهم ، ولا يحملون الناس شيئاً من اكنثآهم ، ولا يفرقون على الناس همومهم لئلا يحزنوا بذلك قلوبهم ، لأنهم هم الذين يأمرؤن الناس بأن يقدموا للناس ما فيه مسرات الحياة ، وترويح النفوس ، وينهونهم عن انقباض النفس وابتسار (١) الوجه أمام غيرهم ، لئلا يكدرؤا صفاءهم ، لأنه أما يكفي أن لا يستطيع الإنسان أن يسعد أخاه ، فإذا لم يفعل ، فعلى الأقل يجب أن لا يشقيه ، وهذا خلق عظيم من الأخلاق الفاضلة التي ينبغي لنا التخلق بها ، فحبذا لو كان كل منا يحافظ على أن لا يقطع على أخيه مسرته ، بل يزيد مسعاده وغبطنه ، ولا يظهر له عبوسه وبسوره (٢) بل بشره وفرحه ، وذلك إنما يكون إذا تلقى نحن الدهر بصدر واسع ، وخلق وادع ، وصبر جميل ، كما هو حال يعقوب عليه السلام .

لماذا اختص يعقوب ولده يوسف بالحزن

بحادثة بنيامين ذكر يوسف الفقيد الثاني عنه ، فحن اليه ، حنين الناقة الى فصليلها ، وأحزنه أنه لم يسمع له بخير ، ولم يقف له على أثر ، منذ سنة ، فلم يجد له بداً — إذ هاجه الوجد — أن يلجأ إلى ذلك الملجأ الوحيد ، الذي يفزع اليه جميع البائسين والحزوين ، وهو الأسف والشكوى الى الله بالجنان ، ولكن في خلوته بعيداً عن كل إنسان ، واختص يوسف بالأسف ، لأنه تصور في نفسه أن

« رأوين » حين حبس نفسه في مصر كان عمره نحو ٦٠ سنة تقريباً ، وهما على كل حال كبيران في السن ، ومكان وجودهما معلوم متعين ، بخلاف يوسف في ذلك كله ، فانه كان حين فقد صغيراً ابن ١٧ سنة ، ولا يعلم أين مأواه ، فهو الحقيق بالأسف .

وأخيراً نقول : ماذا تظن يعقوب عليه السلام في ذلك اليوم العصيب ، يوم ماسمع بأن ولده « بنيامين » سَرَقَ واستُرِقَ عبداً في بلاد غريبة ، وعند ذلك تذكر ابنه يوسف ، وزاد على هذا وهذا انجباس ابنه « رأوين » ؟ . . هل تظن أنه كان ساكن القلب مطمئن البال ؟ . . وهل ذاق جفناه الكرى بعد هذه الحوادث الاليمة ؟ . . كلا . . لانخاله قضى يومه ذاك ، وليلته تلك ، الا مضطرباً قد هاجه الأسف ، وأطلق لنفسه عنان البكاء . . وذرف الدموع السخينة لهول ماعراه ، ليس من مصاب واحد ، بل من تلك المصائب الثلاث . قال أبو العلاء المعري :

قضى الله أن الآدمي معذب الى أن يقول العالمون به قضى
فبني^١ ولادة الميت يوم رحيله أصابوا تراثاً واستراح الذي مضى
أصبت

وتولى عنهم وقال يا أسفا على يوسف . . الخ

— ٤ —

وقال الفضيل الشبراوي^(١) :

اعلق على هذه الآية الكريمة بالتعليقات التالية :

تكرار اسف يعقوب على ابنه يوسف

١ — كائن بسيدنا يعقوب عليه السلام ، عندما ثارت عواطف نفسه ثورة

(١) نسبة الى شبرا في مصر

عظيمة ، وتولى عن بنيه وهو خائر النفس ، وقد تراحت الموم في مخيلته ، وأكثرها
بروزاً غياب يوسف — كما في به قال : « يا أسفا على ذلك الشباب الغض ، على غصته
الباسق النضير ، وا أسفا على تلك النبتة الرقيقة التي كانت تعيش بجانب دوحها ،
يفيء عليها ظلها ، ويفيض عليها نسيمها ، فهصرت وقطعت ، فإذا النبتة ذابلة ، وإذا
الدوحة تكلى حزينة !

أواه .. هاه هاه ..

يا من يمز علينا أنت نفارقهم وجداننا كل شيء بمدكم عدم
لقد انمطت عليّ المصائب ، تعمل مطارقها على رأسي ، ومهامها في قلبي ، فلي
الله ، من آسف حزين ، لي الله ، من فاقد فلذة كبده ، لي الله ، من فاقد أولاده
الثلاثة ، أكبرهم وأصغرهم وأحبهم :

متى يستريح القلب والقلب متعب بين على بين وهجر على هجر ؟
وهكذا تكدر وتغرمر في داخله ، حتى قهره الأسف ، وأنهكه البؤس ،
وانقلب شوقه حزناً « وايضت عيناه من الحزن » :

الحاجة التي في نفس يعقوب

٢ — سمعت من عالم من علماء «دمهور» عاصمة البحيرة في الديار المصرية أنه رأى
مناماً سمع فيه يعقوب يقول : « يا أسفا على يوسف ، وكيف لا أتأسف عليه وقد
خرج من عندي بارادتي لا قهراً ، وأسلمته لأعدائه برضا مني لا جبراً ، وقد كان
بوسمي ملافة ذلك الأمر قبل وقوعه ، بمنع ارساله مع اخوته ، مع أني أنا كنت
أحذره منهم ، فكان يجب أن أحذر نفسي أيضاً ، وعلى الأقل كان يجب أخذ
الحيلة باتخاذ اليهود والموائيق على اخوته ، حتى إذا غدروا به ، لم أحسب نفسي
قد قصرت في أسباب سلامته » — قال : فقلت له : « يا سيدي هل هذا هو

« الحاجة » التي كنت قضيتها لبنيامين دون يوسف ؟ — فأشار برأيه : « أي نعم ، فادركت عندئذ الحاجة الواردة في قوله : « الاحاجة في نفس يعقوب قضاها » .

إنما الصبر عند الصدمة الأولى

٣ — إذا قلت لم ذكرت يوسف في مقام ذكر بنيامين قلت : جرت العادة ان المصيبة تظهر عند وقوعها عظيمة في عيني صاحبها ، وعلى ذلك جاء الحديث الشريف : « إنما الصبر عند الصدمة الأولى » ، فاذا طال صبره عليها ، وطال أمدها تصاغرته ، حتى ربما تكاد تزول ، ولكن متى تجدد له مصيبة أخرى ، تجددت ذكرى المصيبة الأولى ، وهكذا كان حال يعقوب عليه السلام ، فانه كان استعظم اشجائه بالنسبة ليوسف ، ثم سكنت ماشاء الله أن يسكت ، ثم لما نزلت به المصيبة الجديدة ، تجددت ذكرى مصيبتة الأولى ، فهاجت بلبله ، وتولى عنهم ، لكي يخلو بنفسه ، ويطلق لها العنان ، في البكاء والتصورات ، ولأنه رآهم كالحشوية يقولون مالا يعقل ، ويتقنون مالا يصح أن ينقل .

وكأنني به عندما انعزل عنهم جانباً لاحت له صورة يوسف حبيبه الأول ، فأخذ منه الدهول مأخذه ، وارتفعت حرارة شوقه الى درجة عظيمة فقال : يا أسفا على يوسف . . .

جرع على جرع

٤ — أخذ المقيم المقعد عندما أخبروه نبأ سرقة ولده الاصغر « بنيامين » واسترقاقه ، واحتباس ابنه الكبير « رؤوين » بمصر ، فتولى عنهم ، وكأنني به قال « زعموا منذ ٢١ سنة أن يوسف أكله الذئب ، واليوم يقولون : « إن ابنتك سرق » وهذا هو الجرح الثاني ، مع إن الاول لم يندمل بعد ، وكما ليس للأيام بدل ، فليس .

لنفس خلف ، ولا للدين عوض ، فإننا لله وإنا اليه راجعون ، ومع هذا فإن لي .
أملًا بحياة الاول ، ورجاء بقوة دين الثاني وكل ما قالوه لي سابقاً ولا حقاً لم يكن .

وجوه اسف وعزله يعقوب على يوسف

٥ — قال : « يأسفا على يوسف » مع انه كان يثق بحياته ، وانه سيكون له شأن ذوبال ، ولكنه أسف وحزن عليه لوجوه أولها : لانه خرج من عنده بأرادته ولم يأخذ الحيلة باتخاذ الموائيق واليهود على اخوته لحفظه ، حتى إذا ما أخلفوا لم يجد نفسه قد قصر في أسباب سلامته . . وثانيها لفرقة له وطول المهذب ، وثالثها لانه تذكره بسبب حادثة اخيه ، والاسى يبعث الاسى ، رابعها لما كان سمعه قديماً عنه من أولاده أن الذئب افترسه ، لانه وان كان لم يصدق ولن يصدق بصحة هذا الخبر ، لكن جرت العادة ان أخبار السوء لا يمكن أن تمر دون ترك لها أثراً في النفس ، حتى ولو كانت كاذبة ، بل ولو كان السامع لا يعتقد صحتها .

المراد من العين في قوله « وايضت عيناه »

٦ — تعليقاً على قوله : « وايضت عيناه » نعلم من فن الطب ان القسم الظاهر من مقلة العين مؤلف في الامام والمركز من طبقة شفافة تسمى « القرنية » وفي وسطها دائرة مفرغة تسمى « الحدقة » ومن وراء الطبقة القرنية والحدقة ، طبقة اخرى تحيط بالحدقة ذات لون أسمر أو بني أو رمادي أو أزرق أو عسلي أو أخضر ، تسمى « بالقرحية » وهي التي تعطي العين الصفة المميزة لها ، ومن حول القرنية يأتي بياض العين الذي يؤلف القسم الاكبر من مقلة العين ويسمى « بالصلبة » ؛ وعلى ذلك فيكون المراد من العين في قوله « وايضت عيناه » هو القسم المركزي

الملون من العين ، أي أنه عبر بلفظ الكل وأراد به الجزء وامثال هذا التعبير كثير في اللغة .

معنى الكظيم

٧ — تعليقاً على قوله: «فهو كظيم» يقال: كظمه الغيظ والغم: أخذ بنَفْسِهِ، فهو مكظوم وكظيم، ومنه: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ (٦٨: ٤٨) أي مملوء غيظاً، ومن كظم السقاء إذا ملأه، و﴿ظَلَّ وَجْهَهُ مُسْوِداً وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (١٦: ٥٨) أي مملوء حقناً على المرأة، والكظيم المكروب، والكظيمة الزادة أي الراوية؛ فالمكظوم والكظيم: المملوء من الاحزان الساكت عليها لا يظهرها لأحد، كالاناء المملوء ماء الذي لا مُتَنَفِّسَ له، ويقال كظمت الغيظ وعلى الغيظ فأنا كاظم إذا أمسكت على ما في نفسك على صفح أو غيظ، ومنه: ﴿وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظِ﴾ (٣: ١٣٤)، وكظم القرية إذا ملأها وشد فاهها، وكظم البعير: إذا لم يجتر. ومنه كظم الغيظ وهو أن يمسك على ما في نفسه منه بالصبر ولا يظهر له أثراً وكَظَمَ الباب: سده، وعلى هذا فيجوز تفسير «كظيم» بكظم، مثل «حصير» في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ (١٧: ٨) أي حاصرة لهم، وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ (٢٥: ٥٥) أي مظاهراً، وكظام القرية هو الخيط الذي يشد به فيها، والغيظ يحمل الانسان على أفعال، وأقوال لا تليق به، فشبهه مانع نفسه منها بمن كظم القرية أي منعها أن يخرج منها الماء، وفي الحديث: «من كظم غيظاً وهو يقدر على انفاذه ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً»، وعن عائشة إن خادماً لها غاظها، فقالت: «لله در التقوى»، ما تركت لذي غيظ شفاء.

مقابلة بين مزن يعقوب ومزن ارميا

٨ — هذه هي الكلمة الفذة «يا أسفا» التي نفّس بها يعقوب عن نفسه،

ولم ينطق قط بسواها ، ولعمري لو كان « ارميا » النبي صاحب المراثي الشجيرة محل يعقوب ، للأ الأرض صراحاً وعويلاً، وثر من الأشعار ما يفتت الأ كباد ، ولكن سبحان من رفع بعض النبيين على بعض درجات ، وجعل لكل واحد منهم منزلة امتاز بها دون من عداه ، ومع ذلك فربما يقال إن يعقوب كان يندب شخصاً واحداً ويسكى خيمة واحدة خلت من صاحبها، ولكن « ارميا » كان يندب شعباً ، ويسكى اقلياً خلا من ساكنيه .

سبب اقتصار أسف يعقوب على يوسف

٩ — أسف يعقوب على يوسف ، لان كل انسان يحب أن يحيا حياة طويلة طيبة ، ولا يتسنى له ذلك الا بواسطة أولاده وأحفاده الطيبين ، وأن الخوف من الموت غريزة في كل منا ، وذلك الخوف ليس هو من الموت الطبيعي بقدر الخوف من انطفاء الذكر بعد الموت ، فالرجل الذي لا يكون له أولاد ، خيانه تنتهي بانطفاء شعلته ، أما صاحب الأولاد فانه يعيش عيشة ثانية بأولاده ، ثم بأولاد أولاده ، وهكذا يظل مشعاله موقداً ، ينتقل من جيل الى جيل ؛ والرجل الصالح « كيعقوب » يجب أن يكون ذكره بعد موت شخصه حسناً ، ويجب أن يحيا في نسله حياة حسنة ، وهذا لا يكون الا بواسطة نسل صالح ، وذلك الصلاح مأمول له أن يكون في يوسف ، كما كان قال له : « وكذلك يحببك ربك .. الخ » فلذلك نادى بأسفه على موضع آماله ومرمى رجائه .

الرسول بشر يعترهم ما يعترى البئر

١٠ — تتعمم مما حدث ليعقوب بسبب حادثتي ولديه ، ان الرسول بشر ، يعترهم ما يعترى سواهم من الناس ، وليس لهم من تدبير الكون شيء ، وانما هم مُعَلَّمُونَ ، وأُسوة حسنة فيما يُعَلَّمُونَ ، قال تعالى خطاباً لنبيه الأعظم : ﴿ يٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ مِنْ

الأمر شيء ﴿ (٣ : ١٢٨) وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ أَمَرَ كُلُّهُ لَهِ ﴾
 (٣ : ١٥٤) فهذا يعقوب أصيب في ولديه بما نعلم ، وهذا النبي ﷺ كُسِرَتْ
 رباعيته في غزوة أُحُد ، وشج وجهه ووقع في الحفرة ، حتى وقعت الهزيمة على
 أتباعه المسلمين ، في هذه الغزوة ، وهو قائدها ، فأَيَّ نصيب من الدين الاسلامي
 للذين يجمعون أمر العباد ، وتدير شؤون الكون لطائفه من أصحاب القبور
 أو الأحياء الذين يلقبون بالمشايخ والأولياء ، فيزعمون أن يدهم النصر والخذلان ،
 والإسعاد والإسقاء ، والغنى والفقر ، وانهم يفعلون كل ما يشاؤون ؟؟ فهل يعد
 هؤلاء من أهل السنة والجماعة ، هل يعدون من أتباع طريقة القرآن ، حقاً إن
 تلك المزاعم هي من النزعات الوثنية ؛ نجانا الله وإياكم منها .

لفظة « يا أسفا » مسجلة الى يعقوب فقط في القرآن

١١ — كلمة « يا أسفا » لم تنزل في القرآن الكريم الا في هذا الموضع ، فكان
 الله تعالى جعل هذه اللفظة في كتابه مسجلة على اسم يعقوب ، وانه لولا يعقوب
 وأسفه ، لم تنزل هذه الكلمة من السماء في كتاب الله تعالى .

التجانس بين لفظي الأسف واليوسف

١٢ — التجانس بين لفظي « الأسف » و « يوسف » مما يقع مطبوعاً غير
 متعمل فيه فيملح ويبدع ، ونحوه : ﴿ إِثْقَالْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ، أَرْضَيْتُمْ ﴾ .
 (٣٩ : ٩) ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ﴾ (٢٦ : ٦) ، ﴿ يُحْسِبُونَ .
 أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ ﴾ (١٨ : ١٠٥) ، ﴿ مِنْ سَبَاءٍ بِذِئْبَاءٍ ﴾ (٢٧ : ٢٢) ،
 (كشف) .

الرد على من يقول ان حب يعقوب لابنه يوسف

لا يليق الابن بان غافل عن الله

١٣ — ههنا يتساءل بعض المغفلين المتفلسفين ويقول : « إن غاية يعقوب ويوسف ، وجهه اياه لهذه الدرجة ، لا يليق إلا بمن كان غافلاً عن الله ، وجهه لمولاه ، الذي يملأ القلب ، فلا يكون فيه متسع لسواه ، فان من عرف الله أحبه ، ومن أحب الله لم يتفرغ قلبه لحب شيء عداه » ؟

وعندنا ان هذا الكلام مدخول ، مزين الظاهر ، فاسد الباطن ، غير منطبق على عقل أو شريعة ، وهو مخالف لروح الاجتماع وطبيعة الكون ؛ كيف لا .. وقد أرشد الله عباده المؤمنين الى العناية بكل شيء ، حتى بالدرهميات ، فانزل فيها في آية الدين نحو مائتي كلمة (٢ : ٢٨٢ - ٢٨٣) « وانا نجد في الكتاب الكريم أن الله تعالى عني بكل شيء » ، حتى بالزيتون ، فامتّن به في كتابه ثلاث مرات ، وبالرمان ، فامتّن به ثلاثاً أيضاً ، وبالنخيل ، فذكره في كتابه ممتناً به على عباده ، اثنتي عشرة مرة ، وبالعنب ، فذكره في كتابه عشر مرات ، وبالنخل ، فامتّن به على عباده حيث قال : ﴿ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً ﴾ (١٦ : ٦٧) على أنا نجد في كتاب الله الكريم عناية الله وامتنانه على عباده بالحجر (١٦ : ٨) ، وبالقضب ، وهو الكلال اليابس (٨٠ : ٢٨) ، وبالأف ، وهو الكلال الأخضر ، (٨٠ : ٣١) . وقد أقسم الله تعالى بجميع ما في هذا الكون من مخلوقاته ، أي بجميع مواليد العالم كله ، فقال : ﴿ ووالديه واما ولدك ﴾ (٩٠ : ٢) ، فاذا كان الله العظيم ، وهو الله العظيم ، يعنى بهذه الأشياء ، ويهتم لها ، ويهتم على عباده بها ، أفلا يحق ليعقوب عليه السلام ، أن يعنى بفائدة كبده ، ويهتم لحط آماله ، ويجب ولده يوسف حباً حمياً ؟ ..

(مرحى)

(وتولى عنهم وقال يا أسنا على يوسف .. الخ)

— ٥ —

وقال ابن الدقيق الهندي :

ايضاض العينين امتلائها بالدمع منه اثر الحزن

السلام عليكم : ايها السادة :

ما تركت اخواني الاربعة الاوائل ، كلمة لهذا الحقير القائل :

جزى الله خيراً قومنا وجدودنا فقد مهدوا مبللاً لنا ومسالكنا
سلكنها عفواً بدون مشقة ولولا هم السارى لأصبح هالكا

غير اني استمحيكم ان أتكلّم على قوله تعالى ﴿ وابيضت عيناه من الحزن ﴾ ،
فبعد إذ نكم أقول :

يخيل لي ان معنى « ابيضت عيناه من الحزن » : امتلأت عيناه من اثر الحزن
وهو الدمع ، أو امتلأت عيناه دمعاً من أجل الحزن ،

وبيان ذلك ان الايضاض يطلق على الامتلاء والتفريغ ، ضدّ ، قال في الأساس :
« ويبيض الاناء : ملأه وفرّغه ، وعن بعض العرب : ما بقي لهم صميل إلاّ بيّض :
أي سقاء يابس إلاّ ملئ » ، وقال في القاموس : « يبيضه : ملأه وفرّغه ، ضد » ،
والأبيض الماء ، وعليه فعمدنا ان المعنى ههنا : ان عينيه امتلأتا من اثر الحزن ، حيث
فاض حزنه ، من قلبه لعينيه ، أو ان عينيه صارتا تمتلآن من أجل الحزن دموعاً
وترسلانها على خديه ، فعبارة الأساس تصحح المعنى الذي قلناه ، فما بقي علينا إلاّ ان
نستدل على انه المراد ، دون غيره مما قالوه ، ولنا على ذلك دليلان : تقلي ، وعملي ،
فأما التقلي : فيعقوب نبيّ ورسول ، والأنبياء معصومون من الأمراض المنفرة
للطبيعة ، ولا ريب ان العمى نوع من تلك الأنواع المنفرة ، وأيضاً فحمله على

العمى أو على مرض يياض العين ، لنا فيه قول أولاده له : « تالله تفتأ تذكري يوسف حتى تكون حرضاً » : أي مريضاً أو فاسد الجسم ، فظاهره انه وقت ما كلوه بهذا القول ، لم يكن فيه نوع من أنواع المرض ، وليس فيه شيء من الفساد ، في بدنه - أو عينيه ، فكلمة أولاده هذه ، تؤيد المعنى الذي حملنا عليه الايضااض ، وتدفع المعنى الذي قاله المفسرون .

وأما الدليل العلمي : فان الفن يمنع أن يكون الحزن أو البكاء سبباً في يياض العين ، بالمعنى المشهور ، الذي مشى عليه الجمهور .

وبهذه المناسبة — والحديث ذو شجون — أتذكر حادثتين حدثتا لي مع بعض الطلبة : الأولى : قال لي بعض طلاب العلم : لماذا لا نقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ ﴾ (٢: ٩٣) ، أن المعنى : انهم أشربوا نفْسَ العجل ، الذي حرّقه موسى وذراه ونسفه في اليم ، وهو النيل ، وهم كانوا يشربون من النيل ، فصدق عليهم انهم اشربوه ؟ — فقلت له : وماذا تفعل في كلمة « قلوبهم » فان الشرب انما يكون في البطون دون القلوب !!

الثانية — وهي اكثر مناسبة لموضوعنا ، انني سمعت من بعض الطلبة ينقل عن المفسرين أن يعقوب عمي أو حصل له مرض في عينيه ، يسمى « يياض العين » فقلت له : وماذا نصنع في كلمة « من الحزن » فإنه لاشيء من العمى ومن يياض العين ينشأ عن الحزن ، فما وسعه الا السكوت .

فايضااض العين ياسادة هنا ، هو من قبيل ما يسميه علماء البلاغة « التورية » وهي أن يطلق لفظ له معنيان ، قريب وبعيد ، ويراد البعيد لقريته ، والقريته ههنا على ارادة المعنى البعيد ، كونه فيما سبق قد أخذ على عاتقه « الصبر الجميل » الذي لا ينافي امتلاء العين بالدمع ، فانه سبحانه « أضحك وأبكى » (٤٣: ٥٣)

فالعبارة لا يملكها ابن آدم ، ولا تسبب له فيها ، فلا يؤاخذ عليها ، فلاتنافي « الصبر الجميل » ، ولكن ينافيه البكاء الكثير جداً ، بحيث ينشأ عنه العمى .

تفسير ايضاض العينين بمعناه المجازي

وأخيراً بإسنادي يمكن أن يقال أن ايضاض العينين هنا ليس بالمعنى الحقيقي ، بل بمعناه المجازي ، وهذا نظير ايضاض الوجوه واسودادها ، المذكور في نحو قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ (١٠٦:٣) وقوله : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ (٦٠:٣٩) . وعلى هذا النحو ماروي ﴿ أن المؤمنين يحشرون عراً محجلين ، من آثار الوضوء ﴾ . فهل تحمل هذه الأقوال على المعنى الحقيقي ، بحيث يكون المؤمنون يوم القيامة ، في وجوههم بياض ، وفي سوقهم بياض ، مخالفاً لباقي أجسامهم !... كلا .. فإنهم يكونون هزواً وضحكة للعالمين ، وهل يكون أهل النار ، بيض الأجسام ماعدا وجوههم ، فأنها ستكون سوداء ؟... كلا .. ولكن البياض والسواد ، في أمثال هذه النقول ، من باب الكناية عن المسرة والغم ؛ حتى قال العرب لمن لم يتدنس بمعاصي : « هو أبيض الوجه » وقال شاعرهم فتمجبوا لسواد وجهه الكاذب ، والعرب لليوم يقولون : « بيض الله وجه فلان ، وسود الله وجه فلان » . وباللغة عليكم ، ماذا يقول هؤلاء الناس الجامدون ، في قوله تعالى : ﴿ وإذا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَى ، ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً ﴾ (٥٨:١٦) ، فهل يحملونه على الحقيقة . ويقولون : إن الرجل العربي ، كان إذا بشر بولادة امرأته بتناً ، ينصبغ وجهه بلون السواد ، كأنما اقلب زنجياً بعد ما كان أبيض ؟.. حاشا أن أحداً يفهم هذا المعنى ، فاحمل اللفظ في كل موضع على المعنى المناسب ، ولا تكن من الجامدين .

كاتب سر المؤتمر : نشرنا هذه الكلمة التي القاها الاستاذ ابن الدقيق الهندي على مسؤولية قائلها وحده .

اشفاق ونصح

آ (٨٥) ﴿قَالُوا: تَاللّٰهِ تَفْتَأُ تَذَكُرُ يَٰسُفَ ، حَتّٰى
تَكُونَ حَرَضًا اَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الاية الخامسة والثمانون ، فقام سعد الدين
البرقاوي^(١) وقال :

سبق أن يعقوب عليه السلام كان انسحب من ميدان المناقشة مع أولاده ،
وتركهم وانحاز وحده وما أن انقضت مدة إلا وقد رجعوا لمناقشته والملاحظة عليه،
(قالوا) مؤننين له : قد مات الميت فليحي الحي ، ونحن لم يبق لنا صبر على السكون
عن هذا البكاء وهذه التأسفات ، قد أصبح يوسف شغلك الشاغل ، (وتالله)
رب ابراهيم واسحق — وهذه التاء في تالله حرف قسم كالباء والواو ، ولكن
فيها زيادة معنى التعجب ، كأنهم تعجبوا من قوله : « يا أسفا على يوسف » —
لا (تفتأ) لاتزال — وحذف حرف النفي ، لأنه لا يلتبس بالاثبات ، لأنه لو كان
اثباتاً ، لم يكن خالياً من اللام والنون ، ونحوه : « فقلت يمين الله أبرح قاعداً » —
(تذكر يوسف) بياض نهارك وسواد ليلك ، في اضطراب وهياج وحزن
وبكاء ، ولا تبرح تضرب على هذا الوتر الحزن (حتى تكون حرَضاً) مشفياً على
الهلاك مرضاً ، — وأحرضه المرض ، ويستوى فيه الواحد والجمع والمذكر
والمؤنث لأنه مصدر ، والصفة حَرَضٌ « بكسر الراء » ، ونحوها دَنَفٌ
ودَنِفٌ ، وجاءت القراءة بها جميعاً ، قال في فقه اللغة : « الحَرَضُ بالكسر هو
الذي لا حيّ فيرجى ولا ميت فينسى » (أو) أي بل واكثر من الحَرَضُ بأن

(١) نسبة الى برقة من بلاد المغرب العربي .

(تكون من المالكين) فإن ذلك عاقبة الأحران ، والحال الذي أنت عليه يذيب الشحم ، ويعرِّق العظم فالى متى تذكر من مات ، ومات حظه من الدنيا ، هذا كلامهم لأبيهم ، وهو نصيحة منهم له واشفاق عليه ، يمازجه شيء من اللوم والتعنيف .

(قالوا : تالله تقتأ تذكر يوسف .. الخ)

— ٢ —

وقال السيد عبد العظيم الاشموني (١)

أبناء يعقوب يحاولون تهوين الخطب على أبيهم وتسرية
هموم وأحزانهم مع شيء منه اللوم

أراد أبناء يعقوب تهوين خطبه عليه ، وتسرية همومه وأحزانه ، فدخلوا إليه وحملوا فيه ، وقالوا له وقد رأوه انتقع لونه ، وتولاه الهزال : اضبط زمام نفسك ، واملأ تذكراتك لولدك ، ان في الوجود عزاء عن المفقود ، وان في الحاضر خلفاً من الغائب ، ان لك في أولادك وأحفادك لشغلاً شاغلاً ، ولك في النظر لصحتك وعافيتك ما ينسبك كل شيء ، انك تخدع نفسك بهذه الأفكار ، وتسوقها الى المرض فالهلاك ، عن رضا وطواعية ، فلا تفجع نفسك في نفسك ، ولا تفجعنا فيك ، فانه يعز علينا جداً أن نراك بعد قليل في يد البثور ، مرتحلاً من بين أيدينا الى أعماق القبور ، وتالله لا تقتأ تذكر يوسف بهذا الامعان والتعمق والأطنب مرة بالشكل واللوعة ، وحيناً بالهتف والضراعة ، وطوراً بالأسف والحزن ، ونارة بالأنين والتباكى ، وآونة بالثناء ، وأوقاتاً بالدعاء ، نعم لا تزال تذكر يوسف الذي أصبح من روايات التاريخ ، والذي هو في عالم الأموات منذ

زمن بعيد ، حتى تكون حراً ، فليس لطبيب ، ولا لجمع من الأطباء مقدرة باستئصال هذا المرض من جسمك ، ولا يرون لك فيه إبلاً ، بل وأكثر من ذلك تكون من الهالكين ، لذوبان قلبك ، وطيرانه شعاعاً على هذا الفقيد ، فهل سمعت بأن ميتاً رجع في هذه الدنيا الى الحياة الجديدة ؟ أو هل تظن أن يوم البعث هو بعد يوم أو يومين ؟... والله ما ندري ما نقول لك ، أنمضك وأنت واعظنا في جميع الأوقات ، ونجم هدايا الذي نستنير به في وسط الظلمات ، أم نرشدك الى ما ينبغي أن تلاحظه في نفسك ، ولا نعرف شيئاً أنت تجهله ، إن هذه الحياة التي تحياها إنما يلجأ اليها من يريد أن يمشي في طريق القبر ، إن من رآك رأى همساً أوفى على المئة والستين ، مع أنك لم تسلم المئة والثلاثة والأربعين ، استرخى حاجباك ، ثقلت أجفانك ، جمدت نظراتك تهطل عارضاك ، تجعد جبينك ، انفض عاتقك ، هوى بينها رأسك ، فلمعنا لقد تغير فيك كل شيء ، ولم يثبت فيك إلا تلك الذكرى المؤلمة ، فحفض عليك قليلاً ، ورفه نفسك بنسيان الماضي ، لا تأس على ماضى ، اصبر قليلاً أيها الشيخ الجليل « فها هو ذا الموت يمشي اليك ، بأسرع مما تمشي اليه ، اصبر فإن هذه الذكرى سبب في الهلاك ، فلا تهلك نفسك بيدك ، ولا تستسلم لهذا التذكار .

وكأنني بسيدنا يعقوب قد قال لهم وهو يشرق بدموعه : « أفبهذا الكلام تعزوني يا أولادي ؟.. دعوني أذكر ابناً سليم القلب ؛ ذا مستقبل باهر ، ولا أدري أين هو اليوم ، ولا ماهو حاله ، وادا كنتم تشفقون علي فابكوا معي وشاطروني في أحزاني .»

(أحسنت)

(قالوا : تالله تفتأ تذكر يوسف .. الخ)

— ٣ —

وقال لسان الحق الامباي (١) :

« تالله » كلمة صحيحة أريد بها باطل

قولهم « تالله ... الخ » كلمة صحيحة ، أريد بها باطل ، لأنهم قصدوا أن أباهم ينبغي أن ينسى أو يتناسى يوسف . نفاسة منهم عليه وحسد له .

الحرص والمرادفاته

وقولهم « حرصاً » من فعل حَرَضَ وبابه تَعَبَّ أشرف على الهلاك ، فهو حَرَصٌ ، وسميته بالمصدر مبالغة ، أو يقال الحرص والمرص والعلة والسقم والوجع والوعك والوصب والضنى والتنهك والدقق والداء تقريباً واحد ، أي دا حرص .

استعمال كلمة « اليهودك » للمسلم والطافر سواء

وأما كلمة « الهالكين » فيتصور الجمهور من الناس اليوم أنها لا تستعمل إلا في الكافر عند موته ، فيقال هلك « ماير » اليهودي ، ولا يقال هلك « محمود » المسلم إذا مات ، بل توفي مثلاً ، وهو وهم مبني على العرف الحاضر ، لا على اللغة العربية ، ولذلك نرى أولاد يعقوب ههنا ، لقد لفظوا بهذه الكلمة ، أو مايرادفها في لغتهم العبرية ، موجهين الخطاب بها لأنهم ، ومنه قوله تعالى ﴿ ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات ، فما زلتم في شك مما جاءكم به ، حتى إذا هلك ﴾

قلم : لَنْ يَبْثَّ اللهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا ﴿٣٤:٤٠﴾ (مرحى)

أين السجى من الخلى

آ (٨٦) ﴿٣٤:٤٠﴾ قال : إِنَّا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ،
وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ... ﴿٣٤:٤٠﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية السادسة والثمانون فقام المدقق
المحموي (١) وقال :

دهور يعقوب دموعه في اشداقه و(قال) لأولاده متأففاً : مالكم تنذرون
عليّ ؟ .. لا بد للمصدر أن ينفث ، فلا تخرجوني ، ومع ذلك فما أنتم وهذا الاتقاد ؟
فهل اليكم أقدم شكواي ، أو لغيركم من الخلق ؟ .. حاشا لي من ذلك كله ، أنا
لم أشك لأحد ، ولا أريد أن أشكو اليكم أو لغيركم (إنما أشكو بتي) هي
العظيم — والبث أصعب الهم الذي لا يصبر عليه صاحبه ، فيثب للناس ، أي ينشره ،
ومنه باثه أمره ، وأبشه إياه — (وحزني) غمي (الى الله) وكفى ! وأما هؤلاء
الناس فلست بشاك اليهم شيئاً ، بل ولا أسألهم ديناً ، ولا أمتقنهم عن دين ، بل
اليه تعالى أكل أمري (وأعلم من) أسرار غيب (الله ما لا تعلمون) ، إذ أعلم
بمستقبل يوسف ، ولكأنني أراه رأي العين ، إنما أنا أحزن وأبكي وأناأسف
لكوني أرى أن شقة البعد طالت ، ونور اللقاء يسير يبطء ، فهذا الذي قضى
بحزني وبكائي وتأسفي ، بحكم الطبع البشري .

(قال إنا أشكو بثي وحزني .. الخ)

— ٢ —

وقال الشهاب الغليجي (١) :

يعقوب يرد لابنائيه نصيحتهم له ولومهم اياه على حزنه على يوسف

كأنى يعقوب عليه السلام حقد في وجوه أولاده تحديقاً شديداً والدمع
يتفرق في عينيه ، ثم قال :

واحر قلباه بمن قلبه شبح ، رويداً رويداً أيها اللامئون ، فشديد جداً على
والد شيخ مثلي أن لا يذكر ولدأ له ، فارقه الى مالا يعلم ، لاسيما وقد امتدت
شقة الفراق ، بحيث صار بيني وبينه هوة مسحقة ، لا قرار لها ، فهل من العجب
مع هذا أن يطير قلبي خوفاً وهلعاً ، أو شوقاً وتوقاً ؟ .. على أن غرضي من ذلكم
أن أروته عن نفسي همومها وآلامها ، بالمناجاة والشكوى الى عالم السر والبلوى ؛
كما يرفه المريض عن نفسه أسقامه وأوجاعه ، بتريد الأتات ، وتصعيد الزفرات ،
ولاعلي إن أبئتتُ همي لربي ، ورفعت عقيرتي لخالقي :

تموت النفوس بأوصابها ولم يدر عوادها ما بها
وما أنصفت مهبجة تشكي أذاة الى غير أحبابها
وأن الشكوى الى الله هي من ثمار الايمان ، وليس أفضل منها وسيلة
لتعزية الانسان :

لاتسألن بُنيَّ آدم حاجة وسل الذي أبوابه لاتحجب
الله يغضب إن تركت سؤاله وبُنيَّ آدم حين يُسأل يغضب
سأحكم الله يا أولادي ، ماهذه الظنون التي تظنون ؟ .. وما هذا التثريب الذي

تضايقوني به ؟... وكيف تحولون بيني وبين البكاء على أولادي الثلاثة ، ولا سيما « العزيز » يوسف ؟..

وقع الشوائب شيب^١ والدهر بالناس قلب^٢
إن دان يوماً لشخصي فني غد يتقلب^٣
فلا تثق بوميض من يرقه فهو خلب^٤
واصبر إذا هو أضرى بك الخطوب وألب^٥
فما على البتر عار^٦ في النار حين يقلب^٧
ساحكم الله يا أولادي ، أراكم كلما زادت كروبي زدت في التأنيب ، على حد ما يقول القائل :

كلما أنبت الزمان قناة^٨ ركب المرء في القناة سنانا^٩
أنا لي رجاء في يوسف ، وأنتم تقولون ، إنه صار من صيد أمس .
وما صباية مشتاف على أمل من اللقاء كمشتاق بلا أمل
يا أولادي : الدمع دمي والعيون عيوني ، فدعوني أبكي ، والقلب قلبي والفؤاد
فؤادي ، فدعوني أحزن ، واللسان لساني والأمف اسفي ، فدعوني أرفع عقبيرتي
إلى ربي بالأمف ، دعوني فانكم لم تصابوا بمصيتي ، ومصيتي هذه انما هي فوق
رأسي ، سبحان الله ! أنا على أحر من الجمر . وقلوبكم أبرد من الثلج ، أنا أتأسف
وأنتم تصفقون ، أنتم تشتغلون بمجادلتي .

القلب أعلم ياعذول بدائه وأحق منك بجفنه وبمائه
فوم^{١٠} من أحب لأعصينك في الهوى قسماً به وبحسنه وبهائه
أأحبه وأحب فيه ملامه ؟ إن الملامه فيه من أعدائه
لا تعذل المشتاق في أشواقه حتى يكون حشاك من أحشائه
إن القتل مضر جاً بدموعه مثل القتل مضر جاً بدمائه

يأبنائي — إنا أشكو همي العظيم ونغمي على ماضى الى الله عز وجل ، وهذا أمر أحلته لي الشريعة ، ودعتي اليه الطبيعة ، واعلم من اسرار غيب الله مالا تعلمون ، وليس من يعلم كمن لا يعلم ، وهل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟.. والأيام بيننا . والمستقبل كشف .

يأبنائي : انا لست احب يوسف لسواد عينيه ، وليس حالي معه كمحب لشخص ، ومغرم بذات ، بل انا محب لآمالي فيه ، محب لرجائي في مستقبله ، فلست اذكر اسمه الا مشفوعاً بتلك الآمال ، وذلك الرجاء ، ولذلك فأنا حتى اليوم وغد أقول : آه ، ياترى ، يوسف الذي ستسجد له الكواكب أين هو ؟.. أواه .. يا عجباً ، يوسف الذي سيحبته ربه أين « راح » ؟.. واحسرتاه .. يوسف الذي سيعلمه ربه من تأويل الأحاديث أين ذهب ؟.. يوسف الذي سيتم ربه نعمته عليه ، ماذا حل به ؟..

لذلك أنا لا اضمن ببيكائي واسني على يوسف ، بل ولا بصحتي ، بل ولا بحياتي ، فكيف اتمتع بتمتع بشيء لا يضمن به صاحبه ؟.. الدموع دموعي ، والزفرات زفرائي ، والصحة صحتي ، والحياة حياتي ، فدعوني أجود بذلك كله في سبيل محبة يوسف ، مهما كلفني الأمر .

فصلاحي الذي زعمتم فسادى وفسادى الذي زعمتم صلاحى

وبعد ذلك أقول لكم : اما كان يجمد بكم ان تشاطروني احزائي ، ونحفقوا عني وطأة همومي ، عوضاً عن هذا التعنيف ، وبدلاً من هذا التأنيب ؟.. سبحان الله ! لو ترك القطا لنام ، يأيتها الناس ، من لم يستطع البكاء فليرحم الباكين ، ومن لم يحس بالألم ، فليشفق على المتألمين .

يأولادى ، اني اعلم من غيب الله مالا تعلمون ، اعلم سلامة يوسف وحياته ، وذلك بما أوحى الي في شأنه ، ان ربه سيحبته ويعلمه من تأويل الأحاديث

ويتم نعمته عليه ، فمن هذه الأمور التي لم تنجيء بعد ، ومن الرؤيا التي رآها ، ولم يأت تأويلها ، اعلم ان يوسف حي يرزق ، وانه يعيش الى ان يبلغ مبلغ الرجال ، واننا سوف نجتمع به ونزاه على احسن حال ، كما يحب ونحب ، وعندئذ يقسم تأويل رؤياه . يابني — انا اعلم اكثر مما تعلمون ، بل اعلم مالا تعلمون ، فكأنما في فؤادي الأشعة المجهولة التي تكشف عما وراء الحجب والموانع ، وعلى عيني منظار الرصد المفرد المجسم ايضاً ، ولذلك فأنا لا آخذ عليكم .

يا أولادي ، قد سمعت مقالتيكم ، وتبين لي نصيحتكم ، والإشفاق عليّ من جهتكم ، غير أنني — يرحمكم الله — لا أجعل أمراً تعلمونه ، وأما أنتم فإنكم تجهلون أموراً كثيرة أعلمها ، إن الذي يرى يبصيرته ، غير الذين يرون بأبصارهم ، أنا أطلع صحيفة من صحائف الغيب ، لم يقرأ واحد منكم منها حرفاً واحداً ، بناء عليه اتركوني وشأني .

هذا آخر جواب يعقوب عليه السلام لأولاده وترى أنهم سكتوا ، ولم يعودوا يحاورون أباهم ، ولا نعم هل كان مكوتهم عن احترام ، أو عن اقتناع ؟ . . .
(جيد)

تذييلات :

جواز ابتلاء صاحب الحق بالمصائب والرزايا وصاحب الباطل بالنعم والعطايا

١ — نقرأ في هذه السورة مصيبة يعقوب بأخذ ابنه منه ، بحيلة أجراها عليه أبناؤه الصليبيون ، لا أناس بعداء عنه ، فهي مصيبة ذات وجع ، ثم إنه ياليت شدد في الاحتياط ، إذ كان يعلم حسدهم وكرههم لأخيه (ع ٥) ، بل استرسل معهم استرسالاً ، كانه لا يعرف شيئاً من مكائدهم ومصائدهم ، ثم بعد (٢٠) سنة أخذوا

من عنده ولده الأصغر بنيامين وأخيراً جاؤوه بالخبر السيئ ، خبر انه سرق ، وأسرق في مقابلة ذلك ، الأمر بل الأمور التي أزعجته ، وأقلقت راحته ، والحكمة في ذلك الإشارة الى أن لانجمل المصائب الشخصية دليلاً على كون من تصيبه على باطل أو على حق ، فإن من الجائز عقلاً والواقع فعلاً ، أن يبتلى صاحب الحق ، بالمصائب والرزايا ، وأن يبتلى صاحب الباطل بالنعم والعطايا ، كما أن عكس ذلك جائز وواقع ، قال تعالى : ﴿ تَبْلُؤُونَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ﴾ (٣ : ١٨٦) وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ ﴾ (٢ : ١٢٤) وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ، وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ، قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ... إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ، إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴾ (٣٧ : ١٠٣-١٠٦) وقال تعالى : ﴿ وَلِيُمَحَّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ، وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ، أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ ؟ وَلَمَّا يَأْمُرُ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ (٣ : ١٤١ و ١٤٢) ، وقال تعالى : ﴿ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ ، وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (٣ : ١٥٤) وقال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ ؟ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ : مَسْتَكْبِهِمْ السُّيُوفُ وَالضَّرَافُ وَزُلْزِلُوا ، حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ : مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ؟ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (٢ : ٢١٤) نزلت في غزوة أحد حين غلب المشركون المؤمنين ، وشجوا رأس النبي ﷺ ، وكسروا ربابيته ، ويقول سليمان عليه السلام : ﴿ لِيَبْلُؤَنِي أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ (٢٧ : ٤٠) .

الحكمة من منع علم الغيب عن الناس وإطلاع الانبياء على شيء منه

٢ — تعليقاً على قول يعقوب (وأعلم من الله ما لا تعلمون) غني عن البيان ان الله جلّ جلاله حجب علم الغيب عن الناس ، ذلك لأجل رحمتهم واسعادهم ،

إذ لو علم الناس الغيب لنزلوا الى الحضيض ، ولكانوا أخس المخلوقين : وأتعب الخلق أجمعين ، ذلك ان المرء لو اطلع على الغيب بعد عشر سنين مثلاً سيكون رئيس حكومة أو مثيراً أو طبيباً أو استاذاً جليلاً في العلم — لو صار هذا له لم يفكر يوماً مافي علم السياسة ، ولا في جلب المال ، ولا في قراءة الكتب ، ولا في تحصيل العلم ولا في دخول المدارس العالية ، واذن تضيع الحكمة ، وتذهب الحياة سدى ، وتكدر معيشة كل إنسان ؛ أما جهل الناس بالمستقبل ، فهو الذي يكفل مساعدة الناس ، وصفاء عيشتهم ، لانهم يجدون ويدأبون على السعي ، وذلك داع حثيث الى اتقان العمل .

علم الناس بالغيب ، قد بسبب أضراراً كثيرة ، ناهيك بما يكون من اطلاع بعض الناس على مافي قلوب الآخرين ، من حسد وبغض وكراهة ، فكيف يعيش الناس في صفاء ، وهم مظلومون على ذلك الجفاء والعداء والاستياء ؟ ، لهذا اقتضت حكمة الحكيم الرحيم أن يمنع علم الغيب عن الناس .

ولكن نظراً لأن سد باب الغيب مرة واحدة . وبصورة مطردة يوجب اليأس من عالم أرقى من هذا العالم ، ويوقع في النفوس أنه لا روح خالدة « ولا حياة بعد هذه الحياة ، ولا ملائكة ولا وحي ، ونظراً لأنه يلزم أن يكون لله تعالى وسطاء بينه وبين عامة عباده ، وهؤلاء الوسطاء هم الأنبياء ، سمح باطلاع أنبيائه على شيء من علم الغيب ، من طريق الوحي والإلهام ، في اللحظة أو في المنام .

ومن أدلة حصر علم الغيب في الله تعالى على الوجه الذي قلناه ، قوله تعالى : ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ ، فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ، إِلَّا مَن ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ ؛ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ؛ لِيَعْلَمَ أَن قَدِ ابْلَغُوا رِيسَالَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ (٧٢ : ٢٦ و ٢٧) ، وقال تعالى حكاية عن نوح (ع) : ولا أقول لكم : عندي خزانة الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول : إني

مَلِكٌ ﴿١١ : ٣١﴾ وقال تعالى خطاباً لخاتم رسله ، أمره أن يبلغه خلقه : ﴿ قُلْ : لَا أَقُولُ لَكُمْ : عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ ، وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ، وَلَا أَقُولُ لَكُمْ : إِنِّي مَلَكٌ ، إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ ، قُلْ : هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ؟ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ؟ ﴾ (٥٠ : ٦) .

وقد أمر الله نبيه أن يستدل على عدم معرفته الغيب بقوله : ﴿ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْشَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ ، وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ؛ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (١٨٧ : ٧) وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ (٣ : ١٦٩) ، وقال تعالى : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ (٥٩ : ٦) .

وجوب الوقوف عند النصوص القطعية فيما يتعلق بعلم الغيب

وبما تقدم يعلم ان الله يظهر من ارتضى من رسله على الغيب ، الذي يتعلق به تبليغ الرسالة ، وذلك مشروح في القرآن ، ومنه الملائكة والجنة والنار والحساب وغير ذلك ، والواجب في هذا المقام الوقوف عند النص ، لا تعداه بزيادة ولا نقصان ، لأنه ليس للعقل مجال في عالم الغيب ، فيقيس ويستنبط ، فما كان من النصوص قطعياً ، كآيات الكريمة المصروفة بالأخبار عن الانبياء السابقين وأممهم ، وعن الآخرة وما فيها ، وعن الملائكة والجن ، وعما وعد الله به هذه الأمة من الاستخلاف في الارض ، فإننا نؤمن به ونقول بكفر من أنكره ، وما كان منها مروياً في أخبار الآحاد ، فلا يكاد كل مؤمن به والايام به ، وأحاديث الآحاد الواردة بإخبار النبي ﷺ بالغيب كثيرة ، وقد ظهر تأويل المشهور منها ، كالإخبار بان الله يفتح على المسلمين مصر والشام وغيرها من الأقطار ، والإخبار بأن « عماراً » تقتله الفئسة الباغية ، وأن « الحسن » يصلح الله به بين فئتين من المسلمين ، وأن « فاطمة » رضي الله عنها أول أهله لاحقاً به بعد موته .

وأما ما ورد من أن الجنة والنار مُثَلَّثتا له في عرض الحائط، أو قبلة الجدار، ومن أنه رويت له الأرض، فرأى ما يصل إليه مُثَلَّثك أمته منها فلا يدل على أن الله تعالى أطلعه على ما كان وما يكون، مما ليس في استعداد البشر الاطلاع عليه، إذ لا نهاية له، ولا هو مما يتعلق به تبليغ الرسالة وهداية الخلق، وإيضاً فالنصوص تنافيه، والنبي يقول: «إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» (١٨٧: ٧) فهو ينفى أن يكون له خصوصية غير التبليغ بالإندار والتبشير، كأنه يقول. إن الله تعالى أمرني أن أبلغكم بأنني لا أمتاز عليكم بصفات الألوهية، كالقدرة على النفع والضرر وعلم الغيب، و﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ (١٨: ١١١) .

طرق نقل العلم

٣ — كان طريق علم يعقوب هو الوحي السماوي، ويوجد اليوم طرق أخرى لعلم الأنبياء البعيدة كالبرق والبريد والهاتف والراديو واللاسلكي والطائرة والمنطاد ثم قراءة الأفكار والتنويم المغناطيسي وغير ذلك من المخترعات العصرية، ولكن هذه الطرق مرتكزة على أسباب علمية، وأما الوحي فليس مرتكزاً على شيء، سوى نزول الملك والالهام.

العودة الى مصر للتعسس

آ (٨٧) ﴿ يَا بَنِيَّ ، اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ ،
وَلَا تَيَاسُّوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ ، إِنَّهُ لَا يَيْئَاسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ
إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ .

افتتحت الجلسة وتليت الآية السابعة والثمانون ، فقام ولي الدين
البهنسي^(١) وقال :

سبق ان يعقوب قال لأولاده : « وأعلم من الله ما لا تعلمون » ، فهو لما قال
لهم هذه الجملة ، وأفاض في شرحها ومراميها ، اتخذ ذلك فرصة لتصريحه باعتقاده
بحياة يوسف ، وبراءة بنيامين من السرقة ، فلذلك ولكون الحب مبنياً على الرجاء
قال : « يَا بَنِيَّ » دعونا من المزاعم والأوهام ، والأخبار الموضوعة ، والادعاء الباطل ،
فلا اخفي عنكم أنني لليوم ولغد أتوقع خلاف ما تظنون في اخويكما ، لذا (اذهبوا)
لمصر للمرة الثالثة (فتحسسوا) فيها (من يوسف وأخيه) بنيامين ، وتعرفوا
منها ، وتطلبوا خبرها (ولا تياسوا) ولا تقنطوا (من روح الله) من فرجه
وتنفيسه ، ولا تنفضوا أيديكم منها ، بالرغم عن قدم العهد بيوسف ، وعن أن
خصيمكم في بنيامين هو الحكومة المصرية ، فلا تجلبوا لليأس سبيلاً الى قلوبكم ،
(انه لا يياس من روح الله الا القوم الكافرون) ولذلك فاني لا أياس من حياة
يوسف وبراءة بنيامين واطلاق سراحه ، ولن أياس من ذلك ما تردد لي نفس على
وجه الأرض ، وان طول شقة فراق يوسف وكل ما جرى على بنيامين ، لم يقللا
شيئاً من أملي من هذا القليل .

(١) نسبة الى بلدة بهنس في انظر المصري .

(يابني ، اذهبوا فتحسسوا من يوسف واخيه .. الخ)

— ٢ —

وقال جمال الدين الانطاكي (١) :

يعقوب يطلب من اولاده العودة لمصر لمؤتيار ظاهراً

والخمسة منهم يوسف واقبه باطناً

ما زالت حال يعقوب عليه السلام تضطرب بين فرح وهم ، ومرور وغم ، وما برحت آماله تتراوح بين مد وجزر ، وبسط وقبض ، يذكر حلمي يوسف ، وما اوحى الله اليه في شأنه ، فيشرق له في خلال ذكراه وجه الحياة الناضر ، ويلوح له جمال العيش الساطع ، ثم يذكر غيبة يوسف ، وانقطاع اخباره ، وطول المدة وما طراً بعد ذلك من حادثة بنيامين ، واحتباس رؤوين بمصر ، وما اعدت له الأيام في طياتها ، فيلمس صدره بيده ، ليعلم اين مكان قلبه من اضالعه ، فلا تراه إلا متأسفاً قائلاً : ما اضيق العيش لولا فسحة الأمل ، ولذلك قال لهم مامرماه :

يا ابنائي — إن للأمور ظواهر وبواطن ، فلا تقفوا عند ظواهرها ، دون البحث والتنقيب عن بواطنها ، فربما لا يكون الذئب قد افترس يوسف افتراساً ، ولكنه حاول افتراسه ، فتجاذبا ، فأمسك الذئب بقميصه . وجرحه فقط ، وأمسك يوسف فتملص من القميص ونجا باعجوبة سالماً فائزاً بجيانه ، فلقبه اشقياء من كنعان او الكلدان او الإفريقيين ، فاسترقوه ، حسب العوائد الشائعة بين اولئك الأقوام ، وكذلك ربما لا يكون اخوه « بنيامين » سارقاً ، بل دبرت له مكيدة من عدو له ، او من بعض عمال الحكومة لأمر ارادوه ، او وضع الصواع

في رحله سهواً ثم نسي فيه ، فمسي ان تقفوا على شيء من هذا القبيل ، فيخلص اخوكم من هذه الاحبولة ، لأن الحق فوق القوة ، لذا فبها واذهبوا الى مصر ، واستقصوا خبرهما ، واسألوا عنها ، لعلكم تهتدون على ضالتكم ، يا اولادي ها هو صوت يرن في اذني ، ثم يخترق اعماق قلبي ، يقول لي : « يوسف حي » و« بنيامين امين » فقوموا اذهبوا وكونوا كلكم آذاناً ، حتى تسمعوا عنها خبراً ، كونوا كلكم عيوناً تتطلع الى روايتهما ، كونوا كلكم ألسنة تسأل عنها اهل الآفاق ، كونوا كلكم انوفاً ، تستنشق اريجها ، كونوا كلكم ادمغة ، تفكر في اسباب لقيائها ، وبالجملة كونوا كلكم ارواحاً تخلق في الاجواء حتى تقع عليها وعلى حقيقة امرها

يابني — إن الإنسان إذا اقتد شاة بث عليها العيون والأرصاد ، ونشر السعاة والرواد ، ولا يهدأ له بال ، حتى ترجع اليه تلك الشاة ، فكيف والمفقود منا إنسان بل إنسانان ؟ ... فاذهبوا وتجربوا من يوسف وأخيه ، وأبدلوا في ذلكم وسعكم وطاقتكم ، ولا تنؤا ، انهبوا وتبينوا حقيقة الحال ، فأنتم عيوني وأرصادي لهذا الأمر كما لغيره ، فلا تألوا جهداً في اكتناه جلية الواقع ، ولا أظنكم إلا عاشرين لي ، مزودين بالخبر اليقين ، حاملين اليّ البشارة السارة عنها .

يابني — افكروا في طريقة مثلى تقفون بها عليها ، عساكم تجدونها سالمين ، فما على الله أمر عسير وان عزائم الرجال تذلل الصعاب ، وقد تكون أرهف حداً من الصوارم ، إذا اقترنت بالاخلاص ومساعدة الباري جل جلاله ، فعسى أن نصير على بينة من أمرها ، فلا بد أن يكون في الأمر سر عميق ، أنتم رسل ، فتمتي وقمتم لهما على خبر ، فأنفذوه الى تواء أمعنوا في الفحص ، ونقروا عنها تنقيراً ، ولا تقنطوا من فرج الله ، ولا تقطعوا من نفوسكم جبل الرجاء ، ولا تبكتوا خيوط الأمل ، إنه لا ييأس من فرج الله الا كل كافر بنعمة الرجاء والأمل ، هذه بكليتي ، وأقول لكم كلمة جدي ابراهيم الخليل : ﴿ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ ﴾

إلا الضالون ﴿١٥ : ٥٦﴾ فلا يتولاكم اليأس ، ولا يستحوذ عليكم القنوط .
(جيد)

يابني ، اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه . . الخ

— ٣ —

وقال ضاء الدين المرعشي^(١) : اعلق على الآية الكريمة بالمواد التالية :

يعقوب يطلب من اولاده التحسس من يوسف وبنيامين ، ثم جلب الميرة

١ — تعليقاً على قوله (اذهبوا فتحسسوا) : الحقيقة ان أباهم دفعهم لمصر
لأمرين ، الأول التحسس عن يوسف وأخيه ، والثاني جلب الميرة ، وانما لم يذكر
هذا الثاني ، لأنه طبيعي ومعلوم ، ولان الامر الاول هو الاقوى ، والاهم في
نظره ، فكأنه قال : اذهبوا ليس لاجل قوت الاجسام فقط ، بل أيضاً لاجل
قوت الارواح .

معنى التحسس

٢ — التحسس طلب الشيء بالحاسة ، وهو قريب من التجسس ، وهو تعرف
الشيء بواسطة الجس ، أو التحسس في الخير ، ومنه الجاسوس ، والتجسس في
الشر ، ومنه الجاسوس ، وهو الذي يطلب الكشف عن عورات الناس ، وكذلك
الجَوَس ، وهو طلب الشيء بالاستقصاء والتردد والطوف ، ومنه ﴿ فَجَاسُوا ﴾
خِلَالَ الدَّيَارِ ﴿١٧ : ٥﴾ ويقال : التحسس ، الاستماع لحديث القوم ،
والتجسس التفتيش عن بواطن الامور ، والجاسوس صاحب سر الشر ، والناموس
صاحب سر الخير ، وأحس يستعمل في ادراك الحسي والمعنوي ، يقال أحسست

بالحرارة والبرودة مثلاً ، وأحسست منه مكرراً ، وأحسست منه بمكر ، وما أحسستنا منه خبراً ، وهل تحس من فلان بخبر .

روح الله وإن اليأس منها كفر

٣ — « روح الله » هو فرجه وتنفيسه ، أو هو فضيلة الرجاء ونعمة الامل وانه لا يئأس ، من تلك الفضيلة إلا الكافرون بها ، نعم إن اليأس كفر بتلك النعمة ، اليأس يقتل فضيلة كبيرة ، هي حياة الانسان في هذه الدنيا ، هي تمزيته وملجأه الحريز ، ألا وهي فضيلة الرجاء ، فضيلة الامل ، فضيلة الامنية ، إذ لولا بارقة الامل ، لعاش الإنسان في حياة مظلمة ظلاماً دامساً ، فكان كافراً بنور الحياة الذي هو الرجاء والامل ، كل العالم إنما يعيش بالامل ، لان طبيعة الوجود تبعده عن اليأس ، فالامل فضيلة ، لاحياة الانسان بدونها ، فهي نعمة من الله تعالى ، لولاهما لمتنا ، فمن يئس من هذه الفضيلة فقد كفر بها ، وصار في حياته من ذوي الاتعاب .

وقول يعقوب لاولاده : « إنه لا يئأس من روح الله إلا القوم الكافرون » هو نظير قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ زَكَّاهَا مِنْهُ إِنَّهُ كَيْسُوفٌ كَفُورٌ ﴾ (١١ : ٩) ؛ فيعقوب يقول لابنائه : إن الله كان أذاقنا رحمة وجود يوسف بيننا ، ثم نزعا منا على يد بعض خلقه ، ولكن لا يجوز أن نئأس من عود هذه الرحمة ، لان اليأس من رحمة الله كفر بها .

معنى الكفر والطافين واطمأننه على غمط النعم

٤ — تعليقاً على قوله « الكافرون » : معنى الكفر في أصل اللغة ، الستر والتغطية ، وكانوا يسمون الليل « كافراً » لانه يغطي بظلامه الاشياء ، وأطلقوا لفظ « الكافر » على طلع النخل ، واكمام التور (الزهر) لما ذكر ، وعلى البحر

لان الشمس تغيب فيه — بحسب الظاهر — وعلى ثوب كانوا يلبسونه فوق الدرع يقولون له كافر الدروع، وقوله تعالى : ﴿ وَأَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾ (٢٠:٥٧) هم الزراع ، وأمثال هذا كثير في اللغة .

ويظهر من ذلك ان حقيقة « الكفر » تغطية المحسوس بالمحسوس ، ثم اطلاق على من لم يذعن للدين ومن لم يشكر النعمة تجوزاً ، فاذا تقرر هذا فلعل الكفر ههنا بالمعنى اللغوي ، الذي هو الستر ، لان اليأس من رحمة الله ، ستر لفضله وحسن الظن به سبحانه وتعالى ، وقد أطلق لفظ الكفر في بعض أحاديث مسلم على ترك الصلاة ، ولهذا شواهد كثيرة ، فمن اطلاق الكفر على غمط النعم قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ، ثُمَّ يَمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ، إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴾ (٦٦:٢٢) أي جحد لما أفاض عليه من ضروب النعم ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ، فَحَرَّحَ بِهَا ، وَإِن تَصْبُهُمْ سَيِّئَةٌ بَعْدَ قَدِّمَتْ أَيْدِيهِمْ ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴾ (٤٨: ٤٢) أي انه يذكر البلاء وينسى النعم ويغمطها ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ، إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (٣٤:١٤) أي شديد الكفران للنعمة ، ومنه حديث البخاري : (اطلعت على النار فوجدت أكثر أهلها النساء يكفرن — قيل : وما يكفرن ؟ — قال العشير) ، والكفر به — ذا المعنى مقابل للشكر ، قال سليمان (ع) : ﴿ لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ، وَمَنْ شَكَرْنَا يَشْكُرْ لِنَفْسِهِ . وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِي كَرِيمٌ ﴾ (٤٠:٢٧) ، وقال تعالى : ﴿ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُوا ﴾ (١٥٢:٢) ويقول « منفتح » فرعون مصر : ﴿ وَفَعَلْتُ فَعَلْتُكَ الَّتِي فَعَلْتُ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ (١٩:٢٦) أي تحريت كفران نعمتي بقتلك خبازي ، وعلى الأقل بقتلك رجلاً هو من شعبي الأقباط ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ : لَسْتُمْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ، وَإِذْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾

(٧:١٤) فالكفر هنا مقابل الشكر ، بأن استعملنا نعمه فيما يفضيه ، وقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ يَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ ، وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٢:٢٥٤) فالمراد «بالكافرين» هنا من يكفرون النعم بقرينة السياق والسباق وهم الذين لا ينفقون في مبيد البر والخير ، ولا يراد به هنا منكرو الألوهية أو النبوة أو الجاحدون لشيء مما جاء به الأنبياء وعلم علماً ضرورياً ، لأن هذا اصطلاح لم يلتزمه القرآن الكريم .

اطلاق الكفر على المعصية الكبيرة

وقد يطلق الكفر على المعصية الكبيرة ومنه فيما أرى قوله تعالى : ﴿وما كفر مسلمان» ، ولكن الشياطين كفروا ، يعلمون الناس السحر» ، وما نُزِلَ على الملكين ببابل ، هاروت وماروت ، وما يعلمان من أحدٍ حتى يقولوا : إنا نحن فتنةٌ فلا تكفروا ، فيعلمون منها ما يفرقون به بين المرء وزوجه ﴾ (٢:١٠٢) فقد تعلمون ان سليمان نبي ، والأنبياء معصومون من الكفر — المقابل للإيمان — إجماعاً مامن ذلك بد ، وعليه فينبغي حمل الكفر المنفي عنه على الكفر بمعنى فعل معصية السحر ، وقوله : « ولكن الشياطين » يراد بهم شياطين الإنس كما في : ﴿ وإذا خلوا الى شياطينهم قالوا : إنا معكم ﴾ (٢:١٤) وقوله : ﴿ يعلمون الناس السحر ﴾ تفسير لكفر هؤلاء الشياطين ، وقوله : « فلا تكفر » أي بتعلم صنعة السحر .

ومن أمثلة هذا النوع ما في حديث البخاري (مساب المسلم فسوق وقتاله كفر » ، وقوله تعالى : ﴿ ويكفروهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً ﴾ (٤:١٥٥) ، فكفروهم هنا هو قولهم على مريم البهتان العظيم ، فالمعطف للتفسير ، وأما الكفر المعلوم فقد ذكره في الآية قبلها مرتين حيث قال : ﴿ فبما نقضهم ميثاقهم وكفروهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق ، وقولهم « قلوبنا

« غُثِّفَ » ، بل طَبَعَ اللهُ عليها بكفرهم ، فلا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٤:٤﴾ وفي الحديث : « كفر بأمريء ادعاء نسب لا يعرفه » رواه ابن ماجه في سننه وفي أحاديث الجامع الصغير : « أخذ الأمير الهمدية سحت ، وقبول القاضي الرشوة كفر » .

اطلاق الكفر على الضلال

وفي صحيح البخاري « لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » وفي رواية « ضللاً » فالضلال في هذه الرواية تفسير للكفر في الرواية الأولى ، كما أن الضلال في آية الحجر وهي قول إبراهيم : ﴿ وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾ (٥٦:١٥) تفسير للكفر في آية يوسف ، وهي قول يعقوب : ﴿ إِنَّهُ لَا يَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (ع ٨٧) كما أن « روح الله » هي « رحمة الله » واليأس هو القنوط ، وفي صحيح مسلم : « اثنان في الناس هما كفر : الطعن في النسب والنياحة على الميت » وفيه : « أيما عبد أبقي من مواليه فقد كفر حتى يرجع إليهم » وفي سنن ابن ماجه : « من أتى حائضاً أو امرأة في دبرها أو كاهناً فصدقه بما يقول - فقد كفر بما نزل على محمد » ، وفي البخاري : « ليس من رجل ادعى لغير أبيه وهو يعلمه إلا كفر » وفيه : « لا ترغبوا عن آبائكم فمن رغب عن أبيه فهو كفر » جعل التحاق الانسان بنسب غير نسبه كفرأ وكل هذا وغيره مبني على التغليظ والتشديد .

اطلاق الكفر على ترك بعض ارکان الاسلام

وقد أطلق لفظ الكافر على مانع الزكاة كما في سابق قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ يَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا يَخْتَلَى وَلَا شَفَاعَةٌ ، وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٢٥٤:٢) ، أي والمؤمنون للزكاة أو

النفقة في سبيل البر هم الظالمون ، فوضع « الكافرون » موضعه تغليظاً وتهديداً وإيذاناً بأن ترك الزكاة من صفات الكفار كقوله ﴿ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ زَكَاةً ﴾ (٦:٤١) ، وكما قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ (٩٧:٣) فقال « ومن كفر » مكان « ومن لم يحج » تغليظاً وإيذاناً بأن ترك الحج من سمات الكافرين ، وقال تعالى ﴿ : فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ : أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ (١٠٦:٣) ، جعل تفرقه واختلافهم كفراً ، تغليظاً ، لأن هذا العمل لا يصدر إلا من الكافرين ، كما قال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ (٥٩:٦) وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (٤٧:٥) ، قال ابن عباس في هذه الآية : « كفر دون كفر » ، ولذلك قال بعده : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ — فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٤٨:٥) ثم قال : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ — فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (٥٠:٥) ، فهذا الكفر هو الظلم والفسق المذكوران بعده ،

وكما يطلق الكفر على ترك بعض أركان الاسلام ، فبالمقابلة قد يطلق الايمان على فعل بعض أركان الاسلام ، ونجد ذلك في مثل قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضْيعَ إِيمَانَكُمْ ﴾ (١٤٣:٢) ، أي صلاتكم ، وقد عقد البخاري باباً عنوانه : « وكفر دون كفر » .

« الكفر في عرف القرآن الكريم »

فمن الشواهد السابقة وما إليها ما لم نذكره نعلم أن القرآن الكريم قد يطلق لفظ « الكفر » على غير المعنى الاصطلاحي للمتكلمين والفقهاء لأن القرآن هو

فوق هذه الاصطلاحات الجديدة ، وإن هذا النوع من « الكفر » مما يتهاون فيه المسلمون في هذه الأزمنة وفي أزمنة قبلها ، لظنهم ان كل كلمة « كافرين » في القرآن انما يراد بها الكافرون بالمعنى الخاص في اصطلاح المتكلمين والفقهاء ، وهذه الشواهد ونحوها تبطل ظنهم .

فالكفر في عرف القرآن الكريم ليس خاصاً بما يمدّه الفقهاء والمتكلمون كفراً ، فمن عرفه ان المتفرقين في الدين يمدون من الكفار ، وان اتحاد الكلمة والاعتصام بالوحدة ايمان ، والخروج عن ذلك كفر ، وقد فهم السلف الصالح من الكتاب والسنة أن الايمان اعتقاد وقول وعمل ، وللعمل شعب كثيرة أعظمها الاتحاد وعدم التفرقة والاختلاف ، كما أن الاعتقاد شعباً كثيرة من أعظمها الثقة بالله والرجاء في تفريج الكرب ، فاليأس إذن كفر ، وهذا تحقيق المقام في معنى كلمة « الكافرون » هذا ولم أجد أحداً من المفسرين تكلم عليها بينت شفة ، والله تعالى يهدي من يشاء الى سواء السبيل . (مرحى)

الفصل الرابع

سفرة اخوة يوسف الثالثة لمصر

آ (٨٨) ﴿... فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ ، قَالُوا : يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ ، مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ ، وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ ، فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ ، وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ، إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثامنة والثمانون فقام شوكة افندي الجركسي وقال :

سمع أبناء يعقوب كلام أبيهم ، فانسوا منه قوة عقيدة بحياة يوسف ، وسلامة

بنيامين من التسول ، وتصميمه على رجوعهم ثالثة لمصر ، للتتقيب عنها ، فواصلوا سيرهم حتى أتوا مصر ، وعرجوا على البلاط الذي فيه عزيز مصر الجديد ، (فلما دخلوا عليه) أي على العزيز (قالوا : يا أيها العزيز) عزيز مصر المحترم (مسنا وأهلنا الضر) الجوع والهزال وسوء الحال (وجئنا) اليك مع الخبجل (ببضاعة مزجاة) رديئة ، من متاع الأعراب ، صوف وسمن ، أو علك وإقط ، أو نحو ذلك (فأوف لنا الكيل) أي أعطنا شيئاً فوق حقنا بحيث يكون طافاً زائداً عن الحق الذي لنا (وتصدق علينا) بالمساحة والاعماض من رداءة البضاعة (ان الله) له المجد (يجزي المتصدقين) في الدنيا وكذا في الآخرة فيها نمتقد نحن وفيها تمتقدون أنتم ، إذ لافرق في ذلك بين دين ابراهيم ودين المصريين والعابقة .

(فلما دخلوا عليه قالوا ... الخ)

— ١ —

وتابع شوكة افندي الجر كسي كلامه قائلاً : لقد بينت لكم أيها السادة بجمل تفسير الاية وها أنا ذا أبين لكم مفصلها :

دخول أبناء يعقوب على العزيز « يوسف » للمرة الثالثة وتزودهم له في طلب الميرة

ضاق أبناء يعقوب من بكاء أبيهم وتأسفاته ، واشفقوا على دمه الصبيب فسمعوا لما طلبه منهم وقاموا ليفتشوا عن يوسف وبنيامين ، فتأهبوا للرحيل واعدوا معدات السفر وركبوا وفصلوا عن « سيلون » وحولوا عنان دوابهم شطر الديار المصرية ، وهمزوها وأما أبوم فكان يشيعهم بالنظر ، ولما بعدوا عنه صار يشيعهم بالقلب ، وأخذوا يطوون الأرض طياً ، في غمار المسافرين من التجار والمهتارين ، حتى وصلوا « صوعن » حاضرة مملكة المكسوس بمصر ، فنفضوا عن وجوههم وثيابهم غبار السفر ويمموا شطر بلاط العزيز ثم دخلوا على العزيز « يوسف » وهو لابس قميص

البوص الملكي ، وقالوا له بصوت مختق : يا أيها العزيز في هذه الديار المصرية الهكسوسية ، نحن مدينون لك سابقاً بما أوفيت لنا الكيل ، وكنت لنا خير المنزّلين ، ورددت لنا بضاعتنا في رحالنا ، فكأنك كلت لنا الميرة مجاناً ، فنحن لا يسعنا إلا شكرك والثناء عليك ، وإن هذه المعاملة الجميلة لتحملنا على التجاسر والطمع وعرض حالتنا المحزنة على مسامحك الشريفة ، يا أيها العزيز المحترم ، اجترأنا التخنوم ، ونخطينا البلدان ، وطوينا النبراء ، لاغبين من الضرب في الأرض - وجوب الصحراء ، يقودنا الأمل ويسوقنا الرجاء ، تارة غنمي في سحابة القبط وحيناً نسير في زلف من الليل ، يا أيها العزيز الكريم ، الرحمة الرحمة ، لقد مسنا وأهانا الضر ، مسنا الآن والبين ومس أهلنا الجوع والهزال وسوء الحال ، فوقعوا في شبكة السنب ، وحاط بهم جيش الهزال من كل جانب ، مسنا وأهلنا الضر ، — كلمة ترجع في بيان الواقع ، وبيان التذلل للمخاطب — وصفرت بيوتنا من الحَب ، فأملقنا وتربنا ، ولحقنا النصب والأغوب ، وجثنا إليك بعد التي واللتيا ومع الخجل ، يبضاعة مزجاة ، رديئة يدفعها من تعطى له ، وقد صفرت أيدينا عما سواها ، وهي ليست من عقيلة المال ، ولا حر المتاع ، وجذا لو كانت عندنا دنائير صفراء ، لكما قد منها ، أو لو كان معنا دراهم بيضاء ، لكانت نفعتنا في هذه الأيام السود ، فارحنا وتعطف علينا ، وأوف لنا الكيل ، بحيث يكون طافاً زائداً عن الحق الذي لنا ، كما هي عادتك الحميدة ، منذ القدم الأولى ، وتصدق علينا بغض النظر عن ردائة بضاعتنا ، وإنما مدفوعة مردودة ، فإن للصدقة مراتب. هذا منها ، وقد قيل :

عن حديث المكارم

عُدَّ في جود حاتم

عدّيا في زماننا

من كفى الناس شره

أو أنهم تمسكتوا له وطلبوا إليه أن يتصدق عليهم بأن يعطيهم ما تسمح به يده
بلا مقابل منهم ، وهذا هو ظاهر اللفظ الذي نطقوا به .
فلما دخلوا عليه قالوا . . النخ

— ٣ —

ثم قام أبو الوفاء الكركوكي ^(١) وقال :

لي هنا الملاحظات التالية :

مراحل الخطاب أو « الاستدعاء »

١ — تأنقوا في خطابهم ماشاءوا وشاء لهم انكسار قلوبهم ، فافتتحوه
باحترام مخاطبهم ، وتلوه بشكاية الحال اليه ، فالاستجداء ، ثم ختموه بالترغيب فيه
إن قلنا إن الجملة الأخيرة خبرية محضة ، أو ختموه بالدعاء إن قلنا إنها جملة خبرية
لفظاً إنشائية معنى ، فهذه الآية التي نطقوا بها ، هي من قبيل ما يسمى اليوم
« استدعاء » يصدر بترويسة تحتوي على اللقب الرسمي للمعروض اليه ، ثم على بث
الشكوى ، ثم الطلب ، ثم الترغيب في فعل الخير أو الدعاء للمعروض اليه .

مقايمة بين العبرانيين والعرب في الرحمة

٢ — كلامهم هذا هو « عرض حال » شخصي ، أعني لأجل شخصية واحدة ،
لا لأجل عموم أهل بلد مثلاً ، ولكن تحضرنا الآن حكاية ذكرها صاحب الأعاني
وقعت من بعض العرب ، نقلها ليعمل القارئ مقايمة بين همة هؤلاء الناس
العبرانيين ، وبين همة ذلك العربي الصميم ، واليسكم تلك الحادثة المدهشة :

دخل أعرابي على « هشام بن عبد الملك » فقال : « يا أمير المؤمنين ، أت علينا

(١) نسبة الى بلدة كركوك في العراق .

ثلاثة أعوام ، فعام أدا ب الشحم ، وعام أكل اللحم ، وعام ألقى العظم ، وعندكم أموال ، فإن تكن لله ، فبئوها في عباد الله ، وإن تكن للناس ، فلم تحجب عنهم ؟ وإن تكن لكم فتصدقوا ، إن الله يجزي المتصدقين ، — قال هشام : « هل من حاجة غير هذه يا أعرابي ؟ » — قال : ما ضربت اليك أكباد الإبل ، أدريخ الهجير ، وأخوض الدحي لخاص دون عام !!! ، فأمر هشام بأموال فرقت في الناس ، وأمر للأعرابي بمال فرقته في قومه ! . هذا هو طلب الأعرابي ، ولكن هؤلاء الإخوة جاءوا يطلبون لأنفسهم دون أنفس سواهم ، وعلى الأقل ، ماسمنا عنهم أنهم أوصوا بسواهم من أهل فلسطين وجاراتها آرام ، فلم يتشفعوا لأحد ماقط ، بل قصروا همتهم على أشخاصهم ، تأمل يارعاك الله المرمى الذي رمى اليه ذلك العربي الصميم ، والمرمى الذي رمى اليه هؤلاء الاخوة ؟ تأمل كم يوجد بين العرب واليهود فرق في الشمم ، وعلو الجنا ب وبعد الهمة ؟ وماذا بين العرب واليهود من البعد الشاسع في الشفاعات الذاتية الشخصية ، كما هي حالة اليهود ، والشفاعات العمومية ؟ كما هي حالة العرب ؟

ولا ريب ان هذه الشيعة في هؤلاء وهؤلاء موروثه لسلائلهم ، فرب فلسطين اليوم إذا طلبوا أمراً ، طلبوه لعامتهم ، ولكن الصيوني نين إذا سعوا في تحصيل شيء ، فانما سعيهم لأنفسهم ، ولا فائدة منهم لسواهم .

البضاعة وطرق المبادلة بها

٣ — تعليقاً على قولهم : « وحثنا ببضاعة » البضاعة لغة القطعة من المبيعات التي يتجر فيها ، كأنهم أرادوا أن يجروا مع « عزيز مصر » صورة مبادلة ، وصور المبادلة تختلف ، فبعضها يحصل على سبيل مبادلة الشيء بالشيء ، ويسمى المقايضة ، والمقايضة بالنقد هو النوع المتبع في البلاد المتمدينة كمصر ، ولذلك كانوا « شروه بشمن بخس دراهم معدودة » (ع ٢٠) ، والمقايضة عروض بعروض هو النوع

المتبع في البلاد غير المتمدية ، كفلسطين في ذلك العصر ، لأنها كانت بدواً ، كما سيأتي ليوسف أن يقول : « وجاء بكم من البدو » (ع ١٠٠) ، وقد كانت المبادلة والمقايسة شائعة منذ القديم ، من أول أيام خلقه البشر ، وإن المزايا التي منحها الله للبلاد والممالك المختلفة ، وإن المواهب التي اختص الله بها اناساً دون آخرين - جعلت المبادلة أمراً اضطرارياً ، فهذه أراضي السودان أكثرها خالية من الملح الذي هو أهم حاجات البشر ، ولذلك يضطر السودانيون لاستجلاب الملح من الممالك الكائنة خارج بلادهم ، يستبدلون به الحبوب والحيوان ، وإن أصحاب المواشي كيعقوب وأولاده لا يشتغلون بالزراعة ولا بالبضاعة ، وإنما يكون عندهم الجلود والتمال والإقط والجيبج والسمن والزبدة ، ونحو ذلك مما كان يسهل وجوده بطبيعة الحال عند أولاد يعقوب ، عليه السلام ، فلذلك ، ولكونهم كانوا من أهل فلسطين المتبدية غير المتمدية ، فتحن نرى على أغلب الفكر ان هذه « البضاعة » التي جاءوا بها هي من هذا القبيل مما يسهل نقله من فلسطين لمصر ، وإنما قالوا « مزجاة » لأنهم ربما كانوا قد جربوا عرضها على التجار عندهم في فلسطين فلم يقبلوها ، وربما أرادوا إنها مزجاة اليوم في مصر ، لرداعتها أو لكونها غير لازمة لأسواق مصر ، لأن العروض قد تكون مقبولة في بلد دون بلد ، وفي وقت دون وقت ، بخلاف النقود فإنها مقبولة في كل مكان وزمان ، فما ذكرنا من حال فلسطين وحال أولاد يعقوب الذي كانوا عليه ، ويبان معنى البضاعة لغة ، يترجح عندهم أن تفسير هذه « البضاعة » بالنقود ضعيف جداً ، فافهموا .

٤ — ربما كانت عبارة « فأوف لنا الكيل » راجعة لقولهم « مسنا واهلنا . الضر » وعبارة « وتصدق علينا » مرتبطة بقولهم : « وجئنا ببضاعة مزجاة » . ففيه لف ونشر مرتب .

أخوة يوسف يشتون له جزاء على صدقة

٥ — قالوا : « وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين » وهم في ظنهم إنما

يخاطبون رجلاً وثنياً من وثني المالك الهكسوس ، أو من وثني المصريين ، ومع ذلك فقد أثبتوا ليوسف ، جزاءً على صدقته ، وهذا منهم صحيح ، سواء أكان في الدنيا أم في الآخرة ، : ﴿ تَمَنَّى يَمِثْلَ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ (٩٩ : ٧) ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ، فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ، وَإِنْ كَانَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ، وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ (٢١ : ٤٧) ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ ، وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٥٦ : ٥٦) ، وأما ما يوم خلاف ذلك فمأول :

ولو كان هذا موضع العتب لاشتفى فوآدي ولكن للتاب مواضع

جزاء المتصدقين في الدنيا والآخرة

٦ — تعليقاً أيضاً على قولهم « إن الله يجزي المتصدقين » أي يجزيهم في الآخرة بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ؛ ويجزيهم في الدنيا بالصحة والعافية ورفع درجات الاحترام . والثناء عليهم من الناس . كل الأمور تزول عنك وتنقضي إلا الثناء فإنه لك باقي قال علي بن الجهم :

هي النفس ما حملتها تتحمل وللدهر أيام تجور وتعبدل
وعاقبة الصبر الجميل جميلة وأكمل أخلاق الرجال التفضل
وما المال إلا حسرة إن تركته وغنم إذا قدمته متعجل

وقال غيره :

قدم لنفسك زاداً	وأنت مالك مالك
من قبل أن تنفاني	ولون حالك حالك
ولست تعلم يوماً	أى المسالك سالك
إما لجنة عدن	أو في المهالك هالك

وقال آخر :

يا غافلاً عن حركات الفلك نهك الله فما أغفلك
لغيرك ما أنت ورثته وما أنت أنفقتَه فهو لك

ذلة الاخوة مع الاجنبي « العزيز » وعظمتهم مع ابيهم واخيم

٧ — تعليقاً على قولهم : « مسنا واهلنا الضر » و « تصدق علينا » كلام يشف عن الذلة والمسكنة للأجنبي ، وأن هذا الصغار والتنازل مع الأجنبي من تلك الدبدبة والعظمة مع أبيهم وأخيم ، حينما كانوا قالوا : « إن أبانا لفي ضلال مبين » ، « اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً » ، « إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل » ، « نالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين » ، حتى أن أولادهم ساروا سيرة آبائهم ، وعلى العروق يثبت الشجر فقالوا : « نالله إنك لفي ضلالك القديم » لعمري ان الذي حملهم على ما هو المذكور هنا من عبارات الاستكانة والخضوع إنما هو الاحتياج وحُب المنفعة ، قيل إن « كسُفَيْر عَزَّة » و « الكميت » كانا شيعيين ، غاليين في التشيع ، وكانت مدائحهم في « بني أمية » أشرف وأجود منها في « بني هاشم » ، وما لذلك علة سوى الحاجة والانتفاع ، وإن هؤلاء الأشبال !! ، اصول اليهود ، قد ورثوا هذه الطبيعة التي عاشوا عليها - سلائلهم يهود اليوم لا سيما الصهيونيين منهم ، فترام عند الطلب من « الانكليز » أو غيرهم من الأجني عنهم ، في غاية الذلة والضراعة ، لكنك تراهم في معاملة أبناء عمهم ! « العرب » ! في نهاية الخشونة والبربرية !! ... شذشنة أعرفها من أخزم .

خضوع البسر لحكم الغريب

٨ — توسلوا اليه بصوت مازجه دل السؤال ومسكنة التشكي ، لأنهم لم يكونوا يعرفونه انه أخوهم ، ولو كانوا يعرفونه انه أخوهم ما سوغوا لأنفسهم

أن يخضعوا له هذا الخضوع وذلك لما في فطرة البشر من قلة الاحترام بين الاقرباء فالانسان اذا ترك لفطرته ، ودار أمره بين أن يذل نفسه لقريبه ، أو لأحد القرباء فضل الخضوع للغريب ، ولهذا السبب ترى الشعوب التي يحكمها الفاتحون من الغرباء — أسهل قياداً ، وأقرب خضوعاً لقوانين الدولة عن يحكمهم اناس من أبناء جلدتهم ، وبهذه القاعدة يستدل على كثير من غوامض التاريخ المختلف في حقيقتها، كأصل الفراعنة الأولين مثلاً ، فاللورخون مختلفون في هل هم مصريون أو دخلاء؟ ونظراً لما هو معلوم من استعبادهم أهل البلاد الأصليين يرجح أنهم غرباء فاتحون، للسبب الذي تقدم .

(قالون)

عتاب وتذكير

آ (٨٩) ... ﴿ قَالَ : هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُوْسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ؟ ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية التاسعة والثمانون فقام حيدر افندي المرعشي^(١) وقال : ان التفسير المجل لهذه الآية هو كما يلي :

تقدم أن اخوة يوسف وقفوا بين يدي يوسف « العزيز » وقالوا له ما قالوا في الآية الكريمة السابقة ، وأما هو ، فلما سمع تذللهم وضراعتهم ، (قال) لهم ، بلهجة المذكر المعاتب : (هل علمتم) أي هل تذكرون وتعرفون قبح (ما) كنتم (فعلتم) منذ ثلاث وعشرين سنة (يوسف وأخيه) ابن أمه وأبيه بنيامين ، (إذ أنتم جاهلون) من أهل الجاهالة والسهة ، أو جاهلون سوء منية عملكم .

(١) نسة الى مرعش احدى المدن التركية .

قال هل علمتم . . الخ

- ١ -

ثم تابع حيدر افندي المرعشي كلامه قائلاً: واما تفسير الاية المفصل فهو :

عتاب يوسف لاختوته وتذكيرهم بالتوبة

رأى يوسف أن اختوته قد اشتكوا اليه شكاة تنم عن رقة الحال ، وشظف العيش ، ولحوق المحمصه ، رآهم قد ودعوا جميع أقوال الشدة ، وأعمال التزق وخواطر ثورة الشباب ، وأنه قد استحالت نفوسهم الصلبة الى نفوس أخرى غيرها ، لاصلة لها بها ، نفوس مطمئنة وديعة رقيقة ، رآهم قد غلبت فيهم نزعة الخير على نزعة الشر ، سمع منهم كلمة ملؤها الوداعة والذل ، فأخذت هذه الكلمة مأخذها من نفسه ، وحزن لاجلهم ، وتأثر من بؤسهم ، واعتزم على اظهار نفسه لهم ، حتى يضمهم وأهلهم بمعيتة ، ليعيشوا عيشة الرعد والسعة ، سمع يوسف تذلهم ، فأطرق بنفسه هنيئة ثم قال لهم : أيها الذالون (١) المستعدون (٢) ، يا أبناء « ليثة » و « بلية » و « زلفة » أتذكرون ما حفظه التاريخ بين طياته ؟ فما أعظم ما ارتكبتم في يوسف وأخيه ؟ وما أقبح ما أقدمتم عليه ؟ فهل تدرون ذلك وتعرفونه وتذكرونه وأنتم في حالة التمرين على أعمال الجهالة (٣) ؟ إذ جهلتم عليها بل وعلى أبيكم ، بل وعلى الاخلاق الفاضلة والطريقة المثلى ، بل وعلى أنفسكم لان من عمل صالحاً فلنفسه ، ومن أساء فعليها .

أنا الان لا أريد استعراض تلك الحوادث المحضه ، التي أدمت القلوب وخفت النكوبين ، أنا الآن لا أريد أن أحاسبكم حساب الملائكة للميت في قبره ، ولكني أعتب على الاخوة ، أعتب على ذوي الرحم أن يفعلوا ما يندس سمعتهم .

(١) ذل : خضع (٢) استعداء استغاثته (٣) اي السفه .

هل علمتم أنكم كدتم لهما ربحاً من الزمن ؟ هل علمتم أنكم شرأ حصدم لهما ؟ لا إخالكم إلا تعلمون ذلك وتذكرونه ، ولا أظن أنكم تجهلون أنه عزب عن أفكاركم ، راجعوا تاريخكم العتيق تجدونه قد طوى بين صفحاته الكثير المدهش من أعمال القساوة راجعوا أعمال ما قبل ٢٣ سنة تقفوا على تفاصيل ما اشير اليه .

هل تذكرون انكم شردتم يوسف عن أبيه وأخيه ومواطنيه ، وانكم قدناوأتموه ، ولم تهانوه ، ولم تواتوه ، ولم تهدأوا عن الكيد له ، والقيتموه في دامن الحب ، وأما أخوه بنيامين ، فقد أحزنتم قلبه ، أفقدتموه شقيقه ، أعدمتموه لذة الحياة ، حتى صار شريكه في هذا المصاب ، بل وشريك أبيه في أحزانه ، فتجرح من الحزن كآسرين كآس حزنه على شقيقه وكآس حزنه على أبيه يعقوب .

إنكم بمملكم ذلك أصبح يوسف بتشريدكم إياه عبداً مملوكاً يباع في سوق الرقيق ، ثم خادماً في بيوت الأمراء ، ثم ملوثاً بالجريمة زوراً ، ثم مسجيناً مع الأثمة !! ..

وأما بنيامين فأصبح بفضل اجراءاتكم غريباً منفرداً ، لا يجد بين القلوب الخافقه حوله قلباً يحزن لحزنه ، ولا بين العيون الناظرة اليه — عيناً تبكي لبكائه ، وانه ليخيل الي انكم كنتم تهينونه ، لأنكم ترون فيه ذنب الأفي .

سبحان الله ، شرارة واحدة حرقت الأخضر واليابس ، فعلتم ما فعلتم ، وكانه لا شيء في أعينكم ، ﴿ وَتَحَسَّبُونَهُ هَيِّئًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ (١٥:٢٤) أنا لا أريد بكلامي هذا أن أقوم بتنظيم خطط الهجوم ، ولا أكلفكم في مقابلة ذلك نصب آلات الدفاع ، ولا أريد أن أصني حسابي معكم ، لا.. لا.. لا.. ولكنها زفرة نفس ، وحسرة قلب ، ونفثة مصدور ، أعالج بها بعض كلوم الفؤاد ، وذكرى وكلمة مختصرة للسامع ، عساه أن يفيق بعدها من جهالته .

قال هل علمتم .. الخ

٢ -

وقام الشيخ الكواكي (١) وقال:

يوسف يشفق على اخوته ويتنصع لهم

سمع يوسف كلامهم المتواضع ، ونظر في مسحتهم ، فرأى في لحن كلامهم وملاعهم ما يدل على ذلهم وخضوعهم ، وأنهم قد ذهب منهم الجراءة ؟ وانفتأت تلك الحمية الاولى ، فشمع للحال برحمة في قلبه ، وعطف جديد نحو اخوته ، فلم يتألك عن إظهار نفسه لهم ، ومما استدعى حنانه عليهم بنوع خاص قولهم : « مسنا وأهلنا الضر » ، إذ تصور أن والده من أهلهم ، وكذا قولهم « وتصدق علينا » فانه لما سمعه حرق أسنانه ، فاذا دمة رقرقة ترجح في عينيه ، وقد خامره حنو وانطاف نحوهم ، ففضل أن ينفذ لهم جملة حاله ، ويعرفهم بنفسه ، فأثامهم من جهة الدين ، وكان حليماً موقفاً ، وقال لهم هل أتى حين علمتم فيه قبح ما كنتم فعلتم ييوسف وأخيه ، إذ أنتم جاهلون ؟ أنا أنا كد إنكم كنتم لاتعلمون قبحه تمام العلم ، ولماذا سينجم عنه من المفسد ، فلذلك كنتم منذ ٢٣ سنة أقدمتم عليه ، ولكن اليوم هل علمتم قبحه فتبتم الى الله منه ؟ أرجو من الله أن تكونوا كذلك ، فاني على استمداد لمد يد المصافحة والمحبة ونسيان الماضي المؤلم

العلم بالقبح يدعو الى الاستقباح وهذا يجر الى التوبة

استفهم يوسف عن معرفة وجه القبح الذي يجب أن يراعيه التائب ، لأن علم القبح يدعو الى الاستقباح ، والاستقباح يجر الى التوبة ، فهذا من قبيل

(١) نسبة الى آل الكواكي في مدينة حلب (سورية)

سياسة « جس النبض » عن توبتهم ، لعله يجدهم قد تابوا ، فيجد متفذاً للعبشة معهم بسلام ، فكان كلامه شفقة عليهم ، وتنصحاً لهم في الدين ، لامعاتية وثرية ، إشاراً لحق الله على حق نفسه ، في ذلك المقام الذي ينفت في المصدر ، ويتشفى المقيظ المحقق ، ويدرك فيه الموتور ثأره ، وينفس فيه المكروب عن كربه ، فله أخلاق الأنبياء ما أوطأها وأسجحها ^(١) ؟ والله حصا ^(٢) عقولهم مأرزنها وارجحها ؟

(قال هل علمتم ..)

— ٣ —

وقام الشيخ عبد الحميد الدوماني ^(١) وقال :

لي على هذه الآية الكريمة المواد التالية :

درجات المعاتبة وموقع كلام يوسف منها

المادة ١ — قيل إن كلام يوسف مع اخوته كان من قبيل المعاتبة التي هي أقل من « التثريب » بدرجات ؛ فهي المعاتبة ، ثم اللوم ، ثم التقرير ، ثم التوبيخ ، ثم التأنيب ، ثم التثريب ،

قال بعض العلماء : المعاتبة احتكاك بين القلوب ، تزيدها حرارة وتجاذباً ، والعتاب فاتحة حديث المحبين ، وظاهر العتاب خير من باطن الحقد ، واكثر الناس لؤماً ، أقلهم لوماً ، قال الناظم :

لعل عتبك محمود عواقبه فرجا صحت الأجسام بالعدل

صَدَقَ الْحَبَرُ الْحَبَرُ

المادة ٢ — هذا القول الذي صدر من يوسف لآخوته هو مصداق قوله تعالى :

(١) سحج الحذ كفرح : سهل . (٢) الحسا المقول والحصة العقل . (٣) نسبة الى دوما

من ضواحي دمشق (سورية)

﴿ وأوحينا اليه لتنبئهم بأمرهم هذا ، وهم لا يشعرون ﴾ (ع ١٥) .

أدب الاخوة في طلبهم ومقابلة يوسف لهم بذلك وعدم حقدده عليهم

المادة ٣ — كان يوسف سمع كلام اخوته ، فرآى عليه صبغة الأدب والخنوع ، فرق لهم وابتدأ يكشف لهم عن حاله ، ويبين شخصه من هو . . توصلاً لمنفعتهم وجلبهم وأهليهم عنده ، ولم يكن ليحقد عليهم لما فعلوه معه من قبل .

وقد 'جرب' وروى لنا التاريخ أن أدب الطالب ، قد يحمل الانسان على الجود ومكارم الأخلاق ، كما قيل انه وفد رجل من بني ضبة ، على عبد الملك بن مروان ، فقال :

والله ما ندرى إذا ما فاتنا طلبك اليك — من الذي تتطلب ؟

فلقد ضربنا في البلاد فلم نجد أحداً سواك الى المكارم ينسب

فاصبر لعادتنا التي عودتنا أو ، لا ، فأرشدنا الى من نذهب ؟

فقال عبد الملك : « اليّ اليّ » وأمر له بألف دينار .

ويحكى انه جيء الى « الرشيد » « بعبد الملك بن صالح » في قيوده ، فقال له « يحيى بن خالد » البرمكي وأراد أن يبيته : « إنك حقود » — فقال : « إنا صدي خزانة تحفظ ما استودعت من خير أو شر » — فقال الرشيد : « والله ما رأيت أحداً احتج بمثل ما احتج به عبد الملك » ،

قال بعض العلماء : إن عبد الملك بهذا الاحتجاج فتح الباب « لابن الرومي » حيث قال :

وما الحقد إلا قوام الشكر في الفتى وبعض السجايا ينتسب الى بعض

فحيث ترى حقداً على ذي إساءة ثم ترى شكراً على حسن العوض

هذا ولكن الطريقة المحمدية تعلمنا تناسي الحقد وأسبابه بته ، ولذلك لم يرد أن النبي ﷺ عاتب أحداً بما سبق أن صنعه معه ، فكان يعفو ويغفر من الابتداء ، وقد ورد انه قال يوم فتح مكة : « ما ترون أني فاعل بكم ؟ » - قالوا : « أخ كريم وابن أخ كريم » - فقال : (أقول كما قال أخي يوسف) : « لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين » ، « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

اسباب عدم ذكر يوسف أباه في هذا المقام

المادة ٤ - قال « يوسف وأخيه » ولم يذكر أباه ، مع إن المصيبة كانت وقعت على رؤوس الثلاثة ، بل ربما يظن الظان ان حصة أبيه من هذه المصيبة هي أكثر من حصتها ، وجوابنا عن ذلك من وجوه :

أ - ان يوسف يعلم أن أباه مزود بالبشائر الالهية في شأن ابنه الحبيب ، وانه على مثل اليقين من حياة ابنه ، وانه سيجتمع به ، وانه سيقع كل ما بشر به ولده في المنام ، وكل ما وحي به اليه في شأن ولده ، فيعقوب في الواقع مطمئن الخاطر من هذا القبيل ، بخلاف بنيامين الذي كان لا يعلم من مستقبل أخيه يوسف شيئاً ، فلا ريب أن كربه يكون شديداً .

ب - ان يوسف يعلم أن أباه نبي من أنبياء الله ، ورسول من الرسل الكرام والأنبياء والرسل أهل صبر وتحمل : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ (٣٥: ٤٦) فلا تؤثر عليهم النوازل تأثيراً كثيراً ، ولذلك نرى ان سيدنا يعقوب حينما أخبر بأن ذنباً افترس ولده يوسف قال : « فصبر جميل » ، ثم لما أنبئ بأن ابنه بنيامين سرق ، قال أيضاً : « فصبر جميل » ، وأما ما نزل عليه من الحزن الذي نتج عنه ايضاض عينيه ، فهو أمر وجداني يطرأ على الانسان بغير اختياره ، كما يطرأ عليه الجوع والمطش والسرور - الى غير ذلك من الوجدانيات .

ج — ان الانسان مهما عمر في هذه الدنيا ، فانما عمره اللذيذ هو أيام شبابه وكهولته ، أعني العقود الثلاث ، التي هي الثاني والثالث والرابع ، أي من العمام الحادي عشر ، الى عام الأربعين ، فهذه الأعوام هي ربيع العمر ، الخاوية لمبتدأ الشبية ونهايتها ، حين تكون القوتان البدنية والنفسية قد ابتدأتا ، ثم كملتا ، حين تكون الصدور مشروحة ، والقلوب مفتوحة ، لمسررات الحياة ، ولملذات العيش ، فهذه المدة هي زهرة عمر الانسان وتاج حياته ، واكليل وجوده ، فيها تكون الروح فرحة مقبضة ، والنفس صافية مسرورة ، وأما ما قبل ذلك ، وهو المقعد الأول ، فهو حلم من الأحلام ، كما ان ما بعد الأربعين ، وهو المقعد الخامس فما بعده ، فهو عيشة الوقار والتقيد ، فتلك العقود الثلاث هي « الثروة » التي إن ذهبت لن تعود ، وهي أيام « الصفا » التي بتكديرها يضعف العمر كله ، فالقصور بالذات من العمر — بالنسبة للملذات الدنيوية — هو هذه العقود الثلاثة ، وأما ما قبلها من المقعد الأول ، فهو كالتقدمة لها ، كما ان ما بعدها من العقود هو كالتبئات والخوايم ، وما أصدق قول من قل : المقعد الأول من العمر هو حلم محض ، لا هو للدنيا ولا هو للآخرة...

إذا كنت قد فهمت ما قلناه حق فهمه ، وكنت قد علمت أن « يوسف » قد آسفاه أخوته وأحزنوه في أيام شرح شبابه ، وعنفوان قدرته ، ومبدأ زهرة عمره إذ فرقوا بينه وبين شقيقه وأبيه ووطنه ، من حين أن كان عمره ١٧ سنة ، الى أن بلغ من العمر ٤٠ سنة ، وان « بنيامين » قد آسفاه أخوته وأحزنوه ، في مثل تلك الأيام الزاهرة ، أيام الملذات والمسررات ، إذ فرقوا بينه وبين شقيقه من حين أن كان عمره نحو ٧ سنين ، الى أن بلغ من العمر نحو ٣٠ سنة .

إذا احطت علماً بمجموع ذلك كله ، تعلم علة كون يوسف جعل مفاعله به أخوته مصيبة نازلة عليه وعلى أخيه ، دون أبيها فهذه المصيبة نزلت بيوسف وأخيه

في أيام الشباب ، ومقبل العمر ، أيام المذات والمسررات والأفراح ، التي إن ذهبت لا يمكن أن تعوض ، فيها بدلاً من أن يجدا في زهرة عمرهما الفرح والغبطة والملاذ ، فقد وجدا الحزن والألم والمصائب ؛

وأما أبوهما سيدنا يعقوب عليه السلام ، فهو إنها أصيب بفراق يوسف حينما كان عمره ١١٠ سنوات ، قصصيته بآبته وان تكن في ذاتها عظيمة ، لكنها صادفت أيام شيخوخته وكبره ، بعدما كان أخذ سهمه من الغبطة أيام شبابه ، فكم وكم مضت له إبان شبابه أيام صفاء وسرور ، وليالي أنس وجبور ، حينما كان في حضن أبيه « اسحاق » وأمه « رقيقة » بفلسطين ، الى أن صار له من العمر نحو ٥٢ سنة ، ثم بعدما هاجر الى « العراق » عند خاله « لابان » مكث هناك عشرين سنة ، قضاه مسروراً بزوجتيه « ليثة » و « راحيل » ، وسُرّيته « بلهة » و « زلفة » ، ثم كان أولاده الأحد عشر وبناته حوايه ، لا يكدر صفاء عيشه شيء ؛

فهل حصل ليوسف وبنيامين ، أيام شبابه من الصفاء والغبطة عشر معشار ما حصل لأبيه أيام شبابه وكهولته ؟.. كلا.. بل بالعكس قضى يوسف أيام شبابه في غيابة الجب ، الى كونه سلعة تباع وتشتري ، الى سوق الرقيق بمصر ، الى العبودية والخدمة ، الى تلك الفتنة المدهشة ، الى أعماق السجون المظلمة .. وكل هذه الكوارث كانت موزعة على بساط مدة ، هي من سن ١٧ حتى ٣١ ، وتلك هي زهرة الشبيبة ، ولب العمر ، وكذا قضى بنيامين لب شبيبته من وقت أن كان عمره سبع سنين ، الى أن صار ابن ٣٠ ، وهو في أشد الألم والذل ، بفقدان أخيه ، فقداناً لم يكن فيه مُعزٍّ ولا مخفف ، بخلاف أبيه يعقوب ، فكان له بما أوحاه الله ليوسف في المنام ، وله في اليقظة — بشأن ولده — أعظم تفرجة وأكبر سلوان .

د — كان بنيامين ويوسف من أم واحدة ، هي « راحيل » ، وقد ماتت ،

ويوسف ابن عشر سنين ، وبنيامين ابن سبعة أيام ، فقدلا من خيمة أمهما لخيمة جاريتهما بلهة ، ، فكانا يأنس كلاهما بالآخر ، فلما غيب عنه يوسف ، استوحش وحده في خيمة الجارية ، لاسيا وأن ولديها ، دان ، وه فتالي ، قد كانا اشتركا مع سائر الاخوة في المؤامرة على يوسف ، فلا ندحة انه كان حصل وحشة بين بنيامين من جهة وبين بلهة مع ولليها من جهة اخرى ، وفي ذلك من ألم النفس مالا يحصى ، هذا ما حصل لبنيامين ، وظاهر انه لم يحصل لسيدنا يعقوب شيء من هذا القليل .

هـ — سعادة الانسان في هذه الحياة الدنيا تقوم بوجوده مع أمه وأبيه وشقيقه وقد كان لبنيامين سعادة وحياة كاملة ، لو عاشت له أمه بعد ولادته ، ولكنها — وأأسفاه — ماتت نقساء قبل أن يشعر بها ، فمات بموتها تلك سعادته وهنائه ، ثم ما عثم أن أفقدوه أخاه وهو طفل ابن سبع سنين فلم يبق له من السعادة والهناء إلا الثلث ، ولم تكن صحيفة هذا الثلث بيضاء نقية ، بل كانت تمتورها غيرة الهم والذل ، بمبيته في خيمة الجارية بلهة ، بين ولليها ، اللذين كان لها ضلع في المؤامرة على يوسف .

فبدلاً من أنه كان يجب أن ينشد أنشودة السعادة والهناء ، أصبح — وهو طفل وديع — ينشد أنشودة الحزن والهم ، حزنه وهمه على إفقادم أباه أخاه يوسف ، الذي كان بعده كل دنياه ، ويستهزئ تمزيته الكبرى بعد أمه ، وبجسبه فزاعه اليتيم ، فهم كسروا ذراعه ، وأعدموه تمزيته ، وخسروا كل دنياه ، في ساعة واحدة .

وغني عن البيان ان هذا المعنى لم يحصل لسيدنا يعقوب عليه السلام .

توجيه السؤال من يوسف لآخوته كان بمثابة دعوتهم للاعتراف والتوبة
المادة هـ — يشبه أن يكون السؤال الذي سأله يوسف في الآية هو من قبيل

آ (١٨٩) تضمين يوسف عتابه لاختوته الاعتذار عنهم بالجهل تمحلة لهم ١٢٠١

السؤال في قوله تعالى ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ: اتَّخِذُونِي وَأُمِّي
الْحَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ؟﴾ (١١٩: ٥)، فتوجيه الله السؤال الى عيسى ليس معناه
أنه لا يعلم بالجواب، ولكن ليعترف عيسى بأنه مربوب، وأنه من جملة عبيد الله
الذين يمدونه، ليكون ذلك منه هو نفسه أصرح رد على الذين ظلموه وأعطوه
فوق مرتبته، وهكذا يوسف وجه سؤاله لاختوته ليعترفوا ويتوبوا، وقد كان
قد اعترفوا بالخطأ إذ قالوا: «وإن كنا لخاطئين»، ومن أقر بذنبه غفر الله له،
فكان ماصداً من يوسف عتاب على جبهة الموعظة، كما قال المتأني من قصيدة:

وجملتُ عتبك عتب موعظةٍ ورجاء عفوك منتهى أملي

تضمين يوسف عتابه لاختوته الاعتذار عنهم بالجهل تمحلة لهم

المادة ٦ — كان أحام ضمن الكتاب الاعتذار عنهم بالجهل تمحلة لهم لطفاً منه
وأدباً، كما قال بعض حكماء الشعراء:

إذا شئت أن تدعى كريماً مهذباً سنياً سرياً ماجداً فطناً حراً
إذا ما بدت من صاحب لك زلة فكن أنت محتالاً لزلته عذراً

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ، ثُمَّ تَابَ مِنْ بَدِهِ وَأَصْلَحَ،
فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٥٤: ٦)، وقال تعالى ﴿وَإِنَّا لِلَّهِ لَذِينَ
يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ، ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ، فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ،
وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيمًا﴾ (١٦: ٤).

سلوك يوسف مسلماً وسلطاً في أعماره وأقواله

المادة ٧ — نقرأ في هذه السورة الشريفة، فتجد يوسف عليه السلام قد

يوسف م - ٧٦

سلک في أعماله وأقواله مسلکاً وسطاً ، سلک ذلك مع اخوته ومع سوامهم ، وخير الأمور الوسط ، وهذا يظهر لنا في مواضع عدة منها :

١ — انه لما راودته زليخا لم يخضع لها ، ولم يغفل لها القول ، بسـل أجابها بالمقول والأدب ، متمنعاً عن مؤاناتها (ع ٢٣) .

٢ — انها همت به ضرباً أو قتلاً ، وهو بالمقابلة هم بها كذلك ضرباً أو قتلاً ، ولكنه رأى برهان الله القائم عليه وعلى سائر المكلفين ، « ادفع بالتي هي أحسن » فرجع لحالة التوسط ولجأ الى القرار من بين يديها ، وبذلك صدق عليه انه سلک مسلکاً وسطاً ، لاهو واناثا ، ولاهو تمدى عليها (ع ٢٥ و ٢٤) .

٣ — لما بهتته واختائته صريحاً لم يسکت ولم يرد عليها رداً غنياً ، بل اقتصر على أقل عبارة يدافع بها عن شرفه ، وتؤدي مطلوبه (ع ٢٥ و ٢٦) .

٤ — لما رغبت اليه زليخا أن يخرج على النسوة المصريات أضيافاً ، لم يمتنع ، ولكنه لم يوافقهن على رغبتهن منه ، بل سلک في ذلك مسلکاً وسطاً (ع ٣١ — ٣٣) .

٥ — لما استفتاه الفتیان اللذان سجنوا معه ، لم يطلب منها اجرة على الفتوى ، ولم يرد أن يفتيها مجاناً ، بلا مقابل معنوي ، بسـل توسط واستقضى منها اجرة أدبية ، وهي اصفاؤها لإرشاده الديني وتبشيريه بالتوحيد (ع ٣٦ — ٤٠) .

٦ — لما أراد « الساقى » أن يخرج من سجنه ، لم يهمل يوسف تعاطي الأسباب بـتة ، ولم يتهاف على ذلك « الساقى » بالرجاء والاسترحام ، بل سلک معه مسلکاً وسطاً ، مقتصراً على أقل عبارة تؤدي المقصود وتكفل له الشرف (ع ٤٢) .

٧ — لما رجع « الساقى » ليوسف في سجنه ، ليستفتيه في حلمي الملك ، فمن جهة لم يعاتبه على نسيانه وصيته سابقاً ، ومن جهة أخرى لم يصد عنه ويتجاهل ، كما صنع « الملأ » مع الملك ، بل سلک مسلکاً وسطاً باقتصاره على اعطاء الجواب ، بدون رجائه ثانية (ع ٤٦ — ٤٩) .

٨ — لما جاءه « الساقى » في سجنه ثانياً ليخرج منه بأمر الملك ، لم يرد أن يسكت بته عن زليخا التي بهتته وظلمته ، ولم يرد أن يصرح باسمها ، ولكنه أشار اليها بسؤال النسوة اللاتي قطنن أيديهن (ع ٥٠).

٩ — لما جاءه اخوته لأول سفرة ، لم يطردهم ، ولم يكرمهم اكراماً هائلاً ، من قبيل مانسمع بأمثلته مما وقع على يد جماعة كثيرين من الأجواد « كحاتم ، الطائي ، و« عبد الله بن جردان » و« معن بن زائدة » و« آل برمك » في عهد الرشيد ، وغيرهم ممن كانوا يجودون بإسراف لا يوافق روح التريفة ، بل توسط معهم ، فقبلهم وكال لهم كيلاً وافياً ، وأنزلهم منزلاً كريماً ، ولم يأخذ منهم ثمن الحب الذي كال لهم ، ولا أعطاهم هدية أو نحوها (ع ٥٩ — ٦٢).

١٠ — لما بهتته اخوته بالسرقة ، لم يسكت ولم يصدع بالرد ، بل توسط ، وزفر سرراً زفرة المصدور ، قائلاً في نفسه : ﴿ أتم شرٌّ مكاناً ﴾ ، حتى يرتاح نوعاً من ألم ماسم (ع ٧٧).

١١ — لما طلب اخوته اليه أن يستبدل « بنيامين » بأحدهم ، فمع انه لم يقبل منهم نراه لم يؤنبهم بأن هذا خلاف فتواكم السابقة ، وكيف تحالفون شريعة الله ؟ وكيف تقولون مالا تفعلون ؟ وعلم بلا عمل كالشجرة بلا ثمر :

وعالم بعلمه لم يعملن معذب من قبل عباد الوثن

فهو لم يأت شيئاً من ذلك ، بل اعتدل وردهم رداً لطيفاً (ع ٧٨ و ٧٩).

١٢ — لما جاءوا اليه في السفرة الثالثة وشكوا اليه حالهم ، وأراد أن يظهر لهم نفسه ، لم يوبخهم ويحقرهم ، ولم يترك عتابهم ، بل توسط وعاتبهم عتاباً لطيفاً (ع ٨٩).

١٣ — لما سأله : أأذك لأنت يوسف ، أجابهم بجواب معتدل ، فلم يتقرب اليهم بأن يقول : « أنا أخوكم يوسف » ولم يتجافهم بأن يقول : « أنا المحسود ، أنا

١٢٠٤ عمل الاخوة مع بنيامين لم يكن مباشرة بل بسبب عملهم مع يوسف آ (٨٩)

المشرد المطرود ، أنا موضوع المؤامرة الشريرة ، أنا الملقى في البئر بسلا هوادة ،
بل اعتدل وقال : « أنا يوسف ، وهذا أخي » (ع ٩٠) .

١٤ - اعتدل في ذيل جوابه لهم فلم يقل : « أنا أهل التقوى وأهل الصبر
والاحسان ، وأنتم أهل العداء والحرب والانتقام » بل إنها قال : « إنه من يتق
ويصبر ، فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » (ع ٩٠) .

١٥ - تسمعه يقول لا تثريب عليكم اليوم ، « أي أنا اليوم لا اريد ان
اثريبكم ، وانتم ماثلون بين يدي » مثول المالك ، بين يدي الملك ، والأذلاء ،
أمام العزيز « في هذا القول ، مع قوله « يغفر الله لكم » توسط واعتدال بين
التعنيف والتكريم .

عمل الاخوة مع بنيامين لم يكن مباشرة بل بسبب عملهم مع يوسف

المادة ٨ - هم لم يعملوا بأخيه بنيامين عملاً مباشراً ، إلا أنه نظراً لقوة
الاتحاد بين هذين الأخوين الشقيقين - كانت فعلتهم بيوسف كسراً لذراع
بنيامين ، فالجناية على يوسف ، هي جناية على بنيامين بصورة خاصة ، كما ان جناية
الانسان على غيره تعد جناية على البشر كلهم بصورة عامة ، قال تعالى : ﴿ مَنْ قَتَلَ
قَتْلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ (٣٥ : ٥) .

معنى الجهل والجاهلين

المادة ٩ - للجهل معنيان ، أحدهما ، انهم فاعلون فعل الجهالة المرادف للفسه ،
وهو ضد « الحلم » لأن من عمل ما يؤدي الى الضرر في العاقبة ، وهو عالم بذلك
أو ظان ، فهو من أهل الجهل ، لامن اهل الحكمة ، والجهل بهذا المعنى يذم به
الانسان مطلقاً .

وثانيها انهم جاهلون ، اي غير عالين ، بما يتعلق بعملهم من المكروه والمضرة ،

فتارة يذم به الانسان ، اذا جهل مايجب عليه او ما ينبغي له ويمد كمالاً في حقه ، وتارة لا يذم به اذا جهل ما لم يقدر على فهمه الا بالوحي مثلاً .

وقد قال : « إذا تم جاهلون » لأنه لا يقدم على طلب ما يضر بالناس وما يسوءهم إلا أهمل الجاهالة والسفه ، سيئو النظر في العواقب من أمور الدنيا والآخرة ، قليلو العلم بما يدخل عليهم في ذلك من حلول النعمة ، وبما يلزمهم من تبعات ما اجتروا من العداوة والجفاء ، قال أبو العلاء المعري .

والجهل داء قد تقادم عهده في المالمين ولا يزال عضالاً
لولا الجهالة لم يكونوا كلهم إلا خلائق أخوة أمثالاً
والعلم لا يتم الا بالعمل ، وانا صاحب العلم يقوم بالعمل لينتفع به ، فان لم يستعمل ما يعلم فليس يسمى عالماً ، ولو ان رجلاً كان عالماً بطريق خوف ، ثم سلكه على علم به ، سمى جاهلاً والله تعالى اعلم . (لا يفضض الله فاك)

اظهار يوسف نفسه لاختوته

آ (٩٠) * — قالوا : أئنك لَأَنْتَ يُوسُفُ ؟ — قال : أنا يوسفُ ، وهذا أخي ، قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ، إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ *

افتتحت الجلسة وتليت الآية التسعون فقام الشيخ سعد الدين اليرودي^(١) وقال :

سمع أخوة يوسف كلام أخيه يوسف ، فأنعموا فكرمهم في مغزى سؤاله ،

(١) نسبة الى يبرود من ضواحي دمشق (سورية)

ودققوا نظرم في ملامح وجهه ورنه صوته ، وتأملوا في عينيه — والعينان أظهر ملامح الوجه ، وأدل على صاحبهما من سائر الاعضاء — فانتقلوا من دور « الانكار » أي انكارهم له وعدم معرفتهم به ، الى دور « الشك » أي شكهم في أن الذي يكلمهم هو ياترى يوسف أم لا ؟ قد (قالوا) وهم مضطربو الحواس (أنتك لانت يوسف ؟) — بن يعقوب — (قال) بصوت رن رنين النحاس ، ما أبعدتم في التفرس ، ولا تجاوزتم الواقع ، لا أخفى عليكم أني (أنا يوسف) بن « يعقوب » من زوجه « راحيل » بنت « الالبان » ، (و) لا أريدكم علماً بأن (هذا) الشخص الذي ترونه بجاني ، هو (أخي) بنيامين ، الذي هو وأنا ، من دم واحد ، وبطن واحد ، (قد من الله علينا) بما نجب وكما نجب ، بالخلاص مما أبتلينا به ، بالاجتماع بعد الفرقة ، وبالعز بعد الذل ، وبالأنس بعد الوحشة (انه من يثق) يخف الله وعقابه (ويصبر) عن المعاصي وعلى الطاعات ، يحزن ثمار تقواه وصبره ، (فان الله) من فضله وعدله (لا يضيع أجر المحسنين) وما ترونه هو ثمرة التقوى ، ونتيجة الصبر : وعاقبة الاحسان ، لأن المستقبل نتيجة الماضي ، وثمرته الطبيعية .

قالوا : أنتك لانت يوسف . . الخ

- ٢ -

وقام الشيخ عبد الغني الجبرودي (١) وقال :

استعرا ف يوسف لآخوته بنفسه وبآخيه وتعريضه بهم

فكروا فيها سمعوا ، ثم فكروا ، ثم قالوا بصوت يرتجف ويتقطع ، ولسان يتلعثم : أنتك لانت يوسف ؟ ! ! ! — قال بلسان فصيح ملؤه البلاغة والبيان : قد رأيتموه وسمع كلامكم ، وبعبارة صريحة : يسرني أن أقدم نفسي اليكم ، أنا

يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم ، وهذا الشخص الكريم الذي تزونه كني وجواري ، هو أخي بكل معنى الكلمة :

أخي — الذي قام بواجبات الاخوة ، منذ دب الى أن شب .

أخي — الذي لم يقطع صلة الاخوة بيني وبينه ، ولن يقطعها الى آخر نسمة من حياته .

أخي — الذي 'يمت' اليّ بالاخوة الصادقة الخالصة التي لم تشب بشيء من كدر الحياة .

أخي — الذي كان — على البعد — شاطري في حزني وضيقتي فهو اليوم — على القرب — يجني ثمار ذلك ، ويشاركني في صفائي وبسطتي :

أولى البرية طراً أن تراعيه عند السرور الذي رآك في الحزن
إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا من كان يألفهم في المنزل الخشن

ولا ريب أن الله سبحانه قد منّ ويمنّ وسيعن علينا بلم الشمل ، وبهذا الرقي العظيم ، فإن هذا المعنى أمر مشترك بيني وبينه ، كما أن من الأمور المقررة أن من يتق ظلم أخوته وأقاربه ، ويتق التعدي على الأعراض ، ويتق كل ما يضر الإنسان في نفسه وفي جنسه القريب والبعيد ، ويتق جميع الذنوب والمعاصي ، وأن من يصبر على أذى الناس ، ويصبر على غيابة الحب ، ويصبر على الخدمة بأمانه ، ويصبر عن الفحشاء والمنكر ، ويصبر على أعماق السجون ظلماً ، ويصبر على كل مرّ وضرر ، فلا ريب أنه لا يخشى دركاً ، ولو قامت عليه الأرض ، بالطول والعرض ، ومتى كان الله مع العبد ، نجا من كل سوء ، وترك الناس تضرب في حديد بارد ، ذلك ان الله لا يضيع أجر المحسنين ، وهذا العبد الضعيف منهم ولاخفر ، فمن زرع التقوى والصبر ، حصد الأجر كما أن — بالمقابلة — من زرع الريح ، حصد الزوايع .

وأما أخوته ، فأنهم لما سمعوا هذا الجواب ، دخل بعضهم في بعض ، وسقط

في أيديهم ، واضطربت فرائصهم ، ورهبت نفوسهم ، وغشيم من الفراق ما غشيمهم ، وعلا وجوههم الاصفار ، وصاروا بحالة أحبوا معها الموت ، لا سيما وقد فهموا ان في قوله « إن من يتق ويصبر ، فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » ، تعريضاً بهم انهم ليسوا من هذا النوع .

التعريض في الكلام

والتعريض هو الإشارة الى معنى ، لم توضع له الجملة ، لا حقيقة ولا مجازاً ، كقوله ﷺ في مزاحه مع إحدى عماته : « إن الجنة لا تدخلها عجوز » ، فلما جزعت ، قال لها : « إن الله تعالى يخلقهن يوم القيامة ، شواباً أبكاراً » ، وقال لامرأة : « ما فعل زوجك الذي في عينيه بياض ؟ » ، ومن ذلك ان بمض العرب أدخل على « الوائق » ، وكان الواثق يقول بخلق القرآن ، ويماقب من خالفه ، فقال له : « ما تقول في القرآن ؟ » ، فتصامم عليه ، فأعاد السؤال ، فقال : « من تعني يا أمير المؤمنين ؟ » - قال : « إياك أعني » - فقال : « مخلوق » ، يعني نفسه ، وتخلص منه بذلك . وقال لآخر : « ما تقول في القرآن ؟ » ، فأخرج يده وجعل يعد أصابعه ويقول : « التوراة والزبور والانجيل والقرآن ، هذه الأربعة مخلوقة . » وعني بذلك أصابعه ، وتخلص منه .

التعريض في سورة يوسف

هذا وبما لا بد أن ننبه اليه ، ان التعريض في هذه السورة ، ليس مختصاً بهذا الموضع فقط ، بل أرى أنه وقع منها في عدة مواضع ، فمن ذلك :
 أولاً - ما في قوله تعالى : ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص ، بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾ (ع ٣) فان فيه تعريضاً بقصص التوراة ، التي حوت أقبح القصص .

ثانياً - قول يوسف « ولكن أكثر الناس لا يشكرون » (ع ٣٨) ، فيه تعريض بالفتنين الساقى والخباز ، أنها ليسا من أهل الشكر .
ثالثاً - وكذا قوله : « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (ع ٤٠) ، فان فيه أيضاً تعريضاً بهما .

رابعاً - قوله تعالى : ﴿ نصيب برحمتنا من نشاء ، ولا نضيع أجر المحسنين ، ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ (ع ٥٦ و ٥٧) ، فيه تعريض بأن يوسف من المرحومين المحسنين المتقين .

خامساً - قول المؤذن : « ولما جاء به حمل بعير ، وأنا به زعيم » (ع ٧٢) فيه تعريض بأنهم هم الذي سرقوه .

سادساً - وأخيراً قول يوسف « هذا تأويل رؤياي من قبل ، قد جعلها ربي حقاً » (ع ١٠٠) ، فيه تعريض بما كان اخوته يقولونه له على سبيل الإنكار والتهكم : « هذا صاحب الأحلام ، هذا الذي يحلم أننا منسجد له . » ولنا هنا الملاحظات الآتية :

المحسن

الملحوظة الاولى - كلمة « المحسنين » تشمل كل محسن ، بمن كان ويكون ، من أي نحلة ومن أي ملة ، ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ » ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (٩٩ : ٧ و ٨) ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ، فَلَا تظَلُّمْ نَفْسٌ شَيْئًا ، وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ ، أَتَيْنَا بِهَا ، وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ (٤٧ : ٢١) .

احسان يوسف

الملحوظة الثانية - كان يوسف عليه السلام أحسن طريقته مع الله ومع والديه ،

أحسن الخدمة في بيت سيده « فوطيفار » بكل أمانة وإخلاص ، أحسن للعزير وامرأة العزير بحفظ عرضها وشرفها ، أحسن للفتين بوعظها وإرشادها وتأويل رؤييهما ، أحسن المصريين بالعطف عليهم ، وتنظيم ثروتهم ، وترتيب ثمرات نيلهم ، أحسن لاختوته يوم وفدوا عليه لأول مرة ، وبالجملة فالعتيان اللذان كانا معه في السجن ، هما أعرف منا بتفاصيل إحسانه ، حينما قالوا له : « إنا نراك من المحسنين » ، واختوته حينما صار بينه وبينهم تماس ، هم أعرف بوجوه إحسانه ، حينما قالوا له : « إنا نراك من المحسنين » وهو نفسه أعرف بطرق إحسانه حينما قال : « فارت الله لا يضيع أجر المحسنين » ، بل الله تعالى هو أعلم من الجميع بمرامي إحسان يوسف عليه السلام وقد قال في تقريره : « ولما بلغ أشده آتيناها حكماً وعلماً ، وكذلك نجزي المحسنين » ، ثم قال : « نصيب برحمتنا من نشاء ، ولا نضيع أجر المحسنين ».

نتيجة كيد اخوة يوسف له

الملحوظة الثالثة — سمعوا ما سمعوا الآن ، وكانوا رأوا ما رأوا سابقاً ، فظهر لهم ان ذلك « الكيد » الذي كانوا دبروه ليوسف منذ ٢٢ سنة ، كان له نتيجة ذات وجهين ، فهي بالنسبة لهم من أسوأ النتائج ، وبالنسبة ليوسف عليه السلام هي من أحسن النتائج ، وبيان ذلك أنهم هم لم يخل لهم وجه أيهم ، لأنه كان شغل بحب بنيامين الحاضر ، وبذكرى يوسف الغائب ، ولم يكونوا قوماً قد صلت لهم أمور معيشتهم ، بل بالعكس كانوا متفجرين من أيهم ، واليوم صاروا تحت رحمة يوسف الطريد المشرّد ، وأنه مهما أراد أن يجري عليهم أمكنه ، حتى أنه ليتمكن أن ينقص بهم عدد الأحياء ويزيد بهم عدد الأموات .

وأما يوسف عليه السلام فقد صار من رجال « البلاط » في الدولة المصرية ، ثرياً ، سرياً ، بأمر فيطاع ، عزيزاً في مصر ، وكيلاً عن مليكها . . فلهوة التي

بينه وبينهم عميقة جداً وهم يبيدون عنه ، وهو بعيد عنهم بعد الثريا عن الثرى ،
وبعد الابريز الوهاج عن البرا (١) .

سارت مشرقة وسرت مغرباً شتان بين مشرق ومغرب

سبب ذكر يوسف اخاه بنيامين مقرونا باسمه دون سؤال منهم

الملحوظة الرابعة — أجاههم عن نفسه وعن أخيه ، مع أنهم لم يسألوه عنه ،
لأنه كان معلوماً لهم ، لأن في ذكر أخيه بياناً لما سألوه عنه ، أو يقال : أتى بذلك
لأن بنيامين كان — طبعاً — مخلصاً في حبه له ، كما أنشد إسحاق الموصلي :

وليس أخي الا الصحيح وداده ومن هو في وصلي وقربي راغب
تقرب مني في ميولي ومذهبي وان باعدتنا في الولاء المناسب
وكما قال أبو تمام :

ذو الود مني وذو القربى بمنزلة واخوة اسوة عندي وخلافي
عصابة جاورت آدابهم أدبي فهم وان فرقوا في الأرض جيرانني
أرواحنا في مكان واحد وغدت أجسامنا في عراق أو خراسان
وكما قال أبو تمام أيضاً :

ولقد سبرت الناس ثم خبرتهم وبلوت ما وصفوا من الأسباب
فاذا القربة لا تقرب قاطعاً واذا المودة أقرب الأنساب

الملحوظة الخامسة — إن الذي جرّ ذكر « بنيامين » ما في اسم يوسف من
الإشارة للزيادة ، وهو رمز لتحقيق أمل والدته المرحومة الذي صدقه الواقع ،
فيكون قريباً مما يسميه علماء البلاغة « استطراداً » وهو ذكر الشيء في غير
محله لمناسبة .

العبر المستنبطة من هذه الآية

الملاحظة السادسة — تعلم من هذه الآية الفأزة الجامعة — أن التقوى هي البقوى ، وهي السبب الأقوى ، وأن الصبر عواقبه الجبر والنبر ، وتعلم منها أيضاً أن الانسان يجازى على تقواه في الدنيا والآخرة ، حيث جعل منّة الله عليه وعلى أخيه من ثواب التقوى والصبر .

يوسف نال الخطوة بأخيه بجواسه الخمس

الملاحظة السابعة — لعل يوسف قال : « وهذا اخي » لينذ سمعه ولسانه برنين لفظة « أخي » التي مضى عليها نحو ٢٢ سنة ، وهو لم يلتذ بها ، وعلى ذلك فقد كملت ليوسف الخطوة بأخيه بجواسه الخمس ، إذ رأى شخصه بعينه وشم ريحه بأنفه ، وذكر اسمه بلسانه ، ولمس جسمه بيده ، وسمع صوته بأذنه .

ويمكن ان نقول ان يوسف ذكر اسم اخيه بنيامين وان لم يدخل في سؤالهم مع أنه معلوم لهم ومفهوم — لأجل أن يرتب على ذكر الاثنين التي تعهما ، وهي : « قد منّ الله علينا » معاً ، بالجمع بعد الفرقة ، والفرح بعد الحزن ، والعز بعد الذل ، والرقى بعد السقوط ، لأن كل ما حصل لأحدنا فهو للآخر ، فنحن متكافلان متضامنان في كل ما يعرض لنا .

(قالوا : أئنك لأنت يوسف .. الخ)

— ٣ —

وصعد المنبر الشيخ اليرموكي وقال :

التكبت للتصريح بكلمة « وهذا أخي »

لقد تكلم السادة الاخوان على الآية بما لم يدعوا فيه مقالاً لقائل : فأنا الفقير

الآن لا أريد أن أتكلم إلا على التنكيت للتصريح بكلمة « وهذا أخي » إضافة لما ذكره من النكت :

أولاً — الإشارة به الى قولهم « ليوسف وأخوه أحب الى أينا منا ونحن عصابة ، إن أبانا لفي ضلال مبين » ، ثم قولهم (إن يسرق فقد سرق أخ له من قبيل) ، فيشبه أن يكون قوله : (أنا يوسف وهذا أخي) من نوع التلميح لشيء آخر ، تذكيراً لآخوته بما كان سمع منهم ، كأنه يقول : (وهذا أخي) الذي كنتم قلتم عنه : (كيت كيت) ، ولم تذكره وتذكروه بعنوان أخوتي له الا في موضعي الحسد والانتقاد ، ولكن في مقابلة ذلك ، ها أنا ذا أذكره باسم الاخوة في موضع الافتخار به والمباهاة ، فأنا اباهي وأفاخر به ، صارخاً بين الملأ : « هذا أخي » .

ثانياً — لما لم يقولوا له : (أئنك لآنت أخونا يوسف) ، بل تعارفوا عليه باسم فقط ، غير مقرون بالنسبة الاخوية المشتركة بين الطرفين — أجابهم بجواب من نوعه ، أي أنه لم يقل : (نعم ، أنا أخوكم يوسف) ، بل قال مامتهاه : أنا يوسف الذي تسمونه بهذا الاسم كأنه أجني عنكم ، وهذا أخي الذي انتسب اليه ، حيث هو لم يصدر منه ما يشم منه رائحة التباعد عن انتساب أحدنا للآخر ، فحيث أنتم لم تذكروني باسم الاخوة ، فلا أعدم من أذكره بهذا الاسم .

ثالثاً — لعله أراد بقوله : (وهذا أخي) الإشارة إلى أنه إذا كان يوجد لي أخ حقيقي ، فهذا هو الأخ الحقيقي ، الذي يقوم بحقوق الاخوة ، ولم يسنني بأذى مطلقاً ، « هذا هو أخي الذي شاركني في سرائي وضرائي ، هذا هو أخي ، الذي اجتمعت نفسي ونفسه في صعيد واحد من هموم الحياة وآلامها ، كما اجتمعت نفسي ونفسه في صعيد واحد من التبعة والسرور :

إن أخاك الحق من كان معك ومن يضر نفسه لينفعك

ومن إذا ريب الزمان صدعك شئت فيك شمله ليجمعك
بمخلافكم في كل ذلك ، فاخوتكم لي ، اخوة اسمية فقط ، لا فائدة منها ، بل هي
مصدر ضرري ومبعث ايذاءي .

وما أكثر الاخوان حين تقدم ولكنهم في الثائبات قليل

رابعا — لعله أراد بقوله : (وهذا أخي) إنه الأخ الذي حرصت على التفريق
بيني وبينه ، وعملت على بعدي عنه ، ها هو جالس بجانبني ، ها هو لصيقي ، ها هو
لا يفصل بيني وبينه إلا "مر" النسيم ، ها هو ذا تسمع أذنه سريرة شفقي ، ها هو
ذا يشار اليه بإشارة القريب ، ها هو بين بصرى وسمعي ، ضد ما كنتم سعيتم سابقا
من التفريق والتباعد ، وهذا على حد ما قيل :

« أجزر المنيء بثواب المحسن » . (جيد)

قالوا : انك لانت يوسف

— ٤ —

ثم قام تقي الدين الدهشوري وصعد المنبر ثم قال :

الجزاء يكون في الدنيا والآخرة

لي ههنا كلمة فذة : يقول يوسف عليه السلام : (فان الله لا يضيع أجر المحسنين)
وهو يريد بذلك أنه تعالى لا يضيع أجرهم لا في الدنيا ولا في الآخرة ، فنتعلم منه
أن الإنسان يجازي على أعماله في الدنيا كما في الآخرة ، وهذا يظهر لنا من آيات
كثيرة في كتاب الله تعالى :

١ — قال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا ﴾ أى من أعمال الدنيا والآخرة
﴿ مَنْ دَكَرَ وَأَتَى — وَهُوَ مُؤْمِنٌ — فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ وعلى الأقل
بلرضى بما قسمنا له جزاء على عمله الصالح الدنيوي ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾

في الآخرة ﴿بأحسن ما كانوا يعملون﴾ من أعمالها (١٦ : ٩٧) .
 ٢ - وقال تعالى : ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا﴾ من أعمال الدنيا والآخرة ،
 ﴿فَلْيَنْفُسِهِ ، وَمَنْ أَسَاءَ﴾ أعماله الدنيوية والآخروية (فعلها) وهذا الجزاء
 الذي لنفسه وعلى نفسه هو في الدنيا ، وأما جزاؤه عليها في الآخرة فهو الرموز
 في قوله ﴿ثم إلى ربكم ترجعون﴾ (٤٥ : ٤٤) ، أي فيجازيكم هنا على الخير
 وعلى الشر بمثله .

٣ - وقال تعالى : ﴿قال : أُمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسُوفَ نُعَذِّبُهُ ، ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ
 فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكَرًا ، وَأُمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ، فَلَهُ جِزَاءٌ الْحُسْنَىٰ ،
 وَنُسْقُوهُ لَهُ مِنْ أَمْرٍ يُسْرًا﴾ (١٨ : ٨٨ و ٨٩) أي فمن ظلم بتركه الواجبات
 الدنيوية والآخروية ، فسوف يعذبه ذوالقرنين في الدنيا على تركه واجباته الدنيوية ،
 ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً على تركه واجباته الآخروية ، وأما من آمن
 وعمل صالحاً من أعمال الدارين فله جزاء الجنة على أعماله الآخروية ، ونسقول له
 في الدنيا من أمرنا يسراً على عمله الصالح الدنيوي .

٤ - وقال تعالى : ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَأَعَذَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ، فِي
 الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ، وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ،
 فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ (٣ : ٥٦ و ٥٧) ، فقله : وعملوا الصالحات ، أي صالحات
 الدنيا وصالحات الآخرة ، وقوله : فيوفيههم أجورهم ، أي في الدنيا بالنسبة للأعمال
 الصالحة ، الدنيوية ، وفي الآخرة بالنسبة للأعمال الصالحة ، الآخروية ، والدليل
 على هذا المعنى ، قوله في الفريق الأول : (فأعذبه عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة)
 فانه بحسب المقابلة يدل على أن معنى قوله في الفريق الثاني (فيوفيههم أجورهم) أي
 في الدنيا والآخرة .

٥ - وقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ ، شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ،

ولا يَجْزِمَنَّكُمْ شَتَانُ قَوْمٍ عَلَى أَنْ لَا تَعْدِلُوا ، إَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ،
 وَاتَّقُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ، وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ،
 لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٥ : ٩ و ١٠﴾ ، فَقَوْلُهُ (وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) ، أَيِ
 مِثْلِ الْقِيَامِ لِلَّهِ ، وَالشَّهَادَةِ بِالْقِسْطِ ، وَالْعَدْلِ فِي الْحُكْمِ ، وَلَوْ مَعَ شَتَانِ الْمَحْكُومِ لَهُ أَوْ
 عَلَيْهِ ، فَالصَّالِحَاتُ تَشْمَلُ صَالِحَاتِ الدُّنْيَا وَصَالِحَاتِ الْآخِرَةِ ، وَقَوْلُهُ (أَجْرٌ عَظِيمٌ)
 أَيِ فِي الدُّنْيَا عَلَى أَعْمَالِهَا ، وَفِي الْآخِرَةِ عَلَى أَعْمَالِهَا .

٦ — وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ
 الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾ (١٩ : ٩٧) ، فَالصَّالِحَاتُ هِيَ دُنْيَوِيَّةٌ وَأُخْرَوِيَّةٌ ، وَالْوُدُّ هُوَ فِي
 الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فَيُحَدِّثُ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا مَوَدَّةً فِي الْقُلُوبِ ، يَزْرَعُهَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ غَيْرِ
 تَوَدُّدٍ مِنْهُمْ ، وَلَا تَعْرِضُ لِلْأَسْبَابِ الَّتِي تَوْجِبُ الْوُدَّ ، وَيَكْتَسِبُ بِهَا النَّاسُ مَوَدَّاتِ
 الْقُلُوبِ مِنْ قَرَابَةٍ أَوْ صَدَاقَةٍ أَوْ اصْطِنَاعٍ بِمَبْرَةٍ ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ ، وَانْغَا هُوَ اخْتِرَاعُ
 مِنْهُ تَعَالَى ابْتِدَاءً ، اخْتِصَاصًا مِنْهُ لِأَوْلِيَائِهِ بِكَرَامَةٍ خَاصَّةٍ ، وَكَذَلِكَ يَجْعَلُهُمْ مَوْدُودِينَ
 فِي الْآخِرَةِ ، يَجْبِيهِمْ إِلَى خَلْقِهِ ، بِمَا يَعْزُضُ مِنْ حَسَنَاتِهِمْ ، وَيُنْشُرُ مِنْ دِيْوَانِ أَعْمَالِهِمْ
 ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ ، إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴾ (١٥ : ٤٧)
 وَالسَّيْنُ فِي « سَيَجْعَلُ » بِالنِّسْبَةِ لِلدُّنْيَا ، لِأَنَّ السُّورَةَ مَكِّيَّةٌ ، وَكَانَ الْمُؤْمِنُونَ حِينَئِذٍ
 مَحْقُوتِينَ بَيْنَ الْكُفْرَةِ ، فَوَعَدَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ « الْوُدَّ » مَتَى انْتَشَرَ الْإِسْلَامُ وَقَوِيَ ،
 وَأَمَّا بِالنِّسْبَةِ لِلْآخِرَةِ ، فَلَأَنَّ كُلَّ آتٍ قَرِيبٌ عِنْدَ اللَّهِ .

٧ — وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قَالَ : لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ ،
 وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْتَغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ﴾ (٣٨ : ٢٤) فَقَوْلُهُ : (وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) أَيِ الَّتِي
 هِيَ مِنْ قَبِيلِ الْأَعْمَالِ الدُّنْيَوِيَّةِ ، أَعْنِي عَدَمَ الظُّلْمِ وَالتَّعَدِّي ، وَالتَّبَاعُدَ عَنِ الْبَغْيِ
 وَالنَّغْصِ ، فَهِيَ أَعْمَالٌ سَلْبِيَّةٌ ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ يُسْتَقْتَنُونَ مِنَ الْخُلَطَاءِ الَّذِينَ يَبْغِي

بعضهم على بعض ، وهم أيضاً الذين يوصفون بالقلة ، وأما من يعملون الصالحات من صلاة وصوم واعتكاف وتسبيح وتهليل وإقامة أذكار وقراءة أورد ، مع الظلم والتمدي والغصب ونحوه ، فلأنهم مُسْتَتْنَيْنَ من هؤلاء الخلق الذين يبنون بعضهم على بعض ، ولا نقول في شأنهم : إنهم قليلون ، بل هم كثيرون « أكثر من الهم على القلب ! » .

٨ — وقال تعالى : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ ، أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ (٣٨ : ٢٨) ، فقلوه : (وعملوا الصالحات) أي صالحات الدنيا ، بدليل مقابلته بقوله : (أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ) ٩ — وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ — وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ — كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ (٤٧ : ٢) فقلوه (وعملوا الصالحات) أي صالحات الدنيا وصالحات الآخرة ، وقوله (كفر عنهم سيئاتهم) هو جزاء صالحات الآخرة ، وقوله (وأصلح بالهم) هو جزاء صالحات الدنيا في الدنيا ، لأن إصلاح الحال إنما يحتاج إليه في الدنيا ولا حاجة له في الجنة .

١٠ — وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ (١٠٣ : ٣) فهذا « الخسر » هو الخسران في الماديات والروحيات وهذه « الأعمال الصالحة » هي صالحات الدنيا وصالحات الآخرة .

١١ — قال تعالى : ﴿ وَعَسَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ، كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ (٢٤ : ٥٥) فقلوه (وعملوا الصالحات) هي الأعمال الروحية والمادية ، ومنها أعداد ما استطعنا

من قوة ومن رباط الخيل ، ومنها عدم التنازع المؤدي للفشل ، وذهاب الريح ، ومنها أن نرى المؤمنين بالله يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ، الى غير ذلك مما أمر الله به المسلمين ، ومما يقتضيه فن الحرب ، بحيث نُعِدّ في كل عصر ما يناسبه ، فاذا قاموا بذلك وما اليه ، صدق عليهم أنهم قد عملوا الصالحات ، التي يترتب عليها ، ترتب العلول على العلة - استخلاصهم في الارض ، وتمكين دينهم لهم ، وابدالهم من بعد خوفهم أمنا .

وأما الصلاة والصوم والتهجد والتلهيل والتسبيح وإقامة الاذكار وقراءة الأوراد مع ترك ما تقدم من مأمورات الله تعالى ، فلا ينجم عنه شيء من هذا الذي وعدنا الله به في هذه الآية الكريمة .

١٢ - وقال تعالى : ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا ، وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشُّكُورِ﴾ (٣٤ : ١٣) ، قاله جل شأنه عقب ذكر الأعمال المادية الدنيوية ، كما يظهر بمراجعة سابقة .

١٣ - وقال تعالى : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا ، لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (١٨ : ٧) فالعمل ههنا مادي وروحي

سألني سائل : ما هي الأعمال الصالحة الدنيوية التي تدخل في هذه الآيات ؟ - فقلت له : هي كثيرة جداً : الفنون ، العلوم ، الصنائع ، معامل الدباغة ، معامل الصابون ، معامل الحرير ، معامل الأجواخ ، تشييد المدارس ، تأليف الجمعيات ، السياحة ، الهجرة في طلب العلم ، إقامة الربط في الثغور ، صنع الأساطيل الحربية ، الطيارات ، المدافع ، الدبابات ، الغواصات ، تنظيم وتعليم الجيوش ، العناية بالزراعة والفرس والتجارة ، طرق المواصلات ، إيجاد فرق استخبارات في بلاد الأجانب ، إيفاد البعثات العلمية في مختلف العلوم والفنون ... الخ الخ .

نقرأ القرآن الكريم فنسمع الله تعالى يقول في اهل الكتاب موعظة لنا :

﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل ، وما أنزل إليهم من ربهم ، لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ (٥ : ٦٩) ، فما هذه الاقامة للتوراة والانجيل؟ هل هي مجرد الركوع والسجود والتسبيح والتهليل ، وما الى ذلك ؟ .. كلا .. فان هذه الامور بمجرد ما لا يترتب عليها كثرة الزروع وغو الأشجار والثمار، وانصباب الخيرات والأرزاق ، ولكن المقصود بهذه الاقامة مع ما ذكر الاشتغال بالأعمال المادية التي تعود على امتهم بالنفع المادي الدنيوي .

نقرأ القرآن الكريم ، فنسمع الله تعالى يقول تعليماً لنا : ﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذِّكْرِ - أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ﴾ (١١ : ١٠٥) فهل هذا « الصلاح » هو مجرد العبادات الروحية ؟ ... كلا ... ولكنه مع ما ذكر التأهل للملك الأرض ، وعمارتها ، وخدمتها ؛ واستغلالها ، واستخراج كنوزها ، ومعادنها وثمراتها ، وخيراتها ، وأخيراً القيام على حراستها وحمايتها والدفاع عنها ، هذا ما حضرني من الجواب ، والله تعالى هو العليم بالصواب .

(مرحى)

اعتراف الاخوة بالخطيئة

آ (٩١) ﴿ قالوا : تالله لقد آثرَكَ اللهُ علينا ، وإن كنا لخاطئين ﴾ .

افتتحت الجلسة وتليت الآية الاحدى وتسعون ، فقام جلال الدين المصري واعتلى منصة المنبر ، ونحن ننشر نص خطابه القيم الذي القاه على مجمل تفسير هذه الآية ، قال :

أيها السادة :

سبق ان دار الحديث بين يوسف واخوته ، فعرفوه - في هذه السفرة الثالثة،

كما هو قد عرفهم في السفرة الاولى - فبفتوا وأجفلوا وارتج عليهم ، وأرادوا أن ينتحلوا عذراً يتخلصون به من عقاب أخيم ، وعلى الأقل من تربيته عليهم ، فلم يجدوا ما يعتذرون به ، ولا ما يبررون به عملهم ، فلم يسمهم الا الاعتراف الصحيح والإقرار الصريح ، فتقدموا اليه والخجل ظاهر على وجوههم ، يمازجسه الذل والانكسار ، و (قالوا) بلسان واحد ، يا للخبلة . . . (تالله لقد آثرك) فضلك (الله علينا) بالتقوى والصبر وسيرة المحسنين ، فانت أثير الله ، وصاحب السعادة لديه من دوننا ، (وان كنا لخاطئين) ، فشأنا وحالنا أنا كنا متعمدين للآثم ، لم تنق ولم نصبر - أو يقال وان كنا لخاطئين في تصوراتنا وأفكارنا، خاطئين في أقوالنا ومفاوضاتنا ، خاطئين في أعمالنا ومشاريعنا ، خاطئين في تهوراتنا ونزقاتنا .

(قالوا : تالله لقد آثرك .. الخ)

— ٢ —

ثم قام مولانا عبد الحي الديماطي^(١) وقال :

اعتراف اخوة يوسف بخطيئتهم ثم تفضيلهم له عليهم

ما كاد يوسف يتم كلامه، حتى تحققوه انه اخوهم ، وحتى تذكروا سوء فعلتهم التي فعلوا ، وحتى وفوا على ما فرط منهم ، ولعنوا تلك الفكرة التي كانوا افكروها ، والحيلة التي كانوا احتالوها ، ثم تبين لهم أن الذي أمامهم ليس هو « فوطيفار » عزيز مصر الخليع ، ولكنه أخوهم « يوسف » بن راحيل ، فسقط في أيديهم ، واستولى عليهم السكوت ، فصغرت نفوسهم ، وتزاحمت على وجوههم صفرة الوجع وحمرة الخجل فما وسعهم إلا أن يتقهقروا من أمامه قليلا قليلا ، وقد نكسوا رؤوسهم ، ثم استنصروا جلدهم وقوتهم ، بعدما خارت قواهم وقالوا مقرظين له :

(١) دياط من البلاد المصرية .

بخ بخ ، تالله لقد قدّمك الله علينا نحن المصيبة ، فصار المأموم إماماً ، والتابع متبوعاً ، والمأمور أمراً ، والأول أخيراً ، والأخير أولاً ، والسيد مسوداً ، والمسود سيداً ، اجتبائك الله علينا بتعليم الأحاديث ، بإتمام النعمة ، بتمكينك في الأرض ، بتبوء منها حيث تشاء ، باصابة الله إياك برحمته بإتيانك منه علماً وحكماً ، بجعله إياك من عباده المخلصين ، بأستاد وزارة المالية المصرية لعهدتك ، بجعله إياك عزيز الديار المصرية ، بالتقوى والصبر ، بسجود الكواكب ، وأخيراً بالنبوة والرسالة . وأما نحن ، وإن كنا لخاطئين ، فمثلنا من يهفو ، ومثلك من يعفو ، ها نحن أولاً قد أقرنا بذنبنا ، وشفيع المذنب اقراره ، ونحن لا بد لنا من أن نترف لك بالخطأ حتى لا نكون قد خطئنا اليك خطأ آخر ، نحن علاظ أكباد ، قساة قلوب ، فمذرة إلى الله واليك ، وإن لكل صارم نبوة ، ولكل عالم هفوة ، فأغض عن خطائنا ، وأذن لحلمك أن يسع جهلنا :

وما الحسن في وجه الفتى شرف له إذا لم يكن في فعله والخلاق

ولعمرنا إن نهايتنا لمحنة أليمة ، إلا أن وجدنا لنا في بعض زوايا قلبك مكاناً للرحمة بنا ، والإشفاق علينا ، ملكت فأستجيب ، قدرت علينا فأرفق بنا ، ولا تأخذنا بالشدّة ، وإن الذي جرأنا على ماصنعنا ، هو الذي أخرج أبويتنا من الجنة ، وأنساها العهد ، وهذا مقام المائذين بك ، أيها الأخ ، فاغسل عنا الحوبة (١) بالتوبة ، واغفر ما فرط منا في تلك التوبة :

وهبنا أسأنا نحو شخصك عامداً فمفواً جميلاً كي يكون لك الفضل

فإن لم تكن للعفو عندك بالذي آتينا به — أهلاً ، فأنت له أهل

هذا مرمى كلامهم ، وأما نحن فنقول : « صبح النوم يا أسيادي ! .. » وصدق من قال : « أول الغضب جنون ، وآخره ندامة » ، ولكن « بعد خراب البصرة .. »

ولو تراه إذ تمثّلوا بين يدي أخيه . . . ولو تراه إذ خفضوا رؤوسهم خائفين . . . ولو تراه إذ تصبّوا عرقاً . . . ولو تراه إذ غشيت وجوههم غمامة من الاستكانة . . . ولو تراه واقفين على مثل نار الفضا . . . ولو تراه تتناهب الأفكار المتضاربة . . . وتتقاذفهم الهواجس المتناقضة . . . يترأخون بين خوف ورجاء . . . ويترجحون بين معاقبة وغفران — نعم لو تراه بهذه الأحوال ، لترى مشهداً رهيباً ، وأمرأ عصبياً ، كيف لا . . . وإن ذلك اليوم الذي دخلوا فيه على « يوسف » ، يوم مجموع له الناس ، وذلك يوم مشهود ، يتمجد اسم الله !!! ! ! يتبارك اسم الله !!! ! ! ، كانوا اثمروا على قتل أخيه ، فصاروا اليوم بين يديه ، ﴿ والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ (١٢ : ٢١) . (جيد)

قالوا : تالله ، لقد آثرك . . الخ

— ٣ —

وقال نجم الدين الشرقاوي^(١)

عندي على هذه الآية المواد التالية :

وجوب الاعتراف بالاساءة ثم طلب الغفران

المادة ١ — نتعلم من هذه الآية ، أنه ينبغي للمسيء أن يعترف بإساءته ، ويطلب المغفرة ممن أساءه ، ولو أصغر منه سناً ، كما وقع من اخوة يوسف عليه السلام ، وحينئذ ينبغي للمرأة اليه أن يغفر للمسيء ، كما وقع من يوسف معهم ، حسبما تتعلمه من (ع ٩٢) .

المادة ٢ — أقروا بذنوبهم ، ورجعوا الى صوابهم ، واستقبحوا عملهم ، وسخطوا على أنفسهم ، وأعلنوا فظاعة ما أجروه ، ونحن لانرتاب في أن يوسف

(١) نبة الى منطقة الشرقية بمصر .

عليه السلام قبل منهم هذا كله ، لأن العبد إنما يحاسب الناس بحسب ظواهرهم ، ولكن هل يعتبر هذا القول منهم توبة نصوحاً بالنسبة لله تعالى الذي يعلم السر وأخفى ، بحيث ينالون بها من الله الغفران ؟ ..

ورب قائل يقول : (إنهم أرادوا بذلك التوصل الى استئصال عفو أخيه عنهم ، والتعرض لغفرته لهم) .

وربما يقول آخر : (إن القوم ندموا وأسفوا على ما فرط منهم ظاهراً وباطناً وأخلصوا لله التوبة) وهذا هو الأقرب ، بدليل تسميتهم «كواكب» ، لأنهم إذا لم يكونوا كواكب بمد هذه التوبة والأوبة، ففي أي وقت يكونون كذلك ؟ نعم نعم ، انهم ندموا وأنابوا وأخلصوا لله التوبة ، وصار كل واحد منهم كُسَعِيّاً يصرخ :

ندمت ندامة لو أن نفسي تطاوعني إذا لقطعت نخسي
تبين لي سقاه الرأي مني لعمري أنك حين كسرت قوسي

مقابلة بين خاتمة اخوة يوسف وبين ما ذكره الانجيل من خاتمة بطرس لتلميذ المسيح

المادة ٣ — قولهم : « تالله لقد اترك .. الخ » ، من هذا ومن دعاء أخيه يوسف لهم بقوله : ﴿ يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ﴾ ، ومن قولهم لأبيهم . « يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين » ، وقول أبيهم لهم : « سأستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم » — من مجموع هذه المكالمات المتبادلة ، بين يوسف واخوته وبينهم وبين أبيهم ، نعلم إن خاتمة أمرهم كانت حسنة ، لأن هذه المحادثات جاءت أخيراً ، ومتأخرة عن أعمال اخوته الفاسدة وأقوالهم الكاذبة ، ومواعيدهم الخلفية ، فكل هذه نسخت بتوبتهم الأخيرة ، وحسن حالهم مع الله وأبيهم وأخيهم ولاشك أن المدار على الخواتيم ؛

وهذا (والتيء بالتيء يذكر) ضد ما حصل لبطرس الذي طرده المسيح (ع) وسماه شيطاناً ، ثم بطرس أنكر المسيح ثلاث مرات ، وهذا هو كذب صريح وبمثابة ردة ، وكان كل هذا في آخر أمره ، بعدما كان معتمده ورأس تلاميذه ، وفي الانجيل أنه قال له : « وأنا أقول لك أيضاً ، أنت بطرس ، وعلى هذه الصخرة إبنى كنيسة وأبواب الجحيم لن تقوى عليها ، وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات ، فكل ما تربطه على الأرض ، يكون مربوطاً في السموات ، وكل ما تحله على الأرض ، يكون محلولاً في السموات » (مت ١٦: ١٨) قال متى : « حينئذ أوصى تلاميذه أن لا يقولوا لأحد : انه يسوع المسيح ، من ذلك الوقت ابتداء يسوع يظهر لتلاميذه انه ينبغي أن يذهب إلى اورشليم ويتألم كثير آمن الشيوخ ورؤساء الكهنة والكتبة ويقتل ، وفي اليوم الثالث يقوم ، فأخذه بطرس اليه وابتدأ يشهره قائلاً : ﴿ حشاك يارب ، لا يكون لك هذا ﴾ — فالتفت وقال لبطرس : ﴿ اذهب عني يا شيطان ، أنت معثرة لي ، لأنك لاتهتم بما لله ، لكن بما للناس ﴾ (مت ١٦: ٢٠—٢٣) ، ثم قال « متى » : ﴿ أما بطرس فكان جالساً خارجاً في الدار ، فجاءت اليه جارية قائلة : ﴿ وأنت كنت مع يسوع الجليلي — فأنكر قدام الجميع ، قائلاً : « لست أدري ما تقولين » ، ثم إذ خرج الى الدهليز ، رآه أخرى فقالت للذين هناك : « وهذا كان مع يسوع الناصري » — فأنكر أيضاً بقسم « إني لست أعرف الرجل » ، وبعد قليل جاء القيام وقالوا لبطرس : « حقاً أنت منهم فان لفتك تظهرك » — فابتدأ حينئذ يلعن ويحلف اني لا أعرف الرجل » (مت ٢٦: ٦٩—٧٤) فهذا اللقب الذي لقب به المسيح بطرس ، وهذه الشهادة بانه معثرة وانه لايهتم بما لله ، لكن بما للناس ، وهذا الكذب والانكار الذي صدر من بطرس لإلهه المسيح ، مع اللعن — كل هذه الامور كان على رواية « متى » بعد تلك المنحة والخصوصية التي خصه بها ، فهو ما صار لبطرس في آخرة

أمره ، مخالفه لحال اخوة يوسف ، والمبرة بالخواتيم ، هذا على رواية «متى» ، ولكن نحن نجل حوارى المسيح عن ذلك وعن أقل منه ، ولا نؤمن بهذه الرواية التي تحط من قدر بطرس القديس .

الفرق بين لفظي الخاطي ، والمخطي ، واخوة يوسف كانوا خاطئين وليسوا مخطئين
المادة ٤ — من الناس من يقدم على الفعلة السيئة ، تارة «باجتهاد» وتأويل ، بحيث يكون غير خاش بما عمل عقاباً من الله ، ولا توبيخاً من الضمير ، وتارة «بالغلط» وعدم معرفة أن هذا الفعل حرام ، فصاحب هذا العمل — في الحالين — لا يعاقب ، وعلامة هذا النوع ، انه يفعل الفعل ، وهو راض عن نفسه ، مستريح لعمله ، ويقال لصاحب هذا العمل «مخطي» ، ومن الناس من يعمل عمل السوء ، وهو عالم انه سوء ، وإن الاقدام عليه غير جائز ، لافي حكم الله ، ولا في حكم الضمير ، فصاحب هذا العمل يستحق العقاب بمقدار ما عمل ، مامن ذلك بد ، إن لم يعقبه بتوبة ، وعلامة هذا النوع انه يعمل العمل ، وهو غير راض عن نفسه ، ولا مستريح لعمله ، ويقال لصاحب هذا العمل «خاطي» .

فاذا تقرر هذا فأولاد يعقوب عليه السلام كانوا من قبيل هذا النوع ، ولذلك تراهم أقروا واعترفوا أمام أخيههم ، ثم أمام أبيهم بأنهم كانوا «خاطئين» ، وهذا يدلنا على أن العلة التي كانوا توسلوا بها لقتل يوسف أو طرحه أرضاً ، أو القائه في غيابة الجب ، وهي كونه أحب لأبيهم منهم — كانت علة غير حقيقية ، حتى في نظرهم ، وإنهم كانوا غير مقتنعين بها ، لأنها صورية فقط ، إذ العلة الحقيقية هي الحسد والغيرة والفيظ والأثرة .

آبَا الاستغفار

المادة ٥ — قال عبد الله بن مسعود : في كتاب الله ، آيتان ، ما أصاب عبد ذنباً

ففرأهما ثم استغفر الله إلا غفر له :

الاولى — قوله : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ، ذَكَرُوا اللَّهَ ، فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ — وَمَنْ يَغْفِرِ الذَّنْبَ إِلَّا اللَّهُ — وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا ، وَمَنْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٣ : ١٣٥) ،
والثانية — قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ ، يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (٤ : ١٠٩) .

عدم تمادي الاخوة في انكار المحسوس

المادة ٦ — لم يتادوا في إنكار المحسوس ، ولم يشاربوا على رد الحقائق ، ولم يهوجوا من يخاطبهم بهذا الخطاب أن يثبت أنه « يوسف » !!! ، وأنه حتى اليوم « حيّ يرزق » ، لم يأكله الذئب ، ولم يفتسه الوحش !!! .

فنحن في مقابلة تساهلهم هذا ، لا نسمعنا إلاّ تقديم واجبات الشكر لما أبدوه من هذا اللطف مع أخيه ، والتسامح والتساهل ، وإلاّ كان لهم أن يتكروا على هذا الذي يخاطبهم — دعواه أنه « يوسف » ويكلفوه أن يثبت تلك الدعوى في محكمة مصر العليا !!!... إذ يمكنهم أن يقولوا له : نحن أثبتنا موت « يوسف » بن يعقوب قديماً من ٢١ سنة ، فإن بعضنا ادعى ذلك ، والبعض الآخر شهد عليه ، بله شهادة « القميص » ، ونحن والقميص أصدق منك أيها المتكلم المدعي النسب فينا ، فإن كنت تريد إثبات انك يوسف بن يعقوب ، فعليك بنقض الحكم الصادر عليك بالموت ، وإثبات انك حتى اليوم « حيّ يرزق » !!..

الحي الميت

الشيء بالشيء يذكر — قرأت في بعض الصحف انه ما زال يوجد « قانون » قديم في المانيا ، يقضي بأن الشخص اذا اعتبر خطأ ميتاً في ورقة رسمية ، وهو

لا يزال على قيد الحياة ، فليه أن يراجع السلطات ، في مدة ستة أسابيع ، من وقوع ذلك الخطأ ، فإذا انقضت المدة ولم يفعل ، يبقى في نظر « القانون » ميتاً الى الأبد ؛ وقد حدث أن بحاراً ألمانيا يسمى « فوتكا » اعتبرته السلطة ميتاً وهو ما يزال حياً ، ولكنه لم يطلب تصحيح هذا الخطأ في المهلة المعينة ، ومن أجل ذلك ما يزال حتى اليوم يطالب بتركته التي وزعت على ورثته ، وقد بذل بعد انتهاء « الحرب العالمية » جهداً عظيماً ، لكي يعود الى الحياة في نظر القانون ، ولكنه لم ينجح ، قال بعض الظرفاء : إن « فوتكا » لم تبق أمامه وسيلة لاثبات حياته سوى أن يقتل انساناً آخر ، ومن الطبيعي ان الميت لا يقتل حياً ، غير أنه يخشى في هذه الحالة أن لا يتمتع طويلاً بحياته الجديدة .

هذا ولكن « يوسف » الصديق رأى أمامه وسيلة لاثبات حياته في نظر إخوته ، وأنه هو يوسف العبراني بن يعقوب - هي الإتيان بهم وأهلهم أجمعين ، ليعيشوا عنده بمصر ، فبدلاً من أن يقتل واحداً منهم ، أراد أن يجمعهم جميعاً .

توبة اخوة يوسف وتوبة امرأة العزيز

المادة ٧ - نعلم من هذه السورة انه كان ليوسف « أعداء » في فلسطين هم « اخوته » ، كانوا أذنبوا اليه ، وتعدوا عليه ، ثم تابوا بين يديه ، ولكن بعد خراب البصرة ، أو كما قال الشاعر :

« ولكن جئت في الزمن الأخير »

كما نعلم أيضاً مما سبق أنه كان ليوسف « عدوة » لدودة « بمصر » هي « زليخا » كانت اتهمته وتعدت عليه ، وأرادت تدنيسه ، ثم بعده تاب ، ولكن في آخر نفوس من أنفاسها ، فتوبة هؤلاء وتوبه هذه ، ان كانت معتبرة ، لكنها منحطة ، وفي آخر درجات التوبة ، كيف لا .. وانما كانت توبة زليخا بعد ما تخلص يوسف منها وخرج من قصرها ، وتخلص من نفوذها ، وأصبح في بلاط الحكومة ، وهي قد كبرت ،

وهو قارب سن الشيخوخة ، وذبل ورد وجنته ، وجف ماء شبابه ، وكذلك اخوة يوسف إنما كانت توبتهم بعد أن رأوا أنفسهم عبيداً بين يدي أخيه واقفين ناكسي رؤوسهم ، وهو صاحب الحول والطول ، وذو العمل والصول ، وهم عزل من أقل من ذلك .

مقابلة بين اقوال اخوة يوسف السابقة واقوالهم الحالية

المادة ٨ — هم « قالوا : تالله لقد آثرك الله علينا ، وإن كنا لخاطئين » ، وهذا حقيقة راهنة ، فاني لم أسمع لهؤلاء الاخوة « قولاً » لا أقدر أن أنتقده سوى هذا القول ، إنهم أولاً كانوا قالوا : « ليوسف وأخوه أحب الى آيينا منا ونحن عصبة ، إن أبانا لفي ضلال مبين » (ع ٨) ، وللسامع أن ينتقد فكرهم هذا من وجوه ، منها ان « يوسف » كان عمره في ذلك الوقت (على اطول الروايات) ١٧ سنة ، وكان عمر « بنيامين » إذ ذاك ٧ سنين ، وأما هؤلاء الاخوة ، فكان أكبرهم وهو « رؤوين » لا يقل في ذلك التاريخ عن ٣٠ سنة ، وكان أصغرهم وهو « زبولون » لا يقل في ذلك التاريخ عن ١٨ سنة ، ولعمري إن حسد الكبير للصغير وغيرته منه لهما من الغرابة بمكان .

وانهم ثانياً — قالوا : « ونحن عصبة » أصلحهم الله ، أما كان الأولى بهم أن يعملوا بأنهم أطوع لأبيهم أو أنهم أحسن حالاً من أخيه ؟

وانهم ثالثاً — كانوا قالوا : « إن أبانا لفي ضلال مبين » ، ونحن نقول : إن من يضلون أباهم هم لا غيرهم في الضلال المبين .

وانهم رابعاً — كانوا قالوا : « اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً ، يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين » (ع ٩) ، أصلحهم الله ! كان الخروج من هذا الكرب والمأزق الحرج الذي تصوره ليس منه مناص بسوى « القتل » ؟!

سبحان الله ! أما كان يكفي أن يتكلموا في هذا الشأن مع والدهم بلطف ، ويتفاهموا معه بالحسنى ؟ وأيضاً أما كان الأخرى بهم أن يحسنوا حلهم في أنفسهم ومع أبيهم ، حتى يصير محباً لهم كأخيه ؟ ثم كيف ساع لهم أن يتصوروا أن « قتل » يوسف ينشأ عنه خلو وجه أبيهم لهم ، مع ان العقل يقتضي ضد ذلك ؟ ثم ما هذا الصلاح الذي سيصرون اليه ؟ مع ان كل انسان ذي احساس ، متى تذكر انه فعل فعلاً سيئاً مع اخيه ، لا سيما بدون ذنب منه ، فلا ريب أن عيشته تكون غير صالحة ، لأن ضميره دائماً يوبخه على ما فعل .

وخامساً — سمعناهم يقولون: ﴿ يا أبانا ، مالك لا تأمنا على يوسف ؟ ﴾ (ع ١١) ولعمري ان هذا القول لما يوجب الخوف ، ويوقظ الغافل عن كراهتهم لأخيه . وسادساً — سمعناهم يقولون ﴿ لئن أكله الذئب ، ونحن عصبه ، إنا إذا لخاسرون ﴾ (ع ١٤) سبحان الله ! أما كان الأولى بهم أل يضعوا ثقتهم بالله ، ويحصرُوا اتكالمهم على الله ، ويمتنصوا بحمايته تعالى ؟! ..

وسابعاً — سمعناهم يقولون ﴿ إنا ذهبنا نستبق ، وتركنا يوسف عند متاعنا ﴾ (ع ١٧) سبحان الله ! أرادوا أن يستدروا فصرحوا بقصورهم في حفظهم لأخيه ، لأنهم لم يأخذوه ليكون حارساً لآمتعتهم ، ولكن ليكون معهم حين الاستباق ، وبذلك يتوجه عليهم اللوم ، وتقوم عليهم الحجة .

وثامناً — رأيناهم جاءوا بقميصه ملوثاً بالدم ، ما شاء الله ، ما أعمق هذه الاستدلالات القيمة ؟! كأن « الدم » في هذا الكون لا يكون إلا من جسد يوسف عليه السلام ؟! ..

تاسعاً — سمعناهم يقولون : ﴿ يا أبانا منع منا الكيل ﴾ (ع ٢٣) براعة استهلاك لطيفة ابتدأوها بلفظ « المنع » ، مع ان المقام مقام طلب ، أما كان يجدر

بهم أن يستهلوا كلامهم مع أبيهم بيشراء بملاطقة « عزيز مصر » لهم ، ثم يذكرون له حرص « العزيز » على رؤية أخيه والآن فلا كيل لهم !!

وعاشراً — سمعناهم يقولون : ﴿ جزأؤه من وجد في رَحْلِهِ فهو جزأؤه ﴾ (ع ٧٥) ، وكان الأوفق بحال أخيه بنيامين أن يحيلوا الحكم فيه للقانون المصري ، لأنه أخف عليه ، ولأنه كان يمكن لهم أن يقولوا : إن الجريمة وقعت في المملكة المصرية فلنرجع للقانون المصري ، محافظة على شرف وسلطان مصر .

والحادي عشر — سمعناهم يقولون : ﴿ نخذ أحدنا مكانه ﴾ (ع ٧٨) وفي هذا رجوع منهم عن الشريعتين ، الشريعة الابراهيمية ، والشريعة المصرية ، فلم يحترموا الأولى لأنها شريعة جدتهم ، ولم يحترموا شريعة مصر ، مع أن الجريمة وقعت فيها .

والثاني عشر — سمعناهم يقولون : ﴿ تصدق علينا ، إن الله يجزي المتصدقين ﴾ (ع ٨٨) والاستجداء لا يليق بأولاد الأنبياء ، لاسيما إذا كانوا فتياناً وكهولاً ، زعماء ثورات ورجال حركات .

مقابلة بين تفكير الاخوة سابقاً وتفكيرهم الآن

المادة ٩ — رأوا انفسهم اليوم في ضيق من « يوسف » أعظم من ضيقهم منه منذ ٢٢ سنة ، فقد كانوا حسدوه رغماً عن انه كان غلاماً ، ولكن لماذا ياترى حسدوه ؟ حسدوه لعل صيبانية ، هي زيادة محبة أبيه له ، حسدوه فأرادوا ازالته من الطريق ، ليخلو لهم وجه أبيهم ، هذه حادتهم قبل ٢٢ سنة ، ولكن اليوم ما عساهم ان يصنعوا ياترى ؟ وقد توفرت اسباب الحسد الجوهري ، توفرت دواعي الحسد الذي عهد أن يكون بين الرجال على امور ذات شأن ، فما هي المكيدة التي عساهم اليوم ان يكيدوا له بها كيدا ... هل في وسعهم هذه المرة ، أن يزيلوا

« يوسف » من الطريق ليخلوا لهم وجه ملك مصر « الريان » ؟ ... هذا أمر يصير عليهم اليوم ، لأن ملك مصر لا يعرفهم ، ولأن يوسف اليوم ليس غلاماً ابن ١٧ سنة ، حتى يستولوا عليه ، بل هو اليوم رجل ابن ٣٩ سنة ، ومن أين لهم اليوم « مرتع وملعب وميدان استباق ؟ » ومن أين لهم وحش وقميص ملون ، ودم تيس من المعزى ؟ ومن أين لهم جب ؟ حتى يقدروا أن يمدوا شبكة حيلهم ، كما مدوها بالأمس ، فالיום غير الأمس ، و « العزيز » غير الذليل ، ووزير المالية غير السوقة وابن الشارع ، فمن هذا كله زى أنهم وقعوا في « حيص بيص » ، وأنهم قد أخذوا بحلاقيتهم ، ولم يجدوا أمامهم سوى تغيير أفكارهم المتينة بالمرة ، والاعتراف بخطئهم ، والاستسلام لأخيهم ، والاتجاء لرحمته ، فلذلك طرأ لهم هذا « التغيير الفجائي » ، وسبحان من يغير ولا يتغير ..!

كان لهم في حياة يوسف الجديدة ، موت جسد ، وفي عزه ذلم ، وفي ارتقائه سقوطهم !!! ﴿ قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ ، تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ ، وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ ، وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ ، وَتَذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ، يَدُكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢٦:٣) (قالون)

شفيع المذنب اقراره أو المصالحة والمغفرة

آ (٩٢) ﴿ قَالَ : لَا تَتْرِبْ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ، يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثانية والتسعون فقام نور الدين الانبائي (١) واعتلى منصة المنبر وقال محاضרתه القيمة التي ننقلها اليكم بقسميها المجلد والفصل : (قال) يوسف لاختوته : (لا تتريب عليكم اليوم) ولا تأنب ولا عتب ، بل

أطلب لكم المغفرة صارخاً الى السماء (يغفر الله لكم) ما فرط منكم ويحتمل أن قوله (يغفر الله لكم) دعاء ، ودرّب اشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره ، (وهو) سبحانه وتعالى (أرحم الراحمين) ورحمة الله أوسع من أن تضيق بكم ، فانها وسعت كل شيء .

(قال : لا تثرِب عليكم اليوم ... الخ)

— ٢ —

وتابع السيد نور الدين الانبائي كلامه قائلاً:

يوسف يعفو عن اخوته ويطلب لهم المغفرة

إن يوسف عليه السلام تأمل في الحالة السابقة بينه وبين إخوته فقال في نفسه :

ولست بمستقب أخاً لآله على شعث ، أي الرجال المهذب ؟
ففضل العفو عنهم ، وقال لهم : لا مَوْجَدَة منذ اليوم في قلبي نحوكم ولا وِثْرَة بيني وبينكم ، ومن حق الصديق والقريب أن يتحملاً ثلاثاً ، ظلم الغضب ، وظلم الدالة ، وظلم الهفوة ، وأنتم ما خرجتم عن انكم سكان بيوت من طين ، تماسكت أجزاؤها بالماء ولعل الله قد أتى بي ههنا لأجل أن نحيوا ، وتحيا عائلة اسرائيل وأنتم إن كنتم أخطأتم فما أخطأ القدر :

والناس يلحون الطيب وإنما غلط الطيب إصابة الأقدار
وحيث حملتم شهادة التوبة بيدكم ، وبما ان شفيح المذنب اقراره فلا تثرِب عليكم اليوم ، فالانسان يصيب ويخطيء ، ويسرع ويبطيء الانسان من ماء وطين ، وليس من الملائكة العليين ، وان لكل صارم نبوة ، ولكل جواد كبوة ، ولكل عالم هفوة ، والكمال لله والعصمة لانبياؤه ، أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم ،

لا تثريب عليكم اليوم ، فبعد اعترافكم بالخطأ ، وانا بكم الى الله ، لا يثربكم إلا كل صاحب إحساس أصم ، وعواطف مائة .

يا من عدى ثم اعتدى ثم اعترف ثم انتهى ثم ارعوى ثم اعترف
أبشر بقول الله في آياته « إن يتنوها يغفر لهم ما قد سلف »

لا تثريب عليكم اليوم ، إني قد وهبكم لأبيكم وعيالكم ، واني مستعد لمساخنة ألف مرة ، لو قدر أن يجني على ألف جناية .

لا تثريب عليكم اليوم ، فقد مرت تلك الأيام المتعبة بخيرها وشرها ، فيجب أن نسدل الستار على حلوها ومرها ، ولم يبق إلا أن نطرد أشباحها المروعة من مسرح الخيال ، ونتحامى المطالعة في ذلك التاريخ المظلم .

لا تثريب عليكم اليوم ، فأنا لست عدو اخوتي ، ولكنني عدو تقطيع الأرحام ، وكما رأيتم أن من واجبكم الاعتراف بالخطأ ، أرى أن من واجبي عدم لومكم وتأنيسكم ، فلا تفتكروا فيما كان بيني وبينكم من الإلحاح ، فقد جعلتها دبر اذني وتحت قدمي ، فلا آخذ بها عليكم اليوم ، لان خطيئتكم ذابت واضمحلت أمام هذا الاعتراف والندم .

لا تثريب عليكم ، لأنكم أنتم كنتم من أهم الأسباب التي ساعدت على ارتقائي لهذا المنصب العالي وإن يكن ذلك بطريق غير مباشرة ، لكن حررتكم معي أدت إلى هذه الحادثة العظيمة ذات الأثر البعيد في التاريخ البشري ، حادثة ارتقائي على عرش الملك .

لا تثريب عليكم اليوم ، بل عفوت عنكم عفواً لا يخلطه تثريب ، ولا يكدر صفوه تأنيب ، لي ولكم رب اسمه « الغفار » واسمه « الرحمن الرحيم » .

يفغر الله لكم وهو أرحم الراحمين ، ورحمة الله أوسع من أن تضيق بكم ، فانها وسعت كل شيء ، غفرت لكم قولكم : « اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً » غفرت لكم قولكم : « القوه في غيابة الجب ، يلتقطه بعض السيارة » ، غفرت لكم قولكم : « إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل » ، غفرت لكم كل مالقيته بسبب كيدكم لي ..

يفغر الله لكم وهو أرحم الراحمين ، فالفغو من شيم الكرام ، بل هو من أصول الدين الأساسية ، ومن الأخلاق الفاضلة ، واني لحري بالتمشي عليه مع كل الناس ، لاسيا معكم أنتم أيها الاخوة :

يا كبير الذنب عفو الله من ذنبك أكبر

أكبر الأوزار في أصغر عفو الله أصغر (١)

أما هم فلما سمعوا ذلك ، لاحظك الله محلمهم ، فانهم خجلوا خجلاً عظيماً ، ولا بدع فان يوم المدل على الظالم ، شر من يوم الجور على المظلوم ، ولكنهم فيما بعد امتنارت ظلمة قلوبهم ، وأنست وحشة نفوسهم ، وسكتوا كأن على رؤوسهم الطير ، ولم يبدوا حسراً ، ولعمري إن يوسف لم يبعد في الاحسان ، ولا يتجاوز مزاياه الحميدة ، فهو منبع الكرم ، ومصدر معاني الشيم .

(قال : لا تثريب عليكم اليوم ... الخ)

— ٣ —

وقال شمس الدين الجيزاوي :

عندي على هذه الآية المواد الاتية :

معنى التثريب

المادة ١ — معنى « لا تثريب عليكم » لا تأنيب ولا عتب عليكم ، وأصل التثريب

من الثرب ، وهو الشحم الذي هو غاشية الكرش ، ومعناه إزالة الثرب ، كما كان التجليد إزالة الجلد ، والتأثم إزالة الإثم ، سمع من بعضهم : « اللهم أغني » أي أبعده عني الإثم ، فالتشديد للسلب « فاذا ذهب الثرب كان ذلك غاية الهزال والعجز الذي ليس بعده ، ويقال للتثريب تقريع ، وأصله إزالة القرع من الرأس باستعمال دواءه ، فضرب مثلاً للتقريع أي التثريب والتأنيب الذي يمزق الأعراض ، ويذهب بماء الوجوه ، والتعمير والتعنيف درجات ، أقواها التثريب فالتأنيب فالتوبيخ فالتقريع فاللوم فالمعاقبة (١) .

وثرَبَ وَثَرَدَ قريبان ، لأن أصل التثريب إضعاف الشيء ، أي جعله ضعيفاً ، وتثريد الخبز : تكسيه ، وفي صحيح البخاري : ﴿ إِذَا زَنَتِ الْأُمَةُ فُتِينَ زَنَاهَا ، فَلْيَجْلِدْهَا وَلَا يَثْرِبْ ﴾ وفسره الشراح بالتعمير والاستقصاء في اللوم .

متعلق كلمة « اليوم »

المادة ٢ — كلمة « اليوم » متعلقة بالتثريب أو بالمقدر في « عليكم » من معنى الاستقرار ، أو متعلقة « يَغْفِر » ، والمعنى على الأول : لا أثربكم اليوم ، وهو اليوم الذي هو مظنة التثريب ، فما ظنكم بغيره من الأيام ، ثم ابتداءً فقال « يغفر الله لكم » فدعاهم بمغفرة ما فرط منهم ، يقال : غفر الله لك ويغفر الله لك ، على لفظ الماضي والمضارع جميعاً ، ومنه قول المشيت : « يرحمكم الله » وقول العاطس : « يصلح الله بالكم » .

والمعنى على الثاني : ان « يغفر الله لكم » بشارة بعاجل غفران الله ، لما تجدد يومئذ من توبتهم وندمهم على خطيئتهم ، وعلى هذا الثاني فعنى قول يوسف « يغفر الله لكم » مغفرة ما يرجع الى حقه وحق ربه دون حق أبيه ، إذ الإثم كان مشتركاً

بين الثلاثة ، ومعنى قولهم فيما يأتي : « يَا أَبَا نَسْتَفِرُّ لَنَا ذُنُوبَنَا » مغفرة ما يتعلق بحقه وحق ربه دون حق ولده ، لانه تنازل عنه سابقاً ، أو مقصودهم تكرار طلب المغفرة من الله بلسان أبيهم ، كما حصل بلسان أخيه .

المشاهرون ليوسف في عمله الاخير مع اخوته

المادة ٣ — كما عامل يوسف اخوته عامل النبي ﷺ قريشاً وأهل مكة ، فانه يوم أن فتحها وقف على باب الكعبة ، والناس وقوف صامتون ، كأن على رؤوسهم الطير ، خطب فيهم خطبة طويلة ، ثم قال : « ماذا تقولون ، وماذا تظنون أني فاعل بكم ؟ » — قالوا : « خيراً . أخ كريم ، وابن أخ كريم ، وقد قدرت . » فقال : أقول كما قال أخي يوسف : « لا تريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين » ، اذهبوا فأنتم الطلقاء ، فقد مشى كل من هذين النبيين الكريمين على قاعدة « قد ملكت فأستجح » .

وثبت في التاريخ أن « المأمون » قال هذه الكلمة اليوسفية « لابراهيم بن المهدي » فان ابراهيم بن المهدي كان خرج على المأمون طالباً للخلافة فطلبه المأمون وأحضر بين يديه ، فقال له ابراهيم : « ياأمير المؤمنين ، العفو أقرب للتقوى ، وقد جعلك الله فوق كل ذي ذنب ، كما جعل كل ذي ذنب دونك ، فان تعاقب فيحقتك ، وان تمع فيفضلك » — قال : « بل أعفو يا ابراهيم ، وأقول ما قال يوسف ل اخوته : « لا تريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » .

قال « الْمُفْتَسِّح » الكندي ، وكأئنا نظمها تصويراً لحال يوسف مع اخوته :

وإن الذي بيني وبين بني أبي	وبين بني عمي لختلف جداً
أراهم إلى نصري بطاءً ، وإن هم	دعوني إلى نصر ، أتيتهم شدياً
وإن أكلوا الحمي . وفرت لحومهم	وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجداً

وان ضيعوا غيبي حفظت غيوبهم وان هم هو واغبي هويت لهم رشدا
وان زجروا طيراً بنحس يرّبي زجرت لهم طيراً يرّبهم سمدا
ولا أحمل الحقد القديم عليهم وليس رئيس القوم من يحمل الحقد
لهم جلّ مالي ان تتابع لي غنى وان قلّ مالي لم أكفهم رفدا
واني لعبد الضيف مادام نازلاً وما شيمة لي غيرها تشبه العبد

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة : « ان رجلاً قال يا رسول الله ، إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني ، وأحسن اليهم ويسئثروا لي ، وأحلمُ عنهم ويجهلون عليّ » — فقال : « لئن كنت كما قلت فكأنما تسفهم المثل » (١) ولا يزال معك من الله ظهير عليهم مادمت على ذلك » ، وعن أنس بن مالك ، « ان يهودية أتت النبي ﷺ بشاة مسمومة ، فأكل منها فجاء بها ، فقيل : ألا تقتلها ؟ » — قال : « لا » ، رواه البخاري في صحيحه .

« وحكي أنه بينما قيس بن عاصم ذات يوم في داره ، إذ جاءته خادمة له بسفود عليه شواء حار ، ففرغت السفود من اللحم والقته خلف ظهرها ، فوقع على ابن له قتلته ، فدهشت الجارية ، فقال : لا روع عليك ، أنت حرة لوجه الله ! » .

الحكمة في مبادرة يوسف بالاستغفار لآخوته بخلاف إيهيم

المادة ٤ — تعليقاً على قوله « يغفر الله لكم » : هم لم يقولوا لأخيهيم : استغفر لنا ذنوبنا ، كما سيأتي أن يقولوا لأيهيم ، ولكنه هو بادر بطلب المغفرة لهم من الله ، قبل أن يطلبوا منه ذلك ، وأما أبوهم فمع كونهم ابتدأوا وطلبوا منه استغفاره لهم ذنوبهم ، فلم ييسادر بطلبهم ، وإنما وعدهم بها وعداً مؤجلاً فما الحكمة ياترى في ذلك ؟

والجواب عليه من وجوه :

الوجه الأول — معلوم عند العموم أن قلب الوالد سريع الانعطاف ، وأنه محب لخير بنيهِ بالطبع ، لأنهم مها كانوا فهم أفلاذ كبده ، فلذلك لم يحتج أن يبرهن على ذلك بنحو مبادرته بالاستغفار لهم ، بل آخر ذلك لأمر ما ، ربما يكون فيه خير لأولاده ، بخلاف يوسف ، فهو أخ ، لا أب ، فلذلك أحتاج أن يبرهن لهم على حنانه وعطفه عليهم بسرعة استغفاره لهم ، حتى بدون طلب منهم ، فابوهم لم يكن أقل مغفرة لهم ، وعطفاً من أخيه عليهم ، بل هو أكثر مغفرة ورحمة ولكن اختلف الحال ، لما بيناه في جواب السؤال .

الوجه الثاني — وهو أنه أمسك عن توبيخهم ، وغفر لهم ، وأراد أن يجازي سيئتهم بالحسنة ، فرغب اليهم أن ياتوا باهلهم ليعولهم ، وأعطاهم من نفسه هذا الكرم ، لأنه يرى نفسه حاكماً ، وهم محكومون ، وأميراً ، وهم مأمورون ، وعزيزاً بمصر ، وهم أدلاء ، ومن رجال البلاط ، وهم سوقية ، ووزير ماليه ، وهم فقراء يأسون ، وقوياً ، وهم ضعفاء ، وكان يراهم أصغر في عينيه من أن يأخذهم بذنب ، أو يعتد عليهم بسيئة ، وإن هذه النظرة العذبة ، التي أصبح ينظر بها اليهم ، إنما هي نظرة الرقيق ، التي يلقيها على البائس الضعيف ، الذي يستحق العطف والرحمة ، شأن أصحاب المراتب العالية ، من أرباب الحكومة ، مع أفراد الرعايا ، وقد قيل : « إن الحكم والعفو في الحكم ، من الصفات التي تدل على علو أقدارهم وعظيم سلطانهم » فهذا ما حدا بيوسف عليه السلام أن يبادرهم برفع التوبيخ عنهم ، والاستغفار لهم ، وهذا بخلاف أبيهم عليه السلام ، فإنه ليس من أصحاب المناصب الدنيوية ، بل هو لا يزال من الناس المحكومين ، الذين لا يرون لأنفسهم على غيرهم ما يراه أهل الدنيا من الرفعة والعظمة .

الوجه الثالث — وهو ان يوسف رغباً عنه انه وزير مالية وعزيز مصر ووكيل

مليکها ، فهو لا يزال يتحسس بالخوف من اخوته ، ومن افسادهم عليه حاله ، والمقروض يخاف من جرة الحبلى ، لا سيما وهم اخوته ، فطعنهم فيه أقرب للتصديق من طعن الاجانب فلذلك بادر بطمأنتهم بعدم ثريهم ، والدعاء لهم بالمغفرة ، وبالرغبة اليهم أن يأتوه بأهلهم أجمعين ، يستصلح بذلك قلوبهم ، ويجعل به بينهم وبين ضررهم إياه سداً منيعاً ، ولما كان هذا المعنى غير موجود في أيهم ، لم يحتج الى شيء من هذا القبيل ، بل رغباً عن كونهم تقدموا اليه في استغفار ذنوبهم ، فقد رأيناه آخر الاستغفار لهم ، الى وقت أو مكان أو حال ، ربما يكون الدعاء فيه أقرب للجابة.

الوجه الرابع — افكر يوسف عليه السلام في نفسه أنه ليس بين المتشفي المصر على النعمة ، وبين المظلوم الجبار المستبد ، إلا ستر رقيق وحجاب ضئيل ، ففضل أن يففو عن اخوته ، ولا يثربهم ، بل فضل أن يفقر لهم ، لاسيما وان التجاوز عن أمثالهم من أهل العناصر الطيبة يفيد في حسن حالهم ، كما ان المغفرة لذوي الخسة والدناءة تزيدهم تدياً وطغياناً ، فقد قيل : « إن المفو يفسد من اللئيم بقدر ما يصلح الكريم » وقال الشاعر :

ليست الأحلام في حال الرضا إنما الأحلام في حال الغضب

وقال آخر :

إذا ما امرؤ من ذنبه جاء ثائباً إليك فلم تغفر له فلك الذنب

قيل : لما أُتيَ براهيم بن المهدي الى المأمون شاور وزيره في قتله ، فقال له وزيره : « إن قتلته ، فلك نظراء ، وان عفوت عنه ، كنت الرجل الوحيد ، فعفى عنه .

المفو أشد أنواع الانتقام

الوجه الخامس — وهو ان المفو اشد انواع الانتقام ، وهو مرارة ساعة .

ثم السعادة الى الأبد ، والانتقام لذة ساعة ، ثم الشقاء الدائم الذي لا يَفْنَى ، فلذلك فضل يوسف أن يعفو عن اخوته ، ويصفح الصفح الجميل ، فقال بشفته وقلبه : « لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين » ، وهو حقيق بذلك كله ، لأن القدرة تذهب الحفيظة ، ولعمري لقد جاء عفوه عنهم تركية لا انتصاره عليهم .

أرحم الراحمين

المادة ٥ — تعليقاً على قوله : « وهو أرحم الراحمين » قال صلى الله عليه وسلم : « إنما يرحم الله من عباده الرحماء » رواه الطبراني عن جرير بسند صحيح ، وقال صلى الله عليه وسلم : « الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى ، أرحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء » رواه احمد وابو داود والترمذي والحاكم من حديث ابن عمر ، وقال صلى الله عليه وسلم : « من رحم ولو ذبيحة عصفور ، رحمه الله يوم القيامة » رواه البخاري في الأدب المفرد ، والطبراني عن أبي امامة ، وأشار السيوطي في الجامع الصغير الى صحته .

العدول عن الانتقام الى الغفران فضيلة

المادة ٦ — في العدول عن الانتقام الى الغفران فضيلة عالية ، والعفو عن الناس هو من أسمى العواطف البشرية ، لأن الدين — الذي هو دين الفطرة — يحير المظلوم بين الانتقام ، قصاصاً وتأديباً ، وبين الغفران كرمًا وتكريماً ، ولكنه يفضل الثانية على الاولى ، فالدين يقول في مقام المدح : ﴿ وَالَّذِينَ يَحْتَنِبُونَ كِبَائرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ ، وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ — ثم يقول : — ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴾ ، وجزاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ، فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ، إنه لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ، وَلَمَنْ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ، إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ

الناس ، وَيَسْغُورُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ، وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٢ : ٣٧ - ٤٣﴾ ، ويقول : ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ، أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٤ : ٢٢) ، ويقول : ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ، وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ (٢ : ٢٣٧) ، ويقول : ﴿وَأَنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَسْتَغْفِرُوا ، فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٦٤ : ١٤) ، ويقول : ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ ، أَعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ، الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ، وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ ، وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٣ : ١٣٣) ، قال «سليمان» عليه السلام : «إِنْ مَنْ يَقْدِرُ أَنْ يَمْلِكَ عَنَانُ نَفْسِهِ ، لَهُوَ عِنْدِي أَفْضَلُ مِنَ الَّذِي يَفْتَتِحُ الْمَدْنَ وَالْأَمْصَارَ» ، وقال «جويبر» : «خَيْرُ الْإِنْسَانِ أَنْ يَكُونَ حَاكِمَ قَلْبِهِ مِنْ أَنْ يَحْكُمَ الشُّعُوبَ» .

غفران الاساءة واجب

المادة ٧ - تعليقا على قوله : «يغفر الله لكم» بما ان الله تعالى يغفر لنا الاساءة العظيمة يجب علينا أن نغفر لآخواننا إساءتهم البنا، وإن لم نسامح إخواننا في زلاتهم معنا ، يغضب الله علينا ، ولا يسامحنا بل يعاقبنا ، فقد قيل : «إِنْ لَمْ تَغْفِرُوا لِلنَّاسِ زَلَاتِهِمْ لَا يَغْفِرَ اللَّهُ أَيْضاً لَكُمْ زَلَاتَكُمْ» ، قال تعالى : ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ، أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٤ : ٢٢) ، وقال تعالى : ﴿قُلِ الَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ ، لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٤٥ : ١٣) ، فالله تعالى مع كثرة رحمته شديد العقاب ، فالإيمان الذي لا يكون مصحوباً بالحبّة والمسامحة ليس بإيمان كامل ، ليس هو إيمان أهل البر ، ليس هو إيمان أهل الخير والتقى ، فأبواب السماء مغلقة في وجه القساة ،

مغلقة في وجه الذين يحبون الانتقام لأنفسهم ، من حيث انه انتقام فقط ، لا لمة اخرى ، مغلقة في وجه أهل الحقد والتشديد ، مغلقة في وجه من يطلب من الله المسامحة وهو لا يسامح إخوته .

من تاب غفر الله له

المادة ٨ — تعليقاً ايضاً على قوله : « يغفر الله لكم » : حصول المغفرة لهم أمر طبيعي ، لأنهم تابوا وأنابوا واعترفوا بما اقترفوا ، وإذا كان الله تعالى يغفر للكافرين إذا تابوا كما قال : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِن بَنَتُوا لَهُمْ مَقَدَ سَلَفٍ ﴾ (٣٩:٨) فالؤمن أولى بالمغفرة متى انتهى ، وقال تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاؤُكَ فَاسْتَغْفَرُوا ، وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ ، لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴾ (٦٣:٤) ، وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سِوَاءَ ذَلِكَ يَنْظُرْ نَفْسَهُ ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ ، يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (١٠٩:٤) ، فهذه الآيات الكريمة ، ومآلها مما هو كثير ، تدل دلالة واضحة على أن الله تعالى بمجرد توبة اخوة يوسف قد غفر لهم ، أي غفر لهم حقه تعالى ، ومعلوم ان يوسف — وفي ضمنه بنيامين — قد غفر لهم أيضاً حقه ، فما بقي إلا حق أبيهم ، وسيأتي له أن يسامحهم.

ما هو الجزاء الذي وقع على اخوة يوسف حتى غفر الله لهم

وهنا أتذكر أنني كنت سئلت سؤالاً صورته :

ان الجزاء أثر طبيعي للعمل ، إن خيراً ثواب ، وإن شراً عقاب ، وإن الله بعيد عن المحابة : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (٨٩:٧) ، فهل يازى وقع الجزاء لاختوة يوسف ، حتى نالوا هذه المغفرة عند اعترافهم بالخطأ ، مع أن الأعمال التي خطئوا بها إلى

الله وإلى أبيهم وأخوتهم رهية ورهية جداً؟ هذا مأسائي عنه نبيل وذكي من الطلبة ، فاجبته بما صورته :

إنهم بتكذيب أبيهم لهم ، إذ قال : ﴿ بل سولت لكم أنفسكم أمراً ﴾ ، وبما ضيق عليهم يوسف في سفرتهم الاولى إذ قال لهم ﴿ فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون ﴾ ، وبما تربهم أبوم إذ قال : ﴿ هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل ؟ ﴾ ، وبما شدد النطاق عليهم إذ قال : ﴿ لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله لتأنتني به إلا أن يحاط بكم ﴾ ، وبما سرقوا حين قيل لهم : ﴿ أيها العير إنكم لسارقون ﴾ ، وبما كذبوا حين قيل لهم : ﴿ فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ؟ ﴾ وبما سقط في أيديهم ، وكأنا صب من فوق رؤوسهم الحميم ، وخجلوا أمام المتارين ، وأمام المصريين وأهل البلاط ، إذ استخرجت السقاية من وعاء أحدهم ، بعدما كانوا يقاومون هذه التهمة ، أشد المقاومة ، وبما أنهم رُدُّوا وخيِّبوا ، ولم تنجح مساعيهم ، ولم تقبل شفاعتهم ، حين قال لهم أخوهم : ﴿ معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ﴾ ، وبما أنهم وقعوا بذلك في اليأس والحرج ، وهم ضرباء والوقت وقت جوع ، وعيالهم في انتظارهم على أحر من الجمر ، وبما أن « رأوين » أنبهم ، وذكرهم بما بُجِّروا معهم أبيهم ، وذكرهم بسابق عملهم مع أخيه ، فقال لهم : ﴿ ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ؟ ومن قبل ما فرطتم في يوسف ؟ ﴾ وبما أن أباهم قد عاد فكذبهم في أن بنيامين سرق ، ونسب اليهم في ذلك دسيسة ومكرراً ، فقال : ﴿ بل سولت لكم أنفسكم أمراً ﴾ مع أنهم لم يكن لهم هذه المرة دسيسة ولا مكر وبما أنهم وقفوا بين يدي أخيه ، ضارعين مستكينين ﴿ قالوا : يا أيها العزيز ، مسنا وأهلنا الضر ، وجئنا ببضاعة مزجاة ، فأوف لنا الكيل ، وتصدق علينا ، إن الله يجزي المتصدقين ﴾ ، وبما أنهم عوتبوا ووصفوا بالجهالة ، ولم يسعهم إلا السكوت ،

ساعة أن قال لهم أخوهم : ﴿ هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ؟ ﴾
وبما لحوا من طرف خفي الإشارة من أخيم إلى براءته منهم ، واتسابه لبنيامين
فقط ، إذ قال لهم : ﴿ أنا يوسف وهذا أخي ﴾ وبما أنهم سمعوا التعريض بهم
أنهم لم يكونوا من أهل التقوى والصبر ، إذ يقول أخوهم أمامهم :
﴿ إنه من يتق ويصبر ، فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ ، وبما رأوا من حرج
الموقف الذي اضطربهم أن يعلنوا اختيار الله لأخيم دونهم ، وأنهم أئمة
خطاة ، إذ قالوا : ﴿ ربنا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين ﴾ ، ونظم لذلك
ما كانوا يرزأون به في مدة ٢١ سنة ، من عدم توجه أبيهم إليهم وحنقه عليهم ،
وأصف لذلك جميعه ما كان يعتريهم كل حين من توبيخ ضماثرهم لهم ، ولوم أنفسهم ،
إياهم ، وتمرمر معيشتهم ، فيحلول هذه التوازل عليهم ، وصباهوق رؤوسهم ، علم
أخوهم يوسف عليه السلام أنهم قد استوفوا جزاءهم جزاء وفاقاً ، وأنهم لم يبق
عليهم ما يؤخذون به ، سوى الاعتراف ، فلما اعترفوا قال لهم : ﴿ اليوم يغفر
الله لكم ، وهو أرحم الراحمين ﴾ هذا هو الجواب ، والله الملهم للصواب ، فان
أصاب المحز ، فمن نعمة الله الوهاب ، وإلا فما أنا أول واهم من بني آدم .

المغفرة والعفو والفرق بينهما

المادة ٩ - تعليقاً ثالثاً على قوله : ﴿ يغفر الله لكم ﴾ : المغفرة من الغفر ، وهو
لغة الستر ، وستر الذنب بعدم الحساب والعقاب عليه — لا ينافي بقاء أثر خفي له ،
وأما العفو فهو ذهاب الأثر بالمرّة ، فالعفو عن الذنب ، جعله كائن لم يكن ، بأن
لا يبقى له أثر في النفس ، لا ظاهر ولا خفي . وبناء على هذا فالعفو لغة أبلغ من
المغفرة ، وإنما عبر يوسف بالمغفرة دون العفو مع أنه أبلغ ، لأن إخوته لا يطمعون
في أكثر من أن يستر الله ذنوبهم في الآخرة بعدم الحساب والعقاب ، ومع كل هذا
فالفرق بين اللفظين لغوي فقط ، وأما النتيجة فهي واحدة تقريباً .

المغفرة في التلمود والانجيل

المادة ١٠ — جاء في « التلمود » أن شريعة بني إسرائيل توجب على النساء اليه أن يغفر للمسيء لحد ثلاث مرات ، لأن الإنسان عرضة للخطأ ، وأوسع منه ما جاء في « الانجيل » هكذا : ﴿ وإن أخطأ اليك أخوك ، فاذهب وعاتبه بينك وبينه وحدكما ، فإن سمع منك ، فقد ربحت أخاك ﴾ (مت ١٨: ١٥) ، وفيه انه مسئل المسيح : ﴿ كم مرة يخطيء اليّ أخي وأنا أغفر له ؟ هل الى سبع مرات ؟ — فقال المسيح : لا اقول لك الى سبع مرات ، بل الى سبعين مرة سبع مرات ﴾ (مت ٢٢: ٢١ و ٢٣)

فينبغي للبريء المظلوم أن يسعى في إصلاح الحال بتكلمه بلطف مع ظالمه ، وتبيينه له خطأه ، بدل أن يشكو الى الغير ، او ينتقم منه ، او يحقد عليه ، فيبقى العداوة له في قلبه ، وينبغي ان تكون المعاتبة سراً ، لأنه إذا عاتبه امام الناس اغتاز منه ، او استحى بأن يقر امامهم بأنه اخطأ ، فيجتهد في تبرير نفسه ويقسو بذلك قلبه ، مع انه إذا انفرد به سهل عليه ان يقنعه بالحق ، وينبغي ان يكون العتاب بلطف وحكمة ، وروح الوداعة ، والا اتسع الخرق على الراقع ، وُعمّق الجرح بدل ان يبرأ ، وصُب الزيت على النار ، بدلاً من ان يصب عليها الماء .

العبرة بالخواتيم

المادة ١١ — اذا تأمل الانسان في حوادث الدهر ، وجدها سلسلة متصلة الحلقات ، كل حادثة منها وُلدت من اخرى ، لولاها لم تولد ، وبدونها لم توجد ، ورآى الخير آتياً من صلب الشر ، والشر نازلاً من صلب الخير ، حتى ينتهي الأمر بأنه يُحكم بعدم وجود خير محض ، ولا شر محض ، وبأنها أمور نسبية ، وينبغي أن يضع نصب عينيه ، ان ما يراه اليوم مصيبة ، قد يضمن في الغد سعادته ، وان

ما يراه سعادة ، ربما يكفل له فيما بعد شقاوته ، فالأمور بخواتيمها ، والحوادث يحكم عليها لا بصدورها ، بل بأعجازها .

فصول حوادث الحياة وتطبيقها على يوسف

المادة ١٢ — تتألف حوادث الحياة من ثلاثة فصول : فصل الأمل ، وفصل الجهاد ، وفصل الفوز ، فرؤيا يوسف وأحلامه وبشرى أبيه له يمثل الفصل الأول ، وصبره في غيابة الحب وعلى استرقاقه وعبوديته وعن شهوته البدنية وفي سجنه ، يمثل الفصل الثاني ، وفوزه برقيه على أريكة الوزارة بمصر وباتتصاره على زليخا والنسوة المصريات وعلى إخوته ، وبإتيان أبيه وأخيه وسائر أهله يمثل الفصل الثالث .

الطريقة المثلى في المسامحة

المادة ١٣ — هذه الطريقة التي جرى عليها يوسف في مسامحة إخوته هي الطريقة المثلى التي مشى عليها وأوصى بها العقلاء من الناس .

قال الشاعر : (١)

صديقك لم تلق الذي لاتعاقبه	إذا كنت في كل الأمور معاتباً
مقارف ذنب مرة ومجانبه	فعش واحداً أو صل أخاك فانه
ظمئت وأي الناس تصفومشاربه؟	إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى
كفى المرء نبلاً أن تعد معاييه	ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها

وقال غيره :

تريد مهذباً لا عيب فيه وهل عود يفوح بلا دخان ؟

وقال غيره :

لابد للكمال من زلة تخبره أن ليس بالكمال
وقال غيره :

قلقت لها يا عَزَّ كل مصيبة إذا وطنت يوماً لها النفس ذلتِ
وقال غيره :

وما قتل الأحرار كالمفوء عنهم
وقال غيره :

إذا اعتذر الجاني عما المذر ذنبه وكل امرئ لا يقبل العذر مذنب
وقال غيره :

أحمد بملك ما ذكبه ذو غلط من نار غيظك واصفح إن جنى جاني
فالحم أفضل ما زدان اللبيب به والأخذ بالمفوء أحلى ما جنى جاني

اسباع النعمة على اخوة يوسف

المادة ١٤ — رأى يوسف أن هذا اليوم هو يوم أسبغت عليه فيه النعمة بمن خوقه ، فناسب أن ينعم هو على من هو دونه ، وأيضاً إن الخصام مع الناس ، لاسيما الأقارب ، لا ينبغي أن يتأدى ويطول ، بل يجب البت فيه ولو بخسارة ، فإن الهم الذي يقلق كثيراً ، إنما هو الهم الحاضر الراهن ، أما الماضي فإن الظروف الجديدة تُعَفِّيه ، والنجاح الجديد يزيل أثره ، فلذلك رأى يوسف عليه السلام أن يسدل الستار على ميدان المعركة الحزبية ، ولم يرد أن يبعث من القبر جثة عفنة ، دفنت من زمن بعيد ، ولم يقض لها بالبعث والنشور ، وبذلك صارت قضية يوسف ناجحة موقفة ، قد استجمعت عناصر الفوز والظفر . (مرحي)

قبص البشارة

آ (٩٣) * ... إذهبوا بقميصي هذا ، فألقوه على وجه أبي
يأت بصيراً ، واثثوني بأهليكم أجمعين ! *

الجلسة وتليت الآية الثالثة والتسعون ، فقام السيد
الغبرائي (١) وقال :

(اذهبوا بقميصي هذا ...)

— ١ —

تحقيق عما هو هذا (القميص) وعن كلمة (بصير)

أنا هنا لأحب أن أعود إلى أقوال مفسري هذه الآية الكريمة ، ولكني
أحب أن أجتهد في أن أصل إلى تفسر جديد ، أحب ان احدث السامعين الكرام
بصراحة وامانة وصدق ، أحب ان اكشف لهم عما كان يختلج في ضميري منذ
القديم في التحقيق عن هذا « القميص » وعن كلمة « بصير ».

« القميص » هو كسوة رسمية

هذا القميص هو « ثوب بوس » أي كتان ، ذو شارات مخصوصة وهو كسوة
رسمية ، لا يقدر أن يلبسها كل شخص ، وهذا القميص كان ملك مصر « الريان »
ألبيه يوسف يوم أقامه وكيلاً عنه ، ويان ذلك : أن يوسف لما خرج من السجن
وقف بين يدي الملك الريان وكله يوسف بكلام يشف عن قوة عقل وغزارة علم ،

(١) نسبة الى بلدة ميت غمر في القطر المصري .

فقال الريان له : « إنك اليوم لدينا مكين أمين » - فقال يوسف عليه السلام : « اجعلني على خزائن الأرض ، إني حفيظ عليم » - فقال الملك لشوراه : « هل نجد مثل هذا رجلاً فيه روح الله » ، أي رحمة وإلهامه وقوته ، ثم قال الملك ليوسف : « بعد ما أعلمك الله كل هذا ، ليس بصير وحكيم مثلك ، أنت تكون رئيساً في البلاط ، تكون ثانياً في المملكة ، بمنزلة ملك ثان ، فيطيعك شعبي حتى يعمل بكل حكمة تقوه بها بأوامرك ، انظر قد جعلتك على كل أرض مصر وخزائنها وغلاتها » . وخلص الملك خاتمه من يده ، وجعله في يد يوسف عليه السلام ، وكان هذا الخاتم تحتم به الأوامر ، فكان يوسف بذلك كالملك ، ثم ألبسه « الريان » قميص بوص . ووضع طوق ذهب في عنقه ، ومعنى « بوص » كتمان بقي أبيض ، وكان هذا ملبوساً رسمياً ، امتاز به الملوك ، وأكابر البلاط والكهنة ، ثم أركبه مركبته . الثانية ، ونادوا أمامه : « اركعوا » « ابركوا » ، وأتى الملك هذا الاحتفال . ليبين لقومه أن يوسف عليه السلام صار حاكمهم في الدرجة الثانية ، لأن الملك الريان كان في مركبة تجري به ، وتجري وراءها مركبة أخرى ليوسف ، فهذا « القميص » متى وصل سيدنا يعقوب ، عليه السلام ، علم أن ابنه زيادة عن أنه حي . قد صار من رجال البلاط بمصر ، ومتى وقف على هذا الرمز ، عرف ما هي درجة ابنه ومنزلته في البلاط الملوكي ، وبَصُرَ بحاله ومآله ، إذ لا بد أن يعقوب عليه السلام يعرف أن هذا النوع الرسمي من الأقنعة خصيص بأعظم رجال الحكومة والكهنة ؛

وما أشبه هذه الحادثة بحادثة صبي بدوي فارق أهله منذ سن الحداثة بلباس البداوة ، وانقطعت عنهم أخباره ، لا يعلمون أحيى هو أو ميت ، ولا يعلمون عنه شيئاً ، ولكنهم كانوا يترجون حياته ، ثم بعد عشرات من السنين ، أرسل ساعياً يوسف م - ٧٩ .

لأهله يطمنهم بحياته وسلامته، ويذكر لهم رتبته في الحكومة ، ودرجته في البلاط الملكي ، وعلامة لذلك ، ولزيادة البشارة قوة واعتباراً ، أرسل معهم لباساً من ألبسة الحكومة الرسمية ، التي يدل طرازها ، ويشير شكلها الى أن صاحبها ترقى الى درجة كذا من درجات رجال العسكرية أو المدنية ، أو الدرجات الدينية ، هذا هو المعنى المألوف قديماً وحديثاً ، المتبادر عرفاً ، الذي يساعده نقل المؤرخين ، (انظر تك ٤١ : ٤٢) مع شرحه « السنن القويم » ، هذا هو القميص الذي تَبَصَّرَ به سيدنا يعقوب حياة ولده ، وعلم به حاله ودرجته في الحكومة .

« البصير » هو العالم علماً قلبياً

إن ماسبق هو تحقيق معنى « القميص » وأما تحقيق معنى « بصير » فقد قال في المصباح : (أَبْصَرْتُهُ بِرُؤْيَا الْعَيْنِ إِبْصَاراً ، وَبَصُرْتُ بِالشَّيْءِ بَصَرًا : عَلِمْتُ فَأَنَا بَصِيرٌ بِهِ ، وَهُوَ ذُو بَصَرٍ وَبَصِيرَةٌ أَيْ عِلْمٌ وَخَبْرَةٌ) ، وقال في الأساس : (بَصَرٌ بِمَعْلَمٍ : صَارَ عَالِماً بِهِ ، وَهُوَ بَصِيرٌ بِهِ وَذُو بَصَرٍ وَبَصَارَةٍ ، وَهُوَ مِنَ الْبُصَرَاءِ بِالتَّجَارَةِ ، وَبَصَرْتُهُ كَذَا وَبَصُرْتُهُ بِهِ ، عَلِمْتُهُ إِيَّاهُ ، وَرَبَّتُ فِي بَسْتَانِي مُبَصَّرًا : أَيْ نَاطِرًا ، وَهُوَ الْخَافِظُ) ، وقال في المختار : (أَبْصَرَهُ : رَأَاهُ ، وَبَصُرَبَهُ : عَلِمَهُ ، وَبَابُهُ ظَرْفٌ فَهُوَ بَصِيرٌ) ، وفي القاموس : (الْبَصَرُ حَرَكَةٌ : حَسَّ الْعَيْنُ ، وَالْجَمْعُ أَبْصَارٌ ، وَمِنْ الْقَلْبِ نَظَرُهُ وَخَاطَرُهُ ، وَمِنْ مَعَانِي الْبَصِيرِ الْعَالِمُ) وفي لسان العرب : (الْبَصِيرُ الْعَالِمُ ، قَالَ معاوية : الْبَصِيرُ خَيْرٌ مِنَ الْأَعْمَى) .

فنعلم من مجموع هذه النقول ونحوها من أمهات كتب اللغة الموثوقة أنه يقال : (أَبْصَرَ يُبْصِرُ إِبْصَارًا فَهُوَ مُبْصِرٌ ، وَهَذَا فِيمَا كَانَ بِرُؤْيَا الْعَيْنِ : وَيُقَالُ : بَصُرْتُ يُبْصِرُ بَصَرًا فَهُوَ بَصِيرٌ ، مِثْلُ كَرَمٍ يَكْرُمُ كَرَمًا فَهُوَ كَرِيمٌ ، وَهَذَا فِيمَا كَانَ بِرُؤْيَا الْقَلْبِ ، وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى : هُوَ بِمَعْنَى الْعِلْمِ ، وَجَمْعُ مُبْصِرٍ مُبْصِرُونَ :

أي بالعين ، وجمع بصير بُصَرَاءُ : أي بالقلب ، وتأنث مُبْصِرٌ (بالعين) مُبْصِرَةٌ كما أن تأنث بصيرٍ (بالقلب) بصيرة ، وأما البَصَرُ محرّكة فجمعه أَبْصَارٌ ، سواء أكان حس العين أو بالقلب ، وكما يجمع على بُصَرَاءٍ يجمع على بصيرين ، وهو ما كان من قبيل العلم والمعرفة بالقلب ، وأما مُبْصِرٌ فجمعه مُبْصِرُونَ وهو ما كان بالعين . وأنتم تعلمون أن « بصيراً » صفة مشبهة ، والصفة المشبهة لاتصاغ قياساً إلا من فعل ثلاثي لازم ، وشذّ نذير من أنذر ، (فبصيراً) هو مشتق من بَصُرَ ، أي بالقلب ، لا من أَبْصَرَ : أي بالعين ، ما من ذلك بد ، وأما قول بعض اللغويين (والبصير ضد الضرير) ففيه تساهل وبعد عن التحقيق ، وأظن أن الذي دفعهم لهذا التعبير إرادة السجع .

ولم يرد في كتاب الله تعالى استعمال لفظ (مُبْصِرٌ) إلا وهو من معنى الرؤية بالعين ، كما لم يرد فيه استعمال لفظ (بصير) إلا وهو لدى التدقيق بمعنى العلم بالقلب ومنه قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ ، لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى ، وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴾ (٢٠ : ١٢٥) فاعمى أي عن حجته ، وقد كان في الدنيا بصيراً بحجته فيما يزعم إذ كان عنده شبه حجة بحسب تصوّره ، فاعمى ههنا بمعنى جاهل ، وبصير بمعنى عالم وكذا لم يرد في القرآن الكريم استعمال لفظ (أبصر) إلا بمعنى رأى بعينه ، وأما قوله تعالى : ﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ بِأَيْسَرِ الْفِتْنُونَ ﴾ (٦٨ : ٦٩) فمعناه : فسترى يا محمد ويرون يعني أهل مكة إذا نزل بهم المذاب بأيسر الفتون ؟ قاله البغوي في تفسيره ، أي سترى ويرون الأسباب المشاهدة التي يتبين منها من هو المفتون ، أو يقال عبر بالإبصار مبالغة ، إشارة إلى أن هذا الشيء الذي سيمهون به واضح جلي جداً ، كأنه محسوس بالنظر .

وكذا لم يرد في كلامهم استعمال (بَصُرَ به) إلا بمعنى العلم بالقلب ، ومنه ما حكى عن السامري : ﴿ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ﴾ (٢٠ : ٩٦) أي

علمت مالم يعلموا وأدركت مالم يدركوا ، وهذا هو المعنى الصحيح على التحقيق الذي ذهب إليه أبو مسلم الأصفهاني في معنى الآية ، وأما قوله تعالى : ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ ﴾ (٢٨ : ١١) فلما كان الابصار فيه بالعين من طريق المخاطلة والتجاف والازورار كان كأنه ليس نظراً بالعين ، بل علماً بالقلب ، فلذلك عبر فيه بالفعل الثلاثي ، على أن (بَصُرَتْ بِمَالٍ يُبْصِرُوا بِهِ) و (بَصُرَتْ عَنْ جُنُبٍ) ليسا فعلين لازمين ، « بل هما متعديان بمعنى الإبصار ، ففي إعاء اللهفان : (بَصُرَ بِهِ وَأَبْصَرَ ، يُعْدَى بِالْبَاءِ تَارَةً ، وبالحمز أخرى) .

إذا علمت كل هذا علمت أن لفظ (بصير) في قوله تعالى ﴿ يَأْتِ بِبَصِيرٍ ﴾ يَعْرِىَ بِصِيرٍ بحال ولده يوسف ، كقولك يحيى البناء محكماً ، بمعنى بصير ، ويشهد له (فارتد بصيراً) أي صار بصيراً ، ولا يجوز لغة تفسير لفظ (بصير) ببصر ، لاختلافها في المعنى اختلافاً واضحاً ، لأن (بصيراً) كما قلنا صفة مشبهة من بَصُرَ بمعنى علم ، وهو ثلاثي لازم ، وبابه كظُرفَ ، وأما (مُبْصِرٍ) فهو اسم فاعل من أَبْصَرَ : بمعنى رأى بعينه ، وهو رباعي متعد وبابه كأكرم ، فيبينها في اللغة فروق متعددة ، وكما لا يجوز تفسير (بصير) بِمُبْصِرٍ من حيث الالفة ، فلا يجوز أيضاً تفسيره به من حيث الشريعة ، لأن المعنى لا يجوز على أنبياء الله ومظاهر أمره لأنه من الداآت المنفرة لطبائع الجمهور والأنبياء منزهون عن كل منفر للطبيعة ، هذا ما أراه في تفسير كلتي « القميص » و « بصير » ولست أباي أن أجهر برأى مادمت أعتقد أني على حق ، وأما من يكلفني أن أمشي على فكر غيري ، فاني اسف على عدم استطاعتي امتثال أمره ، أسنى على إهماله مداواة نفسه .

يعقوب بصير عالماً قلبياً بحال ابنة يوسف

إذا تقرر هذا يكون معنى الآية الكريمة هكذا : قال يوسف لاختوته :

﴿الْوَحَىٰ الْوَحَىٰ﴾، والنجاء النجاء ﴿قوموا يعموا شطر فلسطين، اوغلوها في السير، انتجعوا﴾ (قرية اربع) او «سيلون»، (إذهبوا بقميصي هذا) الذي يمثل الوظيفة والزلفى من التاج، وهو القميص الرسمي الحكومي، قميص «البوص»، ذو الشارات المخصوصة، الذي لا يلبسه الا كبراء رجال البلاط والكهنة، ولا يقدر أحد أن يلبسه سواهم، القميص الذي البسني إياه مليك مصر «الريان»، يوم ما ولاني «الصدارة» العظمى والوكالة العامة عنه، وجعلني على خزائن أرض المملكة الهكسوسية، و«عزيزاً» بالديار المصرية - فما هو الا أن أمر يوسف بعض فتيانه أن يذهب لقصره، ويأتي له من مشجبه بقميص اعتيادي غير رسمي، ثم نضا عنه قميصه الرسمي، ولبس ماتي به اليه وسلمه يوسف لاختوته مؤقناً، ليراه أبوه ثم يرجعوه معهم - ثم قال لهم :

(فألقوه) أي أطرفوه وعرضوه (على وجه أبي) المتضمن ذلك اللقاء على عينيه، حتى يراه، فمضى رآه وعرف حقيقة حالي ومركزي (يأت) أي يصير (بصيراً) عالماً وعارفاً بما أنا عليه في دار الحكومة المصرية، فاهماً كل شيء بوضوح وجلاء، واقفاً على ما كان قد خفي عليه، مكتشفاً لما انطوى عن إدراكه وبصيراً ههنا مقابل جاهلاً - ثم قال يوسف لاختوته : واسرعوا الكرة (واثنوني بأهلكم) زوجاتكم واولادكم وإمائكم (اجمين) لكي تظفروا بنعمة العيش في ظلال حكومة مصر، وتساووا أهلها في مظاهر الحياة .

واما اختوته فسمعوا هذه المقالة منه، فخلت على نفوسهم المعذبة يا كان من تقاطع وتباغض برداً وسلاماً، والتفت حولها قلوبهم، واكبروا صدورهم عن كانوا آذوه وشردوه، واخيراً سعوا اليه حين احتاجوه .

(اذهبوا بقيضي هذا ...)

— ٢ —

وقام الطبيب بن الحارث وقال :

تفسير (يأت بصيراً) يعني « مبصراً بعينه »

أرى أيها السادة الأكارم انه يحسن بنا أن نفسر جملة « يأت بصيراً » « يعني » بمعني « لأن الحوادث الجسام التي مرت بسيدنا يعقوب عليه السلام ، والمؤثرات النفسانية والانفعالات الروحية المفاجئة التي اصابتها أدت الى فقد حس الرؤية عنده ، كما ستؤدي إلى عودة هذا الحس له عند مفاجأته بالقاء القميص الرسمي لولده يوسف على وجهه .

والطب الحديث يؤيد هذا الرأي ، إذ يوجد فيه حالة مرضية تدعى « العمى الروحي او النفسي » تحدث بتعرض الأشخاص إلى صدمة تأثرية — فرح أو حزن — مفاجئة ، وتؤدي إلى فقد الذاكرة البصرية عندهم ، كما تعود لهم هذه الذاكرة بصدمة تأثرية مفاجئة أخرى — فرح أو حزن .

وهذا ما حصل لسيدنا يعقوب عليه السلام ، إذ أنه فقد ذاكرته البصرية بسبب صدمة الحزن التي فوجيء بها حينما بلغه اولاده نبأ اختراس الذئب لولده يوسف ، ثم عادت له هذه الذاكرة بسبب صدمة الفرح التي فوجيء بها حينما اتى اولاده بقميص يوسف الرسمي والقوه على وجهه .

وعلى ذلك يمكن ان نشرح جملة « يأت بصيراً » يعني « الي » وهو مبصر بعينه ، سليم من كل مرض فيها ، بريء مما كان اعتراها من ايضاض او فقد حس الرؤية بمجرد القاء « قميصي » على وجهه ، بسبب فرحه وسروره بوقوفه على حياتي وعلى مركزي ، إذ انه بملامسة قميصي كأنما لامس شخصي — ولا بدع

في كون الحب يبرأ من مرضه بملامسة اثر محبوبه — وعليه فكلمة « بصير » تكون مقابلة لكلمة « اعمى ».

هذا مافتح به الرحمن علي ألقينه على مسامعكم الثريفة والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وهنا قال رئيس المؤتمر : هذا كلام خطيبينا السيد الغمراوي والطبيب بن الحارث نتركه الان على علاته ، ومن غير تحليل له أو إبداء رأي فيه ، كما يتطلبه الحياد التام مني ، وأترك حق الحكم فيه لمن يسمع ومن يقرأ فقط .
(قالون)

(اذهبوا بقيصى هذا ...)

— ٣ —

وقام مولانا عبد الحي الدمياطي وقال .

تأويل « القميص » بالربة العالية

سادتي : قبل كل شيء إني احبذ ما فهمه السيد الغمراوي في كلمتي « قميص » و « بصير » ، ولكن هذا لا يمنعني من أن أفهم في لفظ « القميص » وحده فيها ثانياً على وجه الاحتمال ، وتقريره هكذا :

يقولون : « من قمصك هذا القميص ؟ » أي من جمالك في هذه الدرجة والرتبة العالية ؟ وفي الحديث الصحيح خطاباً « لعثمان » رضي الله عنه « إن الله سيقمصك قميصاً » ، أي سيلبسك لباس الخلافة ، كما في القاموس وشرح الصحيح ، وقد روينا في سنن ابن ماجه : « ياعثمان ان ولائك الله هذا الأمر » فأردك المناقون أن تخلع قميصك الذي قمصك الله فلا تخلعه » ، وفسر شراحه هذا القميص بالخلافة ، وفي نهج البلاغة : « لقد قمصها ابن أبي قحافة » وهو يعلم أن محلي منها ، محل

القطب من الرحي » ، واستشهدنا بهذا القول ، لا يعني اننا نعتقد انه صح عن علي كرم الله وجهه ، ولكننا نريد منه ان هذا النوع من الاستعمال وارد في اللغة العربية . وإذا قلنا إن علياً (رض) قاله ، قلنا : إنه قاله على وجه الاجتهاد ، والاجتهاد يحتمل الإصابه وغيرها ؛

والمقصود من خطبة بالمداين بعد قتل أبي مسلم : « إن من نازعنا عروة هذا القميص ، أجززناه خيئة هذا الغمد » .

وقد كان رجل اسمه « شبنًا » وكيلًا على قصر الملك « حزقيا » في مملكة بني اسرائيل الجنوبية ، وقد كان أنذره الله تعالى بقوله بلسان النبي « أشعيا » : « أطرذك من منصبك ، وأدعو عبدي « الياقيم » وألبسه ثوبك » وأجعل سلطانك في يده » (اش ٢٢ : ١٩ - ٢١) ، ومعنى « ألبسه ثوبك » أقيمه على قصر الملك « حزقيا » عوضاً عنك ، فيكون لابساً ثوب السلطة على قصر الملك .

فتعلم من مجموع هذه النقول ان إطلاق « القميص » أو « الثوب » على المنصب الجليل اصطلاح معروف في اللغة العربية كما فيما قبلها من اللغة العبرية ؛ إذا تقرر هذا « فالقميص » ههنا هو أمر معنوي ، وهو « وزارة المالية » ، في مملكة مصر ، أو هو « الوكالة المطلقة » عن مليكها ، أو هو كونه « عزيزاً بمصر » فان يوسف عليه السلام كان حائزاً على هذه المناصب كلها ؛

انتقاد تأويل « القميص » بالرتبة العالية والرد عليه

وأذكر ان طالباً من بلدي « دمياط » كان مسافر للأزهر الأنور بمصر لتكميل تحصيله ، فنقل عني لبعض علماء الأزهر ، أني أذهب الى هذا الفهم الاحتمالي في كلمة « قميص » ههنا ، فكان هذا العالم أنكر هذا الاحتمال ، وأرسل اليّ رقيباً في البريد يحتاج عليّ فيه بتفسير المتقدمين ، وليس هذا الانكار لشيء سوى أنني خالفت

فيه كلام المفسرين الذين قالوا ، في تفسير هذا « القميص » ، إنه القميص المتوارث الذي كان في تعويد يوسف ، وكان من الجنة ، أمره جبريل عليه السلام أن يرسله اليه فإن فيه ريح الجنة ، لا يقع على مبتلى ولا مقيم إلا عوفي ، ويؤسفني انه فات هذا الفاضل ان التفسير ليس وفقاً على ناص دون آخرين ، وليس هو سلعة تباع وتشترى ، أو أن هذه السلعة ملك لقوم دون سواهم ، فلا يجوز أن تعرض في حانوت غير حانوتهم ، بل ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، وان القميص الذي أنزله المفسرون من الجنة ، لم يسندوه الى حديث أو رواية صحيحة عن صحابي أو نحوه من التابعين ممن يوثق بنقله ، ولعمري إن هذا القميص ، بالصورة التي ذكرها المفسرون فهو من أبعد البعيد ، ولا يصدقه الا من يصدق تمثال « الزر زور » الذي في « رومة » . هذا وأرجو أن يحمل كلامي على حسن النية ، وحب الحقيقة ومع ذلك فلست أقول إن تفسيري « القميص » بما ذكرته هو الصحيح وما ذكره المفسرون هو باطل - حاشا - فإني إنما ذكرت ما ذكرته على وجه الاحتمال مع إمكان صحة ما سواه ولو بعيداً ، وإني لا أبغي هدم القول القديم ، قبل تأسيس الجديد وقبوله عند أولي النظر ، نعم إنني لا أهدم بيتي العتيق إلا إذا وجدت لي مسكناً جديداً صالحاً للسكنى فيه ، وعلى كل حال ، فأرجو من هذا العالم الفاضل أن لا يؤأخذني اذا رأي قد خالفت ساداتنا المفسرين في رأي رأوه ، فإن الذهاب الى الحق هو فوق الأدب معهم ، وان « بروتوس » كان يقول : « إنني أحب قيصر ، ولكن رومية أحب إلي » ، وان مذهبي في تفسير القميص يعبر عن رأي خاص يتحمل كاتبه وناشره مسئوليته ، وأما قارئوه وسامعوه فلا يتحملون منه شيئاً ؛

وقبل الفراغ من هذا البحث أرجوكم أن تذكروا ماقاله أحد الأئمة وهو الإمام أحمد بن حنبل (رض) : (ثلاثة لا أصل لها : التفسير والملاحم والمغازي) ولا ينبغي عليكم قدر أحمد في العلم .

تفسير (القميص واللقاء والوجه) بأمر معنوي من باب الاستعارة وترسجتها

ثم أذكر إن جماعاً من طلبة الأزهر المجيد أرسلوا أيضاً إلي كتاباً في البريدي يقولون فيه إن تفسير «القميص» بالنصب، وهو أمر معنوي لا يتلائم مع قوله بعد : (فألقوه على وجه أبي) فلذلك كنت أرسلت لهم الجواب بأن هذا «القميص» في عبارة سيدنا يوسف . استعارة مصرحة أصلية جارية في الأسماء ، وقوله ﴿ اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي ﴾ ترشيحات لهذه الاستعارة ، كما في : «بصق في وجهه» بمعنى استخف به ، كما قاله صاحب الأساس ، فليس هناك بصق حقيقي ، ولا وجه مبصوق فيه ، وإنما المراد الاستخفاف فحسب ، وكذلك يقال فيما نحن فيه : «ليس هناك قميص حقيقي» ، ولا وجه ملقى عليه ذلك القميص وإنما المراد بجملة «فألقوه على وجه أبي» ، أعلموه بحالي وعرفوه بمنصبي ، وأحيطوه علماً بما أنا عليه .

وحيث أن هؤلاء الطلبة السائلين أو المستشكلين كانوا أربعة عشر شخصاً ، أتيت بأربعة عشر شاهداً ، هي نظائر لهذه الآية الكريمة لتكون هذه الشواهد على عدد السائلين واليك بيانها :

١ — قول زهير الشهير :

لدى أسد شاكي السلاح مُقَدَّفٍ له لبد ، أظفاره لم تقلم
فقوله «مقدف» أي مرمي بالحجم ، و«له لبد» و«أظفاره لم تقلم» ترشيحات ثلاث لهذه الاستعارة ، ومعلوم أن مبنى الاستعارة على طي ذكر المستعار له ، ومن ثم نرى البلغاء المفلحين ، أمراء الفصاحة النابغين ، يتناسون في الاستعارة التشبيه ، ويضربون عن توهمه صفحاً ، وكأنهم يريدون بالمستعار معناه الحقيقي ، فلذلك أثبت الشاعر للرجل الشجاع التقذيف ، واللبد والأظفار التي لم تقلم ، وهي أمور لا تناسب إلا المعنى الحقيقي ، وإنما أثبتنا للمعنى المجازي مبالغة

وتقوية للتشبيه كما أنه في آيتنا لمعنى « القميص » المجازي الإشارة الحسية ، والذهاب به ، والالقاء به على الوجه ، وهي ترشيحات للتشبيه وتقوية للمعنى المجازي ، كأنه هو المعنى الحقيقي ، التي لا تستند هذه الأمور الثلاثة إلا له .

وكما من الغلط الفاضح أن يقول قائل : لا يصح أن يكون « زهير » أراد من « الأسد » المعنى المجازي وهو الرجل الشجاع بدليل قوله : « مقذف ، له لبد ، أظفاره لم تقلم » ، فكذلك من الغلط الفاضح أن يقول قائل : « لا يصح أن يكون يوسف أراد بالقميص المعنى المجازي وهو المنصب في البلاط الملوكي ، بدليل قوله : « اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي » ، فافهم هذا التحقيق ، فانه بالفهم حقيق ؛

٢ — قول أبي تمام :

فما زال يصعد طرق الملا الى النجم مرتدياً بالسَّماء^(١)
ويصعد حتى يظن الجهول بأن له حاجة في السماء

فحقيقة « يصعد » الملو الحسي في المكان العالي ، ولكنه استعار الصعود للعلو في المرتبة ، وبني عليه انه صار مع النجم مرتدياً بالرفعة وأن الجهول اذا رآه هكذا ظن أن له حاجة في السماء ، وكل هذه ترشيحات للتشبيه لاتناسب الا المعنى الحقيقي ، وإنما ذكرت مع المعنى المجازي وهو الرقي المعنوي الرقي ، تقوية الاستعارة ، وكذلك الأمر ههنا في آيتنا ؛ ذكر الإشارة الحسية والذهاب بالشار اليه والقاءه على وجه أبيه ترشيحاً للاستعارة كأن هذا « القميص » المجازي هو قميص حقيقي .

٣ — قول القائل :

• هي الشمس مسكنها في السما • فعز الفؤاد عزاء جميلاً
• فلن تستطيع اليها الصعو • د ولن تستطيع اليك النزولا

لما أخبر عن محبوبته بأنها الشمس ، جعلها كأنها عينها ، وبني على ذلك مكانها في السماء . وانه لا يستطيع الصعود اليها ، وهي لا تستطيع النزول ، ف هذه كلها ترشيدات للتشبيه ، انما تناسب المشبه به ، فكذلك في آيتنا الكريمة .

٤- قول العرب في البليد : (رأيت حماراً له أذنان خطلا وان) استعاروا الحمار للبليد ، وأثبتوا له أذنين خطلاوين ، أي مسترخيتين طويلتين ، ترشيداً لتلك الاستعارة لأن الأذن الخطلاء من لوازم الحمار الحقيقي .

٥- قول الشاعر :

ولما رأيتُ «النَّسْرَ» عَزَّ «ابن داية»

و «عشش» في «وكرينه» جاش له صدري

يعني لما رأيت شعر الشيب الأبيض غلب شعر الشباب الأسود ، حل ونزل في الرأس واللحية ، ارتاع واضطرب منه قلبي ، فالشاعر استعار لفظ «النسر» للشيب ، ولفظ «ابن داية» وهو الغراب ، للشعر الفاحم ، ورشح الاستعارة بذكر «التعشيش» وهو عمل العش وأخذه ، ثم بذكر «الوكر» وهو موضع الطائر ، الذي يأخذه ويعمله للتفريخ .

وأعلم أن الترشيح قد يكون باقياً على حقيقته ، تابعاً للاستعارة لا يقصد به الا تقويتها ، وقد يكون مستعاراً من ملائم المستعار منه ، لملائم المستعار له ، كما في هذا البيت ، فانه استعير لفظ «الوكرين» من معناه الحقيقي ، للرأس واللحية ، أو الفودين ، أعني جانبي الرأس ، وأستعير لفظ «التعشيش» للحلول والنزول فيها وكذلك الأمر في الآية الكريمة ، فانه استعير فيها لفظ «الالقاء على الوجه» للانباء وإحاطة علم يعقوب عليه السلام بمنصب ولده يوسف .

٦- قول بعض العرب ، بين حاله مع أمه :

إذا الشيطانُ قَصَعَ في قَفَاها تَنَقَّقْنَاهُ بِالْجَبَلِ التَّوَّامِ

يقال (قصَّ فلان اليربوع) : إذا أخرجته من قاصائه ، أي من جحره ، ودخل هو فيه ، « وقصَّ الشيطان في قفا فلان ، إذا ساء خُلُقُه وغضب ، كأن الشيطان دخل في قفاه وصار يُبرز منه الغضب وسوء الخلق ، ويقال : ﴿ تنفق اليربوع ﴾ أي خرج من نافقائه ، و« تنفقتَه » أي استخرجته منها ، والجبل التوأم : المثنى المجدول على طاقين .

استعار « التنصيع » أولاً ، لغضب أمه وإثارة خلقها ، ثم ضم إليه « التنفق » مستعاراً للاجتهاد في إزالة غضبها ، وإماطة مايسوء من خلقها ، ثم جعل « الجبل التوأم » مستعاراً لسبب قوي ، يتوصل به لتلك الإزالة ، « فالجبل » هو بمعنى السبب ، وهاتان الاستعارتان تابعتان للاستعارة الأولى ، ومرشحتان لها باعتبار لفظها ، وعليه فعنى البيت :

إذا دخل الشيطان في قفاها ، ليبرز منها الغضب ، استخرجناه من نافقائه بالجبل المثنى المحكم ، يريد إذا غضبت وساء خلقها اجتهدنا في إزالة غضبها ، وإماطة مايسوء من خلقها ، فهو لما استعار أولاً « التنصيع » أتبعه بما يشاكله ويؤاخره ، وهو « التنفق » و« الجبل التوأم » ، فهذان اللفظان ترشيحان للاستعارة يقصد منها تقويتها ، فلا يقول « إن التنفق والجبل التوأم لا يناسبان المعنى المجازي ، فلا يجوز المصير إليه » — إلا كل جاهل بأساليب اللغة العربية وطرق البلغاء المفلكين ، كما ان ﴿ اذهبوا بقميصي هذا ، فألقوه على وجه أبي ﴾ ترشيحات للاستعارة ، يقصد منها تقويتها ، فلا يقول أيضاً « ان الذهاب بالقميص والاشارة الحسية إليه والقاء على الوجه ، أمور لا تناسب المعنى المجازي ، فلا يجوز المصير لذلك المعنى المجازي » — إلا كل جاهل بأساليب اللغة العربية ، وطرق البلغاء المفلكين .

٧ — قولهم ﴿ من حفر لأخيه جباً ، وقع فيه منكباً ﴾ ، « فالجب » استعارة مرشحة ، والحفر والوقوع والانكباب على الرأس ، ترشيحات لهذه الاستعارة .

٨ — قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى ، فَمَا رَبَّحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُبْتَدِينَ ﴾ (١٦:٢) فمعنى اشتراء الضلالة بالهدى ، اختيارها عليه واستبدالها به ، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية ، ولما استعار الاشتراء للاستبدال ، ذكر الربح والتجارة على وجه الترشيع ، كان ثم مبايعة على الحقيقة .

٩ — جاء في القرآن : ﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ، فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ ، فَنَبَذْتُهَا ﴾ (٩٦:٢٠) ، فهذا « السامري » علم من معجزات الرسول موسى ، وفطن بما لم يفتنوا له ، من علائم صدقه ، فأمن به وأخذ جانباً من شربته ، وشيئاً من طريقته ، ولكنه لم يلبث أن رفض تلك الطريقة ، بحسب تسويل نفسه الأمارة بالسوء ، « فالقبض » امتعارة مصرحة بتعية والقبضة والأثر والنبذ ، ترشيجات لها ، لأنها من مناسبات المشبه به .

١٠ — قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفُهَا ، وَارْتَبَتْ ، وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا ، أَتَاهَا أَمْرٌ نَالِيلاً أَوْ نَهَاراً ، فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً ، كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ ﴾ (٢٤:١٠) ، شبه الأرض بالعريس ، واستعار لفظ العرس وحذفه ، ورمز إليه بشيء من لوارمه ، وهو الزخرف والزينة ، وإتيان الأمر إليها ، فأخذ الزخرف والتزين وإتيان الأمر إليها ترشيجات لهذه الاستعارة المكنية .

١١ — قوله تعالى : ﴿ وَكُتِمَ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ ، فَأَنْقَذَ كَم مِنْهَا ﴾ (١٠٣:٣) ، شبههم وهم كفرون بمن جلسوا على حرف حفرة من حفر النار ، وشبه نفسه تعالى بتوقيه إياهم الاسلام وتخليصهم من الكفران بمنقذ أنقذ الجالسين على حرف الحفرة ، أو استعار شفا حفرة النار — للباطل ورشحه بالانقاذ ، وكما أن الانقاذ ، لا يناسب إلا المعنى الحقيقي ، ولكن جيء به تقوية للاستعارة ، فكذلك

آ (٩٣) تطبيق الاستعارة وترشيحاتها على قوله: اذهبوا بقميصي هذا.. الخ ١٢٦٣

الذهاب بالشيء والاشارة الحسية والإلقاء على الوجه في الآية الكريمة ، هي نعم أمور لا تناسب الا القميص الحقيقي ، ولكن جيء بها تقوية للاستعارة.

١٢ — قوله تعالى : ﴿ أَفَنُؤَسِّسُ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ ، خَيْرٌ ، أَمْ مِنْ أَسْأَسَّ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ ، فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ؟ ﴾ (١١٠:٩) ، « شفا الجرف » مجاز عما ينافي التقوي من الباطل والنفاق ، والملاقة قلة الثبات والاستمسك ، جعل « الجرف الهائر » مجازاً عن الباطل ، فرشحه بلفظ « الانهيار » الذي هو للجرف ، ليصور أن المبطل كأنه أسس بنياناً على شفا جرف من أودية جهنم ، أو يقال شبه بناء مسجد الضرار في كونه سبباً ملقياً في النار ببناء بني على حرف جرف من رمل لا يثبت حتى يسقط في الجرف الهار .

١٣ — قوله تعالى : ﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ ، فَنَحَرَهُ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ ، وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٢٦:١٦) شبه المكر بصرح ، وحذفه ورمز اليه بشيء من لوازمه ، وهو البناء على سبيل الاستعارة المكنية ، وذكر القواعد والخرو والسقف والفوقية — ترشيحات لهذه الاستعارة .

١٤ — سمعت بعض العرب يقول عن رجل رشى الحاكم بمشرة دنانير ذهبية : « سقاء عشرة أقداح من الحمرة شربها ، فقاب عن صوابه فحكم له بها أراد » ، فالأقداح استعارة تصريحية وهي مجاز عن الدنانير ، والسقي والشرب والغيوبة ترشيحات لهذه الاستعارة ، لانها تناسب المعنى الحقيقي .

تطبيق الاستعارة وترشيحاتها على قوله : اذهبوا بقميصي هذا... الخ

اذا تقرر هذا ، نقول ههنا في آيتنا الكريمة التي نحن بصدد شرحها : استعار

« القميص » للمنصب الذي 'قميصه' ، وتناسى التشبيه ، وجعل « القميص » كأنه مستعمل في معناه الحقيقي ، وبني عليه ما بني على القميص الحقيقي ، وهو الثوب المحسوس الذي يذهب به ويشار اليه ويلقى على الوجه ، وبعبارة أخرى : لما استعار « القميص » للمنصب والوزارة التي له ، أتبعه بما يشاكله ويوآخيه ، وما يكلل بانضمامه اليه ، تقوية للاستعارة ، وليصور للسامع أن المنصب كأنه قميص حقيقي ، مبالغة في التشبيه ، وهذا من الصنعة البديعة التي تبلغ بالحجاز الذروة العليا ، وهو أن تساق كلمة مساق الحجاز ، ثم تُقَمَّى بأشكال لها وأخوات ، اذا تلاحقن ، لم تركلماً أحسن منه ديباجة ، وأكثر روتقاً ، وهو الحجاز المرشح بصفة أو تفرع كلام يلائم المعنى الحقيقي ، فالتعبير بالالتقاء على الوجه ، لا ينافي أن « القميص » مجاز عن المأمورية ، لأنه ترشيح ، بل ليست اللغة العربية وحدها هي المصطلحة على مثل هذه العبارات المجازية المرشحة بما يناسب المعنى الحقيقي ، بل جرى على ذلك كل لغات العالم ، والناس يفهمون هذه العبارات على ما وضعت لتأديته ، لا على لفظها ، فمثلاً لو قال رجل عن آخر : « إنه بعيد الورد » فلا يحق لنا أن نقول : إن هذا الرجل مشرك قد عبد « الورد » مع الواحد الأحد ، الذي لا يعبد سواه ، وكذا لو قال رجل : « دخلت الحمام فاذا في الخلوة عند جرن الماء أسد ذولبد وأظفار لم تقلم ، وهو يزجر بصوت كالرعد يربع السامعين » فلا يحق لنا أن نقول : انه حقيقة هو الوحش المفترس الضاري ، اغتراراً بما اكتنف هذه الاستعارة من الميسحات الملائمة للمعنى الحقيقي ، وهكذا في الآية الكريمة لا يحق لنا أن نقول : إن هذا « القميص » حقيقة هو الثوب الذي يلبس على الجسم ، اغتراراً بما اكتنف هذه الكلمة من المرشحات الملائمة للمعنى الحقيقي .

وتمة القول : إذا جاز في المثال الأول ترشيح « الأسد » المجازي بأنه مُقَدَّف وله لبد ، وله أظفار لم تقلم ، الأمور التي لا تناسب « الأسد » المجازي ، وإنما تناسب الأسد الحقيقي .

وإذا جاز كما في المثال الثاني ترشيح الصعود المعنوي يظن الجحول أن الممدوح حاجة في السماء ، الأمر الذي لا يلائم إلا الصعود الحسي في المكان.

وإذا ... وإذا ... الخ .. الخ .. فلم لا يجوز أن يقال : إن هذا « القميص » مجازي ، وقد رشح بما هو من خصائص القميص الحقيقي مبالغة في التشبيه؟ وما الفرق بين الكلمة التي هي موضوع حديثنا وبين هذه الأمثلة الأربعة عشر التي ذكرناها؟.

اللهم لا فرق ، ولا صمونة في قبول هذا المعنى الجديد ، لولا الجلود على المعنى الذي نحا إليه المفسرون .

إذا تقرر هذا فيكون المعنى :

تفسير الآية بتطبيق الاستعارة وترشيحاتها عليها

(اذهبوا) سراعاً (د) خبر (قميصي هذا) وهو المنصب الكبير الذي علمتموه وتحققتموه ، حتى صار عندكم كالحسوس الذي يشار إليه ، (فألقوه على وجه أبي) أي فأحيطوه علماً به لأن هذه الكلمة كما حققناها ترشيح الاستعارة ، والترشيح يجوز أن يبقى على حقيقته لا يقصد به إلا تقوية الاستعارة ، ويجوز أن يجري فيه التجوز أيضاً فيستعار من المعنى الملائم للمشبه به ، لمعنى يلائم المشبه ، على ما ذكره علماء البيان - وقولوا له : قد عثرنا على عكاز شيخوختك ، ومستودع أسرارك وقبة آمالك ، وطبيب أحزانك ، ومداوي بكث وهمك ، ومضمد جراحك ، قد عثرنا عليه عزيزاً بمصر ووزير مالية بها ، ووكيلاً عن مليكها الريان في البلاط فان أوقتموه على جليلة الواقع (يأت بصيراً) علماً وعارفاً ، لأن خبر هذا القميص يشف له عن الواقع ، فتظهر له الحقيقة بيضاء ناصعة ، لا غبار عليها ، ويكشف.

له عن سريرة ولده يوسف بالتفصيل ، بعدما كان عاجزاً عن رؤيتها وعلمها إلا إجمالاً ، ومعنى جملة (يأت بصيراً) أنه يأتي ذا بصارة ومعرفة بحالي التي أنا عليها اليوم في البلاء ، أو تقول معنى (يأت بصيراً) يأت مبصراً ، بذهاب ما كان على عينيه من بياض ، فإن هذا القميص ، متى بلغه خبره ، سيكون أكفأ في شفاؤه من كل الكحالين الخاذقين ، وأفدّ من عملية جراحية يجريها لعينه طبيب حاذق فانه حالاً أو بالتدريج يَنفَعُه ، ويُبَلِّدُ ويتعش ، وإن أتيانه اليّ ، واجتماعي به لهما العزاء الباقي لي عن جميع ما أتى عليّ من كل الحوادث المؤلمة والضيقات الفاجعة (واثنوني) على جناح السرعة (بأهلكم أجمعين) لنعيش جميعاً في هذه البلاد تحت رضا أئينا الشيخ الجليل ، وتحت رعاية « الريان » المليك المعظم ، فها أنا انتظركم انتظار الظمآن لورود الماء ، وها هي ذي أبواب مصر مفتوحة أمامكم على المصراعين ، فادخلوا إن شئتم من باب واحد ، أو ادخلوا من أبواب متفرقة ، لا فرق في ذلكم ، فأتم على كل حال آمنون من كل شيء ، فالبدار البدار ، فانه لا يحول بيننا وبينكم رِجاج ، وليس هناك من جبال ولا أمواج .

قوموا اثنوني بأهلكم أجمعين ، فاني أريد ذلكم لخيركم فقط لا لخيري ، ولا فانا مستغن عنكم بالله تعالى ، لا أسألكم دنيا ، ولا أستفتيكم عن دين ،

قلت لكم اثنوني بأهلكم أجمعين ، من كل ما خولكم الله ، من عقيلات ، من بنين وبنات ، من عبادان وخادmates ، لا تتركوا وراء ظهوركم شيئاً منوطاً بكم ، ارجعوا مصر ، وقولوا : « على فلسطين السلام » وأنا لا أقول لكم : بيت الضيق يسع ألف صديق ، لا .. بل أقول : انكم ستجدون عندي مراغماً كثيراً وسعة ، أتم ليس لكم في فلسطين مَبْرُك ناقة ، ولا مَفْحَص قطاة ، سوى ما لأبي في شكيم من قطعة الحقل ، (انظر تك ٣٣ : ١٩ و ٤٨ : ٢٢ و ٥٠ : ٢٥ ويش ٢٢ : ٣٣) واني أخشى أن ينشب الجوع أظفاره بكم ،

واذا رأيت الأمن عزّ يبلاة وخشيت منها أن يضيق المطلب
فارحل فأرض الله واسعة الفلا طولا وعرضا شرقا والمغرب

قلت : أسرعوا الكرة واثنوني بأهلكم أجمعين ، فلنا ولهم رب اسمه الكريم ،
والصلة التي بيني وبينكم - والحمد لله - لا تزال وثيقة ، لا ينال منها الدهر ، ولا تأخذ
منها عاديّات الأيام ، ولا يؤثر عليها شيء من تلك الحوادث الغابرة ، أليس انكم
إخوتي ؟ ... وهل يوجد قوة في الأرض تستطيع أن تقطع هذه الصلة ؟ ... كلا ..
لأن لمحي من لحمكم ، ودمي من دمكم ، يسوءني ما يسوءكم ، ويسرني ما يسركم ،
أنا لكم ، وأتم لي ، والله للجميع ؛

اثنوني بأبي ، واثنوني بأهلكم أجمعين ، فقد قيل : « اتَّخَذَ النَّاسُ آبَاءَ وَأَخَا
وَابْنًا ، ثُمَّ بَرَّ أَبَاكَ ، وَصَلَ أَخَاكَ ، وَارْحَمَ ابْنَكَ » ، فذلك بالأولى أريد أن
أبرّ أبي ، لأنه والذي على الحقيقة ، وأريد أن أصلكم ، لأنكم إخوتي على الحقيقة ،
وأريد أن أرحم أبناءكم ، لأنهم كابني منسى وأفرايم .

الى هنا ينتهي مرمى كلام يوسف عليه السلام .
وفي الختام أيها السادة اياكم أن تظنوا أنني بهذه الكلمات التي سطرتها يدي
الحقيرة ، سأعتر وأقول :

وإني وإن كنت الأخير زمانه لآت بما لم تستطع الأوائل
حاشالي من هذا ، ومن أقل من هذا ، فأنا الفقير تراب حقير ، أصيب وأخطي
وأُسرع وأبطي ، ولكني أقول :

هذا ما وصل اليه فهمي القاصر ، فإن حاز قبولاً عند أهل العلم والنظر ، فهو
من فضل الله عليّ ، إذ أصبت الخمر ، بل ومن فضل الله عليهم ، إذ لم يغمطوا
الحق ، وإن لم يرق في أعينهم ، فليضربوا به عرض الحائط وليرجعوا الى ما قاله
سادتنا المفسرون .
(مرحى)

(اذهبوا بقيمصي هذا ...)

— ٤ —

ثم نهض السيد عبد الحق الطوموي^(١) وقال :

تفاوت فهم العلماء في دلالة النصوص الإضافية

سمعت في هذه الجلسة من بعض الاخوان الحاضرين انتقاداً سرياً على السيد الغمراوي في ذهابه الى أن « القميص » هو الكسوة الرسمية المعمولة من الكتان التي قدمت ليوسف من ملك مصر ، وهي من الألبسة الرسمية التي لا يلبسها الا الملوك وكبار أهل البلاط والكهنة، ثم انتقد كذلك على مولانا عبد الحي الدمياطي في قوله إن هذا « القميص » هو قميص معنوي رُتبيّ هو عبارة عن « وزارة المالية » في البلاط ، أو عبارة عن انه « عزيز مصر » أو وكيل مطلق عن ملكها، وقال هذا المنتقد ، كيف يجوز لنا أن نخالف ما فهمه السادة المفسرون من قبلنا ؟ هذا انتقاد الأخ المحترم واني الآن ، أريد أن أضم صوتي الى صوت السيد الغمراوي ومولانا الدمياطي في تفسيرهما القميص ، وبجيباً عن انتقاد من انتقد عليها فأقول :

غير خاف إن دلالة النصوص الإضافية تختلف باختلاف درجات فهم السامعين وقد كان أبو هريرة وعبد الله بن عمرو ، أحفظ الصحابة للحديث ، وأكثرهم رواية له ، وكان الصديق وعمر وعلي وابن مسعود وزيد بن ثابت أقره ، بل عبد الله ابن عباس أيضاً هو أقره منها ومن عبد الله بن عمرو .

وان لنا على تفاوت فهم العلماء لما يسمعونه من الكلام شواهد :

منها ١- قد أنكر النبي ﷺ على عمر فهمه إتيان البيت الحرام ، عام الحديبية

(١) نسبة الى الطوم من البلاد المصرية .

من اطلاق قوله له : ﴿ انك ستأتيه وتطوف به ﴾ ، فانه لادلالة في هذا اللفظ على تعيين العام الذي يأتيه فيه .

ومنها ٢ — أنكر عليه السلام على من فهم من قوله « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة خردل من كبر » — شمول لفظه لحسن الثوب وحسن النمل ، وأخبرهم أن الكبر بطل الحق وغمط الناس .

ومنها ٣ — أنكر عليه السلام على من فهم من قوله : « من أحب لقاء الله ، أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله ، كره الله لقاءه » — انه كراهة الموت ، وأخبرهم أن الكراهة للكافر ، إذا احتضر وبشر بكرامة الله ، أحب لقاء الله ، وأحب الله لقاءه .

ومنها ٤ — أنكر عليه السلام على من فهم من قوله تعالى : ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ (١٢٢:٤) ان هذا الجزاء انما هو في الآخرة ، وبين ان هذا الجزاء قد يكون في الدنيا بالهم والحزن والمرض والنصب وغير ذلك من مصائبها ، وليس في اللفظ تقييد الجزاء بيوم القيامة ..

ومنها ٥ — أنكر عليه السلام على من فهم من قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ، أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ (٨٢:٦) — انه ظلم النفس بالمعاصي ، وبين انه الشرك ، وذكر قول لقمان لابنه ﴿ إِنِّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (١٣:٣١) ، مع ان سياق اللفظ عند اعطائه حقه من التأمل يبين ذلك ، فإن الله سبحانه لم يقل : ولم يظلموا أنفسهم ، بل قال : ﴿ وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾ ولبس الشيء بالشيء تغطيته به واحاطته به من جميع جهاته ولا يغطي الإيمان ويحيط به ويلبسه الا الكفر .

ومنها ٦ — فهم ابن عباس من قوله تعالى : ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾ (١٥:٤٦) مع قوله تعالى : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾

(٢٢٣:٢) — ان المرأة قد تلد لسته اشهر ، ولم يفهمه « عثمان » فهم برجم امرأة ولدت بعد ستة اشهر من زواجها ، حتى ذكره ابن عباس فأقر به .

ومنها ٧ — لم يفهم « عمر » من قوله ﷺ : « أُمِرْتُ ان اقاتل الناس حتى يقولوا : « لا إله إلا الله » ، فاذا قالوها عصموا مني دماءهم واموالهم ، إلا بحقها » — لم يفهم من هذا قتال ماني الزكاة ، حتى بين له الصديق ذلك ، فأقر به ..

ومنها ٨ — ماروى ان « عمر » استعمل « قدامة » بن مظلوم على « البحرين » فقدم « الجارود » على عمر فقال : « ان قدامة شرب فسكر » — فقال عمر : « من يشهد على ماتقول ؟ » — قال الجارود : « ابو هريرة يشهد على ماقول » — فقال عمر : « يا قدامة اني جالدك » — قال : « والله لو شربت كما يقولون ما كان لك ان تجلديني » قال عمر : « ولبة ؟ » — قال : « لأن الله يقول : ﴿ ليس على الذين آمنوا وعمالوا الصالحات جناح فيما طعموا ، اذا ما اتقوا وآمنوا وعمالوا الصالحات ، ثم اتقوا وآمنوا ، ثم اتقوا واحسنوا ﴾ (٥٦:٥) فأنا من الذين آمنوا وعمالوا الصالحات ، ثم اتقوا وآمنوا ، ثم اتقوا واحسنوا ، شهدت مع رسول الله ﷺ « بدرأ » و« أُحُدْ » و« الخندق » و« المشاهد » — فقال عمر : « الا تردون عليه قوله ؟ » — فقال ابن عباس : « ان هذه الآيات أُتْرِئْنَ عَذْرًا لماضين ، والا فالحرم محرمة على الباقيين ، لأن الله يقول : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجسٌ من عمل الشيطان ﴾ (٩٣:٥) — قال عمر : « صدقت » ، وتوضيحه ان هذه الآية التي تمسك بها الجارود ، إنما وردت جواباً لسؤال بعض الصحابة الذين استشكلوا عند نزول هذا الخطر في الخمر والميسر — حال من مات من المؤمنين الذين كانوا يشربون الخمر ، وبأكلون الميسر ، ولا سيما من حضر منهم غزوتي « بدر » و« أُحُد ».

وكان امر الحجر عندهم أهم ، ومنهم من كلم النبي ﷺ في ذلك ، وفي رواية انهم سألو عمن ماتوا ، وعن الثابتين الذين لم تبلغهم آية القطع بالتحريم ، فنزلت هذه الآية جواباً لهم ، وقيل ان الآية نزلت فيمن كانوا يشددون على أنفسهم في الطيبات من الطعام والشراب ، لافي الحجر ، ولو يتأمل الانسان سياق الآية لفهم المراد منها على نحو ما نقول ، فانه انما رفع الجناح عنهم فيما طعموه متقين له فيه ، وذلك انما يكون باجتناب ما حرمه من المطاعم ، فالآية لا تتناول المحرم بوجه ما .

ومنها ٩ - انه فهم من فهم من قوله تعالى ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ (١٩٥:٢) حرمة انغماس الرجل في العدو ، حتى يبين له « أبو أيوب » الأنصاري أن هذا ليس من الإلقاء بيده الى التهلكة ، بل هو من بيع الرجل نفسه ابتغاء مرضاة الله ، وان الإلقاء باليد الى التهلكة هو ترك الجهاد ، والاقبال على الدنيا وعمارتها .

ومنها ١٠ - قال « الصديق » رضي الله عنه : أيها الناس ، انكم تقرأون هذه الآية ، وتضعونها على غير موضعها ؛ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ ، لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ (١٠٨:٥) وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه ، أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده » ، فاخبرهم أنهم يضعونها في غير موضعها في فهمهم منها خلاف ما أريد بها ، كيف وهم لا يهتدون إلا إذا غيروا المنكر (١)

ومنها ١١ - أتت امرأة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقالت : « يا أمير المؤمنين ، إن زوجي يصوم النهار ويقوم الليل ، وأنا أكره أن أشكوه اليك ، وهو يقوم بطاعة الله عز وجل » - فقال لها : جزاك الله خيراً من مثنية على زوجها - فجعلت تكرر عليه القول ، وهو يكرر عليها الجواب ، وكانت

« كعب بن سؤر » حاضرًا ، فقال له : « اقض يا أمير المؤمنين بينها وبين زوجها » - فقال « وهل فيما ذكرت قضاء ؟ » - قال « إنها تشكو مباحة زوجها لها عن فراشها ، وتطلب حقها في ذلك » - فقال له عمر : « أما إذ فهمت ذلك فاقض بينها » - فقال كعب : « عليّ زوجها » ، فأحضر ، فقال : « إن امرأتك هذه تشكوك » - قال « أقصرت في شيء من نفقتها ؟ » - قال : « لا » - فقالت المرأة شعراً :

يا أيها القاضي الحكيم رشده	آلهي خليلي عن فراشي مسجده
نهاره وليله ما يرقد	فلست في أمر النساء أحمد
زهده في مضجعي تبعده	فاقض القضا يا كعب لا تردده

قال فقال زوجها :

زهدي في فرشها وفي الحُلل	إني امرؤ أذهلني ما قد نزل
في سورة وفي السمع الطول	وفي كتاب الله تحويف جَلل

فقال « كعب » :

وأن خير القاضيين من عدل	ومن قضى بالحق جهر أو فصل
إن لها عليك حقاً يارجل	تصيهما في أربع لمن عقل
قضية من ربنا عز وجل	فأعطها ذاك ودع عنك العِلل

ثم قال : « إن الله تعالى قد أباح لك من النساء أربعاً ، فاك ثلاثة أيام وليالين ، تعبد فيها ربك ، ولها يوم وليلة » - فقال عمر : « والله ما أدري من أي أمر بك أعجب ، أفن فهمك أمرها ، أم من حكمك بينها ؟. اذهب فقد وليتك قضاء البصرة » ذكر هذه الحكاية التيجاني في « تحفة العروس » نقلاً عن صاحب « الموفقيات » عن إبراهيم بن المنذر ، عن محمد بن معن ، ثم قال : وذكر « الرشاطي » هذا الحديث في كتابه المسمى « باقتباس الأنوار » وزاد بعد قوله « يوم وليلة »

« فلا تصل في ليلتها إلا الفريضة »، وحكى أن « كعب بن مؤثر » هذا ، شهد يوم الجمل ، فلما اصطفت الناس للقتال ، أخذ مصحفاً في يده وخرج يناشد الناس في دماهم ، فقتل على تلك الحالة .

ومنها ١٢ - « ماروي عن عمر ، انه كان على المنبر فقرأ ﴿ أو يأخذم على تخوف ﴾ (١٦: ٤٧) ، ثم سأل عن معنى التخوف ، فقال له رجل من هذيل « التخوف عندنا : التنقص » ثم أنشده :

تخوف الرجل منها تامكاً قريراً
كما تخوف عود النبعة السفن
« التامك » العظيم السنام ، و« القرير » الكثير القردان ، و« عود النبعة » شجر اللقي والسلم ، و« السفن » الحديدية التي يبرد بها خشب القوس ، وعلى ذلك فهو يقول : إن الرجل تنقص سنام الناقة ، كما تأكل الحديدية خشب القسي .

ومنها ١٣ - « انه جاء رجل إلى ابن مسعود فقال : تركت في المسجد رجلاً يفسر هذه الآية : ﴿ يوم تأتي السماء بدخان مبين ﴾ (٤٤: ١٠) ، قال « يأتي الناس يوم القيامة دخان ، يأخذ بأنفاسهم ، حتى يأخذهم كهيئة الزكام » - فقال ابن مسعود : « من علم علماً فليقل به ، ومن لم يعلم ، فليقل الله أعلم » ، انما كانت هذا ، لأن قريشاً استعصوا على النبي ﷺ ، فدعا عليهم بسنين كسني يوسف ، فأصابهم قحط وجهد ، حتى أكلوا العظام ، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد .

ومنها ١٤ - « أشكل على ابن عباس أمر الفرقة الساكنة من اليهود ، التي لم ترتكب ما نهيت عنه ، هل عذبوا ونجوا ؟ حتى بين له مولاة « عكرمة » دخولهم في الناجين ، دون المذنبين ، وهذا هو الحق ، لأنه سبحانه ، قال عن الساكتين : ﴿ وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً ؟ ﴾ (٧: ١٦٣) فاخبر انهم أنكروا فعلهم ، وغضبوا

عليهم ، وإن لم يواجهوهم بالنهي ، فقد واجههم به من أدى الواجب عنهم ، فات الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر فرض كفاية ، فلما قام به أولئك ، سقط عن الباقيين ، فلم يكونوا ظالمين بسكوتهم ، وأيضاً فإنه سبحانه إنما عذب الذين نسوا ما ذكروا به ، وعتوا عما نهوا عنه ، وهذا لا يتناول الساكتين قطعاً ، فلما بين « عكرمة » لسيدة ابن عباس أنهم لم يدخلوا في الظالمين المعذبين ، كسأه برده ، وفرح به (١).

ثم تابع الخطيب « عبد الحق الطموحي » كلامه قائلاً :

وإذ وصلنا ههنا ، فاعتبرونا - يارعاكم الله - بمنزلة عكرمه ، واعتبروا أنفسكم بمنزلة ابن عباس ، فكما قبل ابن عباس تفسير عكرمة ، وفرح به وكسأه برده ، فاقبلوا تفسيرنا وافرحوا به فقط ، ولا تزيد منكم أن تكسونا برودكم ، بل إن شاء الله تسلم برودنا منكم . وعرضنا ودعة عندكم . (قالون)

(اذهبوا بقيضي هذا ...) الخ

وقال الفاضل السيد يوسف المجدلي (٢)

رد تفسير كلمة « بصير » بمبصر « ضد الاعمى »

إني أوافق السيد الغمراوي ومولانا عبد الحي الدمياطي على تفسيرهما « القميص » بالرتبة العالية ، و« بصير » بعالم ، ومنع أن يكون « بصير » بمعنى مبصر بعينه ، وأزيد ههنا كلمة وجيزة ، وهي أنه من عرف سيدنا يوسف أن أباه صار أعمى حتى يقول « بصيراً » ويريد مبصراً ، وأما قول بعض المفسرين كالغوي وأمثاله :

(١) الطرق الحكيمة

(٢) نسبة الى بلدة المجدل بالقرب من غزة (فلسطين)

« لما عرفهم يوسف نفسه ، سألمهم عن أبيه فقال ما فعل أبي بعدي ؟ - قالوا : ذهب عيناه من البكاء فأعطاهم قميصه ، وقال : إنذهبوا بقميصي هذا ، فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً ، أي يعد مبصراً » فيحتاج إلى برهان يثبت ، لأنه من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله تعالى ، ولا يجوز التهجم على الغيب إلا ببرهان ، قال تعالى : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ ﴾ (٣٦:٧٢) والبعوي وأمثاله من المفسرين ، ليسوا رسلاً ، حتى يظهرهم الله على غيبه ، فيقولوا : إن يوسف سألمهم عن أبيه ... الخ .

هذه كلتي الوجيزة على معنى الآية الكريمة ، واسمحوا لي أن ألحقها بالمواد التالية :

قيص يوسف كان دثاراً

المادة ١ - كل مايلي الجسد من الثياب فهو « شعار » وكل مايلي الشعار فهو « دثار » وظاهر أن القميص الذي كان يلبسه يوسف من قبيل الدثار .

أشياء فوق الطبيعة في سورة يوسف

المادة ٢ - إذا قرأ المؤمن هذه السورة الشريفة وقع نظره على أشياء ، هي بما فوق الطبيعة ، مامن ذلك بد :

فمنها أولاً - رؤيا يوسف في حلمه سجدوا الأحد عشر كوكباً له والشمس والقمر ، ثم وقوع مصداق تلك الرؤيا كما رأى حرفاً بحرف .

ومنها ثانياً - بشارة يعقوب لابنه ، بأن سيحبته ربه ، ويعلمه من تأويل الأحاديث ، ويتم نعمته عليه وعلى آل أبيه ، كما أتمها على أبويه من قبل إبراهيم وإسحاق ، ثم وقوع ذلك حدو القذة بالقذة ^(١) .

ومنها ثالثاً - تقطيع النسوة أيديهن بالسكين ، بدون أن يُحْسِنَنَّ بألم بل كن غائبات عن شعورهن ، كأنما خُدِّرَت أيديهن تخديراً موضعياً .

ومنها رابعاً - حلما الفتيين في السجن ، وتأويل يوسف لهما ، فوقوع ذلك التأويل حسبما تكلم يوسف لا أكثر ولا أقل .

ومنها خامساً - حلما ملك مصر الريان ، فتأويلها ، فتصديق الواقع لذلك التأويل ..

ومنها سادساً - اعتذار سيدنا يعقوب لأولاده ، أو احتجاجه عليهم حين انتقدوا كثرة ذكره ليوסף ، فقال لهم : « واعلم من الله مالا تعلمون » اي من حياة يوسف ، ثم ظهور صحة هذه الدعوى يوم ما جاؤوه من مصر « بالقميص » فقال لهم : « ألم اقل لكم : إني اعلم من الله مالا تعلمون ؟ »

ومنها سابعاً - وجود يعقوب رائحة ولده وقتما كان البشير حاملاً قميصه ، خارجاً من آخر حدود مصر ، داخلًا في أول حدود فلسطين ، « فالذين يقرأون هذه السورة الحيدة من الناشئة الجديدة يرون فيها مالا يوافق مشربهم من القول بالمعجزات والكرامات ، والاعتقاد بالكشف ، وبما فوق الطبيعة ، بما يرونه حديثاً ماضياً ، لا يليق بالتربية العصرية ، التي ينبغي أن تكون مبنية على محض الحقائق الفنية ، ولما يعظم في عين هذه الناشئة كتاب ينطوي على هذه العقائد ، مها كان مقدساً ، وقصارى ما هناك أنهم يحترمون ذلك الكتاب لكونه مقدساً وديناً ، أو يحترمونه احتراماً تقليدياً لآبائهم وأسلافهم ، أو لاعتبارات أخرى .

ونحن نحيب هذه الطبقة التي قد توجه مثل هذا الانتقاد إلى مثل هذا المقام بأن العالم المتمدين لا يزال حتى هذه الساعة منقسماً إلى فريقين ، روجي ومادي ، وإن الفريق الروحي هو أكبر جداً ، وأحصى عدداً من الفريق المادي ، بل يوجد في أوروبا وأميركا واليابان عدد لا يحصى من غفول علماء الطبيعة ، يعتقدون

بوجود العالم الروحي ، وآخرون يمتزفون بأن مُشكِـل الروح لم يتحل بعد ، وأنه لليوم لم يكتفه أحد سر الروح واتصالها بالجسد ؛

وإذا رأينا أناساً مثل « فلما ريون » الفلكي الشهير ، ود فكتور هوغو ، أكبر شعراء الفرنسيين ، وسواهما من صَيَّابة^(١) العلماء — يمتدِّدون باستحضار الأرواح ، ويشهدون بوقوع المحاورات بينهم وبين الأموات ، وعرفنا أن جميعات لا تعد ولا تحصى في أوربا مؤلفة خاصة للمباحث الروحية ، واثبات الحوادث التي لا تعلل إلا بوجود شيء وراء المادة — إذا تأكد لدينا هذا كله لم يحق لنا أن نعجب من اعتقاد بعض العظماء بالخوارق والكرامات والمناسبات الروحية ؛ ويوجد اليوم قسم من الناشئة يمتدِّدون أن علو الدرجة في العقل والتبجر في العلم كثيرأ ، يقتضيان رفض ما وراء المادة مما ورد في الدين ، ولكن نحن إذا علمنا أن رجالاً مثل « باستور » بمكان من العلم والاكتشافات الحرثومية التي لم يسبق إليها أحد ، ورجالاً مثل « علا دسطون » في الشهرة وتوقد الذهن ، كانوا من أشد الناس تمسكاً بالدين — ظهر لنا أن الاتحاد التام ، ورفض الاعتقاد بما هو خارج عن المادة ليسا بشرط في علو درجة العقل ، ولا قيداً في التبحر في العلم^(٢) .

عظمة يوسف يتوخي المنفعة لاهله ولو بعد ما اهانوه

المادة ٣ — تعليقاً على قوله : « واثبتوني باهلكم أجمعين » : علم يوسف عليه السلام أن الرجل العظيم هو من يتوخي للناس المنفعة ، ويوطي لهم أسباب السرور ، ولو كانوا قد اهانوه ، لذلك طلب اليهم الإتيان بأهلهم وكان هذا التوجه وهذه العناية من سيدنا يوسف في محلها وعند وقتها ، لأنهم كانوا في فلسطين

(١) الصيابة الخالص والصميم والسيد .

(٢) مأخوذ من تعليقات الامير شكيب ارسلان على كتابه « حاصر العالم الاسلامي » .

في ضيق عظيم ، فكان من رحمة الله أن سخر لهم قلب يوسف ، وحسنه عليهم ، حتى لو لم يعثروا على يوسف أخيهم ، لكانوا في حاجة شديدة إلى يوسف آخر يعثرون عليه ، لينقذهم من شدتهم ولأوائهم ، ويأمرهم بالإتيان بأهلهم أجمعين ، ولا يخفى ما في هذا العمل الذي تكرم به يوسف ، من نسيان أو تناسي ما كانوا عملوا معه من بخلهم عليه بوجود شخصه بينهم ، فهل آن لنا أن نقندي بهذا التدويع الطيبة ، ونتناسي أعمال أعدائنا معنا ، لاسيما إذا كانوا من أقاربنا وذوي رحمنا !.

وربما يكون سمح عن إخوته ، ورغب اليهم في رجوعهم لمصر ، لكي يعيشوا عنده عيشة طيبة ، مراعاة لوالده الشيخ الجليل ، ولأهل إخوته وسلالهم ، كما قيل : « بعلة الزرع يسقي الضرع » وقيل : « لأجل الورد يشرب العليق » ، وأيضاً فقد رأى يوسف أنه لا يحسن انفراد بالعيشة بمصر ، متمتعاً بالنعيم الرغد ، دون إخوته وسلالهم ، وهذا هو مذهب العرب حيث يقول قائلهم (١) :

ولو أني حبيت الخلد فرداً لما أحبيت بالخلد انفراداً
فلا هطلت عليّ ولا بأرضي سحائب ليس تنتظم البلاداً

وهذا هو تعليم الدين الاسلامي ، كما في الحديث الصحيح : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ، وهو أيضاً التعليم المسيحي ، كما نقل عن السيد المسيح أنه قال : ﴿ كل ما تريدون أن يفعل الناس بكم ، افعلوا هكذا أنتم أيضاً ﴾ (مت ١٢: ٧).

لزوم استخدام المال والمنصب والجاه في منفعة ذوي الرحم

المادة ٤ - تعليقاً ثانياً على قوله « واثبوني بأهلكم أجمعين »: المال والمنصب

والجاء هو لصالح المعاش والدنيا ، وشرف المنزل في أعين الناس ، فيجب استخدام ذلك كله للأقارب والإخوان ، فمن كان له مال أو منصب ولا ينفع بها ذوي رحمه كان كالذي يمد فقيراً ، وإن كان موسراً ، وبحسب سوقة ، وإن كان ذا ولاية ، وإن أولى ما يكون في المال والجاه استخدامها في سبيل صلة الرحم ، واستثمارها لمنفعة الأقارب ، فلذلك أراد يوسف أن تشاطره إخوته وأهله جميعاً في ثمار هذا المركز ، الذي أعطاه الله إياه .

أوصاف المؤمنين الاربعة تمت ليوسف

المادة ٥- بما جرى ليوسف وما أتاه هنا ، تمت فيه الأوصاف الأربعة المذكورة في ضمن قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَّاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا ، أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (٨: ٧٤) ، فيوسف هاجر من فلسطين بلاد الخوف ، لمصر بلاد الأمن ، وجاهد نفسه بترفعه عن النزول على إرادة سيده ، وآوى إخوته وأهليهم ، ونصرهم على شيطانهم ، لانه غفر لهم وصفح عنهم .

وما أنسب ما وقع من يوسف بالمراتب الثلاث المذكورة في قوله تعالى : ﴿ وَالكَافِرِينَ الْغَيْظَ ، وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٣: ١٣٤) فهو عليه السلام كظم غيظه بقوله : « لا تثريب عليكم اليوم » ، ثم عفا عنهم بقوله « يغفر الله لكم » ، ثم أحسن اليهم بقوله : « واثقوني بأهلكم أجمعين » ونظير هذا ما وقع (المأمون) حينما كان خادم وضوئه يصب عليه ، فسقط الاناء ، فنضب المأمون ، فقال له الخادم ، « والكاظمين الغيظ » - فقال « كظمت غيظي » - قال « والعافين عن الناس » - فقال « عفوت عنك » - قال « والله يحب المحسنين » - فقال « اذهب فأنت حر » .

وكان « المنصور أبو عامر » - وهو أحد ملوك اسبانيا ، وإن شئت قلم :
الأندلس - أمر بسجن قتي ، لأن عليه ثلاثة آلاف دينار للخزينة ، ثم عفا
عن سجنه ، فقال القتي :

أما ترى عفو أبي عامر
كذلك الله إذا ماعفا
لابد أن تتبعه منة
عن عبده أدخله الجنة

فسامحه « المنصور » في ذلك المال .

حال اخوة يوسف عند مفارقتهم له لجلب اهلهم لمصر

المادة ٦ - كانى باخوة يوسف العشرة ، بعد هذه المبادلات في الحديث ،
وبعدما فارقه ، عتب بعضهم على بعض ، وتبرأ قسم منهم من القسم الآخر ، ولا بد
أن يكون « رأوين ويهوذا » من اللاتين ، كما أنه لاريب أن « شمعون » كان من
المومنين ، أو رئيس المومنين ، أو هو الموم وحده ، ولانشك في أن « دان ونفتالى »
كان لحقها وهما أمام يوسف ، خجل عظيم مامن ذلك بد ، وسببه أنها ابنا « بلهة »
جارية أم يوسف ، وهي التي انتقل يوسف هو وشقيقه (بنيامين) لخيمتها ، بعد
موت امها (راحيل) ، فترى عندها مع ولديها المذكورين ، ثم هل هذه
الحادثة على هذا الوجه ، توقظ العاقل ، فيشح بنفسه ، ولا يطوح بها في انثي وراء
الغايات النفسية.

نتيجة رعدة بني اسرائيل لمصر

المادة ٧ - كانت النتيجة من رحلة بني اسرائيل لمصر ، أنهم بعد موت
يوسف عليه السلام استعبدوا في مصر ، أيام فرعونها (آحس الأول) مؤسس
الدولة الثامنة عشرة ، إلى أيام (سبتي الأول) منتهي عظمة الدولة التاسعة عشرة ،
إلى أيام ابنه (رعمسيس الثاني) أعظم ملوك هذه الدولة المذكورة ، ثم أخيراً

توثقوا كالمصريين ، وكان السبب الأساسي في ذلك هو حركة (ثعمون) الثورية ، التي كانت حين كان يوسف ابن ١٧ سنة يوم عدائه الشديد ليوسف عليه السلام ، يوم مفاوضته لاختوته في قتله أو طرحه أرضاً ، يوم ما قرروا أخيراً بإجماع الكلمة القاءه في جب (دوثنان) فلعمنة الله على تلك الساعة المشئومة ، تلك الساعة الشيطانية ، ساعة النجاسة ، التي لا يمثّلها اليوم سوى ما حدث في (الحرب العالمية الأولى) ، مع النظر لسببها الأساسي ، وهو إطلاق (برزب) المصري رصاصة على (الارشيدوق فرز) ولي عهد النمسا عام ١٩١٤ م .

الإرهاص والمعجزة

المادة ٨ — إن حملنا قوله « يأت بصيراً » على معنى « يصير بصيراً » ، تكون الحادثة من قبيل خوارق العادة ، فإن كان هذا قبل نبوة يوسف ، كان من قبيل الإرهاص ، وإن كان بعدها كان من قبيل المعجزة .

عطايا يوسف لأخوته عند زهابهم لحلب أهلهم

المادة ٩ — (اعطاهم يوسف عليه السلام عجالات ، أي مركبات تجرها الحيوانات ، لأجل أبيه وأولادهم ونسائهم ، وأعطاهم زاداً للطريق ، وأعطى كل واحد منهم حلل ثياب ، وأما بنيامين فاعطاه ثلاثمائة من الفضة وخمس حلل ثياب ، وكانت هبة الثياب تعد في الشرق اكراماً ممتلئاً ، وأرسل لأبيه عشرة حمير حاملة من خيرات مصر ، وعشر أتن حاملة حنطة وطعاماً ، لأبيه لأجل الطريق ، أي طريق الحبيء إلى مصر) (تك ٤٥ : ٢١ - ٢٣) .

عودة القافلة بالبشارة

آ (٩٤) ﴿... وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ، قَالَ أَبُوهُمْ : إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ! لَوْلَا أُنْ تُفَنِّدُونِ...﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الرابعة والتسعون فقام مولانا عبد الحى الديماطي وقال :

صدع اخوة يوسف بأمر أخيه ، وانصاعوا لشارته ، وركبوا دوابهم ، ونشطوا في المَدْوِ ، وساروا سيراً حثيثاً ، لا يلوون على شيء ، حتى جاوزوا الحدود المصرية ، (ولما فصلت) أي انفصلت (العير) الإبل ، وتعدت « الفرما » وهي آخر حدود المملكة المصرية ، وهم يحملون بشرى اسناد « وزارة المالية » لهدهة أخيه يوسف ، ونبأ ذلك « القميص » الكريم الذي قصه الله إياه ، (قال أبوه) يعقوب عليه السلام ، حسباً ألهمه الله تعالى ، وهو جالس بين ظهرائي أولاد أولاده (إني أجد) — من الوجدان الذي كما يطلق على الحسي ، يطلق على المعنوي — أي أجد بقلبي وأدرك بالهامي ، (ربح) عمكم (يوسف) — والربح هنا بمعنى القوة والمنصب والشوكة والدولة والغلبة والنصرة ، فإنها تأتي بكل هذه المعاني كما في معاجم اللغة ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فِيهَا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ (٨ : ٤٧) أي قوتكم أو شوكتكم أو دولتكم الخ الخ . . ، ويقولون : « هبت ربح فلان » اذا واثاه الدهر وساعدته المقادير وتحسن حاله عن ذي قبل ، وانتصر على أعدائه وتغلب وقوي وأعطى مراده (لولا أن تفندون) أي تُعَجِّزُون وتُكْذِبُون وتُسْقِطُون ونُجْهَلُون وتضعفون وتُهْزَمُون ، — والتقيد النسبة إلى الفند ، وهو الخرف وانكار العقل من الهرم ، — أي لولا تفنيدكم إليّ لي صدقتموني .

هذا ما أقوله أيها السادة تكميلاً وتمضيلاً لما ذهبت إليه سابقاً من أن هذا « القميص » هو أمر معنوي عبارة عن رتبة الوزارة والله تعالى أعلم .

(ولما فصلت العير . . الخ)

— ٢ —

وقام الشيخ نور الدين المدرس في جامعة عليكرة في الهند وقال :

تخيل يعقوب رائحة يوسف مع النسيم

كان يوسف عليه السلام تكلم مع اخوته بكلامه الآنف الذكر ، فسمعوا ما لم يجر في ظنهم ، ولا سنع على فكرهم ، سموه فأَمِيتَتْ خَيْفَتَهُمْ ، واتعشت أرواحهم فقالوا : « نعمل مأمورين طائعين » ، ثم ركبوا دوابهم ووخزوها وأطلقوا لها الأعنة ، وهم يهبون الأرض نهباً ويطوون البيداء طياً ، ساروا ووجهتهم فلسطين ، يقطعون السهل والوعر ، وهم يودون أن يطيروا على أجنحة النسيم ، وصاروا يتفكرون في أمر يوسف ، ويتعجبون من هذا الحال الذي وصل إليه أخوهم ، ويردّدون بينهم وبين أنفسهم معنى قول الشاعر :

الجدّ يدني كل أمر شاسع	والجدّ يفتح كل باب مغلق
فاذا سمعت بأن مجدودا حوى	عوداً ، فأثمر في يديه ، فحقّق
واذا سمعت بأن محروماً أتى	ماءً ليشربه ، ففاص ، فصدّق

مشت دوابهم في تلك الصحراء الرملية ، منحدرّة تارة ، ومرتفعة أخرى ، وهي تمخر عباب السراب مخراً ، حتى قاربوا آخر حدود مصر ، ولما انفصلت دوابهم من « المريش » آخر حدود المملكة المصرية ، وجاوزت حيطانه ، قال يعقوب بلسان الدهشة ، وبصوت محتق ، ونفس أسيفة ، وهو جالس بين ظهرائي أولاد أولاده : « يا حفتي ، يا لمعجب ! لعمري إنه يلوح لي أن الزمان المنتظر قد اقترب ، إني لأجد

ربح عمكم يوسف العاطر ، وأن « نسيم الصبا جاءت برّيا القرنفل » قد حمّله
النسيم الى قلبي فأنشئه ، وإلى أنفي فملأه عرفاً شديداً — هذا ما قاله
يعقوب ايها السادة ، شأن كل عاشق إذا سرت « نسمة عطرة » وجد ربح
معشوقه فيها ، وإذا ومض « البرق » ظن أنه وميض ثغره ، وإذا سمع « تغريد
الآطيار » تخيل أنه صوت حبيبه ، وإذا لمس « ثوب قطيفة » ، تصور أنه لمس
جسمه ، وإذا رأى « غصناً معتدلاً » خال أنه قوامه ، وهكذا ... وهذا التنوع
من التطورات لا يدركه إلا أهل الحب كما قال :

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبا به إلا من يعانها

وبعبارة أخرى : كان يخيل لسيدنا يعقوب عليه السلام ، أن يوسف ملأ قلبه ، ثم
فاض عنه الى جميع الكائنات التي بين يديه ، فكان يرى في « صفحة السماء » صورة
يوسف ، ويسمع في « تغريد البلابل والشحارير » صوت يوسف ، ويستشرق من
« لألأ الشمس » نور يوسف ، ويتراآى له من « باقة الورد والياسمين والفل » لون
يوسف ، ويستروح في « النسيم المطير » رائحة يوسف ، ويرى في « بريق السماء »
ثغر يوسف ، وفي « الماء الرقاق » رقة عواطف يوسف ،

لقد فصلت « العير » وحمل الصبا رائحة ابنه ، فهاج وجدّه وحنينه وأخذ
يعانق الهواء ، ويضمه اليه ، كما يضم حبيباً ملقى بين يديه .

واختم كلامي هذا بتوجيهات عديدة ربما نقدر أن نفهم بها كلام سيدنا يعقوب
عليه السلام ، ونوردها فيما يلي :

تنسم يعقوب ربح يوسف عابقة من قيص الكتان

التوجيه الأول — لقد اثبت الشعراء ان للحب خصائص ، منها « تواصل
الأرواح » لاسيما عند القرب ، ومنها « خفق القلوب » عند مرور الأحبة ، ومنها
« تخيل صورة » المحبوب ، ومنها « تنسم ريحه » ، كلما هبت الصبا ؛ والمحـب يتحسـس

بما لا يتحسس به سواء ، وعليه فلا غرابة في أن سيدنا يعقوب تسم ربح ولده
عابقة من القميص — على القول بأن القميص لباس — فللحب سيال يخرق الصرة
التي فيها القميص ، كما تخرق الكهرباء والحرارة الأجسام .
وعلى هذا المذهب الذي نحا إليه الشعراء وردت عنهم منظومات كثيرة منها
قول بعضهم :

أيا جبيلي « نمان » بالله خليّا نسيم الصبا يخلص اليّ نسيمها
فإن الصبار يريح متى ماتتسمت على نفس مهموم أزالته همومها
ولما صرنا الأديب السيد أحمد عبيد الدمشقي :

وزهرة راق منها منظر عجب إذا تقطت بنديّ كالدر منتشر
قد فاتها الأرج الزاكي ولو علقت بمن أحب لفازت بالشدّا العطر
ولجميل بثينة :

أيا ربح الشّمال أما ترّاني أهيّم وإني بادي النحول
هي لي نسمة من ربح « بثّن » ومّني بالهبوب اليّ « جميل »
ولعلية ابنة المهدي العباسية أخت هرون الرشيد :

ومعترّب « بالمرج » يبكي بشجوه وقد غاب عنه المُسمدون على الحب
إذا ما أتاه الركب من نحو أرضه تنشقّ يستنشق برائحة الركب
وقال بعضهم :

واني لأستنشق بكل غمامة يهب بها من نحو أرضك ربح
وقال آخر :

ألا يأنس الصبح مالك كلما تقربت منا فاح نشارك طيباً ؟
كأن سليمي نُبئت بسقامنا فاعطتك رّياها ، فجئت طيباً

وقال البحترى :

ورق نسيم الريح حتى حسبته يحىء بأنفاس الأجبسة نعبها

ومن ميمية البوصيري :

أم هبت الريح من تلقاء كاظمة وأومض البرق في الظلماء من إضم

حس يعقوب رائحة قميص يوسف بالشم

التوجيه الثاني — ربما ان الله تعالى كان أرسل على الحقيقة ، رائحة قميص يوسف عليه السلام مع نسيم الصبا ، وان الآله القدير الذي أوصل صوت عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وهو على المنبر بالمدينة — الى قائد جيش المسلمين «سارية» بن زُنَيْم ، وقيل ابن رستم الجُلُحِي ، وهو في نهاوند (١) لهو قادر على أن يوصل ريح قميص يوسف من آخر حدود مصر الى فلسطين ، وقد قرأنا في الصحف السيارة أنه وقف رجل وامرأة في لندن في غرفة «مختبر» تحتوي على آلة نقل الصورة (تليفزيون) المدهشة التي تحمل الصورة «كما يحمل الراديو الصوت» الى مسافة الوف الأميال ، فشوهدت صورتها في غرفة «مختبر» آخر ، في بلدة قريبة من نيويورك . فكما نؤمن بهذه الحوادث المستندة على آلات وأعمال فنية ، يجب أن نؤمن بالحوادث التي أخبر بها خالق الفنون والآلات .

خمسة يعقوب برائحة يوسف تحسناً معنوياً

التوجيه الثالث — قال الجاحظ : للعرب إقدام على الكلام ، ثقة منهم بفهم

(١) وفي هذه القصة كرامتان ، أحدهما ان عمر (رض) اطلع وهو على منبر حرم المدينة على حال جيش سارية مع العدو في نهاوند ، وان العدو أعد له كميناً في الجبل ، والثانية انه ناداه «ياسارية الجبل» فأسمعه ، كذا روى هذه القصة البيهقي من المحدثين وتناقلها كثير من المؤرخين .

المخاطب من أصحابهم عنهم ، كما جوزوا أن يقولوا : « ذُقْتُ » ، لما ليس يطعم ، وهو قول الرجل اذا بالغ في عقوبة عبده : « ذُق » ، و« كيف ذُقْتَه ؟ » أي وجدت طعمه ، قال الله تعالى : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ (٤٩:٤٤) ، وقال تعالى ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ، بما كانوا يصنعون ﴾ (١١٢:١٦) وقال تعالى : ﴿ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِكُمْ ﴾ (١٥:٥٩) ثم قالوا : « طعمت » ، لتغير الطعام ، كما قال المرّجي :

فَإِنْ شِئْتُ حَرَّمْتُ النِّسَاءَ سِوَاكُمْ وَإِنْ شِئْتُ لَمْ أَطْعَمْ تَقَاخُولَا بَرْدًا (١)

فنظيره هنا قول سيدنا يعقوب : « إني لأجد ريح يوسف » حال كون كل من يوسف ، ومقيسه ليس له رائحة ، وإنما هو مجاز عن تحسسه بآبته تحسّساً معنوياً على الوجه الذي يفهمه هو ، ويعلمه الله تعالى .

اقتباس يعقوب ربيع يوسف بدون وساطة الحواس

التوجيه الرابع — ثبت أن الأنفس البشرية يقتبس بعضها العلم من الموجودات بشراً أو غير بشر ، وهذا الاقتباس يكون بدون وساطة الحواس وبدون الاستنباط العقلي ، كما شاهده بعض الأطباء الماديين ، الذين كانوا ينكرون مثل هذا ، فانه روى عن مريض كان يعالجه ذلك الطبيب في مصر القاهره انه — أي المريض — قال : « إن فلاناً — وذكر قريباً له في الاسكندرية — يريد أن يسافر الآن إلى مصر ، لأجل أن يعودني في مرضي » ، ثم أن هذا المريض عين القطار الحديدي الذي ركب فيه ، ثم الوقت الذي وصل فيه الى محطة مصر ، ثم لم تكن إلا مسافة سير المركبة بين المحطة ودار المريض إلا وقد وصل هذا القريب ، وكان ذلك الطبيب ينتظره لاستبانة المكاشفة ؟؟..

(١) فقه اللغة ، والنقاح كغراب : الماء البارد والنوم في العافية والامن ، والبرد : النوم.

وكان من اخبار هذا المريض انه سيرعف أنفه في ساعة كذا من نهار غد ،
ويخرج من دمه ما يبلغ وزنه كذا ، فكان كما قال !! .
هذه حكاية المريض ، فلم لا يجوز أن يقتبس سيدنا يعقوب عليه السلام ريح
ولده يوسف ، كما اقتبس هذا المريض ريح قريبه ؟ اللهم ان هذا جائز عقلاً
ومروي نقلاً ..

وفي صحيح مسلم ، ان « أنس بن النضر » قال يوم أُحُد : « واهاً ^(١) لريح
الجنة ، أجده دون أُحُدٍ » فقاتل فيه حتى قتل ، وقد ورد في الحديث الصحيح :
« إن ريحها يوجد من مسيرة خمسمائة عام » ، فكل هذا وما اليه يحمل على ماسبق .

ادراك يعقوب رائحة يوسف الهاماً بقلبه

التوجيه الخامس — تعلمون ان الادراك يكون حسياً ، أي بإحدى الحواس
الخمسة ، ويكون معنوياً ، أي بالقلب ، فأما الأول ، فلأن الله جعل في العين ،
قوة باصرة ، كما جعل في الأذن ، قوة سامعة ، وفي الأنف قوة شامة ، وفي الجلد
قوة حاسة ، وفي اللسان قوة ذائقة .

وأما الثاني ، وهو ادراك القلب ، فهو انكشاف صورة المعلوم للانسان ، بحيث
تكون نسبته إلى القلب ، كنسبة المرئي إلى العين مثلاً ، وقد جعل الله سبحانه
القلب يبصر ويعمى ، كما تبصر العين وتعمى ، قال تعالى : ﴿ فَإِنهَا لَا تَعْمَى
الْأَبْصَارُ ، وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (٤٦: ٢٢) ، فالقلب
يرى ويسمع ويشم ويدوق ويحس ، بل هذه القوى فيه ، أبلغ من قوى
الحواس الخمس ..

والخلاصة : الادراك نوعان ، إدراك بالحس ، وإدراك بالبصيرة ، فادراك

(١) واهاً كلمة تخنن وتلهف .

الحس وقوعه على نفس المحسوس أو مثاله الخارجي ، كرؤية وجه الانسان أو رؤية مثاله في المرآة والماء والصورة الشمسية ، وأما الادراك بالبصيرة ، فوقع القوة العاقلة على المثال العلمي المطابق للخارجي ، فيكون ادراكه له بمنزلة إدراك العين مثلاً ، للصورة الخارجية ، أو الأنف مثلاً « للريح » الخارجية ، وقديوى سلطان هذا الادراك الباطن ، بحيث يصير الحكم له ، ويقوى استحضار القوة العاقلة لمدرکہا بحيث يستغرق فيه ، فيغلب حكم القلب على حكم الحس ، فيستولي على السمع والبصر والأنف ، بحيث يراه ويسمع خطابه في الخارج ، وكذلك يشم « ريحه » ، وهو في النفس والذهن فقط ، لكن لقلبة الشهود ، وقوة الاستحضار وتمكن حكم القلب ، واستيلائه على القوى ، صار كأنه مرئي بالعين ، مسموع بالاذن ، مشموم بالأنف ، بحيث لا يشك المدرك في ذلك ، ولا يرتاب البتة ولا يقبل عذلاً : وحقيقة الأمر أن ذلك كله شواهد وأمثلة علمية ، تابعة للمعتقد .

فذلك الذي أدرك بعين القلب أو سمع القلب أو « أنف » القلب ، إنما هو شاهد دال على الحقيقة ، وليس نفس الحقيقة ، فإن شاهد نور جلال الذات في قلب العبد ، ليس هو نفس نور الذات الذي لا تقوم له السموات والأرض ، فانه لو ظهر لها ، لتدكدكت وأصابها ما أصاب الجبل ، وكذلك شاهد نور العظمة في القلب ، إنما هو نور التعظيم والاجلال ، لا نور نفس المعظم ذي الجلال والاکرام ، وهكذا هنا شاهد « ریح » يوسف ، ليس هو نفس رائحة يوسف ، ولكنه مثاله في المطر والشذا ، وأما نفس رائحته وحقيقتها ، فهي وراء ذلك ؛

فهذه الأمور التي قد يدركها الانسان ، إنما هي شواهد تقوم بقلبه ، كما يقوم بقلبه شاهد من الآخرة والجنة والنار ، وما أعد الله لأهلها ، وهذا هو الذي وجده انس بن النضر (رض) يوم أُحُد ، لما قال : « واهأ لريح الجنة ، اني أجد ريحها دون أُحُد » ومن هذا قوله ﷺ : « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا ،

— قالوا: وما رياض الجنة؟ — قال: حِلَقُ الذكر، وقوله: « ما بين يتي ومنبري روضة من رياض الجنة »، فهو روضة لأهل العلم والايمان، لما يقوم بقلوبهم من شواهد الجنة، حتى كأنها مرئية لهم رأي العين؛ ولكن إذا قصد المناقح هناك، لم يكن ذلك المكان في حقه، روضة من رياض الجنة، ومن هذا حديث: « الجنة تحت ظلال السيوف » (انتهى ملخصاً من بعض كتب الصوفية). وبناء على ما تقدم فلا مانع من أن المقصود من كلام يعقوب عليه السلام، انه أدرك بقلبه إلهاماً رائحة يوسف، ويقصد من تلك الرائحة « الأثر » من آثاره، كما يقال: « هذا الثوب أو هذا الكتاب أو السيف من رائحة فلان » اي هو اثر من آثاره، فكأنه يقول: إني لقد اتقي في روحي وصار عندي وجدان قلبي، من طريق الإلهام ادركت به اثرأ من آثار ولدي يوسف، وهو القميص المزعم ان يكون عندي قريباً.

جواز ادراك يعقوب رائحة يوسف كما يدرك المنوم تنوعاً مغناطيسياً الاشياء
التوجيه السادس — للانبياأ أحوال، يغميون فيها عن الناس الحاضرين، ليجدوا ما عاب عن حواسهم، من قبيل ما يحصل عند المنوم تنوعاً مغناطيسياً، وهذا النائم يرى البعيد، كما يرى القريب، وتسمى تلك الحالة « بالرؤيا الواضحة »، وفيها يشعر الانسان ايضاً بالاشياء، وان كانت عيناه مغمضتين، بل يمكنه القراءة بأي جزء من جسمه، فقد حدث في محاكم مصر بتاريخ ٣ كانون الاول سنة ١٩١٣ م، انه نومت فتاة قبطية تنوعاً مغناطيسياً، فكانت تقرأ الساعة بعدتها امام القضاة، وكانت ترى الاشياء من قفاها، ورأت ما يد أحد الحمامين، وعيناها معصوبتان، ويد الحمامي مقبوضة. فاذا تقرر هذا، فهذه الحالة التي كانت حصلت ليعقوب عليه السلام، ليست بأقل من حالة المنوم تنوعاً مغناطيسياً، بل هي أقوى وأرقى بكثير، ومن النوادر التاريخية التي لا تبعد صحتها، ماروي ان عمر رضي

الله عنه ؛ كان يخطب بالمدينة ، فصاح في اثناء خطبته : « ياسارية الجبل ، ياسارية الجبل ، من استرعى الذئب الغنم فقد ظلم » ، ثم عاد الى الخطبة ، حتى قال فيه بعض الصحابة : « إنه جنٌ » ، ولما مثل رضي الله عنه عن ذلك ، قال بانه رأى جيوش المسلمين تكاد تفتك بها الاعاجم على أبواب « نهاوند » فصاح بقائدهم ليتحصن بالجبل ، وبعد ذلك جاءت الاخبار بأن المسلمين كادوا ينهزمون ، لولا أن « سارية » القائد ، سمع مع بعضهم هاتفاً يرشدهم الى الجبل ، فدهش الناس لذلك ، وعلموا منه مقدار نفس عمر وكبر روحه ، وهذه من اعظم مناقبه ، رضي الله عنه .

شواهد على ادراك الرائحة بالالهام القلبي

التوجيه السابع — كان لعمر بن الخطاب رضي الله عنه أخ اسمه « زيد » (١) قتل في جيش اليمامة (٢) فكان عمر يقول : « ماهبت الريح إلا وجدت فيها رائحة زيد » ولهذا قال أبو العلاء المعري من قصيدة له في كتاب التزوييات :

والقلب يغترى (٣) بما تهدي الرياح له

تكمّلها الريح من زيد إلى عمرا

فما كان يفهمه العرب في كلام عمر (رض) هو الذي ينبغي أن نفهمه في هذا القول الذي صدر من سيدنا يعقوب عليه السلام ، فالقول واحد ، فيجب أن يكون المعنى واحداً .

(١) القول انه اخوه مصرح به في « الاغانى » وفي « منهاج السنة » خلافاً لما في ديوان ابي العلاء المعري من انه ابنه .

(٢) ارسل ابو بكر هذا الجيش في خلافته تحت قيادة خالد بن الوليد لبني حيفة في اليمامة حيث ارتدوا وآمنوا بمسيلة .

(٣) من غري الرجل بكدا : اولع به ولم ذكره .

ونظير هذا ما في الأغاني لأبي فرج الأصهباني ، في أخبار « عروة بن الورد » وأحاديثه الحسان ، وقد كان مشهوراً بالسرقة والاحسان . رَوَى أَنَّهُ جَاءَ لَيْلاً لِيَسْرِقَ شَيْئاً ، فَكُنَّ فِي كَسْرٍ بَيْتِ رَجُلٍ ، كَانَ غَائِباً عَنْ زَوْجَتِهِ ، فَأَتَاهَا عَبْدُ زَوْجِهَا ، وَكَانَ أَسْوَدٌ — بَعْلَبَةٌ فِيهَا لَبَنٌ ، وَقَالَ لَهَا : « اِشْرَبِي » — فَقَالَتْ : « لَا . . أَوْ تَبْدَأُ » ، فَبَدَأَ الْأَسْوَدُ فَشَرِبَ . وَ« عروة » ينظر ، ثم جاء رجلها ، ودعا بالملبة ليشرب ، فقال حين ذهب ليكرعَ : « رِيحَ رَجُلٍ وَرَبِّ الْكُعْبَةِ » ، يَتَهَمُهَا بِاتِّخَاذِ خَدَنٍ ، فَقَالَتْ أَمْرَأَتُهُ : « وَأَيُّ رِيحٍ رَجُلٍ تَجِدُهُ فِي إِيَّاكَ غَيْرَ رِيحِكَ ؟ ! » ، ثُمَّ صَاحَتْ خِفَاءً قَوْمَهَا ، فَأَخْبَرْتَهُمْ خَبْرَهُ وَقَالَتْ : « يَتَهَمُنِي وَيُظَنُّ بِي الظُّنُونُ » ، فَأَقْبَلُوا عَلَيْهِ بِاللُّومِ ، حَتَّى رَجَعَ عَنْ قَوْلِهِ ، ثُمَّ أَوَى الرَّجُلُ إِلَى فَرَّاشِهِ ، فَوُثِبَ عُرْوَةُ إِلَى فَرَسِ ذَاكَ الرَّجُلِ ، فَذَهَبَ بِهِ ، فَرَكِبَ الرَّجُلُ فَرَساً عِنْدَهُ أُخْرَى ، وَجَعَلَ يَرْكُضُ وَرَاءَهُ ، فَلَمَّا انْقَطَعَ عَنِ الْبُيُوتِ ، قَالَ لَهُ « عروة » : « أَيُّهَا الرَّجُلُ قِفْ ، أَنَا عُرْوَةُ بْنُ الْوَرْدِ ، وَقَدْ رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ مِنْكَ عَجَباً ، فَأَخْبِرْنِي بِهِ وَأَرِدْ إِلَيْكَ فَرَسَكَ » — قَالَ : « وَمَا هُوَ ؟ » — قَالَ : « شَمَمْتُ رِيحَ رَجُلٍ فِي إِيَّاكَ ، وَقَدْ رَأَيْتُ أَنَّ الرَّجُلَ حِينَ آتَرْتَهُ زَوْجَتَكَ بِالْإِنَاءِ ، وَهُوَ عَبْدُكَ الْأَسْوَدُ ، فَقُلْتُ رِيحَ رَجُلٍ ، فَلَمْ تَزَلْ زَوْجَتَكَ تَتَنَبَّأُ عَنْ هَذِهِ حَتَّى انْتَبَيْتَ ، فَرَأَيْتُكَ فِي هَذِهِ الْخُصْلَةِ أَكْمَلَ النَّاسِ ، وَلَكِنَّكَ تَتَنَبَّأُ وَتَرْجِعُ ! » فَضَحِكَ الرَّجُلُ وَقَالَ : « إِنَّ الَّذِي رَأَيْتَ مِنْ صِرَافَتِي وَحَسَنِ فِرَاسَتِي ، فَهُوَ مِنْ قَبْلِ أَعْمَامِي ، وَرَأَيْتَ مِنْ ضَعْفِي وَعَدَمِ ثَبَاتِي ، فَهُوَ مِنْ قَبْلِ أَخْوَالِي ، وَهُوَ بَطْنٌ مِنْ خِرَازَةِ ، وَالْمَرَأَةُ الَّتِي رَأَيْتَ عِنْدِي ، أَمْرَأَةٌ مِنْهُمْ ، وَأَنَا نَازِلٌ فِيهِمْ ، وَأَنَا مِنْذُ الْآنَ لَاحِقٌ بِقَوْمِي ، وَخَارِجٌ عَنْ أَخْوَالِي هَؤُلَاءِ ، وَنَحْنُ سَبِيلُ الْمَرَأَةِ !!! » — فَقَالَتْ عُرْوَةُ : « خذْ فَرَسَكَ رَاشِداً » — قَالَ : « مَا كُنْتُ لَأَخْذَهُ مِنْكَ ، وَعِنْدِي مِنْ نَسْلِهِ جَمَاعَةٌ مِثْلُهُ ، نَحْنُ مَبَارِكَا لَكَ فِيهِ ! » .

وفي الأغاني أيضاً : حدث عمرو بن الزبير قال : سألت « كلاب » بن أمية ابن الأسكر : « أي الأعمال أفضل في الإسلام ؟ » — « فقليل له : الجهاد ، فسأل عمرو بن الخطاب فأغزاه في جيش مع أبي موسى الأشعري ، وكان أبوه قد كبر وضعف ، فلما طالت عنه غيبة « كلاب » قال :

أناديه فيعرض في آباء
تركت أباك مرعشة يداه
فلا وأبي كلاب ما أصابا
وأملك ماتسيخ لها شرابا
ولنك والتمس الأجر بمدي
كباغي الماء يتبع السرابا

وطالت غيبة « كلاب » ، فأهتير^(١) « أمية » وخلط جزعاً عليه ، ثم أتى عمرَ يوماً ، وهو في المسجد ، وحوله المهاجرون والأنصار فوقف عليه ، ثم أنشأ يقول :

أعاذل قد عذلت بغير قدر
فإما كنت عاذلي فردتي
ولا تدرين عاذل ما ألاني
شديد الركن في يوم التلاقي
ففي الفتيان في عسر ويسر
ولا شغفي عليك ولا اشتياقي
وإيقادي عليك إذا شتونا
وضمك تحت نحري واعتناقي
فلم سواد قلبي بانفلاق
له دفع الحجيح إلى بساق^(٣)
ببطن الأخشين^(٤) إلى دفاق^(٥)
فأدعو الله مجتهداً عليه

(١) اهتر الرجل : فقد عقله من كبر أو مرض أو حزن .

(٢) حطام الوجد : الحزن الذي يكسر القلب .

(٣) بساق : جبل برفات .

(٤) الأخشبان : جبال مكة .

(٥) دفاق : واد .

إِنْ « الفاروق » لم يردد « كلاباً » إلى شيخان^(١) هاسبها زواني^(٢)
قال فبكي « عمر » بكاءً شديداً ، وكتب برد « كلاب » إلى المدينة المنورة ،
فلما قدم دخل إلى عمر ، فقال له : « ما بَلَغَ من برك لأبيك ؟ » - قال : « كنت
أؤثره وأكفيه أمره ، وكنت أعتد إذا أردت أن أحلب لبناً - أغزر ناقة في
إبله واسمئها ، فأريحها^(٣) وأتركها حتى تستقر ، ثم أغسل أخلانها^(٤) حتى تبرد ،
فاحتلب له فأسقيه » ، فبعث عمر إلى أمية من جاء به إليه ، فأدخله يتهدى^(٥) ،
وقد ضعف بصره وانحنى ، فقال له : « كيف أنت يا أبا كلاب ؟ » - قال : « كما
تراني يا أمير المؤمنين » - قال : « فهل لك من حاجة ؟ » - قال : « نعم ، كنت
أشتهي أن أرى كلاباً ، فأشمتُه شمة ، واضمته ضمة قبل أن أموت » - فبكي عمر ثم
قال : « ستبلغ من هذا ما تحب إن شاء الله تعالى » ، ثم أمر « كلاباً » أن يحتلب
لأبيه ناقة ، كما كان يفعل ، ويبيع إليه بلبنها ، ففعل ، فناولته عمر الإناء وقال :
« دونك هذا يا أبا كلاب » ، فلما أخذه وأدناه إلى فمه قال : « نعم والله يا أمير المؤمنين ،
أني لأشمت رائحة ولدي كلاب من هذا الإناء !! » ، فبكي عمر وقال : « هذا
كلاب عندك حاضر أقد جئتاك به » ، فوثب إلى ابنه وضمه إليه وقبله ، وجعل عمر
يبكي ومن حضره ، وقال لـكلاب : « ألزم أبويك فجاهد فيها ما بقيا ، ثم شأنك
بنفسك بعدهما » ، وأمر له بعطائه ، وصرفه مع أبيه ، فلم يزل معه مقيماً ، حتى
مات أبواه !!!

ومن هذا القبيل قول امرأة « كعب بن الأشرف » : « إني لأسمع

(١) شيخان : هذا على لغة من ينصب ويجر المثنى بالألف

(٢) زنى الصدى : صياح ، والهام جمع هامة ، والصدى قيل هو طائر صغير يخرج من رأس الميت (على زعمهم) .

(٣) أراح الإبل : أدخلها في المراح أي الماوي

(٤) الخلف : جمع حلف بالكسر وهو صرع الناقة

(٥) التهادي : مصي فيه ثقل وتقاليل وضعف .

صوتاً ، كأنه صوت دم ، ، وذلك ليلة قتله ، حينما ذهب اليه « محمد بن مسلمة » ، فدعاه ليلاً ، فنزل كعب اليه ، فقتل .

فما يفهم العرب في سماع امرأة كعب صوت الدم من لفظ محمد بن مسلمة ، وفي شتم أمية رائحة ولده كلاب من الاناء ، وفي شتم زوج المرأة ريح رجل في علبه الابن ، وفي شتم سيدنا عمر رائحة أخيه زيد في كل ريح تهب من جهة اليمامة — ما يفهمه العرب في هذا كله يجب أن نفهمه نحن في قول سيدنا يعقوب « اني لأجد ريح يوسف »؛

انتقال رائحة يوسف ليعقوب مع الريح

التوجيه السابع — تعلمون ان المخلوقات قسمان: أجسام كثيفة وأرواح لطيفة ، وان الارواح هي المؤثرة في الاشباح ، فاللطيف هو الذي يحدث في الكثيف الحي كل ما يطرأ عليه ، ومن ذلك الفرح والحزن ، والرجاء واليأس ، والنمو والحركة ، والنور والظلمة ، والقبض والبسط ، والسمع والصمم ، والشم والخلشَم^(١) ، والحر والبرد ، إلى غير ذلك .

خذ مثلاً اليك :

١ — الهواء الذي لولاه لما عاشت هذه الأحياء ، الهواء « روح » ولذلك كان من اسمائه إذا تحرك « الريح » ، وأصلها « رَوْح » بكسر الراء ، ولأجل الكسر قلبت الواو بآء .

٢ — الماء الذي منه كل شيء حي ، هو مركب من روحين لطيفين ، وهو يكاد يكون في حال التركيب وسطاً بين الكثيف واللطيف ، ولكنه الى الثاني أقرب .

٣ — الكهرباء ، فهي من الأرواح اللطيفة ، وناهيك بفعلها في الاشباح ،

(١) الخشم : بطلان حس الشم .

فهذه الموجودات اللطيفة التي تسمى أرواحا ، هي التي تحدث معظم التغيير الذي نشاهده في الكون ؟

إذا تمهد هذا نقول : إن الله المسخر للأرواح المنبثة في الكائنات قد أرسل سيدنا يعقوب رائحة يوسف ، مع بعض المخلوقات اللطيفة كالريح . فآخبر بذلك .

نحن نعلم أنه يصعب على كثير من الشبية العصريين الاعتقاد بأن رائحة قبص يوسف ، وهي من الأعراض قد انتقلت مع الهواء المتحرك من بلد إلى بلد آخر — يستصعبون هذا جموداً على العادات ، ولو كان لهم دليل عقلي على عدم ذلك ، لكانوا معذورين ، ولكن لا دليل لهم إلا أن هذا غير معتاد ، وهم في كل يوم يرون من شؤون الكون ما لم يكن معتاداً من قبل ، فمنه ما يعرفون له سبباً ، ويعبرون عنه بالاكتشاف والاختراع ، ومنه ما لا يعرفون له سبباً ، ويعبرون عنه بقلات الطبيعة ؛ ونحن نقول : إن تلك الأشياء المبر عنها بالقلات ، قد يكون لها سبب خفي ، لم يقفوا عليه ، وشم سيدنا يعقوب رائحة يوسف لا ينزل عن ذلك ، وإما أن يكون قد وجدت في الواقع ونفس الأمر خارقة لنظام الأسباب ، لان الأسباب الظاهرة ليست واجبة وجوباً عقلياً مضطرباً ، وإذا كان الأمر كذلك ، امتنع على العاقل أن يذكر شيئاً ما ، ويعده مستحيلاً ، لأنه لم يعرف له سبباً ، ولعل أبناء العصور السابقة ، كانوا أقرب إلى أن يعذروا بإنكار غير المألوف من أبناء هذا العصر ، الذي ظهر فيه من أعمال الناس ما لو حدث به عقلاء الغابرين ، لعدوه من خرافات الدجالين .

اعتبار ربح يوسف استعارة مكنية مرشحة

التوجيه الثامن — يقولون « نطق الحال بكذا » ، وأن هذا استعارة مكنية ، بأن شبت الحال بإنسان ذي نطق ، وحذف لفظ المشبه به وهو الإنسان ، ورمز إليه بشيء من لوازمه ، وهو النطق ، على سبيل الاستعارة المكنية المرشحة ، سميت

مكنية ، لأنه حذف فيها لفظ المشبه به ، وهو الانسان ، وسميت مرشحة ، لأنها رشحت بما يناسب المشبه به وهو النطق ، قالوا : « وهذا الترشيح يجوز أن يبقى على حقيقته ، لا يقصد به إلا تقوية الاستعارة ، ويجوز أن يستعار من المعنى الملائم للمشبه به ، إلى المعنى الملائم للمشبه ، بأن يستعار النطق للدلالة استعارة تصريحية تبعية » ، إذا تقرر هذا فيجوز أن يكون « ربح يوسف » من هذا القبيل ، أغنى استعارة مكنية مرشحة ، وتقريرها أن يقال : شبه يوسف بالغيث ، وحذف لفظ المشبه به ، وهو الغيث ، ورمز اليه بشيء من لوازمه ، وهو الريح ، على سبيل الاستعارة المكنية المرشحة ، سميت مكنية ، لأنه حذف فيها لفظ المشبه به ، وهو الغيث ، وسميت مرشحة ، لأنها رشحت بما يناسب المشبه به ، وهو « الريح » ، ثم هذا الترشيح يجوز أن يبقى على حقيقته ، لا يقصد به إلا تقوية الاستعارة ، ويجوز أن يستعار من المعنى الملائم للمشبه به ، إلى المعنى الملائم للمشبه ، بأن يستعار « الريح » للأمرّة والعلامة ، استعارة تصريحية أصلية ، وعليه فيكون المعنى : إني أجد — من الوجدان — علامة يوسف الشبيه بالغيث وقبل الختام نقول : من عجائب تفاوت أفهام البشر ، انه لا يزال الكثيرون ينكرون من أخبار الرسل ما لم يألفوا ولا يرون المعروف منها إلا ما عرفوا ، وإذا قيل لهم فيه أو في مثله : إنه قد اكتشفه « المسيو » فلان ، أو « المستر » فلان ، أو « الهر » علاّن — قبلوه مذعنين ، وقالوا : إنه الحق المبين ، مع أن علم الكيمياء ، وعلم الكهرباء ، ونحوها من العلوم الكونية ، قد وصلت اليوم إلى درجة ، لم يعد يستغرب معها شيء من أخبار علم الغيب ، لا سيما إذا كان المخبرون أخصائيين في هذا القبيل ، مثل الأنبياء والأولياء ؛ هذا ما فتح به الفتح الكريم ، وفوق كل ذي علم عليم .

الاحفاد ينتقدون جدم

آ (٩٥) ﴿قَالُوا: تَاللّٰهِ اِنَّكَ لَفِي ضَلَالٍ قَدِيمٍ ۝﴾

اقتتحت الجلسة ، وتليت الآية الخامسة والتسعون ، فقام الشيخ عبد الحق الطوموي ^(١) وقال :

ما كاد سيدنا يعقوب يتفوه بقوله : « إني لأجد ربح يوسف » أمام أحفاده الذين كانوا حاضرين حوله ، حتى بادروه مؤندين منتقدين بنفس كبيرة ، وصوت جهوري ، و (قالوا) له (تالله) التاء ههنا حرف قسم كالباء والواو ، ولكن فيها زيادة معنى التعجب ، كأنهم تعجبوا من قول جدم « إني لاجد ربح يوسف » ، أو من استمراره على ذكره إياه مع طول العهد (إنك) بإجده (لـ) مستمر حتى الآن (في ضلالك) في ذهابك عن جادة الصواب ، المعروف أنت به منذ (القديم) منذ ولادة عمنا يوسف حتى الآن ؛ بسبب إفراطك لمحبتة ، ولهجك بذكره ، ورجائك للقاءه ، في حين أنه قد مضى وفات ، وصار في عالم الأموات .

حقاً إنه ليدهشنا أيها السادة هذا الانتقاد بل التأنيب ، وإنا لندهش بنوع خاص ، كلما تصورنا أنه صادر من حفدة سيدنا يعقوب ، الذين لم يكونوا أقل انتقاداً عليه من أبنائه القائلين : « إن أبانا لفي ضلال مبين » بل كانوا مثل آبائهم حذو القذة بالقذة ، لأنهم تلاميذهم ، أخذوا عنهم دروس الملاحظة والنقد ، بل لعمرى لقد فاتوا في القحة والبهت أباءهم من ثلاثة وجوه .

١ — الحلف باليمن الغموس ، وأما أبائهم فاتما طعنوا طعناً خلوّاً من اليمين .

٢ — المواجهة ، فإن آبائهم لم يصفوا سيدنا يعقوب بهذا الوصف الشائن إلا

في غيبته ، ولكن هؤلاء الأحفاد واجبوه به مواجهة ، وخطبوه به خطاباً ، ولم يحفظوا منزلة الجدودة وكرامتها ، ولم يحترموا له عقيدة ولا مذهباً ، ولم يحتملوا أن يسموا منه رأيه الذي رأى ، قال الشاعر :

وقد أبرك من يرضيك ظاهره وقد أطاعك من يعصيك مستتراً

٣ — تسجيلهم على جدم بأنه عاش — مع الأمف — في ضلال مستمر معه ومنذ ولادة عمهم يوسف بالعراق — الى أن جاء فلسطين — الى أن شرّد منها — الى مصر — الى هذا الوقت ، أي أنه في ضلال طيلة (٣٩) سنة ، ولذلك وصفوه « بالقديم » .

عدم الرد على السفية اوجب لامتهانه من الرد عليه

وأما جدم ، فلما سمع ذلك من أحفاده ، كبر عليه انتقادهم ، وهب جسمه ، وتمرر في داخله ، وتنهّد تنهّداً عميقاً ولم يجيهم بحلوة ولا مرة ، كما كان أجب أولاده الصليبين ، قائلاً : (إنا أشكو بي وحزني الى الله ، وأعلم من الله مالا تعلمون) بل اغتفر لهم حديثهم وخشوتهم ، وتقاضى عن نعمتهم الجافة اليابسة ، واستقبل جفاءهم وغلظتهم بالفض والاحتمال ، أو كأنه سكت ولم يجيهم ، لأنه ذكر أن اعتراضهم عليه ، وإن يكن مصيبة من المصائب ، لكن لاقيمة لمصائب الحياة ، بعد مصابه الذي كان نزل به ، بفقدان يوسف ، وتسريق بنيامين ، واحتباس راوبين ، فلم يعلق جدم أهمية على كلمتهم هذه ، بل سكت ، وفي سكوته ما يغني عن الجواب ، فلمعري ان سكوته عن مجاوبتهم أوجب لامتهانهم من الرد عليهم :

قال الشاعر

قد أفلج الساكت الصموت فربما كلمة تميت
ما كل نطق له جواب جواب ما يكره السكوت

وقال :

وأبعدُ من فاداك من لاتيحيه وأغيط من عاداك من لاتشاكل

وقال :

إذا كان دوني من بليت بجيله أيت لنفسي أن أقابل بالجهل

وإن كان مثلي في محل من العلى سكت إذاً حلياً وصفحاً عن المثل

وإن كنت أدنى منه في الفضل والحجا رأيت له حق التقدم والفضل

وقد قيل : « ما تساب اثنان إلا انحط الأعلى إلى مرتبة الاسفل » لذا لم يجهم
جدهم على قولهم : « تالله إنك لني ضلالك القديم » وقال « حذيفة بن بدر » لرجل :
« أيسرك أن تغلب شر الناس ؟ قال نعم ، قال لن تغلبه حتى تكون شراً منه » ،
وشتم رجل حكيماً ، فقال : « أَسَكُتُ فليست أدخل في حرب ، الغالب فيها شر
من المغلوب » ،

ومنه تعلم أنه لا ينبغي لنا أن نكافئ السفه على سفهه بمثله ، فإننا إن فعلنا ،
قضينا له على أنفسنا ، وأصبحنا شركاءه في الخلة التي ننقمها منه ، فان كان أحدا
لا بد منتقماً ، فليكن مثله مثل « الأحنف بن قيس » ، إذ جاءه رجل قد حمل
له بعض الناس جُعللاً على أن يُفضبه ، فما زال يسبه ويشتمه ، ويُلعن في ذلك إلحاحاً
مخرجاً ، والأحنف ساكت ، لا يقول شيئاً ، حتى ضاق بالرجل أمره ، فانقلب
إلى قومه باكياً نادياً ، يأكل إصبعه أكلًا ، ويقول : « والله ما سكت عني إلا
لهواني عليه » .

أحفاد يعقوب

وقبل الختام ، رب سائل يسأل : إذا كانت أولاده الاثنا عشر غائبين عنه :
ثلاثة منهم بمصر ، وتسعة في الطريق مع العير ، فمن هم هؤلاء الناس الذين خاطبهم
سيدنا يعقوب عليه السلام ؟ والجواب إنهم حفدته ، وهم أولاد أولاده ؟

فلابنه « رأوين » أربعة أولاد ، ولابنه « شمون » ستة أولاد ، ولابنه « لاوي » ثلاثة ، ولابنه « يهوذا » ثلاثة أيضاً ، ولابنه « دان » ولد واحد ، ولابنه « نفتالي » أربعة ، ولابنه « جاد » سبعة ، ولابنه « أشير » أربعة ، ولابنه « يساكر » أربعة بنين ، ولابنه « زبولون » ثلاثة ، ولابنه « بنيامين » ستة (تك ٤٦ : ٩ - ١٨) .
(والسنن القويم) .

فهؤلاء الحفدة الخمسة وأربعون ، كلهم كانوا حوالي جدهم يعقوب عليه السلام بفلسطين ؛

هذا عدا الإناث ، وربما كان الإناث أيضاً ، خصوصاً بنات « ليئة » لمن دخل كبير في الانتقاد على أبيهم سيدنا يعقوب عليه السلام .

البشارة

آ (٩٦) ﴿ ... فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ ، أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ۚ قَالَ : أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ : إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ؟ ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية السادسة والتسعون ، فقام لسأت الحق المحصي وقال :

(فلما أن جاء البشير) وهو الابن الرابع يهوذا ، حاملاً قميص أخيه يوسف الرسمي المصنوع من الكتان ، دخل خيمة أبيه يعقوب ، ثم سلم ، فقال له أبوه : ما وراءك ؟ قال : « كل خير ... بشارتي عليك ، الرائد لا يكذب أهله ، يوسف حي » ثم أخرج القميص و (ألقاه على وجهه) على وجه أبيه يعقوب وعلى عينيه ، أي عرّضه لوجهه حتى رآه (فارتد) أي صار - لأن ارتد تأتي في اللغة العربية

فعلاً ناقصاً بمعنى صار ، فتكون من اخوات « كان » - (بصيراً) عالماً بالقلب ، عارفاً بما عليه يوسف ، لأنه قبل ذلك لم يكن عالماً بما لولده من جاه ومنصب .

ويجوز ان المعنى : لما جاء البشير الى القميص الكنان على وجه يعقوب وعلى عينيه ، فعوفي من شدة فرحه وسروره ، فرجع مبصراً ، هذا إذا حملنا « القميص » على اللباس الحكومي الرسمي ، فان حملناه على القميص المنوي وهو المنصب على وجه الاستعارة ، كان قوله (ألقاه على وجهه) ترشيحاً للاستعارة ، والترشيع يجوز أن يبقى على حقيقته ، ولا يقصد منه إلا تقوية الاستعارة ، ويجوز أن يستعار للمعنى يلائم المشبه ، كأن يقال هنا : إن معنى (ألقاه على وجهه) عرفه به ، أي القاه على ذاته وأحاطه به علماً ، (قال) لهم أبوه ، بصوت التقريع والوعظ ، يا بني ، لم يزل فكري عالماً بالجملة التي كنت أرسلتها لأسماعيل (ألم أقل لكم) سابقاً ، « اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ، ولا تيأسوا من روح الله ، انه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ؟ » ثم ألم أقل لكم : « إني لأجد ريح يوسف ؟ » - فقول القول محذوف ، لأنه معلوم للمخاطبين - وعليه فقوله : (إني أعلم من الله ما لا تعلمون) كلام مبتدأ ، لم يقع عليه القول ، ويحتمل أن المعنى : ألم أقل لكم سابقاً « إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون ؟ » وعليه فهو هو مقول القول ، وإذا جرينا على الاحتمال الأول ، وقفنا على كلمة « لكم » ، وبدأنا بقوله : إني أعلم . الخ وإذا جرينا على الاحتمال الثاني لم يحز الوقف على كلمة « لكم » ، بل يجب وصل الكلام بعضه ببعض لقوة الارتباط بين القول والمقول .

(جيد)

(فلما أن جاء البشير .. الله)

- ٢ -

وقال الشيخ ابراهيم الأزهرى (١):

وصول البشير والقاؤه القميص على وجه يعقوب

سبق أن أولاده الصليبيين انتقدوه حين تولى عنهم وقال : يا أسفاً على يوسف وايبضت عيناه من الحزن ، فقالوا له : « تالله تقناً تذكر يوسف ، حتى تكون حرضاً ، أو تكون من المالكين » فقال لهم : « لما اشكو بي وحزني إلى الله ، وأعلم من الله مالا تعلمون » ، وسبق وما بالعهد من قدم — أنه قال : « لاني لأجد ريح يوسف » فقامت أولاد أولاده عليه ، وانتقدوه على كلامه انتقاداً مرأً ، وما هي إلا سوبعات قليلة ، حتى وصلت العير ، فاستعجلوا البشير الذي يحمل قميص يوسف وهو يهودا بالذهاب والتقدم إلى أبيهم ، لينبئه برجوعهم ويشيره بحياة يوسف ومركزه الرسمي ، وفيما يعقوب جالس في خيمته إذا بالبشير « يهودا » قد دخل عليه وهو يصيح صياح الفرح قائلاً له : « لتهناً بحياة يوسف ، وانه « عزيز مصر » و « وزير ماليها » وهذا هو لبامه الرسمي الذي يدل على نوع رتبته في البلاط الملكي المصري !

فلم تكدموجات هذا الصوت تدرك طبله اذن والدهم حتى افتتح صدره ، وانتعشت آماله وحيي رجاءه ، فأطرفه بالقميص الكتاني ، وألقاه على وجهه ، فأبل من ابيضاض عينيه الناتج عن الحزن ، فارتد بصيراً ، وبرح الخفاء ، وظهر الصبح لذي عينين ، اذ تبدل مرضه بالصحة ، وضعفه بالقوة ، وحزنه بالفرح ، وبكاؤه بالضحك ، وتبلبل أفكاره بالطمأنينة ، وانكسار قلبه بالجبران ، وأسفه بالرجاء ، فارتقى نظره الى دور السلامة كأنما في اضماف هذا القميص جميع عقاير

(١) نسبة إلى الجامع الأزهر في القاهرة (مصر) .

الصحة ، وكل قطرات الشفاء ، أو كأنما هو حلق من حلق الجنة ، من لبسها عوفي من كل سوء ، ومن هذا القبيل استشفاء العشاق بما يهب عليهم من جهة أرض المحبوب ، كما قال :

وإني لاستشفي بكل غمامة تهب بها من نحو أرضك ريح

والتمبير بارتداداه بصيراً توأماً عقب إلقاء القميص على وجهه ، تصوير للقاريء الكريم ، لما كان في ذلك الموقف الرهيب ، من انقلاب سريع وتطور مدهش . ومالبت يعقوب أن قال لأبنائه وأحفاده ، بلسان الفرح أو الاحتجاج ، سامحكم الله ، يا أولادي ويا أحفادي ، ألم أقل لكم سابقاً ولاحقاً ، اني أعلم من أسرار غيب الله ما لا تعلمون ؟ وليس المخبر بالعلم كالراجم بالظنون ، فلم أكن أنطق بذلك جزافاً ، ولم أكن كالحاكي (الفونوغراف) ينقل الصوت بلا شعور ولا إرادة ، بل كنت أتكلم معكم بكلام أقصده قصداً ، وأفهم معناه جيداً ، وأشعر بمراميته ، وأنا كد اقتراب وقوع مضمونه لاحالة ، لأنني لا أتكلم إلا عن الله تعالى ، ولكني كنت أجمل لكم القول إجمالاً ، ولم أقله لكم بالتفصيل ، لأنه ما كل ما يعلم يقال ، وأما الآن فقد زالت الرغبة ، وبدا الصريح .

(فلما أن جاء البشير ... الخ)

— ٣ —

وقال لطفي باشا النابلسي :

خصائص قميص البشارة وردة بصر يعقوب

حكى انه اجتمع في بعض الأزمنة ملوك الأقاليم ، من الصين والهند وفارس والروم ، وقالوا : « ينبغي أن يتكلم كل منا بكلمة تدون عنه على مدى الدهر » : فقال ملك الصين : « أنا على ما لم أقل ، أقدر مني على رد ما قلت » .

وقال ملك الهند : « عجبت لمن يتكلم بالكلمة التي إن كانت له لم تنفعه ، وإن كانت عليه أو بقتة »

وقال ملك فارس : « أنا إذا تكلمت بالكلمة ملكتي ، وإذا لم أتكلم بها ، ملكتها » .

وقال ملك الروم : « ماندمت على ما لم أتكلم به قط ، ولقد ندمت على ما تكلمت به كثيراً » .

إذا كان الأمر هكذا ، فكم ندم أولاد يعقوب عليه السلام وأولاد أولاده على كلامهم السابق الذي أوقعهم في الخجل ، وسجله عليهم التاريخ في باب السباب والشتائم والوقاحة ، ولهذا قال تعالى (فلما أن جاء البشير) يحمل على يده نعمة الخالق إلى المخلوق .. يحمل على يده النبا العظيم الذي كان يعقوب يستشرف إليه منذ (٢١) سنة ، يحمل ليعقوب السرور والغبطة والفرح والجدل ، يحمل ليعقوب الحياة الجديدة ، حياة اللقاء بعد الفارقة ، حياة تلج الصدر بعد الحرقعة ، يحمل ليعقوب نبأ أن فريسة « الذئب » هو في قيد الحياة ... يحمل ليعقوب نبأ أن العبد المملوك أصبح مالكا .. وأن زيل الجب أصبح فوق العرش ... يحمل ليعقوب أن ابن البادية ، الذي كان يرعى الغنم ، قد أصبح اليوم يرعى رعية له هي أهل مصر . يحمل ليعقوب أن صاحب الأحلام ، قد آن للكواكب أن تخزله سجداً ، وأخيراً يحمل ليعقوب اللباس الرسمي مع الرتبة السامية الموجهة عليه من لدن ملك الديار المصرية ، وعند ذلك ألقاه على وجه هذا الشيخ البائس ، وبما في هذا « القميص » من البلاسم الشافية لجراح العيون ، ومن القطرات الممتازة المزيلة لغشاوتها البيضاء ، نشيط وأحس بحركة لا يعبّر عنها إلا بالجرى الكهربائي ، فارتد بصيراً ، لأن صحة بصره شرعت تتراجع إليه ، وجعل نشاطه يدب فيه ديباً ، وابتدأت عيناه تقبلان على الشفاء ، فما مضى أقل مدة يمكن فيها عادة الشفاء

إلا وقد عوفي وشفي ، والتعقيب في كل شيء بحسبه ، كما يقال تزوج زيد فولد له ،
فهذه الفاء هنا مثلاً في قوله تعالى : ﴿ تَمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ، فَأَنْبَتْنَا فِيهَا
حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ، وَحَدَائِقَ غُلْبًا ، وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾
(٨٠ : ٢١ - ٣١) ، وقوله : ﴿ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ، فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ﴾
(٨٧ : ٨٧) وقوله : ﴿ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ ﴾ (٢ : ٢٦٥) ،
وقوله : ﴿ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ ، فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ (٤٣ : ٥٦)
وقوله ﴿ خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا ، فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ﴾ (٢٥ : ٥٤)

تصديق قول يوسف في آية وتصديق قول آية فيه

وبهذا يكون الله قد صدق قول يوسف : « يأت بصيراً » بالفعل ، فيوسف
من عباد الله الذين اذا أرادوا أراد ، كما ان الله أيضاً يجيء البشير بالقميص صدق
بالفعل قول يعقوب « إني لأجد ريح يوسف » ، فيعقوب من الذين إذا وجدوا
الشيء تلميحاً ، وجدوه فيما بعد صريحاً .

أثر المحبوب قد يسبب الشفاء والمعافة . لاسيما متى كان ذلك الأثر يشرب باللقاء ،
كما في هذه الحادثة ، وعلى العكس ربما ان اثر المحبوب قد يسبب الغشي فالموت ،
إذا كان ينذر بعدم اللقاء .

وبعد فمن غرائب التاريخ ، ونوادر الحوادث ، ان الذين يحملون في هذه
المرّة « القميص » الحاضر . الذي يشير إلى حياة يوسف ، وقد نشأ منه سرور
ابهم ، هم الذين كانوا حملوا « القميص » الماضي ، الذي كان يشير إلى موت يوسف ،
وقد نشأ عنه حزن أبهم!!!...

واخيراً أختم كلتي هذه بالتعليقات التالية :

العلم يقر ما كان معتبراً من المعجزات قديماً فلم لا يقر

ارتداد بصري يعقوب بالفناء التقيص علىه

١ - أتى على الانسان حين - وهو يستقد ان الضياء الساطع في ظلام الليل لا يكون إلا من طلعة القمر ، او من لهب النار ، فاذا آس تحت جناح الليل نوراً يتألق بمكان بعيد ، لم يرتب في انه بهرة قمر ، او شعلة نار ، فلم يشعر إلا وقد انضم الى القمر والنار عنصر من عناصر الإنارة وهي « الكهرباء » فلو لم يخترع التنوير بالكهرباء ، وكان فيما نقل من معجزات الرسل إنارة بعض الاجرام من غير ان تمسه نار ، لقال الذين في قلوبهم مرض ، إن الإنارة إنما تنشأ عن لهب النار ولا سبيل الى تحقق الأثر ، متى فقد سببه .

٢ - زعم بعض المرتابين في المعجزات أن قطع المسافة الشاسعة ، كما بين « المسجد الحرام » إلى « المسجد الأقصى » في ليلة واحدة أو بعض ليلة - أمر لا يحتمله الإمكان ، ولا يتقبله العقل ، ولكن هذا الأمر الذي كانوا يذكرونه بوصف الحال قد كشف العلم الصحيح عن إمكانه ، وأخرجه للناس في جملة الكائنات المبصرة ، فهذه سكة الحديد التي قيل فيها :

هذا « وَبُورُ البر » أكبر حجة إن تنكّر الاسراء « المختار »

إن كان صنع هذا العبد سيّرهُ فعلام تنكّر صنعة « القهار »

بل إذا تمكن المخلوق باختراع « الطائرة » أن يجعلك تقطع المسافة القاصية في مدة وجيزة ، فماذا يكون شأن قدرة الخالق التي هي أبعد تقديراً وأحكم صنفاً ؟ ..

٣ - كان الفلاسفة يعتقدون أن الوزن هو من خصائص ما يوصف بالخفة والثقيل من الأجسام ، وقالوا : « لا نفهم لوزن الأعراض معنى يعقل » ، ومارعهم إلا أن صنع بعض العلماء « ميزان الحرارة والبرودة » وأراهم أن وزن الأعراض

هو من قبيل الممكنات ، وأن للوزن طرقاً غير ما تعرفه الباعة في الأسواق .

٤ — لو كان النبي ﷺ قال: « إن في هذا الماء الذي تشربونه حيوانات تذهب وتجيء » ، ولم يكن قد اخترع المنظار المكبر (مكروسكوب) لأنكر ذلك كثيرون من ضعفاء الايمان ، ولكن الاكتشافات الجديدة جعلت ذلك ممكناً ، بل من الحقائق الراهنة .

إلى غير ذلك مما يفوقه ، ولا يأتي عليه الاحصاء ، فيجب علينا الايمان بأنه حيناً ألقى الفميص على وجه يعقوب ارتد بصيراً ، فذلك ممكن ، والله قدير على كل شيء . (مرحى)

طلب الاستغفار

١ (٩٧) * — قالوا : يا آباءنا استغفر لنا ذُنُوبَنَا ، إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ * .

افتتحت الجلسة ، وتليت الآية السابعة والتسعون ، فقام فيض الله الكرمي وقال :

(قالوا) أي ابناء يعقوب بلهجة الاعتذار والتوبة ، وقد تراحت على وجوههم حمرة الخجل وصفرة الوجل : (يا آباءنا) نعم ، قلت لنا : إنك تعلم من الله مالا نعلم ، ولكننا - مع الأسف - كنا في سبات عميق ، فأنت غير كاذب ولا مُكذَّب ، ونحن الخطاة الأثمة ، ما من ذلك بد ، وحيث قد اعترفنا (استغفر لنا ذنوبنا ، إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ) ، خاطئين أولاً بارتكابنا جرماً يستحق العقاب ، وخاطئين ثانياً باقترائنا حادثة ليس لها نصيب من الصحة ، وخاطئين ثالثاً بقطعنا رحم أحيانا ، وخاطئين

رابعاً بمقوفنا لك والحقنا بك الأذى والحسرة والفكرة ، وخاطئين خامساً بمقارنتنا لأنفسنا بتلك الأعمال الشائنة ؛

وبالجملة نحن حشو الخطيئة واعضاء الجريمة ، والهيكल العظمي للحوب الكبير ، فكرر أ ومراراً نقول : (استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين) .

(قالوا : يا أبانا استغفر لنا .. الخ)

— ٢ —

وقام ابو الخير اللدي وقال :

ابناء يعقوب يطلبون من أبيهم ان يستغفر لهم ذنوبهم

تقدم أن أباهم قال لهم : « ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون ، فما كنت تنبأت به هاهو قد حصل » ، قالوا : « نعم ، ذلك العبي » — قال : « فاذن :
الفريقين الآن قد تفاهما واتقنا وارفع الخلاف من بيننا » — قالوا : « يا أبانا » —
قال : « قد سمعت » — قالوا « استغفر لنا ذنوبنا ، إنا كنا خاطئين إنا لا نقدر أن
نصف خجلنا منك ، وخطأنا اليك وإلى الله ، لما سببناه لك من البث والحزن والحسرة
والأسف ، مع البكاء والسر والسكر ، لإبعاد ابنك عنك ، وتشريده من وطنه ،
نحن مدينون لك وإلى الله ، وقد خطئنا اليك وإلى السماء ، وأنت تعلم إنا ما كنا
في موطن منذ عقلنا ألا أننا نعرف فيه أمراً ، غير موطننا هذا ، فكأننا هجمناعليه
متسرعين ، بدون حرد ، ولا إعمال روية ، وبلا نظر في العواقب ، وكأن القضاء
الساوي جعلنا آلة لتنفيذ ذلك الأمر ، الذي رأينا اليوم عاقبته حميدة ، والحمد لله ،
ولقد قيل : « النتيجة تبرر الوسطة » ، ومع كل هذا ، ورغمنا عن كل ما نقول ،
فنحن من حيث أننا لم نكن نقصد خيراً ، بل شراً ، نترف بالخطأ ، نترف بالحوب

الكبير ، نعترف بالذنوب إلى الله وإلى أيينا وأخينا ، فلا.. ولا .. وإننا.. وإننا ..
واليك المواد التالية على الآية الكريمة :

الشفاعة وأنواعها وحكمها

المادة ١ — اتخذوا أبام شفيعاً بينهم وبين ربهم ، لأن شفاعة أهل التقى لأهل التقى مشروعة مأذون فيها مرجوة الإجابة ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ ، وَرِضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾ (٢٠ : ١٠٩) ، وقال تعالى عن الملائكة : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى ، وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ (٢١ : ٢٨) وقال تعالى : ﴿ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ ، إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٤٣ : ٨٦) وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا ، لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ ، وَقَالَ صَوَابًا ﴾ (٧٨ : ٣٦ و ٣٧) وقال تعالى : ﴿ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾ (١٩ : ٨٨) ، فهذا موطن الشفاعة المثبتة ، التي شرطها الإذن للشافع ، والرضا عن المشفوع له ؛

وأما الشفاعة المنفية ، فهي شفاعة ما كانوا يعبدونه من دون الله من الآلهة الباطلة ، أو كان المشفوع لهم من أهل الشرك أو الكفر ، فهذه لا جرم هي الشفاعة التي نزل فيها قوله تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ، وَيَقُولُونَ : هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ، — قُلْ : أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ؟ !! سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (١٠ : ١٨) وقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءٌ ، وَكَانُوا بِشُرْكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ (٣٠ : ١٢ و ١٣) وقوله تعالى : ﴿ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ؟ قُلْ : أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ

شيئاً ولا يَعْلَمُونَ ؟ قل : لله الشفاعةُ جميعاً ، له مُلْكُ السمواتِ والأرضِ ، ثم اليه تُرْجَعُونَ ﴿ ٣٩ : ٤٣ و ٤٤ ﴾ وعلى ذلك تحمل باقي الآيات التي تنفي الشفاعة وذلك مثل قوله سبحانه : ﴿ وَاَتَقُوا يَوْمَ لَا تَحْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً ، وَلَا يَقْبَلَ مِنْهَا عَدْلٌ ، وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةُ ﴾ ، ولا هم يُنْصَرُونَ ﴿ ١٢٣ : ٢ ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، أَتَقِئُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ ، لَا يَبِيعُ فِيهِ ، وَلَا خِلَّةٌ ﴾ ، ولا شفاعةٌ ، والكافرون هم الظالمون ﴿ ٢٠ : ٢٥٤ ﴾ ، فهذا يجمع بين الآيات التي ذكرت فيها الشفاعة نفياً وإثباتاً ، ويعلم أن شفاعة سيدنا يعقوب لأولاده ههنا هي من قبيل الشفاعة المثبتة ، والله تعالى أعلم .

سبب طلب الاخوة الاستغفار من ايهم ولم يطلبوه من اخيم

المادة ٢ — ههنا يتساءل المتسائلون : لماذا لم يطلبوا الاستغفار لانفسهم من اخيم ، وإنما طلبوه من ايهم فقط ؟
وجوابنا عنه ما يلي :

لما كان سيدنا يعقوب من جهة رجل دين ، ومن جهة أخرى أباهم ، رأوه (طبعاً) أهلاً لأن يسألوه الدعاء لهم ، وأما سيدنا يوسف فلما كان من جهة أخاهم الأصغر ، ومن جهة ثانية كان في نظرهم رجلاً مديناً ، وحاكماً ادارياً ، ووزيراً مالياً ، ولم يعلموا أيضاً أنه نبي — لم يطلبوا منه الاستغفار ، ولكن ذكروا له ما يَسُرُّ الرجال المدنيين ، والحكام الاداريين ، من علو مراتبهم وتقدمهم على الأقران ، فقالوا له : « لقد آثرك الله علينا » ومع أنهم لم يروه (في نظرهم) أهلاً أن يكون واسطة بينهم وبين ربهم ، فقد رأى هو شخصه أهلاً لذلك ، لأنه أعرف بنفسه منهم ، فقال : « يغفر الله لكم ، وهو أرحم الرحمين » .

مذهب السلف والطوائف الإسلامية الأخرى في النجاة والإيمان

المادة ٣ — طلبوا من أبيهم الاستغفار لهم ، ليكونوا من الناجين ، فإن المبد لا ينجو بالإيمان فقط ، ولكن به وبترك سيئ الأعمال ، وفعل صالحها ، والتوبة إلى الله تعالى ، وهذا هو مذهب « السلف » خلافاً « للرجئة » — وهم طائفة يُرجئون الأعمال ، أي يؤخرونها ، فلا يقيمون للأعمال الصالحة وزناً في الخلاص ، وإن كان لها ثواب ، وإنما الخلاص بمحض الإيمان ، كما لا يقيمون وزناً للمعاصي في الهلاك ، وإن كان عليها عقاب ، وإنما الهلاك بالكفر فقط ، وعليه فهم يقولون : المؤمن يستحق الجنة بالإيمان فقط ، دون بقية الطاعات ، والكافر يستحق النار بالكفر ، دون بقية المعاصي ، وكأن مصدر هذا الخلاف ، الخلاف فيما هو الإيمان ، فالسلف الصالح يقولون : « الإيمان هو اعتقاد وقول وعمل » وهؤلاء يقولون : « الإيمان هو الكلمة والمقد ، دون الأعمال » — « والخوارج » يكفرون مرتكب الكبيرة ، لجعلهم العمل من الإيمان ، فهم بعكس المرجئة ، وأما « المعتزلة » فهم يقولون في مرتكب الكبيرة أنه منزلة وسطى بين المؤمن والكافر ، وأنه يخلد في النار ، ولكن عذابه دون عذاب الكافر .

تعليق قوله « ذنوبنا » بصيغة الجمع

المادة ٤ — رب سائل يسأل : لماذا قالوا : (ذنوبنا) بصيغة الجمع ، مع أنه ذنب واحد ؟ وجوابنا عن ذلك من ثلاثة وجوه :

١ — أنهم اتوا بصيغة الجمع باعتبار أفرادهم ، لأن كل واحد من العشرة قد اقترف الذنب ، فهو نظير : ركب القوم دوابهم ، ولبسوا عمامتهم .

٢ — لأن ذلك الذنب الواحد مربيع في الحقيقة ، باعتبار أنهم خطئوا إلى

الله ، وإلى كل من أبيهم وأخويهم ، بل وإلى اشخاصهم وضيائهم ، وشريعتي العقل والنقل .

٣ — إن الذي اجترموه ليس هو ذنباً واحداً ، بل هو ذنوب كثيرة : حسدوا أخاهم ، بفضوه من غير ما جرم ، ضلّوا أباهم ضلالاً مبيناً ، تأمروا على قتل أخيه أو طرحه أرضاً أو القائه في غياهب الجب ، وأخيراً قرروا هذه المشورة . النهائية ، لعبوا على أبيهم دوراً مهماً ، نصبوا أمامه الاحبولة فاصطادوا فيها أخاهم من بين يديه وقالوا له : وإنا له لناصحون ، ولكن غشوه ، وعدوا أنهم سيحفظونه ، وأخلفوا وعدهم ، وكانوا مصممين على خلف هذا الوعد من البدء ، ألقوه فعلاً في غياهب الجب ولم يرحموه ، وبذلك قطعوا الرحم التي بينه وبينهم ، بل والرحم التي بينهم وبين أبيهم ، عقوا بذلك أباهم ، أحزنوا بذلك بنيامين ، بكوا كذباً ، قالوا أكله الذئب كذباً ، جاؤا على قميصه بالدم كذباً ، أقر بعضهم بعضاً على الكذب كذباً ، إلى غير ذلك مما يظهر للمتأملين ، ولهذا قالوا : (استغفر لنا ذنوبنا) بصيغة الجمع ، وكان أقل هذا الجمع ثمانية .

لماذا لم يستغفروا لأنفسهم بأنفسهم

المادة ٥ — طلبوا الاستغفار من أبيهم لأن ذنبهم هذا لم يكن ظاهراً لأنفسهم فقط لم يتعد شيء منه إلى أبيهم فيكون فيه استغفارهم لأنفسهم بأنفسهم — بل كان ظلمهم تعدى إلى إيذاء أبيهم ، من حيث أنه أب ، له وحده الحق في أن يزيد من المحبة من أولاده لاسباب جوهرية ، وحكم عالية يعرفها هو ، فكان لا بد من توبتهم وندمهم على ما صدر منهم ، أن يظهر ذلك لأبيهم ، ليصفح عنهم بما اعتدوا به على حقه ، ويدعو الله تعالى أن يغفر لهم تعديهم عليه وعلى أخيه وأخيه ، فان

التوبة عن المعاصي المتعلقة بحقوق الناس ، لا تكون مقبولة ولا صحيحة ، إلا بعد استرضاء صاحب الحق .

وهناك وجه آخر في طلبهم من أبيهم الاستغفار لهم ، وهو أن مشاركة الناس بعضهم لبعض في الدعاء مستنونة ، وإن من سنتة تعالى ، أن يتقبل من الجماعة ، بأسرع مما يتقبل من الواحد ، فدعاء الجماعة أرجى للإجابة ، وإن كان كل داع موعوداً بالاستجابة ، وإنما كانت المشاركة في الدعاء ، أرجى للقبول ، لأن الداعي للناس يؤدي هذه العبادة بسببهم ، أي أن ذنوبهم تكون هي السبب في شعوره واحساسه بالحاجة إلى الله تعالى والخضوع له والاتحاد المرضي عنده ، فكان حاجتهم حاجته ، فإذا كان يعقوب (ع) هو الداعي والمستغفر لأولاده أولئك التائبين مع استغفارهم هم ، فذلك من اشتراك قلبه الشريف مع قلوبهم بالحاجة إلى تطهير الله لهم من دنس الذنب ، وطلب النجاة من عقوبته ، وناهيك بقرب أبيهم يعقوب (ع) من ربه ، والرجاء في استجابة دعائه .

فان قلت أين مشاركتهم لأبيهم في التوبة والاستغفار ، حتى يتم هذا التوجيه الذي ذكرته ؟ قلت طلبهم من أبيهم أن يستغفر لهم ذنوبهم مع قولهم « انا كنا خاطئين » هو توبة واستغفار ، فمعنى كلامهم : يا أبانا ، هانحن أولاء نعترف بذنوبنا وخطأنا ، ونستغفر لذلك ربنا ، فشاركنا في هذا الالتجاء والخضوع ، نعم ، نحن نعلم أن الله أقرب من جبل الوريد لعباده ، لكننا نريد من هذا أن نقر لك أولاً بخطأنا معك ومع الله ، ونريد ثانياً أن يكون طلب المغفرة لنا من الخالق ، بلسان الخلق الذي كنا قد أخطأنا إليه ، ليكون ذلك أدعى الى مغفرة الله لنا ، فان الله أكرم من كل ماسواه .

« اصوات متزاحمة من المؤثر »

(مرحى) (قالون) (جيد) (أحسنت) (ليعش جميع أهل الله ، لأجل خاطوك يا أستاذ)

تسوية الاستغفار

آ (٩٨) - قال : سوف أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ، إِنَّهُ هُوَ
الْغَفُورُ الرَّحِيمُ

افتتحت الجلسة ، وتليت الآية الثامنة والتسعون ، فقام ابو الفضل
الطنطاوي وقال :

سمع منهم أبوم توبتهم وطلبهم الاستغفار فـ (قال) لهم : وإن يكن هذا
منكم إنما كان بعد حلول الدبرة ، وخراب البصرة ، فلا عليكم ، أما أنا فلا موجدة
في قلبي نحوكم ، لأن الأيام ، تمحو الآثام ، ولأني أب ، والأب يحن بطبعه لأولاده
— على ما فيهم — ؛ هما يومان يأبئائي ، وهما قميصان ، فمنذ ٢١ سنة جاءني « قميص »
ينمي الي يوسف ، واليوم جاءني « قميص » يحمل بشرى حياته وعزة ، نعم نعم ،
منذ ٢١ سنة 'حمل الي' « قميص » أبكاني فايضت عيناى ، واليوم 'حمل الي'
« قميص » ردني بصيراً ، والدنيا كلها ماضية ، والحمد لله على كل حال ، والله يغفر
لي ولكم ولجميع من كان مخلوقاً من الماء والطين ، فهذا ما كان من جهة حقى ، لاسيما
وغريمكم يوسف ، غفر لكم ورضي عنكم ، فأنا إذن لا يصح لي أن أتقاس عن
مساحتكم ، لئلا يقال : « رضي الخصال وأبى القاضي » ، وأما من جهة حق الله
تعالى فإني والله (سوف استغفر لكم ربى) أذاتكم ، فهو حقيق بالمغفرة ، خليف
بالرحمة (إنه هو الغفور الرحيم) وكفى ! فهو تعالى يُقِيلُ عثرة الخاطئين ،
ونهبهم من كبوتهم .

وهنا ملاحظات :

اسباب تسويف يعقوب الاستغفار لاولاده

الملاحظة الأولى — أجلبهم بالتسويف والمادة لأسباب :

١ — ليتعرف حالهم في صدق التوبة وإخلاصها ، لأنه مامن شيء يفنى في الطبيعة ، وإنما الاشياء تتبدل مظاهرها .

٢ - حينما يذهب الى المعبد الذي كان علمه بالحجر حينما كان مسافراً من فلسطين الى العراق الى خاله « لابان » (١) ، وكان هذا المكان على غاية اثني عشر ميلاً من « القدس » وعلى الشال منها على جبل افرايم ، وبعبارة أوضح : هذا المكان يسمى « بيت إيل » وهو الى شرقي خط يمتد من « القدس » الى « نابلس » على بعد واحد من كلتا المدينتين ، ويسمى اليوم « بتّير » .

٣ — حينما يصل في طريقه لمصر الى « بئر السبع » فيدخل المعبد الذي كان بناءه إبراهيم وإسحاق عليها السلام (٢) وهناك يستغفر لهم ، لأنه لا يرى أنسب وأقرب لاجابة الدعاء من أن يكون في المعبد الديني ، فكانه رأى أن طلبتهم هذه سابقة لمكانها ، ومكانها هو هذا المعبد ؛ قال أبو الطيب المتني :

وَمِنْ الْخَيْرِ بَطْءُ سَيْبِكَ عَنِّي أَسْرَعُ السُّحْبِ فِي الْمَسِيرِ الْجَهَامِ
أَي تَأْخُرُ عَطَائِكَ عَنِّي يَسْدُلُ عَلَى كَثْرَةِ ذَلِكَ الْعَطَاءِ ، لِأَنَّ اسْرَعَ السَّحَابِ
سِيرًا أَقْلَهَا مَاءً .

٤ — لبعدهما يجتمع يوسف ويراہ قد صفح عنهم تماماً ، وحينئذ يكون العدل قد استوفى حقه ، ولم يبق الا حق الله تعالى ، فلا يكون بعداً مانع من استغفار الله تعالى لهم .

(١) انظرتك ٢٨: ١٠-١٩

(٢) انظرتك ٢١: ٣٣ و٣٦: ٢٥

٥ — آخر ذلك جرياً مع طبع الشيخوخة التي تتطلب التؤدة والثأني في سائر الأمور مطلقاً .

٦ — حين تكون فيه الاجابة أقرب ، كما قال تعالى : ﴿ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالسُّحُورِ ﴾ (١٧:٣) ، لأن النفس تكون حينئذ أصنى ، والقلب أفرغ من الشواغل ، كما نقل عن بعضهم انه قال : « لولا صحبة الأخيار ومناجاة الحق في الأسحار — ما أحبت البقاء في هذه الدار » .

٧ — شرط مشروعية الدعاء أن لا يكون الانسان مصراً على الذنب ، وبما أن أباهم لم يرهم في حال تدل على الاقلاع والندامة للمرة ، بخلاف يوسف ، فانه ربما يكون قد رآهم ، بحال تدل على الاقلاع والندامة ، إذ يجوز أن يكونوا قد خشعوا وخضعوا وبكوا أمام أخيهم يوسف ، فرأى انه لا مانع شرعاً من أن يطلب لهم المغفرة ، ولكنهم أمام أبيهم لم يخشعوا ذلك الخشوع ولم يخضعوا ذلك الخضوع ، لأن لهم مع أبيهم حرية أكثر من حریتهم مع أخيهم « وزير المالية » و « عزيز مصر » و « وكيل الملك » ، فلذلك أخر أبوهم الاستغفار لهم حتى يتأكد توبتهم النصوح ، وندمهم الخالص ، لاسيما وقد سبق أنه رأى منهم الحيل ، وجرب عليهم الختل ، وأنهم يظهرون خلاف ما يظنون .

٨ — يرى بعض الناس — ولعل سيدنا يعقوب منهم — أن الوعد بالخير أفضل من اعطائه بقتة ، مثلاً : « منصور بن زياد » كلم « يحيى بن خالد » في حاجة رجل ، فقال له : « عِدْهُ عني قضاءها » — فقال منصور بن زياد : « وما يدعوك الى العِدَّة مع القدرة ؟ » — فقال : « هذا قول من لا يعرف موقع الصنائع من القلوب ، إن الحاجة اذا لم تقدمها وعد ينتظر به نجاحها لم تتحدث النفس بسرورها ، إن الوعد مطَّعمٌ ، والانجاز طعام ، وليس من فاجأ طعام ، كمن وجد رائحته ، وتطعمه ثم طعمه ، فدع الحاجة تختمر بالوعد ، ليكون لها عند المصططنع حسن موقع ، ولطاب محل » .

وقال بعض البلغاء : « دد الوعد یرکض ثلاثاً ، فإن كثير العطاء قبل الوعد قليل ».

هل وفى يعقوب بوعدہ لا ولادہ بالاستغفار لهم

الملاحظة الثانية — سمعنا أن سيدنا يعقوب وعد أبناءه بالاستغفار ، ولكن لم يبلغنا انه استغفر لهم ربه كما وعد ، والجواب عن ذلك : اننا نتأكد يقيناً وقوع ذلك منه ، لأن وعد الحر دين ، وكما أن الله لا يخلف الميعاد ، فمظاهر أمره عليه الصلاة والسلام كذلك ، ولا يسعنا أن نعتقد في سيدنا يعقوب الا انه كما قال أبو الطيب المتنبي :

أَمْضَى ارَادَتَهُ (فسوف) لَهُ قَدْ وَاسْتَقْرَبَ الْأَقْصَى (فَتَمَّ) لَهُ هُنَا
أَوْ كَمَا قَالَ :

إِذَا كَانَ مَا تَنْوِيهِ فَعَلًا مُضَارِعًا مَضَى قَبْلَ أَنْ تُلْقَى عَلَيْهِ الْجَوَازِمُ

هجرة ناس يعقوب

الملاحظة الثالثة — نعلم من التاريخ أن يعقوب عليه السلام هاجر من فلسطين التي هي مسقط رأسه ووطنه الأصلي — هجرتين ، الهجرة الاولى للعراق ، وهذه كانت شخصية ، أي بشخصه فقط ، حينما كان أبوه في قيد الحياة ، وكانت «لخوف» من شر أخيه « عيسو » وهرباً من أن يقتله ، ومدة هذه الهجرة كانت ٢٠ سنة ؛ والهجرة الثانية لمصر ، وهذه كانت عمومية ، بجميع الأسرة ، وكانت — طبعاً — بعد وفاة أبويه ، « إسحاق عليه السلام ، وليثة رحمها الله » ، وهذه الهجرة كانت لدفع ونفع : أي لدفع الجوع والانتفاع بالغذاء ، وان شئت قلتم : كانت رَهْباً وَرَعْباً ، أي رهبة من القحط ، ورعبة في لقاء يوسف ؛

وبعبارة أخرى : كانت هذه الهجرة كمن رمى حجراً ، فأصاب صيدين ، أو

كمن هرب من النار إلى الجنة ، أو كمن خرج من البدو إلى مملكة متمدنة أكثر من كل ممالك العالم ، ومدة هذه الهجرة (١٧) سنة ، ثم توفي عليه الصلاة والسلام .

هجرة الانبياء

وبهذه المناسبة ، والشئ بالشيء يذكر نقول : كانت هجرة نبينا ﷺ من مكة للمدينة هجرة خوف من أهل الاولى ، وأمن عند أهل الثانية ، وهجرة سيدنا ابراهيم كانت هجرة اضطهاد من أهل العراق ، وهكذا كانت هجرة المسيح عليه السلام من فلسطين إلى ربوة ذات قرار ومعين ، وهجرة موسى عليه السلام من مصر إلى مدين ، وهجرة لوط عليه السلام الاولى مع عمه سيدنا ابراهيم من العراق إلى فلسطين ، وهجرته الثانية من سدوم وعمورة إلى صوغر .

مخالفات سلالة ابراهيم في ارض الميعاد بعد هجرتها عنها طسرا

الملاحظة الرابعة — قضي الامر ورحل اسرائيل بأسرته جميعاً للديار المصرية فسجل التاريخ في تلك الساعة أنه قد تم جلاء سلالة ابراهيم عليه السلام عن أرض الميعاد (سورية الطبيعية) بعدما كانوا أقاموا فيها ٢١٦ سنة شمسية ، أعني من سنة (٢٥٤٤ إلى سنة ٢٨٣٨) شمسية قبل الهجرة ، ولم يتركوا فيها وراءهم ملكاً ، سوى تلك المقبرة ، مغارة المكفيلة (النار الشريف) ، وهي تحتوي إذ ذاك خمسة قبور ، لابراهيم وزوجه (سارة) ، ولإسحاق وزوجه (ريفقه) ، ولامرأة يعقوب (ليثة) ، وكان لسيدنا يعقوب قطعة حقل . ملكاً له في شكيم ^(١) (نابلس) .

هذا كل ما ملكوه في تلك السنين الكثيرة ، لأنها لم يكونوا لينظروا إلى أمور الدنيا ، ولكن كان اهتمامهم بأمور الآخرة !! (مرحى)

الفصل الخامس

السفرة الرابعة والاخيرة لمصر

يوم اللقاء

آ (٩٩) ﴿... فلما دخلوا على يوسُفَ ، آوَى إليه أبويَه ،
وقالَ : ادخلوا مِصرَ « إِنَّ شَاءَ اللهُ » آمَنِينَ . ﴾

افتتحت الجلسة ، وتليت الآية التاسعة والتسعون ، فقام رفيق الكرام
الرملي وقال :

أمر يعقوب أولاده بالتهيؤ والأخذ في معدات السفر، تسرعاً وشوقاً للقاء ولده
يوسف ، فلذلك تهيئوا وقاموا قاصدين مصر ، وما أن صاروا في حدودها ، حتى
رأوا يوسف قد أمر بنصب الخيام عند هذه الحدود ، للقاء أبويه (فلما دخلوا)
أي أبواه وإخوته (على يوسف) وقد أخذ مجلسه في سرادقه جالساً على عرشه ،
قام فسلم على أبويه ، سلام الابن على والديه ، ثم (آوَى) أنزل وضم (إليه) في
خيمته (أبويه) أباه يعقوب وأمه المجازية « بلهة » وهي مربيته وحاضنته بعد موت
أمه « راحيل » وهو ابن عشر سنين ، ومن حيث كونه استقبلهم في مضرب خارج
مصر ، وقد أراد الجميع النهوض والقيام بعدما أخذوا حظهم من الراحة (قال)
لهم (ادخلوا مصر) أنتم وذرايكم (إن شاء الله آمنين) على أنفسكم وأموالكم وأهليكم
لا تخافون أحداً ، حتى ولا من ملوك مصر ، آمنون من أن يلحقكم ضرر ما من جوتي
بالجرم السالف ، لا سمح الله تعالى ، لأنني غفرت لكم ؛ آمنون من كل المكاره
والخواف قاطبة من كل أحد .

(فلما دخلوا على يوسف ... الخ)

—٢—

وقال ابو الفيص الخليلي :

سفرة يعقوب واسرته لمصر

كان اخوة يوسف اخبروا آباهم بما عليه يوسف ، ونفصوا له جملة حاله ، وما أوتيته من سمو ورفعة ، فأمرهم أبوهم بتحضير وسائل السفر بما يمكن من السرعة لشدة اشتياقه للقاء ولده يوسف على حد قول القائل :

حديثه أو حديث عنه يطربني هذا إذا غاب أو هذا إذا حضرا

كلاهما حسن عندي أسرُّ به لكن أجلاهما ماوافق النظرا

ولما هيأوا أنفسهم للرحلة من فلسطين لمصر ، ركبوا دوابهم وقد أطلقوا لها الأعنة ، وهم ينهبون الأرض نهباً .

وداع يعقوب لفلسطين

وكانني يعقوب لما وصل لمنتهى حدود فلسطين ومبدأ حدود القطر المصري ، وقف يودع فلسطين بما معناه .

« أنا اليوم في آخر ساعة من ساعات وجودي فيك يا فلسطين ، وأول ساعة من ساعات حلولي بالديار المصرية ، فسلام لك يا فلسطين المحبوبة ، سلام لك أيها الأرض التي تشخب حجارتها لبناً وعسلاً ، سلام لك يامدفن إبراهيم وساراي وإسحاق ورفقة . والوداع الوداع ... الوداع . »

لقاء السيتين

وكان يوسف عليه السلام قد أرسل فرساناً وحرساً لاستقبال أبيه الشيخ

وجلس هو في فسطاط أعد له ، جلس يتوقع مجيء أبيه ، وهو على أحر من الجمر ، وأخيراً وصلت الأسرة الاسرائيلية إلى فسحة الفسطاط ، وفي طليعتها نبي الله يعقوب عليه السلام .

ولما دخل يعقوب الفسطاط ، وقعت العين على العين ، ولأس القلب القلب ، نظر في وجه « عزيز مصر » وتفرس فيه ، وقال مستفهماً « يوسف ؟ .. » فقال له مستفهماً أيضاً : « والدي ؟ .. » — قال نعم ؛ — قال : ابني ؟ .. — قال أبي ؟ .. قال : نعم .. ولعل الله بعثك من الموت بمجزة لنجاتنا وسرورنا — قال : سأكون خادمكم أجمعين — فقال يعقوب : الحمد لله على انفراج الأزمة برؤية ولدي ، فاذا مت الآن فاني أتوسد التراب قريح العين ناعم البال .

وكأنني بحاضته « بلهة » تبادلته معه عبارات التحية والسلام والشوق قائلة : « ولدي يوسف ؟ .. قال : « أي بلهة ؟ .. » — قالت نعم ، قال : أهلاً وسهلاً »

ولاتسل عن يعقوب وماحل به من دواعي الفرح التي أنسته جميع عوامل الحزن ، إذ نظر نظرة عوضت عليه كل أحزانه وبلبائه ؛ والمسافر عليل ، دواءه الوصول ؛ .

وهنا يحتاج القارئ إلى تقدير قيمة تلك الساعة السعيدة ، فانها من ساعات العمر ، إذ دخلوا على يوسف وهو على حال عظيم من الرقي والسؤدد ، والتمكن في أرض مصر ، وعنئذ تمثلت له السعادة عبداً رقيقاً ، ولقد كان المشهد مشهداً بهيجاً ، وكان الجيش والناس حوالي ذلك الحفل ، زرافات ووحداناً ، وكوكبة بعد كوكبة ، ثم قدمت لهم المربطات والمنعشات الطيبة ، واستراحوا من وعناء السفر :

والقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عيناً بالأياب المسافر

ولا تسل عن فرح يوسف بمجيء أبويه اليه ، ولا تسل عن ساعة اللقاء ما كان أحلاها ؟

ثم قال لهم يوسف : ها قد حلتم أهلاً ، ووطأتم سهلاً ، ادخل يا والدي
 « صوعن » العاصمة بل جميع الديار المصرية آمناً مطمئناً من الفراق والتهویش
 والتهویش ، وادخلوا يا أخوان الصفا مصر . واتم آمنون من كل مقاومة وتكدير
 لأنني سبق وقلت : « لا تريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » .
 واليك التعليقات التالية :

حال يعقوب عند رؤيته يوسف

أولاً — كأنك يعقوب عليه السلام وقع بصره على ولده فبسم وبكى ، وحمد
 ربه واشتكى ، وقال في نفسه : « أواه من الماضي ، وشكراً لله على الحاضر » .
 وعندي أنه لاشيء يصور حاله هذه مثل قول ابن نباتة المصري يهنيء السلطان
 الأفضل ، ويعزيه بوالده المؤيد :

هناؤه محا ذاك العزاء المقدما	فما عبس المحزون حتى تبسما
نغور ابتسام في ثغور مدامع	شبهان لا يمتاز ذو السبق منها
زرد مجاري الدمع والبشر واضح	كوابل غيث في ضحي الشمس قد همى

مبدأ التاريخ العبراني

ثانياً — دخلوا على يوسف سنة ٢٣٩٣ ش . ق . هـ (أي سنة شمسية قبل
 الهجرة) واعتباراً من هذا الحين أصبح بنو إسرائيل جالية فلسطينية بمصر ، وهذا
 مبدأ تاريخ العبرانيين وكانت مدة إقامتهم بمصر (٢١٥ سنة) ثم بعده خرجوا
 من مصر على يد قائدهم سيدنا موسى (سنة ٢٦٠٨ ش . ق . هـ) ثم افتتحوا بلاد
 « سورية » على يد قائدهم النبي يوشع بن نون عليه السلام ، ومن ذلك التاريخ اعتبروا أمة
 ـ بلاد كنعان وفلسطين ، التي هي أرض « الميعاد » حسب توراتهم .

من هي ام يوسف التي اواها اليه

ثالثاً - الكتاب الكريم يقول : « آوى اليه أبويه » وانه لمعلوم أن أباه هو سيدنا يعقوب ، ولكن من هي أمه هذه التي حضرت لمصر ؟ قيل هي أمه الحقيقية « راحيل » ، ولكن ورد في كتب المؤرخين تباعاً لسفر التكوين ، أن راحيل توفيت وعمر يوسف عشر سنين ، ودفنت على طريق إفرائيم « بيت لحم » ، وأقام سيدنا يعقوب نصباً على قبرها ، وكان موقع قبرها معروفاً لحد أيام صموئيل وشاؤل (١ ص ١٠ : ٢) وهو من الأماكن الفلسطينية ، التي يزورها اليهود والمسيحيون والمسلمون بدعوى التبرك به ... وقد زاره السائح « مندريل » (سنة ٢٣١٩ ق.هـ) ، واتفق العموم على أن ذلك المقام هو قبر « راحيل » ، لاسبيل إلى الاعتراض عليه ، لأن ما ورد في التاريخ يعضده من كل وجه .

وقيل : إن أمه التي حضرت لمصر هي « ليئة » اخت « راحيل » . لأن الخالة أم ، كما أن العم أب ، وقد سمي النبي عمه « العباس » أباه ، وقال تعالى : ﴿ وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ﴾ (٢ : ١٣٣) ، ولكن ورد في التواريخ تباعاً لسفر التكوين أن « ليئة » ماتت قبل رحلة يعقوب لمصر ، ودفنت في الفار الشريف .

وقيل ان المراد من أمه التي حضرت لمصر « بلهة » جارية أمه ، ومريته حال حياة أمه وبعد وفاتها ، لاسيما أنه بعد وفاتها قد انتقل هو وأخوه بنيامين خليمتهما ، والمربية أو الرابّة تدعى أمأ ، لقيامها مقام الأم ، كما كان « هرون الرشيد » يدعو « عبادة » امرأة يحيى البرمكي - أمأ له ، لأنها كانت أرضعته وهذا هو الصحيح ، وقد ورد في الحديث ، أن رسول الله ﷺ كان يقول : « أم أيمن أمي بعد أبي » لأن « أم أيمن » كذلك حضنته وكفلته بعد وفاة أمه السيدة « آمنة » من حين أن كان عمره ست سنين ، الى أن انتقل الى بيت جده « عبد المطلب » وكان ، روجي له الفداء ، يبرها مبرة الأم ، ويكثر زيارتها ، وكان عندها كولدها ، كانت رضي

آ (٩٩) يعقوب يرحل عن أرض الميعاد لمصر حباً بولده يوسف ١٣٣٥

الله عنها مولاة لأم رسول الله ﷺ ، ثم صارت مولاة لرسول الله باليراث ، وهكذا كان الحال في « بلهة » ، وكانت أولاً مولاة « لراحيل » أم يوسف ، ثم صارت مولاة لولدها يوسف بالواسطة ، أي بواسطة صيرورتها مولاة لأبيه يعقوب ، ثم أن راحيل وهبتها له ليفترشها .

يعقوب يرحل عن أرض الميعاد لمصر حباً بولده يوسف

رابعاً - رحل يعقوب عليه السلام من أرض الشام مع أنها أرض الميعاد ، وهي الأرض التي بارك الله فيها للعالمين ، حباً بولده يوسف «بجيرانها تغلوا الديار وترخص» قال بعضهم :

أقبل ذا الجدار وذا الجدارا أمر على الديار ديار ليلي
ولكن حب من سكن الديارا وماحب الديار شغفن قلبي
وقال العرجي :

نبث حولاً كاملاً كله لانتقي إلا على منهج
الحج إن حجت ، وماذا منى وأهله ؟ إن هي لم تحجج
الجار قبل الدار ، والرفيق قبل الطريق ، والمؤجر قبل المؤجر ، وأخيراً قال تعالى : « ربّ ابن لي عندك بيتاً في الجنة » (٦٦ : ١١)

كيف قابل يوسف أبويه عند دخولهما عليه وكيف عاظمهما

سادساً - عندنا أن يوسف قابل أبويه بمقابلة تتراوح بين مراعاة مركز الحاكمية ، ومراعاة الادب ، ودليلنا على الشق الأول قوله تعالى : « فلما دخلوا على يوسف ، فدخلوهم - بما فيه أبواه - عليه في فسطاطه يشعر بأنه لم يخرج منه لاستقبالهم ، وكذلك قوله تعالى : « آوى إليه أبويه » يشعر أنه كان معاملهم إذ ذاك معاملة رحمة ، معاملة راحم لمرحوم ، معاملة حاكم لمحكوم ، معاملة أمير لرعية ؟

ودليلنا على الشق الثاني قوله تعالى : « ورفع أبويه على العرش » ، يشعر أنه عامل أبويه إذ ذاك معاملة الاجلال والاكبار ، معاملة رعية لأمر ، معاملة ابن لأب ، فافهموا أسرار كتاب الله ، والسلام عليكم . (مرحى)

خطبة الوثام والسلام

آ (١٠٠) ﴿... ورفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ ، وَخَرُّوا لَهُ مُجْدِّدًا ، وَقَالَ : يَا أَبَتِ ، هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ ، قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ، وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ ، وَجَاءَ بَكُمْ مِنَ الْبَدْوِ ، مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ، إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ ، إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ . ﴾

افتتحت الجلسة ، وتليت الآية المتممة للمئة ، فقام أبو الفتح الحلبي وقال :

(و) بعد أن دخل يوسف وابواه واخوته مصر ، وعبروا دار الحكومة ، (رفع أبويه على العرش) ليجلسا عليه معه ، ويشركها معه في الجلوس على سرير الحكم ، سرير وكيل الملك ، وأما اخوته فقد طأطأوا رؤوسهم (وخرؤا له سجداً) لأنهم لم يروا أنفسهم أكبر من أن يسجدوا له ، ولم يروا يوسف وكيل الملك أصغر من أن يكون مسجوداً له ، ولأن هذا هو شكل التحيّة الذي كانت الرعية تؤدّيه للملك ، ولأن كان قريباً من منزلته كوكيله ، فهو قاعدة متبعة قديماً في مصر والصين والفرس والكلدان والهند وعند العبرانيين ، كما رواه لنا التاريخ الشرقي ، ونقله أصحاب السير والأخبار ، ثم عندئذ وقف يوسف خطيباً في أبويه واخوته (وقال : يا أبَتِ ، هَذَا) الحال الذي رآه اليوم ، في هذه الجلسة التاريخية ، هو

(تأويل رؤياي من قبل) أي منذ ٣١ سنة (قد جلهاربي حقاً) فأصبح المتنام يقظة ، والحلم علماً ، والظن يقيناً والقول فعلاً ، فهذا هو « الشمس » - وأشار إلى أبيه - وهذه هي « القمر » - وأشار إلى أمه بلهة - وهذه هي الحجر « المؤلف من الأحد عشر كوكباً » - وأشار إلى إخوته - وهذا هو الحقيير المسجود له - وأشار إلى شخصه الكريم (وقد أحسن) سبحانه وتعالى (بي) إحساناً مزدوجاً (إذ أخرجني من السجن) على الصورة التي أحب ، بريئاً ، شريفاً ، نقي الذيل ، أبيض الوجه (وجاء بكم من البدو) العراء ، على الصورة التي تجبون ، وكان هذا كله (من بعد أن) وقعت تلك الحادثة العتيقة ، وهي أنه قد كان - مع الأسمف - أن (نزغ الشيطان) أفسد وأغرى وأثار داعية الشر (بيني وبين إخوتي) ففاضنا الله عن ذلك ، بالصفاء والمحبة والالفة ، ولا ريب أن هذا كله بتدبير الرب (إن ربي لطيف لما يشاء) إذا أراد حصول شيء ، سهل أسبابه ، ودبر له طريقاً دقيقة ، فإذا هو حاصل ، وإن كان في منتهى البمد عن المحصول (إنه هو العليم الحكيم) والعبرة بالخوايم .

هذا هو النطق الذي قام يوسف في تلك الجلسة التاريخية ، والقاء على الحاضرين وكان يتكلم وعواطفه تتكلم معه ، وقلبه يتهلل فرحاً ، وقد وقع صوت هذا النطق على قلب يعقوب عليه السلام وقوع الماء الزلال على قلب الظمآن .

ورفع أبويه على العرش ... الخ

— ٢ —

وقام السيد فضل الله الغزي وقال :

مصدق رؤيا يوسف الثانية

ليعني القاري « الكريم من وصف ما كان عرا سيدنا يعقوب عند تلاقيه مع

ابنه يوسف ، من الغبطة والسرور ، وما كان جد ليوسف حينذاك من الفرح والنشاط ، فذلك مالا يقع في الامكان ، ولاتناله قدرة كاتب ، ولا فصاحة خطيب ولو لم يكن يعقوب نبياً ، لو لم يكن هو ذلك الثابت الوقور الرصين ، الذي لاتزعزع حوادث الفرح والترح - لما احتمل لذة سماع البشرى ، بسلامة ابنه وأنه وكيل ملك مصر - لما احتمل ذلك بدون أن يغمى عليه من الفرح والغبطة - لما احتمل لذة رؤية ولده جالساً على العرش ، دون أن يغيب عن الوجود ، من شدة سروره وجوره - لما احتمل سماع الخطاب التاريخي ، دون أن يملأ تلك الجلسة بكاء ، على حد « من عظم ماقد سرنى أبكاني » ، وكيف لا .. وهو لا يشعر إلا وولده المحبوب قد خرج من بين أنياب « الذئب » الى عرش الوزارة بمصر - من الغيبة الى الحضور - من الموت الى الحياة - من رعي الاغنام الى رعي المصريين - من بدو فلسطين ، الى حاضر الكنانة - وبالجملة من لاشيء ، الى كل شيء !!!..

أقول : عند وصول يعقوب وأبنائه الى دار الحكومة المصرية ودخولهم قاعة العرش التي فيها يوسف ، رفع يوسف أبويه على العرش الذي كان قد استوى عليه ، أي على سرير الوزارة وحاكمية الديار المصرية كعزیز لمصر ووكيل عن مليكها الريان ، وقد كانت هذه الساعة عند سيدنا يعقوب هي أنها ساعات العمر وأسعدها ، فغفر للدهر من أجلها جميع سيئاته عنده ، بل نسي عندها انه ذاق شيئاً من طعم الحزن والألم ، وأما إخوة يوسف ، فقد خروا له سجداً - (هكذا قاله ابو حيان في بحره ، وكل من أرجع الضير للاخوة والأبوين جميعاً ، فقد اعتزل الفهم الصحيح) - خروا له سجداً ، والخنوع والذل يتمشيان في أعضائهم ، واستسلموا بين يديه بجدهم وحديدتهم ، مع أنهم فيما تقدم منذ ٣١ سنة لم يكونوا راضين بما هو أقل من ذلك جداً ، وهو أن يكونوا في المنزل الثانية من محبة أبيهم اليهم ، خروا له سجداً ثم جلسوا محيطين به مثل إحاطة الهالة حول القمر ، جلسوا في

صمت عميق ، جلسوا وهم مأخوذون مسلوبون بما غمرهم من الخجل والحياء ،
ويا ما أعظم هذا المقام الرفيع ؛ وذكر رفعه لأبويه العرش ، وخرور إخوته
للسجود أمامه ، يكفيننا في تصوير مافي هذا المقام من دهشة ورهبة وجلال ، وهذا
مصدق رؤيا يوسف الثانية المذكورة في القرآن الحميد ، وهي سجود الأحـد
عشر كوكباً ، والشمس والقمر ، كما انه يجيء إخوته الأحد عشر عنده ، في
السفرة الثانية ، وسجودهم له حصل مصداق رؤياه الأولى ، المذكورة في سفر
التكوين ، وهي ان حُزَمَهم الإحدى عشرة سجدت لحُزْمته ، وبهذا وهذا تم
انتصاره على إخوته ، الذي هو من قبيل انتصار المحسود على حاسديه ، أو انتصار
الفرد على الجماعة ، أو انتصار المشرّد المطرود ، على مُشرّديه وطارديه .

وأما أبناء اخوة يوسف ، النجباء الكرام !! فكثروا غير بعيد ، ينظرون
لعمهم جالساً على عرشه وبجانبه أبواه ، وتحفه إخوته ساجدين لعظمته ، وعندئذ
اعتقدوا أن الذي يبين درجات الناس إنما هو المجالس ، واجتماع الناس بعضهم ببعض ..
وإذا ما خلا الجبان بأرض ذكر الطعن وحده والنبالا

ولا بد انهم في هذه الحالة تذكروا قولهم لجدهم : « تالله إنك لفي ضلالك .
القديم » فخرجوا بينهم وبين أنفسهم ، وهنأ وجد يوسف مكان القول ذا سعة ،
فقام فيهم خطيباً وقال موجهاً الكلام الى أبيه : « يا أبت الشيخ الوقور المحترم ،
تراني لم أذهب بالخيال بعيداً ، ولا أزيدك علماً أن هذا الحال الذي وقع أمامك ،
هو مصداق رؤياي التي رأيته سابقاً في صباي منذ ٢١ سنة ، وهو مصيرها ومرجعها
لا أقل ولا أكثر ، وهي الرؤيا التي علقنا عليها آمالاً جساماً ، وكنا نتفائل بها .
خيراً ، وكنا نقول ، ليس بكثير على الأيام أن يصبح حلمنا يقظة ، وآمالنا حقيقة
راهنه ، فهاهو ذا قد جعلها ربي حقيقة واقعة ، حيث جاءت كفلق الصبح ، أصفى .

من طلعة القمر ، ليس دونسه محلب ، فصدق بذلك قالنا ، وصحت أحلامنا وآمالنا ، فالحمد لله على آلائه ، وله الشكر على نعمائه ، وقد أحسن سبحانه بي احساناً متصلاً بذاتي ممازجاً لنفسي ، إذ أخرجني من السجن ، سجن الظلم على الوجه الذي أحبه وتعبه ، وأرضاه وترضاه ، تقياً ، طاهر الذليل ، ناصع الجبين ، وجاء بكم من البداوة وشطف العيش ، لمصر التاريخية العظيمة بأثارها الخالدة ، المتمدينة المتحضرة ، زهرة ممالك العالم .. جاء بكم من البدو الذي قيل فيه : « من بدا جفا »^(١) ، أي من نزل البادية صار فيه جفاء الأعراب ، لتوحشه وانفراده عن الناس ، جاء بكم من البدو الى الحاضرة ، ذات الأنس والاجتماع ، وضروب الأشكال وأنواع المسرات ، ثم الف بين قلوبنا من بعد أن نزع الشيطان وأثار داعية الشر ودخل في الفساد بيني وبين اخوتي ، وقد ذاب وتلاشى هذا النزغ في الهواء ، أمام اتفاقنا ومحبتنا لبعضنا بعض ، عملاً بالوصايا الهادية ، كما قال تعالى : ﴿ واذكروا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ، إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً ، فَأَلْتَفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ، فَاصْتَبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ (١٠٣ : ٣) ، وهذا من لطفه تعالى ، إذ انه لطيف لما يشاء ، لطيف التدبير ، فلا صعب إلا وله فيه تدبير ، ينفذ فيه مشيئته ، لطيف التوصل لما يريد ، بدقة ومهارة وخفة ورشاقة ، يتلطف لاستخراج الأمر الذي يريده ، وقرب منه : ﴿ وَلِيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ (١٩ : ١٨) ، فمن لطفه تعالى أن سخرنى لاعالة الناس في أيام السغب والمجاعة وبنوع أخص : بأعالتكم وقد بلغت اسرتكم ال ٧٥ شخصاً ، ومن لطفه تعالى انه أطفأ النائرة^(٢) وسكن النائرة^(٢) وذهب بالعداوة بيننا ، وأبدلها بالمودة في القربى ، والرحمة مع ذوي الرحم ، ومن لطفه انه لم يحرمني منكم ، ولم يفجعكم بي ، بل حفظنا جميعاً ، ثم زاد

(١) حديث شريف .

(٢) النائرة العداوة (٣) النائرة الغضب

آ (١٠٠) اختصار يوسف القول في جلسة الاحكام وتبسطه فيه في جلسة السلام ١٣٣١

في لطفه بنا ، فنظمتنا في سلك هذه الجلسة التاريخية ، وسيكون جامعاً بيننا في هذا القطر الواحد ، تحت سماء واحدة ، الى ماشاء الله ، فليذهب الماضي بخيره وشره ، ولنسدل عليه الستار وليأت لنا المستقبل بما نحب ، بقوة الله تعالى ، إنسه هو العليم الحكيم .

هذه هي الخطبة « النورية »^(١) اللطيفة ، خطبة الوثام والسلام بينه وبين اخوته ، كانت منه في مقابلة خطبتهم « النارية »^(٢) التي في (٨٤-١٠) التي كانوا ألقوها وتبادلوا فيها الآراء يوم المؤامرة على يوسف . (أحسنت)

(ورفع ابويه على العرش ... الخ)

— ٣ —

وقال السيد نعمة الله الدمشقي الميداني^(٣) :

بحثي في الآية الكريمة على التعليقات التالية :

(اختصار يوسف القول في جلسة الاحكام وتبسطه فيه في جلسة السلام)

(١) — نرى يوسف عليه السلام ، قد اندفع في خطابه الذي القاه بحضور أهليه جميعاً كالسيل المنهمر ، ورزق نشاطاً أيما نشاط ، بخلاف وقفته وهو لدى الباب بين يدي العزيز فوطيفار حينما قالت زليخا : (ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم) ، فاننا رأيناه في ذلك الموقف قد اختصر القول اختصاراً ، إذ قال : (هي راودتني عن نفسي) وسكت ، فأين ذلك الانقباض والاختصار في القول ، من هذا التبسط والاندفاع فيه ؟ فهو قد أنشأ هنا خطاباً أطنب فيه أيما إطناب .

(١) نسبة الى النور (٢) نسبة الى النار

(٣) نسبة الى حي الميدان في دمشق (سورية)

ولعل السر في هذا الاطئاب هو سروره وفرحه بأبيه وذويه ، والسر في اختصاره فيما سبق ، حصره وانقباضه ، لكونه كان عبداً خادماً ، ويمجني هنا قول القائل :

في انقباض وحشمة فاذا صادفت أهل الوفاء والكرم
أرسلت نفسي على سجيتهما وقلت ما قلت غير محشم

وأيضاً أين مقامه وهو عبد خادم من مقامه وهو سيد مخدوم ؟ وأين مقامه وهو حاكم من مقامه وهو محكوم ؟ وأين مقامه وهو يتكلم بين يدي أهليه ، من مقامه وهو يتكلم بين خصومه وعدويه ؟ وأخيراً أين مقامه وهو صبي يافع ، من مقامه وهو رجل كهل ؟

(مصداق قول يوسف ومصدق قول آيه)

(٢) — يقول هنا سيدنا يوسف : ﴿ هذا تأويل رؤياي من قبل ﴾ يريد أن هذا مصداق قوله سابقاً : ﴿ إني رأيت أحد عشر كوكباً .. الخ ﴾ .

وأما مصداق قول آيه له : ﴿ وكذلك يجتبيك ربك .. ﴾ فقد اجتباه بالنبوة والرسالة كما قال مؤمن آل فرعون : ﴿ ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات ، فما زلتم في شك مما جاءكم به ، حتى إذا هلك ، قلتم : لن يبعث الله من بعده رسولا ﴾ (٤٠ : ٣٤) ، وأما مصداق قوله : ﴿ ويعلمك من تأويل الأحاديث ﴾ فقد أول حلمي الساق والخباز ، وحلمي ملك مصر ، هذا رأي الجمهور في معنى « تأويل الأحاديث » وأما على رأي البعض ، من أن « تأويل الأحاديث » مغازي (١) مطلق الكلام ، فقد علمه الله مصائر جميع الكلام وأغراضه ، ومخارجهم ومداخلهم ، وكل ما يرمي إليه القول سواء أ كان حديث منام أو حديث يقظة ، وسواء أ كان كلاماً أخروبياً ، أو دنيوياً ، سياسياً أو اجتماعياً أو اقتصادياً ، إلى

آخر فنون الكلام ، والدليل على ذلك كله أعمال يوسف الواقعة الثابتة التي قام بها في تدبير المملكة المصرية .

وأما مصداق قوله « ويتم نعمته عليك » فقد تمت بخروجه من السجن ، الى كرسي وكالة المملكة ، وأنه صار « وزير مالية مصر » و « عزيزها » وأنه كان السبب الوحيد في حياة المصريين ، حتى سماه « الريان » « صفات فنيح » ومعناه على ما قيل « طعام الحياة » أو « قوت الأحياء » أو « خلص العالم » والمعنى على كل من هذه التفسيرات ، أن يوسف كان علة قوت الأحياء أو طعامهم واتقاذهم من الموت ، بما أتاه من خزن الحنطة ، الى زمن القحط ، ومن اتمام نعمته عليه انه تزوج امرأة شريفة وهي « أسنات » بنت كاهن « أون » وهي قرية « بيت شمس » على ستة أميال من القاهرة ، وفي الشمال الشرقي منها ، وكان أبوها واسمه « فوطي فارح » من كبار رجال الدين المقدمين في نظر حكومة مصر ، وقد رزق منها ولدان هما « منسى » و « أفرايم » وكل هذا الذي بلغه يوسف لم يكن إلا بالعناية الإلهية ، فلذلك يعد من أمثلة اتمام نعمة الله عليه ، لا سيما متى تصورنا نبوته ورسالته ومنصبه الجليل .

وأما مصداق قوله « وعلى آل يعقوب » فقد صار بخروجه فيما بعد من أرض السخرة والعبودية ، ثم بدخولهم الشام أرض العز والحرية ، حيث استولوا عليها على يد موسى ، ثم على يد « يشوع بن نون » وقبض الله لهم قضاة يحكمونهم ، ثم آتاهم الله الملك ، وجعل في سلالته النبوة والكتاب ، وأُنزل على موسى منهم التوراة وعلى داود الزبور ، وعلى المسيح الانجيل ، وفضلهم على عالمي زمانهم ، حيث كانوا موحدن ، وأما باقي أهل عصرهم ومواطنهم من الأمم فكانوا وثنيين .

(الإحسان يتعدى بالبلاء وبإلى)

(٣) — تعليقاً على قوله « أحسن بي » الإحسان يتعدى بالبلاء وبإلى ، فيقال

أحسن اليه وأحسن به ، وكذلك أساء اليه وأساء به ، قال الشاعر : « أسيتي

بنا أو أحسنى لاملومة ، ، والأول أبلغ ، لأن من أحسن به الله هو من يتصل به برّه ، وحسن معاملته ، وبلتصق به مباشرة على مقربة منه ، وعدم انفصال عنه ، وأما من أحسن الله إليه ، فهو الذي يسري برّه ، ولو على بعد ، أو بالواسطة ، إذ هو شيء يساق إليه سوقاً ، ونظير ما هنا قوله تعالى : ﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾ (٨٣: ٢)

(معنى « البرو »)

(٤) — تليقاً على كلمة « البدو » يجوز أن يكون ذلك مصدراً ، لأنه يقال : « بدا يبدو بدواً » إذا أقام أو نزل في البادية ، والواقع ان يعقوب وأولاده وأهله جميعاً كانوا من أهل الخيام ، من ساكني البادية غالباً ، وقد يكون ساكناً في الحاضرة مثل « قرية أربع » أو « بشر السبع » أو « سيلون » ولكن ذلك قليل ، ويقال للمقيم في البادية : « باد » كقوله تعالى : ﴿ سواء الماكف فيه والباد ﴾ (٢٢ : ٢٥) وجمعه « بادون » كما قال تعالى : ﴿ لوأنهم بادون في الأعراب ﴾ (٣٣ : ٢٠) ، ويحتمل أن « البدو » هنا بمعنى البادية ، وهي خلاف الحاضرة ، والنسبة إليها بدويّ ، وههنا أتذكر قول القائل سراج الدين الورّاق مورياً :

«وي من «البدو» كحلاء الجفون «بدت»

في قومها كهواة بين آساد

فلو «بدت» الحسان «الحضر» فمن لها

على الرؤوس وقلن : الفضل «للبادي»

فقوله : « وي من البدو » أي البادية ، وقوله « بدت » أي ظهرت . ويقال بدا من باب سما أي ظهر ، وقوله « الحضر » جمع حاضر أي ساكن في الحاضرة ، وهو كفارس وفارس ، وقوله « للبادي » هو موضع التورية ، ومعناه المقيم في البادية بقرينة « البدو » ومقابلته بالحضر ، أو معناه الظاهر بقرينة « بدت » ، ويحتمل

ايضاً أن كلمة « البدو » اسم لموضع بالشام قرب « وادي القرى » ، كان به منزل « علي بن عبد الله بن عباس » ، وأولاده (رض) ، كما في « النهاية » .

معنى « التزغ » والرد على القول بأن اختلاف الامة رحمة

(٥) — التزغ دخول في أمر لإفساده ، تزغ أفسد وأغرى ، وأصله من نخس الرائض الدابة وحملها على الجري ، تَزَعَّ وَتَزَحَّ وَتَزَقَّ وَتَزَعَّ وَنَسَعَ وَنَخَسَ وَنَحَرَ وَنَفَرَ وَنَكَزَ وَكَزَّ وَهَمَزَ وَطَنَ ، الفاظ متقاربة المعنى ، وأصله إصابة الجسد برأس شيء محدد ، كالآبرة والمهاز والرمح ، أو ما يشبه المحدد كالاصبع ، ويقال : تزغ وزغ بين الناس ؛ والمراد من تزغ الشيطان ، اثارته داعية الشر والفساد في النفس ، بداعية غضب أو شهوة ، حيوانية أو معنوية بحيث تتحقق بصاحبها الى العمل بتأثيرها ، كما تنخس الدابة بالمهاز ، لتسرع في العدو ، وغلب استعماله في الشر فقط ، وبناء عليه فتزغ الشيطان ، افساده وإغراؤه ، يحمل على التفريق بين الجماعة المؤتلفين ، وهذا هو عين الشقاوة ، وأما ما يروونه من حديث « اختلاف أمتي رحمة » فقال الحافظ السخاوي : « زعم كثير من الأئمة ، أنه لا أصل له » ، وهذا القول هو الصواب ، كيف والله تعالى يقول : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ ، وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١٠٥ : ٣) وكيف يقال : الاختلاف رحمة ؟ والله تعالى يقول : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ﴾ (١١ : ١١٩) والثابت بالشرع والعقل والتجربة ، ان الاختلاف نقمة ، وبسببه تفرقت الكلمة ، وذهبت الريح والشوكة ، الى أن وصلنا الى هذه الدرجة من الضعف ، وذهب ملكنا ، وصارت المملكة الكبيرة من ممالكنا ، تقع في قبضة الأجانب ، فلا يبالي سائر المسلمين بذلك ، فأين الوحدة والاخوة والتواد والتراحم وتمثيل مجموعهم بالجسد الواحد ؟ كل ذلك قد زال ، وكان مبدأ زواله ذلك الاختلاف .

توجيه النزغ للشيطان

(٦) - وجهه دفعة النزغ الى الشيطان ، مع أن «الكيد» إنما وقع من إخوته ، لطفاً منه وأدباً معهم ، وأيضاً فهو وجهه فكره للسبب الأول الأساسي ، وهو الشيطان ، وأما أبوم عليه السلام فنظر للسبب الأول ، ولأن سبباً من ، فقال : « فيكيدوا لك كيداً ، إن الشيطان للانسان عدو مبين » .

أدب يوسف في التعبير وامثلة من ادب تعاليم القرآن

(٧) - يقول يوسف : « من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي » ولم يقل مثلاً : من بعد أن تأمر عليّ إخوتي ، أو : من بعد أن القاني إخوتي في الحب ، أو : من بعد أن لعب الشيطان على إخوتي ، بل عبر بتلك الجملة الذهبية التي فاه بها أمام إخوته ، لأنها عبارة رقيقة معنوية ، تمش البائسين ولا تذلل عزة السامعين ، ولا تخرج عواطفهم ، وهذا أدب مشروع في التعبير ، ولطيف جداً ، وفي القرآن الكريم أمثلة عديدة منه كقوله : ﴿ لا تقولوا : راعنا ، وقولوا : انظُرنا ﴾ (١٠٤ : ٢) ، وهو خطاب المؤمنين إذ نهى الله تعالى عن أن يقولوا للنبي ﷺ كلمة « راعنا » لما فيها من سوء الأدب وأمرهم بكلمة أدب وألطف منها وفيها المعنى الذي كانوا يريدونه منها وهي « انظُرنا » ، ﴿ كانا يأكلان الطعام ﴾ (٥ : ٧٨) . والكلام هنا عن المسيح عليه السلام وأمه ، وقوله عز وجل كانا يأكلان الطعام كناية عن أنها بحاجة الى الغذاء والى الهضم والى دفع الفضلات .. أي أنها مفتقرين الى ما يقوم بأودهما كسائر أفراد نوعها وجنسها ، ففي قوله : « يأكلان الطعام » من أدب اللفظ ولطف التعبير مافيه ، ﴿ فجعلهم كعصف ما كول ﴾ (٥ : ١٠٥) ، فالعصف المأكول كناية عن البن الذي تأكله الدواب ثم تروثه ، وقد عبر القرآن الكريم بذلك لما فيه من الادب والحشمة ، ﴿ خَلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ، يَخْرُجُ مِنْ »

بين الصُّلبِ والتَّرائبِ ﴿ (٨٦ : ٦ و ٧) الماء الدافق كناية عن الحي، وخروجه من بين الصلب والترائب كناية عن خروجه من مجرى التماسل، وهي من الالفاظ التي تتضمن الأدب الرفيع، ﴿ وَتِيَابَكَ فَطَّهَّرْ ﴾ (٧٤ : ٤) فتطهير الثياب كناية لطيفة عن نظافتها من النجاسات، والكلام موجه الى النبي ﷺ، ﴿ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ (٧٣ : ٢٠) فأقرض الله كناية لطيفة عن أداء الزكاة الى الفقراء، ﴿ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ (٧٣ : ١٠) فالهجر الجميل كناية لطيفة عن المخالفة والابتعاد، ﴿ إِنَّا حَلَلْنَاكُمْ مِمَّا يَفْعَلُونَ ﴾ (٧٠ : ٣٩) كناية لطيفة عن النطفة التي يُستحي من ذكرها .

﴿ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكم وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكم ﴾ (٤٩ : ٢) ، فيستحيون يطلبون حي المرأة، وهو فرجها، فبر بكلمة « يستحيون » لما فيها من الأدب ولطف العبارة، ^(١) ﴿ أَحِلْ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ ... فَإِنَّ

معنى استحياء النساء في قوله « يستحيون نساءكم »

(١) وههنا سأل بعض اعضاء المؤتمر الرئيس ان يوضح لهم ويسط هذا البحث ، وهو بحث « استحياء النساء » الذي جاء في الآية فقال : « يستحيون نساءكم » معناه : يطلبون « حين » وهو فرج الآدمية ، كما أن « الحياء » فرج الحيوان من ذوات الحنف والظلف واللباع ، ويرجع هذا المعنى في الآية بأمر سبعة :

١ - لو كان المقصود من قوله : « يستحيون نساءكم » يستقوهن ، لكان يستغنى عنه بالاقطار على ذكر تذييع الأبناء .

٢ - نسبح ربنا سبحانه وتعالى يقول : « وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم » (٤٩ : ٢) ، ولارب أنه أراد من البلاء مجموع الأمرين : تذييع الأبناء ، واستحياء النساء ؛ وما هو هذا البلاء العظيم في استحياء النساء ؟ لعمرى انه نصف رحمة بأهلين ، ورحمة كاملة بنفس هؤلاء النساء المستقيات ، فاذاك إلا أن لاستحياء هؤلاء النساء معنى آخر به يكون استحياءهن بلاء عظيم ، وما ذاك الا المعنى الذي ذهبنا اليه .

٣ - لو كان المراد من الاستحياء ، الاستبقاء ، عبر بقوله : « يحبون » لأنه أخصر ، كما قال : « ومن أحياء فكأنما أحياء الناس جميعاً » (٥ : ٣٥) =

باشروهنّ ، وابتنموا ما كتب الله لكم ﴿١٨٧:٢﴾، في هذه الآية ثلاث لطائف : الأولى هي أن أصل «الرفت» الفحش في الكلام ، وأراد منه الوقاع ، والثانية أصل «المباشرة» مماسة ظاهر البشرة أي الجلد ، والمراد منه أيضاً الوقاع ، الثالثة يريد

٤ - لو كان الغرض من الاستحياء الاستبقاء ، لعب « بالبنات » بدل تعبيره بالنساء ، الذي يغلب استعماله في المرأة الكبيرة ، موافقة للواقع ، لأن المصريين ما كانوا يستبقون النساء الكبيرات بل البنات الصغيرات ، كما ان اليهود بمصر ما كانوا يستسهلون تمكين المصريين من بناتهم ، ولكن بنسائهم فقط ، لانهم تعلموا استسهاله من اصولهم - على ذمة التوراة - وعلى هذا فيشبه أن يكون في الآية الكريمة ، استخدام على مذهب ابن مالك ، وهو أن يطلق لفظ له معيان ، محفوف بقرينتين ، فالسابقة تتطلب أحد المعنيين ، واللاحقة تتطلب المعنى الثاني ، فهذا اللفظ هنا هو « يستحيي » يحتمل أن يراد به : يستحيي بقرينة قوله سابقاً « يذبح » ويحتمل أن يراد منه : يطلب « حي » المرأة بالزنى ، بقرينة قوله لاحقاً : « نساءكم » .

٥ - الزنا هو لزم التوثن ، كما يعرف تماماً بمراجعة كتب التاريخ القديمة ، لاسيما أسفار التوراة وتاريخ الكلدان وأستور ، وغيرها من الكتب التي تحكي حوادث الامم الوثنية العتيقة ، وأنه لأمر معلوم أن المصريين وثنيون ، ومثلهم الاسرائيليون بمصر في ذاك التاريخ ، فلا بد أن تكون وثنية الطرفين قد أوقعتهم في شبكة الزنا ، لان الزنا والشرك اخوان ، كما هو المعروف عند جميع الوثنيين ، حتى وثنيي العرب والهند ، وحتى أهل الصين واليابان اليوم .

٦ - هذه القصة ذكرت في القرآن في ستة مواضع ، ولم يأت في موضع واحد منها لفظ : يحبون أو يحبي أو تحبي أو استحيوا ، فلو كان المراد الاستبقاء ، لكان عبر - ولو في محل واحد من هذه المحال الستة - بدون سين وتاء ، طلباً لتنشيط القارئ والسامع والكاظم ، بالتبديلات والتغييرات في اللفظ ، كما هو عادة القرآن .

٧ - سنة القرآن باطراد ، انه متى أراد المعنى المقابل للامانة ، أن يعبر عنه « بأحيا » ، بدون سين وتاء ، كما أن سنته المطردة ، أن يقابل تذييح أو تهليل أبناء اليهود بمصر ، بمادة « الاستحياء » أي بالسين والتاء دائماً ، فلم هذا الاختلاف المطرد يا عجباً ؟ ! اذا لم يكن لكنته ، وتلك الكنته هي ما فهمناه ؟

هذا بسط القول في هذا البحث الذي ذكرناه استطراداً وجواباً أسئلة السائل ، والله اعلم . آ هـ

(وئيس المؤخر)

بقوله ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ (١٨٧:٢) المواقعة في...، لافي...، لأن ما كتبه الله في اللوح المحفوظ من النسل، إنما يكون بالمواقعة الأولى؛ ﴿ولكن لا تواعدوهن سراً﴾ (٢: ٢٣٥) والسر هنا كناية لطيفة عن النكاح، ﴿وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن﴾ (٢: ٢٣٧) المس هنا كناية عن النكاح، وهي من ألطف وآدب الكنايات، يقول القرآن عن التابوت حين أتى به من عند الفلسطينيين لموقع بني إسرائيل ﴿تحمله الملائكة﴾ (٢٤٨:٢) وهذا التعبير آدب وألطف من عبارة «تحمله البقر» التي عبرت بها تورااة اليهود، ﴿فإن قولوا فإن الله عليمٌ بالفاسدين﴾ (٣: ٦٣) ولم يقل فإن الله بفسادكم عليم، ﴿فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله﴾ (٣٣:٤) فالغيب هنا هو ما يستحي من اظهاره، أي حافظات لكل ما هو خاص بأمر الزوجية الخاصة بالزوجين، ومنه ما يكون بينهن وبين أزواجهن في الخلوة، ولا سيما حديث الرث، فما بالاك بحفظ العرض، فهذه الكتابة من دقائق كنايات النزاهة، تقرأها فرائد المذارى جبراً، ويفهم من ما تومي اليه مما يكون سراً، وهن على بعد من خطرات الخجل أن تمس وجدانهن الرقيق، ﴿والذان يأتيانها منكم فاذنوهما﴾، فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنها﴾ (١٥:٤) هو كناية في غاية الحشمة عن اللواط، بمقابلة قوله قبله ﴿واللاتي يأتيان الفاحشة من نسائكم... الخ﴾ (١٤:٤) الذي هو عبارة عن السحاق، ﴿وكيف تأخذونه﴾، وقد أفضى بعضكم إلى بعض﴾ (٢٠:٤) يقال أفضى إليه بصره، وأفضى إلى امرأته باشرها، وهو كناية لطيفة عن الوقاع، أو معناه، خلص بعضكم إلى بعض ذلك الخلوص الخاص بالزوجين، واتصل بعضكم ببعض ذلك الاتصال الذي يكون في الخلوة، وهذا من حسن نزاهة القرآن في التعبير وأدبه العالي في الخطاب، ﴿وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى

والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب ، والصاحب وابن السبيل ﴿ ٣٥:٤ ﴾ ، فالسبيل الطريق ، وليس للطريق ابن ، فهو كناية عن « اللقيط » لأن اللقيط حيث لم يعلم له أب ينسب اليه ، نسب للطريق الذي وجد فيه ؛ ﴿ ذلك لمن خشي السنتَ منك ﴾ (٢٤:٤) العنت بحسب الأصل الشقة والفساد ، وهو هنا كناية عن الزنى ، ﴿ أو جاء أحدكم من الفأط أو لامستم النساء ﴾ (٢٤:٤) فالحيء الإتيان والفأط هو المكان المنخفض من الأرض كالوادي والجورة ، هذا هو حقيقة الكلام ، ولكن هو كناية عن قضاء الحاجة ، وخروج شيء من أحد السبيلين (القبل والدبر) وعبر عنه بذلك كناية كما هي سنة القرآن في التزاهة بالكناية عما لا يحسن التصريح به ، وسبب هذه الكناية أن أهل البوادي والقرى ، بل جميع المسلمين وقت نزول الآية لم يكن لهم مراحيض ، بل كانوا يقصدون بحاجتهم الأماكن المنخفضة لأجل الستر والاستخفاء عن الأبصار ، وكذلك قوله : (أو لامستم النساء) هو كناية لطيفة عن الوقاع ، ﴿ إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات ، لعنوا في الدنيا والآخرة ، ولهم عذاب عظيم ﴾ (٢٣:٢٤) ، فهذا « الرمي » كناية لطيفة عن القذف بالزنا ، ﴿ أنأتئون الذَّكر أن من العالمين ؟ ﴾ (١٦٥:٣٦) فالإتيان كناية عن الواطة ، ويوجد في كتاب الله تعالى من الكنايات اللطيفة ما لا يحصى ، كما ويوجد في الحديث الشريف وفي كلام الأدباء وحكاياتهم ما يشبه ذلك ، وفيما أقيته على مسامعكم الكفاية .

عدم ممانعة الدين الاسلامي التمتع بحياة المدن الاجتماعية

(٨) — تعليقا على قوله « وجاء بكم من البدو » اذ اعتبر يوسف محبي أبويه وأخوته من عيشة البداوة الى عيشة الحضارة ، ذات الأنس والجور والحياة الاجتماعية والسرور ، إحسان به ، هذا وإن الدين لا يمنع من العناية بذلك ﴿ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده ، والطيبات من الرزق ؟ قل هي

للذين آمنوا في الحياة الدنيا ، خالصة يوم القيامة ﴿٣١:٧﴾ ، وإذا كان الله يقول : ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾ (٢٩:٢) فهل المسلم خارج عن دائرة هؤلاء المخاطبين ؟ وإذا كان الله يمتن على عباده بالظلال والكهوف والثياب التي تستر العورة كما قال : ﴿والله جعل لكم مآئاً خلق ظلالاً ، وجعل لكم من الجبال أكتافاً ، وجعل لكم سرائيل تنقيكم الحر﴾ (٨١:١٦) فكم تكون منته عليهم إذا سكنوا في المدن ، وتمتعوا بما فيها من مرافق الحياة .. ؟ وإذا كان الله قد امتن على أهل البوادي بجمال الحيوانات كما قال : ﴿ولكم فيها جمال ، حين تريحون ، وحين تسرحون﴾ (٦:١٦) فكم تكون منته على الناس ، بما حوته المدن من مظاهر السرور ، وبجالي شرح القلوب .. ؟

نوال يعقوب شرفاً دنيوياً مع الشرف الهديني

(٩) — تعليقاً على قوله تعالى ﴿ورفع أبويه على العرش﴾ وبذلك وأمثاله نال يعقوب شرفاً دنيوياً ، وغفراً زمنياً ، عطفاً على شرف نبوته ، وغفر رسالته ، فكان حاله مع ابنه كحال « أبي الصقر » مع « شيان » في قول ابن الرومي يمدح أبا الصقر الشيباني وزير المتمدن العباسي :

قالوا : « أبو الصقر » من « شيان » قلت لهم
كلا ، لعمرى ، ولكن منه شيان
كم من أب قد علا بابن له شرفاً
كما علت برسول الله « عدنان »

مقابلة بين معاملة يوسف لابويه ومعاملة المسيح

(حسب رأي الانجيل) لوم

ويجدر بنا هنا أن نلاحظ أدب يوسف عليه السلام مع أبويه ، إذ اعتبر

حاضنته كأم ، وأعطاهما واجبات الأم الحقيقية ، وورفها مع أبيه نبي الله على العرش ، وهكذا جميع أنبياء الله ورسله ، كلهم يقومون بواجباتهم نحو ربهم ، ثم نحو آبائهم وأمهاتهم ، وأمثلهم في هذا الأدب ، سيدنا المسيح عيسى عليه السلام ، خلافاً للنصارى الذين ينسبون له عدم احترامه لأمه ، واهانتها مراراً أمام الناس ، إذ مرة جاءته تطلب منه مساعدة أهل العرس في « قانا » ، فقال لها أمام الحاضرين والحاضرات : « مالي ولك يا امرأة » (يو ٢ : ٤) فرجعت بالطبع مكسورة الخاطر ، كسيفة « البال » واأسفاه ! ويقولون : « فلما رأى يسوع أمه والتلميذ الذي كان يحبه واقعاً — أي عند الصليب — قال لأمه : يا امرأة ، هو ذا ابنك ، ثم قال للتلميذ : هو ذا أمك » (يو ١٩ : ٢٦) ، ولا يخفى ما في هذا الخطاب من قلة الأدب — حاشا سيدنا المسيح من ذلك ، إذ ناداها بقوله : « يا امرأة » ، كأنها أجنبية منه ، وكأن القواميس ضاقت عليه ، حتى أنه لم يجد فيها سوى كلمة « يا امرأة » التي تشعر بالجفاء واليبس ، ويقولون : « فيها هو يكلم الجوع ، إذ أمه وإخوته قد وقفوا خارجاً ، طالبين أن يكلموه ، فأجاب وقال للقائل له : من هي أمي ؟ ومن هم إخواني ؟ ثم مد يده نحو تلاميذه وقال : ها أمي وإخواني ، لأن من يصنع مشيئة أبي الذي في السموات ، هو أخي وإختي وأمي » (مت ١٢ : ٤٦ - ٥٠) ، فقابل أعمال المسيح عليه السلام هذه مع أمه على ما في الانجيل بقول القرآن الكريم : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِالذِّكْرِ ، حَمَلْتَهُ أُمُّهُ وَهَنَا عَلَى وَهْنٍ ، وَفِصَالُهُ فِي عَمَيْنِ : أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ ، إِلَى الْمَصِيرِ ، وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، فَلَا تُطِعْهُمَا ، وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ، وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنْابَ إِلَيَّ ، ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (١٥٩ : ٣١) ، وقوله : ﴿ وَوَضَى رَبُّكَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا — إِلَى قَوْلِهِ — فَلَا تَقُلْ لَهَا : أُوْفٍ ، وَلَا تَنْهَرْهُمَا ، وَقُلْ لَهَا قَوْلًا

كريمًا ، واخفيضَ لهما جناحَ الذَّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ، وقل ربَّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿١٧﴾ (٢٣ و ٢٤) ، والقرآن الشريف ، قد كذب الاناجيل في هذه الدعوى أيضاً حيث نقل عن المسيح أنه قال: ﴿وَبَرَّأ بوالدتي ولمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ (١٩ : ٣٢) ، أي لم يكن عاقاً لها ولا قاسياً عليها ، ولا على غيرها ، بخلاف ما يفهم من الاناجيل ، فإن حسن معاملة يوسف مع « بلهة » مرييته ، التي لما اعتبرها كأم له ، رفعها مع ابيه على العرش — من معاملة المسيح لأمه الحقيقية ؟ على ذمة تلك الاناجيل ، ولكننا نبرأ إلى الله تعالى من مطاعنهم هذه ، ولا نشتد إلا بما ورد في القرآن من أنه لم يكن عاقاً لها ولا عديم الاحترام ولا قاسياً ولكنه كان باراً أبها ، ومطيعاً لها .

ذكريات يعقوب ويوسف واخوته بعد ما القى يوسف خطاب الوثام

(١٠٠) — نخال أنه بعدما خرَّ له إخوته سجداً ، ساد السكوت في تلك الجلسة الرهيبة ، لا يبدأ أحد بكلام ، حتى لقد يحاذر أحدهم إذا فاجأه السعال أن يتنحى ؛

هم صامتون ، والقلوب تتناجي وتتفام ، وضرباتها أصوات حية ، تفصح عما لا يعبر عنه النطق الصريح ، واستغرقوا في ذكريات الزمن الماضي وحوادثه ، فتمثلت لكل فريق حاله كما هي ؛ فأما إخوة يوسف فتذكروا حسدهم لأخيه ، ففؤآمرتهم عليه ، وما زالت تتسلل الأفكار في ذهنهم ، حتى الساعة التي حضروا فيها الآن جميعاً باهليهم بين يديه ،

وأما يعقوب عليه السلام فاخذ بتذكر جميع ما جرى له منذ المنام الذي قصه عليه يوسف ، إلى لقائه إياه وهو حيّ ، بل وهو « عزيز مصر » و « وزير ماليها » .
والحاكم على نهر النيل بالوكالة عن الملك الريان .

وأما يوسف فقد تمثلت له حاله في تلك الجلسة كما هي ، فتذكر ما مرّ به من الأحوال منذ حدوثه ، حتى وصوله إلى هذه الجلسة وسجود أخوته له ، فترك من هذه الذكريات مالا ينبغي ذكره ، فقام ملخصاً الباقي في هذا النطق الذي ألقاه كخطيب مفوه .

(١١) — سمعنا يوسف يتكلم ويخطب ويأتي بالشيء الكثير ، وأما أبوه ، فلم نسمع منه حين اللقاء ، كلمة واحدة ، فلماذا ياترى ؟ والجواب قول العامري عاشق ليلي :
ولاني لينسيني لقاؤك كلسا لقيتكم يوماً أن أثبتك ما ييا

معنى السجود والخروج وحكما في الدين

(١٢) — حمل بعضهم السجود هنا على أعظم مظاهره ، وهو وضع الجبهة على التراب ، ولا بأس بهذا المعنى هنا ، بل هو من الحسن بمكان ، وقد كانت السجدة عندهم جارية مجرى التحية والتكرمة ، كالقيام والمصافحة وتقبيل اليد ونحوها مما جرت عليه عادة الناس . من أفعال شهرت في التعظيم والتوقير ؛

نعم . نعم ، نعلم من مراجعة «أسفار العهدين ، القديم والجديد» والكتب التاريخية القديمة أن السجود للمخلوق ، بدون أن يتضمن شعوراً دينياً عبادياً ، كان جائزاً في الأديان السابقة ، منذ عهد سيدنا إبراهيم إلى عهد السيد المسيح ، وأما السجود الذي يقصد به العبادة ، فهو عندهم غير جائز ، لأنه عمل وثني ، ولكن دين الاسلام يمنع السجود لغير الله مطلقاً ، سواء أكان عبادياً أو احترامياً ، احتياطاً وتحفظاً .

وحمل بعضهم هذا السجود على معنى آخر ، وهو التطامن والخضوع والالتقياد كما هو معناه لغة ، ويكفي في الخروج أن يكونوا قد تطامنوا نحو الأرض ، كما يفعله بعض متعدي أهل اليوم ، عندما يريدون تعظيم إنسان ذي مقام عال .

ولما كان المقام يقتضى البسطة في الكلام نقول : قد يتجاوز بالسجود عن

الاتقياد لقدرة الله وارادته ، وله أمثلة ، أحدها قوله تعالى : ﴿ وَلِلّٰهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ، وظلالُهم بالغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ (١٣ : ١٦) ، يصح أن يحمل هذا كله على السجود المجازي ، وأن يحمل في حق العقلاء على السجود الحقيقي ، وفي حق الظلال على السجود المجازي ويكون فيه الجمع بين الحقيقة والمجاز .

ثانيها قوله تعالى : — ﴿ وَلِلّٰهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْاَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ ﴾ (١٦ : ٤٩) .

ثالثها — قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمٰوٰتِ وَمَنْ فِي الْاَرْضِ ، وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ، وَكَثِيرٌ حَقٌّ عَلَيْهِ الْمَذَابُ ﴾ (٢٢ : ١٨) ، وهذا إن حملته على السجود المجازي في الجميع صح ، لأن الكل منقادون لقدرته وارادته وإن حملته على السجود الحقيقي فيمن يعقل وعلى المجازي فيما لا يعقل ، كنت جامعاً بين حقيقة شرعية ومجاز لغوي ، كما قرره « عز الدين بن عبد السلام » فهنا في هذه السورة يجوز أن يحمل السجود من اخوة يوسف على المعنى الحقيقي الشرعي ، وهو وضع الجبهة على الأرض لأنه كان جائراً في شريعتهم ، وأن يحمل على السجود اللغوي ، وهو الاتقياد والطاعة ، ولا ينافي قوله : « وخروا » ، لأن الخروج ، لا يجب أن يكون معناه دائماً النزول من علو الى سفلى ، بل قد يستعمل في مطلق السقوط وقد يطلق على الاسترخاء ، كما نبه على كل ذلك في القاموس ، وقال في التاج ، يقال : خرّ ، إذا عثر بعد استقامة ، وفي التنزيل : ﴿ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ (٣٨ : ٢٤) ، وفي الأساس ، يقال : « شجرة ساجدة : مائلة ، والسفينة تسجد للرياح : تطيعها وتميل بميلها ، ومسجد البعير : طمأن رأسه لراكبه » فالخروج لا يقتضي السجود بوضع

الجهة على الأرض ، بل قد يستعمل فيما قد يصل به الانسان الى حالة الركوع ، ولذلك نرى أبا حنيفة وأصحابه استشهدوا بهذه الآية في سجدة التلاوة ، على أن الركوع يقوم مقام السجود ، وأما قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ ، إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ ، يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ، وَيَقُولُونَ : سُبْحَانَ رَبَّنَا ، إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبَّنَا لَمَفْعُولًا ؛ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَسْكُونُ ، وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ (١٧ : ١٠٧ - ١٠٩) فلا يجب فيه أن يكون السجود وضع الجهة على الأرض ، بل يجوز أن يكون معنى السجود الخضوع والانحناء بالرأس للأذقان ، فقوله : « ويخرون للأذقان » أى يسترخون وينحنون لجهة الأذقان ، خُضْعًا خُشْعًا ، وتكرير يخرون للأذقان ، يفيدنا أن الخرور وقع منهم مرتين ، مرة في بدء سماع تلاوته عليهم ، قبل قولهم : « سبحان ربنا ان كان وعد ربنا لمفعولا » ، واخرى في أثناء تلاوته عليهم بعد هذا القول ، ولكن كانوا في هذه المرة الثانية يسكنون لقوة ما اعتراهم من الخشوع .

البدو وسكنائهم وشهادتهم

١٣ — في الحديث الشريف : (ساكن الكفور كساكن القبور) ، وسكنى البدو تعد أنزل جداً من سكنى القرى ، بلكة المدن ، حتى أنه كان في الاسلام من رجع بعد الهجرة الى موضعه من البدو ، من غير عذر ، يعدونه كالمرتد ، فكان يحرم على المهاجر تركه هجرته ، ورجوعه للبادية ، وبعد ارتداد المهاجر أعمالياً من الكبار ، ولكن كل هذا كان قبل فتح مكة ، فلما كان الفتح سقط فرض الهجرة ، وصارت السكنى في البدو جائزة ، إنما مع الكراهة ، وذلك لما فيها من البعد عن العلم والدين والنور ، ففي الحديث « لا تجوز شهادة بدوي على صاحب قرية » ، فكره شهادة البدوي ، لما فيه من الجفاء في الدين ، والجهالة بأحكام

الشرع ، ولأنهم في الغالب لا يضبطون الشهادة على وجهها ، وإليه ذهب مالك ،
والناس على خلافه .
- احسنت احسنت -

حسن الختام

آ (١٠١) رَبِّ ! قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ ، وَعَلَّمْتَنِي مِنْ
تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، أَنْتَ وَلِيِّي فِي
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، تَوَفَّنِي مُسْلِمًا ، وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ *

افتتحت جلسته وتليت الآية المنة والواحدة ، فقام السيد الفراتي وقال :

قال يوسف مخاطباً الباري عز وجل (رب) كم أنا مدين لك ، حيث (قد
آتيتني) خطأ (من الملك) بمصر في ملكة مليكها « الريان » (وعلمتني من تأويل
الاحاديث) احاديث المنام ، واحاديث اليقظة ، يا (فاطر) ياخالق على غير مثال
سبق (السموات والأرض) - والفطر هنا الاختراع والابتداء ، وبابه نصر ،
قال ابن عباس رضي الله تعالى عنه : « كنت لا أدري ما فاطر السموات ؟ حتى
أتاني امرأيان يختصمان في بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها ، أي ابتدأتها ، - (أنت
وليي) متولي أموري (في) داري (الدنيا والآخرة) أوفي أولى أحوالي وأخراها
(توفني مسلماً) فلاآخرة خير للعبد من الأولى (وألحقتني) عند زول الحُمام بي
(بالصالحين) في الملاء الأعلى وكفى ، فليست أسألك بعد ذلك شيئاً مع علمي بدوام
افتقاري اليك .

وب قد آتيتني من الملك ... الخ

— ٢ —

وقال السيد الطرابلسي :

تحدث يوسف بنعمة الله وترجيه ان تكون خاتمة حياته حسنة

نظراً للوجوب التحديث بنعمة الله تعالى ، ونظراً لكونه قد تم ليوسف كل شيء أراد ، ونظراً لقول القائل :

إذا تم شيء بسدا فقهه ترقب زوالاً إذ قيل : « تم » ،

ونظراً لأن الإنسان مما عاش فهو ميت — نظراً لذلك كله ، انتقل يوسف من خطابه العظيم الذي ألقاه ، إلى بيان ما أنعم الله عليه ، كما انتقل من تذكر الدنيا لتذكر الآخرة ، ومن تصور حال الحياة ، لتصور حال الموت ، فقال مخاطباً ربه : يا رب كم أنا مدين لك ، ومعترف لك بالجليل ؟ حيث أنا اليوم غيري بالأمس ، أنا اليوم وزير مالية ، وعزيز مصر ، ووكيل عن مليكها ، بعد أن كنت بالأمس رقيقاً وعلوكاً لا شأن لي ولا منصب ، بل بعد ما كنت سجيناً ، مع أصحاب الجرائم ، ثم زد على ذلك أنك علمتني من تأويل أحاديث المناسم وأحاديث اليقظة ، لا فرق فيها بين أن تكون دينية ، سياسية ، اقتصادية ، اجتماعية ، وأن تكون أحاديث أخروية كالتي في صحف جدي إبراهيم وغيرها ، بإخلاق السموات والأرض على غير مثال سبق ، وأنت متولي أموري وقابض على زمام أحوالي في داري الدنيا والآخرة ، وقوفي مسلماً لآتي أرى أن السعادة أضنّ بنفسها من أن تستقر زمناً طويلاً في مكان واحد ، وأن نفس المرء خطاه إلى أجله ، وما أسرع زوال هذه الدنيا وزخرفها ؟ وما أوشك بهجة الجمال ، بالفناء والاضمحلال ؛ والحقني عندما تتوفي بال صالحين لأتفع بالموت على الإسلام وبصلاحه ، في يوم

لا يكون مي فيه شيء من هذا الملك وهذا العلم ، الحقني بالذين أنعمت عليهم من
النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقاً ، وعلى الدنيا
السلام ، توفي مسلماً لأفوز ، بجواز الدخول ، إلى الجنة ، وألحقني بالصالحين
لأحصل على بطاقة الجلوس ، في المقصورة العليا معهم .
ونلق على الآية المذكورة بالمواد التالية :

انواع الادعية في القرآن

المادة ١ — نقرأ في القرآن المجيد ، فزى أدعية متنوعة لأنواع كثيرة ، منها :
١ — ثناء فدعاء — وذلك كسورة الفاتحة ، نصفها الاول ثناء ونصفها الثاني
دعاء ، وكقول سيدنا ابراهيم : ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهوَ يَهْدِينِ ، وَالَّذِي هُوَ
يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ، وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ، وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ،
وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ، رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَالْحَقْنِي
بِالصَّالِحِينَ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ، وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ
النَّعِيمِ ، وَاعْفِرْ لِي لِأَنِّي لَأَكُنُ مِنَ الضَّالِّينَ ، وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ، يَوْمَ
لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ، إِلَّا مَنْ آمَنَ أَنَّى اللَّهُ بِقَلْبِهِ سَلِيمٌ ﴾ (٧٨: ٢٦-٨٩)

٢ — دعاء فثناء — واليك بعض أمثله : دعاء سيدنا ابراهيم واسماعيل : ﴿ رَبَّنَا
تَقَبَّلْ مِنَّا ، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ، رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ ، وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا
أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ، وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا ، وَتُبْ عَلَيْنَا ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ،
رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ ، وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ
وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١٢٧ : ٢ - ١٢٩) ،
ودعاء الراسخين في العلم : ﴿ رَبَّنَا ، لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ، وَهَبْ
لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ، إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ (٨: ٣) ، ودعاء سيدنا زكريا :

﴿ رَبِّ ، هَبْ لِي مِنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ، إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ (٣٨:٣) ، ودعاء المسيح عليه السلام ﴿ اَللّهُمَّ رَبَّنَا اَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ، تَكُونُ لَنَا مَعِيْدًا ، لَا اُولَئَا وَآخَرًا ، وَآيَةً مِنْكَ ، وَارْزُقْنَا ، وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِيْنَ ﴾ (١١٧:٥) دعاء به أيام عيد ميلاد هيرودس ، حين كان المسيح في الصحراء وكان معه جمع كثير جاعوا فأتي له بأرغفة وسمكتين ، فرفع نظره نحو السماء ودعا الله بالبركة وكسر الأرغفة وأمر أن يأكل هذا الجمع الكبير ، فأكلوا وزاد عنهم اثنتا عشرة قفة ، وكانت إحدى معجزاته الكبيرة (انظر مت ١٤: ١٥ - ٢١) ودعاء موسى عليه السلام ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي ، وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِيْنَ ﴾ (١٥٠: ٧) ، ودعاء زكريا عليه السلام ﴿ رَبِّ لَا تُؤْخِرْ بَرْدًا ، وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِيْنَ ﴾ (٢١ : ٨٩) ، ودعاء المؤمنين ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ، وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا ، رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (١٠: ٥٩) .

٣ - دعاء مختلط بالثناء - ومن أمثلته : قول المؤمنين : ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ، غُفْرَانُكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ... رَبَّنَا لَا تَوَاضِعْنَا وَإِنْ نَسَبْنَا أَوْ أَخْطَأْنَا ، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا ، كَمَا سَحَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ، وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ، وَأَعْفُ عَنَّا ، وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ، أَنْتَ مَوْلَانَا ، فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِيْنَ ﴾ (٢٨٥ و ٢٨٦ : ٢) ، وقول المؤمنين ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا - سُبْحَانَكَ - فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ، رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ، وَمَا لِلظَّالِمِيْنَ مِنْ أَنْصَارٍ ، رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ : أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ ، فَآمَنَّا ، رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ، وَكَفِّرْ عَنْ سَيِّئَاتِنَا ، وَتَوَقَّنَا مِنَ الْإِرَارِ ، رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ ، وَلَا تَخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ (١٩١: ٣ - ١٩٤) .

٤ - دعاء عبوك الطرفين بالثناء - ومن أمثله : قول سيدنا شبيب : ﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ، عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ، رَبُّنَا أَفْقَعُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ ، وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ (٨٨:٧) وقول موسى عليه السلام ﴿ أَنْتَ وَلِينَا ، فَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ، وَأَنْتَ خَيْرُ الْمَرْفِقِينَ ﴾ (١٥٤:٧) ، وقول سيدنا إبراهيم ﴿ رَبَّنَا عَلَيكَ تَوَكَّلْنَا ، وَإِلَيْكَ أَنْتَبْنَا ، وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ، رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ، وَاعْفِرْ لَنَا ، رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٦٠:٥٤) .

٥ - دعاء عتو بالثناء - ومن أمثله : قول سليمان عليه السلام : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ ، وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ ، وَأَدْخِلْنِي رَحْمَتَكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ (١٩:٢٧) ومثله قول الإنسان ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ ، وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ ﴾ (١٥:٤٦) .

٦ - خبر في معنى الإنشاء - ومن مثله : قول آدم وحواء : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ، وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا ، لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٢٢:٧) ، ومثله قول بني إسرائيل : ﴿ لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (١٤٨:٧) وقول يوسف هنا : ﴿ وَإِنْ لَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ ، أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ، وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (ع ٣٣) وقول أيوب ﴿ إِنِّي مَسَّيْتُ الضُّرَّ ، وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (٨٣:٢١) وقول ذي النون ، وهو في الظلمات : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، سُبْحَانَكَ ، إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٨٧:٢١) .

٧ - ثناء محض في ضمه دعاء - وإليك بعض أمثله : ﴿ مَالِكُ الْمُلْكِ ، تُوْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ ، وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ ، وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ ، وَتُذَلِّلُ مَنْ تَشَاءُ ، رِيْدَكَ الْخَيْرُ ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، تُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ ،

وَتَوَلَّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ، وَتَخْرُجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيْتِ ، وَتَخْرُجُ الْمَيْتَ مِنَ الْحَيِّ ،
وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿ (٢٧ و ٢٦ : ٣) ﴾ ، ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ
بِضَرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ، وَإِنْ يَمْسَسْكَ بَئِجٍ ، فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾
(١٧ : ٦) ، ﴿ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، لَا شَرِيكَ لَهُ
وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ ، وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (١٦٣ : ٦) ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ ، وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهُ ، فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ، وَمَا رَبُّكَ بِظَالِمٍ
فَعَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (١٢٣ : ١١) وَقَوْلُ الْمَلَائِكَةِ لِسَارَى : ﴿ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ
عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ، إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴾ (٧٣ : ٧) .

ظفرات حياة يوسف عليه السلام

المادة ٣ - من تأمل في حياة يوسف وجدها كلها ظفرات ، فمن حضن
أبيه ، إلى « غيابة السجن » ، ومن الحرية الكاملة إلى « الرق والعبودية » ،
ومن نازل « الحب » إلى علي « القصر » ، ومن « قصر العزيز » إلى « سجن
الذليل » ، ومن « متهمة » بجريرة الفحشاء ، إلى « بريء » الساحة ، معترف له
بالطهارة والتقديس ، ومن « السجن » إلى « بلاط الملك » ، ومن ذليل بين إخوته
إلى « عزيز » فوق رؤوسهم ، ومن « طريد » إلى « مجتمع » ، ومن واقف فوق
« منبر الخطابة » بحضور هيئة إخوته وأبويه ، إلى « مائل في محراب الدعاء »
يدعوه بربّه بحسن الختام .

إيتاء الملك الشرعي وغير الشرعي

المادة ٤ - تعليقاً على قوله « رب قد آتيتني من الملك » : « إن » الذي أتى يوسف
- بحسب الظاهر - شيئاً من الملك هو « الريان بن الوليد » ولكن الفعل المنفي
« والمليهم هو الله تعالى » ، فلذلك نسب هذا الإيتاء له سبحانه ؛ وهناك وجه آخر

دقيق ، هو بالاعتبار حقيق ، وهو أن كل من صار ملكاً أو أوتي شيئاً من الملك ، فإن لم يكن من أهل الايمان والمدل ، فهو من قبيل المنتصب ، ولا يسمى ماثله انه إيتاء من الله تعالى ، قال تعالى يخاطب ابراهيم : ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۚ ﴾ — قال : وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ، — قال : لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿ ١٢٣:٢ ﴾) فإن كان من أهل الايمان والمدل ، وأوتي الولاية العامة الشرعية ، كالأئمة الراشدين ، أو أوتي شيئاً من هذه الولاية ، كالذين كانوا منصوبين تحت يد هؤلاء الأئمة ، فإن إيتاءه هذا ، إيتاء رباني شرعي ، ينسب لله تعالى ظاهراً وباطناً ، وكذا لو لم يكن الوالي العام مؤمناً عادلاً ، ولكن الذي تعين تحته كان مؤمناً عادلاً ، كما في حادثة يوسف عليه السلام ، فإيتاؤه خطأ من الملك إيتاء شرعي آلهي ، ينسب لله تعالى ظاهراً وباطناً ، وبعتبر انه نعمة آلهية على المبد ، يجب شكره تعالى عليها ، والدليل على ذلك كله تلك المحاورة السابقة التي جرت بين الله وبين ابراهيم عليه السلام .

فهذا الحظ الذي أوتيهِ يوسف من الملك ، هو عطية آلهية شرعية ، مسندة لله راساً ، ثم هو لم يكن ملك قهر وقسوة ، بل كان ملك رأفة ورحمة ، ولم يكن ملك محاباة قوي على ضعيف ، بل كان ملك مساواة ، بين سكان القصور وسكان الأكواخ ، ولم يكن ملك إماتة للشعب ، بل كان ملك حياة سيدة للأمة المصرية ، وواقاذاً لها من برائن الموت ، فذلك كله كان يوسف عليه السلام خليفاً بأن يحمدته تعالى عليه .

الرد على من يقول ان يوسف استقل بالملك

المادة هـ — تعليقاً ثانياً على قوله « رب قد آتيتني من الملك .. » : قد يزعم من لا تحقيق عنده أن يوسف عليه السلام استقل بملك مصر ، ويُنسب ذلك

لبعض ضعاف المفسرين ، وممتدح في ذلك قول يوسف عليه السلام في دعائه :
 « رب قد آتيتني من الملك » ، ولا دليل لهم في ذلك ، لأن كل من ملك شيئاً ،
 ولو في خاصة نفسه ، فاستيلاؤه عليه يسمى « ملكاً » ، حتى البيت والفرس والخادم ،
 فكيف من ملك التصرف في مصر ؟ ولو كان في شئ واحد منها فهو ملك ، وقد
 كان العرب يسمون أهل القرى والمدائن ملوكاً ، مثل « هجر » و « عمان » و « دومة
 الجندل » ، فما ظنك بوزير مصر لذلك العهد ، وفي تلك الدولة ؟ .. وقد كان في
 الخلافة العباسية ، تسمى ولاية الأطراف « ملوكاً » ، فلا استدلال لهم في هذه
 الصيغة ، وأخرى أيضاً فيما يستدلون به من قوله تعالى : ﴿ وكذلك مكثنا ليوسف
 في الأرض ﴾ ، أنه لا يكون لهم فيه مستند ، لأن التمكين يكون بغير « الملك » ،
 ونص القرآن إنما هو بولايته على أمور الزرع ، في جمعه وتفريقه ، كما قال :
 « اجعلي على خزائن الأرض إني حفيظٌ عليمٌ » ، ومساق القصة كلها ، أنه مرؤوس
 في تلك الدولة بقرائن الأحوال كلها ؛ لا مايتوم من تلك اللفظة الواقعة في دعائه ،
 فلا نعدل عن النص المحفوف بالقرائن ، إلى هذا التوهم الضعيف ^(١) ، وقد قال
 تعالى : ﴿ وإذ قال موسى لقومه : يا قوم ، اذكروا نعمة الله عليكم ، إذ جعل
 فيكم أنبياءً ، وجعلكم ملوكاً ﴾ (٢٢ : ٥) ، خاطبهم موسى بهذا ، وهم في التيه ،
 فجعل كل واحد منهم « ملكاً » على حدة ، لأنهم ملكوا أنفسهم وحرثهم
 واستقلالهم ، بعدما كانوا عبيداً مسخرين ، تابعين للقبط ، فإذا لم يقتض قوله
 « وجعلكم ملوكاً » أن يكون كل واحد منهم « ملكاً » بالمعنى العرفي ، فلا جرم
 أن كلمة « آتيتني من الملك » لا تقتضي شيئاً من ذلك بالأولى .

الأنبياء الذين آتاهم الله الملك والنبوة معاً

المادة ٦ - تطبيقاً ثالثاً على قوله « رب قد آتيتني من الملك » ، وهو أن يوسف

آ (١١٠) تعليل عدم ذكر يوسف النبوة في قوله « رب قد آتيتي .. الخ ١٣٥٥

من الانبياء الستة الذين ذكرهم الله تعالى مجموعين في قوله: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ﴾ ، وكذلك «نَجَازِي الْمُحْسِنِينَ» (٨٥:٦) فهؤلاء ذكروا معاً ، لمنى جامع بينهم ، وهو أن الله تعالى آتاهم الملك والإمارة والحُكْمَ والسيادة ، مع النبوة والرسالة ، وقد قدم ذكر داود وسليمان ، وكانا ملكين غنيين مُنعمين ، وذكر بعدهما أيوب ويوسف ، وكان الاول أميراً غنياً ، عظيم محسناً ، وكان الثاني وزيراً عظيماً ، حاكماً متصرفاً ، ووكيلاً عالماً مطلقاً ، ولكن كلا منهما قد ابتلى بالضراء فصبر ، كما ابتلى بالسراء فشكر ، وأما موسى وهرون ، فكانا حاكمين قائدين ، ولكنها لم يكونا ملكين ، فكل زوجين من هؤلاء الأزواج الثلاثة ، يمتاز بجملة ، والترتيب بين الأزواج على طريق التدرج في نعم الدنيا ، وقد يكون على طريق الترقى في الدين ، فداود وسليمان كانا أكثر تمتعاً بنعم الدنيا ، ودونها أيوب ويوسف ، ودونها موسى وهرون ، والظاهر أن موسى وهرون أفضل في هداية الدين وأعباء النبوة من أيوب ويوسف ، وإن هذين أفضل من داود وسليمان ، بجمعهما بين الشكر في السراء والصبر في الضراء ، كذا أفاده بعض الماصرين وهو من الحسن بمكان .

تعليل عدم ذكر يوسف النبوة في قوله « رب قد آتيتي .. الخ »

المادة ٧ — تليقاً رابحاً على قوله « رب قد آتيتي من الملك .. الخ » : ذكر نعمة الله عليه بشيئين ، ماوتي من الملك ، وما علم من تأويل الاحاديث ، ولم يذكر ما هو اعلى منها وهو النبوة ، فلماذا يأتى ؟

وجوابنا على ذلك من ثلاثة وجوه :

الوجه الاول — يجوز ان يكون يوسف وقتما نطق بهذا الكلام لم يكن قد نبي ، وانما نبي وارسل بعد هذا التاريخ ، عند الاحتياج اليه ، لاسمها بعد وفاة ابيه ، والغالب ان تكون النبوات بعد سن الاربعين .

الوجه الثاني — ان « الملك » يدخل فيه النبوة ، لانه يشمل ملك الارواح وملك الاجسام ، وملك الارواح هو النبوة ، لان سلطان الانبياء على القلوب والارواح سلطان كبير ، يضاهي سلطان حكام الدنيا على الاجساد والظواهر ، بل يفوقه بكثير ، لان من كان له سلطان على الروح ، كان له شيء من السلطان على الجسد بالتبع ، وهؤلاء هم الانبياء ، واما الملوك اترمنيون ، فان سلطانهم على الجسد لا يستيع السلطان على القلب ، وقد اطلق في كتب المسيحيين على المسيح ، انه ملك اليهود ، (مت ٢: ٢) اي الملك الروحي .

الوجه الثالث — ان النبوة داخلة في ضمن قوله « وعلمتني من تأويل الاحاديث » لان هذا التليم الرباني المسند لله ، لهذه الاحاديث ، التي تشمل احاديث الدين ، هو عين الوحي للانبياء .

وبعد فترى من هذا انه من أيام يوسف عليه السلام ، ابتدئ أن يجمع في شخص واحد ، بين الإتياء من الملك والنبوة ، ثم برز هذا المعنى في موسى وهرون وزيرو ، ثم تجلّى هذا المعنى في « يوشع » بن نون ، ثم بعد مدة القضاة وهي (٢٥٠) سنة ، ابتدأت فيهم المملكة الحقيقية بكل معنى الكلمة ، فجلس منها على كرسي الملك ٤٥ ملكاً ، في الملكتين ، الجنوبية والشمالية ، وكانت ملوك المملكة الشمالية ، من سلالة « افرايم » بن يوسف ، وملوك المملكة الجنوبية ، من سلالة « يهوذا » ، أما مدة الملكتين فنحو ٥٠٩ سنين .

الاحاديث التي علم الله يوسف تأويلها

المادة ٨ — تعليقاً على قوله « وعلمتني من تأويل الاحاديث » في الحقيقة أنزبه سبحانه وتعالى علمه من تأويل الاحاديث وعلمه غير ذلك ، فالعلم الذي علمه الله إياه أعم ، كما قال الله عنه : ﴿ ولا يبلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً ﴾ وقال هو عن نفسه « اجلني على خزائن الأرض ، إني حفيظ عليم » ، وقال الله عنه : ﴿ ما كان

ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله ، نرفع درجات من نشاء ، وفوق كل ذي علم عليم ﴿١﴾ ، ولكن يوسف ، إنما نص هنا على تأويل الأحاديث ، لأن ذلك كان السبب في إتيائه نصيباً من الملك ، فهو من قبيل ذكر الملة بعد المعلول ، هذا إذا قصرناه على تمييز المراتبي المتنامية ، أما إذا عممنا فيه « الأحاديث » على أحاديث الدنيا ، وأحاديث الدين ، وأحاديث النوم ، وأحاديث اليقظة ، وأحاديث الناس ، وأحاديث الملائكة ، وأحاديث السياسة ، وأحاديث الاقتصاد ، وأحاديث « تدبير المنزل » الكبير ، وهو المملكة أو الوطن الخ فالأمر ظاهر .

الولي وأنواع الولاية

المادة ٩ — تطبيقاً على قوله « انت ولي ، يأتي « الولي » بمعنى الناصر ، وبمعنى المحب ، وبمعنى متولي الأمر ، وبمعنى القريب ، قريباً نسبياً ، أو قريباً معنوياً : وكل هذه المعاني مناسبة هنا ما عدا القرب النسبي ، لأن الله تعالى منزّه عن القرابة النسبية ، وهذه الولاية تكون بين الله وأنبيائه . وبين الله وملائكته ، وبين الملائكة بعضهم مع بعض ، وبين الأنبياء والملائكة ، وبين الأنبياء والمؤمنين ، وبين المؤمنين والمؤمنين ، وبين الظالم والظالم ، وبين الكافرين والسياطين ، وبين المنافق والكافر ، وكل ذلك وغيره مصرح به في كتاب الله تعالى ، واليك بيانه :

١ — الله ولي المؤمنين والطاغوت ولي الكافر — قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ وَلِيّ الَّذِينَ آمَنُوا ، يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ ، يُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٢ : ٢٥٧) .

٢ — المؤمن ولي للمؤمن — قال تعالى : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ (٩ : ٧٢) .

٣- الظالم ولي الظالم - قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ (٤٥ : ١٨) .

٤- الكافر ولي الشيطان - قال تعالى : ﴿ فَقاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ ﴾ (٤ : ٧٥) وقال ﴿ فَتَكُونُ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾ (١٩ : ٤) .

٥- الشيطان ولي الكافر - قال تعالى ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٧ : ٢٦) .

٦- الكافر ولي للنفاق - قال تعالى : ﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ، الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٤ : ١٣٧ و ١٣٨) .

٧- المتقي ولي للسجدة الحرام - قال تعالى : ﴿ وَمَالَهُمْ أَنْ لَا يَأْتِيَهُمْ اللَّهُ ، وَم يَصُدُّوا عَنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ؟ وَمَا كُنُوا أَوْلِيَاءَ ، إِنْ أَوْلِيَائِهِ إِلَّا الْمُتَّقُونَ ﴾ (٨ : ٣٤) .

٨- الملائكة أولياء للمؤمنين - قال تعالى : ﴿ إِنْ الَّذِينَ قَالُوا : رَبُّنَا اللَّهُ ، ثُمَّ اسْتَقَامُوا ، تَنْزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ : أَنْ لَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا ، وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ، نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ (٤١ : ٣١) .

٩- الله ولي للتقي - قال تعالى ﴿ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٤٥ : ١٨) .

١٠- اليهودي ولي لليهودي والنصراني ولي للنصراني - قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ ، بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ (٥ : ٥٤) .

١١- المهاجروني للأنصار وبالعكس - قال تعالى : ﴿ إِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ آوَوْا وَانْتَصَرُوا - أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ (٨ : ٧٢) .

١٢- كل مؤمن قمي هو ولي لله - قال تعالى ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَخُوفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا مَـَّحْزَنُونَ ، الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ (١٠ : ٦٢ و ٦٣) .

الى غير ذلك من الشواهد التي لانحصى ، وكلمة « ولي » ، تشرع بالقرب والمحبة والنصرة ويقابلها كلمة « عدو » ، التي تشرع بالبعد والكراهة والخذل .

درجات الولاية

والولاية درجات متفاوتة ، فولاية الله ليوسف وأمثاله من الأنبياء ، أكبر من ولاية الله لمطلق مؤمن ، كما أن ولاية الله للمؤمن الكامل ، أعظم من ولاية الله للمؤمن إيماناً ناقصاً ، ومتى كان الانسان ولياً لله ، كان عدواً للشيطان ، ومتى كان عدواً لله ، كان ولياً للشيطان ، وهكذا يقال في كل شيء بما يناسبه .

الآخرة في كتب اليهود والنصارى

المادة (١٠) - تطبيقاً على كلمة « الآخرة » ، نقرأ في القرآن الكريم فنجدته يذكر الآخرة مراراً وتكراراً ، بأسماء متعددة متنوعة ، أكثر من مائتي مرة ، ونقرأ في كتب اليهود الدينية ، التي في أيديهم اليوم ، فلا نرى فيها ذكراً للآخرة ، ولا اسماً من الأسماء المذكورة في القرآن ونحوها ولا وعداً بالآخرة ولا وعيداً ، وإنما كل ما وعدوا به على العمل والتمسك بالوصايا ، هو الخير والخصب والمافية والسلطة في الأرض ، وكل ما أوعدوا به إن تركوا العمل بالكتاب ، هو سلب النعم الدنيوية عنهم ، وتسليط الأمم عليهم ، والجذب والمرض ونحو ذلك ، ولهذا كان يوجد في اليهود فرقة يقال لهم « الصدّوقيّون » لا يستقدون بالآخرة ، مع إيمانهم بموسى والتوراة ، ومن الغريب أنه يوجد في الشيعة فرقة يقال لها « الخطائية » يزعمون أن الدنيا لا تقضى ، وأن الجنة هي ما يصيب الناس في الدنيا من خير ، وأن النار هي ما يصيبهم من شر ؛

وأما النصارى فهم كالمسلمين تصرح كتبهم بيوم « الدينونة » فهم يستقدون بيوم الدين ، ولكن يقولون بالحشر الروحاني دون الجسماني .

الاسلام دين جميع الرسل

المادة (١١) - تطبيقاً على كلمة «مسلاً» :

الاسلام ليس دين جديد ، وإنما هو الدين الذي أوحيه الله لجميع رسله ، فحرّقه أتباعه ، ثم أُرسل الى خاتم النبيين أخيراً ، لإحداث إصلاح ديني علم ، لسائر الملل ، شرقياً وغربياً ، ولذلك جعلت قاعدته الايمان بسائر رسل الله ، من ضروريات ائمه ، ومن لا يعرف ائمه ، وبجميع كتب الله ، بأي لغة كانت ، فليس ليس تابعاً لدين من ضمن الأديان المنزلة المتعاقبة ، ولكن للدين الأصلي ، الجامع لسائر الأديان ، وللمسلم بهذا الاعتبار ، يجد في نفسه قيمة لم يحس بها من قبل ، لأنه يرى نفسه رجلاً علماً لا خاصاً ، يرى نفسه متبناً ديناً هو في نفسه دين الكل ، فمن كان كذلك ، فلا يتعامل على الأديان ، لأنه أميراً بأن يؤمن بها كلها ، وأن يكون منها بالمرکز الأوسط مكتفياً بما في كتابه من خلاصاتها ، ومن أدرك من الناس مقوله في هذا المركز الأوسط العلم ، وشعر أنه في مجتمع أميل الأمم ، وفي قطة تلاقي مرابطها ، واتحاد أفضتها — في يوم من الأيام — فلا يهون على نفسه أن يميل عنه الى قطة من طرفه ، ولو سبق اليها بقوة قهره ؛

المسلم لا يقول كما قلت اليهود : ﴿ لَيْسَتْ التَّصَارِيُّ عَلَى نَبِيِّ ﴾ (١١٣ : ٢) ولا يقول كما قالت التصاري : ﴿ لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَى نَبِيِّ ﴾ ، ولكنه يقول : إن اليهود على شيء ، والتصاري على شيء ، ولكن قد استندت أبدي التحريف والتزييف والتصلان في كتبهم .

المسلم يقول : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالتَّصَارِيُّ وَالْأَنْصَارِيُّ ، مَنْ آمَنَ بِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ سَالِحًا ، فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٦٢ : ٢)

المسلم لا يستند أن مة تبع الحق في قبضة يده ، وأن مواهب الله منحصرة به ،

حتى يقول كما قالوا ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ (٢: ١١١)، بل يقول: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ، وَهُوَ مُحْسِنٌ، فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ، وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ، وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٢: ١١٢).

الاسلام إنما جاء بالاصلاح العام، لساثر الأديان البشرية، لا أنه دين منزل مثل سائر الأديان؛ الاسلام هو مؤسسة ديانة كبيرة، وهو قديم، وهو دين الأنبياء والرسل الأقدمين، قال تعالى: ﴿تَنَزَّاهُ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا، وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ، وَمَا وَصَّى بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى: أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ (٤٢: ١٣) وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ، إِلَّا مِنْ سَفَاةٍ نَفْسٍ، وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا، وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَكُنَّ الصَّالِحِينَ، إِذْ قَالَ لِرَبِّهِ: أَسْلِمْتُ، - قَالَ: أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ: يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ، فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ، أَمْ كُنتُمْ شُرَكَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ، إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ: مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي؟ - قَالُوا: نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ، إِلَٰهًا وَاحِدًا، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (٢: ١٣٠) وقال تعالى ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ (٣: ١٩)

وقال نوح عليه السلام: ﴿وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (١٠: ٧٢) وقال: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ: يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ، فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (٢: ١٣٢)، وقال موسى: ﴿يَا قَوْمِ، إِن كُنتُمْ تَأْمَنُونَ بِاللَّهِ، فَتَعْلِمُ تَوَكَّلُوا إِنَّ كُنتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ (١٠: ٨٤) وقال عن السحرة: ﴿رَبَّنَا افْرَغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ (٧: ١٢٥) وقال عن

بليقيس: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْكَ﴾ (٤٤: ٢٧)، وقال تعالى ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا - لِلَّذِينَ هَادُوا ، وَالرَّبَّانِيُّونَ - وَالْأَجَابِرُ﴾ (٥ : ٤٧) وقال تعالى ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ: أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي ، قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (٥ : ١١٤) .

المسلم - هو المسلم لإرادة الله تعالى ، هو الذي أسلم وجهه لخالق السموات والأرض ، والاسلام ليس هو دين النبي ﷺ خاصة ، بل هو دين جميع الانبياء الذين أتوا قبله ، فكما هو دين الأمة الحمدية اليوم ، فقد كان دين اليهود والنصارى وغيرهم ، ولكن دخل على دين اليهود شيء من الديانة المدعوة « مسورا » وإنشئت قلت « التلمود » أي أقوال علماء اليهود وتفسيرهم على انتوراة ، وبهذا خرجوا عن الاسلامية التي يريد بها الله تعالى ؛ كما أن للديانة النصرانية خرجت على الاسلاية المرادة لله ، بسبب التعاليم السرية والأفكار التي أذاعها « بولس » ، والأغلاط الفظية التي أدخلها عليها شيع النصارى .

فالاسلام هو دين يهودي ، خال من التقاليد للدخيلة ، وهو دين نصراني أيضاً ، خال من تعاليم « بولس » والرؤساء ، خال من عقيدة « الأمانة » و« عقيدة التثليث » التي وضعت في « نيقية » . في بدء القرن الرابع ، لأجل إمانة تعاليم التوحيد التي كان يتمشى عليها « آريوس » وجماعته (١)

دعاء يوسف بامانة مسلماً

المادة (١٣) - لعل طلب يوسف في قوله : « توفي مسلماً بمبني على قاعدة أن المرء يموت غالباً على ما عاش عليه ، فإذا عاش على الاسلام والصلاح ، مات على ذلك ، بفضل الله الذي كانت تلك القاعدة من سننه في خلقه » فيكون معنى دعاء يوسف :

(١) ان البحث في هذا الموضوع يجلب طول الكلام. ونتركه لقراءة اخرى .

« رب احفظ عليّ اسلامي وأدم صلاحى لآخر لحظة من حياتى ».

مبلغ ما اوتيه يوسف من الملك

المادة (١٣) - سألني أحد مبشري النصرانية الافرنج ، كيف يذكر القرآن ان يوسف أوتي الملك ؟ مع أنه لم يكن سوى مأمور على حاصلات الأرض ونواتجها الجبوية كما تعلمه من (ع ٥٥) ومن (تك ٤١ : ٤١) ، وكما في تاريخ ابن خلدون على خزائن الزرع في المملكة المصرية ، يجمعها ويصرف الأرزاق منها ؟ هذا كل منصبه لا أكثر ولا أقل ؟

فاجبته عن سؤاله هذا بأنه قد سُمّي رؤساء « أدوم » ملوكاً (تك ٣٦ : ٣١) وهكذا رؤساء « مديان » (عد ٣١ : ٨) ورؤساء « موآب » (عد ٢٣ : ٧) وحاكم المدينة الواحدة ، « كلكي صادق » ملك « سالم » أي أورشليم (تك ١٤ : ١٨) ، وقد سُمّي « هيرودس » رئيس الربع ملكاً (مت ١٤ : ٩) ، وسُمّي كل فرد من الشعب المسيحي ملكاً (رؤ ٦٠١) ، على أن يوسف صلوات الله وسلامه عليه لم يقل : « رب قد آتيتني الملك » ، ولكننا زاه قال : « رب قد آتيتني من الملك » أي أعطيتني خطأ ونصباً من الملك ، وهذه الجملة تصدق على كل من استخدم في مملكة ولو أصغر خدمة ، وقد كان يوسف مستخدماً في البلاط الملكي على خزائن الأرض ، وهذا في ذاك العصر يشبه ماندعوه اليوم « وزارة المالية » ، وايضاً ان ملك مصر ، قال عن يوسف : « هل نجد مثل هذا رجلاً فيه روح الله ، ليس بصير وحكيم مثلك ، أنت تكون على يتي ، وعلى فك يقبل جميع شعبي ، الا أن الكرسي أكون فيه أعظم منك ، وخلع خاتمه من يده وجعله في يديوسف وألبسه ثياب بوس ، ووضع طوق ذهب في عنقه ، وأركبه مركبته الثانية ، واندادوا أمامه » اركموا ، وجعله على كل أرض مصر ، وقال له : أنا فرعون ! فبدونك لا يرفع

إنسان يده ولا رجله في كل أرض مصر ، (تك ٤١ : ٣٨ - ٤٤) فمن قيل لهذا القول الفخيم وعمل معه هذا العمل العظيم ، ألا يصلح أن يقال إنه أوتي حظاً من الملك ؟

هذا خلاصة ما كنت أجبت به السائل البشر ، فلما سمعه سككت مغلوباً ، وسكت غالباً ، وفيه الحمد والشكر دائماً ودائماً .

الاسلام والجاهلية لغة

المادة (١٤) — تطبيقاً آخر على كلمة « مسلماً » : ظاهر أن الاسلام هنا بالمنى الشرعي الاصطلاحي ، وربما كان بالمنى اللغوي ، وهو الاقبياد والخضوع ، وأصله من السلام ، وهو المسالة ، وضد المسالة الحرب والخصام ، قال تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ ، قَالُوا سَلَامًا ﴾ (٦٣ : ٢٥) ، ولعل هذه الآية هي المفتاح الذي نصل به الى معرفة السبب في تسمية الزمن الذي قبل النبي ﷺ جاهلية ، وتسمية عهده صلوات الله عليه لإسلاماً ، فالجاهلية ليست من الجهل الذي هو ضد العلم ، ولكن من الجهل الذي هو السفه والغضب والألفة والتعدي ، وربما كان منه قول يوسف لآخونه : ﴿ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ ، إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ (ع ٨٩) أي فيكم روح التعدي ، كما منه ﷺ لأبي ذر رضي الله عنه ، وقد غير رجلاً بآته : « إنك أمرؤ فيك جاهلية » ، أي فيك روح السفه والتعدي ؛

ويقابل هذه المعاني هدوء النفس والتواضع والحلم ، وهذه كلها زعة سلام ، ثم انتقلت الكلمة الى معنى آخر قريب من هذا ، وهو استعمال « أسلم » ، التثني من السلام ، بمعنى خضع واقاد ، لأن الخضوع أدعى الى السلام ، ومنه ﴿ وَأَنْبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ ﴾ (٥٤ : ٣٩) ثم حصت في الاستعمال بالدين الاسلامي ،

الذي أتى به النبي ﷺ ، ومنه : ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ (٤:٥) ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ (٣:٨٥) وبهذا البيان الذي قلناه في معنى الجاهلية ، يسقط اعتراض علماء العرب علينا ، لأن اعتراضهم مبني على أن « الجاهلية » هي ضد العلم ، فقالوا : « إن تسمية العرب في الزمن الذي قبل النبي ﷺ بذلك ظلم وخلاف الواقع ، إذ كان فيهم علم وحكمة ، كما يعرف من مراجعة دواوين العرب وأشعارهم » ؛ ووجه الرد أنا لا نقول : « إنهم جاهلية من الجهل الذي هو خلاف العلم ، ولكن نقول إنه من الجهل الذي هو السفه والتعدي والنضب والأفقه » ، فليفهم ذلك . . .

حال يوسف اثناء وبعد حفلة الختام

المادة (١٥) — نلاحظ أن الحفلة التي خطب فيها يوسف خطابه القيم الذي أنهاه بالتحدث بنعمة الله وبرجاء حسن الختام ، نلاحظ أنها انتهت بسرور وما بعده سرور ، لم يرَ يوسف قبله مثله ، ولن يرى بعده مثله ، ولم يرَ يوسف منطلقاً في الكلام مندفعاً في الخطاب ، كمثله اليوم ، ولعل ذلك لأنه حظي بأبويه وذويه وجميع أهليه ، فاسترسل في الكلام هذا الاسترسال ، وزولا على قول القائل :

فيّ انقباض وحشة فاذا صادفت أهل الوفاء والكرم
أرسلت نفسي على سجيها وقلت ما قلت غير محتشم

وفاة يوسف وبغضوب ومرفقهما

المادة (١٦) — عاش يوسف في مصر بعد خطابه الأخير (١٧) سنة عيشاً هنيئاً ، لا تضطرب في ممانه غيمة ، ولا تمر بصفحته غيرة ، وكذلك أبواه وإخوته وأهلوم ، وذلك هو كل ما استطاع أن يختلسه من يد الدهر في غفلته ؛ ومدة حياته كلها (١١٠) سنين ، ثم قبض وحنطت جثته وأُدرج في تابوت وختم عليه ، ودفن

في بعض مجاري النيل ، وقد أوصى أن يحمل عند خروج بني اسرائيل من مصر ، ولم تزل وصيته محفوظة عندهم إلى أن أخذت موميأؤه مع بني اسرائيل إلى كنانا ودفنت في « شكيم » بجانب بئر يعقوب ، وقيل في قرية من أعمال نابلس يقال لها « بلاطة » وقبره بها مشهور ، وقيل إن جثته نقلت بعد ذلك من « شكيم » إلى « حبرون » وقبرت في النار الشريف مع أجداده الكرام .

وأما يعقوب فقد ولد صلوات الله عليه في « عين موبلح » ولما صار ابن ٥٥ سنة رحل للعراق عند خاله لابان ومكث عنده ٢٠ سنة ثم رجع قافلاً لفلسطين ، فمات فيها أيضاً ٦٢ سنة أي إلى أن صار عمره ١٣٢ سنة ثم رحل لمصر فمات فيها ١٧ سنة ثم توفي عن ١٤٩ سنة وأوصى بأن يدفن في فلسطين ، في النار الشريف عند آباءه ، وقد قال عند وفاته : « الحمد لله إذ خلقت ولدي يوسف ، ينضب الماء ، ويبقى بعده النبت الكريم » ومن أغرب الصدف أن عيشة يعقوب بمصر في كفالة ابنه يوسف كانت ١٧ سنة ، كما كان يوسف قد عاش في حضن أبيه بفلسطين ١٧ سنة !!!

قال « ابن جرير » في تفسيره : « لما حضر يعقوب الموت أوصى ولده يوسف أن يدفنه عند ابراهيم واسحاق ، فلما مات ، نفع فيه الدر ، وحمله إلى الشام » .

نهاية اخوة يوسف

وأما إخوة يوسف فقد سكنوا بمصر بين النيل غرباً ، والشرعة شرقاً ، وذاب وجودهم في وجود يوسف ، ولم يعد لهم وجود مستقل ، إذ كانوا في ميعته ، ونحت نفوذ وسلطته ، فكانت إرادتهم في إرادته ، وكانوا بين يدي قبره كطير مقصوص الجناح ، ونهبت تلك العنصرية والبدبية والمظمة قبض الريح ، وماتوا جميعاً بمصر وقبروا فيها :

« كان لم يكن بين « الحجون » إلى « الصفا »

أنيس ولم يسمر « بمكة » ، سمر

وأما ما يزعمه بعض الجبهة من أن يهوذا ورويل (رأوين) مدفونان في طبرية بمسجد هناك ، أو أن رويل مدفون على سيف بحر يافا ، وأن شمعون مدفون في دمشق في حي الشاغور ، وفلان في بلد كذا وكذا فخطأ تاريخي .

نهاية بني اسرائيل ومملكتاهم

وأما بنو اسرائيل فقد مكثوا بمصر نحو (٢١٥) سنة خلافاً لتوراة اليهود التي تقول (٤٣٠) سنة ، ونشأ عن اختلاطهم بالمصريين أنهم توثنوا مثلهم ، وصاروا من عبدة العجل « آيس » ، وأذلهم المصريون ، وسخروهم واستخدموهم ، وذبحوا أبناءهم ، واستحيوا نساءهم ، وعملوا على اقراضهم بكل حيلة ، ولما أراد الله خروجهم من مصر إلى أرض الميعاد ، أرسل « موسى » لذلك ، فأمنوا به ، ورجعوا لدين التوحيد ، وخرجوا من مصر تحت قيادته ، ثم نظراً لتمكن التوثن منهم ، رجعوا وهم في طريقهم للشام إلى عبادة العجل ، ثم قابوا بمساعي موسى صلوات الله عليه ، وبعد أن صار لهم ملك بفسطين ، وبعد موت « سليمان » عليه السلام ، انقسمت المملكة إلى مملكتين ، جنوبية وعاصمتها اورشليم ، أي بيت المقدس وهي مملكة « يهوذا » وهي مؤلفة من سبطين فقط : يهوذا وبنيامين ، ولذا يقال لها « المملكة اليهودية » ، وشمالية وعاصمتها « شكيم » أي نابلس تقريباً ، وتشمل عشرة أمباط منهم ، ولذا كان يقال لها مملكة « اسرائيل » وهذه توثنت كلها ، كما أن الأولى كان يوجد فيها توثن ، في بعض الأزمنة ، وكل هذا التوثن والرجوع إلى الشرك ، نجم عن اختلاطهم بالمصريين ، الناجم عن رحلتهم لمصر ، بسبب وجود يوسف هناك ، الناجم عن إبعاده عن وطنه فلسطين بيد إخوته ؛ وكأنه لذلك ، والله أعلم .. ، لما كان حدث بعده من اقتتال المملكتين الجنوبية والشمالية ، بعضهم مع بعض ، أخذ الله على قدماء بني اسرائيل في كتب أنبيائهم أن لا يقتل فريق .

فريقاً آخر منهم ، ولا ينفوا أحداً من وطنه بمحض اتباع الهوى ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ ، وَلَا تَخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ﴾ (٢ : ٨٤) لأن إخراج فريق لفريق آخر منهم يمرضه لتغيير دينه وأخلاقه وعوائده كما هو معلوم من التاريخ ، أي يمرضه للقتل الروحي ، الذي هو أعظم من القتل الجسدي .

الباب الخامس

الفصل الأول

خاتمة الشيء المقصود الذي انقذت له السورة

أرأيت لعل على نبوة محمد (ﷺ)

آ (١٠٢) ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ ، نُوحِيهِ إِلَيْكَ ، وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ . ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية المنة واثنان ، فقام الشيخ محمود الحلي وقال :

لا بد انكم أيها السادة تذكرون ما كان بينه لنا الأخ الامام القليل في مطلع كلامه على الآية الأولى من هذه السورة . اذها نحن هنا اعتباراً من هذه الآية الى آخر السورة ندخل في خاتمة الشيء المقصود الذي انقذت له السورة أو في تبيجه :

لما قص الله سبحانه وتعالى على نبيه محمد ﷺ نبأ اخوة يوسف وكيف رفقهم الله عليهم وجعل له العاقبة والنصر والملك والحكم ، مع ما أرادوا به من السوء والهلاك والاعدام قال له :

(ذلك) القصص وأمثاله يا محمد ، هو (من أنباء) من أخبار (الغيب) التيوب السابقة (نوحه اليك) ونملك به لما فيه العبرة لك والاتماظ لمن خالفك ، متبعين فيه جميع حوادث يوسف ، مع بيان أسبابها ونتائجها وحكمها ، نوحه اليك ، أيها الأمي ، يا ابن الصحراء ، الذي لم يدخل مدرسة ولا دار علم ، ولم يكن يتلو من كتاب ، ولا يخطه يمينه ، يا ابن الصحراء الذي هو وقومه أبعد الناس عن كل بناء علمي ، يا ابن الصحراء الذي لم يكن من قبل مدوداً من بلقاء العرب ولا من شعراء قريش ، ولا من خطبائهم ، نوحه اليك يا ابن الصحراء الذي لم ينشأ كإبراهيم في مملكة راقية بالعلوم الكلدانية ، ولم ينشأ كموسى في دار 'ملك' أربي على سائر ممالك العالم بالعلوم والشرائع المصرية ، ولم ينشأ كعيسى في مقاطعة ك فلسطين كانت راقية بالعلوم والحكم اليونانية ، ونظامات 'حكامها' الرومان ، وقد تعلم وقرأ ودرس ؛ نوحه اليك يا ابن الصحراء البعيدة عن العلم والملاء ، الذي لم يكن مؤرخاً ولا قصاصاً وليس عنده أثارة من علم ، وبالجملة — نوحه اليك إليها الانسان الذي كنت من قبله من الغافلين (وما كنت لديهم) لدى اخوة يوسف حاضراً عندهم ولا مشاهداً لهم ، (إذ أجمعوا أمرهم) على لقاء يوسف في غيابة الحب (وهم يمكرون) به ويننون له التوائل ، مع أن كلا من اجماعهم الأمر ومكرهم من الأمور التي تعمل تحت طي الخفاء ، فهذا التبا غيب لم يحصل لك يا محمد إلا من جهة الوحي ، لأنك لم تحضر بني يعقوب حينذاك .

إنه لأمر عجاب حقاً ، رجل أمي لم يقرأ ولم يطلع على شيء من كتب الدين ولا كتب التاريخ ، وقد احتج بهذا على قومه ، فلم يستطع أحد منهم ممن انتصبوا

لعداونه أن يرضخ في الإنكار عليه رأساً ، أو ينسب في الرد عليه بكلمة .
وندرج فيما يلي التطبيقات التالية على الآية الكريمة :

الرد على دعوى الكفرة بأن الرسول قد تلقى العلم من الناس قبل النبوة

التطبيق الاول- كان قصارى الكفرة المعاندين المعاصرين لصاحب الرسالة ﷺ أن يقولوا تارة عن القرآن : إنه ﴿ أساطيرُ الأولين ﴾ ، اكتتَبَها ، فهي تَقْلَى عليه 'بكرة' وأصيلاً ﴿ (٢٥ : ٥) ﴾ وتارة يقولون : ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾ (١٦ : ١٠٣) كانوا يقولون ذلك ، وهم يطمون أن محمد بن عبد الله مكث فيهم اربعين سنة ، لا يتلو من كتاب ، ولا يخطه يمينه ، وأن لسان الذين يلحدون اليه أعجمي ولسان القرآن عربي مبين ، اتهموه بأن سلمان الفارسي كان يعلمه ، وهم لا يمارون في أن سلمان ما عرفه الا بعد الهجرة ، ونزول كثير من آيات القرآن ومعجزات الفرقان ، ثم اتهموه بأن رجلاً رومياً دخل في الاسلام ، فكان يعلم الرسول - وهو أعجمي اللسان - تلك الآيات الباهرة ، ولو كان الأمر على ما وضعوا ، لكان لذلك الرومي من العلم والحكمة والفضل بحيث تضرب اليه أكباد الابل ، وتجنوا بين يديه الأمم ، ويعرف اسمه في مشارق الأرض ومقاربها ، ولكنهم لم يحسنوا سبك مفترياتهم ، ولم يجيدوا صياغة زهاتهم ، إذ عجزوا حتى عن تعيين اسم ذلك الرومي ، فاختلفوا فيه على أربعة أقوال : هل اسمه ' بيش ' ، أو ' بلعام ' ، أو ' جبر ' ، أو ' يسار ' ، على أنه لم يسمع عن واحد من اولئك الأربعة شيء من مثل ما جاء به النبي الأمي ، ولا عرف أحدهم حتى بالرواية عن رسول الله .

تصفح نوارىخ الرجال ، فلا تكاد نجد فيها ما يشر بأنه لأحد أولئك نفر رواية ، حتى لا كان بقوله الرسول من أحاديثه ، فأتى لأولئك الجاحدين الجامدين أن يزعموا :
أن الرسول قد تخرج على أحدهم !! !

يزعم اولئك المبطلون أن الرسول قد استفاد كثيراً من رحلاته الى الشام ، حيث المدينة وأتمة النصرانية ، والقوانين الرومانية ، وما م في تلك المزارع الأولى بأحق منهم في هذا الزعم الأخير ، فان محمداً لم ينب عن قومه ، ولا كثرت اختلافاته الى بلاد أهل الكتاب ليستمد شيئاً من علومهم ، بل عاش بين قومه برعى كغيره من الأنبياء الغم في صغره وشبابه ، وما خرج عنهم إلا في رحلتين الى الشام ، ولم يتم أولاهما ، بل رده الى مكة عنه أبو طالب ، بإشارة من الراهب « بحيرا » ، وكان عمره إذ ذاك تسع سنين ، وبلغ في ثانيتهما الشام ، في تجارة « خديجة بنت خويلد » ، وكان في سن الخامسة والعشرين ، ولم يطل في هذه الرحلة مكثه بالشام مدة يحتمل فيها أن يتعلم القليل من العلم ، بلغة الكثير ، بل كان في سفره لا يكاد ينفك عن قومه ورفاقه ، وإلا .. لو غاب عن قومه بضع سنين ، لقالوا له : « لعلك تعلمت هذا مدة غيابك عنا » ، ولم يفوهوا بمثل هذا مع أنهم كانوا يحاولون أن يلبصقوا به هذه الشبهة ، وهي التعلم من الناس ، وأيضاً فأبي حامل يحمل هذا الفقير ، الذي نشأ هذا المنشأ الذي يدناه ، ولم يوجد من ينهه ويرشد فكره ، لفضيلة العلم ، حتى يترك ما يقتات به ، وهو في تلك البلاد الأجنبية ، ويترك ما به إرضاء لخديجة التي يمته لتلك البلاد ، ويجهد نفسه في البحث عن عالم ليس من أمته ، ولم يكن على عقائدهم ، ويرضخ له حتى يبعث في قلبه كل هذه التعليمات ، ويسلم له فيما خالف ممتد أبائهم وأجداده ؟.

وأما حصول هذا التعلم له في بلاده فهو غير ممكن للأسباب الآتية :

أولاً — كان 'يشاهد أنه يفعل ذلك ولو مرة واحدة .

ثانياً — إن المعلم له ، إما أنه كان من اليهود ، وهذا لا يمكن أن يعلمه أخبار المسيح وأمه ، والاقرار لها بالفضل والتزاهة ، ولا أن يرمي اليهود بالتحريف في كتبهم ، ولا غير ذلك مما يوجد في القرآن من الإنكار عليهم ، وإما

أنه كان من النصارى ، وهذا لا يُبله أن ينكر لاهوت المسيح ، ولا التثليث ولا الصلب ، ولا أن يرمي النصارى بالتحريف في كتبهم ، ولا غير ذلك مما يوجد في القرآن من الإنكار عليهم .

ثالثاً — أي حامل يحمل هذا الم على اجهاد نفسه ، وصرف وقته في تعليم هذا « الغريب الأمي » ؟ ولم لا يدع الناس الى هذه الأشياء بنفسه ؟ أو اختار أحداً ممن اشتهر بشر أو خطابة أو شيء من الم ، أو كان له جاه أو أعوان أو مال ، أو غير ذلك مما يصلح أن يكون سبباً في تخصيصه بالتعليم ؟

رابعاً — انه من الصعب جداً أن يقدر أحد من الناس ، أن يهذب هذا « الأمي » ، كل هذا التهذيب ، وأن يخرج من عقائد آياته وأجداده ، ويدخل في ذهنه مسائل النبوة والوحي والتزيه والتوحيد ، ويحمله يستقد ذلك اعتقاداً حقيقياً إلا إذا كان هذا الم ، مقتدرأ عالماً حكيماً ، ومثل هذا لم يعرف له ذكر في بلاد العرب ، ولا فيما جاورها ، فكيف لم يشتهر بالعلم والفضل ؟ وأي مؤرخ لذلك العهد ، ذكر كلمة عن أحد مثل هذا ، متمسكاً بما يوجد في القرآن ، من العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق والمبادئ وغيرها ؟

خامساً — لم لم يسر هذا الم الى أحد ، بأنه يعلم محمداً وبهذه ؟ وما الذي حمله على إخفاء هذه المسألة ، وكتبتها هذا الكتاب المطلق ؟

سادساً — لم لم يشاهد محمد يحترم أحداً قبل نبوته أكثر من غيره ، أو بلوذ به ويلازمه ، كما هو شأن التلميذ مع معلمه ؟

سابعاً — أي شيء أئزّمه الصبر أربعين سنة ، ولم يجعله يسارع الى دعوى النبوة ، ولم يبادر الى سرد القصص التي تطلبها مرة واحدة ؟ لاجرم أن شأن الذي يريد أن يدعي شيئاً مثل هذا ، أن تظهر عليه عدة أمور تدل على ما ظوبه سريره ،

ثم يتجراً فيزداد شيئاً فشيئاً ، لا أن يسكت أربعين سنة ، ثم يندفع بدعواه مرة واحدة بزمية واحدة ، قوتها في الأول ، كقوتها في الآخر .

ثامناً — كيف أن هذه الفكرة لم تأخذ بلبه ومشاعره ، فتجمله مشتغلاً بها طول السنة ؟ وكيف بتناساها أحد عشر شهراً ، ويشغل بها شهر رمضان فقط من كل سنة ، فيستمد فيه لما سيديعه . كما يزعمه أولو الأهواء في عزلة السنوية . إن عادة المفتري أن تأخذ مثل هذه النيات بحواسهم وعقولهم ، حتى يظهر للناس أنهم دائماً في انشغال بال ولكن النبي ما كان يشغله شيء عن شيء ، والآن أنك الفكر بدنه ، وصار سقيماً ، وكلت قواه العقلية ، من كثرة الحيل ، وتعداد الصعوبات ، التي كان يلاقيها ، فتضعف عن أن تدبر كل ما كان يدبره ، لولا الارشادات الآلهية والالهامات الربانية ، وكيف علم أنه لا ينقضي أجله حتى يتم القرآن في آخر سنة من حياته ، ويأمن على نفسه ، فيأتي به نجوماً نجوماً ؟

الرد على دعوى الكفرة بان الرسول ﷺ قد تلقى العلم من الناس بعد النبوة

التعليق الثاني — وإن كان التعليم حصل بعد ظهور النبوة يقول :

أولاً — كيف ابتداء دعواه على جهله ؟ وأي منبه قام بفكره حتى حمله على ذلك ؟ وكيف ضمن أنه يجد من يعلمه ؟

ثانياً — لم يشاهد مرة يلجأ الى أحد الناس ليتعلم منه .

ثالثاً — لم يقدم هذا العلم ، ويفضله على أصحابه أو يوصي له بالخلافة ؟ ولم بقي معلمه مرئوساً له ، ولم يكن رئيساً عليه ؟

رابعاً — لم يوجد بين أصحابه من كان يألف من أن يتلقى العلم منه ويخضع لأمره وينتهي بنهيه ؟ فأين كان هذا العلم ؟ إذ لو كان موجوداً لألف من أن يأخذ العلم عن تلميذه محمد ، ثم نحن لانعرف أحداً بينهم ممتازاً بعلم ، سوى ما أخذوه

بإقرارهم جميعاً عن كتاب الله وحديث رسوله ، فإن كان هذا العلم موجوداً في عصر النبوة ، فلم لم يشتهر بالعلم والفلسفة قبل دعوى محمد ؟ ولم أخفى نفسه حتى ادعى محمد النبوة ؟ ولم لم يظهر بين العرب ، حتى تجله وتحرمه احترامها لمحمد ؟ وأي شيء استفاد حتى يكتم هذا كله ؟ فيالله من التعصب ، الذي يعمى ويصم !

ثم انه كان وعد أصحابه بالنصر والفتح والتمكين في الأرض والخلافة ، فوقع كل ذلك لهم ، وصدق في جميع ما أخبر به من الغيبيات المستقبلية ، كخبر انقصار الروم على الفرس .

هذا وأنه لم يكن في مكة من أهل الكتاب إلا أشخاص يمدون على أصابع اليد الواحدة ، وكانوا من أجلبهم وأحطهم مقاماً في المجتمع الانساني ، وكانوا يجتفون بدنيء الحرف ، كخدمة بعض العرب ، أو الاتجار في بعض أشياء حقيرة .

الرد على دعوى البروتستانت بأن الرسول (ﷺ) كان

يتصيد المسائل من نصارى العرب ويهودها

التطبيق الثالث - هب انه كان يتصيد المسائل من نصارى العرب ويهودها، كما ادعاه بعض البروتستانت ، فكيف أمن من الوقوع في خرافاتهم التي يجزم العقل بطلانها كقصة « شمشون » وما يتعلق بقوته وشعره ، ونحو ذلك من الأوهام التي كانت ولا تزال منتشرة بين النصارى واليهود الى اليوم ، وقد ذكر منها إخواننا ستاً وثلاثين أسطورة منقولة عن « العهد العتيق » فلم تنزه كلامه عن تلك الحكايات الخرافية ؟ ثم لم تنزه كلامه عن أضاليلهم في المسألة اللاهوتية ؟ كمقائدهم في المسيح والصلب والتثليث ، ومصارعة الله ليعقوب وغير ذلك ، أليس من المبهود ان الانسان ، يقع في بعض غلطات من ينقل عنهم ويعتمدهم ؟ فلماذا لم يقع محمد في خطأ واحد من أخطائهم ؟

هل يعرف الأمي الذي نشأ في وسط الجهل وفي زمن الجهل ، ما صح من المسائل وما فسد منها ؟ حتى لا يقع في كلامه الا الصحيح ، مع ان انتشار الخرافات والأقوال الفاسدة ، كان بحيث إذا كثفَ فيلسوف بانتقادها واختيار صحيحها ، لوقع في الوهم ، ولحكم على بعض الصحيح بأنه باطل ، وعلى كثير من الباطل بأنه صحيح ، وخصوصاً في ذلك الزمن ، وفي تلك البلاد العربية ، التي كان العلم فيها عبارة عن مجموع خرافات للمجائز ، اختلطت بشيء لا يخلو من الصحة ، من بعض الوجوه ، فما بالك بمحمد الأمي والرجل العامي ؟

أيتصور في هذا الرجل الذي كان يعتقد في أهل الكتاب ، أنهم عاشون ما كرون ، يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويفترون على الله الكذب ، ويكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون : « هذا من عند الله » ، ليشتروا به ثمناً قليلاً ، أيتصور منه ، وهو يعرف كل هذا عنهم . أن يثق بأقوال يسماها من أفواه الجهلة عنهم ، ويزعم بعد ذلك أنها من عند الله ؟ مع أنه ما كان يثق بقول أعظم عالم من علمائهم ، بل كان يرميهم بأنهم لا يفهمون حقائق ما عندهم من الكتاب ، وأنهم يخلقون أشياء كثيرة ، لتضليل عاينهم وغشهم ، فكيف يقول النبي الذي لا ينكر أحد رجحان عقله ، على قولهم ؟ مع انه شرح للناس مكروم وكذبهم ، وكيف لا يخاف أن يكتبوا عليه ، ويغروه ويوقعوه في الخطأ ، الذي لا يمكنه التخلص منه ؟

اساس نسرِب النفس لاذهان مفسري القرآن وعصمة النبي ﷺ من ذلك

التعليق الرابع - لقد جربنا أن الاسلام لما انتشر أيام عمر (ض) ومن بعده ودخل فيه كثير من جبهة اليهود والنصارى ومن منافقيهم ، تلقى قدماء مفسري القرآن الكريم ، من فهم هؤلاء الجهلة ، وهؤلاء المنافقين ، ما لا يحصى من الأقايص الوهمية الباطلة ، فالجاهل منهم أدخل النفس ، من حيث لا يشعر أنه غش ، والمنافق منهم أدخل النفس على المفسر قصداً ، وهو يشعر بأن ما يقوله ليس بصحيح ،

والفكرون قبلوا منهم ذلك الفس ، لأنهم غير معصومين ، ولكن شيئاً من هذا لم يقع مع النبي ﷺ ، بالنسبة لمن كان اجتمع بهم من اليهود والنصارى ، من أسلم منهم ومن لم يسلم ، فدل على أنه لم يكن يسمع منهم شيئاً أصلاً ، ولنا أن تتسامح وقول : إنه ربما كان سمع من البعض ، ولكن تمييزه دائماً بين الحق والباطل مما يسمع ، وعدم زو له على تصديق شيء ما ، من باطلهم — لهو دليل واضح على عصمته ، والعصمة هي من آثار النبوة .

هل يمكن للعالمي الأمي ، إذا سمع خطيباً ، من قصص بني اسرائيل مثلاً ، من أفواه آحاد الناس في مجالسهم ، ومزوجة بكثير من الخرافات ، كما هو شأن العامة ، أن يفهم منها حقيقة تاريخهم ، وأن يترك ما سمعه من خرافة ، ويقتصر على ما كان منه حقاً ؟ تصور حالة علمي من علما أهل بلد كالشام مثلاً ، إذا سمع أقوالاً فيها الفس والسمين ، من أفواه بعض جهلة الأوربيين ، عن تاريخهم ، فهل يمكن هذا العالمي أن يأتينا بشيء عظيم صحيح من تاريخهم مثل ما أتى به القرآن بحيث لا يذكر منها إلا الصحيح ، ويترك الأباطيل ؟ قل لي بأبيك هل هذا ممكن ؟ فلو كان مصدر القرآن كما يقولون — لكنا نجد كل صحيفة ممثلة بالأوهام والخرافات ، ولكنا نستلقي على قفاز من الضحك عند سماع بضعة من كلامه في المسائل الطبيعية والتاريخية والمرانية والأخلاقية واللاهوتية والتراحم المدنية والعبادات الدينية ، إذا حاول أن يبلي علينا شيئاً مما سمع من ذلك الاوربي الجاهل .

بعض معجزات القرآن الدالة على انه وحى من الله

التعليق الخامس- ١ — نظر طبيب إفرنسي من أهل هذا العصر في ترجمة القرآن ، فرآى أن كل ما يتعلق بالطب والمحافظة على الصحة ، كإظهار الاعتدال في الطعام وعدم الاسراف ، موافق لأحدث المسائل التي استقر عليها رأي الأطباء في هذا العصر ، فقال :

« من أخبر محمداً بهذا الذي كان غائباً عن العرب ! ، فرغبه ذلك في تأمله في كل القرآن فأسلم .

٢ — ونظر المستر « براون » الانكليزي وهو ربان بارجة — في ترجمة المستر « سايل » الانكليزية للقرآن ، فرآه أنه قد استقصى فيه الكلام عن البحار والرياح ، فظن أن النبي ﷺ كان من أكبر ربانيتي الملاحين ، فسأل عنه ، فقبل له « انه لم ير البحر قط ، وكان مع ذلك أمياً ، لم يقرأ كتاب جغرافيا ، ولم يلق عن أحد درساً ، من دروس الأشياء ، ولم يتعلم شيئاً من دروس الطبيعة وعجائب مخلوقات — قال : فقلت أن هذا كان وحي من الله ، لأنه حقائق لم يعلما من اختباره بنفسه ، ولا بتلقيه عن غيره من المختبرين ، وانما هو إخبار من الله تعالى ، ، فأسلم وتعلم العربية ، رحمه الله تعالى .

٣ — فالأخبار عن قصة يوسف مع اخوته ومع امرأة العزيز والفنتين ومليك مصر هو احدى معجزات القرآن ، وهكذا باقي قصص الرسل مع أقوامهم ، وهذا النوع هو من قبيل الإخبار بالغيب الماضي .

٤ — ومن جملة أنباء الغيب الماضي التي أثبتنا لنا التاريخ بعد بعثة النبي ﷺ بعدة قرون — إخباره عن أهل الكتاب أنهم ﴿ نَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ (١٥:٥) ، وأنهم ﴿ أَوْتُوا ذَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ ﴾ (٢٢:٣) ، ذلك أنهم كانوا أضعوا كتبهم وفقدوه عندما أحرق البابليون هيكلهم ، وخرّبوا عاصمتهم ، وسبوا ما أبقى عليه السيف منهم ، فلما عادت اليهم « الحرية » في الجملة ، جمّوا ما كانوا حفظوه من التوراة ووعوه بالعمل به ، أو ذكروه في بعض مكوّناتهم لنحو الاستشهاد به ونسوا الباقي ، هذا هو الذي وقع ، ولم يكن يخطر على بال احد من العرب في زمن البعثة — وهم اميون — ان اليهود فقدوا كتبهم الذي هو اصل

دينهم ، ثم كتبه لهم كاتب منهم ، نشأ في السبي والأسر بين الوثنيين بعد عدة قرون ، فنقص منه وزاد فيه ، ولم تعرف المصادر التي جمع منها ما كتبه ، معرفة صحيحة ، كل هذا كان خفي على علماء المسلمين عدة قرون بعد انتشار العلم فيهم .

(٥) جعل الله تعالى الآية على صحة رسالة النبي ﷺ علمية ، حتى لا يبقى مجال لأن يرتاب فيها أحد من طلاب الحق المخلصين ، وهي إتيان رجل أُمِّي عاش بين الاميين ، إلى ما بعد من الكهولة . بكتاب فيه أعلى العلوم الالهية والأدبية والاجتماعية والشرعية وأخبار الأمم والأنبياء السابقين ، الذين لم يقرأ هو ولا قومه عنهم شيئاً ، وغير ذلك من أخبار الغيب التي ظهر صدقها في زمنه وبعده زمنه - ببلغة عجز البلقاء عن مثلها ، وأسلوب أشد إعجازاً .

(٦) ويوجد في القرآن ، إخبار عن الغيب المستقبل ، كقوله تعالى : ﴿ غُلِبَتْ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ ، وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ، وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بَنَصْرِ اللَّهِ ﴾ (٣٠: ٥) وقد ظهر صدق ذلك بعد بضع سنين من نزول الآية ، وكان أبو بكر الصديق (ض) راهن بعض المشركين على صدق الخبر ، فربح الرهان ؛

ومن أظهر هذه الأخبار وعده تعالى بحفظ القرآن من النسيان والتغيير والتبديل كما قال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (١٥: ٩) ، ومنها قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ، كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ، يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكْ بِي شَيْئًا ﴾ (٢٤: ٥٥) وقد أنجز الله وعده .

الاستدلال على نبوة محمد ﷺ هنا كان عرضاً وليس قصداً لذاته

التعليق السادس — هذه الآية (ع ١٠٢) بحث من بحوث أصول الدين ، وهو

الاستدلال على النبوة ، ولم يكذب يتعرض له هنا قصداً ولذاته ، ولكن ذكر كرم بعد تمام القصة اليوسفية استدلالاً بها على صحة النبوة ، فهو بحث ذكر بالعرض ، ولذلك اختصر جداً ولم يطوّل فيه ، إذ ليس المقام مقام استدلال ، وإنما هو مقام قصص وتاريخ .

هل سكن اليهود والنصارى مكة أيام النبي ﷺ

التعليق السابع — غني عن البيان ان هذه السورة مكية ، واليهود والنصارى لم يسكنوا مكة ، ولو كانوا قد سكنوها ، لكان لكل منها حيّ خاص ، ولكان لكل فريق معبد خاص ، يقيمون فيه صلواتهم ويدرسون كتبهم ، وليس في جميع المصادر التاريخية القديمة عند اليهود والنصارى ما يشير أقل إشارة إلى وجود شيء من ذلك .

نعم ربما أن أفراداً من اليهود كانوا يأتون إلى مكة لأشغال تجارية وأعمال مختلفة وأن أهل مكة أنفسهم كانوا يقصدون إلى « خير » ليجلبوا منها حتى آل « أبي الحقيق » التي كانت نساؤهم وفتياتهم تتحلّى بها حين زفافهن وغير ذلك .

كذلك كان « كعب » بن الاشرف قد جاء إلى مكة ليرثي قتلى « بدر » ، وكان رجال مكة يجلبون العبيد من اليهود ، ويحدثنا الواقدي ، أنه وجد في مكة عبداً من اليهود كان اسمه « عبد الدار بن جبر » سمع سورة يوسف ، فكان لها وقع شديد في نفسه فأسلم ودخل في ذمة النبي ﷺ ، ولما بلغ الخبر مشركي مكة ، أومسوه ضرباً ؛

نعم إن بعضاً من أفراد اليهود سكنوا الطائف ، وفي مدن أخرى من الحجاز غير مكة ، ومع ذلك كانوا قليلين ، وقد كان بعض أفراد النصارى من أحرار وعبيد ساكنين في مكة ومختلطين بأهلها ، ولكنهم مع ذلك قليلون جداً .

هذا كل ما قدر عليه الأجانب أن يثبتوه لكي يخيّلوا للناس أن النبي ﷺ

ربما كان سمع ما يتعلق باليهود والنصارى كقصة يوسف ونحوها من بعض هؤلاء المذكورين .

تكرر المعنى الذي حوته هذه الآية في آيات أخرى

التعليق الثامن إن المعنى الذي حوته هذه الآية قد تكرر في عدة آيات ، منها ما أمر النبي أن يقوله : ﴿ قُلْ : هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ أَتَمَّ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ، مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمِهِ بِالْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ، إِنَّ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّهُمَا أَنذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ (٣٨ : ٦٧ - ٧٠) يشير بذلك لما ذكره عقبه على الأثر من المقابلة بين الملك النائب عن الله تعالى وبين إبليس ، وهذان الفريقان هما المراد « بالأعلى » والمراد من كونها ملاً أعلى ، أنهما من العالم الروحاني لا الجسماني ، وقوله تعالى خطاباً لنبيه ﷺ : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَثَرَ ، وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ، وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ، وَمَا كُنْتَ ثَابِتًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ، وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ، وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ، وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ، لِنُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ ، لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (٢٨ : ٤٤ - ٤٦) ، قل ذلك بعدما قص على نبيه ﷺ قصة موسى عليها السلام ، وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ، وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ؟ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ (٣ : ٤٤) ، وقوله تعالى بعدما فصل قصة نوح مع قومه : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ، مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا ﴾ (١١ : ٤٩) .

المكر السات والمكر المقرر بقصر العمل المرافق له

التعليق العاشر — قوله « وهم يمكرون » جملة حالية ، ولم يقل « ما كرين »

حتى تكون حالاً مفردة ، لأنه يوجد فرق كبير في المعنى بين هذه الحال الجملة ، والحال المفردة ، فمضى « وهم يمحرون ، أن المكر وصف ثابت لهم في نفسه ، وقد أجمعوا أمرهم في حال تلبسهم به ، ولكنهم هم مكررة أيضاً قبل ذلك وبعده ، ومعنى « ما كرين » أن المكر كان وصفاً لهم حال إجماعهم أمرهم فقط ، فهو تابع لإجماعهم أمرهم ، مقدر بقدره ، تقول مثلاً : « جاء زيد وهو راكب » ومعناه أن الركوب وصف ثابت له في نفسه ، وقد جاء هو في حال تلبسه به ، وتقول : « جاء زيد راكباً » ومعناه أن الركوب كان وصفاً له حال المجيء ، فهو تابع للمجيء مقدر بقدره فإذا تقرر هذا المعنى ، فليهنأ اليهود والصهيونيون الذين هم ذرية هؤلاء « المكررة » الموصوفين هنا بدوام المكر !!!

من عادة القرآن المجيد ذكر « التوحيد » في كل مناسبة

التعليق الحادي عشر — هذه الآية والآيات التسع التي تليها ، أتت بها بعد تمام القصة اليوسفية ، لأن عادة القرآن المجيد هكذا ، إذ بينما تراه يتكلم في التاريخ لا يلبث أن يخرج عنه إلى موضوع « التوحيد » وأدلتها ، وبينما تراه يتكلم في الشريعة لا يعم أن يحكي عن « التوحيد » وآياته ، وبينما تراه يتكلم عن محاسن الآداب ومكارم الأخلاق ، إذا هو ينتقل لذكر « التوحيد » ، الأمر الذي نفهم منه ، أن بيان « التوحيد » هو أهم شيء في نظر القرآن ومنزله والمنزّل عليه ، ولا ريب أن الغرض الحقيقي من رسالة النبي ﷺ ، ونزول القرآن عليه هو رفض عبادة الأوثان والثالوث ، ومحو الاعتقاد بذلك ، والحرص على الاعتقاد بالوهمية واحدة ، خلافاً للعرب ، وبروبية واحدة . خلافاً للنصارى ، كما أن القرآن يحرص جد الحرص ، على الاعتقاد بيوم الدين ، والعمل بمكارم الأخلاق ، ومحاسن الآداب ، ولعمري كأن النبي ﷺ كان يحس أن عقيدة العرب بالأوثان ، وعقيدة النصارى بالثالوث — كأنها إبرة تنخسه في جسمه ، وتشكه في رأس قلبه ، فلذلك ولكون

ربه كان يسارع في هواه ، اعتى القرآن الجيد كثيراً وكثيراً جداً ، بالطمع في تلك العقائد الوثنية الزائفة .

(ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك)

— ٢ —

وقال الحاج محمد الصومطري (١) :

طرق تبليغ كلام البشر وطريقة تبليغ كلام الله للملائكة والأنبياء
« هذا القرآن العربي المكتوب في المصاحف ، المقروء بالألسنة باللغة العربية ، هو كلام الله تعالى المعجز للبشر ، وانه ليس لجبريل منه إلا تبليغه عن الله ، كما أن الرسول ﷺ ليس له منه إلا تبليغه ، فجبريل تلقاه من الله بالصفة التي تليق به تعالى ، ولا يعلمها من خلقه إلا جبريل ، ثم محمد ﷺ تلقاه من جبريل بالوحي الذي لا يعرف كنهه إلا محمد وأمثاله من الأنبياء الذين تلقوا مثله عن جبريل ، ثم الصحابة سمعوه من النبي ، ثم سمعه منهم التابعون ومن تبعهم إلى عصرنا ، وكما يسمعه بعضنا من بعض بأصواتنا البشرية .

وقد اخترع البشر في العصر الأخير ، وسائل لأداء الكلام وتبليغه لم يكن يعرفها ولا يعقلها أهل العصور السابقة ، كالتلغراف السلكي واللاسلكي والراديو والتلفون وكل منها مظهر من مظاهر الكلام النفسي ووسائل ادائه ، ويسمى كلاماً حقيقياً لا مجازياً ، وينسب كل كلام إلى من صدر عنه ، وكان مجلى كلامه النفس ، فالجمله من كلام زيد من الناس يتناقلها الناس بالسنتهم وأقلامهم وبآلات التلغراف والتلفون والراديو وكل منهم يقول « إنها كلام زيد » ، ومن يرى في القرطاس : « قفا بك من ذكرى

حبيب ومنزل ، يقول إن هذا كلام امرئ القيس ، ومن يسمع ذلك من لسان أي إنسان يقول ذلك ؛ ولم يقل أحد من العرب في هذا القول الذي كتب وعلق على الكعبة ، ثم كتب في الدفاتر وقرأه الناس : ان لفظه المرسوم في الصحيفة هو كلام الراسم ، وأن الذي أنشد على الناس فيه هو كلام المنشد ، وأن معناه فقط لامرئ القيس ، أو ان ما تمثل من هذا النظم في امرئ القيس هو شعره ، وما قرأه في الكتب أو من حفظنا لمعلفته هو كلامنا ، ولا أن هذا كلامه مجازاً ، وذلك كلامه حقيقة ، بل أجمعوا على أن هذه القصيدة كلامه ، وانه ليس لرواتها بالقول والكتابة حظ منها الا النقل لكلام غيرهم ،

وإذا قدر البشر على تمثيل كلامهم النفسي بعدة مظاهر لا يختلف مدلولها عن مدلول ما في أنفسهم ، فالله تعالى أقدر منهم على ابلاغ كلامه النفسي لرسله من الملائكة والناس ، بما يليق باستعداد كل منهم ، فلا غرو من أن يكون لوحيه للملائكة ، صفة غير صفة وحيه للرسول من البشر ، فيما يكلمهم به بغير واسطة الملك ، وأن يكون لما يسمعه النبي من الملك صفة غير صفة ما يسمعه الملك من الرب سبحانه وتعالى ، ولكن الكلام واحد في جميع مظاهره ، لا يختلف باختلاف طرق ادائه وتبليغه ، كما نعرفه في الكلام المسموع بالأذان والمقروء في الصحف والمأخوذ من آلة التلغراف السلكي أو الهوائي ، ومثله المرسوم في الهواء أو ما تكيف به الهواء ، وبهذا المثال يظهر للمتأمل أن تجلي كلام الله تعالى في الألسنة والصحف والهواء وآلات التلغراف ، وفي اللوح المحفوظ وفي انفس الملائكة والبشر - لا يخرج عن كونه كلامه تعالى ، ولا يقتضي أن تكون صفة الكلام النفسية له تبارك وتعالى ، مشابهة لصفة الكلام في انفس البشر أو غيرهم من خلقه تعالى ، ولا أن يكون تكليمه للملائكة ولوسى ومحمد ﷺ كتكليم بعضنا لبعض ولكن موأداه واحد ، فالذي قرأه أو كتبه في المصاحف هو عين ما نزل به الروح الأمين على قلب محمد.

ﷺ فتلقاه عند بهذه اللغة المعربية ، وهذا الأسلوب المعجز ، الذي يعجز عليه الصلاة والسلام كغيره من البشر عن مثله بمقتضى ملكته العربية .
(عن مجلة المنار)

طبيعة أكثر الناس عدم الايمان

آ (١٠٣) ﴿ وما أَكْثَرُ النَّاسِ ﴾ وَلَوْ حَرَّ

بمؤمنين ﴿ .

افتتحت الجلسة ، وتليت الآية المئة وثلاثة ، فقام المهام احمد اليافي وقال :

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ : إني قد أطلعتك يا محمد على انباء ما قد سبق ، مما فيه عبرة للناس ، ونجاة لهم في دينهم ودنياهم ، (و) مع هذا (ما أكثر الناس) عموم الناس ، أو أهل مكة خاصة ، (ولو حرصت بمؤمنين) حيث تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن ، فأنت ولو استهلك في سبيل ايمانهم ، واستقنلت في الحصول على تصديقهم إياك ، وطار قلبك شعاعاً على ذلك ، فلا كثرة هم جهنميون لا يؤمنون برسالتك ولا بالتوحيد ، لأن في قلوبهم مرضاً :

قال الشاعر :

ومن يك ذا فمٍ مريضٍ يجبد مرأً به الماء الزلالا

وقال البوصيري رحمه الله :

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم

كما أن البدن إذا مرض ، لم ينفع فيه الطعام والشراب ، فكذلك القلب إذا مرض بالشهوات لم تنجع فيه المواعظ والارشادات .

وفيا يلي تعليقان على الآية:

تاسي الناصحين برسول الله ﷺ عند عدم افادة ارشادهم للناس

أولاً — هذا قول الله تعالى لرسوله ، وهو أعلم المرسلين وأخلص المخلصين ، في ارشاده ونصحه للخلق ، فاذا كان هو كذلك ، فليتأس به الناصحون ، الذين تصدروا للارشاد بإخلاص ، ولا يحزنوا من عدم افادة ارشادهم لكثير من الناس . وليعلموا أن عدم النفع له سببان: فساد في الواعظ يصرف الموعوظ عن مماع مايقول . وفساد في الموعوظ يجعله غير مستعد للانتفاع بما يسمع ، ولو جاءه جميع المرسلين .

المؤمنون أقل من الكافرين

ثانياً — مقتضى هذه الآية أن المؤمنين أقل من الكافرين ، ولذلك شواهد :

١ — قوله تعالى : ﴿ قَالَ : أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَنَا عَلِيٍّ ، لَنُؤَخِّرَنَّهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، لَأُحْثِنَنَّكَ ذُرِّيَّتَهُ — إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (١٧:٦٢) أي لاستأصلنهم بالاغواء — من احتكت الجراد الأرض إذا جرد ما عليها أكلًا ، وأحنت الشاتين : أي أكلها جميعاً .

٢ — قال تعالى : ﴿ وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾ كرر هذه الآية سبع مرات فيمن أرسل لهم نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين كما يعلم من سورة الشعراء .

٣ — قال تعالى : ﴿ فلما أحس عيسى منهم الكفر ، قال : مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ؟ — قال الحواريون : نحن أنصار الله ، آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون ﴾ (٣: ٥٢) والحواريون كانوا اثني عشر فقط ، ارتد منهم « يهوذا الاسخريوطي »

فبقي أحد عشر ؛ فهذه الآية تفيد أن طبيعة أكثرية الناس عدم الايمان ، وأن المؤمنين بالنسبة لغيرهم هم أقلية ، فالمسلمون اليوم يعدون (٣٦٠) مليوناً ، ولكن عدد المسيحيين اليوم (٤٢٠) مليوناً ، وعدد الوثنيين (٥٠٠) مليوناً ، وهؤلاء واولئك وان كانوا مؤمنين بالله إلهاً ، لكن التصارى آمنوا به إلهاً أباً ، وبالمسيح إلهاً ابناً وبالروح القدس إلهاً ناطقاً بالأنبياء ، قالوا : « والكل إله واحد !!!... » ، وأما الوثنيون فأشركوا في الألوهية : أي العبادة ، دون الربوبية : أي الخالقية ، فالخالق عندهم رب واحد ولكن المعبود عندهم ، هو وغيره من الوسطاء .

(مرحى)

إخلاص النبي ﷺ في دعوته

آ (١٠٤) ﴿ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾

استمرت الجلسة منعقدة ثم تليت الآية المثة وأربعه ، فقام برهان الحق النبلي وقال :

(وما تسألهم) يا محمد (عليه) على ما تحدثهم به وتذكركهم (من أجر) أي من جعالة ولا أجرة ولا جزاء ، أي لا تريد منهم منفعة وجدوى ، كما يعطى حملة الأحاديث والأخبار (إن هو) هذا الذي تحدثهم به (إلا ذكر) عظة من الله . (للعالمين) عامة ، وحث على طلب النجاة على لسان رسول من رسله ، يتذكرون به ويهتدون وينجون به في الدنيا والآخرة .

واليك الملاحظات التالية :

تكرر الدعوة غير المأجورة في القرآن

الملحوظة (١) — تكرر ذكر هذا البحث في القرآن الكريم عشر مرات :

فأولاً — قال تعالى خطاباً لخاتم النبيين : ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَوَ لَكُمْ ، إِنِّ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (٣٤ : ٤٧)

ثانياً — قال تعالى خطاباً لجناحه الأعظم: ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ، إِنِّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ (٣٨ : ٨٦) .

ثالثاً — قال تعالى خطاباً لنور العالم ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ، إِنِّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ (٦ : ٩٠) .

رابعاً — قال تعالى خطاباً لسيد الأنبياء : ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا ، فَهُمْ مِنْ مُنْغَرَمٍ مُتَقَلَّبُونَ ؟ ﴾ (٥٢ : ٤٠) .

خامساً — قال تعالى خطاباً لفخر الانسانية: ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ، إِلَّا الْمُدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ (٤٢ : ٤٣) أي لكي إنما أقصد مودتي لقرباي ، فهو من باب تأكيد المدح بما يشبه الذم ، وهو نوع من أنواع البديع اللطيفة ، وهو أن يستثنى من صفة ذم منفية عن الشيء صفة مدح ، بتقدير دخولها في صفة الذم المنفيه كقوله تعالى : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيَا ، إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾ (٥٦ : ٢٥ و ٢٦) وكقول الشاعر :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهنّ فلول من قراع الكتائب

وقول الآخر :

ولا عيب فيه غير أن حدوده بهنّ احمرار من عيون المتئيم

والدليل على ما جرينا عليه في هذه الآية ما نقلناه لك من الآيات الأربع

المخاطب بها سيد الكائنات ، التي تنفي عنه طلب الأجر من الناس من أساسه ، بالمرّة من كل وجوهه ، وخير ما فسرته بالوارد .

سادساً — وهكذا قال نوح: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٦ : ١٠٩) .

سابعاً — وهكذا قال هود: ﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟﴾ (١١ : ٥١) .

ثامناً — وهكذا قال صالح: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٦ : ١٦٤) .

تاسعاً — وهكذا قال شعيب: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٦ : ١٨٠) .

عاشرأ — وهكذا قال حبيب النجار: ﴿إِتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا ، وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (٣٦ : ٢١) يعني بذلك رسل المسيح إلى أنطاكية .

الاخلاص في الدعوة من مستلزمات نجاحها

الملحوظة (٢) — هذه الآية تسير إلى اخلاص النبي ﷺ في دعوته ، إذ الغاية من « الدعوة » صلاح العالم ، وانتظام شئونه على مناهج السعادة ، فاذا وجّهه الداعي قصده إلى هذا الغرض ، بدون نظر إلى منفعة مادية ، بل ولا معنوية تعود عليه ، استقام على الطريقة ، وقضى حياته في سيرة راضية ، وكان كلامه مقبولا جدياً ، وإذا انحرف عن هذا القصد ، ولو قيداً أهله ، رأيته يضطرب في حال دعوته ، ويكون كالريشة تتخفق بها الرياح ، أبنا تصرف ، وقد حكى التنزيل أن شعيباً (ع) قد برأ نفسه ورفعها عن أن تؤمّ غرضاً من « الدعوة » سوى الإصلاح قال: ﴿إِنْ أُريدُ إِلَّا الإصلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ (١١ : ٨٨) ، فتشوّف

آ (١٠٥) معنى المالمين — تبرع المالمين من التفكير في آيات الله ١٣٨٩

« الداعي » إلى ما في أيدي القوم ، وتطلعه إلى أن ينال من وراء إرشاده شيئاً من هذه الحياة ، قاذح في صدقه ، وداحل بالريبة في إخلاصه .

معنى « المالمين »

المحوظة (٣) — كلمة « المالمين » جمع عالم وهم الناس كما يدل عليه استعمال القرآن ، في مثل : ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (٢٥ : ١) وقول لوط : ﴿ أَنَا تَوَّابٌ أَلَمْ يَكُنْ مِنْ الْعَالَمِينَ ؟ ﴾ (٢٦ : ١٦٥) أي الناس ، فهو على هذا مشتق من العالم ، ولذلك جمع جمع مذكر سالم .

الفصل الثاني

تبرع المالمين عن التفكير في آيات الله

آ (١٠٥) ﴿ وَكَأَيِّ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، يَمُرُّونَ عَلَيْهَا ، وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ .

افتتحت الجلسة وتليت الآية المئة وخمسة فقام نعمة الله الجنيبي (١) وقال :

يخبر الله تعالى عن غفلة أكثر الناس عن التفكير في آيات الله ، ودلائل توحيده بما خلقه الله في السموات ، من كواكب زاهرات ، ثوابت وسيارات ، وأفلاك دوائر ، والجميع مسخرات ، وكل في الأرض من قطع متجاورات وغير متجاورات ، وحدائق وجنات ، وجبال راسيات ، وبحار زاخرات ، وأمواج متلاطمت ، وقفار شاسعات ، وكل من أحياء وأموات ، وحيوان ونبات ، وثمرات متشابهة ومختلفات ، في الطوم

(١) نسبة إلى جنين من بلاد فلسطين .

والروائح والألوان والصفات ، فسبحان الواحد الأحد خالق أنواع المخلوقات ، فقال تعالى : (وكأيّ) وكم (من آية) علامة ودلالة على الخالق وعلى صفاته وتوحيده (في السموات والأرض) مروا و (يمرون) وسيمرون (عليها) ويرون فيها العجب العاجب (وهم) أي الناس (عنها معرضون) مع أن الحقيقة بنت الفكرة والنظر بريد الصواب ، ولكن التفكير والتدبر عند هؤلاء ضائع ، وهم إنما يعيشون في الدنيا كالأنعام ، يأكلون ويشربون ولا يتفكرون ، مع أن هذه الآيات كثيرة ، يُحصّى النمل ولا تُحصّى ، ونُستقصى الحركات والسكنات ولا تُستقصى ، قال أبو نواس :

تأمل في رياض الأرض وانظر إلى آثار ما صنع المليكُ
غصون من زبرجد شاهدات بأن الله ليس له شريك
وقال أبو الملاء المري :

كل يسبح فأنهم التقديس في صوت الغراب وفي صياح الجذجد^(١)
أما المجاوز فارعة وتوقه واستشف ربك من جوار الملحد
ليس الذي جحد المليك وقد بدت آياته ، بأخ لمن لم يحجد

وكأي من آية ...

— ٢ —

وقام الشيخ المحقق اليافعي وقال :

اسمعوا لي أيها السادة باسماءكم بضعة مواد على هذه الآية العظيمة :

تفرّج الناس المرصّين عن النظر في الآيات الكونية

الدالة على توحيده الأول

المادة (١) — قوله : « وكأي من آية . الخ » — أي لم يكن كل أمرهم أنهم

(١) الجذجد طوير ققاز يشبه الجراد ويقال له صرار الليل .

لم يستدلوا بما ذكر في (١٠٢) من دليل النبوة، بل بمطف على هذا ويزاد عليه أنهم أضافوا إلى عدم الاهتمام بدليل النبوة، عدم الاهتمام بالآيات الكونية التي تهديهم وترشدهم إلى توحيد الإله في الألوهية، كما وحدوه في الربوبية، أي فهم مع هذا الأعراض عن النظر في دليل النبوة، معروضون عن الكثير من الآيات الكونية، الدالة على أن الرب الواحد، هو الحقيق بالألوهية وحده، وأنه لا يجوز أن يدعى غيره، ولا أن يعبد سواه، لأن الربوبية والألوهية متلازمان، فالآيات الدالة على أن الرب واحد، دالة أيضاً على أنه هو الإله وحده، ولولا أعراضهم عن النظر في ذلك، والتأمل فيه عناداً من رؤسائهم، وجوداً على التقليد من دهائمهم، المانع من النظر والاستدلال، لظهر لهم ظهوراً لا يحتمل المراء، ولا يقبل الجدل وأصل «الأعراض» التولي عن الشيء الذي يظهر به عرض المتولي المدبر عنه - .

تقرير أهل مكة خاصة والناس عامة لتعطيل أبصارهم وبصائرهم

عما في الوجود من آيات

المادة (٢) — هذه الآية الكريمة، نزلت في الغافلين من أهل مكة خاصة، كما أنها للناس عامة، وهي تقرير لمن عطلوا أبصارهم عن إدراك صحائف الوجود، وعميت بصائرهم عن تدبر ما فيه من الآيات البالغة، وكما جاء في القرآن الكريم أقوال من هذا القبيل كما في قوله تعالى: ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، أئلك كالأنعام بل هم أضل، أئلك هم الغافلون﴾ (١٧٨: ٦).

النوع العتيق والنوع الجبرير من آيات الله

المادة (٢) — آيات الله التي في السموات والأرض كثيرة جداً، فمنها نوع عتيق، ومنها نوع جديد، فمن آيات الأرض من النوع العتيق أن النمل يرى الإنسان

قاصده ، أو ماشياً قريباً منه ، ولا يترك عمله الذي هو فيه ، ولا يجفل ولا ينتنى لدعر ، ولا يخاف من غدره ، مع ان الانسان بالنسبة للنمل كالجلجل ، ولو اننا تصورنا جبلاً يمشي على الأرض ، ويكاد يصادم الانسان ، لهلع إذا رآه ، ومات قبل أن يقرب منه ، فما ذاك إلا " لان الله تعالى أودع في قلب النمل من الشجاعة والثبات على العمل ما لم يودعه في قلب الانسان ، وإن ذلك من أعظم آيات الله في أرضه ، ومن آيات الأرض ، ثبوتها إذ لولا الجبال لاضطربت دورة الأرض وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَالنَّحْيَ فِي الْأَرْضِ رَوَّاسِي أَنْ تَسْمِدَ بِكُمْ ﴾ (١٦ : ١٥) . ومنها ان كل شيء حي فهو من الماء ، حتى الجماد فإن له حياة قائمة بماء (التبلور ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ (٢١ : ٣٠) .

ومنها ما كشفه علماء النبات من تلاقح النبات ، وأنه أزواج : أي ذكرواثنى والله تعالى يقول : ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ﴾ (٢٠ : ٥٣) ويقول : ﴿ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلْنَا فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ (١٣ : ٣) ويقول : ﴿ وَمَنْ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لِمَنْ تَدَّ كَسْرُونَ ﴾ (٥١ : ٤٩) ، ويقول : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تَنْبِتُ الْأَرْضُ ، وَمَنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَمَا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣٦ : ٣٦) .

ومنها كون الرياح تلقح النبات ، بنقل أعضاء الذكورة والأنوثة في النبات بعضها إلى بعض فتثمر بالتلقيح ، كما هو صريح قوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ ﴾ (١٥ : ٢٢) ، ولما علم الافرنج بهذا قال بعض المظلمين على القرآن من المستشرقين وهو المستر « اجتيري » الانكليزي الذي كان معلم العربية في جامعة اكسفورد بانكلترة : « إن أصحاب الإبل - يعني العرب - قد عرفوا ان الرشح تلقح الأشجار والثمار قبل أن يعرفها أهل أوربة بثلاثة عشر قرناً » (نقل ذلك السيد محمد بيرم الخامس في مقدمة « صفوة الاعتبار ») .

نعم إن أهل النخيل من العرب كانوا يعرفون التلقيح ، إذ كانوا ينقلون بأيديهم اللقاح من طلع ذكور النخل إلى إناثها ، ولكنهم لم يكونوا يعامون أن الرياح تفعل ذلك إلا من القرآن الكريم .

ومن آيات الله تعالى عظمة « الشمس » وكوكب « الشمري » بالنسبة إلى الأرض ، فإن هذه الأرض إذا نحن قدرناها تقديراً نسبياً بحجم الحصة ، تكون مساحة « الشمس » بالنسبة إليها كمساحة مائدة مستديرة ، طول قطرها ذراع فرنسية ؟ ومساحة سطح كوكب « الشمري » الذي قال الله فيه : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّمْعِرَى ﴾ (٥٣ : ٤٩) تبلغ مئة ذراع فرنسية ؟ بالقياس إلى تلك الحصة .

ومن آيات الله تعالى ، أن جميع هذا العالم الشمسي يدور في الثانية الواحدة بسرعة عشرين ألف ذراع فرنسية ، مجتازاً فضاء الله الذي لا نهاية له ، كما أشار تعالى إلى ذلك بقوله : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ﴾ (٣٦ : ٣٨) ، فتأمل هذا التنكير في قوله : « مستقر » فهو يشعر أن العالم الشمسي يجري في اللانهاية إلى نهاية محتمة ، فما الشمس بمؤلهة إذا كان لها استقرار ، بل هي محدثة فانية ، ثم قوله « لها » هو الذي يعين أنها تجري في اللانهاية ، لأن المستقر غير مطلق ، بل هو « لها » .

ومن آيات الله تعالى « الحرّة » وهي سطح هائل في عاية العظم ، وهي محبطة بالشاء ، وتسبح فيها الوف من الموالم .

ومن آيات الله تعالى أن يمدد درجات الليل والنهار . واصباً ودائماً ، ثلاثمائة وستون ، كما ذكر ذلك علماء الميقات ، وقد أشير لذلك في القرآن الكريم بقوله تعالى : ﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ﴾ (٤٠ : ١٥) ، فإن عدد « رفيع » بحساب الجُمَّل هو ما ذكر ؛

وهل سمعت «بحمّام الزاجل» ؟ خذ حمامة من مُطَيَّرها ، واحملها إلى آخر حدود اقليم ما واطلقها ، فترجع إلى مُطَيَّرها ، فما هي هذه الحاسة التي تدفع الحمامة إلى بيتها من مسافة الوف الاميال ؟ ليست حاسة السمع ولا النظر ، ولا شيء من الحواس الخمس ، هي حاسة لا نعرفها ، لأنها ليست فينا .

ومن آيات الله الباهرة ، أن ما تأخذه الأرض مطراً وتلجأ ترده بخاراً ، وذلك بحسب الاحصاء الأخير ١٦ مليون طن في الثانية وبيانه مذكور بالتفصيل في الكتب المختصة .

ومنها الطير كما قال تعالى : ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَاتٍ وَيَقْبِضْنَ ؟ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ ، إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴾ (١٩:٦٧) فمن آيات توحيده وعجائب قدرته ما يرونها في كل وقت وآن من تخليق الطيور فوق رؤوسهم ، واستملأها في طبقات الجو ، مع أنها أجسام ضخمة ، كان من مقتضى النواميس الظاهرة للمادة أن تسقط على الأرض ، ولكنه تعالى يباهر قدرته وعجيب صنعه وحكمته ، خالف في أجسام الطيور نواميس سائر الأجسام ذات الثقل ، وركب لها نواميس أخرى ، لاثقة بها ، بحيث يمكنها معها أن تستعلي في الهواء من دون أن تسقط ، فمن فعل هذا ياترى ؟ ومن أمسك هذه الأجرام الثقيلة ومنعها من السقوط ؟

حقاً إنه ما أمسكها إلا الرحمن الذي رحم هذه الحيوانات ، فيستر لها من وسائل الطيران والانتقال بسهولة من مكان إلى مكان ماحفظ به نوعها ، وانتظمت به معيشتها ، واستمرت عليه حياتها ، ولا بدع ، فهو تعالى بكل شيء بصير ، يعطي كل شيء من خلقه القُوَى والسُنَنَ اللازمة له ، والمتوقف عليها ابقاؤه ، وقد اتفق العلماء على أن السبب في استمرار الطيور طائراً ، يرجع إلى تَقَعَّر أجنحتها وتحديثها ، وكونها غير مسطحة ، وعلى أساس هذه النظرية بدأ النجاح في

طيران الإنسان ، وأخذ الطيارون يصنعون أجنحة طياراتهم على أوضاع تحكي أجنحة الطيور وأوضاعها ، ولمعري إن طيران الإنسان ، لهو من الآيات الحديثة العجيبة أيضاً كطيران الطير ، ولو كانت الإنسان قد اهتدى في عصر النبوة إلى مسألة « الطيران » في جو السماء . لذكره القرآن الكريم ، لأهل ذاك العصر ، ولكن قبل اختراعه كيف يذكره لهم ، وهم لا يعرفونه ؟ وكيف يحيلهم على مجهول لهم قد ينكرونه ؟ ولعمر الحق إنه لا فرق بين طيران الطير ، وطيران الإنسان ، في أن كلاهما أثر من آثار قدرة الله وعجيب صنعه في خلقه ، « طار الطائر » بقوى ونواميس مودعة في تركيب جسمه ، وهي من الله ، و « طار الإنسان » يقوى عقله وعلمه وملاحظته وصبره وثباته وشجاعته ، ونواميس المادة التي استخدمها في الوصول إلى غرضه هي من صنع طيارته ، وكل هذه القوى والنواميس لم يكتسبها بمجده ، ولم يأت بها من بيت أبيه وجده ، ولا من عالم آخر غير عالمنا ، مخلوق لإله آخر غير إلّٰهنا ، وإنما كل تلك النواميس والقوى والمواهب نعمة من الله ، وفيض من روح الله ، أمنا بالله وما أنزل إلينا من عند الله!!! (١)

ومن آياتنا نحن أهل اليوم — النظارات المقرّبة ، التي هي عبارة عن عدسات بللورية ، ضمن أنبوب طويل ، به سَـرَـي النجوم البعيدة عنا مليارات من الأميال كأنها قريبة منا جداً .

ومنها ان قليلاً من المياه الغالية في مرجل ، تستطيع جر قطار ضخّم ، بقوة لا يستطيعها جواد ولا مئة جواد .

ومنها أن مواد كيماوية في وعاء يمتد منه شريط نحاسي ، وهو ما يسمى « تلعراف » يجعلنا نتخاطب مع أقاصي الأرض إلى أقاصيها كأننا واقفون بعضنا إزاء بعض ،

ومن آيات الله تعالى، طريقة التصوير الضوئي «فوتوغراف» بامساك الظل، وهي مذكورة في آية: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ؟ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا..﴾، ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً.. ﴿٢٥ : ٤٥﴾ فتأمل قوله ﴿ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً﴾ فإن هذه الحروف تكاد تنطق بأن هذا الأمر كائن لا محالة .

ومن آيات الله تعالى ، ما اكتشفه العلماء من أن مادة الكون هي « الأنير » ، والله تعالى يقول في بدء الخليفة : ﴿ثم استوى الى السماء وهي دخان﴾ (٤١ : ١١).

ومنها ما حققوه من أن الأرض انفتقت من النظام الشمسي ، والله تعالى يقول في السموات والأرض : ﴿كُنَّا رَتْقًا ، فَفَتَقْنَاهَا﴾ (٣٠ : ٢١) .
ومنها المذيع « الراديو » الذي ينقل الصوت والغنة الى مئات الأميال .

ضرورة الاستدلال والتفكر في آيات الكون

المادة (٣) — هذه الآية الكريمة تنعي على الناس أنهم لا يستعملون ما عندهم من العلم والمعرفة التي وهبهم الله تعالى ، فلهذه الآية وأشباهها أثر كبير في الحياة العقلية وإثارة العقل الى النظر لما في العالم من الظواهر ، قال تعالى : ﴿أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ (٧ : ١٨٤) وقال تعالى : ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ؟﴾ (٨٦ : ٥) وقال : ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ، أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ، ثُمَّ شَقَقْنَاهُ الْأَرْضَ شَقًّا ، فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ، وَعَيْنًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ، وَحَدائقَ غُلْبًا ، وَكَهْجًا وَأَبًّا ، مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنفُسِكُمْ﴾ (٨٠ : ٣٢-٣٤) ، وقال تعالى : ﴿فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ

الذين يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ، وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ : رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا ، سُبْحَانَكَ ﴿٣: ١٩١﴾
وقال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ
وَأَلْوَانِكُمْ ﴾ (٣٠: ٢٢) إلى كثير من أمثال ذلك ، فهذا الضرب من الآيات بعث
العقل على النظر في الكون ، وكان له أثر في غو الحياة العقلية .

فالله تعالى لا يريد أن يكون الناس منقادين في عقائدهم ، والاعتراف بوجود
الصانع ووحدانيته انقياداً أعمى ، بل أرشدهم إلى الاستدلال والتفكير في آيات
الكون ، قال : ﴿ أَفَلَسْتُمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ،
أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ (٢٢: ٤٦)

العقل هو نعمة من الله سبحانه وتعالى وكل من لم يستعمل عقله ، فكأنما
رفض نعمة هذا المنعم ، وانضرب لـكم مثلاً : إذا أعطانا صديق هدية ولم نستعملها
ونستفد منها ، بل رميناها ، فأننا نهين صديقنا بهذه المعاملة ، فالصديق رمز عن الله
تعالى ، والهدية هي العقل ، وطرحنا لهديته ظاهر بعدم استعمال عقولنا ، والاعتقاد
بأمور تنافي العقل ، داليل عدم تحكيم عقولنا فيما نعتقد ، وعدم استعمال عقولنا
فيما يجب أن نعرف ونعتقد ، إهانة كبرى نصنعها مع من قدم لنا هذه الهدية ، إذا
كان باستطاعتنا إهانتته ، ولكن لانستطيع أن نهينه تعالى جل وعلا .

النوعبر في الربوبية والإشراك في الألوهية

آ (١٠٦) هُوَ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ الْإِلَهِ وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية المئة وستة ، فقام الشيخ مأمون من
علماء النفذة (١) وقال :

قال تعالى مخاطباً سيد الرسل (وما يؤمن أكثرهم) أي أكثر الناس أو أكثر

أهل مكة ، في إقرارهم بالله وبأنه خلقهم وخلق السموات والأرض ، (إلاّ وم
مشركون) مع عبادة الله عبادة الوثن — لأن أكثر العرب من أهل مكة كانوا
يؤمنون بالله ويعترفون به رباً خالقاً ، لكنهم مع الأسف كانوا يشركون في عبادة
الوثن ، فهم موحدون في الربوبية ، مشركون في الألوهية ، تعرف منهم وتنكر .

(وما يؤمن أكثرهم بالله .. الخ)

— ١ —

ثم تابع الشيخ مأمون كلامه قائلاً :

متى يعبر القرآن بلفظ «الأكثر» و «الكثير»

لقد عبر القرآن « بالأكثر » في قوله ﴿ وما يؤمن أكثرهم ﴾ لأنه كان يوجد
في أهل مكة من يؤمن بالله ، وليس فيه شيء من الشرك ، وذلك « كامية بن أبي
الصلت » و « ورقة بن نوفل » و « قس بن ساعدة » وغيرهم من الحنفاء ، وأيضاً
فالعروف من طبيعة البشر من أهل كل دين أنهم على ثلاثة أقسام : قسم يميلون الى
الغلو والتشدد في الدين ، وآخرون معتدلون ، وقسم ثالث متساهلون يميلون الى
الفسوق والعصيان ؛ والقرآن لم يحكم على أمة بمثل : ضلال ، فسق ، هدى ، إيمان ،
بنص عام يستغرق جميع الأفراد ، بل تارة يعبر « بالكثير » ، وتارة يعبر « بالأكثر »
كما هنا ، وإذا أطلق أداة العموم يستتي ، كما قال في بني اسرائيل ﴿ ثم تولىٰ سُم
إلاّ قليلاً منكم وأتمّ معرِضُونَ ﴾ (٢ : ٨٣) ، وقوله فيهم ﴿ فلا تؤمنون إلا
قليلاً ﴾ (٤ : ٤٥) ، أو يحكم على البعض ابتداءً كما في قوله ﴿ ومن أهل
الكتاب من إن تأمّنه بقنطارٍ ، يؤدّهُ إليك ، ومنهم من إن تأمّنه بدينارٍ
لا يؤدّهُ إليك ﴾ (٣ : ٧٥) ، وقال تعالى فيهم ﴿ ومن قوم موسى أمة
يهدون بالحقّ وبه يعدّلون ﴾ (٧ : ١٥٩) ، وقال فيهم وفي النصارى ﴿ منهم
أمة مُقتَصِدَةٌ ، وكثيرٌ منهم ساء ما يعملون ﴾ (٥ : ٦٦) ، فقد أثبت لبعضهم

عدم التولي ، ثم أثبت للبعض الإيمان ، ثم للبعض الأمانة ، ثم للبعض الهداية بالحق والعدل ، ثم للبعض الاقتصاد — أي الاعتدال في الدين — وقال تعالى : ﴿لَكِنَّ الرَاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ ، يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ (٤: ١٦١) فجعل أهل العلم الذين يفهمون الدلائل والبراهين ، وأهل الإيمان المخلصين الذين يتحرون الحق ، هم الذين يقبلون دعوة النبي ﷺ بقوة استعدادهم ، فالقرآن يعلمنا أنه مامن أهل دين إلا وفيهم النث والسعين ، فيهم الفاسق والمتشدد والمعتدل ؛ ولكن المفسر المتشيع لأمنه ، الذي لم يختبر غيرها ، ولم يكن عارفاً بطبائع الملل ، وحقائق الاجتماع البشري ، لا يكاد يتصور أن الإيمان والاخلاص والتقوى توجد عند غير أهل ملته ، فهو يطبق الآيات على اختباراه واعتقاده .

القرآن يبين ما عليه الأمم من عقائد وأعمال

وجملة القول إن القرآن يبين حقائق ما عليه الأمم ، في عقائدها وأخلاقها وأعمالها ، يزن ذلك بالقياس المستقيم ، وإن الدقة التي نراها في تحريه الحقيقة لم نعبدها في كتاب عالم ولا مؤرخ ولا غيره مما يسمى بالأسفار المقدسة ، فإذا جمعنا ما حكم به على أهل الكتاب وغيرهم ، وعرضناه على علمائهم وفلاسفتهم ومؤرخيهم فانهم يذعنون بأنه لباب الحقيقة ، بل هم يصرحون بأنه لولا غلبة الضلال والفسق والكفر والبدع عليهم ، في عصر ظهور الاسلام ، لما انتشر الاسلام ذلك الانتشار السريع .

(وما يؤمن أكثرهم بالله .. الخ)

— ٢ —

كثير من مسلمي اليوم موهمون في الربوبية مسكونون في اللوهمية

وقام السيد الحضرمي من علماء حضرموت وقال :

سبق لأخي الشيخ مأمون أن قال في مقدمة الكلام على تفسير بحمل الآية أن

١٤٠٠ كثير من مسلمي اليوم موحدون في الربوبية مشركون في الألوهية آ (١٠٦)

المراد بكلمة « أكثرهم » أكثر الناس أو أكثر أهل مكة ، على أني أرى أنها تصدق على كثير من مسلمي أهل اليوم المحدثين من الموحدين « اسماً » و « جغرافياً » أو بحسب « هوياتهم » و « سجل نفوسهم » فتري الكثير منهم يسجدون لبعض الأولياء أو لأضرحة الأنبياء ، يرجون الله ويرجون بعض الأنبياء أو الأولياء ! ! يقدمون نذورهم لله ولسواه ! ! يحلفون بالله وبغيره ، يدعون الله وسواه ! ! وكثيراً ما نسحهم يهجرون الله مقتصرين على ما عداه ! !

فيقولون : الله ياسيد ، الله يبدوي ، الله والسيد البدوي ، الله يا امام ، الله والامام علي ، الله ياسيد عبد السلام ، الله والنبي ، الله يانبي ، الله يا حسين ، في حفظ الله والسيد ، في حفظ الله والنبي ، هذا نذر لله والنبي ، لله علي نذر ولك ياسيدي عبد السلام إن صار كذا وكذا ، هذا نذر لله وللسيد البدوي ، أقسم بالله وبسيدنا الحسين ، بالله العظيم وبالامام علي ، وحياء السيدة زينب ، وحياء الله والنبي ، وحياء الباز والله .

وأما الذين يهجرون الله مقتصرين على ما سواه فيقولون :

ياسيد ، يا بدوي ، يا امام ، ياسيدي عبد السلام ، يا نبي ، يا باز ، هذا الخروف للسيد البدوي ، وهذا الجدي لسيدي الدسوقي ، وهذا العجل لسيدي عبد السلام ، وهذا الكبش للسيدة زينب .. والح ، ولك ياسيدي يا بدوي علي خروف إن شفي ولدي ، ولك يا ستي نفيسة خروف إن رجع ولدي بالسلامة ؛ ثم يقولون : وحياء سيدنا هاشم ، وحياء سيدنا الحسين ، وحق الامام علي ، وحياء السيد البدوي ، وحياء عبد القادر الجيلاني ، وحياء الباز ، إلى آخر ما هو أكثر من الجهلاء المتعلمين وأزيد من أهل الحشو والجمود في الدين .

وعلى ذلك ترى أكثر الناس اليوم لا يذكرون الله إلا ذكراً مصحوباً بالوثنية والاحادويحصر على سवाल الأنبياء والأولياء وأشباه الأولياء ، والاستعانة بشفعائهم حرص البخيل على درهمه ولو زائفاً ، والجبان على دمه ولو فاسداً .

كثير من الآيات التي نزلت في غير المسلمين تصدق اليوم على أكثرية المسلمين

هذا وإن في القرآن الكريم كثيراً من الآيات التي نزلت في غير المسلمين تصدق اليوم على المسلمين ، ولكن (مع الأسف) وجدنا من حشوي العلماء من طمس هذه الحقيقة ، وجعل كل ما ينكره القرآن هو منزل على غير المسلم ، وأما المسلم فلا يصيبه منه أدنى غبار ، ولا أصغر شرار ، ولو كان المسلم متلبساً بكل ما أنكره كتاب الله ، كما بالعكس جمل كل ما يحمده القرآن خاصاً بالمسلم ، ولو كان غير متلبس بشيء من تلك الحماد ، فكأن القرآن مجموعة قصائد شتى ، فما كان فيه من قبيل المدح ، فما كأنه إلا قصائد مدائح نظمت لتقريظ من حاز لقب « مسلم » سواء كانت أعماله حسنة أو قبيحة ، وما كان فيه من قبيل الطعن ، فما كأنه إلا قصائد ذم دجبت لهجو جماعة اسمهم « غير المسلمين » سواء كانت أعمالهم صالحة أو طالحة . وبهذا حصل تنفير قارئ القرآن غير المسلمين من الاسلام ، كما حصل للمسلم غرور وخدعة ، ووقعت الحيلولة بين المسلمين وبين العبرة والاتعاظ وفهم الحقائق ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . (لافض فوك)

(إِلَّا وَهُمْ مَشْرِكُونَ ...)

— ١ —

وقال العلامة المغربي^(١) :

أنواع الشرك ومظاهرها في الأعمال والأقوال

الشرك ثلاثة أنواع : (١) الشرك في الربوبية (٢) الشرك في الألوهية وهو الشرك الأعظم (٣) النفاق أو الرياء وهو الشرك الأصغر

(١) نسبة إلى بلاد المغرب العربي

(١) أما الشرك في الربوبية فهو أن يمتد أن مع الله رباً آخر يشاركه في الخلق والرزق وتدير الكون ، وهذا النوع ليس مقصوداً في الآية ، بل هو قليل جداً في عرب مكة وفي مشركي العرب قبل الاسلام وفي أيام خاتم النبيين ، لأنهم كانوا مؤمنين بوجود الصانع ، وبأن الله خلقهم وخلق السموات والأرض ، وسخر الشمس والقمر ، ولكنهم كانوا مشركين باتخاذ الشفعاء والتقرب إلى الوسائط من المقرين وتسويتهم رب العالمين ، في التعظيم والتوجه بالدعاء والالتجاء .

(٢) والشرك في الألوهية ، ويقال له الشرك الأعظم ، فهو أن يقدم فرداً من أفراد العبادة لغير الله ، وذلك كالسجود والدعاء والخوف والرجاء والاستعانة والسؤال والنذر ، وما إلى ذلك مما لا ينبغي شرعاً تقديمه لغير الله ، وعلى هذا النوع تحمل الآية الكريمة التي نحن بصدددها ، ولهذا النوع مظاهر في كلام العرب ، فكان يظهر منهم في التلبية ، إذ جاء في الصحيحين ان المشركين كانوا يقولون في تليبتهم : « لبيك لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك » ، وفي صحيح مسلم انهم إذا قالوا : [« لبيك لا شريك لك » . قال رسول الله ﷺ : « قَدْ ، قَدْ ، أي حَسْبُ حَسْبُ ، لا يزيدوا على هذا » .

وكان يظهر منهم في الدعاء حين يدعون في الرخاء بعد ما كانوا وقت البلاء . موحدن ، قال تعالى : ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، فلما نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ (٢٩ : ٦٥) .

واليوم يظهر من جهلة المسلمين في الدعاء مطلقاً ، في حيني البلاء والرخاء ، فترام وهم في البر لا يخشون شيئاً ، يقولون : يا محمد ، يا سيد يا يدوي ، يا خضر أبا العباس . يا سروجي ، يا عبد القادر الكيلاني ، يا إمام عليّ ، كما ترام وقد جاءتهم ريح عاصف : ﴿ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ .

فلما أنجاهم إذا هم يَبْتَغُونَ فِي الْأَرْضِ بَقِيرَ الْحَقِّ ﴿١٠: ٢٢﴾ وبهذا تعلم ان مشركي هذه الأيام ، شر مكاناً من مشركي الأيام القديمة ، فالشرك كون القدماء كانوا إذا تضايقوا في البحر دعوا الله مخلصين له الدين ، ولكن مشركي اليوم لا بدعون الله في هذا الحال مخلصين له الدين ، بل نسمعهم يقولون : يا سيد يا يدوي ، وآخر يصرخ : يا نبي الله ، وقوم ينادون : يا عبد السلام الاسمر ، وآخرون : يا حسين ، وغيرهم : يا دسوفي .. الخ الخ مما لا يحصى ولا يستقصى كل قوم لهم من يصرخون له ويلجأون اليه ؛

وقد يظهر الشرك الأكبر في بعض الاعمال الوثنية ، فإن زينب امرأة عبد الله بن مسعود قالت : « دخل عبد الله بن جفلس إلى جاني فرأى في عنقي خيطاً فقال : ما هذا الخيط ؟ - قالت قلت خيط رُقِيَّ لي فيه - فأخذه فقطعه ، ثم قال : إن آل عبد الله لأغنياء عن الشرك ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الرُقَى والتائم والتولة شرك » رواه أحمد ، وفي لفظ لها « الطيرة شرك » (١) .

(٣) وأما النوع الثالث من الشرك ، وهو النفاق أو الرياء ، ويقال له الشرك الأصغر ، وهو حين يعمل الانسان رياء الناس ، فهو مشرك بعمله ذلك ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ ، وَهُوَ خَادِعُهُمْ ، وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ ، قَامُوا كَسُالَى ، يُرَاؤُنَ النَّاسَ ، وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (٤ : ١٤١) ، وفي الحديث : ﴿ يقول الله : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري ، تركته وشركه ﴾ رواه مسلم ، وروى أحمد : « إن أخوف ما أخاف عليكم ، الشرك الأصغر ، - قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ - قال : الرياء » .

- (١) الرقى جمع رقية ، وهي العوذة مع الفث .
 والتائم جمع تيمة ، وهي الحُرْزَة تنظم في الخيط ويربط في العنق .
 والتولة كهزمة وعتبة خرز ايضاً يعلق على المرأة لكي يحبها زوجها .
 والطيرة كعبه وكسيرة ما يشائم به من المأل الرديء .

(إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

- ٢ -

وبعد أن انتهى العلامة المغربي من بيان أنواع الشرك أضاف قائلا 'ليسمح لي السادة الأفاضل أن اعلق على قوله تعالى (إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) بالتعليقات التالية :

الفرق بين الجاحد لوجود الله وبين المشرك

(١) — يوجد فرق كبير بين الجاحد النافي لوجود الاله ، كالطبيعي والمادي والدهري ، وبين المشرك ؛ لأن الأول نافي للاله بته ؛ وأما الثاني فهو مثبت ، يعتقد أن الله موجود وأنه هو الخالق ، يشرك معه غيره في العبادة فقط والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَسْتَ سَأَلْتَهُمْ : مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ؟ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ، فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ؟ ۚ وَلَسْتَ سَأَلْتَهُمْ : مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ؟ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ، قُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۚ ﴾ (٢٩ : ٦١ و ٦٣) . وقوله تعالى : ﴿ وَلَسْتَ سَأَلْتَهُمْ : مَنْ خَلَقَهُمْ ؟ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ، فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ؟ ۚ ﴾ (٤٣ : ٨٧) وقوله جل شأنه : « قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ؟ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ ؟ وَمَنْ يَخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمِيتِ ، وَيَخْرِجُ الْمِيتَ مِنَ الْحَيِّ ؟ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ؟ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ، فَقُلْ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ؟ ۚ ﴾ (١٠ : ٣١) وما الى ذلك من الآيات الكثيرة التي تنطق بأن وثنيي العرب في الحجاز ما كانوا مشركين شيئا في الربوبية ، ولكن كانوا مشركين في الألوهية ، فكانوا يسجدون لغير الله ، ويرجون ويخافون ويسألون ويدعون أوثانهم ، ويستغيثون بآلهتهم ، ويحلفون بها وينذرون لها ، ويتكلمون عليها ، وكل ذلك عبادة لغير الله ، فاذأ قد اتخذوا لهم إلها غير الله ، وهم مأمورون أن يشهدوا : (أن لا إله إلا الله) أي لا معبود بحق إلا الله).

تشابه أكثر مسلمي اليوم في الشرك مع أهل مكة في زمن الجاهلية

(٢) - قوله تعالى : «إلا وهم مشركون» يعني بهم أهل مكة إذ كانوا يقدمون لأصنامهم النذور ، ويحلفون بها ، ويسجدون ويركعون أمامها ويدعونها ، الى غير ذلك من أنواع العبادات ، وكان هذا مع ايمانهم بالله ، أي بوجوده ووحدته في الربوبية وأنه الخالق الرازق المحيي المميت ، القائم بتدبير هذا العالم ، وهذا النوع من الشرك قد نشأ في أمتنا ، فبنينا للاولياء الهياكل والاضرحة في مساجدنا ، ودعوناها مع التظيم والتذلل ، ومسجدنا وركننا لها ، ونقول اننا لم نقصد بذلك العبادة ، يعني اننا لانسمي هذه الاعمال عبادة ، بل ننتحل لها اسما آخر . فنقول انها «استشفاع» وهذه جناية على اللغة ، تضم الى الجناية على الدين .

الواصل في دعوة المسيح وموسى عليهما السلام التوحيد المطلق

(٣) - الأصل في النصارى هو التوحيد ، فما كانوا ليؤمنوا إلا بالله وحده ، كما قال المسيح عليه السلام : « وهذه هي الحياة الابدية » ، أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ، ويسوع المسيح الذي أرسلته » (يو ١٧ : ٣٠) ولكن الشرك طرأ لهم في الربع الاول من الجيل الرابع ، فصاروا يمتقدون بالله أبا إلهها قديماً ، وبالمسيح ابناً متولداً من الآب ، وهو إلهه قديم من إلهه قديم ، ويؤمنون بالروح القدس ، إلهها متولداً من الآب والابن ، وجميع الثلاثة إله واحد ، هذا هو ثالوثهم الأقدس ، وهذا ما رتبوه أيام الملك قسطنطين الوثني ، وخلقه من ملوك الرومان ، وهو طور جديد لم يعرفه المسيح وحواريوه عليهم السلام ، وتشكيل لدينهم بشكل من أشكال وثنيتهم السابقة ، مؤلف من تقاليد وثني الهندوس والصين والمصريين والآوريين القدماء ، كما بين ذلك علماء اوربا الأحرار .

هذا وإن من المعلوم أن الله تعالى أرسل قبل المسيح عيسى رسلاً بشرائع

مخصوصة ، فخص من بينهم موسى ، لوجود بقية من اتباعه ، ولا عترف المسيح عيسى بناموسه ، وإقراره بشريته ، وأنه جاء مكملاً لها فقط ، ولو سألنا قومه اليهود عن أصل شريعتهم ، وعن اعتقادهم في الله ، المبني على دعوة موسى ، لأجابوا بالتوحيد المطلق ، المجرد عن التثليث والأقانيم ، أخذاً من كتبهم ، فهنا نقول : هل هذه هي دعوة موسى؟ وإنما كانت للتوحيد المطلق ، أو أن قومه غيروها بعدما كانت بالتثليث ؟ لا شك أنهم سيقولون بالأول، أي إن دعوة موسى كانت للتوحيد، وعليه نقول: هل كان موسى يجهل ما يجب اعتقاده في مولاه، الذي أرسله واصطفاه؟ أو كان يكذب على قومه ، فيدعوم إلى أن الله واحد فقط ، وهو يعلم أنه ثلاثة في واحد ، أو واحد في ثلاثة أقانيم ، أو كان يستعمل التورية في أساس الرسالة ، إذ معرفة الله أصل كل دين ، وأساس كل رسالة وشريعة سماوية ؟؟ سيقولون إنه كان يعلم أنه واحد في ثلاثة (أي يعلم التثليث) ولكن لم يؤمر بتبليغه ، لأن الشرائع تأتي على قدر العقول ، فنقول لهم : إن اليهود في تاريخ البشر ، هو ميلهم إلى الوثنية والتعدد ، وهؤلاء قدماء المصريين والأشوريين والكلدانيين واليونان والهنود - كان تعدد الآلهة ، معروفاً بينهم وأخذاً حده ، فلو أتى موسى قومه ، ودعاهم على قدر العقول ، لكان الأليق به أن يدعوم إلى التثليث ، ويقلل تعدد الآلهة نوعاً ما ، خصوصاً وقد كان ظهوره ، في مدة مجد المصريين ، وتعدد الآلهة عندهم أشهر من أن يذكر . فهذا قول لا يقوله عاقل .

وإن قالوا : إن قضية التثليث غير معقولة، فيجب الإيمان بها اتباعاً للوحي، نقول: فلم لم يدع إليها موسى والأنبياء ، ما دام لا يشترط فيها العقل ولا الاستعداد ؟

الاعتقاد بقدرة الأولياء والصالحين والتوسل بذواتهم شرك بالله

(٤) - يدعي البعض أو يعتقد أن الأولياء والصالحين في قبورهم يضررون وبنفعون ، ويحيون ويميتون ويمطون ويمنعون ، وأنه يتوسل إلى الله تعالى بذواتهم

ويدعى تعالى بواسطتهم ، لا وحده ، وهو شرك محض ، إمد لا نافع ولا ضار الا الله ، وانه لا يتوسل اليه تعالى إلا بما شرعه لعباده في كتابه ، وعلى لسان رسوله من الفرائض والسنن ، وانه لا سبب لقضاء الحاجات ، وجلب المانع ودفع الضار إلا ما هدى الله الناس اليه من سننه المطردة في خلقه ، كما انه لا فاعل الا الله ، ولا يدعى معه أحد سواه ، وان التوسل بالاولياء والصالحين ، انما يصح بمعنى الاهتداء بهديهم المبين ، ولله أن يكرم من عباده من شاء ، ولكن لا يصح ان تكون الكرامات والخوارق ، كصنعة من الصناعات ، في أيدي الأولياء ، والحق انه ليس لهم من الامر شيء ، وانه لا يكلف مؤمن ان يعتقد بولي مخصوص ، ولا بكرامة لولي معين مطلقاً ، ولكن على المؤمن أن يعتقد بانه يوجد أولياء وتوجد لهم كرامات ..

ويقولون بأن للاولياء « ديواناً » يجتمع فيه الاحياء والميتون منهم ، فما أقرأوا عليه ، فهو الذي يقع في الكون ، فنقول : اذا كان اولياء المسلمين وانصار الدين ، هم المتصرفون في الاكوان ، لا يجري فيها الا ما يجرونه ، ولا يستقر الا ما يقررونه فما بالهم ينصرون الكافرين على المسلمين ؟ وما بال الاسلام يخذل الآن ، باتفاق الاحياء منهم والاموات ؟؟؟

فضل الله على عباده وأقسامه

(٥) - « يعتقد البعض أن الله فضل بعض الناس على بعض في الرزق والمواهب الظاهرة والباطنة ، التي منها السر والمدد ، ويقولون كما أن الغني يعطي الفقير شيئاً من رزقه المادي ، فلا مانع أن يمدّه بشيء من رزقه المعنوي » ، غير أن الحقيقة هي أن فضل الله على عباده قسمان : قسم مكسوب يمكن بذله أو البذل منه ، وقسم ليس في استطاعة البشر بذله أو البذل منه ، كالإيمان والعارف الوجدانية ، ومنها ما يسميه الصوفية « بالأسرار » فانهم قالوا : انها أمور ذوقية ، لا يعرفها إلا من ذاقها . فلا يصح أن تطلب ولا أن توهب .

تحريم سؤال الأولياء ذوي الأضرحة شيئاً مادياً أو معنوياً

(٦) - هذا ولا يصح أن نسأل الأولياء أصحاب الأضرحة شيئاً ما ، لا مادياً ولا معنوياً ؟ إذ كيف نسألهم ما قطع الله عنهم من رزق الدنيا ومصالحها ، وما لا يبدل من ذلك بحسب الأسباب والسنن الإلهية ، وما يبدل ؟ فيطلبون منهم المال وزيادة الغلة ونماء الزرع وشفاء المرضى ، والانتقام من الأعداء ؟ وكيف يجوز أن ندعو ممن كان بالأمس في نعشه ، والمصلون واقفون يدعون له ، يشهدون له بالاسلام ، ويقولون : « اللهم ان كان مسيئاً ، فتجاوز عنه ولفه برحمتك رضاك ، حتى تبعه آمناً برحمتك يا أرحم الراحمين » . فكل مسلم من أبي بكر الصديق الى اليوم ، يدعى له يوم يموت ويصلى عليه بهذا الدعاء ونحوه فهل يعقل أن يدعى للميت بالأمس يوم موته ، ولكنه متى قبر تدعوه الناس أو يدعوه من دعا له قبل ساعة ؟ !

هذا ولم يرد في كتاب الله تعالى ، ولا في سنة رسوله ﷺ ولا نقل عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وسائر الصحابة ، ولا نقل عن التابعين والأئمة المجتهدين وقدماء الصوفيين ما يدعيه بعض المشايخ من أن سيدي فلان من الصالحين . وسيدي فلاناً من الأولياء ، هم أصحاب سر ومدد ، ون تلامذتهم في حياتهم ، وأتباعهم بعد مماتهم ، يتوسلون بهم الى الله تعالى ، ويطلبون منهم المدد والسر ، كما نرى ذلك في كتبهم ، ولم يكلفنا الله باتباعهم بل باتباع كتابه وسنة نبيه ، وهدى أصحاب نبيه ، الذين أخذوا الدين عنه مباشرة ، وكانوا به خير العاملين ، وبسيرة السلف الصالح لأنهم أعلم الناس بها .

وأما كلام الصوفية المتأخرين ، فقد صرحوا بأنه رموز واصطلاحات لا يعرفها إلا أهلها ، الذين سلكوا هذه الطريقة الى نهايتها ، وهم صرحوا بأن من أخذ بظاهر أقوالهم ضل . وقد قال الشعراني في بعض كتبه : « أنه سأل شيخه الخواص :

لماذا يطلب من الناس تأويل كلام الأنبياء إذا خالف ظاهر الشرع ، ولم يطلب منهم تأويل كلام الأولياء ؟ فأجابه : لأن الأنبياء معصومون ، فيجب حمل كلامهم على الصحة دائماً والأولياء ليسوا بمعصومين ، فيجوز أن يكونوا فيما خالفوا فيه مخطئين .

التوسل بحاجه الانبياء والاولياء

(٧) - لسائل أن يسأل : ألا يجوز أن نضيف كلمة «جاء» الى الانبياء والأولياء عند التوسل بهم ؟ والجاء هو القدر والمنزلة ، وكل واحد من الأنبياء ، له قدر ومنزلة عند ربه ، قال تعالى في موسى : ﴿ وكان عند الله وجيهاً ﴾ (٣٣ : ٦٩) . وقال في عيسى : ﴿ وجيهاً في الدنيا والآخرة ﴾ . (٣ : ٤٥) وقال تعالى : (واتخذ الله إبراهيم خليلاً) (٤ : ١٢٤) وغنى عن البيان ان من اصطفاه الله للخلة ، لا بد أن يكون وجيهاً في نظره ، وإلا لم يكن فيه أهلية للخلة ؟

ف نقول في جوابه : المفهوم المر في لفظ (الجاء هو السلطة ، وان شئت قلت : نفوذ الكلمة ، يقال : فلان اغتصب مال فلان بجاهه ، ويقال : فلان خلص فلاناً من عقوبة الذنب بجاءه لدى الامير او الوزير مثلاً ، فزعم زاعم ان لفلان جاهاً عند الله بهذا المعنى اشراك حلي لاخفي ، وقلنا يخطر ببال أحد من المتوسلين معنى اللفظ اللغوي ، وهو المنزلة والقدر ، والتوسل بلفظ الجاء ، مبتدع بعد القرون الثلاثة من الهجرة ، وفيه شبهة الشرك والعبادة بالله ، وشبهة المدول عما جاء به الرسول والسلف الصالح ، وأما ﴿ وكان عند الله وجيهاً ﴾ (٣٣ : ٦٩) فليس معناه ، انه وجيه عليه ، وانما معناه انه وجيه عنده ، وفرق كبير بين قولك (فلان وجيه علي و فلان وجيه عندي ، فالوجهة الاولى معناها السلطة والنفوذ ، والوجهة الثانية معناها انه في حكم الله ذو قدر ومنزلة .

الرد على من 'احتج بحديث رواه الترمذي بجواز التوسل الى الله بغيره'

وقد يحتج البعض على جواز التوسل بما رواه الترمذي بسنده الى عثمان بن حنيف رضي الله عنه قال : (إن رجلاً ضرير البصر ، أتى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : ادعُ الله ان يعافيني — فقال : إن شئتَ دعوتُ ، وإن شئتَ صبرتَ ، فهو خير لك — قال : فادعه ، — فأمره أن يتوضأ فيحسن الوضوء ، ويدعو بهذا الدعاء : « اللهم إني أسألك واتوجه اليك ، بنبيك محمد ، بني الرحمة ؛ إني توجهت بك الى ربي ، ليقضي لي في حاجتي هذه ، اللهم فشفعه فيّ » ، قال الترمذي : حديث حسن صحيح غريب) ، فنقول أولاً : قد وصف الحديث بالغريب ، وهو ما رواه واحد ، والمسألة داخلة في باب العقائد ، لا في باب الأعمال ، ذلك ان الأمر فيها ، يرجع الى سؤال صورته : هل يجوز أن نعتقد أن واحداً سوى الله ، يكون واسطة بيننا وبين الله في قضاء حاجتنا ، أو لا يجوز ؟ والكتاب صريح في أن تلك العقيدة من عقائد المشركين ، وقد نعاها عليهم في قوله تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ، ويقولون هؤلاء شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ (١٠ : ١٨) ، وقد جاء في السورة التي نقرأها كل يوم في الصلاة : ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (١ : ٤) ، فلا استعانة إلا به ، وقد صرح الكتاب بأن أحداً لا يملك للناس من الله نفعا ولا ضراً ، وهذا هو التوحيد الذي كان أساساً الرسالة الحمديّة ، ونحن لا يمكننا أن نتخذ حديثاً من أحاديث الآحاد ، دليلاً على العقيدة ، مما قوى سنده ، فإن المعروف عند الأئمة قاطبة أن أحاديث الآحاد لا تقيد الا الظن ، ﴿ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً ﴾ (١٠ : ٣٦) وفي الختام نذكر قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي ، فَإِنِّي قَرِيبٌ ، أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ (٢ : ١٨٦) وقال الشيخ محي الدين بن العربي ، شيخ الصوفية في صحيفة ٢٢٦ من الجزء الرابع من فتوحاته ، عند الكلام

على هذه الآية : « ان الله تعالى لم يترك لعبده حجة عليه ، بل لله الحجة البالغة ، فلا يتوسل اليه بغيره ، فان التوسل إنما هو طلب القرب منه ، وقد أخبرنا الله انه قريب وخبره صدق . »

واجب الوجود واحد ومستحق العبادة واحد وهو الله تعالى

(٩) - ان واجب الوجود - وهو الله تعالى - واحد ، وهذا هو توحيد الربوبية ، وكذا مستحق العبادة - وهو الله سبحانه - واحد ، وهذا هو توحيد الألوهية ؛

فالمستحق للعبادة هو واجب الوجود ، وواجب الوجود هو المستحق للعبادة ، وهو الله تعالى ، ولا تصدق العبارتان الا عليه تعالى ، وإن اختلفا في المفهوم ؛ هذا هو مقتضى الشرع والعقل والمنطق والانصاف ، ولكن مشركي العرب المعاصرين لخاتم الانبياء وقبله أيضاً . لم يعقلوا ولم ينصفوا ، فهم مع قولهم بأن واجب الوجود واحد ، قد اعتقدوا غلطاً تعدد المستحق للعبادة ؛

أو نقول قد صرفوا كثيراً من أنواع العبادة لغير الله ، ومثل ذلك مثل شعب لا يعرفون لهم الا ملوكاً واحداً ، هو الذي يرتب لهم المماشات ، وهو الذي يوليهم الولايات ، وهو الذي يعقد عليهم بالخيرات ، وهو الذي يمنع عنهم الغارات ، الى غير ذلك ، ونظام هذا الملك أن يكون له الخضوع والركوع ، له الاكبار الملوكي والاجلال السلطاني ، له الذل والخنوع ، ولا يطلب شيء من غيره ؛ هذه ونحوها هي شارات هذا الملك وخصائصه التي أراد أن ينفرد بها عما سواه ، فاذا صرف الشعب شيئاً من هذه الاشياء لغير مليكه ، فقد خانه وأشرك معه غيره من الوزراء في مزاياه وخصائصه ، ولو اعتقد بأنه ليس له سلطان سوى المليك ، فلا يمنع عنه تسميته - الكلام عائد للشعب - أنه أشرك مع مليكه سواه ، ولا يمنع عنه العقاب .

ماهو المراد بمثقال حبة من خردل من الإيمان في حديث البخاري

(١٠) - جاء في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، ثم يقول الله تعالى : « أخرجوا من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان » ، فيخرجون منها ، قد اسودوا - الحديث » ، فهل المؤمنون إيمان ربوبية ، المشركون شرك ألوهية - يشملهم هذا الخروج ، لأنه يصدق عليهم أن في قلوبهم مثقال حبة من خردل من إيمان ؟ والجواب عن ذلك : يراد بمثقال حبة الخردل من الإيمان في حديث البخاري المثقال للإيمان الخالص ، الذي لا يشوبه مثقال خردلة من شرك ، جمعاً بينه وبين قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ (٤: ١٧ و ١١٧) وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَسِيحُ : يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ، إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ ، فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ ، وَمَأْوَاهُ النَّارُ ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ (٥: ٧٥) ، وقال تعالى في سياق محاجة إبراهيم لقومه في التوحيد والشرك ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ ، وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ (٦: ٨٢) وقد فسر النبي ﷺ - الظلم هنا - بالشرك ، وهو نكرة في سياق النبي ، يفيد أن الأمن من العذاب المقيم ، الذي أعدّه الله للمشركين ، خاص بمن آمنوا إيماناً لا يشوبه شيء ما من الشرك ، وإن كان مثقال حبة من خردل ، وحينئذ فلا مندوحة من حمل حديث البخاري المسئول عنه - على ما يتفق مع هذه الآيات ، وهذا هو المراد من الحديث ، وإن لم يكن هذا هو المراد من الحديث ، كان معارضاً لما ذكرنا من الآيات ، ولا يمكن ترجيحه عليها ، أو إرجاعها إليه ، والقول بأن مثقال حبة من خردل من إيمان مشوب بالشرك ، ينجي صاحبه من النار بعد دخولها ، ويجعله من أهل الجنة ، لم يقل به أحد من المسلمين ، بل أجمعوا على أن الشرك بالله ، لا يغفر منه شيء ، ولا

شك أنه يصدق على مشركي العرب في زمن البعثة ، أنه كان في قلوبهم إيمان كحبة الخردل أو أعظم ، كما هو مقتضى آيتنا اليوسفية وماشابهها من الآيات القرآنية ، فلو كان الإيمان بوجود الله ، مع اتخاذ شركاء له منجياً ، لكان مشركوا العرب في الجاهلية - ناجين حتماً ، ولا قائل به من أهل الإسلام .

المعطل المنكر لوجود الله تعالى شر من المشرك

(١١) - المعطل المنكر لوجود الله تعالى ، لا يسمى مشركاً ، ولكنه شر من المشرك ، فإذا كان الله لا يفر لمن يؤمن به بأنه الخالق الرازق ، إذا توجه لغيره ودعاه من دونه ، ولو ليقرب به إلى الله زلفى ، فهل يفر لمن جحدته مطلقاً ؟

حكم تلوث الجاهلين من مسلمي اليوم بشرك الألوهية

(١٢) - من تلوث من مسلمين اليوم بشيء من شرك الألوهية ، ولا يسمى نفسه مشركاً ولا فعله شركاً ، ولكنه يسمى نفسه متوسلاً متشفعاً متقرباً ، كما أنه يسمى فعله ، توسلاً وتشفعاً وتقرباً ، وهو مسكين جاهل لم يقصد الشرك ، فاهماً أنه شرك ، ولكنه وقع فيه بجهله ، لأنه لا يمتد أن ما يفعله شرك ، وهذا يجب أن يُعلم ، حتى تقوم عليه الحجة .

شرك النصارى في الربوبية والألوهية

(١٣) - النصارى لا يقولون بتعدد واجب الوجود صريحاً ، ولكن لهم فيه فلسفة لا تعقل ، وهي التوحيد مع التثليث ، ومع ذلك فهم مشركون في الربوبية ، من جرآ قبولهم التشريع من رؤسائهم ، فيحلون لهم ويمرحون ، وكل النصارى لذلك يقبلون ؛ وأما شركهم في الألوهية ، فهو أيضاً واقع ، ماله من دافع ، لأنهم يعبدون المسيح عيسى ، وليس أقنوم الابن فقط الحال في جسد المسيح ، بل

يعبدون أيضاً جسد المسيح ، أعني إنهم يعبدون المسيح كله ، الحاوي لللاهوت والناسوت — على رأيهم — ، فهم مشركون في الألوهية قطعاً وليس من هذه الجهة فقط ، بل هم أيضاً مشركون في الألوهية ، من جهة أنهم يقدمون أنواعاً من العبادات ، كالسجود والركوع والتذور والأصوام — للسيدة مريم عليها السلام .

الطوائف المسلمة عن الإسلام بسبب شركها بالله أو بالتشريع

(١٤) — يوجد في مشركي المسلمين اليوم ، من أشركوا بالله بعض آل بيت نبيه بالعبادة والدعاء ونحوهما ، ومنهم من أشركوا بالتشريع أيضاً ، كأصنافه الباطنية وآخرهم البابية والأزلية والبهائية ، ومن هؤلاء من أنسلخ من اسم الإسلام كما أنسلخ من معناه ، ومنهم من حافظ على انتحال اسمه ، مع لقب مذهب أو طريقة أو طائفة ، ولو على مبدل الثقة .

المشرك من يدعو الأصنام أو من يدعو الصالحين

(١٥) — إن بعض المشركين ، بل الغالب من أفرادهم اليوم ، يزعم أن جميع الآيات التي جاء فيها تقبيح الشرك وتوبيخ المشركين ، هي خاصة بالأصنام بمعنى الجداد ، مع أننا لو تتبعنا هذه الآيات ، التي جاءت في شأن الشرك والمشركين ، لوجدناها مصرحة بأن المشركين فريقان : فريق يدعو الأصنام المزعومة تماثيل لعباد الله الصالحين ، وفريق يدعو الصالحين غير ناظر إلى التماثيل ، فما جاء في تسفيه أحلام الفريق الأول قوله تعالى : ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ؟ ﴾ (٣٧: ٩٥) وقوله : ﴿ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ؟ ﴾ (٢١: ٥٢) ، وما جاء في التشنيع على الفريق الثاني قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ — مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ؟ — وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ، وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً ، وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ (٤٦: ٦٥) وقوله :

﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه ، فلا يملكون كشف الضر عنكم ، ولا تحويلاً ، أو لئك الذين يدعون ، يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ، وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾ (٥٧:١٧) وقوله تعالى : ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ، ليكونوا لهم عِزّاً ، كلاً ، سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً ﴾ (٨٣:١٩) وقوله تعالى : ﴿ والذين يدعون من دون الله ، لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً ، وَهُمْ يُخْلَقُونَ ، أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ، وَمَا يَشْعُرُونَ أَتَىٰ بِانِّبَعَثُونَ ؟ ﴾ (٢١٠:١٦) فهل يعقل بأن الأصنام بمعنى الجُداد تتصف بهذه الصفات ، التي وصف بها المدعون في هذه الآيات ، التي جاءت بشأن الفريق الثاني ؟ لاريب أنه لا يعقل أن يتصف الجُداد بالغفلة أو بضدها ، أو يتصف بالعداوة وضدها ، أو بالكفر وضده ، ولا يتأتى أن تبغني الجُداد الوسيطة إلى ربها ، وأن ترجو رحمته ، وتخاف عذابه ، ولا يمكن أن تكون الأصنام بمعنى الجُداد ، ضداً على المشركين يوم القيامة ، ولا يتصور أن يوصف الجُداد بموت أو حياة ، أو شعور يبعث ، فمن عنده أدنى مسكة من عقل ، يدرك أن جميع هذه الصفات ، لا تنطبق على الأصنام بمعنى الجُداد ، بل لا تنطبق إلا على المقرين من الملائكة أو الأنبياء أو الصالحين .

(مرحى مرحى)

إنذار المشركين بالله

آ (١٠٧) ﴿ ... أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ، أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً ، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

افتتحت الجلسة ، وتليت الآية المئة وسبعة ، فقام الامام القليلي وقال : قتل الانسان ما أكفره (أفأمنوا) أي أفأمن هؤلاء المشركون بالله (أن . تأتيم غاشية) أي نقمة أو عقوبة تغشاهم بحيث تغمرهم وتجلهم ،

فيكونون حشوها (من عذاب الله) وعقابه في الدنيا (أو تأتيمهم الساعة بغتة) أي هلاكهم الذي يعقبه خلاص الموحدين من شرهم ، (وهم لا يشعرون) باتيانها فوق رؤوسهم ، فهل هم آمنون من ذلك ؟ حال كونهم تحت وقوع شيء منه في القريب العاجل ، فما عليهم إلا أن ينتظروا المعركة المقبلة ، ويُعدوا لها العدة ، إن جوزوا لأنفسهم مقاومة سوط النعمة الالهية .

(أَفَأَمَّنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ . . . الْخ)

— ١ —

وتابع الامام القلقلي كلامه قائلاً :

الساعة الصغرى الدنيوية وأمثلة عليها

إن الساعة في قوله ﴿ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ ﴾ هي فيما نختاره ساعة « بدر » ، فإن صناديد قريش وزعماء المشركين ، قد هلكوا جميعاً في وقعة بدر وغيرها ، ثم هلك باقي المشركين عن آخرهم ، أو نقول إن غزوه بدر هي من أشرط تلك الساعة ، وإنما ساعتهم هي ذلهم واضمحلالهم وهلاكهم التام ، وفناؤهم المأم ، بحيث لا يبقى منهم ديار ، ولا نافخ نار ، قال تعالى في سورة الأنعام المكية : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ كُنُفُوسَكُمْ أَنْ أَنَا كُمْ عَذَابُ اللَّهِ ، أَوْ أَتُنشِئُونَ السَّاعَةَ ، أَوْ تَغْيُرُ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ؟ بَلْ إِلَهُهُ تَدْعُونَ ، فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ ، وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾ (٤١٠:٦) .

قال شيخنا الغواص : هذه « الساعة » هي ساعتهم الصغرى ، التي تحققت في غزوة بدر ونحوها ، ولا يجوز أن يراد بها الساعة الكبرى ، لأن الساعة الكبرى لا تكشف لا عن المشركين ولا عن غيرهم ، ولا يشاء الله كشفها ، لأنها أمر حتم لا بد منه ، وقال تعالى في سورة الحج المكية : ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي

مَرِيَّةٍ مِنْهُ ، حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً ، أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ ، الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ، يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ، فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٢٢ : ٥٥-٥٧﴾

قال شيخنا العارف بالله ، لا يزال أهل مكة الكافرون في شك من أمر الرسول الى أن تجيء ساعة انحطاطهم وهلاكهم في غزوة بدر ، وتعاظم أمر المسلمين وتعالى شأنهم ، أو يأتيهم عذاب يوم عقيم بافتتاح المسلمين مكة وانتصار أهل الإيمان عليهم ومن ذلك اليوم يكون الملك لمظهر أمر الله ومنبع سلطانه وهو سيد الخليقة (ص) وخلفائه من بعده ، وقد حكم النبي وخلفاءه بين الناس ، فالؤمن العامل في نعيم وورفاه ، والكافرون من أهل مكة ويهود يثرب في ذل وهوان ، وقال تعالى في سورة الزخرف المكية : ﴿وَأَنَّهُ لَعَلِمٌ لِلسَّاعَةِ ، فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا ، وَاتَّبِعُونِ ، هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٤٣ : ٦١) قال شيخنا ولي الله : المسيح هو علامة على ساعة انقراض النبوة من بني اسرائيل ونقلها الى بني اسماعيل ، ولذلك كان قال لهم : ﴿لذلك أقول لكم إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره ، ومن سقط على هذا الحجر يترضض ، ومن سقط هو عليه يسحقه﴾ (مت ٢١ : ٤٣ و ٤٤) ، ولهذا قال تعالى : ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا ، وَاتَّبِعُونِ ، هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٤٣ : ٦١) .

ويجوز أن يكون المسيح «علماً للساعة» ساعة هلاك ودمار وسقوط وانخفاض اليهود ، بسبب كفرهم به ، وايدائهم له ، وساعة ارتفاع ورتقي النصارى ، بسبب إيمانهم وتصديقهم له ، أي ساعة مجازاة كل منهم على عمله مجازاة دنيوية ، وزرى متى ومرقس ولوقا ، بعد أن نقلوا ما وصفه المسيح من أهوال الساعة وقيامتها ، قالوا نقلنا عن المسيح : (الحق أقول لكم لا يمضي هذا الجيل حتى يكون هذا كله) (مت ٢٤ : ٣٤ مر ١٣ : ٣٠ لو ٢١ : ٣٢) .

وفي الحديث : ﴿بمَثَ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ﴾ وأشار الى إصبعيه السبابة والوسطى ،

أي متقاربين متلاصقين كهاتين الاصبعين: أي أن ظهوره (ص) علامة على قرب ساعة هلاك وسقوط من كفر به ، وارتفاع ورق من آمن به في الدنيا ، وفي البخاري : « إذا ضيعت الأمانة انتظر الساعة - قيل : وما إضاعته يا رسول الله ؟ - قال : إذا وسد الأمر لغير أهله فانتظر الساعة » ، وفي البخاري أيضاً « إن من اشراط الساعة أن تلد الأمة ربتها أو ربها ، وأن ترى الحفاة الرعاة يتطاولون في البنيان ، وأن يكثر شرب الخمر والزنا » وكل ذلك وقع فعلاً ، فهذه الأشرط هي أشرط للساعة الصغرى وهذه الساعة هي لناس وعلى ناس ، فلناس ساعة علو وارتقاء ومنمة ، وعلى ناس ساعة انقراض واضمحلال ، وعلى الأقل ساعة ضعف وفتور .

ومن أمثلة استعمال لفظ الساعة في معنى الساعة الصغرى ، ما في الحديث الذي ذكره صاحب الأساس : « إذا رأيت مكة بُعِجَتْ كُظَائِمٌ وَسَاوَى بَنَائِهَا رُؤُوسُ الْجِبَالِ ، فاعلم أن الساعة قد أظلت ^(١) » .

(أَفَافَمْنُوا إِنْ تَأْتِيهِمْ غَاشِيَةٌ .. النَّحْ)

— ٢ —

وقال الفاضل البيهقي (٢) :

الساعة الصغرى الدينية والساعة الكبرى الأخروية

أضم صوتي الى صوت أخي الإمام القليلي حفظه الله وأقول :

(١) ليس أن لفظ « الساعة » متى أطلق ينصرف للساعة الكبرى دائماً ، بل قد يكون مراداً منه « الساعة » الصغرى ، والحكم في ذلك القرائن ، والقرينة هنا على أن « الساعة » هي الساعة الصغرى قرنها بغاشية من عذاب الله وانتظامها

١ - بعجت : حفرت فيها آبار كثيرة ، وكظائم جمع كظيمة وهي بئر جنب بئر بينهما مجرى في بطن الأرض .

٢ - نسبة إلى بيسان من بلاد فلسطين .

في سلك واحد، فكما ان هذه الناشئة هي في الدنيا ، فكذلك هذه « الساعة » تحصل لهم في الدنيا ، فأيتنا هذه في أنها تحتوي على مواعيد دنيوية هي نظير ما قال تعالى في سورة الاعراض المكية : ﴿ أَفَأَمِّنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ؟ أَوْ أَمِّنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى ، وَهُمْ يَلْعَبُونَ ؟ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ؟ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (٧ : ٩٦ - ٩٨) وقال تعالى ، في سورة النحل المكية : ﴿ أَفَأَمِّنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ ؟ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ؟ ﴾ (١٦ : ٤٥) ، وقال في سورة الإسراء المكية : ﴿ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ ؟ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ؟ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴾ (١٧ : ٦٨) وقال في سورة الملك المكية : ﴿ أَمِنْتُمْ مِنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ ، فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ؟ أَمْ أَمِنْتُمْ مِنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ؟ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٌ ﴾ (٦٧ : ١٦ و ١٧) .

الحشر الديني

٢ - وكما أن لفظ « الساعة » يرد لمعنى يحدث في الدنيا وهو الانقلابات والاضطرابات التي تحصل مفيدة لقوم ضارة بآخرين ، فكذلك لفظ « الحشر » يأتي لمعنى يحدث في الدنيا ، ويأتي للحشر الأخروي ، فمن الأول قوله تعالى : ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَى ، قَالَ أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى ﴾ (٧٩ : ٢٣ و ٢٤) فهذا الحشر كان باسم فرعون الخروج « منفذا » لمبيده القبط ، فهو حشر دنيوي . ومثله قوله تعالى : ﴿ وَحَشَرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ ﴾ (٢٧ : ١٧) ، وقال تعالى في سورة الحشر : ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ﴾ (٥٩ : ٢) ومعنى أول الحشر ، ان هذا أول حشرهم من المدينة الى الشام ، وآخر حشرهم إجلاء « عمر » إياهم من خيبر الى الشام ، واللام في قوله « لأول » هي

اللام في قولك : جئته لوقت كذا ، وكتبت لعام كذا ، ولشهر كذا ، فهي التي تصحب التاريخ ، وقال تعالى : ﴿ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ﴾ (٣٨ : ١٩) فحشر الطير لداود وحشر بني النضير في الشام ، وحشر الجنود لسلیمان وحشر القبط لمنغثا ، كل ذلك حشر دنيوي .

النشر والحساب الدنيويان

(٣) - وكذلك لفظ « النشر » يأتي بمعنى دنيوي كما في سورة الفرقان : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا ، وَالنَّوْمَ مَسَاجِدًا ، وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴾ (٢٥ : ٤٧) أي جعل النوم موتاً ، والنهار عيشة وحياة بعد الموت .

وكذلك « الحساب » يكون في الدنيا ويكون في الآخرة ، قال تعالى في سورة الرعد : ﴿ وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَمَضٍ الَّذِي أَعَدُّهُمْ ، أَوْ نَتَوَقَّعُكَ ﴾ قبل ذلك ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا ﴾ لا عليك ﴿ الْحِسَابُ ﴾ (١٣ : ٤٢) وقال تعالى في سورة الأنبياء المكية : ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ، وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ، مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ ، وَهُمْ يَلْعَبُونَ لَأِهيَّةٍ قُلُوبُهُمْ ﴾ (٢١ : ١ - ٣) ، قالنا هنا هم مشركوا اهل مكة كما قال ابن عباس وهو اصطلاح القرآن يعبر « بالناس » عن أهل مكة المشركين وبأهل الكتاب عن اليهود والنصارى ، وبالمؤمنين عن اتباع النبي المسلمين ، وكما هو صريح نفس هذه الايات التي إنما ذكرت أحوال المشركين وأقوالهم خاصة ، فإن الذين غفلوا عن حسابهم ، ثم لما نهوا أعرضوا ، وأناموا الذكر فاستمعوه وهم يلعبون ، ذاهلين عنه وقالوا ما قالوا — إنما هم المشركون من اهل مكة لأن السورة مكية ، فهذا « الحساب » الذي اقترب إنما هو حسابهم فقط ، لا دخل لغيرهم فيه ، وهو حساب خاص ، يتجلى في مجازاتهم واهلاكهم في الدنيا ، في مثل غزوة بدر وفتوح مكة وغيرها .

الحساب العام الآخروي

(٤) - واما « الحساب العام » في يوم القيامة الذي يعم المؤمنين وأهل الكتاب وجميع العالمين ، فهو المذكور في مثل قوله تعالى : ﴿ فَوَرِّكْ لِنَسْأَلْتَهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١٥ : ١٢) ، فما في سورة الأنبياء يفيد أنه قرب جداً وقت محاسبة ومجازاة وإهلاك هؤلاء المشركين في حالي غفلتهم ثم إعراضهم عن الذكر ، وفي حال أنهم لا يستمعونه إلا وهم يلعبون ، ذاهلين عنه ، أي أن عذابهم وهلاكهم سيكون في الدنيا وهم متلبسون بهذه الأحوال ، ويساعد هذا الفهم قوله تعالى على الأثر : ﴿ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ، أَتَقُومُ يَوْمَئِذٍ مَنْ يُؤْمِنُونَ ؟ ﴾ (٢١ : ٦) أي أنهم لا يؤمنون كما لم تؤمن القرى التي أهلكتناها قبلهم ، أي فحينئذ لا بد من إهلاكهم مثلهم في الدنيا لعدم إيمانهم ، كما كنا أهلكتنا تلك القرى لعدم إيمانهم أيضاً .

الصراط والعذاب والعقاب والأجر والثواب الدينيويات

(٥) - وكذلك « الصراط » يطلق على الصراط الديني بمعنى الطريق ، وقد ذكر بهذا المعنى في القرآن أكثر من ٤٥ مرة ، ويطلق على الصراط الآخروي ، وليس له ذكر في القرآن ، ولكنه مذكور في الأحاديث ، وكذلك « الميزان » يطلق على الميزان الديني كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَفْثُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ﴾ (٦ : ١٥٢) وقد ذكر هذا في القرآن تسع مرات ، ويطلق على الميزان الآخروي وقد أشير له في مثل قوله تعالى : ﴿ وَالْوِزْنُ يُوَمِّدُ الْحَقَّ ﴾ (٧ : ٧) .

وكذلك « العذاب والعقاب » وضده « الأجر والثواب » يكوئنان في الدنيا والآخرة ، كما يعلم من كثير آيات الكتاب الكريم .

الميعاد الرنوي

(٦) - وكذلك لفظ « الميعاد » يأتي معنى في الدنيا ومعنى سيحدث في الآخرة ومن مثل الأول ما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ : مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ (٣٣ : ١٢) قال « معتب بن قشير » حين رأى الأحزاب : « بعدنا محمد فتح فارس والروم ، وأحدنا لا يقدر أن يتبرز فرقا ، ما هذا إلا « وعد غرور » فهذا وعد دنيوي ، ومثله ما في قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ ، قَالُوا : هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ (٣٣ : ٢٢) وقال تعالى في سورة الزخرف المكية : ﴿ فَلَمَّا نَذَرَ هَبْشَنَ بَكْ ، فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ ﴾ - في الآخرة - ﴿ أَوْ نَزِيقُكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ ﴾ - من العذاب النازل بهم وهو يوم بدر - ﴿ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ ﴾ (٤٣ : ٤١ و ٤٢) ، وقال تعالى : ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ، وَلَنَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢٨ : ١٣) ، فوعد الله هنا هو قوله : ﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ ﴾ (٢٨ : ٧) وقال تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ ، لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣٠ : ٦) يشير لوعده الله أن يغلب الروم الفرس في بضع سنين وقد وقع سنة ٦٢٥ ميلادية .

وقال الملائكة في أهل سدوم وعمورة وإهلاكم :

﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ﴾ (١١ : ٨١) ، وقال تعالى في شأن المؤمنين مع المشركين في غزوة بدر : ﴿ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاحْتِلَافَتُمْ فِي الْمِيعَادِ ﴾ (٨ : ٤٢) وقال تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ ، أَوْ تَهْلِكُ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ ، حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ (١٣ : ٣١) ، وعد الله هنا فتح مكة ، وكان الله قد وعد النبي بذلك وقال تعالى :

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ - قُلْ : لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ ، لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (٣٤ : ٢٩ و ٣٠) ، فهذا الميعاد دنيوي وقع في غزوة بدر ، ولفظ اليوم يراد منه السنة ، كما وقع كثيراً بهذا المعنى في العهد العتيق والعهد الجديد ، وغزوة بدر كانت في نهاية السنة الأولى من الهجرة الشريفة ، وبهذا المعنى وعلى هذا التفسير انطبق الجواب على السؤال ، فهم سألوا عن وقت الوعد وتحديدده ، فأجيبوا بأن تحقيق هذا الوعد يكون بعد يوم من الهجرة .

البعث الربوي

(٧) - وكذلك لفظ « البعث » قد يستعمل في معنى دنيوي ، كما في قول صموئيل ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ﴾ (٢ : ٢٤٧) وقوله تعالى : ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ (١٧ : ٥) وقوله تعالى : ﴿ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ﴾ (١٣ : ٥) .

الآخرة والجزاء الربويان

(٨) - وكذلك لفظ « الآخرة » قد يحییء مستعملاً في معنى دنيوي ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ : لِيَسْؤُوا وَآجُوهَكُمْ .. الْح ﴾ (١٧ : ٧) أي المرة الآخرة ، وقولهم : ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ ﴾ (٣٨ : ٧) وقوله تعالى : ﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴾ (٢٥ : ٧٩) أي كلمته ، فالآخرة هي ﴿ أَنْ رَبُّكُمْ الْأَعْلَى ﴾ (٣٤ : ٧٩) ، والأولى هي ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ (٢٨ : ٣٨) .

وكذلك لفظ « الجزاء » قد يأتي لمعنى دنيوي ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ، وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ، ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا ، وَهَلْ

'نَجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ؟ (١) (١٧:٣٤) وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ، وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهَا، إِلَّا مَا سَحَمَتْ ظُهُورُهَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ، ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ، وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ (١٤٦:٦) وقولها تعالى: ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ نِعْمَةً مِنَّا عِنْدَنَا، كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾ (٣٥:٥٤).

الحياة بعد الموت في الدنيا

(٩) — وكذلك لفظ « الحياة » بعد الموت ، قد يستعمل في معنى دينوي ، كما في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ ، حَذَرُوا الْمَوْتَ ، فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ : مَوْتُوا ، ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ؟ ﴾ (٢٤٣:٢) قوم خرجوا من ديارهم بسائق الخوف من عدو مهاجم ، لامن قلة ، فقد كانوا ألوفاً ، أي كثيرين وإنما هو الحذر من الموت الذي يولده الجبن ، فأماهم الله بامكان المدو منهم ، فالأمر أمر التكوين ، أي قضت سنته في خلقه بأن يموتوا موتاً معنوياً ، بما أتوه من سبب الموت المادي الطبيعي ، وهو تمكين المحارب من أفتائهم بالفرار ، ففقتك بهم وقتل أكثرهم ، ثم أحياهم حياة معنوية ، بأن أعاد اليهم استقلالهم ، حيث قد جمعوا كلتهم ووثقوا رابطتهم ، فمادت لهم وحدتهم القوية ، فاعتزوا وكثروا إلى أن خرجوا من ذل الفرقة والعبودية ، إلى عز اجتماع الكامة والاستقلال كذا قاله الاستاذ الامام وكما في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ (٢٤:٨) وقوله : ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَاهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ؟ ﴾ (١٢٢:٦) .

(مرحي)

الفصل الثالث

الدعوة الى الإيمان بالدليل

آ (١٠٨) ﴿قُلْ: هَذِهِ سَبِيلِي: أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ،
أَنَا وَمَنْ أَتَّبَعَنِي، وَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية المنة وغنائية ، فقام المدقق الذي وقال :

قال الله تعالى مخاطباً نبيه الكريم محمد ﷺ: أخبر الناس يا محمد و (قل) لهم: (هذه) السبيل التي هي الدعوة إلى الإيمان والتوحيد هي (سبيلي) أي طريقي . ومسلمي وستي ونهجي (أدعو) الناس (إلى) دين (الله) وسأدعو وسوف أدعو ولا أزال أدعو إلى شهادة أن لا آله إلا الله ، وحده لا شريك له ، هذه سبيلي التي أحييا فيها وأموت عليها ، أدعوهم دائماً حتى يدفع الحق الباطل ، أدعوهم حال كوني (على بصيرة) ودليل قاطع ، وحجة واضحة غير عمية (أنا ومن . اتبعني) — فكل من اتبعه كذلك يدعو إلى مادعا اليه الرسول ، على بصيرة ويقين وبرهان عقلي وشرعي — (وسبحان الله) أي وأنزه الله عن الشركاء وأجله وأعظمه وأقدسّه عن أن يكون له شريك أو نظير أو نديد أو ولد أو والد أو صاحبة أو وزير أو مشير ، تبارك وتقدس وتنزه : ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا، تَسْبَحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبَحُ بِحَمْدِهِ، وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ، إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (١٧: ٤٣-٤٤) ، (وما أنا من المشركين) لا شريك ربوية ولا شريك ألوهية .

(قل هذه سبيلي ، أدعو ... الخ)

— ١ —

وتابع المدقق الذي قوله بسرد المواد التالية على الآية :

التقليد في الدين باطل

المادة (١) — البصيرة الحجة الواضحة والعقيدة ، ومنه : ﴿ بل الانسان على نفسه بصيرة ﴾ (١٤: ٧٥) أي هو حجة وشاهد ؛ يقال جوارحه بصيرة عليه : أي شاهدة ؛ ومنه (اجعلني بصيراً عليهم) أي شاهداً ؛ فالنبي والقرآن دائماً يستدل على قدرة الله تعالى وارادته وعلمه وحكمته ووحدانيته بالآيات الكونية ، وهي كثيرة جداً في القرآن ، وبالأدلة النظرية والعقلية كقوله : ﴿ لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ (٢٢: ٢١) وغير ذلك مما لا يحصى ، حتى أنه ليستدل على الأحكام بما يترتب عليها من نفي المضرات ، والافضاء إلى المنافع ؛ فالتقليد في الدين باطل ، لأنه ينافي أصل العلم باليقين ، فان المقلد في الدين هو من يعتمد في دينه على قول من يشق به من أهله وقومه أو معلمه ، وليس على علم وبصيرة فيه .

النبي والمؤمنون طأوا على بصيرة من الدعوة للإيمان

المادة (٢) — نعلم من قوله ﴿ أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ﴾ أن النبي ﷺ ومثله المؤمنون ، جميعهم كانوا على بصيرة ، فليس عندهم شيء من الشك ، بل هم من أهل العلم ، ومن هذا نعلم أن الأمر بالسؤال في قوله تعالى في سورة النحل المكية : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي اليهم ، فاسألوا أهل الذكركر إن كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر ﴾ (١٦: ٤٣ و ٤٤) إنما هو للكفار من وثنيي العرب ، الذين قالوا ﴿ هل هذا إلا بشر مثلكم ؟ ﴾ فكان جواب الله اليهم بهذه الآية ، فالحاطبون هنا بتوجيه

السؤال لغيرهم مخصوصون ، وهم جبهة العرب الوثنيين ، والشبيبة المسئول عنه هنا مخصوص ، وهو أن الرسل الذين جاءوا قبل محمد ﷺ ماذا كانوا ؟ هل رجالاً أو ملائكة ؟

وكذلك الخطاب في قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ، لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ، وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيَاتِ اللَّهِ ، فَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (١٠ : ٩٥ و ٩٤) فهذا الخطاب إنما هو للشاك في صدق هذا الكتاب الذي أنزل لأجله ولأجل هدايته ، وأما النبي ﷺ فلم يكن شاكاً أبداً كما قال : ﴿ أَغَيَّرَ اللَّهُ ابْتِغَايَ حَكْمًا ، وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ؟ ﴾ (١١٤ : ٦) وقال : ﴿ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ﴾ (٥٧ : ٦) وقال : ﴿ إِنْ أَنْتَبِعْ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ خُفٍّ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (١٥ : ١٠) ، فتوجيه الخطاب إذاً في آيتي « فاسألوا . . . » الخ و « فَإِنْ كُنْتَ . . . » الخ هو لغير العالم وللشاك في صدق القرآن المجيد الذي أنزله الله لهدايته : أي إن كنت أيها الإنسان تشك فيما أنزلناه إليك بواسطة نبينا « فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك » أي المحققين منهم هل يكن مذكوراً في كتبهم بحجتي نبي وكتاب يجب الإيمان بهما ؟ حقاً « لقد جاءك » أيها الإنسان مطلقاً بواسطة نبيك : « الحق من ربك » ، فلا تكونَنَّ مِنَ الْمُتَمَرِّينَ ، وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيَاتِ اللَّهِ ، فَتَكُونَنَّ « أيها الإنسان » مِنَ الْخَاسِرِينَ .

وكون التنزيل يقصد به الناس أيضاً موضح في آيات كثيرة كما في آية : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ﴾ (١١٤ : ٦) وآية : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ (١٦ : ٤٤) وآية : ﴿ أَنْتَبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ (٧ : ٢) وآية : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ

ربكم ، وأنزلنا اليكم نوراً مبيناً ﴿ (١٧٣:٤) وآية : ﴿ لقد أنزلنا اليكم كتاباً فيه ذكر لكم ﴾ (١٠:٢١) إلى غير ذلك مما لا يحصى كثرة ، ويظهر جلياً صدق هذا المعنى الذي نذهب اليه من قوله تعالى بعد آيات من قوله : « فإن كنت في شك . . » الخ ﴿ قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني ، فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ، ولكن أعبدوا الله الذين يتوفاكم ، وأمرت أن أكون من المؤمنين ﴾ (١٠٤:١٠) كذا أفاده بعض المصريين من العلماء .

دعوة النبي ﷺ للتوحيد كانت بالحجج العقلية

المادة (٣) — قام النبي ﷺ بدعوة الخلق إلى عبادة الحق ، وقرّر ان للعالم لها واحداً بريئاً من كل ما ينسبون اليه من كل مالا يليق به ، أثبت ذلك بالحجج البينات ، وأمر الناس باستعمال الفكر والعقل في كل شيء ، ونهى عن التقليد ، وحض على النظر في الموجودات .

دعاهم بالحجج العقلية ، لتوحيده تعالى ، وإلى دين « العدالة » بين الغني والفقير ثم « المساواة » في الحقوق المدنية والقضائية والسياسية والدينية ، ثم « الأخوة » بين المالك والمملوك .

تلك الأمور التي لم يهتد اليها الناس في « الغرب » إلا بعد أن وصل اليهم شعاع من نور الاسلام في « الشرق » ، فأرجع البصر إلى تاريخ أوربا قبل الإصلاح الديني بـ « لوثر » وقبل الإصلاح السياسي « بالثورة » الفرنسية ، لتعرف ما كانوا عليه ، نعم إن النبي صلوات الله عليه وسلامه أتى بجميع الأخلاق الفاضلة الممتدة ، والعبادات الصالحة والمعاملات الكاملة ، والمبادئ السليمة ، والسياسة القوية ، وغيرها مما كان السبب في إصلاح أمر الانسان ، وتحريره من العبودية ، وإيقاظ العقل من الأسر ، ورده إلى مملكته ، ليحكم فيها بالقسط ، فهض « الشرق » نهضة

سريعة عالية ، لم يهد لها مثيل في التاريخ ، ثم امتدت إلى « الغرب » .

أكثر دعاة أهل اليوم هم على غير بصيرة

المادة (٤) — النبي عليه الصلاة والسلام ، كان يدعو إلى الله على بصيرة ، وهكذا خلفاءه وعلماء السلف والأئمة المجتهدون ومسائر العلماء الصالحين ، ولكن من المؤسف ، أن أكثر دعاة أهل اليوم ، هم على غير بصيرة ، لأنهم مزجوا الدخائل بمقائد الدين ، وأدخلوا البدع والأخلاق الرديئة في العوائد الإسلامية ، وعلموا الجاهل تعاليم خادعة ، لبست الغي بالرشاد ، كما علموهم التأويلات الباطلة ، التي شبهت الحق بالباطل ، حتى صار الجبر « توحيداً » ، وإنكار الأسباب « إيماناً » وترك الأعمال المفيدة « توكلاً » ، ومعرفة الحقائق « كفراً » وإلحاداً ، وإيداء المخالف في المذهب « ديناً » والجهل بالفنون والتسليم بالخرافات « صلاحاً » . واختبال العقل وسفاهة الرأي « ولاية وعرفاناً » والذلة والمهانة « تواضعاً » ، والخنوع وقبول الضيم « رضياً وتسليماً » ، والتقليد الأعمى لكل « متقدم » علماً وإيقاناً .

دعوة النبي ﷺ وبعثه طائفاً عامين

المادة (٥) — مفعول « أدعو » محذوف إيداناً بالعموم ، أي أدعو كل الناس حملاً على الآيات الأخرى ، الدالة على عموم بعثته ﷺ ، كقوله تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ﴾ (٣٤ : ٢٨) وقوله تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين ﴾ (٢١ : ١٠٧) ، وقال تعالى : ﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم ، يتلو عليهم آياته ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين » ، وآخرين منهم لا يلحقوا بهم ، وهو العزيز الحكيم ﴾ (٦٢ : ٢) ، فقوله وآخرين الخ : معناه يعلم آخرين

غير العرب ، من جميع الأمم الأخرى ، فإنهم صاروا من العرب ، لأن بلادهم صارت بلاد العرب ، ولغتهم لغة العرب ، وكذلك دينهم وعاداتهم ، وقد اختلطوا بالعرب بالزواج وغيره ، حتى صاروا منهم في كل شيء ، ولذلك قال : (وآخرين منهم لما يلحقوا بهم) أي لم يتجنسوا بالجنسية العربية الآن ، ولم يلحقوا بهم بعد ولكنهم سيلتحقون بهم فيما بعد في كل شيء » ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ (٢١ : ٩٢) والمقصود إن بعثة النبي العظيم عامة ، وأما سائر النبيين ، فكانت رسالتهم خاصة ، يقوم دون آخرين ، ومنهم المسيح عيسى ، ولا يلتفت إلى دعوى المسيحيين ، من أن المسيح مرسل لموم الخلق ، فإن لانجمل في أيديهم ينطق بلسان المسيح بقوله : ﴿ لَمْ أَرْسَلْ إِلَّا إِلَى خِرَافٍ يَتِ إِسْرَائِيلَ الضَّالَّةِ ﴾ (مت ١٥ : ٢٤) ، وهو حصص صحيح ، ولا ينافيه قول انجيل مرقس : (واكرزوا بالانجيل للخليقة كلها) « مر ١٦ : ١٥ » لأن الام في « للخليقة » لا يصح أن تكون للاستغراق ، لأنه يدخل فيها حينئذ الحيوان الأعجم والنبات والجماد ، فيتعين أن تكون للمهد ، ولا معهود إلا خراف إسرائيل الضالة ، وبهذا يرتفع التناقض وبلتئم كلام الإنجيل مع قول القرآن الكريم : ﴿ وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ (٤٩ : ٣)

الدعوة والدعاء والادعاء والدعوى

المادة (٦) — كلمة « أدعو » من الدعوة وهي الطلب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَجَبْتِ دَعْوَتُكُمَا ﴾ (١٠ : ٨٩) ، وقوله : ﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ، وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ ، إِلَّا كِبَاسِطٍ كَفِّهِه إِلَى الْمَاءِ ، لِيَبْلُغَ فَاهُ ، وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ . وَمَا دَعَا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ (١٣ : ١٥) ، وقوله : ﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ ، إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (٣٠ : ٢٥) ، وقوله : ﴿ رَبَّنَا أَخْرِنا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَجِبْ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرُّسُلَ ﴾ (١٤ : ٤٤) وقول نوح : « اني دعوت قومي ليلا ونهاراً ، فلم يزدتهم

دُعائي إلا فراراً» (٧١ : ٥ و ٦) فكل ذلك بمعنى الطلب ، سواء أكان طلباً من العبد الى الله ، وهو مانسميه دعاء كما في الآية الأولى ، أو طلب الانسان من الأوثان ، بمعنى دعائهم أيضاً ، وهو مافي الآية الثانية ، أو طلب الله أن يخرج الميت من قبره ، وهو مافي الآية الثالثة ، أو الطلب من الانسان أن يؤمن ، كما في الايتين الرابعة والخامسة .

وأما «الإدعاء» مثل ادعى عليه كذا ، بمعنى زعم أنه له ، سواء أكان حقاً أم باطلاً ، فصدره أو الاسم منه «الدعوى» وذلك كما في ﴿فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا ، إلا أن قالوا : إنا كنا ظالمين﴾ (٧ : ٤) ، أي ما كانوا يدعونهم من دينهم ويتحلونه من مذهبهم ، إلا اعترفهم بيطلانه .

وقد يطلق لفظ «الدعوى» على «الدعوة» بمعنى الدعاء ، كما في : ﴿قالوا : يا ويلنا ، إنا كنا ظالمين ، فما زالت تلك دعواهم .. الخ﴾ (٢١ : ١٥) فذلك إشارة إلى «يا ويلنا» ، فهو دعوى ، بمعنى الدعوة ، وكما في ﴿دعواهم فيها سبحانه اللهم وبمحمد ك .. الخ﴾ (١٠ : ١٠) ، فدعواهم هنا : دعاؤهم ، لأن «اللهم» نداء لله ، ففيه أيضاً إطلاق الدعوى على الدعوة .

الدين الاسلامي قام بالحجة لا بالسيف والقوة

المادة (٧) - قوله : ﴿أدعو الله على بصيرة﴾ أي بحجة واضحة غير عمياء . لأن الرجل الثبّت ، لا يتكلم إلا بثبّت ، قال : ﴿ادعُ الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ (١٦ : ١٢٥) فالدين إنما يقوم بالحجة ، لا بالسيف والقوة ، كما قال : ﴿لا إكراه في الدين ، قد تبين الرشد من الغي﴾ (٢ : ٢٥٦) وقال : ﴿لكم دينكم ولي دين﴾ (١٠٩ : ٦) وكذلك نوح عليه السلام قال : ﴿يا قوم ، أرأيتم إن كنتم على بينة من

ربي ، وآتاني رحمة من عنده ، فَعُمِّيتَ عَلَيْكُمْ ، أَنْ لَنْزِرَ مُكُومَهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (١١ : ٢٨) ، وقال تعالى عن لسان نبيه الكريم : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ (٦ : ١٠٤) ، وقال : ﴿ فَذَكِّرْ ، إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ، لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴾ (٨٨ : ٢١ و ٢٢) الى غير ذلك من الايات الكريمة ، التي تفيد أن الإسلام إنما قام بالدعوة ، لا بالسيف والقوة .

وأما حديث : (أَمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ ، حَتَّى يَقُولُوا : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، فَإِذَا قَالُوا هَـ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ ، وَأَمْوَالَهُمْ ، إِلَّا بِحَقِّهَا) ، فإنما ورد في مشركي العرب ، الذين لم تقبل منهم الجزية بعد الإذن بقتالهم ، وما أُذِنَ للمسلمين بقتالهم إلا بعد أن آذوا النبي ومن معه ، وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم ، وقدموا لهم كل مرصد ، ووقفوا في سبيل الدعوة ، فلم يكن الإذن إلا للدفاع عن الحق وحماية الدعوة ، والغرض من الحديث ، بيان أن قول « لا إله إلا الله » ، كاف في حقن الدماء ، وإن لم يكن القائل لها من المشركين معتقداً ، لأن الأمر في ذلك يبنى على الظاهر ، ولأن القصد من الاكتفاء بالاسلام ظاهراً ، أن لا يؤذوا المسلمين ، ولا يقفوا عقبة في طريق انتشار الدين ، لأن القصد أن تكون الجزيرة « معملاً » لأنوار كبرياء الاسلام ، تمتد منها أسلاكه الى كل المعمورة ، فلا يناسب أن يكون في الجزيرة من يحول دون امتداد هذه الأنوار الى باقي الجهات ، وبما يؤيد قولنا : إن الحديث خاص بالمشركين ، وإن كان لفظه عاماً ، رواية النسائي له بلفظ (أَمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ الْمُشْرِكِينَ) ، ولأن « الناس » بحسب اصطلاح القرآن ، يقصد بها غالباً أهل الشرك ، وقد علمت أن المراد بيان غاية القتال ، لا مشروعيته ، وأن سببه الدفاع وتأمين الدعوة ، ومنع الفتنة ، لا إكراه على الدين المنفي بنص القرآن العظيم .

"الاسلام لا يضطهد الناس لعقيدتهم - وبيان حديث (من بدل دينه فاقتلوه)
(المادة ٨) - الاسلام لا يضطهد الناس لعقيدتهم ، إذا كفوا أذاهم عن المسلمين ،
وإنما تعرض لهم إذا تعرضوا لنا بالأذى ، لأن كل إنسان ، حر فيما يعتق من
الآديان ، وأما حديث « من بدل دينه فاقتلوه » فسيبه أنه كان المرتد من مشركي
العرب ، يعود بعد رده ، الى محاربة المسلمين واذاهم ، وهو مطلع على عوراتهم
وقلة عددهم وعددهم ، ويعرف مواطن ضعفهم ، فمشروعية قتله ، أظهر من
مشروعية قتال جميع المشركين ، المحادين للإسلام ، وكان بعض اليهود ، ينفر
الناس من الاسلام ، باظهار الدخول فيه ، ثم باظهار الارتداد عنه ، ليقبل قوله
بالطعن فيه كما ورد : ﴿ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ : آمَنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ
عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهِ النَّهَارِ ، وَكُفُّوا آخِرَهُ ، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (٣: ٧٢)
فاذا هدد أمثال هؤلاء بقتل من يؤمن ثم يرتد ، فانهم يرجعون عن كيدهم هذا ،
فالظاهر أن الأمر بقتل المرتد ، كان لمنع شر المشركين من العرب ، وكيد الماكرين
من اليهود ، فهو لأسباب قضت بها سياسة ذلك العصر ، وهي التي تسمى في عرف
أهل عصرنا ، سياسة عرقية عسكرية .

صنع النبي ﷺ بعض المسلمين من أكره أولادهم اليهوديين على الاسلام
(المادة ٩) - إن خير دليل على أن الاجراء الآنف الذكر لم يكن لاضطهاد
الناس في دينهم ، هو أن بعض المسلمين أرادوا أن يكرهوا أولادهم اليهوديين
- على الاسلام - فمنعهم النبي ﷺ عن ذلك بوحي من الله ، وكان ذلك عند
جلاء بني النضير ، والاسلام في أوج قوته ، وقد نزل في ذلك قوله تعالى : ﴿ لَا إِكْرَاهَ
فِي الدِّينِ ، قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ (٢: ٢٥٦) ، لأن سبب زول هذه
الآية ماروى أبو داود والنسائي وابن حبان وابن جرير عن ابن عباس قال : كانت

١٤٣٤ منع النبي ﷺ بعض المسلمين من إكراه أولادهم المتهودين على الإسلام (١٠٨).

المرأة تكون مقلدة — أي لا يعيش لها ولد — فتجعل على نفسها ؛ إن عاش لها أن تهوده ، فلها أجريت بنو النضير ، كان فيهم من أبناء الأنصار ، فقالوا : ﴿ لا تدع أبناءنا ﴾ ، فأمر الله : ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ وأخرج ابن جرير من طريق سعيد وعكرمة عن ابن عباس قال : نزلت ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ في رجل من الأنصار من بني سالم بن عوف ، يقال له « الحصين » كان له ابنان نصرانيان ، وكان هو مسلماً ، فقال للنبي ﷺ صلوات الله عليه وسلامه : ألا استكرهها ، فانهما قد آبيا إلا النصرانية ؟ ﴿ — فأمر الله الآية ، وفي بعض التفاسير ، « انه حاول إكراهها ، فاختصموا الى النبي ﷺ ، فقال يارسول الله ، أيدخل بعضي النار وأنا انظر ؟ » ولابن جرير عدة روايات في نذر النساء في الجاهلية — تهويد أولادهم ، ليعيشوا ، وأن المسلمين بعد الاسلام ، أرادوا إكراه من لهم من الأولاد الذين تدينوا بدين أهل الكتاب — على الاسلام — فنزلت الآية ، وكانت فصل ما بينهم ، وفي رواية له عن سعيد بن جبير أن النبي ﷺ صلوات الله عليه وسلامه ، قال عندما أنزلت : (قد خير الله أصحابكم ، فان اختاروكم ، فهم منكم ، وان اختاروهم ، فهم منهم) .

هذا هو حكم الدين الذي بزعم الكثيرون من أعدائه — وفيهم من يظن أنهم من أوليائه — أنه قام بالسيف والقهر ، فكان يُعرض على الناس ، والقوة عن يمينه ، فمن قبله نجاة ، ومن رفضه ، حكم السيف فيه حكمه ، هكذا قال أعداء الدين ، ومنهم البروتستانت وبعض الجبهة من أتباع الدين ، ومنهم من له عمامة بيضاء على رأسه .

وهنا نسأل فنقول : هل كان السيف بعمل عمله في إكراه الناس على الاسلام في مكة ، أيام كان السيد الأعظم ، يصلي مستخفياً ، وكان المشركون يفتنون المسلم بأنواع من التعذيب ، ولا يجدون رادعاً من المسلمين يردعهم ، حتى اضطر النبي وأصحابه الى الهجرة ؟ أم يقولون إن ذلك الاكراه وقع في المدينة ، وأكثر

أهلها أسلم طوعاً قبل أن يهاجر النبي إليها ، وقد أعز الله الاسلام بأهلها الأنصار وهذه الآية نزلت في غرة هذا الاعتزاز ، فان غزوة بني النضير ، كانت في شهر ربيع الاول من السنة الرابعة ، نقض بنو النضير عهد النبي فكادوا له ، وهموا بغتياله مرتين ، وهم بجواره في ضواحي المدينة ، فلن يكن له بد من إجلائهم عن المدينة ، فحاصروهم حتى أجلاهم ، فخرجوا مغلوبين على أمرهم ، ولم يأذن لمن استأذنه من أصحابه باكره اولادهم اليهودي — على الاسلام — ومنعهم من الخروج مع اليهود ، فذلك هو أول يوم ، خطر فيه على بال بعض المسلمين ، الاكره على الاسلام ، وهو اليوم الذي نزل فيه : ﴿ لا اكره في الدين ﴾ (كذا حرره بعض المعاصرين) .

مرتبتا الدعوة الى التوحيد

المادة (١٠) — قوله : ﴿ ادعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ﴾ ، أي ندعو الكافر الى التوحيد ، والمسلم الموحد الى فعل الخير وترك الشر ، فللدعوة مرتبتان : المرتبة الاولى — هي دعوة هذه الأمة سائر الأمم الى التوحيد والاسلام ، وان يشاركوهم فيما هم عليه من النور والهدى ، وهذا مطلوب منا بحكم جعلنا أمة وسطا وشهداء على الناس ، وبحكم كوننا خير أمة أخرجت للناس ، فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، وبحكم قوله في وصف المؤمنين : ﴿ الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ﴾ (٤١: ٢٢) ، فالواجب دعوة الناس الى الاسلام أولاً ، فان أجابوا ، فالواجب أمرهم بالمعروف ونهيمهم عن المنكر .

والمرتبة الثانية — هي دعوة المسلمين بعضهم بعضاً الى الخير ، وتأمرهم فيما بينهم بالمعروف ، وتنهايهم عن المنكر ، ولهذا المرتبة صورتان ، الصورة الاولى ،

الدعوة العامة الكلية ، واغا يقوم بها خواص الامة ، العارفون بأسرار الأحكام وحكمة الدين وفقهه ، وهم المشار اليهم بقوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا تَفَرَّرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ ﴾ ، لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ، وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ ، إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ ، لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (١٢٣:٩) ، والصورة الثانية ، الدعوة الخاصة الجزئية ، وهي ما يكون بين الأفراد بعضهم مع بعض ، ويستوى فيه العالم والجاهل ، وهو ما يكون بين المتأمرين ، من الدلالة على الخير ، والحث عليه عند عروضة ، والنهي عن الشر ، والتحذير منه ، وكل ذلك من التواصي بالحق ، والتواصي بالصبر ، وكل واحد يأخذ من الفريضة العامة بقدر .

جاء في الحديث « المؤمن مرآة المؤمن » رواه الطبراني في الأوسط ، والضياء من حديث أنس ، ورواه البخاري في الادب المفرد ، وأبو داود عن أبي هريرة بزيادة ﴿ والمؤمن أخو المؤمن ، يكف عليه ضيعته ، ويحوطه من ورائه ﴾ ، وفي الحديث : « لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، وَلَتَنْهَيْنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ ، أَوْ لَيَسْلُطَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ شُرَارَكُمْ ، فَيَدْعُو خِيَارَكُمْ ، فَلَا يَسْتَجَابُ لَهُمْ » ، وفي الحديث : « من رأى منك منكرأ ، فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن الاربعة من حديث أبي سعيد الخدري ، وقال عليه السلام : « إذا رأى الناس المنكر ، فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله يعقاب » رواه ابن أبي شيبة واحمد والترمذي وصححه .

الدعوة الى توحيد الله بالعقل والدليل

المادة (١١) — قوله : ﴿ أدعو إلى الله على بصيرة ﴾ يعني انه يدعو الى توحيد الله الذي أثبتته العقل بالدليل ، ولكنه لم يعرف كنهه ، وليس بدعو الى ما ينفية العقل ، ويجزم بعدم إمكان تحققه ، كأن يدعو الناس أن يؤمنوا بأن بعض الأنبياء إله كامل ، وإنسان كامل ، وأن الثلاثة واحد ، والواحد ثلاثة ، لأن

هذا الدعاء ، ليس على شيء من البصيرة ، يدعو الى توحيد الله الذي أثبتته النص والنقل في التوراة والزبور والأنجيل والقرآن المجيد ، وليس يدعو الى ما هو خال عن البصيرة ، مما لم يثبت نقلاً صريحاً ، كالقول بثلاثة أقاليم ، فان هذا إما هو شيء ناتج عن اجتهاد مجتهدى النصاري في المجمع النيقاوي سنة ٣٢٥ م ولا يجوز الاجتهاد مع وجود النص .

علينا أن نتأسى برسول الله في الدعوة اليوم

المادة (١٢) — قوله : ﴿ ادعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ﴾ :
ولذلك فنحن أتباعه اليوم ندعو الناس الى الله بفهم كلامه والتأسى برسوله مع البصيرة . أي الدليل والبرهان، ندعو المسلمين الى الأهداء بكتاب الله وسنة رسوله صلوات الله عليه وسلامه ، كل بقدر استطاعته ، لكن طالب الاهتداء إذا كان من العامة ، أمكنه أن يسأل العلماء عما يجهل عند الحاجة اليه ، لا عن رأيهم وفهمهم لكلام المقلدين فقط ، بل عن حكم الله ورسوله في الحادثة ، ولا يلزمه أن يبحث عن الدليل عندما يريد أن يعمل عملاً ؛ لأن الله يقول : ﴿ لا يكلفُ الله نفساً إلا ما أتاها ﴾ (٦٥ : ٧) ، ويقول : ﴿ لا تُنذِرَكم به ومن بَلَغَ ﴾ (١٩ : ٦) .

الفصل الرابع

قياس حاضر محمد ﷺ على ماضي الأنبياء

آ (١٠٩) وما أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا ، نُوحِي إِلَيْهِمْ ،
مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ، أَمْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ، فَيَنْظُرُوا كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ؟ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ
اتَّقَوْا ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ !)

افتتحت الجلسة وتليت الآية المئة وتسعة فقام الفقيه الدمشقي وقال: كان قوم نوح يقولون : ﴿ ما هذا إلا بشرٌ مثلكم ، يُريد أن يُتَفَضَّلَ عليكم ، ولو شاءَ اللهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً ، مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾ (٢٤: ٢٣) ، وكذلك عاد وثمود : ﴿ إِذْ جَاءَهُمُ الرِّسْلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ : أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ — قَالُوا : لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً ، فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ (٤١ : ١٤) ، وكذلك أهل مكة طلبوا أن يرسل إليهم مَلَكٌ ، كما قال تعالى في سورة الأسراء المكية : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا : أَبْعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ؟ ! — قُلْ : لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ ، لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴾ (١٧ : ٩٤ و ٩٥) ، وكذلك نفر من اليهود : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ، إِذْ قَالُوا : مَا نَزَّلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ ﴾ (٦ : ٩١) .

هذا ولما قال أهل مكة ما قالوه كغيرهم ، قال تعالى لنبيه ﷺ (وما

أرسلنا من قبلك (يا محمد (إلا رجالاً) لا ملائكة (نوحى اليهم من أهل القرى) وهي المدن الجامعة لزعماء الأمة ورؤسائها التي يعبر عنها اليوم «بالعوام» — وهذا من قبيل قياس الحاضر من الماضي — (أفلم يسيروا في الأرض) يعني هؤلاء المشركين المكذبين لك يا محمد (فينظروا كيف كان عاقبة) آخر أمر (الذين من قبلهم) يعني الأمم المكذبة، فيعتبروا، فانهم متى وقفوا على ذلك رأوا أن الله قد أهلك الكافرين ونجى المؤمنين، وهذه كانت سنته تعالى في خلقه ولهذا قال تعالى (ولدار الآخرة خير للذين اتقوا) الذين خافوا الله فلم يشركوا به ولم يعصوه (أفلا تعقلون؟) أي وكما نجينا المؤمنين في الدنيا، كذلك كتبنا لهم النجاة في الآخرة، وهي خير لهم من الدنيا بكثير.

(أفلم يسيروا في الأرض ... الخ)

— ١ —

وتابع الفقيه الدمشقي كلامه معلقاً على الآية بما يلي :

تطبيق القول على الواقع

التعليق الأول — سبق أن الله تعالى بما قص عليهم من سيرة يوسف واخوته — علمهم بالقول، ولما كان التعليم بالقول وحده من غير تطبيق على الواقع مما ينسب أو يقل الاعتبار به، نههم إلى النظر في الأمور الواقعة فقال: ﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾ وهذا كما قال في موضع آخر: ﴿فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ (٣ : ١٣٧) أي أن المصارعة بين الحق والباطل قد وقعت في الأمم الماضية، وكان أهل الحق يغلبون أهل الباطل، وكان ذلك يجري بأسباب مضطردة، وعلى طرائق مستقيمة، يعلم منها أن صاحب الحق إذا حافظ عليه ينصر، وأن من ينحرف

عنه يخذل ، فليسيروا في الأرض ، وليستقروا ما حلّ بالأمم ، ليحصل لهم بذلك العلم الصحيح التفصيلي ، لأن السير في الأرض ، والبحث عن أحوال الماضين ، وتعرف ما حلّ بهم ، هو الذي يوصل إلى معرفة سنن الله في خلقه ، والاعتبار بها كما ينبغي ، نعم إن النظر في التاريخ ، وسماع قصص الماضين ، يعطى الانسان من المعرفة . ما يهيئه إلى تلك السنن ، ويفيده عظة واعتباراً ، ولكن دون اعتبار الذي يسير في الأرض بنفسه ، ويرى الآثار بعينه .

الحث على السياحة المفيدة والاحسان الى السائح

التعليق الثاني — لأجل الترغيب في السير في الأرض للنظر في أحوال الأمم ، ولأجل الاعانة على السياحة ، لرؤية الآثار وسماع الأخبار ، أمر الله بالاحسان الى السائح في قوله تعالى : ﴿ وبالوالدين إحسانا ، واليتامى والمساكين ، والجار ذي القربى ، والجار الجنب ، والصاحب الجنب ، وابن السبيل ﴾ (٤ : ٣٥) ، فإن السبيل — في قول — هو السائح الرحالة ، في غرض صحيح غير محرّم ، سواء أكان دينياً أو اجتماعياً أو مياسياً ، أو علمياً أو اقتصادياً ، ففي هذه الآية بل الآيات تنبيه إلى أصل عظيم من أعظم أصول العلم التي تستفاد من السياحة ، واختبار أحوال الأمم وعواقبها ، وهذا العلم بسنن الله في شؤون البشر العامة ، هو المعبر عنه في هذا العصر « بعلم الاجتماع » .

أهل القرى وأهل البوادي والعراب

التعليق الثالث — قلنا المقصود من القرى في قوله « من أهل القرى » المدن الجامعة لزعماء الأمة ورؤسائها التي يعبر عنها اليوم بالعواصم ، وإنما كان الأنبياء يعمثون في القرى الجامعة ، لأن سائر البلاد تتبع أهلها إذا آمنوا ، فالرسل تبعث من أهل المدن والأمصار ، لأنهم أعقل من أهل البوادي ، وأرق طباعاً وألطف

عريكة ، واعلم وأعلم من أهل العمود ، بخلاف أهل البوادي ، الذين هم من أجفى الناس طبعاً وأخلاقاً ، أما أهل الريف والسواد فإنهم أقرب حالاً من الذين يسكنون في البوادي ، ، وقد وردت في أهل البوادي آيات كثيرة ، وقرأوا إن شئتم قوله تعالى : ﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ، وَأَجْدَرُ أَنْ لَا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ، وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمُ الدَّوَائِرَ ، عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ ﴾ (٩٨:٩) وقرأوا إن شئتم قوله تعالى : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا - قُلْ : لَمْ تُؤْمِنُوا ، وَلَكِنْ قُولُوا : أَسْلَمْنَا ، وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ (٤٩ : ١٤) ، وقرأوا إن شئتم قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ ، وَفَقَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٩١:٩) - الْمُعَذِّرُ مَنْ عَذَّرَ فِي الْأَمْرِ إِذَا قَصَّرَ فِيهِ وَتَوَانَى وَلَمْ يَجِدْ ، وَحَقِيقَتُهُ أَنْ يَوْمَ أَنْ لَهُ عَذْرًا فِيمَا يَفْعَلُ وَلَا عَذْرَ لَهُ - قرن هؤلاء المعذرين بالنافقين ، ووعد كلاهما بالمذاب الأليم ، وقال تعالى : ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ : شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا ، فَاسْتَغْفِرْ لَنَا ، يَقُولُونَ بِالسَّيِّئَةِ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ - قُلْ : تَمَنَّى يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ؟ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ، بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ، يَلْظَنُّنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا ، وَزَيْنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ ، وَظَنَنْتُمْ ظَنُّ السُّوءِ ، وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾ (١١٠:٤٨) .

الاستدلال بالقياس الاستقرائي على صحة الدعوة

التعلق الرابع - تقدم أنه قال : ﴿ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ،

أوتيتهم الساعة بفتنة ﴿﴾ ، فهذه دعوى صورتها: أنهم إن لم يؤمنوا صار فيهم هكذا . وههنا استدل على صحة هذه الدعوى بالقياس الاستقرائي ، ومعلوم أن القياس الاستقرائي أعلى مرتبة من جميع القياسات التي تثبت بها حقائق الأشياء ، فإذا ثبت لدينا شيء بواسطة ، لا يسمنا إنكاره ، وإذا أئمننا النظر نرى أن علم أكثر أشياء هذا العالم ، وعلم حوادث الدهور الغابرة والأزمنة الماضية — إنما حصل لدينا بواسطة الاستقراء ؛ خذ اليك مثلاً: نحن نقول الآن : إن الإنسان منذ خلق يأكل بغمه ، وينظر بعينه ، ويسمع بأذنيه ، ويشم بأنفه ، ويتكلم بلسانه ، فإذا ادعينا خلاف هذا نكون قد نفضنا أيدينا من النتائج القطعية الثابتة لدينا من الاستقراء .

الأنبياء رجال كباقي الرجال امتازوا عنهم بالوحي

التعليق الخامس — قوله : « إلا رجالاً نوحى إليهم » ، يراد بهذا الحصر الرد على مزاعم ثلاث :

فأولاً — الرد على من يزعم أنه قد تكون المرأة نبية ، كما هو مذهب اليهود والنصارى ، وشرذمة قليلة من فرق المسلمين ، وهذا الرد وإن يكن صحيحاً ، ولكنه غير مراد ههنا .

وثانياً — الرد على مشركي العرب ، إذ قالوا : ﴿ لولا أنزل عليه ملكٌ ؟ ﴾ (٨ : ٦) ، ﴿ أو جاء معه ملكٌ ﴾ (١٢ : ١١) ، ﴿ لن نؤمن لك حتى ... تأتي بالله والملائكة قبلاً ﴾ (٩٢ : ١٧) وهذا قد يكون مراداً ههنا .

وثالثاً — الرد على من يقولون إن الأنبياء هم سياسيون محضون ، استفادوا من حنكتهم وحسن سياستهم تأييد سلطتهم وتصحيح دعواهم النبوة ، وهذا ما يعتقده ويزعمه في نبينا بعض مشركي العرب ، كما يعتقده اليوم أهل أوروبا ، أي

أنهم يعتقدون أن النبي القرشي ، قام بما قام به ، بحكته وسياسته ، لا بتأييد الله تعالى له بوحيه وعنايته به ، ومثل الافرنج في هذا الرأي ، كل من لا يدين بدين الإسلام من علماء نصارى الشرق ، فدعوى أن نجاح النبي ﷺ كان بسياسته وحكته أي بتجاربه ، هي أكبر شبهتهم على الإسلام ، حتى أنهم لولاهم لكانوا مسلمين ، ومن هؤلاء الدكتور « شميل » اللبناني الشهير ، إذ يقول من أبيات يمدح بها النبي ﷺ : « رجل الحجا رجل السياسة والدِّها » ومنهم البرنس « كاتاني » الإيطالي ، فإنه ألف كتاباً في تاريخ الإسلام ، ذكر فيه أن مزية النبي (ص) هي كفاءته العجيبة كسياسي محنك ، وهو يمتد أن ماتم على يديه ، إنما كان بالدِّهاء والسياسة وسمو الأفكار وعلو الأخلاق الذي يكون عادة لكثير من الرجال ، « كسبارك » و « نابليون الأول » وإن مادعاه من النبوة ، وما جاء به القرآن ، لا تأثير لها في نفسها ، وإنما التأثير له هو بنفسه وبها ، لأنه استخدمها في تأثير سياسته .

هذا ملخص ما كان يعتقد به بعض مشركي العرب ، ثم صار أهالي أوروبا يعتقدونه ويقررونه ويشرحونه بيسط ، فالله تعالى يرد عليهم ، بهذه الآية وأمثالها فيقول : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي اليهم ﴾ ، أي ما كان الرسل إلا رجالاً عاديين ، إنما امتازوا عن باقي الرجال وتأيدوا بالوحي السماوي .

نعم الله أعلم حيث يجعل رسالته ، فلا بد أن يكون الرسل من ذوي الفصاحة وقوة الحججة والعارضة ، ومن أهل الفطنة والدِّكاء ، ولكن مجرد هذا لا يعطوهم عن أمثالهم من الرجال الفصحاء الفطناء الأذكياء ، أقوىاء الحججة شديدي العارضة وإنما الذي بهم عن الرجال ، ويميزهم عنهم ، هو الوحي والتأييد الإلهي السماوي ، فهذه هي الخاصة التي تعلوهم إلى الثريا ، ويمتازون بها عن كل من عداهم ، من فصحاء وأذكياء كل الرجال .

وعليه فيكون معنى الآية حيثئذ وما أرسلنا من قبلك رجلاً، يكون جل أو كل اعتمادهم ونجاحهم ، على أخلاقهم ومزايهم الشخصية ، أو على حسن سياستهم وحضكتهم ودهائهم ، . . . كلا . . . فإن هذا وحده لا يفيد ، ولكن إننا أرسلنا رجالاً جل اعتمادهم أو كله على الوحي ، الذي نسد به خطاهم ، وبه يرشدهم ونثقفهم ونؤدبهم ، وبه ننصرهم ونعضدهم ونؤيدهم ، فالخاصة التي يمتازون بها غن باقي الرجال العقلاء الفطناء ، ويملون بها على الفصحاء والبلغاء ، ويتشرفون بها فوق كل السياسيين والمحنكين والحكماء ، هي الوحي ، كالقرآن مثلاً ، فالقرآن هو السبب في نجاح النبي المختار ، وفي هداية المسلمين .

تطمين محمد ﷺ بالنصر

آ (١١٠) * ... حتى إذا استيأس الرُّسُلُ ، وظنوا أنهم قد كذبوا ، جاءهم نصرُنا ، فنجي من نشاء ، ولا يُردُّ بأسنا عن القومِ الجرمين . *

افتتحت الجلسة وتليت الآية المئة وعشرة ، فقام الاستاذ الخوارزمي (١) وقال :

« حتى » هذه متعلقة بمحذوف دل عليه الكلام « فكأنه قيل : « وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً فترأى نصرهم (حتى إذا) حمي الوطيس ، وقامت الحرب على ساق و (استيأس الرسل) وقنطوا من نصرهم العاجل في الدنيا ، فهماً منهم أنهم سوف ينصرون في الآخرة (وظنوا أنهم قد كذبوا) — فيه قراءتان ، فإن قريء بالتخفيف على البناء للجهول بمعناه : ظنوا أنهم كذبهم أنفسهم حين حدثهم

(١) نسبة الى بلدة خوارزم في تركستان .

آ (١١٠) الله سبحانه وتعالى يطمئن محمداً ﷺ بأنه ناصره في دعوته ١٤٤٥

بأنهم يتصرون ، أو ظنوا أنهم قد كذبهم رجاؤهم ، وهذا نظير قوله : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم : مستتهم البأساء والضراء وزلزلوا ، حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه : متى نصر الله ؟ ألا إن نصر الله قريب ﴾ (٢١٤:٢) .

وإن قريء بالتشديد على البناء للمجهول أيضاً فمعناه : ظنوا أن من آمن بهم من قومهم قد كذبوهم وارتدوا عن دينهم لشدة الحنة والبلاء عليهم واستبطاء النصر - وعند ذلك (جاءهم) أي الرسل (نصرنا) فجأة ، من غير احتساب (فنجي من نشاء) عند نزول العذاب ، وهم المؤمنون المطيعون ، لأنهم الذين يستأهلون نجاتهم (ولا يرد بأسنا) عذابنا في تلك المعركة (عن القوم الجرمين) مها أعدوا لها العدة ، بل يحيط بهم من كل جانب .

(حتى إذا استيأس الرسل ، وظنوا .. الخ)

وقال الشيخ عبد الرحمن رياض الحيدري آبادي : عندي على هذه الآية التحقيقان التاليان :

الله سبحانه وتعالى يطمئن محمداً ﷺ بأنه ناصره في دعوته

التحقيق الاول - لقد كان النبي ﷺ يحزن ويضيق صدره لما يكذبه قومه ، والحق بسطع نوره ، وهم يعمون عنه ، حتى قال الله له : ﴿ فليعلمك تاركك ﴾ بعض ما يوحى اليك وضائق به صدرك ، أن يقولوا : لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك ، إنما أنت نذير ، والله على كل شيء وكيل ﴾ (١١ : ١٢) وقال له : ﴿ قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون ، فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ، ولقد كذبت رسل من قبلك ، فصبروا على ما كذبوا وأوذوا ، حتى آتاهم نصرنا ، ولا مبدل لكلمات الله

ولقد جاءك من نبي المرسلين، وإن كان كبر عليك إعراضهم، فإن استطعت أن تبني نفقاً في الأرض، أو سلماً في السماء، فتأتيهم بآية... ولو شاء الله لجمعهم على الهدى، فلا تكونن من الجاهلين ﴿٦: ٣٣-٣٥﴾ وقال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ، وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾ ﴿١١٠: ١-٣﴾ وجاء في غير ذلك من آيات الكتاب، ما يدل على النبي ﷺ كان يضجر ويقلق من استبطاء نصر الله للحق، الذي بعث به نبيه، بل فيه شيء من السهو عن عدالله بتأييد دينه، وليس ذلك من النقص الذي يعاب به الأنبياء، فإن كل مخلوق لا يعلم من غيب الله ما يعلم الله، لا بد أن يسه هذا الضجر، ويصيه هذا القلق، وتأخذه الشدة بهذا النسيان، حتى يكون الكمال لله وحده، ولكن الله جل شأنه يعده على أقرب المقرين إليه، كما قالوا: (حسنات الأبرار سيئات المقربين).

تخريج كلمة « كذبوا » بتشديد الذال وتخفيفها

التحقيق الثاني — الأظهر المنطبق على قواعد المعائد، أن المراد باستيأس الرسل يأسهم من إيمان قومهم، وفي قوله تعالى (كذبوا) بضم الكاف، قراءتان سببيتان أحدهما بتشديد ذال (كذبوا) ولا إشكال فيها، غير أن الظن فيها بمعنى اليقين لأنه قد يستعمل في الفصح بهذا المعنى وبمعنى الوهم، وبمعنى حديث النفس، والقرائن هي التي تعين المعنى المراد، والقراءة الثانية بتخفيف ذال (كذبوا)، وفي تطبيق القواعد عليها وجهان: أحدهما أن الضمير في (ظنوا) لأقوام الرسل: أي ظن الأقوام أنهم كذبوا فيما أوعدوا به من وقوع العذاب عليهم، وثانيهما أن الضمير للرسل، و(كذبوا) ههنا، معناه: كذبهم أنفسهم فيما تمنوا وأملوا في قومهم، أي خابت آمالهم فيهم، من كذبه نفسه. إذا منته الأمانى وخيلت إليه من الآمال مالا يكاد يكون، قال في الأساس: (وكذب نفسه، وكذبته نفسه).

إذا حدثته بالأماني البعيدة والأمور التي لا يبلغها وسمه ومقدرته) ، والمعنى حتى إذا يش الرسل من إيمان قومهم وظنوا : أي يفتوا أن إيمانهم في إيمانهم وآمالهم في قبولهم الدعوة ضائعة ، جاءهم نصرنا ، وورد أن عائشة (رض) كانت تنكر قراءة التخفيف ، كما في صحيح البخاري من طريق عروة بن الزبير ، وقد علمت أن العلماء خرجوا هذه القراءة على معنى مستقيم والله تعالى أعلم .

هذه كلمتي القيتها على أسماعكم الشريفة ، وما أشبهني بمن قيل فيه :
فأنك واستبضاعك الشعر نحونا كمستبضع تمراً إلى أهل خيرا
فأنني أيها السادة أجنبي عن لغتكم ، وأنتم الأصل والأهل .
(مرحي مرحي ولا فض فوك) .

الفصل الخامس والآخر

العبرة من قصص الرسل مع اقوامهم

آ (١١١) (لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ، ما كان حديثاً يفترى ، ولكن تصديق الذي بين يديه ، وتفصيل كل شيء ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون)

افتتحت الجلسة ، وتليت الآية المئة وأحدى عشرة ، وهي الآية الأخيرة في السورة ، فقام الفهامة الشيخ أحمد من علماء «عليكرة» في الهند وقال : يقول الله تعالى : بذاتي خلقت (لقد كان في قصصهم) أي في خبر المرسلين مع قومهم وذويهم ، وكيف نبينا المؤمنين وأهلكنا الكافرين ، وكيف نصرنا .

المظلومين على الظالمين (عبرة لأولي الألباب) وعظة لذوي العقول، فإن تاريخ الرسل حافل بالمواعظ والذكريات (ما كان) القرآن المجيد (حديثاً يفترى) يكذب ويختلق من دون الله (ولكن) كان (تصديق الذي بين يديه) أي قبله من الكتب السماوية ، كصحف ابراهيم والتوراة والانجيل والزبور ، فهو يصدق ما فيها من الصحيح ، وبنفي ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير وزيادة ، وبشير لما وقع فيها من نقصان ، وبحكم عليها بالتقرير لأكثرها ، والنسخ لبعضها (وتفصيل كل شيء) من تحليل وتحريم ، ومحجوب ومكروه ، وغير ذلك من الأمر بالطاعات والواجبات والمستحبات ، والنهي عن المحرمات وما شاكلها من المكروهات والأخبار عن الأمور الجلية ، وعن الغيوب المستقبلية ، المجملية والتفصيلية ، والأخبار عن الرب تبارك وتعالى بالأسماء والصفات ، وتزهرته عن مماثلة الخلوقات ، فهذا كان (هدى - ورحة) وبياناً ونعمة (لقوم يؤمنون) تهتدي قلوبهم من الغي الى الرشاد ومن الضلال الى السداد .

(لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب)

—١—

وقال السيد نور الدين من علماء سنغافورة ^(١) ههنا مواد جميلة المسالك على هذه الفقرة من الآية الكريمة جمعناها من هنا وهناك وهنالك واليك بيانها:

محمد ﷺ مؤسس امة وامبراطورية وديانة

المادة (١) — قال « بوسورت سميث » في كتابه « حياة محمد » « من حسن الحظ في التاريخ دون غيره أن « محمداً » أسس في وقت واحد ، ثلاثة أشياء من عظام الأمور ، وجيل الأعمال ، فانه مؤسس لأمة ، وامبراطورية ، وديانة ، مع أنه أُمِّيَّ

(١) نسبة الى بلدة سنغافورة في شبه جزيرة مالاقا جنوب الهند الصينية

وما كان يقدر أن يقرأ أو يكتب ، ومع ذلك أتى بكتاب هو آية في البلاغة ، ودستور للشرائع وللصلاة وللدين في آن واحد ، وقال الدكتور « موريس » الفرنسي « إن القرآن أفضل كتاب أخرجه يد العناية الأزلية لبني البشر ».

الغاية من قصص القرآن

المادة (٢) — قص علينا القرآن أحسن القصص ، ليكون عبرة وذكرى وشفاء للقلوب من أمراض الجاهلة ، وارشاداً لتقويم شؤون البشر ، وتهذيب نفوسهم ، واصلاح معاشهم ومعادهم ، وليس الغرض من تلك الأفاضيص ، سرد تواريخ الماضين ، وذكر شؤونهم وأطوارهم ، ولكنها للظة والاعتبار ، ولهذا لا يبالى فيها بالتكرار ، ولا يستعجن معها الاطناب بعد الايجاز ، أو الايجاز بعد الاطناب ، ولا أن تسرد غير مراعى فيها تعاقب الوقائع ، ولا ترتيب الحوادث ، فالقرآن يذكر القصة في مواطنها ، بأساليب متغيرة ، أو صور متقاربة . ولكل منها مغزى لا يؤديه غيره ، ومرمى لا يصيبه سواه ، وإلى هذا يشير قوله تعالى هنا : ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولئك الذين لا يسمعون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وكلاً قصصاً عليكم من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكري للمؤمنين ﴾ (١١:١٢٠) .

هذا ولم تتكرر قصة يوسف لأنها قصة محزنة مؤسفة ، ولأن فيها من ذكر ما يتعلق بالعرض والناموس ما لا يتفق مع التكرار .

الغاية من ذكر الانبياء وقصصهم في القرآن

المادة (٣) — ورد قوله تعالى بعد ذكر ثمانية عشر نبياً : ﴿ أولئك الذين هدى الله ، فبهداهم اقتده ﴾ (٦:٩١) فالغرض من ذكر الانبياء وحوادثهم القدوة بهم في التبليغ واقامة الحجة والصبر على التكذيب مثلاً ، والصبر على إبداء

أهل العناد ، والآقارب والأباعد ، واعطاء كل حال حقها ، من مكارم الأخلاق ، وأحسن الأعمال ، والفائدة موجودة دائماً في كل قصص ، حتى في قصص يوسف مع امرأة العزيز وسيرة عشقها له ، ومراودتها إياه ، ثم في سيرة عشق النسوة المصريات لجمالها ، فإن ذلك كله قد اقترن بما يدفع الانسان عن التدهور في مثل هذه الوهيدات التي تنزل بالنساء الى الخضيض الأسفل ، وقد قال تعالى : ﴿ وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ - إِلَى أَنْ قَالَ - وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً ﴾ (١٧ : ٨٢) وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ ، فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ : أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا ؟ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ ، وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ (٩ : ١٢٥ و ١٢٦) فكل أحد يرغب في سماع هذه القصة ، لتحريك الحبة المذمومة ، أو برعب عن سماعها ، دفعاً لهذه المحبة ، فهو مذموم ، وانما الممدوح من يجب سماع تلك السيرة لما حوته من العبر والذكر ، وما يستفاد من عواقب العشق السيئة ، وكذا كل من أحب أن يسمع هذه السورة لتعلم ضروب الحيل ، فهو مذموم ، ولكن الممدوح من يتدبر بعض هذه الحيل بما اشتملت عليه من النتائج السيئة ، والبعض الآخر بما شمله من العواقب الحسنة ، وهكذا كل من لذَّ له أن يسمع ما انطوت عليه من إالحسد والعقوق وقطع الرحم والمختل والكذب والقساوة وخلف الوعد فهو مذموم ، وانما المشكور من قرأ ذلك وعلم ما فيه من نتائج السيئة وعواقبه المكروهة ، ثم التوبة منه الى الله وإلى الناس الممكور بهم .

وليس ما ذكر خاصاً بسورة يوسف ؛ فقد ذكر الله تعالى في غير هذه السورة أحوال الكفار والفجار واللوطية والفراعنة والظلمة ، ثم الشرك بأنواعه ، والكفر بأسبابه ، وسائر ضروب الفسق ، والحسد وقطع الرحم والعقوق والكذب والاحتيال ونقض العهود وخلف الوعود ، الى غير ذلك مما فيه ذكر معاصي الله.

والصد عن سبيله ، فهذا الباب تجتمع فيه الشبهات والشهوات والكفرات وأنواع الفسوق ، وكله مذكور في كتاب الله تعالى ، ولكن ذكره مخوف بالنبه والترهيب ويبان سوء المنبة ، وقبح السمعة في الدنيا ، والعذاب في الآخرة .

ليس في القرآن تاريخ بل عبر وعظات

المادة (٤) — القرآن ليس بتاريخ ، كما هو الشأن في سفر التكوين ، وأسفار يشوع والقضاة وراعوث وصموئيل والملوك والأيام وعزرا والخب والخب فإن هذه الأفاصيص ، هي تاريخ محض جاف خال عن العبرة .

القرآن لا ينشر إلا التقوى والفضيلة بين الناس ، ولذلك نص نصاً صريحاً ببراءة الأنبياء الكرام ، الذين رماهم « أهل الكتاب » بالكبائر . راجع القرآن وقوله : ﴿ وما كفر سليمان ﴾ . ولكن الشياطين كفروا ﴿ (١٠٢ : ٣) ﴾ وهو رد على توراة اليهود التي تنسب لسليمان — حاشاه — عبادة غير الله .

راجع القرآن وقوله : ﴿ قالوا : ما أخلفنا موْعِدَكَ بِلْعَنِنَا ، ولكننا حَمَلْنَا أَوْزَاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ، فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جِشْداً لَهُ خَوَارٌ — فقالوا : « هذا الهك وإله موسى فنسي » أفلا يرون أن لا يرجع إليهم قولاً ، ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً ؟ ولقد قال لهم هرون من قبل : « يا قوم إنما فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ ، فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي » .. قالوا : لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى » ... قال : ياهرون ما مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ ؟ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ؟ .. قال : « يا ابنِ أُمِّ لا تأخذ بِلِحْيَتِي ولا بِرَأْسِي ، إني خشيت أن تقول : « فرقت بين بني اسرائيل ، ولم ترقب قولي » — قال : « فما خطبك يا سامري ؟ » — قال : « بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ، فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ ، فَنَبَذْتُهَا ، وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي » — قال : « فاذهب »

فإن لك في الحياة أن تقول: «لامساس»^(١) وإن لك موعداً لن تخلقه، وانظر إلى الهيك الذي ظلت عليه عاكفاً لنحرقته ثم لننسفته في اليمر نسفاً (٢٠ : ٨٧ - ٩٧) فهذا فيه رد على اليهود والنصارى الذين يقولون إن هرون هو الذي صنع لهم العجل الذهبي (خر ٣٢ : ١ - ٦) .

القرآن لم يذكر من تاريخ الأنبياء ونحوهم إلا ما فيه عبرة ، وما به تغذية النفوس بالصلاح والاستقامة وتحصين الاخلاق والآداب — بسياج الفضيلة ، ولكن كتب اليهود والنصارى تقول ما فيه افساد للأخلاق وتعليم للرديلة ، اقرأ ماجاء في (تك ٩ : ٢٠ - ٢٧) عن ترجمة حياة نوح ، وما جاء في (تك ٢٧ : ٢٥) عن سكر الانبياء ، وما جاء في (خر ٢٩ : ٤٠) و (لا ٢٣ : ١٣) عن إيجاب تقريب الحجرة للرب ، وما جاء في (صم ٦ : ١٩) عن سقى داود الحجرة لمن أصعد تابوت الرب إلى مدينة داود وما جاء في (يو ٢ : ٧ - ١٠) عن تحويل المسيح الماء خمرأً وتقديمها للضيوف وما جاء في (مت ٢٦ : ٢٧) عن شرب المسيح الحجرة وأمره تلاميذه أن يشربوا منها ، وما جاء في (تك ١٩ : ٣٠ - ٢٨) عما فعله لوط مع ابنتيه ،

(١) المراد من قوله «لامساس» أنه كان في شريعة موسى عليه السلام ان الذي يرتكب خطيئة كبيرة ، يعد كأن به داء معدى ، فينفصل عن سائر الشعب ، خارج المحلة ، باعتبار أنه نجس . وكان عندهم يجب عليه أن يعلن مرضه ذلك ، بلبابه واشارته وكلماته ، وذلك بأن تثق ثيابه ، ويكشف رأسه ، ويغطي شاربيه ، ويتردد من المحلة أو المدينة الى الخارج ، ويلزم أن يصرخ متى رأى أحداً مقرباً اليه ، فيقول : لامساس لامساس ، أو يقول : نجس نجس ، ويبقى على هذا الحال الى أن ينام عليه ، فيرجع ويختلط بالناس ، ويختلط بالناس به ، ويعاشرهم ويعاشره ، وهذا قريب من «الهجر» المفروع في الاسلام ، لمرتكي الكبائر ، كما في قصة «كعب بن مالك» و «زرارة بن الربيع» و «هلال بن أمية» المشار اليهم في قوله تعالى : [وعلى الثلاثة الذين خلفوا ، حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاعت عليهم أنفسهم ، وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا اليه ، ثم قاب عليهم ليتوبوا ، ان الله هو التواب الرحيم] (٩ : ١٩) . هـ .

فأي عبرة في سرد ذلك للقارئین ؟ وما هو منفعته للسامعين ؟ بل ماهي الحكمة وما هي العبرة في ذكر جريمة لوط — حاشاه من ذلك — التي أتت في كتبهم كأنها أمر عادي ، وكأن لوطاً لم يرتكب منكراً ، حتى لم يذكر أن الله وبخه أو عاقبه على ذلك ، أو أنه تاب من ذنبه ، بل العجيب أن الكتاب المقدس ، سماه باراً تقياً (٢ بط ٢ : ٧ - ٩) ، فأی عبارة أتى بها الكاتب لبيان شناعة هذا العمل الفظيع ، واستقبحه له ، أو وجوب التوبة منه ؟ وقد قالوا إن الحكمة في ذكر هذه القصة وأمثالها هي إظهار درجة قبح شرب الخمر ، وبيان ما تؤدي اليه !!! ونحن نقول إنما افتخر اليهود هذه القصص تبريراً لشرورهم الكثيرة ، وعصيانهم لله مرات عديدة ، واعتذاراً بها عن جرائمهم وآثامهم المتكررة المستمرة إلى اليوم .

القرآن لا يذكر من تاريخ داود ، إلا ما فيه عظة وعبرة لأولي الألباب ، ولكن سيرة داود عند اليهود والنصارى ، معروفة مشهورة ، وقساوته وظلمه ، لا مثيل لهما — حاشاه — ، اقرأ ما جاء في (٢ صم ١٢ : ٣١) و (١ أي ٢٠ : ٣) عن نشره أسرى بني عمون بالناشير وفوارج الحديد والفؤوس ، وما جاء في (١ مل ١٥ : ٥) عن تعريضه أوريا الحثي وزناه زوجته ، وما جاء في (١ صم ٢١ : ٢) من كذبه وتعليمه الكذب ، وما جاء في (١ صم ١٨ : ٢٥ و ٢٧) من قتله ٢٠٠ من الفلسطينيين ليتزوج ابنة شاول ، وما جاء في (١ مل ٢ : ٨ و ٩) من وصيته لابنه سليمان وهو محتضر بقتل رجل ، وما جاء في (٢ صم ١٣ : ١ - ١٤) من حزنه على ابنه « أمنون » حينما قتل ، مع أنه فسق باخته بعد أن خدعها خدعة دنيئة ، وما جاء في (٢ صم ١٤ : ٢٤ و ٢٨) من أن داود حقد على ابنه أبشالوم الذي قتل أخاه « أمنون » انتقاماً لاختها ؛ وداود هذا ، هو الرجل الذي نصت كتبهم على أنه كان باراً ، وإن جميع أفعاله مرضية عند الله تعالى ، وكلها مستقيمة ، في عيني الرب ، وطبق وصاياه ، (١ مل ١٥ : ٥) .

قصص القرآن يعلم التوحيد والعلم والاخلاق

المادة (٥) — لازى قصه من قصص القرآن ، إلا وفيها توحيد وعلم ومكارم أخلاق وحجج عقلية ، ومحاورات جميلة تلذ العقلاء ، وإرشاد ونصح ، وتبصرة وتذكرة ، ونزى القرآن يعرض عن كثير من الوقائع التاريخية التي لازوم لها ، ولا معول عليها ، وبالأولى تراه يعرض عما ذكرته توراة اليهود ، التي بين أيديهم ، من الحوادث المخجلة السائئة ، التي نوهنا بالشيء الكثير عنها .

لوفائدة من درسى التاريخ ان عدل به عن العبرة

المادة (٦) — درس التاريخ أن عدل به عن العبرة ، كان شغلا بلا فائدة ، وضياح وقت وحياء بلا ثمرة ، و « العبرة » مشتق من عبور البحر ، فينقل قاريء التاريخ حال غيره على نفسه ، ويعبر به على سفن الألفاظ إلى الحقائق الراهنة المنوطة بشخصه ، أو بأسرته أو بأمتة ووطنه ، وبدننه ودنياء ، وهو ما أريد به من قصص القرآن التاريخية ، قال تعالى : ﴿ ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت ﴾ (٣٧ : ٣) وقال : ﴿ كذلك قال الذين من قبلهم من قلوبهم تشابهت قلوبهم ﴾ (١١٨ : ٢) ، ويقول سليمان عليه السلام : ﴿ فليس تحت الشمس من جديد ﴾ (جا ١ : ٩) ، ويقول العلماء : « التاريخ يعيد نفسه » ، وقد غفل الناس عن تلك العبرة ، جهالة بالقصد ، ورمياً للفحوى ، ورضى بالقشور ، وابتعاداً عن أسرار البلاغة : جاء الخطاب بلسان العرب ، وهم يعلمون ضرب الأمثال والمواعظ ، وليس كل مثل مورد ومضرب ، وقد علموا موارد ومضاربها ومغازيها ومراميها ، فمن أجهل ممن حمد على الألفاظ دون معناها ، أو المعاني دون مغزاها ، وترى كثيراً من الأدباء إذا أزمع هداية إنسان ، ذكر له قصصاً تشبه حاله ، فيردعه عن غبه ، فتكون أشد تأثيراً من وقع الحسام ، وتثير في القلب حمية

وإقداماً ، أو خيفة وإحجاماً أو صلاحاً واستقامة ، فيزول المرء ، ويرتفع الغطاء .
فان المثل في مغزاه ، كالسهم في مرماه .

قصة يوسف تسوق المتعظ بها الى السعادة

المادة (٧) — إن جمال قصة يوسف ، سائق لما به السعادة ، وهو حفظ الأخلاق ودوام الثقة بالله تعالى ، وانتظار الفرج منه ، فإذا قرأ القاريء ، أن يوسف كان عفيفاً ، حين راودته زليخا لكي يخالطها ، تشوق القاريء الذكي التي أن يكون كيوسف ، عفة وأمانة ، وكذلك يقلده في العفو عن ظلمه ، وسماح من تعدى عليه ، بل في نفعه وتشريفه ، ويقول في نفسه : إن هذه الأخلاق اليوسفية ، كانت عاقبتها النبوة والملك ، فهكذا من قلده في أخلاقه ، تكون عاقبته الولاية والرفعة .

ليس المقصود من قصة يوسف ، أن نلوم إخوة يوسف على حسدهم له ، ولكن المقصود أن نلوم أنفسنا عندما يحصل منا حسد لأخوتنا ، وليس الغرض أن نتكدر منهم حينما احتالوا على أبيهم وغدروا بأخيه ، ولكن الغرض أن نتكدر من أنفسنا عندما نجري الحيل على بعضنا ، ويغدر بعضنا ببعض ، وليس المطلوب أن نمترض على أخوة يوسف وقبأ زاهم قد قطعوا الرحم ، وقذفوا بأخيه في غيابة الحب ، وإنما المطلوب أن نمترض على أنفسنا وقتما تحصل منا أعمال شاذة وحشية كهذه مع ذوي رحمتنا وأقاربنا .

كما أنه ليس بالأخبار بلقيا يعقوب لولده يوسف ولم شمله به ، واجتماع الأسرة الاسرائيلية جميعاً ، في صعيد واحد ، مطمئنين مسرورين ، وإنما المراد أن نفرح بلم شملنا نحن المسلمين ، وجمع كلمتنا واتحادنا واجتماعنا جميعاً ، تحت راية واحدة ، وتحت إمام واحد .

ان اكرمكم عند الله اتقاكم

المادة (٨) — لقد كان في قصص يعقوب وأولاده عبرة، فليعتبر بذلك هؤلاء الناس، الذين اقتصروا على معرفة الفروع الفقهية، وظنوا أن الحلال والحرام، كافيان في الإسلام، وكم تركوا العظلة بآيات كثيرة، بحجة أنها نزلت في الكفار أو المنافقين، فلا لزوم للتأمل فيها والاتعاظ بجرامها.

ليقبسوا حالمهم على حالمهم، وليقبس كل من كان اليوم من ذرية النبي ﷺ أو غيره من الصحابة، كأبي بكر أو عمر (رض) — نفسه على أولاد يعقوب، ويعلم أن كل من كان من السلالة الحمدية أو البكرية أو العمرية مثلاً، فهو بين شيئين؛ إن كان من الصالحين المتقين، كان على قدم يوسف عليه السلام، وإن كان من المذنبين، احتاج للتوبة وكان على قدم اخوة يوسف رحمهم الله تعالى، فيوسف واخوته كلهم من سلالة بيت نبوة؛ لكن يوسف إنما انتفع باستقامته وتقواه، كما أن اخوته إما انتفعوا بتوبتهم إلى الله، فهكذا كل من كان اليوم من سلالة الحسين أو الحسن أو أبي بكر أو عمر (رض) أو نحو ذلك، لا ينفعهم عند الله العمل الصالح والتقوى، والسيرة الحسنة، قال تعالى: ﴿وَقُلْ اَعْمَلُوا، فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ، وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١٠٦:٩) وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (١٣:٤٩)، وقد قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ احْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَحْمَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، سَوَاءٌ مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ؟ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ!﴾ (٤٥: ٢٠)، وهذا استفهام إنكاري، يقتضي الإنكار على من يحسب ذلك ويطهه، وإعماؤنا على من حسب وظن الخطأ صواباً، والباطل صحيحاً.

فلم أن التسوية بين أهل الطاعة وأهل المعصية ، مما يعلم بطلانه ، وأن ذلك من أظلم الشيء الذي ينزه الله عنه ، ومثله قوله تعالى : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ ؟ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَارِ ۚ ﴾ (٢٨ : ٣٨) وقوله تعالى : ﴿ أَوْ نَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ، مَا لَكُمْ ؟ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ؟ ﴾ (٦٨ : ٣٥) وبالأجمال ، فالتسوية بين الأبرار والفجار ، والمحسنين والظالمين ، وأهل الطاعة وأهل المعصية — حكم باطل يجب تنزيه الله عنه ، فإنه ينافي عدله وحكمته ، وهو سبحانه كما ينكر التسوية بين المختلفين ، فهو يسوي بين المتماثلين كقوله تعالى : ﴿ أَكُفِّرُكُمْ حَيْرٍ مِنْ أَوْلَئِكَ ؟ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ؟ ﴾ (٥٤ : ٤٣) وقوله : ﴿ كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ (١١ : ٣) ، فالشريف الهاشمي النقي الصالح ، هو كيوسف ، والشريف الهاشمي الذي خرج عن الحد ، ثم ناب وأبأ إلى الله وحسنت حاله ، هو كأخوة يوسف .

(الله أكبر الله أكبر)

(ما كان حديثاً يفترى)

— ١ —

وتابع السيد نور الدين السنغاوري كلامه فقال :

ليس القرآن مخترعاً ولا مفترى وليس فيه خرافات وأساطير

المراد من قوله ﴿ ما كان حديثاً يفترى ﴾ : أن قصص القرآن ، ليس مخترعاً ولا مفترى بدليل وجود أمثله بين الناس قبل نزوله ، فهو وأن اختلف قليلاً في بعض التفاصيل أو الحريثات — عما يرويه الناس ، إلا أنه موافق في الجملة والجوهر . فلا تظنوا أنها المشركون ، أن النبي اخترعه بمقله ، بل أسألوا عنه .

أهل الكتاب ، تعبدوا أنه معروف بينهم ، ومروي في كتبهم ، فوجود قصص القرآن عند أهل الكتاب من قبل ، لا يضعف حجته ، كما يتوهم « المبشرون » بل هو من أعظم ما يصدقه ويؤيده ، ولذلك ترى القرآن نفسه ، يستدل بذلك على كونه من عند الله ، لأن النبي لم يطلع على كتب أهل الكتاب . ولا يستنتج « القاري » من هذه الآية ، أن قصص القرآن ، يجب أن لا يختلف عن قصص التوراة والانجيل في شيء ما . . . كلا . . . إذ لو كان هذا الاستنتاج صحيحاً ، لما قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ بَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (٧٦: ٢٧) ، فقصصه قد يختلف عما عندهم ، فيبين لهم حقه من باطله ، فلا منافاة بين تصديق القرآن لقصصهم في الجملة ، وبين مخالفته لها في بعض الجزئيات ، كما قلنا .

ويقال أيضاً « ما كان حديثاً يفترى » من قبيل الخرافات والأساطير التي في أسفار الغير ، ولكنه كان بالعكس هادماً لتلك الخرافات والأساطير ، التي خلقتها تلك العصور اليهودية ، والعصور الستة قبله ، وكان مصداقاً لما تقدمه من الكتب خلا ما زيد فيها أو حذف منها ، أو سد بسبب الترجمة السيئة ، وكذلك خلا الكتب « الأبوكريفة » — أي التي ليست قانونية — الموجودة في الترجمة السبعينية ، التي قبلتها الكنيسة البابوية بين الكتب الملزمة .

(ولكن تصديق الذي بين يديه)

— ١ —

وقال المدقق اللدي :

ليسمح لي السادة أن أعلق على هذه الفقرة من الآية الكريمة بالتعليقات التالية :

القرآن مصدق لما قبله من أمور التوحيد

أولاً — القرآن مصدق لما قبله في تقرير التوحيد الخاص واتقاء الشرك ،

صغيرة وكبيرة ، واثبات النبوات والرسالات ، وما يغذي ذلك الإيمان ويقويه ، ومن ترك الفواحش والمنكرات ، وعمل الصالحات .

القرآن مصدق لما قبله من اصول الدين

ثانياً — القرآن مصدق لأصول الدين وأركانه ، التي هي المقصد من ارسال جميع الرسل ، لا يختلفون فيها ، وإنما يختلفون في طرق حمل الناس عليها ، وهدايتهم بها ، وترقيتهم في معارجها ، بحسب سنة الله في ارتقاء البشر بالتدريج ، جيلاً بعد جيل ، وقرناً بعد قرن ، خذ اليك مثلاً على ذلك : المقصد من جميع الحكومات هو العدل ، وإنما تختلف الدول في القوانين المقررة له ، باختلاف أحوال الأمم ، فليس من العقل ولا الصواب أن تنكر الأمة تغيير حاكم جديد ، ما كان عليه من قبله ، إذا كان يوافق في جعله مقررراً للعدل ، مقيماً ليزانه بين الناس ، كما كان أو أكمل ، وهو في هذه الحال يسمى مصدقاً لما بين يديه لا مكذباً ولا مخالفاً ، فالقرآن قرر نبوة ابراهيم وموسى وداود وعيسى ونحوهم ، وصدقهم فيما جاءوا به عن الله تعالى ، ووبخ الأقوام المدعين اتباعهم ، على إضافتهم لبعض ما جاءوا به ، وتحريفهم لبعض ، وزيادتهم في بعض المواضع ، وعلى عدم الاهتداء والعمل بما هو محفوظ عندهم ، حتى أن أكثرهم هدموا الأساس الأعظم للدين ، وهو التوحيد ، فثلثوا واتخذوا أجبارهم ورهبانهم آرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً ، فتصدق القرآن لما بين يديه ، لا ينافي ماناه عليهم من الاضافة والنسيان والتحريف والتأويل المغلط .

القرآن مصدق لما قبله من كتب التوحيد

ثالثاً — القرآن مصدق للكتب السالفة في التوحيد ، وروح العبادة وتركية النفس بالأعمال التي تقوم للمساكنات ، وتهذب الأخلاق ، وفي الكليات الخمس ، وهي

« حفظ الدين » بدم الردة والكفر ، و « حفظ النفس » بدم الانتحار وقتل الناس ، و « حفظ المال » بدم السرقة والربا والغش والخيانة ، و « حفظ النسب » بالتباعد عن الزنا ، و « حفظ العقل » بأن لا يتعاطى مسكراً ولا مخدراً ، هذه هي الكليات الخمس ، التي هي مشروعة في كل دين ، وموصى عليها في كل كتاب .

القرآن مصدق لدين اليهود والنصارى الأصليين

رابعاً - القرآن مصدق لدين اليهود ودين النصارى الأصليين ، فإن ديننا هو عين دينهم ، مع مزيد بيان ، واصلاح يقتضيه ترقى البشر ، ومع إزالة بدع وأوهام دخلت عليهم من باب الدين ، وماهي من الدين في شيء .

القرآن مصدق للكتب السماوية الاصلية

خامساً - القرآن مصدق لما بين يديه من الكتب السماوية ، ولكن وجد في هذه السورة ، في القصة اليوسفية ، ما هو مغاير للقصة في سفر التكوين الموجود عند اليهود والنصارى ، ما بين زيادة في السيرة عما هو في سفر التكوين ، ونقصان في السيرة عما هو في السفر المذكور ، ولا يهولكم ذلك ، فالقرآن نزل مبيناً على كتب اليهود والنصارى ، ومصححاً لها ، فما حكاه القرآن كان صحيحاً ، وما انفاه كان ليس بصحيح ، وما سكته عنه كان غير مهم ، لأن التوراة دخلها مداخلها من التحريف والزيادة والنقصان ، وأما قوله تعالى : ﴿ وَكَيْفَ يَحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ؟ ﴾ (٤٦:٥) ونحو ذلك مما يحتج به دعاة النصرانية ، على كون التوراة التي في أيديهم وأيدي اليهود ، هي ما أنزله الله تعالى على موسى ، لم يعرض لها تغيير ولا تحريف - فهو احتجاج ضعيف ، لأنه لا يجوز للانسان أن يأخذ من القرآن ما يوافق هواه ، ويرد ما يخالفه جديلاً ، فالؤمن

يؤمن بالكتاب كله ، والكتاب يبين لنا أن عندم التوراة ، وأن فيها حكم الله ، في القضية التي تحاكموا فيها الى النبي ﷺ ، وهي قضية رجم الزاني المحصن ، وقد صدق الله تعالى ، وهو أصدق الصادقين ، ولكنه يبين لنا مع ذلك في نفس الكتاب أنهم حرفوا الكلام عن مواضعه (٤ : ٤٥) ، وأن اليهود نسوا حظاً مما ذكروا به (٥ : ١٤) ، وكذا النصارى نسوا حظاً مما ذكروا به (٥ : ١٥) ، وأن اليهود إنما اوتوا نصيباً من الكتاب (٣ : ٣٣) ، إذ أضاعوا منه نصيباً آخر ، وقد صدق الله أيضاً في ذلك كله ، فقوله : ﴿ وعندم التوراة ﴾ (٥ : ٤٦) لا يجب أن يعنى التوراة الصحيحة ، بل يجوز أن يراد بها التوراة ولو محرفة أو مزيدة أو ناقصة ، فكل ذلك يصدق عليه أنه توراة ، ولا تنس ههنا قوله تعالى : ﴿ إن هذا القرآن يَبْئُصُّ عَلَىٰ نَبِيِّ إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلَفُونَ ﴾ (٢٧ : ٧٦)

شواهد من التوراة الحالية على ان فيها زيادة

هذا ولما خرجت امة القرآن بالقرآن من الأمية ، وعرفوا تاريخ اهل الكتاب وغيرهم كالبابليين ، ظهر لهم أن إخبار القرآن بذلك ، كان من معجزاته الدالة على أنه من عند الله ، إذ ظهر لهم أن اليهود كانوا فقدوا التوراة التي كتبها موسى ، ثم لم يجدوها ، وإنما كتب لهم بعض علمائهم ما حفظ منها مجزواً بما ليس منها ، والتوراة التي في أيديهم تثبت ذلك ، فإن فيها ما نصه : (فعندما كمل موسى كتابة كلمات هذه التوراة في كتاب الى تمامها ، أمر موسى اللاويين حاملي تابوت عهد الرب قائلاً : خذوا كتاب التوراة هذا ، وضعوه بجانب تابوت عهد الرب إليهم ، ليكون هناك شاهداً عليكم ، لأني أنا عارف بتمردكم ورقابكم الصلبة ، هو ذا وأنا بعدُ حيّ معكم اليوم ، قد صرتم تقاومون الرب ، فكم بالحري بعد موتي ؟ اجمعوا اليّ شيوخ أسباطكم وعرفاءكم ، لأنطق في مسامعهم بهذه الكلمات ، وأشهد عليهم السماء والأرض ، لأني عارف أنكم بعد موتي تفسدون ، وتريفون عن الطريق الذي أوصيتكم ، وبصيكم الشر في آخر الايام ،

لأنكم تعملون الشر أمام الرب ، حتى تغيظوه بأعمال أيديكم - فناطق موسى في مسامع كل جماعة إسرائيل بكلمات هذا النشيد (تث ٣١ : ٢٤ - ٣٠) وههنا ذكر النشيد في (تث ٣٢) .

ثم قال الكاتب يسفر الثانية : (فأتى موسى وناطق بجميع كلمات هذا النشيد في مسامع الشعب ، هو ويشوع بن نون ، ولما فرغ موسى من مخاطبة جميع بني إسرائيل بهذه الكلمات ، قال لهم : وجهوا قلوبكم إلى جميع الكلمات ، التي أنا أشهد عليكم بها اليوم ، لكي توصوا بها أولادكم ، ليحرصوا أن يعملوا بجميع كلمات هذه التوراة ، لأنها ليست أمراً باطلاً عليكم ، بل هي حياتكم ، وبهذا الأمر تطيّلون الأيام على الأرض التي أنتم عابرون الأردن إليها لتمتلكوها) (تث ٣٢ : ٤٤ - ٤٧) ، فلا شك ان هذا الخبر أي كتابة موسى للتوراة زائد على التوراة ليس منها .

وثانياً — خبر موت موسى ، وكونه لم يقم في إسرائيل نبي مثله بعد ، أي إلى وقت الكتابة ، فقد ورد في سفر الثانية (وصعد موسى عن عربات موآب إلى جبل نبو ، إلى رأس الفسجة الذي قبالة أريحا ، فأراه الرب جميع الأرض من جلعاد إلى دان ، وجميع نفتالي ، وأرض أفرايم ومنسى ، وجميع أرض يهوذا إلى البحر الغربي ، والجنوب والدائرة بقعة أريحا مدينة النخل إلى صوغر ، وقال له الرب : هذه هي الأرض التي أقسمت لابراهيم واسحق ويعقوب قائلاً : انسلك اعطيها قد أريتك إياها بعينيك ، ولكنك إلى هناك لا تعبر ، فمات هناك موسى عبد الرب في أرض موآب حسب قول الرب ، ودفن في الجوّاء في أرض موآب ، مقابل بيت فغور ، ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم ، وكان موسى بن مئة وعشرين سنة حين مات ولم تسكل عينه ولا ذهب نضارته ، فبكى بنو إسرائيل موسى في عربات موآب ، ثلاثين يوماً ، فكملت أيام بكاء مناحة موسى ، ويشوع بن نون كان قد

امتلاً روح حكمة ، إذ وضع موسى عليه يديه ، فسمع له بنو اسرائيل ، وعملوا كما
أوصى الرب موسى ، ولم يبق بعد نبي في اسرائيل مثل موسى) (ث ٣٤ : ١ - ١٠) فهذا
الخبر عن موت موسى معدود عندهم من التوراة ، وما هو في الحقيقة من التوراة
المنزلة على موسى ، التي كتبها ووضعها بجانب التابوت ، بل هذا الخبر كتب كغيره
بعده ، وقد ظهر تأويل علم موسى في بني اسرائيل ، فانهم فسدوا وازاغوا بعده
كما قال ، وأضاعوا التوراة التي كتبها ، ثم كتبوا غيرها ، ولا ندري عن أي شيء
أخذوا ما كتبوه ، على أنه فقد أيضاً ، وقد قالوا : (إن « حلقيا » الكاهن وجد
سفر شريعة الرب وسلمه إلى « شافان » الكاتب ، فجاء به شافان إلى الملك » (٢ أي
٣٤ : ١٤ - ١٦) ، قال صاحب دائرة المعارف العربية : « إنهم ادعوا أن هذا السفر
الذي وجده حلقيا هو الذي كتبه موسى ، ولا دليل لهم على ذلك ، على أنهم
أضاعوه أيضاً » ثم إن « عزرا » الكاهن الذي (هياً قلبه لطلب شريعة الرب ،
والعمل بها ، ولعلم اسرائيل فريضة وقضاء) (عز ٧ : ١٠) قد كتب لهم الشريعة
بأمر « أرتخشستا » ملك فارس ، الذي أذن لبني اسرائيل بالعودة إلى اورشليم .

التوراة الحالية كتبت بعد السي

وعلى ذلك فجميع أسفار التوراة التي عند أهل الكتاب قد كتبت بعد السي ،
كما كتب غيرها من أسفار العهد العتيق ، ويدل على ذلك كثرة الألفاظ البابلية فيها
وقد اعترف علماء اللاهوت من النصارى بقصد توراة موسى ، مع أنها هي أصل دين
النصارى وأساسه ؛ وقد قال صاحب كتاب « خلاصة الأدلة السنية » ، على صدق
أصول الديانة المسيحية « ما نصه : « والأمر مستحيل أن تبقى نسخة موسى الأصلية
في الوجود إلى الآن ، ولا نعلم ماذا كان من أمرها ، والمرجح أنها فقدت مع التابوت .
لا ب « بختنصر » الهيكل ، وربما كان ذلك سبب حديث كان جارياً بين اليهود

هو أن الكتب المقدسة فقدت، وأن «عزرا» الكاتب ، الذي كان نبياً ، جمع النسخ المتفرقة من الكتب المقدسة ، وأصلح غلطها ، وبذلك عادت إلى منزلتها الأصلية ، انتهى بحروفه .

الرد على القول بأن «عزرا» الكاتب هو الذي كتب التوراة الحالية

ولقد نعلم أنهم يجيبون من يسأل : من أين جمع «عزرا» الكاتب تلك الكتب ، بعد فقدانها ، وإنما يجمعُ الموجود؟ وعلى أي شيء اعتمد في اصلاح غلطها ؟ فيجيبونه قائلين : « إنه كتب ما كتب بالالهام ، فكان صواباً » !!

ولكننا نقول : هذا الالهام مما لا سبيل إلى إقامة البرهان عليه ، ولا هو مما يحتاج فيه إلى جمع ما في أيدي الناس الذين لا ثقة بنقلهم ، ولو كتب «عزرا» بالالهام الصحيح ، لكتب شريعة موسى مجردة من الأخبار التاريخية ، الزائدة على التوراة ، ومنها ذكر كتابة موسى لها ، وأنه أمر بوضعها في جانب التابوت ، ومنها ذكر موته ودفنه وعدم بحج مثله ؛

وقد بين بعض علماء أوربا أن أسفار التوراة كتبت بأساليب مختلفة ، لا يمكن أن تكون كتابة واحد فقط ، وليس من غرضنا الآن أن نطيل في ذلك ، وإنما نقول : إن الذي بين يدي القرآن ، الذي أتى القرآن مصداقاً له — هو ما أوحاه الله إلى موسى ليلفغه قومه بالقول والكتابة ، وأما سفر التكوين الذي عند القوم المشتمل على قصة يوسف ، فهو سفر تاريخ مشتمل على ما هو صحيح وغير صحيح.

(الله اكبر)

« وتفصيل كل شيء .. »

— ١ —

وقال الشريف المكي :

القرآن يذكر كل شيء مهم من امور الدين

يقول القرآن الكريم : وتفصيل كل شيء ، أي كل شيء يحتاج اليه في الدين ،
لانه القانون الذي تستند اليه السنة والاجماع والقياس ، بمد أدلة العقل ، وهذا
نظير ما قال عن موسى عليه السلام : ﴿ وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظةً وتفصيلاً لكل شيء ﴾ (١٤٤ : ٧) مع أن الألواح إنما هي ثلاثة
أو اثنان ، جرياً على قول اليهود وعلى قول من قال : « أقل الجمع اثنان » ، وكانت
من حجر ، وهل لا تسع إلاّ بعض الشيء ، ولكن المقصود من كلمة « وتفصيلاً »
لكل شيء « مهم يحتاج اليه في الدين ، وذلك الكلمات المشر وما اليها ، فالدين هو
نقطة كثرها الناس ،

والشيء بالشيء يذكر ، فقد كان سألني بعض مبشري البروتستانت : كيف
تقولون إن القرآن كان « تفصيل كل شيء » كما في آخر آية من سورة يوسف ،
وكيف يقول القرآن إن ألواح موسى مكتوب فيها من كل شيء ، وفيها التفصيل
لكل شيء ، مع أن تلك الألواح الحجرية الثلاثة على قولكم أو الاثنان على قولنا
لا تسع كل شيء ، لا جملة ولا تفصيلاً ؟

فاجبته بقولي : المقصود كل شيء مهم يحتاج اليه في الدين ، ثم ماذا تقول فيما
هو في آخر انجيل يوحنا « وأشياء أخر كثيرة ، صنعها يسوع إن كتبت واحدة
واحدة ، فلست أظن أن العالم نفسه يسع الكتب المكتوبة » (يو ٢١ : ٢٥) ثم
ماذا تقول فيما ينقل عن موسى أنه قال لبني اسرائيل : « وهو ذا أنتم اليوم كنجوم

السَّاءِ فِي الْكَثْرَةِ» (تث ١ : ١٠) ، وماذا تقول في قول سفر القضاة : « وكان المديانيون والعالمقة وكل بني المشرق حاليّن في الوادي ، كالجراد في الكثرة ، وجاهلهم لا عدد لها ، كالرمل الذي على شاطئ البحر في الكثرة » (قض ٧ : ١٢) ، وماذا تقول فيما ينقل عن المسيح : « وَأَنْتِ يَا كَفَرْنَا حُومِ الْمَرْتَفَعَةِ إِلَى السَّاءِ » (مت ٢٣ : ١١) ، وماذا تقول فيما هو في سفر يوحنا « هو ذا العالم قد ذهب وراءه » أي وراء المسيح (يو ١٢ : ١٩) ، وبما يقرب من قول يوحنا هنا قول جامعة سليمان : « لعمل كتب كثيرة لا نهاية » (جا ١٢ : ١٢) فما قاله مفسروكم في مثل هذه الأقوال نقوله في آيات القرآن الكريم ، مع انك سمعت الجواب عن آيات القرآن الكريم ، والله الحجة البالغة .

(احسنت)

(وهديّ ورحمةٌ ، لقوم يؤمنون)

— ١ —

وقال الشيخ القبرصي ^(١) :

القرآن هدى ورحمة وشفاء وموعظة

القرآن في نفسه هدى ورحمة ، وشفاء وموعظة ، فمن اهتدى به واتعظ واشتفى ، كان بمنزلة من استعمل الدواء الذي يحصل به الشفاء ، فهو دواء له بالفعل ، وإن لم يستعمله ، فهو دواء له بالقوة ، وكذلك الهدي ، فالقرآن هدى بالفعل لمن اهتدى به ، وبالقوة لمن لم يهتد به ، والهدى في الأصل مصدر هَدَى يَهْدِي هُدًى ، فمن لم يعمل بعلمه ، لم يكن مهتدياً ، كما في الأثر : (من ازداد علماً ولم يزد هدى . لم يزد من الله تعالى إلا بعداً) ، ولكن سمي هدى ، لأن من شأنه

(١) نسبة الى جزيرة قبرص الواقعة في البحر الابيض المتوسط غربي شاطئ البلاد السورية.

أن يهدي ، وههنا ثلاثة أشياء ؛ فاعل وقابل وآلة ، فالفاعل الهادي هو الله تعالى ،
والقابل هو قلب العبد ، والآلة هو الذي يحصل به الهدى وهو الكتاب المنزل ،
فالله سبحانه يهدي خلقه هدى ، كما يقال دلهم دلالة ، وأرشدهم إرشاداً ، وبين
لهم بياناً ، والمقصود أن المحل القابل هو قلب العبد المتقى المنيب إلى ربه ، الخائف
منه ، الذي ينتقي رضاه ، ويهرب من سخطه ، فإذا هداه الله بكتابه ، وصل أثر
فعله إلى محل قابل ، فيتأثر به ، فصار هدى له وشفاء ورحمة وموعظة بالوجود
والفعل والقبول ، وإذا لم يكن المحل قابلاً ، وصل إليه الهدى فلم يؤثر فيه ، كما
يصل الغذاء إلى محل غير قابل للاغتذاء فإنه لا يؤثر فيه شيئاً ، بل لا يزيد
إلا ضعفاً وفساداً إلى فساد ، كما قال تعالى في حق الآية التي كان نزولها :
﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزادتهم إيماناً وهم يَسْتَبْشِرُونَ ، وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ
فزادتهم رجساً إلى رجسِهِمْ ﴾ (٩ : ١٢٥ و ١٢٦) وقال : ﴿ وَنَزَّلُ مِنَ
الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ، وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً ﴾
(٨٢ : ١٧) ، فتخلف الاهتداء بكون لدم قبول المحل تارة ، ولعدم آلة الهدى
تارة ، ولعدم فعل الفاعل وهو الهادي ، ولا يحصل الهدى على الحقيقة إلا عند
اجتماع هذه الثلاثة ، وقد قال سبحانه : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ،
وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْاْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ (٨ : ٢٣) فأخبر سبحانه أنه قطع عنهم
مادة الاهتداء ، وهو إسماع قلوبهم ، وإفهامها ما ينفعها ، لدم قبول المحل ، فإنه
لاخير فيه ، فإن الرجل إنما ينقاد للحق بالخير الذي فيه ، والميل إليه والطلب له ،
والحرص عليه ، والقرح بالظفر به ، وهؤلاء ليس في قلوبهم شيء من ذلك ،
فوصل الهدى إليها ووقع عليها ، كما يصل الغيث النازل من السماء ويقع على الأرض
الغليظة العالية ، التي لاتمسك ماء ولا تنبت كلاً ، فلا هي قابلة للماء ولا للبنات ،
فلما في نفسه رحمة وحياة ، ولكن ليس فيها قبول له ، ثم أكد هذا المعنى في

حقهم بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِيهِمُ لَبُوءٌ لَّذَلَّلُوا وَهُمْ مَعْرِضُونَ﴾ (٢٣:٨) أي أنهم مع عدم قبولهم وقلة فهمهم ، فيهم آفة أخرى ، وهي الكبر والأعراض وفساد القصد ، فلو فهموا لم ينقادوا ولم يتبعوا الحق ولم يعملوا به ، فاللهدي في حق هؤلاء ، هدى بيان وإقامة حجة ، لاهدى توفيق وإرشاد ، فلم يتصل الهدى في حقهم بالرحمة ، وأما المؤمنون فاتصل الهدى في حقهم بالرحمة ، فصار القرآن لهم هدى ورحمة ، ولأولئك هدى بالرحمة .

(وهدى ورحمة لقوم يؤمنون)

- ٢ -

وقال السيد الدمشقي :

القرآن هدى ورحمة لمن يفهمه

يقول الله تعالى إن القرآن هدى ورحمة لقوم يؤمنون ، لأنهم هم الذين يفهمونه فيعملون به فينتفعون ، وأما من لا يفهم كتاب الله ، فنفسه « حمارية » كما قال تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حَمَلُوا الثَّوْرَةَ ، ثُمَّ لَمْ يُحْمِلُوهَا ، كَمَثَلِ الْحِمَارِ بِحِمْلٍ أُسْفَارًا ﴾ (٥:٦٢) ، وكذلك الذين يولون مدبرين عن درس كلام الله القرآن ، هم في نظر الله تعالى حمير ، كما قال تعالى : ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرِ مُعْرِضِينَ ؟ كَانَهُمْ « حُمُرٌ » مُسْتَنْفِرَةٌ ، فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴾ (٧٤: ٤٩ - ٥١) ، وأما من يفقه الكتب السماوية كالقرآن مثلاً ، ولكنه لا يعمل حسب ما يعلم ، فهو عالم السوء ونفسه « كلبية » ، وفيه بقول الله تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا ، فَاتَّبَعَ الشَّيْطَانَ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ، وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا ، وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ ، وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ، فَكُلَّهِ كَمَثَلِ الْكَلْبِ : إِنْ تَحِمَلَ عَلَيْهِ بَلْهَثٌ ، أَوْ تَتَرَّكَهُ يَلْهَثٌ ﴾ (٧: ١٧٤ و ١٧٥) .

الهدى هو الدعوة والدلالة والبيان

والهدى يكون بمعنى الدعوة والدلالة والبيان ، سواء وصّل أم لم يوصل ، وهذا يشترك فيه المؤمن والكافر ، كقوله تعالى ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ (١٧: ٤١) ، ويكون بمعنى جمل الإنسان 'مهتدياً' ، أي بمعنى الدلالة الموصلة ، وهذا يختص بالمؤمنين ، وهو المطلوب في قوله : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (١ : ٥) وبقوله في وصف الكتاب : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (٢ : ٢) ثم قوله : ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ (٥ : ٢) وقوله هنا في الآية : ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ، وقد شرع الله لنا ، أن نسأله ذلك في كل صلاة ؛ وهو أفضل الدعاء ، وأفضله وأجمعه لكل خير ، وكل أحد محتاج الى الدعاء به ، فلهذا أوجبه الله تعالى على العبد ، في كل صلاة .

(الله أكبر)

انتهى الجزء الثاني

وهنا وقف كاتب سر المؤتمر واختتم جلسات المؤتمر باسم السيد رئيس المؤتمر ثم اتى كلمة تناسب المقام ، شاكراً فيها المحاضرين الأكارم على ما بذلوه من مشقة وجهد في سبيل كتاب الله العظيم ، واعدأ بإياهم بدعوتهم إلى عقد مؤتمرات تفسيرية لسور أخرى من القرآن الكريم ، ثم انفض عقد اجتماعهم وهم يهنئون بعضهم بعضاً على حسن الختام (١) .

(١) غير اننا نذكر بملء الأسف والأسى ان المنية قد عاجلت السيد كاتب السر ، اذ تفمده الله برحمته ورضوانه في اليوم التاسع من شهر جمادى الأولى لسنة ١٣٥٥ هـ الموافق لليوم السادس والعشرين من شهر تموز (يوليو) لسنة ١٩٣٦ م .

(ابن المؤلف)

قهرس الجزء الثاني من كتاب مؤتمر تفسير سورة يوسف (ع)

الصحيفة والموضوع :

٧٤١ الفصل الخامس .

يوسف (ع) يعرف بحاله ويمهد للدعوة للتوحيد .

آ (٣٧) ﴿ قَالَ : لَا يَأْتِيَكَا طَعَامُ رِزْقَانِهِ إِلَّا نَبَاتَكَا بِنَازِلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكَا ، ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ، إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ، وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ ٧٤٢ يوسف يترجم حياته الشخصية والعلمية ٧٤٤ يوسف يفتح الفرصة فيعظ الفتيين تمهيداً لدعوتها للتوحيد ٧٤٦ المراد « بالترك » الامتناع ، القوم الوثنيون الذين عناهم يوسف ٧٤٨ الأدوار التي سكت فيها يوسف والتي تكلم فيها ، معنى « رزقانه » ٧٤٩ معنى « ذلكما مما علمني ربِّي » ، مصدر فضل يوسف ، ترك يوسف ملة الوثنيين بدون سبق مزاوله ٧٥٠ البيئة الوثنية التي عاش فيها يوسف وتغلبه عليها ٧٥١ الوثنيون لا يؤمنون بالله واحداً والماديون لا يؤمنون به موجوداً ٧٥٢ الأدلة على وجود الله تعالى ٧٥٣ عقيدة ابراهيم (ع) وأولاده وعقيدة العرب الجاهليين ٧٥٤ بيان سقوط أكثر بني اسرائيل في هاوية التوثن حسب التوراة التي هي اليوم بين أيديهم ٧٥٨ الإيمان بالله واليوم الآخر ٧٥٩ يوم الآخرة ٧٦٠ الإيمان بالآخرة والطوائف التي لا تعقد به ٧٦١ اتباع يوسف ملة آبائه بعد التفكير ٧٦٢ الفرق التي لا تؤمن بالله كما يجب له ٧٦٤ عقيدة الإيمان السكاملة بالله .

٧٦٥ يوسف (ع) يبدأ بالدعوة إلى التوحيد .

آ (٣٨) ﴿ وَاتَّبَعَتْ مِلَّةَ آبَائِي ، إِبْرَاهِيمَ وَاسْحَافَ وَيَعْقُوبَ ، مَا كَانَ لَنَا أَنْ نَشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ، ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ ، وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ

الصحيحة والموضوع :

لا يشكرون ﴿ ٧٦٦ ﴾ ملة آباء يوسف ، أصول الدين الموجودة في كل ملة
 موحدة ٧٦٧ أركان الإيمان الستة ٧٦٨ العمل باركان الايمان شرط مهم في
 الدين ٧٦٩ عمن تلقى يوسف عقيدة التوحيد ؟ ٧٧١ يوسف ينهي عن الشرك
 بالله واسلوب القرآن في استعمال النفي بمعنى النهي ٧٧٢ دين التوحيد هو الدين
 الخالص الذي جاء به الأنبياء ٧٧٣ نصوص عقيدة التوحيد في الإنجيل ،
 الشرك في الربوبية والشرك في الألوهية ٧٧٤ التوحيد فضل من الله على عباده
 ٧٧٥ المؤمنون إخوة ٧٧٦ المرء بأعماله لا ينسبه ٧٧٨ الغمز من فتاة الفتيين ،
 أدب الأنبياء في الخطاب .

٧٨٠ يوسف (ع) يدعو الى التوحيد .

آ (٣٩) ﴿ يا صاحبي السجن ، أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟ ﴾
 ٧٨١ يوسف يهدي الفتيين بالحاجة والافتقار ٧٧٢ الديانة الوثنية بمصر ٧٨٤
 واجب الواعظ نحو الموعوظين وأمثلة من القرآن ٧٨٦ واجب المصلح المرشد ،
 الدعوة الى الحق تكون بالدليل والبرهان ولا اكراه في الدين ٧٩١ انطباق
 الآية على معتقد البولسيين من النصارى ورد استدلالهم على معتقدم في الوهية
 المسيح ٧٩٢ التثليث عند المصريين القدماء ٧٩٦ فرق النصارى الشهيرة ٧٩٩
 شرك المصريين القدماء في الربوبية والالوهية ٨٠٠ وحدانيتنا الربوبية والوهية ،
 الدعوة الاديية ٨٠١ واجب الداعي التحقق مما يدعو اليه ٨٠٢ سبب اقتصار
 يوسف على دعوة صاحبي السجن الى التوحيد فقط ، مثل من يعبد عدة آلهة
 أو آلهة واحداً كممثل العبد المملوك لشركاء عديدين أو لملك واحد ٨٠٣
 فكرة الدعوة والارشاد في القرآن ومراتبها ٨٠٤ صفات الداعي الى التوحيد
 ٨٠٥ اعتقاد المصريين القدماء بيوم الدين ٨٠٦ وجه عدم ذكر اليوم الآخر

الصحيفة والموضوع :

في التوراة ٨٠٧ عقيدة اليهود الفريسيين والصدوقيين يوم الدين ، ضمة
عقيدة اليهود يوم الدين كانت سبباً في كون اكثر معجزات المسيح (ع)
تدل على هذه العقيدة ٨٠٨ وجود المسيح (ع) من غير أب آية على وجود
القيامة ٨٠٠ التعليق على قوله « أم الله الواحد » ، التعليق على قوله « القهار ».

٨١١ يوسف (ع) يتابع الدعوة للتوحيد .

آ (٤٠) ﴿ ماتعبدون من دونه إلا أسماء ، سميتموها أنتم وآبائكم ، ما أنزل
الله بها من سلطان ، إن الحكم إلا لله أمر أن لا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين
القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ ٨١٢ اعتناق المصريين الاقباط
النصرانية ٨١٣ وجوب الجهر بالدعوة الدينية ، الامور الداعية لعبادة المعبود
٨١٤ العبادة ضرب من الخضوع لعظمة المعبود وسلطته ٨١٥ ليس في المخلوقات
شيء من اللاهوت ٨١٦ وجوب علم امور الدين علماً استقلايلاً استدلالياً ٨١٧
اصطلاحات القرآن اللفظية ، السلطان والحق وتعظيم شأنها ٨٢٠ الدين مبني
على الحجة والعلم ، المسميات لا تتبدل بتبدل الاسماء كما أن العجل والشمس
والتاسيح لا تصير آلهة بتبديل اسمائها ٨٢١ مسكوت صاحبي السجن عن
الجواب حكم صامت بصحة كلام يوسف (ع) ٨٢٢ الاستدلال مطلوب في
الدين ٨٢٣ الحكم الشرعي والحكم الفعلي ٨٢٤ وحدة الالهية ووحدة
الربوبية ٨٢٥ الدين والعلم اخوان ٨٢٦ يوسف بكرر الغمز من قناة صاحبيه
في السجن ٨٢٧ عظة يوسف للفتيين كانت صرخة في واد ، وجوب الجهر
بعقيدة التوحيد في كل زمان ومكان وحال ٨٢٨ حكم القرآن بالاحكام الردئة
على الاكثرية الساحقة من الناس ٨٣٠ حكم القرآن بالاحكام الحسنة على القليل
من الناس.

الصحيفة والموضوع :

٨٣١ يوسف يعبر رؤيا الفتيتين بالجزم .

آ (٤١) ﴿ يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمراً ، وأما الآخر فيصلب ، فتأكل الطير من رأسه ، قضى الأمر الذي فيه تستفتيان ﴾ ٨٣٢ .
يوسف يعبر رؤيا الفتيتين بصراحة ٨٣٣ اصناء الفتيتين الى وعظ يوسف ٨٣٤ .
استبشار يوسف ببراءة رئيس السقاة ، الحجر الأول في بناء مجد يوسف ،
حال الفتيتين حين سماعها تعبير رؤيتهما ٨٣٥ النواة والشجرة والثمرة ، تسمية
الملك رباً عند المصريين ، لماذا عبر يوسف رؤيا الخباز بصراحة ٨٣٦ تحقق
وقوع تعبير رؤيا الفتيتين ٨٣٧ خباز فرعون يوسف وخباز فرعون موسى ،
من عادة قدماء المصريين خلق شعر رؤوسهم ولحاهم ٨٣٨ الصلب عرفاً هو
الامانة على الصليب ، معنى الصلب في القرآن .

٨٣٩ استشفاع يوسف بالناجي من الفتيتين .

آ (٤٢) ﴿ وقال الذي ظن أنه ناج منها : اذكرني عند ربك ، فأنساه الشيطان ذكر ربه ، فلبث في السجن بضع سنين ﴾ ٨٤١ نسيان الفتى الناجي ذكر
يوسف للملك وأسبابه ٨٤٣ مدة بقاء يوسف في السجن ، التوسل وأنواعه
والجائزتها شرعاً ٨٤٤ الرد على من انتقد توسل يوسف برئيس السقاة لدى
ملك مصر ، التوكل ٨٤٥ تحقق رجاء يوسف من الشرايبي ٨٤٦ الاستعانة
بالاسباب في قضاء الحاجة ٨٤٧ هل قالم الشرايبي بما طلبه منه يوسف فور
خروجه من السجن ٨٤٨ أسباب عدم اخبار يوسف أباه بسجنه ٨٥٠ .
فصول مأساة يوسف (ع) ، على من يريد انتقاد أحد أن يتمهل حتى تستوفي
البيئة نصابها ٨٥١ تحليل تعبيره بكلمة « ظن » في الآية ، اطلاق لفظ « الرب » .

الصحيفة والموضوع .:

مضافاً للعاقل على غير الله تعالى ٨٥٢ علاقة الشر بالله تعالى ٨٥٣ معنى قوله « ذكر ربه » ٨٥٤ سبب مكث يوسف في السجن بضع سنين ، التحقيق في معنى « البضع » وفي مدة مكث يوسف في السجن .

٨٥٦. الفصل السادس — حلم الملك .

آ (٤٣) ﴿ ... وقال الملك : إني أرى سبع بقرات سمان ، يأكلن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر ، وآخر يابسات ، يأبها المأ ، أفتوني في رؤياي ، إن كنتم للرؤيا تعبرون ﴾ ٨٥٧ الملك الريان يقص حلميه على المأ طالباً تعبیرهما له ٨٥٨ من هو الملك في قوله : وقال الملك .. ٨٥٩ دولة الهكسوس في مصر ، تعبیر القرآن بلفظ « ملك » ولفظ « فرعون » لحكام مصر الأقدمين ٨٦٠ غلط المؤرخين والمفسرين في تسميتهم « ملك مصر » في زمن يوسف باسم « فرعون » ٨٦١ عدد سبعة في تاريخ يوسف ، احتياج الملوك للعلاء ٨٦٢ المأ جماعة من رجال البلاط والعلاء ، يغلب على الحلم أن يرى ولا يسمع ٨٦٣ الفتوى ، تعبیر الرؤيا ٨٦٥ طعن المأ في رؤيا الملك على اعتبار أنها غير صحيحة ٨٦٦ جهل المأ بتأويل رؤيا الملك على اعتبار أنها صحيحة ٨٦٧ كذب المأ وصدقهم في جوابهم للملك ، جواب المأ للملك يدل على جهلهم تعبیر الروى ، معنى « الضفت » ٨٦٨ الحِمْ والحِمْ ، احتمال تجاهل المأ تعبیر رؤيا الملك وسببه .

٨٧٠ وعند جهينة « يوسف » الخبر اليقين أو تذكر الفتى الناجي يوسف وطلبه أن يذهب اليه ليؤول له حلمي الملك .

آ (٤٥) ﴿ وقال الذي نجا منها ، وادكر بعد أمة : أنا أنبئكم بتأويله ، فأرسلون ﴾ ٨٧١ تذكر الفتى الناجي يوسف وطلبه الذهاب اليه ليستعبره

الصحيفة والموضوع :

حلمي الملك ٨٧٢ ثمرة الاحسان ، الحكمة من صرف الله الملاء عن تأويل رؤيا
 الملك ٨٧٣ التدابير الالهية وجهل الملاء ، الفتى الناجي يتحدى الملاء .
 ٨٧٤ استعمار رؤيا الملك من يوسف .

آ (٤٦) ﴿ ... يوسف ، أيها الصديق ، أفتنا في سبع بقرات سمان ، يأكلهن
 سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وآخر يابسات ، لعلني أرجع الى الناس
 لعلهم يعلمون ﴾ الفتى الناجي يقابل يوسف ويمتدحه ويستعبره روياء الملك
 ٨٧٦ الشرايى ينبه يوسف الى سابق صحبته له بدعوته اياه باسمه ولقبه ،
 كرم اخلاق يوسف بعدم معاتبته الشرايى لعدم قيامه بما كان طلبه منه ، القاب
 يوسف ٨٧٧ إخفاء رئيس السقاة اسم الملك عن يوسف ٨٧٨ معنى الافتاء ،
 معنى الصديق ٨٧٩ وجوب التزام الأدب عند مخاطبة النبي ﷺ ٨٨٠ الايجاز
 في القرآن .

٨٨٣ تأويل يوسف لرؤيا الملك .

آ (٤٧) ﴿ قال تزرعون سبع سنين دأباً ، فما حصدتم فذروه في سنبله ،
 إلا قليلاً مما تأكلون ﴾ ٨١٣ تعبیر يوسف لرؤيا الملك يسطر التدبير اللازم
 ٨٨٤ سرعة إجابة يوسف بتعبير رؤيى الملك دون قيد ولا شرط ٨٨٥ تدبير
 يوسف الاقتصادى لأهل مصر ، ملكية الحاصلات في مصر ، الخبر في معنى
 الأمر والانشاء في قوله « تزرعون » ٨٨٧ ادخار الحنطة ، السنين والأعوام
 ٨٨٨ أقسام الأحلام الصحيحة ، معنى الدأب .

٨٨٩ تمة تعبیر يوسف لرؤيا الملك .

آ (٤٨) ﴿ ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد ، يأكلن ماقدتم هن ، إلا قليلاً
 مما تحصنون

الصحيفة والموضوع :

٨٩٢ يوسف يبشر بانهاء أزمة رؤيا الملك بالبركة والخصب .

آ (٤٩) ﴿ ثم يأتي من بعد ذلك عام ، فيه يغاث الناس ، وفيه يعصرون ﴾ ، عزو اخبار يوسف بحسن عاقبة الازمة الى ذكائه ٨٩٣ عناية قدماء المصريين بالحدائق والبساتين ، بشرى يوسف للمصريين بحسن خاتمة الرؤيا ٨٩٤ لطف الله بالمصريين عن يد يوسف ، إغفال يوسف تأكيد ذكره عند الملك في هذه المرة ٨٩٥ تدير يوسف أزمة المصريون بنفسه ، مقابلة بين « الملاء » الجاهلاء وبين يوسف العالم ، أين فوطيفار في هذه الأزمة ٨٩٦ الرؤيا على ما عبرت أولاً .

٨٩٦ الفصل السابع .

القصر يطلب يوسف (ع)

آ (٥٠) ﴿ ... وقال الملك : ائتوني به ، فلما جاءه الرسول ... قال : ارجع الى ربك ، فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ؟ إن ربي يكيدهن عليم ﴾ ٨٩٨ الملك يطلب يوسف فيرفض الخروج من السجن قبل تبرئة ذمته ٩٠١ البراءة أولاً ثم الخروج ثانياً ، تأدب يوسف بعدم ذكر اسم امرأة العزيز في قصة تبرئته ، سوآل يحقق البراءة ٩٠٢ هوية الرسول الذي ذهب الى يوسف ، تسمية « الملك » « رباً » ، العلماء اغنياء عن الملوك بالعلم وليس الملوك باغنياء عن العلماء بالملك ، حجر اصاب صيدى ٩٠٣ الاجتهاد واجب في نفي التهم ، ديموقراطية حكم الملك الريان ٩٠٤ سبب نزول الملك الريان عن رغبة يوسف بعدم خروجه من السجن قبل اجراء التحقيق في التهمة الموجهة اليه ٩٠٥ دواعي عدم خروج يوسف من السجن ٩٠٦ كيف لم يخش يوسف

الصحيفة والموضوع :

من النسوة أن يكتمن حقيقة أمره ، كيف ينسب يوسف الكيد للنسوة ثم يطلب سؤلهن عن قصة المراودة ولم يقع منهن شيء من ذلك ٩٠٧ لم يقصد يوسف التشهير بامرأة العزيز في طلبه التحقيق بل ظهور براءته ، سعة صدر الملك الريان ٩٠٨ قذف البريء يمود عليه بالخير عندما تظهر براءته ، على الباغي تدور الدوائر ٩٠٩ المراد بالكيد .

٩١٠ اعتراف امرأة العزيز ببراءة يوسف .

آ (٥١) ﴿ ... قال ما خطبك إذ راودتن يوسف عن نفسه ؟ - قلن : حاش لله ، ما علمنا عليه من سوء ، - قالت امرأة العزيز : الآن حصحص الحق ، أنا راودته عن نفسه ، وإنه لمن الصادقين ﴾ ٩١١ استنطاق النسوة عن قصة المراودة بمجتمعات أو منفردات ثم اعتراف امرأة العزيز ببراءة يوسف ٩١٢ نسبة المراودة الى جميع النسوة والمراد منه واحدة ، شهادة النسوة ليوسف بالعمى والطهارة ٩١٣ حال زليخا عند اعترافها بمراودة يوسف عن نفسه ٩١٤ دواعي اعتراف زليخا بوقوع المراودة منها ٩١٦ معنى حصحص ، الاجماع على سلامة شرف يوسف ٩١٨ تحقق صرف الكيد عن يوسف ٩١٩ الاعتراف بالخطأ فضيلة ، انصياع الرسول ليوسف بمراجعة الملك ، عاطفة المرأة تملك عقلها وعقل الرجل يملك عاطفته ٩٢٠ داعي اندفاع زليخا للاعتراف بفعلتها والدفاع عن شرف يوسف .

٩٢٣- تمة اعتراف امرأة العزيزة ببراءة يوسف .

آ (٥٢) ﴿ ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب ، وأن الله لا يهدي كيد الخائنين ﴾ ٩٢٤ توبة زليخا ، معنى بالغيب ومحل الغوي ٩٢٥ الكيد المذموم والكيد

الصحيفة والموضوع :

المدوح ، نسبة القول في قوله « ذلك ليعلم .. الخ الآية الى زليخا وليس الى يوسف .

٩٢٧ ختام اعتراف امرأة العزيز ببراءة يوسف ثم طلبها الرحمة والففران .

آ (٥٣) ﴿ وما أبريء نفسي ، إن النفس لأمارة بالسوء ، إلا ما رحم ربي ، إن ربي غفور رحيم ﴾ ٩٢٩ إطلاق لفظة « ما » على العاقل وغيره اذا اريد بها الصفة ، فضائل الرحمة ومزاياها ٩٣٠ رحمة الله الخاصة ورحمته العامة ، أقوال في توبة زليخا ٩٣١ نهاية مسيرة العزيز وامراته ٩٣٢ العار دائم والسببة خالدة ، زليخا تعد مجرمة عزماً وليست مجرمة فعلاً ٩٣٣ مؤثرات الحب في النفس والأخلاق ٩٣٤ زليخا سهلت ليوسف الخروج من السجن شريفاً باعترافها ، صدى جواب النسوة وامرأة العزيز في الاوساط ٩٣٥ عبرة وذكرى من حادثة العزيز وامراته .

٩٣٨ الباب الرابع .

الفصل الاول .

من ظلمة السجن الى نور الحرية أو خروج يوسف من السجن بريئاً .
آ (٥٤) ﴿ وقال الملك : « ائتوني به أستخلصه لنفسي » فلما كلمه ، قال : « إنك اليوم لدينا مكين أمين . » ﴾ ٩٤٠ طلب الملك ليوسف ثانية بعد رجوع المندوب من التحقيق ٩٤١ عدد جيئات الرسول السجين ٩٤٢ دواعي حب الملك ليوسف ثم استخلاصه إياه لنفسه ، هندام يوسف حينما استبعد لمقابلة الملك ٩٤٣ إكبار الملك ليوسف عندما كله وسمع كلامه ثم تقريبه منه ، عمر يوسف عند مثوله بين يدي الملك ٩٤٤ تقام يوسف مع الملك في اللغة .

الصحيفة والموضوع :

دعاء يوسف لأهل السجن الذي كان فيه ، المبرة في هذه الآية وما بعدها ..
٩٤٥ يوسف وزير مالية .

آ (٥٥) ﴿ قال اجعلني على خزائن الأرض ، إني حفيظ عليم ﴾ ، مؤهلات .
يوسف لترشيح نفسه لوزارة مالية مصر ٩٤٨ عمل يوسف في سني الخصب .
والجذب في مصر ٩٤٩ الشدائد علمت يوسف ادارة شئون مصر المالية
والاقتصادية ٩٥٢ عزيز مصر وخديويها ٩٥٣ حادثة يوسف في التاريخ ٩٥٥ .
الدين الاسلامي والسعي في الدنيا ٧٥٧ دحض اعتراض بعض رجال الدين على .
طلب يوسف وزارة المال ٩٦١ حكم طلب يوسف في الدين الاسلامي .
والتصوف في الاسلام ٩٦٤ التهديد والبراءة من الدنيا في الشريعة المسيحية
٩٦٥ انتقاد يوسف على طلبه وزارة المالية ليس مبنياً على التعاليم الاسلامية ٩٦٨ .
حدود تعاون المسلم مع غير المسلم ، خضوع المسلم لغير المسلم ٩٦٩ موالاته المؤمن .
لغير المؤمن ٩٧٢ ارتقاء يوسف لوزارة المالية كان بإرادة الله وقدرته .

٩٧٣ تمكين يوسف عليه السلام

آ (٥٦) ﴿ ... وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ، يتبوأ منها حيث يشاء ،
نصيب ترحمتنا من نشاء ، ولا نضيع أجر المحسنين ﴾ ٩٧٤ تمكين يوسف
الخاص والعام ٩٧٥ تقدير الملوك الأقدمين للناس بحسب مواهبهم ٩٧٦ تزكية .
أنتصار يوسف ، كيف أن اخبار يوسف لم تصل لأبيه ٩٧٧ الانتصارات
التي فاز بها يوسف ، اطلاق يد يوسف في مصر ٩٧٨ تمكين يوسف في مصر
سبعين عاماً ، مصر في أيام يوسف وبعده ٩٧٩ رحمة الله واحسانه يصيان جميع .
من يستحقها ٩٨٠ أجر المحسنين في الدنيا ، إحسان يوسف الذي استحق .

الصحيفة والموضوع :

عليه التمكين والتبوأ في الارض ، مبدأ تبادل الاحسان ٩٨١ أجر المحسنين في الدنيا والآخرة ، صلة الملك الريان يوسف .

٩٨٣ أجر الدنيا وأجر الآخرة

آ (٥٧) ﴿...﴾ ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴿...﴾ ٩٨٣ الآخرة لغة واصطلاحاً ٩٨٤ ثواب الجنة جسماني وروحاني ، حظ المؤمن في الآخرة أرقى منه في الدنيا ٩٨٥ أجر الآخرة مادي وروحي ، أجر يوسف في الآخرة أجل مما كان له في الدنيا ٩٨٦ الاخلاص يكون بالايان والعمل الصالح ٩٨٧ يوسف النبي والرسول ، الجزاء يكون على الايمان والعمل معاً ٩٨٨ عقيدة الصلب والفداء ٩٨٩ رد دعوى زواج يوسف بزيخا بعد موت زوجها فوطيفار .

٩٩١ الفصل الثاني — سفرة اخوة يوسف الاولى لمصر

آ (٥٨) ﴿...﴾ وجاء اخوة يوسف ، فدخلوا عليه ، فعرفهم وهم له منكرون ﴿...﴾ ٩٩٢ مجيء اخوة يوسف لمصر للامتياز ٩٩٤ وصف منظر המתارين من الناس في مصر في زمن يوسف ٩٩٥ ترقب يوسف مجيء اخوته ، يوسف بشرع في تحقيق هدفه ، ابتداء يوم يوسف ٩٩٦ حال اخوة يوسف بعد ما شردوه ، مجيء اخوة يوسف لمصر كان من أكبر المساعدات لتحقيق آماله ، الصلة الاقتصادية بين مصر وفلسطين ، اسباب عدم معرفة اخوة يوسف له عندما قابله ٩٩٧ معنى نكر وأنكر ٩٩٨ سبب عدم اظهار يوسف نفسه لاختوته ٩٩٩ داعي مجيء اخوة يوسف اليه رأساً .

٩٩٩ يوسف يجهز اخوته باليرة ويطلب منهم الاتيان بينيامين

آ (٥٩) ﴿...﴾ ولا جهرهم بجهازهم ، قال : أئتموني بأخ لكم من أبيكم ، ألا

الصحيفة والموضوع :

ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين ﴿ ١٠٠٠ ﴾ جود يوسف على اخوته
وبعض الامثلة المشابهة في التاريخ ١٠٠٢ معنى « الجواز » ١٠٠٣ اشارة
رمزية من يوسف لأبيه يعقوب عليها السلام ١٠٠٥ وجه قبول اخوة
يوسف منة أخيه ، سلسلة كرم يوسف مع اخوته ١٠٠٦ دواعي طلب يوسف
لبنيامين ، منشأ زيادة محبة يوسف لبنيامين ١٠٠٧ لماذا لم يذكر يوسف أباه
بشيء ١٠٠٨ سلوك يوسف مع اخوته على قاعدة المثل القائل اذا لم تغلب
فاخلب ، كيف يمن يوسف على اخوته بما جاد به عليهم ١٠٠٩ محاولة يوسف
اغراء وتحذير اخوته لجلب بنيامين معهم ، محاولة يوسف رجوع اخوته
بنيامين عن طريق الترغيب والتجيب ١٠١٠ معنى الايفاء ووجه امتنان
يوسف على اخوته .

١٠١٣ يوسف يطلب بنيامين بالقهر

آ (٦٠) ﴿ فان لم تأتوني به ، فلا كيل لكم عندي ، ولا تقربون ﴾ ،
١٠١٣ يوسف ينذر اخوته اذا لم يأتوه بينيامين

١٠١٥ وعد الاخوة باحضار بنيامين لمصر

آ (٦١) ﴿ قالوا : ... سنراود عنه أباه ، وإنا لفاعلون ﴾ ، وعد الاخوة
باحضار بنيامين معهم لمصر عند موافقة أبيهم .

١٠١٧ يوسف يأمر باعادة ثمن الميرة لاختوته لضمان مجيء بنيامين

آ (٦٢) ﴿ وقال لفتيانه : اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها اذا
انقلبوا إلى أهلهم ، لعلهم يرجعون ﴾ ١٠١٨ سعي يوسف بمجيء بنيامين
بالبقول والفعل ، المراد من حكمة « الفتيان » ، ماذا أراد يوسف برد بضاعة

الصحيفة والموضوع :

أخوته اليهم ١٠١٩ كيف جاز ليوسف التصرف بأموال الخزينة المصرية ،
 ١٠٢٠ معنى « الرحال » ١٠٢١ مقصد يوسف عما قاله لآخوته ومما فعله
 معهم ، لماذا يخبر يوسف أخوته بجملة الواقع في سفرتهم الاولى ١٠٢٢
 كنه البضاعة التي اشترى بها الاخوة ميرتهم .

١٠٢٤ الاخوة يطلبون بنيامين من أبيه

آ (٦٣) ﴿ ... فلما رجعوا إلى أبيهم ، قالوا : يا أبانا ، منع من الكيل... ،
 فأرسل معنا أخانا ، نكتل ، وإنا له لحافظون ﴾ ١٠٢٥ إخوة يوسف بين
 مطرقتين ، فكرة سفر بنيامين ١٠٢٦ يعقوب يفكر فيما عمله العزيز
 « يوسف » مع أولاده

١٠٢٦ الشك يخامر نفس يعقوب

آ (٦٤) ﴿ قال : هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل ؟ !
 فآله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين ﴾ ١٠٢٧ جواب يعقوب لأولاده
 جواباً سلبياً متدداً بهم وبعودهم ١٠٢٩ موقف يعقوب مع أبنائه في
 طلبهم بنيامين ١٠٣٠ عمر بنيامين عند ما طلبه أخوته من أبيهم ١٠٣١
 الفائدة من قص القرآن المقاولات بين يعقوب وأولاده .

١٠٣٢ أولى الأمور بالنجاح التكرار واللاحاح أو اتخاذ أبناء يعقوب رد بضاعتهم
 اليهم حجة لللاحاح في طلب أخيه بنيامين

آ (٦٥) ﴿ ... ولما فتحوا متاعهم ، وجدوا بضاعتهم ردت إليهم ، قالوا :
 يا أبانا ، ما نبغي ؟ ! هذه بضاعتنا ردت إلينا ... وغير أهلنا ، ونحفظ أخانا ،
 وزداد كيل بعير ، ذلك كيل يسير ﴾ ١٠٣٤ « ما » استفهامية في قوله

الصحيفة والموضوع :

« مابغي » ١٠٣٥ اغراء الاخوة لأبيهم بأربعة أشياء ، نجاح حيلة يوسف .
 في طلبه بنيامين ، معنى « الميرة » ، معنى « البعير » ١٠٣٦ معنى « المتاع » -
 ١٠٣٦ قلب المؤمن دليله أو اشتراط يعقوب على أولاده لارسال بنيامين معهم أنه
 يماهدوه على ارجاعه .

آ (٦٦) ﴿ ... قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله لتأتني به ، إلا
 أن يحاط بكم ... فلما أتوه موثقهم ، قال : الله على ما نقول وكيل ﴾ ١٠٣٩
 الاحتياط والتحفظ لازمان بجانب المقدر ، وجوه سماح يعقوب بانقاذ
 بنيامين مع اخوته ١٠٤٠ الخالف بالله حالف على حساب الله ، حس
 يعقوب بما سيجري لأولاده قبل أوانه ، وجوب التعلم من دروس الماضي
 ١٠٤١ معنى الاحاطة بالذي ١٠٤٢ وعد رأوين ويهوذا لأبيهما باعادة
 بنيامين اليه .

١٠٤٣ نصح يعقوب لأولاده عند دخولهم مصر في المرة الثانية

آ (٦٧) ﴿ ... وقال : يا بني ، لا تدخلوا من باب واحد ، وادخلوا من
 أبواب متفرقة ، وما أغني عنكم من الله شيء ، إن الحكم إلا لله ، عليه
 توكلت ، وعليه فليتوكل المتوكلون ﴾ ١٠٤٤ استعداد أبناء يعقوب
 الاحد عشر للسفر ونصح أبيهم لهم ١٠٤٧ سر التوكيل ؟ وجوب الأخذ
 بأسباب التحرز والحيطه مع التوكل ١٠٤٨ الأخذ بأسباب الحيطه والسلامة
 فرض ديني ، أسباب نجاح التريين وتأخر الشرقيين هو موقف كل منهم
 من القضاء والقدر ١٠٥٠ التوكل والآيات التي تحض على العمل الديني
 والأخروي ١٠٥٢ الدين الشريرة وعادات الاعم في دفع أذاها ١٠٥٣

الصحيفة والموضوع:

أبواب الدخول الى مصر ١٠٥٤ الحذر لا يفني من القدر ، هل للبعد إرادة واختيار ١٠٥٥ قول الخوارج : لاحكم إلا لله ١٠٥٦ نظام الطبيعة وأحكام سيرها تعين على حل مشكلة القدر .

١٠٥٦ الفصل الثالث — سفرة اخوة يوسف الثانية لمصر

آ (٦٨) ﴿... ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ، ما كان يفني عنهم من الله من شيء ، إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها ؛ وإنه لذو علم لما علمناه ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾

١٠٥٩ اجتماع شمل الشقيقين .

آ (٦٩) ﴿... ولما دخلوا على يوسف ، آوى اليه أخاه ، قال إني أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون﴾ ١٠٦٠ إخوة يوسف الأحد عشر بين يدي يوسف ١٠٦٢ يوسف يعرف أخاه بنيامين به ويؤاويه اليه .

١٠٦٤ بدء المعركة بين يوسف واخوته — التسريق .

آ (٧٠) ﴿... فاما جهزم بمجازهم ، جعل السقاية في رحل أخيه ... ثم أذن مؤذن : أيتها العير ، إنكم لسارقون﴾ ١٠٦٥ المحادثة التي يظن أنها جرت بين يوسف وأخيه بنيامين قبل تسريقه ١٠٦٨ هل كانت العسير حميراً أم إبلاً ١٠٧٠ المراد « بالمؤذن » ، بدء المعركة بين يوسف واخوته بإيقاعهم في مأزق خرج مع أبيهم ١٠٧١ اتفاق يوسف مع بنيامين على تسريقه ، مبررات قبول بنيامين التسريق ١٠٧٣ الرد على من قال ان يوسف قال لبنيامين أنا أخوك اخوة صداقة وحب ١٠٧٤ كيف جوز يوسف

لنفسه أن يعمل على اخوته حيلة تسريق بنيامين ليأخذه بها ١٠٧٨ شبهه

الصحيفة والموضوع :

حادثة يوسف هذه بمحادثتي العبد الصالح الذي خرق السفينة وقتل الغلام.
١٠٧٨ استفهام اخوة يوسف واستهجانهم نسبة السرقة اليهم .

آ (٧١) ﴿ قالوا : — وأقبلوا عليهم — ماذا تفقدون ؟! ﴾
١٠٧٩ الصواع المفقود .

آ (٧٢) ﴿ قالوا : نفقد صواع الملك ، ولمن جاء به حمل بعير ، وأنا
به ر

١٠٨٠ اخوة يوسف يردون التهمة .

آ (٧٣) ﴿ قالوا : تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض ، وما
كنا سارقين ﴾

١٠٨٢ استدراج الاخوة للحكم على أنفسهم بنفسهم بجزاء سارق الصواع .

آ (٧٤) ﴿ قالوا : فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ﴾

١٠٨٣ الجزاء من جنس العمل .

آ (٧٥) ﴿ قالوا : جزاؤه من وجد في رحله ، فهو جزاؤه ، كذلك

نجزى الظالمين ... ﴾ ١٠٨٤ جزاء السارق في شريعة آل يعقوب أخذه

كعبد ١٠٨٥ اقامة الظاهر مقام المضمّر في قوله « جزاؤه » ، جزاء السارق

في شتى الشرائع ١٠٨٦ الاسترقاق في شتى الشرائع ، كيف جوز يوسف

لنفسه أن يجازي اخوته بشريعتهم .

١٠٨٨ الوقوع في الفخ أو ثبوت السرقة .

آ (٧٦) ﴿ ... فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ، ثم استخرجها من وعاء

أخيه ، — كذلك كدنا ليوسف ، ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك ، إلا

الصحيفة والموضوع :

ان يشاء الله ، رفع درجات من نشاء ، وفوق كل ذي علم عليم ﴿ ١٠٨٩ ﴾ كيد يوسف لاختوته بوحى من الله عقاباً لهم في الدنيا ١٠٩١ كيد يوسف يجوز أن يكون كيداً تكوينياً راجعاً للقضاء والقدر ، كيد يوسف لاختوته كان حيث اقتضاه الحال بينه وبينهم أو حيث اختاره لنفسه ١٠٩٢ لمَّ لَمْ يُسَرِّقْ يوسف أحد اختوته غير بنيامين ١٠٩٣ يوسف يحتال على اختوته بالحسنى لشعوره بالضعف نحوهم ، أين جرى تفتيش الأوعية ١٠٩٥ تذكير ضمير « الصواع » وتأنيته ، كيف جاز ليوسف أن يعمل هذه الحيلة على اختوته ، الرأي واتباع المصلحة مصدر من مصادر الشريعة ١٠٩٦ علم الله فوق كل علم في الكيف والكم ١٠٩٧ علم الله فوق كل علم توصل ويتوصل اليه الانسان ١٠٩٨ كيف رضي بنيامين بتطبيق حيلة اخيه يوسف عليه ، ماهية الكيد في هذه الحادثة وأنواعه ١١٠٠ معاني « الدين » ١١٠١ جزاء السارق في حادثة بنيامين كان حسب شريعة ابراهيم ١١٠٢ الدرجات وأنواعها واطلاقها ١١٠٣ رفع الله درجات من يشاء من عباده لا ينافي ما وهبه لهم من الاختيار والاستقلال ١١٠٥ جواز كون ما عمله يوسف عقاباً لاختوته في الدنيا كان موحى به من الله تعالى .

١١٠٦ الطعن بيوسف وشقيقته :

آ (٨٧) ﴿ ... قالوا : « إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل » فأسرهما يوسف في نفسه ، ولم يبيدها لهم ، قل : « أأنتم شر مكاناً ، والله أعلم بما تصفون » ﴾ ١١٠٧ اتهم يوسف بالسرقة وحقيقة هذه السرقة ١١١٠ إعراض يوسف عن اللغو ١١١١ تذكر الاخوة ليوسف بالسوء ، ظن

الصحيحة والموضوع :

الاخوة بأن بنيامين بريء من السرقة ، تبسات الاخوة على كرم يوسف
١١١٣ اختصار الاخوة الطعن بيوسف ١١١٣ أوجه احتمال قوله
« فأسرها... » مثال لحلم يوسف .

١١١٥ استمطاف الاخوة :

آ (٧٨) ﴿ ... قالوا : يا أيها العزيز ، إن له أباً شيخاً كبيراً ، فخذ أحدنا
مكأله ، إنا نراك من المحسنين ﴾ ١١١٦ استمطاف الاخوة ليوسف باطلاق
سراح بنيامين وأخذ واحد منهم عوضاً عنه ١١١٧ أي الاخوة قام
بالاستمطاف ، طلب الاخوة ترك الجاني وأخذ البريء .

١١١٨ يوسف يرد استمطاف اخوته ويصر على أخذ سارق الصواع .

آ (٧٩) ﴿ قال : معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ، إنا إذا
لظالمون ﴾ ١١١٩ رفض يوسف ترك بنيامين أو أخذ غيره من الاخوة
١١٢٠ يوسف بين عاملي فرح وكدر ١١٢١ لا محابة في أحكام الشرع ،
لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ، يوسف يصر على تنفيذ الحكم الذي نطق به
اخوته ١١٢٢ تكرار جملة « معاذ الله » في القرآن ، ظاهر قوله « إنا إذا
لظالمون » وباطنه ١١٢٣ التورية في قوله « متاعنا » ١١٢٤ برقيتا شفرة من
يوسف لأبيه .

١١٢٤ اليأس والمفاوضة والمناجاة .

آ (٨٠) ﴿ فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً .. قال كبيرهم : ألم تعلموا
أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ، ومن قبل ما فرطتم في يوسف ،
فلن أبرح الارض حتى يأذن لي أبي ، أو يحكم الله لي ، وهو خير الحاكمين ﴾

الصحيفة والموضوع :

١١٢٧ يأس الاخوة من تخليص بنيامين وتفاوضهم وأقوال أخيهما الأكبر
١١٢٩ معنى « النجى » ١١٣٠ مجلس شورى الاخوة ١١٣١ إقرار الاخوة
على التفريط بيوسف سابقاً ، تمرىض رأوين بأخوته بعدم اشتراكه في
التفريط بيوسف سابقاً .

١١٣٢ نتيجة المفاوضة .

آ (٨١) ﴿ ارجعوا الى آيكم ، ققولوا : يا أبانا ، إن ابنك سرق ، وما
شهدنا إلا بما علمنا ، وما كنا للغيب حافظين ﴾ ١١٣٣ جهل البشر وفهم
الانبياء بالغيب ، اقامة الحججة على النصارى بعدم الوهية المسيح .

١١٣٥ شهود الحال على جريمة التسريق .

آ (٨٢) ﴿ وأسأل القرية التي كنا فيها ، والعرى التي اقبلنا فيها ، وإننا
لصادقون ﴾ ١١٣٦ التحقيق من القرية والعرى ، المراد من القرية أهلها
١١٣٧ حال يعقوب وأسرته آنئذ .

١١٣٨ تكذيب فصبر فترجى .

آ (٨٣) ﴿ ... قال : بل سولت لكم أنفسكم أمراً ، فصبر جميل ، عسى
الله أن يأتيني بهم جميعاً ، إنه هو العليم الحكيم ﴾ ١١٣٩ حال يعقوب
عندما بلغه نبأ تلصص واستعباد بنيامين ١١٤١ هاتف من يعقوب ١١٤٢
الايحار والحذف في القرآن ١١٤٣ استغشاش يعقوب لاولاده في نبأ
بنيامين ، يعقوب بين الابتسام والانسجام ، تشكك يعقوب في حادثتي يوسف
وبنيامين ١١٤٤ صبر يعقوب ، موقف يعقوب واحد في حالتي كذب
وصدق اولاده ، خوف يعقوب من اولاده .

الصحيحة والموضوع :

١١٤٥ دعة على يوسف .

آ (٨٤) ﴿ وتولى عنهم ، وقال : يا أسفا على يوسف ، وايمضت عيناه من الحزن ، فهو كظيم ﴾ ١١٤٦ تجدد حزن يعقوب ١١٤٨ أخلاق يعقوب .
 والنبیین علیہم السلام ١١٤٩ لماذا اختص يعقوب ولده يوسف بالحزن
 ١١٥٠ تكرار أسف يعقوب على ابنه يوسف ١١٥١ الحاجة التي في نفس
 يعقوب ١١٥٢ انما الصبر عند الصدمة الاولى ، جرح على جرح ١١٥٣
 أوجه أسف وحزن يعقوب على يوسف ، المراد من العين في قوله « وايمضت
 عيناه » ١١٥٤ معنى الكظيم ، مقابلة بين حزن يعقوب وحزن ارميا ١١٥٥
 سبب اقتصار أسف يعقوب على يوسف ، الرسل بشر يعترهم ما يعترى .
 البشر ١١٥٦ لفظة « يا أسفا » مسجلة الى يعقوب فقط في القرآن ، التجانس .
 بين لفظتي « الاسف » و « يوسف » ١١٥٧ الرد على من يقول إن حب
 يعقوب لابنه يوسف لا يليق الا بمن كان غافلاً عن الله ١١٥٨ ايضاض .
 العينين امتلائهما بالدمع من أثر الحزن ١١٦٠ تفسير ايضاض العينين .
 بمعناه المجازي .

١١٦١ اشفاق ونصح

آ (٨٥) ﴿ قالوا : تالله تفتأ تذكر يوسف ، حتى تكون حراً أو تكون
 من المالكين ﴾ ١١٦٢ أبناء يعقوب يحاولون تهوين الخطب على أبيهم
 وتسرية همومه وأحزانه مع شيء من اللوم ١١٦٤ « تالله » كلمة صحيحة .
 اريد بها باطل ، الحرص ومرادفاته . استعمال كلمة الهلاك للمسلم
 والكافر سواء .

الصحيفة والموضوع :

١١٦٥. أين الشجي من الخلي

آ (٨٦) ﴿قال: إنا أشكو بثي وحزني إلى الله ، وأعلم من الله مالا تعلمون﴾
 ١١٦٦ يعقوب يرد لابنائه نصيحتهم له ولومهم إياه على حزنه على يوسف
 ١١٦٩ جواز ابتلاء صاحب الحق بالمصائب والرزايا وصاحب الباطل بالنعم
 والمطايا ١١٧٠ الحكمة من منع علم الغيب عن الناس وإطلاع الانبياء على
 شيء منه ١١٧٢ وجوب الوقوف عند النصوص القطعية فيما يتعلق بعلم الغيب
 ١١٧٣ طرق نقل العلم

١١٧٤: العودة إلى مصر للتحسس

آ (٨٧) ﴿يأني ، انهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ، ولا تيأسوا
 من روح الله ، إنه لا يأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾ ١١٧٥
 يعقوب يطلب من أولاده العودة لمصر للاختيار ظاهراً والتحسس من يوسف
 وأخيه باطناً ١١٧٧ يعقوب يطلب من أولاده التحسس من يوسف وبنيامين
 ثم جلب الميرة ، معنى التحسس ١١٧٨ روح الله وأن اليأس منها كفر ،
 معنى الكفر والكافرين وإطلاقه على غمط النعمة ١١٨٠ إطلاق الكفر على
 المعصية الكبيرة ١١٨١ إطلاق الكفر على الضلال ، إطلاق الكفر على ترك
 بعض أركان الاسلام ١١٨٢ الكفر في عرف القرآن الكريم .

١١٨٣- الفصل الرابع — سفرة اخوة يوسف الثالثة لمصر .

آ (٨٨) ﴿... فلما دخلوا عليه ، قالوا : يا أيها العزيز ، مسنا وأهلنا الضر
 وجئنا ببضاعة مزجاة ، فأوف لنا الكيل ، وتصدق علينا ، إن الله يجزي
 المتصدقين﴾ ١١٨٤ دخول أبشاء يعقوب على العزيز « يوسف » للمرة
 الثالثة وتذللهم له في طلب الميرة ١١٨٦ مراحل الخطاب أو « الاستدعاء »

الصحيحة والموضوع :

مقايسة بين العبرانيين والعرب في الهمة ١١٨٧ البضاعة وطرق المبادلة بها
١١٨٨ اخوة يوسف يثبتون له جزاء على صدقته ١١٨٩ جزاء المتصدقين
في الدنيا والآخرة ١١٩٠ ذلة الاخوة مع الأجنبي « العزيز » وعظمتهم
مع أبيهم وأخيه ، خضوع البشر لحكم الغريب .

١١٩١ عتاب وتذكير

آ (٨٩) ﴿ ... قال : هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ﴾
١١٩٢ عتاب يوسف لآخوته وتذكيرهم بالتوبة ١١٩٤ يوسف يشفق
على لآخوته ويتنصح لهم ، العلم بالقبح يدعو الى الاستقباح وهذا يجبر الى
التوبة ١١٩٥ درجات المماثلة وموقع كلام يوسف منها ، صدق الخبر
الخبر ١١٩٦ أدب الأخوة في طلبهم ومقابلة يوسف لهم بذلك وعدم
حقده عليهم ١١٩٧ أسباب عدم ذكر يوسف أباه في هذا المقام ١٢٠١
تضمن يوسف عتابه لآخوته الاعتذار عنهم بالجهل تمحله لهم ، سلوك
يوسف مسلكاً وسطاً في أعماله وأقواله ، ١٢٠٤ عمل الاخوة مع بنيامين
لم يكن مباشرة بل بسبب عملهم مع يوسف ، معنى الجهل والجاهلين .

١٢٠٥ اظهار يوسف نفسه لآخوته

آ (٩٠) ﴿ قالوا : أأنك لأنت يوسف ؟ قال : أنا يوسف ، وهذا أخى
قد منّ الله علينا ، إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾
١٢٠٦ استعراف يوسف لآخوته بنفسه وبأخيه وتعريضه بهم ١٢٠٨
التعريض في الكلام ، التعريض في سورة يوسف ١٢٠٩ المحسن ، إحسان
يوسف ١٢١٠ نتيجة كيد اخوة يوسف له ١٢١١ سبب ذكر يوسف
أخاه بنيامين مقروناً باسمه دون سؤال منهم ١٢١٢ يوسف ثل خطوة

الصحيقة والموضوع :

بإخيه بمجواسه الخمس ، التنكيت للتصريح بكلمة « وهذا أخي » ١٢١٤
الجزء يكون في الدنيا والآخرة .

١٢١٩ اعتراف الاخوة بالخطيئة

آ (٩١) ﴿ قالوا : تالله لقد آثرك الله علينا ، وإن كنا لخاطئين ﴾ ١٢٢٠
اعتراف اخوة يوسف بخطيئتهم ثم تفضيلهم له عليهم ١٢٢٢ وجوب
الاعتراف بالاساءة ثم طلب الغفران ١٢٢٣ مقابلة بين خاتمة يوسف وبين
ما ذكره الانجيل من خاتمة بطرس تلميذ المسيح ١٢٢٥ الفرق بين لفظي
الخطيئة والخطيئة واخوة يوسف كانوا خاطئين وليسوا مخطئين ،
آيتا الاستغفار ١٢٢٦ عدم تمادي الاخوة في انكار المحسوس ،
الحى الميت ١٢٢٧ توبة اخوة يوسف وتوبة امرأة العزيز ١٢٢٨ مقابلة
بين أقوال اخوة يوسف السابقة وأقوالهم الحالية ١٢٣٠ مقابلة بين تفكير
الاخوة سابقاً وتفكيرهم الآن .

١٢٣١ شفيع المذنب اقراره أو المصالحة والمغفرة

آ (٩٢) ﴿ قال : لا تتريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم ، وهو أرحم
الراحمين ﴾ ١٢٣٢ يوسف يعفو عن إخوته ويطلب لهم المغفرة ١٢٣٤
معنى « التريب » ١٢٣٥ متعلق كلمة « اليوم » ١٢٣٦ المشابهون ليوسف
في عمله الاخير مع اخوته ١٢٣٧ الحكمة في مبادرة يوسف بالاستغفار
لاخوته بخلاف أبيهم ١٢٣٩ العفو أشد أنواع الانتقام ١٢٤٠ أرحم
الراحمين ، المدول عن الانتقام الى الغفران فصيلة ١٢٤١ غفران الاساءة
واحب ١٢٤٢ من تاب غفر الله له ، ماهو الجزاء الذي وقع على اخوة
يوسف حتى غفر الله لهم ١٢٤٤ المغفرة والعفو والفرق بينهما ، ١٢٤٥

الصحيفة والموضوع :

المغفرة في التلمود والانجيل ، العبرة بالخواتيم ١٣٤٦ فصول حوادث الحياة وتطبيقها على يوسف ، الطريقة المثلى في المساعدة ١٢٤٧ اسباغ النعمة على اخوة يوسف

١٢٤٨ قميص البشارة

آ (٩٣) ﴿... اذهبوا بقميصي هذا ، فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً ، وائتوني بأهلكم أجمعين﴾ ، تحقيق عما هو هذا القميص وعن كلمة بصير ، القميص هو كسوة رسمية ١٢٥٠ « البصير » هو العالم عالماً قلبياً ١٢٥٢ يعقوب يصير عالماً عالماً قلبياً بحال ابنه يوسف ١٢٥٤ تفسير « يأت بصيراً » يجيء مبصرأ بعينه ١٢٥٥ تأويل القميص بالرتبة العالية ١٢٥٦ انتقاد تأويل القميص بالرتبة العالية والرد عليه ١٢٥٨ تفسير « القميص واللقاء والوجه » بأمر معنوي من باب الاستعارة وترشيحاتها ١٢٦٣ تطبيق الاستعارة وترشيحاتها على قوله : اذهبوا بقميصي هذا .. الخ ١٢٦٥ تفسير الآية بتطبيق الاستعارة وترشيحاتها عليها ١٢٦٨ تفاوت فهم العلماء في دلالة النصوص الاضافية ١٢٧٤ رد تفسير كلمة « بصير » ببصر « ضد الأعمى » ١٢٧٥ أشياء فوق الطبيعة في سورة يوسف ١٢٧٧ عظمة يوسف بتوخي المنفعة لأهله ولو بعد ما أهانوه ١٢٧٨ لزوم استخدام المال والمنصب والجاه في منفعة ذوي الرحم ١٢٧٩ أوصاف المؤمنين الاربعة تمت ليوسف ١٢٨٠ حال اخوة يوسف عند مفارقتهم له لجلب أهلهم لمصر ، نتيجة رحلة بني اسرائيل لمصر ١٢٨١ الارهاص والمعجزة ، عطايا يوسف لاختوته عند ذهابهم لجلب أهلهم

١٢٨٢ عودة القافلة بالبشارة

آ (٩٤) ﴿... ولما فصلت العير ، قال أبوه : إني لأجد ريح يوسف !!

الصحيفة والموضوع :

لولا أن تغفدون .. ﴿ ١٢٨٣ ﴾ تخيل يعقوب رائحة يوسف مع النسيم ١٢٨٤
 تنسم يعقوب ريح يوسف عابقة من قميصه الكتان ١٢٨٦ حس يعقوب
 رائحة يوسف بالشم ، تحسس يعقوب برائحة يوسف تحسناً معنوياً ١٢٨٧
 اقتباس يعقوب ريح يوسف بدون وساطة الحواس ١٢٨٨ ادراك يعقوب
 رائحة يوسف إلهاماً بقلبه ١٢٩٠ جواز ادراك يعقوب رائحة يوسف
 كما يدرك المنوّم تنويعاً مغناطيسياً الاشياء ١٢٩١ شواهد على
 ادراك الرائحة بالالهام القلبي ١٢٩٥ انتقال رائحة يوسف ليعقوب مع
 الريح ١٢٩٦ اعتبار ريح يوسف استعارة مكنية مرشحة .

١٢٩٨ الأحفاد ينتقدون جدهم

آ (٩٥) ﴿ قالوا : تالله إنك لفي ضلالك القديم !! ﴾ ١٢٩٩ عدم الرد على
 السفينة أوجب لامتهانه من الرد عليه ١٣٠٠ أحفاد يعقوب .

١٣٠١ البشارة

آ (٩٦) ﴿ ... فلما أن جاء البشير ، ألقاه على وجهه فارتد بصيراً !! قال :
 ألم أقل لكم : إني أعلم من الله ما لا تعلمون ؟ ! ﴾ ١٣٠٣ وصول البشير
 والقاؤه القميص على وجه يعقوب ١٣٠٤ خصائص قميص البشارة ورده
 بصر يعقوب ١٣٠٦ تصديق قول يوسف في أبيه وتصديق قول أبيه فيه
 ١٣٠٧ العلم بقر ما كان معتبراً من المعجزات قديماً فلم لا يقر ارتداد بصر
 يعقوب بالقاء القميص عليه

١٣٠٨ طلب الاستغفار

آ (٩٧) ﴿ — قالوا : يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا ، إنا كنا خاطئين ﴾ ١٣٠٩
 أبناء يعقوب يطلبون من أبيهم أن يستغفر لهم ذنوبهم ١٣١٠ الشفاعة

الصحيفة والموضوع :

وأواعها وحكما ١٣١١ سبب طلب الاخوة الاستغفار من أبيهم ولم يطلبوه.
من أخيم ١٣١٢ مذهب السلف والطوائف الاسلامية الأخرى في النجاة
والإيمان ، تحليل قوله « ذنوبنا » بصيغة الجمع ١٣١٣ لماذا لم يستغفروا
لأنفسهم بأنفسهم

١٣١٥ تسويف الاستغفار

آ (٩٨) ﴿ - قال : سوف أستغفر لكم ربي ، إنه هو الغفور الرحيم ﴾
١٣١٦ أسباب تسويف يعقوب الاستغفار لأولاده ١٣١٨ هل وفي
يعقوب بوعده لأولاده بالاستغفار لهم ، هجرتا يعقوب ١٣١٩ هجرة
الأنبياء ، مخلفات سلالة ابراهيم في أرض الميعاد بعد جلائها عنها لمصر
١٣٢٠ الفصل الخامس - السفرة الرابعة والاخيرة لمصر - يوم اللقاء .

آ (٩٩) ﴿ ... فلما دخلوا على يوسف ، آوى اليه أبويه ، وقال : ادخلوا
مصر « إن شاء الله » آمين ﴾ ١٣٢١ سفرة يعقوب واسرته لمصر ،
وداع يعقوب لفلسطين ، لقاء الشيتين ١٣٢٣ حال يعقوب عند رؤيته
ليوسف ، مبدأ التاريخ العبراني ١٣٢٤ من هي أم يوسف التي آواها اليه ١٣٢٥
يعقوب يرحل عن أرض الميعاد لمصر حبا بولده يوسف ، كيف قابل يوسف أبويه
عند دخولها عليه وكيف عاملها .

١٣٢٦ خطبة الوثام والسلام .

آ (١٠٠) ﴿ ... ورفع أبويه على العرش ، وخرأله سجداً ، وقال :
يا أبت ، هذا تأويل رؤياي من قبل ، قد جعلها ربي حقاً ، وقد أحسن بي .
إذ أخرجني من السجن ، وجاء بكم من البدو ، من بعد أن نزع الشيطان .

، الصحيفة والموضوع :

بيني وبين إخوتي ، إن ربي لطيف لما يشاء ، إنه هو العليم الحكيم ﴿ ١٣٢٧ مصداق رؤيا يوسف الثانية ١٣٣١ اختصار يوسف القول في جلسة الاتهام وتبسطه فيه في جلسة السلام ١٣٣٢ مصداق قول يوسف ومصداق قول أبيه ١٣٣٣ الاحسان بتعدي بالبلاء وبإلى ١٣٣٤ معنى « البدو » ١٣٣٥ معنى « النزغ » والرد على القول بأن اختلاف الامة رحمة ١٣٣٦ توجيه النزغ للشيطان ، أدب يوسف في التعبير وامثلة من أدب تماير القرآن ١٣٣٧ معنى استحياء النساء في قوله « يستحيون نساءكم » ١٣٤٠ عدم ممانعة الدين الاسلامي التمتع بحياة المدن الاجتماعية ١٣٤١ نوال يعقوب شرفاً دنيوياً مع الشرف الديني ، مقابلة بين معاملة يوسف لأبويه ومعاملة المسيح (ع) — حسب رأي الانجيل — لأمه ١٣٤٣ ذكريات يعقوب ويوسف واخوته بعدما ألقى يوسف خطاب الوثام ١٣٤٤ معنى السجود والخروج وحكمهما في الدين ١٣٤٦ البدو وسكناهم وشهادتهم .

١٣٤٧٠ حسن الختام .

آ (١٠١) ﴿ رب ! قد آتيتني من الملك ، وعلمتني من تأويل الأحاديث ، فاطر السموات والارض ، أنت ولي في الدنيا والآخرة ، توفي مسلماً ، والحقني بالصالحين ﴾ ١٣٤٨ تحدث يوسف بنعمة الله وترجيه أن تكون خاتمة حياته حسنة ١٣٤٩ أنواع الادعية في القرآن ١٣٥٢ طفرات حياة يوسف عليه السلام ، إنشاء الملك الشرعي وغير الشرعي ١٣٥٣ الرد على من يقول ان يوسف استقل بالملك ١٣٥٤ الانبياء الذين آتاهم الله الملك . والنبوة معاً ١٣٥٥ تحليل عدم ذكر يوسف النبوة في قوله « رب قد

الصحيفة والموضوع :

آتيتي ... الخ ١٣٥٦ الاحاديث التي علم الله يوسف تأويلها ١٣٥٧ الولي
 وأنواع الولاية ١٣٥٩ درجات الولاية ، الآخرة في كتب اليهود والنصارى
 ١٣٦٠ الاسلام دين جميع الرسل ١٣٦٢ دعاء يوسف باماتته مسلماً ١٣٦٣
 مبلغ ما أوتيّه يوسف من الملك ١٣٦٤ الاسلام والجاهلية لغة ١٣٦٥ حال
 يوسف اثناء وبعد حفلة الختام ، وفاة يوسف ويعقوب ومدفنها ١٣٦٦
 نهاية اخوة يوسف ١٣٦٧ نهاية بني اسرائيل ومملكته .

١٣٦٨ الباب الخامس .

الفصل الاول .

خاتمة الشيء المقصود الذي انعقدت له السورة أو الاستدلال على نبوة
 محمد ﷺ .

آ (١٠٢) ﴿ ذلك من أنباء الغيب ، فوحيه اليك ، وما كنت لديهم إذ
 أجمعوا أمرهم وهم يمكرون ﴾ ١٣٧٠ الرد على دعوى الكفرة بأن
 الرسول ﷺ قد تلقى العلم من الناس قبل النبوة ١٣٧٣ الرد على دعوى
 الكفرة بأن الرسول ﷺ قد تلقى العلم من الناس بعد النبوة ١٣٧٤ الرد
 على دعوى البروتستانت بأن الرسول ﷺ كان يتصيد المسائل من نصارى
 العرب ويهودها ١٣٧٥ أساس تسرب الفس لأذهان مفسري القرآن وعصمة
 النبي ﷺ من ذلك ١٣٧٦ بعض معجزات القرآن الدالة على أنه وحى من
 الله ١٣٧٨ الاستدلال على نبوة محمد ﷺ هنا كان عرضاً وليس قصداً
 لذاته ١٣٧٩ هل مسكن اليهود والنصارى مكة أيام النبي ﷺ ١٣٨٠ تكرار
 المعنى الذي حوته هذه الآية في آيات أخرى ، المكر الثابت والمكر المقدر
 بقدر العمل المرافق له ١٣٨١ من عادة القرآن المجيد ذكر « التوحيد » في

الصحيفة والموضوع :

كل مناسبة ١٣٨٢ طسرق تبليغ كلام البشر وطريقة تبليغ كلام الله للملائكة والانباء .

١٣٨٤ طبيعة اكثر الناس عدم الايمان .

آ (١٠٣) ﴿ وما اكثر الناس ، ولو حرصت ، بمؤمنين ﴾ ١٣٨٥ تأسي الناصحين برسول الله ﷺ عند عدم افادة ارشادهم للناس ، المؤمنون أقل من الكافرين .

١٣٨٦ اخلاص النبي ﷺ في دعوته .

آ (١٠٤) ﴿ وما تسألهم عليه من أجر ، إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ ١٣٨٧ تكرر الدعوة غير المجورة في القرآن ١٣٨٨ الاخلاص في الدعوة من مستلزمات نجاحها ١٣٨٩ معنى «العالمين» .

١٣٨٩ الفصل الثاني — تقرير الغافلين عن التفكير في آيات الله .

آ (١٠٥) ﴿ وكأي من آية في السموات والارض ، يمرون عليها ، وهم عنها معرضون ﴾ ١٣٩٠ تقرير الناس المعرضين عن النظر في الآيات الكونية الدالة على توحيد الاله ١٣٩١ تقرير أهل مكة خاصة والناس عامة لتعطيل أبصارهم وبصائرهم عما في الوجود من آيات ، النوع العتيق والنوع الجديد من آيات الله ١٣٩٦ ضرورة الاستدلال والتفكر في آيات الكون .

١٣٩٧ التوحيد في الربوبية والاشراك في الالهية .

آ (١٠٦) ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ ١٣٩٨ متى يعبر القرآن بلفظ « الاكثر » و « الكثير » ١٣٩٩ القرآن يبين ما عليه

الصحيفة والموضوع :

الأمم من عقائد وأخلاق وأعمال ، كثير من مسلمي اليوم موحدون في الربوبية مشركون في الألوهية ١٤٠١ كثير من الآيات التي نزلت في غير المسلمين تصدق اليوم على اكثرية المسلمين ، أنواع الشرك ومظاهرها في الأعمال والأقوال ١٤٠٤ الفرق بين الجاحد لوجود الله وبين المشرك ١٤٠٥ تشابه اكثر مسلمي اليوم في الشرك مع أهل مكة في زمن الجاهلية ، الأصل في دعوة المسيح وموسى عليها السلام التوحيد المطلق ١٤٠٦ الاعتقاد بقدرة الاولياء والصالحين والتوسل بذواتهم شرك بالله ١٤٠٧ فضل الله على عباده وأقسامه ١٤٠٨ تحريم سوال الاولياء ذوي الاضحة شيئاً مادياً أو معنوياً ١٤٠٩ اتوسل بحاجه الأنبياء والأولياء ١٤١٠ الرد على من احتج بحديث رواه الترمذي بجواز التوسل الى الله بغيره ١٤١١ واجب الوجود واحد ومستحق العبادة واحد وهو الله تعالى ١٤١٢ ماهو المراد بمثقال حبة من خردل من الايمان في حديث البخاري ١٤١٣ المطل المنكر لوجود الله تعالى شر من الشرك ، حكم ثلوث الجاهلين من مسلمي اليوم بشرك الألوهية ، شرك النصارى في الربوبية والألوهية ١٤١٤ الطوائف المنسلخة عن الاسلام بسبب شركها بالله أو بالتشريع ، المشرك من يدعو الاصنام أو من يدعو الصالحين .

١٤١٥ انذار المشركين بالله .

آ (١٠٧) ﴿ ... فأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله ، أو تأتيهم الساعة بفتة ، وهم لا يشعرون ؟ ﴾ ١٤١٦ الساعة الصغرى الدنيوية وأمثلة عليها ١٤١٨ الساعة الصغرى الدنيوية والساعة الكبرى الاخرية ١٤١٩ الحشر الدنيوي ١٤٢٠ النشر والحساب الدنيويان ١٤٢١ الحساب العام الاخروي ، الصراط والعذاب والعقاب والأجر والثواب الدنيويات ١٤٢٢ الميعاد

الصحيفة والموضوع :

الدينوي ١٤٣٣ البعث الدينوي ، الآخرة والجزاء الدينويان ١٤٣٤ الحياة بعد الموت في الدنيا .

١٤٣٥ الفصل الثالث : الدعوة الى الايمان بالدليل .

آ (١٠٨) ﴿ قل : هذه سبيلي ، أَدْعُوا الى الله على بصيرة ، أنا ومن اتبعني ، وسبحان الله وما أنا من المشركين ﴾ ١٤٣٦ التقليد في الدين باطل ، النبي والمؤمنون كانوا على بصيرة من الدعوة للايمان ١٤٣٨ دعوة النبي ﷺ للتوحيد كانت بالحجج العقلية ١٤٣٩ أكثر دعاة اهل اليوم هم على غير بصيرة ، دعوة النبي ﷺ وبعثته كانتا عامتين ١٤٣٠ الدعوة والدعاء والادعاء والدعوى ١٤٣١ الدين الاسلامي قام بالحجة لا بالسيف والقوة ١٤٣٣ الاسلام لا يضطهد الناس لعقيدتهم — وبيان حديث (من بدل دينه فاقتلوه) ، منع النبي ﷺ بعض المسلمين من اكرام اولادهم المتهودين على الاسلام ١٤٣٥ مرتبتا الدعوة الى التوحيد ١٤٣٦ الدعوة الى توحيد الله بالعقل والدليل ١٤٣٧ علينا أن تناسى برسول الله في الدعوة اليوم .

١٤٣٨ الفصل الرابع : قياس حاضر محمد ﷺ على ماضي الانبياء .

آ (١٠٩) ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً ، نوحى اليهم ، من أهل القرى ، أفلم يسيروا في الارض ، فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ؟ ولدار الآخرة خير للذين اتقوا ، أفلا تعقلون ؟ ﴾ ١٤٣٩ تطبيق القول على الواقع ١٤٤٠ الحث على السياحة المفيدة والاحسان الى السائح ، أهل القرى وأهل البوادي والأعراب ١٤٤١ الاستدلال بالقياس

الصحيحة والموضوع :

الاستقرائي على صحة الدعوة ١٤٤٢ الانبياء رجال كباقي الرجال امتازوا عنهم بالوحي .

١٤٤٤ تطمين محمد ﷺ بالنصر .

آ (١١٠) ﴿ ... حتى اذا استيأس الرسل ، وظنوا أنهم قد كذبوا ، جاءهم نصرنا ، فنجي من نشاء ، ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين ﴾ ١٤٤٥ الله سبحانه وتعالى يطمئن محمداً ﷺ بأنه ناصره في دعوته ١٤٤٦ تخريج كلمة « كذبوا » بتشديد الذال وتخفيفها .

١٤٤٧ الفصل الخامس والآخر — العبرة من قصص الرسل مع أقوامهم .

آ (١١١) ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ، ما كان حديثاً يفترى ، ولكن تصديق الذي بين يديه ، وتفصيل كل شيء ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ ١٤٤٨ محمد ﷺ مؤسس امة وامبراطورية وديانة ١٤٤٩ الغاية من قصص القرآن ، الغاية من ذكر الأنبياء وقصصهم في القرآن ١٤٥١ ليس في القرآن تاريخ بل عبر وعظات ١٤٥٤ قصص القرآن يعلم التوحيد والعلم والاخلاق ، لا فائد من درس التاريخ ان عدل به عن العبرة ١٤٥٥ قصة يوسف تسوق المتعظ بها الى السعادة ١٤٥٦ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ١٤٥٧ ليس القرآن مخترعاً ولا مفترى وليس فيه خرافات وأساطير ١٤٥٨ القرآن مصدق لما قبله من أمور التوحيد ١٤٥٩ القرآن مصدق لما قبله من اصول الدين ، القرآن مصدق لما قبله من كتب التوحيد ١٤٦٠ القرآن مصدق لدين اليهود والنصارى الأصليين ، القرآن

الصحيفة والموضوع :

مصدق للكتب السماوية الاصلية ١٤٦١ شواهد من التوراة الحالية على ان
 فيها زيادة ١٤٦٣ التوراة الحالية كتبت بعد السي ١٤٦٤ الرد على القول
 بأن « عزرا » الكاتب هو الذي كتب التوراة الحالية ١٤٦٥ القرآن يذكر
 كل شيء مهم من امور الدين ١٤٦٦ القرآن هدى ورحمة وشفاء وموعظة
 ١٤٦٨ القرآن هدى ورحمة لمن يفهمه ١٤٦٩ الهدى هو الدعوة والدلالة
 والبيان ، كلمة الختام .

فهرس الآيات والمواضيع التي للمؤف فيها رأي أو فهم خاص في الجزء الثاني

الصحيفة والموضوع :

٧٧٨ الغمز من قناه الفتيين وأدب الأنبياء في الخطاب ٧٨٤ واجب الواعظ
نحو الموعوظين وامثلة من القرآن ٨٠٢ سبب اقتصار يوسف (ع) على دعوة
صاحبي السجن الى التوحيد فقط ٨١٦ وجوب علم امور الدين علماً استقلالياً
استدلالي ٨٤١ نسيان الفتى التاجي ذكر يوسف للملك وأسبابه ٨٩٦ الرؤيا على
عبث اولاً ٩٠٢ حجر أصاب صيدين ٩٢٠ داعي اندفاع « زليخا » للاعتراف بفعلتها
والدفاع عن شرف يوسف ٩٢٥ نسبة القول في قوله « ذلك ليعلم.. الخ » الى زليخا
وليس الى يوسف ٩٤١ عدد جيئات الرسول السجين للسجن ١٠٠٩ محاولة يوسف
(ع) رجوع اخوته بينيامين عن طريق الترغيب والتجيب ١٠١٠ معنى الايقاء ووجه
امتنان يوسف على اخوته ١٠١٩ كيف جاز ليوسف التصرف باموال الخزينة
المصرية ١٠٢١ لماذا لم يخبر يوسف اخوته بحليلة الواقع في سفرتهم الاولى ١٠٤٠
الحالف بالله حالف على حساب الله ١٠٥٧ « الحاجة » التي في نفس يعقوب (ع)
١١٨٧ البضاعة وطرق المبادلة بها ١٢٤٢ ماهو الجزاء الذي وقع على اخوة يوسف
حتى غفر الله لهم ١٢٥٠ البصير هو العالم علماً قلبياً . ١٢٥٨ تفسير « القميص
والالقاء والوجه » بامر معنوى من باب الاستعارة وترشيحاتها ١٢٩٦ اعتبار ربح
يوسف استعارة مكنية مرشحة ١٣٢٥ كيف قابل يوسف ابويه عند دخولهما
عليه وكيف عاملها ١٣٦٤ الاسلام والجاهلية لغة .

جدول الأخطاء المطبعية وتصويبها في هذا الجزء (الثاني)

صحيفة	سطر	الخطأ	التصويب
٧٤٣	١٣	ولو	لو
٧٤٦	٤	الفرصة	الفرجة
٧٥٢	٨	والمقل	والفعل
٧٥٣	٢٣	العظيمة	العظمية
٧٥٥	١٤	لشركهم	بشر كهم
٧٥٥	١٥	قض ٦ : ٦٥	قض ٦ : ٢٥
٧٥٥	٢٣	حيدون	صيدون
٧٥٦	١٥	تراقيم	ترافيم
٧٥٦	٢٤	ونبوا	وبنوا
٧٦١	٤	وملحاًؤهم	وصلحاًؤهم
٧٦٣	١٥	أذربيجان	أذريجان
٧٦٤	١٥	الغيب	الغيب
٧٦٨	٧	(٢ : ٢٧٦)	(٢ : ١٧٦)
٧٧٥	١١	وعشيه	وعشيه
٧٧٥	١٣	نعمتي	نعمتي
٧٨٤	١٧	عليها كثيرة	عليها في مواضع كثيرة
٧٨٥	٧	تلبسون	تلبسون
٧٨٥	٩	مُصِدِّقاً	مُصَدِّقاً
٧٨٥	١٥	يا أيها آمَنُوا	يا أيها الذين آمَنُوا
٧٨٨	٤	حبان	حيان
٧٩١	١٧	منه ، أو ما شاءوا	منه ، أو منشقان منه ، أو ما شاءوا

تابع جدول الاخطاء المطبعية وتصويبها في الجزء الثاني

صحيفة	سطر	الخطأ	التصويب
٧٩٢	١٤	أخرجناه	أخرجاه
٧٩٤	١٩	مترات	مترات
٧٩٤	٢٠	مترات	مترات
٧٩٨	١٥	اوزمية	اورمية
٧٩٨	١٧	الاقسوسي	الافسوسي
٧٩٩	١٢	الفراغة في التوثن	الفراغة وثنيين على طريقة الفراغة في التوثن
٨٠٠	٢	بقوله عز وجل	كما في قوله عز وجل
٨٠٠	٤	ولا يَتَّخِذْ	ولا يَتَّخِذْ
٨٠٠	٢١	الأديبة	الادبية
٨٠١	٢	أديبة	أديبة
٨٠٢	١٢	أصحاب	أصحاب
٨٠٣	٢	شركاء	شركاء
٨٠٦	٥	وإن كان	وإن كان
٨٠٦	١٤	فهم	منهم
٨٠٨	١	القامة	القيامة
٨٠٨	٣	يبين	يبين
٨٠٨	٥	(أع ٢٠: ٢٢)	(أع ٢: ٢٢)
٨٠٨	١٦	وتطيعوني	وتطيعوني « آه
٨١١	٤	إن الحكم	إن الحكم

صحيفة	سطر	الخطأ	التصويب
٨١٧	٨	ودائماً	دائماً
٨١٧	١٢	بُنْيَا نُهُمُ	بِنْيَا تَهُمِ
٨١٨	٧	من قبل	من قبيل
٨٢١	٢٠	يسمعانه	يسمعان
٨٢٢	١٦	أداء	داء
٨٢٣	٨	وَقَصَّى	وتقصَّى
٨٢٣	١٤	الكري	الكردي
٨٢٤	١٧	السؤال	والسؤال
٨٢٤	٢٠	كما	وكما
٨٢٥	٤	كشركَ	نُشركَ
٨٢٦	١٥	أدن	أدنان
٨٢٩	١١	لَيَضِلُّونَ	لَيُضِلُّونَ
٨٣١	١١	« بنو »	« نبو »
٨٣٢	٤	بصراحة	بالحزم والصراحة
٨٣٢	١٥	« مجلث »	« مجلث » أو « ملحب »
٨٣٤	٦	شعر	شعرا
٨٣٧	١٠	« قانون »	« قاتون »
٨٤٥	٢٠	يوسف	يوسف
٨٤٧	١٨	والجوانح	والجوانح
٨٤٨	١٦	يجلون	يبتخلون
٨٤٨	٢١	خبار	إخبار

التصويب	الخطأ	سطر	صحيفة
الصدى	الصدى	١٩	٨٥١
الله خالق	الله خالق	٢١	٨٥٢
أن	أن	١٢	٨٥٣
إن	إن	١٣	٨٥٣
يوم القيمة	يوم القيمة	٤	٨٥٤
مَسْفُلِيُون	مَسْفُلِيُون	٢٢	٨٥٤
د' أبي بن خلف	د' أمية بن خلف	٥	٨٥٥
د' أبي بن خلف	د' أمية بن خلف	٧	٨٥٥
فزده	فزوده	٨	٨٥٥
وزاده	وزادوه	٩	٨٥٥
رؤياي	رؤياي	٦	٨٥٦
ورقيقة	وربيعة	١٥	٨٥٧
نابئة	ناثية	٢٠	٨٥٧
من عبرت	من عبرت	٤	٨٦٤
قلت هو جمع	هو جمع	٥	٨٦٥
(كما يستفاد من رؤياه)	(يستفاد من رؤياه)	٢٢	٨٦٩
أمة	أمة	١٨	٨٧٠
أنت وروحك	أنت وروحك	١٦	٨٨٠
الرؤيا	الرؤية	٧	٨٨٣
بشأن	لشأن	٢	٨٨٥
قد متهم	قد متهم	١٥	٨٨٩

صحيفة	سطر	الخطأ	التصويب
٨٩٠	٢٠	الحمم	الحمام
٨٩٢	٧	قضى يوسف	قضى يوسف
٨٩٤	١٩	هذه المرة بقول	هذه المرة أيضاً كحظه في سابقتهما، أو امله
		« الشرايبي » *	اكتفى في هذه المرة بقول « الشرايبي »
٩٠٢	١٩	باتهامه	باتهامها
٩٣٩	٤	وأزلقه	وأزلقه
٩٤١	١٤	أو نقصه	أو نقصه
٩٦٤	١١	لخرم	لحزيم
٩٦٥	٧	وطمع	وطمع
٧٦٨	١٢	خزائن	خزائن الملكة
٩٧٩	٨	بصبيان	تصبيان
٩٩٠	١٤	بيوئيل	بتوئيل
٩٩١	٦	اخوة	اخوة
٩٩٣	٨	للمتارين	للمتارين
٩٩٧	١٠	فغنيح	فغنيح
٩٩٩	١٥	وقال	قال
١٠٠١	٧	للقرآن	للقرءاء
١٠٠٢	١٧	وقام	وقال
١٠٠٧	٨	على	من
١٠٢٢	٢١	جملوا	اجملوا
١٠٢٣	٧	التممدنية	التممدنية

صحيفة	سطر	الخطأ	التصويب
١٠٢٤	٩	(فلما رجموا	(فلما رجموا)
١٠٢٨	١٨	ضمن	ضمن
١٠٤٥	٦	الفرّ	الفرّ
١٠٥٦	١٣	أمرهم	أمرهم
١٠٥٦	١٢	لا حاجة	إلا حاجة
١٠٥٦	١٥	عليم	علم
١٠٥٦	١٥	كثر	أكثر
١٠٦٤	٤	مؤذن	مؤذن
١٠٧١	١٨	قبول بنيامين	قبول بنيامين التسريق
١٠٧٢	١	التسويق	التسريق
١٠٨١	٢٣	وادی الفضأ	وادی الغضا
١٠٨٠	١	يرددون	يردون
١٠٨٨	٨	كُئِل	كُل
١٠٨٩	١٩	يوشي	يوشي
١٠٩١	١	كيد تـكـوـنـي راجع	كيداً تـكـوـنـياً راجعاً
١٠٩٥	١٢	مارق	سارق
١١٢٣	١٣	العلات	العلاآت
١١٣٥	١٣	« الميرة »	« المير »
١١٤٢	٢٢	فأقيا	فأقيا
١١٥٣	١١	دون تترك	دون أن تترك
١١٧٠	٣	واسرق	واسترق

صحيفة	سطر	الخطأ	التصويب
١١٧٠	١٣	وَلِيْمُخَصَّ	وَلِيْمُخَصَّ
١١٧٩	١٣	رَبُّكُمْ	رَبُّكُمْ
١١٨٠	١٦	يُعَلِّمُونَ	يُعَلِّمُونَ
١١٨٦	١٨	العبرانيين	العبرانيين
١١٨٨	١٢	التمدنية	التمدنية
١٢٠٦	٨	« الابان »	« لابان »
١٢١٣	١٧	من أذكره	من أن أذكره
١٢١٥	٦	ترجمون	ترجمون
١٢١٩	٣	(٦٩ : ٥)	(٦٦ : ٥)
١٢٢٠	٦	يالانخجلة	يا لانخجلة
١٢٣٣	١٣	دَبَّرَ	دَبَّرَ
١٢٥٠	١٣	بَصَرَ بِعَمَلِهِ	بَصَرَ بِعَمَلِهِ
١٢٥٤	١٥	لولده يوسف	لدلوه يوسف ثم فقده له
١٢٥٤	١٩	من ايضاض أو فقد	من فقد الذاكرة البصرية فقدا
		حسن الرؤية	روحياً نفسانياً
١٢٥٧	٥	فاص	ناس
١٢٦٢	١٦	لوارمه	لوازمه
١٢٦٦	٨	لهوا	لهو
١٢٦٧	٢١	المخر	المخر
١٢٧٢	٨	رشدہ آلهي	أرشدہ النہی
١٢٨٢	١٣	(لاني أجد)	(لاني لأجد)

التصويب	مسطر	الخطأ	صحيفة
وما رأيت من	١٨	ورأيت من	١٢٩٢
جمع مغزى	٢٣	جمع مغزى	١٣٣٢
الكناية	١٣	الكتابة	١٣٣٩
ومملكتهم	١	ومملكتهم	١٣٦٧
ومملكتهم	٥	ومملكتهم	١٣٦٧
فالإخبار	١٢	فالأخبار	١٣٧٧
الحجيد	٢	الحجيد	١٣٨٢
عنه	٢	عند	١٣٨٤
تشير	١٥	تسير	١٣٨٨
فارعه	١٤	فارعة	١٣٩٠
من	١	على	١٣٩٢
تلفرافاً	٢٠	تلفرافاً	١٣٩٥
غيرها	٨	غيرها	١٣٩٩
في دين النصارى	١٢	في النصارى	١٤٠٥
الحاجات	٤	لحاجات	١٣٠٧
النافع	٤	المانع	١٤٠٧
الأنبياء	٨	الأنبياء	١٤٠٩
بجابه	١٥	بجاءه	١٤٠٩
واحد	٥	واحد	١٤١١
يُشْرِكُ	١٢	يُشْرِكُ	١٤١٢

صحيفة	سطر	الخطأ	التصويب
١٤١٢	١٨	وحينئذ	وحينئذ
١٤١٣	١١	مسلمين	مسلمي
١٤١٤	١٧	تسفيه	تسفيه
١٤١٥	٢٢	عقوية	عقوبة
١٤١٩	٤	الاعراض	الاعراف
١٤٢٠	٣	مخشورة	مخشورة
١٤٢٠	١٢	ذلك	ذلك
١٤٢١	١٧	وأفوا	وأوفوا
١٤٢٣	٣	تستأخرون	تستأخرون
١٤٢٤	٥	وقولها	وقوله
١٤٢٤	٩	حَذَرُ	حَذَر
١٤٢٤	١٧	والعودية	والعبودية
١٤٢٧	١٦	هل يكن	هل لم يكن
١٤٢٨	٦	الله الذين	الله الذي
١٤٢٩	١٦	إيداناً	إيداناً
١٤٣٠	٩	فان لا نجمل في	فإن الانجيل الذي في
١٤٣١	١٣	فهوى	فهو
١٤٣٤	١٠	أولادهم	أولادهن
١٤٣٩	٤	من الماضي	على الماضي
١٤٣٩	٥	(فينلروا كيف	(فينظروا كيف
١٤٤٣	١٢	به القرآن	به من القرآن

التصويب	الخطأ	سطر	صحيفة
استخدمها	استخدمها	١٢	١٤٤٣
عن كل الرجال	عن الرجال	٢١	١٤٤٣
أيقنوا	يقنوا	٣	١٤٤٧
فهذا الباب	فهذا الباب	٢	١٤٥١
صغيره وكبيره	صغيرة وكبيرة	٢	١٤٥٩
من عربات	عن عربات	١٤	١٤٦٢
التوراة	التوواة	٧	١٤٦٣
الفرح	القرح	٢٠-	١٤٦٧
للنبات	للبنات	٢٢	١٤٦٧
التذكّر	التذكر	١٥	١٤٦٨
فكان من الفاوين	فكان الفاوين	١٩	١٤٦٨
والالوهية	والوهية	١٨	١٤٧١

وقد يوجد اخطاء اخرى لا تخفى على القارئ اللبيب

انتهى